موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الأول

دار الآفاق العربية

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الأول (مرآة مكة)

طبعة

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

دار الآفاق العربية

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت
(من شارع الطيران) - مدينة نصر
تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢
الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة
المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر
: ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢
e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

قـــام بترجمتـها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري **الدكتور عبد العزيز عوض**

راجعها على نصها العثمانى

أديب عبد المنان علي أوزلى

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـــرة الله

إهـــداء

إلى الصديق البحريني
الدكتور علي المدني ، أبو حمزة
تقديراً لوفائه المتميز
ولدوره العلمي والثقافي والإنساني
ولخدماته للعروبة والإسلام

قصة هذا العمل

فى أوائل الثمانينات من القرن الماضى ، حصلت من احدى المكتبات التجارية فى انقرة وهى مكتبة صالح الخان على نسخة كاملة من خمسة أجزاء من الأصل التركى العثمانى لكتاب أيوب صبرى باشا الذى عنوانه مرآة مكة المكرمة ومرآة المدينة المنورة ومرآة جزيرة العرب وكانت نسخة نادرة ، واشتريتها أملا فى ترجمتها إلى اللغة العربية . ثم كانت المشاغل العلمية وكثرة السفر فتأخر التفكير فى الترجمة .

ولما أراد الله ، تكون فريق عمل متخصص فى اللغة التركية وفى التاريخ لترجمة هذا الكتاب وفريق آخر لمراجعة الترجمة . والجدير بالتسجيل هنا أن جميع من أسهم فى هذا العمل . من مترجمين ومراجعين ومشرفين ، قنعوا بالرمز والقليل فى أداء دورهم وأنتهت علاقتنا المادية بترجمة هذا الكتاب ولكن كان من الضرورى نشر الكتاب ، فاستشرنا الأستاذة الدكتورة / ماجدة مخلوف فدلتنا على دار الآفاق العربية وصاحبها الأستاذ/ سليم عبد الحى سليم الذى وجدنا منه كل ترحيب بالنشر ، وشكرناه كثيراً وقدرنا له هذا . وقدر هو لنا أن لم تكن لنا شروطا مادية فى نشر الطبعة الورقية من هذا الكتاب . واهتم بالطباعة وكرس لها الشيخ محمود جيرة الله لهذا أهنى المكتبة العربية والمستفدين من ظهور هذا السفر العظيم

محمد حرب

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب من درر التراث العثمانى وهو تراث إسلامى مكتوب باللغة التركية العثمانية وهى لغة أسهمت إسهاماً واضحاً فى مسيرة التراث الإسلامى، ومعلوم أن التراث الإسلامى لا يقتصر على التراث المكتوب باللغة العربية فحسب، إنما تتنازعه الفارسية والتركية: الشرقية والغربية وغير ذلك من لغات المسلمين مثل هذه اللغات فى ذلك مثل اللغة العربية، بالإضافة إلى التراث الشفاهى لهذه الشعوب.

ومصنف هذا الكتاب هو أيوب صبرى باشا، وهو مؤرخ عثمانى توفى فى استانبول عام ١٨٩٠م ولما كان - يرحمه الله - قد تَنَقَّل فى السلك العسكرى حتى وصل إلى رتبة أميرلاى فى البحرية العثمانية وأقام فترة طويلة بالحرمين الشريفين مكة والمدينة أتاح له ذلك أن يثرى علمه ومشاهداته ورؤيته الشخصية ومعرفته الواسعة بالتاريخ الإسلامى، وبدا هذا واضحًا فى تصنيفه لكتابه هذا المشهور جداً والذى يتفوق كثيراً على ما كتب فى فنه فى كل اللغات.

وأهم مصنفات أيوب صبرى باشا هذا العالم المؤرخ الأديب:

١- محمود السير ١٨٧٠م

٢- تكملة المناسك ١٨٧٥م

٣- أسباب العناية فى ترجمة بداية النهاية ١٨٨٩م

٤- شرح قصيدة بانت سعاد ١٨٨٤م

٥- مرآة مكة ١٨٨٤ م

٦- مرآة المدينة ١٨٨٧م

٧- مرآة جزيرة العرب ١٨٨٩م

وتمثل هذه المرايا الثلاثة هذه الموسوعة التى بين يديك عزيزى القارئ ولما كان أيوب صبرى باشا ـ بهذا العمل الموسوعى الضخم ـ يمثل عهد السلطان عبد الحميد صاحب سياسة الجامعة الإسلامية والتقارب الإسلامى، لذلك وجد هذا الكتاب على ضخامته طريقه إلى المطبعة، وقد جاء هذا الكتاب موسوعة جامعة شاملة عن هذه البقعة الطيبة قلما توجد فى كتاب واحد وبهذه الصورة الرائعة التى صنف الباشا بها كتابه.

قسم أيوب صبرى باشا كتابه إلى ثلاثة مجلدات فى خمسة أجزاء:

الأول: مرآة مكة فى جزأين

الثانى: مرآة المدينة فى جزأين أيضاً

الثالث: جزيرة العرب فى جزء واحد

ويقع الكتاب فى ٣٠٠٠ صفحة تقريباً، من القطع الكبير.

إن هذا المصنَّف الذى يعد ـ بحق ـ موسوعة علمية وثقافية بما حواه من المعارف والفنون والتاريخ والقصص والشعر والإحصاءات قد استغرق تأليفه سبعة عشر عاماً فقد قام المؤلف بتنقيح مادة كتابه، وانتقاها جيداً إذ إنه بجانب اعتماده على المصادر والمراجع كان يسأل الأحياء من الناس من كبار السن يستوثق لمادة كتابه.

يقول المصنف: «تم تأليف المجلد الأول (مكة المكرمة) من أثر مرآة الحرمين الذى شغلت بتأليفه منذ سنة ١٢٨٩. وتم تأليف كل الكتاب وطبعه فى أوائل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثمائة وألف من هجرة النبى الأعظم».

هل كانت كلمة المرآة مقصودة من المؤلف؟

وماذا أراد المؤلف باستخدام كلمة المرآة ودلالتها؟

كذلك يقول أيوب صبرى باشا: «ومن البديهى أن الذين يسمعون لفظ المرآة سيلقون نظرة على سطور صفحاتها ثم يظنون أنهم سيرون فيها صور أنفسهم، يدل لفظ المرآة على الآلة التى تعكس الصورة ولكنهم إذا ما تذكروا أن من وظائف المرآة ومهماتها تقريب البعيد سيقنعون بأن مرآة الحرمين تاريخ كثير المنافع جامع لأحوال البلاد الحجازية العامة».

والغريب أن الترتيب الداخلى لفهرست كل جزء من الأجزاء الثلاثة: (مرآة مكة ـ مرآة المدينة ـ مرآة جزيرة العرب) مكون من ثلاثة أقسام كل قسم منها مقسم تقسيماً داخلياً إلى ما يسميه المصنف: الوجهة والصورة بحيث تحتوى كل وجهة على عدد معين من الصور.

ودلالة كلمة المرآة ليست ببعيدة عن دلالة كلمة الوجهة وكلمة الصورة.

أسباب تصنيف الموسوعة:

أولا:-

رأى أيوب صبرى باشا أن علماء كثيرين ألفوا فى تاريخ هذه البلاد لكن لم يتوفر لهذه المؤلفات أو لبعضها صفة الجمع أو الشمول لتتحدث عن هذه البلاد الثلاثة مجتمعة معاً، فمن ألف قبله فى تاريخ مكة أو تاريخ المدينة أو تاريخ كليهما أو تاريخ جزيرة العرب على حده، لم يتوفر لأعمالهم صفة الإحاطة بكافة جوانب الموضوع الذي تكتب عنه وكذلك ينقصها الدقة العلمية.

ثانيا:-

ما لهذه البلاد من مكانة وقدسية فى قلوب كل المسلمين على السواء سواء أكانوا عرباً أم غير عرب خدمة لأبناء هذا الدين يقول المصنف: «وأردت أن أخدم الذين ينتمون إلى ديننا».

إذَنْ فالهدف الأساسى من تأليف الكتاب هو نفع الإسلام وبمعنى أصح نفع المسلمين فى شتى بقاع الأرض عن طريق تعريفهم بأقدس بقعة على وجه الأرض فهى كانت قبلتهم ووجهة حجهم وموطن أشرف خلق الله.

الكتاب المصنَّف:

ينقسم هذا السفر الضخم فى أصله العثمانى إلى ثلاثة أجزاء كبار هى مرآة مكة ويشغل الصفحات من ١ - ١١٤٥، ومرآة المدينة وهى من صفحة ١١٤٦ - ٢٥٠٢، ومرآة جزيرة العرب من صفحة ٢٥٠٣ - ٢٩٠٦.

فى الجزء الأول من هذه الموسوعة ـ وهو مرآة مكة ـ تحدث أيوب صبرى باشا عن كل شئ يمت بصلة إلى مكة سواء من بعيد أو قريب، فهو يحدثنا عن تاريخها منذ بدء الخليقة إلى زمن تأليف الكتاب (عهد السلطان عبد الحميد الثانى)، وعن ساكنيها وعاداتهم، وموقعها الجغرافى وحدودها، ووصف منازلها ودورها وطرقها، وما سيأتى فى الحديث عن مرآة مكة وهو حديث مستقل.

وفى الجزء الثانى من هذه الموسوعة ـ وهو مرآة المدينة ويماثل فى الحجم الجزء الأول ـ يتحدث فيه عن مراجعه ومعلوماته الشخصية وما حصل عليه من الأخبار من تحقيقاته الذاتية. ومع هذا فهو أول كتاب يتضمن الأحوال العامة والخاصة للمدينة المنورة باللغة العثمانية ومن هنا حاز شرف السبق والأولية ويصح أن نصف هذا الجزء بأنه دائرة معارف كبيرة عن المدينة المنورة.

أما الجزء الثالث من هذا الكتاب فهو يعد أصغر جزء فى الموسوعة إذا ما قورن بالجزأين السابقين مرآة مكة ومرآة المدينة فهو يبلغ حوالى ٤٠٠ صفحة بينما يربو كل جزء من السابقين على ١٢٥٠ صفحة.

وفى مرآة جزيرة العرب الحديث المستفيض عنها من حيث الموقع الجغرافى والحدود الطبيعية وتاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور وذكر الملوك والحكام الذين

تولوا زمامها وكذلك قبائلها ورسومهم وعاداتهم وأحوال ساكنيها وكيف تقلبت بهم الأحداث.

ويبين المصنف فى بداية هذا الجزء أنه جعله ذيلاً لكل من مرآة مكة ومرآة المدينة ومن ثم وجب إلحاقه بهما واعتباره جزءاً ثالثاً للكتاب، إذ إن معرفة أحوال جزيرة العرب وتاريخها من الأهمية بمكان لمن يريد أن يتعرف على صورة الحرمين حتى تكتمل الصورة فى ذهننا فيقول: «ولكنه من المحال أن نحيط الإنسان علماً بأحوال الخريطة الحجازية الواسعة وحقائقها التاريخية بمطالعة بعض التوضيحات التى قدمت عن الأماكن المقدسة والمآثر الفخمة للحرمين الشريفين مطالعة سطحية قبل أن يعرف الأحوال التاريخية والتقسيمات الجغرافية لجزيرة العرب، ولذلك كتبتُ هذا التاريخ المختصر وضمنته أحوال قطعة جزيرة العرب وألحقته بالمرآة.

وهذا الجزء يعتبر الخلاصة لمن أراد أن يتعرف على أحوال جزيرة العرب ورغم قلة حجمه عن الجزأين السابقين إلا أنه كتب على ستة أجزاء. ولا تخلو هذه الموسوعة من نزعة أدب الرحلات وخاصة فى الأجزاء التى يذكر فيها الأماكن المقدسة ومواقعه الحربية ووصف الحرمين الشريفين وينبغى العلم أن المصنف زار هذه الأماكن المباركة وهو يصف ذلك لنا من خلال زياراته ولهذا اتضحت لنا صورة البلاد وخريطتها وأحوالها.

يتمتع أيوب صبرى باشا بقوة وكثرة مراجعه، ودقة رؤيته، وصواب تحليلاته، كما يتسم بالتواضع الجم فهو يصر على وضع نفسه موضع تساؤل من جهة القارئ وموضع التقصير أيضاً فهو كثيراً ما يصف نفسه بالتقصير والعجز.

كما تتصف هذه الموسوعة بالروح العلمية التى تعتمد التوثيق أساساً لها. ويظهر هذا حرصه كل الحرص على الأمانة العلمية التى تمثلت فى أمور منها:

١- حرصه أن يذكر لنا مصادره ينص على ذلك فى مقدمة مصنفه وفى ثناياه.

٢- حرصه على زيارة الأماكن التى يتحدث عنها غير مكتف بما جمعه من مادة علمية عنها.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذا المصنَّف كتب بلغة واضحة فى أسلوب سهل وبعيد عن التعقيد اللغوى، وبذلك فقد ناسب هذا الأسلوب مستويات الكثير من القراء.

كذلك يعد من مميزات هذا المصنف احتوائه على قدر من الطرافة والجدة فى آن واحد. فهو مع ضخامة مادته العلمية يدفع عن القارئ الملل بكل الطرق بذكر موضوع آخر أو حكاية غريبة أو حادثة نادرة وأحيانا تطالع القارئ أبيات من الشعر.

١- مرآة مكة: هو المجلد الأول من هذه الموسوعة وقد تحدث المؤلف فيه عن كل شيء عرفه يمت بصلة لمكة سواء من بعيد أو من قريب، فهو يحدثنا عن تاريخها منذ بدء الخليقة إلى زمن تأليف مؤلفه هذا، وعن ساكنيها وعاداتهم، وموقعها الجغرافى وحدودها، ثم يصف لنا مكة ومنازلها ودورها وطرقها.

بعد ذلك يحدثنا المؤلف عن أسماء مكة الكثيرة وألقابها وسبب كل لقب من هذه الألقاب، ثم يعرج على أحوال بناء الكعبة المشرفة فى مرآتها ويعرض لنا ـ بشئ من التفصيل ـ ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ ثم يقص قصة تجديد بيت الله الحرام ـ فى مرآتها ـ التى وصلت إلى إحدى عشرة مرة.

ويواصل المؤلف حديثه بعرضه الجهود التى بذلت فى توسعة بيت الله الحرام منذ القدم حتى زمنه، وكذا الجهود التى بذلت فى تعميره وإنارته وتزيينه ليظهر فى أكمل صورة تليق ببيت الله الحرام.

ويتحدث بعد ذلك عن كسوة الكعبة المشرفة، وعمن أهدوا الكسوة إليها، ونوع القماش الذى كانت تصنع منه، وكيف تعلق الستائر على الكعبة، ووصف البيت الحرام وأجزائه الشريفة، والأبواب، وأسماء كل منها والأعمدة وعددها والقباب وعددها ووضعها، والمآذن وأسماء كل منها، ثم يتحدث بعد ذلك عن فضائل مكة ومساجدها، وجبالها ودروبها.

وينقسم هذا المجلد من الكتاب إلى سبعة أبواب وواحد وأربعين فصلا :

تحدث المؤلف فى الفصل الأول عن موقع مكة الجغرافى والإستراتيجى، فى داخل إقليم الحجاز وهى مركز إدارته وحكمه، ويحدها من الشمال المدينة المنورة وصحارى الشام، ومن الجنوب جبال نجد واليمن ومن الشرق البحرين، ومن الغرب البحر الأحمر.

وتنقسم نواحى مكة إلى منطقتين كبيرتين هما : نجد وتهامة.

ففى نجد تقع الطائف، وتمتاز، وقرن، ونجران، والظهران، وعكاظ، ومنحره، ونعم، وجرعش، وسراة.

أما النواحى التابعة لتهامة فهى : نعم، وزعلك، وخنكان، ويشى، ووادى نخلة، ،وذات عرق، ويليل.

أما من الناحية البشرية فإن أهل مكة يتمتعون بروح تجارية عالية نظراً لموقعها الخاص، وكذلك يبين لنا القرآن فى حديثه عن قريش أنها تقع فى ملتقى مناطق ودول كثيرة أضف إلى ذلك الموقع الإستراتيجى بحكم قدسيتها وحج جميع العرب إليها.

ومن الفقرات الهامة فى هذا الفصل التى تحدث عنها المؤلف أديان العرب فى الجاهلية، ففيها يتحدث عن أديان العرب وعباداتهم قبل الإسلام والتى كانت تتمثل فى اليهودية والمسيحية، والمجوسية، وكذلك الأصنام التى كانت تعبدها بعض القبائل فذكر أن بنى حنيفة من قريش اتخذت إلها من طعام اسمه «حيس» وظلوا يعبدونه مذة طويلة، وعندما حدثت المجاعة والقحط قاموا بتقسيمه ثم أكله، وفى ذلك يقول شاعرهم :

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن إعْوَازِ

ومن النقاط الطريفة فى هذا الفصل والتى تعد من أهم ما ذكر المؤلف فيه حديثه عن مكة، وأسمائها، وألقابها، وسبب تلقيبها وتسميتها بهذه الأسماء

معددا ما يقرب من ١٢٩ اسما وخمسة ألقاب معللاً فى كل ذلك سبب التسمية، واللقب، وكذلك يرجع بالتسمية إلى أصلها اللغوى يستعين به فى التفسير والتعليل.

عن أسماء مكة يقول المؤلف: «عدد الأسماء ذات الدلالة الباهرة التى أطلقت على مدينة مكة المعظمة فى الكتب المقدسة كثيرة وهى: «مكة، بكة، بلد، قرية، أم القرى، بلدة، البلد الأمين، صلاح، باس، البساسة، ناسة، الساسة، حاطمة، رأس، كوثى، عرش، عريش، عرش، قادس، القادسية، سبوحة، حرام، البلد الحرام، المسجد الحرام، معطشة، برة، رتاج، رحم، أم رحم، أم الرحمة، كوثى، أمينة، أم الصفا، مروية، أم المشاعر، متخفية، البلدة المرزوقة، تهامة الحجاز، طيبة، مدينة الرب، عاقر، فاران»، وعددها خمسة وأربعون اسما جليلا. ولها ثمانية ألقاب جليلة مثل «المشرفة، المكرمة، المفخمة، المهابة، الوالدة، النادرة، الجامعة، المباركة».

سبب إطلاق هذه الأسماء على مكة:

ورد فى أقوال علماء اللغة أن اسم مكة المكرمة يطلق على هذه المدينة المقدسة فقط أو مجموع الحرم الشريف، أى المناطق الواقعة داخل المواقيت المحدودة، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب متعددة: على قول أنه مأخوذ من معنى «النفض» وكأنها تنفض جميع الآثام، وعلى رأى آخر أنها تنفض الظلم وتهلك أهل الجور، وعلى رأى ثالث أن الأرض المقدسة قليلة المياه، وسكانها كأنهم يمتصون المياه من أراضيها بأفواههم..

أو أنه مأخوذ من لفظة «مكاكة» التى تعنى النخاع والمخ فى وسط العظام، وكأن مكة كعبة الله فى وسط الدنيا وخلاصتها، وعلى قول، أن الأرض المباركة بيت الله تمتص ذنوب العصاة وأوزارهم وتخرجها ثم تمحوها، وكأنها تمتص النخاع من العظام، وكانت هذه البقعة مشهورة بقداستها حتى قبل الإسلام وإبان مجئ الإمبراطورية الرومانية وكانت تذكر باسم «مقربة» وتعرف به.

بكة: وهناك اختلاف حول هذا الاسم وعند البعض أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد ومترادفان، وبما أن حرفي الباء والميم متقاربان من ناحية النطق والمخرج الصوتي كان كل واحد منهما يحل مكان الآخر، ويدعون أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد؛ مع أن «بكة» في نظر البعض هو اسم المدينة المقدسة «مكة المكرمة»، وعند البعض الآخر أنه اسم البقعة الجليلة الكعبة المشرفة فقط.

والقول الصحيح أن مكة هو اسم الأماكن المباركة داخل حدود الحرم خارج المسجد الحرام، وبكة هو اسم البقعة التي عليها بيت الله وحرم المسجد الحرام المبارك.

وحسب قول ابن عباس أن سبب إطلاق اسم مكة أنها كانت تذل الملاعين والجبابرة الذين يعادونها.

أم القرى: وسميت بهذا الاسم لكونها أقدم بقعة على وجه البسيطة وقول الشاعر يؤكد أن أقدم الأراضي هي هذه البقعة المباركة. وإن كان هذا دليلاً لا يتسرب إليه الشك وسندا كافيا لتصديق تسميتها «بأم القرى»، إلا أن كون مكة المكرمة قبلة الجميع وامتيازها على بلاد الأرض كلها بالفخامة والعظمة ولاحتوائها على الكعبة الشريفة وخلو الأرض من تراب بقعة الله المباركة يجعلها جديرة بإطلاق هذا الاسم عليها وتبعا لهذا التوضيح لابد وأن يكون (أم القرى) هو اسم الأرض المقدسة التي تقع ضمن مواقيتها.

قال عبد الله بن عباس، وهو أعلم الناس (أطلق اسم أم القرى على مكة لأنها أعظم بلاد الأرض شأنا وكرامة ولأن الأرض قد بسطت من التراب الذي تحتها).

أما ابن عادل فقد وضح الموضوع في تفسيره قائلا: إن موضع الكعبة المعظمة كان غثاء قبل أن يخلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض والسماوات وعندما بدأ خلق مكوناتها خلق الأرض وبسطها من تحت الكعبة قبل أن يخلق السماء، وهذا هو سبب تسميتها «بأم القرى» لأنها هي الأصل.

والفصل الثانى يصف لنا منازل مكة وبيوتها وطرز أبنيتها، وكذلك فرش البيوت ومتاعها فيصف لنا المبانى بعضها مبنىٌ من الحجارة والطوب، وبعضها أكواخ مصنوعة من الأعشاب والحصر يطلق على الواحد منها عشة.

ثم يتحدث عن طبيعة الجو والمناخ في مكة وحرارته المرتفعة التى من جرائها يذهب السكان إلى حديقة «المعلا» ويذكر لنا كذلكْ الخضر والفواكه التى تخرجها أرض مكة المعظمة ويبين أى هذه الفواكه ضار بسكان البلاد الباردة الذين يزورون البلاد الحارة وينبه إلى ما لا يجب تناوله فى الأراضى الحجازية ومنها:

الخوخ: وهو صعب الهضم.

المشمش: فهو يصيب من يتناوله بإفراط بالإسهال.

التين: ينبت فى الطائف وهو لذيذ الطعم لكن الإفراط فى تناوله يسبب الفتور.

السفرجل: وهو لذيذ الطعم، طيب الرائحة، إلا أن أكله قبل نضجه ضار.

الكمثرى: والإفراط فى أكلها يصيب المعدة بالضعف.

التفاح: مذاقه مزز من ـ ذو مزازة ـ وإذا طهى بالسكر وأكل منه الإنسان قدرا معتدلا فإنه يساعد على الهضم.

البرقوق: وهو يوجد بالطائف واسمه «برقوق مردم»، وأكله غير مرغوب لأنه يسبب الإسهال.

العنب: يرى الأطباء أن الطازج منه يبرد الدم ورغم أن ضرره أقل من الفواكه الأخرى فإن الإفراط فى أكله يسبب إسهالا مؤلماً.

اللوز: وهو بطئ الهضم، لكن له منقوع يمنع الحرارة ويسكن الألم.

التوت: لا يوجد بها إلا التوت الأسود وهو سريع التلف.

العناب: يجلب من الشام، وهو مفيد لمرض الصدر.

البطيخ: وأكل البطيخ فى الأيام الحارة يرطب الجسم ويسكن فورة الدم.

الشمام: أكله يسبب أحيانا تعبا فى القلب، لذا ينصح بعدم أكله طالما كان غير ناضج.

البرتقال: ثمر طيب يجلب من مصر، وشرب عصيره لا مثيل له فى خفض الحرارة، وإزالة جفاف الحلق، وتنقية الدم.

الرمان: فائدته كبيرة إذا ما شرب معصورا، فشرب الحامض منه يرطب الدم ويسكن السخونة، ومع هذا فإن أكل الحلو منه ببذور يفسد المعدة.

الموز: ويشبه فى الطول والعرض الخيار الروسى الطازج والذى يسمى الخيار البرى أفضله ما يزرع فى الأراضى اليمنية. والموز الذى يزرع فى منطقة الحجاز ويستساغ أكله بعد نزع قشرة الناضج منه مع السكر، والإفراط فى أكله مضر لصعوبة هضمه.

ويتعرض المؤلف فى الفصل الثالث لسبب تسمية البيت المعظم باسم الكعبة حيث بين أنه فى الزمن الماضى كان يمنع أن ترتفع الأبنية أعلى من البيت المعظم فيما يبنى حوله من أبنية، واستمر هذا الاعتقاد حتى دخول الإسلام الجزيرة العربية، ولذا فلم تظهر فى مكة لعدة قرون أبنية تعلو البيت المعظم لذا أطلق اسم الكعبة على البيت المعظم.

وفضائل الكعبة المكرمة أكثر من أن تحصى فهى بيت الله، وقبلة كل المسلمين فى شتى بقاع الأرض وكذا هى مربط حبهم، وهى أفضل كل بلاد الدنيا ويقارن المؤلف بين منزلة مكة ومنزلة المدينة المنورة فيقرر بناءاً على الحديث الشريف أن مكة أجل منزلة حيث قال ﷺ إن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وكذا هى أعلى مكانة لأن ماء الحياة الطاهر تفجر من هذا النبع، وأن نور الإسلام الذى أشرق على هذا الكون من ذلك البرج الرفيع.

كما أن الكعبة المباركة هي مهبط الوحي الجليل ومجمع الأنبياء، وفيها قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (سورة آل عمران: الآية٩٦) ومن الطريف جدا فى هذا الفصل حديث المؤلف عن البيئة القاسية الصحراوية لمكة المكرمة ووقوعها فى مكان غير ذى زرع، فالمؤلف يذكر كذلك خمس حكم هى:

الحكمة الأولى: أن مجاورى البيت الحرام يقطعون الأمل من التعلق بغير الله وذلك بإظهار التوكل التام عليه سبحانه وتعالى تقدست ذاته.

الحكمة الثانية: عدم طمع أحدٍ من الأكاسرة ملوك الدنيا والحكام الجبابرة، فى الإقامة حول بيت الله، والواقع أن أحدًا من جبابرة الزمان والأكاسرة ملوك الدنيا لم يتمكنوا من السكنى بجوار كعبة الله.

ولا يمكن لهؤلاء الجبابرة أن يجدوا المتعة واللذة الدنيوية التى يسعون إليها فى واد غير ذى زرع. وهكذا طهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة الشريفة ونزهها من لوث بنى البشر الذين يعبدون الدنيا.

الحكمة الثالثة: حتى لا تتحول الكعبة إلى متجر لأنها خلقت للحج والزيارة فقط.

الحكمة الرابعة: لتقديس مكانة الفقر وشرفه.

الحكمة الخامسة: من أجل إبراز أن كعبة المعرفة لا تحل إلا فى قلب خال من حب الدنيا وزخرفها.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الخامس عن الإقامة فى مكة المكرمة وحكم ذلك لأن كثرة الإقامة في مكة يفقدها الحرمة الموكلة إليها ويورد في ذلك آراء وأقوال فقهاء الإسلام فيقول: «ولما كان أخذ إيجار المنازل من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ليس حلالا لذا كان الأوائل يأخذون ثمن الإيجار في السر والخفاء حتى أن

عمر بن الخطاب أمر أن تترك أبواب بيوت مكة مفتوحة فى موسم الحج حتى يسكن الحجاج فى المنازل الخالية، كما كانت لعمر بن عبد العزيز أوامر مشددة إلى أمراء الإمارة الجليلة مكة المكرمة بألا تؤجر بيوت مكة إلى الحجاج.

وقد أجاز الإمام محمد و الإمام أبو يوسف أن تباع بيوت مكة مع الكراهة، إلا أن الإمام الأعظم قال إنه مكروه في كل الأحوال».

ويتحدث الباب الثانى - والذى تضمن ثلاثة عشر فصلاً - عن بناء الكعبة وتجديدها فيتحدث الفصل الأول عن أوليات بناء الكعبة الشريفة منذ الأزل فيذكر أن بعض الأقوال ترجح أن بداية بناء الكعبة كان من الملائكة المشرفين. وفى الفصل الثانى يتحدث عن بناء الكعبة لأول مرة حتى خاطب الله الملائكة بأنه سوف يجعل فى الأرض خليفة فبينوا المعارضة ثم ما لبثوا أن تابوا وتضرعوا إلى الله أن يغفر لهم ولاذوا بالعرش العظيم فأمرهم الله أن يطوفوا بالبيت المعمور وأن يقام بيت مقدس على وجه الأرض لذا أرسل سبحانه وتعالى عددا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر وخاطب الملائكة بقوله «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما، وعندما يطاف بالبيت المعمور في السماء، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض».

وفى الفصل الثالث يتعرض المؤلف لذكر وقائع بناء الكعبة للمرة الثانية والذى قام بهذا العمل هو أبو البشر سيدنا آدم (عليه السلام)؛ ذلك أن سيدنا آدم لم يستطع سماع صوت تسبيح الملائكة وتهليلهم بعد هبوطه بمدة، فاغتم لذلك بذلك فعرف ما فى ضميره حضرة علام السر والخفايا وجأر بالشكوى قائلا: «يا إلهى لا أسمع صوت تسبيح وتهليل الملائكة الكرام».

وبناء على هذه الشكوى صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل: «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا، وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق الأرض، واستخدم في هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال لبنان وطور سيناء، وطور زيتا، والجودى، وحراء، ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة.

أما تجديد البيت للمرة الثالثة فكان من نصيب أبناء سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم - عليهما السلام - وأولاده وأحفاده، ذلك أنه بعد غرق الأرض فى الطوفان العظيم زالت آثار البيت الحرام ولكن بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف وقام أحفاد شيث - عليه السلام - بتعميره وتجديده من حين لآخر.

وفى الفصل الخامس يستعرض المؤلف بالتفصيل ترجمة سيدنا إبراهيم الخليل - عليه السلام - من بداية مولده ونشأته ثم مرورا بنبوته، ثم ما حدث له فى الحريق العظيم وكيف أنجاه العظيم - جل شأنه - من هذا الخطر العظيم، وكذلك يحدثنا عن قصة سيدنا إسماعيل وواقعة فدائه بكبش عظيم من قبل الحق سبحانه، بين لنا فيها كيف كان خلق الأنبياء تجاه ربهم وهى الطاعة الأصيلة، الطاعة الواثقة فى قدرة الله ورحمته وكيف أطاع إسماعيل أمر ربه وأمر أبيه بتكليفه بذبحه وكيف صبر الإثنان على هذا الأمر واحتملاه.

ومن الطريف بمكان فى هذا الفصل حديث المؤلف عن بئر زمزم وأسمائها وسبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، فقد أحصى العلماء لبئر زمزم ثلاثين اسما وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها وهنا أمثلة على ذلك:

١- **زمزم**: سبب التسمية قوة ماء البئر وتدفقها فزمزم اسم للبئر، وليس للماء الشريف.

٢- **همزة**: ومعناها الضرب إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحه على قول آخر فانفجر ذلك الماء.

٣- **شباعة عيال**: لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم حتى يرتووا .

٤- **مضنونة**: وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.

٥- **بشرى**: لأن الله - سبحانه وتعالى - بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.

٦- **ميمونة:** وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة، كما أنها اتباع للسنة الكريمة للمصطفى ﷺ.

٧- **مؤنسة:** لأنها تؤنس سكان حرم كعبة الله.

ومن الأشياء الهامة التى تعرض لها المؤلف فى هذا الفصل اختلاف العلماء فى مسألة الذبح، فعندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح ولده فلذة كبده، كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال في الثالثة عشرة من عمره، واختلفت الأقوال على حد قوله بينه وبين أخيه إسحاق هل الذبيح هو إسماعيل أم إسحاق وبعد أن يقارن بين أقوال الشيوخ والعلماء يقر فى النهاية الرأى الراجح وهو أن الذبيح كان سيدنا إسماعيل.

ويتحدث المصنف فى الباب الثالث عن عدد المرات التى تم فيها توسعة المسجد الحرام وكان أول توسعة للمسجد الحرام فى عهد الخليفة عمر الفاروق رضى الله عنه فقد كثر عدد المسلمين فاشترى عمر ـ رضى الله عنه ـ الأكواخ والدويرات التى حول المسجد والملاصقة له وضمها إلى المسجد الحرام لكن هذا التوسيع لم يف بالغرض مما أدى إلى ضم بعض المنازل الأخرى إلى الحرم الشريف، وفى هذه الحالة اعترض أصحاب المنازل وذهبوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفاوضوه فى هذا الأمر، فقال لهم: «لم يبن بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم حوله وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله الحرام.

والتوسعة الثانية للمسجد الحرام كانت فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بعد سيل «أم نهشل»، وأراد سيدنا عثمان توسعة ساحة المسجد الحرام بشراء كثير من المنازل التى تحيط بالمسجد الحرام.

وحدثت التوسعة للمرة الثالثة فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور حين أراد أن يجد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى، ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح فاشترى المنازل القريبة

من الجدار الشرقى وهدمها وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا مثيل لها.

وفى الفصل الرابع يحدثنا أيوب صبرى باشا عن التوسعة الرابعة والتى تمت على يد محمد المهدى العباسى ذلك حين رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسع حين كان مسافرا للحج وزيارة الروضة الشريفة.

ويحدثنا المصنف فى الباب الرابع من الكتاب عن الكعبة المشرفة، وتزيينها وكسوتها، وستائرها فاستعرض فى هذا الباب عمليات تزيين الكعبة على مدى العصور، وكذلك نوع القماش الذى كانت تصنع منه الستائر، وكسوة الكعبة وشرف من نالوا هذه الكرامة بأن أهدوا هذه الكسوة إلى الكعبة الشريفة وبيت الله الحرام.

أما وصف المسجد وحاله التى كان عليها فى العهد القديم فهذا ما يعرضه المؤلف فى الباب الخامس فيوضح أن البيت الحرام حين وضع قواعده سيدنا إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ لم يكن حوله بيوت ولا منازل ولا محال.

ثم يتحدث فى الفصل الثانى عن أعمدة المسجد الحرام وعددها فيبين أنه كان للمسجد الحرام قبل تجديده ٤٩٦ عمود بإخراج أعمدة دار الندوة، سبعة وعشرون منها فى أبواب المسجد، ٤٦٩ تسعة وستون وأربعمائة، ثمانية وثمانون عمودا من تلك الأعمدة فى الجهة الشرقية، و خمس وأربعون ومائة منها فى الجهة الشمالية، وسبعة وثمانون منها فى الجهة الغربية و سبعة وثمانون من أعمدة الجهة الشرقية كانت من قطعة واحدة من الرخام وعمود كان من الطوب اللبن المحروق.

وفى الفصل الثالث يستعرض المؤلف عدد شرفات المسجد الحرام وصفتها فالشرفات جمع شرفة وهى نوع من أنواع الزينة فى المبنى وتطلق على الأماكن البارزة والعالية فوق جدران القلاع.

وكان للمسجد الحرام قبل التجديد عدد أربعمائة من الشرفات الكاملة وسبع

من الشرفات النصفية الداخلية، اثنتان وخمسون من الشرفات الخارجية الكاملة وشرفة واحدة خارجية غير تامة.

ثم يذكر لنا أبواب المسجد الحرام وأسمائها فى الفصل الرابع والأخير وقد كان للمسجد مقدما تسعة عشر بابا عاليا مبنيةً على عقدين، وكان باب أقيم على كمرتين يشبه جسراً له فتحتان، لا تزال بعض هذه الأبواب محتفظة بأشكالها القديمة وهى معروفة للناس.

ويحدثنا المؤلف فى الباب السادس عن قباب المسجد الحرام ومآذنه، فللمسجد الحرام خمسائة قبة لطيفة، يطلق أهل مكة على (خمسين ومائة) منها «قبة»، وعلى (ثمانين ومائتين) منها «طواحن» وعلى (اثنتين وستين) منها «مصليات» ويذكر لنا كذلك أبواب المسجد الحرام.

فالمسجد الحرام به تسعة عشر بابا عظيما ويفتح أربعة من هذه الأبواب إلى الجهة الشرقية وسبعة منها إلى الجنوب، وثلاثة منها إلى الغرب، وخمسة منها إلى الجهة الشمالية **فالأبواب الشرقية:**

باب السلام ـ باب النبى ﷺ ـ باب العباس رضى الله عنه ـ باب على كرم الله وجهه.

ولكل باب من هذه الأبواب تسع درجات خارجية، وخمس درجات داخلية

أما الأبواب الجنوبية فهى:

باب بازان ـ باب البغلة ـ باب الصفا ـ باب الجياد ـ باب المجاهد ـ باب مدرسة خجلان ـ باب أم هانئ رضى الله عنها.

والأبواب الغربية:

باب خدورة ـ باب إبراهيم ـ باب العمرة.

والأبواب الشمالية:

باب السدة ـ باب العجلة ـ باب القطب ـ باب دار الندوة الزائد ـ باب الدريبة.

وفى الفصل الخامس يعرض لنا المؤلف فى مرآة مكة مآذن المسجد وعددها فللمسجد الحرام في زماننا سبعة مآذن وتسمى:

مئذنة باب العمرة، مئذنة باب السلام، مئذنة باب على ، مئذنة باب الوداع، مئذنة باب الزيارة، مئذنة قايتباى، مئذنة السليمانية.

٢- مرآة المدينة

هو المجلد الثانى من هذه الموسوعة، وهو يماثل فى الحجم أصله العثمانى.

ويقول المؤلف فى مقدمة هذا الجزء حاكيا عن ظروف تأليفه: «وإننى أقبلت على هذا العمل مدركا بعض قدرتى وقلة حيلتى ومستمدا من كتاب الإمام السمهودى «خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى» هذا الكتاب الذى انتشر فى أرجاء العالم الأربعة حاويا الأفكار البديعة والأخبار الشيقة، مستمدا منه رأس المال اللازم لكتابى مضيفا إليه معلوماتى الشخصية وما حصلت عليه من الأخبار من تحقيقاتى الذاتية، وبهذا ألبست تلك المحبوبة الجميلة ما قمت بتفصيله من الزى العثمانى، وبما أنه سيعكس أنوار عيون أصحاب الدين سميته: مرآة المدينة».

هكذا يوضح لنا المؤلف الظروف التى أدت به إلى تصنيف المجلد الثانى من الكتاب، وكيف استفاد من كتاب الإمام السمهودى مضيفا إليه خبراته الشخصية.

وواضح أن هذا الجزء صنف للإحاطة بأخبار المدينة المنورة وأحوالها على غرار سابقه «مرآة مكة» فهو يقول: «وإن هذا الكتاب الذى لا يخلو من الأخطاء نتيجة لقلة بضاعتى يبدو عديم القيمة والأهمية، ومع هذا فهو أول كتاب يتضمن الأحوال العامة والخاصة بالمدينة المنورة باللغة التركية ومن هنا حاز شرف الأولية».

ويعد هذا الجزء كسابقه فهو دائرة معارف كبيرة عن المدينة المنورة كل شيء فيها، وكل شيء يمت لها بصلة فهو يحوى الأحوال الجغرافية للمدينة المنورة، وحدودها، وتاريخها منذ القدم إلى ظهور الإسلام، وهجرة الرسول ﷺ إليها إلى زمن السلطان عبد الحميد الثانى، ويحدثنا عن فضائلها، وطبيعة المناخ

فيها والحرارة، وسكانها وعاداتهم وتاريخهم وما تعرضوا له من أحوال وما عرض لهم من حوادث، وعن أهم المحاصيل فى المدينة، وعن سورها الذى يحيط بها وطوله البالغ ١٤٠٠ ذراعا، ثم يعرض لتقسيمات المدينة إلى ثلاثة أقسام هى: المحال، وخارج السوق، وداخل السوق.

ثم يتحدث عن عادات ساكنيها وكيف يستقبلون شهر رمضان الكريم بالبشر وكثرة العبادة، ثم يتحدث عن موكب الشموع فى مسجد السعادة الكريم، ووصف الحجرة الشريفة ثم يتحدث عن المسجد وموقعه، ومساحته، وحوائطه وأبوابه الخمسة وهى: باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، وباب النساء وكذلك نوافذه، ومآذنه، ومحاريبه ثم يحدثنا عن صلاة الجمعة فى المسجد الشريف، وفضائله وشد الرحال إليه.

ويحدثنا عن أسماء المدينة المنورة، وسبب إطلاق هذه التسميات كما فعل سالفاً مع مكة المكرمة، وفضلها على سائر الممالك، ويذكر القبائل التى كانت فيها، وعن أيام العرب المشهورة.

ويحدثنا كذلك بالتفصيل عن حادث الهجرة وسنتها وتفصيلاتها، وبيعة السابقين من الأنصار، وكذلك يحدثنا عن الحجرة النبوية وحجرة السيدة الشريفة فاطمة (رضى الله عنها) وتوسعة المسجد لمرات عديدة، وكذلك يحدثنا عن الأسواق العربية وأيام قيامها.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الأول من فصول «مرآة المدينة» عن الأحوال الجغرافية للمدينة المباركة فيذكر أنها من البلاد المعمورة وأنه ليس كمثلها فى البلاد من حيث الخصب والمياه الجارية.

أما من حيث موقعها فهى تقع فوق واد مسطح مرتفع بين درجة ٢٠، ٢٥ دقيقة فى الشمال عرضا، وبين درجة ٣٧، و٣ دقائق فى الشرق طولا، ويحدها من الشمال «جبل أحد» ومن الشرق جبل «الطبرى».

ويبلغ عدد سكان ضواحيها ثلاثون ألف نسمة لم يبق فيهم من الذرية المباركة إلا عدد قليل.

وهى محاطة بسور على شكل قطع ناقص جميل من جهاتها الأربع، طول هذا السور أربعة عشر ألف ذراع، وارتفاعه عشرون ذراعا، وسمكه عشرة أذرع، وتنقسم المدينة المنورة إلى ثلاثة أقسام: المحال، وداخل السوق، وخارج السوق.

وفى داخل السور وخارجه ما يقرب من عشرة الآف منزل، وكلها مبنية من الطوب وسكانها مشهورون بكرم ضيافتهم، وجميع المنازل منتظمة ومبنية على طرز مرتفعة، ولها منافذ ضيقة تشبه منافذ بلاد الروم.

وفى الفصل الثانى يتحدث المؤلف عن مناخ المدينة المنورة وحرارة جوها، فمن المعروف أن جو المدينة المنورة مائل إلى البرودة فى الشتاء وحار فى الصيف تقرب حرارتها من حرارة أرض مكة فبرودتها تعود لوقوعها في وسط واد فسيح لطيف تحيط به الجبال المتسلسلة، ويعد الشهران «يونيو ويوليو» من أشد المواسم حرارة ويتوالى اشتداد حرارتها إلى شهر أغسطس حيث تبدأ الحرارة بعد ذلك فى الأنخافض.

ثم يتحدث بعد ذلك عن أنواع الخضراوات التى تنمو فى المدينة المنورة وهى خضروات متنوعة فيها كل أنواع الخضراوات المعروفة عدا «الكرنب، القرنبيط والكراث والخرشوف» ولا سيما « البطيخ والخوخ والتين والليمون والعجور، العنب، التفاح، الرمان، الموز، والبلح» وجميع أنواع الفواكه المتنوعة بأجناسها المختلفة ما عدا «الفراولة والكريز» وهى موجودة فى كل وقت وكل موسم بكثرة، والتمر الذى يطلق عليه «البلدى» لا مثيل له في أى بلد آخر من حيث اللذة وجمال الشكل وهو نوعان: أحمر، وأصفر، هو أكثر من ٩٠ نوعا.

ويحدثنا المؤلف فى الفصل الثالث عن موضوع طريف وشائق، وهو كيف يضع الآباء أبناءهم داخل الغطاء القماشى لقبر رسول الله ﷺ بعد صلاة الجنازة.

وفى الفصل الرابع يعرفنا الكاتب كيف يستقبل أهل المدينة شهر رمضان

المعظم، فيبين كيف يجتمع أطفال المدينة ـ كنوع من ألعاب الأطفال ـ فى ميدان ما فى التاسع والعشرين من شهر شعبان وينصبون من بينهم شيخا للحرم طليق اللسان وتعرف هذه اللعبة بـ «استقبال الأطفال لرمضان الشريف».

وعندما يحل وقت الإفطار تطلق المدافع ويؤذن فوق المآذن يدعو أصحاب طعام الإفطار من فى يمينهم ويسارهم لاسيما الضيوف إلى الطعام بأفضل تعبير قائلين: «تفضلوا».

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن طريقة أداء صلاة الفجر وصلاة العيد فى شهر رمضان، ويصلى فيها جميع من قاموا بحمل الشمعدان ثم يبدأون بقراءة القرآن والأوراد اللطيفة الشريفة قبل أذان الفجر بنصف ساعة، إلى أن يحين وقت الصلاة فيؤذن لها، ثم يقومون إلى الصلاة، وبعدها يستمعون إلى الدروس والمواعظ.

أما صلاة العيد فهى معروفة، وليس فيها أشياء خاصة إلا أنهم بعد تأديتها يتجهون إلى الحجرة المعطرة للدعاء والتضرع.

أما الفصل السابع فيتحدث فيه المؤلف عن المسجد النبوى الشريف حدوده ومساحته، فعرضه يقدر بخمسين ومائتى ذراعٍ، وعرضه من الجدار الشرقى إلى جداره الغربى خمسون ومائة ذراعٍ إلا أن طوله وعرضه فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كل واحد منهما مائة ذراع.

وللمسجد الشريف خمسة أبواب هى:

باب السلام، باب الرحمة، باب جبريل، باب النساء، باب التوسل. ونافذتان تعرفان باسم «نافذة جبريل»، «ونافذة مواجهة»، وله أربعة محاريب تعرف باسم: محراب النبى ﷺ، محراب عثمان، المحراب السليمانى، محراب التهجد.

ولمسجد السعادة فى جهاته الأربع خمس مآذن وفى داخل الحرم الشريف ثلاثة وعشرون وأربعمائة عمودٍ، وله اثنتان وأربعون ومائتى قبة، وله واحد وتسعون وسبعمائة وألف قنديلٍ.

والفصل الثامن يتحدث فيه المؤلف عن الحجرة النبوية المعطرة على صاحبها أفضل صلاة وأتم تسليم، وللحجرة الشريفة أربعة أبواب هى: باب فاطمة رضى الله عنها، الباب الشامى، باب الروضة، باب الوفود، ولها أربع وثمانون قنديلا مثل النجوم.

والفصل التاسع فى وصف صلاة الجمعة فى الحرم النبوى الشريف، فحينما تحين صلاة الجمعة يرفع الأذان، وتصلى صلاة الجمعة، ويقوم السيد الخطيب الذى عليه الدور من مكانه المخصوص ويقرأ أمام سيد البشر فائض النور ثلاث آيات مستأذنا ثم يتوجه بتؤدة رويدا رويدا نحو منبر السعادة الذى قد هيئ ويتجه أحد خدم الحجرة الشريفة نحو المنبر الشريف، وبكل تعظيم وتوقير يرفع ستارة المنبر وينشر الرايتين اللتين على جانبى المنبر، وينتظر قدوم السيد الخطيب، وفى خلال ذلك يصلى ويسلم المؤذنون الذين فى المحفل معًا، ويصعد الشيخ الخطيب فوق المنبر وقد لف رأسه بشال قيم وقد سار أمامه الأغا الذى يطلق عليه «مؤذن المنبر» وفى يده عصا مؤذن المنبر ثم يرفع الأذان الداخلى فى مكانين بصوت رخيم، ثم يقوم الخطيب فيخطب ثم بعد ذلك يصلى وبعد الصلاة يستغفر الحق ـ سبحانه ـ ثم يثنى عليه ـ سبحانه ـ ويصلى على المصطفى أفضل صلاة ثم يدعو الله ما شاء له من الدعاء.

أما الباب الثانى فيتحدث فى فصوله عن فضائل المسجد النبوى الشريف ففى الفصل الأول يتحدث ويذكر الأحاديث الشريفة التى حثت على شد الرحال إلى المسجد النبوى الشريف ومنها الحديث الشريف: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد».

وفى الفصل الثانى يتحدث المؤلف عن فضائل المسجد الشريف، والمنبر اللطيف، والروضة النبوية المنيفة، فالصلاة فى المسجد النبوى الشريف أفضل من حيث الأجر من ألف وألف من الصلوات التى تؤدى فى المساجد الأخرى غير المسجد الأقصى، وأفضل من ألف صلاة تؤدى فى المسجد الأقصى.

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في رواية: «من صلى فى مسجدى أربعين صلاة وعلى رواية ـ لا تفوته صلاة كُنَّ له براءة من النار وبراءة من العذاب وبراءة من النفاق».

وفى الباب الثالث يتحدث المؤلف عن أسماء المدينة وفضائلها، ففى الفصل الأول يتحدث عن أسماء المدينة المنورة فيذكر أن العلماء ذكروا لها أكثر من سبعة وتسعين اسما مستخرجين إياها من الكتب المقدسة والأحاديث الشريفة، ومن الواضح أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى وهى لكثرتها فقد رتبها المؤلف على حسب ترتيب الحروف الأبجدية ومنها:

ـ أثرب: وهذه الكلمة على وزن أسعد بفتح الهمزة، وفى فترة ما أبدلوها بياء وقالوا يثرب. وأثرب اسم شخص من أبناء سام بن نوح ـ عليه السلام ـ الذى يقال إنه أول مَنْ سكن فى أرض المدينة.

ـ أرض الله، أرض الهجرة: وهذا الاسم اللطيف ثبت بالآية: . . . . ؟

ـ أكالة البلدان، أكالة القرى: إن هذين الاسمين يدلان على أن المدينة الطاهرة تفوق المدن الأخرى فى الفضل.

ـ البارة فهى منبع فيض ورحمة وبركات.

ـ الجليلة: تسميتها بهذا الاسم، تبين مدى حب حبيب الله لهذه المدينة.

ـ ذات الحجر: لأنها توجد داخل جبال حجرية.

ـ سيدة البلاد: فهى أفضل البلاد لوجود المبعوث رحمة للعالمين فيها.

ـ شافية: وهو مأخوذ من الحديث الشريف: «ترابها دواء من كل داء».

ـ طِيبَة وطَيِّبَة: فهى تسعد بجوار النبى صلى الله عليه وسلم وطابت لطهارته وفضله.

ـ عذراء: فهى مصونة من الأشرار محفوظة ببركة النبى صلى الله عليه وسلم وكذا فهى رحبت بالنبى الكريم ولم يدخلها بحرب أو قتال.

ـ فاضحة: سميت بذلك لأنها تفضح أهل البدعة.

ـ مؤمنة: فأهلها وهى آمنون من كل شر وسوء.

وفى الفصل الثانى يذكر المؤلف فضائل المدينة المنورة على سائر البلدان فتحدث عن فضلها على سائر البلدان، وكذا قارن بينها وبين مكة المكرمة من حيث الأفضلية، فبها مرقد أفضل خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولذا بارك الله لها وفيها، وحفظها من سائر الشرور لوجود مرقد النبى الكريم بها.

وفى الفصل الثالث يحدثنا المؤلف عن الذين فضلوا واختاروا الإقامة فى المدينة المنورة ويذكر المؤلف فى الفصل الرابع محاصيل المدينة المنورة من فواكه وخضروات، ويتحدث كذلك عن طهارة ترابها وكيف يشفى من أمراض خطيرة كالجذام والبرص.

وفى الفصل الخامس: يتحدث عن نجاة المدينة ـ ذاتها ـ من فتنة الدجال، ومرض الطاعون ببركة دعوة النبى الكريم ـ صلوات الله عليه وتسليمه ـ لها بالسلام من كل شر ففى رواية أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «يا رب كل من يقصد أهل المدينة بالسوء فأذبه كما يذيب الملح الماء»، وكذا دعوته المباركة من على المنبر قائلا: «اللهم انقل عنا الوباء» يقصد الطاعون والحمى.

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن حدود الحرم اللطيف وحرمته.

وفى الفصل السابع يحدثنا عن أحكام الحرم النبوى الشريف، فهو حرم لتحريم الصيد فيه أى صيد الحيوان والطير، وقال الإمام الأعظم: إن التحريم هنا بمعنى التعظيم والاحترام وليس التحريم المطلق وعلى ذلك فبعض الفقهاء أجاز صيد الطيور، وقطف الثمار داخل الحرم فهو ليس كحرم مكة المنيف.

وفى الفصل الثامن يذكر خصائص البلدة الكريمة ومنها: عدم قطع أعشابها وأشجارها، وعدم حمل السلاح من أجل القتال، وعدم جواز نقل ترابها إلى بلاد أخرى.

وفى الفصل التاسع يتحدث المؤلف عن المدينة المنورة وحوادثها المتفرقة الغريبة فيذكر أن الحق ـ سبحانه ـ خلق أرض المدينة المنورة بعد خلق أرض مكة المعظمة ثم يتحدث عن اتساع مدينة الحبيب ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد رحيله، حتى انزعج سكانها وأخذوا يهاجرون منفردين إلى البلاد الأخرى.

وفى الفصل العاشر يحدثنا المؤلف عن وقوع نار المدينة وانطفائها ففى الحديث الشريف قوله: «لا تقوم الساعة حتى تظهر نار الحجاز» وبهذا الحديث أخبر أصحابه بأنه تندلع نار فى تراب المدينة المنورة نار كالجبال ذات أشعة قوية وأن القيامة لن تقوم حتى تظهر هذه النار، كما بين موقع ظهور النار وانطفائها.

وفى الباب الرابع يحدثنا المؤلف عن المدينة المنورة تاريخها وقراها وعادات سكانها.

ففى الفصل الأول يحدثنا عن أحوال المدينة منذ سالف الأزمان وبعد الطوفان كما حدثنا المؤرخون فقد هاجر شخص يدعى «يثرب بن عبيل» بعد الطوفان إلى جحفة ـ مكان بالمدينة المنورة ـ وكانت حينئذ مكانا لا اسم له، ثم يحكى كيف نشأت الحكومة فى يثرب فى عهد كنعان بن حام، ويحكى حكاية أقوام بنى إسرائيل وتاريخهم فى المدينة المنورة.

ثم يحكى لنا فى الفصل الثانى قصة الأوس والخزرج والقبائل التى هاجرت إلى المدينة، وقت وجود الأوس والخزرج ابنا ثعلبة إلى المدينة المنورة، ويذكر أسماء بعض هذه القبائل مثل: بنو الجذماء، بنو قصيص، بنو عقبة، بنو هلال، بنو عمرو، بنو نفير، بنو ثعلبة... إلخ.

وفى الفصل الثالث يتحدث المؤلف عن حالة قرى ومنازل المدينة التى أسسها بنو الأوس حول المدينة، فقد نزلت قبائل بنى الأوس المدينة وتفرقوا فيها واختار كل قوم ما راق لهم وناسبهم من الأماكن، فعلى سبيل المثال اختار بنو عبد الأشهل الإقامة فى دار تسمى بـ «دار عبد الدار» فى ربوة عالية من المدينة تحميهم

من هجوم أى أعداء، ويحكى نحو هذه الأخبار مثل إقامة وسكنى بنى سعد بن مرة بن مالك بن الأوس فى ناحية تسمى «رابح».

وفى الفصل الرابع يعرض لنا كيفية إدارة قرى ومنازل المدينة المنورة وأماكن سكنى بعض القبائل مرة أخرى.

أما الفصل الخامس والأخير فهو يعد من الفصول الشيقة من فصول الكتاب حيث حدثنا المؤلف عما يسمى بأيام العرب وحروبهم وملاحمهم بين قبائل الأنصار وغيرها ومن أشهر هذه الأيام:

١ـ سلمى: وكانت هذه الحادثة سببا فى اشتهار سلمى بـ«المتدلية» حيث ربطت نفسها بحبل وتدلت من الحصن لتخبر قومها بأخبار الحصن وأخبار الواقعة.

٢ـ فارع: وكان قائد القبائل الأوسية فى يوم فارع معاذ بن نعمان بن امرئ القيس، وكان قائد القبائل الخزرجية عامر بن الإطنابة ودارت الحرب بينهما سجالا ولم تنته لذا رفعا المخاصمة من بينهما بعد يوم فارع واتفقا ضد اليهود وعقدت روابط الصداقة بينهما وتركا العداوة بينهما وعاشا متآخين مدة طويلة.

أما الباب الخامس فهو خاص بأحداث الهجرة النبوية الشريفة، وتفصيلاتها وجاء على ثلاثة فصول تعرض المؤلف فى الفصل الأول لذكر بيعة السابقين من الأنصار للإسلام، ودعوة مصعب بن عمير (رضى الله عنه) أهل المدينة للإسلام.

أما الفصل الثانى فهو يعرض لهجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.

وفى الفصل الثالث يتحدث عن بيان وقائع سنن الهجرة الشريفة وتفصيلاتها بالإجمال.

أما الباب السادس فهو الباب الخاص بالحديث عن المسجد النبوى الشريف من حيث بداية بنائه وكذلك تجديده وتوسعته ففى الفصل الأول يتحدث المؤلف عن

الظروف التى بنى فى ظلها المسجد الشريف حيث وقفت ناقة الرسول عليه السلام ـ القصواء ـ فى مكان وربطت فيه فأراد النبى ﷺ أن يتخذ هذا المكان مسجدا فعرض على مالكى قطعة الأرض أن يشتريها منهم فلبى أصحاب الأرض دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجوه أن يتفضل بقبولها بدون ثمن ورجوا النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك وألحوا، فقبلها النبى وبدأ تعلية وتأسيس المسجد الشريف.

وفى الفصل الثانى يحدثنا عن توسعة المسجد الشريف فبين أن ذلك كان بعد تحويل القبلة إلى المسجد الحرام فى مكة المكرمة، وفى الفصل الثالث يذكر الأماكن التى أدى فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الصلاة وهذا نتيجة لأن المسجد لم يكن له محراب خاص به إلى عهد الخلفاء الراشدين فكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤدى الصلاة فى اسطوانة يطلق عليها «الأسطوانة المحلقة» فى الجهة الشامية، ثم تفضل ـ عليه السلام ـ بأداء الصلاة فى المكان الذى عرف بـ «محراب النبى ﷺ» وهذا المكان فى وسط الحجرة اللطيفة.

وفى الفصل الرابع يعرفنا بجزعة المسجد النبوى الشريف وهى التى كانت فى الجهة الجنوبية لصندوق المصحف الشريف قبل أن يحترق المسجد النبوى، لوحة مصنوعة من الخشب تسمى «جزعة» وكانت كبيرة، وكان يطلق عليها فى تلك الأوقات «خرزة فاطمة الزهراء».

وفى الفصل الخامس يتحدث عن سبب تأسيس المسجد النبوى ومنبره، ولما كان مسجد المدينة خاليا من المنبر لإلقاء الخطبة وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقف على رجليه فى أثناء إلقائه الخطبة ويتعب كثيرا، وتأثر بعض الصحابة الكرام بذلك فوجدوا نخلة وركزوها فى المحل الذى يلقى فيه الخطبة، ورجوه عليه السلام أن يتكئ عليها فى أثناء إلقائه الخطبة، ثم فكر سعيد بن العاص أن يقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن فكرة المنبر وصنعه، وأخذ الإذن من الرسول الكريم وصنعه وأعجب به النبى صلى الله عليه وسلم.

وفى الفصل السادس والسابع يعرض لعدد مرات تجديد المسجد النبوى وكذا عدد الأعمدة الموجودة به فيذكر أنها ثمانية أعمدة (أساطين) موزونة ومتساوية.

وفى الفصل الثامن والتاسع يعرض لوصف المقام النبوى الشريف، ووصف الحجرة النبوية الشريفة، فيذكر مكان ومقام أهل الصفة من المسجد النبوى وأنها كانت تقع فى آخر ونهاية المسجد النبوى الشريف، ثم يأخذ بعد ذلك فى تعريف أهل الصفة ووصف أحوال فقرهم وزهدهم وتقواهم وحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم، ثم يحدثنا فى الفصل التاسع عن حجرات بيت النبى ﷺ وحجرات زوجاته الطاهرات البررة، فهى حجرات تسع بناها النبى صلى الله عليه وسلم لهن بالحجر والطين اللبن، وبعضها من خشب النخلة، وأسقفها جميعا من فروع النخيل، وارتفاعها ثلاثة أذرع.

وفى الفصل العاشر فى وصف دار السيدة فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كانت هذه الدار مائلة نحو حجرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هنا كانت قريبة له، فكان كثير الاستفسار عنها وعن حالها، وهى حاليا بين مربع القبر الجليل وأسطوانة محراب التهجد.

وفى الباب السابع يتحدث المؤلف عن توسيع المسجد النبوى الشريف فبين أن توسعته كانت فى عهد الصديق أبى بكر رضى الله عنه نظرًا لتكاثر الجماعة الإسلامية وازدياد عددها فأصبح المسجد لا يحتملها فأرسل إلى عمر بن الخطاب وكبار الصحابة أنه لابد من توسعة المسجد النبوى الشريف فكانت الثانية بعد الأولى بثلاثة عشر عامًا لما طرأ على عدد المسلمين من كثرة وزيادة وكانت فى عهد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ، وفى المرة الثالثة وسعه الوليد بن عبد الملك وجدده، ثم يعرض بعد ذلك لوصف حجرة المصطفى والقبور الثلاثة فكان ارتفاعها فى عهد الرسول ﷺ ثمانية أذرع، وأكثر من ستة أذرع فى العرض وكان لها بابٌ هو باب الرحمة وبنيت الحجرة الشريفة من اللبن وخشب النخلة وظلت على هذه الحال إلى أن أحاطها عمر الفاروق ـ رضى الله عنه بسور وجدار جديد.

وفى الباب الثامن يحدثنا المؤلف عن مقام الرسول الكريم ﷺ فيذكر العلامة المميزة لرأس النبى الشريف ووصفه، ثم يتحدث بعد ذلك عن علامة جهة رأس النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى جهة المسمار الذى يبعد عن الجهة الغربية، قدر خمسة أذرع ثم يحدثنا عن مقام جبريل ومكانه بالقرب من مربع القبر الشريف.

ثم يحدثنا عن حجر إبراهيم وهو الحجر الملاصق للقبر الجليل وبعد ذلك يحدثنا عن ستارة الحجرة النبوية المعطرة التى كانت مزركشة ومصنوعة من الحرير المنسوج المسطور عليه سورة يس، وبعد ذلك يذكر لنا قناديل الحجرة الشريفة وهى قناديل من الذهب والفضة معلقة على جوانب وسقف الحجرة الشريفة.

وفى الباب التاسع يحدثنا المؤلف عن مقتنيات الحجرة الشريفة وما يوجد بها من المصاحف أو الشمعدانات، والفضيات والستائر والأشياء الجميلة المتبرع بها للحجرة المعطرة فيذكر أنه يوجد بها ١٣٣ مصحفا، وعدد من المسابح وعدد من كتب الأدعية المأثورة وأقراص من الذهب والفضة، وبعض اللوحات الذهبية والمرمرية ولوحة مرصعة بالماس ولوحة من الزمرد والعقيق وبعض التعليقات المرصعة المهداة من بعض الباشوات.

وفى الباب العاشر يعود المؤلف فيصف المؤلف الحجرة الشريفة بالتفصيل كما فعل من قبل.

وفى الباب الحادى عشر يتحدث عن احتراق المسجد النبوى وتجديده، وكان سبب الاحتراق اشتعال أحد القنابل التى توجد بالمسجد فى عصر الصديق أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ وسرى الحريق من قفص القنديل إلى سائر الأقفاص الأخرى وبقية أجزاء المسجد.

وفى الباب الثانى عشر يعرض المؤلف لفرش الحجرة النبوية، وكيف كان يعتنى بهذه الحجرة الشريفة من تنظيف وتعطير وتزيين وصيانة وكيف فرش المسجد الحرام بعد أن انهالت عليه الأمطار فى ليلة من ليالى الشتاء الممطر فسالت المياه المتراكمة ودخلت إلى داخله وجاء الصحابة لتأدية الصلاة فلم يستطيعوا نظرا

لامتلائه بالمياه فأتى رجل بمقدار من الرمل وفرش المسجد به وصلى الناس بعد ذلك، وبعد ذلك يحدثنا عن تعطير المسجد النبوى وذكر الذين عطروه بالعطر والبخور والرياحين والأزهار الجميلة الرائحة فكانت بداية العناية منذ عصر أبى بكر الصديق إلى الذين جاءوا بعده وفى كل مرحلة جديدة كانت تزداد درجة العناية بالمسجد النبوى الشريف.

ويحدثنا بعد ذلك عما يحيط بالمسجد الشريف من منازل وديار وأرصفة المسجد وسوق أهل المدينة الذى بدأ فى سوق «بنى قينقاع» ثم سوق المدينة والذى عنده ضرب النبى برجله الكريمة قائلا «هاهنا سوقكم».

وفى الباب الرابع عشر يحدثنا المؤلف عن المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم، ووصف مسجد قباء، وكذلك المساجد التى صلى فيها النبى صلى الله عليه وسلم.

وبعده يحدثنا عن قبر البقيع المشهور وفضائله واسمه بقيع الغرقد نسبة إلى الأشجار التى تنبت فيه وتسمى أشجار الغرقد، وهى مكان يحيط به الأشجار والزهور وأنه مكان مبارك كريم شريف، ثم بعد ذلك يذكر لنا من دفن فيه من الصحابة وسادات أهل البيت، فيذكر أنه دفن به من الصحابة الكرام اثنا عشر ألفا.

وفى الفصل الرابع يحدثنا عن جبل أحد فيذكر أنه خلق منفصلا عن الجبال التى حوله ولذا سمى بجبل أحد وكان النبى يقول عنه: «أحد يحبنا، ونحن نحب أحد» و«أحد جبل فوق جنان الجنة».

وفى الباب السادس عشر يتحدث عن أسواق المدينة المنورة وآبارها وعيونها فيذكر الأوقات التى تقام فيها الأسواق، ويذكر كذلك الشهور والأيام التى تقام فيها الأسواق من هذه الشهور مثل أسواق وأيام شهر محرم: يوم الزينة، وورود المحمل العراقى، صفر الخير (فى بداية شهر صفر).

وفى الفصل الثالث يذكر لنا اسم العيون المنسوبة إلى النبى - صلى الله عليه

وسلم ـ ومنها: عين كهف حرام، عين الخيف، عين الأزرق، عين النبى، عين الوادى.

وفى الباب السابع عشر يحدثنا المؤلف عما ينسب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مساجد فى طريق مكة والحرمين الشريفين، والمساجد التى صلى فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ينسب إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من صدقات فيذكر أن جميع الصدقات النبوية تتكون مما ترك وتبرع «مخيريق» من أحبار اليهود.

وفى فصل آخر يحدثنا المؤلف عن المساجد التى بين الحرمين الشريفين فيذكر أن هذه المساجد تقع فى الطريق الذى سلكه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة إلى المدينة ومنها: مسجد الشجرة، مسجد المغرس، مسجد شرف الروحاء، مسجد عرق الطيبة، مسجد المنصرف، مسجد الروثية، مسجد الإثالة إلى أن يصل بها إلى ثلاثين مسجدا.

وفى الباب الآخر من أبواب الكتاب وهو الثالث عشر يحدثنا المؤلف عن أودية المدينة ومنها وادى العقيق، وأحراش المدينة وجبالها، فيذكر وادى العقيق وكيف يمتد من موقع قصر المراجل إلى البقيع، ويسمى «عقيق الأرض» ثم يذكر بعد ذلك أسماء وديان المدينة ومنها: وادى البطحان، وادى رانوناء، وادى قناة، وادى زينب، وادى مهزو، مع التعريف المجمل بكل واد.

وبعد ذلك يحدثنا عن أحراش المدينة المنورة ـ وهى أماكن رعى الدواب والجمال ـ والمراعى مثل: حمى البقيع وأحراشه، ومرعى حمى الربذة. ثم بعد ذلك يذكر لنا آكام وقرى المدينة المنورة مرتبة على حسب الحروف الهجائية ومنها «آوة، آبار، أبلى، . . ».

ثم يصل بنا الحديث إلى مرآة جزيرة العرب. . يعد هذا المجلد أصغر مجلد فى هذه الموسوعة إذا قورن بالمجلدين السابقين ـ مرآة مكة، ومرآة المدينة ـ فهو يبلغ حوالى ٤٠٠ صفحة بينما يربو كل مجلد من السابقين على ١٢٥٠ صفحة.

وفى هذا المجلد يحدثنا المؤلف عن جزيرة العرب من كل الجوانب: الموقع

الجغرافى والحدود الطبيعية، وتاريخ الجزيرة منذ أقدم العصور حتى عصر السلطان عبد الحميد الثانى، والملوك والحكام الذين تولوا زمامها، وكذا أحوال ساكنيها وكيف تقلبت بهم الأحداث وتاريخهم وعاداتهم.

ويبين المؤلف فى بداية هذا المجلد أنه يعده ذيلاً لكل من: مرآة مكة، ومرآة المدينة.

كما أن هذا المجلد يعتبر الخلاصة لمن أراد أن يتعرف على أحوال جزيرة العرب، ويحتوى هذا الجزء على ستة أبواب، الباب الأول منها عن تاريخ جزيرة العرب، ويحوى فصلين.

يتحدث أيوب صبرى باشا فى الفصل الأول عن أنساب العرب القدامى ساكنى الجزيرة العربية فوضح أن أقوام العرب هى: العرب البائدة، والعرب العاربة، والعرب المستعربة، والعرب المستعجمة ـ وهؤلاء هم أقسام العرب ذات أربع طبقات، فطبقة العرب البائدة هى أولى القبائل العربية التى وجدت بعد أن انقسمت الأقوام شعوبًا وقبائل بعد نوح عليه السلام، وهذه الطبقة ليس لدينا عنهم معلومات صحيحة بخصوص أحوالهم وتاريخهم ومنهم عاد الأولى، وثمود، وعمالقة، وطسم، وجديس، وحضرموت.

أما العرب العاربة فهم الطبقة التى تنتهى بجميع قبائلها إلى قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام، ولما اختلط هؤلاء بأفراد العرب البائدة وتلقوا عنهم اللغة العربية وتعلموها منهم قيل لهم «العرب العاربة».

أما العرب المستعربة فظهرت مع كثرة اختلاط أفراد العرب المستعربة بأفراد الممالك الأجنبية وأهاليها عندها ظهرت الأخطاء فى لغتهم التى يتحدثون بها لأن القبائل العربية انتشرت إلى البلاد التى استولت عليها فى الجزيرة العربية لإعلاء كلمة الله عقب سطوع نور الإسلام.

والقبائل العربانية التى تسكن اليوم الجزيرة العربية تنتسب كافة لطبقة العرب المستعجمة. والقبائل العربية التى تكون هذه الطبقة وإن لم تترك وطنها الأصلى

جزيرة العرب إلا أنها عاشت مختلطة بالملل المسلمة والعربان الأجنبية لذا فقد طرأ بعض التغير على لغتهم.

أما حالة العرب الحضارية قبل الإسلام وبعده فهم ينقسمون إلى:

١ـ أهل المدر:

وهم أهل المدن والأمصار وهم النوع الأول من أهل الجزيرة والذين يعرفون فيما بينهم بـ (حفدى ـ بلدى) ويسكنون فى المدن والقرى، ويعملون ـ على قدر ما يساعد مناخ بلدهم واستعدادهم ـ بالزراعة وتربية أشجار النخيل والعناية بالحدائق والبساتين، ويبذلون جهودهم على تأمين معيشتهم بما ينتجون من المحاصيل كما أنهم يؤمنون معيشتهم من جهة أخرى بالأخذ والعطاء مع سكان البلاد المجاورة وبالتجارة.

٢ـ أهل الوبر:

وهم سكان البادية الذين يعيشون تحت الخيم ودائمى التنقل والترحال من مكان لآخر وراء الطعام والماء، وهم النوع الثانى من العرب وهم البدو الذين يمضون حياتهم بين الجبال والصخور والتلال والفيافى والصحارى ولما كان عرب الوبر دائمى التحرك والتنقل أضحوا عديمى الرغبة فى اكتساب العلوم والمعارف والفنون فهم يختلفون اختلافًا كليًا عن أهل المدر فى سبيل تأمين وسائل معيشتهم. فالمساكن فقط لتقى أجسامهم من شدة حرارة الشمس خالية تمامًا من علامات التجمل.

وفى الفصل الثالث: يذكر مؤلفنا الملوك والجبابرة الذين حكموا الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ومنهم:

ملوك عاد الأولى ـ كانت بلدتى حضرموت وشحر دارى ملوك عاد الأولى وكانت رعاياهم القبائل العربية التى تسكن فى الصحارى الواقعة بين البلاد اليمانية وعمان.

وقد حكم قوم ثمود سكان حجر وادى القرى بعد هلاك قوم عاد، وعصوا الله وأخذوا يعبدون الأصنام التى صنعوها بأيديهم وهكذا طغوا فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهم صالحًا ـ عليه السلام ـ نبيًا لهم.

ثم يحكى عن سد مأرب وسبب بنائه لحماية بلدة مأرب من السيول التى كانت تنزل بها فلا تبقي ولا تذر، وبلدة مأرب التى مدحت فى القرآن الكريم بلدة طيبة كانت تبعد عن صنعاء ثلاث مراحل، واختلاف الروايات حول بانى السد وطوله وعرضه وما إلى ذلك.

ويعرض الباب الثانى للخلفاء والملوك المسلمين الذين ظهروا فى جزيرة العرب بعد ظهور الإسلام يعرض فى الفصل الأول لسيرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه ولد بعد ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ بخمسمائة تسعة وستين عامًا فى اثنى عشر من شهر ربيع الأول والسابع عشر من شهر أبريل، وبعث نبيًا فى الحادى والأربعين من عمره الشريف.

وهاجر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة عام ستمائة اثنين وعشرين من الميلاد والسادس عشر من شهر يوليو مبدأ التاريخ الهجرى من قبل المؤرخين، مدة نبوته ثلاثة وعشرون عامًا، عمره ثلاث وستون سنة.

ثم يتحدث بعد ذلك عن الخلفاء الراشدين ـ رضى الله عنهم ـ الذين حكموا بعد وفاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويذكر منهم أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وعمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ وعثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وعلى بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ ومن بعدهم خلفاء الدولة الأموية، وأمراء بنى العباس.

ثم يتحدث بعد ذلك عن الأمراء الذين حكموا مكة المكرمة وهو يقسمهم إلى أربع طبقات.

١ـ الطبقة الأولى: طبقة سادات بنى حسن ويطلق عليهم بنو «إخيضر» وقد

حكموا تسعًا وتسعين سنة وظهروا فى سنة خمسين ومائتين للهجرة وانقرضوا فى أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين هجرية.

٢ـ الطبقة الثانية: من طبقات أمراء مكة الأربع السلسلة السليلة، لأولاد موسى الذين ينتهى نسبهم إلى الحسن بن على رضى الله عنهما، والأشراف الكرام والذين يكنون هذه الطبقة هم الأشراف الكرام الذين يطلق عليهم المؤرخون «الموسويين» و«بنى موسى» وأول من تولى منهم الإمارة هو الشريف موسى، والثانى عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله، وعدد أفراد الموسويين الذين حكموا البلاد الحجازية أحد عشر أميرًا.

٣ـ الطبقة الثالثة: ويطلق عليهم السادة الأشراف الذين يكونون الطبقة الثالثة من الطبقات الأربع «الهواشم» وأشراف طبقة «الهواشم» الذين عرفوا بـ «بنى فليته» ظهروا سنة (٤٥٣هـ) وانقرضت حكومتهم سنة (٥٩٨هـ) وحكم منهم فى خلال هذه الفترة ثلاثة عشر أميرًا.

٤ـ الطبقة الرابعة: شكل الطبقة الرابعة من أمراء مكة الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسنى وسلسلة نسبه.

ويتحدث المؤلف فى الفصل الثالث عن ظهور طبقة القرامطة باعتبارها من الفرق الخارجة فى البلاد الحجازية التى اشتعلت شرارتها فى زمن المعتمد بن عباد، وفى رواية فى عهد الخليفة المنتصر بالله، وأخمدت شرارتها سنة (٣٧٣هـ) أى فى عصر الطائع بالله وعلى قول سنة (٣٨٤هـ) فى ابتداء خلافة القادر بالله واستمروا فى شقاوتهم ثمانين عامًا أو ثلاثًا وعشرين ومائة عام إلا أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا حكومة قوية فى هذه المدة.

وأول من خرج من القرامطة أبو سعيد حسن بن بهرام جنابى من قرية جنالة القريبة من أهواز وكان يعمل بالبصرة وزانًا، ثم ذهب إلى البحرين حيث تظاهر بالتقوى والدين واخترع اعتقادات عجيبة باطلة وضعها وخدع بها الناس وتبعه بعض الحمقى من العربان والبلهاء.

وكانت غاية ابن سعيد هذا أن يحلل ما حرمه الشرع وأن يخرج بهذه الدسيسة ما فى نفسه إلى حيز العمل، لأن التمرد الذى فى ضميره لم يكن جائزًا شرعًا.

ولقد فعل الكثير من الجرائم واستولى على أقاليم نجد، يمامة، واليمن واعتدوا على حجاج المسلمين سنة (٣١٧هـ) بغتة وذبحوا من قبضوا عليهم من الحجاج وبعد ذلك هجموا على مكة المكرمة وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه، وحملوه إلى بلادهم واحتفظوا به عندهم.

وهناك اختلاف كثير فى بيان حقيقة عقائد القرامطة الباطلة، وبناء على قول فريق من المؤرخين فإن أول شخص ظهر فيهم قد تجرأ أن يدعى النبوة وحاول أن يقنع الناس بكتاب ألفه من الكتب السماوية، وبناء على قول فريق آخر من المؤرخين أن أول من ظهر من القرامطة هو من الأئمة الإسماعيلية وأنه مبعوث من قبل الإمام المهدى وأراد أن يقنع الناس بذلك، وهؤلاء الخبثاء يروجون لمذهب الرفض والإلحاد.

ومن عقائدهم أنهم يقتنعون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ ويعلنون أنهم ينتمون للطائفة الإسماعيلية إلا أنهم يستحلون المحرمات الشرعية ويعتقدون أن سفك دماء المسلمين مباح، كما يقولون بكفر من لا يعتنق المذهب القرمطى.

ومن جملة عقائدهم الباطلة حصر الصوم ليومين فى السنة، وعدم الغسل والاغتسال من الجنابة وجعل الخمر حلالاً وقولهم «أشهد أن محمدًا بن الحنفية رسول الله».

وفى الباب الثالث يحدثنا المؤلف عن أحوال جزيرة العرب الجغرافية فهى تقع فى الجهة الجنوبية الغربية من قارة آسيا، وتسكنها القبائل البدوية العربية منذ القدم وهى شبه جزيرة كبيرة.

يحدها شمالاً الشام وصحراء الجزيرة وشرق خليج البصرة، وجنوبًا المحيط الهندى وغربًا البحر الأحمر، ومضيق باب المندب.

وطولها تقريبًا من الطرف الشمالى إلى جنوبها ألفان وخمسمائة كيلو متر تقريبًا، وعرضها من الجهة الغربية إلى جهتها الشرقية ألفا كيلو متر تقريبًا وتتسع عرضًا من جهتها الجنوبية ومساحتها ثلاثة ملايين وست وخمسين ومائة ألف كيلو مترًا مربعًا وسكانها اثنا عشر مليونًا.

ثم يحدثنا بعد ذلك عن البحار والمحيطات التى تحيط بالجزيرة العربية فى الفصل الثانى من الكتاب فالبحار والمحيطات تحدها من جهاتها الثلاثة ـ البحر الأحمر ـ وهو يعرف بالخليج العربى، وبحر القلزم، وبحر شيب الشعب أو بحر جدة، وهو بحر قليل الجزر وإن كان به شعب مرجانية إلا أنها غير مفيدة، وهذه الشعب منتشرة بجانب الشواطئ مما يسبب الكثير من الحوادث لاصطدام السفن بها.

بحر الشب ـ ويصل بحر عمان الذى يعد جزءًا من المحيط الهندى بالشواطئ الجنوبية لجزيرة العرب من باب المندب إلى مضيق هرمز.

وتنقسم الجزيرة العربية إلى ست قطع وتطلق على الأراضى التى فى الجهة الغربية الشمالية «الحجاز» والتى فى الجهة الجنوبية الغربية «اليمن» والجهة الجنوبية «حضرموت» وعلى الأراضى التى فى الجنوب الشرقى «عمان» والأماكن التى فى الجهة الشرقية «الأحساء»، «البحرين»، هجر، والأراضى التى فى وسط الجزيرة العربية «نجد».

وفى الفصل الثالث يحدثنا عن الأحوال الجغرافية لبلدتى جدة والطائف فجدة: من مدن الحجاز المشهورة وهى مدينة، وتقع فى الجهة المعمورة فى الجهة الغربية لمكة المكرمة وعلى تسعين كيلو متر منها، وعلى ساحل بحر السويس فى درجة خط الطول الحادية عشرة وتسع وعشرون دقيقة فى خط العرض الشمالى وهى أكبر موانى الحجاز ازدحامًا بالسفن.

وصادراتها: «جلد البقر، والبن، والصمغ العربى، والعطور المتنوعة، ريش

النعام، سن الفيل، الصبارة، اللؤلؤ، الصدف، البلح، الحناء، اليسر، الباغة، العسل».

وارداتها وهى التى تستورد من مصر، وأفريقية، وأوربا هى: «الأرز، والقمح، الشعير، الدقيق، الزجاج، الصابون، الأقمشة الصوفية، والقطنية».

ويبلغ عدد سكانها مع مجاورى وتجار مصر والشام والهند واليمن وكلهم مسلمون إلى خمسة وعشرون ألف نسمة، وأهالى جدة عمومًا يحبون العمل وأغلبهم أغنياء، ويشتغلون بجميع أنواع التجارة قد اكتسب ميناء جدة أهمية عظمى لموقعه الجغرافى الطبيعى.

وكافة أهليها، غير بضعة من الأوروبيين مسلمون، ويتاجر بعضهم بالهند والمستعمرات الأجنبية الأخرى.

الطائف: تقع بلدة الطائف والتى تسمى أيضًا «وادى عباس» على الجانب الشرقى من مكة وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة، ترتفع عن سطح البحر ١٥٧٥ مترًا، عدد سكانها ألف نسمة تقريبًا.

ولما كانت أرض الطائف أكثر ارتفاعا من أرض مكة المكرمة فتقل درجة حرارتها عن درجة حرارة مكة المكرمة ست أو سبع درجات ويجود هواؤها، لأجل ذلك يصعد معظم أهل مكة إلى الطائف عندما تشتد درجة الحرارة فى أشهر الصيف، ويقيمون هناك إلى أن تزول درجة الحرارة.

ويعرض المؤلف فى الباب الخامس للقبائل التى سكنت الجزيرة العربية حاكيًا تاريخ كل قبيلة وطبيعة عاداتها وشعوبها ومن هذه القبائل.

- بنو هاشم - ويطلق بنو هاشم على الأشراف والسادات الذين تسلسلوا من أصلاب الإمامين الحسن والحسين (رضى الله عنهما).

- قبيلة عنزة - وهى التى تستوطن فى شمال الجزيرة العربية، وخاصة الأقطار الحجازية ويعيش أهلها حياة البداوة وتنقسم إلى أربع قبائل:

١ـ أولاد على

٢ـ الحسنة

٣ـ حلال

٤ـ بشر

والفصل الثانى: يحدثنا عن قبيلتى حويطات وجهينة.

وتقيم أفراد قبيلة حويطات فى سواحل البحر الأحمر الشرقية التى تمتد من العقبة، وقلعة «الأزلم» إلى السويس، والأماكن التى تسكنها أراضيها قليلة الإنبات ومجدبة وعندما يجدبون يتجهون إلى عنزة.

ثم يذكر بعد ذلك فروع قبيلة حويطات والتى وصلت إلى اثنتى عشرة قبيلة.

ثم يذكر بعد ذلك فروع قبيلة جهينة التى تسكن شاطئ البحر من جبل حساين إلى ينبع البحر، وتنقسم هذه القبيلة إلى القسمين اللذين يعرفان بـ (أولاد مالك)، (أولاد موسى).

وفى الفصل الثالث يتحدث عن عربان قبائل بجاله وبنى حرب، وقبيلة نحاولة قبيلة فى غاية الاحتقار على حد وصفه بين أهالى الحرمين ذلك لتأصل عادات السلب والنهب والكر والفر فيهم منذ القدم على عهد يزيد بن معاوية.

قبيلة حرب ـ وانقسمت قبيلة حرب إلى قبيلتين كبيرتين وهما بنو سالم وبنو مسروح، كما أن بنى سالم انقسموا إلى شعبتين وهما «ميمون ومراوحة».

وفى الفصل الرابع يذكر قبيلة مطير، وبنى سليم وبنى عتيبة، وقريش، وثقيف، وبنى عدوان.

وفى الفصل الخامس يحدثنا عن القبائل التى تسكن بين مكة المعظمة وجدة وقنفذة، وفى ساحل البحر الأحمر الذى يعد جزءاً من تهامة الحجاز.

بنو لحيان: يقيم عربان قبيلة بنى لحيان فى الأماكن الواقعة بين مكة المكرمة

وجدة، وتقتصر معيشة بعض هؤلاء على ما يحصلون من المبالغ من المسافرين والحاج الذين يسلكون هذه الطرق.

وهناك قبيلة (بنى فهم) غير القبائل المذكورة وتقيم فى وادى خضر، وقبيلة (يزيد)، والتى تقيم فى وادى يزيد، وقبيلتا (بجالة وبنى متعان).

ويتحدث الكتاب فى الفصل السادس عن اليمن وحدوده ووصفه، والقبائل المستقرة فيه.

واليمن قطعة كبيرة من جزيرة العرب تقع فى الطول الشرقى من درجة ثلاث وأربعين إلى درجة خمسة وأربعين، وفى العرض الشمالى، فى درجة اثنتى عشرة وتقع على الطرف الجنوبى الغربى من جزيرة العرب.

ويحيط بها من الجانب الغربى البحر الأحمر وفى الطرف الجنوبى خليج عدن ويحيط بها من الشرق حضرموت، ومن الشمال الحجاز، ومسافتها الطولية خمسة وخمسون وسبعمائة كيلو متر، ومسافتها العرضية خمسون وثلاثمائة كيلو متر، عدد سكانها مليونان وخمسمائة ألف نسمة تقريبًا، وتنقسم جغرافيًا بالإجمالى إلى قسمين: والقسم الأول من الخطة اليمانية: الأراضى الواسعة المستوية على ساحل البحر الأحمر ويسمى «تهامة» وتمتد من شاطئ البحر إلى الداخل ما يقرب من اثنتى عشرة ساعة وهى أراضى سهلة مستوية.

والقسم الثانى من الأراضى المقابلة لتهامة وهى أراضى مرتفعة يطلق عليها نفس اليمن وهى فوق جبال متسلسلة تسمى جبال «سروات» وتمتد من الطائف إلى صنعاء.

أما سكانها فهم يسكنون القرى والمدن ويقومون بكسب قوتهم بالزراعة والتجارة، لذا نجد أن العرب الرحل يقلون فيها بالنسبة إلى الأماكن الأخرى لجزيرة العرب.

ومن ضمن ما تشتهر به اليمن من زراعة شجرة البن وكانت قديمًا خاصة

باليمن ولكنها نقلت فيما بعد إلى البلاد الأخرى حيث أنبتت فيها وقد جربها أول مرة أهل اليمن وعرفوا بعد التجربة خواصها النافعة فأخذوا يستعملونها ويشربونها فتبعهم بعد ذلك أهالى البلاد الأخرى.

والقهوة اليوم وسيلة رئيسية لإكرام الضيوف وتحيتهم، ومن أجود أنواعها البن الذى ينبت فى أرض اليمن.

وإلى هنا نكون قد وصلنا إلى أمتع أبواب الكتاب وأطرفها على الإطلاق وهو الباب السادس الذى تعرض فيه المؤلف بالحديث لعادات أهل الجزيرة وتقاليدهم والذى تفرد ببعض الفصول التى لم ترد فى كتب غيره.

ففى الفصل الأول يذكر عادات سكان الجزيرة العربية منها العادات التى اخترعها عمرو بن لحى ومنها عادات خاصة بالنوق مثل إذا ولدت عشرة صغار يفقئون إحدى عينيها ويمنعون ركوبها ويسمونها «حام».

والعادات القديمة كان منها وأسوأ ما يكون منها: عادة وأد البنات التى حكاها القرآن الكريم حين قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. [النحل: ٥٨]

ومنها أيضًا: الوشم، والتعمية، وبكاء المعتزلين، التفقية، رمى السن، خضاب النحر، نصب الراية، جز النواصى، الالتفات، النهق.... إلخ وهذه أيضًا يروى أنها من اختراعات عمرو بن لحى وهى من العادات التى لم ينزل الله بها من سلطان فجاء الإسلام الكريم وأبطل هذه الخرافات والخزعبلات وبين أنها من دعاوى الجاهلية.

وقد ظهر بينهم بعض السحرة، والكهنة، وأخذوا يخبرونهم عن المغيبات ولما صادف أن تحقق بعضها وأخبروه فانخدعوا بهم وأخذوا يستعينون بهم فى حل مسائل دينهم ومشكلات حياتهم.

أما عن عقائدهم فكانوا على عقائد وملل شتى كثيرة متفرقة منها:

١ـ فرقة منكرة: كانت تنكر الخالق والبعث والحساب وتحاول أن تثبت أن الطبيعة هى التى تحيى وتميت والدهر يفنى فكانوا يقولون: «ما يهلكنا إلا الدهر».

ومن ذلك قول شاعرهم:

حيـــاة ثـم مـوت ثـم بعـث   حـديـث خـرافـة يـا أم عـــمرو

ومن ذلك قولهم:

ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع، نموت ونحيا، ولا يهلكنا إلا الدهر.

٢ـ الفرقة الثانية: كانت تعترف بالخالق، وابتداء الخلق ولكنها تنكر المعاد.

٣ـ الفرقة الثالثة: تعترف بالخالق وابتداء الخلق ونوعًا من البعث ثم أنكروا ذلك وعبدوا الأوثان ظانين أنها ستكون شفيعًا لهم لدى الله ـ سبحانه وتعالى.

وكان من بينهم من يعبد النجوم والكواكب مثل الأشوريين، ومن يعبد الحيوانات مثل المصريين، ومن يعبد الملائكة والجن وكان منهم من انحرف لمذهب من يعتقد فى تناسخ الأرواح.

ويحدثنا المؤلف بعد ذلك عن كرم العرب وسخائهم وتحملهم للجوع والعطش فالقبائل البدوية تشتهر شهرة واسعة بين العرب بالكرم، والكرم البدوى معروف لدى البسيطة كلها، حتى الفقراء منهم يتصفون بهذه الصفة وهم يقدمون لضيوفهم أفضل ما يكون عندهم من طعام أو شراب وإن لم يجد الواحد منهم ما عنده لذلك فقد يذبح حصانه وناقته وهو أحوج ما يكون إليهما، وهم لشهرتهم بالكرم، فالكرماء منهم ممدوحون أبدًا، والبخلاء مَذْمومُون نادمون أبد الدهر.

ولما كان بعض العربان يفرحون بقدوم الضيف فرحًا شديدًا فينتظرون كل صباح ورود الضيف، ويناجون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبعث لهم ضيفًا وسواء أكان الضيف معروفًا أم غير معروف فالواجب يحتم إكرامه بغض النظر

عـن معرفتـه أو عدمها، بل هـم يتنافسون فى بذل هذا الشرف والترحيب بالضيف الغريب ويأخذونه إلى منازلهم حيث يعدون لهم أجود أنواع الطعام والشراب.

ومن عاداتهم تقديم ثلاثة فناجين قهوة متتالية ولكن بن هذه القهوة لابد أن ينضج بعد ورود الضيف ويطحن فى المطحن ويسوى فى إبريق من الفخار، وقد يضحى صاحب البيت فى سبيل حماية ضيفه بنفسه وماله وعلى الضيف أن يعد نفسه واحداً من أهل البيت وأن يدافع عنهم إذا ما تعرضوا للأذى.

ومن صفاتهم أيضاً تحمل الجوع والعطش والجو الشديد الحرارة وليس فى العالم قوم يتحملون هذه الأشياء مثلهم والذى يشبع منهم مرة فى أربع وعشرين ساعة يعد نفسه سعيداً.

وهم يعيشون على تناول الأعشاب التى تنمو بجانب الغدران التى تكونت من أثر الأمطار، وعندما يتجهون إلى مكان ما للإغارة على بعضهم بما أنهم لا يملكون كثيراً من الزاد فإنهم يطحنون الدخن وشيئاً من الدقيق وكلما يجوعون يضعون فى أفواههم قدرًا منه ويشربون ماء.

ومع كل هذا التحمل فصحتهم جيدة وأجسامهم قوية إلا أن قوة أجسامهم لا تكتمل فبنية أجسامهم نحيفة وهم فى غاية من خفة الدم.

وفى الفصل الرابع من الباب السادس يحدثنا المصنف عن باب من الأبواب الطريفة والنادرة وهى عادات العرب وأساليبهم فى السلب والإغارة والعرب الذين يخرجون للسلب والنهب يتخذون أحدهم رئيساً وقائداً ولا يخرجون عن طاعته ورأيه، ومن أحكام السلب والنهب عندهم أن يكون نصف الخارجين ركباناً، والنصف الآخر من المترجلين وفى أثناء قتالهم لا يستخدمون الأسلحة النارية، ولكنهم يقاتلون بالأسلحة البيضاء مثل السيف والرماح وما يشبهها من الآلات.

وبعدما يهيئون مهماتهم الحربية ويتخذون تدابيرهم القتالية ويقتربون من مقر

القبيلة التى يريدون أن يقتحموها، يختفون فى مكان ما ثم يبعثون باثنين منهم للتجسس ويصعد الجاسوسان على قمة جبل ويرصدون أحوال العدو وأغنامهم وكل ما يملكون من أموال، وإذا قنعوا بقدرتهم على العدو أغاروا عليهم واقتحموا القبيلة صباحاً ونهبوا أموالهم وأغنامهم، وإذا كانت الإغارة ليلاً قيدوا الرعاة على جذع الشجر ثم يسوقون ما نهبوا فى سرعة شديدة.

وفى الفصل الخامس يحدثنا المؤلف عن عادات العرب فى تربية أطفالهم وكذلك عاداتهم فى الوليمة والختان.

تربية الأطفال

يكلف العربان أولادهم إذا بلغوا سن الثالثة برعى الجدى والحملان حول قريتهم، وعندما يبلغون السنة الرابعة يرعون الحمير والحملان فى أماكن أبعد من ذلك.

وإذا بلغوا الخامسة من عمرهم يعلمونهم الجلوس على ظهور الجمال، فإذا بلغوا السادسة يعلمونهم ركوب الجمال بمفردهم.

ويكتسب أطفال البدو مهارة عظيمة فى ركوب الخيول والجمال حتى إنهم يستطيعون أن يركبوا جملاً مهما جرى سريعاً، ومهما كان الحصان العربى سريعاً فركوبه والجرى به يعتبر بالنسبة للطفل العربى من قبيل اللهو.

وتظل الصبايا إلى أن يبلغن السنة العاشرة من عمرهن مع الأطفال يعملن معهم فى رعى الغنم والمعز، ويعلموهن فى هذه السِّن حلب النعاج والمعزات وصنع اللبن الرائب والجبن.

الزواج وعاداته

يعد أبناء العم وأبناء الأخوات أكفاء للبنات العربيات إذا كان الواحد من هؤلاء غير مقيد بالزواج أو متزوجاً غير راضٍ بزواج البنت من طالب يدها فمثل هذه البنت لا تتزوج.

والمهر بالنسبة للأغنياء عبارة عن «بسط» (سجادة أو كليم) كبير من الصوف، وسوارين للمعصم من الذهب وفساتين وبعض الإبل والأغنام.

وليمة العرس:

ويقدم فى وليمة العرس الأرز المطبوخ وعليه لحم الغنم الذى ذبح من قبل وأعد للضيوف، وهذا من العادات العربية الجارية.

حفل الختان

يختن العرب أولادهم الذكور فى اليوم السابع من ولادتهم، وبعضهم في يوم الأربعين، وبعضهم فيما بعد، كما يقرر عرب من هذيل الذين يسكنون بجانب مكة المكرمة ألا يختنوا أبناءهم إلا عند الزواج فعندما يقررون عقد زواجهم عندئذ يختنونهم، وعندما يقرر ختان ذلك الفتى فمن عادة هؤلاء القوم أن يدعوا لحفل ختانه أحباءه وأقاربه وجماعات القرى المتجاورة، وكل واحد من المدعوين يهدون لصاحب الحفل على حسب قدرته خروفاً واحداً أو أكثر وجملاً ومعزة أو ثورا.

كما أن من عاداتهم أن يسوق كل فرد ما يريد أن يهديه من الحيوانات أمامه وأن يذهب إلى القرية التى سيحتفل فيها قبل الختان بيوم أو بيومين.

وفى الفصل السادس يتحدث المؤلف عن سبب حب العرب للنخيل والجياد الأصيلة، وصورة الأوسمة التى تطبع على الجمال فى الأراضى الحجازية وبما أن هذه الأشجار المباركة لا تنمو فى كل أماكن الحجاز لذلك يحرص غارسوها أن يغرسوها على أطراف ممرات السيول، وحيث الماء قريب من سطح الأرض والأماكن الرطبة، ثم يتعَهَّدونها بالسُّقيا أربعين يوماً حتى تتمكن جذورها فى الأرض ثم يتركونها لحالها.

يقال للتمر أول ما يظهر «زهواً» وعندما يحمر ويبدأ فى النضج يطلق عليه «رطب»، والتمر فاكهة مغذية قوية، والبدو وأهل المدينة يفضلون أكل الطازج منه، ويبيعون الرطب.

الخيل:-

يطلق فى بلاد العرب على ذكر الحصان (الخيل) ولأنثاه يُقال (فرس) وهم يربون الخيل ليأخذوا ذريته فقط، لذا لا يحتفظون بذكر المهر بل يبيعونها للبلاد المجاورة لهم ولكنهم يحتفظون بأنثى المهور ليركبوها فى الحروب ويحرصون على الاحتفاظ بها ولا يستطيع أن يمتلك هذه الفرس إلا الأغنياء، أو يشترك عدة أشخاص في ملكيتها.

ويمكننا تلخيص موضوعات هذا الجزء فى:

١- الموقع الجغرافى والواقع الاجتماعى للجزيرة العربية.

٢- التاريخ السياسى والاجتماعى لجزيرة العرب

٣- القبائل التى سكنتها قديماً وحديثاً، وتاريخها.

٤- عادات أهل الجزيرة وأخلاقهم وصفاتهم.

والحق أن هذا الجزء تفرد ببعض الموضوعات الطريفة والشيقة والتى قلما تجتمع فى غيره من المصادر ومنها:

١- حديثه عن الأصول والقواعد الخاصة بالحروب عند العرب والتدابير الحربية واللصوصية، وهو كذلك من الموضوعات التى تخلو منها كثير من الكتب.

٢- سرده لعادات العرب فى تربية أطفالهم، وعادات الختان، والوليمة.

عناصر مجلد «مرآة جزيرة العرب»:

تاريخ وخبر جزيرة العرب ـ خلفاء وملوك الجزيرة العربية ـ الخارجين فى البلاد اليمنية ـ طائفة القرامطة وخبرهم.

أحوال الجزيرة الجغرافية والمناخية ـ ما يحيط بالجزيرة من بحار ومحيطات ـ جده وأحوالها الجغرافية ـ أماكن المدينة، وحدودها.

طرق المدينة ـ الطريق السلطانى ـ طريق فرع ـ طريق غاير ـ طريق مكة والمدينة ـ طريق ينبع ـ طرق مؤدية لمكة.

قبائل الجزيرة العربية ـ قبيلة حويطات وجهينة ـ قبائل بجاولة، وأحوالها ـ قبائل مطير وبنى سليم ـ قبائل مكة المكرمة، والمدينة ـ وصف اليمن وحدوده.

وعادات وتقاليد أهل الجزيرة العربية ومذاهبهم ـ وصف وتعريف «سمية وخمسة ومنن» من قوانين العرب ـ وصف كرم العرب وصلابتهم ـ ذكر تقاليد العرب الحربية ـ تربية أطفال العرب ـ حب العرب للنخيل والجياد.

* * *

مرآة الحرمين
مرآة مكة

إن الحمد والشكر والثناء بالصدق والإخلاص لأعظم المستحقين سبحانه «تعالى شأنه عما يقولون» حمداً يفوق فى الكثرة أنفاس قوافل الحجاج المتقاطرة وشكرا يزيد عن حاجة الأرامل فى مختلف المراحل.

له الحمد والشكر إذْ أنشأ مبنى العزة الكعبة المعظمة فى مدينة (مكة المكرمة) مهتدى الضالين فى صحراء العصيان، ودعا لدار الضيافة عميم النوال، دعا جميع سكان بلاد الموحدين أطعمهم من المائدة العظيمة الفائدة والنفع من قوله **﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾** (آل عمران: ٩٧) وأحاط بالعظمة والفخامة جميع السلاطين والحكام الذين وقفوا فى تجديد قبلة جميع الرسل والأنبياء وتعمير بيت الله العظيم.

وأعرض الصلوات الصافيات المتنوعات لنبينا خاتم الرسل والأنبياء نتيجة مقدمة الأكوان والشئون «عليه وعلى آله سلام الله المنان» وأفرش حجرة نبينا الطاهرة وروضته المضيئة بالصلاة والسلام.

وأخص منير مضاجع آل البيت وأهله والأصحاب الكرام برفع تحياتى الوافرة إذ بينوا لنا فضائل المآثر المبروكة والمساجد المسعودة التى عينها لهم نبى الإنس والجن «عليه صلوات الله الرحمن» وهكذا أبرزوا خدماتهم فى سبيل الدين المبين وحبيب الله رب العالمين وزادوا فى أجر جموع الحجاج الكرام ومثوبتهم بزيارة هذه الأماكن المقدسة.

وبعد فيعرف أهل النُهى جيداً أن كل قطعة من حجارة البلدتين الطيبتين أغلى وأكرم من جواهر ملك سليمان، وكل ذرة من ترابهما المطوية بالغفران أعز من إكسير العظمة وجوهرها، ومن هنا فَإنَّ أفضليَّة البلدتين الطيبتين على جميع الممالك على وجه البسيطة ظاهرة للعيان. ووجوب زيارتهما على كل مسلم قادر أمرٌ بديهيٌّ وَاضِحٌ، يزورهما فيستطلع فوائدهما وفضائلهما ويستكشف خصالهما وخصائصهما، وهذه الزيارة لها شديد اللزوم لكل موحد يلبى الدعوة الروحانية الإبراهيمية «على نبينا وعليه التحية» بالصلاة والسلام وعلى الذين يأتون لهذا المكان مثل حمائم الحرم طالبين الراحة النفسية.

وقد ألف العلماء الكرام كثيراً من الكتب ليبرهنوا على أن الأرض المضيئة التى تحتوى على الأقطار الحجازية المنجية أقدس مكان على وجه الأرض ونشروا هذه الكتب وليعرفوا الخلف ما تمتاز به الأراضى الحجازية من فضل وقدسية في نشأتها. كما أن شعراء القبائل البدوية قد أنشدوا قصائد بليغة وفقرات مسجوعة فى ذات الموضوع تناقلتها الألسن.

إلا أنه لا يخفى على أصحاب الاطلاع والبحث والتدقيق أن تلك الكتب المؤلفة فى هذا الموضوع والقصائد التى قيلت فيه ظلت فى زاوية منسية في أصونة دور الكتب.

وبما أنه لم يكتب إلى الآن فى لغتنا التركية كتاب مستقل خاص بهذا الموضوع فالروايات التى تتناقلها الألسن وتسمعها الآذان من البديهى ألا تخلو من التناقض، وهذا ما يجعل التأكد من حقائق الأمور من الصعوبة بمكان، وبناء على هذا فكل أبناء الوطن الذين يريدون أن يطلعوا على حقائق الأماكن المشحونة بالمحاسن ـ حقائق الحرمين الشريفين ـ ومواقع آثارهما وفضائلهما لا يجدون مراجع يستقون منها ما تتوق أنفسهم إلى معرفته من حقائق الحرمين الشريفين، فأحسَّ هذا الفقير العاجز بالحاجة إلى أثر فوائد موائده لم ير ولم يسمع بمثله إلى الآن، أثر عظيم القدر لا يستغنى عنه، وإننى كنت قد عرضت على أنظار العامة

فى ظل الكرم السلطانى المؤلفات الآتية: محمود السير - عزيز الآثار - تكملة المناسك - تاريخ الوهابيين - رياض الموقنين - ترجمة الشمائل.

وقد رأيت بعين الفخر والابتهاج مدى ما حازته هذه الكتب من حسن القبول لدى أهل الكمال الذين يتجاوزون عن الأخطاء، وهذا ما شجعنى على أن أطلع على الوقائع المبروكة لمكة ذات الفيوض والمدينة المفخمة ذات السعادة المدوية، وذلك من الكتب القيمة الموثوق فيها والتى تحتوى على أحوال الأوائل، تسطر أوصاف تلك المدينتين التى زخرفت على سطور حريرية، كما أننى ذكرت فى كتابى عادات أهل الجاهلية في ذلك بأقلام الفحول والرسائل النادرة من المصنفات العربية والفارسية، فأمعنت النظر فى ثناياها لأستنبط من فحواها ما يفيد معظم الملة العثمانية.

أنشر منها ما هو نافع ومفيد وهكذا أردت بأن أكتب تاريخا باللغة التركية عن البلاد الحجازية المتسعة، أبين فيه أحداثها الماضية وأحوالها التاريخية جامعها كلها فى مجلدات خاصة، وأقدم لأبناء الوطن ما يفيدهم وينفعهم.

إن الخاطر الذى طرأ على ذهنى كان فى حاجة للتنظيم والترتيب مع قلة المعلومات فى الموضوع. كما أن الأقوال التاريخية المتباينة فى مواقع «يثرب» و «بطحاء» وإعمال الفكر والتدقيق والبحث فيها كانت مرهونة بالسفر إلى الأراضى الحجازية السعيدة للمشاهدة والتفقد. ولكن المشكلات التى صادفتنى فى هذا السبيل أدت إلى التردد والتراخى فترة ما لإجراء ما فى الضمير.

فى النهاية قدر للعاجز السفر إلى الحجاز وتيسرت له هذه السياحة وتحقق المرام، ومما ساعد على تحقيق مثل هذه الغاية المرجوة، ما يضمره الإنسان من إفادة أهل الإيمان من مثل هذه الأعمال المؤيدة بالأدلة العقلية القطعية والبراهين النقلية القوية، كما أنّ تصحيح ما يتوقع من الأخطاء فى أثرى من قبل أصحاب المروءة فى زماننا ساعدنى علي إنجاز ما فى ضميرى وعلى المضى قدما إلى إتمام هذا العبء الثقيل الذى جعلته على عاتقى وإن كان فوق قدرتى فقد مضيت فى

إنجاز ما بدأته مستظلا بالحماية السلطانية دون خوف أو رهبة في عهد السلطان التركى منير الفؤاد ومحمود السير ملك الملوك حميد الخصال، ممدوح السريرة، خادم الحرمين الشريفين خليفة رسول الثقلين، السلطان ابن السلطان الغازى «عبد الحميد» خان الثانى ابن السلطان الغازى عبد المجيد وفى عهده الذى تميز بإنجاز الأعمال الخيرية واستكمالها وانتشار العلوم والمعارف تحت ظل الأمن والأمان والطمأنينة.

وإننى أقدمت على إنجاز هذا العمل نازلا لحكم المصراع الشعرى المعروف:

«لا تبقى تحت هذه القبة إلا ذكرى طيبة ولحن عذب».

لذلك رغبت فى أن أترك ذكرى طيبة تدفع الناس للدعاء بالخير لصاحبها وهكذا جمعت ورتبت ما عزمت عليه، بعد أن دققت النظر بعمق شديد فى الكتب التى سيأتى ذكرها والتى اتخذتها مرجعا واستصوبت أن أنقل من الأدب العثمانى بعض المباحث ولا سيما من الرسالة التى ألفها الدكتور (رائف أفندى) وضمنها تدقيقاته الواقعية الشاملة، ثم توكلت على هادى السبل وبعونه شرعت فى كتابة الوقائع والأحداث لأرض بيت الله المنيرة من بدء الخليقة إلى عصرنا هذا، عصر الخلافة العثمانية، عصر العناية بالمعارف، مستعينا فى ذلك بالكتب التى اتخذتها مراجع ولم أهمل أن أضمن كتابى أقوال الذين شاهدوا المواقع التى يمكن مشاهدتها رؤية العين والتى يمكن التأكد من صحتها.

وكانت غايتى الخيرة من هذا العمل ترغيب الذين حجوا فى الحج مرة أخرى وحث وترغيب الذين لم يحجوا بعد فى الحج.

وحاولت أن تكون لغتى واضحة وعباراتى سلسة على قدر الإمكان وضمنت كتابى صور بعض المآثر وخريطة الحرمين الأنورين المسطحة.

وقسمت أثرى هذا القاصر إلى ثلاثة أقسام وسميته بـ (مرآة الحرمين) وقدمته للعتبة السلطانية الناشرة للعدل وللسلطان الذى يرفع رأسه عاليا مفتخراً بخدمة الحرمين الشريفين، وبحفظ الخرقة النبوية الشريفة ـ على صاحبها أفضل

التحيات - ويرفع علم سيّد بنى آدم المعظم ﷺ، وقدمته لإمام المسلمين وخليفة خلفاء الدين.

وإننى آمُلُ أن ينال مؤلفى هذا حسن القبول، وأين هذا الأثر من المؤلفات العثمانية المتنوعة التى تحير العقول، إلا أننى أردت أن أخدم الذين ينتمون إلى دينى مستفيدا من عهد السلطان الفاروقى الشعار ومن العهد المصون من الجور والظلم.

وبما أننى من موظفى القصر وقرناء السلطان الذين يعرضون أفكارهم بإخلاص فى العتبة السلطانية لأعد نفسى من أعظم السعداء إذا ما نال أثرى هذا شرف مطالعة السلطان المفطور على الرحمة، وإن هذا العاجز الذى لا ملجأ له سوى ظل السلطان يرجو ألا يتعرض للخجل، وأن يحظى مؤلفه بعطف السلطان وكرمه ولطفه.

وإننى أرجو من الفضلاء الذين سيمعنون النظر بين سطور مؤلفى هذا المتواضع أن يغضوا النظر عما سيظهر فيه من سهو وخطأ وكفى أن هذه الصفحات تحتوى على الجواهر القدسية.

والله ولى التوفيق

تحتوى هذه الوجهة على خمسة صور تتعلق بتعريفات أحوال مكة المعظمة الجغرافية الأولية، وأوضاع بيوتها وأشكال دورها وهيئاتها وأحوال إيجار بيوتها والمسائل المهمة حول مجاورة البيت، كذلك درجات حرارتها وبرودتها وسبب إطلاق اسم الكعبة على البيت الشريف وفضائل الكعبة الجليلة وخواصها وتعريف حدودها بالتفصيل.

إفادة مخصوصة:

الكتب التى اتخذت مراجع لكتابة «مرآة الحرمين» هى:

القسطلانى على البخارى، شروح الشفاء، روح البيان، التفسير الكبير، تفسير الكشاف، تفسير لأبى السعود، القاضى على الشهاب، تفسير الخازن، تفسير النسفى، تفسير ابن كثير، تفسير ابن عادل، فتاوى قاضى خان، منظومة ابن وهبان، روح التوشيح، صحيح مسلم، الطحاوى، درجات مرقات الصعود، تاريخ الإمام الأزرقى، تاريخ الإمام الفاكهى، خلاصة الوفا بأخبار مدينة المصطفى، مسلك المتقسط على منسك المتوسط، وفاء الوفاء، تاريخ نفيس خميس، أنس جليل، تاريخ ابن هشام مسامرات الشيخ محيى الدين، خبر البشر بخير البشر، خطابات أحمدية، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، العقد الثمين فى فضائل البلد الأمين، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تدقيقات الدكتور رائف أفندى، تحقيقات الدكتور بكر أفندى، روضة الصفاء لمحمد خاوند شاه، فتوح الحرمين، التواريخ التركية، فضائل بيت الله، ذراع الكعبة المشرفة، ذراع المدينة المنورة، مضبطة سهيلى أفندى، تاريخ نوح أفندى، سراج الملوك، الأحكام

السلطانية، فذلكة كاتب جلبى، كتاب النسب، تاريخ رضوان باشا، سبل الرشاد، شفاء الغرام، خلاصة الكلام فى بناء بيت الله الحرام، تحفة الكرام، الزهر الباسم، المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة، استقصاء البيان في مسألة الشاذروان، كتاب المعارف، التحفة المرضية فى الأخبار القدسية، نور العين فى مشهد الحسين، قرة العين فى أخذ ثأر الحسين، كتاب حكم الإسكندرى.

المباحث التى تحتوى عليها «المرآة» هى خلاصة ما أخذ واقتبس من الكتب التى ذكرت أسماؤها آنفاً.

وإننى كنت تصورت أن أكتب تاريخا عن الخطة الحجازية أبين أحداثها الماضية وأحوالها التاريخية بنية تقديمه لأبناء الوطن باللغة التركية فى مجلدات خاصة. وأن أبين فيه ما حدث لأبنيتها المقدسة إلى هذا العصر الذى نفتخر بإدراكه من حيث كم مرة جددت وعمرت المبانى المقدسة ومن الذين قاموا بهذا العمل؟ وما الجهد الذى بذل في سبيل توسيعها وتعميرها؟ وكيف كانت أشكالها القديمة وهيئاتها السابقة؟ وكيف أصبحت فيما بعد؟ وما الأماكن التى تحظى بشرف الزيارة إلى البلاد الحجازية؟ وما المآثر المبروكة فى البلاد الحجازية؟ وأين تقع؟ والأحوال الجغرافية للمسجد الحرام والروضة المطهرة لسيد الأنام مستقرها الأساسى؟ وآثارها العتيقة ومحاصيلها الزراعية وأحوال مجاورة البيت الحرام وكيفية إيجار بيوت مكة، وتقسيم الكسوة المباركة للكعبة الشريفة.

ومن هؤلاء الملاعين سكان الجحيم الذين تجرؤا على هدم بيت الله وتخريبه؟ وما العوامل التى دفعتهم إلى ذلك؟ وماذا كان مصير كل من أراد أن يحقر أيًّا من الحرمين الشريفين؟ وما مصير سفهاء الأسلاف والملاحدة الظالمين؟ ومتى اتخذ إرسال الصرة عادة؟ وفى عهد من من السلاطين؟ وكم كان مقدار المبلغ الذى تحتويه الصرة السلطانية فى العصور السابقة؟ وكيف ترسل الآن؟ وما مقدار

النقود التى ترسل؟ وما معنى المحمل الشريف؟ ومتى ابتدع إرسال المحمل وما دواعيه؟ وكم ظلت كعبة الله العلام بيتا للأوثان والأصنام؟

والحاصل أنه قد كتبت جميع الأحداث والوقائع والانقلابات الخاصة بالأقطار الحجازية، واختصصت أحداث مكة بمجلد، كما اختصصت أحداث المدينة بمجلد وإتمامًا لهذين المجلدين كتبت تاريخا للجزيرة العربية.

وإن كانت المرآة لا يمكنُ أن تبين تاريخ تأسيس بيت الله وزمنه بحيث تطمئن إليه جميع قلوب الناس، ولكنها تبين جميع الحقائق والأحوال متسلسلة بالنقل والروايات والأحداث التى ثبت وقوعها تاريخيا من عهده ﷺ إلى عصرنا هذا، وتذكر جميع الانقلابات والوقائع بعد التدقيق والبحث بعمق ومع كل واقعة تعريفها وأحداثها.

إن ما ستعرضه المرآة أمام القراء عبارة عن الصور التى عرضت أعلاه وما يتفرع من هذه الصور.

ولم تجمع محتويات الكتاب حسب أدوار الملوك والسلاطين ولكنها قسمت لبعض الوجهات والصور.

وكان الغرض من هذا التفريق أن نبين بالترتيب ما حدث فى البقعة المفخمة لكعبة الله الحرام والمسجد الشريف لرسول الله العلام منذ تأسيسهما إلى يومنا هذا، وما شاهدته الأقطار الحجازية من ثورات وانقلابات وما تحملته المواقع المسعودة من الصدمات والأحداث.

ومن البديهى أن الذين يسمعون لفظ المرآة، سيلقون نظرة على سطور صفحاتها ثم يظنون أنهم سيرون فيها صور أنفسهم بدليل لفظ المرآة التى تعكس الصور، ولكنهم إذا ما تذكروا أن من معانى المرآة ومهماتها تقريب البعيد حينئذ سيقولون بأن مرآة الحرمين كتاب تاريخ كثير المنافع جامع لأحوال عامة البلاد الحجازية.

الخلاصة:

قد بينا فيما سلف أن هدفنا من تأليف مرآة مكة: أن نعرف إخواننا فى الدين ببيت الله وما حوله من المواقع وأشكالها وأحوالها وما لهذه الأماكن والمآثر من الفضائل.

ويتحقق هذا الهدف على الوجهة الآتية والصور المقبلة؛ كلما يأتى دور موقع مقدس نقوم بتعريفه بالتفصيل وحتى نصل إلى الهدف المرجو رأسا رئى أن نرتب خلاصة مجملة.

بيت الله (الكعبة):

ويطلق على ظاهر الكعبة «بيت الله» وترتفع جدران البيت الشريف ابتداء من أرض المطاف سبعة وعشرين ذراعا وإصبعا وعرضها ذراعان[1].

ويطلق على زاوية منها اسم «ركن الحجر الأسود» وعلى الأخرى «الركن اليمانى» وعلى الثالثة «الركن الشامى» والرابعة «الركن العراقى». وطولها من ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقى اثنان وثلاثون ذراعا. ومن الركن اليمانى إلى الركن الشامى واحد وثلاثون ذراعا، ومن الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود عشرون ذراعا ومن الركن العراقى إلى الركن الشامى اثنان وعشرون ذراعا.

ويوجد باب فى الجدار الشرقى للكعبة المشرفة، وآخر فى الجدار الغربى، وقد سد هذا الباب الآن ومازال الباب الشرقى مفتوحا. وطول الباب الشرقى ستة أذرع وأربعة أصابع وعرضه ثلاثة أذرع وثمانية عشر إصبعا، وجناحا الباب مثبتان بالمسامير، وهما من شجر (الساج) الذى ينبت فى الهند، وارتفاع عتبة الباب الشريف المذكور من الأرض أربعة أذرع وثمانية أصابع، واتساعه ثلاثة أذرع وثمانية عشر أصبعا.

(١) إن الذراع المذكورة فى الصفحات من المرآة هى الذراع التى تستعمل فى مكة للقياس ويطلق عليها الذراع الهاشمية، وطولها (٦٤) أربعة وستون سنتيمتراً.

وللبيت الشريف مآثر عديدة تقع فى أماكن مقدسة مبروكة، تزار حتى الآن وهذه المآثر هى: الملتزم، المستجار، الحجر الأسود، داخل الكعبة، حجر إسماعيل، حفرة المعجن، ستار الكعبة، المطاف الشريف، المقام الشريف، المقامات الأربعة، قبة الفراشين وقبة السقاية.

الملتزم:

ويطلق على الجزء الواقع بين ركن الحجر الأسود والباب الشرقى الشريف، وسبب تسميته بهذا الاسم التزام الحجاج بالدعاء في هذا المكان المبارك بعد الطواف.

وقد أخبرنا المخبر الصادق عليه سلام الله الخالق حضرة رسولنا ﷺ أن المكان المذكور موضع استجابة، لذا يقف الحجاج بمحاذاة هذا الموقع المبارك ويجأرون بالدعاء ويمسحون حوائط الكعبة بأيديهم ويناجون الله تعالى فى تضرع.

المستجار:

هو موضع الباب الغربى المسدود الذى يقع بين الركن الشامى والركن العراقى فى مواجهة الملتزم الذى ذكر فيما سبق، وعندما حددت قريش بيت الله أغلقوا هذا الباب المبارك بالحجارة، ومازال مغلقا من ذلك العهد. وعرض المستجار أربعة أذرع وخمسة أصابع أما عرض الباب المسدود فثلاثة أذرع، وسبب تسميته بالمستجار لاستجارة الحجاج عنده من ذنوبهم ولأنهم يسألون الله سبحانه وتعالى المغفرة لاصقين صدورهم به.

الحجر الأسود:

ويطلق على الحجر الأسود الموضوع فى الزاوية التى يحاذى فيها باب الكعبة المعظمة المقام الحنبلى وهو مبتدأ الطواف، والمكان الموضوع به الحجر الأسود يرتفع عن الطواف بثلاثة أذرع وأربعة أصابع أو يزيد، والغرض من وضع الحجر الأسود فى هذا الموضع إبرازه بحيث يمكن رؤيته.

لقد استلم الملائكة المقربون الحجر الأسود ولمسته شفاه كل الأنبياء لذا فإن استلام هذا الحجر الشريف أو تقبيله يجب أن يتم بمنتهى الخشوع والخضوع، ويقتضي من الطائفين مزيدا من الدقة والعناية حتى لا يؤذوا المتزاحمين.

داخل الكعبة:

يطلق على المكان الطاهر المقدس الموجود داخل جدران بيت الله، ورغم أن الوجه الداخلى لهذه الجدران من الرخام المصقول فإن رؤيتها أصبحت مستحيلة فى وقتنا الحالى لما علق عليها من الأستار المزركشة.

وعندما كان يجلس سلطان جديد على العرش كانت تغير هذه الأستار والزينات، والهدف من هذا العمل توفير هذا المكان وتقديره بتزيينه بالذهب وغيره إلا أن العلماء لم يجيزوا أن تزين الكعبة الشريفة بالزينات الظاهرة، كما أن أوائل العلماء المسلمين لم يحسروا عن الإفتاء بجواز تزيين داخل بيت الله تزييناً مبالغا فيه، ولقد أرسل أثرياء المسلمين وأغنياؤهم هدايا مصنوعة من الذهب والفضة إلا أن علماء الحرمين الأجلاء رفضوا قبولها.

والواقع أن هذه البقعة الطاهرة المليئة بالفضائل الذاتية غنية عن مثل هذه الزينات.

وبما أن اهتمام أهل الصلاح بالزينات الظاهرة مستحيل فعلى العاقل أن يهتم بما حازته الكعبة من تقدير وتبجيل عند الله سبحانه وتعالى، ولو كان تزيين الكعبة المكرمة بالذهب والفضة جائزا شرعاً لأصبحت جدران حرم المسجد الحرام وأرضه موشاة بالذهب والفضة.

وليته لم يسمح بوجود الزينات الحالية حتى يخلو حرم كعبة الله من كل ما يرمز إلى طغيان العزة الدنيوية.

وهل يأمل المسلمون إرضاء الله بتزيين الكعبة الشريفة بشيء بغيض عند الله سبحانه وتعالى؟ والأجدر بالمؤمنين اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه ومادام الله

سبحانه وتعالى قد أمر بتعظيم بيت الله وتوقيره يجب أن يوجه التوقير والتعظيم لحجارة الكعبة الشريفة وترابها ورعاية جيرانها.

وهذا العرض الموجز تعريف وبيان للبيت الشريف أول بيت وضع للناس لعبادة الله سبحانه وتعالى.

(محاضرة الأوائل).

فى الطرف الغربى من جدران داخل بيت الله جذع شجرة ملون بالأبيض والأسود طوله اثنا عشر ذراعا وكذلك عرضه، وفى أعلى الجذع كمر اتساعه ثلاثة أصابع.

ويروى أن لحية سيدنا صاحب الشريعة - عليه أكمل التحية - قد لامست هذا الجذع.

حجر إسماعيل:

وهو اسم آخر للحطيم الكريم، ويقع فى الطرف الشمالى من الكعبة المعظمة ويمتاز بجدار على هيئة نصف الدائرة وطرفه الداخلى مغطى بالرخام.

والموضع المبارك الممتد من جدار الحطيم الشريف حتى حائط الكعبة ثمانية عشر ذراعا وثمانية أصابع منها حوالى ستة أو سبعة أذرع تعد من داخل الكعبة المعظمة والباقى كان حظيرة لماعز إسماعيل - عليه السلام - وفيما بعد أدخل فى الحجر، تمتد حدود الحطيم من الركن العراقى إلى الركن الشامى والمساحة بين هذين الركنين عشرون ذراعا.

وللحطيم بابان أحدهما عند الركن الشامى والآخر عند الركن العراقى، وارتفاع جدران الحطيم ثلاثة أذرع ومساحته من الداخل ثمان وثلاثون ذراعاً.

ميزاب الكعبة:

هو اسم الميزاب الذى يقع بين الركنين سالفى الذكر - أى وسط الجدار المفعم بالنور - الذى يلى حجر إسماعيل ويلتصق بسقف الكعبة.

حفرة المعجن:

ويسمى أيضا مقام جبريل، وهى عبارة عن الحفرة الموجودة فى جهة الركن العراقى من الجدار الشرقى للكعبة المعظمة عند مقام إبراهيم. على مسافة ثلاثة أصابع من الكعبة، وطول حفرة المعجن ثمانية أشبار وثمانية أصابع، وعرضها خمسة أذرع، وعمقها أربعة أصابع، ويروى أن سيدنا إبراهيم أعد فى هذه الحفرة الطين الذى استخدمه فى بناء الكعبة.

ويروى أنه حينما فرضت الصلاة على المسلمين صلى إمام الأنبياء سيدنا محمد ـ ﷺ ـ الصلوات الخمس فى هذا المكان المبارك.

الشادروان:

ويطلق هذا الاسم على الأماكن البارزة المتصلة بأسس جدران الكعبة المعظمة وعلى هذه الأجزاء البارزة حلقات كثيرة يربطون بها أستار الكعبة الشريفة.

الستارة الشريفة:

هو اسم القماش الذى يغطى الكعبة الشريفة. وهذه الستارة منسوجة من الحرير الأسود.

وقد نقش فوقها ـ بخط جميل ـ بعض الكلمات الطيبة والآيات الكريمة. ويوجد وسط الستارة حزام معروف بحزام بيت الله وهذا كحزام يحيط بستارة الكعبة المفخمة من جوانبها الأربعة، وقد كتب عليه بخط جلى نفيس السورة الكريمة سورة الفتح كاملة.

المطاف الشريف:

وهو الموضع المبارك الذى يسير فيه حجاج الكعبة المكرمة فى أثناء الطواف.

والجهة الشرقية لهذا المطاف المبارك تمتد من سياج المقام الشريف إلى شادروان الكعبة بمقدار أربعة وأربعين قدماً، والجهة الشمالية تمتد من جدار الكعبة إلى المقام

(١) القدم: وحدة قياس توازى ثُلُثَ ياردة، وهى ما بين (٣٢سم ـ ٣٥سم).

الحنفى بطول ثمان وأربعين قدماً، والجانب الغربى يمتد إلى الرصيف الذى يتصل بحدود المطاف خمسة وستين قدما، والجانب الجنوبى يمتد من زاويتى الركن اليمانى وركن الحجر الأسود إلى حدود رصيف المطاف الشريف بطول سبعة وأربعين قدما.

المقام الشريف:

هو الحجارة التى استخدمها سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ بمثابة منصة فى أثناء قيامه برفع بناء الكعبة، وأعلى مقام إبراهيم مربع بقطر ثلث ذراع.

وروى الشيخ عز الدين وهو من مجاورى البيت فى سنة سبعمائة وخمسين هجرية أن المقام الشريف يرتفع عن الأرض واحدا وعشرين أصبعا. وقد رفع أثر القدم المبارك لسيدنا إبراهيم من فوق المقام وغطى بطبقة من الفضة. وأدخلت هذه الفضة من خلف آثار قدم خليل الرحمن بسبعة خطوط ونصف.

والمقام الشريف الذى وصفنا شكله صندوق متين بلوحات قامة رجل وجوانبه الأربعة ذات شبكة حديدية. وهذا الصندوق مكسو بلوحات من الفضة ومغطى بقماش لامع موشى غاية فى الجمال، وقد شيدت قبة من الخشب فوق صندوق مقام إبراهيم وزينت هذه القبة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة، وزيد على واجهتها الشرقية سقف يؤدى تحته الحجاج ركعتين بعد الطواف، وهى صلاة واجبة، وإذا لم يجد الطائفون مكانا تحته لإقامة الصلاة فإنهم يؤدونها داخل الحطيم، وعرض هذا السقف خمسة أذرع وثمانية أصابع يمتد من المقام الشريف إلى شادروان الكعبة بطول عشرين ذراعا ونصف ذراع.

فقد المقام الشريف منذ طوفان نوح إلى عهد «إلياس بن مضر». وبعد أن عثر عليه إلياس بن مضر عرضه على أهل الحجاز الذين أخذوا فى توقيره وتعظيمه وبالتالى حذا أهل الإيمان حذوهم فى التكريم والتعظيم.

(محاضرة الأوائل).

المنبر اللطيف:

يقع فى الجهة الشمالية للمقام الشريف عند الطرف الجنوبى لبئر زمزم وبين مقام إبراهيم والمنبر تسعة أذرع، وبين زمزم والمنبر اللطيف عشرون ذراعا والمسافة من مقام إبراهيم إلى الحجر الأسود سبعة وعشرون ذراعا، وعمق بئر زمزم الشريف بدءاً من حافته يبلغ سبعة وستين ذراعا.

المقامات الأربعة:

فى الجهات الأربعة من كعبة الله أربع مقامات لأئمة المذاهب الأربعة واجبة الاحترام حيث يؤم إمام المذهب جماعته فى أوقات الصلوات الخمسة.

المقام الحنفى: يقع هذا المقام فى شمال بيت الله أمام ميزاب الرحمة، ويستقبل أهل المدينة المنورة والشام والقدس الشريف هذه الناحية من الكعبة عند الصلاة كذلك سكان بلاد المسلمين الواقعة فى ناحيتها.

المقام الشافعى: ويقع فى مواجهة الكعبة فى الجهة الشرقية من بيت الله، خلف مقام إبراهيم الشريف، وهذه الجهة من الكعبة هى قبلة أهالى ما وراء النهرين والصين وأكثر بلاد خراسان.

المقام الحنبلى: ويقع فى الجنوب من الكعبة مع ميل قليل فى اتجاه الشرق، وهو قبلة سكان بلاد الهند، وكان المقام الحنبلى قريبا جدا من بناء بئر زمزم ويكاد يتصل به، لكن هذا الموقع قد تغيَّرَ فى عهد السلطان المعظم بهمة عثمان باشا والى الحجاز المشهود له بالخدمات الجليلة التى قام بها لتعمير البلاد المباركة وأصبح ـ الآن ـ فاصل معقول بين المقام المذكور وأبنية بئر زمزم إذ جعل المقام الحنبلى فى مواجهة المقام الحنفى. وذلك فى سنة ١٢٩٧.

المقام المالكى: ويقع فى الجانب الغربى من الكعبة خلف بيت الله، وهذه الجهة قبلة مسلمى بلاد المغرب وبلاد الحبشة. وكل المقامات الأربعة المذكورة تقع خارج حدود المطاف.

لم يكن هناك مكان خاص بالمؤذنين وكانوا كلهم يؤدون مهامهم فى المحفل الشافعى الموجود فوق بئر زمزم، والمحفل الواقع فوق المقام الحنفى، وكان المؤذنون حتى عصر هارون الرشيد يجلسون فوق سطح المسجد تحت وهج الشمس، وعندما صدر الأمر إلى عبد الله بن محمد بن عمر أمير مكة ـ المشار إليه ـ بضرورة إيجاد محفل خاص بالمؤذنين، استراح المؤذنون بإنشاء محفل خاص بهم فى ذلك العهد، وبعد ذلك تقرر أن يؤدى المؤذنون مهام وظيفتهم في المحافل السالفة التعريف. (محاضرة الأوائل).

قبة الفراشيين:

وتقع قرب بئر زمزم وتسمى أيضاً قبلة الخزانة، وتوضع فى هذه الخزانة الأشياء اللازمة والقناديل والسُّرُج والمسابح الموقوفة ويحفظ كذلك بداخل القبة المذكورة كل ما يحتاجه المسجد.

قبة السقاية:

وهذه أيضاً تقع قريبا من قبة الخزانة وتسمى أيضا سقاية الحج، وقد تأسست سقاية الحج على يد العباس بن عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ واعتاد أن يقدم ماء زمزم إلى الحجاج ويسقيهم. وتحيط القباب بكل جوانب الكعبة ولها تسعة عشر بابا وسبع مآذن، المسافة من باب السلام إلى باب العمرة أربعمائة ذراع، وعرضها من باب الصفا إلى باب الندوة ستون وثلاثمائة ذراع.

مسألة:

إذا كانت قبلة المسلمين الموحدين لدى أئمة الشافعية هى مبانى الكعبة المعظمة التى سبق تعريفها. فإنها عند علماء الحنفية تبدأ من الأرض التى أقيمت عليها مبانى الكعبة الشريفة وترتفع فى الهواء إلى عنان السماء.

***

التعريف بالأحوال الجغرافية للبلدة المعظمة مكة المكرمة وأحوال الأوائل ووضع المبانى الفخمة للبيت المعظم شكلا وصورة

من البلاد التى تحكمها الدولة العَلِيَّة فى قارة آسيا الجزيرة العربية وتنقسم إلى قسمين: الرقعة الحجازية والرقعة اليمانية.

ومنطقة الحجاز كبيرة متسعة وتشمل ربع جزيرة العرب، وقد عرفناها فى موضوع الحجاز الوارد فى الصورة الثانية من الوجهة الثالثة من المجلد الثالث من مرآة الجزيرة وتقع فى الشمال والشمال الغربى من جزيرة العرب وعلى الساحل الشرقى للبحر الأحمر الممتد من السويس إلى اليمن.

يحدها شرقا بلاد نجد وصحراء الأحفال وغربا البحر الأحمر، وجنوبا الرقعة اليمانية وشمالا الفرات وبادية الشام وسوريا العرب، وتحيط بها جبال وأودية.

ولأن هذه المنطقة السعيدة تحجز بين تهامة ونجد وتفصل بين المنطقتين؛ لهذا سميت الحجاز، ومنطقة الحجاز المباركة تغلب عليها الصحارى الفيافى(١).

ولا تسقط فيها الأمطار بالدرجة المطلوبة ولذا فإن نباتاتها الأرضية من العشب الجاف تكاد لا تكفى حاجات قبائل البدو وحاجات دوابهم.

ومع هذا ففى جبالها ووديانها، حيث المياه الجارية والآبار، والينابيع الوفيرة تنبت الأشجار المثمرة والمحاصيل النافعة المتنوعة، وبما أن الهواء فى مناطق الوديان والصحارى شديد الحرارة فإن القادمين من المناطق الباردة يتضررون من هذه الحرارة ولذا فإن السكنى فى المناطق الجبلية المرتفعة حيث الجو المعتدل يبدو

(١) الفيافى: الصحراء الواسعة المستوية. واحدتها: الفَيْفَاءُ.

أصلح لهم، ورغم هطول الأمطار بغزارة فى فصل الشتاء فإنها لا تؤثر فى تغير طقس أى من المناطق باستثناء بلدة الطائف.

والمعروف أنه مع نزول المطر تنمو كل أنواع الحبوب لكن رياح السموم دائمة الهبوب تدمر وتحرق كل النباتات والثمار ما عدا الحمص والعدس والأشجار التى تقل حاجتها إلى الماء لذا فليس من الممكن أن تنمو الخضراوات والحبوب فى أى مكان سوى الأودية والجبال القابلة للزراعة.

ومناطق الشمال الغربى والجنوب مناطق خصبة بالنسبة لبقية مناطق الجزيرة. لذا فإن هواءها طيب وأراضيها صالحة للزراعة، وتزدان الجبال والمرتفعات بكثير من البساتين والحدائق الجميلة.

وفى مثل هذه المناطق تنمو نباتات كثيرة مثل السفرجل، التفاح، الخوخ، الصفصاف، الليمون، والتين، النارنج، واللوز، التمر الهندى، الطرفاء، الفستق، والنخيل، الورد، والياسمين، النرجس، الحناء، الزنجبيل، شقائق النعمان، والتيلو، القمح، الشعير، جذور الدهان الأحمر، البن، الدخان، الفلفل الأسود، الباذنجان، نبات النيلة، نبات القنب، ونباتات أخرى شبيهة لما ذكرناها.

البلدة المعظمة مكة المكرمة

البيت السامى المنير الذى ولد فيها سيد الثقلين الإنس والجن عليه الصلاة والسلام، وعاش فيها نخبة من كبار العلماء ذوى البيان الذين أضاءوا الكون بعلمهم بين فخر الكائنات عليه أتم التسليمات، مكة المكرمة التى شرفها الله تعالى إلى يوم الدين. وتقع هذه المدينة الشهيرة فى داخل إقليم الحجاز السعيد ذى المغفرة الذى عرفناه منذ قليل ومعظمه فى داخل الجزيرة العربية ومكة المكرمة مقر إدارة الحجاز وعاصمته.

وموقعها وسط منطقتى الشام واليمامة؛ لذا يبعد كل من البلدين عن مكة المعظمة مسافة ثلاثين ـ المقصود بها ٣٠ منزلاً للراحة أثناء السفر ـ والطرف

الشمالى للبلدة المباركة مكة المكرمة تحده جبال يثرب والمدينة المنورة وصحارى الشام، والطرف الجنوبى تحده جبال اليمن، والطرف الشرقى تحده وديان البحرين والبصرة ونجد والحجاز، والطرف الغربى يحده البحر الأحمر وتبعد مكة المعظمة عن مدينة إستانبول عاصمة الدولة العثمانية ـ باعتبار مبدأ الطول ـ ٣٠ دقيقة ١٥ درجة طول شرقا، وتبعد عن ميناء جدة الواقع فى الساحل الشرقى للبحر الأحمر المعروف باسم «بحر الشب» مسافة ثلاثين ميلا أى ٦٧٦٧٤ ذراعا فى جهة هبوب الرياح الجنوبية بإحدى عشرة درجة «بحساب البوصلة».

وتنقسم النواحى الملحقة بمكة المعظمة إلى قسمين هما: نجد وتهامة.

والنواحى التابعة لنجد هى: «الطائف، تمنار، قرن، نجران، مر الظهران، عكاظ، منجرة، كنبة جرش، سراة، أما النواحى التابعة لتهامة فهى نعم، عك، خنكان، ويشى، وادى نخلة، ذات عرق، يليل.

وكل ناحية من هذه النواحى تقع فى واد مستقل، ولها مصادر مياهها المعروفة ومزارعها الوفيرة. وقد تجاوز سكانها ثمانين ألف لعدة قرون، ثم تضاءل عددهم بالتدريج ولكن فى الوقت الحاضر تجاوز عددهم كل العصور السابقة، وذلك بضم سكان البادية وسكان البلاد الساحلية إليها والبلاد الساحلية هى جدة، حلى سوسين، هجم، ثرجة، أبيات حسنين.

وقد أجرى رائف أفندى دراسات كاملة فى هذا الشأن حينما كان موظفًا فى ديوان الصحة ما يقرب من ثمانى سنوات أو عشر فى مكة والمدينة، وأمضى وقته فى دراسة أحوال البدو، وقام بالإحصاء الدقيق وأخبر أن عدد سكان مكة المعظمة من الأشراف والأهالى، والمجاورين يصل تقريبا إلى سبعين ألفا. ولما كانت الأمطار لا تسقط بوفرة سواء فى مكة المكرمة أو فيما يجاورها كما يحدث فى الروم‌للى والأناضول لعدم وجود المياه الجارية أصبح سكان هذه البلدة المباركة مضطرين إلى السفر لجلب المؤن الغذائية والبضائع من البلاد الأخرى، وكان من

عاداتهم إرسال القوافل فى فصل الشتاء إلى نواحى اليمن وفى فصل الصيف إلى الشام لاستيراد البضائع اللازمة من تلك المناطق.

وقد أثبتت السورة الجليلة «سورة قريش» ذهاب أهل قريش فى الجاهلية إلى اليمن مع حلول الشتاء وإلى الشام مع دخول فصل الصيف. وقد أسهب المفسرون العظام فى عرض تفاصيل تتعلق بهذا البحث فى تفسيرهم للسورة الكريمة.

واستمر تردد القرشيين على الشام واليمن بغية جلب البضائع حتى عصر النبوة، وبعد ذلك أخذ الحجاج المسلمون يترددون أفواجا على مكة والمدينة لأداء فريضة الحج ومناسك العمرة، واشتغل أهالى مكة بأعمال الدلالة والإرشاد وسقاية ماء زمزم الشريف وسائر الخدمات التى تقدم للحجيج والعيش عليها مهما كان مقدار ما تدره من نقود. لذلك لم تعد لهم حاجة إلى التردد إلى تلك المناطق.

وغالبية أهالى مكة المفخمة من حضرموت، واليمن والهند والسند والشام ومصر وبلاد المغرب وبلاد الروم وكردستان ومجاورى سائر البلاد على وجه الأرض؛ أى أن كل سكان مكة المعظمة ماعدا الأشراف الكرام من أبناء بنى زبير وأحفاد بنى مخزوم وأولاد بنى شيبة ممن دخلوا الإسلام الذين جاءوا من خارج الحجاز واستقروا بها؛ لذا أصبح أهل مكة الأصليين قلة نادرة.

وولاية الحجاز الجليلة ولاية كبيرة مثل سائر الولايات السلطانية وقد أسندت الإمارة ـ للأشراف من أجل الإشراف على العربان والآخرين ـ لشخصية جليلة القدر وقدرة عالية على القيام بالنظارة، كما أسندت إدارة الأمور المدنية والمسائل المالية وأشياء أخرى تتعلق بالإدارة إلى شخص حكيم هو من المختارين من المشيرين العظام. واتخذت مدينة مكة المفخمة مقرًا للإمارة ومركزا للحكومة.

إن الموقع السعيد للبلدة المباركة ـ مكة المكرمة ـ عبارة عن واد مقوس ومقدس

ممتد بالطول بين سلسلة جبال تتكون من أحجار سوداء. يشمل هذا الوادى السعيد الذى تقع فيه هذه المدينة المقدسة على مبتدأ واحد ونهايتين: بدايته مقبرة المعلى ونهايته من ناحية جدة الشيخ محمود ونهايته من ناحية اليمن «مسجد حمزة» وهذه المواقع السامية تزين الخريطة بهذه الأسماء.

ومدينة مكة الشهيرة تتكون من أحياء: حارة الباب، الشبيكة، جياد، المسفلة، المدعا، المعلى، شعب على، مولد النبى، الكشاشية، المسعى، الشامية جبل قبيس، جبل عمر والسليمانية. وأنشئت بيوت هذه الأحياء ومنازلها وفقًا لانحراف الوادى الوعر.

وبسبب استحالة السير بالحيوانات ونقل الأثقال والأحمال بالإبل والدواب بداخل هذه الأحياء حيث اصطفت بعضها فوق بعض حتى منتصف هذه الجبال الواقعة فى كلا جانبى الوادى، فإنه يتم إدخال المؤن والبضائع الواردة إليها من الخارج من شوارع أحياء «المعلا» والشبيكة والمسفلة.

والمكان المزين بالحوانيت والبيوت فى الوادى السالف الذكر يمتد بطول المدينة من باب «المعلا» إلى باب «مغازة»، وكذلك يمتد من ناحية المعلا إلى «الشبيكة» ومنها إلى «الشيخ محمود» حتى السويقة بمسافة تبلغ ٦١٩٣ قدم وثمانى بوصات أى ما يعادل ٤٣٧٢ ذراع، وعرضه يمتد من سفح جبل «جزل» حتى منتصف جبل أبى قبيس بمقدار ٣٠٩٦ قدم وأربع بوصات أى ما يعادل مسافة ٣١٨٦ ذراع. أى أن مساحته طولا من ناحية الشمال إلى الجنوب تبلغ ميلين، ومساحته عرضا تمتد من سفح جبل «أبو قبيس» الواقع فى الجهة الشرقية من المدينة إلى جبل «جزل» الواقع فى الجهة الغربية من المدينة ومساحته السطحية قدر ميل واحد.

وطرق الأحياء المذكورة ليست على ما يرام من ناحية الاتساع والعظم، ورغم هذا فإن مبانيها المبنية بالحجر والطوب غاية فى الرصانة ويطلق اسم «الأخشبين» على جبال جزل وأبى قبيس والجبل الأحمر. وجبل أبى قبيس هو الجبل الكائن

فوق جبل الفا، حيث أن الجبال المذكورة غير منفصلة بل هى سلسلة من الجبال يتصل كل منها بالآخر.

وبالنظر إلى تعريف الأزرقى فإنه يلزم أن يكون اسم الجبل المقابل لجبل «أبى قبيس» قعيقعان ولما انتهى إليه تدقيق صاحب معجم البلدان وتحقيقه أنه يقتضى العثور على اسم جبل يظهر من قمته مسافة المسجد الحرام جليا.

وعلى هذا التقدير فإن الاسم الأصلى لجبل «جزل» قعيقعان، ولما كان أقرب من ناحية الغرب من طائفة «جزل» التى تنصب خيامها فوق الجبل المذكور عند ترددهم إليه من حين إلى آخر وتقيم به فترة للاستراحة أطلق عليه اسم «جبل جزل».

والبقعة المشرفة للكعبة المكرمة قصر عزة الملك العلام، وقبلة قبائل الإسلام تقع وسط المدينة المقدسة التى أسهبنا فى تعريفها، كما تتوسط المسجد الحرام دائرة الفيوضات الإلهية، وتحيط بالموضع المقدس وتحده مجموعة من البيوت والمنازل العالية الرصينة الأركان وسلسلة الجبال سالفة البيان.

إن البيت المعظم قد بناه الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل ـ عليهما ـ صلوات الله الجليل ـ صدعا بالأمر الإلهى المشرف فى البقعة التى لا مثيل لها ولا نظير، حسبما سنوضح ونعرف به فى الصورة الخامسة من الوجهة الثانية، ويقال إن بناءها تم فى المحاولة الأولى وعلى قول فى المحاولة الرابعة. وبعد أن انتهى من بنائه دعوا جميع الخلق إلى الطواف حوله وزيارته.

إن أغلب العرب المنتسبين إلى السلالة التى ينتهى إليها نسب إسماعيل ـ عليه السلام ـ عكفوا على أداء فريضة الحج كل عام بعد وفاة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ووالده خليل الرب الجليل، وبذلوا جهدهم لأداء الفرائض الأخرى، ورأوا أن أداء مثل هذه الأمور الشرعية والواجبات الدينية فرض عليهم.

واستمرت هذه الحمية الدينية عند العرب إلى أن انتقلت إدارة مكة إلى بنى خزاعة، حيث إن عمرو بن عامر الخزاعى (فصلت سيرته فى الوضع الخاص به) قام قبل البعثة النبوية بخمسمائة عام بانتزاع حكم مكة المكرمة من يد أجداد النبى - صلى الله عليه وسلم - ذوى النسب العريق، بمساعدة قومه، ودفع العرب لعبادة الأصنام وبهذا أصبح جميع سكان مكة المكرمة ومن بجوارها من عبدة الأوثان.

وبعد ظهور عمرو بن عامر بثلاثمائة سنة وقبل الهجرة النبوية بمائتى سنة دارت الحرب بين قصى بن كلاب «أحد أجداد النبى» لإمالة العرب إلى قبول دين إبراهيم الحنيف وبين بنى خزاعة وكان النصر حليفه، وأخرج كل بنى خزاعة من مكة، غير أن عبادة الأصنام تلك العادة الباطلة كانت قد تمكنت من قلوبهم، فاستمرت بينهم حتى عصر النبوة والهداية عصر سيد البشر - عليه الصلاة والسلام - بسبب شكل العبادة المشئومة التى جلبها عمرو بن عامر قامت قريش وقد اعتنقت عبادة الأوثان بإدخال الأصنام إلى المسجد الحرام حينما سمح الزمان به، وصنعت ثلاثمائة وست وستين صنما مجسما من الحجر والشجر ووضعتها داخل الكعبة المعظمة التى تمثل قطعة من الجنة.

وظلت هذه الأصنام داخل البقعة المقدسة «الكعبة المشرفة» إلى أن تم فتح مكة على يد سيد الأنبياء الذى كانت بعثته ورسالته رحمة خالصة.

أديان العرب فى الجاهلية

كان للعرب فى جاهليتهم عدة أديان مثل المسيحية، اليهودية، المجوسية، والزندقة، فكانت قبائل ربيعة بن غسان وبعض آل قضاعة على دين المسيحية، وأهل حمير وبنو كنانة وبنو الحارث بن كعب وأهل كندة على اليهودية، وبنو تميم على المجوسية، وكانت قريش على الزندقة.

ومن المخذولين الذين اعتنقوا المجوسية آنذاك زرارة بن عدس وابنه حاجب

بن زرارة، وبدافع من هذه المجوسية تزوج زرارة من ابنته التى من صلبه، ثم ندم بعد ذلك وخجل من فعلته وطلقها.

وكان الأقرع بن حابس وأبو سود من المجوس وأبو سود هذا جد وكيع بن حسان. وقد صنع بنو حنيفة من قريش إلهًا لهم من طعام اسمه (حبس) وظلوا يعبدونه لمدة طويلة، وعندما حدثت المجاعة والقحط قاموا بتقسيمه ثم أكلوه. وقد سجل أحد شعراء بنى تميم هذه الواقعة فى بيت من الشعر قال فيه:

أكلت ربها حنيفة من جوع ... قديم بها ومن عوز

وقال آخر:

أكلت حنيفة ربها ... زمن التفحم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم ... سوء العواقب والنياعة(١)

ورغم أن هذه الواقعة حدثت قبل البعثة النبوية الجليلة فقد كان هناك من يسعى فى طلب الدين الحق ومن جملة هؤلاء: أرباب بن رئاب، وكان يعتنق المسيحية دين عيسى عليه السلام، وابن نوفل بن أسد بن عبد العزى - أى ورقة بن نوفل - الذى انصرف عن عبادة الأوثان واعتنق المسيحية التى لم تكن قد تبدلت تماما، وذلك للوصول إلى الدين الحق، كذلك زيد بن عمرو بن نفيل أبو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، والذى استشهد فى رحلته إلى الشام طلبا للدين الحق. كذلك أمية بن أبى الصلت الذى تظاهر فى بادئ الأمر بطلب الدين الحق لكنه فيما بعد، اختار الكفر حسدا للرسول - عليه الصلاة والسلام - على نبوته. فإذا ما جئنا إلى أسعد بن أبى كرب الحميرى فقد أسلم قبل البعثة النبوية بسبعمائة عام. كذلك كان كلاً من قس بن ساعدة الإيادى و«أبو قيس» صرمة بن أبى أنس أيضا من المسلمين فى الجاهلية. وكان قس بن ساعدة من مشاهير حكماء العرب واعتاد أن يخطب فى الناس من فوق ظهر الجمل فى سوق عكاظ. وقد أدرك أبو قيس الإسلام وأسلم.

(١) النياعة: العطش.

وقد عرفت الخطابة من فوق ظهور الحيوانات فى بادئ الأمر مع قس بن ساعدة «كتاب المعارف».

لقد امتد العمر طويلا بقس بن ساعدة المشهود له بالفصاحة وقد أنبأ وبشر بمجيء الرسول خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام قبل البعثة.

وقد حضر الرسول فخر العالم ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات مرة إحدى خطب قس بن ساعدة قبل بعثته فى سوق عكاظ بدون علم منه، هذه الخطبة التى نالت شهرة واسعة بين بلغاء العرب. وحفظها ورددها كل الكبار والصغار فى ذلك العصر.

فى ذلك اليوم اعتلى «قس بن ساعدة» ظهر جمله الأحمر وقال خطبته التالية أيها الناس: اسمعوا واعوا:

من عاش مات ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، المطر يسقط، والعشب ينبت، والأطفال يولدون ويقومون مقام الأمهات والآباء وبعد ذلك كل هذا يفنى، وتتابع الأحداث، ويتبع الواحد الآخر، أنصتوا وانتبهوا ففى السماء خبر، وفى الأرض عبر، وجه الأرض فرش إيوان ووجه السماء سقف عال، النجوم تتحرك والبحار تقف، القادم لا يبقى والذاهب لا يأتى، هل يا ترى يبقون حيث يذهبون معجبين به أم يحجزون هناك ويغشاهم يوم طويل! إننى أقسم أن عند الله دين أحب من دينكم الذى أنتم عليه، وهناك رسول سيأتى أوشك زمان ظهوره.

وقد أظلكم زمانه، فما أسعد من يؤمن به ويهتدى وما أشقى من يعصيه ويخالفه، زمانه يا للأسى على الأمم التى قضت عمرها فى الغفلة.

يا قوم إياد.. أين آباؤكم وأجدادكم؟ بالله أين قصوركم المزينة؟ أين عاد وثمود الذين نحتوا بيوتا من الحجارة؟ وأين فرعون؟ أين النمرود الذى غرته الدنيا وقال لقومه إنى أنا ربكم الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم ثروة وقوة وقدرة؟ ألم يكونوا أكثر منكم عددا؟ لقد طوتهم هذه الأرض فى دورانها، فأصبحوا ترابا تَذْرُوهُ الرياح، وبليت عظامهم وصارت رمادا وتهدمت بيوتهم فأصبحت خاوية

الكلاب تعوى فى أراضيهم وبلادهم. احذروا من الغفلة ولا تكونوا مثلهم، ولا تسلكوا طريقهم، كل شىء فان ولن يبقى إلا الحق الواحد الذى لا شريك له ولا نظير هو وحده المعبود، لم يلد ولم يولد، وما أكثر الأحداث الجارية لنا فيها عبرة. نهر الموت مداخله كثيرة، لكن ليس له مخرج، الكل سيمضى الكبير والصغير الذاهب لا يعود وأوقن أن ما يجرى لعامة الناس سيصيبنى أيضا.

«قصص الأنبياء ـ لجوتب باش»

استمرت عادات العرب الباطلة فى الجاهلية إلى ما بعد الإسلام ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلطان عرش الدين المبين قام ـ مؤيدا بالوحى الإلهى ـ بتمزيق العقائد الباطلة والقضاء عليها وعلى العبادات البدوية الفاسدة. وأبقى على بعض أحكام دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيف التى توافق فطرة الإنسان وتعاليم الإسلام الجليلة، وأيدها وجعلها من أحكام الشريعة الإسلامية.

ومن الأحكام الشرعية التى أخذت من إبراهيم ـ عليه السلام ـ ما ينص عليه القول الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ (آل عمران: ٩٧).

الذى يدعو إلى الأخوة الإسلامية التى تتحقق باتحاد الأمة المحمدية والذى يدعو إلى وحدة المسلمين حتى تتحقق للأمة الإسلامية قوة الشوكة، وهكذا فرض الحج ليجتمع المسلمون متحابين فى الأرض الطاهرة المباركة «مكة المكرمة» حيث يطلعون على الأسرار الخفية الحقيقية للدعوة، ويجتمعون فى عرفات فى يوم أخضر قدسى لتزداد الأخوة بين أفراد الأمة الإسلامية، وهكذا انتشرت أنوار الجماعة الإسلامية التى تحمى المدينة الطاهرة.

وإنه لمن المسلم به لدى ذوى التجارب وأهل البصيرة من الملل الأخرى أن الاتحاد الدينى يؤدى إلى التقدم المدنيَّة والقوة. وإننا نشكر الله مع أمتنا أنه شرفنا بالإسلام الذي كان مبعث سعادتنا وسلامتنا ومبعث قوة حضارتنا وشوكتها فى الدنيا والآخرة.

أسماء مكة الله السامية

عدد الأسماء ذات الدلالة الباهرة التى أطلقت على مدينة مكة المعظمة فى الكتب المقدسة كثيرة وهى: «مكة، بكة، بلد، قرية، أم القرى، بلدة، البلد الأمين، صلاح، باس، البساسة، ناسة، النساسة، حاطمة، رأس، كوثى، أم عرش، عريش، عرش، قادس، القادسية، سبوحة، حرام، البلد الحرام، المسجد الحرام، معطشة، برة، رتاج، رحم، أم، أم رحم، أم الرحمة، أم كوثى، أمينة، أم الصفا، مروية، أم المشاعر، متحفة، البلدة المرزوقة، تهامة، الحجاز، طيبة، مدينة الرب، عاقر، فاران» وعددها خمسة وأربعون اسما جليلا. ولها ثمانية ألقاب جليلة مثل «المشرفة، المكرمة، المفخمة، المهابة، الوالدة، النادرة، الجامعة، المباركة».

ولا يجوز الدخول بلا إحرام داخل حدود مكة الميمونة التى وضحناها فى المقالة الرابعة.

منظومة

تذكر الأخبار خمسة وأربعين اسما للكعبة
ألا فاحفظها لتنير قلبك بها
بلد، أم رحم، أم القرى، مكة، بكة
صلاح، قرية، باسم، رأس، ناسة،
بلدة الستار
حجاز، قادسية، قادسى، طيبة، متحفة
تهامة، مروية،
أم المشاعر أم عرش،
عرش، عريش، حاطمة، أم الصفا، كوثى
رتاج، البساسة، نساسة، سبوحة،

بــــــرة مقـدســـــــــــــــــة،

حـرام، أم رحمـة، البلـد الحـــــــرام،

مـدينــــــة الـــــــــــــــــــــرب،

أم كوثــى، معطشــــة، مـرزوقــــــــة

باسة، رحـم وكذلك المسجد الحرام، أمينـة،

عـــاقــــــر فـــــــــــــــــــاران

فـإن حسـبتها يـا طالـب الأخبـار ألفيتهـــا

خمســــــا وأربعـــــــــــــــــــين.

سبب إطلاق هذه الأسماء على الكعبة

اسم مكة المكرمة يطلق على هذه المدينة المقدسة فقط أو مجموع الحرم الشريف أى المناطق الواقعة داخل المواقيت المحدودة، وسبب تسميتها بهذا الاسم يرجع إلى أسباب متعددة:

على قول أنه مأخوذ من معنى «النفض» وكأنها تنفض أى تفنى جميع الآثام.

وعلى رأى آخر أنها تنفض الظلم وتهلك أهل الجور.

وعلى رأى ثالث أن الأرض المقدسة قليلة المياه وسكانها كأنهم يمتصون المياه من أرضها بأفواههم، أو أنه مأخوذ من معنى «المص» والرشف، وكأنها تمتص الناس كل سنة من جميع الجهات وتجذبهم إليها، أو أنها تمحو وتدفع عصيان العصاة. أو أنه مأخوذ من لفظ «مكاكة» التى تعنى النخاع والمخ فى وسط العظام، وكأن كعبة الله فى وسط الدنيا وخلاصتها.

وعلى قول، إن الأرض المباركة بيت الله تمتص ذنوب العصاة وأوزارهم وتخرجها ثم تمحوها، وكأنها تمتص النخاع من العظام. وكانت هذه البقعة

مشهورة بقداستها حتى قبل الإسلام وإبان مجد الإمبراطورية الرومانية وكانت تذكر باسم «مقربة» وتعرف به.

رواية:

خلق تراب بيت العزة العاطر قبل خلقة وجه الأرض وأن الكرة الأرضية قد بسطت من ذيل بقعة الكعبة المعظمة وخلقت.

نظم:

أكثر من أهل الدنيا وفى كثير لا خباب * لها الحصين المستحكم من الأبواب
ويمر عام ثم أعوام لا يحدها إحصاء * ومن مادتها تنبسط الغبراء
أول بناء أقيم من بعده * إنما كان على أساس له
يطوف حولها من يطوفون * وهم الأقمار يشبهون
حينما خلقت مكة على وجه الغبراء * ما كان إلا الجبل والصحراء
وكان لمكة على الماء قرار * وما كان للدنيا إلا الخراب أثار
وبها الأرض اتسعت * أصبحت وكأنها مجلس أنس
ولما الأرض بسطا جعلت * دارت الأفلاك من بعد ودارت
صبحت وكأنها مجلس أنس * دارت الأفلاك من بعد ودارت

(فتوح الحرمين لجامى)»

حسب رواية ابن عباس، أن العرش الرفيع المقام كان فوق بحر كبير اسمه «صاد» وفى أثناء رفعه إلى أعلى تموج البحر وثارت زبدة وخلقت أرض مكة المباركة من هذا الزبد، وخلق وجه السماء من بخاره. وبعد هذا أخذت الأرض تنسحب من أسفل أرض الكعبة المعظمة واتسعت قدر ما أمرت به.

وكان موضع البيت المعظم آنذاك فوق مكان يرتفع قليلا ذى تربة حمراء تزوره

الملائكة، وقد قبلت توبة سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ بعد زيارته هذه الأرض الطاهرة. وبنى البيت المعمور فوق ذلك الموضع المليئ بالأنوار المرتفع لكى يزول الخوف ورهبة الفراق من نفس آدم ـ عليه السلام.

بكة:

وهناك اختلاف حول هذا الاسم، وعند البعض أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد ومترادفان، وبما أن حرفى الباء والميم متقاربان من ناحية النطق والمخرج الصوتى كان البعض يحل كلا منهما مكان الآخر، ويدعون أن مكة وبكة اسمان لمسمى واحد مع أن «بكة» فى نظر البعض هو اسم المدينة المقدسة «مكة المكرمة» وعند البعض الآخر أنه اسم البقعة الجليلة الكعبة المشرفة فقط.

والقول الصحيح أن مكة هو اسم الأماكن المباركة داخل حدود الحرم خارج المسجد الحرام. وبكة هو اسم البقعة التى عليها بيت الله وحرم المسجد الحرام المبارك. وحسب قول ابن عباس أن سبب إطلاق اسم مكة أنها كانت تذل الملاعنة والجبابرة الذين يعادونها.

بلد:

يقول اللغويون إن لفظ بلد يعنى صدر البلاد وإن لفظ بلد يطلق على مكة المكرمة، لأن كل البلاد والممالك مخلوقة من تراب مكة المعظمة، وبما أن الآية الجليلة ﴿**لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ (سورة البلد: ١) تؤكد التسمية، فمن المحقق أن لفظ البلد اسم مكة المكرمة.

قرية:

سبب تسميتها بهذا كونها مكان اجتماع الجموع الغفيرة.

أم القرى:

وسميت بهذا الاسم لكونها أقدم بقعة على وجه البسيطة. وقول الشاعر:

أقدم مكان الحرم الأكبر ** جعل الله لقبه أم القرى

يؤكد أن أقدم الأراضى هى هذه البقعة المباركة. وإن كان هذا دليلا لا يَتَسَرَّبُ إليه الشك وسندا كافيا لتصديق تسميتها بـ «أم القرى»، إلا أن كون مكة المكرمة قبلة الجميع وامتيازها على بلاد الأرض كلها بالفخامة والعظمة ولاحتوائها على الكعبة الشريفة، وخلو الأرض من تراب بقعة الله المباركة يجعلها جديرة بإطلاق هذا الاسم عليها وتبعا لهذا التوضيح لابد وأن يكون أم القرى هو اسم الأرض المقدسة التى تقع ضمن مواقيتها.

قال عبد الله بن عباس، وهو أعلم الناس «أنه أطلق اسم أم القرى على مكة، لأنها أعظم بلاد الأرض شأنا وكرامة، ولأن الأرض قد بسطت من التراب الذى تحتها». أما ابن عادل فقد وضح الموضوع فى تفسيره قائلا: إن موضع الكعبة المعظمة كان غثاء قبل أن يخلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأرض والسموات، وعندما بدأ خلق مكوناتها خلق الأرض وبسطها من تحت الكعبة قبل أن يخلق السماء وهذا هو سبب تسميتها «بأم القرى» لأنها هى الأصل.

البلد:

البلد الأمين من الأسماء الشريفة للكعبة التى ذكرت فى القرآن الكريم، وسبب تسميتها بهذا الاسم مجهول وعلمه عند الله.

أم رحم:

ومعناها عند الإمام مجاهد: (أم بمعنى أصل ورحم بمعنى الرحمة) ولأن مكة المشرفة هى أصل الرحمة وموضع حب كل الموحدين الذين يحرصون على تسميتها بهذا الاسم.

باسة:

وسميت بهذا الاسم لكونها تفتت الذنوب وتجعلها هباء وتسمى أيضا «الساسة».

صلاح:

لكونها موضع الصلاح والفلاح.

ناسة:

أطلق عليها هذا الاسم لأنها كانت فى الجاهلية قليلة المياه لدرجة انعدام الرطوبة بها. وكان الملاحدة الذين يظلمون ويسرقون بداخلها يطردون خارج حدودها وينفون منها، وتسمى أيضا «نساسة».

حاطمة:

لأن ذنوب الحجاج وأوزارهم تحطم فيها وتكسر كما تحطم الملاحدة الذين يكفرون بالدين المبين.

رأس:

وذلك لأنها تشبه رأس الإنسان من حيث الشرف، ويزعم العلماء أنها تتوسط الدنيا، أو أن سماءها خلقت قبل سائر البلاد لذا سميت بهذا الاسم.

والواقع أن رأس الإنسان أشرف من جميع الجسم كما أن هذا العضو عجيب الخلقة يعد أفضل من سائر أجزاء الجسم الإنسانى، كذلك تعد مكة المعظمة أشرف البقاع على وجه الأرض، وتشبه رأس الإنسان لوقوعها فى وسط الدنيا.

كوثى:

على وزن طوبى، وكوثى هو اسم حى بنى عبد الدار فى مدينة «مكة المعظمة» لأنهم توارثوا حجابة البيت لفترة طويلة لهذا السبب أطلق عليها اسم «كوثى».

عرش وعريش وعُرش:

وهى أسماء مترادفة، وسبب إطلاق هذا الاسم أن بيوت مكة فيما مضى كانت تصنع من مجموعة من غصون الأشجار ومن أشياء مثل أعواد القصب، وكانت عبارة عن منازل ذات أسقف دون جدران.

وتسمى المظلة على الإطلاق باسم عرش، أما العريش فهى البيوت الصغيرة التى تبنى على هيئة المظلة. كما أن عرش جمع كلمة عريش ولدى البعض أن

عرش هو اسم الأحياء الموجودة فى أطراف مكة المعظمة والعرش والعريش يطلق على البيوت القديمة والعرش أيضا اسم كل بيت قديم.

قادس، قادسية:

سميت بذلك لوجودها فى الأرض المقدسة.

سبوحة:

وهو اسم أرض منخفضة قريبة من جبل الرحمة «جبل عرفات» وسميت بهذا الاسم لأن وقفة عرفات هى من أعظم مناسك الحج.

حرام:

البلد الحرام والمسجد الحرام ـ من الأسماء المذكورة فى القرآن الكريم وسميت بهذا لحرمة أراضى الكعبة المقدسة.

معطشة:

وذلك لأن الكعبة تقع فى مكان قليل الماء.

برة:

لكونها بلد الأبرار.

رتاج:

بمعنى الباب العظيم وسميت بهذا الاسم لأن باب المعلى مدخل البيت الأكرم وله علاقة بلقب مكة المعظمة.

أم:

بمعنى الأصل، وسبب التسمية أن قدر ومكان الكعبة المعظمة وشرفها يفوق كل البلاد والقرى، أو أنها قبلة كل الأمم ومقصدها، أو أن الموقع الأنور لبيت الله العزيز يقع ـ على ما زعم ـ فى النقطة المفخمة فى وسط الكرة الأرضية.

رحم وأم الرحمة:

من الأسماء المترادفة وقد ذكر سبب تسميتها بهذا الاسم.

أم كوثى:

وقد بينا سبب إطلاق هذا الاسم.

أمينة:

وسبب إطلاق هذا الاسم أنها مطلع شمس وجود النبى الأمين عليه وعلى آله صلاة المعين.

أم الصفا:

وسبب التسمية أن الذين يؤدون الحج بصدق نية وخلاص طوية يتحصلون على هدوء الخاطر وصفاء البال.

مروية:

وسبب إطلاق هذا الاسم هو لما يرويه الخلف عن السلف عن عظمة قدر هذا المكان ومزاياه، والواقع أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد قص فى القرآن المبين وبين قدر كعبة الله الجليل، وأن كل الأنبياء العظام والرسل الكرام قاموا بالحج الشريف إليها ووصفوها وأثنوا عليها ثناء جميلا.

متحفة:

وسبب التسمية ما أنعم به الحق ـ سبحانه وتعالى ـ من بر وإحسان على جيران بيت الله.

أم المشاعر:

وسبب التسمية أنها أصل مشاعر الحج ومركز الأماكن المسعودة التى تؤدى بها مناسك الحج.

البلدة المرزوقة:

وسبب إطلاق هذا الاسم هو الدعاء الذى تفضل به سيدنا إبراهيم «على نبينا وعليه السلام» بالمنهج بقوله: ﴿ وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ (البقرة: ١٢٦).

رواية:

(يروى أنه عند ترديد سيدنا إبراهيم هذا الدعاء أصدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمره إلى جبريل ـ عليه السلام ـ بأن ينقل إلى جوار كعبة الله أوفر قرى أرض فلسطين فاكهة، فاقتلع جبريل الأمين قرية كثيرة الفواكه من. الأرض المذكورة وطاف بها سبع مرات حول بيت الله العزيز ثم تركها فى مكان يقع على بعد ثلاث مراحل من مكة.

وكانت هذه القرية المنقولة هى بلدة الطائف ذات اللطائف وسميت بهذا الاسم لأن جبريل ـ عليه السلام ـ طاف بها حول البيت المعظم) انتهى.

ومنذ ذلك الزمان الذى حددته الرواية وفواكه أراضى كعبة الله وثمارها فى نمو وازدياد، ومع هذا فإن فاكهة مكة لم تقتصر على الطائف بل تزيد ببركة دعاء الخليل ـ عليه صلاة الله الجليل ـ وبركة الله المعظم بما يتوارد عليها من كل أنواع الفواكه من أقطار الشرق والغرب.

ومدينة «مكة» المعظمة المكرمة مليئة بالفواكه حتى أن كل أنواع فواكه الفصول الأربعة توجد بها فى الفصل الواحد.

حكمة:

كل إنسان يدخل مكة فى أى ساعة من ساعات الليل يجد من غير عناء كل الأشياء التى يعانى فى الحصول عليها فى أثناء النهار، ولا ينام إنسان أبدا فى مكة المعظمة جائعا.

حكاية مليئة بالعبر:

يحكى فى رواية موثوق بها أن رجلاً من بلاد الشام، جاء إلى مكة المكرمة

لأداء فريضة الحج، فشاهد قوافل الإبل لا تنقطع عن حمل كل أنواع الفواكه والثمار إلى تلك البلدة المقدسة ليل نهار، فاعتراه العجب والتأمل.

وجلس الرجل الشامى فى ركن يتعجب ويتفكر فيما بينه وبين نفسه عاجزا عن تفهم هذا الأمر. وقال لنفسه: «لابد أن وراء هذا الأمر العجيب سراً، فرغم ما تحفل به بلاد الشام من حدائق وبساتين فى كل أطرافها، ومع هذا لا يتوفر فيها هذا القدر من الفواكه، بل من المحال أن يرى فى الشام دابة تحمل فاكهة فى أحد الشوارع بعد وقت الضحى، يبدو أن حدائق هذه البلدة وغاباتها وبساتينها تفوق حدائق وغابات وبساتين ولايتنا «الشام» وبعد أن أمعن فى التفكير فى هذا الأمر فترة طويلة خرج خارج المدينة بغرض مشاهدة بساتين هذا البلد الإلهى حسبما صور له خياله وذلك ليتحقق من صدق النتيجة التى انتهى إليها تفكيره، لكنه لم ير حول المدينة سوى جبال عارية جرداء، فازداد حيرة وتعجبا واستغرق فى التفكير وطاف من جبل إلى جبل حائرا حتى دخل المساء، فأقام حيثما كان، وراح فى النوم، ثم استيقظ فجأة وكان الوقت فجرا، وإذا به يرى حوله مجموعة من الجمالين يحملون إبلهم أحجارا.

اندهش الرجل الشامى واعترته الحيرة لما رآه من تصرف هؤلاء الجمالين الذين صعدوا إلى الجبال فى هذه الظلمة الدامسة، وأخذوا فى تحميل إبلهم الحجارة.

وبعد فترة وجيزة عاد الجمالون، وسار الرجل فى أعقابهم واستمر الجمالون فى السير إلى أن وصلوا إلى المدينة الشهيرة مكة الله.

وأنزلوا أحمال إبلهم ووزعوها على أصحاب الحوانيت وبدءوا فى جمع ثمنها من النقود، وإذا بالأحجار المحمولة على ظهور الإبل كانت نوعا من الفواكه اللذيذة الطعم.

وظن الشامى أن ما جمعه الجمالون من الجبل وحملوا ظهور إبلهم أحجارا لم يكن سوى أنواع من الفاكهة ذات المذاق الطيب التى تثير بمذاقها الطيب تعجب الإنسان. عندما رأى هذا تذكر الآيات الجليلة: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ

إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ (القصص: ٥٧) و﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (قريش: ٤) واقتنع بأن الذين يسكنون مكة المعظمة يكون رزقهم على الله، فطابت نفسه.

تهامة:

وهذه التسمية ترجع إلى شدة ارتفاع درجة حرارتها.

الحجاز:

وسميت بهذا الاسم لوجود الكعبة المعظمة داخل المنطقة التى تضم نواحى مكة والمدينة والطائف.

البلدة الطيبة:

لكونها مكانا طيبا ومباركًا لعباد الله من المسلمين.

مدينة الرب:

ومعناه البيت الحرام. وهو من الأسماء المذكورة فى الإنجيل الشريف.

عاقر:

وهذا الاسم مذكور فى كتاب شعيا ـ عليه السلام ـ بمعنى المسجد الحرام.

فاران:

من الأسماء المذكورة فى التوراة.

ورغم أن هذه الكلمة بمعنى المسجد الحرام فإنها اسم أحد الجبال فى مكة أيضا، ويلزم أن يكون هذا الجبل أحد الجبال التى تسمى جبال بنى هاشم. وكان الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتعبد فوق هذا الجبل.

وقد التقى جبريل ـ عليه السلام ـ أول مرة بسلطان الرسل نبينا ـ عليه السلام ـ فى هذا الجبل حينما أتى حاملا الوحى الإلهى إليه، وهذا الجبل مكون من ثلاثة أجزاء وثلاثتها من الجبال المبجلة المعروفة يقال لأحدها جبل أبو قبيس،

والآخر جبل قعيقعان، والثالث جبل فاران، ويطلق شعب بنى هاشم على المكان الواقع فى الجانب الشرقى من جبل أبى قبيس فى مواجهة جبل قعيقعان، ويروى أن النبى ـ عليه صلاة الله الأكبر ـ ولد هناك.

عندما حرفت طائفة اليهود التوراة الشريفة اتفق أحبار اليهود على نسخة جديدة وجاءت فى هذه النسخة عبارة (تجلى الله من «سيناء» وأشرق من «ساعير» واستعلن من «فاران»).

والمقصود من كلمات: تجلى، أشرق، استعلن: الظهور، والانكشاف، لأن التوراة نزلت على موسى فى طور سيناء والإنجيل نزل على عيسى فى «ساعير» كما نزل القرآن الكريم على نبينا عليه الصلاة والسلام، فى جبل فاران. وطور سيناء اسم الجبل الذى تجلى فيه ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لنبيه موسى كليم الله. ساعير اسم المكان الذى كُلِّم فيه سيدنا عيسى. قد بشر موسى ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى «سيناء» كما بشر عيسى ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى مكان يسمى «ساعير».

وقد أطلق اسم «النصارى» على الذين يدينون بدين عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك لأن المسيح كان يقطن فى قرية الناصرة الموجودة فى أرض الخليل فى ساعير.

وإن كان أهل الكتاب يؤولون «فاران» بمعان مختلفة، فإن ما تفيده الآية الكريمة الواردة فى التوراة «إن الله أسكن هاجر وإسماعيل فاران» تؤكد بلا شك أنه جبل «فاران» المبارك فى مكة المعظمة.

عتيق:

وهو اسم من أسماء البيت المعظم ويقول حسن البصرى إن سبب إطلاق هذا الاسم، أن البيت المعظم هو أول بيت أسس ليزوره من بنى البشر، وعند الإمام مجاهد أن الله تفضل بإسباغ حمايته عليه من الجبابرة الذين يريدون هدمه وتخريبه، وعند قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن الله حماه من طوفان نوح.

أسباب تلقيب بيت الله بالألقاب الجميلة

المشرفة:

وذلك لأن مدينة مكة المشهورة هى أشرف وأجمل وأفضل من كل البلاد.

ويكفى دليلا على أن هذه المدينة المقدسة أشرف الممالك وأسعدها على وجه الأرض، أنها كانت مهد إشراق نور سيد الكونين، وأنها مطاف طوائف الموحدين.

مكرمة:

وذلك لأنها كرمت بالذكر الجميل فى الكتاب المبين، ولأنها كانت مزارا لجميع الرسل والأنبياء وكل الأولياء والصالحين لصدور الأمر الإلهى بزيارة كعبة الله الكائنة داخل مكة السعيدة والحج إليها.

مهابة:

حيث لا يجرؤ أحد من الملحدين على دخول حرم الله، وبما أنَّ الملاحدة والجبابرة ذوى المهابة يخافون كعبة الله ويتحاشونها؛ لذا سميت بهذا الاسم.

والدة:

حيث إنها مرجع الحجاج والزوار بعد قضاء مناسك الحج.

نادرة:

اتساع مكة تلك البلدة المقدسة من حين لآخر سبب تسميتها بهذا الاسم.

وحسب ما يروى أن هذه المدينة المباركة تمتلئ أحيانا كما تمتلئ بطون النساء بالحمل، وبدء الامتلاء والزيادة فى شهر رجب الشريف أو فى شهر ربيع الأول، ففى بداية هاذين الشهرين تبدأ المدينة فى الاتساع، وتزداد كل لحظة حتى اليوم الثالث عشر من شهر ذى الحجة، وبعد ذلك يعود الحجاج ذوى الابتهاج فوجا تلو فوج.

فى الواقع أن من يرى كثرة سكان مدينة مكة المعظمة فى غير أيام الحج يظن أن الحجاج الذين يغدون إليها من أجل أداء فريضة الحج لن يجدوا داخل المدينة

مكانًا للإقامة والاستراحة، وأداء العبادات والطاعات داخل دائرة الفيوض الباهرة لحرم المسجد الحرام، ولكن عند حلول موسم الحج ومع تدفق وفود الحجيج من البر والبحر، يرى أنهم يجدون أماكن للراحة والإقامة فى بيوت الأحياء ويقيمون الصلاة بلا عناء فى كل أرجاء الحرم الشريف، ويطوفون حول كعبة الله المقدسة فى جماعات كبيرة ويعبدون الله خفى الألطاف، أدرك أنه كلما ازداد زوار تلك البلدة النادرة اتسع الحرم الشريف حسب الحاجة.

ومهما زاد عدد الحجاج فلا يبقى فى مكة المفخمة شخص واحد يبيت فى العراء، والحجيج يستطيعون أن يؤدوا العبادات فى حرية تامة وراحة كاملة داخل حرم بيت الله الموقر مثلهم مثل السكان والمجاورين الذين يقيمون فيها فى غير أوقات الحج. وهذا الواقع حقيقة مسلمة.

وقد وصلت ـ أنا الفقير جامع هذه الحروف ـ إلى مكة المشرفة فى منتصف شعبان الشريف سنة ١٢٨٩، وعندما رأيت ازدحام الحرم الشريف تصورت أنه لن يكون هناك مكان لإقامة الصلاة لمن سيأتى بعد ذلك من الحجاج.

حيث بلغ الزحام فى هذه البلدة المكرمة مبلغا عظيما، حتى إنه إذا ألقيت إبرة فى الأسواق والأماكن التجارية لن تسقط على الأرض من شدة الزحام. ولم يعد هناك مكان واحد خاليا داخل المسجد الحرام ليجلس فيه إنسان، وبعد مرور فترة قصيرة تبينت أن ضيق مساحة البلدة لا يمكن أن يمنع الحجاج من الطواف والزيارة فصححت أفكارى.

وقرب حلول ساعة الخير والبركة للوقوف فى عرفات، وفد إلى مكة المكرمة كل أسبوع ما بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف حاج وزائر وسكنوا فى دور الأحياء المختلفة ووجدوا أماكن لأداء الطاعات والعبادات فى فخر وسرور.

كانت السنة المذكورة سنة الحج الأكبر وتجاوز عدد الحجاج خمسمائة ألف حاج حسب تخمينى وقد أدى جميعهم مناسك الطواف والعبادة بدون مشقة، كما أدوا

الصلوات المفروضة كلها فى جماعة واحدة فى يسر وتَنَزَّهُوا فى الأسواق والشوارع بكل راحة.

جامعة:

وسميت بذلك لأنها نقطة تجمع كل طوائف المسلمين على اختلاف قبائلهم وأجناسهم.

وبما أن كل المسلمين من أجناس مختلفة على وجه الأرض ملزمين دينيا بزيارة أرض الحجاز للمشاهدة والفرحة؛ فالذين يأتون محرمين لأداء فريضة الحج إلى الحجاز ذات الفيوضات الإلهية يسعدون برؤية أجناس المسلمين المختلفة فى مكان واحد ونقطة واحدة.

ومن الطبيعى أن تنطوى هذه الجماعات العظيمة على أولياء الله الصالحين المستغرقين فى التفكر فى الله وعظمته، وتنطوى كذلك على الذين غرتهم الدنيا بزينتها من أولاد وأملاك وأموال.

والأمر يقتضى أن ينظر كل عاقل نال شرف التواجد فى هذا الجمع الكبير، بعين الاعتبار إلى عجائب المخلوقات الإلهية وبديع صنع الله وأن يستيقظوا من غفلتهم.

المباركة:

وسبب إطلاق هذا الاسم واضح ومفهوم.

المفخمة:

وسبب التسمية له علاقة بقدر ومزية وعظم كعبة الله المشرفة، وذلك لما فى معنى الكلمة من التفخيم انتهى.

المشرفة:

فى المعلومات التى تلقيناها عن كبار شيوخ مكة وتصفح الصحائف القديمة

والتواريخ التى تتضمن أحوال المسجد الحرام، نعرف أن البلدة المباركة كانت محدودة باثنين من الأسوار الضخمة فى الأزمنة القديمة، ويفهم من بقايا هاذين السورين اللذين كانا قائمين إلى وقت قريب أن هاذين السورين ـ كما جاء فى الأخبار ـ كانا ليصلان بين جبل عبد الله بن عمر الواقع ناحية معلى بسفح الجبل الواقع أمامه بجدار متين ذى أبواب عديدة ومنافذ لمجارى السيول، لكنها كلها خربت بمرور الوقت.

وقد أخبر بعض المكيين أن هناك بعض خرائب الجدران التى تعد من الآثار العتيقة، كما أكد ذلك تاريخ «قطب مكى» وقيل إن هناك خرابة جدار عتيق بجانب السبيل الفخم الذى أنشأه السلطان «سليمان خان» ابن السلطان سليم خان، جانب جدول حسنين، إلا أنه لم يبق فى عصرنا الحالى سوى المبانى القديمة للسبيل المذكور. وهذا السبيل فى مكان مرتفع بقصر متشابك من جهاته الأربعة، وهذا القصر أصبح طريقا لأقدام سكان الخيم الذين أقاموا بجانبه، وتقرر كتب التاريخ أن للأسوار سالفة الذكر جداران وبابين فى ناحية الشبيكة وقد ظلت أكمار هذه الأبواب قائمة حتى وقت قريب. والسور الواقع ناحية المسفلة هو سور آخر لاسيما أن الإمام الفاسى أثبت أنه يوجد سور بين الجبل المسمى لعلع الذى يقع على مقربة من مسجد الراية والجبل المقابل له. فقال (لقد رأيت أطلال وبقايا هذه الأسوار على الجبل المذكور وفهمت أن مكة المعظمة كانت بين أسوار متعددة متصل بعضها ببعض ولكنى لم أستطع معرفة بانى هذه الأسوار) وهذا دليل على أن كل هذه الأسوار قد انمحت ولم يبقى لها أثر.

لقد عد الإمام الفاكهى فى كتابه «ران أنبيا» أن أبنية المسجد الشريف الذى بنى فى الموقع اللطيف الذى أمر الرسول بنصب الراية فيه يوم فتح مكة من الآثار العتيقة، فكتب فى تاريخه (يوجد مسجد يزوره الناس وهو قريب من بئر جبير، والمنازل والبيوت التى بجواره خالية خاوية) ولكن الآن فى عصر السلطان العالى القدر قد امتدت البيوت والمنازل حتى خارج مقبرة المعلا، ولهذا فإن المنازل والبيوت التى قال عليها الإمام الفاكهى أنها خالية، ليست كذلك الآن.

إن الأسوار التى قال الإمام الفاكهى إنه رأى أطلالها بنى أحدها المرحوم أبو عزيز قتادة بن إدريس الحسينى وهو من الأجداد العظام لأشراف مكة. وظلت آثار هذا السور مرئية حتى انتهت الخلافة العباسية فى مصر القاهرة.

إن أبا عزيز قتادة قد عزز وأكثر من قوته فى عهد الأمير مكثر من بنى فليتة التى كانت تحكم ينبع البحر لمدة، وفى خلال عام ٥٩٧ انتزعوا الإدارة من بنى هاشم عنوة. إن الجد الخامس لأبى عزيز المشار إليه هو الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ الغالب.

فى زماننا هذا من الصعب حتى توضيح علامة يمكن القول إنها من بقايا الأسوار التى عرفها المؤرخون، وتوجد ثلاثة قلاع صغيرة بأسماء قلعة الجياد، قلعة الفلفل، قلعة الهندى فى الوادى الكائن بين جبل جياد وجبل عمر، حيث يوجد مقر المدفعية والمعسكر الهمايونى وهذه الأشياء جديدة جدا. إن قلعة جياد تقع على جبل جياد وقلعة فلفل تقع على طريق قرارة، وقلعة هندى أسست على قمة جبل هندى الواقع ناحية حمام العمرة، بعد واقعة دلخراشنى الوهابية لحماية مكة المعظمة المفخمة من هجمات العربان.

لاسيما فى الفترة التى كان فيها المرحوم حالت باشا والى الحجاز والمرحوم حسين باشا أمراء لمكة، إذ أحسوا بالحاجة إلى توسيع قلعة فلفل، وجعلوا بها مستشفى عسكرى، فهدم عثمان باشا والى الحجاز قلعة هندى وأسس هذا المعسكر على أصول جديدة ولأن هذا المكان دفعت نفقات إنشائه من قبل أهل كريت أطلق عليه اسم غريتية عام ١٣٩٧ . كما هدم قلعة جياد وأنشأ مكانها قلعة متينة على الطراز الحديث عام ١٣٠١ .

أعلام قلاع الحرمين الشريفين

إن السلاطين العظام يطلق عليهم اللقب المستلزم للفخر وهو لقب خادم الحرمين المحترمين، وتشكل الحكومة فيهما باسم السلطنة العلية، ومع هذا لم

ترفع الرايات ـ رمز سطوة الدولة العثمانية فوق المبانى العسكرية والقلاع ولم ترفرف عليها فى الحرمين الشريفين.

وإذا كانت تقاليد الاحترام تقتضى عدم رفع الألوية السلطانية فوق قلاع الحرمين الشريفين، إلا أنه من غير المناسب حسب مقتضيات العصر ضياع العلاقة التى تدل على التبعية المشروعة للحرمين الشريفين التى هى قبلة الموحدين، إلى دولة الخلافة، وبناء على هذا الرأى الصائب قد قرر السلطان عبد العزيز فى أواسط حكمه رفع الراية العثمانية فوق معسكرات مكة المكرمة، والمدينة المنورة وفوق قلاعهما مثل سائر البلاد التابعة للدولة العثمانية.

وجهزت الأدوات اللازمة والبيارق، وأرسلت إلى ذلك المكان السامى جالب الفيض الإلهى وبذلك أصبح المعتاد رفع الأعلام فى المدينة المنورة، لكن تأخر هذا التقليد بالنسبة لمكة المكرمة وتأجل آنذاك لبعض الأسباب.

وكان سكان البلاد الإسلامية الواقعة تحت سيادة دول غير مسلمة يترددون على الحرمين الشريفين وكان بعض هؤلاء يفضلون الإقامة فى أحد الحرمين الشريفين ومجاورتهما بعد أداء الحج لذا اتخذ الإنجليز والفرنسيون والروس والبرتغاليون والهولنديون الذين يستعمرون الهند وآسيا الوسطى والجزائر وجاوه وغيرها قنصليات فى جدة لخدمة رعاياهم فى ظاهر الأمر وقضاء مصالحهم ولكنها فى الحقيقة للتجسس.

وكان لتدخل المسلمين من رعايا الدول الأجنبية فى شئون أهالى الحرمين عواقب وخيمة حاليا، ولاسيما أن أفرادا كثيرين من جماعات القبائل البدوية والعشائر المجاورة وأهالى الحرمين أنفسهم يدعون أنهم لا يعرفون لهم مرجعًا سوى الإمارة الجليلة للحرمين؛ لذا رئى أنه من الحكمة رفع الراية العثمانية على قلاع مكة المكرمة ليعرف الحاقدون والأعداء أن مكة المكرمة من الأجزاء المقدسة المتممة لأراضى الممالك السلطانية.

وقد روعى اتخاذ التدابير اللازمة لمواجهة ما قد يعكر الصفو.

أولاً: قد استدعى لذلك سرا محمد جاويد أغا من قدماء ضباط القلاع وأمر بأن تجلب الأعلام وأن تتخذ التدابير العسكرية لمواجهة ما يحدث من مشاغبات.

ثانيًا: صدر الأمر بسرعة اتخاذ التدابير والتحفظات وتوفير الأعلام اللازمة وصواريها وأوصالها السميكة والحبال الرفيعة التى تسحب بها الأعلام، وتم إعداد كل شئ وتجهيزه وتهيئة الجند اللازم للمحافظة على الأمن، وأن يذهب إلى دائرة الإدارة الجليلة لمقابلة الأمير السابق الشريف عبد المطلب والقيام بالخدمات اللازمة لإقناع الأمير بأن رفع العلم لن يسبب أى إزعاج. وأن تعد الأدلة المقنعة على أن رفع العلم لن يؤدى إلى اضطرابات ومشاغبات فى الإمارة فى ظل الاستعدادات العسكرية التى تم اتخاذها للحفاظ على الإمارة ويؤخذ موافقته على ذلك.

كما يؤخذ منه الإذن بارتداء الملابس الرسمية فى أثناء إطلاق المدافع بعد رفع الأعلام والتوجه إلى المسجد الحرام.

لترديد الأدعية بطول العمر لجلالة السلطان، بعد ذلك يعود إلى المواقع العسكرية وفى الصباح الباكر ترفع الرايات العثمانية على القلاع كلها فى لحظة، واحدة وتطلق المدافع إحدى وعشرين طلقة، بينما تعزف الموسيقى فى أثناء ذلك، ويصطف عدد من الجنود السلطانية على هيئة طابور ويتحركون مع قواتهم من معسكر المدفعية العثمانى متوجهين إلى الحرم الشريف للمسجد الحرام وفق الأوامر الصادرة.

وفى اليوم التالى عندما رفعت الأعلام على القلاع فى وقت السحر، وأخذت المدافع فى إطلاق طلقاتها، ارتدى الباشا المشار إليه ملابسه الرسمية على الفور وتوجه ومعه العدد اللازم من الجنود السلطانية، قاصدا قصر الشريف عبد المطلب أفندى واصطحبه معه وكان متهيئا للتحرك وقفل راجعا مع الموكب العظيم إلى الحرم الشريف للمسجد الحرام. وكان فى معية الشريف المذكور أشراف مكة وساداتها المثلون للإمارة وتفضل الباشا بإلقاء خطبة بليغة أمام الجمع الغفير من السادة وأهالى مكة الكرام وبعد ذلك أم القضاة الأربعة الكرام وكل العلماء

المعروفين وخاصة عمر شيبى أفندى حاجب بيت رب الأرباب وكل الحضور فى داخل بيت الله قاموا كلهم بترديد الأدعية المناسبة لحضرة الخليفة ثم انصرف الجميع شاكرين فرحين وذلك فى عام ١٢٩٦هـ.

وهذا الخوف الذى شغل بال الجميع لسنوات طويلة من سوء عاقبة رفع العلم لم يظهر له أثر، بل إن الأهالى الكرام والمجاورين ذوى الاحترام شعروا بالسعادة والافتخار، وإن رفع العلم فى الواقع كان عملا موفقا وينتظر منه فوائد جمة فى المستقبل. ونحن بالنيابة عن الأمة الإسلامية العظيمة نقدم شكرنا للباشا المشار إليه على هذه الخدمة الجليلة.

إن مكة المفخمة بلدة مباركة ومقدمة سعيدة تفوق كل بلاد الدنيا عظمة ويمنا، ولحكمة ما كانت ممرا لكثير من الأحداث المفزعة المؤلمة والانقلابات الدامية والمصادمات التى عانتها تفوق كل وصف وحصر؛ لذا رأينا أن نذكر بعضها للتدليل على صحة ادعائنا.

استيلاء طائفة القرامطة المفسدين على مكة المعظمة

ظهرت بوادر طائفة القرامطة الباغية المفسدة ولم تنج هذه البلدة المباركة من فسادهم وشرهم وفوضاهم، بل إن فرقة «ابن زكرويه» التى استولت على منطقة الشام هاجمت إحدى قوافل الحجاج المتجهة إلى المدينة المنورة وأعملوا فيهم سيوفهم حتى لم يبق واحد منهم على قيد الحياة، وذلك فى عام ٢٨٩هـ.

يروى أن عدد الحجاج والمسلمين الذين قتلتهم سيوف أجداد القرامطة من هذه القافلة تجاوز عشرين ألف حاج، أما الفرقة الملعونة التى تسلطت على الأراضى الحجازية المباركة والتى تنتسب إلى أبى طاهر القرمطى فقد هجموا على مكة المعظمة بغتة وعاثت أقدامها فسادًا وشؤما فى الحرم المطهر للمسجد الحرام.

عندما هجم أبو طاهر على مكة المعظمة كان بداخل المسجد الحرام ثلاثون ألفا من الأبرياء وكان أكثرهم فى ملابس الإحرام وكان القليل منهم داخل كعبة الله فلم ينج أحد منهم من سطوة سيف الغدر والعذاب، وهدموا كثيرا من المبانى

العالية فى هذه المدينة المشهورة وخربوها واقتلعوا الحجر الأسود لينقلوه إلى ناحية هجر التى هى مسقط رأس أبى طاهر الملعون ثم انزاحوا إلى بلادهم مدحورين سنة ٣١٧هـ.

وكان هدف أبى طاهر من اقتلاع الحجر الأسود من الركن الجليل لكعبة الله وأخذه إلى ديار هجر هو أن يصرف الناس من التوجه إلى الكعبة وأن يحرمهم من الفيض الإلهى. وأن يوجه طريق الحج المفروش بالفيض الإلهى إلى ناحية هجر بل إنه أنشأ فى هجر دار شقوة أسماها دار الهجرة وحجز الحجر الأسود فى دار الهجرة عشرين سنة.

وفى اليوم الذى أجرى فيه أبو طاهر المذبحة فى ساحة المسجد الحرام اقتلع بيده - شلت يده - اللوحات المزينة التى على باب الكعبة مستقر الرحمة، وانتزع أيضًا الستارة الشريفة والهدايا القيمة الموجودة فى خزانة البيت انتزاع الطيف وقام بتوزيعها على جنده. وعندما أراد خلع الميزاب الذهبى أمر بعض أتباعه بذلك، ولكن القرامطة الملحدين الذين تسلقوا السقف وقعوا على الأرض وماتوا وهكذا لم ينجح فى سعيه.

وأخذ ذلك الخائن الكافر الحجر الأسود ووصل ناحية هجر، وقضى أربه ثم أبلغ عبد الله المهتدى جد ملوك الفاطميين بالطريقة التى وصل بها إلى تحقيق ما يصبو إليه. وعرض عليه تبعيته وأنه سيقرأ اسمه فى خطبة الجمعة ولكنه تلقى منه جوابا مفاده لقد وجدت فى نفسك الجرأة على نقل الحجر الأسود إلى هجر بعد هتكك ستار وحرمة بيت الله الذى ظل موضع الإعزاز والتكريم دائما فى الجاهلية والإسلام وبعد ذلك تريد أن تقرأ الخطبة باسمى! فأعلن القرمطى عصيانه عليه أيضا.

* * *

ا

فى ذكر وصف شكل وطراز بيوت مكة المعظمة ومنازلها ودرجات الحرارة والبرودة فى هذه المدينة المقدسة وفوائد الفواكه والخضر ومضارها التى توجد بها وأسباب ظهور الأمراض التى يروى تفشيها فى الأراضى الحجازية المنوّرة.

معظم مبانى مكة المشرفة مبنية بالحجارة والطوب وهى متينة وبعضها أكواخ مصنوعة من الأعشاب والحصير يطلق عليها عشة «بضم العين» وسقوف أغلب المبانى المصنوعة من الحجر والطوب مسطحة ومملوءة بالتراب وسقوف القليل منها حجرات بعضها مغطاة بمادة الطابطات الأسمنت وأغلب النوافذ مغطاة بحصير معروف باسم «كيريته».

استطراد

بعض الأوربيين الذين نجحوا فى الدخول إلى مكة المكرمة والتجول فيها أشاروا فى ما كتبوا عن رحلاتهم إلى أن نوافذ بيوت مكة مصنوعة من الحصير الخشن، استخدموا فى إيماءاتهم ألفاظا غير مناسبة وأشاروا إلى فساد ذوق أهالى مكة الكرام، إلا أن ما تصوره السياح المشار إليهم فى هذا الخصوص ليس صحيحًا فأكثر بيوت مكة المعظمة ومنازلها تطل مباشرة على الحرم الشريف للكعبة وتتعرض لسخونة الشمس وحرارتها القوية.

ولذا استصوب أهل السلف بعد طول تفكير أن يعلقوا أشياء من الحصير على نوافذ البيوت حتى تحمى الناس من تأثير حرارة الشمس، وفى نفس الوقت تصون الحرم الشريف للمسجد الحرام من جلبة المنازل وأصداء أصواتها، وقرروا تنفيذ هذا العمل. ولما كان هذا القرار يعبر عن مدى تعظيم الأهالى لكعبة الله

واحترامها فإنه أيضا يشير إلى مصانة بيوت مكة ومتانتها وأن نساء الحرمين أهل حياء وعفاف لا يتجاوزن الدائرة التى حددتها لهم الشريعة، لأن حصر «الكيريتة» التى تبدو خارج نوافذ بيوت مكة لا تقوم مقام الستار ولكنها تقوم مقام المشربيات.

ويوجد فى الطرف الداخلى من «الكيريتة» ستار مصنوع من الخشب وهو ما نسميه فى بلادنا «الجناح» وعندما يزداد الهواء سخونة فإن أهل البيت يغلقون هذا الجناح لحماية أنفسهم من حرارة الشمس. وتختلف هذه الستارة الخشبية تبعا لشكل المبنى وحجمه وبما أن الحصول على خشب البناء فى مكة صعب فإن الستائر الخشبية لنوافذ المبانى الكبيرة الفخمة تصنع من خشب شجر الساج المشهور فى الهند وتنقش عليها نقوش فى منتهى الدقة والجمال. ويصل ثمن كل جناح من الأجنحة إلى ألفين وخمسمائة ليرة وأقله ثمنا يكون بألف وخمسمائة ليرة. وأرخصها يباع بليرتين ونصف وثلاث ليرات يصنع من خشب الصنوبر الرخيص. وإنفاق هذا القدر من النقود فى ستارة نافذة يدل على طبع الكرم عند أهل مكة وجودهم مما يجعل تطاول سياح أوربا وأقوالهم واهية لا أسس لها.

والبيوت التى صنعت سقفها من «الطابطاب» الأسمنت أقل تأثراً بحرارة الشمس من المنازل التى صنعت من التراب في أثناء النهار، ولن تسخن غرف الأدوار العليا المغطاة «بالطابطاب» كما تسخن الغرف المغطاة بالتراب فقط بدرجة مخيفة ومن هنا تختلف المنازل المغطاة بالطابطاب عن المنازل غير المغطاة من حيث القواعد الصحية.

والمساكن المغطاة بالطابطاب أقل رطوبة من المنازل غير المغطاة بهذه المادة، كما أنها أسهل فى التنظيف ولا يعرف المقيمون فيها قدر المساكن الأخرى.

إخطار:

وهذه المادة المسماة بطابطاب عبارة عن خليط جامد مصنوع من رماد المواقد والطين والرمل والجير وهو نوع من الرخام الصناعى، وهو غير مادة الأسمنت

التى تصنع بها الأرصفة فى دار السعادة استانبول، والأكواخ المصنوعة من الحصير والعشب مهما تم بناؤها بعناية فإنها تسخن بحرارة الشمس ولا تخلو من الرطوبة.

والذين يسكنون فى هذه الأكواخ لا يمكن أن يكونوا بمنأى عن الأخطار، كما أن السكن فى مثل هذه المبانى يكون تصرفاً مغايراً لأحكام وقواعد المحافظة على الصحة، وبناء عليه فإنه لا يجوز لأهل البلاد الباردة أن يستأجروا مثل هذه الأكواخ لأن شدة الحرارة تستدعى تبريد الجسم بالخروج إلى الأماكن ذات الهواء الطلق ويؤدى هذا إلى إصابتهم بنزلات البرد لجلوسهم غير مستورين شبه عراة، كما يؤدى إلى تَفَشّى العلل والأمراض بينهم.

وبما أن الحرارة ترتفع فى أيام الصيف فى المدينة المعظمة إلى حدّ يصعب تحمله يذهب أغلب الأغنياء من أهلها إلى بلدة الطائف اللطيفة، والكثير منهم يقضى وقته فى حدائق المعلى، وفي أيام الشتاء يتجولون في مناطق الحسينية ووادى فاطمة، وفى كل الأماكن المخضرة التى تبعث الرضى فى النفس ويتنزهون فيها، وأيام الشتاء فى خط العرض لمنطقة الحجاز المقدسة تشبه أيام فصل الربيع فى مناطق الرومللى والأناضول.

الحسينية

وتقع المنطقة المسماة بالحسينية فى الطريق من مكة إلى اليمن، خلف جبل ثور الواقع على مسافة ساعتين من مكة وهو مكان جميل يتكون من حوالى خمس أو ست حدائق مخضرة وينمو على المياه الجارية الواقعة حول هذا المكان البطيخ والليمون وكل أنواع الخضر والمحاصيل مثل التمر والبرسيم.

وادى فاطمة:

يقع وادى فاطمة على مسافة خمس أو ست ساعات من مكة من ناحية المدينة المنورة، وبها عدد من الحدائق المنتجة للمحاصيل وبضع قرى وما يعرف من عيون الماء الجارية وهى (ماء الجموم، ماء خضرة، ماء هنية، ماء حسينية، ماء أبو

عوردة، وماء روضة، ماء حيف، ماء تونذوب، ماء قورفه، ماء بان، ماء مبارك، ماء جديدة، ماء جفح ماء سعلة، ماء مضيق، ماء غريمه، ماء أبو شعب، ماء مدرار، ماء فيدة، ماء سماشه، ماء جديدة، ماء هيمه، ماء حرامز، ماء بحرين، ماء قريز، ماء حامدة، ماء بربر، ماء حديدة، ماء سروعة، ماء ربكان وأنقى هذه المياه وأخفها هو ماء هنية وأقلها قبولا فى المذاق أعسرها هضما هو ماء الجموم. وينمو فى الحدائق التى حول مصادر المياه: الشمام والبطيخ.

وأنواع مختلفة من التمر والخضر واعتاد أهالى القرى المجاورة صيد دودة العلق الموجودة في المياه ذات المجارى الواسعة بكثرة ويحملونها إلى مدينة مكة المعظمة ويبيعونها هناك.

وتقع على مسافة ثمانى عشرة ساعة من مكة المعظمة منطقتا «سويلة» «ومضيق» وتبعد كل واحدة عن الأخرى ساعة ونصف وتمتازان بلطف جوهما، كما أنهما تزدانان بالأشجار الجميلة والحدائق البديعة، وتنمو فيها أشجار الليمون الحلو (النارنج) والموز وينبت فى حدائق جبل كرا والطائف أشجار العنب والرمان والسفرجل والتين، الكمثرى والخوخ والمشمش، واللوز، والجوز، والتوت الأسود. وتقع على بعد من الطائف بخمس أو ست مراحل مياه جارية وحقول خصبة وأشجار اللوز والياسمين البرى وأشجار الزيتون البرى والصفصاف.

تنبيه:-

يوجد فى الأراضى الحجازية نوع من العنكبوت السام اسمه «لاديغ» فإذا لدغت هذه الحشرة أى إنسان لابد وأن يموت خلال ثلاث أو أربع ساعات ورغم وجود هذا العنكبوت فى كل مكان إلا أنه يكثر فى وادى فاطمة، لذا يجب على الذين ينزلون به أن يتخذوا الاحتياطات اللازمة ضده. وأقدام هذا العنكبوت اللادغ كثيرة الشعر ويوجد فى قمته أربع شوكات سوداء خشنة كل اثنتين منهما متشابكتان ويعتبر سمه كثيرا أو شديداً بالنسبة لحجم جسمه ويصعب أن يلحق به الإنسان إذا هرب من أمامه.

العلاج:

ليحفظنا الله جميعا من شره إذا لدغ هذا العنكبوت إنسانا ما، فإذا لم يتم كى المكان الملدوغ على الفور وبشكل جيد فمن المستحيل أن ينجو هذا الإنسان، وهذا لأن سمه قاتل فتاك لدرجة كافية انتهى.

ويقضى العنكبوت المذكور نهاره مختبئا بين الصخور وفى الليل يزحف حيث الضوء فعندما يرى الضوء فى أى مكان ليلا ومهما كان الزحام يهاجم فريسته دون تردد. وبناء عليه فعلى من يحل فى أى بقعة من الأراضى المقدسة واضطر لإيقاد النار ليلا يجب عليه الجلوس بعيدا عن النار. ولاسيما من يوقد نارا أو يشعل سراجا أو شمعة فى وادى فاطمة فعليه أن يحرص أن يكون بعيدا عن مصدر الضوء. ورغم أن هذه الحشرة هى نفس الحشرة الموجودة فى الأراضى العثمانية حيث يسمونها «بوى»، فحشرة الأراضى الحجازية لحكمة ما ذات سم أكثر وأفتك ويكثر في وادى فاطمة خاصة. لذا يجب على الذين يعيشون فى هذه المنطقة أو ينزلون إليها أن يحذروا هذه الحشرة كثيرا.

درجات الحرارة

بما أن مدينة «مكة المعظمة» تقع فى مكان منخفض وتحيط بها سلاسل الجبال كما سبق أن بيناه، فهى شديدة الحرارة بالنسبة للأماكن ذات المناخ المعتدل التى ذكرناها وتستمر شدة حرارتها ستة أشهر أو سبعة متواصلة، وتشتد حرارتها خلال أربعة أشهر ويطرد تأثيرها من ساعة إلى أخرى.

درجة الحرارة فيها بميزان (زومبورك) فى شهر يونيو ٢٩ درجة وفى يوليو ٢٩ درجة وفى أغسطس ٣٠ درجة وتصل درجة الحرارة فى أشد أيام شهر أغسطس حرارة إلى ٣٦,٣٥ درجة ولكنها لا تستمر طويلا وتهبط إلى ٣٢ و ٣٣ درجة، وتظل لفترة ما حول هذا المعدل. وبعد هذه الشهور تأخذ درجة الحرارة فى الهبوط من يوم إلى آخر إلى أن تصل درجة الحرارة فى سبتمبر إلى ٢٨ درجة وفى أكتوبر إلى ٢٥ درجة.

ويقضى أهل مكة نهارهم فى الشهور المذكورة داخل المبانى، ويمضون ليلهم فوق الأسطح ويتراوح الفرق بين بعض هذه الأماكن وبعضها الآخر فى درجات الحرارة ما بين درجة إلى أربع درجات، لذا تكون الحجرات في النهار أبرد من الأسطح وتكون الأسطح أبرد من الحجرات فى الليل بمقدار أربع درجات. وفى بداية نوفمبر تكون درجة الحرارة ٢٤ درجة وبعد خمسة عشر يوماً منه تهبط درجة الحرارة إلى ٢٢ درجة فينام السكان فى الحجرات.

وفي بداية ديسمبر تكون درجة الحرارة ٢١ درجة وبعد اليوم الخامس والعشرين منه تنخفض درجة الحرارة إلى ١٩ درجة وتستقر عند هذه الدرجة ويروى أنها قد تهبط إلى ١٧ درجة وهذا من الأمور النادرة. وبعد الخامس والعشرين من شهر يناير تهبط درجة الحرارة فى الصباح إلى ١٨ درجة لكن وقت الظهر ترتفع بمقدار درجة ونصف درجة وأحيانا درجتين.

وإذا كان انخفاض درجة الحرارة بين المساء والصباح في كل فصل يصل إلى درجتين مما يلطف من حرارة الجو فإن درجة الحرارة بين الظهر والعصر ترتفع أيضا درجتين وتزيد درجة الحرارة نسبيا عن الصباح. وفى بدايات أيام شهر فبراير تكون درجة الحرارة ٢٠ درجة، وترتفع عند الظهر إلى ٢٢ درجة، وفى صبح أيام شهر مارس تقل درجة الحرارة عن ٢٣ درجة، ويحدث التفاوت بمقدار درجة واحدة فى أثناء نهاية هذا الشهر، وتصل فى شهر أبريل إلى ٢٤ درجة.

وترتفع درجة الحرارة فى شهر مايو إلى ٢٧ درجة وتزيد فى وقت الظهر والعصر من شهر مايو لتصل إلى ٢٩ درجة.

وتهب فى أغلب أراضى الحجاز الرياح الجنوبية ونظرا لسخونة هذه الرياح لا يوجد فى البلدة المعظمة مكة المكرمة ماء بارد. ومن يتجول قليلا لا يستطيع أن يمنع جسمه من التبلل بالعرق.

وإذا لم تهب الرياح لا يمكن للإنسان أن يشعر بالراحة أما إذا هبت رياح الشمال تبرد المياه ويعتدل الجو ويستريح الأهالى.

إفادة خاصة:-

ارتفاع درجة الحرارة إلى هذا الحد يرجع إلى أنّ مدينة مكة المكرمة محاطة بسلسلة من الجبال المرتفعة.

حيث تعكس أحجار هذه الجبال الحرارة التى تكتسبها من الشمس على البلدة، وفى فصول الصيف تستمر هذه الحرارة حتى منتصف الليل.. لذا احتاج الأمر إلى مساحة خضراء تقلل من تأثير الحرارة على البلدة وتجلى العيون بخضرتها.

وهذا ممكن بالنسبة لمكة المعظمة بحيث تغرس على واجهات الجبال المحيطة ببلدة الله والمطلة عليها أشجار مناسبة وتبذر عليها بذور الأشجار البرية التى تنمو سريعا لتتحول الجبال إلى ما يشبه الغابات وفى الواقع أن هذه الغابات لا تنمو فى ظرف عام أو عامين إلا أن الروابى تكتسب اللون الأخضر فى العام الأول وتساعد على تقليل ارتفاع درجة سخونة الأحجار، وتمنح البلدة نوعا من البرودة وبعد خمسة عشر عاماً تصبح هذه المدينة وسط غابة كبيرة، ويستحسن أن تكون هذه الأشجار والبذور من نوع الصنوبر الموجود بقارة أمريكا الذى ينمو كل سنة بارتفاع ثلاثة أو أربعة أمتار أو من أنواع الصنوبريات الشبيهة بها، وهو ما يؤدى إلى تحسين الجو.

كما يزين طريق العمرة بغرس أشجار مناسبة على جانبيه. وإذا تم تسوية الأرض وتعبيد الطريق يسمح بسير العربات عليه ذهابا وإيابا، ويرتاح المعتمرون الكرام وتتحول تلك المنطقة إلى مُتَنَزَّهات ومن الإصلاحات المرجوة بغرض إراحة الحجاج وتأمينهم تزيين طريق عرفات بغرس الأشجار المناسبة، وإيجاد أنفار كافية من قوة الشرطة في أماكن مثل «مأزمين» وغيره حيث يجتمع اللصوص ويحتشد قطاع الطرق.

تنبيه:-

يجب على الذين يقميون فى مكة المكرمة فى فصل الصيف الإقامة فى الأماكن ذات التهوية الجيدة، وأكثر مناطق مكة المكرمة هواء هى الأماكن المتصلة

بالمسعى الشريف من حرم المسجد الحرام، وسفوح جبل أبى قبيس وفوق جبل الصفا وأطراف قلعة فلفل من حى غرارة. وأعلى مناطق مكة المعظمة هى المناطق التى ذكرناها بإضافة نواحى «قشاشية».

إن أرض هذه الأماكن فى مكة المكرمة أعلى من الجهات الأخرى وبما أن أزقتها أوسع وأراضيها أعلى فلا تخلو هذه الأماكن من نسمات الهواء فى أى وقت من الأوقات.

وهواء أحياء «المعلى» و «القشاشية» و «الشبيكة» أفضل من هواء الأحياء الأخرى، لذا لا يتأثر أبداً سكان هذه المناطق من سوء الجو. ومع هذا فإن نوافذ بيوت هذه الأماكن يلزم أن تكون مواجهة للرياح الجنوبية فى جميع الحالات.

والمنازل الكائنة فى أحياء أخرى غير التى ذكرناها تكون الشوارع فيها ضيقة وساخنة مثل مستوقد الحمامات، ومملوءة بالقمامات المتراكمة والقاذورات. مما يؤدى إلى ظهور مجموعة من الأمراض ومن هنا يجب على الأغنياء الذين يسكنون فى هذه المناطق وخاصة الحجاج الذين استأجروا البيوت بالوكالة فيها أن يذهبوا إلى الوظائف بغية تغير الجو ومع اقتراب موعد الحج يعودون إلى مكة المكرمة فيؤدون مناسك الحج ويحافظون على صحة أبدانهم.

وفى مكة المكرمة فواكه مثل: الخوخ، المشمش، التين، السفرجل، الكمثرى، التفاح، البرقوق، التمر هندى، العنب، التمر، اللوز، الجوز، التوت، العناب، الشمام، البطيخ، البرتقال، الليمون، الليم، الرمان، الموز، الخيار، العجور، وأشياء أخرى مثل: الخس، الخرشوف، البامية، الكرفس، الفاصوليا الخضراء، السلق، الجزر اليمانى، الطماطم، الباذنجان، الفاصوليا الناشفة، والفول الناشف، الحمص، الفجل، الشبت، البقدونس، الثوم، الكمون الكراث، القرنبيط، والكرنب وجميع أنواع الخضروات وكل رأس من الكرنب يصل إلى ١٤ أقة ولا يمكن أن ينبت كرنب كبير بهذا الحجم إلا فى الحجاز فقط.

استطراد

بالرغم من وجود الفواكه من كل نوع فى الأراضى الحجازية إلا أن أكثر هذه الفواكه ضار بسكان البلاد الباردة الذين يزورون البلاد الحارة، لذا لزم أن نوجز في هذا المقام ذكر أنواع الفواكه والخضر التي يجب أن يتجنب أكلها ويحترز منها في الأراضى الحجازية.

الخوخ: رغم أن طعمه لذيذ وشكله الخارجى لطيف، إلا أن الإفراط في أكله ضار لصعوبة هضمه.

المشمش: طعمه لذيذ ورائحته تسيل اللعاب، ومع هذا فإن الإفراط في أكله بشكل دائم فى الأراضى المقدسة ضار ويسبب الإسهال. وإذا أكل النوع الصغير من المشمش دون طبخه بسكر يؤدى إلى الإصابة بالحمى الصفراء وفساد المعدة.

التين: ينبت فى الطائف، ورغم أنه ليس بحجم التين الذى يزرع فى بلاد الروم إلا أنه لذيذ الطعم، لكن الإفراط في تناوله يصيب الجسم بالفتور.

السفرجل: يبدو في حالة نضجه التام لذيذ الطعم، طيب الرائحة وبما أن له تأثيراً قابضًا فأكله نيئا قبل طبخه ضار.

الكمثرى: وليست بحجم الكمثرى فى بلاد الروم وهى فى حجم كمثرى مدينة أخلاط. والإفراط في أكلها يصيب المعدة بالضغط.

التفاح: وأكبر حجم للتفاح فى تلك الأراضى يكون فى حجم الخوخ العادي ونظرا لجنيه قبل نضجه تماما فمذاقه مزز، وإذا طهى بالسكر وأكل قدر كافٍ منه يساعد على هضم الطعام.

البرقوق: ويوجد فى الطائف ما يسمى بـ «برقوق مردم» فقط وأكله غير مرغوب لأنه يسبب الإسهال.

التمرهندى: الجاف منه مثل قشر الشجر الأحمر إذا بلل بعضه في الماء يصبح لونه أحمر ويكون شرابا ذا طعم حمضى وشرابه الممزوج بالسكر خافض للحرارة.

العنب: يرى الأطباء أن الطازج منه يبرد الدم ورغم أن ضرره أقل من الفواكه الأخرى فإن الإفراط فى أكله يسبب إسهالا مؤلما. والعنب الموجود فى مكة المزروع فى الطائف له قشرة سميكة بعض الشىء وهو لذيذ الطعم.

التمر: رغم أنه لذيذ الطعم ولزج فإذا ما أكله سكان البلاد الباردة بكثرة وشربوا الماء عقب أكله شعروا مباشرة باضطراب فى القلب فأكله بإفراط مضر.

اللوز: وهو بطئ الهضم لكن منقوعه يمنع الحرارة ويسكن الألم.

الجوز: ويزرع فى الطائف وأكل قدر كاف منه بعد نزع قشرته الداخلية لا ضرر منه ومع هذا فإن أكل الجاف منه مضر فى الأراضى الحجازية.

التوت: يمكن أن يعثر فى الحجاز على التوت الأسود فقط وبما أنه سريع التلف لابد من توخى الحرص عند أكله.

العناب: ويجلب من الشام الجاف المطبوخ منه مفيد لمرضى الصدر، يطبخه أهل جدة ومكة مع الكمون الأسود أو الكزبرة ليتناوله من يصاب بالحمى الصفراء.

البطيخ والشمام: وأكل البطيخ فى الأيام الحارة يرطب الجسم ويسكن فورة الدم وسخونته، ومع هذا فإن الإسراف فى أكله يسبب الانتفاخ والضيق للإنسان.

أما بالنسبة للشمام فإن أكله أحيانا يسبب تعبا فى القلب، لذا لا يصح أكله طالما أنه غير ناضج.

البرتقال: رغم أنه يزرع فى الأراضى الحجازية منذ عدة سنوات إلا أن أغلبه يجلب من مصر وأكل ثمرته أمر طيب وشرب عصيره فى أوقات القوة والصحة لا مثيل له فى خفض الحرارة وإزالة جفاف الحلق وتنقية الدم.

الليمون: ويضاف إلى الأطعمة المناسبة له ويعمل منه عصير الليمون ويشرب. ولكن الإفراط في أكل الليمون الحلو ضار.

الليم: نوع من النارنج، وفير الماء حامض الطعم وتختص به مكة المكرمة ويستعمل بها بدلا من الليمون.

وليكن معلوما لدى الذين يشربون «الليمونادة» المعمولة من الليم أن هذا المشروب أفضل من عصير الليمون من حيث الرائحة وملائمته للمعدة. وعند عصره ينزع قشره الخارجى وإذا لم ينزع القشرة تزيد من مرارة الشراب.

الرمان: وفائدته كبيرة إذا ما شرب معصورا سواء المر منه أو الحلو، فشراب المر منه يرطب الدم ويسكن السخونة. ومع هذا فإن أكل الحلو منه ببذوره يفسد المعدة.

الموز: ويشبه فى الطول والعرض الخيار الروسى الطازج والذى يسمى الخيار البرى أفضله ما يزرع فى الأراضى اليمنية. والموز الذى يزرع فى منطقة الحجاز ويستساغ أكله بعد نزع قشرة الناضج منه مع السكر. الإفراط فى أكله مضر لصعوبة هضمه.

الخيار: ملين وملطف وأكله أثناء الطعام مع السلاطة فاتح للشهية.

العجور: وهو من فصيلة الخيار وتأثيره يشبه تأثير الخيار ويستعمل الطازج منه فى جزيرة العرب فى «السلاطة» مثل الخيار ويؤكل بعض أنواعه مطبوخا مثل القرع.

ويصنع منه نوع من المحشى، لكن نظرا لصعوبة هضمه، فالإكثار من تناوله ضار بأهل البلاد الباردة.

الهندباء: أحد أنواع الخضر في مكة المعظمة، وطعمها لطيف وهضمها سهل وجيد، ورغم مرارة مذاقها بعض الشىء عند أكلها فإنها تكسب المعدة قوة لأنها تساعد على هضم الطعام.

الخرشوف: رغم حداثة زراعته فى حدائق الطائف فإن أهل مكة يعتبرونه من الخضر وهو مستساغ الطعم. وإذا طبخ جيدا يلذ مذاقه ولا ضرر منه لسرعة هضمه.

البامية: وهى ملينة وإذا طبخ الطازج منها بطريقة جيدة لا ضرر من أكلها وذلك

لسرعة هضمها. ولا تخلو منها مكة المكرمة صيفا وشتاء وهى مستساغة بين أهل مكة.

الكرفس: إذا طهيت جذوره وأوراقه بشكل جيد يكون طعمه مستساغا وسريع الهضم.

الفاصوليا الخضراء: وهضم الطازج منها ليس عسيرا وإذا طبخت بطريقة جيدة فأكلها شهى جدا.

السلق: يجب الحذر من أكله بسبب بطء هضمه.

الجزر اليمانى: هو الخضار المعروف باسم «الجزر اليمانى» وبما أنه يحتوى على مادة الدقيق لذا يشعر الإنسان بالشبع عند أكله. ويؤكل مسلوقا أو مطبوخا وفى كلتا الحالتين يشبه مذاقه مذاق الكستناء. ومع هذا فإن الإكثار فى أكل النوع البرى منه المسمى «جزر المدينة» يوجع البطن لأنه بطئ الهضم.

الباذنجان: بما أنه بطئ الهضم فهو يسبب عسر الهضم، لذا وجب التحرز من أكله فى الأراضى المباركة.

الفاصوليا الجافة والفول الجاف: والحبوب المذكورة إذا أكلت قبل طهيها جيدا تسبب الانتفاخ فى البطن وعسر الهضم، كما أن أكلها مطبوخة يسبب الرياح لذا أكلها فى الأراضى الحجازية ضار.

الفجل: رغم أنه مهضم إلا أنه مدر للبول ومسبب للرياح لذا فأكله بكثرة مضر حتى لو كان فى «السلطة».

شبت: مصلح للمعدة، إذا أضيف إلى أى نوع من الأطعمة يكسبها نكهة لذيذة ورائحة طيبة. ويساعد على سرعة الهضم لأنه يفقد خواصه عند طبخه يجب إضافته إلى الطعام بعد طهيه.

الثوم: رغم أنه عند طبخه يساعد على هضم الطعام؛ إلا أن رائحته قوية ولا

تزول بسرعة. كما يحظر أكله فى المناطق الحارة وذلك لأنه يكسب الجسم حرارة عند تناوله.

الكمون: عندما يضاف إلى الأطعمة فإنه يقوى المعدة ويفتح الشهية.

أسباب ظهور الأمراض فى مكة المفخمة

فيما مضى كان الحجاج الذين يأتون مع المحمل الشامى ينصبون خيامهم بجانب الآبار التى فى طريق العمرة، كما كان حجاج المحمل المصرى ينصبون الخيام فى السطح أى المسطح الذى أمام الموقع المسمى «الشيخ محمود»، وكانوا يتركون فى الميدان مخلفات الأغنام التى يذبحونها مكشوفة، كما كانوا يتركون بين الخيام جيف الإبل والخيول التى تنفق من المرض والتعب فى أثناء الطريق.

وكان الحجاج الذين يهبطون إلى منى لرمى الجمرات فى أثناء عودتهم من عرفات يتركون مخلفات الأضحيات فى المكان المخصص للذبح أمام الخيام، وأما من يذبحون الماعز فكانوا يتركون أجساد الماعز كاملة فى المكان الذى كانوا يذبحونها فيه وكانوا يتركون جيف الإبل التى تنحر خلف الجمرة الكبرى فى مكان نحرها وعند ما يتفق وجود الفضلات المتراكمة والقمامات من جيف الحيوانات وسط الخيام المنصوبة بين طريق العمرة وساحة «الشيخ محمود» كان المارة يعجزون عن المرور يسبب الرائحة الكريهة المنبعثة منها، ويصاب أغلب سكان الخيام بالأمراض مثل الصداع والغثيان. ولهذا كان الحجاج المساكين يعانون بجانب شدة الحرارة من تعفن جثث الأضحيات الملقاة هنا وهناك بين الخيام، وهذه الحالة الكئيبة يعجز القلم عن وصفها.

وهكذا كان الحجاج يتعذبون ثلاثة أيام مدة مكثهم فى منى. ولا يخلون من الشعور بالغثيان ويظلهم الخوف والتفكير فى الموت.

ولما كان المراد أن يقضى الحجاج الكرام فى هذا المكان الكئيب الموبوء الأيام الثلاثة فى صفاء الخاطر وطمأنينة، وأن يؤدوا مناسكهم فى هدوء بال وراحة وأن يصانوا من المخاطر القاتلة، اقترحت بعض الجهات المهتمة بالأمور ـ نتيجة

للتصور الحكيم السابق أن يحفر بجانب كل خيمة بئر يلقى فيها مخلفات الأضحيات ثم تغطى بعد ذلك؛ ولكن هذا الاقتراح لم يحظ بالقبول بين جماعات الحجاج ـ لأنه من قبيل ـ التكليف بما لا يطاق ـ ورفضوه قائلين إننا لن نظل هنا بصفة دائمة.

وقد فطن فى النهاية إلى أن الإصابة بالعلل الضارة مثل: الحمى والغثيان والصداع كان نتيجة لعدم الاهتمام بالأمور الصحية وعدم المبالاة بالنظافة والطهارة.

لذا كان من الإرادة السنية العادلة الكثيرة المحامد أمر السلطان «عبد المجيد» ـ جعل الله مثواه الجنة ـ أن تحل جميع المشكلات التى يشاع وقوعها فى أثناء موسم الحج، وأن يبحث عن حلول مناسبة للقضاء على جميع متاعب الحجاج الكرام الطالبى المغفرة.

وبما أن أغلب الحجاج ـ فى زماننا ـ يذهبون لأداء فريضة الحج عن طريق البحر فقد قل عدد الحجاج المشتركين فى قوافل المحامل، كما أنه قد تم حفر كثير من الحفر فى أماكن الحجاج بين طريق العمرة وميدان «الشيخ محمود»، ودفن فيها مخلفات الأضاحى المذبوحة فى «منى» عند العودة من «عرفات» ابتداء من سنة ١٢٦٧ هـ، وهكذا خلت أماكن تجمع الحجاج من المخلفات التى كانت تفسد الهواء فى الماضى.

والآن قد اختفت تماما آثار التعفن ولم يعد لها أدنى أثر فى أماكن تجمع الناس فى مدينة مكة المعظمة، فى عهد السلطان ـ ظل الله على أرضه ـ واستراح الحجاج المسلمون وسكان البلد الأمين من المنغصات، وأصبحوا فى مأمن من كل الأمراض.

ومع هذا فإن أغلب الحجاج الذين يتوجهون لأداء فريضة الحج جهلة لا يعرفون أن كل ما ينفق فى سبيل زيارة أراضى الحجاز المقدسة تعد بمثابة صدقة. كما لا يعرفون أن الإقامة فى الأماكن المكشوفة الجيدة التهوية للمحافظة على

صحة الأبدان، قدر المستطاع والاهتمام بنظافة أماكن إقامتهم وتطهيرها من القاذورات من الأمور التى أوجبها دينهم.

ونتيجة لهذا الجهل وطمعا فى تقليل النفقات يستأجرون غرفا صغيرة ضيقة، ويسكن سبعة وثمانية منهم فى هذه الغرف السيئة التهوية، حيث لا يستطيعون أن يتنفسوا إلا بصعوبة، ويأخذون فى طهى طعامهم فوق «الكانون» وهم أحرص الناس على شراء العطور والهدايا التى سيحملونها إلى بلادهم.

نعم يطبخون ويرمون فضلات أطعمتهم أمام الباب لكنهم يغفلون عن أن هذه الفضلات ستفسد بفعل الرطوبة وتصيبهم بالعلل والأمراض فيمرض الواحد منهم تلو الآخر. وهكذا يحرمون من زيارة أكثر الأماكن المقدسة.

إن ارتفاع درجة الحرارة في فصل الصيف من لحظة لأخرى ورائحة الطعام المطبوخ فوق «الكانون» فضلا عن حرارة الموقد كل هذا يجعل الغرف تلتهب مثل الآسن المسلوق، ومع زيادة آثار الروائح العطرية والماء القذر الذى يسكب أمام الأبواب، مع القاذورات التى تتراكم بعضها فوق بعض تفسد وتتحلل بتأثير الرطوبة فتزيد عفونة المكان، فتنتشر جميع أنواع الحمى وكل الأمراض الضارة وسرعان ما تنتقل العدوى من أحد المقيمين فى هذه الحجرات إلى زملائه فيمرضوا كلهم دفعة واحدة ويعانون من قسوة المرض.

وبناء على هذا الوصف فإن مكة المعظمة لا تخلو فى أى وقت من الأوقات من الحمى، ويلزم أن يتعرض أكثر الحجاج لهذا المرض ويصبحون على مشارف الموت. إلا أن هواء هذه البقعة المقدسة جاف ونقى وصحى لذا، فمن النادر أن يتطور المرض تطورا شديدا فيتحول إلى الحمى المهلكة كما يحدث فى الأماكن الرطبة، وذلك بلطف الله وفضله.

وبالرغم من أن أمراض الرقعة الحجازية السعيدة كلها من أنواع الحمى؛ فإن هذه الأمراض تنتشر فى أوقات الجفاف عندما يقل معدل هبوط الأمطار. وعلى العكس من هذا إذا انهمر المطر بغزارة وتصادف معه ظهور الأمراض فإن المطر

يقضى عليها لأن المطر عندما ينزل كالرذاذ يبلل القمامات والمخلفات المتراكمة حول الأحياء السكنية، فتتخمر بتأثير الحرارة وتتصاعد منها أبخرة ضارة وعندما تغيب الشمس فإن المواد الضارة المذكورة تهبط فى الليل على هيئة الندى فتصيب الذين يتعرضون لها بالعلل والأمراض.

ولكن إذا ما انهمر المطر بغزارة فإن السيل الناجم عنه يدفع القمامات والمخلفات المتراكمة من الطرقات إلى أماكن بعيدة ولا يبقى أثر للعفونة. كان فيما مضى ناحية «المعلى» حوض كبير قديم خرب يسمى «بركة مصر» وكان هذا الحوض الواسع جديراً بأن يسمى منبع مرض الحمى، فقد كانت قمامة البيوت والحوانيت الموجودة بجواره وجثث الحيوانات النافقة مثل الإبل والخيل والقطط والكلاب التى تهلك فى المناطق القريبة منه تلقى فى هذا الحوض، وأصبح هذا الأمر بمثابة العادة المرعية لدى الناس؛ لذا كلما هطلت الأمطار تتراكم المياه فى الحوض وتؤدى بتأثير حرارة الشمس إلى تحلل الجيف وتتصاعد منها رائحة العفن، وتنتشر الأبخرة فى كل الأماكن مما يفسد نقاء الهواء وصفاء الجو فى تلك المنطقة ويكون سببا في ظهور الأمراض القاتلة.

ولما كان مصطفى جامى باشا ـ المغفور له صاحب التصانيف التى لا حصر لها ـ ياورًا فى إمارة الحجاز، قام بسد الحوض المذكور ومقالب القمامة القريبة منه وملأها بالحجارة والتراب، واقتلع تماما الأسباب التى تؤدى إلى ظهور كل أنواع الأمراض، التى يروى أنها تظهر فى مكة المكرمة متبعا القواعد الصحية فى هذا ولهذا لم يبق في الأرض العطرة لكعبة الله أى من الأسباب الظاهرة التى تؤدى إلى انتشار الحمى وكل أنواع الأمراض.

نصائح لمن يذهبون إلى الحجاز:

أن يكون طعام الإنسان وشرابه ولبسه وتنزهه ونومه وقيامه يوافق عادات موطنه الذى تربى فيه، بل إن مزاجه وميوله وطباعه تكون متوافقة لهواء هذا الموطن. وبناء على هذا عندما يغادر الإنسان المكان الذى ولد فيه وعاش وتربى

فيه فعليه أن يتخذ الاحتياطات التى تنجيه من المخاطر والمهلكات، وأن يحرص على قضاء مدة رحلته بالشكل الذى اعتاده جسمه فى وطنه لأن جسمه قد يضطرب بسبب التغيرات التى سيتعرض لها.

واتخاذ كل الإجراءات السابقة أوجب بالنسبة للذين اتجهوا محرمين إلى أرض الحجاز أرض المغفرة، حتى لا يقضى على آمالهم وحلمهم بالحج إلى الأراضى المقدسة تعريضُ أنفسهم للأمراض المهلكة.

وبعض الأشخاص من أهل البلاد الباردة لا يراعون اتباع التوجيهات المذكورة فى تلك المناطق فيعرضون للإصابة بكل صنوف الأمراض والعلل فى الأراضى الحجازية المباركة، وبالتالى يعجزون عن زيارة الأماكن المقدسة.

ويتعرض المسافرون إلى أرض الحجاز لتعب شديد، لأنهم عزموا على زيارة بلاد لم يمروا بها من قبل عن طريق البحر أو البر، بلاد يتعرضون فيها لتقلب الجو برودة وحرارة ويضيقون ذرعا كذلك من كثرة النوم أو قلته.

أما بالنسبة للطعام فإن الحجاج يعانون مشقة فائقة يعجزون عن الحفاظ على صحة أبدانهم؛ وينجم عن هذا الأمر تغيرات كبيرة وخيمة فى أبدانهم مما يؤدى إلى اضطراب أمزجتهم وفساد أمعائهم، وبما أن كل إنسان ينام ويستيقظ وفق نظام اعتاده فى بلده ويأكل ويشرب حسبما يرغب إلا أنه فى هذا الطريق يتعرض لحرارة لم يعتدها في بلده ويظل لمدة عشرين أو ثلاين يوما على التوالى يأكل الجبن والزيتون وما شابههما من أنواع الطعام فعليه أن يراعى ما اعتاده.

عند وصول الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة من الطبيعى أن يستفيدوا من جودة الهواء ونقائه، لكن لانعدام المعلومات عندهم عن طبيعة المنطقة الحجازية وجوها، واستغراقهم فى العبادة بشكل مبالغ فيه يفوق التحمل وبتناولهم الأطعمة الضارة بهم والفواكه المتنوعة بدون نظام فإن ذلك يسبب أضرارا كثيرة للحجاج ذوى الابتهاج ويعرضهم للأخطار.

وقد ثبت فى الآثار الصحيحة والأخبار المتوافرة تضاعف ثواب أداء العبادات

في الحرمين وتزايد ثوابه ولما كانت عبادة الله الواحد الأحد تعتمد على صحة الجسم يلزم الحفاظ على صحة الجسم وقوته للمواظبة على أداء العبادات.

وبناء عليه يجب على الحجاج الكرام أن يحملوا معهم ملابس مناسبة لجميع الأجواء، وأن يرتدوا من الملابس ما يناسب طقس كل مكان يحلون فيه، وأن يبذلوا عناية فائقة للحفاظ على أبدانهم حتى لا يصابوا بالمرض المفاجئ في أثناء ذهابهم أو عودتهم.

ويجب عليهم أن يأخذوا معهم أشياء مثل: الحبوب الملينة والأدوية القابضة للإسهال وأنواع الشاى وزهور التليو وأن يواظبوا على شرب الشاى فى الصباح والمساء فى البر والبحر.

وإذا أمكنهم المواظبة على تناول الماء والأطعمة المطبوخة صباحا ومساء يجب ألا يمتنعوا كما اعتادوا ذلك فى بلادهم.

وإذا حدث نوع من الإسهال أو الإمساك بتقصير الجسم فى وظيفته الطبيعية يجب أن يقضى على أسبابه قبل أن تمر ٢٤ ساعة.

وإذا شعر الحاج بالتدهور فى صحته على الباخرة بتأثير البرودة أو الحرارة يجب عليه أن يدخل القمرة فورا، ولا يلتفت إلى الأموال التى سينفقها فى استئجار القمرة محافظة على صحته، أليس هذا أفضل من ضياع صحته فلا يستطيع تحقيق أمله فى أداء فريضة الحج، إن النقود التى تنفق من أجل المحافظة على صحة الجسم والبدن تدخل ضمن المبالغ التى تدخر لأداء فريضة الحج كما سبق أن ذكرناه من قبل.

ولا يتطرق أدنى شك إلى الحاج فى أن الحافظ والحامى الحقيقى هو «الله عز وجل»، لكن الأخذ بالأسباب فى كل شيء شرط أساسى؛ لذا يجب بعد الإحرام الامتناع عن النوم فى العراء، وعند الوصول إلى جدة يجب عدم تناول الأطعمة بلا داع.

ويجب للحفاظ على صحة المعدة وسلامتها سلق اللحم فى الماء وتناول حسائه والامتناع عن تناول الفاكهة التى لا يوجد منها فى وطنه، ويجب أن يحترس فى كل الأحوال من الإفراط فى أكل الأطعمة مثل البلح والفطائر.

وبمجرد أن تظهر علامات المرض على الجسم أو المعدة يجب عليه أن يسرع فورا وبلا تراخ إلى الأطباء المتخصصين والذين لهم دراسة بمياه تلك المناطق وهوائها والانصياع بعد ذلك لنصائحهم.

وعند الخروج للطريق للذهاب من جدة إلى مكة المعظمة يجب على الحاج المداومة على تناول الماء والأرز واللحم المقلى، ويجب الاحتراس والتريث أثناء ركوب الجمل أو النزول منه حتى لا يؤلم أحد أطرافه أو يصيبها بأذى.

وعندما يتيسّر الوصول إلى مكة المكرمة يتحلل من الإحرام بعد الانتهاء من أداء شعائر الطواف والسعى.

وحسب عادات هذه البلدة يقيم السادة الأدلاء والسقاة مأدبة.

ولأن هذه المآدب قد تكون ضارة بالحجاج لما تحتويه من أنواع الطعام الشهية والتى يعدونها على أكمل وجه؛ يجب الاحتراس من تناول الأطعمة مثل الفطائر والحلوى والأطعمة التى تحتوى على دهون زائدة، ويكتفى بتناول أقل القليل منها، وإذا ظهر اضطراب فى معدته يجب عليه أن يحرص على علاج معدته دون إضاعة وقت وذلك بتناول الأدوية المناسبة.

ولأن الإمساك ضار بذوى البدانة لذا يجب عليهم الامتناع عن تناول الأطعمة التى تفسد المعدة والعناية بهذا الأمر أعظم عناية فى هذه البلاد.

ويحدث اضطراب المعدة من تناول مختلف الأطعمة والمشروبات بغير نظام. ولأن شدة الحرارة تعطش الإنسان لذا يجب الابتعاد عن تناول الطعام بلا داع وكذلك عن شرب الماء أكثر من اللازم ويشرب الشاى من حين إلى آخر على ألا يؤدى إلى الإصابة بالإمساك.

وعلى الحجاج ـ ليلا ونهارا ـ الاكتفاء بتناول طعام مفيد للجسم والابتعاد عن النوم تحت الشمس.

ومن الأمور الجديرة بالعناية اختيار حجرات ذات تهوية جيدة وفى الطبقات العليا أو الوسطى من المبنى عند الاستئجار وألا يزيد عدد المقيمين فى حجرة واحدة عن ثلاثة أشخاص، ويجب على الحاج عدم شرب الماء عند العرق وكذلك عدم النوم فوق الأسطح ليلا كما يجب مراعاة المداومة على الاستحمام.

ولأن أجسام المقيمين فى منطقة الحجاز تتعرض للعرق كثيرا ويؤدى هذا العرق إلى ظهور مادة دهنية فوق سطح الجلد. فتنغلق مسام الجلد وتحول دون خروج العرق إلى سطح الجلد.

وبالتالى تظهر على الجلد حبوب حمراء دقيقة تؤدى إلى ظهور بثور ممتلئة بالماء.

وحتى لا تتحول هذه البثور الصغيرة إلى قراح (خراج) يجب الاستحمام مرتين أو ثلاث مرات على الأقل فى الأسبوع والاهتمام بتغيير الملابس باستمرار.

وطوال فترة الإقامة فى وادى عرفات ومنى يجب الجلوس فى الخيام، وعدم تناول الفاكهة والأطعمة الضارة بالجسم وعليه تجنب السير تحت أشعة الشمس وهذا من الأمور اللازمة للحفاظ على صحة الجسم. وعند الإقامة فى منى لا بأس من الأكل من لحم الأضحية لكن من اللحم المشوى فى السفود بلا دهون وسلق اللحم فى الماء مع الأرز وتجنب أكل اللحم فى الزيت وكل أنواع الطعام الأخرى لضررها ويجب إحضار اللحم الذى يؤكل فى هذا المكان المقدس من عرفات أو من مكة المعظمة لأن لحم الماشية التى ترعى فى هذه الصحراء المباركة يؤدى إلى الإصابة بالإسهال؛ لأن صحراء منى ينتشر بها عشب السنامكى.

ولأن الإنسان يتردد فى الطريق بين الحرمين بصورة دائمة لذا يجب قبل التحرك من مكة المكرمة أو المدينة المنورة إعداد القدر الكافى من اللحم المقلى والأرز ويكون الطعام الذى يؤكل أثناء الطريق عبارة عن ماء اللحم المقلى والليمونادة وما شابههما من أنواع الأطعمة.

ونتعرض فيها لتعريف وذكر لماذا أطلق على البيت المعظم اسم الكعبة وما كانت عليه الأحوال في البلدة المفخمة مكة المكرمة في العصور الأولى.

في الأزمنة القديمة كانت القاعدة المرعية أنه ممنوع بناء أبنية داخل المدينة المقدسة مكة المكرمة أعلى من البناء الشريف لكعبة الله. وقد سمع من الحجاج الذين يترددون على تلك الأماكن أن من يخالف هذه القاعدة سرعان ما يتهدم ما شيدوه من مباني ويصير جزازا.

اتخذ هذا المنع حكم الاعتقاد العام بين أهل مكة لذا كانوا يمنعون إقامة أي أبنية ترتفع عن بناء البيت المعظم وقوى هذا الاعتقاد عندهم وأن من يتجرءون على إقامة أبنية تعلو على الكعبة ممن يرفضون هذا الاعتقاد كانوا يرون أن ما يشيدون سرعان ما يتهدم ويصير جزازا.

واستمر هذا الاعتقاد سائدا لفترة بين أهل مكة في صدر الإسلام أن ابنًا لشيبة بن عثمان - رضي الله عنه المنان - صعد جبل أبي قبيس، وأمر بهدم المباني التي رآها أعلى من بناء الكعبة المعظمة، كما أمر بهدم المنزل الفخم الذي بناه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس أمام الحرم المحترم في شارع المسعى الشريف، لأنه يرتفع على البناء السعيد للبيت الأكرم. واهتم أهل مكة بالمحافظة على هذا الاعتقاد القديم السائد بينهم بشأن البناء الفخم للبيت المعظم.

وبناء على هذا الاعتقاد لم تظهر في مكة المعظمة طوال عدة قرون أي مبان تعلو على بناء البقعة المشرفة للكعبة المكرمة. ولأنها ظلت تتميز على كافة الأبنية الموجودة لأزمنة طويلة بعلوها وارتفاعها، لذا أطلق اسم الكعبة على البيت الأعظم. وذكروا أن هذا الاسم الشريف مشتق من كلمة كعب وإذ يوجد بعض

الرواة ممن يقول بأن تسمية الكعبة يرجع إلى أنها ذات أربعة زوايا أو أنها مرتفعة عن سطح الأرض مثل كعب الرجل، لكن جمهور المؤرخين يصدقون القول الأول. ولأن الكعبة هي أشرف من كل البيوت والقصور الموجودة على وجه الأرض.

كما أنها من ناحية القدم الأفضل والأقدم كان ذلك سبب إطلاق هذا الاسم الشريف «البيت العتيق» على البيت المحترم وهو الدليل المطلق على شرف وارتفاع مكانة هذه البقعة المقدسة لأن البيت العتيق أحد أسماء البيت المكرم.

ويروى الحسن البصرى أن سبب إطلاق هذا الاسم أنه أول بيت أسس ليزوره بنو البشر، وهو عند الإمام مجاهد أن الله حفظه وحماه من الجبابرة الذين أرادوا هدمه وتخريبه، وفى قول قتادة سببه أن الله حفظه من طوفان نوح عليه السلام. وقال الفخر الرازى إن هناك عدة وجوه لاشتقاق هذا الاسم والقول أنه قديم له علاقة بكونه أقدم البيوت على وجه الأرض والسماء، وأن الله قد حفظه من الطوفان وأهلك كل من أراده بسوء وأنه وجد قبل أن يكون لأحد مكان. والله تعالى يعتق من نار جهنم عباده الذين يزورون هذه البقعة المباركة.

وهذه الأقوال وما شابهها من أسباب كانت تقتضى أن يطلق على البيت المحترم اسم البيت العتيق.

وإلى أن انتقل حكم مكة المكرمة من أجداد حضرة الرسول عريق الأصول ذوى المعالى إلى قصى بن كلاب لم يكن فى هذه المدينة المعظمة بيوت أو مساكن. وكما وضحنا في الصورة الثانية من الوجهة الثانية أنه عندما أصبح ابن كلاب حاكمًا لمكة المكرمة ارتضى بإنشاء بيوت حول الكعبة، وإذا كان رضاء ابن كلاب هذا قد جاء شديد الوطأة على الناس. ولم يجرؤ أهل مكة على بناء منازل بجوار كعبة الله دفعة واحدة رعاية للقاعدة القديمة إلى حد ما فإن عمرو بن السهمى لم يرع هذه القاعدة فَبَنَى لنفسه منزلا خاصا بناه بناء على رأى وتصويب قصى بن كلاب واتبعه آخرون بعد ذلك فى هذه الخطوة الجريئة. وبدأ واحد تلو

الآخر فى بناء بيوت لهم. وسرعان ما أقيمت بيوت وحوانيت كثيرة لا مثيل لها واتسعت هذه المدينة المقدسة وملأها العمران.

الشكل الأول:

لم يكن العمران في المدينة المقدسة مكة المشرفة عمرانًا دائما، فكانت فى بعض العصور حافلة بالعمران وفى البعض الآخر تعانى من الخواء وتصبح منازلها خاوية مهجورة، وفى أوقات خلوها تكون خالية من الأهالى لدرجة أن حركة البيع والشراء فى الحوانيت التى فى شارع المسعى الشريف تتوقف تماما، فتهبط الظباء من الجبال وتدخل الحرم الشريف ثم تخرج منه بعد الطواف وتعود من حيث أتت، حتى إن قوافل بجيلة لا تجد إنسانا واحدا حتى تبيع له بضاعتها التى أتت محملة بها فتضعها فى مكان ما وترجع.

أما سبب كل هذا الفراغ فيرجع إلى أن أهل مكة لا يستطيعون تحمل ارتفاع درجة الحرارة؛ فيهجرونها إلى الأطراف المحيطة بها.

وتراوحت أحوال هذه البلدة المشرفة بين القحط والرخاء والبركة والغلاء، ولم يكن الأمر فيها يسير على وتيرة واحدة فتارة لا يوجد بها شيء يؤكل وتارة أخرى لا تستوعب الأسواق ما يرد إليها من حبوب ومواد غذائية. ويذكر فى تاريخ القطب المكى أحد مؤرخى مكة وهو يصف ويذكر أحوال مكة المعظمة قائلا: «إنى فى مرحلة الصبا كنت كثيرا ما أرى المطاف السعيد خاليا من الناس فكنت أطوف بمفردى».، وهو يريد بهذه العبارة الإشارة إلى الفترات التى كانت مكة المكرمة خاوية بشكل ملحوظ، وإلى المعاناة الكبيرة التى قاستها من القحط والغلاء فى الأوقات التى ذكرها القطب المكى، كان أهل مكة قلة قليلة، وكانت النقود المتداولة التى تزين الصناديق نادرة، لذا لم يكن فى حوزة أحد من الأهالى قطعة نقود واحدة، كما انتهت البضائع التى فى الأسواق ولم يكن يوجد فيها شيء من البضائع والأغذية.

واستمرت هذه الحال إلى عام ٩٥٠ هـ وعندما انتقلت الإدارة المقدسة

للحرمين الشريفين إلى سلاطين آل عثمان، بدأ الأهالى المجاورون فى التقاطر عليها يوما بعد يوم فتوفرت الأطعمة والبضائع بالتدبير وأصبحت هذه البلدة المشرفة فى موسم الحج تستوعب كل قوافل الحجاج التى ترد إليها واتسعت أرجاؤها وأصبحت قادرة على إيواء وإسكان كل الحجاج الذين يفدون إليها.

الشكل الثانى:

ما يقصده القطب المكى من قوله «إننى كنت أطوف بمفردى» هو إيضاح أن أجره وثوابه يكون أكبر لكونه يطوف منفردا، والواقع أن الطواف عبادة خاصة فإذا استطاع إنسان أن يوفق فى طواف البيت الأكرم منفردا فلا شك أنه لن يحرم من ثواب كبير يكفى لطواف كل المؤمنين، وخلو الحرم الشريف يكون قاصرا على بنى البشر فقط إنما لا يمكن أن تمر دقيقة واحدة عليه يكون خاليا من تدفق الملائكة الكرام وأصحاب الأجسام الشفافة اللطيفة، ومن الأولياء ذوى الاحترام الذين تخطوا مراتب الزمان والمكان العالية.

ولأن هذه الحال فى الظاهر مخالفة لعادات واعتقاد أهل الاستدلال، فإن كثيرا من الأشخاص قضوا أعمارهم كلها للحصول على لحظة واحدة للطواف بمفردهم حول الكعبة الشريفة.

لما كانت جميع العبادات وأقسام الطاعة الإلهية يشترك فيها الناس، فطواف الكعبة منفردا يعتبر عبادة لله بدون شريك وإذا استطاع إنسان ما أن يطوف الكعبة بمفرده يكون قد عبد الله تعالى بدون أن يشاركه فيها أحد حسب ظاهر الأمر.

حكاية: يروى أن واحدا من الأولياء كانت لديه رغبة حقيقية فى أن يطوف بالكعبة المعظمة بمفرده، وظل يتحين الفرصة لمدة أربعين سنة وفى النهاية وجد المطاف خاليا ذات ليلة فأخذ يطوف بمفرده. وفجأة رأى حية ضخمة تطوف معه فسألها قائلا «من أنت»؟ فأجابته الحية «إننى أتحين الفرصة التى تنتظرها من أربعين عاما بمائة عام من قبلك.

فأجابها الرجل الصالح: «أنت لست من بنى البشر لذا أعتبر من المحظوظين بنيل هذه الأمنية، ثم أكمل طوافه.

ينقل أهل مكة هذه الحكاية ويروونها بشكل آخر فيقولون إن عبد القادر الجيلانى - قدس الله روحه - ظل يقيم بجوار العمود الأحمر الواقع أمام باب الزيارة لمدة سبع سنوات، حتى يتمكن من الطواف بمفرده ولم يستطع أن يبلغ مراده طول هذه المدة وفى النهاية حدث سيل عظيم وبلغ ارتفاع الماء داخل المطاف السعيد حوالى ثلاثة أذرع، ووجدها القطب الجيلانى الوقت المناسب لتحقيق أمنيته وبدأ الطواف سابحا لكنه رأى ثعبانا كبيرا يطوف معه سابحا فتأسف قائلا» وأسفاه لم أتمكن من تحقيق أملى».

ويروى محيى الدين بن عربى فى المسامرات نقلا عن طلق بن حبيب رواية قريبة من هذه الرواية، يقول ابن حبيب بينما كان يجلس معه عبد الله بن عمرو بن العاص فى الحجر العظيم بدأ فجأة ظلام شبح داخل الحرم الشريف وأثار الموجودين فيه، وإذا بثعبان عظيم دخل من باب شيبة، واتجه نحو البيت الأكرم، وخاف الذين شاهدوه وأفسحوا الطريق أمامه، فطاف الثعبان سبع مرات ثم وقف خلف مقام إبراهيم مدة أداء ركعتين ثم بعد ذلك انصرف إلى جهة، واقترب ابن حبيب وعبد الله بن عمرو بن العاص من الثعبان وقالا: أيها المعتمر تقبل الله نُسُكَكَ وعبادتك، فى بلدتنا بعض السفهاء ونحن ننذرك من عدم حذرك شرهم.

ما إن قلت هذا حتى راح واختفى فى طرفة عين ولم يعد له أى أثر وما كان الطواف حول الكعبة المشرفة للبشر وحدهم بل للحيوان كذلك، كان يطوف طبق أصول مرعية.

(الإمام الأزرقى).

ولكى يثبت هذا الأمر فى تاريخه المسلسل الذى كتبه عن أحوال مكة، يذكر صورة غريبة نقلها عمن رأوه يطوف بالبيت المحترم كما يطوف الناس.

طواف طائر بالبيت المعظم:

يقول الإمام إنه فى يوم السبت السابع والعشرين من شهر ذى القعدة فى العام السادس والعشرين بعد المائتين من الهجرة بينما الحجاج يطوفون فى وقت السحر إذا بطائر عجيب الهيئة يخطف البصر يدخل الحرم الشريف للمسجد الحرام مع طلوع الشمس عن طريق أجياد الصغير ويحط بجوار أحد قناديل زمزم الشريف الذى يقع بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم، ويظل واقفا لمدة طويلة وأكثر الظن أنه من طيور البحر، وبعد ذلك طاف وحط فى مكان بين الحجر الأسود الذى فى الكعبة والركن اليمانى، ولكنه كان أقرب إلى الحجر الأسود. وكانت أجنحة هذا الطائر سوداء ممزوجة بالحمرة، وكانت قدماه طويلتان دقيقتان وكذلك منقاره وعنقه. وطار من المكان المذكور يحط فوق كتف حاج يقف بمحاذاة الحجر الأسود ثم طار من فوق كتفه ليحط فوق الكتف الأيمن لحاج من حجاج خراسان. وبما أن الخراسانى كان محرمًا أخذ يلبى بصوت مرتفع وعند اللزوم يجرى ويدور فى وسط الحجاج.

وظل الطائر فوق كتف الخراسانى غير خائف من الحجاج وكان الحجاج الذين يطوفون مع الخراسانى ينظرون إلى تصرفاته بتعجب أما الطائر فكان يزداد سكونا وهدوءا رغم ازدياد تعجب الناس ودهشتهم، ويبدو أن حال الطائر قد أثر فى الخراسانى لأن المسكين كان يطوف ويبكى والدموع التى تسيل من عيونه تبلل لحيته وتسقط على الأرض.

قال محمد بن أبى عبد الله بن ربيعة الذى رأى بنفسه هذا الحادث الغريب: «لقد رأيت ذلك الطائر فوق الكتف الأيمن للحاج الخراسانى وكان الناس يتدافعون لرؤيته. أما هو فلم ينفر ممن يتفرجون عليه بل أنه لم يُوْلِ لهم أى اهتمام.

وكنت فى ذلك اليوم من الطائفين وكنت كل سبع مرات من الطواف أصلى ركعتين خلف مقام إبراهيم ثم أستأنف الطواف حتى أكملت واحدا وعشرين

شوطا حول الكعبة، وكنت فى كل مرة أرى الطائر فوق كتف الخراسانى، ومد أحد الطائفين يده ليلمس الطائر لكنه لم يطر، وفى النهاية طار من تلقاء نفسه واستقر فى مكان بالجانب الأيمن من بناء المقام الشريف، وحشر منقاره تحت جناحه ووقف لفترة طويلة، واجتمع الناس حوله ليتفرجوا عليه وفجأة مد أحد أغاوات بيت الله يده وأمسك به ليريه لأحد أصدقائه، فخاف الطائر وصاح صيحة مفزعة، وكان الصوت لا يشبه صيحة الطائر.

وفزع الرجل من صوت الطائر وأطلقه فطار الطائر وحط فوق العمود الأحمر القريب من دار الندوة، ثم طار من بين باب «زيادة الندوة» وباب العجلة فتوجه إلى نواحى جبل قعيقعان.

طواف الجن:

جاء فى رواية أبى الطفيل المدرجة فى كتاب المسامرات، أن الكعبة كانت مطافا للإنس والجن قبل البعثة النبوية قال: كانت امرأة من الجن ساكنة فى الجاهلية فى مكان يسمى. «ذى طوى» ولم يكن لهذه المرأة سوى ابن واحد فقط وربت المرأة المذكورة ابنها حتى كبر وأصبح من أشراف القوم وتزوج، وبعد سبعة أيام من ليلة زفافه أراد أن يدخل مدينة مكة المعظمة ليطوف بالبيت العزيز.

وأرادت الأم ألا تأذن لابنها بالذهاب فقالت «يا ولدى إننى أحفظك من سفهاء» قريش وأضن بك» ولكنها فى النهاية سمحت له استجابة لتوسلاته، وبما أنها كانت تحب ابنها حبا جما ولن تستطيع على فراقه صبرا فقالت.

أعيـذه بالكعبـة المستـورة ودعوات ابن أبى محذورة

وما تلا محمد مـن سـورة إنـى إلـى حياتـه فقيـرة

وإنـنى بعيشـه مسـرورة

وما أن أخذ الابن الإذن من والدته وسمحت له بالذهاب حتى تحولت هيئته إلى جنى وتوجه إلى الحرم الشريف، وبعد الطواف عاد من طريق حى «بنى

سهم» فقابل فى الحى المذكور رجلا أحمر الوجه أحول العينين، مفتوح الحاجبين، أعسر اليد فقتله بدون وجه حق.

وعندما علمت الأم بقتل ابنها وموته دعت أبناء قومها وشرحت لهم الأمر، وحرضتهم على أهل مكة فانطلق داخل مكة فجأة ضجيج مدو وغمر المدينة تراب كثيف ودخان أسود واختفت تحته كل البيوت والجبال، فلم يعد يرى شيء.

وكانت طوائف الجن وراء هذا العمل، ضد قبيلة «بنى سهم» حتى إن رجال هذه القبيلة كانوا يموتون فجأة وهم فى فرشهم.

وأخيرًا أدرك ما يقرب من سبعين شيخا أولى بأس لا يعرف الخوف سبيلا إلى قلوبهم حقيقة الأمر، فجمعوا أفراد قبائلهم وصعدوا الجبال وظلوا هناك ثلاثة أيام متتالية، مشغولين بقتل كل ما يرونه من الحيات والعقارب وسائر الحيوانات المؤذية وفى الليلة الثالثة سمعوا نداء من فوق جبل أبى قبيس يقول:

الإنصاف يا معشر قريش أصلحوا بيننا وبين رجال «بنى سهم» فقد قتل رجال القبيلة المذكورة الغالبية منا. بناء على هذا النداء عقد أكابر قريش صلحا بين «بنى سهم» وقبيلة الجان وأخذوا من كل واحد فيها العهد والميثاق على الآخر بألا يتعدى أحد على الآخر، وقد أطلق بنى سهم على هذه الواقعة اسم عياطلة.

* * *

التعريف بحدود كعبة الله بالفضائل الجليلة لمكة المكرمة

اتفق جمهور العلماء على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق البلدة المفخمة مكة المعظمة، كما خلق المدينة المنورة، وهما أفضل من كل بلاد الدنيا وممالكها وبالتالي فليس هناك بلد على وجه الأرض أجمل وأشرف من هاتين المدينتين المشهورتين.

يقول القاضي عياض في مؤلفه «الشفاء الشريف»: إن المدينة المنورة دار حضرة صاحب الرسالة هي أفضل وأشرف من كل البلاد والممالك ومن بعدها البلدة المفخمة «مكة المكرمة» وهو بهذا القول يريد أن يرجح «المدينة المنورة» على «مكة المعظمة» جاعلا حجته بأنها تضم قبر الرسول.

نظم

جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاط ذات المصطفي وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
كالنفس حين زكت مأواها

وإذا كان هناك من يؤيد القاضى المشار إليه فى هذا الشعر الصحيح المعنى، إلا أن علماء السلف يختلفون فى تحديد صحة هذه المشاركة أى فى ترجيح كفة أى من «مكة المشرفة» والمدينة المنورة على الأخرى.

فيرى الإمام الأعظم أبو حنيفة والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل وكل التابعين لهم، أن الحديث الصحيح القائل «بأن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، والصلاة فى المسجد

الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى مسجدى» هذا يعنى أن مكة المكرمة أفضل من المدينة المنور.

ويقولون إنها أفضل لأن ماء الحياة الطاهر تفجر من هذا المنبع، وأن نور الإسلام الذى أشرق على الكون من ذلك البرج الرفيع انتشر وأضاء ولقد أنعم خالق الكون على هذه البقعة المقدسة بكثير من الفضائل الجليلة والخصال الحميدة.

كما أن المسجد الحرام سيد كل المساجد، وكما أن موضع الكعبة المباركة قبلة الأحياء والأموات وهى سيدة كل البيوت المقدسة. وهو مهبط الوحى الجليل ومجمع الأنبياء وفيه دفن الرسل والأنبياء كما أنه يفضل كل البلدان بموجب الآية الآتية: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾ (سورة آل عمران: ٩٦).

وفى هذا المقام لا تستطيع أن تستبعد هذا السؤال الذى قد يجول بذهننا وهو هل يمكن الجمع بين هذه الآية الكريمة والآية العظيمة ﴿**طَهِّرَا بَيْتِيَ**﴾ (سورة البقرة: ١٢٥).

بمعنى أن ملكية البيت المعظم أضيفت إلى الناس فى الآية الأولى وفى الثانية أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا أمعنا النظر فى هذا الموضوع وفكرنا قليلا يمكننا الإجابة على هذا السؤال على النحو الآتى:-

كان الله - سبحانه وتعالى - يشير فى هاتين الآيتين إلى الآتى: «أيها المؤمن الموحد إذا كان البيت الحرام هو بيتى فإننى لم أضعه ولم أقمه لنفعى لأننى لست بحاجة إليه بل إننى وضعته لك أنت حتى يكون قبلتك عندما تتوجه إلى بالدعاء.

ويذكر البيت الشريف فى الآية الكريمة ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ**﴾ (سورة آل عمران: ٩٦) بلفظ مبارك ويفهم من هذا أن للبيت الأكرم أفضال أكثر من أى بيت.

ويقول سيدنا على ـ كرم الله وجهه ـ «ومن دخله كان آمنا» أنه أول مكان اختصه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالأمان وبالبركة ويقول الحسن البصرى ـ رضى الله عنه ـ إن البيت الأكرم هو أول بيت خلق للعبادة على وجه الأرض ويقول الإمام مطرف إن البيت المحترم جعل أول قبلة للناس.

وكل هذه الأقوال تؤكد أن فضائل الكعبة المعظمة لا تعد ولا تحصى.

وفى الآية الكريمة ـ سالفة الذكر ـ كلمة «مبارك» الشريفة وهذا اللفظ الجليل يعنى أن هذه البقعة الشريفة مباركة إلى الأبد وأن بركتها فى تزايد مستمر فى كل لحظة وفى كل زمان وستدوم إلى الأبد.

ولأن الماء يدخلها باستمرار يشبهونها بحوض ماء العرض الإلهى، من استخدام لفظ البركة وتشبيه البيت الأعظم بالحوض هو الإخبار عن دوام وبقاء وزيادة ونمو خيرات بيت الله والفضائل التى تدل على ذلك لا حدود لها وإنه بركة ونمو وتزايد.

وفضل الطاعة والعبادة بها يفوق أداء الطاعات والعبادات فى بقية البلدان وهذه الزيادة سمة جليلة يختص بها البيت الحرام.

هناك أحاديث كثيرة تفيد هذا المعنى والأحاديث الآتية التى سنذكرها تبين اثنان منها تزايد بركة الصلاة، والآخران يبينان تزايد بركة الحج. وهذه الأحاديث هى قوله ﷺ فيما معناه.

«أن فضل المسجد الحرام بالنسبة لمسجدى هذا كفضل مسجدى على سائر المساجد» و «أن الصلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه» و «من حج فلم يفسق ولم يرفث خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» و «وأجر الحج المبرور الجنة» (حديث شريف).

وعلى هذا التقدير يجب علينا أن نتصور أن المؤمنين الذين يقفون للصلاة جاعلين الكعبة الشريفة نقطة التوجه ويحيطون بها فى صفوف متلاحقة، يجب

أن نتخيل ونتذكر أن المسلمين فى جميع أنحاء العالم، متوجهين إلى تلك النقطة للصلاة فيزيد من عدد الصفوف فى أذهاننا قدر ما نستطيع.

بناء على هذا الحساب فإن الدوائر التى تحيط بالكعبة تخرج عن حصر عددها. وإن بين هؤلاء المحيطين بالكعبة مكان وجود بعض الصالحين المتوجهين نحو كعبة المعرفة.

لذا يجب على كل مصل عندما يقف للصلاة أن يعرف أنه يقف بين كثير من أولياء الله الذين يتجهون بقلوبهم إلى كعبة المعرفة، بينما يتجهون بأجسادهم لتلك النقطة المحسوسة، وعليه أن يستفيد من أنوار أرواحهم العلوية.

إن هؤلاء الذوات الذين أردنا أن نحترمهم يتمتعون بنيات منيرة وقلوب وضمائر مقدسة طاهرة، وأنهم بأجسادهم الظاهرة يتوجهون إلى تلك النقطة الموهومة أى الكعبة المشرفة بينما تتجه أرواحهم الضالة إلى كعبة المعرفة.

وأى إنسان نالت روحه فضل الاتصال بهذه الأرواح النيرة تزيد فى قلبه الأنوار الإلهية، وتعظم فى أعماقه لمعات احتوائه للروحانية وأسرارها، وهذا أكبر دليل على أن بيت الله مكان مبارك، بما يحتوى من أسرار الهيبة وبقاؤه دائم وأبدى.

لأنه لا يخلو لحظة من العاكفين والساجدين والراكعين من الموحدين المؤمنين. وفى كل لحظة وآن يتجه الناس إلى كعبة الله للصلاة وقد قرر بقاؤه منذ أن خلق.

إذا ما تناولنا بالبحث لفظ «هدى» فكعبة الله كانت هدى للعالم بصورتين.

الصورة الأولى: أنها قبلة العالم التى يهتدى إليها فى الصلاة أو دلالتها على وجود صانع مختار، وصدق نبوة نبى الله، أو أنها تهدى إلى جنة الفردوس لأن الصلاة التى تؤدى بالتوجه إلى ناحية الكعبة الشريفة تدخل الجنة.

الصورة الثانية: لأنها تحتوى على الآيات البينات، وإن كان المقصود بالآيات

البينات أن كل من وجد فى داخل حدود حرم كعبة الله المحرمة يتمتع بالأمن والذين يهتكون حرمة بيت الله يهلكون. . إلا أن الآيات المذكورة عبارة عن مقام إبراهيم عليه السلام.

وإن كان المقام الشريف قطعة من الحجر، إلا أنها تجمع كثيرا من الآيات من هذه الآيات وجود آثار أقدام خليل الله فوق قطعة الحجر، وانغراس قدميه الشريفتين فى هذا الحجر إلى الكعبين.

وبقاؤه محفوظا آلاف السنين خلافا لمعجزات الأنبياء الآخرين، رغما على وجود كثير من الأعداء مثل اليهود والنصارى والمشركين والملحدين وكل ما ذكرناه من الآيات العجيبة الخاصة بالمقام الشريف، يدل على أن المقام الشريف يشتمل على آيات كثيرة.

هناك ثلاث روايات عن مقام إبراهيم

الرواية الأولى: عندما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يبنى الكعبة، استخدم حجرا كسقالة وقد طبع عليه آثار أقدامه.

الرواية الثانية: عندما ذهب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الشام للحجاز لرؤية ابنه إسماعيل غسلت زوجة ابنه قميصه وهو واقف على حجر آثار قدميه المباركتين فوق الحجر.

الرواية الثالثة: أنه هو الحجر الذى صعد فوقه إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما دعا الناس لأداء الحج والذى أطلق عليه مقام إبراهيم وقد انطبعت آثار قدميه المباركتين فوق الحجر.

النتيجة: وتبعا للأبحاث التى قام المفسر «القفال» رحمة الله عليه، يقرر أن هذه الوقائع الثلاث كلها صحيحة لأنها كلها وقعت فوق حجر واحد، لكن الرواة لم يستطيعوا أن يبينوا الحقيقة فى أثناء نقل الروايات.

انتهى.

والذين يزورون المشاعر ويؤدون مناسك الحج ثم يعودون، وعد الله برفع وإعلاء درجاتهم ومحو ذنوبهم.

والحج مرة واحدة فرض عين على المستطيعين وحج جميع الناس فرض كفاية ولقد جعل الله المسجد الحرام حرماً يوم خلق السموات والأرض.

والمقام الشريف لسيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل - عليهما السلام - من المسجد الحرام، ومكة المكرمة هى مسقط الرأس الشريف لمفخرة الأنبياء ﷺ.

أقام النبى - ﷺ - فى هذه البلدة، ونشر الدعوة فيها بعد البعثة مدة ثلاثة عشر عاما على اختلاف الروايات وقد أشرقت شمس أفق الإيمان في هذه المدينة االمشهورة، ونزلت فيها أكثر آيات القرآن الكريم.

وهذه المدينة مقر «الحجر الأسود» والحجر السعيد وبئر زمزم، ومع أنه فى واد غير ذى زرع إلا أن الأرزاق فيه متوفرة تأتيه من كل أقطار العالم وأهله فى تزايد مطرد يوما بعد يوم.

إخطار:

تكمن حكم كثيرة خفية وراء وجود مكة المكرمة فى واد غير ذى زرع، ولكن العلماء الأعلام اكتفوا بذكر الحِكَم الخمس التالية.

الحكمة الأولى:

أن مجاورى البيت الحرام يقطعون الأمل من التعلق بغير الله، وذلك بإظهار التوكل التام عليه سبحانه وتعالى تقدست ذاته.

الحكمة الثانية:

عدم طمع أحد من الأكاسرة وملوك الدنيا والحكام والجبابرة، فى الإقامة حول بيت الله أو من السكنى بجوار كعبة الله.

ولا يمكن لهؤلاء الجبابرة أن يجدوا المتعة واللذة الدنيوية التى يسعون إليها فى واد غير ذى زرع.

وهكذا طهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكعبة الشريفة، ونزهها من لوث بنى البشر الذين يعبدون الدنيا.

الحكمة الثالثة:

حتى لا تتحول الكعبة إلى متجر لأنها خلقت للحج والزيارة فقط.

الحكمة الرابعة:

لتقديس مكانة الفقر وشرفه.

الحكمة الخامسة:

من أجل إبراز أن كعبة المعرفة لا تحل إلا فى قلب خال من حب الدنيا وزخرفها، وهذا يدل على علو فضل الكعبة المباركة علوا فوق العادة انتهى.

وإذا وضع مفتاح باب المعلا مفتاح مصباح السعادة فى فم طفل ألْثغ(1) فبقدرة الله تحل عقدة لسان هذا الطفل.

ولا تحلق طيور السماء فوق الكعبة، والحمام المريض يرقد فوق الكعبة فيشفى. تظل ساكنة بلا حركة فوق الكعبة المعظمة إلى أن تشفى. وبعضها يرقد فوق ميزاب الرحمة ليشفى، وإذا هبطت الأمطار من أى جهة من أركان الكعبة المعظمة تعم البركة، وتفيض بالخير والنماء البلاد التى فى تلك الجهة.

وأقصى ما يستوعبه بيت الله ـ المملوء بالفيض ـ خمسمائة شخص كما ذكرنا فى الصورة السادسة من الوجهة السادسة لأن مساحته ٦٥٦ قدم مربع، ومع هذا إذا دخله بضعة آلاف من البشر دفعة واحدة، فإنه يستوعبهم ويمكنهم أن يؤدوا عبادتهم فرحين فخورين.

وفى موسم الحج تدخله أعداد غفيرة من البشر، ولو دخلت هذه الأعداد الكبيرة إلى أى مكان آخر لابد أن يموت عدد منهم بأى حال من الأحوال. أما

(1) اللَّثَغُ: فِعلُهُ لَثِغَ فُلانٌ لَثَغًا: تَحَوَّلَ لسانه من حرف إلى حَرف غيره، كان يجعل السين ثاءً أو الراء غَيْنًا.

فى البيت الحرام، فلم يحدث هذا إلا فى عام ٥٨١ هـ فقط، ولأسباب قهرية توفى فيه أربعة وثلاثون شخصا.

ويقول «نورشتى» رحمه الله من شراح «المصابيح» فى إطار حديثه عن فضائل بيت العزة: «لقد رأيت الكثير من كرامات البيت الكريم فى فترة وجيزة منها: أن حمام الحرم الشريف لا يحلق فوق كعبة الله في أثناء طيره لا يعلو أكثر من ارتفاع تلك البقعة المباركة وبعد التقاط الحبوب التى تلقى له فى كل وقت يحلق فى الهواء، ويطوف بالكعبة الشريفة ولا يرتفع بأى حال من الأحوال أعلى من بيت الله، ومع هذا فإنه يقف فوق الشرفات والقباب التى بداخل الحرم الشريف. ولا يحط فوق سطح الكعبة الشريفة.

وقد رأيت عدة مرات أن المريض من هذا الحمام يرتفع فوق الأرض ارتفاعا مساويا لسطح بيت الله ويحلق بجناحيه. ويقف فوق الميزاب الذهبى أو فوق أحد أركان الكعبة، ويظل واقفا هناك لفترة فى خشوع تام وخضوع.

وهو يرتعد. وبعد ذلك يتحرك معافى فيسلم تماما لكنه لا يطير أعلى من مستوى السقف الشريف» انتهى.

وفى أثناء الطوفان كان السمك الكائن في داخل حدود الله كان الكبير منه لا يأكل الصغير.

وعند حلول أوقات الصلاة، وفى النصف الأخير من ليالى الأعياد وفى المناسبات التى يكثر فيها الناس فإن الحرم الشريف للمسجد الحرام يستوعب طولا وعرضا أية جماعة من الناس مهما زاد عددهم. كما لا ينبعث دخان من النيران التى توقد فى الشوارع وخاصة في البيوت والمساكن.

ومبانى بيت العزة مازالت قائمة إلى الآن على صورتها وهيئتها التى أسسها عليها سيدنا إبراهيم - عليه وعلى نبينا التكريم - وهذا فى نظر أهل الاستدلال علامة وإشارة وضاءة تسترعى الانتباه يرتجف معها الوجدان، لأن المبانى التى لم توضع تحت غطاء لا يمكن أن تحتمل تأثير الرياح والأمطار بضع مئات من السنين،

مهما كانت درجة متانتها وقوتها. وإذا تم تجديدها مرة فإنها لا تبنى على نفس الشكل السابق لها.

ومازالت الأبنية المفخمة الشريفة حتى هذه اللحظة عرضة للرياح العاصفة والأمطار الغزيرة المستمرة، وقد تم تجديدها لمسوغ شرعى إحدى عشرة مرة، فلم يحدث أى خلل فى جدرانها كما لم يتغير شكل أصغر حجر وضعه عند التجديد فالركن اليمانى قد ارتج فى سنوات ٤٣٣، ٥١٥، ٥٩٢، ورغم أنه فى المرة الأولى سنة ٤٣٣، سقط منه قدر أصبع بعد أن تشقق؛ إلا أنه لم يتغير أى طرف منه اكتفى فقط بإصلاح الموضع الذى سقط منه الحجر.

ومن خواص الكعبة المقدسة أن مَنْ يراها أول مرة إما يضحك أو يبكى.

وقد انتابنى البكاء ـ أنا الفقير كاتب هذه الحروف ـ عند رؤيتى الكعبة وظللت أبكى فترة. وكل من يتواجد حدود حرم الله، سواء كان إنسانا أو شجرا، أو حيوانا ينعم بالأمن التام بفضل الله تعالى.

وقال المفسر «النقاش» عليه رحمة القادر: «يا إلهى إنك تفضلت قائلا إن الداخل فى حرم المسجد الحرام يكون آمنا، ولقد تحيرت فى فهم هذا الأمر!! فمم أكون آمنا؟! ودار هذا الخاطر فى وجدانى ذات ليلة؟ وعقب ذلك سمعت من ورائى من يقول «آمنا من النار» وعندما لم أجد خلفى أو حولى أحدا أدركت أنه جواب من عند الله».

هذه الرواية تشير إلى المعنى الحقيقى للآيـة الكريمـة: ﴿مَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾ (آل عمران: ٩٧) ويرى فحول العلماء فى هذه الآية معان كثيرة مثل: من اعتمر بنية التقرب إلى الله فهو يأمن نار جهنم يوم القيامة وقال خاتم الأنبياء ـ عليه أفضل السلام: «كل من يموت فى أحد الحرمين يحشر يوم القيامة فى زمرة الآمنين». (حديث شريف).

«وكل من يصبر على حر مكة المكرمة ساعة واحدة فى اليوم يباعد بينه وبين نار جهنم مسافة مائتى سنة».

«من حج فلم يرفث، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (حديث شريف). وأن الله تعالى يلقى الرحمة والشفقة بقلوب الناس تجاه من يلجئون إلى كعبة الله.

ومن هذا القبيل: أن صحابة الرسول الكرام الذين كانوا فى معيته المباركة السعيدة - ﷺ - عند أداء العمرة، أمنوا عند دخولهم الكعبة من أذى المشركين والذين يحجون مرة واحدة فى العمر لا يعاقبون على ذنوبهم التى ارتكبوها قبل الحج. أما من أمن الحيوانات والأشجار، فإن قطع النباتات والأشجار وصيد الحيوانات حرام تماما فى أرض حرم الله السعيدة.

وعلى هذا فالحيوانات الموجودة داخل الحرم الشريف. لا تخاف ولا تنفر من بعضها البعض، فعلى الحيوانات أيضا أن تراعى الحكم الإلهى، ولو أن كلبا تعقب غزالا وطارده، واستطاع الغزال أن يلوذ بحدود الحرم، فإن الكلب ينصرف عن مطاردة الغزال وينتظر إلى أن يخرج بعيدا عن الحرم. وإذا دخل الكلب أيضا أرض الحرم، فإنه يمشى بجانب الغزال، يتحاشى أن يصيبه بأذى.

ومن يدخل فى حدود الحرم من بنى البشر لا يحاسب على ذنبه وهو داخل الحرم.

وبما أن هذا الأمر كان مرعيا فى صدر الإسلام وكذلك فى الجاهلية، فلو ارتكب شخص إثما أو قتل إنسانا ثم دخل المسجد الحرام لائذا به فيكون فى أمن من سلطة الدولة، أو من ورثة القتيل وهكذا ينجو من المطاردة والفزع، وتقى الحيوانات إضرار بعضها بعض فما بالك بإضرار بنى البشر، وفى أيام «منى» التى هى أيام رمى الجمرات لا يهاجم النمل. والحشرات الطعام الملقى هنا وهناك ولا يلوثه، رغم وجود كل أنواع الطعام مثل: العسل، والمربى، فإنها تلف حوله ولكنها لا تدخل فيه.

ومهما زاد عدد الحجاج، فإن الأحجار التى يلقونها والجمرات، لا تزيد، ومعروف أن هذه الجمرات ترمى منذ آلاف السنين. ففى كل سنة، يلقى حوالى

ستمائة ألف إنسان بالجمار أى يلقون حوالى سبعين حجرًا لكل منهم ومع هذا فإنه لا تتراكم هناك الجمرات.

وإذا افترضنا أن الأماكن التى تتجمع فيها الجمرات في مجرى السيل أو فى مهب الرياح الشديدة، لقلنا إن الماء الذى يسيل والرياح التى تهب تحمل الحجارة التى يلقيها الحجاج بعيدا إلا أن هذا المكان ممر ضيق بين سلسلة جبال ولا يتعرض للسيول ولا للرياح الشديدة العاصفة.

وهذه المميزات تدل على الأفضال المعنوية التامة لكعبة الله وهى مؤيدة بالخبر الصحيح الذى يقول: «كل من كان حجه مبرورا مقبولا فالجمرات التى يلقيها ترفع إلى السماء» (حديث شريف). بناء على بحث عبد الله المرجانى أنه لو نزف أنف إنسان وكتب على جبهته بدمه عبارة «مكة وسط الدنيا والله رؤف بالعباد» فإن النزيف ينقطع بإذن الله.

لو إن كان اليهود والنصارى يقدمون بيت المقدس على الكعبة فإن بانى بيت المقدس سليمان ـ عليه السلام ـ وبانى الكعبة خليل الرحمن الذى يفوق من حيث المناقب سيدنا سليمان، ويلزم أن تكون الكعبة أشرف وأفضل من بيت المقدس.

أليس من الخطأ المحض أن يتصور أن هناك بيت أشرف وأفضل من بيت مالكه هو صاحب الجلالة الرب الكريم، ومهندسه جبريل ـ عليه السلام ـ وبانى جدرانه خليل الرحمن، وجالب أحجاره ولوازم بنائه وخادمه. إسماعيل عليه السلام.

استطراد

الميزات الخاصة ببيت الله ـ الكعبة ـ لا تعد ولا تحصى. ومما يختص به هذا البلد الأمين أن أحدا من السياح الأجانب لا يجرؤ على اقتحام حدودها.

وفى الرسالة التى نشرها سائح أوربى اسمه «جبون» تحامل على الإسلام واستخدم لهجة شديدة إذ قال «بما أن أهل مكة لا يسمحون للسياح الأجانب بالدخول إليها فإنهم يضطرون فى الكتابة عن وقائع الحجاز أن يستمدوا أخبارهم

من التواريخ الإسلامية، أو من هؤلاء الذين يترددون على الحجاز «غير أن عددا من السياح المشهورين مثل: برق جارد من إيطاليا، لودو ويقو بارتاما من روما وجوزيف تبس من أهل اكستر[1] قد زاروا المناطق الحجازية، وسجلوا مشاهداتهم، ووصفوا مشاهداتهم وصفا كاملا. وهذا يبين كذب ادعاء المدعو «جبون» من أخطائه. وترهاته نجمت عن تعصبه الفطرى الشديد.

لودو ويقو بارتاما ـ قد طاف فى عام ٩٢٠ هجرية بالأراضى الحجازية المباركة، و وكذلك «جوزيف تبس» فى عام ١١٠٧ هجرية وتجولا فى كل أرجائها وبعد عودتهما، سجل كل منهما رسالة شاملة، مفصلة فى معلوماتها عن أحوال منطقة الحجاز.

وكانت رسالة لودو ويقو بارتاما» التى طبعها عام ٩٢٨ هـ مكتوبة باللغة الإيطالية، وقد ترجمت إلى اللغة الإنجليزية، وطبعت ونشرت عام ٩٧٢ هـ، كما طبعت رحلة «جوزيف تبس» باللغة الإنجليزية ونشرت فى إنجلترا عام ١١١٧.

وقد جاء فى رسالة «لودو ويقو بارتاما» أنه تظاهر بالإسلام ودفع إلى أحد الجمالين أموالا كثيرة، ليرافق قافلة الشام إلى الحجاز حتى يستطيع أن يطلع بنفسه على أحوال الحجاز.

أما «جوزيف تبس» فقد ذكر فى رسالته أنه وقع أسيرا فى طفولته فى يد أحد الجزائريين، وظل لفترة طويلة فى خدمته، ثم رافق سيده فى رحلة الحج إلى الحجاز، وعند عودته سجل مشاهداته كلها.

وقال «برق جارد» فى كتابه الذى نشره: « فى أثناء عودتى من واد فاطمة، إلى مكة مررت بمكان يسمى وادى النعمان، وكان مزدحما أشد الازدحام بالمترددين هناك من الحجاج أو المعتمرين، رغم أنه مكان موحش مخيف وهبت عاصفة فاحتميت بسفح جبَلٍ لعدم استطاعتى الاستمرار فى السير، وبقيت محتميا بسفح الجبل إلى أن هدأت شدة السيل والعاصفة».

(١) اكستر اسم مدينة مشهورة فى إنجلترا.

ويقول مؤرخ آخر هو (يوما): «لا يسمح لغير المسلمين بدخول مكة»، ونحن شاكرون لهذا لأن برق جارد، ذهب إلى هناك، وجاء فى رسالته أن مكة المكرمة محاطة بمجموعة من الجبال السوداء والوديان خالية من الأشجار والأزهار.

والذى يرى منازل مكة وبيوتها ـ لأول وهلة ـ بعد الخروج من بين الجبال لا يستطيع إلا أن يشبه هذه المدينة بخزينة مجوهرات وضعت فى داخل محفظة خشنة غليظة سوداء، لا يستطيع أن يقدر قيمة هذه الخزينة إلا المسلمون.

فشوارعها متوسطة، ومبانيها منتظمة عالية والذى يرى مكة بعد رؤيته لبلاد أخرى لا يمكنه إلا أن يعجب ويتحير من انتظام مبانيها ودقة ترتيبها. وهذا القول منه يوضح خطأ ما ادعيناه فى هذا الأمر. وهذه العبارة المليئة بالثناء الجميل توضح كذب ادعاء الأوربيين.

وبناء على الفقرة الواضحة لبرق جارد والإفادة المفصلة لـ «يوما» نستطيع أن نحكم أن الدخول فى مكة المعظمة ليس ممنوعا، سواء كان من قبل الحكومة أو من قبل الأهالى. فإذا كان بعض السياح الأجانب لم يجدوا فى أنفسهم الجرأة الكافية لدخول حدود مواقيت مكة المكرمة فإن ذلك يرجع إلى الرهبة الإلهية المعنوية للبيت المعظم.

نعم لم يمنع أحد من زيارة الحرمين المعظمين، حتى لو كان هدف الزائر هو الخيالة والسخرية والاستهزاء، لكن فى هذه الحالة تأديب ذلك الشخص ومنعه من الزيارة يكون أمرا واجبا.

نعم باب الزيارة مفتوح فى كل لحظة وساعة، إلا أن الزائر يجب أن يراعى لبس ملابس أرض الحجاز مثل الجبة والعباءة الطويلة والعمامة والكوفية حتى يحظى باحترام الناس، وأما الأجانب بملابسهم الغربية لا ينالون التوقير بل يتعرضون للسخرية والاستهانة بهم وهذا أمر طبيعى.

لذا فالأمر يتطلب ممن يذهبون إلى تلك البقعة المباركة أن يلبسوا ملابسهم وهذا الأمر لمن يجوبون الوديان والصحارى فى غير أوقات الحج، ولكن الذين

يقيمون فى مكة المكرمة أو المدينة المنورة يستطيعون أن يرتدوا الملابس الخاصة ببلدانهم دون أن يتعرضوا لسوء معاملة من الأهالى بل على العكس يلقون منهم ترحيبا واحتراما.

وكل أهالى الحرمين الكرام مجبولون على حسن استقبال الضيف فهذا من طباعهم الفطرية، وهو أمر لا مجال لإنكاره ومن ينكر هذا فعليه أن يتذكر مجاورى الحرمين.

ورغم تحقيق الإمام مالك ـ رحمة الله عليه ـ صحة ما ذكر عن فضائل مكة المكرمة وآثارها المتدثرة بآيات الحكم، إلا أنه يرى أن المدينة المنورة أفضل من «مكة المكرمة» ويؤيد رأيه قائلا: «إن المدينة المنورة مدفن رسول الرحمن أفضل من مكة المكرمة، لأن رسولنا باعث خلق العالم ـ ﷺ ـ دعا الله بقوله يارَبٍّ أنت تعلم أن قريشاً أخرجتنى من البلدة التى أحبها فأسكنى يارب البلدة التى تحبها» وكرر هذا الدعاء فاختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ معطى العطايا المدينة المنورة داراً للهجرة النبوية. وإذا كان المكان هذا أحب البلدان إلى الله ـ عز وجل ـ فلابد أن يكون ذلك المكان أفضل وأشرف من سائر البلدان.

وقد رأينا أنه من الأفضل التزام الصمت بخصوص هذه المسألة قائلين: الله سبحانه وتعالى أعلم ببواطن الأمور.

شعر

مكـــة الـتى هـــى قبـــلة أهـــــل النجـــــاة

حرسهـــــــا الله مـــــــــن الحادثـــــــات

ترابهـا يبعـــث الحيـــاة فـــى المـــوات

إن الورد خجــل مـــن شوكـــــه وغثائـــه

لأن حصــــباء أرضـــــه نجـــوم سمائـــه

حقـــا إنـــه لمـــن ضـــل الطريـــق دليلـــه

جعـــل الأرض القــاحلـــة جنـــــــة

جمــع الــدر وأصبــح نعيــم الجنــــة

ليـس وردا ولكن نسـيم سحـــره ينفـــح عطــرا

ليس خمــرا ولكــن حانتـــه تمـــوج بالضجّـــة

ليس زرعــا ولكــن بيـــدره يهــب الحـــب

ليس عرشــا ولكــن طوبـــاه وارفـــة الظـــلال

ليـــس بستانـــا ولكـــن ثمـــره موفـــور

ليس ســـهلا ولـــكـــن زرعــــه مخضوضـــر

ليس زهرة حمراء مشتعلة ولكــن فيـه نبراســا

فـى قلبـــه جراحـــات مـــن الحســـرات

حدود حرم الله ومواقيت كعبة الله المكانية:

قال المؤرخون: إن حدود الحرم الشريف لكعبة الله، تبلغ ستة أميال من ناحية الشرق، وثمانية عشر ميلا من ناحية الغرب، واثنى عشر ميلا من ناحية الشمال وأربعة وعشرين ميلا من ناحية الجنوب.

أما مؤلف «تاريخ خميس»، فقد قال: «لقد قست بنفسى بقياس المسافة، ووجدتها ثلاثة أميال من طريق المدينة المنورة وتسعة أميال، من طريق شعب آل عبد الله بن خالد الواقع ناحية جِعِرَّانة».

وفى قول آخر: «عشرة أميال وسبعة أو تسعة أميال من طريق عرفات المسمى بطن نمرة».

وكتب مؤلف «نخبة الدهر» فى كتابه المذكور:

أنها ثلاثة أميال من جهة مدينة الرسول ﷺ وعشرة من طريق جدة، وأحد

عشر ميلاً من طريق الطائف، وستة أميال من ناحية العراق. والأرض التى خارج هذه الحدود ليست من الحرم[1]».

وهذا الاختلاف لم يكن فيما يتعلق بتحديد أماكن ومواقيت مكانية أو تعريف نقاطها وإنما فى مقياس المساحة، لذا فالمساحة بالنسبة لكل واحد منهم تخضع لحسابه وكلها صحيحة بالنسبة لحساب كل واحد منهم.

ويقول على بن بلبان الفارسى الحنفى مؤلف الكتاب المستطاب المسمى «عمرة السالك فى المناسك» نقلا عن الإمام الأزرقى[2]: إن ميقات أهل المدينة عند التنعيم وهو مكان قريب من «بيوت تغاره» الواقعة جهة المدينة على مسافة ثلاثة أميال من مكة المعظمة.

ويقول: الإمام مالك رضى الله عنه: إن أهل المدينة المنورة يحرصون ويبدءون فى التلبية من قرية ذى الحليفة.

وهذا المكان اللطيف يقع عند البئر المسمى بئر على ومسجد الشجرة وهو على مسافة تسع ـ وعلى رواية عشر ـ مراحل من مكة المعظمة من ناحية المدينة المنورة ويقول البعض عن سبب تسمية بئر على أن الكرار ـ عليه رحمة الله ـ قاتل الجن هناك، لذا أطلق على هذا البئر اسم بئر على، لكنها رواية مختلقة لا أصل لها.

و «ذو الحليفة» أبعد مكان عن مكة من ناحية الميقات وهى أطلال قرية مشهورة، وقد أراد رسول الملك المتعال أن يُحرم أهل المدينة هناك تعظيما لأجرهم

(١) الجبال والوديان والصحارى.

(٢) الإمام الأزرقى هو الإمام أبو الوليد محمد بن عبد الكريم المكى، المعروف بالأزرقى وهو من أعلم العلماء وهو أول من كتب عن تاريخ مكة. وتلاه فى كتابة التاريخ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهى. وثالثهم سيد تقى الدين محمد بن أحمد بن على الحسينى وبعده الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد الشافعى، ثم الشيخ عز الدين بن عبد العزيز وهو ابن الحافظ نجم الدين وآخرهم القطب المكى. وقد كتب كل منهم كتابا فى التاريخ باللغة العربية أما القطب المكى فى تاريخه فقد نقل وروى بالذات عن الشيخ عز الدين ونقل وروى بالواسطة عن سائر المؤرخين.

وثوابهم وقد ذكر «ابن بلبان الفارسى» فى صدد تعريفه وتعيينه لميقات أهل اليمن أن المكان الذى يحرم عنده اليمنيون هو منطقة «أضاة اللبن» الواقعة على مسافة سبعة أميال من مكة المفخمة من جهة اليمن، وقد ركز هناك علمان لتعيين هذا المكان الذى يبدأ عنده ارتداء ملابس الإحرام.

و «أضاة اللبن» لابد وأنه الموضع المسمى «يلملم» على مسافة مرحلتين من مكة المعظمة. ومكان إحرام المصريين هو مدينة «رابغ» القريبة من الجحفة ميقات أهل الشام. أما المكان الذى يحرم منه أهل نجد فهو أعلى ربوة فى تهامة، أما الذيت يتوجهون للحج عن طريق الشام الشريف فإنهم يحرمون في المكان المسمى جحفة، وجحفة هذه أطلال قرية تقع على مسافة خمس مراحل وعلى قول ست مراحل من مكة المكرمة، والاسم الأصلى لقرية جحفة كان على وزن مهيعة، ذلك أن جماعة من العمالقة سكنوا فيه وذات ليلة اجتاحهم السيل وقضى عليهم تماما، لذا أطلقوا على سكان أطلال هذه القرية اسم جحفة.

قال ابن بلبان الفارسى: رغم أن الرواية تقول إن الحجاج القادمين من طريق العراق يحرمون من نقطة «ثنية الهيك» الواقعة على بعد سبعة أميال من مكة المعظمة، إلا أن الإمام مالك قال ـ كما جاء فى كتاب ـ أحسن المسالك: إن قوافل حجاج العراق تحرم من موقع قرية قرن وهو المكان المسمى قرن المنازل. وقد استقر حول المكان المذكور جماعة «قرن» التى انفصلت من قبيلة «مراد» وحضرة «أويس القرنى»[1] من أفراد هذه الجماعة.

وإذا قرئ لفظ قرن بسكون الراء فهو اسم جبل، وإذا قرئ بفتح الراء فهو اسم طريق يقع بجوار الجبل المذكور، وتقع مكة المشرفة شرق الجبل المذكور بمرحلتين. ورغم أن الإمام الفاكهى قد ذكر أنه يوجد جبل باسم قرن على بعد

(١) سيد التابعين: له ذكر فى صحيح مسلم وكان ـ رحمه الله بَرًّا بأمه، قال ﷺ لأصحابه: «مَنْ لقيه منكم فمروه فليستغفر لكم»، الحديث. لقى الله شهيداً يوم صفين مع على رضى الله عنه. ترجمته مطولة فى الإصابة ١/ ١١٨ ـ ١٢٠ رغيرها.

ألف وخمسمائة ذراع من مسجد الخيف[1] إلا أنه غير «قرن المنازل» لأن ذلك الجبل يسمى، قرن الثعلب.

وقد قام شخص بترتيب ونظم الأبيات الآتية للتوفيق بين الروايات المختلفة.

شعر

عرق العراق يلملم اليمنى
وذى الحليفة يحرم المدنى
للشام جحفة إن مررت بها
ولأهل نجد قرن فاستبن

وقد ذكر فى هذه الأبيات اسم الميقات الخاص بأهل كل جهة، وفى الأبيات التالية سنعرف أبعاد كل ميقات فى مكة.

شعر

وللحرم التحديد من أرض طيبة
ثلاثة أميال إذا رمت إتقانه
وسبعة أميال عراق وطائف
وجدة عشر، ثم تسع جعرانة[2]

إن جبل رابغ، هو ميقات حجاج بلاد الروم والأناضول ومن يتوجهون للحج بحرا عن طريق قناة السويس، وكل باخرة تحمل الحجاج عندما تصل إلى محاذاة جبال رابغ، يبلغ الحجاج الذين على ظهرها مبدأ الإحرام ويستخدم مرشد ماهر من أبناء العرب فوق كل باخرة للقيام بهذه المهمة.

(١) يقع هذا المسجد أمام مسجد المرسلات فى «منى».
(٢) هذه الأبيات لشخص يدعى ابن الملقن.

أسماء الذين جددوا أميال المواقيت:

إن حدود حرم كعبة الله هى المواقيت التى ذكرت وعرفت فيما سبق، يقول الإمام الأزرقى أنه عندما هبط آدم ـ عليه السلام ـ على الأرض انتابه إحساس بالخوف والرهبة من وحشة الفراغ، واستعاذ بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ولجأ إليه فأنزل الله إلى الأرض ملائكة كثيرين لإزالة هذا الخوف والرهبة من نفس آدم ـ عليه السلام ـ وأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة أن يقيموا حول مكة المعظمة، وبذلك تعين حدود حرم كعبة الله، وهو المكان الذى أحاط به الملائكة من كل الجهات.

وفى قول آخر أنه عندما أنزل الحجر الأسود من خزائن الجنان فى البلدة المقدسة لكعبة الله، تحددت حدود الحرم بما بلغه من النور والضياء المنعكس من الحجر الأسود فى كل الاتجاهات، وهذه الحدود هى المواقيت المكانية السابق ذكرها.

ويقول الإمام الأزرقى: إن آدم ـ عليه السلام ـ ثبت علامات فى المواقع المذكورة لتعين حدود حرم الله، وللحفاظ على هذه الحدود أرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ كثيرا من الملائكة العظام للقيام بهذه المهمة.

وقد طمست هذه العلامات التى وضعها آدم ـ عليه السلام ـ ولم ير لها أثر، فعرف الله ـ سبحانه وتعالى ـ حضرة الخليل الأماكن التى وضعت فيها هذه العلامات من قبل أبى البشر ـ عليه السلام ـ فأعاد إقامة الأحجار فيها مرة أخرى. وكان برفقة إبراهيم ـ عليه السلام ـ عندما أعاد وضع العلامات ابنه إسماعيل ـ عليه السلام.

وبمرور الوقت طمست الرمال الأحجار التى وضعها إبراهيم ـ على نبينا وعليه التفخيم ـ وغابت عن العيون، وفى عهد عدنان بن أد أصبح من الضرورى تعيين هذه الحدود بين مناطق الحل والحرم، لذا تقصى عدنان بن أد المشار إليه أماكن الأحجار التى وضعها خليل الرب الجليل حتى وجدها فأقام فى أماكنها مبان قوية

من الطين والحجارة هى تلك العلامات لكى لا تطمس بسهولة وبعد ذلك قام قصى بن كلاب بن مرة بإعادة ترميم العلامات وتجديد بناءها وجعلها أمتن وأقوى.

وبعد قصى بن كلاب لم يتم ترميم العلامات وتعميرها، وفى يوم فتح مكة «ذلك اليوم الميمون» كلف الرسول - ﷺ - بوحى من قبل الله بترميم مبانى المواقيت وتقويتها.

وبعد ارتحال النبى - ﷺ - قام عمر بن الخطاب ومن بعده عثمان بن عفان ومن بعده معاوية بن أبى سفيان ومن بعده عبد الملك بن مروان، قاموا كلهم بتقوية مبانى العلامات التى بناها عدنان بن أد وذلك لتحديد المواقيت المكانية الشريفة.

وفى عهد خلافة المقتدر بالله العباسى تم إصلاح وتصويب علامات مسافات الأميال المذكورة. وفى سنة ٣٢٥ هـ قام الراضى بالله من خلفاء العباسيين بوضع علامات «العمرة كما قام بعده بفترة مظفر حاكم أربل بوضع علامات «عرفات» وهذا لأنه لم تكن قبل عهد «الراضى بالله» علامات للعمرة، ولم تكن هناك علامات لتحديد أماكن عرفات قبل حكم المظفر. وكان للسلطان» أحمد خان الأول العثمانى - طيب الله ثراه - شرف تجديد علامات عرفات.

ومن ذلك الوقت يطلقون اسم الحرم على المكان الذى داخل حدود العلامات الموضوعة لتحديد حدود الميقات، ويطلق اسم الحل على خارجها.

* * *

فى توضيح المسائل الهامة الخاصة بإيجار واستئجار بيوت هذه المدينة المفخمة للإقامة فى مدينة مكة المعظمة

الإقامة فى مكة المكرمة مكروهة عند العلماء، وقد قيل فى هذا أن طول فترة البقاء يورث فقدان حرمة بيت الله في النفوس. وبمقارنة ما يشعره الإنسان من ألفة واستئناس عندما يسكن فترة طويلة فى البلاد الأخرى يخشى أن الإقامة الطويلة قد تزيل من القلوب ما يجب من التعظيم والتوقير نحو كعبة مكة المعظمة، وهذا شيء طبيعى فى الناس. والأولى بأهل الإيمان أن يقيموا فى بلادهم مبدين الشوق والحب لكعبة الله من بعيد.

وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى زمن خلافته يأمر أن يعود الحجاج إلى بلادهم بمجرد عودتهم من عرفات حتى يحافظ على حرمة الكعبة فى قلوب الناس وهيبتها. وكان يستحث القوافل على الرحيل مرددا النداء يا أهل اليمن، يا أهل الشام، يا أهل العراق، سيروا إلى بلدكم، فإنه أبقى لحرمة بيت ربكم» وكأنه كان يعيد معنى الحديث الشريف: «من فرغ من حجه فليعجل بالرجوع إلى أهله» (حديث شريف).

أصح مثال الذين يرومون مجاورة الحرم الشريف يستأنسون بغير الله بينما يقيم الرجال الصالحون في بلاد بعيدة وممالك نائية وقلوبهم أكثر قربًا لبيت الله ممن يطوفون حول المقام السعيد.

وحيثما يكون الإنسان فى أى مكان وتغويه نفسه بعصيان الله بارتكاب ما يحرمه ثم ينصرف عن هذه النية قبل أن يشرع فى تنفيذها أو القيام بما جال بخاطره فلا تكتب عليه سيئة. أما من يقيم فى مكة المكرمة ويجول بخاطره القيام

بما حرمه الله فيكون آثما، وإن لم يرتكب ما جال بخاطره وتكتب عليه سيئة فى صحيفة أعماله.

وبناء على هذا الأمر استوطن عبد الله بن عباس الطائف، وقال ابن مسعود: «لا يوجد بلد غير مكة يؤاخذ فيه بالهَمِّ قبل الفعل - يعنى فعل السوء».

حكاية: يقال إن رجلا استودع أحد أحبابه أمانة ليحفظها له لفترة، ولكنه كان امرأ سوء فقرر ألا يعيد الأمانة إلى صاحبها وأنكر أنه أخذها بل اجترأ على القسم بذلك أمام كعبة الله. وفي نفس الليلة التى أقسم فيها مات وتحول وجهه إلى وجه كلب.

حكاية أخرى: يروى أن رجلا آخر فى أثناء طوافه بالكعبة لمح معصم امرأة جميلة كانت تطوف بجواره، فمد يده لذراع المرأة ليتلذذ بملامستها. ولأن المرأة كانت عفيفة صالحة فقد تضايقت من تصرف الرجل، وتعلقت بجدار الكعبة وهى تنوى أن تشكو هذا الأمر إلى الله - سبحانه وتعالى - صاحب البيت المشرف.

ولكن الرجل لم يقتنع بالوقاحة التى ارتكبها، وسار فى أعقابها ومد يده إلى المرأة للمرة الثانية وعلى الفور شلت يده التى مدها فصار أكتع «نعوذ بالله تعالى» انتهت.

وهكذا تكون نهاية من يرتكبون الآثام فى الحرم الشريف ويلقون جزاءهم بما اقترفوا - حفظنا الله جميعا - آمين. الحرم الشريف للمسجد الحرام ليس مكانا خاصا لأداء الصلاة فقط مثل سائر المساجد ولا يحد بجدران المسجد، بل يمتد ليحتوى كل الأراضى المقدسة داخل المواقيت المكانية المعلومة، لذا فإن الباحثين المدققين من الأسلاف الذين اختاروا المجاورة فى مكة المكرمة، كانوا يخدمونه بتبصرة تامة وانتباه كامل.

قصة غريبة: كان وهب بن رودكى أحد أولياء الله الذين لهم باع طويل بحقائق المسجد الحرام، انتهز الفرصة المناسبة لتنبيه الذين اختاروا المجاورة في مكة المكرمة فقال: «كنت أصلى ذات ليلة فى حجر إسماعيل، وفجأة سمعت صوتا

من وراء ستار الكعبة، فأنصت إليه فإذا بالكعبة ذاتها تقول: «يا جبريل أشكو إليك بعد الشكوى إلى الله الحق من أهل الهوى الذين يتفوهون بكلمات تدل على انصرافهم للهو ولغو الكلام فى أثناء وطول مصاحبتهم، فإن لم يستغفروا ويتولوا عن ذنوبهم ويتخلصوا مما اقترفوا فسوف أنتفض انتفاضة قوية بحيث يتطاير كل حجر من أحجارى إلى الجبل الذى أخذ منه وهكذا أزول فى الحال «وما إن سمعت هذه الشكوى والحوار بين الكعبة والرسول الجليل حتى اعترانى الاضطراب والرجفة.

ويتناقل هذه الحكاية الغريبة من سمعوها من وهب نفسه، ويوصون الحجاج بألا يحرصوا على الإقامة بمكة بعد الرجوع من عرفة.

وقد أجاب الإمام مالك ـ رحمه الله ـ على سؤال طرح عليه لتوضيح هذه المسألة وكان السؤال: هل العودة بعد الحج أفضل أم الإقامة بمكة للمجاورة؟

فأجاب: إن العودة بعد الحج أفضل.

وإذا كان الإمام مالك يرى أنه يكره المجاورة، فإن الإمام أبا حنيفة يروى عنه فى رواية صحيحة أنه قال «يجب على الذين ينتهون من أداء الحج أن يعودوا إلى بلادهم وأولادهم وزوجاتهم» غير أن الإمام أبا يوسف والإمام محمدا والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل لم يتشددوا فى هذا الأمر اتفقوا بأن مجاورة مكة أمر مستحب.

أما الإمام الأعظم فأفتى بكراهية مجاورة مكة المكرمة، وذلك لملاحظة أن عامة الناس يعجزون عن رعاية حقوق الحرم المحترم، وفى الواقع أن طوائف العامة لا يراعون حرمة الكعبة المعظمة حق رعايتها.

والمقصود من كراهة المجاورة بالنسبة للإمام الأعظم ليس مجرد الإقامة في مكة المكرمة، بل إنه يذكر محظورين يجب اجتنابهما أحدهما: أنه كلما طالت الإقامة فيها يأنس القلب بالبيت ويألفه لأن تكرار المشاهدة وكثرتها تؤدى إلى

التقليل من حرمة بيت الله عند النظر إليه. والآخر الخوف من ارتكاب المعاصى التى تؤدى إلى فساد الأخلاق والفسق فى حرم الله نعوذ بالله تعالى من هذا وما أتعس المؤمن الذى تعرض لارتكاب هذين المحظورين. وهذا ما تؤكده الآية الكريمة: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥) وما تفيده الآية الكريمة أن كل من يعدل عن الحق ويرتكب الظلم والجور قاصدا معصية الله فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيذيقه عذابا أليما.

أما من كانوا مفطورين على إعزاز البيت الشريف وإجلاله عندما يرونه كل مرة يعتريهم الخشوع والمهابة والدهشة. كأنهم يرونه أول مرة إذا كانوا قادرين على ذلك فمما لا شك فيه ولا شبهة أن نعمة المجاورة سعادة فوق الوصف ومبعث الفخر والسرور.

ومع هذا فإن كراهية مجاورة مكة خاصة بالمسلمين الذين عاشوا فى العصور السابقة، وأما الآن فقد تغيرت الدنيا واضطر المسلمون أن يختلطوا بالأجانب وأن يتأثروا بأخلاقهم، كما أن أسباب المعيشة اضطرت الناس إلى المقابلة بالتقى والشقى، لذا فأولى بالنسبة لصفاء النفوس أن يلجئوا إلى بلدة الله أو إلى البلدة الطيبة لرسول الله حيث يلوذون إلى الله الغفار راجين عونه ورحمته.

وبما أن الكعبة وما حولها مقر الأنبياء والأولياء فمن المرجو أن يتأثر هؤلاء الضعاف من المسلمين بهم ويقتدوا بهم وهم يداومون فى الطواف حول بيت الله.

يقول الإمام اليافعى فى كتابه المسمى «روض الرياحين»:

«يرى أحيانا الملائكة الكرام والأنبياء العظام وخاصة الأولياء الكرام ذوى الاحترام حول الكعبة وجوارها، وأكثر ما يرى فى ليالى أيام الاثنين والخميس والجمعة، ويروى أنه يشاهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأولاده عيسى عليه السلام وجماعته فى حجر إسماعيل وفرق الملائكة عند الحجر الأسود، وسيد الأنبياء عليه وعليهم التحيات، وأهل بيته والصحابة والأولياء أمام الركن اليمانى.

وقد ثبت تضاعف الأجر والمثوبة الحسنة عند الأكثر فى مكة المكرمة، إلا أن السيئة تظل سيئة واحدة بينما الحسنة يضاعف ثوابها.

ومن المتفق عليه أن أولياء الله يترددون على المسجد الحرام عندما يكون خاليا، ومن يحظى بنظرة أو التفاتة من هؤلاء الصالحين ينل سعادة عظيمة كما برهن عليه كبار العلماء. نفعنا الله ببركات أنفاسهم.

وقصر النظر على البقعة المقدسة للكعبة المعظمة هو عين العبادة، وتغفر ذنوب الذين ينظرون إليها بمحبة كاملة وإيمان صادق واحتساب، ومن يقصرون نظرهم على الكعبة وحدها فلهم أجر طاعة وعبادة سنة كاملة.

وينظر الله الحق إلى الخلائق ٣٦٠ مرة كل يوم، وأول من يكون محط نظره ـ سبحانه وتعالى ـ هم أهل مكة، ومن ينل من هؤلاء نظرة الله وهو قائم يصلى أو فى حالة طواف أو حال استقبال الكعبة يغفر لهم ذنوبهم، أو حتى النائمين يلحقون بزمرة المغفور لهم.

وثواب من يكون فى مكة المفخمة ويقضى أيام رمضان صائما ولياليه قائما يعادل ثواب من يقضى الليل قائما والنهار صائما فى رمضان مائة ألف رمضان فى غيرها من البلدان، وسوف تحشر مكة المعظمة يوم القيامة مثل العروس عند الزفاف ويتعلق بأستارها الحجاج والطائفون ويدخلون رياض الجنة وهم يطوفون حولها.

نظم

بما أنك تسكـن هــذا الديــر بـأدب

فعليــك أن تــرعــى أصــول الأدب

إن الشوق يزداد لأن ما كان إنما كان نارا

أيما امرئ كان مجاورا في هذه المحـلة

كـــان زواره أكثـــــر مــن أحجارهـــــا

يجــــدر بمـــــن هـــو كامـــل الأدب

أن يصـل الليــل بالنهـــــار بشوقــــــه

يحكـــى أنــــه أكثــــر مـــــن ذلــــك

مـــن كثـــرة مـــا خربــــت بالـــــدره

مـــن خلـــف عـــن قافلـــــة الحـــج

فلـــــن يتســـع العـــذر لذلـــــك

ولا يحتـــرم حرمــــة هـــذا البيـــت

حينمـــــا يفكـــــر فـــى الطـــواف بـــه

لا يـــرعـــــــى أصــــول الأدب

أنـــت تتغافـــل عـــن التشكيـــــك

وأصبحـت بذلـك آثمـــــا عاصيـــــا

لقــد تجاوزتـــنا فـــى ســــوء الأدب

وليس لــنا موضـع مـن هــذا الوضـــع

(فتوح الحرمين).

خلاصة مسألة إيجار البيوت:

بمراجعة الكتب الفقهية لمعرفة ما إذا كان إيجار البيوت والمنازل فى مكة المكرمة جائزًا أو غير جائز شرعا، وإن فهم هذا الموضوع يكون ممكنا بالرجوع إلى الكتب الفقهية.

ولما كان أخذ إيجار المنازل من الحجاج الذين يفدون إلى مكة ليس حلالا، لذا كان الأوائل يأخذون ثمن الإيجار فى السر والخفاء حتى أن عمر بن الخطاب أمر

أن تترك أبواب بيوت مكة مفتوحة فى موسم الحج حتى يسكن الحجاج فى المنازل الخالية، كما كان لعمر بن عبد العزيز أوامر مشددة إلى أمراء الإمارة الجليلة لمكة المكرمة بألا تؤجر بيوت مكة إلى الحجاج.

وقد أجاز الإمام محمد والإمام أبو يوسف أن تباع بيوت مكة مع الكراهة، إلا أن الإمام الأعظم قال إنه مكروه فى كل الأحوال. وقد أفتى صاحب الواقعات فى هذه المسألة ورجح القول الأول.

وحسب قول مؤلف «عيون المسائل» إن الإمام الأعظم قال فى رواية: «إن بيع بيوت مكة جائز». كما أن الإمام أبا يوسف قد رجح هذا القول على ما عداه من أقوال. وبالنظر إلى قول المرحوم «قوام الدين» فى شرح الهداية أن بيع بيوت مكة جائز باتفاق العلماء. وبما أن كل بناء ملك بانيه وأن المبانى التى أقامها الأشخاص على أراض موقوفة يستطيعون بيعها شرعا فبيع بيوت مكة جائز أيضا.

وطبقا لما نقله ورواه صاحب التقريب، فقد رأى الإمام الأعظم أن إيجار بيوت مكة مكروه، وقال: والذين يفدون إلى مكة من خارجها. إذا لم يجدوا مبانى خالية لسكناهم أفلا يسكنوا فى بيت بالإيجار، كما أيد الإمام محمد هذا القول بما ورد فيما معناه «أن من يعيش حتى يأكل من ثمن إيجار بيوت مكة يدخل النار». إلا أن الدار قطنى عد هذا الحديث من الأحاديث الموقوفة.

وفى رواية أخرى للإمام الأعظم عن كراهية الإيجار لمن يأتون فى مواسم الحج وليس للمقيم. فبما أنه لا توجد ضرورة بالنسبة للمقيم فمن الجائز إيجار المنازل لهم. ولا يجوز إيجار البيوت لمن تتبين حاجتهم الضرورية فى موسم الحج. وقال لنسكن هؤلاء فى المنازل الخالية رحمة الله ـ تعالى ـ عليه وعلى سائر الأئمة أجمعين رحمة واسعة.

وفى عصرنا الحالى يؤجر أهل مكة بيوتهم للحجاج ويسكنون هم فى وقت الحج فوق أسطح منازلهم، وبهذه الطريقة يكسبون أموالا تكفى لإعاشتهم وأولادهم سنة كاملة.

تحتوى على ثلاث عشرة صورة مرتبة تضم أقوال المؤرخين التى ذكرت حول تفاصيل بناء مكة المعظمة وعمارتها، وعن الذين قاموا ببناء هذه البقعة المقدسة المباركة، وأسباب تجديدها وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها.

الصورة الأولى

تعرض الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء الكعبة

ذكر مؤرخو السلف أقوالا متباينة كثيرة حول عدد مرات تجديد بناء كعبة الله العليا، واختلفوا فى أقوالهم وأطالوا فيها وقرروا أخيرا أنها جددت سبع مرات على قول بعضهم، وعشر مرات بناء على أقوال الآخرين.

واعتمادا على الرواية المنقولة عن زين العابدين والد الإمام الباقر ـ رضى الله عنه ـ قال المؤرخون: «إن الملائكة هم البناة الأوائل لهذه البقعة المقدسة».

والذين يقولون إنه تم تجديدها سبع مرات يذكرون أن تجديدها تم على النحو التالى: المرة الأولى بناها الملائكة الكرام، وفى الثانية جددها سيدنا إبراهيم، وفى الثالثة جددها العماليق، وفى الرابعة طائفة الجراهمة، وفى الخامسة قبيلة قريش، وفى السادسة عبد الله بن الزبير، وفى السابعة جددها الحجاج الظالم.

أما الذين يقولون إنها أعيد بناؤها عشر مرات فيذكرون أن الملائكة العظام بنوها فى المرة الأولى وفى الثانية بناها أبو البشر آدم ـ عليه السلام ـ وفى الثالثة سيدنا شيث وأولاده وأحفاده. وفى المرة الرابعة إبراهيم الخليل، وفى الخامسة أفراد قبيلة العماليق وفى السادسة عشائر جرهم، وفى السابعة قصى بن كلاب بن مرة وفى الثامنة قريش قبل البعثة النبوية وفى التاسعة عبد الله بن الزبير، وفى العاشرة جددها الحجاج بن يوسف الثقفى الظالم، كما قام السلطان مراد خان الرابع من سلاطين العثمانيين العدول بتجديد البناء الرصين الأركان لكعبة الله فى المرة الحادية عشرة، ومازالت على تلك الصورة التى جددها عليها إلى الآن.

شعر

بنيت الكعبة أحد عشر مرة فاعلم
الملائكة وآدم وأولاده والرابع إبراهيم
والعمالقة وجرهم وقصى وقريش أقاموها
وتاسعهم الزبير الذى أقامها وكرمها
كذلك الحجاج شىء أتمه
لقد فرق الحطيم وكأنما رممه
وأرادها السلطان مراد التجديد
وكان الحادى عشر بتاريخه المجيد

سنة ١٠٤٠

فى تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الأولى

خاطب خالق الأرضين والأفلاك تعالى شأنه عن الفهم والإدراك الملائكة العظام بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة: ٣٠)، وذلك ليبدى لهم بأنه ـ سبحانه وتعالى ـ سيخلق أبا البشر آدم ليكون خليفة فى الأرض وأدركت الملائكة بشفافية وجدانهم الملائكة أو بإلهام رب العزة أو بالنظر فى اللوح المحفوظ، أن بنى البشر سيسفكون الدماء ويفسدون على وجه البسيطة، وأرادت أن تعرف الحكمة من إعطاء خلافة الأرض إلى بنى آدم الميالين إلى الظلم وسفك الدماء، ولم تعط إلى طائفة معصومة وتساءلت: لماذا تخلق من يفسد فى الأرض؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدسك بذكرك فأجابهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ حاسما الأمر بقوله: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٠)، ولم يكن الغرض من تساؤل الملائكة الاعتراض على أفعال الله حسب تقديرهم، ولكن فى هذا السؤال نوعا من الاحتجاج كما يفهم من قول الله تعالى: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ ولذا ندم الملائكة ولاذوا بالعرش الأعظم يبكون ويتضرعون طلبا للعفو والصفح عما اقترفوه ليتجنبوا الغضب الإلهى، واستمروا لمدة ثلاث ساعات يطوفون بالعرش الإلهى ويستعطفون فى تذلل وخضوع وهم فى قلق وخشوع زائدين، وفى النهاية بلغ منهم الرجاء والتضرع العفو والمغفرة واستجلبت توسلاتهم شفقة ورحمة صاحب الكبرياء، وأمرهم أن يطوفوا بالبيت المعمور الواقع تحت العرش الأعظم، ثم أمرهم بأن يبنوا على وجه الأرض بقعة مقدسة فصدعوا بالأمر الإلهى، وقاموا ببناء ورفع بنيان الكعبة المعظمة التى أصبحت مطافا إلى الآن.

تفصيل:

شاء خالق العالم أن يقام بيت مقدس على وجه الأرض، وأرسل كثيرا من الملائكة لإنجاز هذا الأمر، وخاطب الملائكة آنذاك بقوله: «شيدوا على وجه الأرض بيتا معظما وعندما يطاف بالبيت المعمور فى السماء الدنيا، يطوف أيضا أهل الأرض بهذا المقام الرفيع الذى ستقيمونه على وجه الأرض، بناء على ذلك قام الملائكة الكرام الذين هبطوا إلى الأرض ببناء بقعة مفخمة مباركة فى الموقع المقدس للكعبة المعظمة.

وعندما صدر الأمر الإلهى للملائكة الذين سكنوا على وجه الأرض ببناء البيت الشريف تحت مستوى البيت المعمور ومحاذاته، وأن يقوموا بالزيارة والطواف حول هذا البيت لم يكن آدم ـ عليه السلام ـ قد هبط على وجه الأرض.

وإذا كانت هذه الروايات تشير إلى أن بناء البيت المعظم كان بعد خلق الأرضين فإن على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قال: إن البيت الشريف خلق قبل خلق الأرض والسماء بأربعين سنة، وكان فوق الماء مثل فقاعة بيضاء أو رغوة وبسطت الأرض من تحته وحفظ، وقال الإمام مجاهد مصدقا ما قاله الإمام على «إن خلق موقع بيت الله كان قبل خلق الأرض بألفى سنة، ثم بسطت الأرض تحت الكعبة» بناء على هذا فلاشك فى أن الموضع الطيب لبيت العزة خلق قبل الأرض وأن كعبة الله المقدسة قد شيدت بعد خلق السموات والأرض. وحسبما جاء فى الكتب الموثوق بها أن حضرة الخالق المطلق عندما أراد خلق وجه الأرض وإيجادها بسط بيد الجلال وقبضة القدرة التى لا نظير لها تراب الموقع المبارك لكعبة الله بعد خلق وجه الأرض، وهكذا ظلت الكعبة المعظمة فى وسط الأرض تحيط بها القشرة الأرضية من جميع الجهات.

وفى الواقع أن الساحة المفخمة للكعبة المعظمة كانت موجودة قبل خلق وجه

الأرض وقبل خلق طبقات الأرضين، وقام ملكان بأمر الله بالتسبيح والتقديس لله تعالى وتهليله لمدة ألفى عام فوق المساحة المباركة.

ونقلت هذه الرواية من قبل الإمام الفاكهى عن طريق عبد الله بن أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ لذا لاشك في صحتها.

قد نقل حضرة أبو هريرة الكيفية بهذه الصورة: خلقت الكعبة المعظمة قبل الأرضين وكان تراب موقع الكعبة المعظمة من نفس تراب الأرض، وكان عليها ملكان عظيمان وكانا يسبحان الله ـ سبحانه وتعالى ـ لفترة ألفى سنة وعندما تعلقت إرادة الله بخلق الأرض بسطها تحت الكعبة وجعل مكة فى وسط الأرض.

وقال ابن خلدون مستشهدا بالحديث الصحيح لما سئل النبى ـ ﷺ ـ الواقف على أسرار الكتاب عن خلق مكة المكرمة والمدة بين خلقها وخلق بيت المقدس، أجاب بما يفيد بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق البيت قبل السموات والأرض بأربعين سنة وهذا يدل على أن بين خلق البيت المعظم وخلق الأرض فترة أربعين عاما.

ملاحظة: وبمقتضى هذه الإجابة السامية، لابد وأن يكون بيت المقدس قد خلق بعد الكعبة المعظمة بأربعين سنة. والواقع أن حوالى ألف سنة تفصل بين سيدنا إبراهيم وسليمان بن داوود عليهما صلوات الله الودود.

وإذا جال بالخاطر نوع من الالتباس بين ظاهر إحالة الرسول الجليل وبين هذا السؤال، فإن عقدة هذا الالتباس ليست صعبة الحل لأن ما يعنيه صاحب الرسالة ـ ﷺ ـ أنه لم يكن البناء الظاهر للكعبة المعظمة، إنما المكان المخصص للعبادة على وجه الأرض، فقد تم تعيين بيت المقدس ليكون مكانا للعبادة قبل حوالى ١٠٠٠ سنة من سليمان وبعد البيت الأكرم بأربعين سنة.

وفى تلك الأثناء وضعت القبائل الصابئة هيكل الزهرة على الصخرة وعبدوها.

وصادف هذا الأمر عصر الخليل الشريف، لذا يكون الفارق بين اتخاذ البيت المعظم قبلة واتخاذ البيت المقدس قبلة هو أربعين سنة. وكانت أرض الصخرة آنذاك خالية لا يبعد أن تبقى على هذه لصورة مدة من الزمن إلى أن قام سليمان ببناء المسجد الأقصى.

* * *

توضح صورة بناء الكعبة المعظمة فى المرة الثانية

قام أبو البشر سيدنا آدم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ بتجديد البيت المعظم فى المرة الثانية.

إجمال. بناء على رواية الإمام أبو الوليد أحمد الأزرقى عن المرحوم ابن عباس، أن سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ أنزل به على وجه الأرض قبل الهجرة النبوية بـ ٦٢١٦ عام.

ولأنه لم يستطع سماع صوت تسبيح وتهليل ملائكة السماء بعد هبوطه بمدة اغتم لذلك فعرض ما فى ضميره على حضرة عالم السر والخفايا، وجأر بالشكوى قائلا: «يا إلهى، فضلا عن بقائى وحيدا فريدا على وجه الأرض، أصبحت لا أسمع صوت تسبيح وتهليل الملائكة الكرام».

وبناء على هذه الشكوى، صدر الخطاب الشريف من الله عز وجل «يا آدم إن الزلة الصادرة منك هى المانع من سماع صوت الملائكة المسبحين».

لكن لى بيت على وجه الأرض، عليك أن تجد أساسه وتقيم عليه بيتا مباركا وبعد ذلك قَدِّسْنِى وطف حوله دائما فقام سيدنا آدم على الفور سائحا على وجه الأرض باحثا عن البيت إلى أن وصل إلى مكة المكرمة وعثر على أساس البيت الحرام فابتدر مع جبريل الأمين الذى نزل إلى الأرض لمعاونته ـ بتجهيز أساس كعبة الله وتعميقه.

وفى قول آخر، إن جبريل ـ عليه السلام ـ حفر حفرة بضربة من جناحه فشوهدت أحجار الأساس التى وضعها الملائكة الكرام فى الحفرة.

وقام سيدنا آدم بتعلية الأساس للبيت الشريف إلى أن ظهر فوق وجه الأرض. واستخدم فى هذا الأحجار التى جلبتها الملائكة الكرام من جبال» لبنان

وطور سيناء وطور زيتا وجودى، وحراء» ثم وضع فوقه البيت المعمور الذى جئ به من الجنة. وقد ضبط» وهب بن منبه[1] «الجبال الخمسة المذكورة بحيث تكون جبال: لبنان، وطور سيناء، طور زيتا، أحد، وثبير» ووضع بعض الرواة فيما نقلوا جبل جودى مكان جبل «أحد» وجبل حراء مكان جبل ثبير.

ويروى المؤرخون أن الحجر الأسود نزل أيضا مع البيت المعمور ليكون كرسى أبى البشر عليه السلام.

تفصيل: كتب المؤرخون كلمات كثيرة فى كيفية تكليف سيدنا آدم ببناء البيت وتحديد الصورة التى سيكون عليها بناء بيت العزة وبمعاونة من سيكون تأسيس تلك البقعة السعيدة؟ وكيف حج سيدنا آدم عليه السلام؟

ولما كان هذا الموجز لا يكفى لاستيعاب كل الروايات المنقولة فقد رئى أنه من الصواب نقل وبيان الروايات باختصار، مازجا بين مختلف الروايات.

عندما أمر موجد الكائنات ـ تنزهت ذاته عن الإدراك والإثبات ـ ببناء الكعبة المكرمة بواسطة أبى البشر ـ عليه السلام ـ خاطبه قائلاً: يا آدم ابن لى بيتا تحت العرش، وعليك بالطواف حول البيت الذى أمرتك ببنائه، مثل طواف ملائكة السماء بالعرش الأعظم، وإننى أستجيب لدعاء أولادك وأحفادك المطيعين والمنقادين الذين يتوجهون بالدعاء إلى بجوار هذا البيت الذى لا مثيل له».

وعندما تأوه سيدنا آدم مظهرا عجزه قائلا: «يا إلهى كيف يمكننى ـ بمفردى ـ أن أبنى وأؤسس البيت الشريف الذى أمرت ببنائه وأنى لى أن أجد محاذاة العرش الأعلى؟! إن عجزى وعدم قدرتى واضح فى تنفيذ هذا الأمر».

فأوحى الله ـ سبحانه وتعالى ـ له وأمره بالنهوض فوراً والذهاب إلى وادى غير ذى زرع. فى مكة المكرمة برفقة ملاك وألهمه بالشكل الذى سيبنى عليه البيت الحرام.

وبناء على ذلك تحرك آدم ـ عليه السلام ـ من المكان الذى كان به، وكلما مر بمكان يرى فيه بدائع خلق الله وحسن تنسيقه والأشكال العجيبة كان يبدى رغبته

(١) كنى وهب بأبى عبد الله الزمارى وتوفى سنة ١١٤ هـ أو ١١٦ منها.

للملك الذى يصاحبه بالبقاء فى هذا المكان ويفصح عما فى نفسه قائلا: «أيها الملك اتركنى هنا» فيتلقى الجواب منه: «المكان الذى أمرنا بالنزول فيه مازال بعيدا أمامنا». وفى النهاية، وصلا إلى مكة المكرمة وسارعا بنقل الأحجار من الجبال الخمسة على الوجه المذكور آنفا وقاما ببناء وتأسيس بيت الله قوى الأركان.

وبعد الانتهاء ذهبا إلى عرفات، وأديا مناسك الحج وفقا لشروطه ورجعا. وفى أثناء عودة آدم ـ عليه السلام ـ من عدفات. خرج الملائكة الأرض لاستقباله فى وادى «أبطح»[1] وقالوا: «يا آدم: كنا فى انتظار قدومك الموسوم باليمن. وقد كان لنا فخر الزيارة والحج والطواف بالبيت الشريف قبلك بألفى سنة.

وبعد أن التقى حضرة أبو البشر بالملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح، ذهب إلى مكة المكرمة، وأدى طواف الوداع بصحبة الملك الذى رافقه، ثم ذهب إلى بلاد الهند، وبعد ذلك اعتاد أن يأتى كل سنة للحج وزيارة كعبة الله.

وقد كتب فى ترجمة الشفاء الشريف أن آدم ـ عليه السلام ـ قد حج أربعين مرة سيرا على الأقدام، وكان طول قامته ستين شبرا، وعرض جسمه ستة أذرع أى تسعة أقدام وإحدى عشرة بوصة. ومع ذلك قال مؤلف «زين المجالس» لقد حج سيدنا آدم ثلاثمائة مرة واعتمر ألفى مرة إلى أن قبلت توبته.

هل كان يحج سيدنا آدم راكبا أم ماشيا؟ وجه هذا السؤال إلى ابن عباس رضى الله عنهما فأجاب بقوله «كيف يمكن لحيوان أن يتحمل حضرة أبى البشر عند ركوبه؟! فقد كان يحج ماشيا وكان يقطع فى كل خطوة مسافة مسيرة ثلاثة أيام.

وعندما صدر الأمر إلى آدم ـ عليه السلام ـ بتأسيس بناء الكعبة كان فى بلاد الهند التى تشرفت بموطئ قدميه مناطق عامرة والمكان الذى كان يطأه بقدميه أصبح بعد ذلك قرية، والأماكن التى أقام بها قليلا أقيمت بها مدن صغيرة

(١) وادى أبطح: اسم مجرى عظيم من مجارى سيول مكة المكرمة، وهذا المجرى واسع جدا، ويقع بين منى ومكة المكرمة ويتصل بجبل حجون، وحبات رماله كبيرة بعض الشيء ومثل الحصى.

وكبيرة. والأماكن التى صلى بها أقيمت فيها الجوامع والمدارس والمساجد وكان فى كل خطوة يقطع فرسخا، إذ كانت الأرض تطوى تحت قدميه طيا، والأراضى التى لم يطأها بقدميه تحولت إلى الصحارى.

قال كعب الأحبار عن البيت المعمور الذى أرسل من الجنة وهو يخبر سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بهذا الأمر:

وعندما هبط آدم ـ عليه السلام ـ إلى وجه الأرض، أنزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قطعة ياقوت حمراء، ذات بابين من الزمرد الأخضر، تفتح إلى الشرق والغرب وكانت الياقوتة على شكل خيمة. وبعث معها رسالة تقول: «يا آدم هذه الياقوتة هى بيتى، وكلما طيف بالعرش الأعلى وصلى حوله فليطاف ويصلى كذلك حول بيتى».

وبعد إكمال آدم ـ عليه السلام ـ قواعد بيت الله بمعاونة الملائكة وضع عليها الياقوتة المجوفة الحمراء المذكورة وأخذ يعبد الله حولها فى ذلّة وخضوع. وكان فى أركان الياقوتة الحمراء، أربعة أعمدة مستوية موزونة وكان داخلها مجوفا كقبة جامع. وقد استخدم فى إنزال هذه الياقوتة المجوفة على وجه الأرض سبعين ألفا من الملائكة العظام.

أقوال الجمهور فى تعريف البيت المعمور:

أقدم المفسرون الكرام على وصف البيت المعمور بنقل روايات مختلفة متباينة. وقد رئى أنه من المناسب تثبيت بعض هذه الروايات فى هذا الموضع على أمل نفع أهل الإطلاع.

وهكذا بنى حضرة خالق الكاف والنون ـ تعالى شأنه عما يقولون ـ مقاما عاليا فوق أربعة أعمدة مستوية موزونة تحت العرش من أجل الملائكة الذين يطوفون بالعرش الأعظم، أعمدته من الزبرجد وغطاؤه من الياقوت الأحمر وسماه باسم «البيت المعمور» وبعده ـ كما ذكر من قبل ـ أوجد بواسطة الملائكة الكرام على وجه الأرض، وبمحاذاة البيت المعمور بيتا مكرما، وأمر أهل الأرض وسكانها

بزيارته والطواف حوله. وأصل اسم البيت المعمور «صراح» واسم خادمه الخاص «رزين» وأطلق عليه البيت المعمور لكونه مقر الملائكة، وبناء على ما كتب فى تفسير «السمر قندى» أن الملائكة الكرام بنوا البيت المعمور على وجه الأرض قبل خلق آدم عليه السلام، أو أن سيدنا آدم قد بناه بنفسه. وفى قول آخر أن البيت المعمور أرسل من الجنة لرفع وحشة فراق سيدنا آدم ليأتنس به وكان قطعة واحدة من الياقوت الأحمر، وقد أنزل فوق ساحة الكعبة المشرفة، ورفع إلى السماء فى طوفان نوح وكان ارتفاعه مثل ما بين الأرض والسماء[1].

وحسب ما يفيده حديث المعراج الذى ورد فى صحيحى مسلم والبخارى، أنه الآن فى السماء السابعة، وتبعاً لتفسير البيضاوى والكشاف، فى السماء الرابعة.

وبالنظر إلى تحقيق تفسير «الكواشى» أنه فى السماء الثالثة أو فى السماء السادسة أو فى السماء السابعة.

ويقول مؤلف تفسير (الواحدى) مؤيدا قوله بحديث خاص: ـ «إن البيت المعمور فى السماء الدنيا، وأن سيدنا جبريل يغوص كل يوم فى نهر الحياة الكائن فى السماء الرابعة ثم يخرج وينتفض فتنقطر من أجنحته حين يهزها سبعون ألف قطرة ماء، ويخلق من كل قطرة منها ملك ويقوم هؤلاء الملائكة المأمورين بزيارة البيت المعمور وأداء الصلاة ثم يعودون.

والملائكة المشار إليهم لا يعدون ولا يحصون لدرجة أن من أدى الصلاة مرة واحدة هناك لا يأتى عليه الدور مرة أخرى إلى الأبد.

وبناء على قول آخر أن اسم البيت الذى كان فى السماء الدنيا هو «صراح» وهو فوق الكعبة المشرفة وبمحاذاتها بحيث لو فرض سقوطه يسقط فوق السطح الشريف لبيت الله.

وقد سطر فى تفسير «اللباب»: كان البيت المعمور بقعة مثيرة لامعة مصنوعة

(١) هو القول المرجح على الأقوال الأخرى.

من الياقوت الأحمر، ولها بابان من الزمرد يفتحان: أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب.

وكان الحجر الأسود ـ أيضا ـ من ياقوتة بيضاء، وسبب تحوله إلى السواد هو لمس النساء الحائضات فأطلق عليه الحجر الأسود. وقد أنزل حضرة الحق البيت المعمور والحجر الأسود إلى وجه الأرض قبل هبوط أبى البشر بألفى سنة، وبعد هبوطه كان آدم يجئ من الهند ويحج ويطوف بالبيت المعمور ثم يعود، وقد تكرر منه ذلك أربعين مرة.

وعند البعض أن البيت المعمور بنى فى السماء، وفى النهاية صدر الأمر ببناء البيت الحرام على سطح الأرض بمحاذاة موضعه فى السماء وبنفس الحجم. وحسب قول صاحب «المواهب» إن الملائكة المسبحين بجوار البيت المعمور لا يحصى عددهم وبعدد تسبيحات كل واحد منهم يخلق ملك.

ويقول مؤلف «تفسير بحر العلوم،» أنزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على وجه الأرض، خيمة من خيام الجنة المتلألئة بالأشعة وأمر بوضعها فوق ساحة البيت المعظم فى مكة المكرمة، ولم يكن البيت الحرام قد بنى ـ بعد ـ آنذاك، وكانت الخيمة المذكورة قناديل واحدة حمراءمجوفة من يواقيت الجنان، وكان بالقرب منها ثلاثة قناديل من الذهب يعادل نورها مجموعة الثريا من النجوم، وبابا هذه الخيمة كانا مرصعين بلآلئ الجنة وكان أحدهما يفتح إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وكان نور الجنان يلمع ويتلألأ فى داخلها. وقد أرسل مع الخيمة المذكورة الحجر الأسود لكى يكون كرسيا لسيدنا آدم يجلس عليه وهو من ياقوتة وضاءة ناصعة البياض شديدة اللمعان.

وجاء فى الحديث الصحيح «أن البيت المعمور ياقوتة حمراء من قطعة واحدة لها بابان فى الجهتين مصنوعان من الزمرد، وداخلها مزين بالياقوت والجواهر بما يعادل عشرة آلاف قنديل مثل الثريا. وأمام بابها منبر ومئذنة من الفضة الخام الخالصة، وفى كل يوم يغوص سبعون ألفا من الملائكة فى بحر النور ويرتدون

ملابس الإحرام المنسوجة من خيوط النور فيزورون البيت ويطوفون به. مرددين «لبيك ، لبيك» ثم يذهبون والملك الذى يطوف مرة لا يرجع مرة أخرى.

ويحكى مؤلف «معارج النبوة»، ناقلا من بعض الكتب المعتمدة فيقول: اعتاد الملائكة العظام على الاجتماع داخل البيت المعمور فى أيام الجمعة. وفى أيام الاجتماع يصعد سيدنا جبريل فوق المئذنة، ويؤذن، ويخطب سيدنا إسرافيل، ويؤمهم سيدنا ميكائيل ـ عليهم السلام.

ويتفاخر كل واحد منهم ملقيا خطبة مؤثرة تتضمن ما يهبونه إلى الأمة الإسلامية وبعد أداء الصلاة يقف جبريل الأمين ويهب ثواب آذانه إلى مؤذنى الأمة المحمدية، ويهب سيدنا إسرافيل ثواب خطبته إلى خطباء الأمة الإسلامية، ويقف سيدنا ميكائيل ويهب الأجر الجزيل الناتج عن إمامته إلى أئمة الأمة الإسلامية، يعلنون ذلك مفتخرين مباهين فى خطب بليغة مؤثرة، كما أن الملائكة الكرام يهبون ثواب صلواتهم التى أدوها إلى الأمة المحمدية ويشهدون على ذلك المقربين الكرام من الملائكة.

وعندئذ يصدر الخطاب الإلهى إلى الملائكة ـ يا أصناف الملائكة!! هل أنتم تنفقون جواهر السماء التى أنعمت بها عليكم بالمباهاة والفخر بكرمكم وجودكم؟ ألا فاشهدوا أننى حفظت الأمة المحمدية من عذاب الآخرة، وهذا مقرونا برحمتى وعفوى الإلهى.

وهكذا يعود الملائكة إلى أماكنهم محاطين بالألطاف الإلهية، وتنتهى إلى هنا أقوال المفسرين.

وعلى حد قول الإمام الأزرقى أنه عندما وطأت قدم آدم سطح الأرض صدر إليه الأمر الجليل من رب العزة قائلا: يا آدم إن لى بيتا فى الأرض فى حذاء بيتى الذى فى السماء. وإذا كانت الملائكة الكرام يطوفون حول عرشى فطف أنت و أولادك وأحفادك كذلك حول بيتى فى الأرض، وصل وتعبد حوله.

يا آدم إنى أقمت أول بيت وضع للناس فى بطن مكة، يأتى الناس من كل فج

عميق لزيارته، وكل من جاءه معتمرا لا يبتغى إلا وجهى فقد زارنى وأكرمنى.

يا آدم اعتمر ما دمت حيا، وسوف يعتمر أنبياء وأمم القرون القادمة من بعدك، وقد اخترت موضع ذلك البيت قبل خلق السموات والأرض، ونفخت فيه من جلالى وكرامتى.

ولأن الله أرسل طائفة من الملائكة لمعاونة أبى البشر فى بناء البيت الشريف، ملأ آدم حفرة الأساس التى ذكرناها آنفا، ثم أقام على هذا الأساس الياقوتى هذا الجدار المتين الذى ارتفع عن الأرض قليلا.

ويروى أئمة الحديث أن فى كل سماء بيتًا يعلو البيت المعظم حتى السماء السابعة، وبيتا فى كل أرض تحته حتى الأض السابعة.

طبق هذا الحساب فإن «كعبة الله العليا» هى دار العبادة الخامسة عشرة.

وإذا افترضنا أن سقط أحد هذه البيوت حل محله غيره على سطحها.

لكل كعبة منها مخلوقات تطوف حولها من أهل السماء والأرض، ولا يمكن أن تخلو ممن يطوفون حولها.

البيت المعمور الذى اشتهر بــ «رضاض» أو «صراخ» حسب القول المشهور يعلو الكعبة المعظمة ويأتيه كل يوم سبعون ألف ملك لزيارته والطواف حوله بنية عدم العودة حتى تقوم الساعة، ثم يعودون بعد الطواف.

وعلى الرغم من أن الروايات التى جاءت بشأن تأسيس الكعبة المعظمة للمرة الثانية مخالفة الإفادة إلى الآن، فإنه سواء ما قاله الأزرقى أو كعب الأحبار صفوة الرواة فهم يؤيدون قول عبد الله بن عباس سالف الذكر.

وبعد أن أسس آدم ـ عليه السلام ـ البقعة المقدسة للكعبة الشريفة على نحو ما سلف ذكره، التمس رحمة الله داعيا: يارب إن كل من حج بيتك المعظم الذى بنيته امتثالا لأمرك وطاف حوله هل هو مثاب مأجور؟

فقال الله تعالى:

يا آدم لقد تجاوزت عن ذنبك كما تجاوزت كذلك عن ذنوب أولادك الذين سوف يحجون بيتى.

عاد آدم إلى بلاد الهند بعد أن تلقى جواب الرحمة هذا من الله.

وجاء فى رواية أخرى أنه بعد أن أتم آدم ـ عليه السلام ـ بناء الكعبة طلب مثوبة معطى العطايا مانح النعم، ولما كان آدم قد تلقى من رب العزة قوله: «سل منى أجرك حتى أعطيك».

فإذا بآدم ـ عليه السلام ـ يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: «يا آدم سوف أدخلك الجنة وكل من زار الكعبة من ذريتك وسأدخل الجنة كل من يزورون بيتى هذا» فظهرت علامات السرور عليه.

فائدة: بعد الطواف صلى آدم ـ عليه السلام ـ ركعتى الطواف ثم دعا فى مواجهة الملتزم(١) الشريف وقال: اللهم إنك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم ما فى نفسى، وما عندى، فاغفر لى ذنبى، وتعلم حاجتى فأعطنى سؤلى. اللهم إنى أسألك إيمانا يباشر قلبى ويقينا صادقا حتى أعلم أنه لن يصيبنى إلا ما كتبت لى والرضا بما قضيت على.

فتلقى خطاب ربه ذى العزة «يا آدم لقد قبلت دعاءك وكل من يعرض على من أولادك وأحفادك حاجة له، وهو يقرأ هذا الدعاء فإننى أستجيب لدعائه وأقضى حاجاته، كما أزيل همه وغمه وألبى له حاجات الدنيا والآخرة، وإذا لم يقبل هذا الدعاء فى الدنيا سيجده فى الدنيا والآخرة.

ولأن هذا الطواف هو أول طواف لجنس بنى البشر فقد اتخذ آدم ـ عليه السلام ـ الملائكة قدوة فى طواف بيت الله.

(١) الملتزم: يطلق على ما بين باب بيت الله والحجر الأسود.

وعندما أنهى أبو البشر - على نبينا وعليه صلاة الله - البناء الأول للبيت الشريف وبدأ الطواف. هنأه[1] الملائكة الذين استقبلوه فى وادى أبطح قائلين: حجك مبرور يا آدم وسعيك مشكور لقد طفنا بالبيت الحرام قبلك بألفى سنة.

فإذا بآدم - عليه السلام - يدعو الله أن يدخله الجنة ثانية فرد عليه الله قائلا: فلما سألهم سيدنا آدم قائلا: «وماذا كنتم ترددون فى أثناء الطواف؟»

أجابوا: «كنا نردد فى أثناء الطواف التسبيح الجليل: «سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر»، وبناء على هذا ردد آدم - عليه السلام - التسبيح المذكور وبدأ الطواف لمدة أسبوع وكان يطوف ليلا سبع مرات، وفى النهار خمس مرات، وبهذا الحساب يكون قد طاف ببيت الله تسعا وأربعين مرة ليلا وخمس وثلاثين مرة بالنهار لأن كل سبعة أشواط حول الكعبة المعظمة تعد طوافا واحدا.

ويروى أن عبد الله بن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت فى أثناء الحج لمدة أسبوع، سبع مرات ليلا وخمس مرات نهارا وذلك عملا بسنة أبى البشر.

بشرى:

إذا طاف أى إنسان سبع مرات بكعبة الله، مرددا التسبيح سابق الذكر غير متفوه بكلام متعلق بالدنيا إلى أن يكمل الطواف يعطى عشر حسنات ويرفع عشر درجات وتحط عشر من سيئاته. أما إذا تكلم فإنه فى تلك الحالة أيضا يدخل حوض الرحمة كأنه يغوص بالماء، وهذه البشرى هى مضمون الحديث الشريف الذى نقله و رواه الصحابى الجليل أبو هريرة: كما أنه منقول بالآثار الصحيحة، ويروى بسند موثوق به «إن ثواب الذين يصلون بعد الطواف ركعتى الطواف مثل ثواب تحرير رقبة»، .

إخطار:

لما كان طواف بيت الله عبادة خاصة مثل إقامة الصلاة، لذا يجب الامتناع عن الكلام فى أثناء الطواف وإذا اقتضى الأمر التكلم فيجب أن يقول خيرا» انتهى.

(١) الملائكة إذن هم الذين علموا سيدنا آدم دعاء الطواف كما علمه جبريل الأمين اصول المناسك.

وفيما يتعلق باستقبال الملائكة الكرام لمن يدخلون المدينة المباركة مكة المكرمة قاصدين أداء حج البيت الحرام، فإن الملائكة الكرام يقومون فقط بإلقاء السلام عليهم وتكريم الذين يدخلونها وهم يركبون الإبل ويحيون من يدخلونها وهم يركبون الحمير بمصافحتهم، أما الذين يدخلونها سائرين على أقدامهم يظهرون لهم الترحيب الحار ويعلون قدرهم بمعانقتهم.

وبناء على هذا الأساس فإن السلف الصالح كانوا عند استقبال الحجاج ذوى الابتهاج يسارعون بتقبيل عيونهم حتى ينالوا دعواتهم الصالحة قبل أن يتدنوا بارتكاب المعاصى والآثام.

* * *

توضح كيفية تجديد الكعبة المحرمة فى المرة الثالثة

بنى سيدنا «شيث» بن سيدنا آدم - عليهما السلام - بيت الله العالى المقام فى المرة الثالثة، وقام أولاد وأحفاد المشار إليه بتعميره إلى طوفان نوح.

لأنه عندما وضع آدم - عليه السلام - قدميه على وجه الأرض، كانت ياقوتة منيرة على شكل الخيمة موضوعة فوق الموضع المبارك المقدس للبيت الأكرم على نحو ما أوضحت سالفا. وعندما رفعت هذه الخيمة إلى السماء عقب وفاة أبى البشر - عليه السلام - بنى سيدنا شيث بن آدم - عليهما السلام - بيتا من الحجر ليحل مكان الخيمة المذكورة.

وإذا كانت واقعة الطوفان الهائلة التى أغرقت أقطار العالم قد دمرت أيضا البيت الحجرى الذى بناه سيدنا شيث وأزالت آثاره فإنه بعد انحسار الماء ظهر الأساس القديم للبيت الشريف المذكور. وكان أولاد وأحفاد المشار إليه يقومون بتعميره وترميمه من حين لآخر.

حكمة:

لدى وصول نوح - عليه السلام - إلى أرض مكة، كان الموضع المبارك الذى كان فيه الأساس المنهار لبيت العزة معلوما وأكثر من هذا أن سفينة نوح - عليه السلام - عندما وصلت إلى حدود حرم الله، أخذت تطوف بالموضع السعيد لكعبة الله. وقد طاف سبع مرات كاملة، وفى أثناء هذا شرح سيدنا نوح طريقة الطواف للموجودين داخل السفينة وأمر ألا يقترب أى إنسان من زوجته تعظيما لبيت الله. وعندما خالف حام بن نوح أمر والده، دعا نوح على ابنه حام بالسوء فتغيرت نطفة حام على أثر هذا الدعاء وبدأ فى إنجاب أبناء ذوى بشرة سوداء.

ونسى العباد طوفان نوح مع مرور الوقت، واتخذوا الأصنام آلهة وأهملوا العناية ببيت الله فقد غطت الرمال الأساس القديم لبيت الله الذى ظهر بعد الطوفان واختفى تماما عن الأنظار.

والموقع اللطيف لبيت الله أصبح ربوة من الرمال الحمراء ومع هذا ظل الناس يعتقدون أن هذه الربوة الحمراء مكان مقدس، لذا كانوا يسعدون بالطواف حوله وزيارته وبهذا التقدير يحتمل أن الخيمة المذكورة الموضوعة فوق الأساس الذى بناه أبو البشر كانت البيت المعمور، أو أن فوق البيت المعمور خيمة مثل الخيمة المذكورة ويفهم من هذا أن الخيمة قد رفعت عقب وفاة آدم ـ عليه السلام ـ وأن البيت المعمور ظل على الأرض حتى قبيل الطوفان، ورفع فى أثناء الطوفان حتى لا يتلوث بمياه الأرض القذرة.

* * *

فى بيان ترجمة حال سيدنا إبراهيم عليه التحية والتكريم الذى وفق فى تجديد الكعبة المعظمة فى المرة الرابعة، وسبب ذهابه إلى مكة المكرمة، والقصة الهامة لذبح إسماعيل، والمهمة التى كلف بها لتأسيس البيت الحرام، وإقامة أولاد إسماعيل فى تلك البلدة المقدسة، وبيان أحوال تلك الأيام وكيفية معيشة الناس

قال سيدنا على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ دون أن يخوض فى أوليات بناء البيت قبل إبراهيم ـ عليه السلام ـ «أول من بنى البيت الشريف سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه التعظيم».

وقد كذب ابن كثير وخرج الروايات التى تقول «إن الكعبة المفخمة قد جددت ثلاث مرات قبل بناء إبراهيم، كما جاء فى تفسيره الشريف[1] وبهذا صدق قول على بن أبى طالب، إلا أن الروايات المشهورة تؤكد أن سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ قد بنى البيت المعظم للمرة الرابعة. وسواء صح القول الأول أو القول الأشهر فلاشك فى أن النبى المشار إليه قد جدد مقر العزة الإلهية.

وهناك أسئلة كثيرة ترد فى الخاطر ومنها: كيف ترك إبراهيم ـ عليه السلام ـ مسقط رأسه بابل؟ وكيف اتجه نحو واد غير ذى زرع؟ وأين قضى أوقاته قبل تشريفه إلى مكة المكرمة؟ وأين أقام بعد تأسيس البيت الشريف واستراح؟ وبما أن هذه الأسئلة فى حاجة إلى الحل والإجابة، وذلك يحتاج إلى تلخيص الأخبار الطويلة المبسوطة فى الكتب لذا رأينا أننا مضطرون لكتابة تاريخ حياة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وترجمة حاله ملخصين تلك الأخبار الطويلة.

(١) هناك إيضاحات مقنعة فى هذا الخصوص فى بحث مقام إبراهيم.

ترجمة حال سيدنا الخليل عليه سلام الله الجليل:

سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه التفخيم - من الأنبياء أولى العزم من الرسل، يصل نسبه العالى إلى البطن الخامس من هود - عليه السلام.

ولد إبراهيم عليه السلام فى قرية كوثى على وزن طوبا - مهد زينة الوجود - وكانت تابعة لمدينة «بابل» أو «برسد» الملحقة بالكوفة، وولد بعد هبوط الذات النبوية المتصفة بالهداية أبى البشر آدم عليه السلام - على وجه الأرض بـ ٣٣٢٣ سنة وعلى قول بـ ٣٣٦٣ سنة، وبعد واقعة طوفان نوح المفجعة بـ ١٧١١ سنة، وقبل الهجرة النبوية بـ ٢٨٩٣ سنة.

وهناك من يقول إنه ولد قبل الهجرة النبوية بـ ٢٥٩٦ سنة. ويخمن جماعة من المؤرخين الأجانب أن مولده كان قبل ميلاد عيسى بـ ٢٣٦٦، أو بـ ٢١٢٢ عند جماعة أخرى. ويروى أنه ولد فى مدينة حران وبعد ذلك هاجر إلى «بابل» وفى رواية أخرى أنه ولد فى مدينة «أورفة» فى تركيا ثم هاجر إلى حران ومنها إلى بابل. وقال بعض المؤرخين أيضا إنه ولد فى قرية برزة «من قرى دمشق بالشام، وأصبحت المغارة التى ولد فيها مزارا للعارفين، بل هناك من يقول إن الدعاء فى هذه المغارة يستجاب من الله سبحانه وتعالى.

(بدايع الزهور)(١).

كان وجهه الشريف أحمرَ مائلاً للبياض، قامته متوسطة موزونة معتدلة أشهل العينين ضخم السرة، عظيم الصدر مستوى المنكبين.

ولد فى زمن هاصر بن كوفى بن حام بن نوح - عليه السلام - أو فى عهد نمرود بن كنعان الذى كان من جبابرة الملوك وتصادف ليلة ميلاده ليلة الجمعة فى يوم عاشوراء.

وفى ذلك التاريخ خرج النمرود التعس عن الطريق المستقيم وجادة الصواب

(١) هذه الرواية من الروايات المرجحة لدى صاحب بدايع الزهور.

بمساعدة الظروف، وأقام مجموعة من الأصنام على أشكال مختلفة وادعى الألوهية ودعا الناس إلى عبادته، وهكذا أضل الناس عن عبادة الملك المتعال جل جلاله. وكان يقول: «إن الذين يعبدون صورتى، سواء خفية أو علانية ويتقربون إلي ينالون درجة الكمال وأعلى المناصب». وذات ليلة رأى فى منامه أن كوكبا لامعا براقا يضئ حتى أن نوره حجب ضياء القمر المنير فاختفى، فقلق قلقاً شديداً وأحضر كبار الكهنة والمنجمين وأمرهم بتفسير ما تدل عليه الرؤيا وبناء عليه قال المنجمون: سيولد مولود ذو طالع ميمون مرتفع محمود العاقبة، وسيكون سببا فى تحطيم بنيان سلطنتك حتى تصير خراباً وأن هذا الطفل مازال فى صلب أبيه.

وتبعا لقول آخر أن (جليد بن عاص) وهو من أشهر الحكماء ومجموعة البؤساء الأشقياء التابعين له والذين اختصوا بتفسير رؤيا النمرود قالوا: «بالنظر فى أحكام كتبنا المتداولة، فإنه سيولد هذه السنة غلام محظوظ سعيد فى عاصمة بلدكم، وبعد أن يكبر هذا الغلام سيأتى بدين جديد وسيدعى أنه رسول لهذا الدين، وسيدعونا لاتباعه وإذا عجزنا عن إيجاد حل لهذا الأمر من الآن، فإن دولة النماردة ستزول وتمحى بلا ريب.

وتحير النمرود التعس من هذه المعلومات الفلكية التى تلقاها من كهنته، وبدافع من حماقته وبلاهته هب ليغير حكم القضاء وأصدر أوامره بالتفريق بين الرجال والنساء لكى يحول دون اجتماع الأزواج فى الفترة التى جددها الكهنة، وعين لكل عشرة رجال رقيبا عليهم، وعلاوة على هذا التضييق على الناس أمر بقتل كل الأطفال الذين سيولدون في تلك السنة».

وفى الواقع أنه لم يستطع تغيير القدر الإلهى، إذ التقى آزر[١] فى تلك الليلة بزوجته[٢] (أدنى بنت نمرة) وانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

(١) آزر هو لقب لتارخ أبو سيدنا إبراهيم لقب بهذا الاسم للإله الذى يعبده على قول، وفى قول آخر هو عمه أخو أبيه. وهذا ما رجحه الشيخ محمد متولى الشعراوى - رحمه الله - من العلماء المعاصرين.

(٢) هناك اختلاف فى اسم «أدنى» فبعض الرواة يصرون على أن اسم والدة إبراهيم عليه السلام «أدنى» بينما يقول الثانى أن اسمها «ملكا» ويدعى الثالث أنه «نونا» بينما يقول الرابع أنه «ليوثا».

رباعية:

إذا المولى أمرا مـــن الأمـــور شــــاء
فلا قدرة لأحد علي رده ولا القضـاء
ويثبــــت ذلــك لمــن أنكـــــــــر
حكاية البيت والولـد وهمـة العنقـاء

عرف المنجمون تلك الساعة التى انتقل فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى رحم أمه ليلا، وأبلغوا توا النمرود بالخبر، فقام الشقى متهوراً وقد تحول إلى قطعة نار تحرق ـ فأمر بقتل آلاف من الأبرياء إذ أدرك أن المولود ذا العاقبة المحمودة سوف يولد ولم يقنع بهذا، بل عين موظفاً لفحص السيدات الحوامل، وذلك بغية قتل كل طفل ذكر سيولد مستقبلا إلا أن حداثة حمل (ادنى ابنه نمرة) ساعدها على إخفاء علامات الحمل وبذلك نجت من تلك المعاينة الجبرية من أتباع نمرود، ورغم أن والدة سيدنا إبراهيم استطاعت إخفاء حملها[1] بسبب شبابها ونجت من الذين فحصوها، فإنها عندما أتمت مدة حملها وبدأت مظاهر الحمل في الظهور عليها وكانت تعرف مصير فلذات الأكباد الذكور من القتل، حدثت نفسها قائلة: «إننى إذا وضعت غلاماً فسوف يقتلونه، لذا يجب على أن أضعه فى مكان خال بعيدا عن العيون «وبناء عليه ذهبت إلى حافة واد بين جبلين خارج المدينة وبعد أن وضعت حملها، لفت ذلك المولود السعيد في قطعة قماش وتركته فى كهف داخل هذا الوادى، حتى لا يقتل، ثم رجعت وأقنعت زوجها آزر بأن قالت له «فى أثناء وجودى فى وادى بيابان وضعت غلاماً، لكنه توفى فقمت بدفنه هناك ورجعت.

أما آزر فقد أظهر السرور وقد اقتنع بما قالته الزوجة وشكر الأصنام التى كان يعبدها، وتمتم ببعض الكلمات مسريا عن نفسه.

---

(١) لم يستطع احد كائنا مَنْ كان ان يلحظ أمارات الحمل على أم نبينا إبراهيم عليه السلام، لأنه لم يظهر عليها شيء من علامات الحمل.

في الليلة تركت (أدنى ابنة نمرة) إبراهيم عليه السلام ـ فى الغار، ذهبت إليه وهي تردد سراً يا ترى كيف حال فلذة كبدى ألا أذهب إليه ثانية لأرى ما إذا كان حيا فأرضعه، وقد وجدته على قيد الحياة، فأرضعته ورجعت.

وكان جبريل الأمين قد قطع حبل سرة سيدنا إبراهيم، وألبس على ظهره حلة بيضاء وأذن فى أذنه وأجرى الأصول الإسلامية المعتادة.

ولدى مجئ أم سيدنا إبراهيم كان ـ عليه السلام ـ يضع أصابعه فى فمه ويرضع منها وكان يقطر من أحد أصابعه عسل ومن الآخر ماء ومن الثالث سمن، ومن الرابع لبن، ومن الخامس لبن التمر. وتعجبت الأم من هذا الحال وسعدت به.

وكانت تذهب دائما إلى الغار المذكور لإرضاع ابنها، لكنها اجتهدت فى كتم ما يحدث وإخفائه حتى عن زوجها آزر.

أما سبب هذا التكتم والإخفاء، فقد كان لسلوك آزر غير المناسب، فعندما علم بحمل زوجته ـ بدافع من إخلاصه للنمرود ـ فقرر تسليم المولود إذا كان غلاما للنمرود، وأخذ من زوجته عهداً وميثاقا في هذا الشأن.

أما زوجته وبدافع من طبيعتها كامرأة، فقد اتبعت آزر وعقدت معه هذا العهد، ولكنها ندمت بعد ذلك وأخذت تفكر تفكيرا عميقا وتحدث نفسها قائلة: يا ترى كيف يمكننى أن أجد حلا لهذا الأمر؟ وكيف يمكننى أن أخلص فلذة كبدى ـ إذا جاء غلاما ـ من يد آزر.

ولعلمها بمدى محبة آزر لها وميله نحوها، ولتأمن أيضا من قتل وليدها إذا جاء غلاما من قبل أبيه، أخذت تحدث نفسها عندما اقترب أوان وضع حملها قائلة وإننى إذا وضعت غلاما فإنه سيقتل ساعة ولادته وهذا سيؤدى لفرط عطفى عليه وشدة حبى له لقتل نفسى ولاشك فى ذلك. وبدلا من التعرض لمخاطرة كهذه أقول فبحق الحب السائد بيننا أن تتجه إلى آلهتك وترجوهم ساجداً ألا أضع غلاما بل أنثى «وهكذا أرسلت آزر[1] إلى دار الأصنام معبد آلهتهم، بينما ذهبت

(١) كان هدف أدنى بنت نمرة من هذه الحيلة أن تحفظ مولد سيدنا إبراهيم بعيدا عن أبيه آزر وإنها كانت حيلة فى محلها.

هى إلى حافة الوادى حيث وضعت حملها ـ كما سبق الذكر ـ وكانت قد أقنعت زوجها بما حدثت به نفسها.

وبناء على ذلك كلما ذهب آزر إلى ديوان النمرود كانت (أدنى)، تذهب إلى الغار الذى به فلذة كبدها وترضعه لفترة ثم تعود. وقد امتد هذا الحال لمدة سنتين وحسب قول مؤلف «بدايع الزهور» استمر سنة واحدة.

تفصيل

فى هذا الموجز الذى كتبناه إلى هنا فإن أكثر الرواة يتفقون عليه فى لسان واحد، لكن صاحب الكتاب القيم المسمى «الأنس الجليل» الذى قام بالبحث والتدقيق أضاف إلى الموضوع رواية موثوقة إذ يقول: إن رئيس كهنة الشقى (حليد بن عاص) ذهب من رفقائه الضالين إلي ديوان النمرود فى تلك الليلة العجيبة التى انتقل فيها سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه وقالوا له: «إن كل جهودنا إلى الآن لم تثمر، حيث إن ذلك الكيان الذى يجب أن نتخلص منه سينتقل هذه الليلة إلى رحم أمه، فإذا اتخذت جميع الاحتياطات الشديدة هذه الليلة وبذلنا كل جهدنا محاولين تغيير خط سير القدر ربما حققنا آمالنا».

بناء على تحريض «حليد بن العاص» وأتباعه من الكهنة الضالين وحثهم المستمر للنمرود» أمرا قاطعا بأن يخرج من عاصمة ملكه كل الذكور ويبعدوا عنها، وأن يعين على كل بوابة من مداخل المدينة مراقبون من أهل الثقة، وأمرهم بألا يسمحوا بدخول أى رجل إلى داخل المدينة فى ذلك اليوم ليلا ونهارا، حتى لا يجتمع زوج بزوجته. وفى أثناء تلك الفترة المذكورة أبعد كل الذكور عن مساكنهم وبيوتهم، وكلف المنجمون بتحرى دقائق أحكام النجوم. واختبأت (أدنى بنت نمرة) لفترة بجوار باب المدينة الواقع بمحاذاة البيت الذى تسكن فيه وركزت تفكيرها لفهم نتائج ما يجرى ورآها زوجها آزر بطريقة ما وضاجعها فانتقل سيدنا إبراهيم إلى رحم أمه.

وعرف (حليد) الشقى من رؤية إشارات النجوم وعلامات الكواكب أن سيدنا

إبراهيم قد انتقل إلى رحم أمه فذهب إلى قصر «النمرود» عقب افتراق (أدنى) عن آزر صائحا صارخا يخبر جماعة النماردة الضالين وقال: «مولانا يائسا» لقد قضى الأمر ـ الآن وذهبت جميع الجهود والمساعى هباء، فذلك الكيان محمود العاقبة قد انتقل فى هذه الساعة ـ إلى رحم أمه، وأشار إلى نجم لامع ليريه للنمرود[1]. وكانت أضواء شعاع هذا النجم قد غطت الشرق والغرب ما بين السماء والأرض، ولم يكن قد رأى أو سمع ـ حتى ذلك اليوم المنير ـ عن بزوغ كوكب سعيد كهذا.

وأفاق نمرود بعد فترة من دهشته وسارع بإجراء التحقيقات والبحث اللازم وسعى للقبض على الرجل الذى ضاجع امرأته فى اللحظة التى أنبأ عنها حليد بن عاص الشقى.

ولما لم يستطع أن يتبين ما جرى رأى أن يترك هذا الأمر لحين ولادة الغلام، مع اتخاذ جميع الاحتياطات. وقال: «إذا كنا لم ننجح فى منع انتقال هذا الكيان السعيد إلى رحم أمه فعلى الأقل علينا أن نبذل كل الجهود لنهتدى إليه فى وقت ولادته».

وعندما آن أوان ولادة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ علم المنجمون الأمر، وأبلغو النمرود اللعين قائلين: «سيولد ذلك الكيان السليم الجسم فى أسبوع كذا وفى يوم كذا وساعة كذا».

ورغم الاستمرار فى اتخاذ لوازم الحيطة؛ إلا أن أدنى عندما أحست بآلام الوضع وأوجاعه ومقدمات الولادة أرسلت زوجها آزر إلى بيت الأصنام لكى

(١) وقد ظهر نجم يشبه لهذا النجم عندما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار إلا أنه لم يكن مثل الكوكب الذى طلع عندما استقر إبراهيم فى رحم أمه؛ ولكنه كان مثل الكوكب الذى ظهر فى زمن نوح عليه السلام.
يقول الإمام ربانى فى رسالته الثامنة والستين من رسائله «هناك مذنب سيره نحو الشرق وظهره نحو الغرب لامع، ويشرق عموديا ثم يميل إن هذا المذنب قد ظهر عندما هلك قوم نوح والقى إبراهيم إلى النار، وعندما قوم فرعون وعندما استشهد سيدنا يحيى، ويحتمل أن يطلع عندما يظهر الإمام المهدى.

يتضرع للآلهة على الوجه الذى أوضحناه آنفا، وخرجت من بيتها عازمة على وضع حملها فى حافة واد جاف يقع خارج المدينة.

وفى طريقها قابلت ملكا منير الوجه، جميل المنظر، قادها إلى الغار وقال لها: «كونى يقظة ولا تقلقى من أن ينال الطفل الذى ستضعينه أى أذى أو ضرر، فهذا الطفل خليل صاحب الكبرياء، والجد الجليل لخير الأنبياء، لذا فهو مصون فى كل الأحوال من ضرر ومن كيد الأعداء، ثم انسحب من الغار بعد أن أعد لها كل لوازم الوضع».

واستقر حضرة خليل الله على مهده المزين الذى نزل به جبريل ـ عليه السلام ـ وقرأ الأذان فى أذنه بعد أن قطع حبل سرته وألبسه الحلة. وبعد أن ألبسه الرداء الذى أتى به من الجنة، دخل الملك سالف الذكر إلى الغار وظل لفترة بجوار (أدنى ابنة نمرة). وفى الساعة التى ولد فيها إبراهيم ـ عليه السلام ـ تزلزل القصر الذى أقامه النمرود العنيد، وسمع هاتف بصورة تثير الفزع والدهشة قال: «لقد اقترب أوان هلاك ذلك الخبيث الذى أنكر إبراهيم» وجن جنون جماعة الشرك النماردة.

وتبعا للبحوث التى قام بها مؤلف «بدايع الزهور» فقد نتج عن اهتزاز قصر «النمرود» سقوط بعض شرفاته فجأة كما انقلبت الأصنام الموجودة به رأسا على عقب. وقد سمع صوت ذلك الهاتف عدة مرات فى ذلك اليوم المذكور وبعد هذا اليوم كان نمرود يسمع مقولة الهاتف فى كل مكان يذهب إليه.

وذات ليلة رأى فى رؤياه أن ضوء قمر يسطع من ضلع «آزر» ويغمر الأرض والسماء، نور بهى وأقلق سكان الأرض، وترددت فى أنحاء العالم وسمعت (جاء الحق وزهق الباطل) فأسقطت معابد الأصنام على الأرض.

وأوقعت النماردة ـ ذوى العاقبة السيئة ـ فى يأس وحرمان، وطاش صواب النمرود من هذه الرؤيا المخيفة وعندما أفاق واسترد وعيه استدعى «آزر» وبادره بقص تفاصيل حلمه المخيف الذى رآه. إلا أن «آزر» دفع الهواجس عنه إذ قال: إن رؤياك تشير وتلمح إلى شدة عبوديتى لكوكب القمر.

بقي إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المغارة المذكورة مدة خمسة عشر شهرا ـ على اختلاف الروايات. وعندما بلغ سن التمييز وجال بخاطره فكرة الخروج من المغارة قال لوالدته جاء الأوان للخروج من هذه المغارة.

يقول مؤلف «بدايع الزهور» بقى سيدنا إبراهيم فى الغار اثنى عشر شهرا، ولما كان يكبر فى كل شهر مقدار سنة، كان مظهره فى مظهر الأطفال البالغين عشرة أعوام من عمرهم عندما أراد الخروج من الغار. وبهذا أيد الرواية السابقة.

ولما رجا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أمه أن تخرجه من الغار، رجعت (أدنى) إلى بيتها وبعد تأمل عميق قالت لزوجها: قد ذكرت لك فيما مضى أن ابنك مات، ولم أكن صادقة فابنك لم يمت، وقد أصبح الآن شابا ملائكيا جميل الطلعة وهو الآن فى الغار وشرحت له الأمر كله.

وذهب آزر إلى الغار المذكور ولما رأى إبراهيم أعجب به وأحبه لجماله وكماله وقال لأمه: أخرجي الآن هذا الطفل لنقدمه للنمرود. وأخرجت الأم ذلك الغلام الموسوم بهداية البشر إلى خارج الغار. ولما خرج إبراهيم من الغار تأمل فى الكون، ورأى عجايب الأرض والسموات وأدرك بعلم اليقين وأذعن أن هناك مبدع وموجد حقيقى للأجرام العلوية والسفلية، فسارع بالاعتراف والإقرار بوجود الحق الذى ليس له مثيل من خلال هذا القول: «إن الذى خلقنى ورزقنى وأطعمنى وسقانى لربى الذى ليس لى إله غيره. ولم يكن فى ذلك الوقت فرد واحد على وجه الأرض يعترف بوجود إله واحد قهار».

وكان آزر كغيره من بنى البشر فى تلك الأوقات يعبدون النمرود ويشربون من كأس الندامة المتصف بالكفر. وكانوا يعبدون الشمس والقمر والكواكب والأصنام المنحوتة ويقدمون نجوم السماء ويهتمون بعبادة الكواكب لتوهمهم أن لها تأثيراً فى سير الكون وإحداث الأشياء.

وكان أهل بابل ـ آنذاك على دين الصابئة يعبدون الشمس وضوء النجوم ويسجدون لنهرى دجلة والفرات.

كما أنهم عبدوا حكامهم وأقاموا لهم التماثيل، واتخذوا هذه التماثيل آلهة وشغلوا بعبادتهم كانوا يعتقدون أن الروح شمعة فريدة منبثقة من النور الأصلى.

والطائفة الخبيثة التى كانت تعيش في بابل فى زمن النمرود هم جماعة معلومة متفرعة من أولاد سام وكانت لغتهم السريانية ودينهم الصابئة.

وكان الصابئة قديما تابعين لشريعة شيث وإدريس ـ عليهما السلام ـ وكانت كتبهم فى الصحف الشريفة التى نزلت على سيدنا شيث، وكان كتاب شيث ـ عليه السلام ـ يتضمن محاسن الأخلاق، ويدعو إلى الصدق والشجاعة ونجدة الغريب، وينهى أهل الإيمان عن الميل إلى الباطل والانغماس فى الرذائل.

ويصلى الصابئة علاوة على الأوقات الخمسة فى وقت الضحى الأولى، وفى الساعة السادسة من الليل ويصلون على الجنازة بدون ركوع أو سجود ويصومون فى السنة ثلاثين يوما وأحيانا تسعة وعشرين يوما. وبالنسبة لوقت الصوم يحرصون على أن يبدأ من الثلث الأخير من الليل حتى غروب الشمس.

والعيد عندهم فى ختام الصوم، ويهتمون بمكة المعظمة وتفخيمها. ويحرصون على أداء الحج، بزيارة مكان فى مدينة حران ويقدرون قبرين فى مصر، إذ يظنون أن أحد هذين القبرين لسيدنا «شيث» والآخر قبل الصابئى «ابن شيث».

ولما كان الدين الذى ينتسبون إليه غاية في القدم وكان دينا حقا لم يستطيعوا أن يستمروا على مبادئه، بل ضلوا فى النهاية وأخذوا يعبدون الأصنام والشمس والنجوم وتماثيل الحكام. ولما لم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يجد بين الصابئة مرشدا يدله على الطريق المستقيم راح يبحث بنفسه عن حقيقة وحدانية الله.

وقد رأى أولا «الزهرة» أو الكوكب المضئ و «المشترى» ومن بعده «القمر» ثم رأى بعد ذلك «الشمس المشرقة»، وقال بأسلوب الاستفهام الإنكارى: هذا ربى؟!

وعندما رأى أن هذه الكواكب قد توارت خلف حجاب الأُفُول وغابت، اتجه

إلى حضرة الواحد واجب الوجود ـ تعالى شأنه عن الولد والمولود ـ وهو حزين على الذى صدر منه بغير اعتقاد، وهو لا معنى له، وعبر بقول جليل وجميل المبنى: «لا أحب الآفلين».

وتبعا لبعض الروايات، أن سيدنا الخليل بعد بقائه فى الغار مدة اثنتى عشرة سنة، قال لأمه ـ ذات يوم من يكون ربى؟! وعندما أجابته أمه: ربك ربى.. بادرها بالسؤال التالى، ومن يكون ربك.

قالت (أدنى) ربى هو أبوك «آزر» فلما سألها ومن يكون ربه؟ قالت: رب «آزر» هو «النمرود» وبالتالى سألها: ومن يكون رب النمرود؟!

وهنا نهرته بقوله: «يا ولدى هذه الأسئلة لا ضرورة لها، واحذر أن تقول كلمة واحدة أخرى حول هذا الأمر ورغم أنها بهذا أرادت تهديد سيدنا إبراهيم، إلا أنه قال: «يا أمى، هل وجهى أجمل أم وجهك؟ وهل وجهك أجمل أم وجه أبى «آزر»؟.

وهل وجه والدى أجمل أم وجه النمرود؟

وعندما أجابته بقولها: يابنى وجهك أجمل وأحسن من وجهى ووجهى أجمل وأحسن من وجه آزر ووجه آزر أجمل وأحسن من وجه النمرود.

وقال: «مادمت أنت خالقتى، وأبى خالقك والنمرود خالق أبى فلماذا لم تخلقى نفسك أجمل منى؟ ولم يخلق آزر نفسه أجمل منك؟ ولم يخلق النمرود نفسه أجمل من آزر؟

ورغم أنه قد وضح بيان بطلان اعتقاد أمه بهذه الملاحظة الدقيقة، فإن أمه كررت نفس الإجابة السابقة وصحبته إلى المدينة، نقلت الحادثة التى وقعت بالتفصيل إلى زوجها آزر، وقالت له: أظن أن ابنك هذا سيكون ذلك الكيان الهادى الذى أخبر عنه بأن ظهوره سيكون سببا فى خراب وانهيار بناء سلطنة النمرود من أساسه، وأنه سيقضى على أديان أهل الأرض الباطلة.

ويظن البعض أن الذى أخرج سيدنا إبراهيم من الغار هو والده آزر، إذ ذهب إلى الغار عندما علم من زوجته بوجود ابنه هناك وفى نيته قتله، وذلك لكى يثبت إخلاصه للنمرود. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ مقلب القلوب جعل آزر يخاطب ابنه ـ وقد رأى جماله الآسر فعامله برفق ورقة وأظهر له المودة والعطف، وذلك من حكم الله ـ سبحانه وتعالى ـ الخفية.

قطعة

سلبتنى قلبى يا إبراهيم وهو نــــار

بالحسن وليس لى فى ذلك اختيـار

وفـــــــى نار تركتنـــــــــــى

وليس لنار النمــرود مـن شــرار

وبينما يبدى آزر محبته على ذلك النحو، أبصر سيدنا إبراهيم من خلال باب الغار مجموعة من الإبل وقطعان خيل وغنم وقال ما هذا؟.

فأشار «آزر» إلى كل واحد منها على حدة، وأجابه هذا يسمى غنم، وذلك يسمى جمل، وذلك يسمى خيل وعندئذ سأله: لا مخلوق بغير خالق، ترى من يكون خالقى؟ فلما أجابه آزر خالقك هو أمك. وإذا سألت عن خالقها فأنا خالقها وخالقى هو نمرود. وعندئذ قال إبراهيم إذن فمن يكون خالق النمرود؟ وهنا غضب ولطمه بكفه على وجهه المبارك وأخرجه من الغار.

وعندما خرج إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الغار، رأى كوكب الزهرة، أو «المشترى» ثم «القمر» ومن بعده «الشمس» وقال وهو يشير إلى كل واحد منها «هذا ربى» أبى أليس هذا ربى؟ وعندما غابت كل الكواكب المذكورة واحد تلو الآخر، وأفلت كلها، افهم والده أنه على الدين الباطل وقال مقولته البليغة التالية «ياقومى أنا لست على دينكم، إنكم تشركون بالله وأنا أتوجه إلى خالق السموات والأرض ـ سبحانه وتعالى ـ وأنا لست من المشركين». ولم يستطع «آزر» أن

يحس وأن يفهم صحة ما ذهب إليه ابنه فيما يعتقده، وأخذه إلى قصر النمرود وقدمه للنمرود وهو شخص كريه المنظر قائلا: ها هو ذا النمرود ربنا كلنا.

وقال بعض المؤرخين إن آزر تأثر من تمسك ابنه إبراهيم برأيه وإصراره عليه وهو ضد دينه فبكى. ولما أدركت (أدنى بنت نمرة) أن النمرود الشقى عندما يرى إصرار ابنه على رأيه سيقتله بدون شك. راحت تبكى هى الأخرى. فقال سيدنا إبراهيم وهو يسرى عنهما لا تحزنا من أجلى ولا تقلقا فالحافظ الحق الذى تكفل بحفظى وحمايتى فى صغرى، يحمينى ويحفظنى أيضا فى كبرى.

ورغم أنه أراد أن يطمئن أباه وأمه بأنه لا يوجد احتمال تمكن النمرود من إصابته بضرر ما فى أى وقت من الأوقات، إلا أن آزر فكر فى أن أعداءه سيزيدون من كراهية النمرود للطفل، وعدائه عن طريق الوشاية، ولذا عزم أن يبلغ النمرود الخبر بنفسه وأمر ابنه إبراهيم. فذهب إليه وقال: أيها الملك إن الطفل الذى كنت تخشى من ولادته هو ابنى إبراهيم، لقد ولد فيما مضى خارج بيتى ولم أعلم بالأمر إلا اليوم. والآن وقد علمت أقدمه لك وافعل به ما تود أن تفعله، حتى لا تلومنى أو ترجمنى بعد ذلك.

وأخذ ابنه ـ بناء على الأمر الصادر من النمرود ـ إلى قصره ولما كان النمرود قبيح الوجه أشد القبح، ويستخدم في حاشيته كثيرا من الشباب ذوى الشكل الملائكى فى الجمال فتعجب سيدنا إبراهيم من هذا الوضع الغريب وبدأ فى السخرية والاستهزاء بالنمرود تحقيرا له وقال: «ياله من خالق عجيب! فقد خلق نفسه غاية فى القبح وسوء المنظر وخلق هؤلاء الفتيان غاية فى الجمال».

وتبعا لبحث وتحقيق مؤلف «بدايع الزهور» فبرغم غضب النمرود على سيدنا إبراهيم بسبب كلماته تلك فإنه صمت فترة لحكمة يجهلها بنو البشر، وأمر بحبسه إلى الصباح وأن يمثل أمامه فى المجلس الذى سيعقد بعد يوم وفى اليوم التالى أتو بإبراهيم إلى المجلس المنعقد فى حضور النمرود وعندما رآه فى هذه المرة غضب لأنه لم يستطع أن يقنعه بترك دينه.

ورغم أنه أظهر علامات الحدة والغضب وبالغ فيهما إلا أن حسن جمال إبراهيم ولطف مقاله أوجد فى القلوب ـ سواء قلب النمرود أو غيره من الموجودين فى المجلس ـ محبة عميقة خالصة فأظهر لسيدنا إبراهيم الود وقال لأبيه يا آزر ابنك هذا صغير السن ولا يعرف ما يقول ومن العيب أن يظهر حاكم عظيم القدر مثلى، معاملة غير لائقة لصبى صغير السن كهذا.

خذ ابنك إلى بيتك وأحسن معاملته وبين له قدرى وعظمتى، وحذره من مغبة شدة غضبى وعظمة عقابى فأخذ آزر ابنه إلى بيته.

وكان آزر يسترزق من نحت الأصنام زاعما بالباطل كسب المال الحلال ولم ينس وصية النمرود فى تحذير ابنه وتهديده من غضبه. وأشرك إبراهيم ابنه فى عمله وكان يأخذ الأصنام التى يصنعها الأب ليلا إلى السوق نهارا ويبيعها وفق أوامر أبيه، وتحمل حضرة الخليل لفترة مهمة القيام بهذه الخدمة الكريهة وهى بيع الأصنام رعاية لحقوق الأبوة، وكان إذا خرج إلى الطريق لبيع الأصنام التى سلمت له يظهر أنواع التحقير والاستهانة والكراهية لهذه الأصنام وكان ينادى «من يشترى هذه الأصنام التى لا تضر ولا تفيد؟ وكان يربطها أحيانا ـ ويجرها فى الأسواق ممرغا وجوهها بالتراب كالجيفة القذرة. ويأخذها إلى حافة الماء ويقول اشربى الماء ويقلب رؤوسها إلى الأسفل.

وكان لابد أن تثير هذه الأعمال النماردة المتعصبين، إلا أنهم لم يقدروا أن يتعرضوا له بسوء، احتراما لآزر وخوفا منه لأنه كان يشغل منصب «حارس الأصنام» وهو بحكم منصبه هذا يتمتع بمكانة لدى موظفى حكومة النمرود وكان له رأى مسموع وحكم نافذ.

وكانوا يشترونها منه حيثما يرونه. ورغم أن هذا الأمر وصل إلى سمع «النمرود» إلا أنه كان قد نسى الرؤيا وتحذيرات الكهنة، لذا لم يهتم بما ظنه شائعات مغرضة إلى أن حل عيد النماردة المشهور.

وكلما كان يحل هذا العيد يقوم كل إنسان بإعداد كل ما يستطيع إعداده فى

بيته من أنواع الأطعمة اللذيذة، ويضعونها حول الأصنام التى فى المعابد ويذهبون إلى الصحراء، ولدى العودة مساء يسعون لعبادة أصنام المعبد ويأخذون بقايا الطعام المتروك فى المعبد.

ويقسمونه فيما بينهم. وكانوا يعتقدون أن أكل الأطعمة التى أخذوها من هناك ستجلب الخير والبركة لمنازلهم. وكان الفئران وسائر الحيوانات تلتف حول الأطعمة وتأكل أكثرها. وكان أفراد النماردة الذين يرون نقص الطعام يقولون إن آلهتنا قد رضيت عنا إذ أكلت من طعامنا ويظهرون السعادة والسرور والفخر لهذا.

وكان هذا المعبد فى ذلك العصر من أمتن المعابد وأجملها حيث توضع الأصنام فيها وقد غطيت جدرانه بالرخام الأبيض والأخضر. وكان فى داخل هذا المعبد ثلاثة وسبعون صنما مصنوعا من الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والحجر والأشجار وقد وضع كل واحد منها فى مكانه اللائق.

وكان كل صنم من الأصنام المذكورة موضوعا فوق كرسى من الذهب، كما وضع على رأس أكبرها ـ ويسمى «بهو» تاج مرصع بالجواهر الفاخرة، وكانت عيناه مصنوعة من الياقوت الأحمر(1). ورصت بقية الأصنام عن يمينه وشماله. «بدايع الزهور».

وعند حلول العيد المذكور، شغل صغار النماردة وكبارهم بإعداد وترتيب لوازم العيد، وذهب جمع غفير من الناس إلى حضرة الخليل وطلبوا منه مرافقتهم قائلين: «يا إبراهيم سنذهب غدا إلى ساحة العيد الواقعة فى صحراء كذا فإذا ذهبت معنا ورأيت ما أقيم من الزينات وآلهتنا بعد العودة ستؤمن بأننا على دين أفضل، ومنهج مرغوب ومستحسن ولكن الخليل تمتم قائلا سأحطمها وعزم فيما بينه وبين نفسه على عدم الذهاب إلى الصحراء مع هؤلاء الكفرة ونظر إلى السماء ـ مثل العارفين بعلم الفلك مسايرا لما يعتقده النماردة وقال: يبدو فى اتصال

(1) إن صنع عينيه من الياقوت كان يغرى الحمقى المشركين بتصديق الكهنة بسرعة.

الكواكب أن مرض الطاعون قد يلم بى واستأذن من والده آزر أن يسمح له بالبقاء فى المدينة وادعى المرض.

وتركه النماردة خوفا من أن يعديهم بالطاعون وذهبوا إلى الصحراء. وخلت المدينة من الناس.

وذهب إبراهيم وحيدا فريدا إلى معبد الآلهة التى كانوا يقدسونها ويعتزون بها ودخل فيه، وأخذ يسخر من الأصنام قائلا: ألا تأكلون هذا الطعام؟ ماذا أصابكم حتى لا تجيبوا؟ ثم أسقط الأصنام الاثنين والسبعين المرصعة والأوثان المزينة بطلاء الذهب من فوق كراسيها فصارت جزازا وعلق الفأس فى رقبة أكبر صنم منها وهو «بهو» وبعد أن فعل هذا رجع إلى بيته[1].

وكانت حكمة سيدنا إبراهيم من تعليق الفأس فى رقبة «بهو» أن يقول للنماردة «سلوا الأصنام التى تعبدونها وقد صارت ألف قطعة ليقولوا من الذى فعلها، وجعلهم على هذه الحال» فهو يريد أن يعرفهم بأن الأصنام لا يمكنها أن تتكلم حتى يشعر النماردة المتعصبون بالحقارة ويستحيوا من أنفسهم.

ورجع النماردة الضالون من ساحة العيد وذهبوا إلى معبد آلهتهم كعادتهم. وعندما رأوا الأصنام المطلية بالذهب التى يعبدونها ويقدسونها منذ سنوات طوال ـ وقد تحطمت جزازا بكوا بحزن وحرقة وتألموا، وارتموا على الأرض من شدة الخوف وتأوهوا، وأخذ كل واحد منهم يبدى رأيه فيما حدث. وقال أحدهم: «لقد سمعت ابن آزر يهدد بتحطيمها فمن المحتمل أن ينفذ ما عقد عليه العزم ليحقر ديننا، واتفقوا كلهم على هذا الرأى وقالوا «إن إبراهيم بن آزر حطم آلهتنا وسحبوا المشار إليه إلى النمرود لاستجوابه وبدءوا فى تحقيق الأمر بسؤاله أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ وبعبارة بليغة أجاب سيدنا إبراهيم» بالنظر إلى الفأس المعلق فى رقبة «بهو» لابد وأن يكون هذا التصرف الحقير قد بدر منه، فاسألوه

(١) عندما دخل حضرة الخليل إلى ذلك المعبد وحطم الأصنام إلى الف قطعة كان فى السابعة عشرة من عمره ـ بدايع الزهور.

عما حدث إذا كان فى استطاعته أن ينطق، وهو بهذا قد ألمح وصرح بأنه لا يليق بهم أن يعبدوا هذه الحجارة العاجزة عن إخبارهم بالضرر الذى أصابهم ولجأ النمرود وآزر إلى التهديد الذى لا يليق بالإنسانية لكى يسكتوا ذلك الرسول سعيد الطالع وتجرءوا على تعذيبه، لإجباره على الكلام واشتدوا عليه فى القول وأغلظوا عليه حتى يعترف بما فعل. وأصروا فى حوار غير لائق لاستنطاقه.

ولما رأى النماردة إصرار النبى الجليل على ترديد الفقرات التى تشمل على حقائق ثابتة «أتعبدون ما صنعت أيديكم، فى حين أنها وأنتم من خلق الحق سبحانه وتعالى».

عندئذ أدركوا أنهم لن يستطيعوا إجبار سيدنا إبراهيم على السكوت، وبعد مناقشات مطولة ظهر عجزهم فى اتخاذ القرار اللازم، واضطروا لحبسه وسجنه مدة ثلاث عشرة سنة وفى النهاية قرر النمرود ـ وفى قول آخر عمل برأى رجل قبيح المظهر من أكبر بلاد فارس اسمه «هيوم» ـ وعزم على إحراقه فى النار. وبنى مبنى ذا جدران عالية أمام الجبل الواقع مقابل قرية «كوثى[(١)]» من ملحقات الكوفة أو البصرة ونقل إليه حطبا يكفى حرقه لأربعين يوما وعلى رواية لثلاثمائة وست وستين يومًا[(٢)].

وكذلك أشياء أخرى قابلة للحرق وملئوا بها المبنى المذكور وسكبوا عليها الزيت وأضرموا النار فيها من الجهات الأربعة.

استطراد

نظرا لوجود حى فى مدينة «أورفة» معروف باسم «كوثى» وبه مزار على اعتبار أنه المكان الذى ولد به سيدنا إبراهيم وبناء على هذا يتحتم أن يكون موقد النار المعد لحرق سيدنا إبراهيم فى «أورفة» وقد عرف أن هناك صندوقًا أخضر على أنه مهد حضرة الخليل وهو داخل الغار الواقع أسفل قلعة «أورفة» وهم

(١) اسم هذه القرية حسب بحوث المؤرخ «سُدِّى» هو غوطة ـ بدايع الزهور.

(٢) هذه المدة حسب رواية سُدِّى هى ثلاثة أشهر كاملة. بدائع الزهور.

يطلقون اسم «كوثى» على الحى الواقع بمحاذاة هذا الغار وهو متصل به كما يوجد فى هذه المدينة خرابة يطلق عليها قصر النمرود.

ويوجد غير هذا فى أحد الأبراج أطلال قلعة «أورفة» أطلال عمودين من الحجر يبعد أحدهما عن الآخر مسافة خمسين ذراعا.

وهذان العمودان معروفان بين الأهالى على أنهما المنجنيق الذى أعد لسيدنا إبراهيم.

وحسبما سمع من أهل أورفة، فقد مد إلى هذه الأعمدة حبلان سميكان، مثل الحبال التى تمتد بين المآذن ثم علقت هذه الحبال بشجرة وتركت فجأة وهكذا ألقى سيدنا إبراهيم فى خرائب المنجنيق الذى سنبين شكله فيما بعد. انتهى.

كان طول المبنى الذى أعد موقدا لسيدنا إبراهيم ستين ذراعا (٨٥ قدما) وعرضه أربعين ذراعا (٥٦ قدما و٨ بوصات) وكان ارتفاع الجدران ٨٥ أو ٤٢ قدما وعلى قول ٢٨ قدما وأربع بوصات.

بيت

أيها الواعظ ما فى جهنم من نار بها تفزعنا

إنهم يأتـون منها بالنـار ليـحرقوا كـلا منا

وحسب مضمون هذا البيت، فإن كل الدواب التى نقلت المحروقات إلى المحرقة كانت تتحرك ببطء ما عدا فصيلة البغال، فقد كانت تسير بسرعة، ومنذ ذلك الوقت حرم عليه التوالد والتناسل.

وكذلك الحيوان المسمى بالضب فقد أصبح قتله واجبا شرعا، لأنه ساعد النماردة الضالين فى إشعال حطب المحرقة المذكورة.

أضرمت النيران فى الحطب ـ الذي يملأ المحرقة ـ مدّة أربعين يوما متتالية، واشتدت حرارتها لدرجة أنها لفحت وجه السماء وكانت الطيور التى تحلق مرتفعة تتساقط إلى الأرض مثل قطرات المطر، حتى إن سكان المدن والقرى المجاورة أشرفوا على الهلاك من شدة دخان النيران المشتعلة.

وأعد بعض الأفراد سراديب تحت الأرض لحماية أنفسهم من شدة الحرارة، فقد كان لهيب النيران يمتد إلى الأماكن المتناهية فى البعد. «بدايع الزهور» عندما بلغت حرارة المحرقة منتهاها، جردوا سيدنا إبراهيم من ملابسه، وربطوا يديه وقدميه بسلسلة من الحديد بشكل محكم ـ ثم أجلسوه فى كفة المنجنيق الذى

صنعه النماردة بوحى شيطانى، وكان عمر سيدنا الخليل - آنذاك - قد تجاوز السابعة عشرة. وفى قول آخر التاسعة والعشرين.

وعندما أراد النماردة - المشركين - أن يجردوه من لباسه الذى يستخدمه كسروال داخلى لجسمه الشريف، ليكشفوا عورته للنيران شلت الأيدى التى امتدت للباسه الشريف. ولم تتحرك، وجاء النمرود وهو فى غمار هذه الحال التى تبعث الدهشة واستدعى حضرة الخليل - على نبينا وعليه التبجيل - وقال له: يا إبراهيم إننى سألقى بك فى هذه النار فلترى إلى أى إله ستتضرع وينجيك؟ فلما أجاب ربى الذى يحيى ويميت. واستدعى اثنين من المحكوم عليهما بالقتل، فعفا عن أحدهما وأطلقه، وقتل الآخر، كأنه يقول أنا أحيى وأميت مثل ربك.

وعندما ما تلقى سيدنا إبراهيم هذا الرد الذى يوحى بالبلاهة تعجب من حماقة النمرود وبمقتضى المثل عديم المثيل قال: إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب، فسكت النمرود ولم يستطع الرد، وبهت.

ولكن النمرود المغرور العاتى العنيد لم يتعظ من هذا الحوار وأمر بإلقاء إبراهيم فى النار المشتعلة الملتهبة.

وفى نفس اللحظة جاء ملكان وأمسكا بحضرة الخليل من جانبيه وأنزلاه وسط النار بمنتهى الهدوء والوقار. وجاء جبريل - عليه السلام - بخلعة من خزانة الجنة وألبسها له. وأعد - بأمر الخالق - بساطا مزركشا لا مثيل له وفرشه فى المكان الذى سيقيم فيه ونمت خمائل كثيرة فى الجهات الأربعة، عرضها وطولها عشرون ذراعا (٢٨ قدما و٤ بوصات).

وفى وسط هذه الخميلة التى تفوق الخيال، وعلى حافة المكان الذى جلس فيه سيدنا إبراهيم كان يجرى ماء فرات يبعث الحياة.

أبيات

شاء النمرود الدون للخليل إحراقـا

إلا أن تلك النار أصبحت نورا براقا

ولمـا بلغت النـار عابـد الـــــرحمن

أصبحت روضة تبدو سعيراً للعيان

وفى أثناء وضع سيدنا إبراهيم على كفة المنجنيق لإلقائه فى النار، أجهش ساكنو الملأ الأعلى بالبكاء وكذلك العالم الأسفل، ودعوا الله قائلين:

«يا مالك الملك على الإطلاق، إن أعداءك يلقون بحضرة الخليل فى النار، فبعد هذا لن يبقى على وجه الأرض من يعبدك، لأنه لا يعترف بوحدة وجودك - على الأرض - سوى سيدنا إبراهيم، فإذا أذنت فإننا ننصره» بلغ طنين النداء عنان قبة السماء والأفلاك واسودت طبقات أعتاب السماء وأضحت مثل لون الأرض ولكن الخطاب الإلهى دوى: (إبراهيم خليلى، وليس لى خليل سواه وأنا ربه وليس له رب سواى فإذا طلب منكم النصرة فساعدوه، فقد أذنت لكم. ولكننى متأكد بأنه لن يدعو سواى) وهكذا سعى الكل إلى عرض نصرته وعونه لسيدنا إبراهيم بصورة ما، فأجابهم سيدنا إبراهيم: «حسبى الله ونعم الوكيل».

فأصبحوا فى حزن وهم وقد سمعوا هذا الجواب من إبراهيم. وفى أثناء إلقاء الخليل فى النار كان يردد:

«لا إله إلا أنت، لك الحمد ولك الملك لا شريك لك»

فانصهرت السلاسل الحديدية التى كبلت جسمه النبوى المغمور بالنور وسقطت على الأرض، من شدة حرارة لهيب النار التى لم تستطع أن تؤثر فى جسمه الميمون - عليه التعظيم وفى وقت إلقائه فى النار - ظهر جبريل الأمين وخاطبه قائلا: يا إبراهيم، إذا كان لديك طلب منى فقله، فالوقت قد ضاق فأجابه قائلا: لقد وجهت وجهى إلى واهب الآمال الذى هو قبلة المحتاجين فى العالم ولا حاجة لدى أعرضها عليك فقال: إذا كان الأمر كذلك فاعرض ما فى ضميرك لكى تنال مرامك، فأجاب إبراهيم عليه السلام: إننى أعتبر الدعاء فى هذه الحالة سماجة، فعلم الله بحالى يغنى عن سؤالى.

بناء على هذا، فإن النار الموقدة منذ أربعين يوما أصبحت بأمر الله روضة أزهار يانعة، تنعش الروح، وتأسر القلب بمقتضى الخطاب الكريم الجليل.

(يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) (الأنبياء: ٦٩) وبالخطاب الإلهى تحول داخل المحرقة إلى عالم آخر، وانقلبت نار النمرود إلى هواء عليل، وفقدت النار قوة إحراقها وإن بقى لهيبها عاليا. وتفجر داخل هذه المحرقة التى تشبه جهنم ماء عذب بارد، ونبتت فى جهاتها الأربعة فصائل الأزهار المختلفة الألوان وتزينت بكل أنواع الرياحين. وخلق ملك، له شكل وصفات سيدنا إبراهيم - عليه التحية والتعظيم وأخذ يؤنسه بالتحدث معه.

(شمس التبريزى).

ذكـــرهــــا الخليـــل محبـــــورا

وأصـبحت نــــار الخليـــل كلهـــا

النســـرين حمـــراء كالـــــورد

لخـــــليل رب الــــوجـــــود

إذا جال التساؤل الآتى بالخاطر ما الحكمة من امتحان الله تعالى نبيه إبراهيم بإلقائه فى نار النمرود؟! مع أنه خليله؟ بينما لم يمتحن مخلوق قط، حتى زمن إبراهيم بإلقائه فى النار؟! يكون الجواب.

إن إبراهيم - عليه السلام - كان يخاف من نار جهنم خوفا شديدا، وأراد الله سبحانه وتعالي أن يبين أن النار لا تستطيع أن تضر أحدا إلا بإذنه، لذا ابتلاه بإلقائه فى النار.

(بدايع الزهور).

بعد هذه الواقعة بأربعين يوما، كانت النار التى انشغل النمرود بإيقادها مدة طويلة يراها من نافذة قصره المنيف وقد أصبحت روضة من بساط أخضر، وصحراء تبهج القلب وتسعد الفؤاد، مزينة بزهور النسرين الندية، وكان سيدنا إبراهيم يجلس على حافة المياه التى تجرى داخل روضة الأزهار النادرة، والحديقة

الغناء وهو يرتدى القميص الذى جلب له من خزانة الجنان، وقد غرق فى بحر المحبة والصحبة مع الملاك الذى يشبهه قلبا وقالبا واستولى على النمرود قلق وحيرة مما يرى، وقال مخاطبا إبراهيم لو أن المكان الذى أنت فيه كما يتراءى لعينى يدل على أن ربك إله عظيم ذو مقدرة خارقة وعظمة هائلة فأنا أومن به، وإن أمكنك التحرك من هذا المكان الذى تحيط به النار وتحرق ما حولك. فتعالى، وجاء الجواب نعم إن النار لا تستطيع أن تحرق قدمى، فناداه قائلا إذا كان الأمر كذلك فتعال إلى لأرى فخرج سيدنا إبراهيم من النار التى تشبه الجحيم وهو حافى القدمين وذهب إلى ناحية النمرود.

حكمة

قال مؤلف بدايع الزهور عندما كان نمرود يمعن النظر من قصره إلى حضرة الخليل، تطايرت شرارة من المحرقة، فأحرقت كل الملابس التى كان يرتديها النمرود المشئوم الطالع الملعون، لكنها لم تمس جسده بضرر وهذه إشارة لطيفة توضح أن النار لا يمكن أن تصيب أى إنسان بضرر، طالما لم يأذن الله القادر بالأذى.

وعندما رأى النمرود أن النار لم تصب حضرة الخليل بضرر أو أذى قال: يا إبراهيم كنت تتحدث مع شخص يشبهك، وأنت بداخل هذه الروضة، من كان هذا الشخص؟ ولماذا كان يطوف حولك؟ وتلقى جواب إبراهيم: هو ملك الظل أرسله إلىَّ حضرة القادر لأتحدث معه، عندئذ كف يده عن إيذائه وإرهابه وقال: يا إبراهيم لا يمكننى أن أقبل دينك وأترك كل هذه الرفاهية والأبهة والسلطنة ولكننى سأنحر القرابين تقربا لإلهك لأنال رضاءه وأذبح أربعة آلاف ثور ومثلها من الشياه.

إلا أنه زاد طغيانه فيما بعد وهبَّ لتحدى خالق الإنس والجن ومحاربته، فسلطت عليه بعوضة وهى أضعف مخلوقات الله فكان موته من قرصتها.

وفى تلك الأوقات كانت النار تحرق الحيوانات التى يذبحها الأفراد قربانا لله

دليل قبوله. وعندما رأى النمرود أن القرابين التى ذبحها لم تلق قبولا عند الله، لأن النار لم تمسها خجل من الذين يعبدونه ودخل داره ولم يسمح لأحد بالدخول إليه. أما تصرفه هذا كان سببا فى دخول كثيرين من أتباعه فى الإسلام وهكذا لاذ هؤلاء السعداء بقلعة الإسلام المتينة.

وكان للنمرود بنت تسمى «رغفت[1]» وكان نور الهدى والسعادة يتألق فى جبين هذه البنت. وقد استأذنت «رغفت» والدها فى الذهاب إلى حافة المحرقة لرؤية إلقاء حضرة الخليل فى النار. وأراد النمرود أن يمنع «رغفت» من الذهاب فادعى كذبا موت إبراهيم قائلا: «يا ابنتى لم يبق أثر حتى لرماد إبراهيم».

لكن «رغفت» ألحت فى الرجاء، وأخذت الإذن من والدها وذهبت إلى حافة المحرقة التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم حضرة الخليل وسط روضة عجيبة الأزهار، فقالت:

«يا إبراهيم، ما أحسن حالك النار لم تحرقك» فلما أجابها «إن النار لا يمكن أن تحرق أولئك الذين فى قلوبهم معرفة الله الكريم وفى لسانهم الكلمة المنجية» بسم الله الرحمن الرحيم فقالت «إذا أذنت لى أن أذهب إلى جوارك» ودخلت وسط النار وهى تردد الكلمات المنجيات بلسان الصدق والإخلاص على النحو الذى علمها حضرة إبراهيم «لا إله، إلا الله إبراهيم خليل الله.

ولما لم تحترق أقرت واعترفت بلا تردد بوجود الله موجد الوجود وسعدت بنيل الوصول إلى سعادة الإيمان السرية. وعندما ضاق والدها النمرود وتكدر من إيمان «رغفت» بإله إبراهيم، ولم تؤثر فيها النصائح التى ظل ينصحها بها كثيرا لكى ترتد فقيدها من يديها وقدميها، ولكنه لم ينجح فى صرف ابنته عن دين إبراهيم، لأن حضرة الخليل نقل «رغفت» إلى مكان آخر، صور الله سبحانه وتعالى القادر المطلق إحدى بنات النماردة ممن أمعن فى الكفر والشرك على هيئة «رغفت» فقتلها النمرود ظنًا منه بأنها «رغفت».

(١) يروى أيضًا أن اسمها رعفه.

وبعد هذا نقلت «رغفت» إلى المكان الذى هاجر إليه سيدنا إبراهيم، وتزوجت من مدين بن إبراهيم، وأصبح لها من مدين عشرون ابنا وحفيدا واكتسى أكثر هؤلاء خلع النبوة الفاخرة.

وعندما نجا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ضغوط النمرود، صدق بنبوته لوط بن هارون والآخرون من الوجهاء وسعدوا بنيل مرامهم، أما سارة بنت هارون فسبقت الجميع فى الاعتراف بنبوة إبراهيم وردت على تساؤل (أدنى) يا سارة ألا تخافين أن يقتلوك؟

أجابت: كيف أخشى وقد آمنت بإله ابنك خليل الله، ولابد أن يكون هدف (أدنى) من هذا السؤال هو اختبار مدى قوة إيمان سارة، لأن الحافظ السهيلى. نقل رواية تتصل بهذا الموضوع والتى تبين أن (أدنى) كانت من أهل الإيمان لكنها أخفت إيمانها وكتمته عن النماردة.

وقد اختلف المؤرخون السابقون فى تحديد شخصية هارون، فقال بعضهم إن هارون كان ملكا على مدينة حران.

وقد تزوج حضرة الخليل من ابنته سارة لما هاجر إلى حران، وقال بعض المؤرخين إن هارون كان أخا إبراهيم.

وقال الآخرون: إنه كان عمه الأكبر، وكان الزواج من ابنة الأخ جائزا شرعا فى تلك الأوقات.

وهناك من يدعى أن أخا إبراهيم وعمه يحملان اسما واحدا وهو هارون وأن ناحور جد سيدنا لقمان بن باعور أخو هارون ويفهم من هذه الرواية أن السيدة سارة كانت ابنة ناحور، والله أعلم بالصواب.

إخطار:

على رغم عدم وجود المعلومات الصحيحة حول ما إذا كان المنجنيق الذى علمهم صنعه إبليس ذو التلبيس لإلقاء سيدنا إبراهيم فى النار هو نفس الآلة التى بينا شكلها أم لا. ولكننا نستطيع أن نحكم أنها تشبه المنجنيق الذى اخترع فى زمن النمرود الشقى، خاصة أن هذه الآلة من الآلات الحربية القديمة المستعملة فى الحروب قبل اختراع الأسلحة النارية.

ونقول فى وصف شكل الآلة المذكورة، إنها عبارة عن قطعتين من الخشب قويتين ورصينتين، وربطت كل منهما بالأخرى فى شكل أفقى، ومدت بينهما أحبال وغرست فيها ـ فى نهاية الخشبتين والموضوعتين بشكل أفقى، بواسطة وتر طويل بقدر كاف مثل الملعقة، وقد ربطت بوتر أفقى ثالث من أطرافها العلوية.

أما طريقة استعمال هذه الآلة، فإن الوتر «م» ينتقل إلى الوضع الأفقى بواسطة البكرة «دد» مرميها وتوضع الأشياء التى ستلقى فى الوتر (م) المذكور ويتم إرخاء ذلك المسمار وتلك البكرة وهكذا تصطدم الخشبة (م) بالوتر ق وتلقى الأشياء إلى النقطة المطلوبة.

صورة هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر:

بعون الحق وعناية فيض الله المطلق نجا إبراهيم من نار النمرود، وتزوج بسارة ابنة أخيه وعلى قول ابنة عمه، وظل لفترة طويلة منتحيا جانبا، يعالج الآلاف من أهل معقل العصيان مرضى القلوب من خلال إرشاداته الشافية.

ولما أخبره ابن أخيه لوط أن النمرود يريد أن يزعجه[1] بالكيد والإساءة إلى

(1) كان سيدنا إبراهيم آنذاك على اختلاف الروايات فى الخامسة والسبعين من عمره.

الآخرين، اصطحب سارة وابن أخيه واتجهوا نحو مصر ليبتعدوا عن شرور النماردة المستحقين اللوم واللعنة. وقبل ذلك أقاموا قليلا فى حران، ثم فى بعلبك الشام ولم يمكثوا فى مصر ذات الأهرامات طويلاً، وغادروا راكبين إلى الشام ونزلوا فى وادى السبع وكان قد اصطحب معه أمه مع والده آزر، غير أن آزر انتقل إلى دار الآخرة فى مدينة حران وقد بلغ الخمس بعد المائة.

إضافة:

وادى السبع موضع فى «طريق الرقة» وقد قال «وائل بن قاسط» عن سبب تسميته «ما أدرى عن هذا شيئا إلا أنه وادى السباع» ووائل هذا رجل من مشاهير العرب دخل بالصدفة إلى خيمة أسماء ابنة ريم فى أثناء عبوره من المكان المذكور. وكانت أسماء فائقة الحسن ونظرا لوجودها بمفردها فى خيمتها عند مجئ «وائل بن قاسط» فطمع فى أن يقضى وطره منها فامتنعت وهى تدافع عن نفسها قائلة: «إذا لم تكف يدك عنى فإننى سأستدعى سباعى، ولم يكن وائل يرى أحدا سواها، وعندما قال لها يا ترى أين سباعك؟!

نادت أسماء بصوت عال: يا كليب يا ذئب، يادب، يا فهد، يا سرحوف، يا أسد، يا ضبع، يا نمر.

وهذه الأسماء كانت أسماء أبنائها فظهر كل واحد منهم من ناحية وهو شاهر سيفه فخاف وائل منهم وظل يقول «ما أدرى هذا إلا وادى السباع»، لذا أطلق اسم «وادى السباع» على الموضع المذكور.

وقلة من المؤرخين الذين بينوا سبب هجرة سيدنا إبراهيم: «فى اللحظة التى نجا فيها حضرة الخليل من نار النمرود صدق بنبوته لوط بن أخيه هارون وسيويل بن ناحور ابن أخيه الآخر وسارة ابنة هارون ابنة عمه وسارعوا بالاعتراف والإقرار بوجود واجد الوجود.

وتكاثر أتباع خليل الرحمن بإقبال الناس على الإيمان بوحدانية الله ـ سبحانه

وتعالى ـ أما صناديد النماردة فكانوا قلقين من تزايد عدد المسلمين وأخذوا يبحثون عن وسيلة للقضاء على حضرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وإبعاده من كل بابل وما حولها.

وأخذ النماردة يؤسسون الجمعيات فى كل مكان ويوسعون دائرة الشر ويعملون على تقوية أنفسهم حينئذ عثر النمرود على حضرة الخليل، وقال له:

«يا إبراهيم! أصبحت إقامتك هنا غير مأمونة الآن، وربما ستكون خطيرة، لذا يستحسن أن تهاجر إلى مكان أمين تقيم هناك فترة وتستريح.

ووافقت فكرة الهجرة فكر إبراهيم أيضا فترك مدينة بابل متجها إلى مصر، وعند دخول حضرة إبراهيم إلى الحدود المصرية علم أن شرفه وعرضه لن يسلم من اعتداء فرعون. وبناء عليه وضع السيدة «سارة» فى داخل صندوق فى أثناء دخوله إلى مصر ولكن الموظفين المنتشرين خارج المدينة وداخلها كسروا هذا الصندوق بالقوة، وأخرجوا السيدة سارة رضى الله عنها.

ولما أعجبوا بحسنها الأخاذ وجمالها أبلغوا فرعون بالأمر وتكفل به الجواسيس الذين كانوا معهم إذ أسرعوا إلى فرعون قائلين: قد جاء إلى مقر عرشك رجل وزوجته تمتاز بجمال فريد وحسن لم ير أو يسمع عن مثله حتى هذه اللحظة وسهلوا له استدعاء إبراهيم.

وبناء على هذا أحضروا إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته إلى فرعون.

إخطار:

كان فراعنة مصر فى ذلك الوقت يقيمون فى بلدة منف. وكانوا يأخذون الرسوم والضرائب من المسافرين الذاهبين والقادمين بواسطة حراس الطرق وفق نظم موضوعة.

رغم وجود أقوال كثيرة ومختلفة حول السن التى كان بلغها حضرة الخليل عند هجرته إلى مصر، فإن صاحب تاريخ العالم قد قبل الرواية التى تخبر أن سيدنا

إبراهيم كان فى السبعين من عمره، كما اتفق المؤرخون على أن فرعون مصر فى ذلك الوقت كان «سنان بن علوان» من أبناء سام بن نوح عليه السلام.

ومع هذا يدعى صاحب «بدائع الزهور» أن اسم فرعون الملك هو طوطيس «انتهى».

عندما رأى فرعون جمال سارة وحسنها ـ رضى الله عنها ـ سحر بهذا الجمال الذى وصف بأنه قطعة من نور السماء. تحركت رغبته الشهوانية، استدعى خليل الرحمن وسأله ما صلة سارة بك؟ وسرعان ما أدرك نيته تجاه أمنا سارة.

ولم يكن فى ذلك الوقت فى مصر من يعبد الله الحق، لذا خاف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من تعرض «سارة» لسوء فأجاب قائلا: «إن سارة أختى وبهذا كان يريد أن يلمح أن سارة أخته فى الدين ولم يكن هنا أحد يعرف حقيقة الأمور.

وإن كان فرعون اقتنع بأن سارة أخت إبراهيم من بطن واحد إلا أنه قرر فى قرارة نفسه ألا يمنعه هذا الأمر من ارتكاب ما صمم عليه، وأمر بأن يخرج إبراهيم من قصره. وتدخل «سارة» إليه فى خلوته، وبدأ رأسا تنفيذ ما فى نفسه قائلا: «وإن كان إبراهيم أخاك فأنا لست أخاك» ومد يده إليها وتوهم أنه سينال منها. وبما أن زوجات الأنبياء مصونات لا تمسهم أيادى الأجانب والأعداء فلما أراد أن ينفذ ما يريده وإذا بجدران القصر المشيد وأسقفه تهتز وإذا باليد التى مدت إليها تشل[1] رأى (سنان بن علوان) هذا الحادث الشريف المخيف المرعب فاستولى عليه الخوف والفزع وطلب من السيدة سارة أن تدعو الله لتعود يده إلى حالتها الأولى. وأخذت السيدة «سارة» تدعو إلى الله وتبتهل فترة دون أن تنظر لما ارتكبه فرعون مصر. وإذا باليد التى شلت وجمدت تعود إليها الحياة كما كانت من قبل.

(١) سنان بن علوان هو أخو ضحاك من ملوك القبط واسمه عند البعض «صاروق» وإن الشخص الدنئ الذى أراد أن يسيئ إلى سارة هو «حلاون» ملك الأردن.

وكان هذا الفرعون الذى إنكب على الظلم والإهانة وأصر عليها، قد تكررت محاولته ثلاث مرات وعلى رأى مؤلف ـ بدائع الزهور ـ سبع مرات، فاندهش فرعون وسألها ما هذه الحال؟ وكان جوابها إن الرجل الصالح إبراهيم زوجى. وفهم فرعون حقيقة الأمر.

فأخذ يستعطفها وقال لها معظما موقرا: «يا سارة إننى لن أحاول أن أتعدى عليك مرة أخرى وإننى تخليت عن شهواتى النفسية» لذا أطلب منك أن تدعو ربك مرة أخرى حتى تعود يدى لحالتها الأولى. وقامت سارة تدعو الله سبحانه وتعالى قائلة: «إذا كان فرعون صادقا فى قوله أعد يده إلى حالتها الأولى» وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعائها فرجعت يد فرعون لحالتها الأولى.

إتعظ (سنان بن علوان) من هذه الحادثة المليئة بالحكم، وأهداها جارية قبطية لا نظير لها وملكها لسارة ثم تركها تذهب إلى زوجها إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذى كان خارج القصر يعانى من القلق والاضطراب والحيرة كأنه غارق بين أمواج البحر المتلاطم.

إخطار:

بناء على بعض الروايات أن هاجر لم تكن جارية رقيقة بل كانت من بنات ملوك القبط. وقد أهداها فرعون لسارة قائلا: «ها أجر دعائك» وهذا يفيد سبب تسميتها «بهاجر».

أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فحينما أخذت سارة إلى خلوة فرعون أصيب الزوج حسب بشريته بالهم والغم واضطرب اضطرابا شديدا فلم يكن منه إلا أن يتوجه إلى عتبة قاضى الحاجات داعيا. وأراد الله سبحانه وتعالى أن يخلص إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أوهامه ووساوسه، فحول جدران قصر فرعون الكثيفة إلى زجاجة شفافة لطيفة كأنها مرآة تعكس ما فى داخلها وهكذا رفعت من أنظار إبراهيم ـ عليه السلام ـ ستائر الظلام والحجاب وهكذا قد اطلع على ما جرى بين (سنان بن علوان) وبين سارة زوجته. ولما جاءت المشار إليها.

أبيات

مـــرت فـى بحـر الحســـن هـاجـــر
والصـــدف يجـــدر بـالـــــــدر
وصـــلب الخـــليـــل الطـاهـــــــر
وهبهـــــا ذلـــك الجــوهـــــــــر
فظهـــر عـــلى الفـــور حملهـــــا
كـــانت درة، لا درة مثلهـــــــــــا
كابـــن مـــن جـوهـر ينفـق فـى أيـام
أمـــا هـــى فوديعـــة عـــلى الـــدوام

رغم أن المشهور هو أن ولادة سيدنا إسماعيل - باهر السعادة - كانت عام ٢٧٨٢ قبل الهجرة النبوية، وعلى قول إنه كان سنة ٢٧٦٣، فإن هناك من يدعى أن ولادته كانت عام ٢٥٢٨ أو ٢٩٠٢ قبل الهجرة النبوية، وكان سيدنا إبراهيم آنذاك فى السادسة والستين من عمره.

سبب سفر خليل الرب الجليل إلى واد غير ذى زرع ومكة وطريقة سفره

سكن إبراهيم - عليه السلام - فى قرية تسمى «فسط» تقع بين البلدة المسماة «رملة»[1] و«أيلة»[2] فى أرض فلسطين[3].

وأصبح واسع الثراء مما ساعده على استضافة المسافرين الغادين منهم والرائحين.

(١) أيلة تضم ولايتى القدس وغزة.
(٢) اسم بلدة فى الشام.
(٣) اسم آخر للقدس الشريف تعنى فى اللغة السريانية بيت الله.

وعندما اقترب وقت هلاك قوم لوط الخبثاء أخرج سيدنا لوط من بين الطائفة الخبيثة. ونزلت الملائكة ضيوفا على بيت خليل الله، وبعثت السعادة فى نفس السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بتبشيرها بولادة سيدنا إسحاق باهر السعادة.

ويروى أن هؤلاء الملائكة كانوا اثنى عشر ملكا، وفى رواية أخرى أن الملائكة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل ـ عليهم السلام.

لم يعرف سيدنا إبراهيم أن ضيوفه كانوا الملائكة وقام بنفسه بخدمتهم وتوفير ما يلزمهم وذلك تعظيما لشأنهم.

وأعد لطعامهم عجلا صغيرا سمينًا، ولما رأى أن الضيوف لا يمدون أياديهم إلى الطعام علاه الخوف والوهم وبدت عليه مظاهر الخشية والرهبة فخاطبه الملائكة قائلين: «لا تخف يا إبراهيم إننا مرسلون لقوم لوط» (إبراهيم: ٧٠)

حينئذ أدرك أنهم رسل مكلفون من عند الله، وصرح الملائكة بحقيقة الأمر وأفهموه أنهم نزلوا من السماء لكى يقهروا ويدمروا قوم لوط الذين زاد فجورهم وبغيهم، كما بشروه بأن السيدة «سارة» ستلد له غلاما سعيد الطالع اسمه إسحاق.

كان هذا الحوار قبل هجرة نبينا عليه أفضل التحية بـ ٢٧٩٢ سنة، وفى قول آخر ٢٧٧٣، وفى قول ثالث بـ ٢٥٣٨ سنة وفى رابع أنه كان قبل الهجرة بـ ٢٩١٢ سنة.

كانت السيدة «سارة» فى ذلك الوقت تقف بجوار زوجها المكرم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسمعت ما قاله الملائكة الكرام، ولكنها استبعدت أن يكون لها ولزوجها أولاد، فهى ترى نفسها عجوزاً كما أن زوجها شيخ كبير.

فقد كانت فى التسعين من عمرها، وكان سيدنا إبراهيم فى السادسة والتسعين من عمره، ولذلك تبسمت لبشرى الملائكة هذه، ومع ذلك فقد جاءها الحيض، وبعد انقضائه حملت ثم ولدت إسحاق ـ عليه السلام ـ بعد عشر سنوات من ولادة إسماعيل.

استطراد

في الليلة التى سيولد فيها سيدنا إسحاق رأى سيدنا إبراهيم فى الرؤيا، أن ألف كوكب مضئ يجتمع فى برج واحد، وقص ما رأى على جبريل الأمين ورجاه أن يفسر له دلالة هذه الرؤيا. فقال له جبريل الأمين فى تفسير رؤياه إنها تشير إلى أنه سيخرج من الصلب الطاهر لابنك إسحاق الذى سيولد من زوجتك سارة، ألف رسول سيكونون زينة الدنيا.

سر إبراهيم ـ عليه السلام ـ من التأويل وأخذ فى التضرع إلى الله قائلا: «اللهم اجعل لابنى إسماعيل أيضا نصيبا من هذه النعم الجليلة» وبمجرد ما انتهى من دعائه استمع إلى صوت هاتف يتردد بصداه يا إبراهيم، سيأتى من نسل إسماعيل الطاهر نبى عظيم القدر، كريم الخلق واجب التعظيم، وسيكون هذا النبى بداية رسالة المرسلات وخاتم باب النبوة، وهو مخلوق محمود، وسبب وجود الرسل والأنبياء واسمه الشريف (محمد المصطفى).

فبدت عليه علامات السعادة، وكان سببا فى ظهور تلك الساحة المزينة بالأنبياء وشكر الله معربا عن امتنانه وحمد الله على نهج الآية الكريمة: «الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء» (إبراهيم: ٣٨).

(قصص النيسابورى)

إن السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ قد أنعم الله عليها بابن تسعى السعادة فى ركابه، عالى القدر مثل إسحاق عليه السلام، وقد غلبت عليها فى نهاية عمرها نوازع غيرة النساء بصورة تجاوزت كل الحدود. وكانت تغار من السيدة هاجر أم إسماعيل ـ عليه السلام ـ ولما رأت أن سيدنا إبراهيم يحب امرأته هاجر وابنه إسماعيل حبا جما قررت «سارة» ألا تألو جهدا لتكدير زوجها باستخدام جميع الأساليب المؤذية.

لم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يتحمل أعباء الشيخوخة وظلم «سارة» وسخريتها فأراد أن يجأر بالشكوى من تصرفات «سارة» ولكنه قال فى نفسه «سارة ناقصة العقل وأنت من فحول العقلاء فعليك أن تتحمل سلوك غير المتزن كالرجال الشهماء» وعزم على السكوت. ومع ذلك حدث ذات يوم أن أعرب عن حبه لإسماعيل ابنه الأكبر فى وجود أخيه الأصغر إسحاق.

غار إسحاق من كلام أبيه بحكم صغر سنه، وغضب من والده وخاصمه فأثار هذا غضب أمه سارة، ولهذا أقسمت بالله أن تشوه جاريتها هاجر بقطع جزء من لحمها.

عندما سمعت هاجر قسم السيدة سارة ملأها خوف شديد فأسرعت بالخروج إلى الوادى وقررت الهرب إلى مكان تأمن فيه على نفسها ثم ربطت فى خصرها[1] وتركت ذيل ثيابها يجر على الأرض ليخفى آثار أقدامها.

وعندما هدأت غيرة النساء فى نفس السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ بعد فترة ندمت على ما بدر منها من قسم فى حق السيدة هاجر، ووجهت كل أفكارها واجتهادها لتجد سبيلا للوفاء بقسمها دون أن تؤذى هاجر.

فقال لها زوجها المكرم: «يا سارة» اقطعى جزءًا من اللحم الزائد من عضو هاجر المستور ليكون ختانا، وافتحى ثقبا فى الموضع الرقيق من أذنها، فإذا علقت به قرطا تكونى قد وفيت بقسمك. فختنت السيدة سارة السيدة هاجر وثقبت أذنها وعلقت بها قرطا وهكذا برت بقسمها.

إخطار:

كان هدف سارة ـ رضى الله عنها ـ من هذا القسم أن تنفر سيدنا إبراهيم من جاريته هاجر. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد أن يجعل ختان هاجر سنة يتبعها المسلمون فاختتن إبراهيم ـ عليه السلام ـ وزوجته «سارة» أما ما يتعلق بثقب أذن

(١) يروى أن ربط النساء وسطهم بزنار هى عادة اكتسبنها من هاجر.

هاجر فقد أصبح ـ بالنسبة لسائر النساء ـ وسيلة من الوسائل للتزين والتحلى باللآلئ والجواهر. وتثقب النساء ـ الآن ـ آذانهن، ويلبسن الأقراط، بل إن هذه العادة تعتبر من مكملات الزينة لدى النساء.

وبعد فترة جد نزاع ـ من نزاعات الصبية ـ بين الأخوين، جعل السيدة سارة فى ضيق وقلق دفعاها لإظهار ما فى قلبها صراحة وقالت لزوجها المكرم «إننى لن أستطيع بعد اليوم أن أعيش مع هاجر فى مكان واحد فخذها إلى مكان بعيد واتركها هناك».

وبناء على هذا أخذ حضرة الخليل زوجته هاجر وابنه إسماعيل إلى أرض الحجاز العطرة وتركهما هناك.

وفى اللحظة التى أعربت فيها السيدة سارة عما فى ضميرها، وأقسمت على عدم قدرتها على الحياة مع هاجر فى بيت واحد هبط براق من السماء كريح الصبا، وقال إنه مأمور من الله بحمل حضرة إبراهيم إلى مكة. فما كان من النبى إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن يركب البراق حاملا ابنه أمامه وزوجته خلفه، وطاروا صوب مكة المكرمة؛ وفق إرادة الله.

وفى أثناء الرحلة كان جبريل الأمين دليلهم، وكلما مروا بمكان فى أثناء الطريق سأله حضرة الخليل هل سنهبط هنا؟ يجيبه جبريل الأمين: «لا سنذهب إلى مكان أبعد» وقابلوا فى مكان قرب حدود مكة المعظمة طائفة من قوم العمالقة أحبت هذه الطائفة سيدنا إسماعيل ولاطفوه وأعطوا له عشرة من الغنم[1].

والمعروف بين المؤرخين أن سلالة الماعز الموجودة الآن فى مكة وما حولها هى بقية نسل الماعز الذى أهداه العمالقة ـ آنذاك إلى سيدنا إسماعيل.

وعندما وصلوا إلى جبل «كدا» المواجه لجبل «حجون»[2] قال جبريل الأمين:

---

(١) هذه طبقا لتحقيقات بعض المؤرخين أهداها الجراهمة إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ بعد السيدة هاجر.

(٢) حجون: على وزن حبور، وهو اسم جبل من الجبال الموجودة فى الناحية المسماة «المعلا من معلاة الكعبة»، أى من مدينة مكة.

«ستهبطون هنا فهذا المكان مقام عال. وهنا سيخرج من ذريتك رسول له شأن عظيم وبه تتم كلمة الإسلام».

ثم أنزل سيدنا الخليل فى المكان المقدس للبيت الشريف وكانت أرض مكة فى ذلك الوقت بيئة مليئة بأشجار البلوط وكانت خالية من الناس وتشبه الغابة ومحاطة بأشجار السنط المسماة «أم غيلان» من أشجار البوادى وكانت هادئة ساكنة.

وكان المكان المقدس للبيت الحرام مكانا مباركا مرتفعًا بعض الشىء مغطى بالرمال الحمراء.

نظم

وفـى النهايـة خليـــل اللـــــه
عمـــر هـــذا البنـاء وأعـــلاه
وبقـــدم هـاجـــر المهـاجـــرة
أصبـــحت بهـا الصـــحراء عامـــرة
وشاهـــدت عيـــون تســـعة أبنـــاء
أن حمـــل الفـــلك كبـــش الفـــداء
تبعـــه عـــين مـاء الحيـاة التـى ســالت
وجـرى المـاء وجرى قدم الحوض ليسلم
فتفـــجر مـــاء زمـــــزم

وبعد أن أعطى سيدنا إبراهيم للسيدة هاجر جرة ماء ومقدارا من التمر، وعلى قول، إنه أعطاها ملء كيل من الدقيق وبين لها المكان الذى فيه حجر إسماعيل الجوهرة الخضراء داخل المطاف السعيد الآن. أو مكان بئر زمزم(١) الشريف وقال «يا هاجر، أقيمى خيمة هناك، واسكنى فيها ـ فهذا ما جرى به أمر قضاء الله».

(١) ذلك المكان الشريف كان مكانا لا نظير له، يحتوى على أشجار غير مثمرة ذات ظلال وأفرع تحمى من حرارة الشمس.

فأجابته: «إذا كان هذا هو أمر الحق؟ فإن الله خير الحافظين سيحمينا ويحفظنا، فتلقى إبراهيم هذه الإجابة من زوجته ورجع ـ وكان سيدنا إسماعيل فى ذلك الوقت فى الثانية عشرة من عمره.

تنبيه:

لا يجوز لأى إنسان أن يترك أولاده وزوجته فى البرية والخلاء تقليدًا لسيدنا إبراهيم، فحضرة الخليل عمل بالوحى الإلهى وتوكل على الله وهو يعلن أن الله خير الحافظين سيتولى حفظهم.

وتوكل عامة الناس لا يمكن أن يشبه توكل الرسل الكرام أولى العزم، الذين ذكروا فى هذا البيت:

أولـــو العـــزم نـــوح والخليـــل بـــن آزر

ومـــوسى وعيســـى والحـــبيب محمـــــد

وتقليد هذا العمل غير مشروع، وجاء فى بعض الروايات أن السيدة هاجر عندما رأت نفسها وقد تركت وحيدة فى ذلك الوادى الغير ذى زرع تتبعت زوجها وقالت له: «هل تتركنا وتمضى عائدا؟ ولم تتلق منه إجابة بنعم أو لا فسارت وراءه حتى جبل» «كدا» وعندما وصل سيدنا إبراهيم إلى الجبل المذكور التفت وقال: يا هاجر، إننى أستودعك الله أمانة عنده؛ فقالت له: إذا كان قد أوحى إليك بهذا. فإن الله الواحد الأحد ـ الذى تركتنا فى كنفه ـ كافينا وكافلنا.. ثم عادت إلى جانب إسماعيل وصعد زوجها المكرم إلى قمة الجبل سالف الذكر.

فلما رأى أنه ترك زوجه وابنه فى مكان موحش خال من آثار العمران والزرع، تأثر من فرط الرحمة والشفقة ودعا الله قائلا:

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(إبراهيم: ٣٧) ثم رجع إلى الشام.

وفى قول آخر، إن السيدة «سارة» أصابتها الغيرة من إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقالت: يا إبراهيم، إذا كنت تريد لى راحة البال وهدوء الحال فاحمل هاجر وابنها إلى مكان قفر بلا ماء واتركهما هناك. ولما كان الوحى الجليل قد نزل آنذاك بأن يعمل تبعًا لرأى سارة فإن، حضرة الخليل ترك المشار إليهما مع جرة ماء فى واد غير ذى زرع بمكة، ودعا على النحو السابق.

ولما كان دعاؤه مقبولا مجابا؟ فقد ظهرت قبائل «جرهم» و «قطورا» وعمرت مكة المكرمة، وأصبحت آهلة.

كيف ظهر بئر زمزم الشريف:

عندما نفذ الماء من الجرة التى تركها الزوج المكرم ـ عليه السلام ـ فى ثلاثة أيام، ورأت السيدة هاجر أن ابنها إسماعيل أصبح على وشك الموت من العطش ولا حيلة له، وهى أيضا لا حيلة لها ولا قوة، فلبن ثدييها قد انقطع[1].

وبعد أن تأملت وبكت لفترة، وهى فزعة جزعة من وحدتها فى ذلك الوادى الموحش، تركت ابنها إسماعيل أسفل الخيمة التى أقامتها من قبل وصعدت فوق قمة جبل الصفا للبحث عن الماء. ومن فوق هذا الجبل نظرت تجاه ابنها، حيث لا أثر لماء، أو لإنسان يروح أو يغدو، ونزلت إلى بطن الوادى، وكان المكان المنخفض الذى تركت فيه ابنها يوارى ويحول دون رؤيته فألقت فوق كتفيها بالزائد من الملابس الموجودة وراء ظهرها، وصعدت بسرعة فوق ربوة جبل المروة، فرأت ابنها من هناك ثم نزلت إلى الوادى ومع ذلك لم تستطع أن ترى ابنها، فأسرعت بالصعود إلى أعلى قمة جبل الصفا وابتهجت عيناها برؤية ابنها الذى يبعث السعادة فى النفوس. استمرت على هذا المنوال سبع مرات[2] تذهب وتغدو من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا، بنحو لم يفعله مخلوق من بنى البشر وهى تقول «ليس من الممكن أن يوجد هنا ماء أو أن أقابل بشرا

(١) هذه الرواية تختلف عما يدعيه المؤرخون بأن سيدنا إسماعيل أثناء الهجرة، كان فى الثانية عشرة من عمره.

(٢) لم يكن هناك من سعى بين الصفا والمروة قبل السيدة هاجر. لذا فإنها أول الساعين.

ورجعت إلى إسماعيل وقد امتلأت يأسا وخيبة أمل. وهناك سمعت صوتا يشبه صدى صوت إنسان فأحست بالفرح، لكنها لم تستطع أن تحدد ناحية مصدر الصوت وتحيرت، فماذا تفعل؟! وقد كف الصوت المذكور وبدأت تتلفت حولها وهى حزينة.

بعد ما أفاقت بفترة قالت: «يا صاحب الصوت الندى الذى شغف سمعى. عندما سمعت صوتك الملائكى غرقت فى بحر الأمل، إذا كنت نصيراً إلى فعجل، لأننى وابنى قد استولى علينا الألم واليأس. فقد بلغنا درجة الموت عندئذ اضطر صاحب الصوت أن يظهر، وكان جبريل الأمين وأن يظهر ماء زمزم بضربة من جناحه.

وسرت السيدة هاجر بظهور الماء سروراً عظيما وبعد أن شربت[1] وارتوت أخذ ضرعاها اللذان جف لبنهما فى الإدرار، وأحاطت الماء بالرمال حتى لا يسيل الماء فى الوادى، وفى قول آخر إنها عندما حفظت بعض الماء للإدخار أظهرت نوعا من عدم التوكل، لذلك غاض الماء فى الحال فى باطن الأرض وكان هذا سببا فى توارى[2] الماء عن وجه الأرض بعد ما كان الماء جاريا.

لو لم تحاول هاجر ـ رضى الله عنها ـ أن تمنع الماء من الجريان بإحاطته بالرمال، لظل جاريا إلى يوم القيامة كما جاء فى الحديث الشريف. ظهر ماء زمزم على النحو المذكور وكانت السيدة هاجر فى أمان وسعادة ولما رأى ذلك جبريل الأمين خاطب هاجر قائلا: «يا هاجر لا يحزن قلبك من هذا المكان الساكن هما وغما ولا يجول بخاطرك أن هذا الماء ينضب، فقد انفجر هذا الماء الذى يهب الحياة لحرمة ماء وجه إسماعيل الذى يزين حضنك، وإن ابنك هذا سيتشرف بشرف النبوة وسوف يبنى مع زوجك إبراهيم هذه الساحة المباركة التى تزيل الهم

(١) يروى أن السيدة هاجر سقت ابنها قبل أن تشرب.

(٢) لم يكن حول بئر زمزم حتى زمن أبى جعفر المنصور خرزة من الحجارة والرخام ولم يوجد حول فوهته خرزة يحيط بها وفى زمن خلافة المشار إليه أقاموا خرزة كما غطى ما حولها بالرخام.

والغم وهي بقعة مفخمة مشرفة، وبناء على هذا سيزيد عمران هذا الوادى من سنة إلى أخرى.

سيق أفراد من الأقوام والقبائل ليزوروا هذا المكان المقدس الذي سيعمره المشار إليهما.

وبما أن هذا المقال قد أزال الحزن من نفس هاجر وبشرها بأن هذا المكان سيكون فى دائرة المسجد الحرام الذى سيسبب الفرح والإبتهاج فى النفوس. فما كان منها إلا أن قامت وأدت فرائض العبودية والشكر لله ـ تعالى ـ وقررت أن تمضى حياتها فى هذا المكان المبارك المقدس.

وقد اختلف العلماء فى بيان كيفية تفجر ماء زمزم الشريف، فقال فريق إنها ظهرت من أثر ضربة جناح جبريل ـ عليه السلام ـ وذهبت جماعة إلى أنها ظهرت من أثر ضربة كعب سيدنا إسماعيل، ولكن القول الأرجح حسبما ذكرنا أن جبريل ضرب الأرض بجناحه فتفجرت المياه وأحاطتها هاجر ـ رضى الله عنها ـ بما حولها من رمال، ثم قام إبراهيم بعد ذلك بحفرها وتعميقها حتى أصبحت على شكل بئر وهذا ما قرره الجمهور.

كما اختلف المؤرخون فى تعريف سبب تسمية زمزم الشريف أيضا، ففى بعض الأقوال إنها سميت زمزم لكثرة تدفقها، وعند البعض أن تسميتها تعود إلى معنى «اجر بطيئًا بطيئًا» أى زم زم[1] وثبت هذا الاسم على البئر وعرف به.

وإننا سنبين فى موضوع كيفية انتقال الحكم من يد حكومة مكة إلى أيادى بنى خزاعة، أن هذا الماء ضاع وغاب فى زمن الجراهمة الذين كانوا عنوانا للضلال والطغيان، وبمرور الأيام نسى اسمه وجسمه ومكان وجوده.

وبالصدفة أقام أهل مكة صنمين لهما عند طرفى بئر زمزم الشريف الذي كان مجهول المكان.

(1) إذا عرفنا أن معنى زمزم باللغة اليونانية «قف» يجب علينا أن نحمل التسمية لهذا السبب.

فأقاموا نائلة فى طرف وإساف فى الجانب الآخر. وكانوا يذبحون القرابين بين هذين الصنمين فوق فوهة بئر زمزم الشريف وعندما آل حكم مكة ورئاسة قريش إلى عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وكان قد اقترب الزمن الذى ستجد فيه قلوب عطاش الجاهلية ماء حياة الهداية وستتحول أرض يثرب البطحاء القاحلة إلى جنات مأوى بفضل الماء الزلال الذى يفيض من نور النبوة.

وفى زمن عمرو بن حارث الجرهمى، كان زمزم قد اختفى عن العيون وظل خفيا مدة خمسمائة عام بعيدا عن العيون. وصدرت الإرادة الإلهية لحكمة ما بظهور زمزم الشريف، وكلف عبد المطلب ذات ليلة من الليالى فى رؤياه بأن يقوم بحفر زمزم مفتخرا.

ورغم أن عبد المطلب قد أمر بهذه المهمة، إلا أن مكان البئر المذكور كان غير معروف فى ذلك الوقت، لذا رأى أنه لن يستطيع بمفرده القيام بهذا العمل واضطر للاستعانة بقريش قديما ورؤساء قبائل قريش ووجه إليهم هذا السؤال «قد كلفت بحفر بئر زمزم وإظهارها فهل تعينونى فى هذا العمل؟».

فسألوه هل تعرف مكان بئر زمزم؟ فقال: لم ألهم بذلك أيضا يعنى لم أعرفه فقال الرؤساء: «يا عبد المطلب يجب أن تستخير هذه الليلة إذا كنت مأمورا بهذا العمل من قبل الرحمن فإنه سيخبرك بمكانه، وإذا كانت الرؤيا شيطانية فلن ترى مثل هذه الرؤيا مرة أخرى.

وقد أعجب عبد المطلب برأى الرؤساء وأسرع بكل إخلاص وتوكل يستخير فى تلك الليلة.

وبناء على هذه الاستخارة ظهر لعبد المطلب فى رؤياه فى تلك الليلة شخص تحدث بهذه العبارات المسجوعة: «احفر زمزم إن حفرتها لن تندم وهو تراث من أبيك الأعظم، لا تنزف أبدا ولا تندم فسقى الحجيج الأعظم ليس كبعض ما تقدم وهى بين الفرث والدم» ولما رجا عبد المطلب من الهاتف أن يبين له المكان القديم للبئر المذكورة، فأشار له قائلا «عند قرية النمل حيث ينقر الغراب» وكأنه أراد من

عبد المطلب أن يحفر فى مكان يعيش فيه النمل حيث يأتى غراب فى الصباح وينقر فوق بيت النمل وينكشه. ورغم هذا لم يستطع عبد المطلب أن يهتدى إلى المقصود من هذا الرمز والإشارة ثم وصاه بأن يبدأ فى الحفر مسترشدا بهذه الأقوال إذ قال له بعد ليلة «زمزم وما زمزم هزمه جبريل برجله وسقياء إسماعيل وأهله زمزم البركات روى الرماق الواردات شفاء سقم وخير طعام»، وفى الليلة التالية قال «احفر تكتم بين الفرث والدم وعند نقر الأعصم وفى قرية النمل مستقبل الأصنام الأحمر» تكتم اسم من أسماء زمزم المكرم بمعنى «مكتوم» كما سيبين فيما بعد.

الغراب الأعصم:

يطلق على غراب إحدى رجليه حمراء على قول ابن شيبه. وبناء على رأى حاكم يطلق على غراب أحمر الرجلين والمنقار، وبناء على قول صاحب الإحياء يطلق على غراب بطنه بيضاء، وبناء على تدقيق صاحب حياة الحيوان يطلق على غراب أبيض الجناحين أو أبيض الرجلين أو يطلق على غراب أبرش.

على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بناء على القول الموثوق الذى يروى عن على بن أبى طالب بن عبد المطلب عندما رأى الرؤيا السابقة الذكر، غشيته الرهبة والدهشة وتحير فيما يفعله، ولم يستطع أن يبدأ فى حفر البئر، وبعد فترة رأى عبد المطلب فى رؤياه أن شخصا يقول له «أحفر بئر طيبة. وبعد ليلة يقول له احفر بئر مضنونة وعمقها وفى ليلة أخرى بعد أن ذكر الفقرات السابقة المسجوعة عرفه بموقع البئر وبين بعض خواصها؟ ولكن عبد المطلب لم يستطع أن يفهم معنى هذه العبارات المبهمة وراح فى تفكير عميق. وفى ليلة من الليالى استغرق فى النوم ورأسه مشغول بهذه الأفكار فى حجر إسماعيل. وإذا به رأى فى منامه أن هذا الرجل المبارك يقول له: «هل تعرف معنى زمزم، زمزم بئر الماء الذى فجره جبريل عليه السلام بضربة من رجله وهو اسم ماء إسماعيل ـ عليه السلام ـ وأتباعه. وهو البركة ذاتها وإنه يروى العطاش الذين يردون للشرب ويشفى

المرضى، وهو أنفس أنواع الطعام، وبهذا الإيضاح وضح شأن بئر زمزم وخواص مائها».

عبد المطلب ـ عرف عبد المطلب بدلالة هذه الرؤيا معنى زمزم لدرجة ما؟ ولكنه لم يستطع أن يعرف موقعه بالضبط.

لذا توجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ متضرعا مبتهلا قائلا: «يا ربى العليم ومولاى الكريم، دلنى على موقع البئر الذى كلفت بحفره. وقد أصاب سهم دعاته هدفه ونال قبولا إذ رأى فى رؤياه من يقول له: يا عبد المطلب احفر بئر زمزم وإذا أردت أن تعرف مكانها فإنها بين صنمى «إساف» و «نائلة»، حيث يذبح فيه القرشيون قرابينهم وفوق بيت نمل. وغدا سيأتى غراب أبرش وينبش بمنقاره فضع علامة حيث ينبش ثم عجل بحفر وتعميق المكان الذى فيه بيت النمل فتنال مطلبك».

وهكذا وضحت الرؤيا الأمر، ولم يَبْقَ أدنى شك فى مكان زمزم، واستيقظ عبد المطلب من نومه واتجه صوب المسجد الحرام ورأى الغراب ينبش ما بين إساف ونائلة فى وقت السحر، وذهب هناك حيث وجد بيت النمل وبدأ مع ابنه الحفر فى هذا المكان ومعه أدوات الحفر مثل الفأس والمجرفة.

حينما رأى أفراد قبيلة قريش أن عبد المطلب يحفر المكان المذكور شاع الخبر سريعا فيما بينهم وهجموا على عبد المطلب قائلين:

«إننا لن نتركك تحفر المكان الذى نذبح فيه القرابين وخاصة المكان الذى يوجد فيه إساف ونائلة. وأرادوا أن يمنعوه من الحفر، وقد زادت جلبتهم وصياحهم حتى إنهم قد أطالوا الكلام والجدال وتحول الموقف إلى ما يشبه القتال فمات كثيرون».

لم يكن لعبد المطلب حينذاك أبناء غير الحارث وقد رأى أنه لن يستطيع أن يقاوم القرشيين مع ابنه، لذا ترك مقاومتهم واتجه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخلصا يائسا «يا إلهى، إذا ما نصرتنى على قريش وأبلغت عدد أولادى إلى عشرة فإننى أفدى واحدا منهم قربانا لك» وكان هذا نذر منه.

وبظهور بعض العلامات أدرك عبد المطلب أن دعاءه قد حاز القبول فتوكل على الله وقام بأداء ما كلف به، وغلب هو وابنه الوحيد كل قبائل قريش وكفت القبائل المعتدية يدها عنه ووقفوا فى موقف المشاهدة والتفرج.

وفى اليوم الثالث عندما ظهرت العلامات التى تشير إلى وجود بئر زمزم مثل[١] الأسلحة وتماثيل صغار الغزلان[٢] التى ألقاها الجراهمة فى بئر زمزم، عندما أجبروا على ترك مكة المكرمة والجلاء عنها، عندئذ قال عبد المطلب: «إن كل هذه الأشياء لدليل كاف للإثبات أن بئر زمزم فى هذا المكان» ومن فرط سروره أخذ يكبر بصوت مرتفع.

عندما سمع القرشيون تكبير عبد المطلب اجتمعوا كلهم حوله وأدركوا أنه نال مراده ورأوا الأشياء القيمة التى أخرجها من البئر فطمعوا فيها وظهرت عليهم بوادر النزاع والخصومة وقالوا «يا عبد المطلب إن لنا نصيبا فى الأشياء التى أخرجتها من داخل البئر».

لأن البئر بئر جدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهذا يوجب تقسيم ما وجدته بين أفراد قبائل قريش فقال لهم لاحق لكم فى هذه الدفينة لأنكم لم تساعدونى فى حفر البئر بل أردتم منعى من الحفر مما أدى إلى إراقة الدماء، ولكنهم اعترضوا عليه مهددين بتجدد النزاع وقالوا: «إذا رفضت إشراكنا فى المال كله فعلى الأقل نقسمه مناصفة بينك وبين القبائل، فإذا رفضت هذا الحل أيضا فإننا نقاتلك من جديد».

ولما رأى عبد المطلب أن المعارضة قد استفحلت وأنها قد تؤدى إلى قتل بعض الأشخاص، خاطب الذين استمروا فى الضغط عليه «عليكم أن تختاروا حكمًا نافذ الكلمة ليفصل بيننا فى هذا الأمر» وقد ارتضت قريش هذا الرأى الصائب وقرروا اللجوء إلى كاهنة قبيلة «بنى سعد بن هذيم» التى تسكن قريبا من بلاد

(١) عندما ألقى الجراهمة هذه الأشياء الثمينة فى بئر زمزم ألقوها ليخفوها عن أعدائهم ثم سدوها بالحجارة والتراب حتى يجبروا أعداءهم على ترك المكان تحت وطأة العطش.

(٢) صغار الغزلان هذه كانت مصنوعة من الذهب الخالص ومرصعة بأنواع الجواهر.

الشام العامرة لتحكم بينهم، وخرجوا جميعا للذهاب إلى حيث تقيم الكاهنة المشار إليها، ولما كانت منطقة الحجاز فى ذلك الوقت خالية من الطرق المنتظمة وليس بها قرى متقاربة أو عيون ماء أو آبار ممرات ضيقة لدفع الوحشة. ولاشك أن السير فى مثل هذه الطرق أمر مخيف، كما أن السير فى تلك الصحارى الخالية من المياه من الصعوبة بمكان، لذا حمل عبد المطلب ومن معه من صناديد قبيلة قريش ما يحتاجون إليه من أطعمة ومال يكفيهم إلى أن يصلوا إلى حدود الشام.

وعندما ابتعدوا عن مكة ووصلوا إلى واد موحش عديم الماء نفد الماد الذى كان مع عبد المطلب وفئته وأوشكوا على الهلاك، وبعد أن احترقت أكبادهم من العطش. وطلبوا بعض الماء من خصومهم حتى ينجو من هذه المصيبة العظيمة، ولكنهم رفضوا قائلين: «نحن الآن فى واد تنعدم فيه فرصة العثور على نقطة ماء فإذا ما أعطينا لكم الماء فإننا ستتعرض للعطش الذى تعرضتم له كما أن الماء الذى معنا قليل يكاد أن يكفينا وهذا عذر مقنع فى عدم إمدادكم. فزادت حيرة عبد المطلب وجماعته وقلقهم عندما تلقوا هذا الرد.

وعندما رأى عبد المطلب هذا الجحود والإساءة من معارضيه سأل من معه مستطلعا رأيهم «ما رأيكم فى هذا الأمر؟! فقالوا نحن طوع أمرك، ننفذ ما تراه. عندئذ قال: «رأيى أن يحفر كل واحد منكم قبرًا لنفسه فى انتظار الموت، ومن يموت أولا يدفنه الذى مازال على قيد الحياة، فإذا دفن كل من يموت يبقى فى النهاية جثمان شخص واحد بدون دفن والأفضل أن يبقى جثمان واحد فقط بدون دفن من أن تبقى أجسادنا جميعا فى العراء مكشوفة فليحفر كل واحد منكم قبرا طالما فيه القدرة على الحفر. وافق رفاقه على رأيه وحفر كل واحد منهم قبرا لنفسه وانتظر حلول أجله.

وبعد مدة قال عبد المطلب: «يا رفاقى ـ إن حفر قبر انتظارًا للموت شىء عجيب لم يحدث منذ عهد آدم ـ عليه السلام ـ ويدل على عجزنا وضعف هممنا، فإذا قمنا وسرنا ربما يكتب الله لنا النجاة بأن نصل إلى بلدة أو قرية ويبعث لنا ماء

الحياة برحمته، هيا انهضوا لتستمروا فى الطريق سنستعين بالله تعالى»، وبتأثير هذه الكلمات المشجعة التى كانت كالماء الزلال، انبعث فى أبدان أصدقائه الذين كادوا أن يهلكوا قوة كافية، وجهز كل واحد منهم دابته للسير.

أما رجال القبائل المعارضة كانوا يراقبون حركاتهم متيقظين مبتهجين وهم يرون المصيبة الشديدة التى تعرض لها عبد المطلب وأصحابه بسبب قلة الماء ويتحدثون فى استهزاء.

وعندما امتطى عبد المطلب جواده وأراد أن يستمر فى السير تفجر من تحت قدمى دابته التى تحركت للسير ماء عذب سائغ ولما رأى عبد المطلب وأنصاره هذه النعمة غير المنتظرة فرحوا فرحا شديدا بالماء وكبروا كلهم فى صوت واحد ونزلوا عن جيادهم وشربوا الماء مكبرين حتى ارتووا وملئوا جرارهم، وقربهم ودعوا معارضيهم الذين كانوا قالوا لهم، إننا نرفض أن نعطيكم شربة ماء وقالوا لهم، إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد سقانا وأحيانا بظهور هذا الماء وهو يكفى لنا ولكم اشربوا كما تشاءون واملئوا قربكم، ربما لا نتمكن من العثور على الماء فى المسافة الباقية من الطريق.

وتحير القرشيون مما ناله عبد المطلب من نعمة غير مرتقبة واستغربوا ثم تذكروا موقفهم منه وإساءتهم إليه بمنع الماء عنه فعلاهم الخجل واستحيوا وقالوا لعبد المطلب لقد فصل الله فى قضيتنا بظهور هذا الماء لم يعد لنا حق المعارضة فى ماء زمزم.

وما دام الله الوهاب الذى لا يمن عليه ـ جل شأنه ـ قد من عليك بإظهار هذا الماء وأنقذك من العطش فلا شك أنه قد أنعم عليك بزمزم المكرم والأشياء القيمة التى ظهرت فى بئر زمزم.

فكل هذه الأشياء حقك الحلال فتصرف فيها كما تشاء، ولم تعد هناك حاجة إلى حكم الكاهنة. ثم رجعوا جميعا بعد ما أقنعوا عبد المطلب بالعودة.

سعد عبد المطلب مما أظهره أفراد القبائل المختلفة من احترام وندموا على ما بدر منهم، لذا دعاهم كلهم بمجرد عودته إلى مكة المعظمة وخطب فيهم قائلا:

«إذا كان لاحق لكم فى الأشياء الثمينة التى أخرجت من بئر زمزم بسبب معارضتكم لى فإننى بما أتصف به من مروءة وشهامة أود أن يكون لكم نصيب منها فلتقسم هذه الأشياء إلى قسمين» وتسحب القرعة، وكل من تصيبه القرعة تكون هذه الأشياء من نصيبه.

وعقب قوله هذا، جعل صغار الغزلان حصة، وبقية الأشياء حصة أخرى وأجرى القرعة بين قريش والبيت الأعظم وبينه فخرجت الغزلان من نصيب الكعبة وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب ولحكمة ما خرج القرشيون صفر اليدين من هذه القرعة، وقد باع عبد المطلب نصيبه من هذه الأشياء وأنفق ثمنها على أعمال الكعبة، وفى قول آخر أنه صهر الغزلان وزين باب المعلا من الكعبة، وفى قول ثالث إنها ظلت كما هى وعلقها على باب الكعبة الشريفة».

وعندما خرج القرشيون من القرعة بلا نصيب فلم يسعهم إلا أن يتفرقوا وأن يقفوا موقف المتفرج، ولما فهموا أنه لم يعد لهم من الأمر شىء تغاضوا تماما عن منازعة عبد المطلب حول بئر زمزم.

ورأى عبد المطلب أن الأمور هدأت واستمر فى تعميق البئر على النحو الذى يريده، ونجح فى إظهار ماء زمزم العذب الذى قد اختفى منذ خمسمائة سنة وبما أن الناس والحجاج والأهالى يلقون مشقة إحضار الماء من الآبار البعيدة ويتكبدون فى سبيل ذلك مشقات بالغة زادت مكانته وقدره بين الناس. مما حمله على أن يرفع يديه بالشكر لله ـ سبحانه وتعالى ـ من فرط سعادته وفخره ونذر نذرا بقوله «يارب لو أنعمت على بعشرة من الأبناء الذكور وبلغوا جميعا مبلغ الرجال فى حياتى لأذبحن أحدهم قربانا وفداء لك وعندما بلغ عدد أبنائه عشرا، أوفى بنذره على النحو المذكور في الصورة الثانية من الوجهة الثانية.

ويدعى بعض المؤرخين أن نذر عبد المطلب كان عندما عارضته قريش فى حفر البئر، والبعض الآخر يقول إنه كان فى أثناء ظهور ماء زمزم.

ولكن ليس ببعيد أن يكون عبد المطلب قد نذر مرتين مرة حينما كان يدعو الله لينصره على قريش ومرة ثانية عندما ظهر ماء زمزم شكرا لله.

أسماء زمزم الشريف

ولزمزم ثلاثون اسما مشهورا عند العلماء وهى «زمزم» همزة، هزمة جبريل، ظبية، طيبة، برة، عصمة، مضنونة، شباعة العيال، عونة، سقيا الله إسماعيل، بركة سيدة نافعة، بشرى، صافية، معذبة، طاهرة، حرمية، مروية، سالمة، ميمونة، مباركة كافية، عافية، طعام طعم، مونسة، شفاء سقم، شراب الأبرار، تكتم».

سبب إطلاق هذه الأسماء على زمزم الشريف، أحصى الشيوخ الكرام فى مكة المشرفة ثلاثين اسما لماء زمزم المكرم وبينوا سبب إطلاق كل اسم منها على الوجه التالى:

١- **زمزم:** رغم أن المؤرخين من السلف يقولون إن إطلاق اسم زمزم لأنه يفيد معنى «اجر بطيئا» فهذه الرواية ليس لها قيمة كبيرة، وحسب أرجح الأقوال وأقواها للعلماء أن وفرة ماء البئر وتدفقه بقوة سبب تسميته بزمزم وعلى هذا التقدير فزمزم اسم للبئر وليس للماء الشريف.

٢- **همزة:** ومعناها الضرب، إيماء إلى أن جبريل الأمين قد ضرب الأرض بكعبه أو بجناحيه وعلى قول آخر بجناحه.

٣- **هزمة جبريل:** هزمة بمعنى تعميق، بما أن جبريل ـ عليه السلام ـ عمق البئر بجناحه وتسبب فى ظهور الماء وهذا هو وجه التسمية.

٤- **ظبية:** وسبب التسمية أن حفرة البئر تشبه الجراب.

٥- **طيبة:** وسبب التسمية ظاهر من المعنى.

٦- **برة:** سميت بهذا الاسم لأن تفجرها كان من أجل الأبرار.

٧- **عصمة:** وسبب التسمية أنها غابت واختفت عن الكفار الفجرة.

٨- **مضنونة:** وسبب التسمية لأن المنافقين لا يشربون منها حتى يرتووا.

٩- **شباعة العيال:** لأن أهل الجاهلية اعتادوا أن يشبعوا أولادهم بهذا الماء المبارك.

١٠- **عونة:** لأن الناس فى الجاهلية اتخذوا هذا الماء الصافى الشفاف وسيلة لإشباع أولادهم وأزواجهم، لأن الجوعى كانوا يشبعون بشرب ماء زمزم.

١١- **سقيا الله إسماعيل:** بما أنه لا يوجد ماء غير زمزم فى مكة المكرمة فقد تكرم الله - سبحانه وتعالى - بسقيا إسماعيل بهذا الماء المبارك وهذا هو سبب التسمية.

١٢- **بركة:** سبب التسمية ظاهر من اللفظ.

١٣- **سيدة:** وسبب التسمية أن ماء زمزم الشريفة، سيدة كل المياه ماعدا ماء الحياة الذى نبع من الأنامل النبوية الشريفة.

١٤- **نافعة:** سبب إطلاق هذا الاسم أنه ذو فائدة عظيمة للمؤمنين الموحدين.

١٥- **بشرى:** لأن الله - سبحانه وتعالى - بشر المؤمنين الذين يشربون ويرتوون من هذا الماء تكتسب بطونهم نورا وينجون من نار جهنم.

١٦- **صافية:** سبب هذه التسمية صفاء مائه وشفافيته.

١٧- **معذبة:** ويرجع هذا الاسم لعذوبتها وحلاوتها.

١٨- **طاهرة:** وسبب التسمية هو الإشارة القرآنية إلى هذا الماء الشريف حسبما جاء فى الآية الجليلة: ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ (الإنسان: ٢١).

١٩- **حرمية:** وذلك لوجوده داخل الحرم الشريف لكعبة الله.

٢٠- **مروية:** ووجه التسمية أنها تبعث فى كل أعضاء الجسم الصفاء كما تولد الإحساس بالشبع مثل الطعام.

٢١- **سالمة:** ووجه التسمية أنها لا تتعفن ولا تفسد.

٢٢- **ميمونة:** وسبب التسمية أن شربها سبب لليمن والبركة كما أنها اتباع للسنة السنية للرسول الكريم صاحب السعادة.

٢٣ـ **مباركة:** وسبب إطلاق هذه التسمية واضح من اللفظ.

٢٤ـ **كافية:** لأنه يقوم مقام الطعام.

٢٥ـ **عافية:** لأنه يكسب شاربه الصحة والعافية.

٢٦ـ **طعام طعم:** مفهوم من اللفظ.

٢٧ـ **شفاء سقم:** إنه شفاء من المرض كما سيرد فى الحديث الشريف الآتى فيما بعد.

٢٨ـ **مؤنسة:** أنه يؤنس سكان حرم كعبة الله.

٢٩ـ **شراب الأبرار:** ذلك لأن جميع الأنبياء وأولياء الله الكرام شربوا مرتوين من هذا الماء كما أن ماء زمزم اكتسب شرفا وقيمة حينما امتزج ماءه بريق النبى ﷺ.

٣٠ـ **تكتم:** سبب تسميته بهذا الاسم اختفاؤه وانقطاعه فى زمن «مضاض بن عمرو».

نظم

لـزمـزم ثـلاثـون اسـما فـاذكـر
منهـا خلـوص إيمانـك يظهـر
همـزة وهزمـة شـفاء سـقم ميمونـة
طاهـرة مـروية سـقيا وشـراب الأبـرار
سـيدة بـركـة ومضنونـة مبارك عصمة
عافيـة معذبـة طعـام طعـم أحـرار
مونسـة تكتـم وبـرة، حرميـة عونـه
ظبيـه، زمـزم وطيبـة، وبشـرى كبـار
صافيـة، كافيـة، وأيضـا نافعـة وسالمـة
وأيضـا شـباعة كمـا قـال عنها شيوخنا الأخيار

وقد جاء فى الخبر واتفق عليه جمهور العلماء أن زمزم الشريف أفضل ماء وأعذبه بعد الماء الزلال الذى نبع من أصابع النبى المباركة وهو معجزة من معجزاته عليه السلام.

تفضلت أم أيمن ـ رضى الله عنها ـ حاضنة النبى ـ ﷺ ـ وقالت طول مدة قيامى بحضانة وخدمة مستوجب المغفرة الدر اليتيم الرسول ـ ﷺ ـ لم أجده يشكو من الجوع والعطش فى أى وقت من الأوقات، وكان فى الصباح يأكل قليلا من الطعام ثم يشرب عليه من زمزم المبارك وبعد ذلك كلما أردت أن أطعمه كان يجيبنى قائلا إننى شبعان.

ويجب أن يقال فى أثناء شرب ماء زمزم: «اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء وسقم» يروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن نفع ماء زمزم يتوقف على نية شاربه «إذا شرب بنية الشفاء فالله سبحانه وتعالى، ينعم بالشفاء وإذا شرب بنية الاستعاذة فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يحفظ شاربه من كل سوء. وإذا شرب بنية إزالة الحرارة تنطفئ.

وهى تكون هكذا بالنسبة لمن يشربونها بصدق نية وسلامة طوية بدون أن يكون شربهم لتجربة مدى صحة الحديث الشريف. لأن الخصائص المذكورة لماء زمزم الشريف موجودة الآن وباقية وظاهرة إلى قيام الساعة، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفضح المجرمين الذين يشربونه بقصد التجربة وقد قال النبى ـ ﷺ ـ ذات مرة وهو يوضح الخواص الجليلة لذلك الماء المبارك إنها مباركة وذات مرة قال إنها طعام طعم وفى مرة إنها طعام طعم وشفاء سقم، وذات مرة: «إن ماء زمزم لما شرب له»، وذات مرة قال: «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق» وقال مرة: «لا يجتمع ماء زمزم المكرم ونار جهنم فى جوف عبد أبدا»، وفي مرة «خمس من العبادة، النظر فى المصحف، والنظر إلى الكعبة، والنظر إلى الوالدين، والنظر فى زمزم وهى تحط الخطايا، والنظر إلى وجه العالم ومرة: «خير بئر على وجه الأرض ماء زمزم». ومرة أخرى: «من جاء هذا البيت، حاجا

فطاف به ثم أتى مقام إبراهيم عليه السلام فصلى عنده ركعتين ثم أتى إلى زمزم، ثم شرب من مائها أخرجه الله من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

ذهب عبد الله بن المبارك ذات يوم إلى بئر زمزم الشريف، وطلب جرعات من ماء زمزم وأخذ كوبا منه وتوجه إلى كعبة الله وقال: «إلهى إن حبيبك محمد المصطفى عليه وعلى آله من التحيات أذكاها، قال إن ماء زمزم لما شرب له، وأنا أشرب هذا الماء بنية إزالة عطش يوم القيامة هذا اليوم الملئ بالهول وإطفاء نار حرارة هذا اليوم، وشرب كوب الماء.

بناء على تعريف صاحب كتاب «البحر العميق ومناسك ابن العجمى».

إن الذين يشربون ماء زمزم الشريف طلبا للمغفرة قائلين «اللهم إنه بلغنى أن رسولك ـ ﷺ ـ قال: «ماء زمزم لما شرب له» (حديث شريف) اللهم إنى أشربه لتغفر لى، اللهم اغفر لى فيغفر له ذنوبه، والذين يشربونه طلبا للشفاء من العلل والأمراض يجب أن يقولوا «اللهم إنى أشربه مستشفيا به اللهم فاشفنى».

قال محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق (رضى الله عنهم) بينما كنت يوما فى مجلس عبد الله بن عباس جاء رجل وقال له ابن عباس من أين أتيت فأجابه من بئر زمزم، فقال ابن عباس هل استطعت أن تشرب من الماء المبارك وفقا للطريقة المسنونة؟ فقال الرجل: «إنى شربت من ماء زمزم وسوف أشكركم إذا ما بينتم لى الطريقة المسنونة لشرب زمزم» ـ فقال له: «عندما تشرب ماء زمزم استقبل القبلة واذكر الله واشرب حتى ترتوى وتنفس ثلاث مرات فى أثناء الشرب وبعد الشرب احمد الله سبحانه وتعالى»، لأن الرسول ﷺ قد قال: الفرق بين المسلمين والمنافقين أن المنافقين لا يشربون ماء زمزم حتى يبلغ حلوقهم وبذلك بين الطريقة المثلى لشرب ماء زمزم.

وقد صدق الدارقطنى والحاكم قول ابن عباس وبيَّنَّا أنه يطابق تماما الأحاديث النبوية الشريفة وشرحا أن زمزم يشرب على ثلاث دفعات ويبدأ كل مرة بالبسملة وتنتهى بحمد الله. والمقصود بكلمة حتى تبلغ الحلق أنه لابد أن يملأ البطن بماء

زمزم حتى تصل إلى ما بين عظام الضلوع ومن الجائز نقل ماء زمزم الزلال إلى خارج الحرم أى يؤخذ إلى بلاد المسلمين للتبرك به. والتوضؤ بماء زمزم غير مكروه ويجوز الاغتسال به، لكن من يستنجون به يصابون بمرض البواسير.

وبما أن الرسول - ﷺ - منبع الحكمة قد نقل ماء زمزم الشريف إلى خارج الحرم، فمن السنة السنية الأحمدية نقل الحجيج ماء زمزم معهم عند العودة.

من عجائب زمزم المكرم من الأمور المجربة إذا شرب إنسان ما من ماء زمزم حتى بلغ حلقه وقد أخلص النية ثم قال «يا زمزم زمى» شفى من مرض الشراهة فى الأكل.

قال أحد الصالحين للإمام اليافعى عليه رحمة الله: كنت أجلس ذات يوم عند كعبة الله، وفجأة جاء رجل غطى وجهه بشال ودخل إلى مبنى بئر زمزم وملأ جرته ماء وشرب قدرا من الماء ورجع، وعندما جاء إلى جانبى طلبت منه الجرة المذكورة، وعندما شربت الماء المتبقى بداخلها أحسست بلذة عجيبة لم أتذوقها طوال عمرى فكان ماء زمزم بداخل الجرة كأنه شرابا حلوا ممزوجا بالعسل المصفى، وعندما أردت أن أنظر إلى وجه الرجل لأتبين من هو فإذا به يأخذ الجرة من يدى وانصرف.

وفى اليوم الثانى ذهبت إلى المسجد الحرام من الفجر وجلست بجانب بئر زمزم عسى أن أراه مرة أخرى وبعد مرور وقت قصير ظهر الرجل بوجهه المغطى وتقدم إلى داخل مبنى بئر زمزم وملأ دلو ماء من زمزم وشرب منه وشربت ما تبقى فى الدلو وكأن ما شربته لم يكن ماء زمزم المكرم إنما كان حليبا ممزوجا بالسكر.

وينقل أن رسولنا سيد الكائنات عليه ألطف التحيات، شرف بئر زمزم ذات يوم وسحب السقاة دلو ماء، وقدموه له فشرب الرسول - ﷺ - القليل منه ومزج الباقى بريقه المبارك وسكب السقاة ذلك الماء الممزوج داخل بئر زمزم للتبرك، فقال الرسول - ﷺ - إن ماء زمزم يشفى المرض ويدفع الجوع عن الذى يشربه بنية الطعام.

وعن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه البارى ـ أنه فى الأيام التى لا يجد طعاما صالحا للأكل يشرب ماء زمزم الشريف ويكسب طاقة وهكذا كان يدفع الجوع والحرارة. إن خواص زمزم الموضحة أعلاه يصدقها الأطباء أيضا.

وحسبما قال المجربون. إنه يقوى المعدة ويسهل هضم الطعام وإذا شرب والمعدة خاوية، فإنه يطهر الأمعاء. ويهدئ سخونة الجسم بناء على هذا يجب الارتواء منه والمعدة خاوية والتبرك به.

وقد ثبت بالحديث الصحيح أن ماء زمزم الشريف أفضل من الكوثر ويزيل من شاربه الحرص والطمع، ويسهل هضم الطعام، ويبرئ الأمراض المزمنة وغير المزمنة ويحث على الطاعة والعبادات، ويزيد نور البصيرة ويقوى الفهم والطاعة والعلم، ويزيل أمراض الجسم وغضب الله واجد الوجود، ويضفى على القلب رقة، والذين يشربونه اتباعًا للسنة السنية الأحمدية يرضون الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويغيظون الجن والشيطان الرجيم ويؤلمونهما ويبعثون فى إيمانهم القوة والنضارة.

وقد كتب الإمام السمهودى فى كتابه (خلاصة الوفاء)، وهو من مؤرخى المدينة المنورة المشهورين المتأخرين: يوجد مثل هذا الماء فى المدينة المنورة أيضا حتى أنه يطلق على بئره «بئر زمزم»، ويحمل ماؤه إلى البلاد الأخرى بقصد التبرك به.

* * *

هجرة قبائل الجراهمة وقطورا إلى مكة المكرمة

بعد مدة من ظهور زمزم الشريف لسقى هاجر - رضى الله عنها - كما سبق توضيحه، حدث أن مرت قبائل جرهم وهى من الأقوام اليمنية المرتحلين إلى الشام بالقرب من مكة المكرمة، وباتوا هناك حتى إن بعضهم صعدوا فوق جبل أبى قبيس ورأوا بعض الطيور.

وفى قول: إن شابين من طائفة العمالقة التى كانت تسكن فى وادى عرفات آنذاك فى خيمها، صعدا فوق الجبل المذكور للبحث عن إبلهم الضائعة، وبينما كانا يجولان رأيا بضعة طيور[1] بالوادى فتساءلا قائلين: «وجود الطيور تنبئ عن وجود ماء، يا ترى أين ذلك الماء؟ وتنقلا من جبل إلى جبل بحثا عن الماء، وإذا بهما يريان فى وسط الوادى تماما امرأة تحتضن طفلا، فاقتربا منها وأخذا يسألانها عن وقت ظهور ماء زمزم وكيف كان ظهوره بقولهما «يا أنت هل أنت من طائفة الجن»؟ أم من جميلات الجن التى تسكن هذا المكان الخالى؟ ومتى وكيف ظهر هذا الماء الجارى الذى أنت بجواره؟!.

فلما أجابت السيدة هاجر قائلة: هذا الطفل قرة عين إبراهيم خليل الله، قد أنعم الحق - سبحانه وتعالى - فأجرى هذا الماء الذى يمنح الحياة إكراما لماء وجهه. وقد أنبأنى بواسطة جبريل الأمين أن هذا الوادى سيصبح بعد فترة عامرا ومأهولا.

لما عرفا القصة رجواها أن تسمح لقبيلتهما بالإقامة فى هذا المكان، قالوا لها إذا أذنت لنا أن نحضر أهل قبيلتنا ليعيشوا بجوارك بعد أن يقيموا خيامهم فى هذا المكان الموحش ويشربوا من ماء الحياة هذا، ويزيلوا آلام هذا المكان وأكداره، لأن

(١) هذا الوادى هو المكان الذى أسست فيه كعبة الله.

هذا الماء ماؤك وملك يمينك فأذنت لهما، وما كان منهما إلا أن ذهبا إلى قومهما وعادوا جميعا[1].

وكانت هذه الطائفة من أبناء عمومة سيدنا إبراهيم وكان رئيسهم مضاض بن عمرو، وكان بصحبة القبيلة المذكورة عشيرة قطورا أيضا وكانت برئاسة سميدع بن هوشك أو سميدع بن العاص وكان كل أفراد هذه العشيرة من أقارب أفراد القبيلة التى تحت رئاسة مضاض بن عمرو.

وبعد مدة استدعى مضاض بن عمرو وسميدع بن العاص أقاربهما من اليمن وأقاموا جميعا بجوار زمزم الشريف، وبدأوا جميعا فى تأسيس مكة المكرمة، وزراعة ما حولها رعاية لسيدنا إسماعيل وهكذا تحول الوادى غير ذى الزرع إلى مدينة.

ورغم أن سيدنا الخليل قد ترك زوجته هاجر وابنه إسماعيل وانقطع عنهما فترة، إلا أنه كان يعلم أخبارهما من جبريل - عليه السلام - ويشكر لله لذلك.

وأخذ إبراهيم يتردد على مكة المكرمة بعد الاستئذان من سارة زوجته - كما سيذكر فيما بعد - ثم أمر بزيارتهما بالوحى الإلهى، وكان يزورهما أول كل شهر تنفيذا للوحي أو بناء على قول آخر كان يزورهما كلما خطرا على باله، ولما رأى تزايد الجماعات المهاجرة إلى تلك البقعة المقدسة من يوم لآخر، ملأته السعادة إذ رأى زوال وحشة العزلة فى هذا الوادى.

وكان يذهب لزيارتهما بعد تناول الإفطار مع السيدة سارة ويرجع قبل أن يحل وقت القيلولة.

زواج سيدنا إسماعيل وذهاب سيدنا إبراهيم إلى مكة لمقابلة ابنه

تربى سيدنا إسماعيل وسط أطفال الجراهمة وتعلم لغة العرب العذبة وقبيل انتقال[2] أمه الرحيمة السيدة هاجر - رضى الله عنها - إلى جنات النعيم تزوج من

(١) القبيلة المذكورة من الجراهمة أول من سكنت مكة المعظمة.

(٢) عندما توفيت السيدة هاجر كان ابنها إسماعيل فى الخامسة عشرة من عمره وفى قول آخر كان قد بلغ العشرين من عمره وكان عمرها آنذاك قد بلغ ستين سنة.

سيدة[1] بنت مضاض بن عمرو ولكنه تأثر بوفاة والدته هاجر أشد التأثر ولم يكن هناك شيء يسرى عنه، لذلك انغمس فى الخروج للصيد، وكان يتوهم أن الصيد سيدفع عنه الآلام والأحزان.

وذات يوم ذهب سيدنا إبراهيم إلى مكة المعظمة مستأذنا من زوجته السيدة سارة - رضى الله عنها - بنية العودة سريعا ليطمئن على ابنه دون أن يترجل من على ظهر حصانه.

ولما وصل إلى مكة المكرمة عرف أن السيدة هاجر قد انتقلت إلى دار البقاء، وأن سيدنا إسماعيل ذهب إلى صحراء بعيدة بعض الشئ من أجل الصيد، ولما كان جائعا طلب من زوجة ابنه «سيدة بنت مضاض بن عمرو» قليلا من الطعام فلما أجابته المذكورة قائلة: لا يوجد عندى طعام قال لها: عندما يعود زوجك أقرئيه منى السلام، وقولى له أن يغير عتبة بيته ومضى.

وعندما رجع إسماعيل - عليه السلام - من الصحراء قالت له زوجته «جاءنا اليوم شيخ صالح وقد ألح إلى مسألة غريبة بقوله: إنه يقرئك السلام وعليك أن تغير عتبة بيتك» بناء على هذا طلّق سيدنا إسماعيل زوجته سيدة، وتزوج من «رعلة بنت عمرو الجرهمى» وأنجب منها أولادًا كثيرين.

يطلق اسم العرب المستعربة على القبائل العربية المنحدرة من صلب سيدنا إسماعيل، واسم العرب العاربة أو العرب العرباء على القبائل التى ينتهى نسبها إلى قبائل قحطان وجرهم.

واستمر سيدنا الخليل بعد ذلك لفترة يستأذن من السيدة سارة. ويذهب إلى مكة كما كان يذهب من قبل ليطمئن على أحوال ابنه إسماعيل. وفى زيارة من زياراته لم يجد ابنه إسماعيل وسأل عنه زوجته. وكانت[2] رعلة بنت عمرو بحق الزوجة الوفية المخلصة اللائقة بإسماعيل، إذ أخبرت عن ذهاب زوجها إلى واد قفر من أجل الصيد.

(١) وفى قول آخر إنه تزوج عمارة بنت سعيد بن أسامة بن اكيلى من رؤساء العمالقة.

(٢) يروى علي قول أنها سيدة بنت مضاض بن عمرو.

وبعد ذلك أطعمت والد زوجها بطعام لذيذ مكون من اللحم واللبن السهل الهضم، وبذلك أظهرت له مظاهر التعظيم والإجلال والاحترام، وبعد الطعام قالت له وهى ترجوه «يبدو أنكم أشرفتم من مكان بعيد فإذا تفضلت بالوقوف على هذا الحجر لكى أغسل لك رأسك وأمشط شعرك تكن قد أنعمت على جاريتكم بسرور بالغ، وأشارت إلى الحجر الذى استخدم فيما بعد بمثابة الوصلة عند بناء بيت الله المقدس».

وكان الطعام الذى أتت به رعلة مكون من قطعة من اللحم المطبوخ ومقدارا كافيا من لبن وتمر، ونظرا لصعوبة توفير الخبز قالت وهى تقدم له هذا الطعام، لو كان هناك خبزا لقدمته فأرجوك أن تعذرنى، فرد عليها قائلا: فليبارك الله فيكم وفى طعامكم هذا واستجيب لهذا الدعاء من قبل الله فأثره باق إلى الآن فالتمر واللحم متوفران بكثرة فى مكة المعظمة.

نظم

إنهـــا امــرأة ذلــك الشــاب الأغــــر

أهــــل البيـــت بالنعمــــة غمـــــــر

بعينيهـــــا أنهـــا رجــــــلا تطهــــــر

فبوجهـــــين العـــــــــورة تســــــتر

وسر سيدنا إبراهيم من المعاملة الطيبة التى أظهرتها رعلة بنت عمرو نحوه.

وعندما وقف فوق الحجر الذى أشارت إليه قامت السيدة «رعلة» بغسل جانبه الأيمن، ثم الأيسر وبعد ذلك غسلت كل جسمه المبارك فقال لها حموها: «أقرئى زوجك السلام، وأبلغيه أنه ليس عليه أن يغير عتبة بيته ثم انصرف».

وبعد فترة قصيرة شرف سيدنا إسماعيل بيته، واشتم رائحة والده العزيز المباركة وسأل عمن جاء، فأجابته قائلة جاء شيخ كريم، ذو جمال باهر وذو رائحة عطرة، وأبديت له ما يستحقه مقامه الرفيع من آيات التكريم وأحضرت له

الموجود من الطعام، وبعد الطعام غسلت له جسمه المغمور بالنور فوق هذا الحجر، فسر وقال: «قولى لإسماعيل ألا يبدل عتبة بيته بعد الآن وأقرأك السلام، ثم قفل راجعا وترك أثرا فوق الحجر الذى وطأت قدماه الشريفتان توأم السعادة. فقال لها شارحا وموضحا ذلك الشيخ ذو السمات الجليلة هو أبى ويقصد بقوله: لا تغير عتبة بيتك. يأمرنى بأن أقضى بقية عمرى معك واتجه إلى الحجر الذى ترك فوقه أثر قدميه فقبله ووضعه فوق مكان مرتفع قليلا.

وقد أصبح ذلك الحجر المبارك التى غسلت فوقه رعلة والد زوجها فى ذلك اليوم هو الحجر المبارك الذى صعد فوقه إبراهيم عند بناء الكعبة المعظمة، وهو الآن فى مكة ومحفوظ داخل شبكة من حديد. وقد ذكر هذا الحجر فى القرآن الكريم باسم (مقام إبراهيم)، واشتهر بين الناس بهذا الاسم والحجاج الكرام يزورونه بكل لهفة وحماس. ومازالت آثار قدمى إبراهيم - ﷺ - ، فالحجاج يضعون ماء زمزم عليه ويشربونه تبركا والحجر المذكور والحجر الأسود. هما ياقوتتان سعيدتان من يواقيت خزانة الجنان وقد أزال الحق - سبحانه وتعالى - نورهما المشع، لأنهما لو ظلا محتفظين بنورهما الذى تفضل الله بإنزالهما به من الجنة لأضاء نورهما ما بين الشرق والغرب.

مسألة:

اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح الهامة

عندما أمر سيدنا إبراهيم بذبح فلذة كبده كان سيدنا إسماعيل حسب أحد الأقوال، قد بلغ الثالثة عشرة من عمره. وقد اختلف العلماء فى الذبيح هل هو إسحاق أم إسماعيل؟ كما أن الآيات القرآنية الخاصة بهذا الموضوع مشتبه فيها وأعلن بعضهم أن الذبيح هو إسحاق، وقال الآخرون إنه إسماعيل.

ورغم أن مؤرخى اليهود والنصارى يسوقون مجموعة من الأدلة، ويؤيدون العلماء الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق، فإن جماعة الصحابة الكرام والتابعين منهم عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عمر وكعب الأحبار

وسعيد بن جبير ومسروق وأبو الهذيل والزهرى وعبد الله بن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو الطفيل عامر بن واثلة ومقاتل وعبد الله بن مسعود وقتادة وعكرمة وعباس بن عبد المطلب «رضى الله عنهم أجمعين وكذلك كبار التابعين مثل: الإمام جعفر الصادق وسعيد بن المسيب و مجاهد والحسن البصرى والشعبى رحمهم الله، يذهبون إلى أن إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو ذبيح الله كما أن ابن كثير قد حكم بصحة الرأى القائل بأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

لأن أصحابه يستندون بالاتفاق إلى أقوال صحيحة فيما يعلنون أما بالنسبة لنا نقول: «إن كون إسماعيل ـ عليه السلام ـ المقصود بالذبيح قد بلغ إلى درجة اليقين بالأدلة العقلية، لأن سيدنا إبراهيم بلغ السادسة والثمانين من عمره ولم يكن قد أنجب ولدا بعد، لذا كان من الطبيعى حسب النزعة البشرية أن تكون ولادة سيدنا إسماعيل زينة الوجود موضع حب والده لهذا ابتلى إبراهيم فى أعز شيء عنده، ولأن السيدة سارة كانت عاقرا وانكسر فؤادها لمولد إسماعيل فخر العالمين وقد أدى هذا إلى صدور أمر الذبح الجليل والإشارات الإلهية حول ولادة سيدنا إسحاق ويعقوب زدلة قاطعة لكون الذبيح إسماعيل عليه السلام.

إذ أن سيدنا إسحاق لو كان قد ذبح، لكان يلزم ألا تتشرف الدنيا بسيدنا يعقوب، وبغض النظر عن هذا فإن الأمر المؤكد أن سيدنا إسحاق لم يقطن مكة والكعبة المعظمة وكان مقيما في الشام. كما أن قرون الكبش السماوى قد ظلت معلقة في ميزاب كعبة بيت الله حتى حادثة ابن الزبير المؤلمة وقد انتقلت مهمة حراستها إلى أولاد وأحفاد إسماعيل بطناً تلو بطن وكل هذه الأحداث أدلة كافية لإثبات أن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

وقال مولانا الصنهاجى نقلا عن الإمام الثعلبى: «بينما أنا فى مجلس سيدنا معاوية بن أبى سفيان ودار الحديث طويلا فى القيل والقال بين بعض الناس حول الاختلاف فى قصة الذبح، فخاطبهم سيدنا معاوية قائلا: «كنت ذات يوم فى حضرة المجلس النبوى الرفيع ـ عليه أفضل التحية ـ وجاء واحد من الأعراب

وصاح قائلا: «يا ابن الذبيحين «فتبسم الرسول الكريم - ﷺ - تصديقا على قول القائل ابن الذبيحين فتفضل ذاته العالية بالتصديق على قول الأعرابى المذكور تلميح وتصريح بأن سيدنا إسماعيل هو ذبيح الله.

لأن عبد الله بن عبد المطلب والد سيدنا رسول الله رفيع المقام كان أيضا ذبيحا مثل جده إسماعيل عليه السلام. وإذا كان سيدنا إسماعيل قد افتدى بكبش فإن عبد الله قد نجا بمائة ناقة.

وفى الحديث الشريف «أنا ابن الذبيحين» تأكيد على أن إسماعيل - عليه السلام - هو الذبيح حيث أنه مما لا شك فيه عند أحد قط فى أن المشار إليه هو جد النبى العظيم ومع أن علماء اليهود يعلمون يقينا أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل ورغما عن هذا ادعو أن سيدنا إسحاق هو ذبيح الله كما أن بعض مؤرخى النصارى أيدوا اليهود فى ادعاءاتهم ولكنهم لم يستطيعوا حتى أن يجدوا دليلاً واحدا على صحة أقوالهم.

والرواية التالية تدل دلالة واضحة على بطلان ادعاءات اليهود، الرواية تقول: أسلم واحد من علماء اليهود فى عهد عمر بن عبد العزيز. وسأله الخليفة الأموى مستفسرا «هل الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟» وبما أن سيدنا إسماعيل هو جد العرب فإنهم ينكرون أن يكون هو ذبيح الله ويدعون أن جدهم إسحاق - عليه السلام - هو الذبيح.

كيفية حدوث قصة الذبح الجليلة

نقل عن كعب الأحبار أن الله - سبحانه وتعالى - قد أمر حضرة الخليل - على نبينا وعليه التبجيل قبل بناء الكعبة المشرفة[١] بسبع أو ثلاث عشرة سنة، عن طريق الرؤيا، أن يذبح إسماعيل - عليه السلام - قربانا. وكان سيدنا إسماعيل فى ذلك الوقت فى الثالثة عشرة وحسب قول بدائع الزهور أنه كان فى العشرين[٢]

(١) القول الأول مرجح على القول الثانى.
(٢) القول الأول مرجح على الثانى.

من عمره وأن سيدنا إسحاق قد ولد بعد هذه الواقعة بسبع عشرة سنة، وحسب رواية بدائع الزهور، ولد بعد عشر[1] سنوات وأنه مات سنة سبع وثلاثين بعد المائة.

ولما أدرك سيدنا إبراهيم أن ما رآه ليس وساوس الشيطان صدع بالأمر، وقال لزوجته هاجر وقد عقد على إنفاذ حكم الله وقضائه ـ هيأ إسماعيل بغسل رأسه وتمشيط شعره وإلباسه ملابس جديدة بعد أن عطر كل أعضاء جسمه بعطور ذات رائحة طيبة ثم خاطب فلذة كبده بقوله: «يا بنى هات حبلا وسكينا حادا لنذهب معا لإحضار الحطب من ذلك الجبل وحسب قول بدائع الزهور «لنذبح شاة» وأحضر سيدنا إسماعيل الحبل والسكين اللذين أمر والده بإحضارهما وصحبه معه إلى المكان المسمى مذبح إسماعيل فى منى.

فى هذا الوقت ظهر إبليس ذو الوساوس متوهما أنه وقت غواية وإضلال إبراهيم عن طريق زوجته فذهب إلى هاجر وقال لها: «هل تعلمين أين أخذ إبراهيم إسماعيل؟ فلما ردت قائلة: نعم أخذه إلى الجبل لنقل الحطب، قال لها» لا أخذه للذبح».

فردت عليه قائلة: إن إسماعيل محبوب من والده، حتى إن والده ينفر من الذين يعادونه ويبغضهم حاشا أن يرتكب هذا الفعل غير المشروع.

فقال لها: «ربما يذبحه ظنا أنه أمر الله؟ ردت السيدة هاجر ـ رضى الله عنها ـ وقالت: «مادامت هذه هى إرادة الله الحكيمة فهو ملزم بتنفيذها إذن فليعمل على تنفيذ أمر الله «ولم تفتنها غواية الشيطان!.

نظم

ولما تخوف الشيطان فى الحال

التقى بأمه للإضلال

(١) الرواية الثانية أقوى من الرواية الأولى.

فقال لها لا تفعلى وإلا ندمت خذى حذرك
خليـــل الله يجعـــل القربـــان ولـــدك
فهجمت فى الحال بما وجدتـــه قريـــب
أما شمـس عقلهـا فأوشكت على المغيـب
اتجهـت بحينهـا والقلـب إلـى الـرب
قائلة الق إلى سمعا هذا أولـى وأنسـب
الحذر من أن تبعدى تلك الروح من يدك
لانطفـــى: ســراج الأنبيـــاء
لا ترضـى أن يذهـب معـه حيـث شـاء

عندما أدرك الشيطان أنه لن يستطيع أن يضل السيدة هاجر ذهب إلى إسماعيل.

وقال: يا إسماعيل لقد حملك أبوك إلى الجبل لكى يذبحك، فأجاب إسماعيل: إنى أطيع أمر الله وأوافق على رأى والدى العزيز وأخضع لما يقرره فانصرف الشيطان عنه.

وغشى اليأس الشيطان بسبب عجزه عن خداع إسماعيل - عليه السلام - فأسرع إلى حضرة الخليل وقال له متسائلا:

«أيها الشيخ مضئ القلب إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا تتصور أنك فاعل؟ فلما أجابه حضرة الخليل «لدى أمر هام وأنا ذاهب لإنجازه» فقال له: أتظن أن الشيطان يضلك عن طريق الرؤيا ويفسد عليك عقلك وإحساسك ويدفعك لقتل ابنك فإذا انخدعت بوساوسه وما يلقيه فى نفسك فإنك ستفقد ثمرة فؤادك الذي هو برعم بستان مناك !! ولا شك أنك ستتجرع كأس الندم وستضل عن طريق السلامة».

لكن الخليل فاجأه قائلا «أيها الملعون انصرف عني إننى أنفذ إرادة الله وأمره» فظل الشيطان ناشرا من خلفه.

وبعد أن صرف نبينا سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه التعظيم - الشيطان من عنده ووصل إلى جبل ثبير ووجه حديثه إلى فلذة كبده إسماعيل عليه السلام قائلا:

نظم

قال اعلم يا ولدى البـــر يا خيـر ولــــــد
إن الله يدعوك إلـــى جنـــــة الخلـــــد
بمال عمـرك يــــا ولــــدى لا تبخلــــن
وفى تردد طريـق الحــــق لا تسلكــــــن
اطرح عنك تراب جسمك وعجل بروحك
يخــف عنكـــا عليـــك مـن ثقـــلك
اجعل الجسد الترابى فى الأرض طريــح
وانعم وانفض التـراب عـن عـين الـــروح
لا تلـق الـــروح فـــى فـــزع وهلـــع
وحــــذار مـــن أن يكـون ثوبك أبقـــع
جــــد فى سبيــــل الحبيـــب بروحـك
لا لا تكـــــترث بعمـــــــــــــــرك

«أى» يا قرة عينى وجودى، رأيت فى منامى أننى مأمور بذبحك، لذا فإننى مضطر لإنقاذ إرادة الله ذى الكبرياء فانظر ماذا ترى؟! وبهذا الأسلوب يهيء ابنه زهرة عمره فى إنفاذ ما أمر به «فلما أجابه سيدنا إسماعيل بما جاء فى الآية الجليلة: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصافات: ١٠٢).

وقال: «يا والدى العظيم فاصدع بالأمر الذى كلفت به ستجدنى إن شاء الله صابرا وأحتمل ما جرى به حكم الله». وبعد هذا قال لوالده طائعا مختارا «اعلم أن بذل الروح أمر عسير، لذا شد وثاق يدى وقدمى حتى لا أضطرب فينتقص أجرى أو يحرك اضطرابى رقة قلبك فتتألم وألقنى على وجهى حتى لا تدعوك رؤية وجهى عند الذبح إلى عدم القدرة على تنفيذ أمر الله ذى الجلال فإن توافق خذ قميصى أيضا إلى أمى هاجر كى يكون لها سلوى وأقرئها منى السلام وقل لها أن تَتَّسِم بالصبر فى تحمل أمر الله وقد يساعدها هذا القميص الذى أرسله لها على ذلك «وبهذا القول أظهر طاعته لأمر الله بوضوح».

نظم

وقـــال إسماعيـــــــل للخليـــــــل الآن
يـا خـــير مــن خلـــــق الرحمــــــن
قيـــد اليـــــــد والقــــــدم منـــــى
علنـــــى لا أشعـــر وأنـــت تذبحـــــنى
علـــني لا أشـــعر وأنـــت تذبحــــــنى
فإذا مـا صعـدت مـنى الـروح إلـى السمـاء
لا يصبح جسدى بحـرا يتلاطـم فيـه المـاء
عـــــر جســـــــدى وسربالــــــــى
لئـــلا يكـــون حائــلا عـــــن وصالـــــى
جــرد جســـدى مــــن ثمـــر وورق
وضمهــــا كلهـــا فـــى غـض متسق
بردائـــــك استـــر منـــــى الجبـــــين
لا تنظر إلى وجهى أكره لك أن تكون حزين
وإذا مــــا أطرقتنـــــى كالعنقـــاء

فاجعل لهـا عشـــا فـــى الخفـــاء
عندما تشاهد في تصعد زفرتـك في ألـــم
وفي التو تنـــــدم كـــل النـــــدم
احذر يا من أنت ظـــل الرحمــــــن
أن تنـال النبـوة بـــأي ســـوء كـــان
أنت بكل رحمــــــة تغمرنـــــــي
لكـــن فـي تلك اللحظـة لا ترحمنــي
أتعـلم مـا سـوف تــؤول إليـــه الحـــال
وإذا ما لـم تطـع أمـر الله فـــي الحـــال

عندما سمع إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذا الجواب من ابنه قال:

«يا بنى ما أجمل استسلامك لإرادة الله. وأوثق رباط قدمى ابنه ويديه ثم ألقاه على وجهه، ثم أغلق عينيه ووضع السكين الحار على رقبته البلورية وسحبها بقوة؟ لكن جبريل الأمين بأمر ربه قلب حد السكين فلم يقطع رقبة إسماعيل البيضاء كالفضة.

وفي قول آخر إن سيدنا إبراهيم قيد سيدنا إسماعيل على النحو المذكور وعندما قلبه على وجهه، قال إسماعيل ـ عليه السلام ـ يا أبتى! حل رباط يدى وقدمى، حتى لا أكون قد استجبت لأمر الله مجبراً، فحل والده وثاق يديه ورجليه، وأوقفه على قدميه عندئذ نام إسماعيل على جنبه الأيمن وقال: يا والدى الآن ضع سكينك على رقبتى دون أن تشفق على حتى يرى الملائكة أن ابنك إسماعيل قد انقاد لأمر الله وأطاعه كما أطاع والده ويشهدوا بذلك.

وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة سيدنا إسماعيل ليذبحه وضغط عليه بشدة لكن السكين لم يقطع فغضب حضرة الخليل من السكين وضرب حده فى صخرة عظيمة فشطرها نصفين فتعجب إبراهيم وقال: «ترى ما الحكمة؟ وأخذ يفكر فى الأمر وبينما هو كذلك سمع هاتفا ذا خطاب مستطاب» يا إبراهيم قد

صدقت الرؤيا وقد أرسلنا لك كبشا ليكون بدلا وفداء لابنك، وظهر جبريل الأمين عند صفح جبل ثبير ومعه كبش عظيم وحمل سيدنا إبراهيم الكبش إلى مكان مسجد المنحر وبعد أن كبر هو أولا والكبش ثانيا ثم سيدنا إسماعيل أرقده على الأرض وذبحه قربانا لله!!.

نظم

أخذ الفزع كل مأخذ مـــن نبـــى الله
وسرعان ما ستــر وجهـــــه وأخفاه
وفى هيبة أخرج شفرة كالهـــــــــلال
ليذبح من هو البـــدر فى الجمـــــال
الشفرة على رقبة إسماعيل وضعهـــا
فما أثرت فيهـــــا وما قطعهـــــــــا
وشحذه عـلى الحجر فانشطر فى الحال
وأصبح جزءيـــــن من النّخالـــــــة
وأنزل من السماء كبشـــا جميــــــلا
فذبحـه بــدلا منــــــه فـى الحـــال

وفى رواية أخرى «بينما كان سيدنا إبراهيم مندهشا مما حدث كان ابنه المطيع على الدوام لكل أوامر الله سبحانه يقول يا أبى ما بك حتى إنك تتكاسل عن إنفاذ أمر الله سبحانه؟ فلما أجابه «إن السكين لا يقطع» قال له إذا كان الأمر كذلك فاضرب رأسى بمقبضه حتى تنفذ مهمتك بهذه الصورة»، وبهذا بين له ابنه الطريقة التى يتبعها فى إنجاز مهمته وبينما كان الأب الرحيم يهم بفداء ابنه بأن يضرب على رأسه بمقبض ذلك السكين الذى فى يده إذ جاءه الهاتف. «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا لقد أرسلنا لك كبشا ليكون فداء لابنك ـ دع إسماعيل وأمسك بهذا الكبش الذى تراه فى ذلك الجبل واذبحه بدل ابنك وفى لحظة سماع عبارة يا

إبراهيم قد صدقت الرؤيا سقط السكين الذى فى يد الخليل الجليل على الأرض من رهبة الصوت المذكور.

وكان سيدنا جبريل مُمْسكًا بالكبش سابق الذكر من أذنه، وأراه لسيدنا إبراهيم وبإشارة من الرسول الجليل كبر الكبش كما بينا سابقا، وقد نبه هذا التكبير إسماعيل عليه السلام فرفع رأسه من الأرض التى يرقد عليها، وقال بلسان عذب العبارة المنجية (الله أكبر ولله الحمد) وأمسك سيدنا إبراهيم الكبش الذى أراه إياه جبريل الأمين وذبحه. وفى رواية أخرى إذ رأى سيدنا الخليل مدى طاعة إسماعيل الذى هو ثمرة بستان عمره واستسلامه لأوامر الله سبحانه وتعالى غشيته الحيرة وقال وهو حزين «يا إلهى، لقد أنعمت على وأسعدتنى فى آخر عمرى بابن وبعد ذلك أحزنتنى بفراقه إذ أمرتنى بذبحه ولو أن هذه الرؤيا التى رأيتها مصونة من وساوس الشيطان ومقرونة برحمتك ورضائك الشريف سأبدأ فى تنفيذها، أما إذا كانت ضد إرادتك الإلهية فإننى أنصرف عنها وأستغفرك لك.

ثم وضع حد السكين الذى فى يده على عنق إسماعيل عليه السلام الذى يرقد على الأرض مقيد اليدين والقدمين وسحب السكين ثلاث مرات ولكن فى كل مرة كان حد السكين ينقلب وتنجو رقبة إسماعيل عليه السلام من الذبح وغضب نبينا إبراهيم عليه التحية والتكريم وضرب بالسكين صخرة كبيرة لا يقدر ثلاثون أو أربعون رجلا على تحريكها فانشطرت تلك[1] الصخرة السوداء الضخمة من شدة الضرب إلى نصفين وتدحرج أحد النصفين فى جانب والثانى إلى جانب آخر.

* * *

(١) هذه الصخرة موجودة أمام المزار المسمى مذبح إسماعيل ويظهر عليها أثر السكين حتى الآن.

بينما وضع سيدنا إبراهيم السكين على رقبة ابنه واجتهد أن يذبحه أظهر سيدنا إسماعيل لوالده نهاية الطاعة ومنتهى الاستسلام الذى يفوق كل ما أصف. وإذا بصوت مثير للشوق يقول «يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ولقد أرسلنا كبشا فداء لابنك فأمسك به واذبحه».

شمس التبريزى

إسماعيل قد جاء به
وجعله قربان كبش له

فاستدار إبراهيم عليه السلام على عقبيه بمجرد أن وصل الصوت إلى مسامعه ورأى عند سفح جبل ثبير كبشا فريدا متناسق التكوين ومن فرط سعادته ترك ابنه إسماعيل ملقى على الأرض مقيد اليدين وذهب للإمساك بالكبش الذى رآه ولكن الكبش المذكور انطلق ناحية مسجد الحنيفة متبعه وألقى فى ثلاثة أماكن سبع جمرات وأمسك به بالقرب من جمرة العقبة، وأخذه إلى مكان مسجد المنحر وذبحه.

والمواضع التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم بالحجارة على الكبش هى الأماكن التى يوجد بها الآن: الجمرة الأولى، والجمرة الثانية وجمرة العقبة.

وكان الشيطان اللعين قد ظهر لإبراهيم فى تلك الأماكن وحاول أن يصرفه عن تنفيذ الأمر الإلهى ولكن لما رأى نفسه لا يستطيع أن يحقق أمله انسحب إلى ناحية ما خائبا مدحورا. وإشارة إلى هذه الحادثة يرمى الحجاج الكرام الجمرات الثلاث.

قطعة

ما يرمى به إبليس من حجر
إما حصى وإما جمر
وفى المآل إذا قلبت الكلمتان

فالرجمة تكون جمرة

بينما كان سيدنا إبراهيم منهمكا فى ذبح الكبش عند مسجد المنح، حل جبريل الأمين وثاق يدى إسماعيل ـ عليه السلام ـ وقدميه وقال له «يا إسماعيل اطلب من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما تشاء فى هذا الموقف المبارك الذى يستجاب فيه كل الأدعية. وقف سيدنا إسماعيل بين يدى عتبة الرب الجليل وأخذ فى الدعاء قائلا: «يا إلهى أدعوك وأتوسل إليك أن تغفر للمؤمنين الذين أتو إلى الدنيا ثم ذهبوا إلى الآخرة حتى هذه اللحظة» وخلال دعائه جاء والده المكرم وقال: يا بنى أنت مؤيد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقد سمع فى الآفاق صوت الهاتف يقول يا خليل يا أصدق القائلين ويا إسماعيل يا أصبر الصابرين.

حكمة:

إذا قيل ما الحكمة فى إرسال «كبش» فداء لإسماعيل ـ عليه السلام ـ وعدم إرسال ثور أو جمل مثلا؟ نقول إنه أرسل كبش لكى لا يكذب والده إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنه إذا أرسل جمل أو أى حيوان آخر لما صدق سيدنا الخليل، لأنه عندما أخذ إسماعيل ـ عليه السلام ـ طلب منه أن يأتى بحبل وسكين، ولما سأله إسماعيل عن سبب ذلك قال له أبوه لأننا سنذبح شاة. لذا أنزل كبش دون سائر الحيوانات.

يقول عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إن الكبش الذي جاء به جبريل الأمين آنذاك كان القربان الذى تقبله الله من هابيل بن آدم ـ عليه السلام ـ ، وقد أخرج من فرعى الجنان قبل واقعة ذبح إسماعيل بأربعين سنة وامتنع عن الطعام والشراب أربعين سنة كاملة إلى أن أنزل إلى مراعى البسيطة.

وكان الكبش المذكور كبير القرنين أسود العينين ولونه يميل إلى السواد وظل القرنان معلقين فوق ميزاب الكعبة المعظمة، وعلى قول آخر فوق باب المعلا، إلى وقعة الحجاج الظالم واحترقا فى أثنائها.

وكان المكان الذى شوهد فيه جبريل الأمين مع الكبش فى مضيق منى. وسفح جبل «ثبير» حيث توجد صخور كثيرة. وقد بنى فوقه قبة من الحجر على أربعة قوائم ظنا أن الحجاج يزورون هذا المكان ويطلق على هذه القبة «قبة الكبش» من قبل سكان مكة.

* * *

استطراد

إن أسلافنا من المؤرخين تناولوا بالبحث الكيفية التى تم بها أمر إسماعيل بالذبح واختلفوا فى هذا الموضوع كثيرا ولكنهم بعد ذلك اتفقوا على كلمة واحدة، وقالوا: «إن بلوغ خليل الله إبراهيم الرابعة والثمانين من عمره دون أن يكون له ولد مما أحزنه وآلمه. ولذا توجه لربه قائلا: إذا أنعمت على بولد نجيب حليم ـ حتى لا ينقطع نسبى فلكنت أفديه طالباً رضاك وكان هذا نذرًا منه ومن فرط سعادته بولادة سيدنا إسماعيل ذا السعادة الباهرة غاب عن ذهنه أن يوفى النذر، وبعد ثلاث عشرة سنة من الواقعة اقتضى صدور الخطاب الإلهى تنفيذ إبراهيم نذره إذ قال الله سبحانه وتعالى: «يا إبراهيم كنت ستذبح إسماعيل قربانا فلماذا لا توفى بنذرك».

وتردد إبراهيم فى تصديق هذه الرؤيا وظل فى ذلك اليوم حتى المساء يفكر فى هذا الموضوع! لذا أطلقوا على اليوم المذكور يوم التروية».

وإن كان معنى التروية لغة التفكير إلا أنه قد اصطلح على أن يطلق هذا الاسم على اليوم الثامن وأخذ يفكر بعمق فى صباح تلك الليلة وكان اليوم التاسع من شهر ذى الحجة إسماعه الصوت الهاتف: «يا إبراهيم إن إبليس يبعدك عن طاعة الله، فقرر أن ينفذ أمر القضاء، وقد عرف أن الهاتف الإلهى يوحى له بإنفاذ الأمر، ولذا أطلق على هذا اليوم اسم «عرفة». واليوم الثالث وكان اليوم العاشر من ذى الحجة وأطلق عليه يوم النحر لأن إبراهيم عليه السلام بادر فيه بذبح فلذة كبده.

لاحقة:

الحكمة من أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يذبح ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ كما ينقلها على بن أبى طالب ـ رحمه الله ـ وقد قال العالم الواقف على سرائر نبينا ﷺ: إنه بينما كان خالق السموات والأرضين يرى سيدنا إبراهيم عليه السلام السموات والأرض ويوقفه على جمالهما وما فيهما رأى حضرة الخليل ـ عليه السلام ـ رجلاً يرتكب معصية، فلما دعا الله أن يهلكه هلك ذلك الرجل، وبعد قليل دعا على بضعة أشخاص من المذنبين فلما هلكوا صدر خطاب رب العزة له يا إبراهيم إن دعاءك مستجاب دائما فلا تدع على عبادى فإنهم مجبولون على ثلاث خصال: إما أن يتوبوا وإما أن يسبحوا وإما أن يفوضوا أمورهم، فإذا شئت غفرت لهم وإذا لم أشأ عاقبتهم، ويرى البعض أن سبب صدور الأمر لسيدنا إبراهيم أن يذبح إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو إظهاره القسوة على العباد وأنه لم يرحمهم.

وقال جماعة من المفسرين العظام عقب تفسير الآية الجليلة ﴿كَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأنعام: ٧٥) إنه ذات ليلة فى أثناء عروج إبراهيم عليه السلام إلى السماء رأى عبداً عاصيا يرتكب ذنبا فقال: يارب إن هذا العبد يأكل رزقك ويمشى ويتحرك فوق الأرض التى خلقتها، ومع هذا يخالف أوامرك فأهلكه!! ولما كان دعاؤه مستجابا فقد هلك ذلك الرجل ثم رأى بعد ذلك مذنبا آخر فلما دعا الله أن يهلكه، خاطبه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاتبا يا إبراهيم لا تدع على عبادى أمهلم وأمنحهم فرصة، فإنهم يا إبراهيم كثيرا ما يقترفون الذنوب. وفى تلك الليلة أمر فى رؤياه بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام.

ولكى ينفذ سيدنا الخليل الجليل «عليه التحية والتبجيل» ما رآه فى رؤياه ألقى ابنه على الأرض وهو مقيد اليدين فى سفح جبل ثبير على النحو الذى ذكرناه مفصلا فى موضعه، وعندما أمسك السكين بيده غلبت عليه رقته فقال: «يارب

إن هذا الابن الذى استعد لوضع السكين على عنقه هو ثمرة فؤادى وابنى الغالى. وإنه أحب الناس إلى»، وكان قصده من هذا أن يعرض على أرحم الراحمين ما بقلبه من رقة وشفقة، ولما انتهى من كلامه إذا به يسمع هاتفًا من الوحى يقول: «يا إبراهيم أنسيت الليلة التى دعوت فيها بهلاك عبادى؟! إذا كنت رحيما بابنك على هذا النحو وأنا أيضا رحيم وشفيق على عبادى ألا تعرف أننى أنا الرحيم؟! لقد أردت هلاك عبادى وأنا فى المقابل أريد ذبح ابنك.

تكليف حضرة الخليل ببناء الكعبة المعظمة:

كانت إقامة إسماعيل ـ عليه السلام ـ مع أمه السيدة هاجر فى الوادى المقدس غير ذى زرع مقدمة لتأسيس قواعد البيت المعظم، لذا تحمل إبراهيم ـ عليه السلام ـ كل ما سبق ذكره من الصدمات تحملها صابرا دون قنوط. قد أمر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بتأسيس كعبة الله. قبل ولادة إسحاق ـ عليه السلام ـ بثمانية أو (١٤) أو (١٨) أو (١٧) عاما[١] وبعد حادثة الذبح بسبعة أو (١٣)، أو (١٧) أو (١٦)[٢] عاما[٣].

وبما أنهم لا يعرفون حسب عجزهم البشرى مكان بيت الله فقال رب العزة «يا إبراهيم اتبع سكينة» وهى ستدلك على مكان الكعبة.

ذلك لأن الموضع المقدس لكعبة الله كان معروفاً للبشر حتى طوفان نوح الذى أغرق الدنيا غطَّى الطوفان بِبَحْرِ رماله مكان البيت فتركه مجهولا بدون أية علامة، ومع هذا فإن السيول التى تكونت من شدة هطول الأمطار كانت تتحاشى الأرض المباركة للبيت الشريف وتطوف من حول أركانها الأربعة. والذين رأوا هذه العلامة الميمونة عرفوا أن هذا المكان بالذات مكان مبارك مقدس واعتقدوا

(١) القول الثالث مرجح على القول الأول والثانى.

(٢) الرواية الثالثة مرجحة على الروايات الأخرى.

(٣) كان عمر إسماعيل فى ذاك الوقت ثلاثين أو عشرين عاما كما أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان قد دخل فى المائة من عمره المبارك.

فى ذلك. حتى إن المرضى والمظلومين والمهمومين كانوا يطوفون بهذا المكان ويرون أن أدعيتهم قد استجيبت.

عندما كلف سيدنا إبراهيم ببناء وتشييد كعبة الله بوحى من الله الكريم وتشرف بخطاب رب العزة أن اتبع السكينة ركب البراق الذى نزل من السماء وسار مستظلا بظل السكينة سالفة الذكر.

وكانت «السكينة» المذكورة ريح[1] عجيبة الآثار فى صورة حية ذات رأسين أسمها حجون. كما أن لها رأس وأيضا جناحان وقد ظهرت على شكل سحابة ذات أربعة أركان وكانت بحجم الكعبة المعظمة وأوصلت «السكينة» إبراهيم عليه السلام إلى مكة المكرمة ووقفت فوق أرض وساحة البيت الشريف وقالت بلسان حالها إن المكان الذى تظله هو الموضع الأنور لبيت الله المقدس.

وكانت السكينة المذكورة تبدو أحيانا على هيئة أسد أو على هيئة جمل، وكانت تجيب على أسئلة إبراهيم ـ عليه السلام . سارع حضرة الخليل بمعاونة ابنه إسماعيل تحت إرشاد السكينة التى بينت لهما حجم البيت ومكانه أسرعا فى حفر وتعميق أسس البيت المعظم.

وعندما عزم إبراهيم ـ عليه السلام ـ على الذهاب[2] إلى مكة المكرمة متتبعاً «السكينة رجته زوجته المحترمة السيدة سارة ـ رضى الله عنها ـ ألا يقابل السيدة هاجر ولا يكلمها، وعندما اهتدى إلى الموقع الأنور للبيت الأعظم الذى دلته عليه السكينة وعرفه، ذهب إلى دار ابنه السعيدة إسماعيل ـ عليه السلام ـ ودق الباب فردت زوجة ابنه قائلة ماذا تريد؟ سألها عن سيدنا إسماعيل وأمه الرحيمة هاجر، وعرف منها بخروج إسماعيل إلى الصحراء للصيد كما علم بوفاة[3] هاجر

(١) يقول الإمام الكلبى إن هذه الريح كانت سحابة على شكل رأس إنسان.
(٢) هذه هى المرة الثالثة التى يذهب فيها حضرة الخليل إلى مكة.
(٣) كانت السيدة هاجر عند وفاتها فى الستين من عمرها، وكان ابنها إسماعيل قد بلغ العشرين من العمر.

ودفنها فى المكان المسمى[1] حجر إسماعيل، رجع إلى الحرم الشريف، واغتسل بماء زمزم ثم انتحى وجلس ينتظر قدوم ابنه.

وعندما رجع إسماعيل ـ عليه السلام ـ من الصيد وجد والده فى انتظاره عند بئر زمزم فصافحه وقبَّل يده، ثم أحضر مقداراً من الحليب واللحم المطبوخ واستضافه. وبعد أن أكل سيدنا إبراهيم الطعام الذى أعده ابنه إسماعيل قال له: «يا بنى إن الله قد أمرنى برفع قواعد بيته ـ عز وجل ـ فوق تلك الربوة الحمراء، فساعدنى فى إنجاز هذا الأمر وأفهمه أنه مكلف بوضع أساس بناء كعبة الله، وشرع بسم الله فى تعميق الحفرة بعون إسماعيل عليه السلام.

وفى قول آخر إنه عندما خرج سيدنا الخليل من بيته السعيد كلف الله «السكينة» سالفة الذكر وطائراً سريع الطيران وملكا ليرشدوا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى موضع الكعبة المباركة، وعندما وصلوا إلى مكة المشرفة وقفت «السكينة» المذكورة فوق ساحة البيت المعظم وقالت لإبراهيم: «إن كعبة الله التى أمرت بتأسيسها وبنائها فى المكان الذى يحيط به ظلى». وهكذا رأى مكان بيت الله المقدس وعينه.

وكان مع حضرة إبراهيم سبع من الملائكة يعاونون فى ذلك الوقت. وكان الموضع الذى أرته إياه «السكينة» ذا أربعة أركان غير متساوى الأضلاع. وبعد مدة قد أطلقوا على أحد أركانه الركن الشرقى يعنى الحجر الأسود وعلى الركن الآخر الركن العراقى وعلى الركن الثالث الركن الشامى وعلى الركن الرابع الركن اليمانى.

إخطار:

إن الموضع الحقيقى لبيت الله كان ذا ثلاثة أركان وذلك إيماء إلى أن فى قلوب الأنبياء العظام ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ثلاث خواطر وهى «إلهية وملكية ونفسية» وأن قلوبهم لن تفتح لأية خاطرة أخرى غيرها ثم شاءت الإرادة الإلهية

(١) يوجد داخل الحطيم الكريم وتحت الميزاب الذهبى ويشار إلى مكانه بعلامة وهى حجر أخضر.

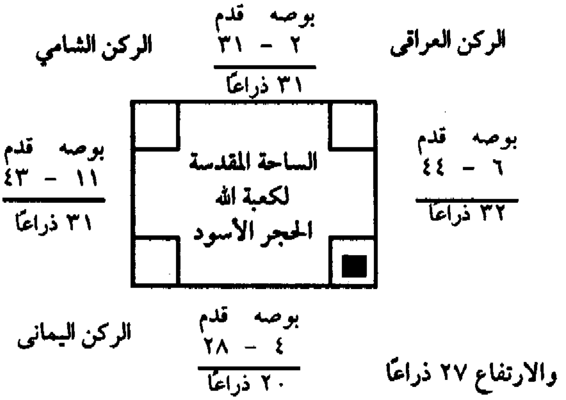
أن يشيد بناؤه أربعة أركان وكان هذا إشارة إلى إمكان وجود أربع خواطر فى قلوب المؤمنين.

(روح البيان).

والطرف الشرقى لكعبة الله فيما بين ركنى الحجر الأسود والعراقى يميل قليلا إلى الشمال وفى هذه الجهة من بيت الله مقام إبراهيم، بئر زمزم، باب بنى شيبة.

وجهة الشمال ما بين الركن العراقى والركن الشامى تميل بعض الشئ ناحية الغرب ويقع حجر إسماعيل والميزاب الذهبى والمقام الحنفى الكائن محل دار الندوة فى هذا الجانب من البيت الأعظم، والجانب الغربى ما بين الركن الشامى والركن اليمانى يميل قليلا ناحية الجنوب ويقع فى هذا الجانب من بيت الله عز وجل الباب المسدود الغربى، وباب العمرة باب الوداع، وباب إبراهيم.

وجهة الجنوب ما بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود، وهى مائلة بعض الشيء ناحية الشرق ويوجد فى هذه الجهة من الكعبة المعظمة باب الصفا وكل الأبواب الجنوبية وبناء على ما يتضح من الشكل التالى للساحة المطهرة للكعبة المعظمة نجد أن طول المسافة بين ركن الحجر الأسود إلى الركن العراقى ٣١ ذراعا ومن الركن الشامى إلى الركن اليمانى ٣٢ ذراعا والطول من الركن العراقى إلى الركن الشامى ٢٢ ذراعا ومن الركن اليمانى إلى ركن حجر الأسود ٢٠ ذراعا.



مساحة هذا الشكل قد قيست بالمقياس المسمى «ذراع اليد» والمقياس المذكور يساوى المسافة ما بين مرفق الرجل إلى طرف الإصبع الأوسط فى يده.

وبما أن كل الذين قاموا بقياس المسجد الحرام قد استخدم كل واحد منهم ذراعه الشخصى لذا لم يوافق مقياس أحدهم الآخر.

مثلا: إن صاحب تشويق الساجد وجد أن ارتفاع «الكعبة المعظمة» الأعلى ٢٧ ذراعا وستة أصابع بينما وجد الإمام النووى ارتفاعها ٢٧ ذراعا فقط كما ضع فى كتاب الإيضاح ووافق مؤلف تاريخ خميس على مقياس الإمام السابق، لأن ذراع اليد يختلف من شخص إلى آخر. ولا يعد مقياسا متفقًا عليه.

يقول مؤلف هذا الكتاب إننى قد اختبرت كثيرا من الأذرع وقمتها فوجدتها مساوية لسبع عشرة بوصة إنجليزية واعتبرت هذا هو المقياس المتوسط للذراع وحولت متوسط طول الأذرع إلى القدم الإنجليزى وقست به الأماكن المقدسة، وبما أن المقياس الذى يطلق عليه «ذراع اليد» لا يشبه الذراع الحديدى ولا الذراع العادى، يجد الإنسان صعوبة فى تعيين المقياس الصحيح ولكن القدم الإنجليزى يمكن تحويله بسهولة لأى نوع من أنواع الأذرع وبهذا التقدير يقتضى أن يكون الطول الشرقى للكعبة المعظمة الذي يظهر في الشكل المذكور أعلاه وهو ٤٤ قدما و ٦ بوصات والطول الغربى أيضا ٤٣ قدما ١١ بوصة وعرض الجانب الشمالى ٣١ قدما وبوصتان وعرض الجانب الجنوبى ٢٨ قدما و ٤ بوصات.

ابتدأ نبينا حضرة الخليل «عليه الصلاة والسلام» فى حفر المكان الذى بينته له السكينة بمقتضى الإرادة الإلهية الحكيمة، ونقل الأحجار من جبال لبنان، وطور سينا، طور زتيا، والجودى، وحراء(١) بمساعدة الملائكة وبعد أن انتزع صخورا ضخمة لا يستطيع ثلاثون أو أربعون رجلا أن يرفعوها من مكانها إلى أن وصلوا إلى الأساس القديم الذى وضعه سيدنا آدم أبو البشر. وأخذ فى بناء الجدران جاعلاً مبدأ الطواف المكان الذى وضع فيه الحجر الأسود الذى أتى به جبريل الأمين من جبل أبى قبيس ـ ومازال فى مكانه إلى الآن.

---

(١) قد وضع أبو البشر أساس البيت الحرام بالحجارة من نفس الجبال المذكورة.

وكان الحجر الأسود قد أودع أمانة فوق جبل أبى قبيس فى واقعة طوفان نوح.

وقد أخذه جبريل الأمين من الجبل المذكور وأحضره إلى سيدنا إبراهيم الذى رأى أن يجعله بتفكيره الصائب والرفيع علامة بداية الطواف فوضعه فى جدار الركن الشرقى للكعبة المعظمة.

ومازال إلى الآن فى المسجد الذي فوق قمة جبل أبى قبيس حجر أمام المحراب يزوره الناس على أنه كان الموضع الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى وقت طوفان نوح.

وفى قول آخر إن إسماعيل ـ عليه السلام ـ وجد حجرا رآه مناسبا ليكون علامة بداية الطواف بناء على رأى والده ومشورته ولكن الحجر لم يعجب سيدنا إبراهيم وذهب للبحث عن حجر آخر وفى هذه اللحظة نطق جبل أبو قبيس وقال: «يا إبراهيم لدى حجر محفوظ أمانة لك وأظنه الحجر الذى تبحث عنه ليكون بداية الطواف ولابد أنه الأمانة الكبرى المحفوظة عندى» وأخذ حضرة الخليل عليه صلاة الله الجليل، الحجر المذكور بنفسه ووضعه فى المكان الذى أعده.

قطعة:

الخليل الجليل الذى أرسله الحق
إن شمل الجماد برحمة فنطق
ولا ريب أن بيت الله
إذا تكلم حجر الركن بالكلام فاه
ونار الشوق أبو قبيس تحرق
أمام جمال الكعبة فذاك أليق

نظم

تقـوم الـدار بحجـر فـوق حجـر
وبـذاك اللـون أو بلـون آخـر
محل برعم تفتح فـى روضـة الخليل
أنـار بـه للخليـل الجليـل
ونـادى أبـو قبيـس فـى العـلاء
قائـلا سـمعت منـه ذاك النـداء
إن طوفـان هـذه الدنـيـا مسح
وهذا البيت للسماء تفتح
ذلك البيـت وجبريـل الـذى أنزلـه
إن لـدى حجـراً وديعـة أحملـه
وبيعـتى حـتى تسلموهـا
وفـى موضـع شـئتم ضعوهـا

(فتوح الحرمين).

ارتفعت جدران البناء المبارك للكعبة المعظمة، و وعندما رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه فى حاجة إلى استخدام إسقالة عثر على حجر واستخدمه في مكان الإسقالة وهذا الحجر الشريف هو الحجر القيم الذى غسلت فوقه رعلة بنت عمرو بن جرهم حماها إبراهيم عليه السلام.

ويعرف هذا الحجر المبارك في ساحة المسجد الحرام باسم مقام إبراهيم الآن وقد استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إسقالة عند بناء البيت وارتفعت جدران

البناء السعيد لبيت الله وكان المقام الشريف المذكور يرتفع مع ارتفاع البناء وعندما ينزل إبراهيم إلى الأرض كان يعود إلى هيئته الأصلية

وقد ذكر شكل وصورة الأبنية التى أقيمت فوق المقام الشريف المذكور فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

وعندما وصل ارتفاع جدران الأبنية الشريفة لبيت العزة إلى تسعة أذرع ترك حضرة الخليل سقفه مفتوحا وألحق جانب باب المعلا إلى أرض المطاف وصنع سقفا من الخشب متصلا بالبيت والمسمى بحظيرة أغنام إسماعيل. وحفر حفرة كبيرة العمق ثلاثة أذرع فى الأرض التى تقع جهة يمين الداخل فى بيت الله، لكى يوضع بها الهدايا التى ترسل من الأطراف والأكناف وبذلك أتم بناء كعبة الله المعظمة سنة ٣٥٧٤ ق.م.

والمكان المسمى حظيرة أغنام إسماعيل يطلق عليه الآن اسم «حجر إسماعيل» وهذا المكان الشريف هو مدفن السيدة هاجر.

ويروى المؤرخون الكرام أن البقعة السعيدة للكعبة المعظمة ظل بابها دون مصراع ولما مر بها الملك الحميرى قام بأداء الحج والزيارة ولما رأى باب الكعبة بدون مصراع ركب بابا خشبيا عليه مفتاحه كما علق فوق البناء المقدس كسوة مزينة، كما جاء بيانه فى الصورة الثالثة من الوجهة الرابعة.

وفى أثناء قيام سيدنا إبراهيم ـ عليه التحية والتكريم ـ بحفر أساس الكعبة المعظمة رأى حجرا بين أحجار الأساس القديم وكان مكتوبا عليه العبارة البديعة التالية «أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشققت لها اسما من أسمائى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته». وترجمة هذه الفقرة المترجمة للعربية باللغة التركية» أنا الله صاحب مكة خلقت الرحم وجعلته اسما من أسمائى وهو الرحمن. وكل من يتصف بهذه الصفة ويعمل بمقتضاها أجزيه جزاء حسنا، وكل من يخالفها أعاقبه أشد العقاب».

ويروى «الإمام الواقدى» أن الحجر المذكور حجر أخضر اللون وكتب عليه السطور الآتية ونقلها على أنها من جملة تدقيقاته.

السطور التى نقلها إلينا الإمام الواقدى هى:

١- **السطر الأول:** «لا إله إلا أنا رب البيت مغلبها وهى قرار ومرخيها وهى قفار».

٢- **السطر الثانى:** «لا إله إلا أنا رب البيت مهلك الطغاة ومفقر الزناة ومخزى تارك الصلاة».

٣- **السطر الثالث:** «أنا الله لا إله إلا أنا رازق من لا حيلة له حتى يعلم من له حيلة أن لا حيلة له».

وبعد أن فرغ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بناء كعبة الله المقدسة رفع يديه وابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ متجهين إلى أبواب رحمة الله راجين منه ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون ما قاموا به رهن قبول معطى العطايا.

وبعد هذا نزل جبريل ـ عليه السلام ـ باسطًا أجنحته وقال «إن عملكم قد حاز القبول عند الله» ثم تقدمهما وعلمهما مناسك الحج.

وأدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ مقتديًا بجبريل ـ عليهما السلام ـ فريضة الحج، وثبت جميع شروط الحج ومناسكه فى خزينة حافظة ثم ودع ابنه إسماعيل ـ عليه السلام ـ عازما على العودة وصعد فوق قمة جبل الرحمة ونظر مرة إلى جهة بلاد الشام وأخرى إلى ناحية مكة المعظمة السعيدة وتذكر جودة جو الشام ولطافة هوائها وعذوبة مائها ومر بخاطره حرارة الحجاز الشديدة المتعبة فتأسف على بقاء ابنه فى هذا المكان الذى تحيط به الحجارة ودعا له طويلا. ثم ضغط برجليه على المهماز قاصدا ناحية الشام. وفى هذه الفترة صدرت الإرادة الإلهية «أذن فى الناس بالحج» وهكذا أمر بدعوة الناس إلى الحج فأخرج رجليه من المهماز وقال مخاطبا ربه: «يا رَبِّ قد فرضت طواف البيت على عبيدك وأمرت عبدك المطيع هذا بدعوة هؤلاء جميعا لينالوا من هذه المائدة العامة نصيبهم ولكننى كيف

أستطيع أن أدعو هؤلاء جميعا حتى يؤدوا مناسك الحج والطواف آتين من الشرق والغرب» فتلقى هذا الجواب ذا الحكمة: «يا إبراهيم؟ فإذا ما دعوتهم بصيحة عالية فإننا نوصل صوتك إلى آذان الخلائق كلهم».

حينئذ اتجه للجهة اليمنى من باب الكعبة السعيدة حيث كان قد ترك المقام الشريف وصعد فوق الحجر حتى صار مساويًا للجوهر وسد أذنه بأصابعه وصاح متجها إلى الشرق والغرب: «يا عباد الله إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمركم أن تحجوا إلى الكعبة الشريفة التى أمرنى ببنائها وأن تطوفوا حولها، فأسرعوا إلى إيفاء هذا الغرض تكونوا قد استجبتم للدعوة الإلهية التى تستوجب المغفرة.

وبهذا القول البليغ ذاع الأمر الإلهى وأعلنه على العالم وقد سمع نداء الخليل سواء من كان حاضرًا فى وقتها أو من كانوا فى أصلاب آبائهم أو فى أرحام أمهاتهم والذين قدر حجهم فى العالم الأزلى من الأمة واستجابوا قائلين «لبيك».

رواية: قد سر حضرة الخليل من استجابة الأمة المحمدية قائلين «لبيك» وقال «يا رَبٌ إننى أريد أن أستضيف هؤلاء» وبالأمر الإلهى أخذ قبضة من تراب الأرض ونثره إلى الجهات الأربعة وفى الأماكن التى أصابها التراب المنثور ظهر الملح وإن هذا المعدن سيكون وليمة مقدمة إلى أهل الأرض إلى يوم القيامة بطلب من إبراهيم وباستجابة الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعائه وحيا.

وإذا قيل ألم يكن قبل ذلك ملح؟ يجاب عليه أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ علق ظهور المعادن لسبب ما وكان نثر إبراهيم ـ عليه السلام ـ التراب سببا فى ظهور الملح. **«محاضرة الأوائل»**.

كان أول من أحس بصيحة دعوة إبراهيم أهل اليمن وعند البعض أن جرهم كان أو أول من سمع الدعوة ومع ذلك فجرهم من أهل اليمن.

نظم

ما العمل إنه جاءه على أنه التواب
وجاءه الأمر «أذن في الناس»
ما لم يكن بيت القلب من طين وماء
فلتكن الضجة منها حتى تسمع أذن القلب
إن كل من كان في الأصلاب والأرحام
سمع منه ذبذبة الصيت
إن كل سامع معجل
جعل من رأسه قدما للعبودية
إن الخلق منذ القدم في هذه المحبة
وبلا سبب لم يسلكوا هذا الطريق

(فتوح الحرمين).

بناء على ما يروى أن عدد مرات حج شخص يتوقف على عدد إجابته لصيحة خليل الرحمن وكان الذى سيحج مرة واحدة قال «لبيك» مرة واحدة والذى قدر حجه مرتين قال «لبيك» مرتين وهكذا.

إذا ما نظرنا إلى حج الأمة المحمدية اليمنية كل عام يدل على أنهم فاقوا جميع المسلمين فى البلاد الأخرى فى التلبية. قال بعض المؤرخين إن إبراهيم عليه السلام عندما أراد أن يدعو الناس للحج لم يَدْعُهُم من فوق المقام الشريف بل صعد فوق جبل أبى قبيس أو جبل «ثبير» ونفذ أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن القول الأول هو المصدق عند الجمهور ومرجح على الأقوال الأخرى.

وبهذه الصورة أتم سيدنا إبراهيم مهمته ونزل من فوق المقام الشريف نزل جبريل ـ عليه السلام ـ وأخذ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وابنه إلى جبل الصفا ومن

هناك إلى جبل المروة وأراهما حدود المسجد الحرام وأوصى بأن يوضع حجر كعلامة فارقة في الأماكن التي عينها. ووضع خليل الرحمن[1] العلامات في الأماكن التي بينها الرسول الجليل. وفي السابع من شهر ذي الحجة تلا إبراهيم - عليه السلام - خطبة بليغة مقابل البيت الشريف. والآن تلقى الخطبة في السابع من ذي الحجة من فوق منبر المسجد الحرام تشرح فيها بالتفصيل مناسك الحج والمسائل الخاصة بالحج.

وفي أثناء الخطبة كان إسماعيل - عليه السلام - يستمع إلى خطبة أبيه في خضوع وخشوع وصدق وأدب جم.

وفي اليوم الثاني أحرما من الحرم الشريف بنية الحج وسارا إلى منى ملبين ومهللين، وقضيا ليلهما في الموقع الذي يوجد فيه الآن مسجد «الخيف» وكلما يحين وقت الصلاة كانا يؤديان الفرائض الخمسة في أوقاتها وأطلق على هذا اليوم يوم «التروية» والحكمة من إطلاق هذا الاسم أنه قد كان انتظاره قبل وقعة ذبح إسماعيل بيومين مترويا كما سبق أن بيناه.

وبعد ذلك بيوم كان اليوم التاسع من ذي الحجة وبعد أن أديا صلاة الصبح وانتشر ضوء الشمس فوق جبل «ثبير» ذهبا إلى وادي الفيوضات «عرفات» ووقفا في المكان الذي يسمى الآن مسجد «نمرة».

وأحد أسماء هذا المسجد «مسجد إبراهيم» ويؤدي الحجاج فرضي الظهر والعصر جمع تقديم.

وفي اليوم المذكور صحبهما جبريل الأمين ليريهما الجبال التي في الوادي وليعرفهما مناسك الحج وفعلاً بين لهما الحدود المطهرة والجبلين اللذين يقطعان حدود «عرفات».

وبعد ذلك دخل إبراهيم - عليه السلام - في مكان يطلق عليه الآن مسجد «الصخرة»، وأجلس ابنه إسماعيل - عليه السلام - في مكان ما، وتمتم ببعض الكلمات وهو واقف على قدميه وصلى هو وابنه صلاتي الظهر والعصر متصلتين جمعا، وأخذا يذكران الله ويسبحانه وعادا بعد الغروب إلى وادي «المزدلفة».

---

(1) قد بين في بحث الميقات كيفية وضع هذه العلامات وإلى أي وقت ظلت معروفة.

ويروى أن المكان الذى جلس فيه إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان عاليا وغير مستو بين الصخور، وإنه الآن المكان الذى وقف فيه رئيس قافلة الأنبياء على نبينا وعليهم التحايا، والمحل الذى تمتم فيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بكلمات وهو المحل الذى يلقى فيه الآن قضاة مكة خطبة عرفات.

وقد أدى إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو وابنه صلاتى المغرب والعشاء متصلتين جمعًا جمع تأخير، ثم أخذا يجمعان الحصى كل واحد منهما (٤٩) حصاة لرمى الجمرات وقضيا ليلتهما تلك فى المزدلفة، وبعد أن صليا صلاة الصبح نهضا وواصلا سيرهما نحو مكان يسمى وادى الـمُحَسِّر(١) وسارا فى هذا الوادى قدر خمسمائة ذراع سيرًا سريعًا.

وبعد ذلك أعدّا ذبيحة وذبحاها فى مكان يسمى مسجد «منحر»، وهو مسجد لطيف فى ناحية مسجد «الخيف» من منى.

وفى اليوم الثالث من وصولهم إلى «منى» رميا الجمرات التى جمعاها من المزدلفة بعد الزوال حسب الأسس الشرعية ثم توجها إلى مكة المكرمة بعد أن استراحا فترة فى وادى «محصب»(٢) وصليا فيه صلاة الظهر ثم عادا إلى مكة المكرمة.

وأخيرا عاد إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى الشام وفى العام التالى أدى مع زوجته سارة وابنه إسحاق ـ عليهم السلام ـ فريضة الحج الشريف.

---

(١) المحسر اسم واد بين «منى والمزدلفة» وطوله خمسة وأربعون وخمسمائة ذراع. يقال إن أصحاب الفيل قد تعبوا فى هذا المكان وأصبحوا غير قادرين على السير، لذا سمى الوادى بهذا الاسم وبما أن السير فى هذا الوادى ببطء سنة نبوية فإن الحجاج يسيرون فيه بتؤدة وبطء ولا يجوز وقوف وقفة عرفات فى هذا الوادى أو فى وادى عرنة.

(٢) ويقال لهذا المكان أبطح أيضا وهو مكان ذو حجارة فى مدخل مكة المكرمة وبالقرب من مقبرة حجون ومن السنة السنية أن يقف فيه الحجاج الكرام ويصلوا الظهر والعصر والمغرب والعشاء وأن يقضوا ليلهم فيه ثم يدخلون مكة المكرمة.

وفى هذه الرحلة نالت سارة الرعاية التامة والاحترام الفائق من إسماعيل - عليه السلام - وكلما تذكرت ما صدر منها نحو إسماعيل - عليه السلام - فيما مضى خجلت وندمت، إلى أن توفيت أظهرت نحو إسماعيل - عليه السلام - الود والمحبة.

واستمر حضرة الخليل طول حياته يذهب إلى مكة المكرمة ويعود مستصحبا ابنه إسحاق - عليه السلام - وكذلك فعل ابنه - إسحاق - بعد وفاة والده[1] إذ كان يذهب كل عام إلى أرض الحجاز العطرة ويتلاقى مع أخيه وهكذا يشيد بنيان الحب والمودة بينهما ويوالى فى المصافاة.

قطعة

كـــان فـــى الرســـالـــة أخــــــوان
كـلاهمـــا نهـــج الخليـــل منتهجـــان
أولهمـــا فـــى الشـــام بـــدر يتألـــق
والثـانـــى فـى الحجــاز شمـس تشـــرق
أولهما كـان فى آيـة حسـن سـارة يرغـب
والثانـى معجـزة هجـرة هاجـر يطـــلب
أحدهمــا جـــده أمجــد الأطهـــار
والآخـــر مـــن الأســـباط المختـــار
ذكرهمـــا فـــى لســـانـــنا
علـى الـــدوام فـــى صلواتنـــا

وقد واظب المتوجون بتاج النبوة بعد إسحاق - عليه السلام - وكل من آمن بنبوتهم ورسالتهم على الحج الشريف حتى سيدنا المسيح كانوا عندما يصلون إلى حدود المسجد الحرام ينزلون من فوق دوابهم تعظيما له ويسيرون حفاة.

(١) وقد توفى إبراهيم - عليه السلام - قبل الهجرة النبوية بـ ٢٧١٨ سنة.

لائحة فى ذكر كيف قدمت وتشكلت حكومة العمالقة والجراهمة فى مكة المكرمة.

لإسماعيل ـ عليه السلام ـ من رعلة ابنة مضاض بن عمرو بن سعيد بن الرقيب بن حسن بن نبت بن جرهم بن قحطان اثنا عشر ابنا كانوا زينة الحياة الدنيا.

ويروى فحول المؤرخين أن أسماءهم مجهولة باستثناء نابت وقيدار وقطورا، وكل طوائف العرب صحيحة النسب هم من شجرة سلالة قيدار ونابت.

ورغم أن ابن هشام عدد بالترتيب أسماء أبناء إسماعيل فى السيرة التى كتبها، على أنهم:

ثابت أو نابت، قيدار، ذيل، منشى، مسمع، ماش، دماء، طيما، انطور، أزر، تيش، قبذها، فإن صاحب مفتاح العبر أيضا، قد صححها على أن تكون: «نابت أو نبت، قيدرا، أدبيل، بسام، مشمع، ذومان، ما، حراه، تيما، بطور، ناقش، قدما».

وكلتا الروايتين خاليتان من جلية الصدق والقبول.

كما اختلف المؤرخون أيضا فى تعريف وبيان قحطان أبى جرهم فقد اعتقد بعض المؤرخين أن قحطان كان فى الأصل ملكا.

وقد خلعت منه صفة الملائكة بسبب ما اقترفه من ذنوب وأخطاء وأهبط به على وجه الأرض على شكل إنسان!!

وعندما هبط إليها تزوج واحدة من كريمات العمالقة فأنجب منها جرهم ـ سالف الذكر ـ لكن خطأ من يعتقدون صحة هذه الرواية بيِّنٌ واضح.

فإن قحطان الذى يقال إنه ملك هو عابر بن شالح من أبناء نوح ـ عليه السلام ـ وعند حدوث تبلبل ألسنة الناس ذهب إلى أرض اليمن حيث أصبح حاكما على من قبلوا الدخول فى طاعته أصبح أول حاكم على اليمن.

وعندما بلغ إسماعيل ـ عليه السلام ـ التاسعة والثمانين من عمره كان والده قد توفى.

كما توفى هو أيضا وترك الحياة الدنيا بعد مرور واحد وأربعين عاما على وفاة والده[1].

وأسندت إدارة حكومة مكة الجليلة إلى قيدار ونابت وقطورا ورغم أن نابت بن إسماعيل - عليه سلام الله الجليل - قد نجح فى حسن إدارة حكومة مكة المكرمة التى ورثها بعد وفاة والده، فإنه عندما توفى، تولى الحكومة الجليلة لبلدة الله مضاض بن عمرو الجرهمى والد رعلة، وصهر إسماعيل - عليه السلام - واشترط عليه أن يضم إلى كنفه أولاد نابت المتوفى وهكذا تولى رياسة قبيلة وحكومة مكة برضا القبائل الكبيرة وصعد فوق جبل «قعيقعان» الواقع ناحية شعب أبى طالب من جيل أبى قبيس، والتلال الواقعة حول هذا الجبل، ونصب الخيام هناك حيث أقام وأخذ سميدع بن هوش رئيس قبيلة قطورا[2] جماعة العمالقة التى كانت تحت إمرته ثم توجه بهم إلى أسفل مكة وبعد فترة قصيرة صعد بهم فوق قمم جبال أجياد[3] وبهذا تكونت داخل مكة المعظمة حكومتان صغيرتان وتم الاتفاق - بعد فترة - على أن يقوم مضاض بأخذ عشر البضائع التى تأتى من ناحيتى الشرق والشام ويأخذ سميدع رسوم البضائع التى ترد من ناحيتى الغرب واليمن بشرط ألا يتدخل أحدهما فى شئون الآخر.

وفيما بعد زاد عدد جماعة مضاض بن عمرو وعدد أتباع وأشياع سميدع بن هوش، وبمقتضى الحكمة القائلة «إن وجود حكومتين فى بلدة واحدة مضر»، نشب بين الجراهمة وقوم قطورا نوع من النزاع حول الملك.

(١) حدود الجبال المحاذية للحجر الأسود المقام الشريف لإبراهيم - عليه السلام - كانت مقر قبيلة مضاض بن عمرو أيضا.

(٢) كان قطورا والجراهمة أولاد عمومة وقد هاجروا مع أفراد قبيلتهم من بلاد اليمن إلى الحجاز. وفى أثناء الهجرة اختار الجراهمة مضاض بن عمرو رئيسا لهم كما اختار أفراد قبيلة قطورا سميدع رئيسا لهم ولما كانت مكة المكرمة فى تلك الأوقات مكانا كثير الماء وفير الأشجار اختاروا النزول بجوارها وسكنت الجراهمة فوق جبل قعيقعان فى أعلى مكة كما سكنت أفراد قطورا جبل جياد حذاء جبل قعيقعان.

(٣) الجهات الواقعة فى ناحية جدة من البيت المحترم كانت ضمن مقر الجماعة التى تحت رياسة سميدع بن هوش.

وبظهور بعض الأشرار من الجانبين كان يقوم نزاع من حين إلى الآخر بينهما. واستمرت هذه الحالة غير المستقرة فترة قصيرة ثم اتحد الجراهمة وهزموا جماعة قطورا وقتل سميدع، لذا عقد مضاض صلحا مع من بقى حيا من قوم قطورا الذين طلبوا الصلح وهكذا أصبح مضاض الحاكم الأوحد لمكة المفخمة.

وحتى هذه الواقعة - أى تاريخ استقلال مضاض بن عمرو الجرهمى بالحكم كانت حجابة الكعبة وسدانتها لبنى إسماعيل وكانت إدارة حكم البلدة المشرفة - مكة المكرمة لرؤساء الجراهمة وعقب وفاة نابت، ومقتل سميدع بن هوش استولى الجراهمة على سدانة بيت الله أيضاً. ورأينا إدراج هذه الأبيات الصريحة فيما يتعلق بهذا الأمر.

نظم

وكنا ولاة البيت من بعـــد نابـــت ... نطوف بتلك البيت والخير ظاهـــر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكـــة سامـــر

بلـــــى كنـــا أهلهـــا فأزالنـــا ... صروف الليالى والجدود العواصر

والأبيات المذكورة من قصيدة طويلة نظمها عمرو بن الحارث الجرهمى وتحكى طرد وإخراج الجراهمة من مكة المعظمة وانتقال حكومة مكة الجليلة إلى بنى خزاعة.

وعندما اختلت نظم إدارة حكومة جرهم وقطورا أخذ مضاض بن عمرو أبناء قبيلته المسلحين ونزل من جبل قعيقعان، كما اصطحب سميدع أيضا قومه المقاتلين ونزل من جبل أجياد، عازما ملاقاة مضاض الجرهمى والتقى الجمعان فى المكان المسمى «فاضح».

وكانت سيوف وسهام وحراب الجراهمة تقعقع وتصدر صوتا، ولهذا سمى الجبل الذى صعدوا عليه باسم «قعيقعان».

كما أن جند سميدع هبطوا من جبل «أجياد» وهم متفرقون ثم أطلقوا على الجبل المذكور اسم أجياد.

وقد التحم جند الطرفين في القتال فى موقع «فاضح» سالف الذكر وفى النهاية قتل سميدع، وتعرض أفراد عشيرة «قطورا» للإذلال والإهانة كما أنهم لم يستطيعوا حماية رئيسهم لذلك سمى ذلك المكان «فضيح» لأنهم فضحوا بين العرب.

وعندما تشتت شمل جماعة «قطورا» أرسلوا رجلاً إلى مضاض بن عمرو وطلبوا الصلح.

فقرر أن ينتخب رجالاً ذوى ثقة من الجانبين ليحددوا شروط الصلح وأرسلوا إلى مكان يسمى «مطابخ»(١).

وبعد أن تداول هؤلاء المبعوثون شروط الصلح وتشاوروا لمدة طويلة، تقرر إسناد أمر إدارة الطرفين إلى عمرو بن جرهم.

فرح عمرو الجرهمى بهذا القرار، واستدعى جند الطرفين إلى الوادى المسمى «مطابخ» وأقام لهم جميعا مأدبة كبيرة.

وأول حرب وقعت فى المدينة المقدسة مكة الفخمة هى حرب مضاض بن عمرو وأول من قتل فيها هو رأس عشيرة قطورا.

وبالتدريج قوى نظام الحكومة المستقلة التى تشكلت بحكمة مضاض بن عمرو وزادت مكانتها. وتكاثر أبناء وأحفاد قبائل الجراهمة التى كانت ترعى بنى إسماعيل وتحترمهم، لهذا اكتسبت حكومة مكة المكرمة قوة واسعة فى وقت قصير، وأصبح رؤساؤها من الملوك أصحاب الصولات فى ذلك العصر.

ورغم هذا لم تتسع أرض مكة الله المقدسة بالقدر الذى يليق لاستيعاب أهلها، ولهذا اضطرت القبائل للجلاء عن موطنها وانتشرت جماعات فى أطراف الممالك وبسبب صلة النسب، أظهر الجراهمة الرعاية والاحترام إلى أحفاد بنى إسماعيل،

(١) مطابخ: مكان واسع فى أعلى مكة المعظمة وسبب تسميتها أنه تم فى هذا المكان طهى طعام المأدبة التى اقامها مضاض بن عمرو الجرهمى للجند.

ولهذا لم يرسلو جندا إلى أى مكان قط إلا وحققوا النصر والظفر ونالوا القوة والعظمة حتى طردوا عدوهم القديم، طائفة العمالقة الباغية وأخرجوهم من البلدان، والطائفة المذكورة من الأمم السامية، ومن أحفاد «عمليق» بن لاو بن آد بن سام بن نوح ـ عليه السلام، وعندما تفرقت الألسنة نزلوا بساحة صنعاء اليمن، ثم رحلوا بعد ذلك إلى منطقة الحرمين الشريفين وانتصروا على كل من أظهر لهم العداوة وأهلكوهم وقد أقامت جماعة منهم فى بوادى الشام وعندما عصوا الله أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى ويوشع ـ عليهما السلام ـ بقتالهم.

ورغم أن الملوك الجبابرة الذين استولوا على يثرب وخيبر وتلك النواحى وحكموها، كذلك فراعنة مصر كانوا من هذه الطائفة، إلا أن بنى إسرائيل قضوا عليهم جميعا وحكموا البلاد التى كانوا يحكمونها حتى قبيل مجئ الأوس والخزرج. وكان ديانة طائفة العماليق عبادة الأحجار والأشجار.

ورغم أن الجراهمة طردوا العمالقة الطغاة الغدارين وأخرجوهم من أرض الحجاز الطاهرة إلا أنهم انقسموا إلى قبائل متعددة وحكموا كل أرجاء مكة المكرمة لفترات طويلة.

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن العمالقة كانوا من الأقوام الجبارة ويتصفون بشجاعة فطرية هذه الشجاعة التي غطت شهرتها الآفاق.

ولكنهم لما بدأوا فى الاستخفاف بحرمة الحرم الشريف الواجب التعظيم، وقصروا في رعاية بيت الله وفسقوا فيه ابتلاهم الله باليأس والحرمان فسلط عليهم الجراهمة الذين كانوا يستصغرونهم ويحقرونهم فغلبهم الجراهمة وأخرجوهم من منطقة الحجاز.

تفاصيل هذا البحث موجودة فى الصورة الثانية من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

انتقال حكومة مكة إلى يد بنى خزاعة

بعد أن نجحت قبائل الجراهمة الباغية فى طرد طائفة العمالقة من الأراضى الحجازية المقدسة، نكلوا بهم واختار الجند مضاض بن عمرو أميراً لأنفسهم.

وبعد فترة من مقتل سميدع اتخذت عشيرة قطورا مضاض بن عمرو رئيسا لها بعد الانتصار عليها وزادت قوتهم وقاموا ببدع لا تليق بالمكانة الرفيعة لكعبة الله واتسموا بسوء الخلق وقاموا بما يستدعى غضب الله الجليل عليهم وظهرت آثار البغض والشقاوة والطغيان بانقطاع ماء زمزم الذى غار تماما.

واستخفوا بحرمة كعبة الله الشريفة، واستحلوا المحارم وما نهى عنه، وجرأوا على الاستيلاء على الأموال والهدايا التى يرسلها الملوك والحكام إلى البيت الشريف.

أحلوا الحرام وأخذوا يظلمون الناس ويعتدون عليهم بل تجاوزوا ذلك بأن منعوا الناس من زيارة مكة المعظمة فى خِسَّة ودناءة.

وكان مضاض بن عمرو رئيس هؤلاء المشئومين من الجراهمة قد جمعهم ذات يوم وخطب فيهم واعظا فقال: «يا طائفة الجراهمة اجتنبوا المظالم والمعاصى فى جوار بيت الله الشريف، وقوموا بالأفعال الخيرة تنالوا القبول والرضا عند صاحب الكبرياء. فقد سلطكم الله القادر على العمالقة البغاة، عندما انتهكوا حرمة الحرم الشريف وقد تم طرد هؤلاء المشئومين من دائرة الفيض الإلهى ورأيتم كيف حرموا من دخول دائرة الحرم الشريف وسمعتم ما ابتلى به قوم هود وصالح وشعيب ـ عليهم السلام ـ من النوازل وأنواع البلاء.

وإذا تمسكتم بما أنتم عليه من رذائل الأخلاق فليس ببعيد وجود طائفة أقوى منكم فتطردكم وتخرجكم ـ مثل العمالقة ـ من حدود أرض الحجاز الميمونة «فأجابوه بقول يملأه الغرور[1] وهل يوجد بين العرب قوم أشجع وأجرأ منا، وهل

(١) اسم الشقى الجرهمى الذى هذا القول لمضاض بن عمرو هو مجدع.

هناك من لديهم الرجال الأقوياء والأسلحة البتارة الأكثر والأكمل منا؟ حتى تجرؤ على حربنا وقتالنا وطردنا وإخراجنا من أرض مكة؟ فلماذا تزعجنا بهموم الحرب والقتال واحتمال طردنا من ساحة مكة الله؟!

وعندما شعر مضاض بن عمرو أن إصلاح أحوال القبيلة الضالة أمر غير ممكن وأن هذا الحال مقدمة لداهية كبرى، قام ذات ليلة وأخذ الغزالين الذهب وكانا محفوظين فى خزينة بيت الله، وبقية الهدايا القيمة وألقى بها كلها فى بئر زمزم الذى قد نضب ماؤها، ثم سد البئر المذكور بالحجارة والتراب. ثم اصطحب أولاد وأحفاد إسماعيل وأسرع راحلاً إلى الأطراف حتى لا يتعرضوا للخذلان.

كما أوضحنا سابقاً فى الوجهة الخاصة أن الأشياء القيمة التى أخفاها مضاض بن عمرو فى بئر زمزم أخرجها عبد المطلب بن هاشم فيما بعد فى أثناء حفره للبئر وأجريت قرعة بالاتفاق مع الرأى العام وكانت نتيجتها أن الغزالين كانا من نصيب البيت الأعظم وبقية الأشياء من نصيب عبد المطلب.

وقد قام عبد المطلب بتعليق الغزالين على جانبى باب الكعبة فزين بهما الكعبة وباع بقية الأشياء أنفق ثمنها كله على بيت الله، وأظهر بهذا مدى إخلاصه وعبوديته.

عقب خروج مضاض بن عمرو مصطحبا أحفاد بنى إسماعيل إلى أطراف البلدان اشتد بغى وطغيان الجراهمة، وتصرفوا حسب هواهم.

وعندما أدرك بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وقبائل غبشان الخزاعى، قلة عدد الجراهمة، استعانوا بالقبائل المجاورة المقيمة فى البوادى لكى يغيروا على الجراهمة وكونوا جمعا كبيرا وأعلنوا الحرب على الجراهمة.

وبعد معارك كثيرة، حاصروا مكة المعظمة وضيقوا الخناق على الجراهمة البغاة، وطردوهم خارج حدود كعبة الله المحفوفة بالهدى.

وأول من تبوأ مقعد الحكم فى مكة المكرمة بعد الجراهمة هو غبشان الخزاعى.

ومن بعده أصبح عمرو بن الحارث الغبشانى أميرا لمكة، وقد توارث أبناؤه وأحفاده الولاية الجليلة لحكومة مكة حتى مجئ خليل بن حبشة بن سلولة صهر قصى بن كلاب.

وكان بنو خزاعة من ساكنى بلدة مأرب الواقعة على بعد ثلاث مراحل من مدينة صنعاء اليمن المشهورة.

وعندما علموا أنها ستنهار نتيجة لخرق السدود والنقب وسيهجم سيل العرم ويغرق سكان بلاد «سبأ» ويمحوهم.

ولما قضت هذه الشائعة راحة الناس وكان منهم عمرو بن عامر بن حارثة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان فخرج وقد أخذ معه قبيلته المنقادة له وباع أملاكه ومتاعه وأسرع يبحث عن بلدة يسكنها. وكان يقابل أهل البلاد التى يمر بها ويغلبهم، مع هذا لم يستطع التكيف والتآلف مع ماء البلاد وهوائها التى يمر بها، لهذا عزم على الذهاب إلى أرض الحجاز المقدسة بناء على ما أخبرته به كاهنة تسمى ظريفة وبعد فترة وصل إلى حدود ميقات مكة.

وفى أثناء إقامته بلغه أن قبائل الجراهمة مصرون على رأيهم بمنع غيرهم من دخول مكة، فتشاور مع حكماء القبيلة. ورأى أن يرسل برسالة إلى الجراهمة يستأذنهم فى البقاء بأرض مكة المشرفة لفترة قصيرة، ولكن الجراهمة رفضوا رجاء عمرو بن عامر. ولما بلغ قولهم إنه يتحتم عليه - فى كل الأحوال - أن يزيل خيامه من عند حدود كعبة الله، وأن يرتحلوا إلى أى بلد آخر عندئذ قال لهم عمرو بن عامر: إننى أرى البقاء فى أرض مكة بلا قيد أو شرط، فإذا كان هذا ملائما لكم فحددوا لنا مكانا مناسبا بجانبكم نكن إخوة لكم نعاونكم وننصركم، حسبما يقتضى الأمر. أما إذا صممتم على المعارضة والرفض، فسأسلب راحتكم وأستعمل معكم أساليب العنف والسيطرة والقوة القهرية، فأخرجكم من مساكنكم وبيوتكم وأطردكم خارج الحدود، وإذا تصديتم لقتالى فسأنتصر عليكم بعون الله وسأهين رجالكم بقتلهم بالسيف وأقيد أطفالكم ونساءكم بأصفاد الأسر.

ومع هذا القول فإنهم عارضوه فاستجمع كل قوته وحاربهم ثلاثة أيام وثلاث ليال متواصلة، وفى النهاية لاذ الجراهمة بالفرار فدخل مكة المكرمة، واستولى عليها وقضى على جماعات الجراهمة الذين قبض عليهم وقهرهم.

واشترك فى هذه الحرب غبشان الخزاعى مع أبناء بكر بن عبد مناة بن كنانة.

وقد هلك وقتل كثير من الجراهمة، جزاء وفاقا لما اقترفوه من مظالم ومساوئ وكانت عاقبتهم جميعا أن أخرجوا من مكة وأبعدوا مطرودين إلى جبال اليمن.

والواقع أنه ما من حاكم اعتاد على أن يظلم داخل مكة إلا وهلك، وأخرج هو وقومه وقبيله منها! حتى أطلق على مكة اسم بكة نظراً لأن المدينة المباركة تبك أعناق الجبابرة.

وعلى الذين يرغبون فى معرفة تفاصيل هذه الواقعة الرجوع إلى الصورة الرابعة من الوجهة الرابعة من مرآة المدينة.

وخرجت حكومة مكة المشرفة من أيدى الجراهمة، وما أن أصبحت فى قبضة الخزاعيين وتصرفهم حتى رجع إليها بنو إسماعيل المنتشرون فى الممالك والبلدان وأقاموا داخل الأرض المقدسة لكعبة الله، بعد أن استأذنوا الخزاعيين فى هذا.

وبعد فترة قصيرة التمس مضاض بن عمرو الجرهمى إذنا بالإقامة فى مكة المكرمة فلم يوافق أفراد بنى خزاعة علي إقامة مضاض أو أى فرد من الجراهمة فى أرض مكة الطاهرة وأجابوه إذا تجاوز أحد منكم حدود الحرم الشريف سنقتله بلا تردد.

واستقبل مضاض بن عمرو رد بنى خزاعة بالصمت وحدث نفسه قائلا: «سأجد لى حيلة فيما بعد لأقيم فى مكة».

وذات يوم صعد فوق جبل أبى قبيس يبحث عن إبله. فرأى إبله المفقودة بين يدى بنى خزاعة يذبحونها ويقسمونها بينهم، فراقبهم لفترة طويلة ثم قطع الأمل فى استرداد إبله وقال فى نفسه: «إذ هبطت إلى الوادى لن تسلم من القتل كما

سبق أن هددوك من قبل «ثم أخذ أنصاره وأتباعه وشيعته الذين معه ووجه رجاله تجاه اليمن وخرج من أرض الحجاز المقدسة».

وكما يفهم من قصيدة عمرو بن الحارث بن مضاض التالى ذكرها أنه عندما خرجت البلدة السعيدة المباركة من يد مضاض بن عمرو الجرهمى البلدة التى لا مثيل لها فإنه سقط من فوق كرسى الحكم، وأصبح شيخ قبيلة عادية أصابه الحزن والألم الشديد.

ومضاض بن عمرو هو الحادى والعشرون من ملوك الجراهمة الذين تولوا أمر السلطة فى البلاد الحجازية المقدسة.

وأول من تبوأ مقعد الحكم من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان، عاد وقد استولى على الأراضى الحجازية عندما كان أخوه يعرب يتولى الحكم فى أرض اليمن مكان والده قحطان وهزم جرهم العمالقة واستولى على زمام الحكم.

وعندما توفى جرهم بن قحطان آلت حكومة الحجاز إلى ابنه عبد ياليل بن جرهم وعند وفاته آلت إلى جرشم بن عبد ياليل وعندما توفى جرشم آلت إلى عبد المدان بن جرشم، ومن بعده إلى ثقيلة بن عبد المدان وفى النهاية إلى عبد المسيح بن ثقيلة ومن بعده إلى مضاض بن عبد المسيح ومن بعده إلى عمرو بن مضاض وعندما توفى عمرو آلت إلى أخيه حارث بن مضاض بن عمرو بن الجارث ولما توفى عمرو آلت إلى أخيه الحارث بن مضاض ومن بعده إلى عمرو بن الحارث وبعد وفاة عمرو آلت إلى أخيه بشر بن الحارث وبعده إلى مضاض بن عمرو بن مضاض وفى حياة مضاض هذا خرج حكم مكة من يد الجراهمة كما فصلنا القول فيه أعلاه. وأخذ بنو خزاعة حكم مكة فى أيديهم.

وهذه القصيدة من نظم عمرو بن الحارث وتحكى انتقال حكومة مكة المشرفة إلى إدارة بنى خزاعة.

القصيدة:

وقائلة والدمع سكـــيب مبـــــادر
وقد شرقت بالدمع منها المحاجـــر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامــــــــر
فقلت لها والقلب منى كأنهـــــا
يلجلجه من الجناحين طائـــــــر
بلى نحن كنا أهلهــــا فأزالنــــا
صـروف الليالـى والحـــدود العواثـــر
وكنا ولاة البيــت مــن بعــد نابـــت
نطوف بـذاك البيـت والخـير ظاهـــر
ونحن ولينا البيت من بعـد نابـــت
بعــز يخطـــــى لنــــا المكاثـــــر
ملكـنا فعززنــا فأعظــم بملكـــــنا
فليـس لحـى غيرنـا كإثــم فاخـــــر
ألم تنكحوا من خير شخص علمته
فأبنـاؤه منـا ونحــــن الأصاهـــــر
فإن تنثنى الدنيـا علينا بحالهـــــا
كذلك بالنــاس تجـــرى مقــــــادر
أقول إذا نام الخليل ولـم أنـــــم
إذ العــرش لا يبعـد سـهيل وعامـــر

وبـدأة منهـــا أوجهـــا لا أحصاهـــا

قبائــــل منهـــا حميـــر ويحابــــــر

وصرنـــا أحاديثـــا وكنـــا يغبطـــــه

بذلـك عفتـنا السنـون الغوايــــــر

فسحت دمـوع العـين تبكـــى لبلـــدة

بهـا حـــرم آمـــن وفيهـــا المشاعــــــر

وتبكـى لبيــت ليـس يـــؤذى حمامــه

يظـــل بـه آمنـا وفيــه العصـــــــافر

وفيــه وحـــوش لا تـــرام أنيســـــة

إذا خرجــت منـــه فليســت تغـــادر

وآلت الحكومة الجليلة مكة المكرمة إلى يد بنى خزاعة على النحو المذكور

واستقل بنو خزاعة بزمام إدارتها وبعد ذلك أصابت الحمى كل أفراد القبيلة المنسوبة إلى عمرو بن عامر، وأدركوا أنهم لا مقام لهم بعد ذلك فى أرض مكة.

وبرأى ومشورة الكاهنة «ظريفة» هاجر «آزر» إلى «عمان» وثعلبة بن عمرو بن عامر إلى الشام و الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام إلى جوار «المدينة المنورة».

وبقى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر المشهور بلقب (لحى) داخل مكة وتولى القيام بمهام حكومة مكة وأمور حجابة الكعبة.

إخطار:

تولى بنو خزاعة إدارة حكومة مكة المكرمة لمدة ثلاثمائة عام، وخلال هذه الفترة هزموا الجند الذين أرسلهم ملوك اليمن لتخريب بيت الله شجاعة فى الدفاع عنه.

ورغم أن بنى إسماعيل طوال فترة إقامتهم فى مكة المعظمة كانوا تحت إدارة الحكومة المستقلة لبنى خزاعة، ولم يتدخلوا فى مسائل الحكم، ولم يخالفوا أحدا قط إلا أن قصى بن كلاب بن مرة بعد ثلاثمائة سنة من حكم بنى خزاعة استطاع أن يحقق قوة وسطوة ويتولى إدارة حكومة مكة، وجمع كل أفراد القبيلة التى ينتسب إليها وأسكنهم داخل حدود مكة، وعززهم وأكرمهم. وبناء على ذلك أطلق عليه بين القبائل لقب «المجمع» وأصبحت قريش التى تنتسب إليه تشكل القبيلة الغالبة.

وقبيلة قريش الجليلة هى جماعة تنتهى إلى النضر بن كنانة وبناء على الجرائم التى ارتكبها الجراهمة كما ذكرنا سالفا تفرقوا فى أطراف البلاد حتى لا يتعرضوا لغضب الله ذى الجلال.

وكما ذكرنا فى الصورة الثامنة من هذه الوجهة أنه بجهد قصى بن كلاب تجمعوا وتقرشوا في مكة المكرمة ولهذا أطلق عليهم اسم «قريش».

* * *

توضح كيف تم تجديد البيت العتيق فى المرة الخامسة وكيف نجح العمالقة فى تجديده

على الرغم من أن بعض المؤرخين قالوا: إن بناء العمالقة حدث فى المرة الخامسة، إلا أن الرواية التى نقلها الإمام الأزرقى عن عبد الله بن عباس تلمح وتشير إلى أن بناء الجراهمة حدث بعد عمارة العمالقة للكعبة، حيث يقول الإمام الأزرقى فى تاريخه: فى الأزمنة القديمة، توطنت فى مكة المكرمة طائفة تسمى العمالقة وكان كل أفرادها - بصفة عامة - مفرطين فى الثراء، وكانوا أقوى الطوائف على وجه الأرض وكانت حكومة البلدة فى أيديهم.

هذه الطائفة المذكورة، كانت كلها تملك الخيول الأصيلة المرغوبة لدى العرب، وكذلك الإبل وسائر الدواب الجميلة والمرغوبة يشتغلون برعى الدواب فى المراعى بضواحى مكة. أما قوتهم وقدرتهم فكانت مفرطة. وفى زمانهم كانت البقعة المقدسة التى بناها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - قد أوشكت على الخراب والانهيار وذلك بعد انقضاء زمن طويل على عصر الخليل الجليل.

وبناء على ذلك اتفق رؤساء القبائل فيما بينهم على تجديد ما تهالك من بيت العزة وفى أثناء ذلك كان الجراهمة أيضا فى مكة، لكن حكومة مكة الله وسدنتها كانت مقصورة على رؤساء العمالقة. وعندما حازت هذه الطائفة القوة والثروة وأصبحت جوانب مكة المكرمة الأربعة مزدانة بالمروج الخضراء والأشجار المثمرة التى تثير البهجة مالت الطائفة المذكورة إلى متع الحياة واللهو وغاصوا فى الفجور والفسوق، وسار الأمر على هذا المنوال فطغوا وبغوا باعتيادهم الظلم والفساد.

وبلغت مفاسدهم إلى الحد الذى لا يستطيع فيه الرجل أن يستظل بظل شجرة، أو أن يأخذ شربة ماء من أية عين للماء ما لم يدفع نقودا وكانت عاقبة

الأمر أن زالت دولتهم وشوكتهم وأفل نجمهم وأدبر سعدهم حيث تسلط عليهم نوع من النمل فاضطروا للرحيل.

ورحلوا إلى ديار اليمن حيث مساكنهم ومبانيهم القديمة ولم يستطيعوا العيش هناك، وهلكوا جميعا وطوال فترة قيامهم بالمحافظه على البناء المقدس لبيت الله، ولهذا فإن الجدران العالية[1] للبقعة المقدسة لبيت الله - التى جددوها - خربت تماما ومحيت كلها، وبقيت بقية الحجارة التى وضعت فوق الأساس الخالد الذى وضعه إبراهيم ومنها عرف الناس الموضع المبارك لبيت الله فأصبحوا يطوفون به وفى النهاية حددته طائفة الجراهمة.

* * *

(١) كانت جدران كعبة الله التى جددها العمالقة مرتفعة جدا وكانت مزينة من الداخل والخارج بنقوش متنوعة.

تبين طريقة تجديد البيت الأكرم فى المرة السادسة

قام الحارث بن مضاض الأصغر[1] من طوائف الجراهمة بتجديد البناء القديم لكعبة الله فى المرة السادسة، فقام بتركيب مصراعين لباب المعلا بالكعبة ثم وضع عليه قفلا. أما سبب هذا التجديد فهو السيل الذى روى عنه أبو جهم بن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ أنه خرب بيت العزة. وقد نزل السيل المذكور من أعلى مكة ودخل البيت الشريف وهدم البناء الكريم لبيت الله الذى سبق وأقامه العمالقة والملوك الذين جاءوا بعد قيام الحارث بن مضاض بتجديده على النحو السابق.

عمر الجراهمة الكعبة المعظمة ورمموها مرة تلو مرة، ولما ضلت قبائل بنى جرهم بمرور الأيام وانحرفوا، ظلموا وفسقوا وفجروا وعمتهم الفوضى، مثل العمالقة البغاة.

وكما ذكرنا في البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى بنى خزاعة فإنهم لم يصمدوا لهجوم بنى خزاعة، وتركوا البلدة المكرمة.

وبعد فترة من انتقال حكومة مكة إلى بنى خزاعة، خرب ودمر بيت الله بسيل عظيم اجتاح مكة المكرمة.

وقد سمى هذا السيل «القارة» إشارة إلى غرق امرأة اسمها «قارة» من قبيلة بنى بكر.

وبعد انحسار مياه السيل أقام بنو خزاعة جدارا منخفضا حول البيت الشريف للوقاية من السيول التى تكررت من بعد وتركوا البيت الحرام على حاله القديم وظل البيت على نفس الحال حتى زمن قصى بن كلاب.

---

(١) هو الحارث بن مضاض ـ تاسع ملوك الجراهمة.

فى ذكر طريقة تجديد وبناء كعبة الله فى المرة السابعة

بنى قصى بن كلاب بن مرة البيت المعظم فى المرة السابعة وقصى بن كلاب بن مرة من الأجداد الكرام لحضرة النبى صلوات الله عليه وسلامه. وهو الجد الرابع لسلطان الأنبياء عليه وعليهم التحية والذى علا بنسبهم.

إخطار:

إن إحصاء أجداد النبى حتى الجد الواحد والعشرين ومعرفتهم بالترتيب أمر جائز، وقد قام به المرحوم عثمان عريانى أفندى الكليسى فى شرح القصيدة النونية التى أطلق عليها اسم «جبر القلائد فى شرح جوهر العقائد». ليس من شروط صحة الإيمان معرفة أسماء آباء وأجداد وحفدة سيدنا النبى عليه أكمل التحيات ويكفى لصحة الإيمان معرفة اسمه الشريف فقط.

وعدنان هو الجد الحادى والعشرون من الأجداد المعروفين لحضرة النبى، وأنه آخر الأشخاص الجائز تعدادهم من أجداد حضرة نبينا ﷺ - ولا يوجد مسوغ شرعى لتعداد من سبقوه.

وحسب ما جاء فى كتاب النسب الذى ألفه زيد بن بكار أن قصى بن كلاب بن مرة، عندما استقل بحكومة مكة المشرفة شرع فى هدم البيت العتيق بعد أن أعد كل ما يلزم لبنائه.

وقام ببنائه وتجديده وجعله بناء ضخما رصين الأركان وكان تجديده له على نسق وشكل لم يسبقه إليه أحد.

ولم يكن هدفه من هذا تزيين بيت الله محط الإخلاص وبناءه وإنما أراد أن ينقذ تلك البقعة المقدسة من حالة الخراب.

ولم يعترف مجموعة من المؤرخين السابقين بالانهيار الذي حدث للكعبة فى

المدة ما بين حضرة الخليل وقصى بن كلاب وقالوا: إن قصى بن كلاب هو أول من هدم البناءَ المقدس لبيت الله الأكرم وبناه من جديد.

وقال أيضا الإمام الماوردى هذا القول وذكر فى كتابه «الأحكام السلطانية» رأيه مفصلا وقال: «إنه بعد سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ قام قصى بن كلاب بن مرة بهدمه وتجديده ودعمه ببناء مسقوف بأشجار النخيل ومن أخشاب بلاد الروم وكان ارتفاع جدرانه يزيد تسعة أذرع عن بناء الخليل، وبنى كل مواضعه فى صورة جميلة لطيفة وفق الأسلوب القديم لسيدنا إبراهيم.

وعلى هذا التقدير فإن العمالقة والجراهمة لم يجددوا بناء البيت العتيق بل رمموه وأصلحوه مرة أو مرتين فقط.

انتقال حكومة مكة المكرمة إلى قصى بن كلاب بن مرة:

عندما توفى كلاب بن مرة بن كعب، كان ابنه قصى صغير السن أما والدته فاطمة بنت عمرو بن سعد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر الجادر بن عمرو بن جشعمة بن يشكر بن مبشر بن صعب بن دهمان بن نضر بن الأزد فى أعقاب وفاة زوجها سالف الذكر تزوجت من شخص يدعى ربيعة بن خرام بن حبة بن عبد بن كبير بن عذرة بن زيد بن سعد الذى جاء إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة وذهبت مع ابنها قصى بن كلاب إلى أراضى الشام حيث يقيم زوجها الجديد[1].

وسعد هذا الذى يعتبر من بين أجداد ربيعة بن خرام كتب عنه واحد من شعراء عصره أنه أجرأ وأشجع أبطال عصره ومدحه وأثنى عليه بهذه القطعة.

لا أرى فى الناس شخصا واحداً ... فاعلموا ذاك كسعد بن سيل

فارس أضبط فيه عسرة ... وإذا ما عاين القرن نزل

فارس يستدرج الخيل كما ... يدرج الحر الفطام الجمل

(١) كان ربيعة بن خرام يسكن فى أرض عذره من ملحقات الشام.

وعندما بلغ قصى بن كلاب سن التمييز وأصبح قادرا على التفوق بين الحسن والردئ - إذ نمت قوة إدراكه - نشبت نار النزاع واشتد الاضطراب بين القبائل واشتعلت الفتنة بين جماعة آل ربيعة التى ينتمى إليها زوج أمه اضطرب مزاجه وسلبت منه راحته وطمأنينته، ذلك لأنه لم يكن من قبيلة ربيعة رجل يعرف أن كلاب بن مرة هو والد قصى سوى ربيعة، ولهذا كان أرباب السوء من القبيلة يؤلمونه ويعيرونه بأقوال مثل: إن والدك غير معلوم لنا وما ألجأك إلى قبيلتنا سوى انتسابك إلى قبيلة مجهولة لا اسم لها ولا شهرة فلو كان قومك معروفين لك لكنت تحتمى بهم تستنصرهم لتنجو من شرنا.

وقد التوى ابن كلاب من هذا الأمر وانزعج من نباح كلاب بنى ربيعة وقص ما جرى بالتفصيل على أمه فاطمة وشكا لها باكيا متألما وأبدى ما أصيب به من جرح فى نفسه.

وكانت فاطمة أم قصى من أعقل النساء فقالت لابنها لكى تطفئ نار حزنه وتسرى عنه وكأنها تصب عليه ماء الحياة: يا بنى أنت من الصلب الشريف لكلاب بن مرة فأنت أكرم من أبناء آل ربيعة ومن كل الوجوه وأنت أشرف نسبا وأعظم حسبا من كل قبائل العرب، إن قومك وقبيلتك يقيمون فى نواحى مكة المعظمة ويسكنون منذ زمن طويل حول حرم الله.

وهكذا أخبرته أنه ينتسب إلى قبيلة كبيرة من أشرف القبائل العربية.

وعندما سمع «قصى» هذا الكلام من أمه أراد أن يلحق بقبيلته ويذهب إلى مكة المكرمة وعزم على ألا يعود إلى أرض قضاعة بعد ذلك أبدا فنصحته أمه قائلة: يا بنى لا تتعجل وانتظر إلى أن يحل الشهر الحرام واذهب آنذاك - مع قوافل الحجاج العرب فأنا لا أحبذ سفرك بمفردك ولما حان وقت الحج ذهب إلى منطقة الحجاز برفقة حجاج قبيلة قضاعة وبعد انتهاء الحج أقام خيمة حول كعبة الله وأقام فيها.

وكان قصى حازما بارعا جلدا، وبعد فترة من إقامته فى مكة عرف أهلها شرف حسبه وفضل نسبه فأكرموه كرما شديدا.

وزاد توقير الناس له وتعظيمهم إذ تزوج ابنة حليل بن خبشية بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى وهو من أعظم رجال بنى خزاعة آنذاك تولى حجابة البيت بعد أن استولى على حكم مكة المكرمة ورئاسة القبائل.

وعلى قول آخر إنه تزوج من عاتكة ابنة فالخ بن مليك بن قالخ بن ذكوان السليمى وحظى منهم بكل مظاهر التوقير والاحترام والقول الأول مرجح على الثانى وقد ثبت أن حليل بن خبشية صهر قصى بن كلاب حقا وعلى هذا فإن «حبا» هى الجدة الرابعة من جدات الرسول ﷺ.

وبعد هذه المصاهرة بين قصى بن كلاب وحليل بن خبشية اتسع نطاق قدرته ومكانته بالتدريج وتزايد أبناؤه وخدمه وحشمه وأصبح واحدا من صناديد القبائل العظام. وفى أثناء مرض صهره حليل بن خبشية، ترك مفتاح البيت تبعا للقواعد المرعية فى ذلك الوقت وأوصى به إلى ابنته «حبا» زوجة قصى بن كلاب.

ولما كانت «حبا» عاجزة عن إدارة أمور البيت وزوجها ليس من أفراد بنى خزاعة فهى لا تتجرأ أن تعطى مفتاح البيت الشريف لزوجها، ولكن لطول مدة مرض والدها كلفت زوجها قصى بن كلاب مهمة فتح وإغلاق بيت الله. وعلى قول آخر أنها أسندت هذه المهمة إلى أبنائها. ولما اتضح لحليل بن خبشية أنه أصبح على قاب قوسين من الموت عين زوج ابنته ولى عهد له وسلمه مفتاح بيت الله.

وبالرغم من هذا، أخذ صناديد خزاعة المفتاح من قصى بن كلاب عقب وفاة صهره وأعطوه ـ حسب العادة ـ إلى أبى غبشان سليم بن عمرو بن لؤى بن ملكان من كبار طائفة بنى خزاعة، وفوضوه فى أمور حجابة وسدنة وخدمة كعبة الله المقدسة. وكان أبو غبشان رجلا فاسدا مدمنا للخمر لا يهتم بأمور الدنيا وهمومها وفى يوم من الأيام وهو فى بلدة الطائف غارق فى ملذاته حسب عادته فقد وعيه ونفذ صبره وثرثر بكلام كثير فقال من ضمن ما قاله

لرفاقه فى مجلس اللهو، إنه لا يهمه أن يبادل مفتاح كعبة الله الأمانة الكبرى بقدح من خمر.

وتداولت الألسن هذه الشائعة حتى بلغت سمع قصى بن كلاب فأخذ لتوه قربة شراب وأعطاها[1] لأبى غبشان وأخذ منه المفتاح الشريف فى حضور عدة أشخاص وأرسل ابنه عبد الدار ليلا إلى مكة المباركة، يبلغ أهلها بالأمر فأصبح بهذا صاحب المفتاح الشريف، وسعد أعظم سعادة.

وعندما أفاق أبو غبشان واسترد وعيه أراد أن يسترد مفتاح الكعبة من ابن كلاب، ولكن الأمر كان قد شاع بين أهل مكة ولما رفع الأمر إلى ما يشبه المحاكمة بين المتخاصمين ثبت بشهادة الشهود أن أبا غبشان قد أضاع المفتاح وليس له أحقية فى استرداده وضربت الأمثال فى ذلك إذ يقال «أحمق من أبى غبشان» و«أخسر من أبى غبشان».

ويضرب العرب ـ الآن ـ مثل «أخسر صفقة من أبى غبشان» للذين يخدعون فى البيع والشراء والذين يتعرضون لمصيبة كبيرة.

وقد انزعج أشرار بنى خزاعة لامتلاك ابن كلاب للمفتاح الشريف، وكثر القيل والقال فى هذا الموضوع وأخذت نار الخصام تشتعل بينهم لأتفه الأسباب فى مبدأ الأمر إلى أن اندلعت فتنة عظيمة أدت إلى الحرب.

ولما كان طالع الحرب فى عون قصى، فقد سعد بشرف الحصول على إدارة حكومة مكة.

وفى أثناء اتحاد آل خزاعة ضد ابن كلاب، جمع قصى قومه من قريش وبنى إسماعيل للتصالح والاتفاق مع آل خزاعة فى مجلس صلح، ولكن بمجرد النقاش فى الموضوع ارتفعت الأصوات وتحول النقاش الجارى بينهما إلى نزاع وشجار.

(١) يروى أيضا أن «قصى» أعطى أبا غبشان فى تلك الليلة مع قربة مملوءة بالخمر خروفا أيضا.

وأعد كلا الطرفين من فى جانبهما من المتحاربين وتهيئا للقتال والمبارزة والحرب ووجهوا كل ما فى طاقتهما للصراع الشرس وتشابكا.

ولاحت علامات النصر والظفر فى جانب قصى بن كلاب بن مرة وانفرد ابن كلاب بإدارة الحكومة الجليلة للحرم الشريف ورئاسة القبائل، وطرد آل خزاعة من أرض مكة المباركة العطرة وأقصاهم عنها، وتأمر ذوو الشأن وكبار القبائل التى انطوت تحت جناح ابن كلاب، برئاسته واستقلاله فأظهروا له الولاء والتبعية والاستسلام.

وقد أورد مؤلف كتاب «الاكتفاء» هذه القصة بطريقة أخرى إذ قال: «عندما توفى كلاب بن مرة» كان ابنه قصى حديث الفطام من الرضاعة وتزوجت أمه فاطمة بنت سعد من ربيعة بن خرام من قبيلة قضاعة. واصطحب ربيعة هذا فاطمة أم قصى. إلى بلاد بنى قضاعة وأنجبت من زوجها الجديد غلاما اسمه «زراح».

تربى ابن كلاب مع أخيه من الأم «زراح» وعندما بلغ سن الرشد، ذهب إلى مكة المكرمة مع حجاج بنى قضاعة للزيارة وبعد الحج أقام بجوار حرم الله وأعلن لأهل مكة أنه من فروع نسل إسماعيل وتزوج من «حبى» ابنة حليل بن خبشية وهو من رؤساء آل خزاعة وهناك قول أن اسمها «حسبا» وفى رأى أنها عاتكة بنت فالج فأصبح بذلك ذا عزة وشأن.

وأنجب قصى أربعة أبناء يتصفون بالشجاعة هم: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبد قصى وبعد ذلك انتزع سدانة الكعبة المباركة وإمارة مكة المكرمة من أيدى بنى خزاعة وكانت حكرا لهم.

وأخذ يفكر فى وسيلة لإلغاء نظام «الإجارة» الجائرة التى كانت مرعية بين العرب لكنه كتم آماله فى قلبه إلى أن يجد طريقة لتنفيذها فى ذهنه. وأدرك أن هذا الأمر فى حاجة إلى إعداد قوة عسكرية كبيرة وتهيئة الأسباب التى تحقق هذا.

كما أنه متوقف على عقد أوهام الإتحاد والائتلاف والاتفاق مع شيخ قبيلة قريش وبنى كنانة وعرض ما فى ضميره على رؤساء القبائل المذكورة.

وبرأى ومشورة أكبر حكماء هذه القبائل أبلغ أخاه من الأم «زراح» ابن ربيعة الذى يقيم فى بادية بلاد قضاعة ونشر «زراح» أفكار أخيه قصى العادلة وأبلغه بأن أبطال قبيلة قضاعة سيساندونه. وفى الميعاد المحدد انطلق زراح نحو مكة، ومعه عدد كبير من الأبطال الذين جمعهم إخوته من الأب حسن ومحمود وجمعهم تحت لوائهم وقد أعدوا أقوى أسلحة ذلك العصر مستعدين للهجوم والحرب.

وفى ذلك الوقت كانت قبيلة صوفة التى تنسب إلى غوث بن مرة قد تولت ـ كابرا عن كابر ـ إجازة عرفات ورمى الجمار وكذلك الأمر بالنسبة للقبيلة التى تنتهى إلى عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان إذ كانت مختصة بإجازة المزدلفة، وكانوا يتولون توصيل حجاج بقية القبائل فى موسم الحج إلى عرفات ويعودون بهم كما كانت قبائل بنى خزاعة تقوم بحفظ وحراسة البقعة المفخمة للكعبة المشرفة.

وقد بلغ هذا التحكم والطغيان مداه لدرجة أن قبيلة صوفة وهى تضم من بقى من الجراهمة ـ لم تكن تسمح لأحد من الحجاج بالصعود إلى عرفات ثم العودة إلى المزدلفة، ما لم تكمل أفراد القبيلة رمى الجمرات وكذلك طائفة «عدوان» لم تكن تسمح بالمرور طالما لم تكمل الوقوف بالمزدلفة.

حتى إن قبيلة «صوفة» فى يوم رجوعها إلى مكة، كانوا بموجب ميثاق مكتوب يقطعون عمرة منى ولا يفسحون الطريق إلى حجاج بقية القبائل طالما لم يمروا هم جميعًا من الممر.

استطراد:

ولفظ «صوفة» هو لقب «غوث بن أد» الذى ينتسب آباؤه إلى جماعة قبيلة مضر، وعلى قول، إنه لقب غوث بن مرة بن قرة بن طابخة بن إلياس بن مضر.

والأفراد الذين ينتسبون إلى هذه الجماعة توارثوا خدمة الكعبة المشرفة منذ الجاهلية على النحو الذى وضحناه آنفا. وقد انتقلت إلى أفراد هذه القبيلة مهام الإجازة والإفاضة من عرفات واقتصرت عليهم لهذا يقف أحد أفراد هذه الجماعة بعد الوقوف بعرفات ويصيح بصوت عال «أجيزى صوفة» ويعقبه آخر صائحا «أجيزى خندف».

بناء على هذا تتحرك من عرفات كل البطون التى تنتسب إلى هاتين الجماعتين ثم يتحرك بعدهم بقية الحجاج.

نشأة الإجازة:

ابتدعت وظيفة الإجازة فى زمن غوث، وحصل غوث على هذه الوظيفة من قبل أمه.

كانت أم غوث امرأة من الجراهمة وقد ظلت لفترة طويلة عاقرا بدون أبناء وذات يوم نذرت قائلة: «يا رب إن أنجبت ولدًا سوف أنذره للكعبة» وسرعان ما حملت وعندما وضعت غوثا بعد مرور تسعة أشهر قدمته لخدام الكعبة المفخمة وفاء بنذرها وكبر غوث وعندما بلغ السن الذى يقدر فيها على العمل أخذ يقوم بخدمة الكعبة المشرفة لفترة طويلة. وهكذا اكتسب حب الناس واحترامهم وزادت مكانته فى أعينهم وكان وفيا بعهده، لذا كان الناس يستشيرونه فى كل أمر ويعملون وفق مشورته.

وزاد نفوذ غوث بالتدريج حتى أصبح أمر الذهاب إلى عرفات والعودة منها مقصورا عليه.

وفى تلك الأثناء وضع قواعد الإجازة وعندما وهبت أم غوث ابنها للكعبة المشرفة وفاءًا بنذرها أنشد والدها مرة أو أد هذه الأبيات

إنــــى جعلـت رب مــن بنـــــية ربيطـــــة بمكـــــة العليــــــــة

فبـاركـــــــن لـــــى بهـــا إليـــــه واجعلـه لـى مـن صالـح البريـــة

وكان غوث يقول عندما يعطى أمر القيام من عرفات:

لا هـــم إلــى تــابـــع بتــاعــــــه وإن كــــان إثــم فعلــى قضاعــــة

وبعد وفاة غوث انتقل السماح للحجاج بالتحرك من عرفات والبدء فى رمى الجمرات إلى أبنائه وأحفاده.

ولما أوشكت هذه القبيلة على الانقراض أخذ أمر الإجازة أبناء بنى سعد بن زيد مناة بن تميمة إلى أن انتقلت هذه المهمة إلى أيدى بنى سعد وكان رؤساء الجماعة سواء من جاءوا من صلب غوث، أو من نسل أبنائه وأحفاده كلهم يقال لهم، صوفة.

وجماعة بنى سعد هم الذين ذكرناهم من قبل أفراد قبيلة تنتهى إلى آل صفوان بن شحنة بن عطارد بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وصفوان بن شحنة أول من تولى من هذه القبيلة وظيفة إعطاء الإجازة إلى الحجاج فى عرفات.

وسلسلة نسب كرز بن صفوان الذى تشرف بإدراك عصر النبوة الميمون ترتبط بشجرة هذه القبيلة وتحكم آل صفوان فى ممارسة مهمة الإجازة إلى الحجاج لم يكن يقل عن استبداد قبيلة صوفة.

لم يكن باستطاعة أحد من الحجاج أن يتجرأ على العودة من عرفات ورمى الجمار فى صحراء منى قبل أفراد آل صفوان حتى ضاق بهم الناس أشد الضيق واستاءوا أشد استياء.

وكان الحجاج كلما ألحوا فى الرجاء والتوسل إلى رجال بنى صفوان فى أيام رمى الجمار قائلين أغيثونا إن الوقت يمضى. كانوا يجيبون عليهم بكلمات غير لائقة قائلين: «كلا كلا مازال الوقت مبكرا فلم تمل الشمس بعد إلى الغروب» فإذا رجوهم وتوسلوا إليهم أن يستعجلوا بعض الشىء كانوا يمعنون فى التأخر

ولم يكن الحجاج فى فترة الانتظار يكفون عن الشتائم والسباب والدعاء عليهم كما كان إحساسهم بالانكسار مفرطا.

وكانوا يماطلونهم، في ممر منى ويسمحون بالمرور أولا لأتباعهم ببطء ثم يأذنون للناس بالمرور.

وقد تحمل الحجاج هذه المضايقات التى توغر الصدور رضوا بها أم لم يرضوا حتى انقرضت سلالة «آل صوفة» أو «آل صفوان».

يكفى لإثبات مدى تحكم آل صفوان واستبدادهم هذه الأبيات التى قالها (أوس بن تميم السعدى) فى أثناء توليهم ممارسة إعطاء الإجازة للحجاج.

لا يبرح الناس ما حجوا معرفهم حتـى يقـال أجيـزوا آل صفوانـا

وبناء على ما قيل أعلاه ـ عندما كان رؤساء آل صوفة وآل صفوان يضيقون على الحجاج ويتحكمون فيهم كما ذكر كانت الإفاضة من المزدلفة، وإعطاء الأمر والإجازة فى يد بنى عدوان وحكرًا عليهم كما يتضح ذلك من الأبيات الآتية كيف أنهم توارثوا كابرًا عن كابر مهمة الإجازة.

غـديـــر الحـــى مـــن عـــدوان كـانـــوا حيـــــة الأرض
بغـــى بعضـــهم ظلمـــــا فلـــم يـــرع عـــلى بعـــض
والمـــوفـــــون بالفـــــرض والمـــوفـــــون بالفـــــرض
بالســــــنة والفـــــرض بالســــــنة والفـــــرض
فـــلا ينقـــض مـــا يقضـــى فـــلا ينقـــض مـــا يقضـــى

كان أبو سيارة عُمَيْلَةُ بن الأعزل مِمَّنْ بقى من أفراد قبيلة عدوان. وقد أدرك عصر النبوة(١).

(١) عميلة (مصغرًا) بن خالد بن سعد بن الحارث بن عابس بن زيد بن عدوان العدوانى، أبو سيارة. ذكر الفاكهى أن أبا سيارة كان قبل أن يغلب قصى على مكة. فهذا يدل على تقدم عصره عن زمن البعثة.
وهو غير أبى سيارة المُتَعِىّ (بضم الميم وفتح التاء) الذى ذكره ابن السكن وغيره فى الصحابة. أخرج حديثه أحمد والبغوى وابن ماجه.
راجع الإصابة للحافظ ابن حجر ٧/ ٩٤، ترجمة رقم (٥٨٠).

وفى العصر الذى أشرقت فيه شمس الإسلام وأصبحت تبعث الضوء فى عيون الأنام، كان أبو سيارة هذا يتولى إجازة المزدلفة كما يفهم من خلال هذه القطعة الشعرية التالية.

نحـن دفعنـا عـن أبـى سـيارة

وعـن مواليـه بنـى فـزارة

حتـى أجـاز سالمـا حمـاره[1]

مسـتقبل القبلـة يـدعـو جـاره

قوله «سالما حماره» يشير إلى إعطاء أبى سيارة رخصة الإفاضة من المزدلفة للناس، من فوق ظهر الحمار وهو مطابق تماما لرواية سيرة ابن هشام.

وقد قلنا فى بداية الاستطراد إنه عقب وقفة عرفات، يقف واحد من آل صفوان، ويقول أجيزى صوفة ثم يقف شخص آخر بعده يصيح قائلا «أجيزى خندف»، وقد عرفنا من الذى يلقب صوفه والآن يجب أن نعرف ما المقصود بخندف.

و«خندف»: هو لقب سيدة تسمى ليلى بنت حلوان بن عمران وهذه السيدة هى زوجة إلياس بن مضر[2] من أجداد النبى الكرام.

وتبعا لما ذكره الذين نقلوا أو تحدثوا عن سبب تسمية ليلى بنت حلوان باسم خندف[3] مسوق فى الرواية الآتية: إن ليلى هذه أنجبت ثلاثة أبناء من إلياس هم: عمرو وعامر وعميرة. وذات يوم وبينما كان هؤلاء يرعون إبل أبيهم إلياس جفلت الإبل من وثبة أرنب نافر. وعندما رأى عمرو جفول الإبل وتفرقها، قفز سريعا من داخل الخيمة وجرى من خلف الأرنب حتى أدركه وأمسك به فسمى مدركة.

(١) قيل إن حماره هذا عُمِّر أربعين سنة من غير مرض حتى ضربوا به المثل فقالوا: «أصح من عير أبى سيارة». الإصابة ٧/ ٩٤.

(٢) هو الشخص الذى أهدى أول قربان للكعبة المعظمة.

(٣) عندما يسير الإنسان ضاما أصابع قدميه كاشفا كعبه مديرا باطن قدميه يقال له خندف.

ولما أخذ عامر الأرنب وطبخه فأسموه طابخة ولـمَّا فضل عمير البقاء فى داخل الخيمة والانقماع فيها قيل له قمعه، ولما رأت الأم ليلى ابنيها خرجا مسرعين من الخيمة أسرعت تجرى خلفهما، وفى أثناء الطريق قابلت زوجها «إلياس» الذى سألها قائلا: إلى أين أنت ذاهبة؟ فلما أجابت: قد جئت من خلفكم مخندفة أطلقوا عليها خندف، لأنه كان من عادات العرب فى الجاهلية تلقيب الناس اقترانًا بالأحداث.

جاهلية العرب:

أطلق على جميع العرب الذين عاشوا قبل البعثة المحمدية أهل الجاهلية وذلك لشدة جهالتهم.

وبناء على بعض الأقوال يطلق الجاهلية للفترة التى خلت من الأنبياء. وادعى بعض المؤرخين أن فترة الجاهلية تطلق على الفترة التى سبقت الذين عاشوا بعد هذه الحادثة التى وقعت بسبب جهل العرب وهى أن «كنانة بن خزيمة» تزوج من مطلقة والده وزوجة ابنه «مرة» وأنجب منها نضر والظاهر أن هذه الرواية خاطئة وأثر من آثار البلاهة.

وتبعا لما نقل وروى المرحوم الشيخ (تاج الدين اليمنى أبو عثمان عمرو بن بحر) الذى حقق هذا الأمر بدقة وكذلك كل أئمة السير يؤكدون أن برة التى تزوجها كنانة ـ سالفة الذكر ـ فيما بعد ليست هى برة زوجة أبيه ومطلقة ولده خزيمة.

وإن كان كنانة قد تزوج مرة ثانية من امرأة اسمها برة إلا أنها كانت بنت أخ امرأته الأولى برة أخت مرة بن أد. لم ينجب كنانة من زوجته الأولى برة ولأجل ذلك تزوج مرة أخرى بموافقة زوجته وتصويبها لرأيه تزوج برة بنت مرة بن أد أخو امرأته الأولى وأنجب منها كنانة.

وبما أن بنت مرة التى تزوجها كنانة كانت تشترك فى اسم برة مع امرأة أبيه خزيمة ولوجود صلة القرابة بين الاثنتين قد أدى إلى وقوع الخطأ فى أقوال كثير من المؤرخين.

وبناء على ما قرره أئمة علم الأنساب الذين صاغوا لآلئ بحر نسب معلم الكائنات - عليه أطيب الصلوات - أن الجوهر النقى لحضرة سيد الكائنات نبينا - عليه أطيب الصلوات - انتقل من مستودع الأصلاب الطاهرة وقوة ظهر العرب العرباء إلى درة وشاح ظهور الأمهات إلى أن آلت إلى الصلب الطاهر لعبد الله بن عبد المطلب ووصلت منه إلى رحم أمه آمنة بنت وهب، وكل هذه السلسلة من الآباء والأجداد من أعرق الأصول من جهة الآباء والأمهات لذا خلا من دم فاسد إذ تم زواج هؤلاء وفق الشريعة الغراء لعصرهم وجاء طاهر النسب بعيداً من دنس السفاح. انتهى.

ولابد أن وصول زراح بن ربيعة - أخى قصى بن كلاب من أمه - إلى مكة المكرمة مع القوة العسكرية الكافية، قد صادف موسم الحج، حيث أعلن ابن كلاب بن مرة على الناس أنه لا يجوز إبقاء عادة الإجازة، ورأى ذلك فرصة مناسبة لطرد بنى خزاعة عن الحدود الميمونة لحرم الله.

وأسرع بمطالبة أصحاب الإجازة أن يكفّوا أيديهم عن تنفيذ ما يأملونه ووجه الحديث إلى رؤساء قبيلة صوفه الذين قطعوا الطريق على الحجاج ليمنعوهم من المرور فى مضيق منى يوم رجوع الحجاج إلى مكة المكرمة وقال لهم: يا معشر قبيلة صوفة إن المطلعين منكم على علم الأنساب يعلمون أن حبل نسبى المتين يتصل بعدنان وأن وشيجة نسب عدنان تتصل بـ قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم - على نبينا وعليه أفضل التسليم - ولهذا فإننى أرى أن كتفى يليق بخلعة الإجازة الموشاة وإننى أستحق أعلى المناصب، ولذا أرى أنه قد حان الوقت لإزالة العادة غير المشروعة لنظام[1] الإجازة واعتبارا من هذا اليوم، فإن لكل إنسان الحق فى أن يجتاز ممر منى وقتما يريد.

وإننى إذ أعلن هذا أبين لكم أننى فى صدد اصطحاب أتباعى الشجعان وأمر من ممر منى قبلكم وأخذ جنود قبيلة قضاعة الذين لا يحصى عددهم ولا يعد وتحرك صوب مكة المكرمة.

---

(١) الإجازة: ترخيص يتضمن مرور وعبور أبناء السبيل من مكان ما بأمن وسلام ويقال إنه المرشد الذى يرافق جماعة لكى تعبر من طريق مخيف ومعناها اللغوى هو الإذن لرجل بالعبور من مكان إلى مكان.

وأراد فتيان قبيلة صوفة الشجعان أن يعترضوا طريقهم ولكن قصى قد مر بالقوة وشدة البأس.

وقد أدرك وجهاء قبائل بنى خزاعة ورؤساؤهم وقد أصابهم القلق الشديد أن الأمر يكاد أن يخرج من أيديهم وأنهم سيفقدون حكومة مكة فيما بعد، لذا تعقبوا مجموعة ابن كلاب معهم قبيلة بنى بكر والتقى الجمعان فى وادى أبطح وافتعل بنو خزاعة أسباب التحرش ودخلوا[1] فى معركة لا داعى لها.

والتحم الفريقان وتداخلا وتقاتلا ونال كل واحد منهما من الآخر ومات كثيرون من الجانبين. وكان حجاج العرب القادمين من اليمن وأنحاء الجزيرة لأداء الحج واقفين لمشاهدتهم.

وأخيرا طلب آل خزاعة الصلح، وعينوا رجلا انتخبوه للفصل فى قضيتهم وهو يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة وتدخلت القبائل العربية الأخرى حتى رضى ابن كلاب بالصلح.

وعندما قبل الطرفان الصلح جمع يعرب جنود الطرفين ودخل بينهما وحكم أن تدخل سدانة الكعبة المعظمة ورئاسة وإمارة مكة المكرمة فى عهدة «ابن كلاب» وقال:

إن وجود الكعبة المعظمة وسدانتها وإمارة مكة المكرمة فى يد وعهدة ابن كلاب خير من استيلاء بنى خزاعة وبنى بكر على الأماكن المقدسة.

وقد قبل جميع رجال كل القبائل هذا الحكم قبولا حسنا وهكذا تحققت آمال ابن كلاب ونال مرامه.

الذيل:

عقب فصل «يعمر بن عوف» فى هذا الأمر تمت كتابة وثيقة صلح تتضمن ما اتفق عليه رؤساء قبائل الطرفين وتقرر الاحتفاظ بنسخة معتمدة منها لدى قصى بن كلاب.

(١) كان القتال فى موقع بين منى ومأزمين وقد أطلق على ذلك المكان اسم مفجر لأن آل خزاعة كانوا يجرأون على ممارسة الفسق والفجور وسفك الدماء، وهتك حرمة بيت الله فى هذا المكان.

ومن جملة الشروط التى تضمنتها وثيقة الصلح هذه أن يرفع الظلم والتعدى عن أى إنسان داخل حدود حرم الله وألا يمر ناحية مكة المعظمة وألا يتجاوز بطن مر أى إنساب من جماعات البطون التى تنتسب إلى قبائل خزاعة، ولكن يسمح لمن يريدون منهم أن يسكنوا فوق سلسلة جبال البلد الحرام بشرط عدم دخول مدينة مكة الشهيرة.

وقد حوفظ على الأحكام المدرجة فى وثيقة الصلح المذكورة حتى صلح الحديبية.

وبناء على رجاء بنى خزاعة وطلبهم فى الواقعة المذكورة تفضل سيدنا سلطان الأنبياء ـ عليه وعليهم أفضل التحية ـ بقبول انضمام بقية القبائل التى تنتسب إلى بنى خزاعة فى حلف مع المسلمين.

وأدرجوا فقرات إلى وثيقة الصلح التى عقدت فى الحديبية تضمن السماح لجماعات قبائل بنى خزاعة بالدخول إلى مكة المكرمة.

امتدت الفترة المشئومة التى قامت فيها قبيلة بنى خزاعة بحكم مكة المكرمة حوالى ثلاثمائة سنة كاملة.

وكانت الأقوام المنتسبة إلى قبائل خزاعة فى ذلك الوقت تعبد كوكبا لامعا أطلق عليه اسم الشِّعْرَى اليمانى.

والمعروف أن الشِّعْرَى هما كوكبان منيران فى الفلك يسمى أحدهما الشِّعْرَى العبور والآخر الشِّعْرَى الغميضا وهذه النجوم كما يزعم العرب هى أخوات كوكب سهيل أحدهما الشِّعْرَى اليمانى[١] والآخر الشِّعْرَى الشامى[٢] وموضعهما حيث

(١) قد قسم علماء الفلك النجوم إلى أقدار وأشعتها إلى درجات. ووفق هذا التفسير أن الشِّعْرَى اليمانى نجم القدر الأول لبرج الكلب الأكبر من البروج الجنوبية وكذلك الشِّعْرَى الشامى نجم القدر الأول من برج الكلب الأصغر من البروج الجنوبية ومن حيث اللمعان يعتبر الشِّعْرَى اليمانى فى الدرجة الأولى بين الكواكب الثابتة والشِّعْرَى الشامى يعتبر فى الدرجة الثامنة الجوزاء، وبرج مشهور من أبراج النصف الشمالى من الكرة ويتكون من ثمانين عددا من الكواكب. كما يعد علماء الفلك كوكبا يسمى رجل الجوزاء وهذا الكوكب يعتبر النجم الأول لبرج الجبار من الكواكب الجنوبية ومن حيث الضوء يعد فى الدرجة الخامسة.

(٢) هذا النجم هو الشِّعْرَى العبور.

يبزغان بعد الجوزاء ويبعد أحدهما عن الآخر طول رمحين. وإذا نظرنا إلى صورتهما، نجد أحدهما كبيرا جدا لامعا ومائلا إلى الجنوب والآخر صغير ومائل نحو الشمال ويسمى المائل نحو الجنوب الشِّعْرَى اليمانى والمائل إلى الشمال الشِّعْرَى الشامى وحسب اعتقاد العرب القدامى فإن الشِّعْرَى اليمانى عبر ذات ليلة خفية مع سهيل المجرة واغترب وإن الشِّعْرَى الشامى بكى لفراقهما إلى أن أصيب بغمض العين لذا أطلقوا على هذا النجم اسم الشِّعْرَى الغميض[1].

وأول من عبد الشِّعْرَى من طائفة خزاعة أحمق يدعى أبو كبش وكان من أشراف بنى خزاعة. وقد وقف ذات يوم على رأس قومه وقال: إن كل النجوم التى فى السماء تتحرك بشكل عرضى، ما عدا كوكب الشِّعْرَى فإنه يتحرك بشكل طولى، يعنى أنه يشير إلى أن الشِّعْرَى ليس كبقية النجوم. وإننى الآن سأترك عبادة الأوثان وأعبد الشِّعْرَى وأصبح كل من يتبعونه يعبدون الشِّعْرَى وخالفوا فى هذا آل قريش.

وقد أطلق مشركو قريش لقب أبو كبش على نبينا ﷺ إيماء إلى هذا السر ويريدون بهذا أن يشبهوه بأبى كبش لأنه أتى بدين جديد يخالف قريش.

والواقع أن نبينا ﷺ بهجة العالم، قد خالف قريش فى أمر عدم عبادة الأصنام وأبو كبش خالفها فى أمر عدم عبادة الأوثان انتهى.

تأسيس مدينة مكة المعظمة المشهورة

كان بنو خزاعة الذين استولوا على مكة المعظمة يتحاشون ويتجنبون الإقامة داخل حدود الحرم تعظيمًا للبيت الحرام، فكانوا يقيمون نهارهم حول الكعبة ويخرجون فى ليلهم خارج حدودها حيث يبيتون.

وكانوا يقولون إنه من الحرام المطلق اقتراف ما نهى عنه داخل حدود الحرم المحترم بناء عليه كانوا يبنون المنازل حول بيت الله.

(١) يسمى هذا الكوكب الشِّعْرَى الغميضا.

وعندما بلغ «قصى بن كلاب» مرامه بالحكومة الجليلة لأم القرى أتى بقومه وقبيلته وجمعهم وقال لهم: أيها القوم الكرام إذا بنيتم بيوتا ومساكن حول كعبة الله، لن تتمكن بقية الطوائف من طردكم وإبعادكم عن الأراضى الحجازية المباركة، بناء عليه أوصيكم أن يبدأ كل واحد منكم فى تهيئة مسكن له وبنائه حول بيت الله من جميع جوانبه فلما أجابه ذوى الأمر والنهى من جماعات قبائل قريش بقولهم أنت رئيسنا وسيدنا، ونحن نوافق على كل ما تأمر به ونتقبله قبولا حسنا فبادر بنفسه ببناء دار الندوة[1] بعد أن أعلن أنه سيتخذ من هذه الدار مقرا للحكم وقسم جوانب البيت الشريف الأربعة على طوائف قريش وعينها لهم، وأمر أن يقوم أفراد القبائل على الفور بوضع أساس البيوت والمنازل وأن يتركوا مكانا خاليا حول بيت الله للطواف. ولما استصوبت قريش رأى قصى بن كلاب، قدحوا زناد فكرهم وبدءوا فى بناء منازل وتزيينها فى الأماكن التى بينها لهم. ولم يبنوها حول أطراف بيت الله الأربعة، وجعلوا أبواب البيوت كلها تفتح فى اتجاه الكعبة المعظمة، وتركوا طريقا واسعا بين كل منزلين يسمح بالدخول إلى المطاف السعيد.

والمكان الخالى الشريف الذى تركوه بين بيت الله وبين البيوت التى بنوها هو المكان المقدس الذى يطلق عليه الآن اسم المطاف السعيد.

وبقيت البيوت التى بنيت فى عهد ابن كلاب على شكلها وطرازها الذى شيدت عليه فى البداية حتى عصر الفاروق الأعظم، وفى زمن خلافة سيدنا (عمر بن الخطاب) هدمها كلها وأدخل أراضيها ضمن ساحة المسجد الحرام، ووسع (عثمان بن عفان) وبقية أصحاب البر والإحسان دائرة الفيوضات الباهرة للحرمين الشريفين على النحو الذى سنذكره بالتفصيل فى موضعه، وجددوه على الصورة التى عليها الآن.

* * *

(١) رغم أن مجموعة من المؤرخين يقولون إن كعب بن لؤى قد بنى دار الندوة إلا أن ظنهم هذا غير صحيح.

ولما لم يكن فى أولاد كعب بن لؤى حتى مجئ ابن كلاب رجلاً متبوئا مقعد السلطة لذا جمع قصى بن كلاب كل مناصب الجاهلية: الحجابة ـ السقاية ـ اللواء ـ الندوة ـ النظارة[1] ـ صاحب القبة ـ الأزلام ـ خازن الأموال ـ الرفادة ـ القيادة. وأصبح صاحب المقعد والرياسة والحكم. ولكنه لم يستطع أن ينجح فى تغيير عادات الجاهلية التى تعد بين العرب من الأحكام الدينية، لذا ظلت العادات المذكورة حتى بعثة نور الهدى فى يد آل صفوان وآل عدوان وآل نسئة وآل مرة بن عوف.

استطراد:

أهل «نسئة»، كما ذكر المفسرون العظام بالبحث والتعريف، هم طائفة من عرب الجاهلية احترفوا القتل والسطو واعتادوا الصيد والقنص وحياة القلق. وحسبما تقضى شرائع إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ بمنع الحرب والجدال فى شهور رجب وذى القعدة وذى الحجة ومحرم، وكان ترك العادات المألوفة لمدة ثلاثة شهور متصلة أمرا ثقيلا على هذه الطائفة المذكورة فإنهم قالوا: لا طاقة لنا ولا نستطيع الصبر على ترك الحرب والقتال من ذى القعدة إلى صفر بشكل متصل.

أى الجلوس فى الخيام والاستراحة لمدة ثلاثة أشهر متصلة. وأعلنوا وأشاعوا بغير تردد عن ضيقهم من حكم هذه الشريعة الإبراهيمية (على رسولنا وعليه التحيات).

(قلمس بن عبد بن فقيم) الذى ينتسب إلى جماعة قبيلة ينتهى نسبها إلى كنانة، لجأ هذا الرجل إلى طريقة غريبة لكى يبطل ويفسد حكم عدم القتال فى

(١) وتسمى أيضا ركز القبة.

الشهور المذكورة، إذ ركب ناقة في موسم الحج السنوى الذى يعلن فيه البدو عن أفكارهم وخاطب أفراد القبائل الموجودة بالقرب منه وهو يريد أن يختبر درجة قوة عقيدة الذين هم على دين إبراهيم وإخلاصهم لها، فقال ما معناه: يا معشر العرب إن إلهكم قد أحل لكم هذه السنة شهر محرم ونقل حرمته إلى شهر صفر، وعلى الفور قامت مجموعة ممن أخذوا برأى قلمس وقوله بالإغارة وقتل قبائل البدو اعتبارا من تلك اللحظة، وعندما رأى قلمس أن حكمه فى هذا الأمر قد استقبل باستحسان وعرف أن فكره سيروج وقف فى موسم الحج فى السنة التالية خطيبا بينهم وأعلن أن حرمة شهر محرم قد تأجلت بأمر الله إلى شهر صفر، أى أن شهر محرم حلال وأن شهر صفر سيكون حراما بدلا منه واستقبل هذا الأمر عند أفراد جميع القبائل بسرور زائد.

وتصديقًا لهذا اعتاد أن يخطب فى كل موسم حج ويؤجل حرمة الشهر الذى يريده إلى شهر آخر.

وبعد قلمس انتقلت هذه العادة السيئة إلى ابنه عبادة وبعد وفاته إلى «قلع بن عبادة»، ومن بعده أيضا إلى «أمية بن قلع» ومن بعده إلى «عوف بن أميه» وعندما توفى عوف انتقلت إلى ابنه «أبى ثمامة جنادة بن عوف» وعندما أشرقت شمس الإسلام وظهرت أشعتها فى الأفق فى زمان أبى ثمامة جاءت الآية الجليلة لتبطل العادة المذكورة وتلغيها.

﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (التوبة: ٣٧).

واختلف المفسرون فى تحديد اسم الشخص الذى تجرأ وابتدع هذه العادة القبيحة فادعى بعضهم أنه نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة، وادعى البعض الآخر أنه جنادة بن عوف وبعضهم ادعى أنه قلمس بن عبد بن فقيم، والذين قالوا إنه قلمس بن عبد بن فقيم يؤيدون ادعاءهم بذكر قول الشاعر:

وفينا ناسئ الشهر قلمس

والقول الأخير مصدق عند الجمهور وجدير بالقبول والشخص المدعو قلمس[1] هو الجد الخامس لجنادة بن عوف الذى أدرك عصر النبوة.

ورغم أنه يوجد من يقولون بما ذهب إليه عبد الله بن عباس وأبو هريرة رضى الله عنهما، أن من وضع العادة السيئة بتأخير حرمة شهر إلى شهر آخر، هو عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف إلا أن المفسرين اتفقوا على صحة القول الأول ورواة القول الثانى لم يستطيعوا أن يرتقوا بقولهم إلى مرتبة الصحة والتواتر.

وقد نقلنا هذه التفصيلات التاريخية عن أهل السنة من التفسير القيم للإمام فخر الدين الرازى ـ عليه رحمة الله الهادى ـ ويقول الإمام الرازى قبل أن ينقل ويروى الأخبار والدراسات المتواترة للمفسرين إن حسابات عرب الجاهلية كانت مرتبة حسب السنة القمرية، ولهذا فإن شهور العرب فى زمن الجاهلية، كانت تعد اعتبارا من رؤية الهلال وقد اعتادوا أداء فريضة الحج فى اليوم العاشر من شهر ذى الحجة اتباعا لسنة سيدنا الخليل. وبهذا الحساب كان موسم الحج لا يتفق مع فصل بعينه كل سنة فكان أيضا يصادف أبرد أيام الشتاء وأحيانا يصادف أكثر أوقات فصل الصيف حرارة ولهذا فإن بعض المتأخرين من زمن الجاهلية لم يكونوا يجرأون على الذهاب أو المجئ إلى مكة المكرمة فى أوقات اشتداد البرودة والحرارة، وكان من يترددون عليها بسبب التجارة لا يتمكنون من البيع والشراء فى هذه الأوقات التى توافق وقت التجارة بسبب قلة عدد الحجاج.

وفى النهاية أحيل الأمر إلى مجلس قومى[2] يتكون من ممثل لكل قبيلة لإيجاد حل مناسب لهذا الأمر. وذهبت الهيئة المذكورة إلى أن الشهور المرتبة للسنة القمرية دخل بالمصالح الدنيوية ورأوا حلول موسم الحج فى وقت معتدل ومثمر حيث تزدهر حركة البيع والشراء على الوجه المطلوب ويسهل التردد على الأسواق والملاهى التى تقام عند أطراف مكة وقالوا: فإن أضيف شهر إلى شهور

(١) اسمه حذيفة وهو ممن اشتركوا فى واقعة أصحاب الفيل.

(٢) إن إمكان إحالة رياسة هذا المجلس إلى قلمس بن عبد بن فقيم بعيد الاحتمال لذا لا يوجد بين أقوال المفسرين وبين رواية الإمام الرازى.

هذه السنة نسأ أفراد القبائل شهرا. وأنه إذا روعيت هذه الأصول مرة كل ثلاث سنوات، فإن موسم الحج سيأتى فى كل سنة فى فصل ثم واحد من المحاصيل وبناء عليه يأتى الناس بمحاصيلهم فيكون حجا وزيارة وفى الوقت نفسه تجارة ورتبوا الشهور وفقا للسنة الشمسية ولأن السنة الشمسية تفترق قليلا عن السنة القمرية، احتاجوا إلى إضافة أيام فجمعوا الفروق التى تحدث بينهما وأضافوا شهرا إلى بعض السنوات واعتبروا أن شهور تلك السنوات ثلاثة عشر شهرا. وبعد هذا الترتيب صادف الحج فى بعض السنوات بشهر ذى الحجة ونقل من شهر إلى آخر.

وظهر نتيجة هذا النقل أمران هما زيادة شهر على بعض السنوات من فائض الأيام التى تنتج عن تجميع أيام السنة الكبيسة وتأخير شهر حرام إلى شهر آخر ولأن العبادات المرتبطة بالسنة القمرية تخل بالمصالح الدنيوية على زعمهم، تركوا حساب السنة القمرية وربطوا عباداتهم بحساب السنة الشمسية وأخروا ونقلوا شهرًا حرامًا إلى أشهر أخر.

والواقع رغم أنه قد تبدو فائدة دنيوية فى تركهم هذا إلا أن الله ـ تعالى ـ قد أمر باتباع حساب الشهور القمرية منذ عهد إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ عهد الهداية.

وبينما الحال يجرى على هذا الوضع ترك أهل الجاهلية الأمر الإلهى باتباع حساب السنة القمرية من أجل أن يحققوا حسن سير المصالح الدنيوية، وأخذوا بترتيب السنة الشمسية ونتيجة لحدوث هذا الترتيب بدئ فى تأدية الحج فى شهور غير الأشهر الحرم وكانت هذه الجرأة الجاهلية سببا فى إمعانهم فى الكفر، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد حدد حجهم فى الأشهر الحرم وحدها وإنهم فضلوا مصالحهم الدنيوية على التعليمات الدينية، إذ اتبعوا العمل بالسنة الشمسية وحجوا فى غير شهور الحج بوجود أيام كبيسة فى السنة الشمسية وتجرَّأوا على القول لحمل أتباعهم على قبول فكرتهم والعمل بحسابهم وليس باتباع حساب الشهور القمرية.

وازداد كفرهم بترك وإنكار أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى تطيعه كل الكائنات، وقد قام نبينا صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ بأداء الحج الشريف فى شهر ذى الحجة من السنة التى تكمل فترة دور النسئ(١) ولكى ترجع الأشهر الحرم إلى وضعها القديم أى لكى يصادف الحج اليوم العاشر من شهر ذى الحجة بعد مرور اثنى عشر شهرًا من موسم الحج فقد قال: «أيها الناس إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب الذى بين جمادى وشعبان» أو كما قال.

والمناصب التى جمعها «قصى بن كلاب» كانت كلها محترمة ومرغوبة عند عرب الجاهلية وتعتبر كل وظيفة منها من أقدس وأعظم الوظائف بين القبائل وكانت كل الوظائف المذكورة مسندة إلى أكثر الرجال مكانة وثراء من قبائل قريش، وكانوا يتوارثونها أبا عن جد بطنا بعد بطن.

الحجابة:

وكان أهل الجاهلية يطلقونها على مهمة حفظ أستار باب الكعبة المعظمة.

وفى زمن جاهلية العرب كانت خدمة بيت الله مفتاح مصباح السعادة، لذا استحوذت على الحجابة الأيادى القوية الخيرة وأخيرا انحصر منصب سدانة كعبة الله فى أسرة بنى عبد الدار بن قصى بن كلاب.

وأشرق نور نبينا كاسر الأصنام والأوثان وناشر أنوار الإيمان عليه صلوات الله المنان، وسدانة الكعبة المعظمة فى يد «عثمان بن طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى.

وتلطف ـ ﷺ ـ بعثمان بن طلحة ـ رضى الله عنه ـ وأسعده بأن أعاد إليه وأنعم عليه مرة أخرى بالمفتاح الشريف لكعبة الله بموجب الآية الكريمة التى نزلت بأن يطهر الحرم الشريف من الداخل والخارج من رجس الأصنام.

(١) سنة حجة الوداع.

وسبب الخدمة الجليلة لحجابة كعبة الله، فى أولاد عبد الدار هو الآتى: عندما تقدم العمر بقصى بن كلاب وصار شيخًا كان ابنه الثانى «عبد مناف» قد أصبح له من الشرف والمكانة بين قبائل العرب القدر الكبير ولم يتمكن أحد أن ينال مثل هذا الشرف وهذه المكانة ليس فقط من بين إخوته بل من بين صناديد أشراف قريش قبل والده وبعده.

ولما كان ابن كلاب يحب ابنه الأكبر عبد الدار من بين أولاده حبا جما واتفق مع زوجته «حبى» فى هذا الحب، لذا كانا يأملان أن ينال من الشرف والمكانة مثل ما ناله أخوه الأصغر عبد مناف.

واستبدت رغبة «حبى» بهذا الأمر حتى لم تعد تطيق صبرا على كتمانها، فقالت ذات يوم لزوجها قصى إننى سأغضب منك إن لم تؤمن لعبد الدار فى أثناء حياتك ما يجعله يحظى بالفخر والشرف بين القبائل فقال لها: بل اسعدى، فإننى سأسند إليه أمرا يجعله يشرف من يقوم به بين الناس، أتريدين أن تعرفى أية خدمة جليلة هى؟ إنها حجابة الكعبة العظمى ورئاسة دار الندوة حيث لا يستطيع أحد من أشراف قريش وسادات القبائل أن يدخل البقعة المقدسة لكعبة الله طالما لم يحصل على إذن من صاحب هذا المنصب. كما لا يمكن أن يرسل الجند إلى أية ناحية ما لم يصدر، وبناء على هذا قام قصى بن كلاب بتقسيم مناصب السنة المكرمة المعززة بين الناس وهى «السدانة والرئاسة والسقاية والرفادة والقيادة واللواء» بين ولديه عبد الدار وعبد مناف فأعطى عبد الدار سدانة الكعبة، ورئاسة دار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف خدمات السقاية والرفادة والقيادة.

وظل قصى يؤدى بنفسه هذه الخدمات الجليلة إلى أن وافته المنية، وعند وفاته أصبحت هذه الخدمات بموافقة صناديد القبائل لابنه عبد الدار وعند وفاة عبد الدار أصبحت سدانة الكعبة لعثمان بن عبد الدار، ورئاسة دار الندوة لعبد مناف بن عبد الدار، وقد تولى رئاسة دار الندوة أيضًا أبناء عبد مناف بن عبد الدار فى

حياة أعمامهم وذلك بأمر وتكليف منهم، ولهذا إذا أراد أحد من قريش أن يتناقش فى أمر مشكل كان يرجع إلى «عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار»، فيفتح دار الندوة ويرأس الأشراف الصناديد المجتمعين وكان أمر الرئاسة مسندا أحيانا إلى أبناء هاشم بن عبد مناف، وأحيانا أخرى إلى أبناء أخيه.

وقد انتقلت حجابة كعبة الله بعد عثمان بن عبد الدار إلى أبنائه وفى النهاية انتقلت إلى «عبد العزى بن عبد الدار» وعند وفاته انتقلت إلى «أبى طلحة بن عبد العزى بن عبد الدار» ثم إلى أولاده وأحفاده بعد وفاته.

عندما هاجر «عثمان بن طلحة» إلى المدينة المنورة وانفرد ابن عمه «شيبة بن عثمان» بمفتاح الكعبة الشريفة ومازال إلى الآن فى حوزة يد أولاد وأحفاد شيبة بن عثمان.

السقاية:

على وزن النهاية وكانت وظيفة خاصة بتقديم الماء العذب إلى الحجاج القادمين وذلك فى الجاهلية.

وفى نهاية فترة الجاهلية وبداية صدر عصر الإسلام ونتيجة لقلة الماء العذب فى مكة المكرمة كانوا يجلبون المياه من أماكن بعيدة، ويخلطونها بأشياء مثل التمر والزبيب، ثم يوزعونها على الحجاج كالشراب. وكان القيام بهذه المهمة الجليلة يسند إلى من يتولى المنصب الجليل «سقاية الحج».

وكان الذين يوكل إليهم سقاية الحجيج إلى ظهور ماء زمزم المكرم كما ذكرنا يملئون قربا كثيرة بالماء الذى يحصلون عليه ويتخذون لهم مكانا فى جانب الكعبة ويقدمون الماء لسقاية العطاش من الحجاج وكان السبب الرئيسى لابتداع هذه المهمة فقدان الماء فى مكة.

ذلك لأنه فى أواخر العهد الجاهلى لم يكن فى مكة المعظمة آبار للماء سوى الآبار التى أمر بحفرها «عبد شمس بن عبد مناف» فى ذى طوى وهاشم بن عبد

مناف فى المكان المسمى (شعب أبى طالب ومطعم بن عدى ابن نوفل بن عبد مناف فى المسفلة)، والآبار الآتى ذكرها والتى خص أصحابها بها أنفسهم وهم أمية بن عبد شمس، وبنو أسد بن عبد العزى وبنو الحجاج وبنو سهم ومرة بن كعب[1] وبنو كلاب بن مرة. ولهذا كان سواء الأهالى أو الحجاج يعانون من متاعب كثيرة بسبب قلة الماء، بناء عليه أنشأ قصى بن كلاب وظيفة سقاية الحج. وأنقذ أهل مكة إلى حد كبير من أزمة المياه.

(١) كانت بئر مُرّة بن كعب خارج المدينة.

الآبار الموجودة فى مكة المعظمة
قبل ظهور بئر زمزم الشريف

كان يوجد فى مكة المكرمة قبل ظهور زمزم الشريف ثمانية آبار معروفة مخصصة لسقاية الأهالى وهى: طوى، بذر، سجله، حفر، سقية، أم حراد، سنبلة، غمر.

ولهذا كان المكلفون بمهمة السقاية يأتون بالماء من هذه العيون ويعدون الشراب على النحو الذى وضحناه آنفا وكانوا يسارعون لسقاية الحجيج القادمين.

طوى:

اسم البئر التى حفرها عبد شمس بن عبد مناف على النحو الذى سبق التعريف به. وكانت هذه البئر تقع بجوار قصر محمد بن يوسف الثقفى المعروف باسم «بيضاء» الواقع فى الطرف العلوى من مكة المقدسة. وهى الآن من الآثار القديمة والتى تقع فى مكان يسمى «ذى طوى».

بذر:

اسم البئر التى حفرها هاشم بن عبد مناف، ويروى أنها كانت تقع فى ميدان شعب أبى طالب فى جبل خندمة وهى مندثرة الآن.

سجله:

هى البئر التى حفرها مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، وحسب ظن واعتقاد بنى نوفل أن مطعم بن عدى قد اشترى هذه البئر من أسد بن هاشم، ويقرر بنو هاشم أنه عندما ظهر زمزم الشريف وأغنى عن سائر الآبار قدم هاشم بن عبد مناف البئر المذكورة هبة منه إلى مطعم بن عدى.

حفر، سقية، أم أحراد، سنبلة، غمر:

هذه الآبار لا تعرف الجهات الكائنة بها، وبناء على الروايات التى تقول أن «حفر» هى البئر التى حفرها أمية بن عبد شمس وبئر بنى أسد «سقية» حفرها بنو أسد بن عبد العزى، و«أم أحراد» حفرها بنو عبد الدار، وسنبلة «بئر خلف بن وهب حفرها بنو جمح، و«غمر» حفرها بنو سهم لأنفسهم، وهذا يقتضى أن هذه الآبار موجودة فى عصر الصحابة.

وكانت الآبار الثلاثة المسماة «رم»، «خم» و«حفر» خارج مدينة مكة الشهيرة. وقد أمر مرة بن كعب بن لؤى بحفر بئر رم. وكلاب بن مرة بحفر خم، وحذيفة بن غانم بحفر بئر حفر، وأصبح فى حكم العادة فى مكة أن يجلب كبراء قريش الماء الذى يشربونه من هذه الآبار.

وعندما ظهر ماء زمزم وكان أصفى وأحلى من كل المياه، بدأ الناس فى الامتناع عن شرب مياه الآبار المذكورة ليس فقط لعذوبة مائه ولكن لقرب موقعه أيضا.

وفى الواقع فإن بئر زمزم الشريف الذى هو أحلى من مياه كل الآبار والعيون؛ لأنه بئر سيدنا إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام.

وعندما توفى عبد مناف بن قصى انتقلت مهمة سقاية الحجيج الجليلة، وخدمة الرفادة إلى ابنه هاشم بن عبد مناف، قام هاشم بمهمة السقاية هذه على أكمل وجه طوال فترة حياته، وبعد وفاة هاشم بن عبد مناف أسندت هذه الخدمة إلى أمية بن عبد المطلب، وقد استمر فى القيام بمهمته حتى ظهور بئر زمزم الشريف.

وبما أن عبد المطلب كان يملك كثيرا من الإبل، فقد كان يحلب ألبانها فى موسم الحج ويمزج لبنها بالعسل، ويمزج ماء زمزم بالزبيب، يقدمه للحجاج ليشربوا منه ويرتووا. وعندما توفى عبد المطلب بن مناف، انتقلت مهمة سقاية الحج إلى ابنه الأصغر عباس «رضى الله عنه».

وعندما انتفت الحاجة إلى سقاية الحجاج على النحو السالف لوجود ماء زمزم، كان عباس يجفف عنب الحدائق التى اشتراها فى الطائف ويمزج ماء زمزم بالزبيب، ويقدمه للحجاج وذلك اقتفاء لأثر والده.

ولما كان القيام بمهمة سقاية الحج فى زمن الهادى الذى منح النضارة لقلوب الناس القاحلة بماء حياة الإسلام، موكلة إلى عباس بن عبد المطلب بن هاشم، فقد تفضل النبى ﷺ بإلقاء هذه المهمة فى يده بإسنادها إليه رضى الله عنه.

مسألة:

- هل يجوز سحب السقاية من بنى عباس؟

والجواب: لا يجوز لأنها أسندت إليهم من قبل نبينا صاحب الشريعة عليه أجمل التحية وإذا كان إسناد خدمة السقاية المستقلة فى ظل نور الإسلام حقه أن يسند إلى أبى طالب بن عبد المطلب، فإنه كما سنوضح فيما بعد، فإن أبا طالب عندما استبدت به الحاجة، اقترض مبلغا من المال من سيدنا عباس ولما لم يستطع سداد هذا المال، ترك سقاية الحج المسندة إليه عن طيب خاطر وتبرع بها إلى عباس بن عبد المطلب تسوية للدين.

وعندما كان عباس بن عبد المطلب - رضى الله عنه - على قيد الحياة، كان يتولى بنفسه متابعة مهام سقاية الحجيج، وبعد وفاته انتقلت هذه الخدمة المقدسة إلى أولاده وأحفاده ثم إلى خلفاء بغداد، وفى النهاية انتقلت إلى يد أبناء الزبير ابن العوام.

لاحقة:

فى أثناء خلافة وليد بن عبد الملك عين خالد بن عبد الله القسرى واليا على مكة، وبناء على رأيه المجانب للصواب أصدر الأوامر بأن يحفر بئرًا فى كل من «ذى طوى» و«حجون» وذلك ليخفف عن الناس أزمة المياه(١).

وبما أن مياه هذه الآبار التى تم حفرها كانت أعذب من مياه بقية الآبار، فقد

(١) فيما يتعلق بانتقال السقاية إلى الزبيرانظر ما جاء فى الصورة الأولى من الوجهة السابعة.

سعد أهل مكة من حفر هذه الآبار واعتادوا على شرب مياهها دون أن يشربوا من مياه الآبار الأخرى.

وعندما رأى خالد بن عبد الله ميل الأهالى وتعلقهم بمياه هذه الآبار صعد المنبر على الفور وقال: «أيها الناس من الأعظم، الخليفة الذى تم اختياره وعين لإدارة شئون الأهالى أم الرسول الذى بعثه الله، فمن الممكن ألا تعرفوا عظمة الخليفة بينما سقى خليل الله إبراهيم ـ عليه التحية والتعظيم ـ ملح أجاج قد سقى خليفتكم ماء عذب فرات.

وبهذا كان يريد أن يفضل مياه هذه الآبار على ماء زمزم الشريف وأمر بصنع حوض من الجلد المدبوغ فى الحرم الشريف، وأن يملأ بماء هذه الآبار التى حفروها، وكأنه كان يريد أن يشير إلى أن مياه هذه الآبار أفضل من ماء زمزم الشريف.

والحال أنه بعد فترة انقطع ماء الآبار المذكورة تماما وانطمست الآبار ولا يوجد الآن من يعرف مكان هذه الآبار.

اللواء:

هو اسم مهمة فى الجاهلية مشهورة بين القبائل باسم اللواء.

وإن كانت هذه المهمة مقصورة على رجال أسرة بنى أمية، إلا أن ألوية قبائل قريش المسماة (العقاب) كانت مع حامل اللواء الذى يتولى المهمة المذكورة.

ومن جملة عادات الجاهلية أنه إذا استدعى الأمر تعبئة الجنود وتوجيههم إلى مكان ما، كان الشخص الذى يتباهى بالقيام بهذه المهمة يعقد مجلس الحرب. ويغرس الراية المذكورة حيث يشاء فيحتشد حولها أبطال قريش وكانت تعلن الحرب بغرس اللواء المذكور فى المكان الذى حدده عاقد اللواء عند وقوع الحرب ويجتمع الرجال المسلحون عند اللواء المذكور ويتم توجيههم إلى المكان الذى ستدور فيه الحرب.

وقد ظهر لواء الإسلام السعيد أثناء تولى أبى سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس مهمة حمل لواء قريش.

وقد انتقلت مهمة حمل اللواء بعد قصى بن كلاب إلى أبيه عبد الدار وعندما توفى انتقلت إلى أولاده وأحفاده. وظلت فى حوزة أكثر أفراد هذه الأسرة نفوذا حتى زمن غزوة أحد الجليلة، أيا من كان هذا الشخص، لكن جميع أفراد هذه الأسرة قتلوا جميعا فى الغزوة المذكورة.

الندوة ـ معناها الاجتماع:

وكانت الندوة تطلق على المجلس الذي يجتمع فى دار الندوة[1] التى بناها قصى بن كلاب فى الجاهلية. وكانت القرارات التى تصدر عن هيئة هذا المجلس تلقى قبولا حسنا بين القبائل بدون النظر إلى هذه القرارات هل هى صحيحة أم خاطئة، حسنة أم قبيحة؟

وبما أن المسائل الهامة المتعلقة بأهالى مكة المعظمة كان يتم بحثها فى هذا المجلس حتى إعطاء الإذن بزواج البنات كان يصدر من الهيئة المجتمعة فى دار الندوة، لذا كان ممنوعا منعا باتا أن يحضر الاجتماع فى دار الندوة من لم يبلغ العقد الرابع من عمره أى لم يبلغ أربعين سنة من عمره من رجال القبائل باستثناء أبناء قصى بن كلاب.

وكانت إدارة الهيئة المذكورة مسندة إلى أحد أصحاب النفوذ من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب رئيسا وعدد محدود من الأعضاء.

ولما كانت رئاسة هيئة دار الندوة موكلة إلى يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فقد أذن سيدنا محمد النبى رئيس مجالس الأنبياء أن يستمر يزيد فى أداءه مهمته بادئا بالبسملة فى اتخاذ الإجراءات الشرعية.

السفارة:

تم إنشاء هذه الوظيفة لإصلاح ذات البين، فإذا وقع نزاع بين أى قبيلتين أو جرى شجار أو نزاع بين رجلين، فإن الشخص القائم بمهمة السفارة يقوم مقام الحد الفصل فى القضية. وحكمه وقراره الذى يصدره لا يرد مهما كان القرار. وبذلك ينتهى النزاع.

(١) يطلق عليه أيضا منصب مشورة الأمور.

وكان منصب السفارة حكرا على أسرة بنى عدى بن كعب وعندما آل منصب السفارة إلى سيدنا عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب رضى الله عنه تولاه بنفسه وقد حان الوقت السعيد الذى ظهر فيه الذى أظهر المعجزات فى حل أصعب المشكلات - ﷺ.

النظارة:

كانت وظيفة مثل إدارة الرسوم فإذا نقلت أحمال أو أثقال أو البضائع من مكان إلى آخر، كان من الأصول المرعية فى الجاهلية أخذ رخصة حمولتها أو موقعة من الموظف الذى يتولى مهمة النظارة.

وقد بُعثَ النبى ﷺ وأبو بكر الصديق - رضى الله عنه - لنظارة قبائل بنى تيم، يتولى هذه المهمة.

صاحب القبة ومعناه ناصب الخيمة:

وكانت هذه الوظيفة وظيفة متواضعة فالذى يكلف بها كان ينصب خيمة لعظماء قريش.

إذا ما حدث شىء يشغل قريشا أو يحزنها أو إذا أيد بعث حملة عسكرية إلى جهة ما أو إذا اقتضى الأمر المشورة فى حادث مهم فكان صاحب القبة بحكم وظيفته ينصب خيمة فيجتمع فيها زعماء قريش يديرون الأقداح ويتشاورون.

ولما ثبت النبى - ﷺ - روح خيمة الإيمان كان هذا المنصب فى بنى مخزوم بن نقيط بن مرة وكان خالد بن الوليد بن المغيرة يتباهى ويفتخر بمنصب نصب الخيمة هذا.

الأزلام:

جمع زلم يطلق على سهام القرعة، كان العرب فى الجاهلية يقتسمون أموالهم بالسهام التى تسمى «الأزلام» ويتفاءلون بها.

وكانت وظيفة استخدام السهام وحفظها وظيفة مهمة إلى حد ما، لذا كانت لاتسند إلى أى شخص. وكل من يريد القيام بعمل ما كان يرجع إلى هذا الموظف ليعرف وجه الخير أو الشر. فى هذا الأمر وكانوا يعملون برأى هذا الموظف بعد إجراء القرعة.

طريقة التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام:

كان يؤتى بالسهمين ويوضعان فى جراب وقد كتب على واحد منهما كلمة «أمر» وعلى الآخر كلمة «نهى» ثم يكلف الشخص الذى يريد أن يتفاءل أن يخرج سهما من الجراب اعتباطا. وكان يلزم العمل بما كتب على السهم الذى أخرجه.

وكان يحتكر هذه الوظيفة بنو جمح بن عمرو بن كعب ويديرونها، وكان أفراد القبائل الأخرى يحبذون طريقتهم فى إجراء القرعة ويرضون بها.

وقد بعث خاتم الأنبياء ـ عليه صلوات الله الرحمن ـ وصفوان بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يتولى هذه العملية.

قرعة العرب فى الجاهلية

إن وظيفة التفاؤل بالأزلام كانت وظيفة مهمة عند العرب وكانوا يتفاءلون بثلاثة سهام؛ إلا أن العرب فى الجاهلية كانوا يقومون بإجراء أنواع أخرى من القرعة، وإنهم كانوا يلعبون القمار بالسهام فى شكل غريب.

من أشهر أنواع القمار عندهم كانت القرعة التى تسحب بالأزلام الكائنة عند «هبل» وكان يجمع بين هذه السهام وسهام الطالع وهو الذى كان يطلق عليه الميسر.

لأن العرب فى الجاهلية كانوا يحتفظون بجانب «هبل» صنمهم الكبير بسبعة سهام، وعند اللزوم كانوا يقترعون بهذه السهام ويعملون بموجبها.

وكان مسطورا على كل سهم من السهام كلمات مختلفة مثل: «دية المقتول» أو

«نعم الأمر» أو «لا» أو «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فإذا ما اختلف فى دية المقتول كانت تجرى القرعة بين أسماء المظنونين وبين سهم «دية المقتول» وكان الشخص الذى تصيبه «دية المقتول» يضطر لدفع الدية.

وكان أهل الجاهلية يقترعون بسهام «نعم ولا» فإذا ظهر سهم «نعم» يحكمون أن هذا العمل خير وعند ظهور «لا» يحكمون بأنه شر، وفى الحالة الأولى يمضون رأسا فى عملهم، وفى الحالة الثانية يؤجلون العمل سنة أخرى، ويجددون القرعة لنفس العمل.

إذا ما شك فى نسب شخص ما كانوا يقترعون بسهام «منكم - من غيركم - ملصق»، فإذا أصابت قرعة منكم، فيكرمون ذلك الشخص ويعزونه ويسعدونه، فإذا أصابت القرعة «من غيركم» يعتقدون أن القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الشخص فى حلف معهم، أما إذا أصابت القرعة «ملصق» يحكمون بأن ذلك الشخص مجهول النسب، وإنهم يثقون ثقة تامة فى نتائج الاقتراع بتلك السهام.

وإذا أرادوا أن يحفروا بئرا أو أن يكشفوا عن منبع ماء كان يكتب على السهم كلمة «مياه» وكانوا يقترعون به لتعيين محل الحفر أو الكشف.

وإذا أرادوا أن يختنوا طفلا أو أن يزوجوا بنتا أو يدفنوا ميتا كانوا يقترعون كما ذكرناه من قبل، ويعملون بموجب تلك القرعة.

إن الاقتراع بتلك النيات لم يكن يجرى فى أى مكان بل كان يجرى أمام هبل المنصوب داخل الكعبة، ويقوم به خادم ذلك الصنم.

وكان على الشخص الذى يرغب فى إجراء القرعة إعطاء خادم هبل مائة درهم وعدة رءوس من الإبل أو الغنم أو حيوانات أخرى، لتذبح قربانا، ثم يتجه إلى هبل قائلا: إن فلان بن فلان قد اشتبه فى نسبه، أو نريد أن نختنه - أو نزوجها - فدلنا على الحقيقة ووجهنا إلى ما يجب عمله.

وبعد ما يلهج بمثل هذه الكلمات يذكر الأمر الذى من أجله يريد أن يجرى القرعة، ويتضرع لهبل طالبا منه أن يظهر الحق والصواب فيما هو مقدم عليه،

وبعدما يذبح الحيوانات التى جلبها معه ويوزعها على الفقراء ثم يشير بإجراء القرعة، وهذه من جملة شروط القرعة ومن هنا كان على الذين يريدون إجراء القرعة أن يوفروا مقدارا من النقود، وأن يعدوا بعض الحيوانات ليقدموها لخادم هبل الذى يذبح الحيوانات ويوزع لحمها للفقراء، ثم يأمر بإجراء القرعة وكانوا يعملون بما جاء فى القرعة.

ولا يقتصر مكان إجراء القرعة على هبل بل يجوز لأى واحد من أهل الجاهلية إجراء القرعة فى أى مكان كان، وهذا نوع من أنواع قراءة الطالع، وكانت هذه القرعة تتم ـ أيضا ـ باستقسام الأزلام وقطع الخشب سالفة الذكر.

وكان يطلق سواء على قطع الخشب التى بجانب هبل أو قطع الخشب التى فى حوزة الناس أزلام ـ أقلام ـ أقداح. وإذا ما ترجمناها إلى اللغة التركية فمعناها سهام، إن الأخشاب التى يستعملها قارئ الطالع ثلاث قطع كتب على أحدها «أمرنى ربى» وعلى الثانية «نهانى ربى» وترك الثالث بدون كتابة أو إشارة. وكان قارئ الطالع فى الجاهلية يباشر عمله؛ ليبين للذين يلجأون إليه طالبين حكم الأزلام فيما يقدمون عليه من عمل، فيقوم بخلط الأسهم الثلاثة ثم يضعها فى جراب ويختار أحد الأشخاص الذين يثق فيه أصحاب الشأن، ويطلب منه أن يدخل يده فى الجراب ويخرج السهام واحدا تلو الآخر، ويقرأ ما كتب عليها ويبين حكم القرعة.

وكان لابد أن يعتقد أهل الجاهلية إذا أصابت القرعة كلمة «أمرنى ربى» أن هذا العمل خير وإذا أصابت القرعة السهم الذى يكتب عليه «نهانى ربى» أن هذا الفعل شر، وإذا أصابت القرعة السهم الخالى من الكتابة كانت إعادة إجراء القرعة بعد مرور سنة من الضرورات الدينية.

وبناء على هذا فالذين يريدون القيام بعمل ما ويريدون أن يعرفوا وجه الخير أو الشر فى هذا العمل، يلجأون إلى قراءة الطالع ويجرون القرعة بثلاثة أسهم يضعونها فى جراب بعد أن يخلطوها، ثم يكلفون أحد الذين يثق بهم صاحب

الشأن فى حسن طويته ويجعلونه يمد يده داخل الجراب، ويخرج السهام واحدًا واحدًا وينظرون على المسطور فوق السهام وينطقون ببعض الكلمات يبينون إذا ما كان فعل هذا الأمر خيرا فيمضون فى فعله أو شرا يمتنعون عنه.

ومن جملة شروط إجراء القرعة أن يلف الرجل الذى يدخل يده فى الجراب قطعة من الجلد المدبوغ الناعم حول يده تسمى ريانة والغرض من هذا ألا يحس الرجل بعلامة ما على السهم فيخرجه ويجامل الأشخاص الذين يحبهم ويخرج لهم ما يريدون من السهام.

وكانت مهمة الرجل الذى يقوم بإجراء القرعة بالأزلام مهمة رسمية يقوم بحل الخلافات التى تحدث بين الحكومة والقبائل، ويفصل بينهما بينما يقوم الآخر بالفصل فى الخلافات التى تحصل بين الأفراد بعضهم بعضا ومن هنا كان يختلف كل منهما عن الآخر.

وذهب بعض المؤرخين فيما نقلوه من روايات، أن الاستقسام بالأزلام هو إنه عند ما يهم إنسان بالقيام بعمل مهم يأخذ معه ثلاثة سهام أو سبعة منها ويضعها فوق الحجارة التى نصبت حول المسجد الحرام والتى يقال لها نصب[1] ويستمد من هذه الحجارة المعونة فى تحقق تلك الأعمال، ويذبحون لها قرابين طلبا لرضاها.

لعب القمار فى الجاهلية

كان الناس فى الجاهلية يلعبون القمار بضم وجمع عشرة سهام واسم هذه اللعبة «ميسر» وهذا بناء على تدقيق علماء التفسير العظام ـ رحمهم الله العلى ـ وأخبارهم، وإطلاق لفظ ميسر لهذه اللعبة، لأنه يمكن كسب المال بيسر وسهولة فيها.

وكان يجتمع عدة من أغنياء الجاهلية ويشترون بالدين كثيرا من الجمال على أن تدفع أثمانها فيما بعد ويذبحون هذه الإبل ويقسمون لحومها ثمانية وعشرين جزءا

(١) ومن الروايات الموثوقة أن هذه النصب كانت أصناما وكان عندها ثلاثمائة وستين قطعة.

ثم يقسمون هذه الأجزاء على عشرة سهام وهذه السهام هى ١ـ فذ ٢ـ توام ٣ـ رقيب ٤ـ حلس ٥ـ نافس ٦ـ مسبل ٧ـ معلى ٨ـ منيح ٩ـ سقيح ١٠ـ وغد.

وبناء على أصول لعبة الميسر يجعل ويفرز لكل سهم أنصبة معينة وتترك بعضها من غير نصيب وكان لفذ نصيب واحد وللتوأم نصيبان وللرقيب ثلاثة أنصبة ولحلس أربعة ولنافس خمسة ولمسبل ستة ولمعلى سبعة وتترك سهام منيح وسقيح وغد بدون أنصبة.

ويذبح المقامرون الأغنياء هذه الإبل ويقسمونها أنصبة حسب حصص الأسهم المذكورة، ويضعون كل نصيب فى مكان معين ثم يضعون السهام فى جراب أو إناء بعد أن يخصص لكل مشترك جرابا باسمه، ثم يسحبون بواسطة رجل موثوق سهما من جراب كل مشترك ويعطون نصيب كل واحد منهم حسب ما جاء فى السهم.

والشخص الذى أصابه سهم من السهام التى لا نصيب لها لا يأخذ شيئا من لحوم الإبل ولكنه يجبر على دفع نصيبه من ثمن الإبل.

وبعد سحب القرعة وجمع نقود الإبل وتوزيعها وتسليمها إلى أصحابها، يقوم كل واحد منهم بتوزيع كل اللحم الذى كسبه على الفقراء مباهيا مفتخرا.

وكانوا يذمون الذين لا يشتركون فى اللعبة ويصفونهم بالبخل والتقتير، بل وينشدون قصائد الهجاء فى ذمهم. «انتهى»

خازن الآلات والأموال:

هذه الوظيفة عبارة عن نظارة الخزانة[١] العامة وكانت الأموال والأسلحة التى تدخر للحرب توضع تحت عهدة هذا الموظف، وظهرت شوكة الإسلام حينما كانت هذه الوظيفة فى عهدة حارث بن قيس بن عدى بن سهم من بنى سهم بن عمرو بن هصيص، ورفعت حجب الكفر والظلام عن الأنظار.

رفادة:

على وزن إفادة وتأتى بمعنى المسئول عن نفقات أصحاب الحرف وكانت وظيفة هامة وذات مكانة وقد ابتدعها قصى بن كلاب بن مرة.

(١) يطلق عليها بيت المال أيضاً.

وكانت قريش بناء على تصويب ابن كلاب وترتيبه تجمع مقدارا من النقود وتشترى بها التمر والزبيب والحبوب وتقدمه تحية لقوافل الحجاج فى مواسم الحج.

وكان فقراء الحجاج حتى زمن قصى بن كلاب يعانون من مشكلة كبيرة، لهذا فكر ابن كلاب بينه وبين نفسه فى سبيل لحل هذه المشكلة وقرر ترتيب هذه الرفادة.

إذ جمع رجال قبيلته يوما وقال لهم يا معشر قريش إنكم تسكنون حول كعبة الله وتتميزون بلقب سكان أهل البيت، وتتمتعون بالإقامة داخل حدود بلد الله، لذا فأنتم مدينون بإطعام الحجاج الذين يأتون استجابة لدعوة الله.

ولكى تظهروا للضيوف القادمين مظاهر الاحترام على الشكل اللائق بهم، عليكم أن تسارعوا فى مد موائد المآدب لفقراء الحجاج فى كل عام أما إقامة هذه المآدب فيكون بتخصيص مقدارا من المال سنويا وإعطائه إلى وكيل الصرف ليشترى به البضائع اللازمة لإطعام الحجاج. وبما أنه كان نافذ الكلمة بين القبائل العربية فقد استحسن اقتراحه وهكذا وضع نظام الرفادة الشامل النفع وبناء على ذلك أخذت قريش تجمع فيما بينها النفقات اللازمة لهذا الغرض، وكأنها ضرائب مفروضة، وتسلمها لابن كلاب، وهو بدوره يتولى توفير البضائع اللازمة لإطعام فقراء الحجاج فى مواسم الحج وهكذا برزت مظاهر كرمه واحترامه للحجاج.

وقد بعث النبى ﷺ ونظام الرفادة فى يد الحارث بن عامر بن عبد مناف.

وقد أطعم الحجاج فى السنة التاسعة الهجرية بواسطة أبى بكر الصديق وقد أطعم الحجاج فى حجة الوداع بلا واسطة.

وقد قام سادتنا الخلفاء الراشدين بمراسم الرفادة على الوجه الأكمل فى سنوات خلافتهم.

إن نظام الرفادة أو عادة إطعام الفقراء من الحجاج قد انتقلت إلى الخلفاء العباسيين وإلى سلاطين البلاد الإسلامية وكانت تتم بواسطة ولاة ولاية الحجاز الجليلة فى سوق منى فى مواسم الحج.

حكى المرحوم تقى الفاسى من مؤرخى مكة المكرمة ومن الذين شاهدوا رأى العين إقامة سماط الرفادة وكتب فى كتابه «تاريخ مكة» وقال: كانت الرفادة فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وأوائل الدول الإسلامية من الأصول المقررة والمرعية وقد رأيت أنا أيضا إقامة موائد الرفادة. كان الطعام الذى سيقدم إلى فقراء الحجاج يطبخ فى صحراء منى السعيدة ويطعم الحجاج إلى نهاية الحج، وذلك بناء على أوامر السلاطين وقد ألغى هذا النظام فيما بعد ولكننى لا أعرف تاريخ إلغائه ولا أتذكر فى عهد مَنْ مِنَ الحكام قد ألغى.

وظلت عادة الرفادة ملغاة إلى يومنا هذا إلا أن القائمين بإمارة مكة يقومون بتوزيع مختلف أنواع الأغذية ومقدار كاف من اللحوم على جنود السلطان وخاصة الحجاج الفقراء الموجودين فى منى منذ عودتهم من المزدلفة حتى يوم توجههم إلى مكة المكرمة.

وفى الليلة الثانية للعودة من المزدلفة تقام احتفالات كبيرة أمام خيام شريف مكة ووالى الحجاز ويتم إطلاق الألعاب النارية خارج خيام المحمل الشامى والمصرى ليبعث الفرح والسرور فى قلوب الحجاج ذوى الابتهاج بمشاهدة هذه المناظر. وفى اليوم الأول من عيد الفطر يقوم شريف مكة كرما منه بمد سماط المآدب الرفيعة إلى رجال الأهالى وموظفى الدولة الموجودين وقد بلغت هذه المآدب من الفخامة ما يفوق الوصف.

وقد حضرت مأدبة سنة ١٢٨٩. قد مدت مائدة يطلق عليها «السماط» فى غرفة مستطيلة وتزينت بكل ما يمكن توفيره من أنواع الأطعمة اللذيذة والفواكه النادرة وقد جلس حولها أمير مكة ووالى المدينة والضيوف.

وكانت المائدة ترتفع عن الأرض مقدار قدم ونصف قدم وكان طولها ٣٩ قدما وكان عرضها تسعة أقدام.

وترك للمدعوين حرية اختيار الطعام الذى يرغبون فى تناوله حسب الأصول وبالتالى كان كل شخص حرا فى القيام أو الجلوس وفق رأيه.

وقد استمر إطعام الضيوف إلى المساء إلا أن حضرة الشريف لم يمكث إلى نهاية الطعام بجانب المائدة.

وقد تم إطعام الضيوف جماعَة بعد جماعة ثم أكرم الضيوف بحضور الأمير بتقديم فنجان قهوة لهم.

وفى هذا اليوم الذى بسط فيه السماط لم يبق إنسان فى مكة إلا وأكل وشبع من هذه النعم، وبما أن هذه الضيافة تقام كل سنة من قبل شريف مكة فإن ما يصرف فيها يساوى ما كان ينفق من أجل الرفادة.

إن كل لقمة مما أعد لإطعام الناس تفوق من حيث الفخامة ما كان يقدم فى العصور السابقة عدة مرات ومع هذا فإن ما يقدم من طعام فى سماط مكة وما يقدم لجنود السلطنة والفقراء من اللحوم والأغذية فى منى لا يوافق أصول الرفادة لأن الأصول المرعية فى الرفادة إطعام الحجاج وبدون استثناء. ويجب ألا تقتصر هذه الضيافة على إطعام الفرقة العسكرية وبعض الفقراء.

ولكننا لو تذكرنا أن عدد الحجاج الواقفين على جبل الرحمة كانوا قلة قليلة فى العصر الجاهلى وكان ما يقدم لهم فى أثناء ضيافتهم التمر والزبيب فإن القيام بمثل هذا العمل غير ممكن فى عصرنا هذا.

فعدد الحجاج فى عصرنا الراهن تجاوز ثلاثمائة أو أربعمائة ألف، ومأدبة الرفادة من تمر وزبيب قد تحولت إلى أطعمة متنوعة ولحوم مطبوخة لذا فإن القيام بهذا العمل حسب أصول الرفادة فى العصر الجاهلى يكاد يكون مستحيلاً وغير قابل للتنفيذ.

وبما أن مأدبة الضيافة التى أقيمت من جانب الإمارة السنية قد عمت المعايدة الرسمية وكانت سببا فى اختلاط الفقراء مع الأغنياء والوجهاء والأشراف فحسناتها زادت مرات ومرات على أصول الرفادة ونظامها.

شكل السماط

أصول المعايدة: يبدأ أهالى مكة المكرمة مع حلول مواسم الأعياد فى تحسين صلتهم بعضهم مع البعض، وبهذا يجددون علاقات المودة والإخاء فيما بينهم.

ومن العادات القديمة المرعية أن أهل مكة المكرمة يقسمون أيام عيد الفطر، بحيث يكون الاحتفال به فى أحد الأحياء إذ يعلن أصحاب الشأن أن العيد اليوم فى حى فلان ويستقبل أعيان وعظماء هذا الحى فلان وفلان وفلان زوارهم فى منازلهم. وفى هذا اليوم يتفق الأعيان والعظماء والأغنياء فيما بينهم ويحددون الشخص الذى سيستقبل الزوار للمعايدة. لذا يسرع سكان الأحياء الأخرى إلى الحى الذى سيحتفل فيه بالعيد.

كما أن سكان هذا الحى يذهبون فى اليوم التالى إلى بيوت أعيان الحى وأثريائهم وهكذا يسرعون فى أداء مراسم المعايدة المتبعة. إن سكان مكة المكرمة يهتمون بهذه العادة ويرعونها أعظم الرعاية حتى إنه لا يبقى فى مكة أفراد صغارا كانوا أو كبارا إلا لقى بعضهم بعضا ويدعون لهم بالخير.

وتشمل هذه المعايدة، أصحاب القبور من الموتى، لذا يذهب الرجال ثم النساء فى اليوم الأول من عيد الفطر الشريف للمعايدة ويظلون هناك إلى وقت الزوال فى مقبرة المعلى وسائر المقابر حيث يزورون أقاربهم ويتلون بعض السور القرآنية ثم يعودون إلى منازلهم.

ومما لاشك فيه أن هذا الأمر من السنن السنية الحسنة إلا أنه قد أسئ استغلال هذه العادة إذ أصبح اختلاط الرجال بالنساء فى المقابر حكم عادة وبما أن هذه العادة ستؤدى إلى الاختلاط والفساد فمن الواجب منع اختلاط الرجال بالنساء هناك. انتهى.

إن طريقة المعايدة الحسنة التى ذكرناها من العادات المتبعة فى بعض بلاد الأناضول والرومللى.

إننى قد حضرت العيد فى بعض ولايات الأناضول وكذلك فى ولايات الرومللى كما حضرت مراسم العيد فى مكة المعظمة، إذ إن المعايدة فى تلك الولايات لا تطابق تماما المعايدة فى مكة المكرمة[1].

(١) لا يحتفل بعيد الأضحى بهذه الصورة لأن الأهالى فى أيام عيد الأضحى يتواجدون فى عرفات ومنى يؤدون الشعائر.

ولما كان أهالى كل قرية فى تلك الولايات يذهبون إلى القرى الأخرى يتزاورون للمعايدة فيمكن أن نعتبر ذلك مُشَابهًا لأصول معايدة مكة المكرمة.

القيادة:

تعنى إمارة الجيش وهى عبارة عن قيادة الجيش فى الحرب والقتال.

إن هذه المناصب كانت خاصة بقريش لذا فإنها تتفوق على القبائل الأخرى بهذا المنصب وتفتخر به.

لما أسند ابن كلاب مهام الحجابة والسقاية واللواء والرفادة الهامة إلى ابنه عبد مناف وهو مازال على قيد الحياة فكأنه اختاره وليا للعهد.

وأسند إلى ابنه الكبير عبد الدار مهمة إدارة دار الندوة لتسوية نزاعات قريش.

وقد أوصى عبد مناف بإدارة حجابة البيت واللواء والسقاية والرفادة بموافقة بقية أخوته وخاطب عبد الدار قائلا « يا بنى إننى أجعلك رئيسا على القبيلة، حيث لا يستطيع أى إنسان من أشراف القبائل أن يدخل كعبة الله طالما لم تفتح لهم بابها، ولا يستطيع إنسان أن يعقد لواء الحرب دونك، واللواء المزمع عقده يجب أن يكون فى يدك بلا منازع ولا يستطيع إنسان فى مكة أن يشرب من ماء زمزم إلا إذا سقيته أنت ولا يستطيع إنسان أن يأكل طعاما فى موسم الحج إلا إذا أكل من طعامك. ولا يبت فى أمر من أمور قريش الهامة إلا إذا تم الحكم بذلك فى بيتك.

اختلاف قريش:

بعد وفاة «قصى بن كلاب» أدار أبناؤه بموجب وصيته لعبد الدار حكومة مكة متفقين، ولكن فيما بعد ظهر بينهم الخلاف، فإن بنى عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس وعبد المطلب ونوفل تباحثوا عن شرفهم وفضلهم وفكروا فى انتزاع مناصب الحجابة والسقاية واللواء والرفادة من أيدى بنى عبد الدار فدبت بينهم الخصومة، وتباهوا وقالوا: إنهم أجدر وأحق منهم بالقيام بهذه الخدمة الجليلة وادعوا أنهم الأفضل والأشرف - فى كل الجوانب - من أبناء عمهم عبد الدار، وأخذوا يتحرشون ببعضهم باستمرار، وفى النهاية اتفقوا على أن يحال الفصل فى النزاع الدائر بينهم إلى زعماء القبائل للحكم فيه.

أما زعماء القبائل فقد اختلفوا فى أمر هذا النزاع إذ التزمت جماعة منهم جانب بنى عبد الدار حتى لا يخالفوا وصية قصى بن كلاب، والتزم البعض الآخر جانب بنى عبد مناف تحكمهم فى ذلك بعض المصالح العصرية.

وعندما ظهر هذا النزاع كان صاحب النفوذ فى أبناء عبد الدار هو عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أما صاحب الكلمة النافذة والأمر فى أبناء عبد مناف فهو عبد شمس بن عبد مناف.

وبعد مناقشات ومجادلات ومحاورات بين رجال القبائل المختلفة التى التزمت جانبا من الجانبين، قرروا إسناد مناصب السقاية والرفادة إلى بنى عبد مناف وتظل إدارة دار الندوة فى يد بنى عبد الدار وهكذا أسكتوا الجانبين وألزموهما بهذا الاتفاق وأجبروا الطرفين على توقيع معاهدة بهذا الأمر.

وبناء على هذا الاتفاق أعطيت مهمة السقاية والرفادة إلى أبناء بنى هاشم بن عبد مناف وبقية المناصب إلى بنى عبد الدار وقد أظهر كلا الطرفين رضاهما وموافقتهما على هذا الحكم، إلى أن توصلوا إلى هذا الحكم والنتيجة كانت ست بطون من قريش قد اتفقت وتعاهدت على أن تحمى بنى عبد الدار من غدر بنى عبد مناف وأطلق على هؤلاء أحلاف قريش وهذه البطون الست هى: بنو عبد الدار وبنو عمرو بن هصيص بن كعب وبنو جمح عمرو بن هصيص ابن كعب وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة، وبنو عدى بن كعب، وبنو الحارث بن فهر بن مالك بن النضر. وقد سعى كل هؤلاء على أن يصطحبوا أحد أبناء عبد الدار وأن يكونوا عونا ونصرا لهم حتى لا يهزموا أمام بنى عبد مناف.

واتفقت قبائل بنى أسد بن عبد العزى بن قصى وبنو زهرة ابن كلاب وبنى تيم بن مرة بن كعب، مع أبناء عبد شمس بن عبد مناف أما قبائل عامر بن لؤى ومحارب بن فهر فقد بقيت على الحياد ووقفوا موقف المتفرج انتظارا لما سينتهى إليه الأمر.

وأقسمت كل جماعة من الجماعات المتفقة على ألا يتخلوا أو ألا يتراجعوا عما أقسموا واتفقوا عليه.

وعقب ذلك أحضرت نساء عبد مناف إناءًا مملوءًا بالطيب الرطب، وتركته أمام الجماعة الموجودة عند كعبة الله وتبعا لعادة الجاهلية غمس رجال الجماعة المتفقة أيديهم فى هذا الإناء ومسحوا أيديهم الملطخة بالطيب على جدران الكعبة المشرفة تأكيدا لقسمهم وأقسموا مرة أخرى على المحافظة على القرار الذى اتخذوه.

وكان قصدهم من هذا أن يؤكد كل فريق منهم للآخر ثباته على هذا فأقسم بشأن ذلك القرار المتفق عليه.

وعلى الرغم من حمل الفريقين المتفقين أسلحتهم بعد هذا القسم واستعدادهم للحرب، إلا أن زعماء القبائل قرروا فيما بينهم التوسط بين أبناء عبد الدار وأبناء عبد مناف وأسفر هذا التوسط عن إجبارهم على قبول ما تم الاتفاق عليه. فانطفأت نار الحرب والقتال التى كادت أن تنشب بينهم بماء الصلح المقترح. وبهذه الصورة تم الحفاظ على الاتفاق الذى تم التوصل إليه حتى عصر النبوة. انتهى.

وكان لعبد مناف ابنان آخران غير عبد المطلب، ونوفل وهما عبد شمس وهاشم، وكان لكليهما نصيب فى مناصب الرفادة والسقاية بناء على قرار القبائل الست. وكان عبد شمس شديد الفقر مع كثرة العيال وكان أخوه هاشم من الأغنياء، ولما كانت إدارة السقاية والرفادة من الأمور المرتبطة بالمال والثراء فقد أسندت كل منها إلى هاشم، فتولى مهمتهما وفق هذا القرار.

واسم هاشم الأصلى هو عمرو، وقد أطلقوا عليه هذا الاسم لأنه هو الذى ابتدع طعام الثريد فى مكة المكرمة.

وهاشم هذا هو الذى ابتدع تسيير القوافل إلى اليمن شتاء وإلى الشام صيفا للتجارة، وسارت قريش على نهجه فيما بعد لأن قريشًا وإن كانت تشتغل بالتجارة قبل ذلك إلا أن تجارتهم كانت مقصورة على أطراف مكة فقط.

وحدث فى أثناء سفره إلى الشام أن علم القيصر حاكم الشام بأمر شرفه وحسبه وعلو قدره بين قومه فاستدعاه وأظهر له الشيء الكثير من الاحترام والاهتمام، وفى خلال حديثه معه ألمح له أنهم يأتون بأمتعة الحجاز واليمن إلى الشام فى الصيف ولما كان هذا الأمر يتطلب رخصة تتضمن عهدا بالأمان فأعطاه

القيصر حاكم الشام هذه الرخصة رعاية لمكانته بين قومه وسمح له بأن يتردد رجال قريش على الشام للتجارة.

وبعد فترة قصيرة حصل أخوه عبد شمس من حاكم الحبشة على رخصة مماثلة ومطلب من حكام اليمن.

وكذلك حصل نوفل من حكام بلاد فارس على رخصة مماثلة وهكذا عودوا قريش على التجارة مع هذه البلاد، وكان هذا نوع من الأصول والعقبات التى أزلها قصى عن طريق الإجازة.

وكانت قريش التى تسكن مكة ـ آنذاك ـ آمنة من غارات لصوص البدو الذين يغيرون على القبائل التى تسكن حول مكة لأنهم ينهبونها.

وكان الشعار الذى ترفعه قريش أمام اللصوص قولهم: نحن سكان حرم الله وأهل بيت الله الحرام، إلا أن هذا الشعار كان يفيد عندما يتجرءون على دخول مكة المكرمة، لذا كانوا لا يتجرءون على الابتعاد عن مكة كثيرا وفيما بعد استطاعت قريش تحت حماية وظل أبناء عبد مناف أن تتمتع باستيراد البضائع وتصديرها إلى كل مكان.

وقد أحسن هاشم بن عبد مناف القيام بأداء المهام التى أسندت إليه بموجب قرار القبائل الست وذهب إلى الشام لغرض التجارة وفى أثناء وجوده فى ولاية غزة[(١)] انتقل إلى رحمة الله فانتقلت مناصب السقاية والرفادة التى كانت مسندة إليه إلى أخيه عبد المطلب أعظم وأكبر شخصية فى قريش حينئذ.

وبعد وفاة هاشم بفترة قصيرة مات أخوه عبد المطلب فى مكة ومات أخوه نوفل بن عبد مناف فى أثناء رحلة فى العراق وبذلك انتقلت أعباء إدارة المنصبين الجليلين إلى عبد المطلب جد النبى ـ ﷺ ـ وولده عبد الله.

بلغ عبد المطلب من الشرف والجاه ما لم يبلغه آباؤه وأجداده ونال محبة الناس، ولم يكن له من أبناء سوى الحارث ولهذا كنى بأبى الحارث.

وذات يوم قال ابن عمه عدى بن نوفل بن عبد مناف ليس لك أبناء سوى

(١) اسم بلد مشهور فى أرض فلسطين.

الحارث فإنك إذا تصورت أن تتولى رئاسة قبائل قريش لفترة طويلة، فهذا الأمل واه وعبث بالنسبة لك. أما نحن فأبناؤنا وأتباعنا كثيرون، وسيئول لنا ـ ذات يوم ـ زمام الرئاسة وهو أمر غنى عن التعريف أو التذكير به.

فأجابه عبد المطلب: أتخيفنى بسبب قلة أولادى؟ إن شاء الله سيكون لى من الأبناء عشرة، وعندئذ أذبح أحدهم قربانا عند الكعبة ابتغاء مرضاة الله[1].

وحسب حكمة الله، فبعد فترة نال عبد المطلب ما تمناه وبلغ عدد أبنائه عشرة كاملة وعندئذ جال بخاطره ما نذر وأقلقه هذا الخاطر طويلا وأطال التفكر فى هذا الموضوع ثم قرر أن يستدعى أبنائه ويشرح لهم الأمر وأخذ موافقتهم واحدا بعد الآخر، ورأى أن يكتب أسماءهم كل على حدة على عشرة سهام من سهام القرعة، ثم أخذ هذه السهام، واصطحب أبناءه عند الصنم الكبير المسمى هبل داخل كعبة الله. وضرب القرعة لاستكشاف الطالع حسب العادة المتبعة فى الجاهلية، وخرجت القرعة باسم عبد الله والد النبى ـ ﷺ ـ وأحب أولاده إليه وأفضلهم، ولم يأتِ هذا التفضيل والحب البشرى من الفراغ لأنه رأى فى المنام عدة مرات ما يبشر بأن هذا الابن سيكون له شأن كما رأى فى ولده هذا أشياء خارقة تدل على أنه سيكون والدا للجوهر النادر لسيد البشر، ونتيجة لكل هذا فإنه كان يفضل ابنه ويقدمه على إخوته، ويأمل بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سينجيه من الذبح ونروى واحدة من الخوارق التى جعلت عبد المطلب يأمل أن يكون ابنه أبا سيد البشر.

أفشى عبد الله ـ ذات يوم ـ سرًا لأبيه حيث قال: يا والدى العظيم، إننى متى أخرج من مكة وأصعد جبل ثبير وحيثما أجلس، يظهر فى ظهرى شعاعان من نور لامع يتجه أحدهما وينتشر ناحية الشرق وينتشر الآخر ناحية الغرب، وبعد فترة يتجمعان مثل السحاب الممطر الذى يسطع ويعلو نحو السماء ثم يعودان إلى ظهرى مرة أخرى، ويتم كل هذا فى لحظة واحدة، كما أننى أسمع فى الأماكن التى أجلس فيها هاتفًا يقول: السلام عليك أيها المستودع فى ظهره نور محمد

(١) جرى هذا الحوار أثناء قيام عبد المطلب بحفر بئر زمزم، وتفصيل هذه الواقعة مدون فى الصورة الخامسة من الوجهة الأولى أى فى قصة زمزم.

ﷺ، وإذا جلست تحت شجرة جافة، إذا بها تخضر وتكتسب نضرة وعندما أبرح المكان تعود الشجرة متلفة الساق إلى حالتها الأولى.

وهكذا كان ينقل لوالده ما رأى من الخوارق بعين بصيرته وبصره فقال له أبوه: يا بنى إننى أبشرك وأهنئك بحملك النور المحمدى، وقد بشرت بهذا عدة مرات وكل الرؤى التى رأيتها قبلك ـ تدل على أنه سيولد من صلبك الشريف من سيزين القماط.

والواقع أنه كلما كان يتقرب من اللات والعزى وهى من أكابر أصنام قريش كانا يخاطبان عبد الله بصوت مشابه لصوته قائلين: أنت لا تحفل بنا ولا تعبدنا! إن النور الذى سيضئ الدنيا قريبا ذلك النور الذى فى ظهرك هو نور محمد عليه سلام الله الأحد، وإن صاحب هذا النور سيحطمنا كما سيحطم كل الأصنام ويقضى علينا جميعا.

ولدلالة الأسباب الظاهرة السابق ذكرها أحب عبد المطلب ابنه عبد الله أكثر من بقية إخوته ولأجل ذلك كان يخاف عليه حتى من هبوب الرياح ومع ذلك كان يثق أيضا فى السهام التى بجانب هبل عند إجراء القرعة بالقدح(١).

وبناء على ذلك عندما أصابت القرعة اسم عبد الله وقضت بذبحه راح الأب فى بحر عميق من التفكير، وبعد ما أفاق من تفكيره قال: ما العمل؟ هكذا قدر الله ثم أخذ والد النبى ذا المكانة العالية إلى جوار الصنم الذى أطلقت عليه قريش اسم إساف(٢) وأرقده على الأرض. وبمجرد أن علم عباس الأخ الأكبر لعبد الله بما ينوى الأبُ لأخيه أسرع إليه، وأدركه وسحب أخاه من تحت يدى والده عبد المطلب. وفى أثناء هذا جرح عبد الله فى وجهه، وظل أثر هذا الجرح ظاهرا إلى أن توفى.

(١) القدح يطلق على السهم الذى بلا ريش. ويطلق على السهم السابع فى الميسر القدح المعلى، ونصيب هذا السهم عند أهل الجاهلية يفوق أنصبة السهام الأخرى، وكان أهل الجاهلية يلعبون القمار بهذه السهام ويتفاءلون بها، ومن يريد معرفة مزيد من المعلومات حول كيفية لعب الميسر أو كيفية التفاؤل بها يمكن أن يتفضل بالرجوع إلى البحث الخاص بإجراء القرعة عند العرب.

(٢) كان هذا الصنم من قبل بجوار بئر زمزم.

مطالعة:

إن انتزاع حضرة العباس أخاه عبد الله من تحت قدْمى عبد المطلب يقتضى أن يكون العباس أكبر من عبد الله، وهذا من سهو الرواة لأنه وفقا للروايات الصحيحة أن عبد الله أكبر من أخيه العباس.

حيث إن عبد المطلب تزوج من هالة أم ابنه حمزة ـ رضى الله عنه ـ بعد أن وفى بنذره، وبناء على هذا أن حمزة رضى الله عنه وأخاه العباس ـ من الأم ـ رضى الله عنه لم يكونا قد ولدا بعد حينما قرر عبد المطلب ذبح ابنه عبد الله[1].

وبناء على هذا يلزم أن يكون عبد الله أصغر أبناء أمه وليس أصغر أخوته جميعا.

ورغم أن ابن إسحاق قد أخطأ فى تأويل قول المرحوم البكائى الذى يعتبر من الأئمة الثقاة، وذهب إلى ما يخالف الرواية السابقة، فإن بعض أهل السير ردوا وخرجوا ما ذهب إليه ابن إسحاق، وقالوا إن حمزة ـ رضى الله عنه ـ أصغر من عبد الله، والعباس أصغر من حمزة ـ رضى الله عنهم جميعا ـ وأيدوا رأيهم بما قاله العباس: عند مولد خاتم الأنبياء ـ عليه وعليهم التحية ـ كنت قد بلغت الثالثة من عمرى، وعندما شاهدت وجهه المنير المبارك قالت لى النساء قبل وجه أخيك، فتشرفت بتقبيل وجهه الكريم.

وقول سيدنا العباس هذا لم يترك أى شك فى أنه أصغر من عبد الله بن عبد المطلب، ولهذا فإن قول المرحوم الإمام البكائى يحمل على أن عبد الله كان أصغر أبناء أمه عندما حمل للذبح.

ورغم أنه لا حاجة إلى إطالة القول لإثبات هذا الأمر فما لاشك فيه أن سيدنا حمزة وأخاه العباس ـ رضى الله عنهما ـ قد ولدا بعد الوفاء بالنذر. وهو أمر ثابت بدلالة الروايات الصحيحة، حيث إن عدد أبناء عبد المطلب كان اثنى عشر. انتهى.

(١) هذه الرواية تؤكد صحة ادعاء الرواة من أن أبناء عبد المطلب كانوا اثنى عشر ابنا.

ولما كان الموقف الصعب الذى بدر من عبد المطلب قد أثار قلق قريش، واضطربوا وتوترت نفوسهم وقالوا: نحن غير راضين من هذا الأمر، وعلينا أن نبحث عن حل حتى لا يصبح ما يريد أن يقوم به عبد المطلب عادة متبعة بيننا.

لذا استفسروا رأى الكاهنة سجاح[1] العاقلة والتى تقيم فى بلاد خيبر. وسجاح هذه كانت كاهنة لها صلة بطائفة الجن وفق اعتقاد أهل الجاهلية وتستعين بهم؛ ولهذا فقد فهمت ما فى ضمير مبعوثى قريش، وقالت لهم سأسأل الطائفة التى أتبعها فى هذا الأمر وسأخبركم بالجواب الذى سأتلقاه منها.

ورجع رجل قريش إلى محل إقامتهم وقد اعتراهم اليأس ثم رجعوا إلى سجاح مرة ثانية فى اليوم التالى.

وقد سألتهم سجاح فى هذه المرة قائلة: ما مقدار الرجل عندكم؟ فأجابوا عشر من الإبل، فقالت لهم: أحضروا عشرا من الإبل واضربوا القداح على اسم عبد الله، وعلى اسمها فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم ورجع وفد قريش إلى موطنهم.

تعريف الكهانة

كهنة: جمع كلمة كاهن وتعنى المشتغل بمعرفة الفأل أو الطالع.

كان من عادات أهل الجاهلية العمل وفق ما يقوله الكهنة وكان الكهنة يزعمون أنهم على صلة بالشياطين، ويستقون منهم الأخبار المتنوعة ويخبرون بها من يلجأ إليهم. وقد ادعى بعض الكهنة أنهم يستخدمون خدما من طائفة الجن وأنهم يتلقون منها أخبار الغيب.

ولكن الآية الكريمة حسمت هذا الموضوع عندما أخبرتنا ﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (النمل: ٦٥) بمعنى أن الجن لا يمكنهم أن

(١) يروى كذلك أن اسمها قطية.

يطلعوا على الغيب ومن هنا كانت ادعاءات الكهنة فى هذا الأمر كاذبة ولا أساس لها.

ومن الكهنة الذين نالوا شهرة كبيرة بين كهان الجاهلية: سطيح ـ خطر ـ سجاح.

والذين اطلعوا على أحوال الكهنة فى الجاهلية أخبروا أن الكهانة أنواع مختلفة.

فمنهم من يأتى بسبع قطع من الحجارة، ويضع على كل واحدة منها علامة ويطلق عليها اسما ويأخذ هذه القطع فى قبضة ثم يحركها ويتمتم ببعض الكلمات الخاصة به، ثم يفتح قبضته وينظر إلى أوضاع الحجارة، ثم يحكم إن كان ما يريده خيرا أم شرا(١).

ومن أنواع الكهانة أيضا الزجر، العرافة، الطيرة وهى تختلف من حيث الإجراء.

العرافة:

مثلا معناها الإخبار عن الغيب بواسطة الجن بالنظر إلى الأشياء الشفافة والبراقة، **كالنظر** إلى كوب من الماء أو إلى قرص الشمس أو إلى الزجاج أو البللور، حيث يرون فيها الجن ويستقون منها الأخبار، وإن هذه الصنعة مازالت موجودة فى أيامنا، ويكسب المشتغلون بالخرافات أموالا طائلة.

الزجر والطيرة:

استقاء الأخبار عن كيفية طيران الطيور، وعن أصواتها والاستدلال بها على وقوع الأمر.

كان أهل الجاهلية عندما يسافرون أو يخرجون لرحلة صيد أو قنص يتفاءلون من ظهور ثور وحشى من جانبهم الأيمن، ويحملونه على أنه خير لهم، وإذا ما

(١) هذا النوع من قراءة الطالع أو الكهانة نوع من أنواع الكهانة التى عرفناها فى موضوع الأزلام.

ظهر هذا الحيوان من الجانب الأيسر يتشاءمون منه، ويعتقدون أنه شر محض. وكانوا يراقبون محط الغربان ويتأملون صورة هبوطها على الأرض وكيفية صياحها. وإذا ما تحركت الغربان وفق ما يزعمون أنه خير يفرحون، ويبتهجون أما إذا لم تحط الغربان فى الأماكن التى يريدون أن تحط فيها أو إذا لم يَصِحْ كما يريدون تشاءموا من طيرانها وتحركاتها وهبوطها هنا وهناك ويغضبون ويطردونها من محطها بإلقاء الحجارة عليها.

وقد ظهر كهنة قبل البعثة المحمدية وأخبروا بنبوة محمد - ﷺ - وصدقوا واعترفوا بهذه النبوة.

حكاية:

مروية عن حضرة لهيب بن مالك[1] إذ قال: كان لقبيلتنا كاهن من أعلم كهنتها يدعى خطر فى ٣٨٠ من عمره، وعلى رواية تاريخ خميس فى ١٨٠ سنة من عمره.

وقد اجتمعنا عنده يوما وقلنا له يا خطر أخبرنا بأشياء بواسطة علم النجوم وسنعمل وفق ما تنبئنا به وقال إذا ما أتيتم غدا سأخبركم عن الخير والشر، وفى اليوم التالى ذهبنا إليه مجتمعين فى الفجر. فوجدناه فى هذه المرة واقفا منتصف القامة وقد فتح عينيه من الحيرة والدهشة، وركزهما نحو السماء فكأنه فى حالة الاحتضار.

ولما رأيناه واقفا ساكنا لا يحرك رموش عينيه اعتقدنا أنه قد مات، وناديناه قائلين: خطر، وأخيرا أشار لنا أن نمسكه من جانبيه فأمسكناه. وبعد مدة سقط من السماء كوكب كبير كأنه طائر يحط على الأرض بخفة.

حينئذ صاح خطر صيحة عالية وأخذ يتحدث بشدة وجد قائلا: أصابه وجع عظيم قد عجز عن الإتيان بالأخبار، وقد تشتت أفكاره المضطربة قد عاودته المشقة والصعوبة إلام ستنتهى حالته قد انقطعت حبال من كانوا يسترقون السمع وقد حزن.

وبعدما وقف هادئا ساكنا فترة توجه نحونا وقال: يا أولاد بنى قحطان

---

(١) إن هذا الشخص من الأصحاب الكرام ومن قبيلة أزد التى تنتهى إلى لهب وقبيلة أزد من سكان اليمن.

سأخبركم بالحق والحقيقة أقسم بالكعبة الشريفة ذات الأركان الأربعة. أقسم بالبلدة المباركة التى يسكنها المؤمنون قد منع المستمعون من الجن عجزوا عن الاستماع إلى الأخبار؛ وذلك بسبب بعثة نبى ذا شأن ورفعة وكأنه فى لمعانه نجم ثاقب، وقد بعث للإنس والجن. إن هذا النبى السعيد قد بعث مؤيدا بالفرقان والقرآن وأبطل عبادة الأوثان. وقد حدثنا بعبارات مسجعة ما يفيد المعانى السابقة وهكذا تركنا فى ذهول وخبره بهذه الأقوال.

وقلنا لخطر يا خطر إننا لنأسف على كهانتك إنك لتخبرنا بشيء عجيب... والمنتظر منك أن ترحم قومك الذين يتبعونك وتراعى جانبهم. فأجاب خطر إننى أحب قومى أكثر من نفسى لذلك سأدفعهم إلى تبعية نبى عظيم الشأن هو أعظم الأنبياء جميعا وأفضلهم ودليل عظمته ظاهر مثل شعاع الشمس، وقد بعث فى مكة ويدعو إلى أداء صلوات خمس وإنه تنزل عليه من قبل الله آيات بينات.

فاستوضحوا الأمر قائلين: يا خطر من هذا الشخص النبيل الذى تعرفه وتصفه لنا؟ فتحدث خطر قائلا: إنه ينتمى إلى قبيلة قريش السعيدة، ويعيش بين أفرادها لا خفة فى حلمه، وأنه لا يظهر بعض كلامه ويخفى الآخر وخلقه خال من الفساد والخلل، وإن ذاته الشريفة السعيدة تنتمى إلى آل قحطان وآل ديش بن الهون، وينتهى نسبه إلى قبيلة خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر، وقد أجاب خطر على تساؤلاتنا التى طلبنا فيها أن يبين لنا القبيلة التى ينتمى إليها من قبائل قريش، قال إنه من آل هاشم بن عبد مناف، ومن أكارم أهل مكة المعظمة وقد بعث لغزو المشركين وقتل الملحدين، وأضاف خطر قائلا بما أن هذا الكلام أخبر به رئيس الجان نفسه فهو صحيح تماما، وغاب عن الوعى قائلا الله أكبر قد ظهر الحق وانقطعت ألاعيب الجن وأفاق بعد ثلاثة أيام.

وقبل الإسلام إذ قال لا إله إلا الله وأغرانا وحثنا على قبول الدين المحمدى المبين. وقد قص لهيب بن مالك هذه الحكاية الغريبة بالتفصيل على أحبائه، ثم عرض ما جرى على نبى الإنس والجان ـ عليه وعلى آله صلوات الله المنان ـ فتفضل نبينا صادق القول قائلا: «سبحان الله قد نطق صدقا إن هذا الشخص سيبعث يوم القيامة أمة وحده»[1].

(١) الخبر فى ترجمة لهيب فى الإصابة ٦/٩ - ١٠.

وقد ثبت من هذه الحكاية إلى درجة ما شأن قراءة الطالع فى الجاهلية، وأحوالهم فى مد الناس بالأخبار واستراق الشياطين السمع لمعرفة الأخبار من السماء.

وفى الواقع أن مردة الشياطين كانوا يسترقون السمع فى السماء لمعرفة الأحداث إلى زمن ولادة عيسى ـ على نبينا وعليه السلام ـ ويلقون بالأخبار إلى قلوب الكهنة. وقد انقطعت ثلث الأخبار التى تأتى بواسطة استراق الشياطين السمع فى السماء فى زمن عيسى ـ عليه السلام ـ وانقطع ثلثاها الباقيان بولادة نبينا الذى بعث رحمة للعالمين وهكذا لم يبق أثر من استراق السمع، ولم يبق مجال لأخبار الكهنة.

وقد عرف عبد المطلب بالطريقة التى أوجدت بها سجاح فى إجراء القرعة، واتبع عبد المطلب الطريقة كأنها دستور مكتوب، وضرب القرعة فخرجت تسع مرات واحدة تلو الأخرى على عبد الله وأصابت فى المرة العاشرة اسم الإبل، ولما كان عدد الإبل الذى تجرى عليه القرعة قد بلغ المائة ناقة قالت قريش: يا عبد المطلب إذا ذبحت هذه النوق المائة قربانا تكون قد أوفيت بنذرك، وأديت حق الله وأخبروه بما وصفت به سجاح.

ولكن عبد المطلب لم يلق سمعا إلى قول سجاح ولا إلى أقوال قريش، وقال: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات فضرب فخرج القدح على الإبل فى المرات الثلاث.

ولما رأى عبد المطلب ذلك قام فذبح مائة من الإبل ووزع لحمها على أهل مكة طلبا لرضاء الله، وأفهم الناس أن دية الرجل بين العرب ستكون مائة من الإبل بمقتضى ما حدث.

قد ظل حكم عبد المطلب هذا مرعيا إلى ظهور نور النبوة، وقد أبقى صاحب الشريعة ـ عليه أكمل التحية ـ هذا الحكم نافذا بحيث تكون دية الرجل مائة من الإبل.

فى تفصيل كيفية بناء الكعبة المعظمة للمرة الثامنة

قد حدث هذا التعمير والبناء بعد بناء إبراهيم عليه السلام بـ (٢٤١٩) سنة، أو على رواية أخرى بعد (١٧٠٣) سنة.

وكان بانى بناء الشريعة ـ عليه السلام ـ فى ذلك الوقت قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد، وكان بيت العزة الذى بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ قائما بعينه.

وقال المؤرخون متبعين الإمام مجاهد: إن هذا الحادث كان قبل البعثة النبوية بخمسة عشر عاما، والذين اتبعوا[١] ابن إسحاق قالوا إن البناء كان قبل البعثة النبوية بخمس سنوات[٢].

ـ فتوى:

قد أدرجنا صورة من فتوى رضا أفندى والذى يؤيد قول ابن إسحاق فى هذا الموضع لما عهدنا فى فتواه من صراحة متبركا بها.

ـ صورة الفتوى الشريفة:

إذا تفرق أهالى حى أحد المساجد وخلا من المصلين فهل يجوز لورثة الواقف أن يمتلكوه؟

الجواب: لا يجوز ذلك.

لأن الكعبة المعظمة فى فترة الخلو من الرسل ـ امتلأت أطرافها بالأصنام

---

(١) ابن إسحاق هو التابعى المشهور صاحب المغازى والسير وبحر العلوم والحبر محمد بن إسحاق بن أبى بكر، وقد تلاقى بالإمام على وأسامة ومغيرة بن شعبة وتوفى سنة ١٥١هـ.

(٢) ورأى ابن إسحاق أيضا ـ بلوغ النبى ﷺ ـ الخامسة والثلاثين من عمره السعيد.

وخربت، فلم تنتقل إلى ورثة آخرين. وعلى هذا من بانى الكعبة المشرفة وواقفها؟

الجواب: إن الكعبة الشريفة شرفها الله، قد جدد بنناءها خمس مرات إلى الآن، كما أنها عمرت بتجديد حوائطها.

أولا: بناها الملائكة بأمر الله ـ سبحانه وتعالى.

ثانيا: بناها حضرة إبراهيم عليه السلام.

ثالثا: قد بنيت فى الجاهلية على ستة أعمدة بعد هدمها وإخراج حجر إسماعيل من البيت من قريش.

وكان النبى ـ ﷺ ـ فى الخامسة والثلاثين من عمره السعيد. واشترك فى بناء الكعبة ووضع الحجر الأسود فى مكانه بيديه الشريفتين.

وفى **المرة الرابعة** بناها عبد الله بن الزبير إذ احترقت الكعبة فى «عهد يزيد اللئيم» ـ فهدمها عبد الله وبناها وفق رسم إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى أساسه وأدخل حجر إسماعيل داخل البيت وفى **المرة الخامسة** جدد بناءها فى ٧٤ هجرية إذ اقتلع بناء ابن الزبير وأعيدت إلى سابق عهدها بأن أخرج حجر إسماعيل من الكعبة الشريفة، وفى سنة ألف وتسع وثلاثين وفى عهد السلطان مراد الرابع قد جددت جدرانها وعمرت بيد قاضى مكة المكرمة السيد محمد الأنقروى. وقد صرح فى صدر الشريعة أن واقف البيت هو حضرة إبراهيم ـ عليه السلام.

إخطار:

لم يذكر المرحوم رضا أفندى فى فتواه بناء وتعمير البيت فى عهد آدم عليه السلام وأولاده وعهود العمالقة والجراهمة وقصى بن كلاب، لأنه تفادى التطويل فى الكلام وإلا فمن المحقق أن البيت الشريف قد جدد إحدى عشرة مرة.

وقال الشيخ محمد صالح فى كتابه البليغ «سبل الهدى والرشاد فى هدى خير العباد» وهو يتحدث عن تجديد البيت المعظم للمرة الثامنة: بينما كانت سيدة من

سيدات قريش تبخر داخل كعبة الله المملوءة بالفيض الإلهى ومعها مجمرة خاصة، فجأة احترق ملبسها بشرارة انتشرت من المجمرة. وسرت النار التى حرقت ملبسها إلى جدران الكعبة وستائرها وسقفها فأحرقت جدران الكعبة وخربت حوائطها ثم حدث سيل عظيم، وهدم السد الذى أقيم أمام ممر السيل ومجراه وخربه، واتجه نحو داخل كعبة الله وأضرت المياه أسس الجدران السهلة الانهيار.

وقرر زعماء قريش بعد هذا الحادث الأليم أن يجددوا بيت الله(١) مسقفا وأن يراعوا فى صنع باب معلا لبيت الله المعظم يراعى فيه والمتانة والعلو عن الأرض مقدرين ما قد يحدث من السيول وألا يسمحوا بالدخول فى داخل كعبة الله لكل من هب ودب وأخذوا يجتمعون من حين لآخر لمذاكرة هذه الأمور إلا أن الاجتماعات كانت تنفض دون أن يعلنوا ما وصلوا إليه من نتائج وذلك لعدم وجود الأشياء اللازمة لتعمير البيت ولضيق ذات أيديهم.

وفى أثناء ذلك عرفوا أن سفينة كبيرة قد جنحت أمام جدة، وأنها تحمل كثيرا من الأخشاب وأنواع الرخام واللوازم الحديدية الأخرى. كما عرفوا أن ربان السفينة بارع فى فن العمارة والبناء لذا بعثوا بوليد بن المغيرة ومعه بعض النجارين البارعين فى حرفتهم حتى يطلعوا على صلاحية الأشياء المذكورة للبناء.

واستطاع الوليد بن المغيرة أن يقابل الربان سالف الذكر ويشترى منه حمولة السفينة بثمن بخس ثم فاتحه فى أن هذه الأشياء من أجل بناء كعبة الله المقدسة وأنها ستستعمل فى أعمال البناء والعمارة. وهكذا حمل معه الأشياء المشتراة وفى رفقته الربان المذكور ووصل إلى مكة.

وبناء على ما ينقله المؤرخون فإن هذه السفينة كانت قد حملت من قبل قيصر الروم وأرسلت لبناء وتعمير كنيسة فى الحبشة أحرقتها قبيلة قريش أو أحرقتها طائفة من بلاد الفرس، وعين ربانها للقيام بترميم وتعمير خرائب الكنيسة.

(١) حتى ذلك الوقت لم يكن هناك سقف للكعبة المعظمة ومن ثم كانت الهدايا الثمينة المحفوظة فى خزينة بيت الله تتعرض للسرقة.

وبناء على الحكمة القائلة «إذا أراد الله شيئا هيأ أسبابه» فالسفينة قد تعرضت لعاصفة شديدة وجنحت على اليابسة فى مياه جدة وهكذا وقعت فى يد العربان لتكون سببا فى عمارة كعبة الله.

ولما وصل الربان المذكور إلى مكة المكرمة تفقد مع نجار من أصل قبطى كلفته قريش بمصاحبته فى بناء الكعبة المعظمة، وابتدئ فى هدم بناء البيت الشريف حتى يستطيع أن يسقفه وتخلى الأهالى عن فكرتهم فى عدم السماح بهدم البيت.

ـ ظهور حية كبيرة فوق الكعبة:

من الأحداث الغريبة أن حية عظيمة الجثة صعدت فوق مخزن الهدايا الذى حفره سيدنا إبراهيم، وكانت الحية تصعد فوق جدران كعبة الله وتظل هناك منحنية الرأس للشمس، والذين يرون هذه الحية يخافون من شكلها المرعب ويعتقدون أنها من حراس البيت.

وكان جسم الحية لامعا متلألأ ترسل أشعة إلى الأطراف كألسنة النار، وكانت تخيف من يحاول الاقتراب منها بفتح فمها المخيف وإخراج أصوات مفزعة.

وكانت الحية بيضاء الجسم وكان رأسها فى حجم جدى وزيلها أسود كسواد الغراب وكانت كبيرة الحجم مهيبة المنظر، وكانت تمنع الخونة والمتسلطين عند الاقتراب من الكعبة المعظمة.

وفى يوم من الأيام حينما كانت الحية فوق جدران الكعبة كعادتها ظهر طائر جسمه أكبر من العقاب، وانقض على هذه الحية الضخمة وأخذها بين براثنه وطار بها إلى ناحية الشرق وتركها فوق جبل «حجون».

والمؤرخون الذين قصوا سبب ظهور هذه الحية قالوا: إن المخزن الذى حفره إبراهيم ـ عليه السلام ـ وسماه (أخسف) ليحفظ فيها الهدايا التى قد ترد من أنحاء مختلفة لبيت الله الأعظم لم يكن للكعبة فى ذلك الوقت سقف وكانوا يقدمون الهدايا إلى كعبة الله من الذهب والمجوهرات المرصعة وأشياء قيمة وكانت هذه طريقتهم فى التقرب من الله وإظهار الود لإبراهيم عليه السلام.

وبعد مضى الوقت امتلأ المخزن وجوف الكعبة المنير بالهدايا مما دفع بعض السفلة من الناس إلى مد يدهم لسرقة أشياء من هدايا الكعبة عندما كانت تسنح لهم الفرصة وعندما ضبط بعضهم متلبسين بالسرقة قطعت أيديهم ليكونوا عبرة للآخرين. وسقط بعضهم وهلكوا وهم يمدون أيديهم ليسرقوا الأشياء المحفوظة.

بينما ضل أقوام الجراهمة فى مكة المعظمة ورفضوا الاستماع إلى نصائح «مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض» مقتدين بشقى يسمى «مجدع» اتبع أحد التعساء إغواء نفسه ونزل فى داخل الخزانة المذكورة ليسرق الأشياء المحفوظة فيها ولحكمة ما انهارت جهات الخزينة الأربعة فجأة وهلك الشقى تحت الأنقاض.

وفى رواية أخرى أن الشخص الذى دخل كعبة الله كان معه أربعة من رفقائه وأن كل واحد منهم وقف فى ركن من أركان البيت المحترم وحملوه على أكتافهم وأنزلوه فى داخل كعبة الله وكان غرضهم أن يسرقوا الأشياء الثمينة التى فى داخل الكعبة، بأن يناول كل واحد منهم الآخر الأشياء المسروقة إلا أن الشخص الذى رفع إلى أعلى جدران الكعبة زلقت رجله ووقع على أرض المطاف ومات، أما رفقاؤه فهربوا حتى لا يقعوا فى أيدى السلطة.

وبناء على ذلك خلقت تلك الحية التى سبق ذكرها وظلت تحرس وتحفظ خزينة كعبة الله ما يقرب من خمسمائة سنة وكانت تتراءى فوق جدران الكعبة كما سبق توضيحه وتثير الخوف والدهشة فى الأطراف.

وحينما رأى أهل مكة هلاك الحية بهذه الصورة اعتبروا هذا إيذانا من قبل الله بعمارة الكعبة وسروا بذلك وابتدروا فى هدم بنائها.

وبينما كان القرشيون مشغولين بهدم الجدران ضرب أبو وهب عمرو بن عائذ بن مخزوم ـ خال والد مجدد بنيان الشريعة رصينة الأركان عليه أقوى التحية ـ على حجارة بفأسه وأخذ قطعة منها.

إلا أن تلك القطعة طارت من يد عائذ وعادت إلى مكانها القديم، وقال عائذ لعظماء قبيلته وقد اهتز وخاف من وثوب قطعة الحجر طائرة من يده إلى مكانها

القديم قائلا: يا معشر قريش يجب أن نتجنب إعمار البيت من مال الربا والفواحش والأموال المشكوك فيها والتى جمعت بالظلم ويجب أن نحرص فى بناء بيت الله على إنفاق المال الحلال.

وأراد بهذا أن يبين لأهل مكة أن إعمار بيت الله يجب أن يتم بالمال الحلال، وبناء على هذا جمع أهل مكة للمرة الثانية ما استطاعوا جمعه من المال الحلال، وسلموه إلى اللجنة التى تشكلت للاهتمام ببناء وتجديد بيت الله.

ولكن مع هذا لم يكونوا واثقين من مدى حِلّيّة النقود التى جمعوها أول مرة والتى أنفقت فى سبيل تجديد بيت الله، لذا خافوا من نزول المصيبة بهم إذا شرعوا فى هدم بيت الله وترددوا كثيرا، وفى النهاية خاطبهم وليد بن المغيرة قائلا: يا قبائل قريش إذا كنتم فعلا تنوون إصلاح كعبة الله فالله لا يهلك المصلحين. ثم أخذ فأسًا وأخذ يهدم بمفرده جدران بيت الله. ومع ذلك لم يتجرأ أحد من قريش على المشاركة فى هدم البيت وظلوا ينتظرون ما سوف يحل وليد، ولما رأوا أن وليد قد نجا من أى ضرر اتفقوا جميعا على هدم البناء وفى ختام الهدم اقتسموا بناء البيت، بناء على رأى عائذ وتعهد بنو عبد مناف مع بنى زهرة ببناء الجهة التى يوجد فيها باب الكعبة العالى كما تعهد بنو مخزوم وبنو تميم وبعض القرشيين ببناء ما بين الركنين الشرقي واليماني(١) وبنو عبد الدار بن قصى وبنو أسد ابن عبد العزى بن قصى وبنو عدى بن كعب بن لؤى الجهة التى فيها الميزاب الذهبى، وبنو جمح مع بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى جهة ظهر الكعبة، وشغل بعضهم بنقل الحجارة من جبل الكعبة(٢) وحرص الآخرون على هدم البناء.

ولما هدموا جدران البناء المقدس بحثا عن الأساس الإبراهيمى ظهر حجر

(١) قد بنى هذا الركن غلام سعيد بن العاص الذى يسمى باقوم، ولما كان المذكور من أقباط اليمن المهرة فى فن العمارة لذا أطلق على هذا الركن الركن اليمانى.

(٢) جبل الكعبة فى حي الشبيكة بقرب مدفن الشيخ محمود بن إبراهيم بن أدهم، وفى مكان مقابل لجبل أجياد. وكلما يقتضى الأمر تعمير كعبة الله وترميمها تؤخذ الحجارة اللازمة لها من هذا الجبل.

أخضر كعلامة[1] للأساس القديم، ولما أرادوا أن ينتزعوا ذلك الحجر الأخضر برقت نار عظيمة[2] هزت أرض مكة، فخافوا من تعميق الأساس أكثر من ذلك، وبنوا أسس الجدران فوق ذلك الحجر الأخضر، ووجدوا تحت الحجر الأسود الكائن فى الركن الشرقى ورقة كتب عليها باللغة السريانية، وبحثوا عن واحد من طائفة اليهود ليقرأها.

وكان مفاد تلك الورقة الآتى:

أنا الله ذو بكة خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر وحفظتها[3] بسبعة أفلاك[4] حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها مبارك لأهلها فى الماء واللبن.

يقول البعض أن ورقة أخرى وجدت فى مقام إبراهيم وقد كتبت عليها الآية الكريمة: ﴿ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧).

والعبارة البديعة الآتية: مكة بيت الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاثة سبل، لا يحل لها رجل من أهلها.

وأيد هذا المعنى الشامل ما قاله النبى - ﷺ - فى يوم فتح مكة بما أن الله - سبحانه وتعالى - حرم مكة المكرمة فلا يجوز لأحد من قبلى ولا من بعدى أن يحلها إلا أنها قد أحلت لى ساعة من نهار.

ولما ارتفعت جدران كعبة الله من جوانبها الأربعة وحان وقت وضع الحجر الأسود فى مكانه ظهر نزاع شديد بين القبائل، وصاح أفراد كل قبيلة قائلين نحن سنضع الحجر الأسود فى مكانه، وأخذ النزاع صورا مختلفة من الحوار والمناقشة

(١) أن الحجارة التى أسس بها إبراهيم - عليه السلام - الكعبة خضراء اللون مثل الزمرد ولمعته وفى شكل وحجم سنام الجمل.

(٢) إن هذه الشعلة قد برقت من تحت الحجر الأخضر المسمى حجر إسماعيل، وقد اهتزت من شدة اشتعالها جميع بيوت مكة المكرمة.

(٣) كتب فى نسخة أخرى «حففتها».

(٤) سقطت كلمة أفلاك فى نسخة أخرى.

والمشاجرة حتى أطلق على قبائل (بنى عبد الدار، بنى عدى، بنى مخزوم، بنى سهم، بنى جمح) لقب لعقة الدم.

واستمر الخصام بين القبائل فى هذه المشكلة خمسة أيام، ولكن أبا أمية بن المغيرة[1] وكان أكبر المعمرين في قريش كلها ومن حكماء قومه، جمع عقلاء القبائل واقترح عليهم بأن يحكموا فى هذا الموضوع أول الداخلين من باب الصفا وعلى قول من باب بنى شيبة، فى وقت محدد يعينونه ووافق على هذا الاقتراح عقلاء القبائل.

وقد حاز هذا الاقتراح حسن القبول لدى القبائل الأخرى أيضا، وحدد الميعاد وجلس القوم وعيونهم صوب الباب ينتظرون، وكان أول من دخل فخر العالم وسبب راحة الأمم ﷺ.

وفرح المترصدون بقدوم سلطان الرسل الموسوم باليمن ورطبوا ألسنتهم بذكره إذ قالوا هذا محمد الأمين رضينا به ثم قالوا له: إننا أقسمنا على أن يكون أول الداخلين حكما لفض النزاع بين القبائل، وبما أنك كنت أول الداخلين سنقبل رأيك الخاص لحل هذا الخلاف. وبهذه الطريقة نقلوا للذات النبوية العالية خلاصة ما حدث بين القبائل.

وبما أن الرسول - ﷺ - كان معروفا بين القبائل بالصدق والاستقامة كانت قريش تحيل إليه حل ما عجزوا عن حله من القضايا.

ولما استقر منشأ النزاع فى ضمير النبى - ﷺ - وفهمه جيدا وضع الحجر الأسود فى داخل ثوب[2] وجعل رؤساء القبائل الأربع العظيمة يمسك كلا ركنا من أركانه وهم:

عتبة بن ربيعة، زمعة أبو حذيفة بن المغيرة، وقيس ابن عدى ثم حمل الحجر

(١) وكان أبو أمية مشهورا بين قومه بفرط الكرم والجود حتى أنه كان يكفى زاد أصحابه فى الرحلات، لذا أطلق عليه لقب زاد الركب.

(٢) يروى عن ثقة أن هذا الثوب كان جبة الرسول ﷺ.

الشريف ووضعه فوق الثوب فرفعوه جميعا حتى إذا بلغ موضعه وضعه بيده الشريفة، وهكذا أرضى صناديد القبائل وأسكنهم.

وكانت قريش عندما شرعت فى هدم كعبة الله أخرجت الصنم الكبير هبل من خزانة بيت الله حيث كان ركزه عمرو بن لحى ابن قمعة، ونقله إلى مكان قريب من مقام إبراهيم ونصبته هناك وفى أثناء إتمام عمليات البناء نقلوا هبل من حيث كان منصوبا إلى مكانه القديم فى الخزانة التى فى داخل بيت الله، ونصبوه هناك ثم أخذوا يرسمون فوق جدران الكعبة المعظمة فى الداخل والخارج صورا كبيرة، وكان بينها صور الأنبياء العظام والملائكة الكرام.

إن فاتح أقاليم الرسالة عليه أقوى التحية قد محا وأزال ما كان منصوبا فى داخل الكعبة أو خارجها من الأصنام والأوثان، وما كان على جدرانها من الصور كلها يوم الفتح الميمون، وأمر بإزالة صورتى إسماعيل وإبراهيم ـ عليهما الصلاة والسلام ـ اللتين كانتا مرسومتين فوق طلاء الكعبة فى الداخل.

وكان المشار إليهما مصورين وهما يمسكان فى أيديهما أزلام الميسر. ولما كان النبى ـ ﷺ ـ يعرف أن إبراهيم وابنه إسماعيل لا يمارسان الميسر، دعا على قريش التى صورتهما بهذا الشكل إذ قال «قاتلهم الله». ثم أمر بأن يوضع هبل وهو عبارة عن حجر كبير ـ خارج باب السلام.

ويروى أن أجزاءه المنكسرة أصبحت موطأ القدم فى عتبة باب السلام.

إننى قد رأيت هذه العتبة ودست عليها. ولم يبق له ما يشبه الصورة أو الوجه لذا أتردد فى قبول هذه الرواية؛ لأن الصنم المسمى بـ «هبل» كان منحوتا من العقيق الأحمر كما سبق ذكره فى بحث كيفية دخول الأصنام فى أرض الحجاز، وكانت يده اليمنى مقطوعة عندما أحضره عمرو بن لحى من أرض الشام لذا ركب له أهل مكة يدا من ذهب خالص.

صور الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة

كان علماء عبدة الأصنام يهتمون بصنع تماثيل الأنبياء على أكمل وجه

ويحفظونها ويتوارثونها جيلا بعد جيل. ويعتقدون أن هذه الصور تطابق أشكال وشمائل الأنبياء تمام المطابقة.

وبناء على زعم هؤلاء العلماء واعتقادهم أن الصور الموجودة فى خزائنهم قد حصل عليها النبى دانيال بواسطة ذى القرنين ورسم وصور كل واحدة منها على حدة.

قد وجد ذو القرنين هذه الصور فى مغارة من أرض المغرب، ثم صرها بخرقة[1] حريرية ثم حفظها، وانتقلت تلك الصرة إلى يد النبى دانيال ـ عليه سلام الله المتعال ـ فنقل صور الأنبياء إلى ألواح متعددة فتكاثر عددها.

وقد يصدق ـ إلى درجة ما ـ تطابق الصور القديمة التى توارثها الملوك، صور الأنبياء وشمائلهم، إلا أن الصور التى رسمها القرشيون على طلاء داخل بيت الله لا يمكن أن تطابق شمائل الأنبياء والملائكة.

قد انتقلت عادة توارث صور الأنبياء فيما بعد إلى سلوك عبدة الأوثان، وتعود كل واحد منهم أن يحفظ هذه التصاوير فى خزانة ولا يريها لأحد.

تأمل الحكاية الآتى ذكرها عن الصور التى توارثها قياصرة[2] الروم وكانت لصورة الهيكل النورانى المحمدى وصورتى الشيخين المكرمين.

قال دحية بن خليفة الكلبى حامل الرسالة النبوية السابقة إلى هرقل[3] الرومى، كما هو مسطور فى السيرة النبوية ذات الرائحة البنفسجية: عندما حملت الرسالة النبوية الداعية للهداية وجدت قيصر الروم فى دمشق، وانتهزت وقت خلوه من المشاغل واعتدال مزاجه وأتيت برسالتى.

وتلقى هرقل الرسالة النبوية السعيدة بتعظيم فوق العادة وتوقير شديد، وقبل

(١) تطلق خرقة على قطعة قماش.

(٢) يطلق لقب القياصرة على ملوك الروم وهى جمع كلمة قيصر. ومعنى القيصر مشقوق، قد ماتت أم القيصر الأول وهى حامل وأخذ الطفل بعد شق بطنها، وبعد جلوسه على العرش أطلق على ملوك الروم لقب قيصر.

(٣) اسم ملك الروم المعاصر للنبى ﷺ.

الخاتم الذى فوقها. ثم فتحها وقرأها ووضعها فوق كرسى بجانبه، وكان هذا الكرسى خاصا لوضع الكتب المقدسة.

ثم استدعى البطارقة وعلماء النصارى وجمعهم، ثم صعد فوق كرسى لإلقاء خطبة ـ وفق آداب تلك العصور ـ وألقى مقدمة مثيرة مشوقة أجبرت الحاضرين للاستماع ثم قال: يا بطارقة النصارى إن هذه الرسالة الشريفة التى زينت يدى ونالت احترامى رسالة من قبل نبى آخر الزمان ومن أحفاد إسماعيل الذى بشرنا بظهوره المسيح ـ عليه السلام ـ وأتى فى كلامه بكثير من الأقوال التى تصف ما يتحلى به نبينا من المكارم الأخلاقية.

إن أقوال هرقل كانت ذات تأثير سيئ على الحاضرين، إذ قام البطارقة من أماكنهم معترضين بتهور، وتجرءوا على السير نحو ملكهم هاجمين، فلما رأى هرقل أن البطارقة غير مستعدين للاعتراف بنبوة محمد والتصديق بها، أراد أن يُسكنَ غضبهم وتخلى عن الحمد والثناء وقال: لا، لا إنما أردت بهذا الكلام التأكد من مدى تمسككم بدين عيسى ومدى ثبات عقيدتكم فيه.

إننى لا أريد أن أصدق بمحمد، كما أننى لا أحثكم على قبول الإسلام دينا، وإننى قد سررت إذ رأيت مدى صلابة عقيدتكم. الرجل الحق يجب أن يثبت فى دينه مثلكم.. إننى أحبكم.

وهكذا أسكن غضبهم وفى اليوم الثانى أدخلنى فى حجرة خالية ووجه إلى أسئلة وتلقى إجابة، ثم أدخلنى فى حجرة واسعة مزينة.

وكانت هذه الحجرة بيت الأصنام، وتحتوى على ٣١ قطعة من التصاوير وأشار هرقل لهذه الصور وقال: لأى صورة من هذه الصور يشبه نبيكم؟

وبينما أجيل النظر فى الصورة جذبت نظرى صورة تشبه أجمل الأنبياء فقلت إن هذه الصورة تشبه نبى الإنس والجن، وكانت هذه الصورة قد رسمت بشكل كأنها توجه خطابا لشخص ما فازددت عجبا لذلك. ثم أشار هرقل إلى صورة منصوبة على يمين الصورة السابقة، وسألنى: هيكل من هذا؟ فقلت إنه رجل من

أمة محمد ويطلق عليه أبو بكر؛ لأن الصورة كأنها نفس أبى بكر. ثم أشار إلى الهيكل القائم على الجهة اليسرى من الصورة التى تشبه النبى - ﷺ - وسألنى هيكل من هذا؟ فأجبته لابد أنها صورة رجل شهير يسمى عمر بن الخطاب؛ لأنها كانت تشبهه شبها كبيرا وكأنها ذاته.

ثم قال لى هرقل: بعد أن تلقى منى الإجابات السابقة إنه قد ذُكرَ فى الإنجيل أن الإسلام سيبلغ كماله بمعاونة هذين الرجلين. وقال: جاء فى الإنجيل أن الناقص من الدين سيبلغ حد الكمال بمعاونة المشار إليهما. وقد أعادنى معززا إلى المدينة دار السكينة.

وبعد فترة مثلت أمام النبى - ﷺ - وحكيت ما رأيته من هرقل الرومى، فقال حضرة النبى الصادق القول:

«لقد قال هرقل الصدق فالله سيعز الإسلام بأبى بكر وعمر، وسيوفقهما فى الحصول على الفتوحات العظيمة».

-حكاية:

كان الحكيم بن حزام[(١)] إذا اجتمع فى مجلس من المجالس مع قومه، وانتقل الحديث لذكر هرقل كان يقول: قبل أن أتشرف بالإسلام، ذهبت إلى الشام فى تجارة، ولم يكن سلطان الأنبياء - عليه أعظم التحية - قد هاجر بعد إلى المدينة المنورة، وكان بصحبتى «أمية بن الصلت بن عبد الله بن ربيعة» وهو من الطائف، وعندما علم هرقل أننا من أهل مكة استدعانا وقال: من أى قبيلة أنتما؟ وهل لكم صلة قرابة بمحمد بن عبد الله - ﷺ - صاحب دعوة النبوة؟

فأجبته: نحن من قريش، ومحمد الأمين من أبناء عمومتنا ويتصل نسبنا به فى

(١) حكيم بن حزام ابن أخى سيدتنا خديجة الكبرى رضى الله عنها، وقد ولد داخل الكعبة قبل واقعة الفيل بثلاثة عشر عاما، وقد أمضى نصف عمره فى الإسلام والنصف الآخر فى الجاهلية، وعاش عشرين ومائة عام حيث توفى فى العام الستين من الهجرة فى المدينة المنورة. ويروى أن سيدنا على أيضا ولد داخل الكعبة المشرفة ولكن هذه الرواية لا أصل لها.
انظر: الإصابة ٢/ ٣٢.

الدرجة الخامسة. فقال هرقل: أتجيبوننى عما أسألكم عنه فيما يتعلق بهذا الرجل بدون خلاف؟ وهل أنتم ممن يصدقونه ويؤمنون بدعوته لله؟ فأجبته عن سؤاله الثاني وقلت: ونحن ممن يرفضونه ويرفضون أحكام دينه ودعوته.

لكننا لن نكذب فى حضورك وسنجيبك بصدق على كل ما تسأل عنه، وأقسمت بآلهتنا بأننى سأقول الصدق.

وسأل هرقل عن أحكام الشريعة المحمدية الغراء، فلما أجبناه إجابة واحدة لا خلاف فيها، قام من مكانه، وسار إلى الأمام وذهبنا معه كذلك. وكان بداخل قصره كنيسة مزينة فأمر بفتح بابها، واصطحبنا معه لداخلها.

وكانت هذه الكنيسة حجرة ملكية فخمة لا نظير لها، ويوجد فى وسطها صنم كبير مغطى بأستار من الذهب وموضوع فوق كرسى مرصع، رفع هرقل الأستار وقال: هذه الصورة صورة من؟!

فأجبناه: لا نعرف! لم نر صورة كهذه من قبل.

فقال: إنها صورة وجه أبى البشر.

ثم أخذنا من غرفة إلى أخرى وأرانا تماثيل مختلفة، وسألنا هل الشخص الذى يدعى النبوة يشبه إلى واحد من هذه القبائل؟

وكانت هذه التماثيل تماثيل أنبياء مختلفة، وكانت مغطاة بستائر ثمينة مزركشة وجميلة.

وبما أننا لم نر تمثالا يشبه الذات النبوية العالية أجبناه بقولنا: «إنها لا تشبه محمد بن عبد الله عليه السلام».

وبعد ذلك، أمر بفتح قاعة كبيرة ومزينة أيضا، وهى أكبر من كل القاعات التى رأيناها من قبل وكان فى وسطها تمثال مغطى ذو هيئة نورانية، فكشف التمثال بأن رفع الستار وسأل: من يكون هذا؟ قلنا: نعم.

إن هذه الصورة تشبه محمداً الأمين الذى يدعى النبوة فى بلدنا. وفى الواقع أنها كانت صورة لا تختلف عن شكله أبدا.

بناء على هذا وجه هرقل خطابه إلينا، وقال:

(إن هذه التماثيل التى شاهدتموها قد نحتت قبل ألف سنة، لو كان هذا التمثال هو تمثال محمد الأمين الذى ذكر تماما فمما لاشك فيه أن الرجل نبى مرسل. فعند وصولكما إلى مكة فعليكما بتصديق نبوته بلا تردد. وإذا قدر لى لقاءه فسوف أغسل رجليه المباركتين وأشرب ماء غسيلهما).

- حكاية:

كان «جبير بن مطعم» من الصحابة[1] الكرام، ومن أولاد نوفل القرشى، ويتصل نسبه بعبد مناف الجد الثالث للنبى ﷺ، وقد قال: كنت قد ذهبت إلى الشام فى بدء البعثة النبوية، فاستدعانى رئيس أساقفة نصارى الشام وسألنى: أتعرف الرجل الأمى الذى يدعى النبوة فى بلدتكم؟ فلما أجبته: نعم! إنه ابن عمى! أمسكنى من يدى وأدخلنى غرفة مليئة بصور الأنبياء المزينة، وأشار إلى الصور واحدة تلو أخرى وسألنى: أيمكن أن ترى بينها صورته؟ فلما أجبته: بالنفى أخذنى إلى حجرة أخرى، وكانت بيت التماثيل وكان فى داخلها تماثيل مزينة ومجسمة، وسألنى رئيس الأساقفة: يا ترى هل يوجد تمثال مشابه لصورة ابن عمك؟! فلما تأملنا رأيت تمثالا نورانيا على شكل رسول الله ﷺ، وبجانبه صورة تشبه الصديق وصورة أخرى بجانب صورة الصديق تشبه عمر بن الخطاب فأشرت إلى الصورة، وقلت هذه الصورة تشبه صورة حضرة محمد ﷺ.

ولما استفسر عن الصورتين الأخريين؛ أجبته قائلا: هذا ابن عمى ابن أبى قحافة وذلك ابن عمى عمر بن الخطاب. بناء على ذلك أنهى كلامه قائلا: إن هذا الرجل الذى ظهر فى بلدتكم مدعيا النبوة، أشهد أنه المبعوث الحق والرسول المطلق وهذان خليفتيه.

- حكاية:

تروى حكاية ذات عبَر حدثت فى عهد أبى بكر الصديق؛ إذ بعث فى أثناء خلافته ـ رضى الله عنه ـ هشام بن العاص سفيرا إلى إمبراطور الشرق هرقل، وقد تحدث هشام عن ماهية هذه السفارة وحقيقتها.

(١) انظر: الإصابة ١/ ٢٣٥، والخبر فى دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٣٨٤-٣٨٥.

قال هشام بن العاص[1]: كنت أرسلت أنا وصديق لى من قبل أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ لدعوة هرقل إلى الإسلام، وعندما وصلنا إلى المدينة عاصمة إمبراطورية هرقل أنزلونا فى قصر غاية فى الفخامة، وبعد ثلاثة أيام استدعانا هرقل، وأجرى لنا مراسم الاستقبال، وفى أثناء الحديث أمر بإحضار صندوق كبير جدا ومزين بالذهب ذى أدراج كثيرة، ففتح أحد هذه الأدراج وأخرج منه لوحة حمراء اللون ملفوفة بقطعة قماش سوداء. وقد رسم عليها صورة شخص حسن الطلعة طويل القامة، فأشار هرقل إلى اللوحة المذكورة، وسألنا هل تعرفون هذا الرجل؟

أجبناه بالنفى. فقال: إنها صورة سيدنا آدم عليه صلوات الله الأعظم. وكانت هذه الصورة لرجل أحمر الوجه واسع العينين، ذو قامة طويلة شعره مفرق إلى جانبين وقد جدل بصورة منسقة، وبعد أن وضع هرقل صورة سيدنا آدم فى مكانها فتح درجا آخر من أدراج الصندوق، وأخرج لوحة أخرى ناصعة البياض لامعة وملفوفة داخل قطعة قماش سوداء. وكانت الصورة المرسومة فى هذه اللوحة، صورة لرجل أحمر العينين فسأل هرقل: صورة من هذه؟

وكانت الإجابة بالنص: لا نعرف!!

فقال: إنها صورة سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ وقد رسمت هذه الصورة لرجل أبيض اللون، عيناه تميلان إلى اللون الأحمر كبير الرأس، كثيف اللحية. وفى النهاية فتح هرقل درجا ثالثا، وأخرج لفافة قماش سوداء، بداخلها لوحة بيضاء. وكانت اللوحة تحوى صورة رجل أبيض البشرة، وضاء الوجه وكأنه يبتسم وهو فى أبهى صورة.

وسأل هرقل: أتعرفون هذا الرجل؟ ولما أخذ الرد بالنفى، قال: هذه صورة إبراهيم عليه التحية والتعظيم، ثم فتح درجا آخر، وأخرج صورة صاحبها فائق الجمال وساطع الأنوار، وتذكرنا بمحمد ﷺ.

وقد بكينا فى أول مشاهدتنا للصورة كأننا رأينا حضرة صاحب الرسالة القدسية. وقد أظهر هرقل لهذه الصورة توقيرا وتعظيما أكثر من الصور الأخرى.

(١) الخبر فى دلائل النبوة ١/ ٣٨٦-٣٩٠ بطوله، وانظر أيضا تفسير ابن كثير ٣/ ٥٦٤-٥٦٧.

وعندما سأل هل تعرفون صاحب هذه الصورة؟ وقد تلقى الجواب منا إذ قلنا: إن هذا التمثال اللطيف يشبه صورة محمد عليه السلام، قال: الله يعلم أنه هو ونهض من مكانه وجلس عدة مرات. ثم قال: إذا كانت هذه الصورة هى الشكل المبارك لمحمد ـ عليه السلام ـ فاعلموا أن دينكم هو الدين الحق.

وأراد أن يبين شك فى كون هذه الصورة لمحمد ـ ﷺ ـ إذ نطق بهذه الجملة. ولكننا قلنا له: يا ملك بلاد الروم إن هذه الصورة صورة الحبيب ذى الكبرياء عليه أفضل التحيات ولاشك فى ذلك، وبها الكثير من شمائله الشريفة، حتى إننا ظننا أنفسنا فى حضرته السعيدة فائضة النور. وبهذه الإجابة زال شك هرقل إلى درجة ما، ولكنه لم يجرؤ على تصديق أن هذا التمثال صورة مشابهة لرسول الله العالى المقام، وظل يوجه إلى وجهنا نظرات بلهاء لمدة ساعة ثم أفاق، واستجمع عقله وسألنا وقد ظهرت عليه الحيرة:

احذرا أن تكونا قد أخطأتما فى تمييز صاحب الصورة إذ قد تكون لشخص آخر. ثم فتح درجا آخر وأخرج منه تمثال رجل غائر العينين متراكب الأسنان مقلص الشفتين. وكانت هذه الصورة تبدى علامات الغضب والحدة وتبعث الخوف فى مشاهديها. وإذا بها صورة سيدنا موسى بن عمران عليه صلوات الرحمن. وبجانب صورة موسى ـ عليه السلام ـ صورة أخرى تشبه صورة موسى الذات العالى إلى حد ما. أخبرنا هرقل أنها صورة هارون بن عمران ـ عليه سلام المنان ـ ثم فتح ثمانية أدراج درجا بعد درج، وأخرج من كل واحد منها صورة ملفوفة فى قطعة حرير سوداء، وقال إنها الأشكال المنيرة لحضرات سادتنا: لوط ـ إسحاق ـ يعقوب ـ إسماعيل ـ يوسف ـ داود ـ سليمان ـ عيسى عليهم السلام.

وكانت صورة سيدنا لوط داخل صرة من الحرير الأبيض، وتبدو صورته جميل الوجه عليها علامات الغضب. كما كانت صورة إسحاق داخل صرة بيضاء وقد رسمت بلون مائل للحمرة، وكانت صورة يعقوب ـ عليه السلام ـ داخل صرة بيضاء وكانت تشبه شكل إسحاق المبارك إلا أنها كانت تتميز بوجود خال

أسود اللون فى الشفة السفلى. أما صورة إسماعيل ـ عليه السلام ـ فقد كان أبيض اللون، حسن الوجه، أقنى الأنف، متناسق القوام، وكان يلمح فى وجهه السعيد نور محمد ساطع اللمعان.

وقد وصف هرقل هذه الصورة الجميلة أن صاحبها إسماعيل ـ عليه السلام ـ جد نبيكم ـ عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكانت صورة يوسف ـ عليه السلام ـ ساحر زليخا فى صرة بيضاء، وكان فى الخلقة يشبه آدم ـ عليه السلام ـ تماما لكنه فى صورة أجمل، متناسق الأعضاء حتى إن من يرونه يقولون: لابد أن تكون شمس الملاحة هذا النور.

وكانت صورة داود ـ عليه السلام ـ داخل صرة بيضاء، وقد بدا فيها أحمر اللون ضخم البطن متقلدا السيف.

وإذا جئنا إلى صورة سليمان بن داود فنجده ممتطيا جوادا ضخم الأليتين، طويل الرجلين، وكانت هذه اللوحة ملفوفة بقطعة حريرية بيضاء.

أما هيكل عيسى ـ عليه السلام ـ فكان ملفوفا فى داخل صرة بيضاء، وكانت صورة ذاته الشريفة تبديه فتيا صلبا أسود اللحية، كثيف الشعر حسن الوجه.

وكنا نشاهد الصور المذكورة واحدة تلو الأخرى، وننظر فى كل واحدة منها بكل رقة بالبصر والبصيرة. وغرقنا فى بحر الحيرة من شدة التعجب والاستغراب. ولم نجرؤ على القول بأن هذه هى صورة الأنبياء المشار إليهم، قلنا للملك: أيها الملك، كيف حصلتم على صور الأنبياء هذه؟!

فإذا ما نظرنا إلى الرسم اللطيف لسيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نبينا رأينا أنها تحمل نفس شمائله الشريفة؛ فلابد أن تكون كل هذه الصور مطابقة لصور الأنبياء مع العلم أنه من الصعب إيجاد دليل قوى وسند يعتمد عليه الحكم على هذا الأمر، وبهذه العبارة لم نصدق ولم نكذب صحة تلك الصور المشروحة.

وعندما رأى هرقل ترددنا الواضح فى تصديق حكاية الصور قال: إن هذه الصور بقيت من الأزمنة الغابرة، وإن كان من الصعب إثبات مدى مطابقة الصور لشكل أصحابها ما لم نرهم، إلا إننى عندى البينة الكافية لتأكيد صحة هذا الأمر.

يجب ألا ترتابوا فى أن الصور الشريفة للأنبياء ذوى الشأن الذين ذكرت أسماؤهم هى لهم. فإن سيدنا أبا البشر - عليه سلام الله الأكبر - أراد رؤية من اتصفوا بخير الصفات والذين سيتبوأون مقام النبوة من أولاده وأحفاده. ولما عرض أبو البشر ما فى ضميره على عالم السر والخفايا، أنزل الرحمن من عنده الصور المذكورة مرسومة على لوح مزين لحكمة لا يعرفها سواه.

وقد وضع سيدنا آدم اللوح المذكور فى مغارة فى بلاد المغرب بعد رؤيتها وهال عليها التراب والحجارة إلى أن وجدها ذو القرنين. ولفها فى قطعة من الحرير وحفظها، ولهذا انتقل اللوح المذكور مع قطعة الحرير هذه إلى يد النبى دانيال - عليه السلام - وقام المشار إليه برسم كل واحدة منها فى لوحة مستقلة، وبذلك نجح فى عمل صور كثيرة للأنبياء.

إن الذى ابتهجتم برؤيته و قررتم عينا بمشاهدته من الصور فجميعها من جملة الصور التى رسمها النبى دانيال، وقد ورثها الناس كابرا عن كابر إلى أن وصلت إلينا فى نهاية الأمر. وهكذا طيب خاطرنا وأعادنا إلى وطننا.

ورغم أننا لم نصدق أن الصور التى رأيناها عند هرقل تشبه شمائل الأنبياء الكرام، إلا أن الأمر ظل يتفاقم فى ذهننا وقد اضطررنا أن نعرض الأمر على الخليفة حتى نستوضح حقيقة الأمر منه.

وحينما وصلنا إلى المدينة المنورة توجهنا للقاء حضرة الخليفة الصديق وقبل أن نتحدث بما حدث أخبرنا بكل ما حدث أمام هرقل من مشاهدة الصور وما تحدث به بلا زيادة ولا نقصان وبعد ما بكى قليلا قال: إن طوائف اليهود وطوائف النصارى قد قرءوا فى كتبهم صفات النبى - ﷺ - ونعوته ولكنهم تمردوا وعاندوا ولم يؤمنوا به.

إن خلاصة هذه الحكاية مكتوبة فى كتاب دلائل النبوة منقولا عن الإمام البيهقى الذى نقله عن أبى أمامة الباهلى وهو قد نقله عن هشام بن العاص الأموى(١).

وقد نقل عن كعب الأحبار أن حضرة آدم ـ عليه السلام ـ حينما اقترب أجله، استدعى أبناءه الذين كانوا على قيد الحياة وأراهم تابوتا، ونظر أبناؤه إلى التابوت، فوجدوا به أدراجا كثيرة صغيرة بعدد الأنبياء الكرام ـ على نبينا وعليهم السلام ـ والدرج السعيد الذى فى نهاية الأدراج، كان خاصا بخاتم الأنبياء وكان تحفة لامعة الأنوار مصنوعا من الياقوت الأحمر.

وفى داخل البيت كان إمام الأنبياء ـ عليه وعليهم السلام ـ قائما يصلى وعن يمينه الصديق وعن يساره الفاروق ومن خلفهم ابن عفان وأمامهم صاحب القرآن على بن أبى طالب ـ رحمهم الله، ورضى عنهم أجمعين.

وكان مسطورا على جبهة الصديق الكريم عبارة: «هذا أول من تبعه من أمته» وعلى الجبين المبارك للفاروق عبارة «قرن من حديد، أمين شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم» وعلى جبهة ابن عفان «ثالث الخلفاء» وعلى جبهة على بن أبى طالب «هذا أخوه وابن عمه المؤيد بنصر الله» وعلى قول «ليث كرار غير فرار يحب الله ورسوله» وكان يرى فى جوانب هؤلاء المهاجرون والأنصار النقباء والخلفاء الآخرون.

صورة دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز:

إن القبائل التى تقطن الخيم حول كعبة الله عبدة أصنام مصنوعة من الأحجار والأشجار، والزمن الذى مالوا فيه إلى الضلالة كان فى عهد (أردشير بن شابور) من ملوك الفرس وكان «عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف» الذى لا دين له حاكما لأرض الحجاز المقدسة.

وقد نقل الإمام «الراشطى» أن عمرو بن لحى بن قمعة هو الحارث بن عمرو بن مزيقيا بن عامر ماء السماء بن الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن أزد

(١) دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٣٨٦-٣٩٠.

من نسل زيد بن كهلان بن سبأ، وأن نسبه هو نهاية نسب أفراد قبائل بنى خزاعة. ورغم هذا فإن بعض علماء النسب انتقدوا هذه الرواية المنقولة عن الراشطى وخرجوها قائلين: إن هذه الرواية رأى من يدعون أن خزاعة من أهل اليمن. ورفعوا سلسلة نسب عمرو إلى إلياس بن مضر.

والواقع أنه عندما توفى قمعة بن خندف كانت زوجته حاملا وتزوجت من الحارث بن عمرو مزيقيا وبعد فترة ولدت لحى وتربى لحى فى كنف الحارث ونسب إليه.

وعلى هذا يكون لحى ربيب الحارث بن عمرو مزيقيا وابن قمعة بن إلياس بن مضر. وهذا القول هو المرجح وأكثر صحة من القول الآخر.

واسم لحى بن قمعة ربيعة وجدته لأبيه: خندف المسماة بليلى بنت حلوان بن عمران بن الحان بن قضاعة وزوجها هو إلياس بن مضر.

أما سبب إطلاق اسم خندف على ليلى فقد ذكر فى البحث الخاص بانتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب. وقد انفصلت قبيلة خزاعة من عمرو بن لحى وبما أن ليلى «خندف» وكانت والدة قمعة أطلقت أفراد قبيلة خزاعة على ليلى اسم الأم.

قال المؤرخون الذين ذكروا سبب إطلاق اسم خزاعة لبنى عمرو قد هاجر أهل سبأ عقب وقعة سيل العرم من بلادهم، وهاجر كل جماعة إلى مكان ما واشتهروا باسم ذلك المكان.

وفى ذلك الوقت استقر أولاد وأحفاد مازن الأزد بن الغوث بن ليث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب ابن يعرب بن قحطان فى جانب ماء اسمه غسان[1] القريب من المكان المسمى «مشلل» واختاروا الإقامة فيه قبل بنى مازن، ولما انقطع وانجزعت جماعة عمرو بن لحى عن القبائل الأخرى، وسكنوا بأطراف مكة المكرمة قيل لبنى عمرو بن لحى بنو خزاعة.

(١) هناك رواية تقول إن الماء المسمى «بغسان» من مياه سد مأرب وإنه اسم ماء منسوب لأبناء مازن بن الأزد بن الغوث ولذلك يطلق على بنى مازن الغسانى إلا أن الرواية الأولى أصح.

الأوس والخزرج أجداد الأنصار الكرام هم أبناء حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة مازن بن عبد الله بن الأزد بن الغوث.

وعندما أخرج بنو خزاعة قبائل الجراهمة من مكة المعظمة بالقوة وأبعدوهم إلى بلاد اليمن اتخذوا عمرو ـ مستحق الجمر ـ رئيسا لقبيلتهم واجتهدوا على أن ينفذوا كل ما جاء به من البدع والخزعبلات عن طيب خاطر[1].

إن الأسباب الرئيسية لرضا بنى خزاعة العمل بما كلفهم به عمرو دون تفكر ترجع إلى تكريمه للقبائل البدوية وجوده معهم وإلباسه الخلع للعظماء والوجهاء فى مراسم الحج.

وكان عمرو بن لحى، الذى نال رئاسة بنى خزاعة يسافر إلى بلاد الشام فى أثناء حكومته. وقد رأى أحفاد العمالقة يعبدون الأصنام فى مدينة مأرب من أرض البلقاء التى استوطنوا بها فسألهم: ما أسباب عبادتكم لهذه الجمادات؟ فأجابه عبدة تلك الأصنام بقولهم: إنها مجموعة من الآلهة صنعت على غرار الهياكل العلوية والصور البشرية وإننا نستمر فى عبادتها واحترامها وتوقيرها وقد اتخذناها آلهة لنا وعلى هذا فهى تستجيب لتضرعاتنا، فإذا ما طلبنا منها مطرا فى أى وقت تنزل مطرا وإذا استعنا بها فى حاجة من حوائج الدنيا فتحقق مطالبنا؛ فصدق قولهم وطلب منهم أن يعطوه واحدا منها قائلا: إذا أعطيتمونى واحدا منها أحمله إلى أرض الحجاز وأدعو بنى إسماعيل لعبادته وأرغبهم فيه، فقاموا على الفور بإهدائه صنما ثقيلا يسمى هبل.

وفى رواية أخرى أن إساف ونائلة من الأصنام التى أهديت إلى عمرو بن لحى من قبل العمالقة.

وقد سر عمرو بن لحى إذ أهدى له إله وأخذ هبل المذكور ووضعه فى المخزن الذى صنعه إبراهيم لحفظ الهدايا المقدسة لعتبة الكعبة الشريفة، وعلى قول آخر ركزه فوق جبل الأخشب[2] وطلب من الأهالى أن يظهروا له الاحترام اللازم ويتعبدوا له ليلا ونهارا.

(١) إن هذه الكيفية قد حررت بالتفصيل فى المكان الخاص به من كتاب مرآة المدينة.

(٢) هذا القول ضعيف.

وقد عرف فاضل أبو الفوز البغدادى فى كتابه القيم المسمى «سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب» أصل هبل الذى اعتقد عمرو فى ألوهيته. وقال: إن هبل الذى حمله عمرو بن لحى من الشام إلى مكة كان تمثالا لإنسان عجيب الشكل. وكان مصنوعا من العقيق إلا أن يده اليمنى كانت مكسورة.

وقال إن قريشًا الذين صدقوا ألوهيته قاموا بتركيب يد من الذهب له وأخذوا يعبدونه مظهرين له الاحترام والتوقير والإخلاص.

قال ابن إسحاق فى تعريف هبل: هبل صنم كبير مصنوع من العقيق على شكل إنسان لكن يده اليمنى كانت مكسورة ومفقودة، ولما رأى آل قريش أنه بلا يد صنعوا له يدا من ذهب وركبوها فيه.

وكان لهبل خزينة خاصة لوضع الهدايا التى تقدم له وتحفظ فيها. وكذلك كان له سبعة أقداح لإجراء القرعة(١) ولا يمكن للذى يريد إجراء القرعة استخدام القداح ما لم ينذر بذبح مائة من الإبل. انتهى.

وبعد ذلك بمدة شاع خبر هبل الذى جلبه عمرو ـ متسحق الجمر ـ بين مشركى البدو، حيث أخذوا يوقرون ويعظمون ذلك الصنم بتحريض من عمرو وتشجيعه وأشركوا هبل المصنوع من الحجر بخالق الأفلاك ـ تنزهت ذاته عن الشرك ـ وهكذا كفروا.

ورغم أن مشركى العرب قد اعتنقوا الكفر فقد ظل بينهم بعض الأفراد محافظين على دين الخليل وتمسكوا به.

وكان هؤلاء يقومون بتعظيم بيت الله، والطواف حوله وأداء الحج ويخرجون لأداء العمرة ويصعدون عرفات والمزدلفة ويذبحون الأضاحى ويعتمرون اقتفاء لآثار سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل ـ عليهما السلام.

وكانت دعوة عمرو بن لحى قبائل العرب البدو لعبادة الأصنام قبل البعثة

(١) توجد معلومات وافية حول هذا الموضوع فى البحث الخاص بالقرعة عند العرب فى الجاهلية.

النبوية بألف عام وعلى قول بثلاثمائة وخمس وعشرين سنة، وبعد فترة قصيرة كان كل ساكنى منطقة الحجاز من أولاد إسماعيل ـ عليه السلام ـ قد اتجهوا إلى عبادة الأصنام المنحوتة من الأشجار والأحجار ولهذا فإذا خرج أى واحد منهم أو أى قبيلة خارج ميقات كعبة الله كان يأخذ معه ـ بهدف تعظيم بيت الله ـ حجرا من المسجد الحرام على النحو الذى سنذكره مفصلا فيما بعد ـ ويضعه فى الأماكن التى ينزل فيها ويأخذ فى الطواف حوله كما كان يطوف بالكعبة.

وبمضى الوقت غاب عن الذهن سبب تعظيم الأحجار واستبدل دين الخليل بعبادة الأصنام وتحول الناس عن عبادة خالق العباد إلى عبادة الأصنام.

وبعد ذلك اهتم الذين غيروا دينهم بتعظيم حجارة المسجد الحرام حتى إنهم فاقوا فى عبادة الأصنام الضالين من أفراد الأمم الأخرى الذين يعبدون الأصنام.

وبلغ الأمر حدًّا حتى إن قبيلة قريش وطائفة بنى كنانة كانوا يلبون فى وقت الحج قائلين «لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» ويدخلون داخل الكعبة ممسكين بأيديهم غير المباركة الأصنام التى صنعوها بأيديهم، واستمر هذا الحال المشؤوم حتى يوم إشراق نور النبوة.

وخلال تلك الفترة اهتم أهل الحجاز بعمل أصنام كثيرة مثل: اللات ـ العزى ـ مناة ـ ذو الخلصة ـ ذو الكفين ـ ذو الشرى ـ قلس ـ رضاء ـ ذو الكعبات وغيرها من الأصنام وقد سميت بعض هذه الأصنام بأصنام عبدة الأصنام فى عهد نوح ـ عليه السلام.

وقد ظهر فى الفترة التى بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ خمسة أشخاص(١) وكانوا حريصين على طاعة الله وعبادته وبهذا نالوا حب الناس واحترامهم وعندما أتم هؤلاء آجالهم وارتحلوا إلى عالم العقبى لم يستطع أولادهم وأتباعهم أن يتحملوا آلام فراقهم وتحسَّرُوا عليهم، فصنعوا ـ بإيعاز من الشيطان ـ لكل واحد منهم صورة ليعلقوها فى مساجدهم. وفعلا قد وضعوا هذه الصور فى مساجدهم وظلوا يزورونها بكثرة ليخففوا شدة حزنهم وليزيلوا وطأة حسرتهم.

(١) توجد تفاصيل وافية فى هذا الموضوع فى البحث الخاص ببدء ظهور الأصنام.

وبطبيعة الحال، مات الأبناء والأتباع فأوعز الشيطان إلى بقية الناس بعبادة الصور. إذ قال: «أيها الناس! إن هذه الصور[1] كانت صور من عبدهم آباؤكم فأنتم باتخاذكم إياها آلهة وعبادتها تعملون على نشر الدين وعلى إدامة الطقوس التى قام بها آباؤكم». ودَفَعَ الناس إلى عبادة صور هؤلاء الأفراد الخمسة إلى قبيل زمن نوح عليه السلام.

وفى واقعة الطوفان المشهورة دفنت هذه الصور المجسمة تحت التراب، واختفت عن أعين الناس، ورغم هذا فإن إبليس اللعين ـ كما سنذكر فيما بعد ـ استطاع أن يبرز جميع هذه الصور إلى الأعين بطريقة ما دفع العرب إلى عبادة الأصنام وأثار هذا العمل ضيق أهل الإيمان وأزعجهم.

وقامت جماعات حمقى من القبائل من أحفاد بنى إسماعيل وبتدخل الشياطين بصناعة أصنام مشابهة للأصنام التى أخرجت من تحت الأرض وسموها بأسماء هؤلاء الصالحين الذين ذكروا آنفا وأخذوا يعبدونها بكل إخلاص وخضوع.

وتبعا لدراسة المؤرخين فإن أسماء هؤلاء الصالحين المشار إليهم كانت: سواع ـ ود ـ يعوق ـ يغوث ـ نسر.

والأصنام التى صنعت لتختص بهذه الأسماء:

سواع: وصنعت على شكل امرأة، ود: على صورة رجل، يغوث: على صورة أسد، يعوق: على صورة حصان، ونسر على صورة طائر النسر وفى النهاية كانت تلك الأصنام التى عبدتها القبائل العربية البدوية على أشكال الحيوانات المذكورة.

بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض

لم يكن على وجه الأرض أحد من بنى البشر يعبد الأصنام حتى تاريخ رفع سيدنا إدريس إلى السماء وأصبح مظهرا للسر الإلهى القدسى.

(١) المقصود بهذه الصور هى صور الخمسة أشخاص الذين سلف بيانهم ويروى ـ على نحو ما سنبينه فى محله ـ إن أحدهم سيدنا إدريس والأربعة هم خلفاؤه، او أولاد سيدنا آدم أبى البشر.

وبناء على قول المؤرخين فإن رفع إدريس إلى السماء كان بعد هبوط سيدنا آدم أبى البشر بـ ١٤٧٢ سنة وكان أبوه يزد يبلغ من العمر ٥٢٩ سنة فى ذلك الوقت وكانت ذاته النبوية على اختلاف الروايات ٣٢٥ أو ٣٧٠ أو ٤٥٠ أو ٣٦٥ سنة من عمره وبعد هذه الواقعة ظل يزد والده على قيد الحياة مدة ٤٣٥ سنة أخرى.

ومع اعترافنا بأن الله قادر على كل شيء، فإن بقاءه على قيد الحياة هذه الفترة الطويلة أمر خارق للعادة ولهذا لو حكمنا بأن هذه الروايات لا تخلو من الخطأ فإننا نعتقد أن أحدا من القراء لن ينتقدنا ولن يخطئنا.

وعندما أصبح سيدنا إدريس مظهر الله الجليل ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) لم يحتمل أحد خلفائه المخلصين ألم الفراق وأخذ يصيح ويصرخ حتى وصل صوت صراخه إلى الملأ الأعلى وأزعج سكانه.

وذات يوم ذهب إبليس اللعين إلى حجرة الخليفة المشار إليه وقال له: أيها العاشق المشتت القلب والوجدان ما أصعب تحمل نار الفراق الحارقة وإيجاد حل لهذا الأمر من أصعب الأمور بل هو مستحيل.

فإذا ما رسمت صورة تحتوى على شمائل حضرة إدريس ثم تضعها فى مكان ما فى حجرتك وأبرزتها بحيث تشاهدها أمامك دائما وتتذكر أوقات مصاحبته لك لعلك تجدد الود المؤثر لآلام فراقك. قال هذا وصنع صورة الجسم لسيدنا إدريس وقدمها لهذا المحب الوفى المتحسر.

وكان ذلك الخليفة صافى القلب ساذجا غافلا عما يهيئ له إبليس من شر ودسيسة وفى نفس الوقت ثملا من شراب فراق إدريس فأخذ الصورة الخالية من الروح التى قدمها له الشيطان، وظل ينظر لها إلى أن حان أجله.

وبهذه الطريقة خفف من نار الشوق لكنه لم يعلن لأحد قط حقيقة الأمر. حيث ظل على هذه الحال طوال فترة حياته.

وعند وفاة الخليفة عجز الناس الذين رأوا هذه الصورة فى حجرته الخاصة عن معرفة صاحب الصورة وعن سبب وجودها فى حجرة الرجل فظلوا فى حيرة من أمرهم.

ورأى الشيطان أن الفرص سانحة فى هذا الوقت لغواية البشر وإضلالهم فتمثل فى هيئة رجل من الزهاد العابدين وتوجه إلى حيث يجتمع الحيارى فى فهم كنه الصورة التى وجدت فى غرفة الخليفة فتحدث قائلا: إن فى رأيى أن هذه الصورة - وحاشا - صورة الله - سبحانه وتعالى - خالق السموات والأرض.

ولاشك أن العبادة الخفية أكثر قبولا عند الله، لهذا كتم عنا حضرة إدريس - عليه السلام - وخليفته الذى ترك ملذات الدنيا وأخفيا تعبدهم لهذه الصورة وبهذه المقدمة دفع الناس إلى الضلالة وأراهم أول طريق للضلالة.

وانخدع الناس بمظهر الشقى الأبدى المتخفى فى زى المتصوفة وأعدوا صنما وأخذوا يمارسون طقوس عبادة الأصنام.

وقد نقلت هذه الحكاية عن مؤلف (روضة الصفا مولانا محمد خاوند).

والشخص الذى قال عنه إنه أحد خلفاء سيدنا إدريس هو الحكيم أسقلينوس أعقل وأرشد خلفائه وأفضلهم إلا أن عبارة: «أخذ من الشيطان الصورة المجسمة لسيدنا إدريس ولم يغيبها عن نظره»، لابد وأن تكون غير صحيحة لأن سيدنا إدريس اتخذ لنفسه أربعة من الخلفاء هم «إيلادس» و«أوس» و«أسقلينوس» و«بسلوخس» وأسند إدريس - عليه السلام - لكل واحد منهم إدارة جهة من جهات الدنيا الأربع، وكان «أسقلينوس» أكثرهم زهدا وورعا؛ لذا نال لقب خليفة الخلفاء.

وفى أثناء رفع سيدنا إدريس إلى السماء كان «أسقلينوس» فى بلاد اليونان، مركز الجهة التى كلف إدارتها ولما علم بالأمر ظل يبكى وينوح لفترة طويلة وأزعج الناس فى الدنيا ببكائه ونواحه، وفى النهاية قام بعمل رسمين مجسمين لسيدنا إدريس - عليه السلام - أحد الصورتين وهو جالس على كرسى والأخرى وهو يرفع يده إلى السماء واعتاد فى أثناء عبادته أن يلقى نظرة على هذين الرسمين.

وبما أنه لاشك فى أن «أسقلينوس» كان مؤمنا موحدًا بالله فلم يكن هدفه من إقامة الصورتين المجسمتين عبادة الأصنام وإنما كان من أجل تعظيم سيدنا إدريس وتوقيره.

ولكن وآسفا!! عندما توفى «أسقلينوس» لم يستطع «صاب بن إدريس» وسائر الحكماء البلهاء أن يدركوا نيته وعقيدته وحملوا ما فعله هذا على أنه من عبدة الأصنام وبعد مدة بنوا بيوتا للأصنام ونظموها وأصبحوا من عبدة الأصنام وثملوا إذ شربوا من خمر الضلال واتخذ كل واحد منهم صنما فأضلوا الناس وحملوهم على عبادة الأصنام.

وقال بعض المؤرخين: إن ابتداع الأصنام كان أولا بين أبناء قابيل، وقد ابتدعت فى زمن حكم (اليارد بن مهلائيل بن قينان بن آنوش بن شيث بن آدم عليه السلام).

وطبقا للنتائج التى أسفرت عنها الدراسات التى قام بها ناقل هذه الرواية إن أبا شيث ـ عليه السلام ـ قد تلقى أمرا خاصا من سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ لكى يخفى التابوت الذى وُضِعَ فيه أبو البشر عن أولاد وأحفاد قابيل.

وبسبب هذا الأمر نقم أولاد قابيل على شيث ـ عليه السلام ـ واتجهوا للعمل ضده ولهذا ظلوا لفترة طويلة يظهرون عدم رضاهم ويبدون علامات الألم والضيق.

ولأن هذا الأمر كان سببا كافيا لدى إبليس اللعين لضلالة الناس، فقد أقام تمثالا مباركا لسيدنا أبى البشر، وضعه فى تابوت، ثم أعطاه إلى أحفاد قابيل قائلا لهم: إن الشيء الذى أخفى عنكم هو نفسه هذا الشكل فأخذه الأحفاد وهدأ هذا الشكل المجسم من روعهم بعدما رأوه لفترة، وبعد ذلك سعى كل واحد منهم إلى الحصول على صنم. ثم أصبحت بدعة أن يوجد صنم فى منزل كل إنسان وفى مركز ومجمع كل قبيلة تابوت على صورة خاصة.

وأظهروا جميعا لها الاحترام الشديد والتوقير والتعظيم وأخذوا يعبدونها حيث أصبحت من الضرورات الدينية بين آل قابيل.

والأصنام التى عبدت فى زمن نوح ـ عليه السلام ـ هى: ود، سواع، يعوق، يغوث ونسر، صنعت على غرار الأصنام التى عملت فى زمن أبناء قابيل.

وكما حقق وصف حضرة إسماعيل حقى ـ قدس سره الجلى ـ مؤلف «روح البيان» فأسماء هذه الأصنام الخمسة هى أسماء أولاد سيدنا آدم من صلبه، وإنه بواسطة الشيطان اللعين، قد عمل نموذجا لكل واحد منهم، وكان ذلك فى عهد يارد بن مهلائيل، وظلت تعبد حتى عهد نوح ـ عليه السلام.

وعند ظهور طوفان نوح دفنت هذه الأصنام فى الأرض واختفت عن العيون. ورغم هذا فإن إبليس الملعون أخرجها من باطن الأرض فى فترة من الفترات ـ ولما نقلت إلى مكة المكرمة برأى ومشورة «عمرو بن لحى بن قمعة بن إلياس بن مضر» أخذ الناس يتعبدون لها ثم اتخذها كل عرب الجاهلية آلهة لهم وظلوا يعبدونها إلى البعثة النبوية لخير الورى عليه أفضل التحايا.

وكانت قبيلة هذيل تعبد سواع وقد اتخذت طقوسا خاصة بها ونظمت مواسم حج وزيارة لإلهها سواع رغم القبائل الأخرى المخالفة.

وحسبما قال فاضل أبو الفوز البغدادى فإن الأسماء التى أطلقت على الأصنام المذكورة هى أسماء الصالحين الخمسة السالفة التعريف والذين كانوا على قيد الحياة فى عهد «يارد أو يرد» والد سيدنا إدريس ولما توفى هؤلاء الخمسة فى عهد يارد فى خلال شهر واحد الواحد تلو الآخر، تأثر الناس أعظم التأثر وأبدوا مظاهر الحزن والألم لوفاتهم وعندئذ ظهر شخص يتصل نسبه بنسب قابيل فأقام تماثيل لهؤلاء الخمسة وأطلق على كل واحد منها اسم أحدهم ووضعها فى ميدان الميادين.

وأخذ الحزانى يزيلون حزنهم وألمهم بالطواف حول هذه التماثيل وفى هذه الفترة كان طواف الناس حول التماثيل لإظهار التعظيم والتوقير والحب لهؤلاء الصلحاء الخمس وفيما بعد اتخذ الناس هذه التماثيل آلهة يعبدونها واستمرت هذه الحالة إلى زمن نوح ـ عليه السلام.

وادعى بقى بن مخلد أن هذه الأسماء انتقلت إلى الهنود وأطلق الهنود هذه الأشياء على أصنامهم العظام.

ولما كان فى داخل كل صنم هندى جن يخبر المتعبدين بأخبار الغيب كان يظن الهنود أن أصنامهم تتكلم وتتحدث وتسمع.

ولما بدأت أصنام مكة أيضا تخبر مشركى قريش ببعض الأخبار عما سيحدث فيما بعد اعتقدوا مثل الهنود أن أصنامهم تنطق وتتحدث.

الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة

قال سيدنا عبد الله بن عباس وهو يتحدث عن سبب إسلام عمر الفاروق: وَعَدَ سيدنا عمر بن الخطاب صناديد قريش بقتل الذات النبوية الشريفة وذهب إلى بيت فى داخله صنم يتعبد له بعض البلهاء من بنى خزاعة، ذهب ليؤكد لقريش بالقسم أمام الصنم بأنه سيوفى بوعده.

وبينما كان سيدنا عمر يستعد للقيام بقسمه صدر من داخل الصنم صوت هاتف. وقد تعجب أفراد قريش من صدور مثل هذا الصوت وأنصتوا فى قلق وخوف وحيرة لما يقوله الصنم فأدركوا أنه يردد الأبيات الآتية:

شعر

يا أيها الناس ذو الأجسام ... ما أنتم وطايش الأحلام
ومسندو الحكم إلى الأصنام ... أصبحتمو كراتع الأصنام
أما ترون ما أرى أمامى ... من ساطع يجلو دجى الظلام
قد لاح للناظر من تهامه ... حتى بدا نورا بأرض الشام
محمد ذو البر والإكرام ... أكرمه الرحمن من أمام
قد جاء بعد الشرك بالإسلام ... يأمر بالصلاة والصيام
والبر والصلات للأرحام ... ويزجر الناس عن الآثام
فبادروا سبقًا إلى السلام ... بلا نفور وبلا إحجام

وتفرق القرشيون الموجودون فى معبد الأصنام المذكور كما تتفرق صغار الحجل، واتجه كل واحد منهم إلى ناحية، بينما اتجه الفاروق الأعظم - رضى الله عنه - إلى بيت أخته فاطمة بنت الخطاب، ومن هناك إلى بيت حمزة وعلى قول إلى دار الأرقم ابن الأرقم. ولكن قبل وصوله إلى ذلك البيت السعيد المشار إليه قابل رجلا من بنى سليم فقال له ما يدور فى نفسه. وحينئذ استصوب الرجل أن يذهب عمر قبل اتخاذ أى قرار إلى صنم قبائل بنى سليم الذى اتخذوه إلها والمسمى بـ ضمار[1] ليفصل فى القضية، وهكذا توجه الرجل إلى بيت أصنام بنى سليم، ولكن عمر سمع منه الأبيات الآتية فحطم ضمار الضخم من شدة غضبه.

شعر

أوْدَى الضمار وكان يعبد مرة ... قبل الكتاب وقبل بعث محمد
إن الذى ورث النبوة والهدى ... بعد ابن مريم من قريش مهند
سيقول من عبد الضمار ومثله ... ليت الضمار ومثله لم يعبد
أبشر أبا[2] حفص بدين صادق ... تهدى إليه وبالكتاب المرشد
واصبر أبا حفص قليلا إنه ... يأتيك عز فوق عز بنى عدى
لا تعجلن فأنت ناصر دينه ... حقا يقينا باللسان وباليد

وبعد ما حطم سيدنا عمر ضمار وجعله ألف قطعة، قد تحولت العداوة التى كان يضمرها للنبى - ﷺ - إلى مودة أبدية؛ لهذا رجع فورا إلى المنزل أخته ومن هناك إلى دار ابن الأرقم السعيدة بصحبة زوج أخته، ودخل فى دائرة الإسلام المنجية على النحو المذكور فى كتب السيرة بالتفصيل. رضى الله عنه.

- حكمة:

وائل بن حجر «بن ربيعة بن وائل بن يعمر الحضرمى» أحد الصحابة الكرام[3]، ومن ملوك حضرموت المشهورين كان يعبد صنما لامعا من العقيق

(١) ضمار على وزن كتاب وهو الصنم الذى كان يعبده عباس بن مرداس وقومه.
(٢) كنية سيدنا عمر.
(٣) انظر ترجمته فى الإصابة ٦/ ٣١٢.

الأحمر، وكان يسجد احتراما وتوقيرا له وكان يذبح له قرابين كثيرة كل يوم بغية نيل رضاه.

قال هذا الصحابى: كنت نائما فى قصرى وقت الظهر فى يوم من الأيام، فاستيقظت إذ سمعت صوتا حادا يصدر من خزانة الصنم، فوثبت من فوق سريرى وأخذت أسجد بجانب الصنم، فسمعت فى ذلك الوقت هذه الأبيات التى تخرج من بطن الصنم.

الأبيات:

يـا عجبـا لوائـل بـن حجـر — يخال يـدرى وهـو ليس يـدرى
مـاذا يـرجـى مـن نحيـت صـخر — لـيس بـذى عـرف ولا ذى نكرى
ولا بـذى نفـع ولا ذى ضـر — لـو كـان ذا حجـر[1] أطـاع أمـرى

وعندما سمعت هذا الشعر رفعت رأسى وقد ملأنى العجب والحيرة ومالبثت أن قلت:

يا أيها الناصح ـ بما تأمرنى؟ فسمعت صوتا يقول فى عبارات منظومة:

«شد الرحال إلى يثرب المباركة.. حيث يكثر النخيل.. فليس لفضلها حصر».

وفى نهاية الشعر المذكور سقط الصنم على وجهه وتحطم وتفتّتت أجزاؤه، وعقب ذلك ارتحلت إلى دار السكينة المدينة المنورة وأسرعت بالدخول فى المسجد النبوى الشريف، ودعانى رسول الله ـ ﷺ ـ وبسط طرف ردائه المبارك، وأقعدنى عليه ثم صعد المنبر وألقى خطبة بليغة وقال عقب الخطبة: «أيها الناس إن هذا الرجل هو وائل بن حجر، وقد جاء من بلاد بعيدة كحضرموت راغبا فى الإسلام» وما لقيت بعد ذلك رجلا من الصحابة فى المدينة إلا وقال لى: يا وائل إن النبى ـ عليه صلوات الله الأكبر ـ قد بشرنا بمجيئك إلى المدينة المنورة منذ ثلاثة أيام.

(١) يعنى وائل بن حجر.

الأبيات التى سمعها وائل من داخل الصنم

ارحل إلى يثرب ذات النخيل ... وسر إليها سير مشمعل[1]
قبل تقضى العمر المولى ... تدين بدين الصائم المصلى

محمد المرسل خير الرسل

وكان الصنم الذى تعبده قبيلة خطامه سببا فى إسلام «مازن بن غضوبة»[2] رضى الله عنه وهو من وجهاء تلك القبيلة.

وكان هذا الصنم إله قبيلتى (خطامة وصامت) وقد عين أفرادهما مازن بن غضوبة خادما له.

وقال مازن بن غضوبة هذا وهو يتحدث عن الحادثة التى أدت إلى إسلامه: «كنت قد ذبحت ضحية للصنم الذى أخدمه تقربا له وطلبا لنيل رضاه، وفجأة سمعت من جوف الصنم صوتا يخاطبنى، ويقول: يا مازن استمع إلى لعلك تسر وتسعد لقد بعث رسول من أحفاد بنى مضر لإظهار الدين الحق وإعلائه، فاترك الآن عبادة الحجارة المنحوتة وانج بنفسك من نار جهنم المحرقة.

وهكذا سلب منى عقلى وشعورى، وتعجبت من حال الصنم وتحيرت حتى لم أدر ما أفعله تجاه هذا الأمر، وبعد أيام جاء رجل من قبيلة أزد وقال هل تعلمون أنه قد ظهر فى مكة المكرمة رجل يسمى «محمد»، ويدعو من يقابله واستجيبوا لدعوة الله، وهكذا أخبرنا بظهور النبى ﷺ.

بينما تعجب الناس من هذا الخبر، قلت لنفسى، هذه هى حقيقة ما سمعته من الصنم فى اليوم السابق، وبعد أمد حطمت ذلك الصنم جذاذا، وقد نلت عز المثول أمام الرسول ـ ﷺ ـ وقبلت الإسلام دينا.

هناك كهنة فى الجاهلية دخلوا الإسلام بإغراء الجن وتحريضهم، يقول عبد الله بن كعب ـ رضى الله عنه ـ: بينما كنت جالسا مع عمر بن الخطاب ومعنا أناس آخرون فى المسجد النبوى السعيد، دخل أحد الأعراب فى المسجد وجاء إلى

(١) المشمعلّ: السريع. يكون فى الناس والإبل انظر اللسان: شمعل. ص ٢٣٢٨. ط. دار المعارف.

(٢) انظر ترجمة مازن بن غضوبه فى الإصابة ٦/ ١٥-١٦، وثقات ابن حبان ٣/ ٤٠٧. وقصة إسلامه هذه فى دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٢٥٥ وما بعدها.

جانبنا، فقال حضرة الخليفة عندما رأى الرجل: إن هذا الإنسان كان من كهنة أهل الجاهلية ورد على سلام الأعرابى وقال له هل أسلمت؟ فأجابه الرجل: نعم يا أمير المؤمنين نعم أسلمت ونجوت من دنس الكفر والضلالة.

قال: ألم تكن كاهنا فى الجاهلية؟ فأجابه قائلا: يا أمير المؤمنين لا داعى لذكر الماضى، قال عمر إذ تلقى هذه الإجابة الدالة على الندامة ـ داعيا رافعا يديه: «يا رب لقد كنا نعبد الأصنام إلى أن أنعمت علينا وأكرمتنا ببعث الرسول الكريم والنبى الحبيب ـ ﷺ ـ يا رب إننا نادمون آسفون على ما مضى من زمان قضيناه فى عبادة الأصنام يا رب تجاوز عن ذنوبنا واغفر لنا».

وبعد هذا الدعاء وجه كلامه إلى الأعرابى المذكور قائلا: حدثنا عن قرينك الذى كان يخبرك بالغيب فى زمن كهانتك، وكيف أغراك ودفعك إلى قبول دين محمد؟!.

فأجاب الأعرابى على النحو التالى جاء الجن الذى يرافقنى قبل شهر من إسلامى وقال هذه الأبيات:

شعر

عجبت للجن وإبلاسها	**وشدها العيس بأحلاسها**
تهوى إلى مكة تبغى الهدى	**ما مؤمن الجن كأرجاسها**

رغم أن رفيقى لم يقل شيئًا آخر غير هذا الشعر إلا أنه رجع فى اليوم التالى وأنشد **الأبيات الآتية:**

عجبت للجن وإجلابها	**ونصبها العيس وأعمالها**
تهوى إلى مكة تبغى الهدى	**ما مؤمن الجن كضلالها**

ورجع رفيقى فى الليلة الثالثة، **وقرأ الأبيات التالية:**

عجبت للجن وإجلابها	**وشدها العيس بأقتابها**
تهوى إلى مكة تبغى الهدى	**ما زُمَّعُ الجن كصيَّابها**

عندما أتم الأعرابى كلامه وسكت قال حضرة الخليفة مصدقا المشار إليه: ذات

يوم كنت أجلس بجوار الصنم وقد ذبحت عجلا قربانا إلى أحد الآلهة التى كنا نعبدها فى الجاهلية، فخرج من جوفه صوت رقيق يثير الشوق وقال: أيها الشيخ أعلن بلسانك الفصيح صحة أمر لا إله إلا الله، وانشره بين الناس.

وقال «جبير بن مطعم» أيضا أن أباه سمع بعض الكلمات من أحد الأصنام التى يعبدها. قال مطعم حسب ما يرويه ابنه وينقله: كنت جالسا يوما فى بيت الأصنام إذ تكلم الصنم الذى كنت جالسا بجانبه، فقال: استمع إلى ما يثير عجبى استمع إلى تخمين حان وقته سيظهر من العرب رسولٌ من سلالة هاشم بن عبد مناف. إن مسقط رأسه سيكون مكة المكرمة ومهجره سيكون المدينة المنورة.

وبعد أن قص سيدنا جبير هذه الحكاية التى سمعها أبوه من الصنم المذكور، أضاف أنها قد حدثت قبل البعثة المحمدية ـ عليه وعلى آله أفضل التحية ـ بفترة طويلة.

ومن الصحابة الكرام الذين أسلموا بإغراء من الجن هو «تميم الدارى»[1] قال: حضرة تميم وهو يعرفنا بسبب اعتناقه الإسلام: وأنا فى طريقى إلى الشام ذات يوم ـ أقبل الليل، فقررت أن أنام فى مكان هادئ فى أحد الوديان، فترجلت من فوق دابتى واتجهت ناحية المكان الذى اخترته، وبعد برهة سمعت هاتفا يقول: نلجأ إلى الله الواحد، وآمنا مع كوننا من الجن لم نجد أحدًا غيره نلوذ به لقد ظهر حضرة رسول الثقلين ـ ﷺ ـ وقد صلينا خلفه فى جبل حجون[2] بعد أن اتبعناه، قد اعتنقنا الإسلام وآمنا برسالته، فأسلم أنت أيضا حتى تسلم.

وقد سمعت كلاما بهذا المعنى وبادرت فى ترك المكان وذهبت إلى دير أيوب، وحكيت ما سمعته إلى راهب الدير الذى قال: نعم لقد ظهر خير الأنبياء فى الحرم ـ وسيهاجر إلى الحرم فتوجهت فورا ـ إذ سمعت هذا الكلام إلى مكة المعظمة فوجدت حضرة النبى ﷺ واحتميت بدائرة الإسلام المنجية[3].

(١) دار بن هانى بن حبيب، هو والد بطن من العرب، وهو تميم بن أوس الدارى، من الصحابة الكرام. انظر الإصابة ١/ ١٩١.

(٢) اسم جبل فى مكة المكرمة.

(٣) نقل الإمام الواقدى هذه الرواية عن خالد بن سعيد، وقد نقل هو أيضا عن تميم الدارى.

من الذين آمنوا بإغراء الجن أيضا خُرَيم بن فاتك بن الأخرم يروى أن الحكاية الآتية قد نقلت عن خريم بن فاتك ذاته[1].

«ذات يوم، كنت أبحث عن دابة ضالة لى وسرت حتى وصلت إلى مكان موحش، ولما وجدتها كان قد أنهكنى التعب، فربطت دابتى التى كنت أمتطيها ورأيت الاحتماء بهذا المكان وكان هذا المكان واسعًا ثم استندت على حلس البعير، وقبل الاستغراق فى النوم سمعت من الهاتف الشعر الذى سيكتب فيما بعد.

ولأن قلبى كان قد امتلأ بنور الإسلام قلت: أيها الهاتف من أنت؟ فجاء الجواب: أنا بن مالك بن مالك فإذا أردت أن تسلم فأنا أكفيك مؤونة البحث عن جملك الضائع وأوصله إلى بيتك إلى أن تعود إلى أهلك وعيالك فسمعت هذا الكلام وذهبت إلى المدينة المنورة بلا تأخير.

وتصادف وصولى إلى مدينة طيبة ظهيرة يوم الجمعة، فتوجهت رأسا إلى المسجد النبوى الشريف وكان الرسول ـ ﷺ ـ يلقى الخطبة فقلت لنفسى لأقف خارج المسجد إلى أن تنتهى الخطبة الشريفة إلا أن أبا ذر الغفارى جاءنى وقال يا خريم، قد وصل إسلامك إلى مسامع النبى ـ ﷺ ـ وقد بعثنى إليك لأبلغك سلامه وسروره بإسلامك ادخل إلى المسجد وأدِّ الصلاة مع الجماعة وبعد الصلاة قابلت رسول الله ـ ﷺ ـ الذى قص لى ما حدث فى ذلك الوادى وأن الهاتف سالف الذكر قد أوصل جملى إلى بيتى وأوفى بوعده.

هذا هو الشعر الذى استمع إليه خريم من الهاتف[2].

تعـوَّذْ بـالله ذى الجـلال ووحِّـد الله ولا تبـال

ما هـول الجـن مـن الأهـوال

فتحير خريم بن فاتك عندما سمع هذه الأبيات وقال: يا هاتف ـ يرحمك الله ـ وضح لى صراحة ما تريد أن تقوله فقال الجن الذى ظل مختفيا.

(١) إن حضرة خريم من الأصحاب الكرام ترجمته فى الإصابة ٢/١٠٩.
٢) هذا الهاتف كان من الجان الذين آمنوا بنبينا سيد الثقلين.

هـذا رسـول الله ذو الخيـرات يدعـو إلى الجنة والنجـاة
يـأمـر بالصـوم وبالصـلاة

وكانت المنظومة المذكورة التى أجاب بها الهاتف تعنى أن رسول الله ﷺ هو صاحب هذه الخيرات وأنه يدعو إلى الجنة والنجاة ويأمر بالصوم والصلاة، وهى إشارة إلى صدق ما يدعو إليه الرسول - ﷺ.

ومن الذين آمنوا أيضا بناء على ما أخبره به الجن سيدنا سلمة بن زيد(١).

قال حضرة سلمة الذى ينتهى نسبه إلى بطن من بطون قبيلة خثعم كان أفراد قبيلتنا لا يعتقدون فى حرمة أى شئ قط وبينما كانوا ذات يوم يعبدون أصنامهم ويجرون طقوسهم فجأة سمعوا صوت الهاتف يقول يا أيها الناس أصحاب الوجود. لماذا تنظرون إلى أوهام الرؤيا؟ لماذا تستمعون إلى الناس(٢) الذين يسندون الحكمة إلى الأصنام وينسبون إليها. إن هذا النبى(٣) سيد الناس وإنه أحكم الحكام يعلن عن نور الإسلام وإنه أسد فى بلد الله الحرام، وإذ سمع أفراد قبيلتنا ما يفيد تلك المعانى فاهتموا كثيرا وتفرقوا وقفلوا راجعين إلى منازلهم حتى إن أفراد القبيلة قد حفظوا هذه الأقوال وظلوا يذكرونها إلى أن ظهر النبى - ﷺ.

قالت فاطمة بنت النعمان(٤) النجارية: كان هناك جن يأتى كل يوم إلى منزلى ويعاكس هذا وذاك، وذات يوم جاء وصعد فوق الجدار وبدا إلى حائرا هادئا وإننى لم أكن قد شاهدته حائرا وساكنا هكذا فزاد اهتمامى فسألته ماذا حدث لك هذا اليوم حتى تقف هكذا مهذبا هادئا؟ فبدأ الكلام قائلا: لقد أرسل الله - سبحانه وتعالى - نبيا يحرم اليوم الزنا، وهكذا فهمت أن نبينا قد بعث عليه الصلاة والسلام.

ومن الذين اعتنقوا الإسلام بنطق الأصنام عبد الله بن ساعدة الهزلى. قال

(١) حضرة سلمة بن زيد من الأصحاب الكرام.
(٢) المقصود منه الشخص الذى جعلهم يتخذون الأصنام آلهة.
(٣) المقصود به نبينا محمد ﷺ.
(٤) نعمان النجارى من الأصحاب الكرام. انظر الإصابة ٦/ ٢٤٤، ترجمة ٨٧٥١.

حضرة عبد الله: كان الصنم الذى نعبده ونقدسه «سواع» وكنت أعتقد كما يعتقد أفراد القبيلة التى أنتسب إليها أن سواع قادر على فعل كل شيء وبناء على هذا الظن كنا نعبده ونجله وبدا يظهر أشياء خارقة ولعله نتيجة لإيماننا به ـ وهذا مما زاد وقوى عقيدتنا فيه. وأنا أيضا ذهبت إليه يوما من الأيام حاملا معى غنما مصابا بالجرب طلبا للشفاء عنده. وإذا بجن فى بطن سواع يخاطبنى قائلا: وآسفا ـ أن الستائر قد أسدلت وقد صعق الجن بالشهب الأصنام فقدت حكمها وسيطرتها. قد نزل خير الكتب[١] وبعث خير العرب[٢]. وهذا كان مفاد[٣] كلماته.

وعندما سمعت هذا القول. رجعت إلى بيتى وكرهت عبادة الأصنام وأسرعت لاستكناه الأحوال ومعرفة الأخبار فعلمت أن النبى ـ ﷺ ـ قد بعث فى مكة المكرمة وفى الحال ذهبت هناك واعتنقت الدين الإسلامى المبين.

خرج مالك بن نفيع[٤] يوما إلى الحقول للبحث عن جمله الضائع وبعد أن ظل يبحث عنه مدة طويلة وجده فى مكان ما وعزم على العودة ولكن المساء قد فاجأه ولم يرد أن يسير ليلا كعادة العرب ونام فى سفح جبل وراح فى سبات.

يقول مالك هذا: بينما كنت فى حالة يقظة لم يغلبنى النوم بعدما سمعت هاتفا يقول: يا مالك! يا مالك! لو حضرت المكان الذى برك فيه جملك قليلا ستجد شيئا يسرك ويجعلك محظوظا، فسحبت جملى إلى مكان آخر وحضرت إلى المكان الذى كان فيه جملى، ووجدت فيه صنما قد نحت على شكل امرأة فأخذته ونصبته فى نفس المكان، إن ظهور هذا الصنم ملأنى فرحا وسرورا حتى إننى وهبت أحد جمالى قربانا له وسميته غلاب وحملته على جملى الآخر وعدت إلى بلدى.

وقد حسدنى الناس على حسن حظى وأرادوا أن يأخذوه منى وينصبوه فى مكان عام، ولكننى لم أهتم بجلبتهم وصياحهم فأخذت غلاب ونصبته فى مكان معين من بيتى.

(١) هو القرآن الكريم.

(٢) هو نبينا محمد ﷺ.

(٣) لابد أن هذا الجن كان كافرا لأنه يتأسف على نزول القرآن وبعث نبينا ﷺ.

(٤) مالك وأخوه حارث بن نفيع الأنصارى من الصحابة الكرام. انظر الإصابة ٧/ ٨٤ ترجمة ٥٢٧.

وحينما أخذت غلابا إلى بيتى كنت قد نذرت أن أذبح له كل يوم قربانا وذبحت فى ظرف ثلاثة أيام ما كنت أملكه من الأغنام ولما لم يبق معى ما أقدمه له قربانا ذهبت إليه لأعتذر له.

وعندئذ خرج من جوف الصنم صوت يقول: يا مالك! يا مالك! لا تأسف على مالك الذى تلف بل أذهب إلى جانب البئر الواقعة فى بلاد قبيلة «أرقم» فستجد هناك كلبا أسود، فخذه واذهب إلى الحقول للصيد فتغتنى.

بعدما وضح مالك ما قال غلاب وعرفه قال وهو يبين كيف وجد ذلك الكلب وكيف استخدمه فى الصيد بالأمر: خرجت إلى الطريق وذهبت إلى البئر التى فى بلاد قبيلة أرقم فاستقبلنى كلب أسود فربطته من عنقه وأخذته معى وتوجهت إلى الحقول للقنص، وسرنا فى الحقول مدة وإذا بالكلب الذى فى يدى قد رأى غزالا وهاج حتى كاد أن يقطع الحبل الذى فى عنقه، ولكننى ترددت فى إطلاقه وفى نهاية الأمر أطلقته فجرى الكلب وقبض على الغزال.

وإننى قد سررت من جهد الكلب ورجعت إلى البيت وذبحت الفريسة قربانا لغلاب، وهكذا خرجت للصيد فى اليوم الثانى والأيام الأخرى حتى أصبحت من عادتى أن أخرج للصيد وأذبح ما أصطاده قربانا لغلاب وأوزع لحمه.

وفى يوم معهود جرى الكلب وراء نعامة ولكنه لمح فى الطريق غرابا، ونفر منه وتراجع، وكاد أن يدخل بين أرجل الفرس التى كنت أمتطيها. وبما أننى لم أر الغراب استغربت من حالة الكلب وترجلت من الدابة لأستطلع الأمر. حينما رآنى الغراب خاطب الكلب قائلا: يا كلب فأجابه الكلب ماذا يوجد؟ لقد هلك هذا وظهر الإسلام وأسلم أنت أيضا لتجد النجاة!! وعندما قال هذا اختفوا فجاءة من أمام عينى وأعتقد أن كلاهما كان من الجن والسبب فى دخول «ابن النفيع» فى الإسلام كان هذا الحادث.

اتفق أن «مالك بن مرداس السلمى» كان يتجول بين أشجار النخيل، وفى وقت الظهيرة ظهر رجل يرتدى ثوبا أبيض من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه وهتف له قائلا: يا عباس بن مرداس! إن الشياطين والجن الذين يسترقون السمع للأحداث السماوية قد تفرقوا وإن أحوال الدنيا قد تغيرت ـ من أولها إلى آخرها ـ

ألا تعلم أن نبيا بارا تقيا ملهما من قبل الله قد ظهر مساء الأثنين وليلة الثلاثاء ـ وهو صاحب الجمل المقطوع الأذنين ـ ففزع عباس بن مرداس فزعا شديدا ومضى إلى صنم قبيلة ضمار فأخبره ما سمع من كلام هذا الرجل وبينما كان يتحدث إليه خرج من بطن الصنم صوت عجيب يلقى هذه الأبيات:

قـل للقبائـل مـن سـليم كلهـا ... هلك الضمار وفاز أهل المسجد

هلك الضمار وكان يعبد قبل أن ... نـزل الكتـاب علـى النبى محمـد

إن الـذى ورث النبـوة والهـدى ... بعـد ابـن مـريم مـن قريش مهند

يقول عباس بن مرداس[1] حطمت «الضمار» ألف قطعة إذ سمعت فيه هذا الكلام ثم مضيت إلى المدينة المنورة ومعى ثلاثمائة من قبيلتنا ونلنا شرف المثول بين يدى الرسول ـ ﷺ ـ وبناء على أمره ـ ﷺ ـ قصصت ما حدث وأسلمنا كلنا فى حينه رضى الله عنهم.

إن هذه الواقعة مروية من قبل «عبد الرحمن بن أنس السلمى» وليس الضمار هذا الصنم الذى حطمه حضرة عمر بن الخطاب الفاروق بل هو صنم آخر يحمل نفس الاسم.

وعندما اقترب ظهور النبى ـ ﷺ ـ سمع عن كثير من الأصنام مثل هذا الكلام الموثوق من صحته والتى أخبرت بظهور النبى ـ ﷺ.

وبما أن أكثر ما سمع من أصنام مكة قبل البعثة كان الإخبار بما سيحدث والتنبؤ بالغيب وكان عبدة الأوثان يلاحظون أن ما يخبرهم به أصنامهم صحيح والأحاديث التى يخاطب بها الناس تطابق الواقعة لذلك زاد تقديسهم لهذه الأصنام والتمسك بها واعتمادهم عليها وتأكد إيمانهم بها فأقبلوا بإخلاص على عبادة هذه الأصنام.

والأصنام الخمسة التى مر ذكرها والتى وضعت فيما بعد فى مكة والتى حصل عليها عمرو بن لحى بن قمعة وحملها إلى مكة المكرمة وأخذ يتعبد لها ويحمل

(١) عباس بن مرداس السلمى من الأصحاب الكرام وشجعان العرب وهو شاعر منقطع النظير. انظر: الإصابة ٤/ ٣١ ترجمة ٤٥٠٢.

الناس على عبادتها قد اتخذها عرب الجاهلية آلهة لهم وأطلقوا على كل واحد منها اسما خاصا.

ويبين المؤرخون كيفية انتقال هذه الأصنام لبلاد العرب على يد عمرو بن لحى الضال على هذا الوجه:

كان عمرو هذا ـ بناء على اعتقاد أهل الجاهلية ـ تابعًا للجن وكان دائم الاتصال به ودائم الحديث معه.

وقال له الجن يوما: يا عمرو! إن تماثيل الآلهة الخمسة التى كان يعبدها الناس فى عهد نوح وإدريس ـ عليه السلام ـ قد ظهرت على سواحل جدة، فابحث عنها وبعدما تجدها انقلها إلى مكة.

وأسرع عمرو ـ وقد سمع ما قاله الجن ـ بالسفر إلى جدة وحمل تلك الأصنام من شواطئ جدة وعاد إلى مكة وأجبر الناس على عبادتها وقسمها بين القبائل المتفرقة وبعث لكل قبيلة فى موطنها بصنم خاص لها وهكذا بدأت عادة عبادة الأصنام بين العرب وأخذ كل سكان الحجاز من تلك الأوقات فى عبادة الأصنام.

وإن كانت هذه الرواية تكذب الرواية التى تقول أن عمرو بن لحى قد جلب هذا الصنم من أرض البلقاء فى الشام إلا أن إحضار عمرو الأصنام الخمسة إلى مكة من أرض الشام حدث بعد جلبة هبل.

ومع كل هذا قد ركز عمرو هبل(١) داخل الكعبة، وأهدى الأصنام الخمسة إلى رؤساء القبائل وهكذا حمل جماعات العربان على عبادة الأصنام ووفق فى نشر الوثنية فى الحجاز.

إن اللعين الذى حمل أحفاد بنى إسماعيل على الارتداد عن دين إبراهيم إلى الوثنيـة هـو عمرو بن لحى الذى عاش ما يقرب من (٣٤٠) سنة وقد كتب له أن يرى ألف مقاتل من أحفاده وقد استمر حكمه وحكم أبنائه فى مكة المكرمة ٥٠٠ عام. ووفق هذا الحساب قد ظل بيت الله فى يد المشركين ألف عام وهو مكان لعبادة الأصنام.

(١) أول صنم أدخل الكعبة هو هبل وهو من اعظم أصنامهم.

ادعاء جمشيد الألوهية

يقول المؤرخون إن عبادة الأصنام قد بدأت فى أيام جمشيد العنيد من ملوك البشدادية.

وبناء على ما جاء فى ترجمة تفسير أبو الليث أن (جمشيد) أخو الملك (طهمورث بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام).

ويقال إن جمشيد أول من كشف وأوجد الأدوية المركبة والمفردة والتداوى بالنبات، كما كشف عن المعادن المتنوعة واستخدم الذهب والفضة وأنواع الزينة والجمال والملابس الحريرية المتنوعة وتطيب بأعواد العنبر، وصنع الخمر وأنواع الطيب والمعطرات.

دام ملك جمشيد ثمانمائة عام ودخلت الأقاليم السبعة فى حوزته وسخر الأنس والجن وحكم أهل المشارق والمغارب مما قوى شوكته وزاد فى عظمته.

وقد اعتلى جمشيد عرش الحكم فى عهد إدريس[1] ـ عليه السلام ـ وأقام العدل بين الناس وحرص على الوئام والمحبة لذا سمى رعيته يوم جلوسه على العرش نوروز وأصبح هذا اليوم من كل سنة عيدا لهم يحتفلون به كل عام.

ويقال إنه فى فترة حكمه قد رفع عن الناس ـ لحكمة ما ـ الموت والمرض والشيخوخة فما عرف فى ظرف ثلاثمائة عام من حكمه أن أحدا قد مات أو مرض أو شاخ.

وقد ظهرت فى زمانه بدائع الصنائع ومختلف آلات الحرب وطبقات الأمراء ودرجات المقاتلين ونصبت الخيام كما تم استخراج الجواهر واللآلئ من البحر وصناعة الإسبيداج والكلس وبناء الحمامات.

ولقد أمضى جمشيد أواخر أيامه فى الرفاهية والسعادة لا يفكر إلا فى ملذات طعامه وشرابه إذ بلغ ملكه أقصى ما كان يتمناه من قوة وعزة واحتشام.

وكان يفكر أحيانا فى حالته الصحية وكيف أنه لم يتعرض لمرض وكيف أنه لم يشعر بآلام فى أعضاء جسمه ولا أوجاع واضطرابات وكان يتساءل أحيانا قائلا: يا

(١) فى قول أنه فى عهد إدريس وفى قول آخر فى زمن صالح عليهما السلام.

ترى هل هناك شخص يشبهنى فى عظمتى وقدرتى ولم يصبه مرض فى مدة حياته؟!.

وحينئذ نسى بشريته وأخذ يحاول أن يفهم ماهيته، وغشيه يوم من الأيام نوم وعقب هذا حدث نفسه قائلا: على أغلب الظن أننى لست من جنس البشر، إذ كيف أكون بشرا ولم يصبنى مرض وتقلب المزاج والشعور بالكآبة. ولكنه نسى أنه فى حاجة إلى كل ما يحتاجه البشر من الأكل والشرب وقضاء الحاجة، وبعد فترة دخل الشيطان فى غرفته دون أن يشعر به حراسه وأيقظه من نومه.

ولما اقتحم عليه الشيطان حجرته وهذا لم يكن له فى الحسبان لأن اقتحام أحد عليه حجرته دون أن يراه أحد من الحراس كان ضربا من المستحيل بدون رؤية أحد من الحراس؟ لذلك تملكته الحيرة وقال له حينما رآه فجأة أمامه: من أنت؟ وتلقى ردا من إبليس المضلل: إننى ملك نزل من السماء قد جئت لأعرفك من أنت.

ولما كان جمشيد مشتاقا لمعرفة نفسه فكر أن هذا الشخص الذى يقتحم عليه حجرته لابد أن يكون شخصا ذا قدرة فائقة وربما يستطيع أن يعرفه بنفسه لذلك وجه إليه سؤال إذن أخبرنى من أنا؟ لأننى لا أشبه بنى البشر فى شىء؟ فرد الشيطان قائلا: لعلك نسيت من أنت؟

إنك رب سكنة السموات والأرضين!!.. وكنت فى السماء منذ ثمانمائة عام.. حينما استغرقت فى النوم فإننى هبطت بك على الأرض وفق أمرك..

إن عدم إصابتك بالمرض طول حياتك وانتصارك على ملوك العالم جميعا أليس دليلا كافيا على أنك إله.

كما أن دخولى إلى الحجرة بدون أن يرانى أحد ألا يثبت أننى رسول السماء؟! وهكذا خدع إبليس جمشيد الأبله بقوله المزخرف.

وقد قبل جمشيد الأدلة الواهية التى ساقها له إبليس واقتنع بألوهيته واستفسر منه الطريقة التى سيتحرك بها بعد ألوهيته فأجابه إبليس اللعين: يجب أن توقد فى هذا الميدان نارا عظيمة ثم تدعو الناس جميعا وتعلن لهم أنك إله وتطلب

منهم أن يسجدوا لك، وأن تلقى إلى النار كل من يمتنع عن السجود، وهكذا عرفه بطقوس المجوسية، وهكذا جعل إبليس اللعين جمشيد يوقد نارا حامية ويدعو الناس وجعلهم يسجدون له بعد أن أعلن ألوهيته فصدقه الناس. وبعد ذلك نصب خمسة أشخاص خلفاء له، وأعطى لكل واحد منهم صنما كبيرا وأرسلهم إلى أطراف مملكته بعد ما أمرهم بأن يدعوا الناس إلى السجود إلى هذه الأصنام وأن يعترفوا بألوهيته وأن ينال المصدقون التعظيم والتوقير وأن يعاقب المنكرون بإلقائهم فى النار.

كانت أسماء هذه الأصنام التى أعطيت للخلفاء: ود ـ سواع ـ يعوق ـ يغوث ـ نسر. وهكذا انتشر هؤلاء الخلفاء حاملين أصنامهم فى أرجاء العالم وابتدروا فى إضلال الناس بنشر طقوس الوثنية إلى أن مات جمشيد لعنه الله.

قد مات جمشيد بعد فترة من إرسال الأصنام إلى أطراف ممالكه، وهكذا نجا ربع سكان العالم من الاحتراق بنار الضلال، إلا أن مبعوثيه إلى أركان العالم أخذوا ينشرون طقوس الوثنية والمجوسية فى أرجاء العالم وأدخلوا أكثر الناس فى الوثنية.

قد قبض على جمشيد حيًّا فى نهاية الأمر فى حربه مع «الضحاك» ابن أخى شداد بن عاد، وقد جعله قطعتين بعد ما نشره بعظمة شبيهة بالمنشار لنوع من أنواع الأسماك.

عاش جمشيد ألف عام قضى ١٠٠ أو ٣٠٠ أو ٧٠٠ أو ٨٠٠ سنة فى الحكم حسب الروايات المختلفة.

يدعى مؤرخو الفرس نبوة جمشيد، إلا أن ابن عباس قال إن القول ببعث نبى من الفرس كذب، وخرج روايات هؤلاء المؤرخين الواهية والذين يدعون نبوة جمشيد من مؤرخى الفرس الجهلة قد اقتنعوا أن سيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ هو جمشيد، إلا أن جمهور أئمة الأخبار بينوا أن هناك أكثر من ألفى سنة زمنية بين سليمان ـ عليه السلام ـ وجمشيد، كما أن جمشيد قد كفر وأشرك فى أواخر أيام سلطنته، ويكفى هذا دليلاً على بطلان تلك الادعاءات.

ظهور طقوس الوثنية بين أحفاد إسماعيل

قد كثر أحفاد بنى إسماعيل المقيمين فى جوار الكعبة المعظمة. وأدى هذا التكاثر إلى تفرقهم فى أطراف البلاد فهاجر بعضهم إلى بلاد الشام، والبعض الآخر إلى بلاد اليمن، وعند هجرتهم حملت كل قبيلة قطعة من الحجر من الكعبة الشريفة تذكارا وتبركا منها، ووضعت الأحجار فى مكان مرتفع توقيراً لها.

وقد رأى الشيطان اللعين مدى استعدادهم لاعتناق الوثنية وعبادة الأصنام، فقال: الأولى أن نعبد الأصنام المصنوعة والمصورة بدلا من هذه الحجارة الغليظة الخالية من الذوق والجمال، وهكذا نحتت وصورت الأصنام الخمس السالفة الذكر، وحَمَلَ رؤساء القبائل على عبادة الأصنام بواسطة عمرو بن لحى، وقد ابتدر هؤلاء الزعماء فى عبادة الأصنام، وقد استحسنوا أقاويل الشيطان وانصرفوا إلى الوثنية وتقديس الأصنام بعد أن تركوا قراءة صحف إبراهيم جانبا.

أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل:

أول من اعتنق الوثنية من بنى إسماعيل هو **هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر الأرذل**. إن هذا المنحط قد اتخذ الصنم الذى يطلق عليه «سواع» إلها وحمل قومه الذين يسكنون على بعد ثلاثة أميال من مكة المعظمة على تقديسه وعبادته، واستمرت ضلالة هذه القبيلة التى تعبد سواع إلى بزوغ شمس الإسلام فى عصر السعادة. وقد كلف عمرو بن العاص فى العام الثامن من الهجرة النبوية بهدم وتحطيم معبد أصنام هذيل، وقد نال الأجر والثواب بأداء عمله على أحسن وجه.

كان فى عصر السعادة لبنى سليم صنما يسمى: سواع يقوم بسدانته (غاوى بن عبد العزى) بينما كان غاوى بن عبد العزى جالسا يوما بجانب ذلك الصنم المنحوس جاء ثعلبان قافزين متواثبين، وصعدا فوق الصنم الذى تتعبد له قبيلة بنى سليم ورفعا رجليهما وبالا فوق رأس الصنم، ووسخا الصنم العظيم (سواع) ولطخاه.

وأنشد غاوى إذ رأى هذه الحالة:

أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب

وخاطب بنى سليم قائلا أقسم بالله أن هذا الصنم لا ينفع ولا يضر. ثم كسر سواع وجعله ألف قطعة، ثم توجه إلى المدينة المنورة حيث أسلم أمام النبى - ﷺ - وحينما مثل غاوى أمام النبى - ﷺ - استهجن اسمه، وسماه «أرشد بن عبد ربه» وظل اسمه أرشد بعد ذلك.

من المخذولين الذين تركوا دينهم عظيم من عظماء قبيلة قضاعة وهو «كلب بن وبره بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة»، وكان رجال القبيلة المذكورة يسكنون في بلدة «دومة[1] الجندل» حتى حلول السنة المذكورة ويمضون أوقاتهم فى عبادة «ود» الذى اختاره لهم كلب بن وبره إلهًا لهم.

إن «ود» الذى اختاره بنو قضاعة إلها لهم - كما سبق ذكره - نحت على شكل رجل ضخم الجسم، بقدر لا يتصوره الإنسان، وقد ألبس طبقتين من الثياب وعلق على عنقه سيفا وقوسا.

إن قضاعة كان أبا لقبيلة كبيرة وإليه نسبت جماعات قبائل قضاعة، ويتصل نسبه بـ «حمير» بن سبأ فى الدرجة السادسة.

وكان لأبى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن إلحاف بن قضاعة تسعة أبناء هم: «خافى، عمرو، سليم، وبره، جرم، ملوان، أشجع، سعد، قدامة» وأحفاد هؤلاء أصبحوا فيما بعد ملوكا آباء قبائل. وقد نصب ابنه الرابع «وبره» خيامه فى «دومة الجندل» حيث استقر، وبعد موته خلفه ابنه - سالف الذكر - كلب والذى اعترف بألوهية «ود» وعاش حياته متعبدا له مع أتباعه البؤساء البلهاء.

ومن الأراذل الذين تركوا دينهم الشقى الذى اشتهر باسم «أنعم» من قبيلة طيئ، وقد اتخذ هذا البائس صنما يطلق عليه «يغوث» إلها له وكان هذا سببا فى اتخاذ الناس هذا الصنم إلها لهم إلى سنة فتح كعبة الله.

(١) إن هذا المكان وقطورا طبقا لما بينه سيد جلبى على بعد ٥ مراحل من الشام و(١٥) مرحلة من المدينة المنورة، وهو حصن منيع ومدينة بحرية مشهورة.

وقد اتخذ هذا الصنم أهالى جرش من قبائل طئ ابن آدد بن مزحج بن آد إلها لهم وعبدوه.

والجرش اسم مقاطعة فى اليمن كان يسكنها بنو مزحج الذين اتخدوا الصنم المنحوس «يغوث» إلها لهم وعبدوه.

وقد اتخذ سكان حولان صنما يسمى «غم أنس» إلها لهم وحولان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، **وفى رواية** حولان بن عمرو بن برة بن آدد بن زيد بن مهسع بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبائك **وعلى قول آخر** حولان بن عمرو بن سعد العشيرة بن مزحج بن آد، كانوا يسكنون فى البلاد التى أطلقب عليها حولان.

أن سكان هذه البلاد قد أخلصوا فى العبادة لـ «غم آنس»، حتى إنهم كانوا يعتقدون أن البركة والنماء سينقطع عنهم إذا لم يخرجوا سهما من حيواناتهم ومحاصيلهم ويقدموه إلى هذا الصنم.

من الذين يعبدون الجمادات هم قبائل همدان التى تسكن أرض (همدان)[1].

همدان: على وزن سكبان، اسم قبيلة يسكن أفرادها فى صحراء «همدان» فى الخيام، وكانوا يعبدون صنما كبيرا نصبوه فى قرية على شكل «حيوان» يقال له «يعوق» واستمروا فى التعبد له إلى قرب ظهور نور النبوة.

وكانت قبيلة ذو الكلاع فى مكان يطلق عليه حمير من أرض اليمن وتتعبد لصنم يطلق عليه «نسر».

حمير على وزن درهم اسم موقع على الجانب الغربى من صنعاء اليمن. وكان سكان هذه المنطقة وما حولها يعبدون صنما منصوبا فى مكان يسمى «بلخ» من أرض سبأ ويطلق عليه «نسر».

وكان أهل اليمن وحمير يعبدون «نسر» ويترددون كذلك على معبد الأصنام الذى يطلق عليه «رثام» فى صنعاء اليمن. وخلاصة القول أن العرب فى الجزيرة

(١) همدان اسم قبيلة كبيرة من سكان اليمن وإذا ما كتب همه دان فهو اسم لبلد فى عراق العجم الذى بناه هم دان ابن الفلوج بن شام.

كانوا يتخذون فى أسفارهم صنما كإله لهم، كما كانوا يوجدون فى بيوتهم أصناما وكانوا يزورونها ويتذللون لها حين خروجهم للسفر أو عودتهم منه وإنهم كانوا لا يعودون إلى بيوتهم قبل زيارة بيت الأصنام، ويتذللون لها ويظهرون خضوعهم لها بعد رجوعهم من السفر.

فى تلك الفترة التى خلت من الرسل كان بعض أفراد قريش يتعبدون لهبل الذى جلبه «عمرو بن لحى» من أرض البلقاء ونصبه فى داخل الكعبة، والآخرون يتعبدون لإساف ونائلة المنصوبين بالقرب من الكعبة المعظمة وبئر زمزم، وكانوا يطوفون حولهما ويذبحون لهما القرابين.

ويقال إن «إساف» المنصوب بالقرب من بئر زمزم بن بقى أو يعلى أو بغا أو عمرو من طائفة الجراهمة و«نائلة» هذه بنت ديك أو زيد بن جرهم أو سهيل أو ذئب أو عمرو بن ذئب من أقوام قطورا.

وبناء على قول منقول عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن إساف ونائلة أحبا بعضهما فى أرض اليمن، وحينما كان الجراهمة على ضلال خرج العاشقان إلى طريق مكة المكرمة بغية الحج، وحينما وصلا إلى مكة وجدا الكعبة الشريفة خالية من الناس وارتكبا جريمة الزنا فى داخلها، وكان جزاؤهما لحكمة ما أن تحجرا. وأخرج أهل مكة هذين المتحجرين خارج الكعبة، وركزوا إساف على جبل الصفا، ونائلة على جبل المروة، ترهيبا للذين يفكرون فى ارتكاب مثل هذه الجريمة وتشهيرا لهما، وبعد فترة نسى سبب تحجرهما، وفى نفس الوقت تولى رئاسة حكومة الحجاز عمرو بن لحى، وصدق بين العرب ألوهية هبل، فما كان من عمرو إلا أن وضع واحدا من الصنمين بجانب الكعبة الشريفة، والآخر بالقرب من بئر زمزم، أى وضعهما بين الكعبة الشريفة وبئر زمزم اللطيفة، وأمر الناس بعبادتهما وتقديسهما.

وأخذ عرب الجاهلية منذ تلك الأوقات يتعبدون لهما، ويضعون الهدايا الواردة من الأطراف والأكناف بين إساف ونائلة متبركين بهما، وكانوا يبدءون بالطواف من إساف وينتهون عند نائلة، وكان من عاداتهم أن يقبلوا الصنمين عند بدء الطواف والانتهاء منه.

وقد نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٥٨).

عندما كره أهل الإيمان الطواف بينهما، نزلت للتبيان أنه لا حرج من السعى بين الصفا والمروة، وفى يوم الفتح كسر هذين الصنمين، وجعلا جزازا مثل سائر الأصنام التى كانت موجودة فى أطراف الكعبة المعظمة.

إن بعض قريش من أحفاد وأبناء ملكان بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر كانوا يتعبدون لصنم كان يقال له: «سعد الصخر» وعمرو بن حمة من أولاد أوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نضر بن الأسد بن الغوث وقبيلته كانوا يتعبدون مع قبائل خثعم وبجيلة لصنم كائن فى أرض دوس ويسمى «ذو الخلصة»[(١)] كما كان يتعبد بعض الجماعات من قبيلة بنى كنانة وطائفة من قريش لصنم كائن خارج مكة المعظمة فى بطن نخلة يطلق عليه «عزى» الذى هيأه للعبادة سعد بن ظالم، وقد أسند سدانة البيت الذى توجد فيه عزى إلى بنى شيبان الذين ينتهى نسبهم إلى سُلَيْم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان.

قال بعض المؤرخين الذين عرفوا «عزى» إنها شجرة عظيمة[(٢)] وقال الآخرون إنه بيت أصنام، وقال قسم منهم إنها صنم كبير[(٣)].

يقول الذين يدعون أن عزى «شجرة عظيمة» أن سعد[(٤)] ابن ظالم رئيس قبيلة بنى غطفان ذهب يوما إلى مكة، وأخذ يطوف بالبيت المعظم وبعد الطواف رأى أهالى مكة يسعون بين الصفا والمروة، فحسدهم على ذلك فأخذ من ساحة المسجد الحرام ثلاث قطع من الحجارة، كما أخذ من جبلى الصفا والمروة من كل

(١) ذو الخلصة اسم واحد من العرب. قد قتلوا أبا هذا الرجل، ولما اراد ان يثأر لأبيه ذهب ليسحب القرعة بالأزلام، وأمرته الأزلام بألا يطالب بثأر أبيه، واستجاب لأمر الأزلام وترك الثأر وقال هذه الأبيات:

لو كنت يا ذى الخلص الموتورا   مثلى وكان شيخك المقبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

(٢) قد قبلت هذه الرواية من الجميع لصحتها.

(٣) فالذين يدعون أنها صنم يقولون إن أطلال وبقايا هذا الصنم مازالت باقية خارج حصن الطائف مع بقايا الأصنام الأخرى.

(٤) اسم والد سعد فَزَارَة ولكنه كنى بهذا الاسم لكون اسم أخيه ظالما.

واحد منهما حجرا، ورجع إلى موطن قومه بنى غطفان فى بطن نخلة وركز الحجر الذى أخذه من الصفا فى مكان، كما ركز الحجر الذى أخذه من المروة فى مكان آخر، وأسند الحجارة التى جمعها من ساحة البيت الحرام على شجرة بينهما، ثم جمع قومه وخاطبهم قائلا: «يا قومى! إن أهل مكة يطوفون حول الكعبة كما إنهم يسعون بين الصفا والمروة، وإنهم اعترفوا بألوهية الكعبة والصفا والمروة وأقروا بها، ثم أشار إلى الحجارة التى جلبها من مكة وقال فليكن لنا واحد من أحجار الصفا والأخرى من المروة، وهذه الشجرة كعبتنا فلنتخذ هذه آلهة لنا ونطيعها».

وهكذا حمل أهل غطفان على عبادة هذه الحجارة، وقد استحسن أهل غطفان رأى سعد وأسندوا سدانتها إلى بنى شيبان من أولاد «سليم» بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَةَ بن قيس عيلان. وقد استمرت عبادتهم لها إلى عصر النبوة.

وقد أقاموا مبان حول هذه الشجرة وهكذا أصبحت الشجرة يظللها السقف وكانت هذه الشجرة من فصيلة نمرة وكان أهل غطفان يخلصون لها العبادة، إذ يستمعون إلى أقوال الجن الذى حل فى داخل الشجرة.

وبناء على هذا التعريف أن «عزى» بيت للصنم أقيم فوق شجرة من فصيلة «نمرة» وفى موطن قبيلة بنى غطفان، **وعلى قول آخر** إنها فى مكان آخر، وهى عبارة عن بناء أقيم فوق ثلاث أشجار كبيرة. وكان الذين يتعبدون لها يسمعون منها أصواتا مختلفة.

وقد كلف سيدنا خالد بن الوليد بقطع هذه الشجرة وقلعها، وفى أثناء قيام خالد بمهمته خرجت من داخل «عزى» عجوز شمطاء قبيحة المنظر، مبعثرة الشعر عارية، وأخذت تشد شعرها، بينما أخذ خادم البيت يصرخ ويولول إلا أن سيدنا خالد عجل بقتل العجوز، وقلع الشجرة من جذورها وهكذا محاها من الوجود.

وكان فى ذلك الوقت معبود بنى ثقيف الذين يقيمون فى الطائف صنما يقال له «مناة» وكانت قبيلة بنى ثقيف تقوم بخدمتها.

مناة. كانت مناة معبود الجماعات التى تقيم حول مكان يسمى قديد الذى يقع على الجانب البحرى من جبل «مشلل»، كما كان يعبدها أهل يثرب وقبائل الأوس والخزرج الذين عرضوا تبعيتهم لسكان قديد.

مشلل. على وزن معظم اسم جبل ويهبط إلى قديد المذكور من هذا الجبل. وبناء على قول آخر أن مشلل اسم مطلع مقابل قديد وإن الصنم المذكور كان منصوبا فوق المطلع(١).

وعلى قول آخر أن مناة صخرة عظيمة كان يعبدها قبائل هذيل وقضاعة وأقوام من بنى ثقيف يزورونها ويطوفون حولها ويتقربون لها بالذبائح(٢).

قد حطم هذا الصنم سعد بن زيد الأشهلى فى سنة الفتح وخربه. وظهرت من بطن مناة عجوز شمطاء سوداء الوجه، عارية الجسد، وأخذت تقتلع شعرها تصرخ وتنوح وتدق صدرها، وقتل سعد هذه العجوز، وحطم الصنم ألف قطعة.

وعند البعض أن مناة واللات والعزى كانت فى داخل الكعبة المكرمة، كما أن هبل كان داخل مخزن الهدايا لبيت الله مثل ما سبق ذكره عدة مرات.

لات: اسم فاعل من لت السويق، كان من عادة العرب فى الجاهلية وفى مواسم الحج لتّ السويق بالماء والسمن، ويخلطونه وينضجونه ويقدمونه للحجاج وكان اللات صورة هذا الرجل الذى اعتاد أن يقدم السويق للحجاج.

وبما أن هذا الرجل قد اتخذ لنفسه صنع السويق مهنة له أطلق عليه اللات. وفيما بعد صنع أحد رؤساء قبيلة بنى ثقيف صورة لهذا الرجل وأخذ يتعبد لها مع أفراد قبيلته.

إن الرواية التى تقول إن بنى ثقيف قد اتخذوا الصنم الذى أطلق عليه اللات إلها لهم هى أصح الأقوال.

(١) أكد الإمام السمهودى هذه الرواية.

(٢) وهذه الرواية مقبولة مصدقة عن الأكثرين.

وهناك رواية أخرى تقول: إنه لم يكن صنما، إذ كان هناك حيث يسكن بنو ثقيف فى الطائف صخرة[1] وكان رجل غنى قد فتح محلا فوق هذه الصخرة، يبيع فيه سمنا، وفى مواسم الحج كان يصنع سويقا ويخلطه بالسمن الذى يبيعه، ويطعم به الحجاج. وبما أن هذا الرجل كان يلت السويق فوق هذه الصخرة أطلق عليها اللات.

وبعد فترة ترك الرجل تجارته، وهجر الصخرة إلا أن عمرو بن لحى الملحد صحب بنى ثقيف إلى الصخرة، وقال لهم: إن الشخص الذى كان يصنع السويق ويطعم به الحجاج قد دخل فى هذه الصخرة، ومن هنا يجب أن نتعبد لها، وتلقى بنو ثقيف قول عمرو باستحسان وأخذوا يتعبدون لها.

وكان عمرو بن لحى يخدع بنى ثقيف قائلا: يا بنى ثقيف إن ربكم يبعث البرودة إلى الطائف بواسطة اللات، كما يرسل الحرارة إلى تهامة بواسطة العزى.

وعند البعض أن لاة مخففة من إله، وفى زعم بنى ثقيف أن اللاة وسيلة للتقرب إلى الله. وكان مشركو العرب يطلقون «اللاة» بمعنى الاحتجاب أو الارتفاع على كل صنم، وعلى هذا الاعتبار يعنى به المعبود. سواء أكانت اللاة المناة أو العزى أو الأصنام التى كانت عند زمزم المكرم.

إساف ونائلة كلها كانت من معبودات العرب الباطلة فى الجاهلية، ومعبودات أهل مكة وقد حطمت بتمامها يوم فتح مكة، وعند توسيع الحرم الشريف ترك كبيرها خارج باب السلام تحت موطئ الأقدام[2].

ومما يروى، أنه عند فتح مكة ـ اليوم المؤلم للمشركين ـ وجد خارج كعبة الله وداخلها ثلاثمائة وستون صنما، وكان كل صنم موضوعا فوق قاعدة مصنوعة من النحاس الأصفر.

(١) إن هذه الصخرة ما زالت فى الجهة الغربية من مدينة الطائف إلى يومنا هذا.

(٢) كما ذكر آنفا أن الصنم الذى وطئته الأقدام هو هبل، وغالب الظن أن الصنم الذى ديس بالأقدام ليس هبل بل صنم آخر.

إن قائد الأنبياء ـ عليه أقوى التحايا ـ أشار بأصابعه الشريفة إلى كل صنم فوقعت كلها على الأرض، وتحطمت أجزاءها، وكان كلما أشار إلى وجه صنم وقع على ظهره وكلما أشار إلى ظهره وقع على وجهه.

عندما حطمت نائلة ـ خرجت من جوفها عجوز دميمة سوداء الوجه عارية، وأخذت تنوح وتولول، وقال سلطان الدين ـ عليه سلام الله المعين ـ مخاطبا أصحابه ومشيرا إلى العجوز ـ هذه هى نائلة الى يتعبد لها المشركون، وإنها تنعى نفسها وتبكى لأنها لن تعبد بعد اليوم.

قد جمع الإبليس الأكبر ـ ولم يستطع صبرا على ما جرى ـ وأخذ يصرخ بحرقة حتى جمع أتباعه الشياطين حوله.

إخطار:

ينقل أن الشيطان قد صرخ وبكى وصاح مرتين قبل هذا ـ أول مرة عندما لعن من قبل الرحمن، والمرة الثانية عندما صلى النبى ـ ﷺ ـ أول مرة.

ومما يروى عن الإمام الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أن الشيطانين اللذين نالا شرف الإيمان: أحدهما قرين نَبِىِّ آخر الزمان، والآخر ملازم نوح عليهما السلام[1].

معلومات خاصة بالجن والشياطين

من الوجهة الأولى إلى هذه الصفحة كتبت بحوث وحكايات ـ كلما جاءت المناسبة ـ عن الجن والشياطين وكان بعض الجن يحلون فى الأصنام والأوثان ويخبرون على لسانها بأخبار الغيب التى يطلعون عليها بالاستراق إلى الملأ الأعلى. يخبرون أهل الجاهلية الذين كانوا يتعبدون للأصنام، وحتى نؤيد هذا الادعاء سردنا هنا بعض الحكايات المروية والموثوقة، كما ذكرنا وقيدنا بعض الأبيات والفقرات المسجوعة المسموعة من الأصنام، ولا حاجة إلى إثبات وجود الجن والشياطين لأصحاب الفضل والإيمان.

(١) وفى الكلام عن الجن تفصيل ذلك.

ولأن كتاب «مراة الحرمين» قد يقع كذلك فى أيدى العوام من الناس، رأيت وجوب إيراد معلومات خاصة بالجن والشياطين فى هذا المقام.

فيا أيها القراء الكرام!! لا تعجبوا من وجود الجن والشياطين وما ينسب إليهم من أقوال، فقد ورد ذكر الجن والشياطين فى القرآن الكريم، كما رويت أشعار نسبت إلى الأصنام، وأخبر صحابة النبى الكرام بما روى من أشعار وأسجاع هاتين الطائفتين من المخلوقات لأن لهما القدرة على التشكل فى هيئات مختلفة، ويتكلمون بكل اللغات، ويقلدون البشر فى أصواتهم كما أنهم يضلون الناس عن سواء السبيل، وبين قبائلهم وعشائرهم نزاع وصراع وحروب، وكانوا يسترقون السمع إلى عهد النبى ﷺ ثم منعوا من ذلك.

ومما جاء فى كتاب (اليواقيت والجواهر) لعبد الوهاب الشعرانى: «إن وجود الجن ثابت بالقرآن الكريم والكتب المنزلة الأخرى، ويصدق من الخلف إلى السلف، وإن هذه الطائفة مخلوق ناطق يأكلون ويشربون ويتزوجون ويلدون».

ويقول الشيخ أبو طاهر القزوينى: «إن ما يدل على وجود الجن تخيل الناس آثارهم الخفية، وينكر المعتزلة وجود الجن، ويقولون إن الجن هم دهاة الناس، كما أن الشياطين هم المردة من الناس، وأولوا ما جاء فى القرآن الكريم عن وجود الجن وأوصافهم».

سؤال: من كم أصل يتكون المخلوقات عامة؟

جواب: يتكون الخلق من أربعة عناصر وفق قول الإمام الماوردى. وهى: الماء، التراب، الهواء، والنار.

المخلوقات الخفية من الهواء والنار، والمخلوقات الظاهرة من الماء والتراب. والنار، كما هو معروف، تتكون من الغور واللهيب أو الشعلة والدخان، والنور ضياء محض والدخان ظلام محض، والشعلة مارج متوسط ـ يعنى شر محض ـ وبما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الجن من مارج من النار فهو ينتسب إلى الملائكة من الناحية النورانية، كما ينتسب إلى الشياطين من ناحية الظلمة

والدخان، ومن هنا كان من الجن من هو مطيع ومن هو عاص، ومن هو مؤمن ومن هو كافر، وقد ورد فى القرآن الكريم: ﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ ﴾ (الحجر: ٢٧) وقد اختلفوا فى هذه النار ولذا قال بعضهم إنها نار الشمس، وقال الآخرون إنها نار البرق.

لننتقل للبحث عن إبليس:

هل إبليس من الملائكة؟ أم هو من الجن؟ وقد اختلف فى هذه المسألة أيضا.

بناء على رأى فريق أن إبليس كان من طائفة الجن التى استكبرت على وجه الأرض وعصت، وقد سل الملائكة سيوفهم وأسروا إبليس وساقوه إلى السماء وبهذا دخل فى زمرة الملائكة وإذا ما قلنا إن إبليس من الجن والملائكة نكون قد أصبنا الحقيقة الآن.

وبناء على قول فريق آخر إن إبليس من حيث الفعل من الجن ومن حيث النوع من الملائكة، فهو من ناحية فعله من الكفار.

يقول الإمام الماوردى فى كتابه المسمى (النبوة) وهو ينقل أقوال المنكرين: «إن خالق الكائنات خلق سكنة البحر والبر مثل الإنسان والنعامة والحيوانات المفترسة والطيور العادية والحشرات من الماء والطين كما خلق الحيوانات التى تعيش فى داخل الماء مثل الضفدع والسمك من نباتات الماء وأن هذه الأجناس الأربعة التى خلقت من أربعة من أصول صاعدة مثل الملائكة والجن فهم الصاعدون، واثنين من الأصول الأربعة هابطة مثل حيوانات البر والبحر فهى من الهابطة.

وقد اعتذر الإمام الماوردى عن نقله هذا الكلام قائلا: «إن ما ينقله ليس من رأيه ولكن هدفه من نقل هذا الكلام أن يفحم خصمه ويسكته بنقل ادعائه وكلامه».

وقال الشيخ أبو طاهر ـ رحمه الله ـ مرة أخرى: إن هؤلاء الجن عندما تكتمل صورتهم تزول صورتهم الأصلية بالقدرة الإلهية، يتشكلون بشكل آخر لا يشبه صورتهم الأصلية.

كما أن الإنسان قد تحول إلى لحم وعظم وبشرة بعد أن غابت عنه صورة الماء والطين والتراب، وكما اختلفت أشكال الحيوانات المفترسة والطيور والحيوانات الأخرى، وتشكلت بأشكال متغيرة كذلك زالت من الملائكة والجن والشياطين صورة الهواء، وداخلهم مكون من مصنوعات العالِم - جل شأنه - إلى أشكال وهيئات لطيفة خاصة بهم لذا يطلق عليهم المخلوقات الروحانية.

إن المخلوقات الروحانية تتميز بعضها عن بعض بأشكال لطيفة خاصة بكل نوع؛ إلا أنه لا يعرف هيئاتهم إلا خالق العالم - سبحانه وتعالى - إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١). إن تشكل المخلوقات الروحانية ودخولهم إلى صور متنوعة نستطيع أن نشبهه بتغيير ملابسنا.

وإن هذه المخلوقات الروحانية تمر في هواء الجو مثل علائم السماء المخضرة المحمرة أو المصفرة أو ألوان أخرى مختلفة. كما أن «عبد الله بن عباس» بينما كان جالسا في المسجد النبوى الشريف مع والده رأى بمفرده صورة الرسول - ﷺ - مع جبريل، ولما أخبر الرسول - ﷺ - بذلك أخبره أنه سيصيبه العمى ولكنه سيتفقه في أمور الدين ويتفوق في التأويل والتفسير.

إن الله - سبحانه وتعالى - قد قدر لهذه المخلوقات أوضاعًا تستطيع بها أن تتشكل بصور مختلفة وقت ما تريد مثلما نحن نقدر أن نغير ملابسنا وقتما نشاء تغيير الملابس لنا وتغيير الصور لها. وكل موجود يتصرف بالشكل الذى قدر له فإن ملابسنا الثقيلة تتكون من الصوف والمنسوجات والحرير وملابس المخلوقات الروحانية تتكون من المنسوجات اللطيفة مثل الهواء والأشعة ومع ذلك فأجسام الملائكة والجن أخف من الهواء و أرق منه.

وعندما يريد الله - سبحانه وتعالى - أن يرى لنا الملائكة والجن يجعل للهواء كيفية خاصة ويأمر الملائكة والجن أن يتشكلوا بالشكل الذى يريدونه فيشاهدهم الناس حينئذ على الشكل الذى تشكلوا به.

قال الله - تعالى - في حق الملائكة: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩).

وإن كان من المستحيل أن يتحول الملك فى الحقيقة إنسانا ولكنه يدخل فى شكل الإنسان بواسطة الهواء، لأن الهواء إذا تكاثف مثل السراب يمكن رؤيته.

وإذا قيل ما معنى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ (الأعراف: ٢٧). يجاب بأنه لا يمكن رؤية الجن على شكله الذى خلقه الله سبحانه وتعالى؟ ولكن يمكن رؤيته على شكل الكلب أو الهر بل إن رؤيته على هذا الشكل هو ما يحدث فى أكثر الأوقات.

تفضل الشيخ الجليل وقال: «إن واحدا من الجن وجه إلى سبعين سؤالا خاصا بالتوحيد وطلب منى الإجابة بعد أن تشكل على شكل فصيلة الكلاب التى تسلم من الدنس وحدث ذلك فى ليلة من الليالى وقد غسل فرش المسجد الجامع بالماء والطين وطهره ظنا منه أنه كلب حقيقى».

قد أجبت على أسئلة الجن فى تأليفى اللطيف المسمى بـ «كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان».

وإذا ما قيل «هل سيحتجب الجن منا فى الجنة أيضا؟» يجاب عليه: بأن الأمر سينعكس فى الجنة كما أننا لم نرهم فى الدنيا وهكذا لن يروننا فى الجنة من حيث نراهم نحن كما أن بعض الخواص منا يراهم فى الدنيا وهكذا سيرانا بعض الخواص منهم».

سؤال ـ هل تتغير أصواتهم وفق تغير أشكالهم أم تظل أصواتهم الأصلية دون تغيير؟

جواب ـ تتغير أصواتهم وفق الشكل الذى يتشكلون به إنسانا كان أو بهيما أو حيوانات أخرى.

سؤال ـ إذا ما تشكل الجن بصورتنا هل يستطيعون أن يتلفظوا بكل الحروف كما نتلفظ نحن؟!

جواب ـ تطابق بعض حروفهم حروفنا بينما تخالف بعض حروفهم حروفنا عند الحديث لأن أجسامهم اللطيفة لا تتحمل الحروف الغليظة والصلبة التى نلفظها.

سؤال ـ كيف نستطيع أن نفهم كلامهم ناقص الحروف؟

جواب ـ إنهم لا يتحدثون بحقيقة حروفنا بل بالحروف المماثلة لها، فإذا تكلموا بحقيقة حروفنا وأنقصوا حرفا من كلامهم لما فهم منهم شيئا.

سؤال ـ هل يستطيعون الحديث بكلامنا وهم متشكلون فى صورة غيرنا؟

جواب ـ لا يستطيع أى مخلوق روحانى أن يقوم به إلا إذا كان شيئا خارقا للعادة.

سؤال ـ قيل فيما سبق «خلق الجن من مارج من نار» والمارج معناه المختلط ما كنه هذا الاختلاط؟

جواب ـ المارج «نار تحتوى على مواد رطبة ومن هذه ينشأ اللهيب والشعلة اشتعال الهواء لذا تحتوى على الرطوبة.

سؤال ـ الشياطين هم المردة والأشقياء من الجن فلم يدخلون فى كلمة الجان اسم الجنس؟

جواب ـ إن سبب دخول الشياطين فى اسم الجنس لأن الجان مخلوق بين الإنسان والملائكة.

والجان مخلوق عنصرى وهذا هو علة تكبره ـ لو كان خلق طبيعيا خالصا لما تغلبت عليه طبيعته العنصرية ولظل دون تكبر مثل الملائكة.

الجان مخلوق برزخى فى نشأته. فهو يحتجب ويتشكل فهو أقرب إلى الأرواح النورية لاحتوائه على لطافة النار من جهة كما أن له وجهة أخرى عن طريق النيابة فهو من عنصر الرماد كما أشار إليه الإمام الماوردى رحمه الله.

ويجرى الشيطان فى جسم الإنسان مجرى الدم، ولكن الإنسان لا يشعر به، لو لم ينبهنا لذلك النبى ـ ﷺ ـ لظلت ملابسة الشيطان لنا وإلقائه الوسوسة فى صدورنا مجهولا لدينا. إن الشياطين لا يظهرون لنا إلا فى حالة تجسمهم إلا أنهم أكثر قدرة على الاستتار من الجان.

سؤال ـ ما الفرق بين الجسد والجسم؟

جواب ـ هناك فرق بين الجسم والجسد: والجسم يرى عادة، فهو إما لطيف لا يرى وأما شفاف أو كثيف.

وأما الجسد فهو حالة المخلوقات الروحانية حينما تظهر فى اليقظة بالأجسام. وبعض الأجساد تظهر فى صورة تشبه الأجسام فى شعور النائم ومع هذا كل ما ذكر ليس أجساما بذاته ونفسه.

سؤال ـ هل صورة الجن أو الملك هى عين صورتهما عندما يظهران ويشاهدان؟

جواب ـ نعم إن الملك والجن هما حقيقة نفسيهما كما أن الكلام المكون من الحروف والأصوات فى الحقيقة كلام الله. قيل لأحد الناس عَرِّف الجن فقال: «إن الجن حيوان ناطق هوائى».

سؤال ـ هل هناك من الجن من لا يصدق القسم الذى يحلفه الإنسان بأسماء الله تعالى الحسنى؟

جواب ـ نعم يصدقون جميع الأيمان التى تحلف بأسماء الله ـ بخلاف الإنسان ـ إذ ليس بمقدورهم ردها.

يقول الشيخ أبو طاهر «إن الجن لا يتخابر ولا يجاوب إلا بالرقى إذا ما قُرئت رقية على مجنون فكأنك تلقى على الجن شعاعا من الشمس فيضطر إلى الطاعة وتمنعه من العصيان. قد سخرت لسيدنا سليمان ـ عليه السلام ـ الريح كما سخر الجان. إن الجان مخلوقات بالغة اللطف والدقة والرقة والخفاء حتى إذا اختلطت بالفضة المذابة فى البوتقة فتسبب الرجرجة والاضطراب كما يسبب للإنسان الذى يحل فى جسمه. وعندما تقرأ الرقى على مجنون يزعجونه وهذا ثابت بالحديث الشريف الذى يخبرنا بأن «الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم».

سؤال ـ ما الدليل على أن الجن مكلف بالإيمان؟

جواب ـ الدليل هو قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ** ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

وقد رأى النبى - ﷺ - سبعة نَفَرٍ من الجن تحت نخلة ثم خط خطا حول عبد الله بن مسعود وأمره بألا يخرج من هذه الدائرة.

يقول عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه: «قد استمعت إلى نبى الإنس والجان - ﷺ - وهو يحاكمهم ويفصل منازعاتهم كما سمعت أصواتهم».

ثم علمهم النبى - ﷺ - «سورة الرحمن» كما جاء فى كتب التفسير وأمرهم بأن يؤدوا الصلاة.

سؤال - هل هناك دليل على دخولهم الجنة؟

جواب - نعم يدخلون، فقد سئل ابن عباس مثل هذا السؤال وبعد ثمانية أيام من البحث والتدقيق أجاب أن قول الله تعالى: ﴿ **لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ** ﴾ (الرحمن: ٥٦). دليل على دخول الجن فى الجنة.

قال الضحاك: إن الجن يدخلون الجنة ويجازون وفق أعمالهم مثل الإنس. وقال «سفيان» إنهم سينجون من النار بثواب إيمانهم ولكنهم سيمتثلون لقول الله - تعالى لهم «كونوا ترابا».

وبناء على قول الشيخ أبى طاهر أن أكثر الجن لا يعتقدون فى البعث كما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ **وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا** ﴾ (الجن: ٧).

سؤال - هل سيظل الجن ممنوعا من استراق السمع منذ بعثة النبى - ﷺ - إلى يوم القيامة؟! أم المنع لوقت معين؟

جواب - الحقيقة أنهم سيمنعون إلى يوم القيامة، وبما أن الشهب تحرقهم عن الاستراق لذا لن يستطيعوا أن يخبرونا بأخبار الغيب.

سؤال - ما حقيقة الشهب؟

جواب - هناك قولان فى هذا الخصوص:

١- أنَّ الشهب نور بعد ما يحرق بشدة نوره الجن، يعود إلى مكانه ثانيا.

٢- أنَّ الشهب نجوم، تنزل من تحت السماء فتحرق الجن ولا تعود.

سؤال ـ هل إبليس أبو الجن كما يروى فى أقوال الناس؟

جواب ـ ليس إبليس أبا الجن. بل وجد الجن قبل إبليس ولكن إبليس أول العصاة.

سؤال ـ ما مدى قدرة إبليس؟

جواب ـ عمل إبليس هو أن يأتى الناس من حيث لا يشعرون ويهلكهم أو يلقى فى قلوب الناس الوسواس بحيث ينقص منزلة الناس عند الله، وإبليس لا يستطيع أن يؤثر فى عباد الله المؤمنين الأتقياء ولا أن يتسلط عليهم كما بينه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولكنه يتسلط على الغافلين عن وحدانية الله ومَنْ يشركون به. إن الذين يتجنبونه ويحذرونه ولا يتبعونه ينجون من دسائسه وكيده.

وما أعظم دسائس إبليس وما أشدها وأكثرها فإذا ما انصرف الإنسان عن دسيسة من دسائسه فإنه يأتيه من طريق آخر ويسلك جميع السبل ليحمل الإنسان على اتباع طريق العصيان.

ومن جملة دسائس إبليس أنه يحمل للناس كشوفا صحيحة وعلوما تامة ويحاول أن يخفى الذى يقوم بهذا العمل، ومن إحدى دسائسه أنه يكشف للناس معاصى الآخرين ويهتك خفاء الأشياء ويظهر عورات الناس والشخص الذى يطلع على مثل هذه الأحداث يظن أنه وصل إلى درجة عظيمة من الفراسة دون أن يعرف أنها عطية الشيطان له وقد أصبح الشيطان سمعا له وبصرا.

إن مثل هذا العبد يجب أن يبادر بالتوبة حتى لا يكون من الهالكين.

ومن دسائس إبليس الخفية لأكثر الأولياء. هو الظهور فى قلب الولى وأن يدخل حيث يتوجه إليه بالتضرع والابتهال فيدخل العرش حينا والكرسى حينا والسماء حينا آخر. وإذا كان فى علم الله أن ينجى هذا العبد عَرَّفه أن كل هذه من حيل الشيطان، وهكذا يخيب إبليس فى سعيه ويضيع وقته سدى أما إذا لم يحفظ الله ـ سبحانه وتعالى ـ عبده هذا ـ نعوذ بالله ـ فيكون من الهالكين.

سؤال ـ هل يتسلط الشيطان لظاهر الإنسان أو لباطنه؟

جواب ـ إن شياطين الجن يتسلطون لباطن الإنسان بينما يتسلط شياطين الإنس لظاهره وباطنه وإذا ما وقع إغواء أو وسواس لظاهر الإنسان من قبل شياطين الجن إنما يقع بناء على إذن من شياطين الإنس.

سؤال ـ هل عداوة الشيطان أكثر شدة لأبى البشر أم لذريته؟

جواب ـ عداوة الشيطان أكثر لبنى آدم، لأن بنى آدم خلقوا من ماء والماء ضد النار واليابس يجمع بين آدم وإبليس، فقد خلق أحدهما من التراب والآخر من النار واجتماع التراب مع النار ليس كاجتماع الماء والنار. لأجل ذلك صدقه عندما أقسم أنه كان ينصح آدم ولكن الأنبياء ذوى الشأن لم يصدقوه لأنهم خلقوا من مادة مضادة للمادة التى خلق منها الشيطان.

وقد سلحنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعلامات تقوم مقام «البصر الظاهر» وأودعها فى قلوبنا بواسطة الشرع الشريف حتى نقاوم هذا العدو الشرس كما جند الملائكة فى عالم الغيب لحراستنا.

سؤال ـ يخبروننا أن هناك نوعا من الشيطان ليس بإنس ولا جن، هل هذا الخبر صحيح؟

جواب ـ نعم إنه صحيح. إن الشيطان فى جميع أحواله شيطان ـ صحيح، أن الشيطان فى جميع أحواله شيء حسى ويمكن أن يكون معنويا أيضا. وهذا يحدث عندما يجتمع أباليس الجن مع شياطين الإنس ويتحاورون ويتشاورون فيما بينهم عندئذ يظهر شيطان جديد معنوى.

سؤال ـ ما الفرق بين هؤلاء الشياطين الثلاثة؟

جواب ـ إن شياطين الإنس أو الجن يفتحون أبوابا فى قلوب العباد للتوجه لغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ بوساوسهم، أما الشيطان المعنوى فيستنبط من هذه الوساوس شبهات وضلالات لا يستطيع أن يستنبطها لا إبليس ولا غيره.

ويتخذ الشيطان أحيانا جسما إنسانيا ويبذل جهده لإغواء الناس وإضلالهم، كما تدل عليه الآية الكريمة: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ﴾ (ص: ٣٤).

والمثل على ذلك يأتى الشيطان ويحاول أن يخالف العبد أوامر الله وإذا ما رأى أن دسيسته لن تقبل، يغير طريقته قائلا: «إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لن يؤاخذك إذا فعلت كذا» محاولا خداعه، وإذا ما أحس أنه لن يفلح فى هذه الطريقة أيضا يقول بحسن نية «إنك إذا أحسنت ظنا بالله تعالى فهو لا يؤاخذك لأنك عبد الله سواء فى طاعتك أو عصيانك والله ـ سبحانه وتعالى ـ يصنع شيئا ويقدره».

إن الشيطان يعلم جيدا أن المؤمن لن يعصى الله بدون تأثير خارجى كالتأويل والتزيين والوسوسة. لو كان المؤمن يعصى الله بدون وسوسة إبليس لما أوجد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الشيطان.

سؤال ـ كيف يتناكح الجن؟

جواب ـ إن تناكح الجن يشبه تداخل الأدخنة المنبعثة من فرن للفخار، ويتلذذ الشخصان بتداخل بعضهما فى البعض ويشبه حملهم بتلقيح النحل ويتم بمجرد الرائحة.

سؤال ـ هل للجن قبائل وعشائر مثل الناس؟

جواب ـ نعم لهم قبائل وعشائر. وقد قامت فيما بينهم حروب كبيرة. وما نعرفه ونراه من الأعاصير ما هى إلا أثر من آثار حروبهم، وأحيانا يسدون الطريق لهبوب الرياح فى أثناء حروبهم فتنتج عنه قيام الأعاصير المثيرة للتراب والغبار، ولكن ليس كل إعصار نتيجة لحروب الجن.

سؤال ـ من الذى سمى أولا باسم الشيطان؟

جواب ـ أطلق على شخص اسمه الحارث. وقد عصى الحارث هذا ربه فطرده الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتناسل الشياطين كلهم منه. ولكن من آمن منهم مثل «هامة بن الهام بن لاقيس بن إبليس» التحق بصنف الجن المؤمنين ومن ثبت منهم على الكفر ظلوا شياطين.

ـ حكاية:

هناك كثير من الجن قد نالوا شرف اللقاء مع الأنبياء العظام ـ على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ـ وبناء على رواية منقولة عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن أحد الجن قد جاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى وضح النهار وطلب منه أن يتفضل بتعليمه القرآن الكريم.

قال أنس ـ رضى الله عنه ـ وهو ينقل هذه الحادثة:

كنا نتنزه فى يوم من الأيام بجوار المدينة المنورة مع النبى ـ ﷺ ـ فظهر أمامنا رجل عجوز وأقبل يسير نحونا وإذا به جن قد تشكل فى صورة إنسان.

قد أخبرنى النبى ـ ﷺ ـ بأنه من طائفة الجن. ولما أتى إلى جانبنا بدأ حوار بينه وبين الرسول ـ ﷺ.

الرسول ـ ﷺ ـ: إن هذا السير سير الجن.

الرجل العجوز: نعم يا رسول الله.

الرسول ـ ﷺ ـ: من أى جن أنت؟

الرجل العجوز: من هامة بن همام بن لاقيس بن إبليس.

الرسول ـ ﷺ ـ إذن بينك وبين إبليس أبوان؟

الرجل العجوز: هو كذلك يا رسول الله.

الرسول ـ ﷺ ـ ما عمرك؟

الرجل العجوز: قد أمضيت عمر الدنيا كلها ـ حينما قتل قابيل هابيل كنت بلغت بضعة أعوام وفى تلك الأوقات كنت أمضى أيامى بصيد البوم فوق الهضاب، وإفساد الأطعمة المطبوخة أو إثارة النزاعات بين الناس.

الرسول ـ ﷺ ـ أقبح به من عمل!!

الرجل العجوز: لا تلمنى يا رسول الله! إننى أسلمت أمام نوح ـ عليه السلام

ـ وتعرفت على هود ـ عليه السلام ـ وصاحبت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المنجنيق ويوسف ـ عليه السلام ـ فى البئر، وتشرفت بصحبة المسيح بن مريم ـ عليه السلام ـ وطلب منى عيسى ـ عليه السلام ـ أن أبلغك سلامه.

الرسول ـ ﷺ ـ عليه السلام ـ ما طلبك منى؟

الرجل العجوز: قد علمنى موسى التوراة الشريفة وعيسى الإنجيل المنيف وأتمنى لو تعلمنى القرآن الكريم، وفى نهاية هذا الحوار تفضل فخر الكائنات عليه السلام بتعليم العجوز القرآن الكريم، وبعد ذلك عاد العجوز بعد أن ودع الرسول ﷺ.

ـ حكاية:

عندما أضاءت بعثة الباعث لخلق الكائنات ـ عليه وعلى آله أفضل التحيات ـ الأقطار الحجازية بالهداية والنور، سرت شرارة نار الفتنة والانشقاق بين سكان «أم القرى» وبين عربان البادية مما حمل الناس على نقل أمتعتهم من مكان إلى آخر وفى أثناء هذه الفوضى تشكل مسلمو الجن بأشكال مختلفة، وأخذوا يعلنون أن نبى الثقلين قد بعث وحاولوا أن ينشرو الإسلام.

وقد أسلم خال الصحابى الجليل ربيعة بن أبى براء فى تلك الآونة فى صورة غريبة.

ينقل لنا حضرة ربيعة بن أبى براء ـ رضى الله عنه ـ سبب إسلام خاله بصورة غريبة ويقول:

عندما ألبس السلطانُ الكريم السَّيِّر ـ عليه وعلى آله صلوات الله الأكبر ـ خلعة النبوة رأى خالى أخو أمى ثعبانا مخيف الشكل وأسلم من خوفه وعندما حكى لى هذه الوقعة قال لى:

بينما كنت أتنزه فى الحقول رأيت حية مخيفة وكانت تطارد ثعلبا ضعيفا فأردت أن أنقذ هذا الحيوان المسكين فأخذت من فوق الأرض حجرا إلا أن الثعلب وقع على الأرض فجأة وهلك. ولكن الثعبان أيضا قد قطع نفسه وكان الحجر الذى أخذته من فوق الأرض مازال فى يدى.

فقلت إن الثعلب المسكين قد مات من شدة خوفه من الحية. ولكننى لم أجد تفسيرا لموت الحية منقطعة إربا وهذا ما حملنى إلى تفكير عميق، وبينما أنا غارق فى حيرتى سمعت صوتا يقول: «ما أتعسك!! لأنك تَسَبَّبْتَ فى قتل نفس» وفى عقبه سمعت من ينادى:

«يا داثر» فانتبهت واتجهت صوب الصوت الذى ينادى لأعرف ماذا سيكون رد داثر وفى ذلك الوقت ظهر داثر قائلا: ماذا هناك؟ وعندئذ تلقى داثر الأمر الآتى اذهب إلى بلاد بنى عذافرة[1] وأخبرنا عن مدى جرأة هذا الكافر وما الجناية التى ارتكبها فزادت حيرتى إذ سمعت الهاتف والجواب الذى تلقاه وزاد خوفى وفزعى فنظرت حولى فاضطررت أن أوجه الخطاب إلى جهة الهاتف الغائب إذ لم أجد ملاذا ولا ملجأ.

فقلت ـ يا هاتف! أنا لم أقترف ذنبا ولم أقدم على جناية عمدا!

فقال ـ كنت سببا فى قتل نفس.

فقلت ـ لا علم لى بهذا!

فقال ـ ولكن عندى علم بذلك.

فقلت ـ أنا أعوذ برحمتك.

فقال ـ ماذا تريد أن تقول؟

فقلت ـ اعف عنى.

فقال ـ أفى الإمكان عفو كافر قتل نَفْسًا مؤمنة؟

فقلت ـ أنا مسلم.

فقال ـ إذن تكون قد نجوت.

فقلت ـ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فقال ـ نجوت، نجوت. ألا تستطيع أن تعود من حيث جئت، إن الحوار الذى

(١) عذافرة اسم قبيلة من الجن.

جرى بينى وبين الهاتف الغائب أدى إلى فائدتين، أسلمت ونجوت من الموت. وقد اهتز جسمى من الفرح وزادت حيرتى ودمعت عيناى، ولما أردت أن أعود إلى عملى إذا بى أتلقى الأمر الآتى «اركب الوحش بن الذئب واذهب حيث يسكن أبو عامر» فركبت الوحش الذى ظهر بجانبى وصعدت فوق الجبل العظيم الذى كان أمام طريقى وبعد مدة هبطت إلى الناحية الأخرى من الجبل، ولكن هنا ظهر أمامى فارسا وقال لى لا تتحرك، وسلم سلاحك. إن أمر الفارس الشديد قد أثر فى جسمى المضطرب وظننت أن حياتى قد قضى عليها، فاضطررت لتسليم سلاحى له. وقال الفارس بعد ما أخذ سلاحى.

- من أنت.
- أنا مسلم.
- السلام عليكم.
- وعليك السلام - فليجعلك الله - سبحانه وتعالى - فى ظل رحمة أبى عامر وحمايته.
- ومن أبو عامر؟
- أنا أبو عامر.
- معذرة، لم أعرفك.
- لا بأس - بشرى لك!! لا مجال للخوف لأهل الإيمان فى هذه البلاد.
- قد سرنى ما أخبرتنى به.
- كنت راكبا فوق الجبل. لماذا بقيت الآن مترجلا؟
- أين ركابك؟

وهنا وقفت وانتبهت لنفسى وحكيت له كل ما جرى بالتفصيل فأخذنى من يدى وأوصلنى إلى مقر جماعة الهوازن[١] استودعنى هناك وعاد إلى بلده. انتهى.

وكل هذه القصص تدل على صحة ما ينقل عن إسلام بعض الجن.

(١) إن هوازن بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهو أب لقبيلة كبيرة واولاد هوازن بكر وسبيع، وحرب، ومنبه، ولاعقب لسُبيع، وحرب ابنى هوازن.

وقد أخبر الشيخ عبد الوهاب الشعرانى عن وجود المسلمين والكفار من الجن، ويتفضل بالاستمرار فى حديثه ليبين هل هناك بين كفار الجن من يعتنقون الإسلام.

سؤال ـ هل يستطيع الشياطين الذين كفروا أن يصبحوا مؤمنين بعد قبولهم الإسلام؟

جواب ـ هذا موضع خلاف بين العلماء. وسبب الخلاف الآتى: قال رسول الله ـ ﷺ ـ ما من أحد إلا وله قرين يأمره بالسوء، فقال الأصحاب الكرام: وأنت يا رسول الله فقال مجيبا: «نعم ولكن الله أعاننى عليه فأسلم» (حديث شريف).

فاختلف حفاظ الأحاديث فى حركة حرف الميم فى «فأسلم» فقرأها بعضهم بضم الميم ويكون معنى الحديث عندئذ إننى أنجو من شره وقرأها بعضهم بفتح الميم وأشاروا إلى أن قرين الرسول ـ ﷺ ـ قد قبل الإسلام دينا.

وأيد بعض أئمة الحديث هذا المعنى برواية الخبر اللطيف الذى يقول: «فلا يأمرنى إلا بخير».(١)

ولكن لا يمكن لإبليس أن يسلم بدليل حكم هذا الحديث، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد لعن إبليس إلى يوم القيامة.

سؤال ـ ما دام إبليس أول العصاة هل يجب أن يتساوى مع قابيل؟

جواب ـ نعم وهو كذلك. فقابيل أول أشقياء بنى البشر كما أن إبليس أول عصاة الجن، ألم يقل الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ**﴾ (الكهف: ٥٠). ومعناها أن هذا المخلوق من جنس العصاة.

سؤال ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى كتابه المنزل على لسان إبليس ﴿**إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الحشر: ١٦)، ألا يشير معنى الآية الكريمة إلى أن إبليس موحد فى أعماق نفسه؟

(١) أخرجه مسلم فى ٥٠ كتاب صفات المنافقين، (١٦) باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، حديث رقم ٦٩، ٧٠ص ٢١٦٨ والبيهقى فى الدلائل ٧/ ١٠٠ـ١٠٢ (الروايتين)وانظر الهامش بدلائل النبوة ٧/ ١٠٠ـ١٠٢.

جواب ـ لا يدل هذا على توحيده، لأنه هو الذى كان سببا فى وجود الشرك. وإذا فرضنا أنه قد وحد فى ذلك الوقت، فمن المحتم أنه بعد قليل أصبح كافرا.

سؤال ـ الكفر الذى يأمر به إبليس ليس شركا: لأن الكفر هو اتخاذ المخلوق إلها آخر غير الله بينما الشرك هو جعل مثيل وند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى هذا التقدير فكيف يكون إبليس أوجد الشرك؟

جواب ـ: إن المقصود هنا من الكفر هو الشرك، كما قال لقمان مخاطبا ابنه. وقال الله ـ تعالى ـ ﴿**وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ (المائدة: ٢٩) والمقصود من الظالمين هنا هم المشركون. وكذا تفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ جل من قائل ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ (لقمان: ١٣)، وقال ﴿**وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ**﴾ (الأنعام: ٨٢)، إن المقصود والظاهر من كل هذه الآيات هو التوحيد ومقابل الشرك هو التوحيد.

سؤال ـ الجلوس مع الجن مذموم أم محمود؟

جواب ـ مذموم وليس بمحمود. فالعلماء الذين يجيزون الجلوس معهم جهلة، لأن الجن فضوليون كفساق الناس فبما أن العاقل يفر من مجالسة الفساق يجب عليه أن يفر من مجالسة الجن، وفى الواقع ـ لكون أصلهم من النار ـ فهم كثيرو الحركة ومن هنا فهم ميالون للفضول. فجلساء الجن لم ينالوا خيرا وإن شرهم لشديد لجلاسهم وإنهم كفساق البشر يحاولون أن يطلعوا على عورات الناس وهذا ليس من شأن العقلاء.

ويقول الشيخ محيى الدين ـ قدس سره ـ فى باب ٥١ من الفتوحات لم يستطع أحد أن يعلم شيئا عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ بمجالسة الجن، لأن الجن أجهل من الناس بصفات الله تعالى والعالم الطبيعى، ويمكن أن يتخيل جلاس الجن أنهم يستطيعون الاطلاع على أحداث العالم ووقائعه لكن هذا الموضوع مرتبط بإرادة الله وكرمه مهما يعلمون فقط بعلم السيماء الخاص بالنباتات والأحجار والأسماء والحروف والذين يتعلمون هذا يتعلمون ما ذمته الشريعة الإسلامية. لأن الذين يجالسون الجن يكتسبون صفة التكبر والله ـ سبحانه وتعالى ـ قد ذم المتكبرين ونص على دخولهم النار. انتهى.

هذا وإن كان أهالى مكة المعظمة انشغلوا بالتعبد للأصنام إلى يوم الفتح، إلا أنهم كانوا يحترمون الكعبة المعظمة حق الاحترام ويرعونها.

كما أن عرب الجاهلية يفدون إليها فى مواسم الحج من جميع جهات الجزيرة ويقومون بأداء الحج.

وكانوا ينبهون أولادهم بأن يتجنبوا ارتكاب المعاصى والبغى والشقاوة، ويغرسون فى قلوبهم احترام بيت الله ويأمرونهم بمراعاة حرمة بيت الله والابتعاد عن جميع ما يسئ إليه وإلى مكة المكرمة وينشدون القصائد فى مدح بيت الله ويحرصون على تفهيم أولادهم كيفية احترام الملك التابع لبيت الله الحرام وكيف هلك الجبابرة من الأسلاف الذين أساءوا إلى البيت، وخاصة كيفية هلاك أصحاب الفيل الذين أتوا لتخريب البيت الحرام.

وقد أدرجنا هنا بعض الأبيات من القصيدة المطولة التى قالتها سبيعة بنت الأَحَبّ بن زبينة بن جذيمة بن عوف(١) بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان لابنها «خالد» بن عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة فى تعظيم بيت الله، وذلك لنثبت صدق مدعانا.

الأبيات:

أبنى لا تظلم بمكة	لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بُنَىَّ	ولا يغرنك الغرور
أبنى من يظلم بمكة	يلق أطراف الشرور
أبنى يضرب وجهه	ويَلُحْ بخديه السعير
أبنى قد جربتها	فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما	بنيت بعرصتها قصور
ولقد غزاها تبع	فكسا بنايتها الحبير
وأذل ربى ملكه	فيها فأوفى بالنذور

(١)انظر المعارف لابن قتيبة ص ٦٨ـ وسيرة ابن هشام ١/ ٢٥ ط دار الفكر بتحقيق محمد فهمى السرجانى.

ويظل يطعم أهلها   لحم المهارى والجزور
يسقيهم العسل المصفى   والرحيض من الشعير
والفيل أهلك جيشه   يرمون فيها بالصخور
والملك فى أقصى البلا   د وفى الأعاجم والجزور
فاسمع إذا حدثت واف   هم كيف عاقبة الأمور[1]

إن شدة تقديس أهل مكة للبقعة المباركة لكعبة الله وعظيم تقديرهم لها وكذلك وفود الحجاج إليها من كل فج عميق من أنحاء الجزيرة العربية، ملأ قلوب بعض الملحدين حسدا وعيظًا وحقدا، لذا حاولوا أن يهدموا بيت الله الحرام وأن يبنوا فى بلادهم كعبة أخرى. ومن هنا كانت قصة أصحاب الفيل المليئة بالعبر قبل ولادة النبى ـ ﷺ ـ الباهر السعادة بأربعة وخمسين يوما.

قد أراد «أبرهة» الوثنى من حكام اليمن وقد جمع حوله بعض القبائل وأقدم. على هدم وتخريب كعبة الله المعظمة ـ كما سيأتى تفصيله فيما بعد ـ ولكنه خر بجيشه واضمحل.

قصة الفيل العجيبة:

بلاد الحبشة:

قد انقرض ملوك التبابعة فى عهد أصخمة النجاشى[2] وهكذا انتقل حكم اليمن إلى قبضة «أبرهة بن الصباح» الأشرم قائد جيش النجاشى أصخمة نيابة عن ملكه.

وقد انزعج «أبرهة» عندما رأى أن عرب الجاهلية يزورون الكعبة المعظمة فى مواسم الحج متبعين فى ذلك ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحنيفية، ويفد إليها من الناس من أماكن بعيدة متكبدين فى ذلك مشقات عظيمة.

(١) الأبيات فى سيرة ابن هشام ١/٢٦.

(٢) النجاشى لقد أصخمة، إلا أنه علم على ملوك الحبشة مثل قيصر الروم وأكاسرة الفرس. ومعناه فى اللغة النبطية «العطية»، كان النجاشى ملك عظيم القدر وقد آمن بسلطان الملوك نبينا ﷺ وعرض عليه أشواقه فى مكاتباته.

قد تساءل هذا المغرور محدثا نفسه: يا ترى لماذا حاز هذا البناء المسمى بالكعبة كل هذا التوقير والتعظيم من قبل العرب؟! ما يا ترى مكانة هذا البناء وما مدى جماله وزينته حتى يجذب إليه كل هؤلاء الناس؟!.

ولما عرف أن الكعبة بيت من الحجارة المأخوذة من الجبال الكائنة حولها وأنها بناء حجرى عال عزم ـ بناء على رأيه الفاسد ـ أن يبنى معبدا أعظم وأضخم من الكعبة الشريفة وكتب إلى النجاشى طلبا يقول له فيه إننى أبنى بجانب قصر غمدان[1] فى صنعاء قصرا عظيما رصين البناء فخما يليق بعظمتكم وعلو شأنكم وسوف أجتهد على أن يكون هذا القصر مزينا لا مثيل له فى الفخامة فى العصور السابقة.

وبما أن النجاشى لم يلتق بالرسول ـ ﷺ ـ فلا يعد - عند من يشترط اللقاء مع النبى ﷺ ـ من الصحابة الكرام وإن كان بعض العلماء يعدونه من الذين يؤمنون بالمعاهدة من الأصحاب الكرام. قد مات النجاشى فى رجب من السنة التاسعة من الهجرة وصلى على جنازته فى المدينة المنورة وهذا يرجح كونه من الصحابة.

يروى أن هذا القصر قد هدم فى عهد عثمان بن عفان أو خلافة عمر وقصر غمدان أحد عجائب الدنيا وكان أحد جدرانه الأربعة أصفر اللون والثانى أبيض والثالث أخضر والرابع أحمر اللون داخل هذا القصر، وفوقه قصر آخر من سبعة طوابق وكان بين طوابقه فواصل قدرها أربعون ذراعا وكان ارتفاع جدرانه الخارجى ٣٠٠ ذراعٍ وكان فى كل ركن من أركانه الأربعة صورة أسد فاغر الفاه مكشوف من الأسفل فارغ البطن وعندما كان يدخل الهواء فى أسفله يخرج من فيه محدثا صوتا غريبا شبيها بصوت القنفذ.

(١) قصر غمدان من القصور التى بناها يشرح من ملوك اليمن. وقال بعض الرواة: إن يعرب بن قحطان هو الذى وضع أسسه وأكمله وائل ابن حمير بن سبأ. وقال بعضهم (أن بانيه ضحاك ومع مرور الزمان انتقل أسسه إلى سيف بن ذى يزن)، والرواية الأخيرة أقرب إلى الصحة وقال المؤرخون (أن ضحاكا قد بناه ونسبه إلى «نجم الزهرة» وبناء على هذا فإن قصر غمدان أحد البيوت السبعة التى نسبت إلى الروحانية وسميت بأسماء الكواكب السبع السيارة).

وعندما أرسل أبرهة[1] الطلب إلى النجاشى أخذ يحفر أسس المعبد وفى ظل نفوذه وقوة دولته أخذ يستدعى من البلاد البعيدة الأساتذة من المهندسين والمتخصصين فى فن العمارة وجلب أنواع الرخام الصافية اللامعة كالفضة وأعمدة متنوعة وملونة ومتينة وحجارة قيمة ملونة ذات أشكال مختلفة والحجارة المنتزعة من قصر بلقيس ذات نقوش ومرصعة بالذهب والفضة وبنى فى صنعاء[2] اليمن عاصمة ملكه، كنيسة تثير الحيرة والدهشة بما تحتوى فى خارجها وداخلها من اليواقيت والمجوهرات التى رصعت بها الجدران كما صنع فيها منابر مصنوعة من الأبنوس والعاج ووضع فى أرجاء الكنيسة المذكورة أصنامًا مصنوعة من الذهب والفضة، وعلق فى أبراجها نواقيس ضخمة ثم أعلن وأشاع[3] فى أطراف الجزيرة أنه سيمنع الناس من زيارة الكعبة والطواف حولها وسيجبرهم على زيارة كنيسته هذه.

وبما أن الكنيسة قد بنيت فى مكان عال كما كان مبناها شاهق العلو فأطلق عليها بيت (القليس) إيماء إلى علوها. ثم بعث الرسل يدعون الناس لزيارة الكنيسة والحج إليها.

وكان غرض أبرهة من هذا صرف أبناء العرب عن زيارة الكعبة والحج إليها مرة فى السنة ويحملهم على التوجه إلى كنيسة صنعاء باليمن.

وعلى هذا أكره العرب على زيارة بيت الأصنام الذى فى صنعاء وتوجهوا إليه وأصبحوا لا يريدون أن يروا وجوه الذين يتحدثون عن هذا المعبد المنحوس، وبناء على كراهيتهم الشديدة لهذه الكنيسة قتل أفراد قبيلة كنانة، الرسول الذى بعثه «أبرهة بن صباح الأشرم» ليدعوهم، فقتلوه رميا بالسهم.

(١) لم يشر أبرهة فى طلبه الذى كتبه للنجاشى إلى عزمه على هدم الكعبة حتى لا يغضبه.

(٢) إن مدينة صنعاء الشهيرة فى القسم الخامس من أقسام البلاد اليمنية وعاصمة البلاد الكائنة فى هذا القسم وتقع بين درجة (٥) (٢٢) دقيقة فى العرض الشمالى وبين (٣٢) درجة و٤٤ دقيقة فى الطول الشرقى وفوق صحراء واسعة.

(٣) وقد روى هذه الواقعة أبو الوليد وابن هشام وابن إسحاق وإن كان فى أقوال كلهم زيادة أو نقصان إلا أن كلها مؤيدة لرواية ابن إسحاق.

وعندما شاع بين سكان اليمن متانة بيت القليس ورصانته أخذ أبرهة يبعث الرسائل والرسل إلى سكان اليمن ومن حولها، ويقول مفتخرا مباهيا إننى قد وفقت فى بناء معبد فخم وضخم لن ينس العرب معه اسم الكعبة فقط ولكنهم سيأنفون من ذكر اسمها.

وأخذت مثل هذه الأخبار تنتشر تدريجيا فى بلاد الحجاز حتى ذكرت فى خيم البدو واستثقلها القرشيون؛ لذلك اختاروا شابا بطلا من سادات العرب يتصل بنسب بنى فقيم بن مالك ومن قبيلة كنانة وهو «نفيل بن حبيب الخثعمى»، وبناء على القول المختار «قلمس[1] بن عبد الله بن فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر» من أهل نسئة، ومعه رفيق شجاع وذهبا إلى صنعاء ودخلا فى بيت القليس حيث قضيا حاجتهما ثم لطخا جدرانه بالقاذورات لينفرا أهل اليمن من زيارة الكنيسة، وأرادا بهذا أن يلمحا أن الدار القذرة التى يلجون فيها صبح مساء لا تصلح إلا أن تكون بيت خلاء.

لما عرف أبرهة ما جرى زاد غضبه وحزنه وتألم جدا، ولما عرف أن الذين تجرأوا على فعل ما حدث هم من سكان مكة المكرمة أقسم على هدم وتخريب الكعبة المعظمة وقال: «إننى أستطيع أن أثأر من العرب بهدم البيت المعظم بالفيلة» وأعد جنده وجمع ـ بناء على قول ـ فيلين مشهورين، وعلى قول ثمانية أفيال، وفى رواية أخرى عشرة وعلى قول اثنا عشر أو ثلاثة عشر وبناء على روايات أخرى ألف فيل أو أربعة آلاف[2] فيل- شجاع كما أخذ معه فيل النجاشى المسمى محمود[3] وساق كتائبه وجيشه نحو مكة سنة «٥٧٠م».

اقتنع أبرهة الذى أعد كل هذه الفيلة وكل هذه الحشرات الحبشية لإدارة الأفيال عندما رأى كل هذه القوة بأنه لن يتعب فى هدم الكعبة المعظمة.

(١) قلمس بن عبد الله بن فقيم فهو من أفراد أهل نسأة، اسمه الحقيقى «حذيفة» والزمن الذى ينتسب له يقال له «دور نسأة» أيضا. قيل ذلك لبنى فقيم لأنهم كانوا ينسأون الشهور. انظر المعارف لابن قتيبه ص ٦٠، ولسان العرب مادة نسأ

(٢) كان ثلاثة عشر فيلا من هذه الفيلة مدربين أحسن تدريب بينما كان الباقى من الفيلة العادية.

(٣) كان هذا الفيل أبيض اللون ويسمى محمودا وكنيته أبو العباس.

وكان يسوق أمام جنده أربعة صفوف من الفيلة وكان يظن أنه سينتصر حيثما يتجه بهذه الفيلة ويعتقد أنه لن يجد صعوبة فى هدم البيت المعظم وتخريبه.

قد زحف أبرهة نحو مكة الله ومعه ٦٠٠٠٠[١] ألف أو ثلاثمائة ألف[٢] من الحشرات الحبشية لإدارة وسوق الفيلة وفى رأسه فكرة هدم البيت وتخريبه المستحيلة.

وقابل فى طريقه العرب الذين خرجوا للدفاع عن بيت الله، وحاربهم وداسهم بسنابك خيوله وانتصر عليهم وأسر قوادهم وقيدهم بسلاسل الأسر، وضرب خيامه فى مكان بين الطائف ومكة المكرمة المسمى «**بمغمس**» وأغار على حيوانات أهل مكة واستولى عليها ونهبها.

من الذين رفعوا السلاح فى وجه جيش أبرهة أولهم «**ذو نفر**» من أشراف اليمن، والثانى الذى واجهه فى أرض خثعم «**نفيل**[٣] **بن حبيب الخثعمى**» أو «**باعس**» وأخوه «**غفرس بن أقبل**[٤] **ونهران وناهس**» تحت قيادة نفيل وبعض أفراد القبائل العربية.

وقد وقع «ذو نفر» ونفيل بن حبيب وهما من قواد الجيش وملوك اليمن أسيرين، وتفرق العرب الذين كانوا تحت قيادتهما وقيدا بالسلاسل بأمر أبرهة. ثم فك أسر نفيل بشرط أن يكون دليلا لهم فى أثناء سيرهم فى أرض العرب.

عندما وصل أبرهة إلى الطائف بدلالة «نفيل بن حبيب ضم مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن ثقيف» من بنى ثقيف أحد أتباعه الضالين إلى جيش أبرهة ليكون دليلا لهم وهو «**أبو رغال**».

وقد سار «أبو رغال» مع جيش أبرهة إلى أن وصلوا إلى مكان يسمى

(١) صاحب هذه الرواية كان يحب أن يبالغ فى كلامه لأن ابن إسحاق لم يذكر عدد الفيلة ولا عدد الجنود.

(٢) هذا القول أقرب إلى الصحة، لأنه لم يقصد عدد الجنود بل أراد أن يكنى عن كثرتهم كما تشير إلى ذلك الأبيات التى ستقيدها فيما بعد والتى نظمها عبد الله الزبعرى.

(٣) نفيل ـ هو أكمل بن ربيعة بن غفرس وكان من رؤساء قبائل شهران وباعس.

(٤) خثعم لقب أقبل.

«مغمس» حيث تشقق ومات لحكمة ما، والبدو سكان البادية يرجمون حتى الآن قبر «أبو رغال» ويستحقرونه.[١]

اسم ثقيف أبو عوف ـ قسى بن النبيت بن منبه بن منصور بن يقدم بن أقصى بن دعمى بن إياد بن نزار بن معد بن عدنان، لما قابل مسعود بن معتب الثقفى أبرهة عظمه وحدثه بفرح وسرور وقال له: «يأيها الملك إننا سندلك على الطريق، إن عامة أبناء قبيلتنا عبيدك وكل ما تأمر به مجاب.. الكعبة التى تريد أن تهدمها وتخربها لا قيمة لها عندنا، إن بيتنا بيت اللات وهو فى الطائف وكل أهل الطائف يعظمون هذا البيت كما تعظم الكعبة ثم قدم لهم «أبو رغال» السالف الذكر ليدلهم على طريق مكة.

عندما انفلق أبو رغال وهلك كان أبرهة قد بعث بكتيبة من الجنود فى رفقة أسود بن مقصود الحبشى الذى كان فى مغمس للتعرف على أحوال مكة المكرمة، عندما وصل هؤلاء الجنود إلى أطراف مكة نهبوا وسلبوا الحيوانات التى كانت ترعى هناك.

بناء على هذه الوقعة ركب «عبد المطلب بن هاشم» سيد قريش وخادم الكعبة المعظمة ذو الرأى السديد بغله واتجه نحو معسكر الحبشة، وقد استقبله أبرهة استقبالا عظيما ورحب به أيما ترحيب ـ إذ بلغه علو شأنه بين قومه وأشار له أن يجلس فوق كرسى فخم مزين.

وفى قول آخر إن أبرهة لم يستطع أن يقاوم ما كان عليه «عبد المطلب» من الوجاهة والمهابة فنزل من كرسيه وجلس فوق البساط وأجلس المشار إليه بجانبه وقاله له: «اطلب منى ما تشاء» فأجابه قائلا: «لا أريد منك شيئا غير أن ترد لى أربعمائة جمل نهبتها جنودك. والصحيح مائتان».

قد تحير أبرهة من هذه الإجابة الساذجة واندهش وقال له: ظننتك قد جئت ترجونى ألا أهدم الكعبة إنك تعرف جيدا أننى جئت لأهدم الكعبة التى تشكل ركنا من دينكم وأخربها.

(١) السيرة النبوية ١/٤٩. والعرب تستحقره لأنه كان دليلاً لصاحب الفيل. وفى جامع معمر بن راشد أن أبارغال من ثمود وأنه كان بالحرم حين أصاب قومه الصيحة، فلما خرج من الحرم أصابه الهلاك كما أصاب قومه فدفن هناك.

ثم أراك لا تطلب منى أن أنصرف عن هذا العمل بل تريد أن تسترجع ما نهبه جنودى من إبلك وهذا أمر لا يمكن أن يثير إلا عجبى ودهشتى.

فتلقى من عبد المطلب هذه الإجابة الحكيمة:

«لما كنت صاحب الإبل فإننى أريد أن أستردها. وللكعبة صاحب أيضا فإذا أراد سيمنعك من التسلط عليها».

واستغرق أبرهة فى تفكير عميق إذ تلقى هذا الرد ثم قال مستهزئا: «أذهب وانظر كيف سيحافظ ربك على الكعبة ضد قوتى القاهرة وسطوتى الجبارة» ثم أعاد لعبد المطلب جماله ورده معززا مكرما وبين له أنه لم يأت ليحارب أهل مكة إنما جاء لهدم الكعبة المعظمة، وتخريبها، ومن هنا ليس لأهل مكة ما يثير قلقهم أو يخوفهم.

قد رأى سكان مكة ـ بناء على رأى عبد المطلب ـ أن يخلو مكة وينسحبوا إلى الجبال وألا يحاولوا الدفاع عن مكة ولكنهم فى نفس الوقت كانوا يتمنون أن يروا المصيبة التى سوف يتعرض لها أبرهة.

قال بعض المؤرخين: «قد أخبر الجنود المكلفون بالذهاب إلى مكة أبرهة أنهم لم يوفقوا في قتل عبد المطلب بعد ما نهبوا جماله».

وقد أرسل أبرهة إلى عبد المطلب حميريا يقال له «حناطة» ليخبره بأن هدفه من المجئ إلى مكة هو هدم الكعبة وإذا كان بين الأهالى من يريد أن يدافع عن الكعبة يجب عليهم أن يستعدوا للحرب والقتال.

وكان رد عبد المطلب إننا لا نحارب إن البيت بيت الله إذا ما صانه وحفظه فهو بيته. أما إذا لم يحفظه، فليس لنا قبل للدفاع عن البيت. ثم ذهب مع «حناطة» إلى أبرهة وعندما مثل أمامه قد نزل من سريره وأجلسه بجانبه ورحب به أعظم ترحيب وكرمه تكريما.

لو كان أبرهة رأى من عبد المطلب أدنى علامة تدل على رغبته فى عدم هدم

البيت لتنازل عن فكرته ورجع إلى بلده لأن هيئة البيت المحتشمة وما فيه من روحانية فى طريقة وضعه وما فيه من عظمة ومهابة قد ألقى فى قلبه خوفا وخشية فوق العادة ـ فالأمين إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد بناه تنفيذا لإرادة الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلا أن عدم صدور أدنى التماس أو رجاء بخصوص عدم هدم البيت من عبد المطلب حمل أبرهة على المضى فى عزمه لأنه لم يجد سببا يثنيه عما أقدم عليه.

وبلهجة كلها ثقة رد عبد المطلب على أبرهة ردا قاطعا مما أيأسه وآنس أهل مكة ببشارة خفية، لأنه كان واثقا أن أى فرد مهما كانت قوته لن يستطيع إلحاق الخسارة ببيت الله المعظم وذلك تكريما وحرمة لخاتم الأنبياء ـ ﷺ.

لأن النبى ـ ﷺ ـ انتقل إلى رحم أمه فى الفترة التى غزا فيها أبرهة الحجاز ووصل بالقرب من مكة وبدأت تظهر علامات خارقة للعادة، كما سعد عبد المطلب بالرؤى الجميلة فى منامه، وكل هذه القرائن كانت تنم عن قرب تشريف النبى ـ ﷺ ـ إلى الدنيا، ولكل هذا كان عبد المطلب يأمل ألا يستطيع أبرهة هدم كعبة الله بتخريبها، أخذ حناطة الحميرى عبد المطلب مع بعض أولاده وأتى بهم إلى خيمة أبرهة.

وعلم عبد المطلب بأن سيف ذى نفر فى السجن فالتقى معه واستمع إليه إذ يقول: يا عبد المطلب ماذا تنتظر من أسير يترقب قتله اليوم أو غدا وماذا تأمل منه، ومع هذا سايس الفيل «محمود» من أحبائه وهو شخص يسمى «أنيس» وهو من الذين يثق فيهم أبرهة ويعتمد عليهم وقد أرسلت له بأنباء. فاذهب إليه وفعلا ذهب إليه عبد المطلب وتلاقى معه.

كان النبأ الذى أرسله ذو نفر إلى أنيس[١] يشمل المعانى الآتية:

---

(١) قد رأت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنيس وسائق الفيل محمود، فى مكة يتسولان. وكما تقول المشار إليها إن كليهما كان أعمى وبما أنهما قد نبهوا أبرهة بحسن قبول عبد المطلب الجاهما الله بما حل بجيش أبرهة واصيبا بالعمى.

«إن الشخص الذى نهبت حيواناته، هو سيد قريش وهو صاحب عين زمزم الموجودة بمكة إن هذا الشخص يطعم الناس فى الصحراء والوحوش على رءوس الجبال».

إن المطلوب منكم هو إبلاغ أبرهة بأن جنوده قد استولت على مائتين من إبل عبد المطلب سيد قريش، فإذا استطعت فاشرح الموضوع لأبرهة واحمله على تكريمه ورد إبله له، وقد نقل أنيس هذه الأقوال إلى أبرهة لذا أكرمه أعظم إكرام وأعاد له جماله.

إن «يعمر بن نفاثة بن عدى بن الدئل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة» رئيس قبيلة بنى بكر وخويلد بن وائلة الهذلى رئيس قبيلة «بنى هذيل» أرادا أن يصرفا أبرهة عن هدم الكعبة وذلك بعرض ثلث واردات تهامة[١] الحجاز السنوية، ولما رفض طلبهما استعدا للحرب بالاتفاق مع قبائل (قريش وكنانة وخزاعة وهذيل والقبائل الأخرى)، ولكنهم غيروا رأيهم واتبعوا فكرة عبد المطلب إذ أحسوا أنهم سيتعرضون للهزيمة.

وعندما رأى أبرهة أن أهل مكة لا يدافعون عن بلادهم، ساق حشراته إلى «وادى المحسر»[٢] الواقع بين المزدلفة ومكة المعظمة واستعجل فى تنظيم صفوف جيشه وطلب من ساسة الفيلة أن يهيئوا أفيالهم للهجوم على مكة ودفعوا الفيل «محمود» نحو الكعبة، ورغم جهود السايس المضنية لسوق الفيل محمود ناحية الكعبة المعظمة لم يتحرك الفيل خطوة واحدة نحو الهدف، ولم تفد جميع محاولاتهم وما بذلوه من سعى لدفع الفيل نحو الكعبة كلما كانوا يسوقونه إلى الأمام يقع ولا يتحرك.

ولما رأوا أن المحاولات المضنية لدفعه إلى الأمام لم تأت بنتيجة، لذا سقوه

(١) إنها مدينة زبيد المشهورة فى الناحية الجنوبية من قطعة الحجاز.

(٢) إن سبب إطلاق محسر على هذا المكان لأن أصحاب الفيل قد تعرضوا هناك لعذاب الله وعقابه. لأن الفيل محمود لم يتقدم إلى الأمام بعد هذا المكان وتبعته الأفيال الأخرى ولم تتحرك خطوة إلى الأمام.

خمرا ـ بأمر أبرهة ـ حتى يفقد عقله وتمييزه ثم وجهوه إلى جهة أخرى.

وأسرع محمود السير لتلك الجهة وتبعته الأفيال الأخرى وأخذت تجرى بسرعة خلف محمود وعندما أرادوا أن يوجهوها إلى الكعبة كانت تبرك ولا تتحرك وكأنها لا تريد أن تهاجم الكعبة المعظمة.

عندما رأى «نفيل بن حبيب الخثعمى» الأسير المصفد، بالأغلال لدى أبرهة هذه الحالة المليئة بالحكم للفيل «محمود» ـ إذ كان يمتنع من السير نحو الكعبة وعندما يوجهونه ناحية الشام أو اليمن كان يسرع ـ أمسك نفيل بن حبيب أذن الفيل وقال له: «يا محمود احذر من التقدم لأنهم يريدون أن يستغلوك في تخريب بيت الله مع أنك في بلدة الله، فابرك محمود أوعُدْ راشدًا من حيث جئت».

أراد نفيل بن حبيب بفعله هذا أن ينبه الجيش الحبشى أن ما يريده أبرهة يشبه خيالا مستحيلا وأن محمودا والفيلة الأخرى لن تهاجم كعبة الله المعظمة. إلا أن أبرهة لم يتنبه لما يريده ابن حبيب الخثعمى كما لم يستطع أن يدرك شيئا من حركات الأفيال الحكيمة بل أصر على تنفيذ ما في ضميره وأخذ يضرب الفيلة ويشتمها حتى كاد يهلكها.

وفي تلك الأثناء أخذ عبد المطلب «عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصى وبضعة من رجال قريش المخلصين معه ومضى إلى باب المعلى من الكعبة المعظمة واحتضن حلقاته وأخذ يتضرع ويناجى قاضى الحاجات وهو ينشد الأبيات الآتية:

يـــارب إن المـــــرء يمـــ	ـنع رحـله فامنــع رحـالك
وانصـــر علـى آل الصليـــ	ـب وعابديـه اليــوم آلـك
إن كنـــت تاركهـــم وقبـــ	ـلتنا فأمــر مـا بــدا لـــك
لا يغلـــبن صليبهـــــم	ومحالهـم أبــدا محالـــك
فلئــن فعلــت فإنـــــه	أمـر يتــم بـــه فعالـــك

بينما كان أبرهة مشغولا بسوق الفيلة نحو كعبة الله التصق عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن عبد الدار بباب الكعبة العظيمة أيضا وأخذ يناجى ربه وينشد بعض الأبيات التى تبين نهب أسود بن مقصود الحميرى[1] حيوانات أهل مكة واستيلائه عليها.

وبينما كان عبد المطلب ورفاقه منهمكين عند كعبة الله بالتضرع والابتهال وكان أبرهة يبذل جهده لحمل الفيلة للسير نحو الكعبة إذ ظهر فجأة فى السماء مجموعة من الطيور الصغيرة تشبه طائر «السنونو» من ناحية البحر يحمل كل واحد منها فى منقاره حجرا واثنين بين مخالبه وكان أكبرها فى حجم حبة الحمص وأصغرها فى حجم حبة العدس أى ثلاثة أحجار من سجيل[2] واتجهت أسراب الطيور نحو مكة المكرمة.

جاء في رواية أن هذه الطيور الصغيرة أقبلت من ناحية البلاد الهندية، وكانت مناقيرها حمراء و رءوسها سوداء، رقابها طويلة أجسامها شبيهة بأجسام الخفافيش وبناء على قول آخر أن مناقيرها كانت صفراء رقابها خضراء وأجسامها شبيهة بأجسام العصافير وقد سطر على كل حجر تحمله اسم الشخص الموكول بهلاكه.

قد فسر عكرمة ﴿ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل: ٣) كلمة أبابيل عنقاء المغرب.

يقول صاحب القاموس إن (عنقاء المغرب) ظهرت فى عصر موسى ـ عليه السلام ـ قد خلق أولا أنثاها ثم خلق ذكرها وهكذا تناسلا وتكاثر نسلهما وبعد وفاة النبى المشار إليه انتقلت هذه الطيور إلى حجاز نجد حيث أخذت تؤذى

(١) أسود بن مقصود هو من رؤساء الحشرات الحبشية التى أرسلها أبرهة من مغمس للاستيلاء على حيوانات أهل مكة. والأبيات التى كان يرددها عكرمة يدعو بها على أسود بن مقصود أوردها ابن هشام فى السيرة ٥٣/١.

(٢) إن هذه الحجارة خليط من التراب والحجر والذى أطلق عليه فى القرآن الكريم اسم «السجيل» وكان أصغره فى حجم حبة العدس وأكبره فى حجم حبة الحمص.

الأطفال الصغار ولكنها طارت إلى أعشاش الهلاك والعدم بفضل استجابة دعاء «خالد بن سنان العبسي[(١)]» الذى عاش فى عهد النبى - ﷺ.

يروى أن أجناسا من طيور الأبابيل تعيش فى زماننا فى نواحى الهند الصينية وأنها تُبْعَثُ إلى دار السعادة استانبول كهدايا.

إن هذه الطيور لا تشبه طيور الأبابيل تمام الشبه إلا أن الذين ينظرون إليها بعين الإمعان يجدون فيها علامات تحمل الناس على تشبيهها بتلك الطيور، ويعتقد أنها تعرضت لتغير شكلها بمرور الزمان وقد نقلت روايات كثيرة عن شكل ولون وصورة هذه الطيور، حتى أن «عبد الله بن عباس» يروى أن لها مناقير كخراطيم الفيل وأسنانا شبيهة بأنياب الكلاب. ويدعى بعض الرواة أن الطيور الموجودة الآن فوق باب إبراهيم ووالزرازير من بقايا طيور الأبابيل والله أعلم بالصواب.

لم يكن يعرف شيئا عن ظهور هذه الطيور لا أبرهة ولا عبد المطلب ورفقاؤه الذين كانوا يتضرعون إلى الله ممسكين حلقات كعبة الله. وفى فترة نظر عبد المطلب إلى السماء ورأى كثيرا من الطيور الأبابيل تقبل نحو مكة المفخمة وتعجب من أشكالها وقال لرفقائه: «أيها الأصدقاء إن هذه الطيور لا تشبه طيور نجد وتهامة ولابد أن يكون فى هذا حكم ما» ثم اتفقوا على أن يصعدوا فوق قمة جبل أبى قبيس ليروا الطيور جنود الله المجندة ـ التى ظهرت من ناحية البحر وبعد فترة وقفت حذاء جنود أبرهة الذين أزعجوا العالم. ثم تركت الحجارة التى كانت ذات آثار نارية الواحد تلو الآخر وكان كل حجر يدخل من فوق رءوس الأعداء الحشرية وينفذ فى أجسامهم ويخرج من أدبارهم ويقضى عليهم بالهلاك في التو واللحظة.

لم يبق بين جنود الأعداء فرد متنفسا لم يهرب إلا أبرهة والفيل محمود والأفيال التابعة له.

وكل من يمسك بجثة أحد هالك كان يستطيع أن يحملها كما يحمل البيضة لأن الحجارة كانت قد أحرقت أجسامهم كما تحرق النار الفتيل. ثم ظهر سيل عظيم

(١) انظر خبره فى: المعارف لابن قتيبة ص ٦٢.

بالبحر مثير للدهشة وحمل جثث الأعداء المنتنة وكنسها إلى البحر وهكذا طهرت ساحة مكة الله.

وهناك قول يدعى أن الحجارة التى ألقيت من قبل طيور الأبابيل إذا ما أصابت شخصا تظهر فى جسمه بثور مثل البثور التى تظهر فى الشخص المصاب بالحصبة والجدرى، والذين أصيبوا بها ماتوا وهلكوا من شدة أوجاعها والبقية الباقية وصلوا إلى الحدود اليمنية بكل صعوبة ونجوا بجلدهم فارين.

حينما تشتت جيش أبرهة واضمحل كما سبق تعريفه، هجم أهالى مكة على معسكره وأخذوا ما وجدوه من أموال وأسلحة وأشياء ونالوا ثروة وأصبحوا من أهل اليسر والغنى ونالوا غنائم بدون أن يتعبوا ودون أن يتعرضوا للمحاق والمشاق وذلك لحرمة حبيب الحق رسول رب الفلق وتضاعفت شهرتهم عن ذى قبل ونجوا من شر العدو القوى الشرس الذى أخاف عربان جزيرة العرب، كما أن القبائل المعارضة لهم انصرفت عن حربهم وقتالهم لأنهم اعتقدوا أن أهل مكة مؤيدون من قبل الله.

وقد ولد خاتم الأنبياء سيدنا محمد بعد واقعة الفيل بأربعة وخمسين يوما وبناء على هذا التقدير قد حدث قدوم أبرهة إلى مكة ومغادرته لها فى أواسط شهر المحرم ويوافق ولادة النبى - ﷺ - في شهر ربيع الأول الموافق لشهر أبريل من الشهور الرومية.

قد أطلق العرب على السنة الميلادية التى توافق خمسمائة وتسع وستين «عام الفيل» وقد اتخذوا هذه الواقعة مبدأ تاريخ لهم وتفاخروا بها وأنشدوا فى حقها أناشيد وألقوا القصائد وأخذوا يعظمون أهل قريش ويوقرونهم قائلين «هؤلاء أهل الله، لذلك أهلك الله أعداءهم»، لا يستطيع إنسان أن يحصى الأشعار والقصائد التى ألقيت بخصوص هذه الواقعة وإننا قد أدرجنا بعض هذه القصائد المختارة من قبل المؤرخين.

والقصيدة الآتية من جملة تلك القصائد وقد أنشدها عبد المطلب بن هاشم.

قلت والأشرم تردى خيلـه | إن ذى الأشرم غربا لحـرم
كاده يتبع فيمن جنـدت | حمير والحى مـن آل قـدم
فانثنى عنـه وفى أوداجـه | جارح أمسك فيـه بالكظـم
نحن أهل الله فى بلدتـه | لما يزل ذلك على عهد أتـم
إن للبيـت لربـا مانعـا | من يـرده بآثـام يصطلـم

والأبيات التالية من قصيدة طويلة لعبد الله بن الزبعرى بن عدى بن قيس بن عدى بن سعيد[1] بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، يقول عبد الله بن الزبعرى:

يتكلموا عن بطـن مكـة أنهـا | كانت قديمـا لا يـرام حريمهـا
لم تخلق الشعرى ليالـى حرّمـت | إذ لا عزيـز من الأنـام يرومهـا
سائل أمير الجيش عنهـا مـا رأى | ولسوف ينبى الجاهلـين عليمهـا
ستون ألفا لـم يؤوبوا أرضهـم | بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهـم | والله من فوق العبـاد يقيمهـا

وعرض ابن الزبعرى فى المصراع الذى قال فيه «بل لم يعش بعد الإياب سقيمها» بأن أبرهة هلك أيضا في صنعاء. كما أنشد هذه الأبيات أبو قيس صيفى بن الأسلت بن جشم بن وائل بن زيد بن قيس بن عامر بن مرة بن مالك الأوسى:

ومن صنعه يوم فيـل الحبـو | ش إذ كلمـا بعثـوه رزم
محاجنهـم تحـت أقرابـه | وقد شرموا أنفه فانخـرم
وقـد جعلـوا سوطـه | مغولا إذ يممـوه قفاه كلـم
فولـى وأدبـر أدراجـه | وقد باء بالظلم من كان ثـم

(١) كذا نسبه ابن إسحاق، والصواب سعد بن سهم، وسعيد أخو سعد بن سهم انظر: السيرة النبوية ١/ ٥٨.

وينسبون القطعة الآتية إلى أمية بن أبى الصلت ـ الأبيات:

فقوموا فصلوا لربكم وتمسحوا بأركان هذا البيت بين الأخاشب
فعندكم منه بلاء مصدق غداة أبى يكسوم[1] هادى الكتائب
فلما أتاكم نصر ذى العرش ردهم جنود المليك بين ساف وحاصب
فولوا سراعا هاربين ولم يؤب إلى أهله الأحباش غير عصائب

أراد أبرهة أن ينجو من هذه الكارثة المهولة وطلب من «نفيل المكى» الذى مازال فى أسره أن يدله على الطريق فأجابه قائلا:

«أين المفر و الإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب»

حينئذ اعتمد على نفسه في الفرار ووصل إلى بلاد الحبشة بصعوبة يقع تارة فى الطريق ويقوم أخرى، وقص كل ما حدث على النجاشى بالتفصيل، واصفا شكل الطيور وصورها فقال النجاشى: ما أعجبه من حادث أيا ترى ما نوع هذه الطيور؟! فأشار أبرهة إلى طائر قائلا: كانت تشبه لهذا الطائر الصغير وإذا بالطائر يرمى الحجارة التى يحتفظ بها على أبرهة ويقضى عليه بحيث قطع الحجر يديه من منكبيه، ورجليه من فخذيه بينما أصابه واحد من الحجارة فى رأسه وأهلكه.

وبناء على رواية أخرى أن أبرهة لم يهلك بحجارة طير الأبابيل بل مرض بمرض الجذام الخبيث وعاد إلى اليمن بعد ما ترك أبا يكسوم نائبا عنه حيث لقى حتفه[2].

إن أبا يكسوم هذا أخذ يقص للنجاشى أحداث طيور الأبابيل، وإذا بأحد طيور الأبابيل الذى كلف بإهلاك أبى يكسوم هذا يلقى بحجر على أبى يكسوم بمجرد الانتهاء من كلامه وهكذا تأسف النجاشى إذ عرف كيف هلك جيشه فى أرض مكة.

قد حدثت وقعة الفيل الغريبة في اليوم السابع عشر من شهر المحرم فى وقت

(١) أبو يكسوم اسم الشخص الذى تركه أبرهة فى المعسكر نائبًا عنه.
(٢) انظر السيرة لابن هشام ١/ ٥٥، المعارف لابن قتيبة ص ٦٣٨.

الفجر. كما أن النبى - ﷺ - شرف الوجود ليلة الاثنين من الثانى عشر من شهر ربيع الأول، فكانت ولادة النبى ﷺ بعد حادثة الفيل بأربعة وخمسين يوما بالتمام.

بعد ما هلك أبرهة على الوجه الذى ذكر اختلف الأحباش فيما بينهم وتركوا العناية بالقليس.

وأهملت كنيسة الأحباش فترة طويلة حتى تحول ما حولها إلى غابات وأصبحت مقرا للوحوش والسباع، حتى أن الذين يرون منظرها الذى يثير الدهشة - يخافون أن يمروا من جانبها.

وبعد فترة باتت بجانبها قبيلة من عربان البادية فى ليلة من اليالى وأوقدوا نارًا فسرت شرارة منها إلى تلك الكنيسة فاحترقت وانمحت من الوجود.

ويزعم بعض المؤرخين أن الخليفة الأول أبو العباس السفاح من خلفاء الدولة العباسية قد عرف أن القليس قائمة كما هى فأمر والى اليمن بهدم تلك الكنيسة وهكذا استطاع أن يستولى على الدر واليواقيت التى لا تعد ولا تحصى.

استطراد:

بناء على ما قرره علماء طبقات الأرض بعد الكشف على الفيل محمود أنه من فصائل الأرض الثالثة إلا أنه قد شوهد في الأرض الرابعة أيضا.

ويستدل من الحكاية التالية على أن محمود كان من الحيوانات الضخمة فى الجثة وإقدام أبرهة على هدم الكعبة بفيلين أو اثنى عشر فيلا فقط. إلا أنه إلى وقتنا هذا لم ير حيوان فى ضخامته كما أن علماء طبقات الأرض والطبيعة لم يكتبوا شيئا عن وجود حيوان ضخم مثله فى كتبهم.

إلا أن صياد السمك قد وجد جثة حيوان ضخم متجمد بين الثلوج قبل هذا بست وسبعين سنة في مصب نهر (لنا) بسيبريا.

إلا أنه لم يستطع أن يعرف كنه هذه الجثة، لذا تركها على حالها وعاد. وبعد ما ذابت الثلوج بخمسة أعوام ظهرت الجثة للعيان واستطاعت المياه أن تدفعها إلى شاطئ النهر بالقرب من قرية فانتزعها سكان القرى المجاورة.

كما أن كلاب العراء والوحوش التى أقبلت من فوق الجبال ظلت تأكل لحمها فترة ولم يبق منها إلا هيكلها العظمى بدون رجليها الأماميتين.

وأرسلت أكاديمية بطرسبورج متخصصا ليعاين الجثة وبعد المعاينة قرر ذلك المتخصص أن الجثة جثة الفيل محمود واسترجع بقايا الجثة من أيدي القرويين ولم يكن قد بقى منها غير الرأس والأنياب ومع هذا لم يستطع أن ينقلهما إلا بهمة عشرة من الحمالين.

قد وزن أنياب هذا الحيوان فوجدها (١١٢) أقة، فإذا ما سلمنا بضخامة جسم الفيل محمود بهذا القدر وعرفنا بناء على الروايات أن أبرهة قد ساق أربعة آلاف فيل لهدم الكعبة ـ المستحيل التنفيذ ـ نستطيع أن نفهم بأدنى ملاحظة عدد السياس الذين يحتاج إليهم أبرهة للعناية بالفيلة ومن هنا لا يمستبعد أن يكون عدد المشتركين في الجيش ستين ألفا.

معلومات خاصة فى صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به:

إن الحيوان الذى نطلق عليه الفيل قد خلق بخصائص تميزه عن جميع الحيوانات، لقد استخدم الناس فى الأزمنة القديمة الفيل فى الحرب وفى أعمال شاقة أخرى.

بما أن الفيل يتصف بالصدق والوفاء والحلم والذكاء وهى من الصفات الحميدة فمما لا شك فيه أن الإنسان يمكنه أن يستفيد منه.

ومن صفاته الحدة والغضب أيضا إلا أنه يعرف مدى قوته، لذلك يكظم غيظه وحدته ولا يتهور إلا إذا تعرض للخطر.

وبما أن قوته تامة وكاملة فإن هذا يدفعه إلى أخذ ثأره ممن أساء إليه، ولكنه يشكر نعم من أحسن إليه ويبين له صداقته.

إن عينيه صغيرتان بالنسبة لضخامة جسمه. وبما أن عينيه الصغيرتين مرآة لما يعتمل فى أعماق نفسه يمكن أن يفهم من حركة عينيه شكره ومجاملته وغضبه وتهوره.

أذناه مبسوطتان كبيرتان عريضتان وأرجله غليظة وجلده تخفيه طبقة فوق طبقة وله خرطوم يرتخى من فيه.

وبما أن خرطومه فيى غاية القوة فهو يدافع به ضد كل شيء وغير هذا له نابان قويان بارزان من جانبى فمه فإذا اضطر استخدمهما فى الهجوم أو الدفاع.

وقد استخدمه الناس فى الأزمنة القديمة مستفيدين من طبيعته الحليمة في جميع الأعمال. والآن يستخدمه الناس فى آسيا والهند كحصان عادى، حتى إنهم يقدمون على صيد الحيوانات المفترسة بواسطة الفيلة.

كان الأوائل يبنون قلاعا صغيرة ويملأونها بالأسلحة الخاصة بزمنهم مثل الخنجر، الرمح، السهم، القوس السكين ويقومون بتعبئتها بالجنود القادرين على الحرب والضرب ثم يحملون الفيلة بهذه القلاع والحصون الصغيرة ويسوقونها إلى ميدان المعركة.

يروى أن «بدوس» ملك الهند قد ساق مثل هذه الحصون فى حروبه ضد الإسكندر الأكبر الشهير فى آسيا فى سنة ثلاثمائة قبل ميلاد عيسى عليه السلام.

والخلاصة أن الأقوام الهندية كانوا يسوقون فى حروبهم الفيلة المدربة لنظم قتالهم قبل اختراع الأسلحة النارية وتعد أقوى جيوشهم وفيالقهم، تلك التى تضم هذه الحصون المتنقلة. وبما أن الفيلة تخاف وتنفر من دخان البارود وضوئه ومن أصوات المدافع والبنادق فقد أهمل سوق الفيلة فى ميادين الحرب، منذ اختراع الأسلحة النارية.

فى تعريف رصانة أبنية القليس:

إن معبد الأصنام الذى بناه أبرهة فى صنعاء اليمن كان بناء متينا مربع الشكل، وكان ارتفاع جدرانه ستين ذراعا «٨٥ قدما» وكان سمك جدرانها ستة أذرع «٨ قدم و ٨ بوصة».

وكانت قاعدتها السفلية قد ملئت قدر عشرة أذرع وفرشت بحجارة ملونة مصقولة ووضعت أمام الباب سلالم من الرخام المجلو الصقيل.

إن مقدار ٢٠ ذراعاً «٢٨ قدم ٤ بوصة» من الجدران ابتداء من الأرض كانت مبنية من الحجارة المنقوشة التى يطلق عليها اليمانيون «حورب» والجزء الأعلى منها كان مصنوعا من الرخام الملون العجيب فى أشكال مثلثة وركزت فوق زوايا المثلث الرأسية تماثيل مصقولة مصنوعة من خشب الآبنوس ونصبت فوق كل هيكل أعمدة مصنوعة من المرمر.

وكان يحيط ـ دائرًا ما دار ـ ببيت القليس حائط عالٍ فى غاية العلو ومتين وفى اتساع مائتى ذراع أى ٣٨٢ قدم و ٤ بوصات بينه وبين البيت، وكانت بوابة كبيرة تفتح فى محاذاة باب بيت القليس، وكان ارتفاع مصراع البوابة ١٤ ذراعا أى ١٩ قدم، ١٠ بوصات وعرضه أربعة أذرع أى ٥ أقدام و ٨ بوصات وكان مصنوعا من قطعة واحدة من النحاس.

وكان يربط بين بوابة الحائط الخارجى ودرج باب بيت القليس جسر معلق فى طول ثمانين ذراعا أى ١١٣ قدم و ٤ بوصات وفى عرض أربعين ذراعا أى ٦٥ قدما و ٨ بوصات وكانت كل مساميره من الذهب والفضة وخشبه من خشب شجرة الساج.

وكان فى داخل بيت القليس قصر عجيب فى اتساع أربعين ذراعا مربعا أى ٥٦ قدما و ٨ بوصات وكان على يمين ويسار هذا القصر شجرة عظيمة مصنوعة من الذهب حاملة الكرة الأرضية وصور الكواكب وكان في داخل هذا القصر قبة كقبة السماء مبنية فوق أربعة أعمدة متساوية متوازية وكان فى مركز استقامة هذه القبة قصر آخر قد زين داخله وخارجه بالذهب والفضة وهو قصر مشع يثير العجب والدهشة وكان فى وسط هذا القصر عمود شفاف مجلو وكان يلمع ويتلألأ كلما انعكس عليه ضوء الشمس والقمر.

وكان العمود المذكور فى ارتفاع عشرة أذرع أى ١٤ قدما، وبوصتان وقد علق على جوانبه كثير من السلاسل الفضية وقد اتصل به كرسى مصنوع من العاج والأبنوس وغطيت أدراج هذا الكرسى بعضها بالذهب وبعضها بالفضة قد مرت على جانبيه قطعتان من الخشب المنقوش المسميتان بـ «كعيب. إمرة كعيب»

وكانت القبائل الحميرية قد اتخذت كعب وإمرة كعيب إلها ويؤمنون بأنه يخبر عن الخير والشر ولذا يتعبدون له ويزورون ويطوفون حول بيت القليس من داخل السور.

وقد بلغ قوة معتقد الحميريين بكعيب أو إمرة كعيب حدا يفوق معه أن كل من يقصر فى تعظيمهما أو إجلالهما سوف يتعرض حتما لغضبهما، لذا كانوا يفرون منه خوفا من أن يصيبهم شر غضبهما.

قد دام هذا المعتقد مدة طويلة لدرجة أنه لما تهدم بيت القليس وخرب، وبينما تباع أنقاضه مرض أحد الذين اشترى الشجرة التى كان يطلق عليها أبرهة كعيبا صدفة فقيل إن كعيبا قد أصابه بسوء، ولما عرفوا أن الرجل قد شفى واعتدل مزاجه استعجبوا من ذلك.

قصة بيت أصنام بنى بغيض:

قد بنى بنو بغيض بن ريث بن غطفان فى فترة ما رغم وجود الكعبة المعظمة، بيت كفر وأسندوا سدانته إلى بنى مرة بن عوف الغطفانى، إلا أن زهير بن جناب بن خليل[1] بن كنانة بن بكر بن عذرة الكلبى، وهو من الكهنة المشهورين، جمع قوة عسكرية وأحرق معبد الأصنام المذكور وهدم جدرانه ومحاه من الوجود.

كان زهير بن جناب من رؤساء قبائل قضاعة، عرف بسداد الرأى وعاش (٢٥٠) عام أو على قول آخر (٤٥٠) عام وخاض فى أثناء حياته هذه مائتين من الوقائع.

وقد تغلب زهير على العربان الذين أرادوا أن يدافعوا عن معبد الأصنام الذى خربوه وأسر أولادهم ونساءهم ونهب أموالهم وبناء على توسلات بنى غطفان أعاد لهم أسراهم كلهم.

(١) يروى بناء على قول آخر أن أبا جناب هو هبل بن عبد الله بن كنانة.

هجوم ملك الروم.. بقصد تخريب كعبة الله القيوم:

إن ملك الروم الذى عاصر ألب أرسلان من ملوك آل سلجوق، تحرك ضد الإسلام وبناء على ما جاء فى تاريخ رضوان باشا قد نوى وقصد هدم البيت المعظم بسوق مليونين من الجنود، وحينما عرف ألب آرسلان بهذا الخبر أسرع بإعداد قليل من الأبطال فى شجاعة الأسود، وخرج من أصفهان وقابل المعاندين الروم فى مكان قريب من ديار بكر وابتدر بحربهم واستطاع أن يأسر رومانوس ملك الروم بينما كان مشغولا بالصيد كما أسر من كان معه من الصيادين وكبلهم بالسلاسل وأعمل السيف في جنده الذين أعدهم لسوقهم إلى مكة ودمرهم بينما هرب من نجا من السيف[١].

وإن كانت هذه الواقعة منقولة من تاريخ رضوان باشا إلا أن أبا بكر الطرطوشى[٢] مؤلف «سراج الملوك» يكتب عن انتصار ألب آرسلان على رومانوس بهذه الصورة.

إن القيصر رومانوس[٣] حشد جيوشه للاستيلاء على البلاد الإسلامية والقضاء على الأمة الإسلامية من على سطح الأرض.

وكان لهذا الخبر وقعه السيئ فى المدن الإسلامية، فاضطرب ملوك المسلمين واضطروا إلى أن يتخذ كل واحد منهم وسائل الدفاع ويعد جنودا ـ قدر استطاعته ـ وبقي منتظرا قدوم الأعداء.

وكان ألب آرسلان[٤] فى ذلك الوقت في أصفهان فأعد قوة عسكرية صغيرة

(١) إن إعداد مليونين من الجنود فى ذلك الوقت بعيد الاحتمال إنما أراد المرحوم رضوان باشا أن يكنى عن كثرة عدد جند الروم لأن تجهيز مليونين من جند مستحيل من الناحية العسكرية والفن العسكرى.

(٢) إن كنية المؤلف المشار إليه أبو بكر، واسمه محمد بن أبى الوليد بن محمد القرشى، ولد سنة ١٠٥٩ الميلادية وسنة ٤٥١ الهجرية فى مدينة طرطوش بالأندلس، وتوفى فى مدينة الإسكندرية سنة ١١٢٦م و (٥٢٠) الهجرية من شهر جمادى الأولى، وكان من زهاد عصره وعبادهم.

(٣) رومانوس هو القيصر الخامس والستون وقد تولى الملك ١٠٩٩م والموافق ٤٩٢هـ، وفى عام (١١١٣م الموافق ٥٠٦هـ سملت عيناه وانصرف عن الملك.

(٤) المشار إليه من الشعبة الثانية من السلاجقة الذين حكموا خراسان والعراق وما وراء النهر، وكان اسمه محمد واشتهر باسم الملك العادل ألب آرسلان، وقد انتصر على الإمبراطور رومانوس فى هذه الواقعة وارتحل عن الدنيا عام ٤٦٥هـ الموافق ١٠٧٣م.

وخرج من المدينة ليدافع عن دينه ضد أعدائه وعقب ذلك ظهرت طلائع جيش رومانوس ونصبوا خيامهم أمام معسكر جيش أصفهان.

ولما كانت الليلة ليلة الجمعة كان الأعداء فى حالة إعياء أجلوا القتال للصباح بالاتفاق وعينوا حراسا وباتوا يتكاثرون إذ أخذوا يفدون طول الوقت.

وفى الصباح أرسل المسلمون الجواسيس ليطلعوا على أحوال جيش العدو وقد رأى هؤلاء أن جند العدو أكثر من رمال الصحراء وقد ملئوا الجبال والصحارى وكان معسكر رومانوس بحرًا زاخرًا وعدة الجيش وعتاده مما يخرج عن الحصر والتخمين.

ولما رأى ألب آرسلان أن قوته بالنسبة للأعداء كخال أسود على جسم ثور أبيض عرف أن مقاومة عدو فى هذه الضخامة غير مجدية، وأمر بعقد مجلس شورى مع كل الذين يهمهم هذا الأمر.

وكانت نتيجة المناقشات والمشاورات أنه يجب أن يعد جميع أسباب الحرب والمقاومة حفظا لكرامة الأمة الإسلامية، وعرضت نتيجة المشاورة على ألب آرسلان وقد ساند المسلمون بعضهم بعضا، وقد تهيئوا للقتال.

وقد سر ألب آرسلان من هذا القرار وقال اليوم الجمعة وهو يوم مبارك، مادمنا سنحارب فلنصبر إلى أن نصلى صلاة الجمعة لأن الخطباء سيدعون فى هذا اليوم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى بانتصار جيش الموحدين، ثم نخوض المعركة لإعلاء كلمة الله ثم بعث بعيونه إلى معسكر العدو، وطلب منهم أن يعرفوا مكان خيمة رومانوس وشكله وهيئته، وبعدما اطلع على ما يريده جمع رجاله الأبطال، وقال لهم: أهجموا حيث أهجم ووجهوا سيوفكم وسهامكم ورماحكم حيث أوجه، ثم هجم على خيمة رومانوس ساحبا جنده خلفه ـ وقتل القيصر وبث هذا العمل الرعب والفوضى فى معسكر الأعداء فاضطربوا باكين مولولين.

حينما رأى العدو أن جنود المسلمين يهاجمون جيوشهم كالأسود الشجعان غير

مبالين بمن يقع منهم اضطربوا أيما اضطراب وقرروا الفرار[١].

وبناء على هذا النصر اغتنم المسلمون أموال أعداء الدين والوطن؛ وأسروا الذين لم يستطيعوا الهروب.

وقد قبض على القيصر رومانوس أيضا وسيق إلى حضرة ألب آرسلان، الذى قال له وقد مثل أمامه: أيها القيصر! كيف كنت تعاملنى لو كنت أسرتنى؟ فتلقى منه رداً: حتما كنت قتلتك، فقال له: إنك أحقر فى نظرى من أن أمد يدى عليك بالقتل.

وعرضه للبيع فى المزاد العلنى في معسكره، وأعلن عنه بضعة أيام ولم يظهر أحد يرغب فى شرائه، وأخيرا ظهر شخص يريد أن يبادله بكلبه، وبلغ الخبر ألب آرسلان وأحضر الكلب وصاحبه والقيصر رومانوس عندئذ قال الملك منصفا صاحب الكلب إننى أرى أن كلبك خير منه، وأطلق سراح رومانوس وأعاده إلى بلاده.

وكان ألب آرسلان عندما قال لصاحب الكلب: إن كلبك خير من رومانوس، يريد أن يشير إلى أن القادة الذين لا يستطيعون حماية جنودهم من الهزيمة لا يستحقون أن يكونوا قادة، كما أن رومانوس قد تسبب فى هزيمة جيشه وأسره لأنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة.

كتب كاتب جلبى فى موجزه الذى كتبه باللغة العربية قد تملك آلب آرسلان فى ٤٥٥ هـ الموافق ١١٦٤ مدينة حلب وسرح جنده مبقيا معه ١٤٠٠٠ ألف مقاتل.

وقد انتهز رومانوس هذه الفرصة واستولى على ملك المشار إليه وهو غافل، وقرر آلب آرسلان مقاتلة الروم بجنده الذين معه إذ لم يعبأ جنده كلهم عقب محاولة رومانوس الاستيلاء على ملكه، ولكنه رأى بلاده قد احتلت بجنود أكثر من جراد الصحراء فاضطر لطلب المصالحة.

(١) يقول المؤرخون إن عدد الجنود الذين ساقهم آلب آرسلان لمحاربة العدو كان ١٢٠٠٠ الفا أو ١٤٠٠٠ الفا.

ولما كان هدف رومانوس هو القضاء على الأمة الإسلامية لم يرغب فى الصلح وأعلن أنه لن يتنازل عن القتال، حينئذ توكل آلب آرسلان على الله وخاض الحرب وأحرز النصر الذى ذكر من قبل. وهكذا ترك فى صفحات التاريخ ما سيخلد اسمه على مدى الأيام.

فليزد الله ـ سبحانه وتعالى ـ من عمر خليفة وجه الأرض والسلطان العادل السلطان عبد الحميد الثانى، ولينصر جيوش الموحدين فى كل زمان ومكان، وليقهر ويدمر أعداء الوطن والدين بجاه سيد المرسلين. آمين.

وإن كان هناك خلاف بين رواية رضوان باشا فى تاريخه ورواية صاحب «سراج الملوك» ومؤلفه، فبما أن حرب رومانوس كانت ضد جميع المسلمين فليس بمستبعد أن يكون أمله تخريب كعبة الله.

كتب مؤرخو الروم أن جيوش قيصر الروم قد انهزمت فى حروبها ضد السلطان علاء الدين فى الأناضول، وأسر رومانوس ثم أطلق سراحه بعد أن نال العفو ورجع إلى عاصمة ملكه حيث سملت عيناه.

من بين فروع السلاجقة التى حكمت فى قونيه ملكان حملا اسم علاء الدين وقد مات أحدهما فى سنة ٦٣٤هـ الموافق السنة ١٢٣٧ الميلادية، والآخر توفى فى السنة ٧٠٠هـ الموافق للسنة ١٣٠١ الميلادية.

وبناء على هذا من قول المؤرخين المشار إليهما فإن رومانوس قد أسر فى حربه ضد السلطان علاء الدين يقتضى أن يكون خطأ؛ لأن رومانوس قد اعتلى كرسى الحكم سنة ١٠٩٩ الميلادية، وبعد أربعة عشر عاما من الحكم غادر دنيانا وهذا ثابت باعترافهما.

وعلى هذا التقدير فإن حكم رومانوس كان قبل وفاة السلطان علاء الدين بمائة وثمان وثلاثين سنة، ويتحقق أنه كان معاصرا لألب آرسلان.

فى تجديد مبانى الكعبة المقدسة للمرة التاسعة

قد جددت أبنية كعبة الله للمرة التاسعة من قبل «عبد الله بن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ، وسبب هذا التجديد ضرب «حصين بن نمير» كعبة الله المقدسة وتخريبها بعد حرقها مستخدما المنجنيق.

وبعدما بلغ خبر استشهاد قائد شهداء كربلاء إلى الأقطار الحجازية غمر الحزن الأسى فى قلوب السكان بموت حفيد النبى (الحسين بن على المرتضى) رضى الله عنهما. و رانت على القلوب علامات الدهشة، أراد عبد الله بن الزبير أن يعزى أهل مكة واستدعى أكابرها وأعاظمها ثم صعد المنبر وحمد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأثنى على نبيه ـ ﷺ ـ وِفْقَ طريقة خطباء العرب ـ ثم ألقى خطبة بليغة ذات أثر شديد، وأخذ يعدد معايب يزيد البليد ومظالمه وجذب إليه قلوب الناس.

خطبة ابن الزبير:

(يا صناديد الحرم إن معظم سكان بلاد العراق وأقطاره بلاد الآفاق أهل غدر وفتنة. إنهم قد استدعوا قرة عين الرسول ونور بصر البتول الإمام الهمام «الحسين بن على بن أبى طالب» ـ رضى الله تعالى عنهم ـ بوسائل مختلفة ورسائل عديدة وإن دناءة سكان الكوفة تفوق دناءة سكان الولايات الأخرى الذين تجرءوا على استقبال الإمام بسيوف الغدر المسلولة. إنهم أهانوا وردة الروضة النبوية مع أكثر أهله إذ أوردوهم مورد الشهادة بسيوفهم الغادرة.

إن هذه الطائفة الباغية قد قتلت واحدا من أهل الصلاح والسعادة الذى كان يقضى ليله عابدًا و نهاره صائمًا، بينما كان الناس يقضون أوقاتهم متمتعين بفرط غناهم ويستمتعون بملذات دنياهم فى سفاهة، كان هذا الملك الربانى يقضى أوقاته فى البكاء من خشية الله، بينما كان الآخرون منتشين من ملذات الحياة

وسكارى من جاههم، كان الإمام الشهيد فى مجلس ذكر الله ومقامه وكان صائما دائمًا حذر الحرام». انتهى.

قد عرف يزيد العنيد أن عبد الله بنِ الزبير يمتنع عن البيعة له معتمدا على كعبة الله وأهل الحرمين، ولذا بعث إليه الرسل يطلب منهم أن يأخذوا بيعة عبد الله بن الزبير، وإلا يسوقوه مصفدًا بالسلاسل إلى الشام، إلا أن عبد الله بن الزبير رد على رسل يزيد قائلا: لا أبايع يزيد ولا أسافر معكم إلى الشام، وبناء على هذا عاد رسل يزيد خائبين ونقلوا ما حدث إلى يزيد.

ولم يقنع يزيد بمن بعثه من الرسل بل اختار سبعة من صناديد الشام ومعهم «نعمان بن بشير الأنصارى وعبد الله بن عِضَاه[1] الأشعرى» و«مسلم بن عقبة المزنى»، وبعثهم جميعا إلى عبد الله بن الزبير.

لقى رسل الشام عبد الله بن الزبير وبذلوا كل جهدهم ليأخذوا منه البيعة ليزيد، وعندما كانوا يلحون على أخذ البيعة منه، قال عبد الله بن الزبير مخاطبا نعمان بن بشير: من فينا أعلى مكانة بين قومه؟ أنا أم يزيد؟ والدى وعماتى وخالاتى أم والد يزيد وعماته وخالاته؟ وكان رد نعمان بن بشير: يا ابن الزبير إن والدك حضرة الزبير، ووالدتك ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر، وخالتك عائشة بنت الصديق، وعمة أبيك خديجة الكبرى، ومن هنا فمن جهة أقاربك وقبيلتك فأنت أعلى منزلة من يزيد، فقال له عبد الله: هل تستصوب بيعتى ليزيد وأنت تعرف كل هذا؟ فهل ترى أنه من المناسب أن أبايع يزيد؟ قال: لا أراه مناسبا وبهذا تمسك عبد الله بن الزبير برأيه ورفض البيعة ليزد رفضا باتا، وعاد رجال الشام خائبين. بينما كان رسل الشام فى طريقهم إلى بلادهم أخذ عبد الله بن الزبير بيعة أهل الحجاز وتهامة وضمهم فى صفه ما عدا «عبد الله بن عباس ومحمد بن أبى بكر» وطرد ولاة يزيد وموظفيه من حدود أرض الحرمين الميمونة.

(١) الطبرى ٥/ ٤٧٦، ٤٩٠.

اطلع يزيد على ما حدث وأراد أن يؤدب أهالى المدينة المنورة ومكة المكرمة، وأرسل جيشا تحت قيادة الخائن «مسلم بن عقبة المزنى» وزوده بتعليمات غير لائقة، إذ أمره أن يجرى مذبحة فى المدينة المنورة وينهب أموالهم، وبعد ذلك يتجه إلى مكة المكرمة حتى يقبض على ابن الزبير ولما كان مسلم عازما على تنفيذ أوامر سيده حرفيا تعلم من «عبد الملك» فن الدسائس والحيل وطبقه على أهل المدينة، وقتل منهم ستة آلاف أو أربعة آلاف بناء على قول آخر، ثم اتجه إلى مكة المكرمة وبعد مرور ثلاثة أيام من خروجه من المدينة ساء مزاجه ويئس من حياته.

استدعى بناء على الأمر الذى كان تلقاه من يزيد فى الشام «حصين بن نمير الكندى» وقال له: قد عينتك قائدا لهذا الجيش. يجب أن تصل إلى مكة وتعلن الحرب وتشعل نار القتال حتى تقبض على ابن الزبير. ولا تَقُلْ إن مكة بلد الله، كيف نحارب جيران بيت الله؟ بل من واجبنا أن نحترمهم ونرعاهم؟! بل بادر بنصب المجانيق على رءوس الجبال، وألق الحجارة على كعبة الله ناويًا تخريبها حتى تثير الفزع فى نفوس الناس وحاصرهم، وضيق عليهم سبل العيش، قال هذا وانحدرت روحه إلى جهنم وهلك عندما وصل إلى جبل مشلل.

حدثت وقعة المدينة المنورة المذكورة الأليمة سنة ٦٢ هجرية[١] الموافق ٢٨ من ذو الحجة وفى يوم الأربعاء، وكان عدد الذين نالوا ثواب الشهادة من أهل المدينة المهاجرين والأنصار ٧٠٠ شهيد وكان الباقى من التابعين والموالى.

قد تعرضت المدينة المنورة فى تلك الوقعة للنهب والسلب مدة ثلاثة أيام، وأكثر من ألف امرأة للاغتصاب على ما ينقله الرواة.

قد ذكرت بالتفصيل كيفية وقوع حادثة المدينة فى بحث وقعة الحرة وفى الصورة التاسعة من الوجهة الثالثة من مرآة المدينة فمن يرغب الاطلاع عليه الرجوع لهذا الكتاب.

(١) ويقول بعض المؤرخين أنها حدثت فى سنة ٦٤ هجرى.

قد نصب «حصين بن نمير» وفق الأوامر التى تلقاها من مسلم ـ الذى يناقض حقيقته اسمه ـ فى شهر المحرم من السنة المذكورة مجانيق فوق جبل أبى قبيس وجبل أحمر، وحاصر مكة أربعين يوما وقتل كثيرا من المسلمين وعذب أهل مكة، وضيق عليهم الخناق.

وفى هذه الفترة وصل خبر هلاك يزيد ـ الظاهر الشناعة ـ فاضطر حصين للعودة. دامت هذه الحرب والمحاصرة من اليوم الثالث والعشرين من شهر محرم إلى قرب غرة ربيع الآخر، واحترقت أستار الكعبة وسقفها وانشقت جدرانها وتحطمت من جراء النار التى سرت من الحجارة المحرقة التى انهالت عليها، كما احترق قرنا الكبش الذى أنزله الله من السماء لفداء إسماعيل، واللذان كانا معلقين على سطح الكعبة.

وقعت فاجعة احتراق الكعبة فى يوم السبت الثالث من ربيع الأول، إلا أن حصين بن نمير قد استمر فى الحرب إلى أن بلغه خبر وفاة يزيد. وقد عرف خبر وفاته بعد احتراق الكعبة بسبعة وعشرين يومًا. فترك مكة المكرمة فى ليلة الأحد اليوم الخامس من ربيع الآخر وقفل راجعا.

يروى أن هذا الحريق الهائل بدأ من احتراق خيمة، والمؤرخون الذين قبلوا هذه الرواية وضحوا الحادث بهذه الصورة: إن الشجعان الذين انضموا إلى عبد الله بن الزبير لجأوا إلى المسجد الحرام مأمن الإسلام، واحتموا بساحته ونصبوا خيامهم على جوانبه الأربعة، وكانت غايتهم من ذلك أن يحتموا بها كلما زادت حرارة الشمس وكلما ألقيت الحجارة من المجانيق.

وقد نصب حصين بن نمير المجانيق فوق جبل أبى قبيس وكذلك الجبل الأحمر، وكانت الحجارة الملفوفة بخرق مبللة بالزيت والملقاه على الكعبة لا تنقطع عن الانهمار.

قد داوم الشوام على إلقاء الأحجار إلى حد أن الأحجار التى أصابت البيت

الشريف مزقت كسوته إربا إربا، كما أن الأبنية المباركة تداعت وتهاوت وبدأت أحجارها تتساقط.

وفى يوم اشتدت برودته وعصفت رياحه تطايرت شرارة من نار إحدى الخيام فأحرقتها، وكانت الخيمة منصوبة بين باب الصفا والركن اليمانى، وانتقلت الشرارة إلى ستارة الكعبة الممزقة فأحرقتها، وانتقلت النار من الستارة إلى الأحزمة الخشبية التى تحيط بالكعبة فاحترقت، ومنها إلى حيطان الكعبة وتحول البيت إلى قطعة نار.

وبما أن البيت المعظم كان من المبانى المقدسة التى أقامتها قريش فكان قابلا للاحتراق؛ لأن القرشيين كانوا قد بنوا البيت من أساسه إلى سقفه جاعلين جدرانه طبقة من الحجارة وطبقة من حزام خشبى. وبينما كانت الأحزمة الخشبية لجدران الكعبة تحترق تحرك الحجر الأسود من مكانه فأراد عبد الله بن الزبير أن يثبته بإذابة فضة وصبها على جوانبه؛ إلا أن أركانه الأربعة كانت قد تكلست بشدة النار كما أن الركن الكائن فيه أصابه الوهن فلم يمكن عمل شىء.

وكانت جدران بيت الله حيثما يحط عليها الحمام تتفتت تحت تأثير سيقانه، مما حمل من يشاهده من المؤمنين على البكاء دما بدلا من الدموع، وفى النهاية مضت جماعة من القرشيين[١]. وبنى أمية إلى حصين بن نمير وأخبروه أن الحجارة التى رماها قد خربت الكعبة المعظمة؛ إلا أنه أنكر أن يكون قد خرب الكعبة، وفى هذا الوقت بلغه نعى يزيد فكف عن الحرب والحصار وسحب جنده وعاد إلى الشام.

(١) كان عبد الله بن خالد بن أسد القرشى منهم.

جمع عبد الله بن الزبير الأعيان وعظماء الناس من مكة عقب الحرب، وذكرهم بأنه يأمل أن يعالج ما تهدم من أبنية الكعبة ويجددها ـ كما ذكرهم بحديث بانى أركان الشريعة الرصينة عليه أكمل التحية إذ قال لعائشة ـ رضى الله عنها ـ «يا عائشة لو لم يكن قومك قريبى العهد بالجاهلية لهدمت أبنية بيت الله وجعلت للبيت بابين يفتح أحدهما على الشرق والآخر على الغرب، وأدخلت إلى بيت الله من الحجر مقدارا ما طوله ستة أذرع أى ثمانية أقدام» (حديث شريف) وبما أن مال قريش الحلال لم يكف لإدخال الحجر فى البناء عند ذلك الوقت تركوه خارج البيت، ثم قال لها تعال أريك الجزء الذى أبقوه خارج البيت ثم أخذها إلى تحت الميزاب وقال: هذا هو المكان وأشار إلى مكان حجر إسماعيل ما مقداره سبعة أذرع أى ٩ أقدام و١١ بوصة، ثم قال عبد الله للمجتمعين إنما أردت أن أبين لكم أن النبى ـ ﷺ ـ أجاز تجديد الكعبة، وفى نفس الوقت أردت أن أبحث الموضوع معكم و أستشيركم. وكلكم تعرفون أن الحجر الأسود(١) قد تحطم من أثر ضربة بحجارة حصين النارية وألصق بالفضة المذابة، كما أخذت حجارة جدران كعبة الله تتساقط من جميع الجهات.

وبهذه الكلمات البليغة ابتدأ عبد الله باستفسار رأى عظماء الحاضرين ثم أخرج الحجر الأسود من مكانه ووضعه فى صندوق بعد أن لفه فى قطعة من الديباج، وأغلق الصندوق بقفل وحفظه فى دار الندوة، كما أمر أن تحفظ الهدايا الموجودة فى خزانة الكعبة فى دار شيبة بن عثمان.

(١) تحطم الحجر الأسود ثلاث قطع، أخذ بنو شيبان قطعة ليحفظوها عندهم ثم استردها عبد الله منهم، وألصقها بالقطعتين الأخريين ثم عالج أطراف الحجارة بمادة تشبه الجبس ليحافظ على تماسكها هى والقطعة الثالثة التى ألصقت فى الجهة العليا من الحجر الأسود الآن.

اجتمع أعيان الأشراف و وجهاءهم عند ابن الزبير ووافق بعضهم(١) رأيه وخالفه البعض الآخر(٢)، غير أن ابن الزبير لم يلق بالا إلى رأى المخالفين، واستقر رأيه على تنفيذ ما فى ضميره.

وخاف أهالى مكة من هدم كعبة الله وهربوا إلى قمم الجبال، وأظهر عمال البناء استياءهم من هدم الكعبة بالتراخى فى العمل. ولما رأى عبد الله بن الزبير ذلك جعل بعض عبيده الحبشيين ذوى السيقان الرفيعة يصعدون فوق الكعبة مبطلا الحكم الحديث الذى يحفظه عن النبى - ﷺ - «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة».

وبدأ فى هدم البناء يوم السبت الخامس عشر من جمادى الآخر من السنة المذكورة، وأراد أن يحضر من اليمن نوعا من المادة المستخرجة من الزعفران ليخلطها بالمونة اللازمة لبناء البيت، ولكن بناء على اعتراض بعض أهل التخصص بأن هذه المادة تحول دون تحجر المونة انصرف عنها، واستحضر من صنعاء اليمن كلس بأربعمائة دينار. وحتى لا يمنع الطائفين من الطواف فى أثناء عمليات البناء. وبناء على إخطار عبد الله بن عباس أحاط البيت بسور خشبى، وغطى السور بستارة من القماش وهدم أبنية البيت حتى وصل إلى أساس إبراهيم القديم، وكان قد حفظ الحجر الأسود بعد أن وضعه فى صندوق فى دار الندوة.

وشرع فى بناء جدران الكعبة وفق ما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر أعلاه على أسس بناء إبراهيم - عليه السلام -، الذى عثر عليه وأدخل حجر إسماعيل داخل كعبة الله دون أن يراعى قواعد قريش فى البناء، وفتح بابا عرضه ثلاثة أذرع أى ٤ أقدام و١١ بوصة فى الجهة الغربية أيضا بلغ ارتفاع الجدران إلى ثمانية وعشرين ذراعا أى ٣٨ قدم و٣ بوصات، وجعل سمك الجدران ذراعين

(١) من الأصحاب الكرام الذين وافقوا على تجديد البيت جابر بن عبد الله بن عبد آلله بن عمير وعبد الله بن صفوان.

(٢) وكان عبد الله بن عباس موافقًا على فكرة تجديد البناء؛ إلا أنه خالف عبد الله بن الزبير فى الرأى حتى لا يتخذ الملوك هدم البيت وبنائه عادة لهم.

أى قدمين وعشر بوصات. إن ارتفاع الكعبة التى بناها إبراهيم ـ عليه السلام ـ يصل لستة أذرع وارتفاع كعبة قريش (١٨) ذراعا، حتى قال ابن الزبير إن قريش أضافت (٩) أذرع على ارتفاع كعبة إبراهيم ـ عليه السلام ـ، وإن أضفت (٩) أذرع على بنائهم فأصبح ارتفاع الكعبة (٢٧) ذراعا.

قد فرش ابن الزبير عشرة أذرع من الساحة التى حول المطاف بالحجارة التى بقيت من بناء الكعبة، وزين الكعبة الشريفة بتعليق كسوة مزينة، وطيب خارج الكعبة وداخلها بالعود والعنبر والمسك وبخرها كما غطى العمودين المسميان بالحنان والمنان بصفائح من الذهب، كما صنع مفتاحًا من الذهب لباب كعبة الله المسمى بالمعلا سنة ٦٤هـ.

عندما حفر الأسس التى لم تندرس إلى عهد سيدنا إبراهيم، وعمّق ظهر فى الحفر حجارة لامعة وأراد أن يستخرج هذه الحجارة وضرب ضربة شديدة بفأس، وعند ذلك اهتزت أركان الكعبة الأربعة من أثر الضربة واستولى قلق على أهل مكة وندم الذين وافقوا عبد الله بن الزبير فى تجديد الكعبة.

ولم يتأثر عبد الله بن الزبير من قلق الناس قيد أنملة، واستدعى عبد الله[١] الصحابة الأجلاء وأراهم قواعد إبراهيم ثم أمر بطرح الأساس، وأنزل عتبة الباب الشرقى حتى أرض المطاف كما أنزل عتبة باب المعلا الجديد فى الناحية الغربية حتى الحجر الأخضر المتصل بالفسقية الكائنة فى الجهة الغربية.

وكان الحجر الأسود قد ظل فى الحريق الذى حدث فى عهد قريش، وتجزأ وظل أحد أجزائه محفوظا عند أحد الأشخاص من بنى شيبة، وعندما أراد عبد الله بن الزبير أن يضع الحجر الأسود فى الصندوق أخذ الجزء الذى عند ذلك الشخص وألصقه بالحجر الأسود مستخدما الفضة[٢] ثم حفظه، وعندما أراد أن

(١) كان عبد الله بالطبع من بين الموجودين وحينما اخذ فأسا وضرب الحجارة اللامعة اهتزت أركان الكعبة الأربعة كما اهتزت أسس محلات مكة المكرمة ومنازلها.

(٢) حينما حج هارون الرشيد رأى أن الفضة المذكورة قد وهت؛ لذلك أمر أن يثقب الحجر من فوقه وتحته، وصب فى الثقب فضة مذابة وهكذا قوى الحجر.

يضعه فى مكانه الذى فى بيت العزة استدعى ابنه عباد وجبير بن شيبة بن عثمان، وقال لهما بينما أنا أصلى صلاة الظهر اذهبا إلى دار الندوة وخذا الحجر الأسود منها وضعاه فى مكانه، وكبرا بعد أن تستراه قال هذا وأم الناس ليصلى صلاة الظهر.

قد تشاور عباد وجبير بن شيبة بن عثمان ثم وضعا الحجر الأسود على طرفى الستارة الخشبية الكائنة بين كعبة الله ودار الندوة، وأحاط بهم الناس من الطرفين ثم وضع الحجر الأسود على ثوب طاهر فى شكل ظاهر، ومرا من بين الناس ووضعا الحجر الأسود فى مكانه وغطاه، ثم كبرا مبشرين باستقرار الحجر فى مكانه. وقد وضع الحجر الشريف فى مكانه حضرة عباد، وساعده فى ذلك جبير بن شيبة.

وقال عظماء قريش بعد أن فرغوا من أداء الصلاة، وقد عرفوا أن الحجر الأسود قد وضع مكانه إن قريشا عندما أرادت أن تضع الحجر الأسود فى مكانه تنازعت عدة أيام، وكادت تدخل مع بعضها البعض فى الحرب والقتال بعدما استمر القيل و القال فيما بينها عدة أيام فأتى الرسول ـ ﷺ ـ، وحسم النزاع بعون رؤساء القبائل الأربعة؛ وهل من اللائق ألا يتبع عبد الله بن الزبير هذه الطريقة ويرعاها؟! وقد أرادوا بهذا أن يثيروا الفتنة بين سكان مكة إلا أنهم لم يجدوا من يقف بجانبهم فاضطرو للسكوت.

وقد تم تجديد البيت فى يوم الثلاثاء فى الثالث من شهر رجب أو السابع والعشرين منه من العام الرابع والستين من الهجرة، وعندما انتهى العمل تماما فى البيت ذهب عبد الله بن الزبير مع جميع أهل مكة إلى التنعيم لأداء العمرة، ونحر مائة رأس من الجمال كذلك ذبح كل واحد منهم ما معه من قرابين كل على حسب قدرته وهكذا جعل اليوم مبتهجا كالعيد.

وتعرف هذه العمرة بعمرة الأكمة أو العمرة الرجبية بين أهالى مكة، وكان

المكيون إلى وقت قريب يذهبون إلى التنعيم بنية العمرة ويذبحون القرابين، ويظلون فى المشهد[1] عدة ليال يفرحون ويبتهجون. وفى وقتنا هذا أيضا يذهب الناس إلى تلك الجهات للاحتفال إلا أنهم لا يسمونه العمرة الرجبية. وليس الآن من العادة أن يخرج للعمرة وتذبح القرابين فى اليوم السابع والعشرين من رجب.

وفى الواقع يخرج الناس إلى ذلك المكان فى كل عام للتمشية والاحتفال إلا أنه يحدث فى الأيام الأخيرة من شهر صفر الخير، وإن هذه الاحتفالات ذات شهرة وبهجة إلا أن الأهالى يذهبون إلى مكان يسمى سرف حيث دفنت زوجة النبى - ﷺ - ميمونة - رضى الله عنها -، ويقومون بأداء مراسم الزيارة لقبرها ويقضون هناك ما يقرب من ليلتين ثم يعودون إلى أرض الصحراء الزاهرة[2]، ويمضون فيها فترة من الزمن وأن هذا الاحتفال بمثابة عمرة الأكمة.

* * *

(١) هذا المكان هو المقبرة التى دفن فيها عبد الله بن عمر وهو فى طريق العمرة.
(٢) بناء على رواية أن عبد الله بن عمر مدفون فى هذا المكان، وقبره مزار للناس.

في تجديد مباني الكعبة المقدسة للمرة العاشرة

جدد الحجاج الظالم البيت الشريف للمرة العاشرة أيضًا. أنه لم يلمس الجدران الأربعة كلها، ولكنه جدد الجدار الكائن في جهة الميزاب تاركا حجر إسماعيل خارج الكعبة، وملأ الكعبة بالتراب المتبقي من البناء وأعلى باب الكعبة عن الأرض، وأغلق الباب الذي فتحه عبد الله بن الزبير في الجهة الغربية بناء على ما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره. وكان سبب ذلك عبد الملك بن مروان الذي كان يريد أن يحمل عبد الله بن الزبير على بيعته.

وقد وقعت هذه الحادثة بعد واقعة حصين بن نمير بعشر سنوات؛ لأن عبد الملك الذي كان يحكم في بلاد الشام ويريد أن يجدد وسيلة للحصول على بيعة عبد الله بن الزبير، لذا بعث حجاج بن يوسف الثقفي إلى أراضي الحجاز الطاهرة ومعه ثلاثة آلاف من جنود الشام، وأمره ألا يؤذي المذكور وأتباعه إذا ما بايعه بالخلافة.

وقد حاصر الحجاج بمن تحت قيادته السوداء من جنود الحقد كعبة الله ما يقرب من سبعة أشهر، وأخذ يتبع مع ابن الزبير ألاعيب الحرب والقتال وقد أضر في أثناء هذه المدة الطويلة بيت الله الحرام وأصابه، وفي النهاية قتل ابن الزبير وترك جسده الأسعد مصلوبا منتظرا الأوامر من الشام.

وكان من المستحيل أن ينتصر الحجاج على عبد الله بن الزبير إذا لم يصله مدد من الشام؛ لأن الشهيد كان قد عرف أن الحجاج الظالم قد خرج من الشام، وأنه قد نصب له الخيام في الطائف لإيواء جنوده لذلك ساق إليهم مقدارا كافيا من الجنود من الشجعان وحاربهم؛ ولكنه عاد منهزما وقد عجز عن المقاومة.

وإن كانت الهزيمة في الظاهر في ناحية عبد الله بن الزبير؛ إلا أن جنود الشام

أيضا قد تضرروا ضررا شديدا، وفهم جيدا أن عودة عبد الله بن الزبير بمدد قليل من الجنود سيؤدي إلى انتصارهم لذا كتب الحجاج إلى عبد الملك ينبئه بأنه قد انتصر على عبد الله بن الزبير، إلا أن عساكره أيضا قد ضعفوا أشد الضعف وطلب منه أن يبعث له بمدد حتى ينتصر على عبد الله، فما كان من عبد الملك إلا ابتدأ بإرسال المدد.

واستصحب الحجاج القوة الاحتياطي التي أرسلت له من الشام، وعجل بحصار مكة المكرمة قبل أن يجمع ابن الزبير القوة اللازمة.

وانتوى ألا يقارب النساء وألا يتعطر وألا يترك السلاح قبل أن يقتل عبد الله ابن الزبير، وبناء على هذه النية نصب المنجنيق فوق قمم جبل أبى قبيس في السنة الثانية والسبعين من الهجرة، وضيق على أهل مكة الخناق حتى أصبح من المستحيل الدخول إلى أرض المطاف من جراء تساقط الأحجار.

وقد وجد في هذه الفترة عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ في مكة المكرمة بنية الحج وقد تأثر من هذه الحرب أشد التأثر، وأرسل إلى الحجاج الظالم يقول له: «يا حجاج إذا كنت تخاف من الله، فلا تلق الحجارة على المسجد الحرام. إن موسم الحج من الشهور المحرمة، قد اندهش الصلحاء من الأمة الذين أتوا لأداء فريضة الحج من هذه الوقعة، وقد أصبح من المستحيل الدخول إلى ساحة المطاف من جراء الحجارة التي تلقيها، على الأقل اترك الحرب والقتال إلى ما بعد العيد حتى يسقط عن الناس فريضة الحج»، وبناء على هذا الطلب كف الحجاج عن الحرب والقتال، وأرجأهما إلى ما بعد انتهاء الحجاج من أداء نسكهم، وطلب من الحجاج أن يعودوا إلى بلادهم في الوقت الذي حدده، ثم شرع في الحرب مرة أخرى. وأهان كعبة الله بما أمطر عليها من الحجارة.

حادثة غريبة:

بينما ابتدر الحجاج الغادر في إلقاء الحجارة على الساحة السعيدة الحرام ظهرت على وجه السماء سحابة سوداء مظلمة، وقد غطى الأقطار الحجازية ظلام دامس

وسمعت أصوات الرعد والبرق، واستولى على قلوب المخالفين الخوف والخشية.

وحينما رأى حشرات الأعداء هذه العلامات المخيفة تركوا ميدان القتال وأخذوا يبحثون عن مكان يختبئون فيه. ولكن الحجاج المهين للدين خاطب جنوده قائلا: ما الدافع لخوفكم وقلقكم؟ حتى هرب كل واحد منكم إلى جهة إذا كنتم خفتم من أصوات الرعد والبرق فإن هذه ليست أشياء تدعو للقلق والخوف، إنني نَمَوْتُ في هذه البلاد ولا تنقطع الصواعق والبرق منها، قال هذا ثم ذهب بنفسه إلى المنجنيق وتجرأ على أن يلقي الحجارة صوب كعبة الله من البقعة المقدسة.

وينقل من المصادر الموثوقة أنه حينما أخذت أستار كعبة الله تحترق متوهجة من جراء الأحجار المحترقة التي أمر الحجاج بإلقائها على الكعبة الشريفة، ظهرت سحابة من ناحية جدة ذات صواعق، وبروق أخافت جند الشام، وتقدمت هذه السحابة حتى وقفت فوق سقف بيت الله وأخذت تمطر بشدة حتى أطفأت أماكن كعبة الله المحترقة. إن السحابة المذكورة كانت فوق سقف بيت الله فقط، ولم تقع قطرة من المطر خارج المسجد الحرام وخارج المطاف، ومع هذا سالت سيول شديدة من الميزاب الذهبي ساعات وساعات، سيول قد تجرف الإنسان.

وفي أثناء ذلك أصابت الصاعقة المنجنيق الذي نصبه الحجاج الظالم فوق جبل أبي قبيس وأحرقته مع أربعة من جنود الشام، فأعد الحجاج منجنيقا آخر وكلف أربعين نفرا من الجنود بإلقاء الحجر وكان جزاؤهم أن أحرقتهم الصاعقة الثانية فهبطت أرواحهم إلى جهنم وبئس القرار.

وهذا الحال لم يجعل الحجاج ينتبه ويندم على كل ما حدث بل ثار وغضب وهدد جنوده وبهذا اشتد القتال ونسى جنود الشام ما حدث.

وبعد هذه الحادثة الغريبة أصيب اثنا عشر نفرا من جنود الشام وهلكوا. وسفاكو الدماء الذين رأوا هذا انزعجوا بشدة، وأخذ جنود الشام يهربون من

جانب المنجنيق وقد أصابهم الفزع، إلا أن موت بعض أهل مكة بالصواعق أيضا أعطى فرصة للحجاج الظالم أن يخاطب جنوده. قائلا: الحق معكم وليس مع أهل مكة إن العلامات المهيبة الخاصة بأراضي الحجاز زالت فاصبروا قليلا.

وقد أدى خطاب الحجاج هذا إلى اشتداد القتال، ومد الصراع وزاد القحط والغلاء في مكة مما جعل المكيين يسأمون من أرواحهم، فالتجأ أغلبهم إلى الحجاج طالبين الأمان وترك بعضهم عبد الله بن الزبير متجهين إلى المدينة المنورة.

ولم يكن أهل مكة فقط ممن تخلوا عن عبد الله بن الزبير في محنته، ولكن ابنيه حمزة وحبيب وهما من صلبه تخليا عنه، ولجأ كلاهما إلى السفاح الحجاج مبايعين وتركا والدهما بمفرده؛ ولكن ابنه المسمى بالزبير ظل في عون أبيه ولم يفترق عنه.

وذهب عبد الله بن الزبير إلى أمه إذ رأى أصحابه قد افترقوا من حوله كفرخ الحجل، وقابل والدته ذات النطاقين وقال لها: يا أماه إن أتباعي الذين كانونا معي خانوني كما خان أهالى الكوفة أتباع الحسين بن على - رضي الله عنه - سيدهم. ومع هذا ظل أولاده بجانبه، ولكن أولادي قد خانوني إذ انضموا إلى الحجاج مبايعين وتركوني بمفردي، إن ذلك الظالم الذي لا يستحيي يبعث لي رسائل واحدة تلو أخرى قائلا: إذا تركت مخالفتي أقبل جميع مطالبك.

فما رأيك في هذا الخصوص فقالت له: يا بني لا يليق بك بعد كل هذه الحروب أن تسلم نفسك إلى يدي بني أمية. إنك رجل مسن، كم سيطول عمرك؟ وخير لك أن تستشهد ببطولة من أن تعيش في صحراء المذلة والاحتقار، فلما سمع منها هذا الرد ودعها، وقضى ليله حتى الصباح في داخل الكعبة متعبدا متضرعا وبعدما أدى صلاة الفجر أخذ معه بعض الفتيان الذين قرب أجلهم، وأخذيقاتل ويهلك في كل هجمة عدو الله وهكذا أخرج جند الشام الموجودين في داخل المسجد الحرام ثم خرج من باب الصفا واتجه صوب جبل أبي قبيس.

وبينما كان عبد الله متجها إلى جبل أبي قبيس تبعه أحد أنجاس الشام، ورماه بيده الحقيرة بحجارة وأوقع ذلك البطل أسد الوغى على الأرض، كما تقدم أحد الأنجاس المنكرين وقطع تاج الرءوس ومضى به إلى الحجاج الظالم.

قد سر الحجاج قليل الأدب أيما سرور وسجد شاكرا حامدا وكله فخر وسرور ثم أرسل رأسه الشريف مع رءوس الرؤساء الآخرين من أهل مكة، وصلب جثته الموعودة بالغفران، وأمر ألا تنزل حتى ترجو ذلك أمه أسماء ذات النطاقين.

حينما سمعت ذات النطاقين ذلك الأمر قررت ألا تذل نفسها برجاء الحجاج، ولكنها مرت بالصدفة من جانب المكان الذي كان مصلوبا فيه، وقالت أما آن لهذا الفارس أن يترجل!؟ وعند ما سمع الحجاج السفاح هذا القول أوله بالرجاء، وأمر أن تنزل جثة الشهيد المظلوم من مصلبها. ودفنت في مقبرة الحجون صنوان الجنة في جمال منظرها.

ويقول بعض المؤرخين إذ يروون هذا الخبر بشكل آخر. إن أم الزبير ذات النطاقين لم تتذلل إلى الحجاج طالبة منه إنزال ابنها من مصلبه، وكذلك لم تقل أما آن لهذا الفارس أن يترجل. وقد أنزلت جثة عبد الله من مصلبه بأمر وارد من عبد الملك. وكان عبد الملك يعرف مدى عداوة الحجاج لابن الزبير وقد بلغه أن الحجاج يصر على إبقاء جثة عبد الله على المصلب؛ لذا بعث برسول إلى الحجاج يأمره أمرًا قاطعًا بإنزال جثة الشهيد، وقد أنزلت جثته بعد أربعين يوما من تاريخ صلبها، وسلمت إلى أمه ذات النطاقين التي ابتدرت بتجهيزها وتكفينها ودفنت في مقبرة المعلا. وبناء على هذا قد مضي أربعون يوما بين استشهاد ابن الزبير ودفنه، وظلت جثته مصلوبة أربعين ويومًا.

قد كبر جموع جند الشام حينما بلغهم استشهاد عبد الله بن الزبير من فم واحد، مظهرين فرحهم وسرورهم، وحينما بلغ الخبر إلى أسماء ذات النطاقين التي كانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها، قالت بعد ما استرجعت الآية الجليلة: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٥٦) ما هذه الحال؟! وما أعجبه؟! إذا كان

الصحابة الكرام قد كبروا عند ولادة عبد الله، وفي يوم وفاته أظهر أعداؤه ذوي الخاتمة السوداء فرحهم وسرورهم مكبرين.

وقد أظهر عبد الله بن عمر عجبه وقال مشيرا إلى جند الشام: إنني أتعجب من هؤلاء الناس. إذ يكبرون فرحين مسرورين من فم واحد بمقتل عبد الله بن الزبير، بينما كان الصحابة الكرام قد كبروا وهللوا فرحين بولادته.

إن تعجب عبد الله بن عمر في مكانه، لأن عبد الله بن الزبير كان قد ولد بعد الهجرة النبوية بعشرين شهرا، وكان اليهود يقولون: إننا قد سحرنا المسلمين فإنهم لن ينجبوا ذكورا بعد الآن، وكان هدفهم من هذا تصديع صف المسلمين وإيذاءهم، فلما ولد عبد الله بن الزبير فرح المهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم ـ واحتفلوا بولادته أيما احتفال وهكذا خاب اليهود وانزعجوا.

استدعى الحجاج عقب استشهاد عبد الله بن الزبير أمه ذات النطاقين، ولما لم تذهب إليه زارها في بيتها وقال لها: كيف وجدتني وقد قتلت ابنك عبد الله؟! قالت له: «إنك قد أفسدت لابني دنياه وأفسدت لنفسك آخرتك. وكان الرسول الأكرم ـ ﷺ ـ قد أخبرنا بظهور كذاب ومهلك في بني ثقيف، وقد عرفنا الكذاب وهو المختار الثقفي أما المهلك فهو أنت».

ترجمة حال ابن الزبير:

عبد الله بن الزبير(١) هو حفيد العوام أخو السيدة «خديجة بنت خويلد» ـ رضي الله عنها ـ زوج النبي ـ ﷺ ـ أم المسلمين، وابن «أسماء بنت أبي بكر» الصديق ـ رضي الله عنه ـ هو وأبوه من زمرة صحابة الرسول ـ ﷺ ـ السعداء وعندما ولد افتتح حياته بريق النبي ـ ﷺ ـ الذي يبعث الحياة وسمي باسم عبد الله المبارك الذي يشرف الناس.

وكان طيلة عمره حريصا على إحياء لياليه بالعبادة، وكان متصفا بالزهد والتقوى والعفة والشجاعة وعزة النفس والشهامة، وكان قد قسم ليالي عمره إلى ثلاثة أقسام: إذ حصر ليلة من لياليه للقيام والأخرى للركوع والثالثة للسجود.

(١) انظر ترجمته في الإصابة ٤/ ٦٩ ـ ٧١، المعارف (٢٢٤ ـ ٢٢٦)، تاريخ الطبرى ٥/ ٦٢٢، ٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥، ١٨٧ ـ ١٩٣، وغيرها..

وقال ابن أبي مليكة يصف صلابة عبد الله بن الزبير في دينه:ـ بينما كان عبد الله بن الزبير يؤدي الصلاة ـ في يوم من أيام المحاصرة إذ مر حجر من بين لحيته المباركة وصدره إلا أنه لم يستمر فقط في صلاته ولكنه لم يتأثر أدنى تأثر في مراعاة التعديل في ركوعه وسجوده في خشوع وخضوع، وأدى صلاته دون أن يستعجل كما كان يؤديها في الأوقات العادية. ثم استمر في قوله قائلا: إنني أقسم بما أن جلد ابن الزبير اختلط بلحمه، كما أن لحمه امتزج بأعصابه، وأن أعصابه قد تألفت بعظامه كان قوي البنية، كما أن نفسه وروحه بين جنبيه اختلطتا بأعضاء جسمه فكان قوي القلب، وخلاصة القول إنه كان شخصا نادر المثال في الشجاعة وقد روى عن النبي ـ ﷺ ـ اثنين وثلاثين حديثا ونال شرف أن يكون رديف النبي ـ ﷺ ـ في مطيته.

قد طهر الحجاج القذر ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الإلهية ـ بعدما قتل عبد الله بن الزبير ـ من الحجارة التي ألقاها ومن الدماء التى أسالها، وكتب إلى عبد الملك يخبره أن عبد الله بن الزبير قد بنى الكعبة مغايرًا لبناء قريش، وفضلا عن ذلك فتح بابا زائدا في الجهة الغربية من الكعبة.

ومن هنا وجب علينا أن نغير أساس البقعة المقدسة. وقد تلقى ردا من عبد الملك[١] وبناء على تعليماته قد هدم الجدار الموجود في الناحية الشامية، وترك في ناحية حجر إسماعيل ما مقداره ستة أذرع إلى تسعة أقدام وإحدي عشرة بوصة خارج البيت، وسد الباب الموجود في الجهة الغربية وجدد الجدار الذي هدمه في الجهة الشامية وفق ما بنته قريش. إن المكان الذي تركه الحجاج خارج البيت هو ما يطلق عليه اليوم حجر إسماعيل، وكانت قريش تترك حجر إسماعيل خارج البيت لأنهم كانوا يعانون من أزمة مالية في ذلك الوقت إلا أنهم كانوا قد بنوا حوله جدارا مستديرا[٢] في ارتفاع ذراعين أي قدمان وعشر بوصات.

وقد أراد عبد الله بن الزبير أن يبني الكعبة عند تجديدها وفق الحديث الذي

(١) الطبري ٦/ ١٩٥

(٢) يطلق على هذا الحائط الآن الحطيم.

ذكرناه فيما قبل، وأعادها على أسس إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولقد بذل في سبيل ذلك نقوداً كثيرة.

ولكن الحجاج بإعادته الكعبة على حالتها القديمة كما بنتها قريش بسد بابها الغربى أسرع بإعلان ما كان يكن لعبد الله بن الزبير من عداء.

مطالعة:

قد نتج عن تغيير عبد الملك لأسس كعبة الله بدون أن تكون هناك ضرورة لذلك بإشعار من الحجاج الظالم وأعوانه زوال سلطنة أمراء بني أمية، وظهور قوة بني عباس بن عبد المطلب وإشراق شمس دولتهم، وهكذا تبدلت أصول الخلافة من الإمارة المعصومة وأفل وانخسف بدر الحكومة الأموية، وانتقلت مقاليد أمور المسلمين إلى آل عباس فيما بعد. إن أول خلفاء بغداد أبو العباس السفاح بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس وآخرهم المستعصم بالله عبد الله بن المستنصر بالله منصور بن الظاهر وهم من سلالة العباس بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ.

قد اعتلى عبد الله السفاح كرسي الخلافة في سنة اثنين ومائة الهجرية وفى شهر ربيع الأول وبعد ٥٢٤ سنة استولى هولاكو على بغداد وقتل المستعصم وبهذا بلغت الخلافة العباسية منتهاها في سنة ٦٥٦ الهجرية.

ونقلت الخلافة العباسية بعد قتل المستعصم وفي عهده إلى القاهرة بمصر فقد بايع المصريون في عهد صلاح الدين الأيوبي بموافقة العلماء الناصر لدين الله العباسي خليفة.

وقد حكم في بغداد مع عبد الله سبعة وثلاثون خليفة ومع الذين حكموا في مصر بلغ عددهم ثمانية وأربعين خليفة إلى انقراضهم. وبعد بلوغ خلافة العباسيين في مصر إلى ٢٦٤ سنة، وفي سنة ٩٢١ الهجرية سلم الخليفة العباسى عبد الرحيم الأمانات النبوية السنية التي كانت شعار الخليفة ومنصب

الخلافة الخطير إلى السلطان سليم خان، وابتداء من هذا التاريخ أطلق على سلاطين آل عثمان العدول لقب الخليفة.

تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والملكة بالإجمال

الخلافة فريضة دينية خطيرة وأمر شرعي واجب، تقوم برعاية أعمال المسلمين الدينية والدنيوية وتسوية احتياجاتهم المادية والمعنوية. والخلافة منحصرة في الأشخاص الذين بويعوا بإجماع الأمة بعد الأنبياء العظام ـ على رسولنا وعليهم الصلاة والسلام ـ. وبما أن الخلافة رئاسة عليا وجامعة لأمور الدين والدنيا فهي أعلى المناصب وأعظمها التي يختص بها الملوك والسلاطين.

قد أطلق على الصديق الأكبر ـ رضي الله عنه ـ خليفة رسول الله، كما أطلق على الفاروق الأعظم ـ رضي الله عنه ـ خليفة خليفة رسول الله، ثم أطلق عليه أمير المؤمنين(١) تخلصا من تتابع الإضافات الثقيلة.

إن الصحابي الجليل أبو موسى الأشعر هو أول من خاطب الفاروق عمر بلقب أمير المؤمنين: أو مغيرة بن شعبة أو عمرو بن العاص(٢).

إن الخلفاء العباسيين الذين تولوا عرش الخلافة في بغداد جنة الخلد قد اتخذوا ألقابا مثل المنصور والمهدي والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمعتز و المعتضد والمتقدر، وكان غرضهم من ذلك تقليد الصحابة الكرام الذين لقبوا بالصديق والفاروق والمرتضى، كما أريد به ألا يذكروا بين الناس بأسمائهم كثيرا.

---

(١) كان أحد الرسل المبشرين بالنصر سببا في إطلاق لقب أمير المؤمنين على عمر بن الخطاب؛ إذ بعث إليه أحد قواده بعد انتصاره في إحدى المعارك رسولا يبشره بالنصر، ويعرض عليه الأمور فلما جاء الرسول أخذ يسأل الناس قائلا: أين أمير المؤمنين فاستحسن الصحابة الكرام هذا اللقب وأخذوا يخاطبون به الخليفة.

(٢) يروى أن هذا اللقب قد أعطى لعبد الله بن جحش المجدع بالله من قبل رسول الله ـ ﷺ ـ حينما بعثه إلى مكان معين في مهمة خاصة.

كما اتخذ العبيديون والموحدون وخلفاء بنى أمية الذين حكموا فى الأندلس ألقابا خاصة مقلدين خلفاء بنى عباس، إلا أن هذه الألقاب قد دعت الناس للنفرة منهم كما تبين ذلك هذه الأبيات التى أنشدها ابن رشيق القيروانى:

ومما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالمهر يحكى انتفاضًا صولة الأسد

بما أن الخلفاء العباسيين من السلالة الطاهرة القرشية فصحة خلافتهم محققة، كما أن الخلفاء العثمانيين ـ أيدهم الله تعالى ـ بالتأييدات الربانية يسيرون وفق سيرة الخلفاء الراشدين الحسنة، وبما أن كل همهم المحافظة على الأحكام الشرعية وينتمون إلى أهل السنة فهم أحق من جميع الملوك الآخرين بالاتصاف بلقب الخليفة.

السلطان: لقب أقل رتبة من الخلافة الجليلة وله معنيان: لغوىٌّ، واصطلاحىٌّ.

فمعناه اللغوى: تسوية الأمور المتعلقة بالخلافة والحكم بصورة الاستبداد.

وأما معناه الاصطلاحى: فأن يصبح الإنسان صاحب ملك أو إدارة أمور الدولة بقطع النظر عن الخلافة.

وعلى هذا التقدير يصح أن يطلق على الخليفة سلطانا ولكن ليس كل سلطان خليفة.

قد أطلق لقب السلطان على جعفر بن يحيى البرمكى وإشنان التركى وكان خلفاء الدولة العباسية وملوك الفرنجة والأيوبيون يطلقون على الأمراء والملوك الذين يعينونهم لقب السلطان. كما كانوا يطلقون عليهم ألقابا خاصة مثل: أمين الدولة، أمير المسلمين، أمين الملة.

يجب على من يريد أن يكون سلطانا أن يكون تحت تصرفه وإدارته إقليمٌ كبيرٌ، **والملك** ـ لقب أقل درجة وأدنى من السلطان،

الأمير. يطلق هذا الاسم فى اللغة التركية باللهجة الجغتائية على خاقان وفى الفارسية على شاهنشاه أى ملك الملوك.

الخان، الشاه، الميرزا ألقاب خاصة بالملوك والسلاطين العثمانيين يحملون جميع هذه الألقاب.

وقد أخذ سلاطين العثمانيين لقبى خان وخاقان عند ظهور دولتهم من الملوك الأتراك الذين أخذت دولتهم تنقرض وأخذوا لقب السلطان من سلاطين الدول الإسلامية السابقة لعهدهم حتى أن السلطان بايزيد خان قد جعل الخليفة العباسى بمصر المتوكل بالله العباسى يعترف بسلطنته.

شاهنشاه. لقب خاص بملوك الدولة الصفوية والأذربيجانية إلا أنه انتقل إلى السلاطين العثمانيين بعد انتصار السلطان سليم على الصفويين فى سنة ٩٢١هـ وبما أن السلاطين العثمانيين قد حملوا لقب الخليفة أيضًا كان نصيب ملوك خوارزم وبخارى وبهوبال وعزلهم يتم بأمر السلاطين العثمانيين وإدارتهم.

حكام أوربا:

يستعمل الأوربيون لقب **إمبراطور** بدلا من لقب السلطان ولقب **الملك** مكان خان وشاه، لقب **دوق** بدلا من بك،

ميرزا تعنى أمير.

وبما أن لقب إمبراطور لم يكن مستعملا فى الأول كان يطلق على حكام أوربا لقب الملك.

وقد استبدَّ الملوك برعاياهم وزاد ظلمهم لهم شيئا فشيئا حتى تجاوز حد الصبر والتحمل فثار الناس وبدلوا الحكم الاستبدادى المطلق إلى الجمهورية واختاروا شخصا يطلق عليه **قيصر** واتخذوه رئيسا لهم.

وتعهد قيصر برضا الأهالى ورأيهم أن يقوم بإدارة الأمور العسكرية والمدنية

وكشف قيصر ما فى ضميره إذ طلب بعض الامتيازات إلا أنه لم ينل غرضه بهذه الطريقة فاتفق مع فرقة عسكرية واستولى عنوة على بلدة روما الكبيرة فى سنة ٤٩ قبل الميلاد واتخذ لنفسه لقب إمبراطور الذى يعنى القائد وانتصر على جميع معارضيه من أصحاب المناصب العالية، وهكذا استقل وحصل على الامتيازات التى كان يطالب بها وسك عملة خاصة به ومنذ ذلك العهد يطلق إمبراطور على جميع الملوك والحكام الذين يوسعون ملكهم ويزيدون قوتهم.

* * *

فى ذكر كيفية تعمير أركان بيت الله وتشييده

بعد تجديد الحَجَّاج للكعبة المقدسة لم يُسْمَحْ شرعا إلى سنة ١٠٢٠هـ بتجديد الكعبة حتى لا تكون ألعوبة فى يد الملوك، إلا أن سقف البيت الشريف العالى وأركانه مالت إلى السقوط بعد هذه الفترة الطويلة وظهر ما يدل على أنها قد أوشكت على الانهيار إذا لم تتخذ وسائل لمعالجتها.

وبناء على ذلك أخذ أهالى مكة يبحثون عن وسيلة لمعالجة الأمر فقرروا بالاتفاق مع أمير مكة الشريف إدريس والأعيان والوجهاء أن يعرضوا الموضوع على العتبة السلطانية راجين منه أن ينظر لهذا الموضوع سريعا.

وقد أهم وأقلق الطلب الذى أرسله أهل مكة أولياء الأمور إلا أن الحكم الشرعى بخصوص تجديد البيت المعظم بعد هدمه ونقضه كان مشترطًا بأن يقع ركن من أركانه لذا شكلت لجنة من العلماء الأعلام والرجال الكرام ذوى الاحترام حتى يجدوا حلاً شرعيًا لهذا الموضوع.

واجتمعت تلك اللجنة تحت المجبورية الشرعية وبعد مشاورات كثيرة قررت أن يحزم البيت من مكانين بأحزمة حديدية كما رأى فريق ربط الأماكن المشققة بتلك الأحزمة وبهذا يهدم البيت الشريف ويعالج الموضوع كما ذكروا أن هذا سيوافق أحكام الشريعة وعرض الأمر على حامى الخلافة.

وحينئذ صدر الأمر السلطانى المطاع بإعداد الأحزمة المذكورة على أن تغطى بطبقة من فضة خام وطبقة أخرى من الذهب الخالص وفى نفس الوقت يتغير الميزاب الفضى الذى أرسل فى زمن السلطان (سليمان عليه الرحمة والغفران) بميزاب مذهب كما هيئوا الصناع من الصياغ والحدادين بمهامهم.

وأرسلوهم إلى حديقة استاوروز فى اسكدار وفى يوم الشروع فى العمل أقيم حفل كبير حضره السلطان وعظماء الدولة وأركانها، وقد هيئت المهمات اللازمة للترميم فى وقت قصير وأعلم بذلك سلطان الزمان أحمد خان بن السلطان محمد خان الثالث ـ عليهما رحمة الله ـ، وكان السلطان فى ذلك الوقت مقيما فى حديقة داود باشا وبما أنه يريد أن يرى بنفسه ما تم صنعه من المهمات الغالية وطريقة صنعها أصدر أمره بأن تنقل هذه الأشياء إلى مقر إقامته وبناء على ذلك أمر بصنع نموذج من الخشب لبيت الله يطابقه فى أبعاده ثم أمر بأن تنقل جميع المهمات إلى مكان فسيح فى حديقة داود باشا ثم وضعت الأشياء المعدة لترميم البيت فى أماكنها التى فى النموذج وهكذا عرض كيفية وضع هذه الأشياء وجمال صنعها ودقته على الحاضرين الكرام.

وأخيراً بحث عن الحدادين المهرة والصياغ المتخصصين فى مهمتهم والمتدينين وأرسلوا مع المهمات إلى مكة المكرمة برفقة حسن باشا الذى عزل من وظيفة الدفتردارية فى حلب وعهد إليه الحبشة، وفى سنة ١٠٢٠ الهجرية وفى وسط شهر رجب الفرد، وصى والى مصر محمد على باشا بالعمل على توصيل هذه البعثة عن طريق السويس بأقصى سرعة ممكنة إلى الجانب الحجازى.

وقد قام المشار إليه بهذه الخدمة المباركة على أكمل وجه وأمن وصول البعثة السلطانية إلى مكة بعد أن أمدها بكل ما تحتاج إليه.

وكانت الأشياء الغالية المرسلة عبارة عن: ستة عشر عددا من أحزمة حديدية باعتبار أن كل جدار متكون من أربع مناطق وستة عشر عددا من أعمدة حديدية لتوضع على كل ركن أربعة منها لتثبيت الأحزمة وإمساكها وكمر مقوس فوق باب الكعبة المقدس حيث تلتقى الأحزمة الحديدية وثبتوا لوحة فوق العتبة العليا لباب الكعبة تجديدا للكتابة التى هناك كما أحضروا الأخشاب الجيدة الكافية لتعمير وإصلاح سطح الكعبة وكانت اللوحة التى كتبت عليها ألقاب الكعبة في باب المعلا وكذلك الزاوية التى تلتقى فيها الأعمدة مع الأحزمة كانت مصنوعة من الذهب الخالص وكذلك الكمر المقوس الأحزمة قد غطيت بصفائح من الفضة الخالصة ونقشت عليها أحسن ما أبدعته أقلام الفنانين وزينت بنقوش بديعة.

وقد تحرك حسن باشا المشار إليه فى أواسط شهر رجب من دار السعادة إستانبول وبعد مدة وصل إلى مكة المكرمة وفى يوم الأحد فى غرة محرم الحرام من سنة (١٠٢١ هـ) أجمعت هيئة من أعاظم سكان مكة المكرمة فى داخل أرض المطاف والمهندسون وبعد الدعاء والتضرع إلى الله صعد المختصون فوق سطح البيت بواسطة إسقالة وضعت تحت ميزاب الرحمة وابتدروا بالكشف والمعاينة حيث اتضح لهم أن سبعًا وعشرين من العروق الخشب فى حاجة إلى التغيير، وبعد ما أصلحوا ثلاث قطع منها وضعوها فى مكانها ورفعوا الرخام إلى

السطح واحدة تلو الأخرى وبعدما أصلحوا على قدر الإمكان ووضعوا كل واحد منها فى مكانها القديم ووضعوا الميزاب الذهبى مكان الميزاب العتيق وأتموا تعمير السطح فى نفس هذا اليوم وبعد أيام من ذلك وفى ليلة وبعد أداء صلاة العشاء أمر الباشا المذكور الصناع المهرة بأن يسرعوا فى العمل فاستطاع العمال أن يضعوا الأحزمة الحديدية فى أماكنها فى تلك الليلة وفى الليلة التالية ركبوا النصف الثانى من الأحزمة ووضعوا اللوحة التى فى باب المعلا فى مكانها.

ثم أصلحوا الركن الذى كان فى حاجة إلى الإصلاح دون أن يخرجوا فى أثناء تعميرهم عن تعليمات الشريعة. وهكذا استطاع أن يشيد وأن يقوى ويصلح الأركان الأربعة للكعبة الشريفة وسطحها.

وقد ثبت أن رصانة بيت الله ومتانته قد وصلت إلى الدرجة المطلوبة وذلك بشهادة المتخصصين فى فن البناء.

وفى الواقع أن الأشياء اللازمة لترميم البيت والتى أعدت فى دار السعادة قد ركبت فى مكانها فى الكعبة الشريفة كأنها صبت فى قالب بعد المسح والوزن ومع ذلك فإن هذه المستلزمات كانت قد عينت وجربت عدة مرات فى مكة المكرمة.

إن هذا العمل قد أثار فرح الأهالى وابتهاجهم؛ ولأجل ذلك اجتمعوا حول كعبة الله فى السادس عشر من الشهر المذكور تحت رئاسة أمير مكة الشريف إدريس وأحيوا يومهم بختم القرآن الكريم والتضرع إلى الله والدعاء للسلطان بدوام قوة دولته وعظمتها.

حكاية غريبة:

عند قلع الميزاب القديم، ورفع رخام سطح البيت الشريف ظهرت فى الجو علامات نزول المطر وسمعت أصوات الرعد والبرق فى الأطراف والأكناف، مما جعل الناس يقولون: إذا ما أمطرت السماء سيمتلئ داخل كعبة الله بالسيل واستولى عليهم القلق وأخذت قطرات المطر تتساقط متتابعة كأنها در فى سلكه. إلا أنه لم تسقط قطرة مطر على الأرض إلى ميزاب الرحمة فى مكانه إلى أن غطى سطح بيت الله.

وقد انتظم المطر إلى أن غطى السطح الشريف فى ارتفاع أربعين ذراعا من الأرض وعند الانتهاء من تغطية السطح ووضع الميزاب فى مكانه أخذ المطر ينهمر بشدة لم تر فى ذلك العصر مثلها حتى أغرقت السيول الأسواق والمحلات.

تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة

الباني الحادى عشر لبيت الله هو السلطان مراد خان الرابع ابن السلطان أحمد خان عليهما الرحمة والغفران.

ولما كان تجديد الكعبة غير جائز شرعا إلا أن يسقط أحد أطرافها ويتهاوى؛ لذلك لم يتجرأ أحد منذ عهد الحجاج الظالم إلى زمن السلطان المشار إليه على تجديد تلك البقعة المفخمة الجليلة.

وأخذت أركانه الأربعة تميل للسقوط ـ بسبب قدمها ـ حتى إن تجديده قد تجاوز درجة الوجوب وبما أنه لم يجدد فى عهود السلاطين السابقين بتلك الحجة الشرعية فقد أوشك البيت الحرام على السقوط فى عهد السلطان أحمد خان الثالث.

ورغب السلطان أحمد خان فى تجديد أبنية ذلك البيت اللطيف السعيد إلا أن الشرع لم يسمح بذلك. كما سبق ذكره فى المقال السابق فَقُوِّىَ بالأحزمة الحديدية وأعمدة الزوايا كما رُمِّمَ وأصلح ركنان من أركانه على قدر الإمكان، وقد حفظ هذا الترميم البيت المعظم من السقوط والانهدام ما يقرب من ثمانية عشر عاما.

إلا أن البلاد الحجازية قد تعرضت فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر شعبان المعظم من سنة ١٠٣٩ الهجرية إلى رعود وصواعق وبروق وأمطار لم ير لها مثيل، إذ أن المياه التى نزلت من السماء تجمعت وكونت سيولاً كسيل العرم وهجمت بشدة إلى داخل المسجد الحرام وزادت ساعة بعد ساعة وارتفعت مقدار ذراعين من فتحة مفتاح باب المعلا.

إن الحوانيت والمدارس والمنازل التى تصادف وجودها فى طريق السيل الشديد

انهارت كلها وعجزت أتربة البيوت ومبانيها عن الوقوف أمام السيل الجارف فانحرفت أمامه كأنها دليل يقود السيل إلى ساحة الحرم الشريف.

ولا يخمن[1] عدد الذين ماتوا تحت أنقاض الحوانيت والمدارس التى تعرضت للسيل الشديد.

وكانت جدران البيت المعظم قد أوشكت على السقوط بعد وقت قليل من أداء صلاة العصر من يوم الجمعة من الحادى والعشرين من شعبان المعظم وفى اليوم الثانى من دخول السيول داخل الحرم الشريف انهارت جدران[2] الركن الشامى والركن العراقى فجأة. واختلط صخب الانهيار بأصوات الرعود والصواعق. فاستولى على أهل مكة خوف شديد حتى إن بعضهم ماتوا من شدة الفزع. قد حير انهيار جدران بيت الله أهل مكة وملكتهم الدهشة حتى ظنوا أن ما حدث فى ذلك اليوم علامة من علامات يوم القيامة. وهاموا على وجوههم مشتتين ولم يعرفوا ماذا حدث لهم، حتى تاه الأبناء عن الآباء والأمهات وشغل الآباء والأمهات عن أولادهم فلم يسأل أحدهم عن الآخر.

وظلت المياه داخل الحرم ثلاثة أيام بعد انقطاع السيل وفى اليوم الرابع فتحت ممرات السيول وأخذت المياه تنسحب من داخل الحرم قليلا فقليلا تاركة خلفها ما جرفته السيول من الحجارة والأوحال التى كونت هنا وهناك مرتفعات تبلغ قامة رجل.

قد عقد ـ فى ذلك التاريخ ـ أمير مكة المعظمة الشريف (مسعود بن إدريس) اجتماعا فى داخل الحرم مع الطبقة المختارة من الأشراف وسكان مكة وبعد التشاور أسرعوا بإنزال القناديل الذهبية والفضية المعلقة فى داخل بيت الله وبعد ذلك أخبروا الركاب السلطانية ما حدث فى أثناء السيل أوصلوا خبر انهيار بيت الله بواسطة محمد على باشا والى مصر.

(١) قد روى بعض المؤرخين أن عدد القتلى الذين أخرجوا من تحت الأنقاض فيما بعد بلغ الفا.
(٢) قد انهارت جميع جهات البيت باستثناء الركن اليمانى.

وإن كان محمد على باشا قد عرض الخبر على السدة السلطانية حتى يتخذ القرار إلا أنه قرر أن يعد الآلات والأدوات اللازمة لتعمير بيت الله لأنه رأى أنه ليس من الجائز ترك الكعبة فى هذه الحالة والخبر المرسل إلى السلطان سيتأخر لبعد المسافة بين البلدين.

وكتب رسالة إلى مصطفى أغا أمير جدة يأمره بأن ينصاع لكل ما يطلبه منه الشريف مسعود كما أبلغ الشريف أنه يجب تخلية الحرم الشريف مما جرفه السيل وتطهيره وأن يطلب من مصطفى أغا كل ما يلزمه فى سبيل ذلك إلى أن تصل الإدارة السنية من دار السعادة.

واستحضر الشريف «مسعود» بعون أمير جدة «مصطفى أغا» ومهندس مكة المشرفة على «بن شمس الدين أفندى» المقدار الكافى من الأخشاب وأحاط جدران البيت التى نجت من السقوط بأحزمة من ثلاثة أماكن حتى يقويها ثم أقام دعامات كبيرة حول أركان البيت الأربعة بقصد حفظ السقف الشريف للبيت من السقوط ثم ربط هذه الدعامات بعضها ببعض وأحاط بيت العزة حتى سقفه بألواح خشبية.

قد شرع فى هذه العملية يوم الخميس التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة وانتهى العمل فى ترميم البيت فى ظرف ثلاثة عشر يوما أى فى يوم الأحد الثالث عشر من شهر شوال وفى هذه الفترة صنعت كسوة من قماش عادى باللون الأخضر وكسيت بها الكعبة العليا يوم الخميس السابع عشر من شهر شوال.

من البديهى أن انهيار كعبة الله قد أزعج المسلمين فى جميع أنحاء العالم إلا أن انزعاج المصريين[١] كان أشد لقرب المسافة بينهم وبين مكة المكرمة.

وأخذوا يبرزون شدة تأثرهم بأقوال مثل: أن موسم الحج قد اقترب ولم يرد

(١) لأن المصريين أول الناس الذين أخذوا خبر انهيار البيت.

من إستانبول الأمر السنى المنتظر؛ لذا قرر محمد على باشا والى مصر إرسال مندوب خاص من قبله إلى الأستانة.

استدعى رضوان أغا الذى تربى فى كنف السلطان وكان من رؤساء الشراكسة وألبسه الخلعة ثم قال له: إننى قد عينتك مسئولاً عن أبنية كعبة الله إلى أن يرد الأمر السلطانى من الباب العالى، قد اقترب موسم الحج اقترابا شديدا قم الآن واركب الهجين وتوجه ناحية مكة المكرمة واحرص على إعداد الأشياء اللازمة وبمجرد وصولك هناك ابعث لنا على جناح السرعة كَشْفًا بكل ما تحتاجه من عندنا، ثم أعطاه خلعة ليقدمها إلى الشريف مسعود كما زوده برسالة توجيه للشريف المذكور وأخرجه إلى الطريق، ثم واصل رضوان باشا السير حتى وصل إلى مكان قريب من مكة المكرمة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شوال و أرسل إل الشريف مسعود من يخبره بأنه أتى حاملا له خلعة من قبل والى مصر، فأرسل الشريف وفدًا من عظماء مكة المكرمة وموظفى الدولة ليكونوا فى استقبال رضون باشا.

وبعدما تقابل رضوان باشا مع أفراد وفد الاستقبال تحرك نحو مكة ووصل إليها بعد رسوله الذى كان بعثه من قبل بأربعة أيام يوم السبت السادس والعشرين من شوال ونزل فى المنزل الذى كان قد أعده له شريف مكة وفى اليوم التالى يوم الأحد السابع والعشرين من شوال اجتمع الناس داخل ساحة الحرم إذ أقيم فيه احتفال لتقديم الخلعة.

قد حضر مع الشريف مسعود ورضوان أغا ـ عملا بأصول التشريف ـ أشراف مكة وعظماؤها وأعيانها وكبار موظفى الدولة والعلماء الأجلاء ووقفوا كلهم بين باب المعلا لكعبة الله ومقام إبراهيم قُرِئت الرسالة التى تحتوى على الأوامر السامية كما قرئت الرسالة التى كانت تنصّ على إبقاء موظفى الحجاز فى مناصبهم ثم ألبست الخلعة الفاخرة التى بعثها والى مصر ـ بكل تعظيم وتوقير ـ للشريف مسعود الذى ألبس أيضا خلعة لرضوان ومرافقيه وعقب ذلك رفع المجتمعون

أيديهم داعين الله ليزيد الدولة قوة وشوكة، والسلطان جلالا ثم انصرفوا عائدين.

وكان داخل الحرمَ الشريف والطرق المؤدية إليه قد امتلأت بالحجارة والتراب والقمامة مما جرفه السيل. وفى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شوال واليوم الثالث من وصول رضوان أغا اجتمع بالشريف مسعود والأشراف والعلماء الأجلاء فى الحرم الشريف وتشاور معهم فى تنظيف ساحة المسجد الحرام وتطهيره مما حل به.

وعرض كل واحد رأيه وكانت خلاصة رأيهم أن تنظيف ساحة الحرم فى مدة قصيرة غير ممكن لأن موسم الحج قد حل بل أخذ الحجاج يفدون إلى مكة المكرمة.

إلا أن رضوان أغا فند رأيهم وتصرف بالشهامة والرجولة وحرص على أن يبعث رجاله إلى المدن والقرى الواقعة بين جدة والمدينة المنورة يستدعون كل من يملك حمارا أو حصانا أو جملاً وكل من يريد أن يعمل يغرونهم بالأجر الكبير وهكذا جلب كل هؤلاء إلى مكة المكرمة وشرع فى العمل بهمة عظيمة ووفق فى تنظيف الحرم الشريف وتطهيره فى ظرف عشرين يوما فى يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر ذى القعدة.

إن ما جرفه السيل فى داخل الحرم من الطين الممزوج بالحجارة كان قد تحجر عقب انسحاب السيول بفعل الحرارة الشديدة وكون جبلا فى ارتفاع سبعة أذرع أو ثمانية، واكتسب صلابة بحيث لا ينفذ فيه الفأس أو الإزميل أو المثقاب وحينئذ قد بلل الجبل الترابى بالماء ليلا وفقد صلابته وأخذ العمال يحرثون ذلك الجبل العارض بالفئوس والأزاميل كما تحرث الحقول اللينة.

وكانوا ينخلون التراب المحفور بالغرابيل، وينقلون رمله على حدة إلى موضع وترابه على حدة إلى موضع آخر وجاء فى سجل سهيلى أفندى ـ رحمه الله ـ أنهم كانوا يخرجون ثلاثين أو أربعين ألف حمل تراب يوميا.

عين زبيدة:

بما أن مجرى تلك العين كان قد غطى بالطين والأحجار وبدأ أهل مكة يعانون شح الماء، قام رضوان أغا بترميم وإصلاح المواضع الخربة فى مجرى العين المذكور، وظهر الجزء الممتد من جمرة العقبة إلى مكة، وقد أنجز هذه المهمة على الوجه الأكمل.

إحدى كرامات بيت الله الحرام:

عندما سقط جزء من بناء الكعبة الشريفة أصبح ماء زمزم الشريف ملحا أجاجا إلى درجة أنه تعذر شربه.

وعلى الرغم من أن أعلام العلماء والفقراء ذوى المنزلة تشاوروا فيما بينهم و بسطوا رجاءهم مطالبين بتطهير بئر زمزم لشدة حاجة أهل الإيمان إلى مائه المبارك ورغبتهم فيه، وأن تتولى جهة ما مهمة تنظيف هذه البئر إلى أن ينقى ماؤها، إلا أن تطهير هذه البئر كان يتكلف ثلاثين ألف قرش وبما أن إنفاق أكثر من خمسة أو ستة آلاف قرش ولو بارة واحدة يتوقف على الاستئذان من أولى الأمر فقد تغاضى رضوان أغا عن فكرة تطهير بئر زمزم قائلا: لا أستطيع أن أنفق هذا القدر من المال من تلقاء نفسى، وينبغى علىّ الاستئذان من والى مصر، ولكن حتى يصلنى رده يتطلب الأمر منى أن أشتغل بأمور أخرى لعدم إضاعة وقتى.

واقتضت حكمة الله أن الملوحة الظاهرة فى بئر زمزم بدأت فى الزوال ـ تدريجيا مع أول يوم من إلقاء أساس بيت رب العزة، وعندما أوشكت عمليات الأبنية المسعودة على الانتهاء أصبح ماء بئر زمزم عذبا فراتا، ولم تعد هناك حاجة إلى تطهيرها. انتهى.

وفى أوائل شهر ذى القعدة أرسل رضوان أغا إلى والى مصر بيانا يتضمن ما تحتاج إليه الأبنية المسعودة من الآلات وأدوات ومواد بناء مبينا مقدارها وأنواعها، ورجاه الإسراع فى إرسال هذه الأشياء المدرجة فى هذا البيان. وقام والى مصر محمد على باشا بإعداد الأشياء التى أرسل رضوان أغا فى طلبها وعلاوة على

هذا استدعى كثيراً من النجارين وسائر الحرفيين ووجه بهم موظفًا خاصًا وخرج في وداعه. ولدى وصول الموظف المذكور إلى ميناء جدة في أواخر شهر ذي القعدة سلم ما أحضره من مواد - بموجب دفتر - إلى أحمد قباني أفندي كاتب المال على ميناء جدة المعمورة.

وبناء على الأمر الذي أرسله رضوان أغا مع سيد على بن هبزع أرسل أحمد قباني المهمات الواردة من مصر إلى مكة المكرمة على دفعتين، وقد حفظت المهمات التي أرسلت في القافلة الأولى في الخانات المعروفة بمخازن «عبد الرحمن بن عتيق» ١٣ محرم.

وقبيل وصول هذه القافلة اتجه رضوان أغا نحو خليص لتمهيد وإصلاح الطرق التي دمرها ماء السيول الجاري من جهة وادي خليص، وكانت طرق العين المذكورة قد خربت بأكملها من جراء طغيان السيل، ولذا انقطعت مياه البئر، ومكث رضوان أغا أياما في الوادي المذكور لإعادة مجرى البئر إلى سالف عهدها، واطلع على بن شمس الدين أفندي مهندس مكة المكرمة على الأماكن المتهدمة.

وفي التاسع من ربيع الثاني أجروا الماء الذي انقطع - إلى مكة المكرمة بعد إصلاح العين وجعلها على أحسن وضع لها، كما أجريت مياه الأحواض.

ثم قفل رضوان أغا راجعا إلى مكة المكرمة ونظف مجاري المياه الواقعة على مقربة من البركة الشامية.

وفي يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الثاني عين من مست إليهم الحاجة من موظفين للقيام بتجهيز كافة متطلبات ومستلزمات الأبنية المسعودة من حطب وفحم وجص، وبعد أن طيب نفس كل منهم بتحديد مرتباتهم كاملة غير منقوصة أمرهم بجمع الأحجار التي هوت من الأبنية المباركة للكعبة المعظمة، وأصدر تعليماته وتوجيهاته إلى النجارين بخصوص عمليات الترميم والإصلاح لإعادة جدران الكعبة المشرفة إلى ما كانت عليه.

ولما شاع بين الأهالى أن الأحجار الساقطة سوف تعاد إلى مواضعها فى الأبنية المسعودة كثر القيل والقال، ولأن كل أحد قال كل ما خطر له من كلام ذهب بعض العلماء إلى عدم جواز ذلك العمل واعترضوا عليه لدى رضوان أغا.

وكان ضمن هؤلاء من طائفة العلماء المعترضين من يسمى «محمد على بن علان» مفتى الشافعية، وأصدر هذا الرجل فتوى فحواها أنه: (لا يجوز لكائن من كان أن يتدخل فى شئون البيت الشريف ما لم يكن نائبا أعظم عن سلطان العالم وملك ملوكه المعظم، وينبغى الانتظار لحين وصول التعليمات من الأستانة فى هذا الشأن).

وبناء عليه استدعى رضوان أغا شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة إلى الحرم الشريف وقال لهم: هناك من أفتى معترضا على ترميم بيت الله، فهل يجوز أن يبدأ فلان من الناس الذى عين من قبل السلطنة السنية ومنح الإذن فى البناء، أم أن ذلك غير جائز؟.

وأجاب على سؤاله من أعاظم شيوخ الفتيا الشيخ «خالد بن أحمد المالكى»، و «عبد العزيز الزمزمى» من شيوخ إفتاء الشافعية، و «أحمد بن محمد آق شمس الدين المفتى الحنفى» و «عبد الله بن أبى بكر القرشى» مفتى الحنابلة بأن هذا الأمر (فرض كفاية)، والقائم به مثاب مأجور عند الله، بيد أن الشيخ محمد على بن علان وهو من مشاهير المعترضين أبدى اعتراضه ثانية، وجمع كثرة كاثرة من الأهالى وتجرءوا على منع الحجّارين وكافة عمليات البناء، وعلى أثر ذلك لم يجد رضوان أغا بدًّا من استدعاء شيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة للمرة الثانية واستفتاهم فى شرح المسألة على التفصيل.

وبفضل فتاوى هؤلاء الشيوخ المفصلة والتى أجمعوا فيها على جواز العمل قائلين: «يجوز كل فعل ما دعت إليه ضرورة أو حاجة» اقتنع الناس بمشروع رضوان أغا فى عمليات الأبنية المسعودة قبل وصول التعليمات السلطانية.

ولم يكن سبب الاعتراض هو الرغبة فى إعادة الأحجار المنهارة إلى مواضعها

وإصلاحها، بل الأسباب القهرية التى بينها المهندسون فى تقارير المعاينة والتى نذكرها فيما يلى مع المعترضين:

الأسباب القهرية التى بينها المهندسون فى تقارير المعاينة:

١ - أن الأحجار الساقطة من الأبنية المسعودة للبيت الشريف غير صالحة للاستعمال، ولأن قسما منها تهشم فإنه لا سبيل إلى إكمال بناء بيت الله بهذه الأحجار، ولذا يتحتم إحضار قدرًا كافيًا من الأحجار من خارج الكعبة.

٢ - وإن كان من الممكن إلصاق الجدران المقامة حديثا مع الجدران المتهدمة فإنه فى خلال فترة وجيزة سوف تنهار ما فى ذلك من شك، علاوة على أن بعض المواضع فى الجدران القديمة قد آل للسقوط، وهدم الجدران الآيلة للسقوط أصل مرعى من أصول فن العمارة.

ردود المعترضين:

١ - لا يجوز جلب أحجار من خارج الكعبة، كما لا يجوز كذلك إصلاح الأحجار المتهشمة، وينبغى استعمال الموجودة على حالتها، أى أنه يتعين ترميم جدران الأبنية المسعودة بالأحجار القديمة.

٢ - لا يجوز اقتلاع حجر واحد من أبنية الكعبة، فمن باب أولى لا يجوز هدم الجدران المنهارة.

ولا نحسب أن دعاوى المعترضين كانت لهذين السببين ليس إلا، فقد قالت هذه الطائفة بعد أن اجتمعت كلمتهم: أن صورة سقوط بيت الله عرضت على الباب العالي، ولا ينبغى الشروع فى البناء قبل ورود تعليمات الإرادة السنية فى هذا الصدد. كما عرجوا على إقامة ستار حول الأبنية المسعودة مع مهمة تنظيف الحرم الشريف، ولم يجيزوا - على أية حال - هدم الجدار الواجب هدمه وهو الذى بين الحجر الأسود والركن اليمانى، وقرروا جواز دخول بيت الله الحرام والجلوس فيه وتدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة.

وواقع الأمر أن هذه الدعاوى كانت واهية فإن لم يؤت بأحجار من خارج الكعبة لا يتأتى لجدران الكعبة أن تبلغ ارتفاعها القديم، وما لم تسو الأحجار المتهشمة وتصلح لا يمكن إعادتها إلى مواضعها القديمة وذلك أخذا بأصول فن العمارة، أما إلصاق جدار آيل للسقوط بآخر بنى حديثا فغير جائز لأن مصيره الانهيار.

رغبتهم فى عدم تنظيف الحرم الشريف:

وإن كانوا قد أشاروا إلى أن إدخال الجمال والحمر وسائر حيوانات الحمل إلى المسجد الحرام سوف يخل بما ينبغى من نظام، فإن الاعتماد على الإنسان فقط فى نقل حصى موضع ثبت أنه يخرج منه أكثر من أربعين ألف حمل حصى يوميا قرابة شهر على نحو ما سلف شرحه يستلزم نفقات باهظة، فضلا عن أن هذا سوف ينفذ فى مدى خمس أو ست سنوات وفى تلك المدة سوف يحرم الحجاج القادمون من الطواف والزيارة فى مواسم الحج وهل صح فى الفهم أن يجيز ذلك جاهل فكيف يجيزه عالم، وإن جاز إقامة ساتر من الخشب حول الكعبة الشريفة وتنظيف ما يجب تنظيفه من مواضعها، والوفاء بتعظيماتها طبق ما تفيده الفتاوى الشريفة المدرجة فى خاتمة المقال، فإن رضوان أغا حصل على فتوى بعدم تدريس صحيح البخارى داخل البقعة المقدسة، وشرع فى تنفيذ ما تستوجبه مهمته. رضى الله عنه وعمن أصدروا له الفتاوى أجمعين.

تكليف رضوان باشا بإعادة بناء بيت الله:

أرسل محمد على باشا والى مصر رسالة إلى الباب العالى يخطره فيها بسقوط بيت الله على نحو ما سلف ذكره، وأرفق هذه الرسالة بالتقرير الذى ورد من الشريف مسعود بشأن هذه الحادثة الهامة، وتلافيا لوقوع أى بلبلة عرض الأمر على حضرة السلطان دون أى تأخير وصدرت أوامر ملجأ الخلافة العظمى ببناء وترميم تلك البقعة المباركة وإعادتها إلى حالتها الأولى.

وفى تلك الأثناء أرسل الصك إلى سيد أفندى الأنقروى نقيب الأشراف الذى أسند إليه قضاء المدينة المنورة، وأن تكون الأموال اللازمة لترميم الأبنية المقدسة من جزية أقباط القاهرة وقد عين الأنقروى أفندى هذا أمينا للبناء لأمانته ونزاهته وأخطر محمد على باشا والى مصر بذلك وبإسناد نظارة الأبنية المقدسة إلى سيد أفندى الأنقروى، كما أخطر الشريف مسعود بفرمان خاص من السلطان.

وشكل محمد باشا مجلسا من أعيان الدولة وموظفى الحكومة لبحث انتخاب وتعيين أمينا للبناء بموجب الفرمان السلطانى الرفيع والذى وصل يحمل التوقيع المشرف وقال محمد على باشا: لقد أخطرنا الباب العالى بسقوط بيت الله، وأرسلنا كذلك تقرير الشريف مسعود إلى مقر الخلافة الجليلة. وصدرت الأوامر السلطانية لنا بإسناد نظام ترميم البيت الشريف إلى سيد محمد أفندى الأنقروى قاضى المدينة المنورة، وانتخاب أمير من أهل التقوى والورع أمينا للبناء، وإرسال المال اللازم من الخزانة لإنفاقه على ذلك، وأرسل فرمان عال لإبلاغ الشريف مسعود بذلك مع خلعة فاخرة وأرسل اللواء السلطانى إلى من ستسند إليه أمانة البناء. ومن قبل أرسلنا إلى الباب العالى نخطره بإسناد هذه الخدمة إلى رضوان أغا، والآن قدم علينا موظف يسمى «محمود شاووش» لتسلم وحمل المهمات اللازمة للأبنية المسعودة وأحضر معه بيانا بها، وإذا ما استطاع رضوان أغا النهوض بهذه المهمة على خير وجه فسوف أثبته فى مهمته، ويتعين على أن أُسَلم محمود شاووش ما طلبه من مهمات، وإن وجد من هو أصلح من رضوان أغا أرسلناه واستدعينا رضوان أغا.

وبعد تبادل الآراء طويلا فى المجلس قال محمد على باشا:

إن رضوان أغا أهل تقوى وعفة واستقامة وكفاءة وهو على علم تام بالأبنية المسعودة، كما أنه موضع ثقة لدينا جميعا، وانتخب وأرسل من قبل لهذه المهمة، وبدلا من تضييع الوقت فى البحث عمن هو أهل اقتدار وكفاءة ينبغى أن نُثَبِّتَ رضوان أغا فى مهمته، ونحن إذا ما طيبنا خاطره بإرسال الهدايا الواردة من

السلطان الأشرف، وأرسلنا إليه ما طلبه من مهمات نكون قد أدينا خدمة للكعبة الشريفة من ناحية العمليات والخزانة الجليلة من جهة النفقات.

وقدم هذا الرد الشافى على النحو السالف، وبناء عليه أرسل محمد باشا رسالة مفصلة في هذا الخصوص متضمنة التصديق على أمانة رضوان أغا للأبنية المقدسة، وأرسل موظفا مخصوصا بالفرمان السلطانى الوارد من الأستانة مصحوبا بخلعة فاخرة وخرج محمد باشا لوداع هذا الموظف.

وفى هذه الأثناء أرسل سيد محمد أفندى ـ الذى كان موجودا فى مصر ـ مع الموظف المشار إليه.

وأعدت المهمات المطلوبة لرضوان أغا كما وردت فى البيان، وبدءوا فى إرسالها تباعا إلى ميناء السويس، ولما نقلت إلى هناك بتمامها حملت فى سفن السويس مع سويدان زاده محمد بك وسلمت إلى محمود شاووش رجل رضوان أغا وأرسلت إلى جدة.

وفى يوم الأحد التاسع عشر من ربيع الثانى لدى وصول محمود شاووش خرج من السفينة وركب وجناء[1]، واتجه إلى مكة المكرمة، ولما وصلها أَخْبَرَ رضوان بتثبيته فى مهمته، وإسناد قضاء المدينة المنورة إلى من يدعى سيد «محمد أفندى الأنقروى» وتعيينه ناظرا على الأبنية المسعودة من قبل السلطان.

وقد جعل كل ما يختص بمبانى البيت المعظم إلى والى مصر الوزير محمد على باشا وفوض فيه، و أرسلت الأوامر السلطانية ببذل كل ما فى وسعه فى هذا الخصوص.

مع أن محمد باشا كان قد وكل من قبله رضوان أغا وعينه للقيام بهذه الخدمات السعيدة، وبعده بفترة قصيرة وصل سيد محمد أفندى إلى مكة المفخمة وتحدث مع رضوان أغا طويلا.

بينما توجه الشاووش محمود من ميناء ينبع إلى مكة برا كان محمد بك ابن

(١) الوَجْنَاءُ: الناقة التامة الخلق غليظة لحم الوجْنة، الصلبة الشديدة.
(اللسان مادة: دوجن) ص ٤٧٧٤. ط. دار المعارف.

سويدان قد توجه بحرا إلى بندر جدة المعمورة وقد وصل إلى جدة يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر ربيع الثانى وسلم ما حمله معه من الأخشاب والآلات والأدوات والمهمات الأخرى الخاصة ببيت الله مع دفاترها إلى أحمد القبانى المسئول المالى لمدينة جدة، ولما كان أحمد أفندى يعرف مدى حاجة الأبنية المسعودة لهذه الأشياء أعد قافلة وحملها بالأخشاب فى نفس الليلة وبعثها إلى مكة المعظمة وأدركت القافلة المذكورة المدينة الجليلة فى الصباح.

وبمجرد أنْ وصلت الأخشاب أسرع رضوان أغا بإحاطة الكعبة العليا بستار خشبى وبعده بيوم استحضر اللوازم الباقية من مدينة جدة بواسطة سيد على وخزنها.

وقد شرع فى أعمال إحاطة كعبة الله بستار خشبى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ربيع الثانى وكان هدف رضوان أغا من هذا العمل إخفاء تعمير بيت الله ـ تعظيما له وتوقيراً ـ من أعين الناس، وعندما أوشكت عمليات ستر الكعبة بالخشب على الانتهاء وصل إلى مكة ناظر الأبنية السعيدة وتلاقى مع رضوان أغا واتفقا على إجراء مراسم الأمر السلطانى الذى حمله من مقام الخلافة الجليل وكتبت تذاكر الدعوة إلى سيد عبد الكريم[١] أخى مسعود شريف مكة وعظماء مكة وقاضى مكة وشيخ الحرم رجاء أن يكونوا فى الساعة المعينة داخل الحطيم الشريف فى يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ربيع الثانى وتجمعوا فى الميعاد المحدد وقرأوا[٢] الصحيفة التى تحتوى الأمر السلطانى الموجه إلى الشريف مسعود.

وبما أن الشريف مسعود كان مريضا لم يحضر مراسم قراءة الأمر السلطانى فأرسلت الخلعة السنية الخاصة به إلى منزله العامر وألبست الخلعة الخاصة برضوان أغا أمام الحاضرين كما ألبس سيد على بن هبزع والآخرون خلع لائقة

(١) قد دعى سيد عبد الكريم نيابة عن أخيه الشريف مسعود.

(٢) قد أشير للصورة المنيفة لهذا الأمر السلطانى فى خاتمة المقال.

بهم ثم رفع الحضور أياديهم داعين مبتهلين إلى الله بدوام دولة سلطان الأمم وانتصار جنوده وهكذا ختم المجلس.

وقد قدم لرضوان أغا مقابل خدمته الجليلة راية سلطانية أيضًا. ولم يرغب رضوان أغا بعد هذه الوظيفة فى وظيفة أخرى ورجا أن تبدل وظيفته بمشيخة الحرم الكائنة فى المدينة المنورة وقبل رجاؤه وأسندت إليه إدارة محافظة المدينة المنورة مشيخة الحرم المدنى فى دار الهجرة.

وبعد ما أتم رضوان أغا خدمته قدم إلى إستانبول ونال شرف المثول بين يدى السلطان الذى عرض عليه وظيفة (بكلربكى) ولكنه لم يقبل هذه الوظيفة أيضا فأحيل إلى المعاش بستمائة ألف أقجة[1] وأنعم عليه ببراءة سنية[2].

وكانت الرسالة التى كتبها والى مصر الوزير «محمد باشا إلى الشريف مسعود» تحوى فقرة (يرجى أن تبذلوا جميع جهدكم لتعمير البلد الشريف وتجديده متفقا ومتعاونا مع المخلص رضوان أغا على أرض الواقع).

وقد سر الشريف من هذه السطور وابتهج وأخذ يثنى على محمد على باشا ويشكره ثم ألبس الخلع لرضوان أغا ومرافقيه وبعد يومين من ذلك ارتحل مودِّعا الدنيا إلى دار إمارة الفردوس فى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الثانى.

وقد أثار موت الشريف مسعود بين أهل مكة القيل والقال مما أقلق الكرام من أهالى مكة والمجاورين ذوى الاحترام وأزعجهم. إلا أن رضوان أغا بما هو مفطور عليه من سجية عالية وروية فى التفكير بذل كل جهده ليحافظ على أمن البلد وضبطه فأصدر الأمر الآتى:ـ

«كل من يسعى للفساد ويثير الخلل فى البلاد يهدر دمه» وأعلن هذا الأمر بواسطة المنادين فى الأسواق والحوانيت حتى يصل إلى مسامع الناس، ثم كفن وجهز الشريف مسعود وصلى عليه فى الحرم الشريف ودفنه فى مقبرة المعلا، ثم

(١) أقجة عملة فضية فى الدولة العثمانية.

(٢) قد أشير إلى هذه البراءة الشريفة برقم (٢) فى خاتمة المقال.

استدعى الأعيان والأشراف وقاضى مكة المعظمة وشيخ الحرم وذوى النفوذ من الأهالى إلى الحرم الشريف وخاطب السيد الشريف عبد الله بن حسن الذى كان فخر أسرة آل عبد مناف ودرة السادات والأشراف.

يا سيدنا إن منصب الإدارة الجليل والرتبة العلية لرياسة الأشراف من حقكم الصريح وذلك بشهادة المجتمعين والأشخاص الموجودين فى الأماكن الأخرى، فتولوا من الآن الإمارة والبسوا خلعتها المزينة وأسرعوا إلى حكم البلاد حسب الأصول واعملوا على ضبط الأمور وربطها. . هذا هو المرجو منكم وبناء على هذا الخطاب لم يستطع أهل الفساد أن يوقدوا نار الفتنة والفساد".

وإن تردد السيد عبد الله فى قبول هذ التكليف الذى عرض عليه من قبل رضوان أغا إلا أن انضمام الأعيان والأشراف والعلماء الأعلام إلى رضوان أغا بالرجاء إليه. قائلين:ـ إن هذا الأمر المفروض عليك من قبل رضوان أغا نافع للدين والدولة فرجاؤنا أن تتفضلوا بقبوله. وبناء على هذا لبس الخلعة الخضراء لرياسة أشراف الإمارة، ودعا لسلطان الأنام من صميم قلبه، وتقيد بإدارة أمور البلد ضبطها وربطها.

وقد أنقذ حسن تدبير رضوان أغا البلد من فتنة عظيمة ونجى الأهالى من الحزن والألم والقلق، لذا دعوا له وللسلطان وعدوا هذا التدبير المقبول والمستحسن خدمة أخرى قدمها المذكور لمكة الله وقالوا: «قد نجونا من جميع السوء كانت الحجارة المتساقطة من جدران البيت الشريف تناثرت فى جميع أطراف المسجد الحرام وظل كل جزء منها فى ناحية، وفى يوم الجمعة من أول شهر جمادى الأولى اجتمع الأشراف وأعيان مكة وخدمة بيت الله وموظفى الدولة فى المسجد الحرام توأم جنة الخلد وأخذوا يجمعون الحجارة ثم وضعوها فى صفة قريبة من المقام الحنفى فى الركن العراقى وأقاموا فوقها خيمة ثم كلفوا بجمع البقايا من الحجارة عمالا قاموا بحملها ووضعها فى مكان قريب من المدرسة

السليمانية، وشرع الصناع المهرة فى نحت الحجارة وتسويتها بعد أن جلبوها من الخارج».

كان المرحوم الشريف مسعود قد وضع القناديل الذهبية والفضية الخاصة ببيت الله فى محل قريب من المدرسة الباسطية وحفظها هناك. وكان عدد القناديل خمسين قطعة ثمانية عشر منها ذهبا وثلاثة وثلاثين منها فضة.

وقد اجتمعت الهيئة المذكورة يوم السبت الثانى من شهر جمادى الأولى ونقلت الأحجار المتروكة فى الركن[1] العراق إلى صفة المقام الحنفى وأمروا بانتزاع الحجارة الرخامية التى كانت تغطى ساحة المطاف ووضعوها فى مكان قريب من باب السدة.

وأخذ الحجارون منذ ذلك اليوم ينحتون ويسوون الحجارة التى تضررت وتجرحت عند سقوطها من جدران بيت الله وكذلك أخذ النجارون يقطعون وينشرون الأخشاب التى وتوفرت.

وفى يوم الأحد الثالث من شهر جمادى الأول انتزع باب خزينة الشموع الذى كان تابعا للسقاية التى يتولى أمرها عباس بن عبد المطلب وأخرجوا الحزام[2] الحديدى الذى كان قد أرسله المرحوم السلطان أحمد خان.

واستدعى الصياغ لِيَفْصِلوا بين ذهب ذلك الحزام وفضته وذلك أمام قاضى مكة وشيخ الحرم والآخرين من أعيان المدينة وعظمائهم. وخرج من حديد هذا الحزام عشرة آلاف درهم من الذهب ومائة وعشرون ألف درهم من الفضة.

وهذا فضلا عن الذهب والفضة المستخرجان من الحزام الكائن بين الحجر

(١) المدرسة السليمانية التى تحاذى الركن العراقى أصبحت ـ الآن ـ محكمة، كل الحجارة المنقولة والمحفوظة كانت قد وقعت من الركن الشامى.

(٢) إن هذا الحزام كان قد أرسل من السلطان المشار إليه فى سنة ١٠٢٠ هـ لتشييد وترميم بيت الله ولما انهار بيت الله رفع الحزام المذكور بأمر الشريف مسعود ووضع فى المخزن المذكور.

الأسود والركن اليمانى، وإذا ما ضممنا إلى المجموع ما استخرج من الذهب والفضة من الحزام يجب أن نضم إلى المجموع الكلى ثلث المقدار المذكور.

كان محمد على باشا والى مصر قد جهز مقدارا لازما من الرخام والآلات والأدوات ومقدارا من الخشب والمستلزمات الأخرى وحمل بها سفينة فى السويس لتوصلها إلى جدة، وقد تعرضت هذه السفينة لعاصفة شديدة وغرقت ولما وصل الخبر المشئوم فى يوم الجمعة الخامس عشر من شهر جمادى الأولى إلى سمع الناس فى مكة المكرمة أصابهم هم شديد.

وفى يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور شرع بعد التسمية باسم الله فى هدم جدران البيت بعد أن أحيط المطاف الشريف بستار خشبى.

وكان الهدف من هذا إخفاء النجارين الذين سيعملون فى البيت الحرام مقتدين فى ذلك بعبد الله بن الزبير لأنه كان قد أحاط البيت قبل هدمه بستارة خشبية.

بينما كان النجارون مشغولين بصنع الستارة الخشبية اتصل رئيسهم برضوان أغا وأخذا يَتَذَاكَرَانِ القرار الذى سيتخذ للبدء فى هدم البيت، وبعد المحادثات الطويلة بين الطرفين قرر أن يشرع فى الهدم يوم الأحد من الشهر المذكور وفى الموعد المقرر بدأت العمليات أمام الأشراف الكرام والعلماء العظام وأهل مكة المحترمين كما أحيط البيت من خارجه بستارة خشبية فى ارتفاع ستة أذرع، وتركوا فراغا فى الستارة الخشبية حتى يتمكن الطائفون من استلام الحجر أو تقبيله، وكان عبد الله بن الزبير قد فعل نفس الشىء، وكان الطائفون يطوفون خارج الستارتين، ولما شرع فى صنع الستارة الثانية فى ٢٤ جمادى الأولى شرع فى صنع إسقالة قوية متينة على أطراف الستارة الأربعة.

وكان قصد رضوان أغا من صنع هذه الإسقالة هو تسهيل عمل البنائين فى صعودهم ونزولهم وتأمين طريق العمال الذين يحملون الحجارة والطين فى أثناء البناء.

وقد استمرت هذه الأعمال ستة أيام أو سبعة وفى يوم الأحد غرة جمادى الآخرة انتزعت بقية الأحزمة التى كانت فوق الجدار الذى فيه الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين الثانى من شهر جمادى الآخرة اجتمع الشريف على بن بركات وسادات البلد صباحا فى دائرة الحطيم وتفقدوا الجدران التى لم تسقط وخاصة السقف الشريف لبيت الله ومعهم رضوان أغا والمختصون فى فن العمارة والمهندسون.

وأخذ المتخصصون فى فن العمارة والمهندسون يكشفون بعناية تامة ورأوا مدى ضعف الجدران التى لم تتهدم بعد، والسقف الشريف وشدة وهنه ثم قالوا مخاطبين الجمع: إن مبانى هذه البقعة الشريفة قد اهتزت ووهنت من أسسها وهانحن أولاء نعرض لكم الحقيقة فلا مجال بعد ذلك لتقولوا لماذا لم تخبرونا بالحقيقة فى وقتها؟ وقد صرحنا بحقيقة الأمر أمام المفتين الأربعة والسيد القاضى وأمام عظماء البلد ووجهائهم.

ونكرر القول مرة أخرى: إن إبقاء بيت الله دون تجديد أمرٌ غير جائز، وقد اهتزت وضعفت جميع نواحيه وأصابها الوهن ومن هنا يجب أنْ يجدد البيت تجديدا كاملا وأيدوا قول رضوان أغا بشهادة كثير من المسلمين.

إن تصديق المجتمعين كلهم ما ادعاه المهندسون ورجال العمال بلا تردد كان لإسكات محمد بن علان وهو من العلماء المعترضين.

وقد ادعى ابن علان أن الأجزاء الباقية من جدران الكعبة غير جائز هدمها وهكذا خدع بعض العوام من الناس وأثارهم حتى يحولوا دون هدم الأجزاء الباقية التى نجت من السيول، وتردد رضوان أغا أمام موقف هؤلاء واستفتى المفتين المعروفين بعلمهم فى أرجاء العالم وفقهاءهم وحصل منهم على الفتوى التى ستذكر فى آخر هذا المقال وكانت **خلاصة الفتوى:** «يجب العمل بما تملى به الضرورة وبشهادة أهل الخبرة ورأيهم، ومن هنا يجب البدء فى تجديد بناء الكعبة ويلزم من أجل تجديدها المال الحلال».

وبناء على التقرير الذى وضعه المهندسون والمتخصصون فى فن العمارة وبشهادة المسلمين قد رفعت الستائر الخشبية التى وضعت بدلا من الجدران المنهارة وانتزعت الحجارة الباقية ووضعت بكل احترام وتوقير فى مكان قريب من المدرسة الباسطية وذلك فى يوم الثلاثاء الثالث من شهر جمادى الآخرة.

وبما أنه قد شرع فى يوم الأربعاء الرابع من جمادى الآخرة فى إنزال سقف بيت الله لم يفارق رضوان أغا المهندسين والمعماريين وأمر بإنزال الرصاص الذى كان فوق السقف والأخشاب التى تثبت كسوة الكعبة، ثم وضعت هذه الأشياء بعد إنزالها فى خزينة الشموع، كما أمر بوضع التراب الذى تخلف من إنزال سقف البيت فى المطاف.

وفى يوم الجمعة السادس من جمادى الآخر اجتمع الشريف على بن بركات والأعيان والعلماء من مفتىّ المذاهب الأربعة فى داخل الحطيم الكريم وشاهدوا وتفقدوا وكان معهم الشيخ محمد على بن علان أحد المعترضين على تجديد الأبنية.

وقام رضوان أغا وعرض على المجتمعين أن ابن علان لا يوافق على هدم ما تبقى من الجدران بعد السيل وأنه يتلفظ بكلمات تؤدى إلى إثارة الفتنة بين عوام الناس ثم قال: ما رأيكم فى هذا؟ فقال الجميع: إن تجديد الكعبة قد أصبح واجبًا بناء على أقوال المهندسين والمعماريين وبناء على ما رأيتموه من الجدران المتهدمة وبهذا قد أفتوا مرة أخرى. وفى يوم السبت السابع من جمادى الآخرة أمر بإنزال البقية من السقف اللطيف ووضع جزء من البقايا بجانب المدرسة السليمانية ووضع الجزء الآخر فوق أحجار كعبة الله التى حول الكعبة المعظمة.

وكانت الغاية من وضع الأخشاب فى الأماكن المتفرقة لحفظها من الأذى الذى قد يصيبها فى أثناء هدم جدران الكعبة.

وفى وقت الضحى المذكور شرع فى هدم بقايا الجدران الكائنة فى جهة بئر زمزم وفى الغد ومن يوم الأحد الثامن من جمادى الآخرة شرع فى هدم بقايا الجدار الغربى المقابل لباب إبراهيم وأنزلت الأخشاب التى كانت فوق هذا الجدار

ثم شرع فى هدم بقايا الجدار المقابل لباب الصفا، وقد تمت إجراءات الهدم للجدار اليمانى يوم الاثنين التاسع من جمادى الآخرة وفى يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة شرع فى هدم البقية الباقية من جدران بيت الله.

وفى يوم السبت الرابع عشر من جمادى الآخرة هدموا إلى قرب عتبة باب المعلا من كعبة الله، وفى يوم الأحد الخامس عشر من جمادى الآخرة حملت عتبة باب بيت الله إلى المكان الذى ينحت فيه الحجارون الحجارة فقاموا بتسويتها، ثم قلع الباب السعيد من مكانه وحمل فوق الرءوس ووضعوه فى المكان الخالى تحت بيت المرحوم ميرزا ثم نقلوا حجارة الشادروان والركن اليمانى إلى جهات مختلفة بعد أن نزعوها من مكانها وكان فى حجارة الشادروان حلقات مغطاة بالذهب.

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من جمادى الآخرة لم يكن قد بقى أى حجر فى جدران كعبة الله إلا الحجارة التى فوق الحجر الأسود وتحته لذا طلب البناءون والنجارون إحضار جميع أدواتهم ووضعوها فى المخزن الذى يطلق عليه خزينة المال، وفى الغد الخميس التاسع عشر من جمادى الآخرة شرع فى تنظيف وحفر الأسس لجدران بيت الله الأربعة وإحضار الحجارة الكبيرة التى ستوضع فى أساس البيت واستمروا فى الحفر حتى وصلوا إلى الحجارة الخضراء وعلامات وإشارات أساس البيت القديمة من حيث بدءوا فى التجديد ورصوا طبقة من الحجارة ابتداء من الركن الشامى.

وكان الشروع فى وضع أسس بيت الله فى يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة.

ومن الأحجار الأساسية لكعبة الله إلى سقفها اللطيف يوجد خمس وعشرون طبقة من الحجارة وفق ما رتبه عبد الله بن الزبير وبما أن الأحجار الموضوعة فى الطبقة الأولى فوق الأحجار الخضراء بقيت تحت أحجار الشادروان فهى لا تدخل ضمن الخمس والعشرين طبقة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من جمادى الآخرة جهزت أحواض الكلس وأدخلوا الحجارة التى كانت فى الخارج إلى المطاف الشريف وفى الغد الثلاثاء الخامس والعشرين من جمادى الآخرة أرسلوا الحجارة التى قطعت من جبل الشبكة ونحتت وسويت بجانب مقبرة العارف بالله الشيخ محمود بن إبراهيم أدهم إلى حرم المسجد الحرام وبعد ما غسلت هذه الحجارة بجانب المقام المالكى حملت إلى جانب جدران كعبة الله.

وفى يوم الأربعاء السادس والعشرين من جمادى الآخرة أخذوا يبنون فوق الطبقة الأولى من الحجارة التي وضعت فوق الحجارة الخضراء ورفعوا البناء من الجهات الأربعة إلى أرض المطاف. وقد وجد فى ذلك اليوم فى الحرم الشريف بجانب الكعبة الشريفة قضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة وشيخ الحرم والفقهاء والعلماء حتى ينالوا شرف تقديم الخدمة فى أثناء وضع أسس البيت الحرام، ودعوا لسلطان العصر وأثنوا عليه وحملوا الحجارة بأيديهم وبعد فترة تعبوا وجلسوا فى الحطيم.

وقام رضوان أغا الذى كان معهم وأخرج من جيبه دفترًا وقرأ أسماء الشريف عبد الله وقاضى مكة المكرمة وشيخ الحرم ونائبه ووالى مكة ومفتيّ المذاهب الأربعة والآخرين ممن قاموا ببناء البيت وتجاوز عددهم العشرين ثم ألبس كل واحد منهم خلعة فاخرة وختم المجلس بالدعاء للسلطان مرة أخرى.

وقد ارتجل أحد الأشخاص من فضلاء مكة هذا المصراع من البيت يسجل فيه تاريخ اليوم.

(... تاريخ رفع الله قواعد البيت[1])

عاد المدعوون المشار إليهم بعد زيارة بيت الله ذو الأسس الذى لن يندرس بعد ما لبسوا الخلع فى داخل الحطيم وبعد ما تلوا آيات القرآن الكريم ودعوا باليمن

(١) كان يلزم أن تكون إشارة التعمير فى المصراع الأول من هذا البيت إلا أننا لم نقدر على الحصول على هذا المصراع.

والبركات للسلطان رافعين أكفهم إلى قاضى الحاجات وقد رتب بعد ذلك رضوان أغا حفاظا يجتمعون داخل المقامات الأربعة ويختمون القرآن الكريم كل يوم ثم يقرأون دعاء ختم القرآن فوق الساحة المباركة للبيت الحرام.

كما عين ثلاثة من الحفاظ الفقهاء ليشرعوا فى قراءة سورة الفتح مع بدء العمل فى البناء فى كل يوم، كما فتح بابا فى السور الخشبى الذى حول الكعبة.

وعهد رضوان أغا بمفتاح هذا الباب إلى بواب معين وكان المذكور حينما يفتح الباب كل صباح يبدأ الحفاظ الذين فى داخل المقامات الأربعة فى ختم القرآن الكريم ويشرع البناءون فى العمل كما يبدأ الحفاظ الذين داخل المقام الحنفى فى قراءة سورة الفتح.

وقد استمر هذا النظام إلى أن انتهى بناء بيت الله المفخم وقد ختم القرآن كل يوم فى المقامات الأربعة كما تليت سورة الفتح ثلاث مرات.

واشتغل البناءون فى يومى الخميس والجمعة والسبت السابع والثامن والعشرين من جمادى الآخرة بإعداد ما يلزم من مؤن لتثبيت ووضع الطبقة الثانية من الحجارة وفى يوم الأحد التاسع والعشرين من الشهر المذكور أخذوا يركبون حجارة الطبقة الثانية وفى اليوم الثلاثين من جمادى الآخرة يوم الاثنين وضعوا فى الركن اليمانى حجر استلام المطوفين المبارك.

وكان الجزء العلوى من هذا الحجر قد انكسر لذا صب البناءون فى هذا الكسر مقدارًا كافيا من الرصاص بعدما سووه جيدا مع الأجزاء الأخرى حتى يتماسك مع الحجارة الأخرى.

وفى أثناء وضع الحجر المسعود فى مكانه من الركن اليمانى جاء الشخص الكريم الذى يحمل مفتاح البيت ومسح الحجر الأسعد وما يتصل به من الحجارة بنوع من الأعشاب والعطور الأخرى.

وبعد ما رص البناءون حجارة الركن اليمانى ورصوها جيدا رصوا حجارة

الطبقة الثانية من جدران الركن الغربى والركن الشامى وفى اليوم الثانى الثلاثاء غرة رجب أنهوا رص حجارة الطبقة الثانية لجميع أركان البيت وسووها جيدا.

وفى اليوم الثانى الأربعاء قضى البناءون وقتهم فى إعداد المؤن ونقل الأشياء اللازمة وتجهيزها وفى اليوم الثالث الخميس ركبوا عتبة باب كعبة الله ذات الفيوضات الإلهية فى المكان المعد لها. كما علق الصياغ الطرف النحاسى الذى صنع للحجر الأسود بالفضة ونقلوا بواسطة البنائين والحمالين الثلاثة أعمدة التى ستنصب داخل بيت الله ومصراعى باب كعبة الله فى داخل ساحة بيت الله.

وفى يوم الجمعة الرابع من رجب الفرد انشغلوا بتخمير وتصفية المونة وإعداد اللوازم الأخرى ثم نقلوها من باب الصفا إلى مكان قريب من الأبنية السعيدة وفى يوم السبت الخامس من رجب أخذوا فى رص الطبقة الثالثة وشغلوا إلى مساء يوم الأحد السادس منه برص حجارة الطبقة الثالثة إلى الحجر الأسود وسووها وفى نفس الوقت أخذوا يسوون أطراف الألواح الخشبية التى حزمت بها جدران البيت المنير ومن ناحية أخرى غطوا غلاف الحجر الأسود الجديد بالفضة وزينوه بنقوش ذهبية، ولكن الحجارة التى كانت بجانبى الحجر الأسود ظلت منخفضة قليلا.

وفى يوم الاثنين السابع من رجب وبعد الشروق اصطحب رضوان أغا سيد محمد أفندى والمعماريين والمهندسين وأحضر معه العشرة ألواح التى كانت أعدت لأجل الحجر الأسود والتى كانت مغلفة بالفضة ومنقوشة بالذهب وثبت بها الجهة التى ظلت مكشوفة من الحجر الأسود وأمر البنائين بالشروع فى رص الطبقة الرابعة من الحجارة، وفى يوم الثلاثاء الثامن من رجب رفعوا الحجر الكبير الذى فوق الحجر الأسود وثبتوه فى مكانه وذلك فى حضور الأشراف والأعيان والعلماء والوجهاء واشترك فى رفع الحجر الكبير الذى كان فوق الحجر الأسود

(١) إن الباب الغربى المسدود كان مقابل الباب الشرقى وفوق أحجار الطبقة الثالثة. حتى إن المهندسين حينما كانوا يرصون الحجارة فى مكان الباب الغربى المسدود تركوا علامة تدل على أن فى الموقع كان باب، ومن يمعن النظر فى هذا المكان يمكنه رؤية تلك العلامة.

ووضعه فى مكانه جميع الأشراف والأعيان إلا أن رئيس المهندسين «آق شمس الدين أفندى» و «عبد الرحمن بن زيد أفندى» من معمارى الأبنية المسعودة قد اضطلعا بنفسهما بإصلاح أطراف الحجر الأسعد وتسويته وقضيا يومى الأربعاء والخميس فى هذا العمل فقط وهكذا أنهى كل ما يتعلق بأمور الحجر الأسود.

وفى ليلة الجمعة الحادى عشر من رجب الشريف قام قاضى مكة وشيخ الحرم وبعض من فقهاء البلاد بالكشف على كيفية وضع الحجر الأسود فى مكانه وأثنوا على رضوان أغا ورئيس المهندسين والمعماريين وشكروهم لما بذلوا من جهد عظيم وهمة كبيرة.

بينما كان الزوار الكرام يتفقدون وضع الحجر الأسود قال بعض المهرة من العمال الذين رأوا أن ظهر الحجر الأسود أكثر صقلا من وجهه: لو أذنتم بتبديل ظهر الحجر الأسود بوجهه لأن ظهره أصقل من وجهه ولكن رضوان أغا رفض رأى البنائين قائلا: لا، لا يجوز التلاعب بالحجر الأسود إن وضعه الحالى على أحسن ما يرام.

وكان رضوان أغا مصيبا فى رأيه، لأن الحجر الأسود ـ كما سبق فى بابه ـ كان متشققا من عدة أماكن، حتى أنه قد ربط فى أيام العباسيين من طرفيه بأحزمة فضية، وقد أبقاه رضوان أغا عل هيئته الحالية وغطى جوانبه المكشوفة بصفائح مطلية ومغلفة بالفضة وأحكم تثبيته.

وفى يوم السبت الثانى عشر من رجب الفرد شرعوا فى رص حجارة الطبقة الخامسة وبعد الانتهاء من رص الجهات الأربعة استقدموا الحدادين وكلفوهم بصنع حزام معكوس الرأس من الحزام الذى كان السلطان أحمد بن محمود خان أرسله فى سنة ١٠٢٠ هـ لربط بيت الله من جهاته الأربعة.

وقد ثقبت الأحجار الموجودة فى الزوايا من وسطها لتثبيت رءوس الأحزمة الحديدية جيدا وقد أدخلوا رءوس الأحزمة المعكوسة فى داخل الثقوب ثم صبوا فيها الرصاص المنصهر لتثبيتها، ثم نشروا ألواح الأخشاب اللازمة لتغطية جدران

البيت الحرام ثم ألصقوها بعضها ببعض وسمروها على الجدران ووضعوا الأخشاب المتبقية فى مكان أمين لاستعمالها فى السقف الشريف.

وقد أوصى المسئولون بشراء بعض الخشب من جدة وقد استحضروا هذا الأخشاب فى يوم الأحد الثالث عشر من رجب إلى مكة وحفظوها فى المخازن وفى يوم الاثنين الرابع من رجب شرعوا فى رص حجارة الطبقة السادسة من الجهة الشرقية وانتهوا إلى باب المعلا من بيت الله وبدءوا فى رص حجارة الجهة الغربية وقام النجارون بصنع القواعد التى ستنصب عليها الأعمدة فى داخل كعبة الله.

وفى يوم الثلاثاء الخامس عشر من رجب فتحوا بابًا من ناحية القصر المنسوب للملك الأشرف قنصوه الغورى للصعود على قبب المسجد الحرام وأعدو الأخشاب التى استحضرت من جدة بمسحها للاستعمال.

وفى يوم الأربعاء السادس عشر من رجب صعد سيد محمد أفندى الأنقروى مع رضوان أغا لتفقد الأماكن التى فى حاجة للطلاء.

وفى يوم السبت التاسع عشر من رجب قرروا الطلاء وقد وضع البناءون الطبقة السابعة من الحجارة وفى يوم الخميس صفوا الحوض الذى أعده من ناحية ومن جهة أخرى اصلحوا وسووا الأخشاب التى جهزت لتغطية السقف وفى يوم الجمعة أعدوا الحجارة الموجودة وفى يوم السبت قاموا بطلاء أربع قبب ناحية باب العمرة[(١)].

وفى يوم الأحد العشرون من رجب رصوا الطبقة الثانية من الحجارة وقاموا بتزيين وتحلية الأعمدة التى بجانب باب البيت المطهر والتى غلفت بالفضة بنقوش ذهبية، ثم وضعوا الخشبة التى فوق القبة العليا للباب وركبوا مصراعى البيت القديمين.

(١) سجل سهيلى أفندى فى مضبطته أنه قد استخدم فى طلاء كل قبة من هذه القبب ثلاث أرادب من مونة وأنفق أربعة آلاف قطعة ذهب لمونة أبنية الحرم وسبعة آلاف قطعة ذهب للأخشاب التى استخدمت فى البناء.

وقد كتب فوق الخشبة المذكورة بنقوش ذهبية (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد نصب العمودان اللذان بطرفى الباب والمغلفان بالفضة فى عهد السلطان المرحوم سليمان خان سنة ١٩٥٠ هـ.

والمصراعان اللذان قلنا عنهما القديمين كانا قد صنعا أيام الملك الظاهر بيبرس من سلاطين مصر وقد بليا بمرور الوقت، لذا قد بَدَّلَ السلطان سليمان غلافهما الفضى وزينها بالنقوش الذهبية ووضعهما فى مكانهما.

وفى اليوم الذى نقش فيه العمودان بدئ فى رص حجارة الطبقة التاسعة من جهة الركن العراقى وأخذوا فى صنع الإسقالة الداخلية التى احتيج إليها، لأن الجدار كان قد ارتفع عن عتبة باب كعبة الله.

لما ركب باب البيت الشريف جربه رضوان أغا بأن فتحه وأغلقه عدة مرات ثم أتى بقطعة من إسفنج نظيف وغسل جميع جدرانه بماء زمزم ثم أغلقه بمفتاح.

ولما كان المفتاح يوضع فى باب البيت مع صوت أذان الظهر ارتفعت الأدعية بطول عمر السلطان وزيادة قوة دولته ورقيها. بعد أداء صلاة الظهر أسرع البناءون بإتمام الطبقة العاشرة من جدران البيت وشغلوا إلى يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب بطلاء البيت بالكلس وإعداد الأخشاب بمسحها وتسويتها وفى نفس اليوم ركبوا أحجار الطبقة الحادية عشرة.

وفى يوم السبت السادس والعشرين من رجب أعطى ابن شمس الدين بقية الأخشاب الخاصة إلى النجارين لتسويتها وبعد ما رص البناءون حجارة الطبقة الثانية عشرة بدأوا فى نحت وإصلاح أحجار البيت الشريف القديمة.

وفى يوم الأحد السابع والعشرين من رجب استحضرت الأخشاب اللازمة لسقف الكعبة المعظمة وهيئ ثمان وثمانون عمودا خشبيا تماثل الأعمدة الخشبية القديمة فى الطول والعرض والقطر وابتدئ فى إعداد الألواح الخشبية التى تغطى الأعمدة السابقة، وذلك بمسحها الطبقة الثالثة عشرة كما رصوا قطع الرخام اللازمة لسطح البيت على الأرض بعضها بجانب بعض لفرزها وما وجدوه معيبًا

نحوه جانبا لتسويته وإصلاحه، وبعد ذلك بدءوا فى رص أحجار الطبقة الرابعة عشرة التى تعد مبدأ النصف الأعلى للكعبة المعظمة.

عندما ارتفعت جدران كعبة الله إلى نصف علوها امتلأت ساحة المسجد الحرام سواء بالحجارة القديمة أو كانت الأحجار الجديدة المنحوتة والمستلزمات الأخرى مثل الكلس والرمال والأخشاب حتى لم يبق مكان للسير فى المسجد الحرام.

وأخذ الناس فى الشوارع والأسواق والمحافل العليا والسفلى وخاصة فى المجالس غير الرسمية التى تجتمع فى داخل الحرم الشريف يتحدثون ويقولون إن رضوان أغا يهين البيت الأعظم وذلك أنه قد نوى أن يكسب أموالا كثيرة بزيادة النفقات غير اللازمة.

إن أحدًا من الأسلاف لم يتجرأ بأن يمد يده للحجارة التى بنى بها خليل الله ـ عليه السلام ـ الكعبة. وما الحاجة إلى الحجارة الجديدة؟! مادامت الحجارة التى بنا بها عبد الله بن الزبير الكعبة متوفرة؟! وقد أطال الناس ألسنتهم على رضوان أغا بمثل هذه الكلمات غير اللائقة وأبلغ بعض العلماء الخيرين رضوان أغا بهذه الأقوال؛ وبما أن رضوان أغا انزعج انزعاجا شديدًا وخاف من حدوث فتنة وبما أنه كان بريئا من كل ما يجرى على ألسنة الناس ظل يطوف البيت سبع مرات بعد أداء الصلاة مدة شهرين أو ثلاثة أشهر ويتضرع لواهب الآمال باكيا؛ وكان يخاطب ربه فى ختام كل طواف بكل تذلل وانكسار رافعا يديه ويقول:

يا رَبِّ إنك ترى كل شىء إن الأنبياء العظام والأولياء ذوى الاحترام وكافة الملائكة نالوا المغفرة بخدمة بيتك العظيم. إن هدفى من كل عملى هو نيل رضاك وليس إهانة البيت. يا إلهى أخف واستر بجاه قدرتك وعظمتك الأشياء الزائدة عن عيون الناس وأنج عبدك هذا من اعتراضات الناس وأقاويلهم يا رب إذا زادت الأحجار والأشياء الأخرى عن حاجة البيت. فمر ملائكتك يرفعونها إلى السماء أو يدفعونها فى الأرض، وبمثل هذه الأقوال أخذ يناجى ربه باكيا منتحبا.

وقد أصاب دعاؤه هدفه فنال الاستجابة، إذ لم يزد أى شىء عن حاجة البيت سواء كانت الحجارة الجديدة أو الحجارة القديمة أو المستلزمات الأخرى وكأن كل شىء حسب حسابه بدقة شديدة لم يزد حجر ولم ينقص حجر. انتهى.

وفى يوم الأربعاء غرة شعبان رفعت الستارة الخضراء التى كانت تغطى الكعبة إلى نصفها ورأى الأهالى غرة كعبة الله ورفعوا أيديهم بالتضرع إلى الله شكرا ومسحوا وجوههم فى كعبة الله المفخمة. وفى يوم الجمعة الثالث من شهر شعبان فرشوا رخام النصف الثانى للسطح الشريف ووضعوا على كل واحد منه علامات معينة وأعدوا الأخشاب اللازمة، وفى اليوم الرابع من رجب الموافق يوم الجمعة رفعوا ستارة البيت وطووها.

رفعت ستارة كعبة الله الشريفة وظهر جمال كعبة الله بدون نقاب حينئذ امتلأت قلوب أهل مكة بالفرحة والسرور ولمعت عيونهم بالنور وأخذوا يدعون له ولسلطان العالم خير الدعاء.

وفى يوم الجمعة شرع فى رص الطبقة السابعة عشرة من الحجارة وتم معاينة أخشاب معظم السقف واختير الصالح منها لاستخدامها فى السقف أيضا ونُحِّيَتْ جانبا، وفى يوم الأحد الخامس من شعبان كلست ودهنت القباب الثلاثة الشمالية التى أعدت لذلك قبل ثلاثة أيام، وفى يوم الاثنين السادس من شعبان شرع فى تعمير مئذنة[1] باب الحزورة وفى يوم الأربعاء الثامن منه قد كُرِّمَ أحمد قبانى أفندى الذى كان أرسل الأخشاب اللازمة من جدة إلى مكة وذلك بإلباسه الخلعة وبهذا أعلى قدره، كما حفر أسس الأعمدة التى فى داخل الحرم وجعل لها قواعد من حجر الشمليس، وفى يوم السبت الحادى عشر من شهر شعبان المعظم رفعت أسقالة أبنية البيت السعيد وعلقت الألواح الخشبية التى أعدت لاستخدامها فى تغطية السقف الشريف فى أربعة أماكن لتكون جاهزة للاستخدام عند الطلب.

وفى يوم الأحد الثانى عشر منه أصلحوا وسووا الرخام المرصوص حول

(١) تم تعمير هذه المئذنة فى خمسة أيام.

الجهات الأربعة للبيت الحرام، وفى يوم السبت الحادى والعشرين أخذوا فى تأسيس شادروان كعبة الله مبتدئين من الحجر الأسود إلى حجر إسماعيل، فنصبوا أحد الأعمدة التى فى داخل الكعبة وثبتوها فوق القاعدة المصنوعة من الحجر ولزيادة المتانة صبوا حولها الرصاص المنصهر.

وفى يوم الثالث عشر نصبوا العمودين الثانى والثالث فى جهة، ومن جهة أخرى طلوا القباب الغربية وجدران الشادروان التى انتهى بناؤها بعد أن وضعوا بقية الخشب التى وصلت من جدة بالقرب من جدران بيت الله.

وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من شعبان رفعوا الأشياء اللازمة للسقف الشريف.

ورصوا حجارة الطبقة العشرين وفى يوم السبت الثامن عشر منه طلوا الأعمدة التى داخل الكعبة بالزعفران ثم مسحوها بالصمغ العربى والغراء وفى اليوم التاسع عشر (الأحد) انتهوا من ترميم مئذنة باب الحزورة وفى يوم الثلاثاء صنعوا السقف العالى[١] لبيت الله.

وفى يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان وضعت أعلام قبب المسجد الحرام فى أماكنها بعد تزيينها وفى يوم الخميس الثانى والعشرين رصت حجارة الطبقة الخامسة والعشرين وجمعت الباقية من مبانى البيت الشريف نقلت إلى جانب المقام المالكى[٢].

وفى يوم السبت الرابع والعشرين وضعت مداخل السقف الثانى وشرع فى صنع السلم[٣] الذى يصعد منه إلى سطح كعبة الله وحلت جميع الإسقالات التى فى داخل الكعبة المعظمة وأخرجت خارجها.

وفى يوم الأحد الخامس والعشرين بعد أن فرشت قطع الرخام فوق السقف

(١) يوجد فاصل بين السقفين مقداره ما يقرب من ذراع معمارى.

(٢) كان عدد الحجارة خمسين حجرا.

(٣) كان هذا السلم حلزونيـاً ويتكون من اثنتى عشرة درجة. عجز النجارون عن إكماله ولكنهم استطاعوا أن يكملوه بعون مهندس مصرى يسمى عبد الرحمن.

الشريف أخرجت الكسوة الحمراء للمقام الشريف وفرشت فى صحن مسجد قريب من باب أجياد وخيطت جيدا ثم أخرجت الستارة السوداء المحفوظة داخل المقام الشريف ووضعوها بجانب سبيل المؤيد. وعلقت الكسوة الحمراء فى سقف كعبة الله وربطت فى الحلقان الجديدة وذلك فى وقت العصر. وكانوا يربطون الستارة من قبل ذلك بمسامير يغرسونها داخل أبنية بيت الله.

رؤيا غريبة

قدم أحد الصالحين الكرام من بخارى لزيارة الحجرة المعطرة النبوية فى المدينة المنورة إلا أنه مرض فى مكة المكرمة فى أثناء تجديد الكعبة واضطر لأن يبقى هناك.

وقد رأى فى منامه النبى - ﷺ - وقد لبس قميصا أبيض وقال له:

«طب نفسا... ولا تتألم ولا تحزن... إن زيارتك قد قبلت... نحن هنا منذ أن شرع فى تجديد أبنية كعبة الله ولن نغادرها حتى يتم تجديد مبانى كعبة الله».

حكاية أخرى

قد رأى أحد الصالحين فى رؤياه كثيرا من جنود الجن فخاطب واحدا منهم: إنكم كتيبة من طائفة الجن ما سبب بقائكم فى الحرم الشريف؟

فأجابه قائلا: نحن من طائفة الجن. وبما أننا مسلمون قد أمرنا بخدمة بيت الله، لأجل ذلك دخلنا الحرم الشريف لنقوم بالعمل! قائدنا فى المدرسة الداودية. وكنا هنا منذ الشروع فى بناء البيت ولن نترك هذا المكان حتى ينتهى العمل فى أبنية بيت الله. انتهى.

وفى يوم الاثنين السادس والعشرين تمت خياطة بقية الستارة الداخلية وعلقت فى مكانها. وقدم أمير يَنْبُع سيد على ابن الدراج مع رسول والى مصر محمد على باشا حاملا الخلعة لأمير مكة المعظمة.

وكانت الأحزمة الحديدية، والميزاب الشريف الذى كان مطليا بالمينا البنفسجى

فوق الفضة والتى أرسلها السلطان أحمد سنة ألف وعشرين حفظت فى دار رضوان أغا فى أثناء تجديد المبانى الكريمة، وفى يوم الأربعاء الثامن والعشرين أخرجوها حاملين إياها بالتسبيح والتهليل والتوقير والتعظيم، وركبوها فى مكانها فى البيت المعظم. وكان الأشراف والعظماء والأعيان والعلماء الكرام وأهل مكة فى أثناء ذلك قد اجتمعوا فى المقام الحنفى حيث كانوا يشاهدون كيفية وضع الميزاب الشريف، ولما تمت العملية عادوا وهم يدعون لسلطان العصر.

وفى يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان نزعوا معظم الأساقيل وقد انتهوا من جميع الأعمال الخاصة بالطلاء والتبييض ورص الحجارة والرخام، وفى الجمعة الثلاثين من شعبان هيئوا أحواض الكلس وخمروه. وفى غرة رمضان ومع طلوع الشمس نشروا ستارة كعبة الله السوداء أمام باب الصفا ونظفوها جيدا ثم رفعوها إلى سطح كعبة الله فى حضور أمير مكة والأشراف والأعيان والقضاة والعلماء والفقهاء وشيخ الحرم وقاضى مكة المكرمة وصعد رضوان أغا مع العمال فوق السطح الشريف وألبس الكعبة الشريفة الستارة وربطها من أطرافها الأربعة ربطًا جيدا، ثم أحضر ستارة باب المعلا للكعبة الشريفة من مقام إبراهيم وعلقها فوق الباب ذو الفيوضات الإلهية.

وبعد ذلك ترك خادمو البيت الستارة الشريفة من فوق السطح حتى وصلت إلى أرض المطاف. ثم أحضر عشر خلع بأمر رضوان أغا وألبس الشريف عبد الله اثنين منها كما ألبس منها الباشا الوالى وحامل مفاتيح الكعبة وناظر الأبنية السعيدة سيد محمد الأنقروى أفندى وأعطى خلعة للشخص الذى عينه ثم ألبس الباقى لرؤساء العمال من البنّائين والنجارين.

وفى ليلة الأحد اليوم الثانى من رمضان أوقدت قناديل بيت الله وفى يوم الأحد فرشوا رخام السطح الشريف كما تم فى نفس اليوم جميع الأعمال الخاصة بالشادروان.

وفى يوم الاثنين الثالث من رمضان جاء من قبل والى مصر الوزير موسى

باشا، رسولاً يحمل خلعة سلطانية ورسالة إلى الشريف عبد الله وجمع الشريف عبد الله الأشراف والعلماء والفقهاء فى ساحة الحطيم الكريم ليلبسه الخلعة السلطانية أمام الناس ثم قرأت الرسالة السلطانية وأمر بفتح بيت الله. ودخل الناس داخل كعبة الله حيث صلوا صلاة الشكر ودعوا للسلطان بطول العمر ثم تفرقوا.

وزار الرسول الذى حمل الخلعة من مصر، رئيس المعماريين يوسف أغا والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى والشريف عبد الله بناء على دعوته وكان معهم حامل مفاتيح بيت الله قارئ الأدعية أبو السرور ورئيس المؤذنين. وقد ألبس كل واحد منهم خلعة من قبل الإمارة الجليلة.

وفى يوم الثلاثاء الرابع من رمضان صعد البناءون فوق سطح البيت وحلوا الأساقيل ووضعوا أنقاضها منها فى مكان قريب من رباط الغورى كما انتهوا من ملء شقوق الحجارة وطلاء الجدران وشرعوا فى تجديد محراب المقام الحنبلى. ثم أخذوا فى فرش وتركيب قطع الرخام التى تتصل بأرض المطاف مبتدئين من الركن اليمانى ومتجهين نحو الحجر الأسود، وفى يوم الاثنين العاشر من رمضان هدم المهندس المصرى عبد الرحمن أفندى جدار المقام الحنبلى وبناه من جديد.

وفى يوم السبت الخامس عشر من رمضان تفقد رئيس المهندسين آق شمس الدين أفندى والمهندس المصرى عبد الرحمن أفندى مع رضوان أغا دار السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ لإصلاح ما يحتاج للترميم منها وهدموا المقام المالكى وجددوا بناءه بالحجر الشبيكى.

وفى يوم الأحد السادس عشر من رمضان رفعت الآلات والأدوات التى كانت فوق حِجْرِ إسماعيل وحفرت الأرض بدءا من جهة مقام إبراهيم من الباب إلى الباب الآخر من الحطيم الكريم وذلك لتجديد وإصلاح جدران الحِجْر[1] وفى أثناء

(١) فكلمة الحجر التى جاءت مضافة إلى إسماعيل تقرأ بكسر الحاء وسكون الجيم.

الحفر أخرجوا كثيرا من الحجارة. ويحتمل أن تكون هذه الحجارة من بقايا الجدران التى بناها عبد الله بن الزبير. وقد كتب الإمام الأزرقى فى تاريخه إن الحجاج الظالم قد دفن الحجارة المتبقية فى جوف الكعبة.

وبعد ما تم إصلاح وترميم حجر إسماعيل رفعت الأساقيل وجمع كل ما على الأرض من لوازم البناء وكومت تحت القباب التى فى باب إبراهيم ثم كنست الجهات الأربعة للبيت الحرام ومسحت بالماء. وقد هدمت جدران الحطيم وشرع فى بنائها فى يوم الاثنين السابع عشر من رمضان وانتهى البناءون من بنائها يوم الخميس العشرين من رمضان كما غطوا الجهة التى فى مقام إبراهيم بالرخام.

وقد كتبت على قطعة رخام منها أسماء الخلفاء العظام، والسلاطين الذين جددوا ورمموا الحطيم الكريم، وكان جدار الحطيم الذى تهدم بناه سلطان مصر الغورى فى القرن العاشر.

وفى يوم الأحد الثالث والعشرين غطى البناءون جدران الحطيم الداخلى المقابل للكعبة الشريفة.

وفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رمضان نقلت قطع الأخشاب التى بقيت أمام باب إبراهيم. إلى جهات باب الزيارة، وبعد ذلك رمم الرصيف الذى بين المطاف الشريف والحرم اللطيف.

وفى يومى الثلاثاء والأربعاء الرابع والعشرين والخامس والعشرين من رمضان ركبوا الباب الحديدى الذى يؤدى إلى سلالم سطح الكعبة الشريفة.

وفى يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أسدل المهندس محمود أفندى أمام الحجر الأسود ستارة وأخذ يملأ الشقوق التى حول الحجر الأسود ويثبته وفى يوم الجمعة السابع والعشرين من رمضان تمت الأعمال التى فى داخل الكعبة.

وقد تفقد سادة البلاد وموظفو الحكومة الأماكن التى بنيت والأشياء التى

صنعت وشاهدوا جمالها الظاهرى ورصانة المبانى وقدروها حق قدرها. وسدوا الباب الغربى الذى ظل مفتوحا لذلك اليوم بالحجر الشبيكى وكتبوا محضرا يبينون فيه أن الأبنية السعيدة قد تم العمل فيها على أحسن وجه من الرصانة والجمال. وأبلغوا ذلك إلى والى مصر العام.

وخلع السلم الموقت الذى كان قد صنع لنزول النجارين والبناءين وصعودهم أثناء البناء. وأخذوا بعد ذلك يصيغون داخل القبة الكبير ـ هذا المكان الآن ساحة دار الكتب التى نقلت إلى داخل المدرسة السليمانية ـ وانتهوا منه فى ذلك اليوم.

ونزعوا العمود الذى يحمل قبة سقاية العباس ـ هذا المكان الآن ساحة الدار المؤقتة الذى أدخل ناحية باب السلام ـ وبما أن أسفل ذلك العمود كان قد بلى غيروه بالحديد وصنع البناءون القبب الشمالية من المسجد الحرام ثم غيروا كسوة الكعبة القديمة والستارة التى على الباب وألبسوها الستارة الجديدة كما علقوا الصفحة[1] فوق باب الكعبة وقد تمت هذه العمليات إلى آخر رمضان الشريف. قد كتبت على الصفحة البنفسجية المذهبة المعلقة فوق باب كعبة الله الآية الآتـية: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ (آل عمران: ٩٦، ٩٧).

كما كتب تحتها التاريخ الآتى:

تاريخ اللوح

اللوح ذا لما استرم مجددا

قد بدل السلطان أحمد عسجدا

قيدا له من حديد ذو جدا

الله أنعم بالمجدد أيدا

الهمت في تاريخه لما بدا

للوح ذا السلطان أحمد جددا

١٠٢٠

قد سطر هذا التاريخ فوق الأحزمة الحديدية التى أرسلها السلطان أحمد فى سنة ١٠٢٠ فى ثلاثة أسطر.

بعد ما علقت الستارة المذكورة نزلت الكسوة القديمة وعلقت الستائر الجديدة البديعة. وكان من عادة الملوك كلما بدلت ستائر الكعبة القديمة أن تقسم هذه الستارة بين خادمى بيت الله كما فصل فى الصورة الخاصة بهذا الموضوع.

مكافأة رضوان أغا على جهده وإخلاصه

قد قدر ما بذله رضوان أغا من جهد جهيد وسعى عظيم وما أظهره من إخلاص وحرص شديد فى أثناء بناء الكعبة وقوبل بإعجاب شديد؛ لذا قرر الشريف عبد الله حامل مفاتيح الكعبة والآخرون ممن يقومون بخدمة البيت الحرام أن يتنازلوا عن حصصهم فى الكسوة القديمة وأن يجعلوها هدية وهبة التقدير والتهنئة لرضوان أغا وعرضوا الموضوع عليه قائلين: إن ما بذلتم من الجهود وما أظهرتم من همة وما قدمتم من سعى لَمُقَدَّرٌ عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ ولا شك أنكم ستنالون ثوابه، إلا أننا نتمنى أن ينال رجاؤنا هذا القبول عندك.

قد قبل رضوان أغا ما عرضوه عليه ولكنه قال: وليس من المعقول أن أحرمكم من فوائد هذه العادة الطيبة، قد تلقيت هديتكم بحسن قبول، وإذا ما تفضلتم بقبول هديتى هذه مقابل هديتكم على أن توزع بين خدام بيت الله لزدتمونى فرحا وسرورا ثم أعطى أربعين ألف قطعة ذهب هدية لخدام البيت.

وقد فتح باب البيت الشريف فى يوم الخميس الخامس من شوال ودخله الرجال والنساء وتضرعوا إلى الله منتحبين باكين ودعوا للسلطان بدوام دولته وشوكته.

وفى يوم السبت السابع من شوال غيروا قطع الرخام التى تكَسَّرَتْ ثم حفروا حفرة بين المدرسة السليمانية وبين دار ميرزا وملئوها بالأدوات والآلات الخاصة بأبنية كعبة الله وهالوا عليها التراب وغطوها بالحصى.

ثم رفعوا مخلفات الهدم المتراكمة بين باب الزيارة وبين المدرسة السليمانية وغيروا الدعائم الخشبية البالية لمقام إبراهيم.

وفى يوم الأحد الثامن من شوال قلعوا باب مقام إبراهيم ووضعوا مكانه ستارة ودهنوا الباب فى داخل هذه الستارة وطلوه وزينوه بالذهب وأصلحوا الطرق التى بين صفة المطاف وباب السلام وباب الزيارة وباب العمرة وباب الحزورة وباب الصفا وسووها وغيروا حجارتها.

وفى يوم الاثنين التاسع من شوال جددوا الأحزمة الحديدية التى حول الدعائم التى تحمل القبب ورمموا قبة سقاية العباس بعد أن نصبوا الإسقالة وجددوا الأماكن التى كان قد رممها شيخ الحرم حسن باشا.

وفى سنة ١٠٢٠ وفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال دهنوا الشباك الذى بين شبابيك مقام إبراهيم بالدهان الأخضر ثم زينوها بنقوش ذهبية وكتبوا اسم السلطان مراد خان الرابع فى جهة من جهاته.

وفى يوم الأحد الخامس عشر من شوال طهروا مجرى باب إبراهيم بعدما سحبوا المياه التى كانت قد تراكمت تحت أحجار كعبة الله.

وبعده بيوم فى السادس عشر من شوال طهروا باب الزيارة وباب السلام وأرض المسجد ونقوا البئر التى فى ساحة باب الندوة وكان ماء هذه البئر مشابها لماء زمزم، وكان حسن باشا قد نقى هذه البئر من قبل إلا أنه كان قد سدها مؤخرا وأما فى هذه المرة فقد طهرت ثم غطوها.

وفى يوم الثلاثاء السابع عشر من شوال غسلوا الرمل المفروش فى الحرم الشريف ثم فرشوه مرة أخرى وأصلحوا سلم السطح الشريف.

وفى يوم الأربعاء الثامن عشر من شوال صبغوا مئذنة باب العمرة.

وفى يوم الخميس التاسع عشر من شوال حفروا حفرة عميقة وبنوا سدا متينا ليمنعوا دخول السيول التى قد تأتى من ناحية جبال أجياد.

وفى يوم الجمعة العشرين من شوال جلوا رخام كعبة الله الذى فى جدرانها الداخلية، ووضعوا الكرسى الخاص لجلوس حامل مفتاح الكعبة فى مكانه بعدما زينوه، وكان هذا الكرسى مرصعا مزينا وقد أهدى فى عصر سلطان مصر الغورى وقد صنع بمصر.

وقد طلى كمر باب بيت الله فى ذلك اليوم وكتبت فوقه الآية المنيفة: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠) كما كتب آية واحدة من أول سورة ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ وكتب تحت هذه الآية المنيفة اسم السلطان مراد الرابع وتاريخ الأبنية المقدسة ـ الذى سيحرر فيما بعد ـ بحكمة على أرضية لازوردية وطليت الكتابة بالذهب.

* * *

موسوعة

مرآة الحرمين الشريفين

وجزيرة العرب

صنفها باللغة التركية العثمانية

أيوب صبري باشا

(المتوفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٩٠م)

أشرف على ترجمتها

الدكتور محمد حرب

الجزء الثاني

دار الآفاق العربية

طبعة

١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م

دار الآفاق العربية

القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٧٤٢٢

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977 - 344 - 086 - 9

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤١ - ٨٣٣٨٢٤٢

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

مرآة مكة والمدينة وجزيرة العرب

الجزء الثانى (مرآة مكة)

قــام بترجمتها

الدكتورة ماجدة مخلوف

الدكتور حسين مجيب المصري — **الدكتور عبد العزيز عوض**

راجعها على نصها العثمانى

أديب عبد المنان — على أوزلى

راجعها وأعدّها للنشر

محمود جيـرة الله

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

تقرب بتجديد هذا البيت العتيق إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ خادم الحرمين المحترمين وسائق الحجاج من البرين والبحرين السلطان بن السلطان مراد خان بن السلطان أحمد خان بن السلطان محمد خان خلد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ملكه وأيد سلطنته فى أواخر شهر رمضان المبارك المنتظم فى سلك سنة أربعين بعد الألف من الهجرة النبوية ـ على صاحبها أفضل التحية سنة ١٠٤٠.

وفى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شوال أنهى البنّاءون أعمالهم.

وفى السبت الخامس من ذى القعدة صنعوا مئذنة باب الزيارة وبنوا الجدار الذى يواجه صفة باب إبراهيم وأتموا صبغ حجارة الشادروان وداخل مبانى بئر زمزم وكذلك صبغوا بالكلس مئذنة السلطان قايتباى المصرى والدار التى ولدت فيها فاطمة الزهراء ـ رضى الله عنها ـ وأتم البنّاءون صبغ دار ولادة فاطمة رضى الله عنها مهبط الوحى الإلهى ومعبد سيد المرسلين.

وفى يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة أتموا صنع حجر التاريخ ووضعوه فى دار ناظر الحرم.

وفى يوم السبت الثالث عشر من ذى القعدة طلوا ذلك الحجر بقشرة وزخرفوه بالذهب. وبعد ذلك سدوا الحفر التى حفرت من أجل الكلس.

وفى يوم الاثنين الخامس عشر من ذى القعدة أصلحوا قبة العباس والأبنية التى بجانبها، وفى يوم الثلاثاء السادس عشر من ذى القعدة أصلحوا قبة الفراشين وبيت زمزم وكمر بابه.

وفى يوم الأربعاء السابع عشر من ذى القعدة اجتمع رضوان أغا ومعه الشريف عبد الله وقاضى مكة وشيخ الحرم وأعيان البلد أمامهم جميعا لحمل

القناديل التى وضعت فى بيته لحفظها، وكان عشرون منها من ذهب وكان أحدها مرصعا باللآلئ وكان ثلاثون منها من فضة، وسلموها جميعا إلى حامل مفاتيح البيت محمد شيبى أفندى، وقد تأكد مرافقو رضوان أغا أمام جميع الناس من صحة ما قيد فى الدفاتر من القناديل، ثم استقدموا رئيس الوقادين ليعلقها فى أماكن مناسبة.

وبعد ذلك بيومين فى التاسع عشر من ذى القعدة وضعوا لوحة التاريخ المذهبة السابقة الذكر فى مكان مقابل الباب الشرقى وثبتوا أطرافها.

وفى يوم السبت العشرين من ذى القعدة فتحوا باب بيت الله وغسلوه بزمزم ومسحوه بالإسفنج وبخروه بأنواع الطيب وذبحوا القرابين ووزعوا لحمها لفقراء مكة.

وفى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ذى القعدة تم جلى الأحجار، وفى يوم الخميس الخامس والعشرين من ذى القعدة أنزلوا ستارة بيت الله ونظفوا الجدار الذى فيه باب الكعبة وجميع جدران الناحية الجنوبية.

وفى غُرَّة ذى الحجة أصلحوا ما حول الحجر الأسود وغطوا الشقوق وطلوا أطراف الحجر الأسود باللون الأسود وهكذا أتموا عمليات أبنية المسجد الحرام.

دعا رضوان أغا الأكابر والأشراف والأعاظم والسادات والعلماء والفقهاء من مكة المكرمة فى اليوم الذى انتهى فيه من تجديد البيت، وعرض عليهم العمارة الجيدة لكعبة الله وجعلهم يعجبون برصانة ما تم عمله فى البيت الحرام وسطحه والمسجد الحرام فى داخله وخارجه مما أدخل الفرح والابتهاج فى قلوب الناس فانشرحت صدورهم فدعوا للسلطان بطول العمر له ولدولته.

بعد ما شاهد المدعوون بيت الله أخذوا يتلون القرآن الكريم وختموه عارضين شكرهم.لله كما دعوا لقاضى الحاجات بدوام القوة والعزة للدولة.

كما ألبس الشريف عبد الله خلعا غالية لرؤساء العمال الذين عملوا فى البناء وذلك ليظهر مدى ابتهاجه بما تم عمله ولم ينس رضوان أغا إذ ألبسه خلعة مفخمة تليق بمكانته.

قال سلطان الشعراء العثمانيين مولانا عبد الباقى وهو يبين كيف تم تجديد بناء كعبة الله على يد الحجاج الظالم فى السنة الرابعة والسبعين الهجرية: (لم يعط مسوغ لتجديد كعبة الله بعد الحجاج حتى لا تكون كعبة الله ملعبة فى يد الملوك.

إلا أنه كان يجب تطهير الكعبة التى هى قبلة المسلمين والمطاف الذى يجب طوافه على القادرين من المسلمين - وكان يلزم إضافة تجديد كعبة الله إلى هذا السفاك غير المنصف. وخاصة أن تجديد بناء الكعبة لم يعد بيد ابن الزبير وإن خدمة هدمها وتجديدها سيكون من نصيب أحد الملوك العظام من المسلمين. وإننى أرجو من الله أن يفوز بهذه الخدمة أحد سلاطين الدولة العثمانية).

وقد أصاب دعاء مولانا المشار إليه هدفه واستجيب دعاؤه وقد نال هذا الشرف العظيم السلطان مراد خان الرابع بينما كان باقى أفندى يتمنى رؤية تجديد البيت الشمالى فقط. قد وفق ذلك السلطان العظيم فى تجديد جدران كعبة الله الأربعة.

الخاتمة:

إن ما قام به رضوان أغا من أجل تجديد الأبنية المفخمة للبيت الشريف من خدمات وما بذله من سعى مخلص ومن جهد جهيد وحسن معاملته أهل كعبة الله المحترمين ومجاملتهم ومداراة عيوبهم كل هذا يدل على استحقاقه الثناء والشكر وأن يذكرونه دائما بالخير.

يقول سهيل أفندى صاحب المضبطة الذى كان يقوم بمراقبة الشئون المالية فى نفس الوقت الذى كان رضوان أغا قائمًا بتجديد أبنية كعبة الله: «إذا كان المسئول المكلف بتجديد الكعبة غير رضوان أغا لكان أشراف مكة وطائفة النجارين كسبوا مقدار مائتى ألف قطعة ذهبية من عمليات بناء وتجديد الكعبة الشريفة وعين عرفات - هذا ما اعترفوا به لصاحب المضبطة - إلا أن رضوان أغا استطاع بكياسته أن يسكت الذين فتحوا أفواههم بالكلام بإعطائهم شيئا قليلا، كما أخجل الأشراف بحسن معاملتهم، وهكذا جعلهم كلهم يشاركونه فى رأيه ويعينونه فى إنهاء الأمور الصعبة، وكان يقول لهم: سوف أحصل لكم فى نهاية هذا العمل

العظيم وما قدمتموه من الخدمات الجليلة على مكافآت من قبل السلطان فى صورة المناصب التى ترضيكم. كما كان يرضى الآخرين بوعود قد لا تتحقق وهكذا أتم هذا العمل العظيم فى صورة هينة سهلة. جزاه الله تعالى خيرا كثيرا.

فيا لها من سعادة سرمدية ويالها من دولة وعزة أن يتم هذا كله فى عهد السلطان مراد بن السلطان أحمد خان بن محمد خان الغازى السابع عشر من سلاطين آل عثمان خلد الله ـ تعالى ـ ملكه وجعل بساط البسيطة ملكه ونورالله تعالى مراقد أسلافهم وحفهم بالرحمة والرضوان.

إن إتمام تجديد كعبة الله وبنائها لدليل عظيم على سعده وحسن طالعه، قد مضى ألف سنة وتوالى السلاطين ومع ذلك لم يقدر لأى واحد منهم أن ينال شرف بناء بيت الله ألاَ يقوم هذا برهانا قاطعا وأمارة واضحة على أنه سينال السعادة الأبدية والنصرة السرمدية؟. ونسأل الله أن يجعل عرشه فى سماء العز واليمن والبركات وألا يخلو من سرير الخلافة جلوسه. آمين بجاه سيد المرسلين.

وبعد عودة رضوان أغا إلى مصر بعام واحد اقتضت حكمة الله أن يهطل المطر فى مكة وأن يفسد ما فرش على سطح بيت الله من رخام، فأصبحت حالة سطح بيت الله حالة سيئة، وخلع ألواح الفضة من على الباب فظهر منها الخشب وقد أصاب العطب الخشب إلى حد عدم تماسك المسمار فيه. وكان مصراعاه قد بليا إلى درجة سيئة لقد خَشَّبَتْهُمَا حتى أصبحا غير قابلين للتعمير والترميم، ومع ذلك لم يسمح بتجديد الباب ولم يستسغ شرعا من قبل، ولما كان مقام إبراهيم فى نفس الحالة من السوء اقتضى الأمر تجديدهما معا.

وقد كتبت إمارة مكة الجليلة الهاشمية إلى صاحب القرار السلطان مراد ـ جعل الله سلطنته باقية فيه وفى عقبه إلى يوم التناد ـ تحيطه علما بالحالة، فما كان من السلطان إلا أنْ أمر والى مصر أحمد باشا بأن يبعث إلى مكة المفخمة برضوان أغا الذى كان فى أمانة كعبة الله أو شخصا آخر متدينا مخلصا مصاحبا معه مهندسا معماريا ذا دين وخلق.

استدعى أحمد باشا رضوان أغا ورئيس المهندسين عبد الرحمن أفندى الذى كان قد اشترك فى تعمير البيت من قبل وأطلعهما على الإرادة السلطانية السنية الخاصة بإصلاح سقف بيت الله وتجديد باب المعلا للكعبة الشريفة وترميم وتعمير مقام إبراهيم. وأن يرسل باب الكعبة القديم إلى دار السعادة ليحفظ فى الخزانة السلطانية للتبرك به. وأمرهما أن يتجها رأسا إلى مكة المكرمة للقيام بالمهمة وسلم الوالى رضوان أغا الخطاب السنى الذى وجه إلى الشريف زيد بن محسن من قبل السلطان وكذلك الرسائل التى كتبت من قبل الولاة المصرية بخصوص هذا الأمر والمبلغ الكافى من النقود.

ولما اطلع رضوان أغا على الأمر السلطانى تحرك بأمر الوالى بالموكب المصرى مغادرًا القاهرة ومتجها إلى والى الحجاز ووصل إلى مكة المكرمة فى أوائل ذى الحجة سنة ألف وأربع وأربعين الهجرية وسلم إلى الشريف زايد بن محسن ـ أمام من يقتضى وجوده من العظماء ـ الأمر السلطانى وخطاب الوالى. وبعد ما قرأ الشريف الأمر السلطانى قالى إنه سيحرص على العمل بما جاء فى الفرمان السلطانى.

إن تكليف رضوان أغا بهذه المهمة كان عاملا لإثارة النزاع بين المعترضين للمرة الثانية. وإن كثيرًا من العقلاء من أهالى مكة أرادوا أن يقضوا على النزاع قائلين قد صدر الأمر السلطانى بهذا الخصوص فلا يجوز النزاع بعد ذلك. إلا أن بعض الفضلاء قالوا معترضين: إن تعمير البيت لا يجوز شرعا وهم فى هذه الحالة مخالفين بذلك حتى وصية الشريف ولم يكون غرضهم من الاعتراض إلا إحداث الفتنة والفساد إلا أنه كان بين المخالفين بعض المنصفين الذين وافقوا على الأمر السلطانى، واتحدوا مع العلماء فى الرأى على تجديد الباب الشريف وإصلاح رخام السقف المنيف لكعبة الله.

وأيقظوا عامة الناس ونبهوهم إلى أن الكعبة المعظمة قد جددت من قبل مرات

عديدة وذلك بتأييد من العلماء والفقهاء والفتاوى التى صدرت من قبل مفتىّ المذاهب الأربعة.

وقد استمع الشريف زيد بن محسن لقراءة الفرمان السلطانى وهو واقف على رجليه وبعد القراءة مسح بالصفحة التى تحوى الأمر السلطانى وجهه وعينيه ثم استمع إلى ادعاء المعارضين ودفاع الفقهاء العظام ثم خاطب الناس قائلا: بناء على حكم الفتاوى التى أصدرها مفتيُّو المذاهب الأربعة يجب تنفيذ الأمر السلطانى الذى لا يخالف فتوى المفتين بخصوص ترميم وإصلاح السقف الشريف وتجديد باب كعبة الله وتعمير وترميم مقام إبراهيم وبناء على هذا أمر رضوان أغا بأن يسرع فى مباشرة مهمته.

وقد بادر رضوان أغا فى العمل وأنهى تعمير سطح كعبة الله فى أواسط ذى الحجة من عام ألف وأربعة وأربعين. وقد قيل من قبل شعراء عصره فى تاريخ انتهاء الترميم كثيرا من الأبيات إلا أن أحسن ما قيل فى هذا الموضوع هذا البيت:

المجدد لسطح بيت الله هو مولانا مراد(١)

وبعد ترميم السطح ابتاع رضوان أغا من أحد سكان مكة مقدارا من خشب الساج لاستخدامه فى تجديد باب بيت الله وتثبيته ولم يبخل فى سبيل ذلك بإنفاق المال اللازم وقبل أن يبدأ فى صنع الباب الجديد خلع الباب العتيق ووضع مكانه بابا مؤقتًا وغطاه بستارة قطنية بيضاء وبعد أن صنع الباب الجديد وضعه فى مكانه، وقد تم صنعه على الوجه المرغوب وكان على باب الكعبة العتيق ثلاثون ألف وثمانمائة درهم من الفضة فصنع منها لوحتين فضيتين وفق طول وعرض كل من مصراعى الباب الجديد. ثم أمر بتسمير كل واحدة من اللوحتين على أحد مصراعى الباب وزخرف اللوحتين بنقوش ذهبية(٢) وأنفق فى صنع عتبته وحلقاته سبعة وثلاثين ألف درهم وخمسة وتسعين درهمًا من الفضة.

---

(١) هذا البيت من حيث التقدير الحسابى يبدو أنه زيد عليه وقد أسقطت هذه الزيادة تعمية فى البيت الذى يحتوى على مخلص الشاعر

(٢) يقال إن زخرفة كل مصراع من المصراعين قد تكلفت عشرين قطعة ذهبية من الذهب البندقى.

وبعد ما تم وضع مصراعى باب الكعبة العالى كتب على اللوحة الفضية المثبتة على المصراعين بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠) وكتب تحت الآية الجليلة: (تشرف بتجديد هذا الباب من سبقت له العناية من رب الهداية مولانا السلطان مراد خان ابن السلطان أحمد خان ابن السلطان سليمان خان ابن عثمان عز نصره فى سنة خمس وأربعين وألف ١٠٤٥ كما نظم أحد الفضلاء التاريخ الآتى:

لذ بذا الباب كلما خفت ضيق المناهج

فهو باب مجرب لقضاء الحوائج

كان رضوان أغا قد عرض لوالى مصر ما تم عمله فى مكة المكرمة بمكاتبات خاصة قبل أن يصل إلى القاهرة، وقد أنهى مهمته الثانية فى مكة المكرمة وعزم على العودة إلى القاهرة حاملا معه مصراعى باب الكعبة العتيق.

وكان فى استقبال ذلك الباب السعيد الوزير حسين باشا وكبار الموظفين والعلماء المميزون وقد دخل إلى القاهرة فى تعظيم وتوقير.

ثم أمر الباشا أن يوضع الباب فى مكان مرتفع ليتبرك به الناس وأحاط السلطان علما بأن رضوان أغا عاد إلى القاهرة وقد أنهى مهمته فى مكة المكرمة وأن أهل مكة قد سروا جميعا مما تم عمله ودعوا للسلطان تكرارًا ومرارًا وقد علم بذلك من الرسائل التى ترد من مكة المعظمة.

وبعد فترة سلم مصراعى الباب العتيق لرضوان أغا لحملهما إلى دار السعادة ليحفظا فى الخزانة السلطانية ويعرضا للناس.

صورة للأمر السلطانى المرسل إلى شريف مكة مسعود أفندى بخصوص تجديد بيت الله

إن وزيرى محمد باشا ـ أدام الله إجلاله ـ الدستور المكرم، والمشير المفخم،

ونظام العالم الكائن فى محافظة مصر، وقد أرسل إلى سدتى السعيدة وعتبتى العالية وسماء اقتدارى رسالة مضمونها أن مهبط جبريل الأمين ومحل الوحى وتنزيل رب العالمين والذى نال شريف الذكر فى النص الشريف ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ أن هذا البيت العتيق قد مال بعض أطرافه إلى الركوع مع مرور الأيام وكر الدهور والأعوام وأن قده وقامته مالا للسجود وقد قدر لملوك الأزمنة الماضية وسلاطينها شرف ترميمه وتعميره على قدر إمكاناتهم وفى زمن والدنا الماجد الساكن جنة الفردوس المرحوم والمغفور له ـ السلطان أحمد خان، أسكنه الله فى أعلى غرف الجنان ـ زاد ميل جدرانه للركوع ورئى جواز تعميره والترخيص له.

وحينما أراد أن ينال شرف القيام بهذا العمل الجليل القدر ويباشر تجديد بناء البيت وإذا بالشريعة الغراء ـ التى يجب تعظيمها وإطاعتها ـ لا تجيز تجديده وتسوغ ترميم جدرانها السعيدة وأركانها الركينة فقام به بعد هذا العمل مبعث فخره ومباهاته.

بينما كانت الحالة على هذه الصورة ساق الله ـ سبحانه وتعالى ـ الفعال لما يريد ـ فى هذا العام العميم الميمنة ـ أمطارًا غزيرة على مكة المكرمة وأطرافها فتكونت السيول واقتحمت حرم بيت الله وحينئذ قد حان لنا أن نفتخر بخطاب الله الجليل ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ (البقرة: ١٢٥)، والقيام بخدمة التجديد مما يبعثنا على الفخر ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ (البقرة: ١٢٧) وقد أحسن الله ـ سبحانه ـ وتعالى إلينا ـ إذ شرفنا بهذه الخدمة الجليلة والشرف العظيم اللذين لم ينل أحد من آبائى الكرام العظام من قبل مثلهما.

﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ (النمل: ٤٠) ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾. (البقرة: ٢٠٧)

والآن ـ بعد الشكر على هذه النعمة ـ قد صدر أمرنا إلى وزيرنا المشار إليه فى محافظة مصر بأن مقدارًا كافيا من أموال خراج أقباط مصر المحروسة والمال الحلال يكفى جدران البيت وتثبيت أساسه وأن يختار رجلا مستقيم السيرة

والسلوك دَيِّنًا ويعيّنَهُ أمينا لبناء البيت، وأن يرسله إلى مكة حيث يجتمع مع علمائها الأجلاء وأشرفها وفضلائها الآخرين من أرباب الرأى الرزين وأصحاب الفكر المتين بعد الاستشارة والاستخارة، ويعمل بناء على ما تم عليه القرار واستقر عليه الرأى، ويقدم على إتمام هذه الخدمة ويسعى على إنهائها على خير وجه.

وبما أننا نثق فيك ويشتد حسن ظننا بك نرسل بهذه الرسالة التى تحتوى على أمرنا.

عند وصول رسالتنا هذه عليك أن تعمل بمقتضى ما جبلت عليه من صدق ونجابة وما أودع فيك من رشد وأصالة. وبعدما يصل من قبل وزيرنا المشار إليه المال الحلال الكافى لبناء البيت وأمين البناء ومراقبه أن تبتدر ببناء البيت المعظم وتعميره وذلك بعد ما تستشير العلماء الأجلاء حسب مدلول القول ما «خاب من استخار وما ندم من استشار» وتأخذ موافقتهم الشرعية فى كل ما تقدم عليه.

وإذا لم يكف مخلفات البيت القديم من الطين العطر والحجارة السعيدة لتجديد البناء فعليك ان تجلب ما يلزم من الحجارة من مواقعها القديمة التى استجلب منها القدماء عند تعمير البيت وتجديده، أتم بناء البيت حسبما تجيزه الشريعة الغراء.

وإننا نتجه بالدعاء إلى رب العزة ـ تعالى شأنه وعم إحسانه ـ راجين خاشعين مظهرين عجزنا وقصورنا لله ـ تعالى ـ أن يرضى عنا بخصوص بناء هذا المقام المبارك وفى سائر أعمالنا وأقوالنا وأن يوفقنا فى إتمام بناء البيت المقدس وييسر لنا إكماله آمين بحرمة سيد المرسلين سنة ١٠٣٩ ألف وتسع وثلاثين.

صورة البراءة المقدمة من قبل السلطان لرضوان أغا مقابل خدماته:

هو العزيز الغنى المغنى الفتاح وعنده مفاتيح الفلاح والنجاح تقدست أسماؤه تتابعت نعماؤه.

صورة الخط السلطانى المقرونة بالسعادة

تقديمًا لمقابل الخدمة المؤداة لمكة المكرمة يعمل بموجب هذه الصورة للخط الهمايونى وليس بعد ذلك لأحد أن يتدخل فى أى شىء ومن يتدخل ممن ذكروا فليحرم عليهم طعامى وخبزى.

صورة البراءة العالية:

هذا هو حكم السلطان سامى المكانة فاتح الدنيا زينة ملوك العالم حفظه الله بالعون الربانى والصون الصمدانى.

إن رعاية الأمراء وإكرامهم وحمايتهم واحترام علية القوم العظام، من جملة الواجبات والمهمات السلطانية ولاسيما هؤلاء الذين يخدمون الدولة بنية صادقة وعقيدة راسخة ليلا ونهارا إنهم يسرون بنيل رحمتى ومكارمى السلطانية، بسهولة كما يفرحون بالوصول إلى آمالهم بألطافى الملكية. ولاسيما الذين كانوا مثالا فى أيام خلافتى لقول الله تعالى: ﴿ **وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا** ﴾ (الانسان: ٢٢) بما قدموا من جليل الخدمات.

وبناء على هذا، قد استحق رضوان أغا المختص بعناية الملك العلام، إذ كان من أمراء مصر وقد قام ببناء الكعبة المكرمة والبيت المعظم عرش مكة المعظمة زادها الله شرفا وتعظيما، وأحسن إليه بإحالته إلى المعاش بإيراد ولايته التى كان يتصرف فيها.

وإنه كان قدوة للأمراء الكرام من ذوى الأقدار والاحترام وقد نشأ ونما فى حرمى السلطانى، وكان قد بعث ببعض المهمات والخلع إلى بلاد اليمن والحبشة قد بذل فى ذلك جهده وسعيه ولذا قد استحق رعايتى بتكليفه بخدمات أخرى فى المستقبل.

وقد هطلت الأمطار بمشيئة الله - سبحانه وتعالى - وحكمته على منزل الوحى المبين ومهبط جبريل الأمين وبلد الله الحرام وأطرافه، واقتحم السيل العظيم الحرم الشريف، فأصاب الخلل جدران بيت الله الحرام ومطاف الأنبياء العظام ومعتكف الملائكة الكرام، وانهار بعض جدرانه مما أثار الحزن والهم فى قلوب

عامة المؤمنين وهذا ما دعا إلى تجديد بنائه وتعميره وفق طرز بنائه القديم وقد أفتى العلماء والفقهاء ذوى الاحترام متفقين بجواز تجديد بنائه. ومن هنا أصبح بناء البيت من جديد حسب طرز بنائه القديم واجبا فرضا على ذمتى وعلى همتى العظيمة. إن آبائى الكرام ـ جعل الله الفردوس مرقدهم ـ وأجدادى العظام ـ أسكنهم الله فسيح جناته ـ قد أشاع كل واحد منهم الخير وأنفقوا كلهم الأموال فى الأعمال الخيرية وبذلوا الأموال فى إنشاء الجوامع والمساجد وبناء الصوامع والمعابد وتشييد الحصون والعمائر وتجديد الجسور والقناطر فهذا معلوم لدى الصغير والكبير عند الشباب والعجائز ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم ييسر لأى واحد منهم شرف القيام ببناء الكعبة وتجديدها، الكعبة التى تتجه نحوها جميع مساجد المسلمين وتتخذها أمة سيد الأنام قبلة لها، بل شرفنى بأن يكون هذا العمل من نصيبى؛ لذا فشكرى لا حد له تجاه الملك المنان ﴿**هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي**﴾ (النمل: ٤٠) ﴿**وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ (البقرة: ١٠٥) وقد عرفت أن هذا فضل عظيم خصنى الله به، لذا اخترت من طرفى ـ قرين العز والشرف ـ رجلا مستقيما دينا تقيا وعينته أمينا لتجديد أبنية الكعبة الشريفة وأوصيته ببذل السعى والجهد لإتمام البناء وكان هذا الرجل رضوان أغا بما يتصف به من الأمانة والتدين والصدق والاستقامة التى ترشحه بالأحقية فى القيام بهذه الخدمة العظيمة ولياقته لهذا الأمر.

وعرضت الأمر على وزيرى محمود باشا الذى كان واليا على مصر فى ذلك الوقت والذى نال الآن شرف العمل بين وزارتى فنفذ رغبتى بأن عين المشار إليه أمينا على بناء الكعبة الشريفة بمرتب سنوى قدره مائة ألف أقجة فى خمس مرات وهكذا نال اهتمامى إذ أحيلت إليه كل خدمات تجديد بيت الله وترك لعهدته وهمته. فما كان من رضوان أغا إلا أن شمر عن ساعد الجد لإتمام الأمور واستعجل فى إنهاء أعمال البناء بعد أن أخذ من العلماء الكرام والفقهاء العظام جواز تجديد بيت الله شرعا وهكذا جدد أبنية كعبة الله من أساسها ثم بدأ فى تعمير الجدران التى تحتاج للترميم فى الحرم الشريف مع القبب ومجارى السيول والبرك، وخاصة قلعة جدة بندر الحجاج والزوار ومعبر المسافرين والتجار، وكثيرا

من المواضع المباركة والمقامات المتبركة، طهرها ونظفها، كما أنه أنفق نقودا من جيبه الخاص ثم أحضر لنا بذاته كسوة الكعبة الشريفة القديمة لتحفظ فى خزانتى العامرة، ونال بذلك شرف المثول بين يدى، وقد كان قرينا لحسن التفانى فى عمله وعرض على ما قام به من السعى وما بذله من الجهد فى تجديد كعبة الله بالتفصيل.

وقد كتب لى أيضا وزيرى خليل باشا والى مصر الحالى وأشراف بلد الله الحرام وأعيانه بما أنجزه رضوان أغا من أعمال بكل صدق وإخلاص، وبكل هذا نال رضاى واستحق شكرى ورعايتى السنية وبما أنه قد خدم السلطنة منذ بلوغه سن التمييز والرشد فى داخل القصر وخارجه وكلف بأداء الخدمات السلطانية فى الأطراف والجوانب حتى أصاب أعضاءه وجوارحه الضعف بعد القوة.

ففضل التنازل عن اعتلاء المراتب العالية وآثر فراغ البال والحياة فى السكينة والهدوء منزويا فى ركن العزلة؛ ليتفرغ للدعاء بطول عمر الدولة ودوام عزتها.

وبما أنه قدم خدمات جليلة بالإخلاص والعبودية الفائقة فهو يستحق أن ينال مثل أمراء مصر مرتبا سنويا وربع ولاية. وإنى رأيت أن أحسن إليه ـ وقد اشتعلت شمس كرمى تموج ببحر امتنانى ـ ابتداء من اليوم العاشر من شهر شوال سنة إحدى وأربعين بعد الألف، بمنحه ربع اللواء الذى كان تحت تصرفه على سبيل التقاعد. وبناء على أمرى السلطانى يجب أن يعفى من جميع الخدمات حتى يتفرغ فى بقية عمره للدعاء بدوام قوة الدولة وشوكتها، وقد أصدرت هذه البراءة لتلقى العناية التامة والعمل بها وأمرت بأن يعطى المشار إليه رضوان أغا دام عزه مائة ألف أقجة فى خمس مرات إحسانا له مقابل خدماته العظيمة ومعه إيرادات اللواء الذى تحت تصرفه ومعه الجراية والمعلف والفدان من الخزينة الخاصة حتى يعيش حياة مترفة بفضل عنايتى ويعفى من جميع الخدمات التى يكلف بها أمراء مصر من خدمة المحافظة وإيفاده إلى اليمن والحبشة ونقل خزنته العامرة فيعيش مدة حياته صافى القلب صحيح القالب ويتفرغ للدعاء ليلا ونهارا بطول أيام السلطنة العادلة والثناء على دولة الخلافة.

وفى هذا الخصوص لا يقف أحد مانعا دون تنفيذ أمرى هذا ولا يتدخل فى هذا الموضوع ولا يجوز لأحد أن يبدل أو يغير من نص هذا الأمر، وعلى الكل أن يثق فى أمرى هذا ويعتمد على صحة علامتى وشاراتى الخاصة من ثمرة أغصان شجرة خلافتى وأفنان جسمى الظليلة من الأولاد العظام والأحفاد وأركان دولتى القاهرة وأعيان سلطنتى الباهرة من الوزراء والولاة والحكام من محافظى مصر والأمراء الآخرين ومحاسبى الأموال ومباشرى الأعمال.

تحريرا فى أوائل شهر شوال المكرم سنة إحدى وأربعين وألف من هجرة من له العز والشرف سنة ١٠٤١.

صورة الفتوى التى أصدرها علماء مكة الأعلام عقب احتدام الخلاف بينهم وبين العلماء المعترضين وإصرارهم على مخالفتهم.

صورة السؤال الذى أورده رضوان أغا وهو يستفتى العلماء:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

سؤال: ماذا يقول السادة العلماء أئمة الدين - نفع الله بعلومهم المسلمين وأحيا بوجودهم شعائر الإسلام وثبت بهم قواعد الإيمان وشيد مشاعر الإحلال والإحرام بجاه محمد عليه الصلاة والسلام - فى عمارة البيت الشريف - زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما - إذا كانت الحجارة التى سقطت منه تحتاج إلى إصلاح ومساواة، بحسب ما تحتاجه الصنعة وإلى زيادة أحجار عليها، بموجب تكسر شىء من بعضها ولا يمكن إعادة البيت الشريف - شرفه الله تعالى - إلى حالته التى كان عليها، وجعلها على حكمها إلا بزيادة بعض أحجار من جنس الأولى فى المساواة والنحت والإحكام وما أشبه ذلك، فهل يجوز فعل ذلك وإصلاح الحجارة والزيادة عليها بما ذكر أم لا؟

وإذا قلتم بجواز فعل ذلك أو بوجوبه. وكان ذلك يحتاج إلى مدة طويلة

بموجب قلة المعلمين العارفين بذلك فى مكة المشرفة وجدة المعمورة والمدينة المنورة، بل وفى مصر المحروسة، وكان فى مكة ـ شرفها الله تعالى ـ من جانب السلطنة ـ أيد الله بها الدين ـ من هو متعين للنظر فى المصالح العامة للمسلمين، من إصلاح المسجد الحرام والشوارع وغيرها وفيما يحتاج إليه الحال فى أوائل عمارة البيت الشريف من تهيئة المؤن وجمعها وضبط ما يرد لعمارة البيت الشريف من جانب السلطنة ـ أيدها الله ـ فهل يجوز له أن يشرع فى إصلاح الحجارة الأولى وفى تهيئة الحجارة التى يحتاج الحال إلى زيادتها وفى عمل نحو نورة وجبس وما أشبه حتى إذا وصل من يريد مباشرة العمارة يجد ذلك حاضرًا مجموعًا ومهيئا لتكون العمارة فى مدة يسيرة بدلاً من تطويل المدة بعمل ذلك إذا ورد من يريد مباشرة، أم لا؟ أفتونا مأجورين ـ أثابكم الله الجنة ـ وبينوا ذلك بيانا شافيا لازلتم عمدة المسلمين ومرجعا فى إحياء مشاعر الدين وتقبل الله منكم صالح الأعمال بجاه محمد وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين والحمد لله ربّ العالمين وحسبنا الله ونعم الوكيل.

صورة الفتوى الشريفة

التى كتبها الشيخ عبد العزيز محمد الزمزمى ردا على السؤال الذى طرحه عليه رضوان أغا:

الجواب ـ الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم يجوز إصلاح ومساواة ما سقط من حجارة البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ إذا كان لمصلحة ضرورية أو لحاجة ما يحتاج إليه من الحجارة حيث توقف إعادته على أسلوبه السابق عليه أو كان فيه تحسينا للبناء وقد صرح جدى خاتمة المحققين وشيخ الإسلام والمسلمين أحمد شهاب الدين بن حجر ـ تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركته ـ بما يقتضى ذلك أخذًا له من كلام أئمة المذاهب وبين ذلك فى محله بأحسن بيان واستدل على ما ذكره بقول بعض العلماء الذين يقتدى بهم: لابأس بتغيير حجارة الكعبة إن عرض لها مرمة لأن كل عصر احتاجت فيه لذلك قد فعل بها ذلك. إلا الحجر الأسود فلا يغير ومن أعظم الدلائل على جواز تغيير

حجارة البيت الشريف إذا احتيج لذلك فعلا سنَّة عبد الله بن الزبير - رضى الله عنه - فإنه لما هدم البيت الشريف وأراد إعادته عزل من حجارته ما يصلح أن يعاد فيه ونقل إليه من الحجارة ما يحتاجه من الجبل الذى أخذت قريش حجارة البيت منه عند عمارتهم إياه وقد أقر العلماء - رضى الله عنهم - والملوك ونحوهم على تغيير باب البيت العظيم وعتبته وميزابه المرة بعد المرة مع صلاحية ذلك وعدم الاحتياج إلى التغيير لإظهار أبهته وأنه لا يليق لجلالته بقاء ما خَلَقَ أو عتق فيه فلذلك أقدموا على تغيير تلك الأشياء ولم يقع عليهم إنكار من العلماء الذين كانوا فى زمانهم فإذا جوز العلماء - رضى الله عنهم - ذلك التغيير من غير احتياج إليه فمن باب أولى جواز تغييره من حجارته الساقطة وإصلاحها ومساواتها لتكون على أكمل الوجوه اللائقة بحرمة البيت الشريف ولإظهار أبهته وجلالته ولا مراء أن بناءه بالأحجار المكسرة مع إمكان إصلاح ما يمكن إصلاحه منها وعدم تغيير مالا يمكن إصلاحه فيه إسقاط لهيبته من قلوب كثيرة؛ لأنهم يرون البيوت المنسوبة إلى أهل الدنيا فى غاية الحسن الصورى وبيت الله بخلاف ذلك؛ فيؤديهم ذلك إلى غاية الاستحقار بحقه وعدم الاعتناء بشأنه وهذا خرق عظيم يؤدى إلى غاية الوهن فى الدين؛ فيجب التخلص مما يؤدى إلى ذلك لفعل ما فيه تعظيم بيت الله - زاده الله تعظيما وتكريما - ومنه السعى فى إصلاح حجارته ومساواتها وتغيير ما لا يصلح بخير منها وفعل كل ما كان فيه تعظيم له وإبقاء لحرمته وأبهته وجلالته ومن قصد لشىء من ذلك وفعله كان مثابا عليه الثواب الجزيل ومقابلا من الله بمزيد التعظيم والتبجيل لما فى ذلك من الاعتناء التام والقيام بإظهار عظمة شعائر الله على أكمل نظام ويجوز للشخص المذكور الشروع فى إصلاح الحجارة وتهيئة المونة المحتاج إليها لعمارة البيت المكرم، إذا كان المصرف من مال طيب ليس فيه شبهة قوية لوجوب التحرز عن بنائه بحرام أو نحوه وما يفعل الساعى فى الخير كفاعله لاسيما إذا غلب على ظنه عدم ضرر يلحقه أو يلحق بسبب ذلك لما فى فعله من الإشعار بمزيد الاهتمام فى تعظيم بيت

الله وبذل الجهد فى القيام بحقه وفى ذلك من قوة الإيمان ما لا يحتاج معه إلى برهان جعلنا الله أجمعين ممن يقوم بحقوقه فى كل زمن وأن ينور قلوبنا بالإيمان ويثبتها على طاعته فى السر والإعلان وأن يزيد هذا البيت الشريف تشريفا وتعظيما ومهابة وتكريما وأسبغ نعمه وأفضاله والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير الحقير عبد العزيز محمد الزمزمى الشافعى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله وهو من كبار علماء المالكية ردا على سؤال رضوان أغا:

الجواب:

الحمد لله، حاصل ما سأل عنه السائل. ثلاثة أمور:

الأول: إن ما احتيج إليه بالضرورة وما احتيج إليه من حجارة البيت وما تكسر منها هل تؤخذ لها حجارة وهل تصلح الحجارة المكسورة وتعاد فيها أم لا؟

الثانى: هل يجوز للناظر المذكور الشروع فى إصلاح ما تكسر من حجارتها وأخذ ما احتيج إلى بنائه أم لا؟

الثالث: لم يصرح السائل فى سؤاله بالمال الذى يصرف على ما احتيج إليه من مقدمات البناء وهو ضرورى لا بد من السؤال عنه.

أما الأول فما احتيج إليه من حجارة البيت الكاملة لابد من أخذه وأخذه ضرورى والكلام فى المحل الذى تؤخذ منه الحجارة ومحصل كلام العلماء وفاقا وخلافا أنها أخذت حجارتها من اثنى عشر جبلا وهى حراء وثبير وأبو قبيس وأحد ولبنان وطور سينا وطور زيتا والجبل الأحمر والجودى والقدس ورقان ورضوى.

ثم الكلام على تخصيص الأخذ من هذه الجبال يطول إلا أنا نتكلم على ما يمكن الأخذ منه منها (حراء وأخذت منه حجارتها لأن النبى - ﷺ - أنزلت

عليه الرسالة وهو فيه يتحدث وتردد عليه جبريل - عليه الصلاة والسلام - فيه وأما أبو قبيس فأخذت منه لأنه أقرب جبال الحرم إلى البيت وأما ثبير - واختلف فيه فقيل هو الجبل الذى على يسار الذاهب من منى إلى عرفة وهو قول المحدثين وقال الفقهاء إنه الجبل الذى عن يمين الذاهب من منى إلى عرفة ووجه ما قاله الفقهاء أن النبى - ﷺ - أنزلت عليه «والمرسلات» وهو فى غار فى سفحه وهو معروف، وأما أحد فوجه الأخذ منه قوله «اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان»(١) وبقية توجيهاتها يطول تتبعه ولايهمنا لعدم الحاجة إليه الآن لبعده وللاستغناء عنه بغيره.

وقول الشيخ العلامة الرحالة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى إنها تؤخذ من المحل الذى أخذت منه قريش حجارة البيت كما فعل ابن الزبير غير ظاهر إذ لم يبين ما أخذت منه قريش فهو إما أن يكون أحد الجبال الاثنى عشر أو غيرها فإن كان أحدهما فنسبته إلى الخليل - ﷺ - أولى من نسبته لقريش، وإن كان من موضع غير الإثنى عشر ففيه مجال للنظر يعلم بالتأمل، ومعاذ الله أن ابن الزبير يتبع قريشا ويترك الخليل - ﷺ -.

وأما **الثانى** فيتضمن ما قلناه قبل بيان الحكم فيه وهو أنه يجوز للناظر المذكور الشروع فى أخذ حجارتها وقد بينا ما يؤخذ منه وأما إصلاح ما انكسر منها ورده فيها فى الظاهر أنه غير جائز لأن البيت إن رد المنكسر الناقص إليه لا يتكيف بالكيفية التى كانت بل يتكيف بكيفية ردئية يمجها أرباب الصنعة وهذا غير لائق بقبلة الإسلام، ثم إن اضطر إلى ذلك رد لكن لا ضرورة تدعو إليه.

وأما **الثالث** وهو ما يصرف على تلك المقدمات فيجب أن يكون حلالا متيقن الحلية، ولا يجوز أن يكون مظنونها وهو ما توهم فيه عدم الحلية، فإن لم يوجد

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة الحديث رقم ٣٦٧٥ فى فضائل أبى بكر الصديق، الحديث رقم ٣٦٨٦ فى مناقب عمر والحديث رقم ٣٦٩٩ فى مناقب عثمان رضى الله عنهم جميعًا.
وأخرجه الترمذى فى المناقب حديث رقم ٣٦٩٧. وأبو داود فى السنة حديث ٤٦٥١، والإمام أحمد فى المسند ٥/ ٣٣١، ٣٤٦. والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٥٠.

صرف عليه مظنون الحلية وبقية السؤال قد تكفل المفتى الشافعى بالجواب عنه والله سبحانه أعلم.

نمقه الحقير خالد بن أحمد ابن محمد.بن عبد المالكى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ أحمد بن شمس الدين الصديقى السهروردى أفندى وهو من علماء الحنفية:

ردا على السؤال الذى وجهه رضوان أغا.

الجواب:

الحمد لله سبحانه..

«ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا.. وانصرنا على القوم الكافرين».

ما ذكر فى السؤال عما سقط من أحجار البيت الشريف إذا كانت تحتاج إلى الإصلاح والمساواة بحسب ما تحتاجه الصنعة وإلى زيادة عليها بموجب تكسر البعض وتلف البعض وجعلها على حكمها فى المساواة والبحث والإحكام أيجوز أم لا؟ وعلى القول بالجواز إذا كان محتاجا إلى مدة طويلة بموجب ما شرع فى السؤال وكان بمكة المشرفة من هو متعين للنظر فى المصالح العامة المتعلقة بهذه البلدة الشريفة من جانب السلطنة المنيفة ـ دامت ظلال عدالتها الوديعة ـ من إصلاح المسجد وغيره من الشوارع وتنظيفها هل يجوز له الشروع فى إصلاح الحجارة الأولى وتهيئة ما يحتاج إلى زيادتها وفى عمل نحو نورة وجبس وما شابه ذلك ليكون مهيئا عند وصول من سيُعَيَّن من الأبواب الشريفة السلطانية لأداء هذه الخدمة السنية خشية طول المدة؟

فالجواب: عن ذلك ـ والله الموفق للصواب ـ جواز إصلاح الساقط ومساواته والمبادرة إليه وتغيير ما تكسر وعدم الانتفاع به وزيادة ما احتيج إليه من الحجارة مما سهل إحضاره من بعض الجبال التى بنى منها البيت العتيق كما ساقها الشيخ

المحقق مولانا الشيخ خالد الجعفرى المالكى ـ نفع الله به ـ والدليل على جواز التغيير عدم إنكار العلماء من المذاهب الأربعة فى كل عصر على الملوك فى تغيير باب البيت وعتبته سوى إرادة زيادة إظهار أبهته وإعظامه وإجلاله وقد تكرر من ساداتنا سلاطين آل عثمان ـ خلد الله دولتهم إلى انقراض الدوران ـ إرسال الأقفال الجديدة إلى البيت وطلب العتيق ليوضع فى خزانتهم العامرة تبركًا به كما وقع فى موسم هذا الحج من غير إنكار عليهم، فالمباشرة لتهيئة مؤن عمارة البيت من أهم المهمات وألزم اللوازم فلقد طال الانتظار لمن يعين ليتعاطى خدمة تعمير البيت من قبل الأبواب العالية واستمرار البيت العتيق مهدوما هذه المدة كلها غير لائق وقد شكرت مساعى مولانا السيد الشريف الأعظم مسعود بن إدريس نصره الله تعالى فى بذل الهمة فى خدمة البيت وتدعيمه بالأخشاب من الجهة الساقطة وستره بكسوة إلى أن جاءت كسوته المعتاد وصولها كل عام من قبل السلطنة الشريفة فى صحبة أمير الركب الشريف المصرى وقد نور الله باطن هذا الرجل الذى له من اسمه نصيب حيث رغب فى فعل الخير وتصدى لسؤال العلماء عن ذلك مع ما سبق له من الاهتمام بتنظيف المسجد والشوارع والبيت الحرام وإصلاح برك الحجاج. وتعمير عين خليص فله بذلك وبما نواه جزيل الأجر والثواب من الملك الكريم الوهاب، فمقتضى قواعد المذهب جواز شروعه فى إصلاح الأحجار وتهيئة المؤن لكن يتعين أن يكون المال المنصرف على ذلك متيقن حليته. فإن تعذر فلا يكون من مال توهم حليته، إذ يجب كل التحرز عن الصرف على ذلك من مال حرام نحوه. وفقه الله ودفع به وعنه كل ضير وأعان من أعانه ووالى عليه فضله وإحسانه وزاد هذا البيت تشريفًا وتعظيما ومهابة ورفعة وتكريما وزاد من شرّفه وعظّمه جلالاً وكرامة وأسبغ عليه جوده وإنعامه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين الصديقى السهروردى الحنفى.

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة لرضوان أغا من قبل الشيخ عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى أفندى من علماء الحنابلة

الجواب:

المسئول عنه فى السؤال: هل يجوز إصلاح ما تكسر بالسقوط من أحجار البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ وزيادة عليها من جنس الحجارة الأولى وتهيئة ذلك ومساواته ونحته وتحسين صنعته وإحكامه أم لا يجوز؟ وإذا قيل بالجواز وكان عمل ذلك يحتاج إلى مدة، كما ذكر فى السؤال، وكان فى مكة المشرفة من جانب السلطان ـ أيده الله تعالى ـ مَنْ ذَكَرَ السؤال هل يجوز له الشروع فى ذلك وتهيئته إلى آخر ما فى السؤال؟

فالجواب عما ذكر وتحرير الحكم الشرعى فيما سطر والله المسئول أن يوفقنا إلى طريق الحق المستقيم، وأن يلهمنا الصواب على النهج القويم، هو أن نقول نعم! يجوز إصلاح ما تكسر من الأحجار وتعيين ما يحتاج إليه من المال فى تكملة البناء وإعادته كما كان من الأحجار المناسبة لذلك ويؤخذ ما يسهل أخذه من الجبال التى عمرت الكعبة المشرفة منها[1] كما نقله العلامة المحقق شيخ الإسلام والمسلمين مولانا الشيخ خالد المفتى المالكى دام الله النفع به ولا ريب فى ذلك فقد ألف شيخ الإسلام والمسلمين خاتمة الأئمة والمحققين الشيخ «شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى المكى الشافعى» قدس الله سره وجعل الفردوس مقره، مؤلفا فى خصوص هذه المسألة سماه «المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى وانشعث من الكعبة» وبسط الكلام فيه ونقل فيه كلام العلماء من المذاهب الأربعة مصرحا بجواز ذلك وأشفى الغليل فيه وأوضح المسألة وفصلها أحسن تفصيل ومما نقل عن أئمتنا علماء الحنابلة ـ رضى الله عنهم ـ قول صاحب الفنون: صح لا بأس بتغيير حجارة الكعبة إن عرض لها مرمة لأن كل عصر احتاجت فيه لذلك قد فعل بها ذلك ولم يظهر نكير على من فعله، «نعم الحجر الأسود» لا يجوز نقله من

(١) أنظر: إعلام الساجد للزركشى ص ٤٥، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، للقطب الحنفى ص ١٣، والروض الأنف للسهيلى ١/ ١٢٩.

مكانه ولا تغييره إلا بنص من النبى - ﷺ - فهو كبعض آيات القرآن لا يجوز نقلها من موضعها إلى مكان آخر. انتهى.

وما أفتى به العلامة والمحقق الفهامة مولانا الشيخ عبد العزيز المفتى الشافعى أدام الله النفع بوجوده خلاصة ذلك التأليف(١) وزبدة ما فيه، وليس فى قواعدنا ما ينافيه ويكون المُعَوّلُ عليه ويرجع فى هذه الحادثة إليه، وحيث كان إصلاح الحجارة المنكسرة وعمل الحجارة التى يحتاج الحال إلى زيادتها. . وما أشبه ذلك تحتاج إلى زمن طويل كما جاء فى السؤال فإنه يجوز لمن هو فى البلد من جانب السلطنة المذكورة - أيدها الله تعالى - مقام فى نحو ذلك كما ذكر فى السؤال أنْ يشرع فى عمل ذلك إذا لم يخف على نفسه أو على غيره ضررا وينبغى له بذل الهمة فى ذلك كما ظهر منه فى تنظيف المسجد الحرام و إصلاح الشوارع والبرك التى للحجاج، وكما فعل فى إصلاح عين مكة المعظمة وفى إجراء عين خليص وبذل همته فى ذلك، وتعاطى ذلك بنفسه مع مزيد الاعتناء بسببه والقيام عليه أجزل الله له الثواب وقابله بالإحسان فى يوم الحساب، فقد حصل بذلك الرفق العظيم للزوار والحجاج ولكل من سلك فى تلك الفجاج، لا شك أنه منور البصيرة، صافى القلب والسريرة، إذ وفقه الله تعالى للسؤال عن ذلك والاهتمام فى سلك هذه المسالك، والاعتناء بشأن الكعبة المعظمة التى هى فى الأولية والإسلام محترمة، زادها الله تشريفا وتكريما ومهابة، فإذا شرع فى المؤن والأحجار وما يحتاج إليه يجب أن يكون الصرف على ذلك من مال حلال لا تعلم فيه شبه قوية ويتحرز فى ذلك غاية التحرز مهما أمكن، تقبل الله منه السعى الجميل وقابله عليه بالثواب الجزيل، وخلد دولة هذه السلطنة العثمانية، ولازالت مدى الأيام والليالى محروسة محمية، وزاد هذا البيت الشريف تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وزاد من شرفه وكرمه تشريفا وجلالة وتكريما، وألهمنا الصواب فى القول والعمل ووقانا أجمعين من الخطأ والزلل، بمحمد وآله آمين، والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) يعنى أن فتوى الشيخ عبد العزيز الزمزمى الشافعى، هى خلاصة رسالة ابن حجر الهيتمى المسماه المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى وانشعث من الكعبة؛ وما ذكر من فتوى الشيخ عبد العزيز لاينافى أصول مذهب الحنابلة.

نمقه الفقير عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى

الخطيب والإمام والمفتى بالمسجد الحرام

صورة الفتوى الشريفة

المعطاة من قبل الشيخ محمد عبد العظيم المكى من علماء الحنفية بخصوص تنظيف الحرم الشريف

السؤال:

ما يقول السادة العلماء أئمة الدين نفع الله بعلومهم المسلمين فيما إذا أدخل السيل إلى المسجد ترابا وأوساخا بكثرة واحتاج الحال إلى حملها ولزم من ذلك دخول جمال وحمير إلى المسجد وربما يقع منها روث بول فهل يجوز دخول الحمير والجمال للحاجة لذلك أم لا يجوز شىء من ذلك؟ والحال أن الوقت ضاق بموجب قرب الموسم والضرورة اقتضت ذلك أفتونا مأجورين.

الجواب:

إن تحققت يجوز إدخالها لضرورة وخصوصا لمصلحة المسجد وإذا وقع منها بول أو روث يسارع إلى تنظيفه وإن اندفعت الضرورة بإدخال الجمال فقط، فيقتصر عليها للخفة التى فى بولها وللخلاف فى روثها. والله تعالى أعلم.

حرره محمد عبد العظيم المكى الحنفى.

صورة الفتوى الشريفة

التى أصدرها الشيخ خالد بن أحمد بن عبد الله الجعفرى وهو من علماء المالكية بخصوص تنظيف الحرم الشريف:

الحواب:

أما الإبل فبولها وبعرها طاهران عندنا. لأن النبى - ﷺ - طاف على بعيره ولأن إدخال البعير إلى المسجد مع عدم الأمن والسلامة عما يخرج دليل على طهارة ما يخرج منه وقال الإمام أبو حنيفة والشافعى بأن ما يخرج من الإبل نجس وأما الحمير فأبوالها وأرواثها نجسة.

وطريق العمل فى ذلك أنه إذا اضطر إلى ذلك وأمكن الاكتفاء بالإبل اكتفى بها لكى يطهر المسجد مما يخرج منها عند الكل وأما الحمير فإن اضطر إليها أدخلت وطهر المسجد مما يصيبه منها وحيث طهر المسجد فيبادر إلى التطهير، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله. المالكى الجعفرى.

صورة الفتاوى الشريفة

التى أعطيت بخصوص تغطية الكعبة الشريفة بالستائر عند الإزماع للبدء فى بناء بيت الله.

السؤال الذى أورده رضوان أغا:

ما قولكم ـ رضى الله عنكم ونفع بعلومكم المسلمين ـ فى بناء البيت الشريف زاده الله شرفا وكرما هل يجب ستره عن أعين الناس لأجل البناء والفعال حفاظا للحرمة ورعاية لزيادة الأدب وإن ضاق الحال بالطائفين على وجه أفضل أم يجوز بناؤه مكشوفًا من غير حائل وستر لأن ذلك فيه كمال الرفق بالمعلمين والبنائين من حيث التمكن من البناء على الوجه المطلوب وهل الستر من حيث هو واجب أم مندوب مستحب أم كيف الحال بينوا لنا ذلك.

الفتاوى الشريفة

التى أعطيت ردا على أسئلة رضوان باشا

الجواب:

الحمد لله ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، لاريب فى كون ستر البيت الشريف ـ زاده الله شرفا وتعظيما ـ حال بنائه مندوبا إليه، وذلك غير مانع من حصول كمال فضيلة الطواف ولا يمنع أيضًا من المشاهدة، وأما بناؤه مكشوفا من غير ستر فغير لائق بوجه من الوجوه وليس من الأدب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم، وهو المسئول أن يستر عيوبنا ويغفر ذنوبنا.

حرره الفقير أحمد بن محمد آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى.

الجواب:

الحمد لله: ستر البيت عن أعين الناظرين، حال بنائه مندوب ندبا متأكدا لا واجب(١)، والطواف وراء الستر ليس مفضولا، بل الستر قام مقام البيت فلا يمنع من كمال فضيلة الطواف، بل ولا يمنع من المشاهدة، لان كسوة البيت جعلت لمنع أعين الناظرين إليها، وهذا الستر كذلك بل هذا آكد، لأن النظر إلى البيت حال بنائه أفظع من النظر إليه مستورا، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

نمقه الفقير إلى الله خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

الجواب:

الحمد لله: ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ستر البيت الشريف أثناء الشروع فى بنائه، بل وعند الشروع فى مقدمات ذلك كهدم ما يحتاج إلى هدمه منه مندوب إليه ومما ينبغى وليس بواجب وذلك اقتداءً بفعل سيدنا عبد الله بن الزبير ـ رضى الله عنهما ـ ومن كان فى عصره من أجلاء الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فإنه لما عمر الكعبة الشريفة وضع عليها ساترا بإشارة عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وقد نقل ذلك العلامة الأزرقى فى عدة مواضع من تاريخه، فقال فى (باب ما جاء فى بناء الزبير للكعبة) ما نصه أنهم قاموا أعانهم الناس فما ترحلت الشمس حتى ألصقها كلها بالأرض من جوانبها جميعها فبدأ فى هدمها يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة أربع وستين، ولم يقرب ابن عباس مكة يوم هدمت الكعبة وحتى فرغ منها أرسل إلى ابن الزبير لا تدع الناس بغير قبلة وانصب من حول الكعبة أخشابا واجعل عليها الستور حتى يطوف الناس من ورائها ويصلوا إليها ففعل ذلك ابن الزبير. انتهى.

وقال فى موضع آخر ما نصه: ونصب الخشب حولها حيث تم سترها وبنوا من وراء الستر. انتهى.

---

(١) أنظر: إعلام الساجد لبدر الدين الزركشى الشافعى ص ١٤٠، ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

هذه النصوص كلها صريحة فى أن الساتر المذكور مندوب إليه وليس فيها دلالة على وجوبه عند الشروع فى البناء، بل يحتمل أنه جعل عند الشروع فى مقدمات ذلك كالهدم وهو الظاهر اللائق بحرمة البيت الشريف التى أمرنا بها، ولا شك أنه لو هدم وبنى من غير وجود ساتر بينه وبين الأعين لسقطت هيبته من قلوب كثير من الناس ممن لا ينظرون إلا إلى الصور ويترتب عليه هتك حرمته، وقد أجمع العلماء على استحباب كسوة الكعبة واستمرارها عليها والقصد من ذلك سترها عن الأعين لما يلزم من عدمه من المحذور المذكور فليكن هذا الساتر، بل أولى، لأن رؤية الكعبة المشرفة متهدمة أفضح من رؤيتها مجردة من أثوابها، ومن زعم أن الساتر المذكور، مما ينبغى فعله فقد حاد عن طريق الصواب وأخطأ من وجوه عديدة، ولا يسعها هذا الجواب، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير زين العابدين بن عبد القادر الحسين الطبرى الشافعى إمام المقام الشريف.

صورة الفتاوى الشريفة

الصادرة على أثر الخلاف الذى وقع بشأن هدم الجدار الكائن بين الحجر الأسود والركن اليمانى

السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

ما يقول السادة العلماء أئمة الدين ومرجع الخاص والعام من المسلمين وقطع بوجودهم دابر المفسدين وعمر بهداهم شعائر الإسلام للمهتدين، فى الجدار اليمانى من البيت الشريف زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما، الذى يظهر فى بادئ النظر للعوام أنه مستقيم والحال أنه مائل دخل أعلاه وبارز أسفله من رأس الركن الذى على الحجر الأسود إلى «المدماك» الذى تحت الحجر الأسود نصف ذراع ومن نحو نصف الجدار المذكور ذراع كامل ومن محل وصول الميزاب فى المدماك المذكور إلى أرض المكان قدر الميل ثلث أيضا فيكون الميل من رأس الركن إلى

أرض المطاف نصف ذراع وثلث ذراع ومن قرب الحجر الأسود المحل الثانى فى الوزن ذراع كامل ومن المحل الثالث فى الوزن الذى بالقرب من وسط الجدار ذراع وثلث كل ذلك بذراع القماش الحديد وقد ظهر كل ما ذكر أعلاه من الميل فى الأماكن الموزونة بالمشاهدة لكل من حضر من العلماء المهندسين والمعلمين وغيرهم ومهد أرباب الخبرة من المهندسين والمعلمين والعارفين ببناء عقارات الجدار المذكور وما كان مثله خصوصا من المنحوت إذا مال نحو سدس ذراع يجب هدمه ولا يجوز بقاؤه سواء كان ذلك فى محل مملوك أو محل موقوف أو مال يتيم وأنهم يوجبون ذلك، وذكروا أن هدم الجدار اليمانى من البيت من أوجب الواجبات لما فى هدمه من المصالح الواجبة فى تعظيم البيت الشريف ـ زاده الله شرفا ـ ولما فى بقائه من خلاف ذلك ـ نعوذ بالله منه ـ فهل يجوز لمن له ولاية العمارة من جانب السلطنة العثمانية ـ خلد الله دولتها وأيد صولتها ـ أن يهدم هذا الجدار اليمانى المذكور ليقيمه ويقيم بناء البيت الشريف جميعه على الوجه الذى يليق به من اتفاق العمارة وتحسينها الواجب ذلك فى حق البيت الشريف ـ زاده الله مهابة وتكريما وزاد من عظمته وإكرامه تشريفا وتعظيما ـ أم لا يجوز ذلك والحال ما ذكر؟ أم كيف الحال؟ بينوا ذلك تبيانا شافيا؟ أثابكم الله الجنة بمنه وجزاكم عن الإسلام والمسلمين خيرا.

صورة الأجوبة الشريفة المعطاة ردا على السؤال المذكور:

الجواب:

حيث كان الحائط المذكور بالصفة المذكورة عن العدول المذكورين فى السؤال وأرباب الخبرة من أهل الصناعة وغيرهم فهدمه وتجديده أولى، بل متعين لأنه أحق من الهدم الصادر من سيدنا عبد الله بن الزبير لأن قضية ابن الزبير كانت محتاجة إلى الترميم فقط، كما أشار إليه هو ـ رضى الله عنه ـ وهذه محتاجة إلى الهدم والبناء لاسيما مع الانهدام والهدم الكائنين فى الثلاثة الأرباع، إذا كان ابن

الزبير ـ رضى الله عنه ـ ومن خالفه فى القضية يقولون بالهدم فيكون ذلك فى قضيتنا أولى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

الجواب:

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، حيث كان الجدار المذكور من البيت الشريف ـ زاده الله تشريفا وتعظيما ـ بالجملة المشروحة فى السؤال المشاهدة لأهل العلم من الرجال وشهد بخرابه أرباب الخبرة الموثوق بهم فى كل حال الذين يغلب على الظن فيهم عدم التهمة فى هدم ما كان خاليًا من البقاء ولا غرض لهم فى تخريب أدنى جزء منه خوفا من الله يوم اللقاء، فهدمه بعد تحقق ما ذكر جائز بل واجب على من فوضه السلطان الأعظم ـ خلد الله سعادته وأيد سيادته وأقام به شعائر الدين وقطع بسيفه رقاب المعتدين ـ عمارة بيت الله العظيم وإعادته على الأسلوب القديم وبناء جدرانه على ما كانت عليه وإحكامها بكل وجه يمكن التوصل إليه فذلك من أعظم شعائر الإسلام وبقاء ما كان خرابا منه على حاله مع إمكان إزالته من موجبات شرور الفجرة الطغاة، وقد صرح علماؤنا ـ رضى الله عنهم ـ بجواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الحرام وما نصوا عليه لا يجوز مخالفته ومن خالف أقوال العلماء كان مكروها عند الله وخلقه أعاذنا الله من ذلك وسلك بنا أحسن المسالك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى.

الجواب:

الحمد لله ربنا اغفرلنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، لاريب فى أن الواجب على كل مسلم تعظيم هذا البيت الشريف زاده الله من التعظيم والتكريم والتبجيل والتشريف، وقد شاهدنا نحن والجم الغفير من العلماء والولاة حقيقة ما ذكر فى

السؤال من الجواب ولم يزل يبلغنا كل يوم من الثقاة السالكين منهم الصواب أنه تداعى إلى السقوط مالم يتدارك أمره مع شهادة المعلمين الموثوق بهم بخرابه وبقاؤه من بنائه إلى حال سقوطه ألف عام إلا خمسة وعشرين عامًا أَوْفَى معجزة، ولما أراد الله خرابه خرب، وإذا ما تحقق ما ذكر ومعلوم أن إبقاء شيء منه على حاله محال وجب هدمه بغاية الإجلال والاعظام ومزيد التوقير والاحترام وشكرت مساعى من فوضت إليه هذه الخدمة الجليلة المقدار من قبل من فوض له ذلك مولانا السلطان العظيم الفخار دامت سلطنته العظمى مادام الفلك الدوار، وثواب على عمارته وإعادته على الأسلوب الحسن بناء جدرانه على ما كانت عليه مهما أمكن وغير لائق البقاء ما كان خرابا على حاله مع إمكان إزالته، ولقد نص العلماء على جواز هدم ما تحقق خرابه من البيت الشريف إذا لم يمكن بقاؤه، نسأل الله أن يوفقنا ومن تشرف بهذه الخدمة إلى ما يحبه ويرضاه ويكون عونا لكل منا فى أولاه وأخراه وأن يرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويوفقنا لاجتنابه والله أعلم.

نمقه الفير أحمد بن محمد بن آق شمس الدين المدرس الصديقى الحنفى السهروردى.

الجواب:

الحمد لله ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ونعم جوابى كذلك سلك الله بالقائم بخدمة هذا البيت الشريف أحسن المسالك.

الفقير الحقير عبد الله بن أبى بكر بن ظهيرة القرشى الحنبلى.

صورة السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

السؤال:

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين ـ نفع الله بعلومهم المسلمين ـ فى ما إذا احتاج الحال فى عمارة البيت الشريف ـ زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما ـ إلى إقامة حائل وأخشاب بالطواف وجعل ألواح عليها وستارة ليمنع ذلك من دخول

نحو كلاب ودواب غيرها تنجس البنيان وتوسخه ويمنع من دخول من لا فائدة فى دخوله بل ربما من دخوله ضرر وإقامة ذلك من ضروريات العمارة اللازمة والمعتادة بحيث إنه لا يبنى البناء على الوجه المطلوب إلا بذلك مع بقاء جانب من الطواف أكثر مما يحجب بهذه الستارة للطائفين والمصلين يؤدى فيه ذلك فهل يجوز فعل ذلك أم لا يجوز والحال ما ذكر، أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة.

الأجوبة الشريفة المعطاة ردا على سؤال رضوان أغا:

الجواب: الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله: الذى يؤخذ من كلام علمائنا ـ رضى الله عنهم ـ حيث قالوا يحرم الجلوس خلف المقام وبسط السجادة وإن لم تجلس عليها لما فى ذلك من منع فضيلة سنة الطواف فى ذلك المحل للطائفين وحيث قالوا أن ما يفعل بالمسجد من بناء نحو منارة أو ضرب لبن فيه إن فعل لمصلحة المسجد ولم يضق جاز إلا أنه إن ترتب على وضع الأخشاب الموضوع عليها الستائر منع فضيلة مشاهدة البيت الشريف أو منع فضيلة القرب منه للطائف حالة الطواف أو كان فيه تضييق على المصلين لم يجز وضع ما ذكر إلا إن تحقق دخول شىء من الكلاب وملامستها شىء من أجزاء البيت الشريف مع رطوبة فى أحدهما أو وصول شىء من النجاسات غير ما ذكر ولم يكن حفظها عن تطرق ذلك إليها إلا بوضع الأخشاب الساترة فيجوز حينئذ وضعها بل يجب إذا لم تصن إلا بفعل ذلك صيانة لأجزاء البيت المعظم عن تلطخه بما ذكروا أما السقائل التى تتوقف مباشرة البنيان ـ واتباعهم للبناء ـ على وضعها ورفع الأحجار إلى محلها على إقامتها فيجوز لما فى ذلك من المصلحة المتوقف البناء عليها والحاجة الأكيدة إليها ألهمنا الله سلوك طرق الصواب وكشف عن قلوبنا ظلمة الحجاب، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم.

حرره الفقير إلى الله عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى حامدا الله ومصليا على نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم.

صورة الفتوى الشريفة

الصادرة والمتعلقة بعدم جواز تدريس صحيح البخارى داخل بيت الله الحرام.

السؤال:

ما تقول السادة العلماء أساتذة الدين - قمع الله تعالى بهم المفسدين وقطع بسيوف أنظارهم الشريفة دوائر المبتدعة والملحدين - فى الجرأة على بيت الله الحرام - زاده الله تعالى تشريفا واحتراما ومهابة وإجلالاً إلى يوم القيامة - وهتك حرمته بإدخال أطباق اللوز والزبيب فى جوفه وتدريس كتاب البخارى فى المدارس وغيرها ما حكم هذا التدريس المذكور على هذا الأسلوب المذكور فى جوف هذ البيت العتيق المحترم مهبط الرحمة والنور أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة.

الجواب الذى أعطى ردا على السؤال المذكور:

الحمد لله لاشك أن النبى - ﷺ - بعث بلسان الشرع وقد أمره الله بتبليغ الشرع قال عز من قائل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** ﴾ (المائدة: ٦٧). أو رسالاته أى وإن لم تبلغ بعض ما أُمِرْتَ به فحكمك حكم من لم يبلغ شيئا والمبلَّغ الكتاب العزيز والسنة الشريفة التى هى أقواله - ﷺ - وأفعاله وتقريراته وعزمه وهمته، فكل من الكتاب والسنة مأمور بتبليغه: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ (النحل: ٤٤) والبيان بالسنة وهى وحى قال الله جَلَّ ثناؤه: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ (النجم: ٣، ٤) وقد بلغ - ﷺ - جميع الموحى إليه من الكتاب والسنة وقد شهد له المولى - جل جلاله - بتمام التبليغ فقال ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ (المائدة: ٣) ودخل - ﷺ - البيت الحرام وفاقا وخلافا خمس مرات إلا أن بعضها

متفق على دخوله فيها وبعضها مختلف[1] فيه، والصحيح أنه لم يدخل وثبت أنه ـ ﷺ ـ جلس مجلسا فى البيت صلى فى بعضها ولم يوجد له معارض واختلف فى بعضها هل صلى أو دعا فقط وهذا الخلاف فى الصحيح وثبت أنه ـ ﷺ ـ كان لا يرفع طرفه إلى البيت ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ كان لا يرفع طرفه إلى البيت ولم يثبت أنه ـ ﷺ ـ جلس مجلسا فى البيت للتعليم ولو أقل جلوس إذ لو ثبت لنقل لتوفير دواعى النقل إليه وكذا لم يثبت عن الخلفاء الأربعة ولا عن أحد من أعلام الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ وهم القدوة قال ـ ﷺ ـ: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»[2] بل لم يثبت عن أحد من أعلام هذه الأمة كالإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت وأصحابه وكالإمام أحمد وأصحابه من عصر الصحابة إلى وقتنا هذا فتبين أن دخول البيت الحرام لدرس التفسير والحديث أو غيرهما بدعة شنيعة وخصلة ذميمة منكرة محرمة ويدل على تحريمها ما ثبت بطريق العرف بحيث لا ينكر وقوع التبخير عقب الدرس والشموع وماء الورد وغيره وإنشاد المنشدين وقد يؤتى بأشياء غير متوقعة كأن يحضر العوام الجهلة الدروس فيبادرون إلى أكل ما ذكر ورمى نواه فى البيت ولا شك أن هذا مهين للبيت الحرام الذى هو قبلة الإسلام وقد هدمها ابن الزبير ومن تبعه من الصحابة والتابعين ـ رضى الله تعالى عنهم ـ لا لسبب اقتضاه هدمها سوى ما يقتضيه ترميمها من أنها دون بيوت الأماثل، وبرد هذه الخصال الذميمة، سادت الكعبة الشريفة على بيوت الأراذل، فضلا عن الأكابر فيكون الدخول المؤدى إلى ذلك محرم ولا شك فى جرٍّ أول دخلة لهذا المقصد للدخلات المقتضية لما تقدم والدخلات تبين أنها محرمة فكان الدخول الأول الجار إليها محرما، **﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا من لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾**، (آل عمران: ٨) **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا**

(١) أنظر: إعلام الساجد (١١١ ـ ١١٢).

(٢) حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ١/ ٦، وعزاه لجمع الفوائد ٢/ ٢٠١.

وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آخر البقرة)، ونسأل الله أن يرينا الحق حقًا ويرزقنا اتباعه والباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

نمقه الفقير خالد بن أحمد بن محمد بن عبد الله المالكى الجعفرى.

السؤال الذى طرحه رضوان أغا:

السؤال:

ما يقول السادة العلماء، أساتذة الملة والدين، وقمع الله تعالى بوجودهم المفسدين وقطع بسيوف أنظارهم السديدة دابر كل مبتدع وكل ملحد مهين، فى التجنى على بيت الله الحرام - زاده الله تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما - وهتك حرمته بإدخال اللوز والزّبيب ونحوها وأكلها فى جوفه وكذلك إدخال الفرش والبسط مع جماعة وفرش تلك البسط للجماعة فيه وإدخال مجامر البخور وإدارتها بين الجماعة فيه كل ذلك لتدريس كتاب البخارى وإلقائه على الجماعة المذكورين على هيئة تدريسه الكائن فى المدارس وغيرها كل ذلك فى جوف البيت العتيق والكعبة الشريفة المعظمة لازالت مبجلة محترمة. ما حكم هذا التدريس المذكور بهذا الأسلوب المسطور فى جوف هذا البيت العتيق مهبط الرحمة والنور؟ أفتونا مأجورين أثابكم الله الجنة بمنه وكرمه.

الجواب الذى أعطى ردا عل السؤال المذكور:

الحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله: غير خاف على ذوى العقول السليمة والأفهام المستقيمة أن السعادة العظمى والكمال الأَسْنَى الأسمى، فى الاتباع لما فعله النبى - ﷺ - والاقتداء بما سلكه الأصحاب الكرام أو من جاء بعدهم من التابعين والعلماء الأعلام، ولم ينقل عنه - ﷺ - ولا عن أحد ممن جاء بعده إلى هذا الزمن، أنه درس شيئا من العلوم وأبدى شيئا من المواعظ وعقد مجلسا لذكر الله فى وسط الكعبة الشريفة مع احتياج الناس إذ ذاك إلى التعلم، والالتفات إلى أفعاله - ﷺ - والاقتداء، بها ولو كان فِعْلُ شَىْء من ذلك فى

وسط الكعبة مطلوبا ما تركه - عليه الصلاة والسلام، بل المنقول عنه - ﷺ - وعن من بعده إنما هو مزيد التواضع والخشية والافتقار والصلاة والدعاء والاستغفار عند دخوله فيها، ولذلك حذر علماؤنا - رضى الله عنهم - من الزيادة على صلاة ركعتين فيها إذا كان خشوعا وخضوعا متوفرا، وإلا فالأولى أسرع الخروج منها. وقالوا ليس من الأدب أن يرفع الداخل بصره إلى سقفها لقول عائشة - رضى الله عنها - كما رواه البيهقى: «عجبا لمن دخل الكعبة كيف يفعل - أى يرفع بصره - ليدعه إجلالا لله وإعظاما، دخل رسول الله - ﷺ - الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها»(١).

وقال الإمام أبو على الزعفرانى من أعظم أئمتنا: من أحب دخوله إلى البيت فليدخل بصدق إخلاص محبته لله تعالى وتعظيما له بالخشوع والاستكانة والخضوع خائفا راغبا راهبا ذاكرا مستغفرا داعيا مُتَضَرِّعًا إذا علمت ذلك وأن المعروف من حال النبى - ﷺ - وأحوال من بعده عند الدخول فيها ما ذكر، ونظرت فى قول النبى - ﷺ - «من أحدث - أى ابتدع أىّ شئ واخترعه من قبل نفسه - فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو(٢) رد» أى مردود على فاعله لبطلانه وعدم الاعتداد به.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من المهتدين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم والمحدثات فإن كل محدثة بدعة»(٣)، وقول إمامنا الشافعى - رضى الله عنه -: من أحدث وخالف كتابا أو سنة أو إجماعا أو أثرا فهو البدعة المذمومة، وفعل هذا الشخص المذكور لما ذكر على الوجه المذكور بدعة قبيحة شنيعة وتجرؤ منه على بيت الله - تعالى - لما فيه من هتك حرمته

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. انظر: إعلام الساجد ص ١٠٥.
(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٤٠، ٢٧٠. وغيرهما.
(٣) طرف من حديث رواه الترمذى وأبو داود، أنظر: حياة الصحابة ١/ ٥. سنن أبى داود ٤/ ٢٠٠ - ٢٠١، مسند الإمام أحمد ٤/ ١٢٦ - ١٢٧. وغيرها.

وإساءة الأدب مع الله ـ تعالى ـ والإخلال بتعظيمه وإجلاله. إذ المراد من تعظيم الكعبة تعظيم من هى منسوبة إليه والإخلال بحرمتها إخلال بحق الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهذا من أقبح الأفعال ويستحق فاعل ما ذكر التأديب وعظيم النكال اللائق به وبما ارتكبه من إدخال ما ذكر بيت الله وجلوسه فيه مجلس تدريس غير مطلوب، ولا نقل عن أحد ممن سبقه وإنما الحامل له عليه مجرد الشهوة والإرادة والإشاعة.

وقد صرح علماؤنا بأن المراد بالمحدث الذى هو بدعة وضلالة ما ليس له أصل فى الشرع وإنما الحامل عليه مجرد التشهى والإرادة، وبيت الله تعالى يجب تنزيهه عن أن يفعل فيه شىء مما ذكر لما فيه من الإشعار بالاستحقار بحقه وعدم الاعتناء بشأنه والقيام بحرمته. وهذا خرق عظيم ووبال على فاعله وخيم ويترتب على السكوت على هذه الداهية العظمى ـ إن لم يزجر فاعلها ـ امتداد رقاب غيره إلى فعل ما فعله ليكون له شهرة بذلك فيصير بيت الله ـ الذى عظمه النبى ـ ﷺ ـ بدخوله فيه بغاية التواضع ملعبة إن مُكِّن طالب ذلك منه. وإضافةً لذلك فدرءُ المفاسد أولى من جلب المصالح ـ على تقدير وجودها ـ فكيف وهذا الفعل على الوجه المذكور ليس إلا هتكًا لحرمة بيت الله الذى إجلاله من إجلاله.

ومما دل على ما ذكرناه من كون فعل هذا الشخص بدعة شنيعة، إنكار ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ على الجماعة الذين اجتمعوا فى المسجد يدعون اجتماعهم على هذه الهيئة المخصوصة التى لم يفعلها النبى ـ ﷺ ـ و الإنكار من هذا الصحابى العظيم على من ذكر لاجتماعهم على هذه الهيئة، إشارة بأنهم مفتحو باب الضلالة فلا مراء أن من فعل هذا فهو من أشنع البدع وأكرهها وأقبحها والإنكار عليه من الأمر اللازم لينزجر هو وأمثاله عن العود إلى مثل هذا الفعل الغير اللائق بحرمة بيت الله تعالى، وحديث الرسول ـ ﷺ ـ لا يشك من له أدنى مكنة فى العلم أنه أفضل ما يقرأ لكن لما كان المقصود من دخول الكعبة الشريفة الصلاة والدعاء والاستغفار كما فعل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ كان المنع

من القراءة فيها من اللازم لإحداث أمر لم يكن مطلوبا فيها، ولم يترتب على ذلك ما ذكرناه وقد صرح العلماء بأن كل عبادة خصت بمحل لا يفعل غيرها بذلك المحل، ولذلك قالوا: إن قراءة القرآن بالطواف خلاف الأولى لاختصاص الطواف بأذكار تقال فيه فمنعهم من اشتغال الطائفة بقراءة القرآن الذى هو أعظم من غيره يدل على منع المشتغل بقراءة الحديث فى جوف الكعبة لاختصاصها لما ذكرناه، فكيف بقراءته على الوجه المذكور المشعر بغاية الاستحقار والإخلال لعظمتها وحرمتها، أعاذنا الله من ارتكاب مالا يليق بجلالة بيت الله وحرمته ومن تعدى حدوده وانتهاك حرمته ووفقنا لما يحبه ويرضاه بمنه وكرمه.

حرره الفقير عبد العزيز بن محمد الزمزمى الشافعى.

* * *

هذه الوجهة تشمل صورا ستة:

تبين عدد المرات التى وسع فيها المسجد الحرام السعيد.

ومن قام بتوسيعه وترتيبه وكيفية ذلك ومتى بدأ الأهالى الكرام بإرسال الصرر إلى الحرمين الشريفين؟

ومتى أخذت ذلك عادة؟ وما الأسباب التى أدت إلى زيادتها وما مقدار تلك الصرر التى ترسل؟ ومن الذين ترسل لهم؟ ومن الذين ينالون الهدايا؟ وما مقدار الوقود ـ وسائر ما تمس الحاجة إليه فى المسجد الحرام؟ وكذلك القناديل وشتى أنواع الشموع مع بيان مقدارها ونوعها، وتبين كذلك أول من أنشأ عين زبيدة ذاكرة مجاريها وقنواتها والذين جددوها وعمروها وأصلحوها وعدد ذلك.

فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة

أول من تفضل بتوسيع الحرم الشريف للمرة الأولى هو عمر بن الخطاب رضى عنه الله الوهاب.

كان ما يحيط بالمسجد الحرام إلى عصر الخليفة سيدنا «عمر الفاروق» المبارك وزمانه المقرون بالعدل والقسطاس ساحة رملية شبيهة بالصحراء، ولم يكن هناك ما نراه اليوم من مبان، بل كان مساكن فقراء الغرباء المصنوعة من القش والحصير، وكانت هناك طرق ملتوية بين الأكواخ للوصول إلى حرم الكعبة المعظمة.

أما المسجد الحرام وهو توأم حرم الجنة فكان فى تلك الآونة ممتدا إلى ما وراء مقام إبراهيم والمنبر الشريف، فأما الذى مازال موجودا إلى اليوم أمام الكمر الذى يسمى اليوم بـ «باب السلام العتيق» قد وضع علامة مميزة لحدود الحرم الشريف القديم.

ولم يغير وضع الحرم الشريف القديم فى عهد أبى بكر الصديق لقلة المؤمنين وأبقى كما هو. لم توسع ساحة الحرم الشريف فى ذلك العهد لاستيعابها مسلمى تلك الآونة.

إلا أن عدد المسلمين قد زاد فى عصر عمر الفاروق المتميز بالعبادة بحيث ضاقت كل الساحة ذات الفيوضات الإلهية لبيت الله بجموع المسلمين ولم تستوعبهم، وأصبح توسيع مساحة بيت الله وتفسحها يتجاوز درجة الوجوب، وهكذا اشترى عمر بن الخطاب (رضى عنه الله الوهاب) الأكواخ والدويرات الملتصقة بالمطاف وضمها إلى المسجد الحرام، ولكن ذلك التوسيع لم يف بالغرض مما اقتضى ضَمَّ البيوت الأخرى الكائنة حول الحرم إلى ساحة الحرم، وهذا ما دعا الخليفة إلى شراء بعض المنازل التى ستساعد على التوسيع.

وفى هذه المحاولة الثانية للتوسيع لم يرض أصحاب المنازل بالتنازل عن دورهم، بل سعوا لإحداث فتنة بنشر أقوال مغرضة.

حينئذ استدعى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - المعترضين على إعطاء بيوتهم وقال لهم: «لم يُبْنَ بيت الله فى وسط بيوتكم، بل أنتم الذين بنيتم بيوتكم حوله، وضيقتم الساحة المقدسة لكعبة الله» ثم دبر المبالغ اللازمة لشراء تلك الدور كما قدر ثمنها أهل الخبرة، ووضعها فى خزانة كعبة الله ثم هدم تلك البيوت وألحق أرضها بالمسجد الحرام، وهكذا وسع حرم المسجد الحرام على الوجه المطلوب.

ثم أحاط الحرم الشريف بسور يزيد ارتفاعه على قدمين قليلا من جهاته الأربعة لتوضع عليه القناديل والشموع، ثم أمر بفتح بوابات مقابل الطرق التى تركها قصى» بن كلاب للدخول فى المطاف السعيد. وفى ختام هدم المنازل جاء أصحابها إلى حضرة الفاروق عارضين ندمهم وأسفهم، ورجوه أن يعطيهم نقودا كافية لشراء سكن فأعطاهم المبالغ التى وضعها فى خزانة بيت الله من قبل، وهكذا أرضاهم وأسكتهم وكان ذلك فى سنة ١٧ الهجرية(١).

* * *

(١) انظر تاريخ الطبرى ٤/ ٦٨ - ٦٩.

التذييل

قد تم التوسيع المذكور للمسجد الحرام بعد سيل (أم نهشل)[1] بخمس سنوات.

حكمة:

يظهر فى مكة المعظمة كل عشر سنوات أو اثنى عشرة سنة سيول مرعبة مفزعة ـ لحكمة ما ـ وتعقب السيل بركة عظيمة ورواج وتقل الأسعار وتعم النعمة الإلهية والكرم اللامتناهى الجبال والبوادى. انتهى.

قد نكبت مكة المكرمة بكثير من السيول كالسيل الذى مر ذكره، وغدت البلدة العظيمة المقدسة خربة وسكانها حيارى متعبين وهم يبحثون عن حل لنكبتهم.

يقول الإمام الفاسى وهو يتحدث عن صواعق مكة المكرمة وأخطارها، ناقلا عن الإمام الأزرقى عن محمد بن يحيى وابن يحيى عن عبد العزيز.

١ ـ من السيول الشهيرة التى شهدتها مكة المكرمة «سيل القارة» قد اجتاح هذا السيل المفزع مكة فى الجاهلية فى زمن سيادة بنى خزاعة وأثناء حكومتهم، قد ظهر سيل القارة بشكل مفزع سريع ودخل فى المسجد الحرام واقتلع دوحة عظيمة فى طريقه وجرفها إلى أقصى حدود مكة المكرمة، ويروى أن رجلا وامرأة غرقا فى هذا السيل. ولم يعثروا على جثة الرجل ولكنهم وجدوا جثة المرأة، وكان اسمها «قارة» وكانت من كريمات نساء قبيلة بنى بكر المشهورة لذا أطلق على هذا السيل «سيل القارة».

قد نظف صناديد بنى خزاعة الحرم الشريف بعد انقطاع المياه التى تأتى من الأطراف، وبنوا حول بيت الله وحجر إسماعيل[2] حائطا منخفضا تفاديا لما قد يظهر من السيول فيما بعد، وظل هذا الحائط إلى عهد حكم قريش.

(١) انظر الإصابة لابن حجر ٨/ ٢٨٦.

(٢) يطلق حجر إسماعيل على ما تحت الميزاب الذهبى.

٢ ـ من سيول مكة الشهيرة ـ نوعا ما ـ السيل العظيم الذى وقع عقب «سيل القارة».

قال الإمام الأزرقى وهو يعرف هذا السيل نقلا عن سعيد بن المسيب: قد وقع فى الجاهلية سيل آخر مخيف وكان السيل المذكور أشد قُوَّةً من سيل القارة» وبلغ درجة متناهية فى الشدة إذ غمرت المياه ما بين الجبلين وغابت المنازل عن الأنظار.

٣ ـ من السيول التى اجتاحت مكة المعظمة «سيل أم نَهْشَل» الثالث من تلك السيول. وحدث هذا السيل فى السنة الحادية عشرة الهجرية وفى عهد الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، وبدأ ظهوره على نحو مرعب من ناحية بيت (أبى سفيان بن حرب) أى من ناحية طريق مكة المعظمة الذى ينتهى إلى المعلى، فتدفق بشكل مخيف داخل الحرم الشريف وانتزع المقام الشريف من مكانه وجرفه حتى الوادى.

وجرف أم نهشل بنت عبيدة بن سعيد بن العاصى بن أمية من بنات «عبد شمس بن عبد مناف» أمامه وأغرقها. لذا عرف ذلك السيل باسم «سيل أم نهشل».

وبعد ما توقف السيل المخيف وانتهت صولته وجولته وانسحبت المياه الراكدة التى فى داخل المدينة، وجرت إلى بطن الوادى، اتحد سكان مكة المعظمة وطهروا مدينتهم ونظفوها وهم يد واحدة، وعثروا على المأثر اللطيف للمقام الشريف فى أسفل الوادى وحملوه إلى الحرم الشريف، إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعينوا مكان الجوهر الثمين لحجر المقام، ومن هنا أبلغوا الأمر إلى الخلافة الإسلامية السنية وعرضوا عليها الوضع.

وحينما أطلع الخليفة الفاروق الأعظم على الأمر اضطرب اضطرابا شديدا، وأسرع بالسفر إلى مكة المفخمة ناويا العمرة، وبمجرد وصوله إلى مكة المكرمة أخذ يبحث عن رجل قدير على تعيين موضع المقام الشريف.

ووجد ضالته فى «مطلب»[1] بن أبى وداعة السهمى «الذى يستطيع أن يعين موضع المقام الشريف فاستدعاه واستفسر منه الكيفية.

وإذا بمطلب بن أبى وداعة كان قد قاس المسافة بين الباب المعلى للكعبة الشريفة وبين المقام الشريف، وكذلك المسافة بين جدران بئر زمزم والمقام المنيف بحبل متوقعا أن يحدث مثل هذا الحادث، واحتفظ بالحبل فى مكان أمين فى منزله.

واستدعى حضرة الفاروق مطلب بن أبى وداعة، وأجلسه أمامه وطلب منه أن يحضر الحبل المذكور. وبعد مسح المكان وتعيين موضع المقام الشريف، وضع أساس البناء العالى الذى يطلق عليه إلى يومنا هذا «المقام الشريف».

إن الحجر الشريف الذى وضع فى داخل البناء الذى بناه عمر بن الخطاب هو الحجر الذى كان يضع عليه حضرة إبراهيم (على نبينا وعليه التعظيم) قدميه فى أثناء رفع قواعد البيت.

وقد فصل فى بحث الأثر الشريف كل ما يتعلق بهذا الحجر الميمون المبارك، وأين وجد؟ وكيف حفظ إلى الآن؟ وأين حفظ؟ كما فصل فى باب قدوم النبى الجليل إلى مكة المكرمة وكيفية سفره وشكل الحجر الميمون وهيئته المرئية ومبانيه فى هذا المكان الذى يرجى قبول الدعاء فيه.

بعد ما أنهى ابن الخطاب (رضى الله عنه) العمليات الخاصة بمبانى المقام الشريف أصلح وعمر الأماكن الأخرى لحرم المسجد الحرام، كما أصلح ما خرب

(١) أحد الأصحاب الكرام، ذكره ابن سعد فى مسلمة الفتح، انظر الإصابة ٦/ ١٠٤.

من السد الذى يطلق عليه «ردم بنى جمح». إن السيل الذى ظهر بعد تعمير سد «بنى جمح» قد فاض من جهة السد المذكور، وأخذ يصب إلى المياه الرمادية التى تراكمت فى سهل وادى إبراهيم؛ لذا أطلق على السيل الذى أتى من هذا الطريق اسم«سيل وادى إبراهيم».

إن المياه التى تتكون من الأمطار التى تنزل عل جبال مكة فى ذلك الوقت تشكل سيلين عظيمين وتدخل فى داخل المدينة وأحيانا تدخل حتى حرم الله وتخرب الأماكن المقدسة بالحرم.

إن السيل الذى قلنا عنه وادى إبراهيم أحد هذين السيلين العظيمين، وكان يظهر من جهة سد بنى جمح ويمر بوادى إبراهيم المذكور ويجرى نحو شمال الوادى.

هو أحد السيلين السالف ذكرهما وهو سيل مخيف مرعب. وكان هذا السيل يهبط من جبال مكة الجنوبية ويدخل إلى المدينة سالكا طريق محلات جياد، ويبلغ البركة اليمانية ويرتد من هناك ويجرى صوب أسفل البلاد.

وكان سد ردم بنى جمح الذى وقع بين المحلات المسماة فى زماننا «المدعى» فى أوائل ظهور الإسلام كان بيت الله بجانب السد المذكور الذى كان موجودا آنذاك، كان يبرز جمال هيئته لعشاق بيت الله وزواره.

ولما كان الدعاء مقرونًا بالاستجابة حال رؤية بيت الله؛ فإن الحجاج الذين يطئون هذا الموضع كانوا يجتهدون فى الدعاء.

وفيما بعد حجبت المنازل والبيوت التى أقيمت فى هذا الموضع رؤية البيت الأعظم؛ وعلى الرغم من ذلك ظل الدعاء على حاله كما كان فى الماضى إذ إنه من الثابت أن الرسول ﷺ قد وقف للدعاء فى هذا المكان. حتى إنه يشاهد على جانبى الطريق لافتة خاصة مكتوب عليها: (هنا محل دعاء).

رواية:

قال حافظ الدين فى كتابه «النافع» نقلاً عن صاحب الهداية: «كنت قد نويت الذهاب إلى مكة المعظمة لأداء مناسك الحج، وعندما استأذنت من شيخى وطلبت منه الوصية قال لى: إن ثمة مكان مبارك فى مكة يقال له «سوق الكراع»، ومن هذا الموقع الشريف تبرز كعبة الله المتعال فى جمال لا مثيل له، وعندما تصل إلى هذا المكان وتنال شرف مشاهدة جمال بيت الله، فعليك أن تدعو قائلا: «اللهم اجعلنى من عبادك الذين تستجاب دعواتهم» لأن الدعاء عند رؤية بيت الله رهين الاستجابة. انتهى.

بناء على ما ذكره أهل العلم والدراية من سكان مكة المكرمة أن سيل جياد يحدث مرة كل عشرة أعوام، ويطغى بشدة منقطعة النظير ويفوق سيل «وادى إبراهيم» إلى حد جد بعيد، ويملأ المسجد الحرام بالطين والحصى، ولقد بذل أشراف البلد وأعيانهم من السلف الصالح كل جهدهم وصرفوا كل همتهم إلى حفر كثير من القنوات تحت الأرض لاستيعاب جريان مياه «سيل جياد»، ولكن القنوات امتلأت بالمياه على مر الزمان ولم تخطر بذلك دواوين الخلافة، فاستمر تدفق السيل فى مجراه القديم تدفقا شديدا ـ حين حدوثه ـ وما زال يهدم البيوت ويخرب الكثير من المنازل.

٤ ـ سيل الحُجَاف: هو السيل الرابع الذى أفزع أهالى مكة المفخمة، ولقد ظهر هذا السيل فى عهد عبد الملك بن مروان، وفى خلال العام الثمانين من الهجرة النبوية.

وقد ظهر ذلك السيل فى وقت صلاة الصبح وكان الحُجّاج ذوى الابتهاج فى وادى مكة، وبدأ جريان المياه من قبل صلاة الصبح، ثم ازدادت شيئًا فشيًا فجرف السيل الحجاج القائمين فى محل الوقفة كما جرف أثقالهم وأمتعتهم إلى المسجد الحرام.

وأحاط بالبيت المعظم وهدم المنازل والحوانيت الكائنة فى ناحية الوادى وخربها، وأغرق كثيرا من الناس وأهلكم.

وبما أن الناس قد لجئوا إلى الجبال لإنقاذ أرواحهم تاركين أمتعتهم وأموالهم أطلق عل ذلك السيل اسم «سيل الحُجَاف». وحينما أبلغ هذا الخبر المخيف لعبد الملك؛ أرسل إلى مكة المعظمة الموظفين المختصين من قبله لبناء ما تهدم من البيوت، ولحفر مجارى السيل وتعميقها، وبناء جدران من الحجارة الكبيرة والمتينة حيث يستدعى البناء، وقدم للأهالى أموالا طائلة وأشياء لا تحصى وهكذا عجل بإظهار جوده وسماحته.

٥ - السيل الخامس من سيول مكة «سيل عمر بن عبد العزيز» حدث هذا السيل فى السنة السابعة والتسعين أو الثامنة والتسعين من الهجرة، وكان سبب ظهور هذا السيل دعاء عمر بن عبد العزيز، لأن عمر بن عبد العزيز كان قد غادر الشام بنية الحج متجها إلى الأراضى الحجازية الجالبة للغفران.

فاستقبله أشراف مكة وأعيانها وتحدثوا عن الجفاف قائلين: «يا سيدنا إن الحجاز ومكة معرضة للجفاف فى هذه الأيام، ويخشى من نقص الماء وإن أهل الحرمين فى أشد الاضطراب من هذا الأمر وفى شدة الحزن مما سيصيب الحجاج الكرام من العطش فى موسم الحج هذا العام. وهكذا أجبروا عمر بن عبد العزيز على دعاء الاستسقاء. وفى الحال هم الخليفة بدعاء الاستسقاء بكل ما أوتى من عقيدة قوية وإيمان صادق بناء على الاتفاق الذى تم بينه وبين الوفد المكى، واشترك فى الدعاء قافلة الحجاج التى صاحبته وكذلك الوفد المكى الذى جاء لاستقباله.

ولحكمة ما انهمرت الأمطار بطريقة لم يسبق لأهالى البلاد الحجازية أن رأوا مثلها من قبل. وجاءت السيول من جميع الجهات وأحاطت مكة المعظمة من

جهاتها الأربع، وعمر الحجاز بالخيرات وعم الخصب ورخصت الأسعار؛ وذلك ببركة دعاء عمر بن عبد العزيز.

٦ ـ السادس من سيول الحجاز سيل أبو شاكر: وقد ظهر هذا السيل فى السنة السادسة والعشرين بعد المائة الهجرية وفى عهد هشام بن عبد الملك. وكان «أبو شاكر» من أجلاء رجال الدولة، وكان ضمن قافلة من قوافل الحجاج وقد اضطرب اضطرابا شديدا من شدة صولة السيل، وأظهر قلقا لذا ذكر ذلك السيل العظيم بعد فترة ما «بسيل أبى شاكر».

٧ ـ من السيول التى خربت مكة المعظمة سيل مخيل: وقع سيل مخيل سنة مائة وثمانين واجتاح المسجد الحرام بقوة وسبب ضررا غير قليل. ولا يمكن حصر البيوت التى انهارت والأرواح التى أزهقت.

٨ـ السيل الثامن من سيول مكة «سيل حنظلة» ظهر هذا السيل فى سنة مائتين واثنتين وفى عهد الخليفة المأمون. وبما أن هذا السيل قد ظهر بقوة شديدة نقل مقام إبراهيم الهمام إلى مكان مرتفع خيفة انتزاع السيل له. وقد خرب هذا السيل المسجد الحرام، وهدم كثيرا من المنازل وأهلك بالغرق كثيرا من النفوس. ولما كان والى مكة فى تاريخ ظهور السيل يسمى «حنظلة» فسمى السيل «سيل حنظلة».

٩ ـ قد ظهر سيل آخر بعد سيل حنظلة بست سنوات سنة (٢٠٨)، وقد اقتلع هذا السيل العظيم أركانا كثيرة من المسجد الحرام، وهدمها كما سبب غير قليل من الخسائر والمضرات لأهل مكة، كما جلب فى ساحة المسجد الحرام السعيد كثيرا من الطين والرمل مما دعا إلى إشراك النساء فى خدمة تطهير المسجد الحرام. قد ظهر هذا السيل فى عهد الخليفة المأمون، وفى خلال السيل العظيم وسيل حنظلة تعرض الناس لمرض شديد ومات ما لا يحصى من الناس.

١٠ـ ومن السيول التى أفزعت الناس فى البلاد الحجازية سيلان وقع أحدهما وهو السيل العاشر بمكة سنة ٢٥٣ والثانى وهو الحادى عشر فى مكة فى سنة ٢٦٦. يعتبر السيل الذى وقع ٢٥٣ من الأحداث المهمة التى حدثت فى البلاد الحجازية، إذ دخل إلى المسجد الحرام وارتفعت المياه حتى وصلت إلى الحجر الأسود، وجلبت للمسجد خسائر عظيمة إلا أن السيل الذى حدث بعده بخمسة عشر عاما كان أكثر رعبا وفزعا. إن هذا السيل قد خرب المنازل والمدارس والحوانيت التى فى طريقه، وبخلاف هذا فقد جرف الرمال التى كانت تفرش ساحة الحرم الشريف، وقد بلغ شدة جريانه حدا أنه جرف معه كل ما يقع أمامه من الأجسام الثقيلة بدون قيد ولا احتراز، كما أنه اقتلع جميع الحجارة التى فى داخل ساحة المسجد الحرام.

وبعد هذه الواقعة أى بعد سيل عام ٢٦٦ ظهرت سيول أخرى خلال ٣٤٤ سنة، إلا أنه لا يعرف التاريخ أوقات ظهورها، ولكن مما يروى أنه فى خلال تلك الفترة هبطت على مكة سيول من الجبال التى تحيط بها، وهى سبعة سيول أو ثمانية، وقيل إنها كانت مفزعة رهيبة، وقد جرف إلى ساحة الحرم الشريف الأتربة وعظام الحيوانات وغير ذلك، وتحول داخل المسجد الحرام إلى جبال مما سبب لأهل مكة التعب الشديد فى نقل المخلفات وترميم ما خربته السيول وتعميره.

وقد نقل مؤلف «لطائف الأخبار» عن قاضى مكة برهان الدين بن ظهير فى ذلك الوقت «أن أشد السيول التى هبطت هو السيل الذى ظهر فى شدة مخيفة فى يوم الأربعاء الرابع عشر من ذى القعدة عام (٦٨٣) وكأنه شعبة من المحيط الهادى.

إن السيل الذى يذكره القاضى برهان الدين قد ملأ ساحة المسجد الحرام ذات الفيوضات الباهرة، وهدم كثيرا من أساطينه وخربها، وأهلك فى داخل الحرم الشريف وخارجه وأغرق خمسائة وسبعين شخصا.

قد ظل هذا السيل فى داخل الحرم الشريف ما يقرب من أربعة أيام، من يوم الأربعاء إلى يوم السبت وظلت المياه تتزايد بغزارة فى تلك الأيام الأربعة؛ إلا أنها أخذت فى النقصان يوم السبت، وقد أصاب أهل مكة من شدة هيجان ذلك السيل فزع شديد».

ويقول القاضى برهان الدين فى رسالة كتبها وأرسلها إلى مصر بعد أن تحدث عن وقت ظهور السيل ومدة بقائه فى الحرم الشريف «إن المسنين الذين عاصروا السيل يذكرون أن مثل هذا السيل لم ير له مثيل لا فى العصور الجاهلية ولا فى العهود الإسلامية.

إن المياه التى تجمعت فى ساحة المسجد الحرام، ارتفعت مقدار سبعة أذرع وثلاثة أرباع ذراع» وفى خاتمة رسالته أومأ إلى أن أهل مكة كانوا على حق فيما أصابهم من شدة الفزع.

١١ - من السيول التى يعرف التاريخ ظهورها السيل العظيم الثانى عشر الذى حدث فى سنة ١٥٣٨ الهجرية. إن السيل المذكور قد ظهر فى ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، واجتاح ساحة الحرم الشريف من البطحاء وارتفعت المياه قدر ذراع من فوق عتبة باب بيت الله، وأوقعت كثيرا من أبواب المسجد الحرام على الأرض.

وكان عدد الغرقى والموتى لا حصر له، ولم يكن بين أهالى مكة من رأى مثل هذا السيل العظيم؛ فلو لم يكف هطول الأمطار بعناية الله لما كان هناك شك أن كثيرا من حوانيت مدينة مكة المكرمة كانت ستخرب.

١٢ - من السيول الشهيرة السيل الذى ظهر مثل البحر بعد السيل الثانى عشر بأربع وستين سنة. وقد ظهر هذا السيل ليلة الخميس العاشر من شهر جمادى الأولى سنة ثمانمائة واثنتين. ودخل فى المسجد الحرام من جهة وادى إبراهيم واقتلع كثيرا من أبوابه وحطمها، وكانت كثرة الأمطار هى

التى تسببت فى ظهوره وقد اشتد هطول المطر حتى ظن الذى كان يراه كأنه ينسكب من أفواه القرب.

وقد بلغ ارتفاع المياه التى تجمعت فى المسجد الحرام خمسة أذرع، وارتفعت بمقدار ذراع ونصف ذراع من عتبة باب الكعبة المعلى. والماء الذى دخل الحرم بلغ من قوة جريانه أن هدم عمودين كبيرين، وهوى السقف الذى يحمله العمودان فمات ستون شخصا ممن كانوا تحته.

١٣ ـ وحدث السيل الرابع عشر الذى ألحق بأهل مكة أبلغ الأضرار بعد السيل الثالث عشر بثمانية أعوام. وقد ظهر هذا السيل فى اليوم الثانى والعشرين من شهر ذى الحجة من عام ثمانمائة وعشرة للهجرة فى وقت الظهيرة، وهدم السدود التى صنعت لتمنع المياه الفائضة من القنوات ومجارى العيون فى وقت ظهور السيول، وأغرق داخل البلد بالمياه وهجمت المياه بشدة ودخلت فى ساحة الحرم الشريف بشكل مفزع، وسرعان ما ارتفعت إلى الدرج الخاص بجلوس الخطباء فى المنبر الشريف.

وبلغ الخبر من قبل والى الإمارة إلى مقام السلطنة الذى عين مديرًا من قبله لإجراء ما يقتضى إجراءه؛ وأرسله إلى مكة المعظمة، وبادر المدير فور وصوله بتعمير السدود الخربة وتشييدها كما عمق قنوات عين زبيدة ومجاريها وجددها.

١٤ ـ من السيول التى أرهقت أهل مكة وآلمتهم السيل الخامس عشر الذى وقع فى خلال عام ثمانمائة وثمانين، ولم ير مثيل له لا فى خلال أعوام الجاهلية ولا العصور الإسلامية.

وبالنظر لما ينقله المرحوم الإمام السمهودى فإن السيل المذكور ظهر قبل وصول الحجاج إلى مكة، وغمر ما بين الجبلين وارتفع إلى أسطح المنازل الكائنة فى ناحية المعلى، ومن هناك اجتاح بقوة خارقة للعادة ساحة المسجد الحرام وألحق به خسائر جمة.

ولا يعلم إلا الله ـ تعالى ـ عدد ما انهار من البيوت وما حاقت بهم من الخسائر وما فاضت من الأرواح.

وعندما سحبت مياه السيل من المسجد الحرام أخرجت من تحت أنقاض المسجد الحرام جثث مائة وثمانين رجلا، ولم ير الطاعنون فى السن من أهل مكة سيلا يشبه هذا السيل الخطير.

١٥ ـ من السيول التى جعلت أهل مكة ينتفضون مضطربين: السيل الذى حدث فى اليوم الرابع عشر من شهر ذى القعدة عام ٨٨٧ للهجرة. وكان سيلا عظيما يخلع القلوب رعبا، وكان وقوعه فجأة فى اليوم المذكور واتجه نحو المسجد الحرام وسرعان ما تسرب إلى بيت الله وارتفع بطول قامة إنسان داخل الكعبة المشرفة، أما ما ترتب عليه من خسارة فلا يقع تحت الحصر فانهارت الدكاكين فى أرجاء البلد والمدارس والمنازل، وانهارت بعض أساطين المسجد الحرام ولم تقم صلاة الجمعة فيه.

وما كان فى الإمكان حصر عدد الهالكين تحت ما انهدم من أطراف المسجد الحرام وما بجانبه من الدكاكين والبيوت والمدارس، إلا أن سبعين جثة أخرجت من المسجد الحرام.

وكتب قاضى مكة الذى كان يتولى منصب القضاء إلى حكام مصر قائلا: «إن هذا السيل الذى وقع هذه المرة كان سيلا مفزعا حقا، فقد ظلت جدران المسجد الشريف الأربعة مغمورة فى الماء، وارتفع الماء على امتداد مساحته فى جانبه الأيمن والأيسر إلى سبعة أذرع وربع.

١٦ ـ من السيول التى أحدثت خسائر عظيمة فى مكة المكرمة السيل السابع عشر من تلك السيول العظيمة. ولم نستطع أن نعرف فى أى يوم من أى شهر وقع، إلا أن المياه قد غمرت الصحارى والسهوب والجبال والأحجار وملأ المسجد الحرام بالطين والحجارة وخربت المياه كثيرا من الدكاكين والبيوت بما

فيها من أمتعة وبضائع. وما كان فى مقدرة أحد أن يخمن عدد المتضررين، أو ما ألحق بالناس من أضرار هذا السيل، وبعد انحسار المياه وجدت مائة جثة فأودعت الثرى. ولم يرد منذ عصر الجاهلية أخبار عن سيل من السيول أبشع وأكثر رعبا من هذا السيل.

١٧ ـ السيل الثامن عشر ظهر بعد عام من ظهور السيل السابع عشر من سيول مكة. ولا يعرف فى أى يوم من أى شهر ظهر هذا السيل، إلا أنه قد تسبب فى ضرر كبير وأدى إلى تلف كثير من ممتلكات أهل مكة.

١٨ ـ السيل التاسع عشر وقع بعد السيل الثامن عشر بمائة وخمسين سنة (١٠٣٩)، وهو من السيول العظيمة التى أخافت وأرعبت أهل مكة. وقد غرق فى خلال هذا السيل عدد لا يحصى من الناس وأصاب أهل مكة بخسائر وأضرار لا يستطيع الإنسان أن يخمنها، وكان سببا فى هدم وسقوط أبنية الكعبة المفخمة[١].

١٩ـ من السيول التى أحصيت السيل العشرون الذى حدث فى سنة ألف وتسعين أما عدد الحجاج الذين ماتوا غرقا فى هذا السيل فيفوق الحصر وما أصاب سكان مكة من سوء وخسائر فلا يمكن معرفته بالتخمين.

٢٠ ـ وبعد مرور عام على سيل عام (١٠٩٠) ظهر سيل عظيم آخر هو السيل الحادى والعشرون الذى أورد أهل مكة مورد التهلكة وسبب لهم خسائر كبيرة. وبالنظر إل ما ذكره مؤرخو مكة فإن السيل المذكور وقع فى اليوم الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة عام (١٠٩١) الهجرى. وقد وقع هذا السيل فى اليوم المذكور بعد صلاة الظهر بنصف ساعة على أثر هطول أمطار

(١) بما أن قد كتب فى الوجهة الثانية والصورة الثالثة عشرة ما أحدث هذا السيل من خسائر عند دخول المياه فى كعبة الله، وكيف أخليت الكعبة من الأشياء التى جرفها السيل لذا لم تعد هناك حاجة إلى تكرار ذكرها.

خفيفة وجاء من الجبال المتسلسلة التى تحيط بمكة وكان المطر قد انقطع تماما فى أثناء ظهور السيل.

وإن لاح فى بدء ظهوره سيلا خفيفا إلا أنه أخذ يتزايد بالتدريج، وتدفق تدفقا مرعبا ودام مدة طويلة حتى دخل المسجد الحرام، وجاوز ارتفاع المياه العتبة العليا لباب الكعبة السعيدة بذراع واحد، ودامت الحالة هكذا مدة أربع وعشرين ساعة، وأخذ جريان المياه يقل شيئًا فشيئًا حتى انقطعت المياه ووجد فى ساحة الحرم الشريف ما يقرب من خمس وعشرين جثة.

وكان فى ناحية المعلى شجرة جوز تحتها مقاهى متعددة، وعندما بدأ السيل وظهرت المياه تسلقها ما يقرب من مائة وخمسين نفرا من رواد المقاهى خائفين على أرواحهم من هول المنظر.

وحينما اكتسب جريان السيل شدة كان فى ظل الشجرة بضعة مقاهى؛ ولكن السيل المرعب قد اقتلع الدوحة العظيمة من جذورها وجرفها إلى أمام باب الصفا، والمساكين الذين لجأوا لأغصانها حماية لأرواحهم كان مصيرهم الغرق.

كما هلك غير هؤلاء كل هؤلاء الذين تصادف وجود حوانيتهم ومنازلهم على حافة جريان السيل، إذ انهدم ما يقرب من مائة وخمسين من تلك المنازل والحوانيت وفى داخلها أصحابها ولا يحصى عددهم إلا الله.

وقد امتلأت البركة اليمانية الكائنة فى الجهة الجنوبية لمكة المعظمة المقدسة بجثث الدواب النافقة وقد ثبت نفوق خمسة آلاف من الحيوانات التى تصادف وجودها فى طريق السيل.

وبعد انقطاع السيل المفزع فتح طريق يسمح بالطواف حول البيت وذلك بهمة والى مكة المكرمة وشهامته، واستعين بهذا الطريق لتنظيف جميع أرجاء الحرم الشريف وتطهيرها؛ إلا أن النظافة لم تصل إلى الحد المطلوب كما أن مجارى

السيل وقنوات عين زبيدة قد خربت تماما ولم تصلح للاستخدام، لذا أبلغ الأمر إلى السدة السلطانية لاستئذانه بتصليح ما خرب؛ فأرسل السلطان مدير أصطبلاته سليمان أغا ليقوم بالإشراف على التعمير وقد بادر المذكور بتطهير ساحة الحرم الشريف على الوجه المطلوب، كما أصلح مجرى السيل وقنوات عين زبيدة وعمقها وذلك فى سنة ١٠٩٢ الهجرية.

٢١ ـ السيل الثانى والعشرين الذى أضر أهالى مكة حدث فى سنة (١٢٧٨) وفى خلال أوائل سلطنة السلطان (عبد العزيز جعل الله مثواه الجنة). وبناء على بعض المعلومات المستقاة من مسنى مكة أن ذلك السيل كان أشد فزعا وهولا من سيل عام (١٠١٢).

وظهر ذلك السيل بينما كان الناس نياما فى ليلة من الليالى واجتاح الحرم الشريف وأحاط بالكعبة المعظمة هائجا مثل البحر لمدة أسبوع، وظل يتموج ولا يعرف أحد عدد الغرقى من الغرباء الذين ماتوا فى فتحة باب السلام.

قد وجد فى مجرى الماء الذى يبعد عن مكة المعظمة بساعتين أو ثلاث ساعات ظهرت جثث لفترة شهرين أو ثلاثة كما أنه قد غرق فى داخل المدارس والحوانيت خلق كثير.

وقد غرق جميع المساكين الذين وجدوا على الساحة المفروشة بالرخام[(١)] بين بابى ـ باب السلام ـ الداخلى والخارجى، ولم يبق فرد يتنفس من الناس الذين كانوا يبيتون فى داخل دكاكينهم فى سوق المسعى الشريف، أما الأشخاص الذين كانوا يقضون ليلهم تحت قباب الحرم الشريف فقد غرق أكثرهم. إلا أن قلة منهم قد تعلقوا بما تدلى من حبال من القباب فصعدوا فوقها بعدما لقوا فى ذلك تعبا شديدا ومشقة عظيمة حتى فازوا بالنجاة.

وبعد مضى أسبوع أخذت المياه تنحسر شيئا فشيئا، أما الناس شريفهم

(١) كان هذا المكان سوقا للكتب وكان مجلسا للغرباء والمساكين والشحاذين ليلا ونهارا.

ووضيعهم فشمروا عن ساعد الجد فى حماسة دافقة، وأقدموا على تنظيف الحرم الشريف وتطهيره مما جرفه السيل من الحجارة والتراب وغيرهما، وبصعوبة شديدة استطاعوا أن يطهروه فى خلال ثلاثة أشهر.

قد تكون فى داخل الحرم الشريف بما جلبه السيل من الكناسة والتراب أكوام كأنها تلال وجبال هنا وهناك.

وتحول كل واحد من أهالى مكة الكرام إلى فرهاد حافر الجبل[١]، إذْ أخذوا ينقبون تلك الجبال والتلال ويهدمونها ويفتتونها ثم يحملون الأحجار والأتربة إلى خارج البلد. ولا يعرف عدد من مات من الناس وما نفق من الحيوانات وما محى من أموال وأمتعة.

٢٣ ـ وفى عام (١٢١٣) ظهر السيل الثالث والعشرون من تلك السيول التى ألفت مكة أن تشاهدها. وهذا السيل كان سيلا هائلا، وما كان شبها للسيل الذى وقع قبله بخمسة عشر عاما إذ لم يتأذ الناس بأضرار كثيرة.

إذا لم يعمق طريق المسعى الشريف ـ وهو مجرى السيل كما ينبغى فإن ظهور السيول وجريانها سيكون شيئا طبيعيا، وكلما لاحت فى السماء قطعة من السحاب أصبح من المجرب أن يظهر السيل بعد ساعتين، وإذا ما أتى السيل نهارا لا يسبب ضررا كبيرا للناس، ولكنه إذا وقع ليلا يتسبب فى خسائر عظيمة للناس فى أموالهم وحيواناتهم.

---

(١) هو فرهاد الحفار أو الذى عشق (شيرين) جارية (كسرى) كان هذا الملك يحب شيرين حبا جما، واتصل بعلمه أن قلبها خفق بحب فرهاد وشاء أن يتخلص منه وأمره بحفر طريق فى الجبل، وضرب له موعدا قريبا ليعجزه عن ذلك، ووعده بأن يهب له شيرين إذا انجز عمله فى موعده، وامتثل فرهاد لأمر كسرى وانجز عمله قبل الموعد المعين. فأسقط فى يد الملك ولكن عجوزا احتالت لتخلص الملك من فرهاد وأخبرته بأن شيرين ماتت فصدم فرهاد وكره أن يعيش بعدها والقى بنفسه من رأس الجبل. وهى قصة تداولها شعراء الفارسية والتركية والأردية بالنظم وضمنوها رموزًا صوفية. (المترجم).

وعلى ذلك فإن ما يصيب أهل مكة من أضرار من مياه سيل يتدفق فى العام مرة أو مرتين أصبح أمرًا مألوفا؛ إلا أن ما سبق ذكره من سيول مثل الذى وقع فى عهد (الفاروق الأكرم) المعروف بسيل (أم نَهْشَل) والسيل الذى وقع بعده بتسعة وستين عاما والذى عرف بـ (سيل حجاف) وما ذكر من سيول وقعت فى عام ثمانمائة وثمانية وثمانين وفى عام ألف وتسعة وثلاثين وعام ألف وتسعين أضرت بأهل مكة أبلغ الضرر.

ولاسيما السيلان اللذان وقعا فى عامى ١٠٩٠ و١٢٧٨ قد تسببا فى غرق وهلاك عدد لا حصر له من الحجيج وأهل مكة.

* * *

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية

بعد سيل «أم نهشل» الذى سبق التعريف به آنفا بخمسة عشر عاما وفى العام السابع والعشرين من هجرة النبى. ﷺ أراد سيدنا عثمان بن عفان (رضى الله عنه المنان) توسيع ساحة الحرم الشريف أكثر من قبل وأراد شراء بعض البيوت القريبة من الحرم، إلا أن أصحاب تلك البيوت جأروا بالشكوى وألحوا فى التمسك بعدم الرضوخ لرغبة الخليفة، وأطالوا ألسنتهم بكلام مستهجن لايليق، فجمعهم الخليفة وقال لهم: «إنما أطمعكم فىّ ما أتصف به من حلم وحياء فأخذتم تصيحون وتطيلون ألسنتكم ولم تستطيعوا أن تخرجوا ألسنتكم بالسوء فى أيام سلفى» واستمر يوبخهم لفترة ما ثم أمر بأن يحبس ويؤدب كل الذين لايريدون تسليم منازلهم لتوسيع ساحة المسجد الحرام فجمع كل المخالفين وقبض عليهم وحبسوا.

إلا أن عبد الله بن خالد تقدم بالشفاعة لدى الخليفة ووفق فى تخليص جميع المخالفين، وأدخل الخليفة الأراضى التى استولى عليها من المخالفين المذكورين ضمن ساحة المسجد الحرام، فأصبح طول الحرم الشريف (٢٨٨) قدما و(٨) بوصات، وعرضه (٢١٢) قدما و (٦) بوصات، ورفع سور الجدار الذى بناه عمر بن الخطاب وأضاف إليه كثيرا من الأسقف، وبذلك اتسعت ساحة الحرم الشريف على النحو المرغوب، وبلغت عمارة الحرم الشريف غاية كمالها، وعندما استعد للعودة جاء وفد من أهل مكة ورجوه أن ينقل الميناء الكائن فى ساحة «الشعيبية» إلى جدة إلا أن صلاحية جدة لتكون مرفأ كان لابد من التأكد منه برؤية العين لذا تفضل بتشريف جدة بذاته ليكشف صلاحية المكان ويعاينه.

وقد عرف الخليفة أن شاطئ جدة أقرب إلى مكة المفخمة وطريقه خال من الخطورة، وأن جعل جدة ميناء أكثر أمنا وصلاحية من جميع الوجوه، وبعد أن أجرى فى هذا الخصوص التدقيقات والبحوث الكاملة بأن يترك تشغيل ميناء «الشعيبية» ويتخذ جدة مرفأ للسفن، وبما أن الاستحمام فى البحر كان مفيدا للجسم أمر بأن يستحم من كان معه فى البحر كما أنه بالذات! استحم فى البحر ثم عاد فى النهاية من طريق (عسفان) إلى قصر الخلافة فى مهجر النبى - ﷺ -.

وبعد هذا التعمير بفترة[1] اشترى حضرة معاوية دار الندوة وضمها إلى ساحة الحرم الشريف، وفى سنة (٧٥) الهجرية قام عبد الملك بن مروان ببعض الإصلاحات فى الحرم الشريف، وكذلك فعل ابنه وليد بن عبد الملك فى سنة (٩١) الهجرية.

وقد أرسل إلى والى مكة عبد الله القسرى كثيرا من الأعمدة الرخامية، وكتب له موصيا بأن يعمر الحرم الشريف بشكل يليق بمكانته وليس هناك قبل الوليد من أرسل أعمدة رخامية لتعمير الحرم المكى.

* * *

(١) فى السنة الرابعة والأربعين من الهجرة.

فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة

بما أن حرم المسجد الحرام قد أهمل خلال إحدى وأربعين سنة ولم يلتفت إليه بعد عمارة وليد بن عبد الملك، لذا بنيت الأسقف التى أقامها عثمان بن عفان وكذلك الأماكن التى أقامها عبد الله بن الزبير، كما بنيت الحجارة الرخامية التى أرسلها وليد بن عبد الملك، وزاد عدد أهل الإيمان فاقتضى توسيع ساحة المسجد الحرام، وبلغ الأمر إلى أبى جعفر عبد الله المنصور البغدادى؛ فما كان منه إلا أن وسع الحرم الشريف من ناحية جداره الشامى، وبدأ من حذاء المقام الحنفى إلى دار الندوة، كما وسع من جهة باب العمرة وأوصل إلى باب العمرة فى سنة ١٣٩ الهجرية.

أراد أبو جعفر أن يجدد الجهة الجنوبية من الجدار الذى يتصل بمسيل الوادى؛ ولكنه تركها على حالها حينما رأى أن تعميره غير قابل للإصلاح اشترى المنازل القريبة من الجدار الشرقى وهدمها، وألحق أرضها بالمسجد الحرام وبنى فى أماكنها مئذنة لا نظير لها. وزين أبو جعفر عقب ذلك جهات المسجد الحرام الأربعة بالذهب والفضة الخالصة والفسيفساء[١] النفيسة، وفرش داخل الحطيم الكريم بالرخام المجلى، وزينه وأتم التعمير فى خلال ثلاث سنوات ثم سجل كل ما تم صنعه فى زمانه على لوحة رخامية وعلقها على كمر فوق باب بنى جمح[٢] الكائن فى ناحية باب الصفا.

فى نفس العام الذى تم فيه التعمير وبلغ غايته من الكمال سافر «أبو جعفر»

(١) يطلق الفسيفساء على الأشياء الملونة الصغيرة المصنوعة من الزجاج والنقوش المختلفة التى تكسى بها جدران المبانى الفخمة.

(٢) إن هذا الباب كان الباب المتصل بباب الخياطين الذى يتصل بباب إبراهيم، وقد ضم المقتدر بالله العباسى باب إبراهيم إلى الحرم الشريف سنة ٣١١.

لأداء فريضة الحج وزيارة الحرمين، ورأى ما تم توسيعه وزيادته فى حرم المسجد الحرام فعبر عن ابتهاجه وسروره البالغ.

وكان أبو جعفر يتصف بصفة البخل الدنيئة، فكان يضرب به المثل فى شدة البخل إلا أنه ـ لحكمة ما ـ فاق ما قدمه من البر والإحسان جميع الكرماء الذين ظهروا من قبله إذ أكرم سكان الحرمين ومجاورى المسجدين وأحسن إليهم إحسانا عظيما[١] ثم ذهب لزيارة القدس الشريف.

وكان المنصور معروفا ـ بجانب بخله وتقطيره ـ بالظلم، ويروى أنه قتل فى أثناء حكمه الذى دام اثنتين وعشرين سنة ستمائة ألف من المسلمين وأيديهم مغلولة؛ كل ذلك ليقرب الناس منه وليحطم أصحاب الثروة والنفوذ فى الدولة وليخوفهم، وفى أواخر أيامه بيت سوء النية لقتل «سفيان الثورى» ـ رضى الله عنه ـ إلا أنه عندما خرج لأداء فريضة الحج للمرة الخامسة متجها إلى مكة المعظمة ووصل إلى المكان المعطر الذى دفنت فيه أمنا ميمونة ـ رضى الله عنها ـ، أمر والى مكة بإعداد مشنقة لشنق سفيان الثورى وفعلا قد تم إعداد المشنقة واتخذت جميع تدابير الشنق.

وعندما شاع هذا الخبر فى مكة كان سفيان الثورى قد امتد متوجها إلى الكعبة واضعا رأسه فوق ركبتى الفضيل بن عياض ورجليه فوق ركبتى سفيان بن عيينة.

قال أحد أولياء الله المحبين الصالحين: يا سفيان قد جاء المنصور قاصدا صلبك وإعدامك ووصل إلى بئر ميمونة وكتب إلى حكومة مكة حتى تعد مشنقة لصلبك، وقد أعدت فعلا مشنقة لذلك، وإذا ما استطاع هذا العدو الحاقد أن يضع يديه على جسمك الشريف إننا نتعرض لشماتة الأعداء، ونقع فريسة للمصائب والاضطرابات فقام سفيان من مكانه منتفضا، والتصق بستارة الكعبة المعظمة وقال بصوت مرتفع «لو وصل المنصور لهذا المكان فإننى لن أذكر الكعبة

(١) قد أعطى لكل واحد من أشراف قريش الف (فلورى) ولم يكن هناك مكى يعرف إلى ذلك الوقت من أعطى له هذا القدر من النقود.

طول عمرى» ثم امتد مرة أخرى واضعا رأسه على ركبتى فضيل ورجليه على ركبتى سفيان بن عيينة[1].

وعقب ذلك وصل خبر هلاك المنصور وهو أنه كان يركب حصانا ووقع منه، وتناولت الأفواه الخبر فى أرجاء مكة. وبما أن دعاء سفيان قد استجيب فقد تحرك المنصور من بئر ميمونة ووصل إلى «الحجونين» الكائن بين جبلين حذاء مقبرة المعلى وسقط من فوق حصانه على عنقه ومات متأثرا بذلك.

يقول مؤلف (لطائف الأخبار) عمر بن فهد: ولما كان المنصور متسلطا على الناس يضطهدهم؛ خاف رجال السلطة من انتقام الشعب من جثته وأمروا بحفر مئة قبر ودفنوه فى القبر المائة، وأخفوا عن الناس القبر الذى دفن فيه وكتموا أمره. وكان سبب رغبة المنصور فى إعدام حضرة سفيان واستثقاله ما وجهه إليه من النصائح والوصايا.

اتفق ذات يوم أن التقى سفيان بالمنصور فى (منى)[2] وقال له «يا منصور اتق الله رب الكائنات واذكر ما رفعك إليه من منزلة، لقد بلغت هذه المنزلة العالية بفضل سيوف المهاجرين والأنصار وأولادهم وأحفادهم وما بذلوه من جهد، والآن قد عصفت بهم صروف الدهر، وأما أنت فشحيح ممسك[3] ولم يستطع عمربن الخطاب أن ينفق أكثر من خمسة عشر دينارا فى أثناء حجه، ومثله مثل الحجاج قد قنع بالجلوس تحت ظل شجرة، وأنا أعرف أن الرجل الحق هو من إذا ما ازدانت ذاته بالعلم والعمل أصلح حال الأمة وهذا الرجل هو من أتجه إليه بالخطاب فرد عليه المنصور فى حدة وغضب «هل تريد أن تساوى نفسك بى» فأجابه الشيخ قائلا «لا ، لا يجب أن تكون فى منزلة أقل مما أنت فيها وأنا فوق ما أنا عليها» فطرده المنصور من مجلسه.

(١) الخبر بطوله فى تهذيب التهذيب ٤/ ١١٤.

(٢) كان هذا اللقاء فى حج المنصور الأول.

(٣) كان قصد سفيان بهذه الجملة معرفة مدى بخل وخسة أبى جعفر لأن المنصور كان رجلا مقترًا يبحث عن حساب كل شيء حتى آخر دانق لذا اشتهر بلقب المنصور الدانقى.

سفيان الثورى:

إنه سفيان بن سعيد بن مسروق، أبو عبد الله الكوفى من قبيلة «ثور» بن عبد مناة بن أد بن طابخة، ويكنى بأبى عبد الله، ولد فى السنة الخامسة والتسعين الهجرية، واستجاب لدعوة ربه فى سنة مائة وستين، يروى أنه دفن فى البصرة إلا أن قبره فى النجف الأشرف، وبناء على هذا يقتضى وفاته فى النجف الأشرف رحمة الله عليه.

* * *

(١) أمير المؤمنين فى الحديث وحيد زمانه فى الفقه والحديث والزهد أحد الثقات الإثبات مقدم عند الجميع، أخرج حديثه الجماعة، وهو إمام من أئمة المسلمين. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب. ٤/ ١١١ ـ ١١٥.

فى توسيع المسجد الحرام وتزيينه للمرة الرابعة

قد وسع المسجد الحرام للمرة الرابعة «محمد المهدى العباسى وذلك حينما رأى فى أثناء حجه أن المسجد الحرام فى حاجة إلى التوسيع. وقد سافر بنية أداء الحج وزيارة الروضة النبوية المطهرة، واتجه إلى الحجاز الجالب للفيض الإلهى والمغمور بالغفران، وعندما وصل إلى مكة المكرمة أقام فى «دار الندوة» الخاصة بالخلفاء العباسيين، وهناك اطلع على أن الحرم الشريف فى حاجة للتوسيع والتعمير وظهرت لديه الرغبة فى إجراء ذلك. وفى أثناء ذلك شرف بالمثول بين يديه عبد الله بن عثمان بن إبراهيم من خدم الكعبة المعظمة.

وقال له «يا مولاى: أريد أن أقدم لك هدية لم تقدم لأحد من الخلفاء قبلك، وقدم له حجر (مقام إبراهيم) المبارك لأجل زيارته. سر (المهدى) من صنع (عبد الله بن عثمان) فأمسك بالحجر الشريف ومسح به عينيه ووجهه ثم قبله. ثم أمر أن يملأ أثر القدم فوق الحجر بماء زمزم وشربه، ثم بعث بالحجر الشريف إلى قصر حريمه فتشرفن برؤيته والتبرك به، ثم أعاده إلى عبد الله بن عثمان ليعيده إلى مكانه.

وعقب ذلك مثل بين يديه بعض الأشخاص من كبار خدمة البيت وقالوا له «مولاى! كثرت الكسا على كعبة الله، ومن المحتمل أن تنهار جدران الكعبة تحت ثقلها» وكأنهم كانوا يلوحون بأنه قد حان وقت تغيير الكسوة وتجديدها.

فأمر الخليفة بإزاحة ما تراكم على الكعبة من أكسية، ثم أمر بتعطير الكعبة بدء من أسطحها وداخلها وخارجها بالمسك والعنبر والعطور الأخرى، ثم ألبسها بثلاث طبقات من كساء ذا بهاء، ثم أمر بأن تبدل سلاسل القناديل التى فى داخل

كعبة الله بالذهب، ثم قدم عطايا وفيرة ثم اشترى المنازل التى بين المسجد الحرام والمسعى الشريف، وأمر بأن تلحق بالحرم الشريف وعاد.

وبناء على ما يرويه المؤرخون الذين اهتموا بما وزعه المهدى وأعطاه لأهل مكة من العطايا الملكية ونوعها ومقدارها فى ذلك العام إذ أنفق الخليفة فى تلك السنة ستمائة ألف ذهب جعفرى. وثلاثة ملايين درهم وخمسة عشر ألف ثوب من الثياب البغدادية الفاخرة وحمل خمسمائة جمل من الثلج والجليد، وهكذا حرر كل أهل مكة مما أثقلهم من الفاقة والخصاصة.

إن الشخص الذى عين فى مديرية بناء الحرم الشريف للقيام بإنجاز الأمر الصادر من قبل المهدى، استدعى أصحاب البيوت التى يقتضى هذا الأمر شراؤها، بعد عودة الخليفة وأوصاهم بأن يدفع لهم مقدار ثمانية وخمسين ألف مثقال من ذهب، ثم هدم المنازل المشتراة وضم عرصاتها إلى الحرم الشريف، وهكذا وسع الجدار الغربى للحرم الشريف إلى باب العمرة والجدار الجنوبى إلى «قبة الشرابة» المعروفة بقبة العباس وذلك فى سنة (١٦١هـ).

وإن كان متولى أمر البناء يرغب فى توسيع الجهة الجنوبية من الحرم الشريف أكثر، إلا أن المكان الذى يلزم إلحاقه كان متصلا بمسيل الوادى ولما كان إرساء الأساس فى مجرى السيل من الصعوبة بمكان فلم يستطع توسيعه، ومع هذا قد اتسع ما بين كعبة الله المعظمة وجدار الحرم الشريف الجنوبى قدر (٦٣) قدما.

بعد ما أتم متولى أمر البناء جلب كل ما ينقص الحرم الشريف من مصر جلب أربعمائة وثمانين عمودا حجريا، وركزها فى الأماكن الخاصة وصنع فوقها أربعمائة وثمان وتسعين قبة، وهكذا أحكم قبب الحرم الشريف التى تحيط به.

ثم أنشأ بين المسعى اللطيف والحرم الشريف بقعة غاية فى الزينة التى تعرف «بدار القوارير» وفى ختام التعمير عرض الأمر على مقام الخلافة العالى.

وكان قد بقى ميدان صغير عقب التعمير بين المسجد الشريف والمسعى اللطيف، فأخذ جعفر بن يحيى البرمكى وزير «هارون الرشيد» عهدة هذا الميدان، وفيما بعد استقطع عدة بيوت ومساكن ثم ساحة (دار القوارير) وأقام فى المتسع دارا منقطعة النظير.

وبعد مدة انهارت كل هذه المبانى ماعدا دار القوارير. واندرست أسسها وضاع أثرها وأقيمت فى مواضعها ربط حصينة، كما أن هذه الربط انهدمت على مر الزمان، ولكن السلطان (قايتباى) المصرى ابتاع هذه الربط بتمامها وهدم ما تبقى من آثارها، وبنى المدرسة والرباطان اللذان ينسبان لاسمه، وبنى بعض العقارات وأووقف ريعها للإنفاق على ترميم المدرسة والرباط المذكورين وتعميرهما.

والبيت الأنيق الذى بنى على أرض دار القوارير انتقل بمرور الزمان ليد جواد البربرى، وفرش جواد داخل ذلك البيت وزينه بالزجاج الملون، كما زين خارجه بالرخام المصقول المختلف الألوان، لكن ذلك البيت فقد قيمته بوفاة جواد، وانتقل المنزل من يد لأخرى ثم انهار وبنى مكانه الربط والمدارس.

ولما أبلغ متولى أمر المبانى (المهدى) بإتمام تعمير المسجد الحرام؛ رغب الخليفة فى زيارة أبنية المسجد الحرام الجديدة، وتوجه إلى مكة المعظمة ورأى أن ناحية مسيل الوادى لم توسع، وأن هناك فاصلة كبيرة بين البقعة المقدسة لبيت الله وبين الجدار الجنوبى للحرم الشريف، ورأى أنه إذا ما وسعت هذه الجهة سيضيف هذا إلى المسجد رونقا وجمالا زائدا، وستتوسط الأبنية المربعة للبيت الأعظم مساحة مسجد الحرام، واستدعى الموكلين ببناء المسجد، وأطلعهم على ما يجول فى خاطره وأمرهم بأن يجددوا ذلك المكان وفق اقتراحه ورأيه؛ ولكن متعهدى البناء قالوا إِذَنْ يجب أن تهدم جميع البيوت التى على الضفة المقابلة لمسيل الوادى، ويحفر مجرى آخر ويضم المسيل القديم كُلّه إلى الحرم الشريف، وهذا الأمر فى منتهى الصعوبة بل مستحيل.

لأنه يلاحظ أن السيول التى سترد من وادى إبراهيم ستهدم جميع الأبنية

الجديدة التى ستبنى بعد تغيير المجرى من أساسه، وستدخل المسجد الحرام وتخرب جدرانه؛ لهذا يجب شراء منازل كثيرة أخرى وهدمها حتى ترسى أسس جدران مجرى السيل الجديد، وهذا يقتضى مصروفات باهظة ونفقات لا تعد ولا تحصى.

وأرادوا أن يعلقوا رغبة المهدى إلى المستحيل بمثل هذه المغالطات الفكرية.

إلا أن (المهدى) أصر على رأيه وأكده قائلا: «إن التفكير فى النفقات من شأنى أنا وعليكم أن تبادروا من الآن أن تقوموا بعمل ما بينت لكم فقوموا بتقدير مساحة الموضع ووفقا للخريطة التى سترسمونها» وقد رأى القائمون بالبناء أن الخليفة لا ينثنى عن رأيه، فوجدوا أنفسهم مضطرين للقيام بالقياس، فركزوا الأعمدة فى المواضع التى ينبغى تركيزها فيها ومدوا الحبال.

وعينوا مقدار توسيع الحرم الشريف، ثم قدموا كل ما قيدوه فى مضابطهم مع الخريطة التى رسموها للموقع إلى الخليفة، ثم صعد الخليفة فوق جبل أبى قبيس ورأى أن أبنية الكعبة المعظمة قد توسطت الأعمدة التى ركزت وحددت بالحبال، أى أن الكعبة أصبحت فى وسط المسجد الحرام كما رأى عدد البيوت التى ستشترى وتهدم، ثم أمرهم بأن يبادروا فى تجديد الجدار بموجب خطه فى الخريطة، ثم عاد.

وبناء على هذا جلب العدد الكافى من العمال وشرعوا فى شراء المنازل التى توجد فى الأماكن التى يلزم ضمها وإلحاقها بالمسجد الحرام، وهدمت تلك المنازل، وهكذا وسعوا المسجد الشريف من باب (هاشم) إلى باب (أم هانئ) وبهذا أصبحت الفاصلة بين الكعبة المعظمة والجدار الجنوبى لحرم المسجد الحرام (١٢٧) قدم وست بوصات.

قد تمت هذه العمارة فى ظرف أربع سنوات كاملة، وكان فى ضمن البيوت التى اشتريت (دار أرزق) ودار (خيرة بنت سالم الخزاعى) وبيت (جبير بن

مطعم) ودار (شيبة بن عثمان) وقد ضُمَّتْ أراضيها إلى ساحة الحرم الشريف ذات الفيوضات، وهكذا وصلت الفسحة، ووسع الحرم الشريف بهذا القدر.

إن بنيان وتعمير الخليفة المهدى وصل إلى غايته وانتهى قبل أن ينتهى تعمير أبنية المسجد الحرام؛ إلا أن ابنه حينما اعتلى كرسى الخلافة وهو (موسى الهادى) أمر بإتمام تعمير أبنية المسجد الحرام، واستعجل ذلك فتم البناء فى أواخر سنة (١٦٩)[١].

* * *

(١) توفى الخليفة المهدى فى أوائل سنة (١٦٩)، وكان يحب الإحسان ولاسيما فى الحرمين الشريفين.

وقد أمر بحفر أحواض فى اثنى عشر موقعا من الطريق الذى يبدأ من بغداد وينتهى بمكة المكرمة، وسقى الحجاج شرابا مخلوطا، وعلق القناديل التى فى داخل بيت الله بسلاسل ذهبية.

وقد غير كسوة بيت الله القديمة سنة ١٥٨ وألبس «ليلى» هذه التى يعشقها العالم ملابس جديدة، واصبح منذ تلك الليلة تغيير كسوة الكعبة الشريفة عادة بين المسلمين.

قد جدد حجر إسماعيل وكذلك الأميال التى توجد فى مراحل الحج ومنازله، وقام بحفر الآبار فى الموقع التى فى حاجة إليها، وكذلك جعل إرسال الصرر لأهالى الحرمين بين الخلفاء عادة، ولم يكن أحد يرسل الصرر إلى الحرمين قبله و قد عطر سطح كعبة الله فى سنة حجه بالمسك والعنبر، وكذا غالبية الأماكن وجميع أركانها وألبس كعبة الله ثلاث طبقات من الكسا الحريرية طبقة فوق طبقة.

الصورة الخامسة

فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه العرض والبيان

الباب المعلا - خلعت عضادة باب كعبة الله المكفت بالذهب بمعرفة الحكومة، فى عهد الفتنة التى قامت عام ٢٥١ هجرية، وألواحه الذهبية كذلك فى عام ٢٦١ هجرية وصرفتها للإنفاق منها للقضاء على الفتن والاضطرابات، وقد حفر جب عميق فى الجاهلية لتحفظ فيه الأموال والهدايا الثمينة المرسلة من قبل أكاسرة الفرس وملوكهم تعظيما للكعبة وتفخيما لها بغية حمايتها من نهب الأشرار المغيرين ثم غطى الجب. وكما أن المجوهرات الثمينة المتنوعة المهداة منذ عصر إبراهيم (عليه الصلاة والتسليم) وضعت فى داخل هذا الجب إلا أن هذا الجب لم يكن (الأخسف) الذى حفره إبراهيم - عليه السلام - بل كان حفرة أخرى، فى داخل كعبة الله.

وقد عثر عليه قائد المجاهدين - عليه الصلاة والسلام - فى عام الفتح وأمر بفتحه، وأخرج منه أشياء ثمينة من ذهب وغيره لا تعد ولا تحصى من هدايا الملوك والأمم.

واستصوب أن تحفظ في خزينة بيت الله الأعظم وكان مقصد سلطان الأنبياء من هذا تعليم أمته أنه يجب ألا تمتد الأيدي على أموال كعبة الله.

كما أنه هدم بيت الله وبناه من جديد ليؤلف قلوب قريش. قد استصوب حيدرة[1] الكرار - رضي الله عنه - استخراج تلك الأموال وإنفاقها في أمور الجهاد، وكان ذلك في أول مرة في عصر النبوة السعيدة وفي المرة الثانية في عهد الصديق - رضي الله عنه - واضطر أن يسكت إذ أخذ الرد بالنفي من كليهما.

(١) من ألقاب أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

وأراد الفاروق الأعظم في عهد خلافته أن يقسمها بين المسلمين وأن يوزعها عليهم إلا أن أبا شيبة بن عثمان ـ رضي الله عنه المنان ـ قال له:

«يا عمر: كيف تتنكب أثر النبي الكريم والصديق المحترم؟ وقد نبتا في حياتهما على الاحتفاظ بتلك الأموال فى خزينة بيت الله «فصدق على قوله قائلا: «إنهما قدوة الأنام وإمامان واجبا الاحترام ويجب علينا أن نقتدي بآثارهما «وقرر على حفظ تلك الأموال فى خزينة كعبة الله.

وفي الواقع لم تمتد يد إلى خزانة بيت الله فترة طويلة بناء على القرار السابق، ولكن وآأسفاه أن الثائر «حسين الأفطس»[1] هجم على مكة المشرفة واستولى عليها بتحريض خبيث من بعض السفلة وأخذ الأموال المحفوظة في خزينة بيت الله منذ الفتح قائلا: ما جدوى هذه الأموال للكعبة؟ إننى سآخذها وأنفقها فى أمور الجهاد، ثم ابتدر في تبذيرها وتوزيعها كما يحلو له منذ ذلك الوقت انقطع إرسال الهدايا إلى خزينة بيت الله من قبل الملوك إذ غلبت عليهم فكرة ظهور غاصب آخر يستولى على الهدايا المرسلة لبيت الله المعظم.

وبعد نهب حسين الأفطس الأموال التي كانت مدخرة في خزينة بيت الله المعظم وإنفاقها باثنين وخمسين سنة بعد هذا الحادث، ظهرت فتنة إسماعيل السفاك.

قد رفع السفاك المذكور علم العصيان بغتة وهجم على مكة فَفَرَّ وَالِيْهَا ثم اقتحم مقر الحكومة ونهب كل ما يخص من أموال الوالى وأتباعه وأشياعه وكسوة كعبة الله وخزينتها وجمع من الأهالى مائتى ألف قطعة ذهبية بالقوة واتجه إلى دار الهجرة وهو يقصد قتل حاكم المدينة المنورة إلا أن الحاكم قد عرف قدومه فاختفى عن الأعين فعاد السفاك يائسًا آيسًا إلى مكة حيث ضيق على أهلها وحاصرهم فكان سببًا فى موت كثير من الأبرياء من العطش والجوع. وأغار فى فترة ما على جدة ونهب أموال التجار وتجرأ على أن يقطع طريق مكة وأن يعلن الحرب على الحجاج الذين ذهبوا إلى عرفات لأداء شعائر الحج وقتل منهم ألف

(١) انظر: تاريخ الطبرى ٨/ ٥٣٦ ـ ٥٣٨.

ومائة نفر فاستشهدوا وهم يلبسون ملابس الإحرام. ونهب أموال المسلمين الذين لجئوا إلى قمم الجبال فى هذه الاضطرابات والفتن فى سنة (٢٥١)، أما المسجد الحرام فقد أهملت العناية به بسبب هذه الاضطرابات إحدى وعشرين سنة، وبناء على هذا ظهر الخلل المفضى إلى الانهيار فى الجدار للمسجد الحرام، كما أن البيت الذى أقامته السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد قد تقادم وأوشك على الخراب، وكانت هذه الدار متصلة بالجدار الغربى للحرم الشريف وبدا فيها البلى جليا، مما أفضى إلى انهياره بغتة فتسبب بذلك فى هدم الجدار الغربى للحرم الشريف وخربه فمات تحت أنقاضه عشرة أشخاص. وقد بلغ الأمر لحكومة بغداد بالتفصيل، وحينئذ أمر الخليفة (الموفق بالله العباسى) بهدم الجدار من أساسه ليقام من جديد كما ينبغى أن يكون وذلك فى عام ٢٧٢.

أما (دار الندوة) التى أقيمت لسكنى خلفاء بغداد فيها، فأصبحت ميدانا تراكم فيه القمامة بعد أن تهدمت وأصبحت أطلالا مستقبحة المنظر وكان السيل الذى يأتى بين الفينة والفينة تتجمع مياهه فى ذلك الميدان وتجرف معها الكناسات إلى ساحة المسجد الحرام فتملؤها وتفسدها، كما أن سقوف الحرم الشريف تقادمت وقد امتزج المطر فى أماكن مجرى السيل، وعلت فأصبحت مياه السيل تفيض وتدخل فى داخل الحرم الشريف وتزيل حصى جدران الكعبة الداخلية وفسد الرخام على سطحها حتى أصبحت إقامة الصلاة فى داخل المسجد الحرام فى حكم المستحيل.

إن اللوحة الفضية المزخرفة التى ألصقت بدلا من اللوحات الذهبية لباب كعبة الله ذات الفيوضات التى كانت قد انتزعت من قبل واستخدم ثمنها لدفع الفتن والزخارف الثمينة قد محيت فى أثناء تضرعات الحجاج وتوسلاتهم فأصبح أعلى الباب فى لون وأسفله فى لون آخر، كما فسد رخام الحطيم وأرضية المطاف الرخامية كذلك داخل البيت الحرام وخارجه وجميع جهات ساحة المسجد الحرام قد تضررت.

قد أخبر الشريف عج ابن حج بالاتفاق مع (محمد بن عبد الله) شيخ مكة المعتمد بالله العباسى بجلية الأمر كما ابتدر بعض خدمة كعبة الله بالذهاب إلى بغداد وبينوا الوضع شفهيا للخليفة وأوضحوا له أن هذه الحالة تدمى قلوب أهل الإيمان، وأنه إذا ترك الحال كما هو فالمظنون أنه سيفتح بابا لمصروفات كبيرة فى الأيام القادمة.

وكان لهذا القول أثر كبير فى نفس الخليفة، فأمر بتعمير الأماكن المتضررة من المسجد الحرام وكذلك البقعة المقدسة لكعبة الله وهدم دار الندوة وبناء مسجد مكانها كما أمر بحفر وتطهير مجرى السيل المتصل بالجدران الشرقية والجنوبية، حتى يصل إلى عمقه القديم وذلك لحماية الحرم الشريف من مياه السيول التى يتوقع حدوثها. وبعث مبالغ طائلة مع مندوب خاص له.

وبمجرد ما وصل رجال الخليفة من بغداد إلى مكة ابتدءوا فى تعمير المسجد الحرام فى خلال سنة (٢٨١).

وغطوا باب كعبة الله بصفائح ذهبية خالصة العيار كما كان من قبل. ثم أخذوا فى حفر الأماكن التى سبق شرحها. ثم حفروا سبعة أدراج من السلم المطل على مجرى السيل والتى كانت قد غاصت فى الطين إلى أن ظهر الدرج الأخير. ثم هدموا أبنية دار الندوة وبنوا فوق أرضها مسجدا منفصلا ثم قسموا الجدار الذى ظل بين هذا المسجد والمسجد الحرام وفتحوا ست بوابات كبيرة الارتفاع كل واحدة منها سبعة عشر قدما وعرضها سبعة أقدام وبوصة واحدة، كما فتحوا أبوابا صغيرة بين كل اثنين من البوابات ارتفاع كل واحد منها أحد عشر قدما وأربع لنيات وعرضه ثلاثة أقدام وثلاث لنيات. وفتحوا للخروج من مسجد الندوة بابين بابا من جانبه الشمالى وبابا واحدا من جانبه الغربى ثم غطوا فوق الأبواب بأسقف عالية وأروقة معينة ثم صنعوا له مئذنة. إن هذا التعمير قد اكتمل سنة (٢٨٤) وظل شكله كذلك اثنتين وعشرين سنة، ولكن رئى مؤخرا أنه يوضع بشكل أجمل وبناء على الأمر الذى صدر من دار الخلافة إلى والى

مكة المعظمة القاضى محمد بن موسى بتجديد مسجد دار الندوة فقام به، كما عمر وقوى كمر الأبواب التى فتحت فى جدار الحرم الشريف، وقد فعل ذلك بحيث يمكن لمن يقف فى داخل الأرض الزائدة عن دار الندوة يستطيع أن يرى الكعبة المعظمة بكل سهولة.

ثم ركز أعمدة مستديرة مصنوعة من الحجارة السوداء المنحوتة، وربط ما بين الأعمدة بالأكمار القوية المستحكمة وصنع سقفا منقوشا من خشب الساج الملون بألوان مختلفة، وضم مسجد دار الندوة لساحة المسجد الحرام فى سنة (٣٠٦) وإن ظل الحرم الشريف إلى عهد المقتدر بالله على شكله الذى عرفناه دون زيادة أو نقصان ودون تغيير أو تبديل. إلا أن الخليفة المشار إليه اشترى الأرض الزائدة عند باب إبراهيم عند استعلائه العرش. وضمها للحرم الشريف ثم أنفق لسكان الحرمين المحترمين من الزوار (٣١٥٤٢٦) عددا من الذهب الفيلورى[١] ثم اتخذ لنفسه عادة إرسال ذلك القدر من الصرة كل عام سنة ٣١١[٢].

زيـــادة:

إن باب إبراهيم منسوب إلى شخص اشتغل بالخياطة ويسمى «إبراهيم» كان لهذا الشخص بجانب الباب المذكور حانوت كبير نوعا ما وكانت شهرته فى صنعته ذائعة.

وقبل أن تلحق الأرض الزائدة لباب إبراهيم كان هناك قرب (باب حزورة) باب (الخياطين) المتصل برواق الحرم الشريف، وكان بجانب هذا الباب بابان شهيران باسم (حجج) وكان خارج هذين البابين دار السيدة (زبيدة) زوجة هارون

(١) إنه يساوى بقيمة العملة الحالية ١٥٧٧١٣٠٠ قرش وستتحدث عن الذهب الفيلورى فى بحث المسكوكات ونبين قيمة تداوله.

(٢) إن إرسال الصُّرَر يُعَدُّ سنة من آثار الخليفة المقتدر بالله الخيرة وبناء على تحقيق كاتب جلبى أن إرسال الصرة إلى عهد ذلك الخليفة لم يكن من عادة الخلفاء وأن فقراء أهل الحجاز كانوا ينالون نصيبهم من مرتبات مستخدمى الحكومة وكان قدره مليونا وخمسمائة الف قرش، وكانت مائة الف من هذه النقود ترد من اليمن وخمسمائة الف من البحرين وثلاثمائة الف من عمان وستمائة الف من اليمامة.

الرشيد. ومع مرور الزمن قد مال ما بين منازل زبيدة وباب حجج للخراب، وقد تهدمت تلك الأماكن فى عهد الدولة العثمانية الباعثة للتعمير، واتخذت شكلا آخر ولم يبق الآن أثر لأى من دار السيدة زبيدة ولا من الميدان الواسع الذى سبق ذكره. انتهى.

وظل الحرم الشريف بعد تعمير المقتدر بالله العباسى ما يقرب من خمسين عاما على نفس الحالة.

وفى خلال هذه المدة لم تمتد يد التعمير إلى الأماكن التى تحتاج إلى الإصلاح، فتلف معظم رخام المطاف فاستحالت الصلاة عليه، كما لم يكن فى الإمكان السير عليه، لذا بدل معظم رخام المطاف الشريف فى عهد المستنصر بالله العباسى وعمر تعميرا جيدا ثم كتب فوق قطعة رخام هذه السطور:

(بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمارة هذا المطاف الشريف، سيدنا ومولانا الإمام الأعظم مقتضى الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر منصور المستنصر بالله أمير المؤمنين، بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله، وذلك فى شهور سنة إحدى وستين وثلاثمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم).

ثم علقت وألصقت على الجدار الشرقى الملاصق لحفرة مقام جبريل والكائن فى جهة مقام إبراهيم لكعبة الله. فى سنة ٣٦١.

وبعد مرور ست سنوات على العمارة التى قام بها المستنصر بالله العباسى وفى عام ٣٦٧هـ بنى فاعل خير يسمى الأمير شرف الدين على يمين الداخل من باب السلام مدرسة لا عيب فيها وألحق بها دار كتب وملأ أصونتها بكتب متنوعة لا حصر لها(١).

وفى سنة ٥٤٢ أصلح المقتفى بالله العباسى السلم الذى يؤدى إلى سطح

(١) قد خربت هذه المدرسة ودار كتبها فيما بعد ونقلت كتبها إلى قاعات الدروس فى الرباطات ولكن مع الأسف تعرضت تلك الكتب للنهب والسلب فى خلال ثورة سنة (٤٦١) كما انهار ذلك الرباط ومكتبته وأصبحا خرابا.

الكعبة المشرفة. وبعد عشرة أعوام من تعمير الخليفة المقتفى بالله تقادم باب الكعبة وانكشفت أخشابه واستوجب الإصلاح. وفى خلال عام ٥٥٢ أمر الخليفة المقتفى بالله بتغليف الباب المذكور وتزيينه بصفائح الذهب والفضة وبسبب الزلزال الذى وقع بعد سبع سنوات تعرض الجدار اليمانى لبيت الله المعظم للسقوط والانهدام فبادر المستنجد بالله بن المقتفى بالله بإصلاحه وتعميره فى سنة ٥٥٩.

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق:

فى ليلة السبت من أواخر شهر شوال عام (٨٥٢) هجرية اندلعت النار فجأة من غرف رباط رامشت المتصل بباب حزورة وباب زيادة إبراهيم، وامتدت النار إلى جهة الشمال والغرب للحرم الشريف، وأحرقت سقوفه مع (١٣٦) عمود من الأعمدة الرخامية، وانطفأت النار بجانب باب العجلة، لأن السيل الذى حدث قبل الحريق المذكور قد دخل فى المسجد الحرام و أوقع كمر عمودين صلبين عند الباب السالف الذكر وخربه فحدث فاصل كان سببا فى انطفاء الحريق، ولو لم يكن ذلك الفاصل موجودا كان من المحتمل أن يستمر الحريق ويمتد، وأبدى موظفو الحكومة وأهل البلاد همة عظيمة فى إخماد الحريق ولكن جميع الجهود ضاعت سدى ولم تنفع فى إخماد الحريق، ولم تعد الأماكن المحترقة صالحة لأداء الصلاة فامتنع المصلون عن الصلاة فى تلك الأماكن مدة طويلة.

ويرى بعض المدققين أن ظهور السيل العظيم الذى هدم العمودين بالقرب من باب العجلة محدثا الفجوة التى سبق ذكرها كان مقدمة لهذا الحريق؛ لأن هذا السيل بدخوله الحرم الشريف ارتفع إلى محاذاة القناديل المعلقة بالأعمدة التى تحيط بالمطاف الشريف، ودخلت المياه فى داخل البيت الحرام من خلال مصراعى باب الكعبة وأسقط العمودين بكمرهما بالكائنين بجانب باب العجلة كما خرب كثيرا من البيوت الرصينة فى داخل المدينة، وقد سكت بعض المؤرخين عن تعيين سبب الحريق، وقال بعضهم إن أحد سكان رباط رامشت أوقد مصباحه وخرج خارج حجرته، وعقب ذلك ظهرت نار من تلك الحجرة، وأحاطت بالأطراف

وأحرقت الحرم الشريف، وإذا نظرنا لهذه الحالة فعلينا أن نفهم أن فأرا قد حمل فتيل ذلك المصباح المشتعل وتسلق سقف الحجرة وانتشرت النار من ذلك الفتيل إلى أطراف السقف وتسبب فى الحريق.

تجديد المسجد الحرام:

ذاع خبر الحريق فى جميع البلاد الإسلامية وتأثر الجميع من هذه الواقعة التى تنفطر لها الأفئدة، فلما سمع بذلك الملك الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق وهو من ملوك الشراكسة فى مصر أراد تجديد الحرم الشريف وإصلاح أماكنه الأخرى؛ فعين الأمير بيسق الظاهرى أميرا للحج، وعهد إليه بوظيفة أمانة الأبنية المقدسة السامية وأرسله إلى مكة المكرمة فى سنة ٨٠٣.

ووصل الأمير بيسق إلى مكة المكرمة وقام بتنفيذ ما عهد إليه فأمر بتطهير ساحة المسجد الحرام وتنظيفها وكذا الأماكن التى تعرضت للحريق وتعميق حفر الأسس، ثم بادر إلى جلب ما تمس الحاجة إليه من الأحجار والأخشاب، وأسرع بتجديد البناء وتحتم تجديد الجدران فى أواخر عام سنة ٨٠٤هـ، وفى ظرف ثلاث أعوام أتم تجديد السقوف ثم أخذ يجدد السلاسل التى تعلق بها القناديل وفعلا علق القناديل التى أعدها من قبل، ثم أصلح وعدل مقامات الأئمة الأربعة[١] والمواقع التى تحتاج إلى التعمير على خير وجه، ثم عاد وكان قد جلب الأخشاب التى استخدمها لإصلاح السقوف الشريفة من قاهرة مصر فى سنة (٨٠٧).

وكان الأمير بيسق المصرى قد ترك أرض «رباط رامشت» المحترق على حاله

(١) قد جدد المقام الحنفى وعمره على التوالى ابن السلطان برقوق المصرى فى سنة (٨٥٧)، ثم الملك جاقمق المصرى فى سنة (٨٤٣)، ثم السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٢٣)، وبعده بستة وعشرين عاما وفى سنة (٩٤٩) السلطان سليمان، وفى سنة (١٠١٧) السلطان أحمد خان، وفى سنة (١٥٤٣) السلطان مراد خان الرابع، وفى سنة (١٢٥٩) هـ السلطان عبد المجيد خان. وكان التعمير فى عصر برقوق وعصر جاقمق (٩٢٣) و (١٠١٧) هـ وجدد فى عام (١٠٤٣) من حجر شمليس، كما جدد (المقام الشافعى) فى سنة (٧٠٧) من قبل برقوق المصرى. كما جدد المقام المالكى والحنبلى فى سنة (١٠٤٣) من قبل السلطان مراد خان الرابع من حجر شمليس.

وإن كان بقاء هذه الأرض المحترقة فى حالة خراب سيؤدى إلى أن تكون مقلبا لقمامة الحوانيت التى حولها، كما أنها ستحول دون النظام والنظافة المرجوان فى مكة المكرمة، فأراد الشريف حسن بن عجلان أن ينظم أزقة مكة المكرمة على قدر المستطاع.

كما أنه جدد الرباط المذكور وطهر جوانبه ونظفه رغبة فى البر والخير ولإيواء المحتاجين والمجاورين، ثم جعله وقفا لسكنى الغرباء فى سنة (٨٠٧).

كان السلطان غياث الدين المعظم أرسل النقود التى صرفها الشريف ابن عجلان مع رسول يسمى ياقوت وأمره بصرف جزء منها فى إنشاء مدرسة ورباط والتصدق بالجزء الآخر على الفقراء، وكان مع ياقوت هذا رسالة موجهة إلى الشريف حسن بن عجلان يبين فيها السلطان أن ياقوت قد ألحقه بمأمورية خاصة، كما أنه قد أذن له بإنفاق النقود التى أرسلها، ولما وصل ياقوت إلى مكة المعظمة أعطى الرسالة المذكورة إلى الشريف حسن بن عجلان، كما أنه ترك النقود التى رخص له بإنفاقها أمام الشريف الذى نحى ثلث النقود جانبا ووزع الباقى على الفقراء. وبنى ياقوت بالثلث الموقوف من النقود مدرسة ورباطا، وعين أربعة من علماء المذاهب الأربعة مدرسين على ستين طالبا من الذين اختارهم وهيأ لهم جميع ما يحتاجون إليه من المعونات.

كما أنه أصلح طرق «عين بازان» والبركة الخربة فى المعلى وأجرى مياه العين المذكورة إلى هذه البركة؛ وذلك وفق تعليمات شهاب الدين الذى عينه الشريف حسن مساعدا له.

ويروى أن الشريف حسن بن عجلان أخذ من ياقوت لبناء الرباط والمدرسة باسم السلطان غياث الدين سبعة آلاف مثقال من الذهب، كما أخذ لتعمير العيون خمسة آلاف مثقال من الذهب، كما أنه استولى على الصدقات التى أرسلت إلى أهالى المدينة المنورة.

وسبب ذلك إصرار محافظ المدينة ألا يكون تحت إمارة الشريف وفق الأصول الجارية فى ذلك العصر. ومن عادات زمن إمارة الشريف حسن بن عجلان أن يأخذ ربع الأموال والأمتعة التى يمكن إخراجها إلى البر من السفن التى ترسو على الشاطئ فى سواحل جدة والشعيبية ويقتسمها مع الأشراف.

إن السفينة التى كانت تحمل الأموال التى بعثها الملك غياث الدين الأعظم قد تعرضت لحادث إلا أنه أمكن إنقاذ معظم حمولتها، وأخذ حسن بن عجلان ربع الأموال التى أنقذت وفقا لعادات ذلك الوقت، إلا أنه اغتصب جميع الأموال التى أرسلت إلى دار الهجرة، وهكذا ظلم أهالى المدينة المنورة وغدر بهم.

إن تجرؤ الشريف حسن بن عجلان على التصرف بشكل يخالف عادات الأشراف كان سببا فى عصيان محافظ المدينة المنورة السيد حجاز وطغيانه، ولكن لشدة الأسف أن هذا العجلان قد كان سببا فى خذلان عامة أهل المدينة، وبعد مرور أربعة أعوام على تجديد هذا الرباط انهارات قنطرة المروة فأصلحها الناصر فرج الذى كان من ملوك الشراكسة فى مصر وفق طرازها القديم فى سنة (٨١١)هـ[١].

* * *

(١) إن هذه القنطرة كانت فوق الجبل الذى يطلق عليه جبل المروة وبما أنها أنشئت عندما فتحت البلاد الحجازية أصبحت تعد من الآثار العتيقة.

في العام الذي انهار كمر المروة وسقط اشترى ملك البنغال الشاه غياث الدين بن إسكندر الأعظم منزلين متصلين بباب أم هانئ، وأسس أربعة مدارس مكية من أجل علماء المذاهب الأربعة، ورتب لها وقفا لشراء كثير من العقارات، وعين لكل مدرسة مدرسا من المذاهب الأربعة وخمسة عشر طالبا لكل مدرسة، وتكفل بإعاشتهم.

وأصلح طرق عين عرفات وعين بازان وبركة المعلى ونظفها كما ينبغي فأجرى المياه إلى مكة المكرمة في سنة ٨١١.

فائدة:

إن بلاد البنغال الآن من مستعمرات إنجلترا الشرقية وتقع بين خطي عرض (١٦) و (٣١) شمالا وبين خطي طول (٤٧) و (٩٦) شرقا ومساحتها (٣٥٨٧٦٩) ميلا مربعا، وعدد سكانها (٩٧١٠٠٠) وهي ولاية كبيرة ومهمة، وتنقسم إلى ثلاث أقسام (العليا، الوسطى، السفلى)، وتشمل مدنا كثيرة مثل كلكتا، باتنة، مرشد اباد، دكاو، بناري، بريلي، عصم واراقان، وتحد البلاد المذكورة شمالا نابول والبوتان، وشرقا عصم وجنيخ، وجنوبا خليج البنغال وأجزاء من ممالك أوربا، وأراقان، كما تحدها من الغرب ولاية بهار التي تحيطها بأراضيها، كما أن نهر غنخ يفصل هذه البلاد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي.

مدينة كلكتا وهي حاضرة بلاد البنغال ومقر حكومة الهند، وفي الجهة الشرقية من وادي حو تملي الفرع الغربي لنهر غنج، وتبعد عن شاطئ المحيط بما يقرب من مائة ميل، ويبلغ عدد سكانها (٧٠٠٠٠٠) نسمة وفق الإحصاء الذي أجري سنة

(١٨٤٢) الميلادية، ولذا سميت هذه المدينة الشهيرة قالكوتة لوجود كوتة معبد الهنود الشهير فيها والذي يضم في داخله الصنم المسمي بـ «قالي» من آلهة الهندوس القديمة، من هنا اقتضي إطلاق اسم قالكوتة على المدينة. انتهى.

وبعد سقوط كمر باب المروة بثلاث سنوات أصلح سطح بيت الله وبعض المواضع من المسجد الحرام في عام ٨١٤، وذلك لأن سطح كعبة الله المقدسة وكذلك أماكن كثيرة من المسجد الحرام آلت إلى الخراب.

ولما لم يعمر سطح بيت الله الحرام منذ (١٥٣) عاما لحق به الخراب إلى حد بعيد، وبهطول الأمطار أخذت المياه تنفذ داخل الكعبة من بعض مواضع السطح؛ لذا أصبح لزاما أن تمتد يد الإصلاح والتعمير إلى معظم مواضع الحرم الشريف، واقتضى الأمر إلى معاينة سطح الكعبة والمواضع التي ينبغي إصلاحها في المسجد الحرام فتم الترميم والإصلاح على الوجه المطلوب.

وبعد مرور سنة على ذلك الترميم تعرضت المدينة المقدسة إلى القحط واكتوت بناره، وقد وصل ثمن حمل بعير متوسط من الغلة إلى عشرين قطعة ذهبية، وبيع البطيخ الواحدة بقطعة ذهبية وذلك في سنة (٨١٥).

عجيبة:

حدث في أواخر شهر ذي الحجة أن حمل أحد الجمالين الذي عرف بتحميل جمله حملا فوق طاقته والذي كان يلقب بـ «القارونى» أراد الجمل أن يتخلص من ظلم صاحبه، وبطريقة ما دخل إلى المسجد الحرام وأخذ يدور ويطوف ببيت الله(١) وقد طاف حول كعبة الله المعظمة إحدى وعشرين مرة، ومسح وجهه

(١) كان هذا الحيوان يسكب دموعا من عينيه كقطرات المطر في أثناء طوافه، وفي موسم الحج من سنة ١٢٩٩ حدث مثل هذا الحادث في المدينة المنورة إذ دخل جمل شبيه بالجمل السابق صباح يوم إلى المسجد النبوي السعيد ومسح وجهه في باب السلام وبرك، ولم يقم حتى دفع ثمنه لصاحبه ودفع رجال الحكومة ثمنه لصاحبه ثم أرسل إلى حظيرة الدولة وعاش هناك إلى أن مات دون أن يستخدم في عمل. يروى أن صاحبه كان يؤذيه بشدة وكان يتركه جائعا.

بالحجر الأسود ثم وقف أمام المقام الحنفي أي حذاء الميزاب الذهبي فترة ما، ثم برك على الأرض وأسلم روحه وهو يسكب دموعا مثل حبات الحمص.

قد أثار الحدث عجب الناس وحدتهم، وشد انتباههم ثم رفعت جثة الجمل ودفن في مكان في شارع المروتين أي في محل وسط المسعى الشريف وذلك في سنة (٨١٥)، وبعد وقوع هذه العجيبة بعام واحد ابتاع الشريف حسن ابن عجلان ساحة المستشفى التي أقامها المستنصر بالله الكائن في جهة الشمال من جدار المسجد الحرام، ثم جدد المستشفى وأوقفه على علاج المرضى الفقراء، كما أصلح وجدد كمر بابين أوشكا على السقوط في الجهة الجنوبية من جدار الحرم الشريف في سنة (٨١٦)، كما أن الملك المؤيد زين ألواح مصراعي باب كعبة الله بأن طلاها بالذهب في خلال تلك السنة أي (٨١٦).

زيادة:

قد انهدمت المستشفى التي جددها الشريف عجلان بعد (١١٠) سنة، واشترى السلطان سليمان خان من سلاطين العثمانيين ساحة المستشفى المذكور وخرائب تكايا أحمد كجراوي من سلاطين الهند والشيخ طاهر وكذلك المنازل المتصلة بها، وبنى أربع مدارس كبيرة لعلماء المذاهب الأربعة وجعلها وقفا. إن هذه المدارس الأربعة مازالت قائمة إلى يومنا هذا وعامرة كما سيأتي ذكرها فيما بعد.

قد اتخذ جلبي سلطان بن سلطان يلديرم بايزيد خان ـ عليهما الرحمة والرضوان ـ إرسال صرة[1] إلى أهالي الحرمين الشريفين من ريع أوقافه الخاصة، كما اقتفى نجله النجيب السلطان مراد خان آثار أبيه ـ جعل الله مثواه الجنة ـ فأرسل إلى أهالي الحرمين ما مقداره (٣,٥٠٠) من الذهب الفيلوري واتخذت هذه العادة حكم القانون في سنة ٨١٧، وترسل كل سنة، كما أرسل السلطان مراد الثاني في سنة (٨٥٥) لجميع أهالي الحرمين (٨٠١) كيس من النقود.

(١) ولم تكن البلاد العربية قد ضمت إلى الدولة العثمانية بعد، وبما أن هذه الصرة كانت تبعث من بلاد الروم أطلق أهل الحرمين على صرة السلطان المشار إليه (الصدقة الرومية).

وقبل عامين من هذا كان الملك المؤيد قد طلا باب كعبة الله بالذهب وزخرفه، كما أرسل منبرا ثمينا وسلما جديدا، وضع السلم في داخل كعبة الله للصعود إلى سطح البيت، كما وضع المنبر في مكانه الخاص في سنة (٨١٨).

وبعد أربعة أعوام من هذا انهارت مظلة[1] المذهب الشافعي، أي قبة زمزم فجأة وأصبحت قطعا وخرابا ولكنها جددت فأصبحت بناء محكما بديعا رائعا في عام ٨٢٢هـ، وفي نفس العام طهرت ووسعت أحواض ماء زمزم وعين بازان التي خربت من السيل، كما نظفت وعمقت قنواتها ومجاريها التي امتلأت بالطين والتراب في سنة (٨٢٣). إن السطح الشريف لبيت الله الذي كان قد رمم وأصلح قبل أربعة عشر عامًا قد جدد مرة أخرى، كما أصلحت الأماكن المحتاجة للإصلاح من المسجد الحرام، فبدلت قطع الرخام التي كانت مفروشة في داخل بيت الله بأخرى جديدة. وبدلت الصفائح التي كانت على طلاء جدران الكعبة الداخلية ثم أعيد كل شيء إلى مكانه بعد تغيير ما لزم تغييره وإصلاح ما أمكن إصلاحه. وأراد السلطان برسباي سلطان مصر تغيير زخارف الأعمدة الداخلية لكعبة الله، وعرض الأمر على والى مكة وبتوجيه من أمانة الأبنية المقدسة أرسل إلى الحجاز ذات المناقب السنية الأمير (مقبل) في سنة ٨٢٤ هـ. وصل الأمير مقبل في أوائل السنة المذكورة إلى مكة المكرمة، وابتدر في أداء مهمته بعون مادي ومعنوي من قبل والى مكة، فرمم وأصلح الأماكن المحتاجة للتعمير والترميم من الحرم ثم هم وأصلح سطح بيت الله على الوجه المطلوب، واقتلع قطع الرخام التي تغطي أرضية كعبة الله كما اقتلع الصفائح التي تغطي جدران كعبة الله، فبدل قديمها وأصلح ما يمكن إصلاحه ثم وضع كل شيء في مكانه، وهكذا جدد من هيئة بيت الله القديمة فأعاد له رونقه وجماله.

وبعد أن زخرف الأمير مقبل الأعمدة التي في داخل كعبة الله وجدد قطع

(١) كانت هذه المظلة فوق باب زمزم وفي عام ٧٠٢ هـ، أمر ملك مصر بتسقيف المظلة حتى تصلح لجلوس المؤذنين وأداء مهمتهم.

الرخام التي في داخل الحطيم الكريم وخارجه أصلح وجدد كمر باب الجنائز وكان يطلق على باب الجنائز قديما (باب العباس) ولما أصبح إدخال توابيت الموتى من هذا الباب عادة أهل البلد أطلق عليه (باب الجنائز). إن أهالي الحرمين كانوا يدخلون جنازاتهم أولا في الحرم الشريف حيث يصلى عليها ثم يدفنونها في مقابرهم.

إن التوابيت التي يستخدمها أهل مكة المشرفة لا تشبه التوابيت المستخدمة عندنا فإنها قطعة خشب مستطيلة مثل الطوق وهي عادة باقية من عهد الجاهلية بناء علي اعترافهم، وتغطي جثة الميت الذكر بقطعة قماش مستوية بينما تُغَطَّى جنازة الأنثى بقطعة قماش مقوسة.

وأخيرا جدد عدة عقد في الطرف الشمالى من المسجد الحرام، ثم جدد مداخل باب العباس وباب علي، كما جدد مدخل (باب الصفا) الأوسط ومواقع (باب العجلة) و (باب الندوة الزائد) وأضاف إلى (باب الزيادة) ثلاثة كمرات.

ثم رفع الأعمدة التي تحمل هذه العقد، وأصلح ما يجب إصلاحه من الأبواب الأخري، وغير الستارة الحمراء التي في داخل الكعبة، ثم ألصق وعلق اللوحات الرخامية المزخرفة والتي أمر السلطان برسباي بتذهيبها وترتيبها على جدران كعبة الله الداخلية، وأنهى مهمته في صفر الخير من سنة ٨٢٥، وعاد إلى مصر و قد جدد السلطان برسباي بواسطة الأمير مقبل قطع الرخام التي في داخل بيت الله كما بدل وجدد طلاء جدران بيت الله الداخلية كما عمر باب الجنائز.

كما أنه أنعم وأحسن إلى الحجاج الذين حجوا بالقافلة المصرية إحسانا جما، وكان يبعث من المحمل المصري مظلات يقيمها حيث يبيت الناس ليظلل عليهم، ويروى أن هذا الشخص كان يأمر بذبح كثير من الأغنام وتوزيع لحمها مع الخبز والبقسماط على الحجاج.

وبعد عودة الأمير مقبل بسنة بعث الملك المظفر من ملوك اليمن المنقرضة مبلغا من المال مع رسوله الخاص، ورجا أن يعمر ويصلح ما يقتضي الأمر إصلاحه من مواقع الحرم الشريف. واتصل الرسول بوالي مكة المعظمة واستصدر إذنا من الحكومة المصرية بواسطة الوالي للقيام بمهمته، ولما كان سطح كعبة الله في حاجة إلى التعمير والإصلاح؛ فعمر قطع رخام السطح وأصلحها ثم سجل ما قام به على لوحة رخامية وألصقها على الجدار الغربي للكعبة المعظمة في سنة ٨٢٦.

وظلت كعبة الله والمسجد الحرام على حالهما بعد إصلاح الأمير مقبل ثمانية عشر عاما ولم يظهر فيهما ما يوجب إصلاحهما شرعا؛ إلا أن الحال لم يستمر طويلا بعد ذلك واحتاجت بعض أماكن البقعة المقدسة للتعمير بل وصل هذا إلى درجة الوجوب، فأرسل الملك جاقمق العلائي من ملوك الشراكسة في مصر الأمير سودون محمد من أمراء مصر لتعمير قطع الرخام التي فوق سطح كعبة الله وما يقتضي الأمر تعميره من الحرم الشريف وذلك في سنة (٨٤٣) ولما وصل (سودون محمد) إلى مكة المعظمة بدل رخام سطح الكعبة الشريف كما غير الألواح الخشبية التي لم تعد صالحة في السقف العالي لكعبة الله، ثم عمر وشيد المآذن التي آلت للسقوط، ثم خلع كسوة الكعبة الشريفة ووضعها في داخل البيت الحرام. ثم أصلح وسوى الجدران الخارجية لبيت الله بطريقة جيدة خلال يومين، وجدد قطع رخام الحطيم الكريم كما جدد باب المعلى لكعبة الله وجميع الأماكن المحتاجة للتعمير من الحرم الشريف السقوف والرفوف، ثم عمر قباب مقام إبراهيم والمقام الحنفي وباب زيادة إبراهيم وطهرها، وركب في المحل الكائن في شارع المسعى الشريف والملاصق لدار العباس وفي مقابل بازان ميلين أخضرين ومع هذين الميلين علق فوق كمري الصفا والمروة قنديلين، وبهذا أنار شارع المسعى الشريف وزينه ثم عمر ورمم جميع المساجد النبوية التي في طريق عرفات الذي يبدأ من مقبرة المعلا وينتهي عند جبل الرحمة، وطهر طريق عرفات بأن قطع الأشجار والأشواك التي في حذاء طريق المأزمين؛ وهكذا أنقذ الحجاج

المسلمين من هجمات أشقياء العربان وتسلطهم.

كان المعتصم بالله البغدادى أمر بأن توقد مشاعل في قوافل عرفات لإنقاذ الحجاج من هجمات الأشقياء ولحمايتهم وذلك في سنة (٢١٩) وإلى ذلك الوقت كانت الوسيلة للإنارة هي إشعال شمعة على سنام الجمل. كما أمر سودون محمد بقطع الأشجار البرية والكلأ الشائك والنباتات البرية التى كانت كثيفة وعالية لدرجة أنها كانت تقطع أقمشة السرج التي صنعت لجلوس الحجاج فوق ظهر الجمال، كما كانت مكمنًا للصوص الذين كانوا يختفون في داخل هذه الأشجار ويفرقون قوافل الحجاج، وقد أنقذ سودون محمد الحجاج من القلق والاضطراب إذ قطع تلك الأشجار وحطم الحجارة، ووسع طريق المأزمين، وبعد فترة نمت الأشجار التي قطعها الأمير سودون محمد وارتفعت حتى تحولت إلى غابة فاتخذها أشقياء القبائل البدوية مكان اجتماع واحتشاد، وأخذوا يمدون أيديهم لسرقة أبناء السبيل والحجاج كما كان يحدث في العهود السابقة؛ لذلك أمر محافظ جدة المعمورة بأن تقطع تلك الأشجار وتحطم الصخور التي قد يكمن خلفها اللصوص ووسع طريق المأزمين أكثر من ذي قبل، ولهذا لم يترك للصوص مأوى يختبئون فيه وتوفي في سنة (٩٥٠).

التذييل

إن شغدف ـ كما هو معلوم لدى أهل المعرفة ـ مخترع للجلوس في داخله وهو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: من الشغدف يطلق عليه هودج على وزن جوهر.

ويطلق على **النوع الثاني**: منه (مِحَفَّة) على وزن مِعَدَّة.

ويطلق على **النوع الثالث**: منه شُغْدف بضم الشين وسكون الغين، ولكن الأتراك حرفوا الكلمة فجعلوها شوطوف.

والصحيح أن يقال: الشغدف، وبما أن الهودج ذو قبة عالية ومغطى فهو خاص بالنساء، أما المحفة مثل الهودج إلا أنه مكشوف لذا فهو خاص بالرجال، أما الشغدف فهو مقعد خاص للرجال والنساء.

يصنع الهودج والمحفة من الخشب، ولكن الشغدف يصنعه النجار من خشب سمكه ربع قدم وله رجلان والمقعد الذى سيجلس عليه ينسج من قشر سعف النخيل كأنه كرسى، ويغطى فى شكل نصف قبة يشبه عربة الثيران وله غطاء من قماش القلاع أو من جلد أو بساط أو حصير. إن الشغدف وإن كان يصنع على الشكل الذى بيناه إلا أنه لا يمكن استخدامه إلا إذا أحكم ربط اثنين منهما فوق الجمل، ويغطيان ببساط أو قماش آخر ويحمل فيهما حاجان، بعد حمل الشغدفان على الجمل كما بينا وبالتصاق قبتيهما يأخذ شكل قبة المحفة المستوية، ويصعد إليه حينما يكون الجمل واقفا بواسطة سلم له أربع أو خمس درجات ويجلس فيه، إن الشغدف يستخدم فى طريق الحرمين كما أن الهودج والمحفة يستخدمان فى طرق مصر والشام. انتهى.

قد أسدى الملك جاقمق إلى الحرمين خدمات أخرى كثيرة وأصلح وأنشأ بركة المعلى التى مازالت قائمة فى خلال عام (٨٠٦) وقد خربت تلك البركة فيما بعد فأحيتها كريمة السلطان سليمان (مهرماه) عندما أرسل سودون محمد إلى مكة المكرمة لترميم المسجد الحرام وتعميره. أرسلت كسوة مزينة من قبل شاه الفرس شاهرخ إلى القاهرة لتكسى كعبة الله، وأرسلت تلك الكسوة فى نفس العام بالقافلة المصرية إلى مكة المكرمة، وعلقت فى عيد الأضحى داخل كعبة الله وذلك لاتفاق تم بين الملك جاقمق وشاه الفرس الملك شاهرخ، إن الأمير جاقمق أمير اصطبل الملك الأشرف المصرى عندما اعتلى عرش سلطنة مصر بضربة حظ كان قد أرسل أحد أمراء الشراكسة يسمى (جيج كيوفا) إلى هراة لعقد اتفاق مع شاه الفرس فى سنة ٨٤٢، وقد سر (شاهرخ) من هذا الاتفاق الذى تم بين الحكومتين العربية والفارسية أعظم سرور فأرسل تلك الكسوة الشريفة لتعلق على الكعبة ليظهر شكره، كما استجلب الدعوات بإرسال الصرر لسكان الحرمين فى سنة (٨٤٣).

كانت قلة سبل الماء فى داخل مدينة مكة المكرمة تسبب كثيرا من الضيق والمشقة عندما كانت المدينة تزدحم بالحجاج فى موسم الحج، وكان أولو الأمر يتعرضون لكثير من المشاق والتعب لدفع ما يحدث من الشرور لقلة المياه. وأراد ناظر الحرم الشريف الشيخ بيرام إنقاذ الحجاج من العطش لقلة المياه، وفى نفس الوقت أراد أن يوفر المياه فى مكة المكرمة فأنشأ سبيلا فى حى المعلى وعدة أحواض متينة فى ساحة عرفات وملأها بالمياه، فروى عطاش المؤمنين فى سنة (٨٥٣) ومع مرور الوقت خرب السبيل والأحواض التى أنشأها الشيخ بيرام، وابتلى الناس مرة أخرى وقوافل الحجاج بالعطش فقامت (مهروماه سلطان) زوجة فاتح اليمن رستم باشا بإنفاق أموال طائلة، وعمرت ذلك السبيل والأحواض المذكورة سنة (٩٦٧) كما أنشأت كثيرا من السبل فى داخل مكة المكرمة فأراحت سكان بلدة الله كما سبق ذكره فى صورة إحياء عين زبيدة بالتفصيل، وبعد سنتين من إتمام إنشاء الحوض المذكور أصلح الشيخ بيرام ورمم بعض الأماكن، فأصلح ونظف بعد ذلك بأربع سنوات بناء على الأمر الذى تلقاه من الحكومة المصرية الأحواض التى فى ساحة عرفات والتى امتلأت بالطين والتراب، كما طهر مجرى عين حنين وعمر مسجد[١] نمرة ومسجد الخيف المباركين، كما أصلح سلسلة عقود السبعة أروقة التى آلت للسقوط والكائنة فى الجهة الشمالية من المسجد الحرام وجدار المسجد الحرام وفى الجهة الشرقية مقابل تكية السلطان قايتباى، وجدد دور خلوة الشيخ عفيف الدين بن أسد اليافعى والشيخ جمال الدين محمد بن إبراهيم المرشد بعد أن بدل شبكاتها فى سنة (٨٥٦)، وقد أرسل الملك الظاهر بعد تسعة أعوام كسوة مزينة غالية، وقد صنعت أطرافها التى تقابل الجهة الشرقية والشمالية من بيت الله الحرام من الحرير الأبيض، وزخرفت كل جهاتها بالخيوط الذهبية وعلقت على الكعبة يوم وصولها فى سنة (٨٦٥).

(١) نمرة اسم مكان فى عرفات أو اسم جبل الأميال الحديدية التى تحدد حدود الحرم فوق هذا الجبل، ويقع على يمين طريق المتوجهين من المأزمين إلى عرفات والمسجد اللطيف الذى يطلق عليه مسجد النمرة يقع فى هذا الموضع، ويقيم الحجاج صلواتهم فى هذا المسجد فى أيام عرفة.

وكان المشار إليه قد أرسل بعد ثلاث سنوات سلما ظريفا للصعود على سطح الكعبة الشريف، وما أن وصل السلم المذكور إلى مكة المعظمة حتى حضر أشراف البلاد والوجهاء وجميع موظفى الدولة ليكونوا فى شرف استقباله بكل تعظيم وتقدير، ووضع فى مكانه وذلك عام (٨٦٨).

بعد مرور أربع سنوات خلع السلطان (قايتباى) سلطان مصر على أمير مكة (محمد بن بركات بن أحمد بن عجلان) وسائر الأشراف والأعيان خلعا فاخرة، كما بعث إليهم بمال كثير ليقتسموه فيما بينهم كما أرسل رسالة بمنع الظلم والعدوان، وأمر بكتابتها على الأعمدة المواجهة لباب السلام، وأصدر الأمر بتعمير وإصلاح مساجد النبى ﷺ، وجميع الأماكن المقدسة وكذلك أمر بتطهير مجرى (عين عرفات) وذلك عام (٨٧٢).

وبعد مرور عامين أصلح مسجد الخيف ومسجد نمرة والمسجد الحرام وجميع العيون والآبار وبرك عرفات وذلك فى عام (٨٧٤). وبعد خمسة أعوام أرسل إلى المسجد الحرام منبرا فى غاية الروعة مزينا بالذهب الخالص وذلك فى عام (٨٧٩).

وبعد عامين أمر بإصلاح السقوف داخل باب السلام وحجر إسماعيل ورخام المسعى الشريف، وكذلك ما فى داخل بيت الله الشريف من الرخام كما أصلح مئذنة باب النبى ﷺ وعمرها وذلك فى سنة (٨٨١)، وأمر بكتابة بيان بذلك على لوحة من رخام وألصقها فى موضع داخل الحرم الشريف، كما أنه اشترى قطعة من الأرض المتصلة بالحرم الشريف وأنشأ عليها أربع مدارس وتكية وذلك فى سنة (٨٨٢). وقد استغرق إكمال ما ينقص تلك المبانى سنتين وبعد إتمامها أسكن فيها من يقتضى الأمر إسكانهم، بعد ما انتهى السلطان قايتباى من بناء تلك المدارس والرباط بعث إلى إمارة مكة المعظمة الجليلة يقول «رأيت حادثة فى رؤياى وجعلت العلماء يفسرونها، فقالوا: «يجب غسل داخل الكعبة وخارجها وعندما يصل رسولى يجب أن تنظفوا خارج البيت الحرام وداخله، وأن تطهروه» وذلك فى عام (٨٨٤).

وتلا على شريف مكة وأشراف بلد الله وأعيانه مرسوم السلطان قايتباى وبادر

إلى تنفيذ ما جاء فيه من أمر فغسل كعبة الله خارجها وداخلها إلى ارتفاع قامة إنسان، وطهر ونظف المطاف الشريف وسائر مواضع الحرم، وأرسل إلى السلطان قايتباى يخبره بما تم، وعقد السلطان نيته على أداء فريضة الحج فى نفس العام الذى تم فيه تطهير الكعبة الشريفة بأمره. وسافر إلى مكة المكرمة وتجرأ على أن يدخل الحرم من «باب السلام» وهو ممتط جواده ولكن ذل حافر الفرس فسقطت عمته عن رأسه وبقى حاسرا؛ إذ يجب على الداخل إلى الحرم محرما أن يكون مكشوف الرأس للقيام بالطواف والنسك، إنما تلك الجسارة كانت لملوك الشراكسة أمارة البله وضعف الإدراك، فالشراكسة المصريون كانت لهم بزة خاصة وهندام غريب يثير ضحك من يقع نظره عليهم لأول مرة.

ألبسة ملوك الشراكسة المصريين الرسمية:

إن السلاطين الشراكسة الذين تربعوا على عرش مصر اختاروا لأنفسهم ثيابا رسمية تشبه ملابس الأيوبيين، إلا أنهم أضافوا بعض الأشياء الخاصة بهم مما جعل لهم هيئة مثيرة للضحك، وإن ما جرت به العادة فى بلد من البلاد وما اتخذ من الأصول والقواعد ليس غريبًا أن يثير الضحك والسخرية فى بلاد أخرى.

وكان الملوك الشراكسة يتعممون بعمائم غاية فى الطول، ويثبتون على هذه العمائم ستة قرون مدببة؛ إلا أنها كانت مصنوعة من بز رقيق فى شكل مدبب، وجرت العادة فى الاستقبالات الرسمية أن تحمل فوق رءوسهم مظلات على هيئة الخيام، وعلى هذه المظلات صورة طائر باسط جناحيه(١)، وكان حامل هذه المظلة أعلى الأمراء المصريين رتبة ويسمى بولى العهد، وكان فى مصر فى هذه الحقبة من الزمن أربعة وعشرين وزيرا يلقب الواحد منهم بالأمير الكبير، وكانت

(١) وإن كانت المظلة التى ترفع فوق رأس أمير مكة وهو غاد ورائح إلى عرفات مظلة كبيرة نوعا ما؛ إلا أنها كانت خالية من صورة طائر، وهذه المظلة مصنوعة من قماش أخضر ومزخرفة بخيوط ذهبية وذات زر من الخيوط الذهبية. وكانت فى غاية الزخرفة والزينة والزركشة وكانت خاصة بأمير مكة فقط.

الموسيقى تعزف على أبوابهم صباحا ومساء، وكان كل واحد منهم يعمم بعمامة عليها أربعة قرون، أما من لم يحوزوا رتبة الأمير الكبير من الأمراء فكانوا يعممون بعمامة بها قرنان، أما من هم دونهم فى الرتبة فكانت عمائمهم خالية من القرون وطرفها مدلى إلى حناجرهم أما رؤساء الجنود فكانوا يضعون على رءوسهم قلنسوة من الجوخ الأحمر ويسايرون ركاب السلطان على أرجلهم، وعلى هذا الطراز وهذه الهيئة كانت الثياب الرسمية للملوك الشراكسة فى مصر، فمن كان منهم ذا رتبة لبس العمائم ذات القرون وكانوا يستنكفون من عمائمهم. كما يستنكفون من لبس ملابس الإحرام متجردين من ثيابهم ويعتبرونه من الأمور المعيبة لذا لم يستطع السلطان أن يحمل نفسه على الترجل ولبس ملابس الإحرام. انتهى.

وقد أقام السلطان الغورى من ملوك الشراكسة فى مصر فوق باب إبراهيم (كمرا) عقدا فى غاية الزينة فريدًا من نوعه وبنى قصرا وعلى جانبيه عدة مساكن، وأوصل بها عدة منازل وجعلها وقفا وذلك فى عام (٨٨٨) وبما أنها كانت أعلى من الحرم الشريف فقد أفتى أكثر العلماء بعدم جواز وقفها. يقيم الآن فى هذا القصر والمساكن التى بجانبه المستأجرون كما أن الحجاج يستأجرونها أحيانا. وأصلح السلطان الغورى المضايق التى فى طريق مصر كما رمم حجر إسماعيل الشريف كما أنه بنى سور جدة.

إرسال الصرة إلى الحرمين:

جرت عادة السلطان الغازى بايزيد خان الثانى بن السلطان محمد الفاتح خان بأن يرسل كل سنة صرة تحتوى على أربعة عشر ألف قطعة ذهبية، على أن يوزع نصف المبلغ لعلماء مكة الأعلام والنصف الآخر لعلماء المدينة الأعلام وذلك فى سنة (٨٨٦)، وبما أن سماحة خلق المشار إليه قد ذاعت بين أهالى الحرمين فقد نظم شاعر من شعراء المدينة يسمى أحمد بن حسين العليف قصيدة مدح وثناء ضمنها مناقب الخليفة المختارة وقدمها للسلطان.

إن الشاعر المذكور هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن حسين العليف، وكان أحسن الناس فى زمانه وقد شرف دار السيادة بزيارته فى صحبة الشيخ محيى الدين بن عبد القادر بن عبد الرحمن العراقى من خطباء مكة المكرمة. إن القصيدة البليغة التى قدمها إلى السدة السلطانية كانت مؤلفا نفيسًا بعنوان «الدُّرُّ المنظوم فى مناقب السلطان بايزيد ملك الروم» وكان مطلع القصيدة البديعة هذا البيت البليغ:

خذوا من ثناياى موجب الحمد والشكر ومن در لفظى طيب النظم والنثر

فأمر السلطان سديد الرأى لهذا الشاعر جائزة بألف من الذهب جائزة وأوعده بإرسال صرة بمائة دينار كل سنة، وقد نال الشاعر المذكور إلى آخر عمره صرة بمائة دينار كل سنة.

كان الدينار فى تلك الأوقات نوع من عملة ذهبية وسنعرف فى موضوع الصرة الهمايونية مزيدا عن قيمة هذه العملة فى زماننا، ومتى ضربت وقطعت؟ ومما صحت روايته أن الذى خصص له الملك صرة فى كل عام هو أحمد بن العليف وكانت ترسل كذلك إلى أبنائه وأحفاده إلى انقطاع نسله.

قد احتاج قطع رخام الحطيم الكريم للتسوية والترميم، فما كان من أبى النصر الغورى إلا أن غيرها كلها، وفى نفس الوقت زخرف داخل الحطيم وخارجه وفرش أرضه وذلك فى عام (٩١٧)، وبعث السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان إلى أهالى الحرمين الشريفين أضعاف ما كان يرسله والده كثيرا، وضم هذه المبالغ إلى العطايا المقررة لسكان الحرمين الذين يردون إلى دار السعادة، فكان ما يكفيهم وذلك فى سنة (١١٨) وفتح السلطان سليم بلاد مصر، وأدخل أهلها طاعته فخضعوا جميعا لأوامره وأدخل فى حوزته بلاد الحرمين الشريفين ونشر فيها أنوار العدل، وكان يعيش فى ذلك العهد فى مصر الخليفة المتوكل على الله[1] الثالث العباسى، ولم يكن له من أمر الخلافة إلا شيئًا معنويًا وهو أن يؤخذ إذنه

(١) كان اسم المشار إليه عبد الرحيم، وعلى رواية محمد بن المستمسك بالله يعقوب وقد بعثه السلطان سليم مع أولاده وأهله وأتباعه إلى دار السعادة.

عندما يتبادل الأمراء منصب السلطنة، وكان يمضى أيامه بإدارة وقف السيدة نفيسة[1] وقد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم ودخل تحت حمايته.

وقد أرسل الشريف سيد بركات الذى كان حاكم الحرمين فى ذلك الوقت أبا عن جد ولكنه كان تابعا لملوك مصر الشراكسة ابنه أبا نمى الذى كان فى الثالثة عشرة من عمره إلى مصر، ومعه المخلفات النبوية المباركة مع مفتاح بيت الله وسلم كل هذه الأشياء إلى السلطان سليم مصدقا بخلافته ومبايعا له، وقدم له بعض الهدايا الحجازية مباركا بالخلافة وذلك فى سنة ٩١٣.

وقد اشتكى السيد بركات فى الشكوى التى قدمها إلى السلطان سليم من جور وظلم والى جدة الأمير حسين الكردى للأشراف الكرام، فأكرم السلطان الشريف أبا نمى إكراما بالغا، وخلع على والده سيد بركات وعليه خلعة غالية الثمن لكل واحد منهما ورد إليهما اعتبارهما ومكانتهما ووقرهما، ثم أعاده إلى مكة المكرمة وفى اليوم الذى كان سيدخل فيه الشريف أبو نمى إلى مكة زين أهلها الأزقة والأسواق واحتفلوا عظيم الاحتفال، ولبس السيد بركات وابنه الخلع السلطانية التى أنعم بها السلطان وجلسا فى المقام الحنفى بعد أن طافا بالبيت، حيث وفد الناس يزفون التهانى وعلى أثر تلقى التهانى استقدم الأمير حسين الكردى وأبلغه الأمر السلطانى بشأنه، وأركبه زورقا مضى به تجاه السويس ولكنه ألقى به فى البحر وغرق فى مكان يسمى بيت العجين.

لازمة:

إننا لم نستطع أن نحصل على كتاب تاريخ يبين لنا ما قدمه الشريف أبو نمى إلى السلطان سليم بن بايزيد خان من المخلفات المقدسة المباركة: نوعها وعددها إلا أن هذه المقدسات المباركة توجد ضمن الأشياء المباركة الجميلة التى تحتوى عليها حجرة الأمانات الشريفة الفاخرة، وقد قدم بعض هذه المقدسات المباركة من قبل الأمير المشار إليه ثم حصل على البعض الآخر فيما بعد.

(١) سواء أكانت المشار إليها أو كانت السيدة زينب والسيدة رقية والسيدة سكينة فمقابرهن فى مصر. وكانت السيدة زينب والسيدة رقية أختى الإمام الحسين لأبوين، والسيدة سكينة كانت بنته من رباب بنت امرئ القيس بن عدى الكلبى.

التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة
نوعها وعددها

رباعية النبى ﷺ، الحجر الشريف الذى يحمل أثر القدم الشريفة للنبى ﷺ، فرد واحد[١] للنعلين الشريفين، الخرقة النبوية الشريفة[٢]، سجادة الرسول ﷺ، سجادة الصديق، لواء النبى ﷺ[٣]، قبضة سيف النبى ﷺ، قوس النبى ﷺ، عدد ٢ عصا النبى ﷺ[٤]، قدر حضرة نوح عليه السلام، مرجل إبراهيم عليه السلام، قميص يوسف عليه السلام الملطخ بالدماء، رأس زكريا عليه السلام، قبضة سيف داود عليه السلام، قميص سيد الشهداء الملطخ بالدماء، قميص فخر النساء، ألوية الخلفاء الأربعة، عمائم الخلفاء الأربعة، سبح الخلفاء الأربعة، سيوف الخلفاء الأربعة، قبضة سيوف العشرة المبشرين وهى ست، السيف الصارم لجعفر الطيار، قبضة سيف خالد بن الوليد، قبضة سيف معاذ بن جبل، سيف شرحبيل بن حسنة، سيف أبى طلحة، لواءان للإمامين، تاج أويس القرنى،

(١) قد حصل على الفرد الآخر فى عهد السلطان عبد العزيز.

(٢) إن هذه الخرقة الشريفة هى التى أهداها النبى ﷺ لكعب بن زهير رضى الله عنه من أصحاب النبى ﷺ وكان الأصحاب الكرام يزورون هذه الخرقة متبركين وكانوا يغمرون جزءا منها فى الماء ثم يشربونه للاستشفاء. وبناء على تدقيق (على القارى) احتفظ بها ورثة زهير واشتراها منهم معاوية رضى الله عنهم، وبعد انقراض الدولة الأموية انتقلت إلى السلاطين المصريين ومنهم إلى السلطان سليم.
وكان سلاطين آل عثمان فى أول الأمر يزورونها فى يوم معين ويغمرون أطرافها فى مرجل مليئ بالماء ثم يملئون هذا الماء فى الزجاجات ويجمعونها ويقدمونها لرجال الدولة، والذى ينال زجاجة من هذا الماء كانوا يعظمونه ويتبرك به مثل ماء زمزم ثم يصوم ويفطر به طلبا للشفاء.

(٣) كان اللواء الشريف فى عهدة سلاطين مصر، وتحفظ فى خزانة حكومة الشام ولما فتح السلطان سليم بلاد العرب أمر بحفظه فى الموضع الذى شهده فيه، إلا أنه كان يؤتى به فى معظم الحروب على أنه رمز النصر ومظهره؛ لذا أحضره السلطان مراد الثالث إلى الأستانة وظل فيها قرنا من الزمن فى غرفة الخرقة الشريفة.

(٤) إحدى هاتين العصوين كانت عصا النبى شعيب عليه السلام.

مصحف عثمان بن عفان، الكلام القديم بخط الإمام الليلى، المصحف الشريف بخط زين العابدين، مفتاح البيت الأعظم، الميزاب الذهبى، مصراع باب التوبة، الغطاء الفضى لمقام إبراهيم، الطين، ماء الغسل النبوى.

إن الأمانات والمقدسات المباركة كل واحدة منها فى داخل غلاف فضى، أما الخرقة الشريفة فى داخل صندوق فضى صغير وهى فى غرفة العرش، أما الأمانات الأخرى فقد وضعت فى رفوف جدران تلك الحجرة بكل عناية.

التذييل:

إن الميزاب الذهبى القديم بدل سنة (١٥٢٢) و (الكوكب الدرى) الذى اكتسب شرفا بمجاورته الغرفة المعطرة فترة طويلة والأخشاب القديمة التى اقتلعت من أماكنها عند تعمير سطح كعبة الله التى صنعت هدية نفيسة للسلطان بايزيد خان كل هذه الأشياء حفظت فى الأماكن الخاصة التى فى حجرة العرش.

ولما سافر قبودان الغازى حسين باشا إلى مصر بمهمة القضاء على ثورة القاهرة عرف أنه فى ضريح السلطان الغورى مخلفات نبوية مباركة وهى قطعة قميص وعصا شريفة ومرودا، وفى خلال شهر ربيع الأول من سنة (١٢٠٣) نقلت هذه المقدسات المباركة من مبنى محكمة مصر، وبادر بتطييبها وتعطيرها حين زيارتها، ووضعها فى داخل صرة ووضع الصرة فوق كرسى مزخرف وأعادها إلى مكانها فى موكب خاص اشترك فيه علماء مصر كافة، وحملت هذه الآثار على الرءوس بكل تعظيم وصلاة وسلام، ووضعت فى صندوقها الخاص فى مكانها القديم.

وقد سطر جودت باشا فى تاريخه أن الأشياء المذكورة مازالت محفوظة فى ضريح السلطان الغورى إلى الآن يستطيع أن يزورها من أراد ذلك، وقد سر السلطان سليم سرورا بالغا بحصوله على الأمانات النبوية المقدسة المبروكة لذا راعى جانب الشريف محمد أبا نمى مراعاة عظيمة وطيب خاطره بإلباسه الخلع، كما بعث إلى والده الشريف أبى البركات هدايا كثيرة وأكرم أهل الحرمين الشريفين كما ينبغى، وكل هذا لحصوله على الأمانات النبوية. وفى خطبة عرفة

(٩٢٣) ذكر اسمه كخليفة وبلغ الأمر إلى جميع سكان الحجاز وتهامة، وأراد السلطان العظيم أن يبين شكره على ذكر اسمه فى خطبة عرفات فأرسل إلى أهالى الحرمين مائتى ألف قطعة ذهب فيلورى وقدرا كافيا من الحبوب المتنوعة، وأرسل الأمير مصلح الدين وفى رفقته قاضيان لتوزيع تلك العطايا، كما أعطى للرسول المذكور دفتر قد زخرف عاليه بكتاب ما أرسل إلى مولانا الشريف أبى نمى من خمسمائة قطعة ذهبية، وكان السلطان سليم اعتاد أن يرسل الصرة التى تحتوى على الذهب الفيلورى فى كل سنة، وأصدر أمره السلطانى بإرسال الصدقات المصرية[١] التى كان يبعثها ملوك الشراكسة كما جرى فى السابق على أن تتحمل الخزينة السلطانية العامرة نفقاتها، وجعل ذلك قواعد يجب اتباعها كل سنة.

وقد غمر الفرح نفوس أهل الحجاز لصنيع هذا السلطان، وعلى أثر ذلك أطلقوا على ما ترسله السلطنة السنية الصدقات الرومية للتفريق بينها وبين الصدقات المصرية.

* * *

(١) أعاد الشراكسة إرسال هذه الصرة تحت اسم (الذخيرة) وتوزيعها على العلماء المستحقين. كما رتب السلطان سليم خراج مصر وقسمه أقسامًا ثلاثة: فجعل من القسم الأول ماهية عشرين الف عسكرى بالقطر من المشاة واثنى عشر الفًا من الخيالة، والقسم الثانى يرسل إلى المدينة المنورة ومكة المشرفة، والقسم الثالث يرسل إلى خزينة الباب العالى.

انظر تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٧، نقلاً عن الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك.

بيان كيفية توزيع وتقسيم الصُرَّة المرسلة
من قبل السلطان سليم بن بايزيد

عندما وصل الأمير مصلح الدين إلى مكة المكرمة أخذ يوزع نقود الصدقة الرومية وفق ما سجل فى الدفتر الذى معه، وأوصى الذين نالوا العطايا أن يستمروا فى رفع أكفهم بالدعاء للسلطان ودوام عزه ثم جمع العلماء الأعلام والأعيان والأشراف الكرام الذين وردت أسماءُهم فى سجل العطايا، وجعلهم يختمون تلاوة القرآن الكريم ويوجهون إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ دعواتهم بإطالة عمر السلطان وزيادة قوته.

بعد ما أتم العلماء المجتمعين فى داخل الحطيم ختم القرآن الكريم اختار الأمير مصلح الدين ثلاثين من الحفاظ الصلحاء وكلفهم بختم القرآن الكريم مرة كل يوم بناء على التعليمات التى يحملها من السلطان، على أن يأخذ كل واحد منهم اثنى عشر قطعة ذهبية فى السنة، كما اختار بعض العلماء وكلفهم بقراءة البخارى والشفاء[1] الشريف على الدوام ثم استدعى الفقراء الذين يحتاجون إلى الصدقة فى الحقيقة وسجل أسماءهم فى السجل، وأعطى لكل واحد منهم ثلاث قطع ذهبية كعطية سلطانية، ثم ذكر بأن السلطان سيبعث كل سنة ثلاث صرر من الذهب، وأحصى أفراد أسر الفقهاء وسجلهم فى سجله، وقرر أن يعطى لكل فرد منهم ثلاثمائة قطعة ذهبية ثم قيد المبالغ اللازمة لهم باسم صرة البيوت. ثم جمع كل الذين أظهروا حاجتهم للعطية وأعطى لكل واحد منهم قطعة ذهبية، وأشار إليها فى سجله بالصرة العامة، وفى آخر شهر ذى الحجة جمع العلماء والصلحاء وأخذهم إلى جبل التنعيم وبعد لبسهم ملابس الإحرام جعلهم يعتمرون لوالدة السلطان، وأدرج ما أنفقه فى هذا السبيل فى سجل باسم صدقات العمرة،

(١) هو كتاب الشفاء فى التعريف بحقوق المصطفى ﷺ للقاضى عياض. أما صحيح البخارى فقد سماه البخارى ـ رحمه الله ـ «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه».
انظر: هدى السارى لابن العسقلانى ص ١٠.

وفى أثناء إنهاء أداء العمرة وصلت إلى ميناء جدة السفن المصرية محملة بالمرتبات الحجازية من الحبوب والصدقات وتحمل كذلك أمرا سلطانيا للأمير سابق الذكر بكيفية توزيع الحبوب وتقسيمها، وقد تبين عند البحث والتحقيق أن الحبوب المذكورة: ألفا إردب منها لأهالى المدينة المنورة، وخمسة آلاف أردب منها لسكان مكة المكرمة، كانت كلها سبعة آلاف أردب من المؤونة والغلال.

الذيــــل

الأردب كيل خاص بالبلاد العربية ويستوعب ست ويبات، وعند اللغويين الويبة تساوى ستة أصواع، والصاع أربعة أمداد والمد يساوى رطلا وثلث رطل.

وبناء على هذا التعريف يقتضى أن يعدل الأردب ١٥٣ أوقية و ١٠٠ درهم؛ إلا أن استخدامات الأردب فى بلاد العرب تختلف فعند المصريين الأردب الواحد يساوى ١٢ ويبة، والويبة الواحدة[١] تساوى ست كيلات إستانبولية قديمة، وتعدل الويبة ١٠ أوقيات. وقالوا إن الأردب يساوى ١٢٠ أوقية، أما الحجازيون فيعتبرون الأردب و الأردب ١١ أوقية و ١٠٠ درهم[٢] أما أهل البلاد الأخرى فيختلفون فى تحديد مقدار الأردب اختلافا كبيرا كذلك يكاد أن يكون تقدير مقدار الأسلوب كثير الصعوبة إن لم يكن مستحيلا ونظرًا لورود الغلال من مصر يجب اعتبار الأردب ١٢٠ أوقية، وقد سمع بأن تقى الدين باشا والي الحجاز الأسبق ساوى بين أوزان وأكيال البلاد الحجازية بالأوزان والأكيال التى تستخدم فى جميع البلاد التابعة للسلطة العثمانية، لكننا نظن أن تعميم هذه القاعدة فى البلاد الحجازية غير قابل للتطبيق.

الغلال الواردة

حتى لا يقع الخطأ فى تقسيم تلك الغلال وتوزيعها اتفق الأمير مصلح الدين مع الأشراف والأعيان على تعداد سكان مكة المكرمة، واستثنى منهم التجار ومتوسطى الحال والجند فوجد عدد المحتاجين من المسنين والشباب والأطفال

(١) عرف ابن فضل ـ أحد مؤرخى مصر ـ الويبة الواحدة بأنها ١٤ ربع، والربع الواحد أربعة أقداح، والقدح الواحد ٢٣٢ درهم.

(٢) الأردب الآن فى مكة يساوى ١٠٨ أوقية.

الذكور والإناث (١٢٠٠٠) نفر، وبناء على رأى السيد جمال الدين محمد بركات شريف مكة، استصوب توزيعها على المحتاجين المذكورين كل واحد منهم ربع أردب من الحنطة وقطعة ذهبية ثم أعطى مفتى المذاهب الأربعة لكل واحد منهم ثلاثة أرادب[١] غلة وهكذا أجرى قواعد العدالة.

أول ما وزع من الأرزاق التى أرسلها السلاطين العثمانيين على أهل الحرمين هى ما وزعه مصلح الدين أفندى من سبعة آلاف أردب من مختلف الغلال وقد زاد مقدار هذه الغلال من سنة لأخرى لحاجة الناس إليها حتى وصلت فى عهد السلطان محمود العادل إلى (١٧٠٠٠) أردب من الحنطة، وكان هذا القدر كافيا لتغطية حاجات الناس ومن هنا لهجت ألسنتهم بطول بقاء الدولة العثمانية. واستطاع فيما بعد ذوى الحيلة أن ينال كل واحد منهم مائتى أردب من الحنطة مدعين انتسابهم لجهة من الجهات؛ وبهذا تركوا كثيرًا من الفقراء لا ينالون، شيئا ولما استحال جلب هذه الغلال من مصر أخذ الناس يتقاضون من خزانة الدولة ثمن ما يستحقون من حنطة.

ترميم المقام الحنفى

كان الأمير مصلح الدين مكلفا أيضا بتعمير الحرم الشريف وترميمه ولما رأى أن المقام الحنفى فى شدة الحاجة إلى التعمير قال مخاطبا أعيان بلد الله وعظماءهم إن هذا المقام[٢] المبارك الذى أنشىء على أربعة أعمدة مسقفا بناء مبارك، ومحرابه فى وسطه، وقد بنى من أجل أئمة المذهب الحنفى الكرام كما تعرفون جميعا أنه بنى فى سنة (٨١١)، وفى سنة (٨٤٣) غطيت قبته بالقصدير من قبل السلطان المصرى جاقمق وبالنظر إلى شكله الحالى وكثرة الحجاج والضيوف الذين يفدون للحج قد تجاوز وجوب توسيعه مع إنشاء قبة له درجة الوجوب.

لذا يقتضى الأمر تهيئة مقام أوسع يستطيع الحجاج الذين على المذهب الحنفى

(١) هذه الأرادب التى أعطيت لرجال المذاهب الأربعة كانت زائدة عن حصتهم وإنما أعطيت لهم رعاية لجانبهم وذلك مما سر الناس جميعا.

(٢) وهنا كان مصلح أفندى يشير بإصبعه إلى المقام الحنفى.

أداء صلواتهم عند حلول أوقات الصلاة دون أن يزعجوا جماعات المذاهب الأخرى فى أثناء صلاتهم مقتدين بإمامهم.

وبهذه المقدمة قد جعل ما فى ضميره من عزمه على توسيع المقام موضع الاستشارة والبحث؛ إلا أنه لم يستطع أن يحصل على الموافقة فى ذلك اليوم، وفى اليوم الثانى كون لجنة حتى يستطيع أن يبنى المقام المذكور وفقًا لخريطة أفكاره، وقد حصل على موافقة العامة على البناء، وفعلا بنى مقاما فخما وفق ما رسم خياله فى ذهنه من رسم مطبوع وشكل مرغوب، كما رفع فوقه قبة جديدة ثم عمر وأصلح ما يجب تعميره، وهكذا شيد وبنى الحرم الشريف على شكله ذاك فى أيامه وذلك فى سنة (٩٢٣).

قد دام المقام الشريف الذى شيده مصلح الدين أفندى فترة طويلة إلا أنه احتاج للتعمير والترميم بفعل الزمن لذا هدمه حاكم جدة (خوش كلدى) من أساسه، وبنى مكانه مقاما مربعا لايدانى فى الجمال من طابقين، وخصص الطابق الأعلى للمؤذنين والطابق الأسفل لجماعات الحنفية، وما زال ذلك المقام قائما بالطرز الذى بناه عليه (خوش كلدى بك) ولكنه وسع وجدد فى سنة (١٠١٧)، وأصلح وعمر فى سنة (٢٥٩) كما ذكر فى الصورة الثانية من الوجهة الخامسة.

عندما وفق (خوش كلدى بك) فى تجديد البناء العالى للمقام الحنفى فنظم غبارى أفندى تاريخا لطيفا.

قطعة

المقـــام الخـــاص بسلطـــان الأئمـــــة
إذا أصبـح معمـورا بمحامد ومحامـد
طاف بسمعى من العاكفين بكعبة الأنس
اســـمه هـــو (خـــير المســـاجـــــد)
إذا لـم يكـن هـــو خـــير المساجـــــد
فـلم يكـــن التاريـــخ خـــير المساجـــــد

سنة ٩٤٩

بعد أن فرغ الأمير مصلح الدين من تعمير وترميم المقام الشريف وغيره من الأبنية مضى إلى المدينة المنورة وأخذ فى إحصاء عدد السكان ثم وزع ألفى أردب من الغلال السالفة الذكر على أربعة آلاف نسمة من السكان الذين قيدهم فى سجلاته عقب الإحصاء، وهكذا استجلب الدعوات الخيرة للسلطان العالى الشأن وذلك فى سنة (٩٢٣) وإن كان ما وزعه الأمير مصلح الدين من الغلال فى سنة (٩٢٣) كفى أهالى الحرمين الكرام فى ذلك الوقت إلا أن عدد سكان الحرمين زاد عاما بعد عام، وأصبحت المرتبات الحجازية لا تفى بحاجة الناس؛ لذا أوصل السلطان فى عام ٩٢٦ العطايا إلى حد الكفاية.

واعتاد أن يرسل المخصصات بواسطة مصلحة الصرة، وإلى الآن ترسل المخصصات بهذه الصورة وتوزع كل سنة على سكان مكة أمام البيت الشريف بحيث يعود الذين استلموا عطاياهم المخصوصة فرحين مسرورين داعين لسلطان الزمان العثمانى وأهله بطول بقاء دولتهم عليهم الرحمة والرضوان، قد سددوا ديونهم التى تراكمت خلال السنة الحالية.

إن ما يطلق عليه الصدقات الرومية من هذه المبالغ هى قوام حياة أهالى الحرمين الشريفين لم يكن يرسل على عهد الملوك القدامى سواء من قبل ملوك الشراكسة أو الخلفاء العباسيين أو أسلاف السلاطين العثمانيين على هذا النحو، ولم يوفق أحدهم إلى مثل ما بعث السلطان سليمان.

والصدقات التى كانت تخصص فى عهد السلطان سليمان، لأى واحد كانت تؤول إلى أولاده بعد مماته، وإذا كان المتوفى بدون وارث كانت هذه الصدقات تعطى لأحد الفقراء المحتاجين.

وكان فى مكة المكرمة مخازن خاصة لوضع وحفظ الغلال التى ترد تباعا، وعندما ترد تلك الغلال كانت تحفظ فى تلك المخازن، وكان فى بعض حجرات مدرسة الشريف عجلان بالقرب من باب العجلة أى فى داخل الحرم الشريف مصلحة فى مديرية الحرم الشريف وهى التى تعطى إيصالات الاستحقاقات

لأصحاب الشأن، وترسلهم إلى أمانة تلك المخازن فيأخذ كل واحد حقه وفق الإيصال الذى يحمله، وهذا النظام باق إلى يومنا هذا ومرعى الجانب.

مقدار وقيمة الصرة السنية المعتاد إرسالها إلى الحرمين

فى زماننا هذا كلما زاد سكان الحرمين وتكاثر المجاورون زاد ما تضمه الصرة السلطانية إلى أن وصل فى العصر السلطانى الذى نفتخر ببلوغه وإدراكه مقدار الصدقات إلى (٣٥٠٣٦١٣) قرش وإذا ما أضيف لهذا المبلغ (١٢٢٦٢٦٢) قرشا تنزيلا[1] بنسبة ٣٥٪ تصل قيمة الصرة السلطانية إلى (٤٧٢٠٨٧٧) قرشا وهذا يساوى على التقريب (٩٠٠٤٥٩) كيسا و ٣٧٧ قرشا[2] وهذه المبالغ مع ما أضيف إليها هى لمكة المكرمة (١٠٧٤٨٨٦٠) قرش، ولأهالى المدينة المنورة (٢٤١٦٧٠٧١) قرش، و (١١٥٤٧) قرش للقدس الشريف ولمن فى طريق الحج والقائمين على صيانة أحواض الماء كما قدم إلى بعض وجهاء القوم شيلان صوف هدايا دائمة.

ولا ترسل الآن صرة الهدايا هذه وتقدم قيمتها نقدا إلى مستحقيها، وتبلغ صرة سكان مكة (١٠٧٤٨٦٥) قرش والمرتبات القديمة (٢٠٧٠٦٩) وأضيف إليها جديدا (٨٦٧٧٩٦) قرش. أما مخصصات المدينة وهى (٧٤٩٢٤٦) قرش فهى الصرة القديمة أضيف إليها مبلغ (١٦٦٧٤٥٥).

الصرة الخاصة بأهل مكة

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٢٣١٣	من خزينة الحرمين الشريفين	أهل مكة المكرمة قد منحوا ذلك قديما ثم آل بعد ذلك إلى
٣٧٥٤٤	من خزينة الأوقاف السلطانية	أولادهم وأولاد أولادهم وأحفادهم وبعد انقطاع نسلهم
٣٣٢,٥	من وقف مجهول النظارة	تصرف إلى المستحقين من الفقراء.

(١) قد حسب هذا التنزيل بالنسبة للمسكوكات المتداولة فى الحرمين.

(٢) والمبالغ التى تصرف فى أثناء ذهاب المحمل وعودته وما يعطى لمشايخ العرب فى طريق المحمل وهى تساوى ١٠٠٠ كيس من النقود وهى زيادة على أكياس النقود التى ذكرت.

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٢٣	من خزينة المالية	
٣٠٠	من خزينة الحرمين الشريفين	
٤٧١٥٣	من أموال حوالى الشام	
١٢٣٧٣,٥	من خزينة السلطان الخاصة	
١٧١٣٣٩	المجمـــــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٦٥٤٦٦	من خزينة المالية	هذه المبالغ الرواتب السنوية وهى الصرة القديمة وما ضم إليها جديدا
١٧١٩٠٠	الصرة القديمة من الأوقاف المضبوطة	
٣٢١٩١	من خزينة المالية	وتصرف لموظفى الإدارة بالحرم الشريف والأئمة والخطباء ومسجد بيعة الرضوان والأشراف الكرام والآخرين والقائمين بخدمة الحرم المحترم
٨٢٠٩٠	الصرة القديمة من الأوقاف المشروطة	
٨١٢٧٠٧	المجمـــــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٢٠٠٠	من وقف السلطان عبد المجيد خان	وتصرف لموظفى مكة المكرمة من أبناء مكتبة الحرم الشريف والذين يعينون أوقات الصلاة والذين يعنون بالساعات والذين يكبرون ومؤذنى الحرم الشريف والقائمين بتطهير بيوت الخلاء والإيجار منازل أمناء الكتب، ولبعض فقراء التكايا والمحتاجين وللمجاورين ولمرتبات مستشفى الغرباء
١٢٢٠٠	كذلك	
٤٦٣٥	كذلك	
٤٥٦٠	كذلك	
١٦٦٨٠	كذلك	
٣٤٩٢	كذلك	
٦١٨٠	كذلك	
١٥٦٠٠	كذلك	
٧٢٠٠	كذلك	
٨٨٥٢٥٤	المجمـــــوع	

القرش	نوع الوقف	محل الصرف
٨٨٥٢٥٤	المجموع السابق	رواتب الذين يتلون أجزاء من القرآن الكريم كل يوم عقب صلاة الفجر فى المقام الحنفى، وحارس ضريح السيدة ميمونة ؛رضى الله عنها وكذلك
٣٦٠٠	من وقف السلطان محمد الثانى	
٣٨٤٠	من وقف سلطانى الوالدة بزم عالم	
٤٨٠	كذلك	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٥٠٠	كذلك	مكبرى المقام الحنفى ومؤذنيه ومن يقدمون ماء زمزم فى موسم الحج وفراشى المسعى الشريف.
١٥٠٠	كذلك	
٩٦٠	كذلك	
٢١٠٠	كذلك	
٩٠٢٢٣٤	المجموع	
٢٤٩٦	من الأوقاف المشروطة	
١٢٤٨	بإيجاد مقابلة	
١٢٨٨١٣	تعويضًا من خزينة المالية	
٤٠٠٧٤	من خزينتى المالية والحرمين	
١٠٧٤٨٦٥	المجمـــــوع	

إن مجموع هذه المبالغ المذكورة فى ذلك الجدول (٥,٧٤٩٦٠) قرش و (٧٩٦, ٤٠٠) قرش إضافات جديدة.

(٠٦٩ , ٠٧٠ ,١) قرش من الصرة القديمة، و (٣, ٠٧٦,٣٣٩) ترسل أكياس مختومة، و (٣٧٤ , ٥٣٠) قرش تعطى بالحوالة من أموال الشام، ٣٩٩٦ قرش تحجز فى حجرة أوراق الحلى فى استانبول على أن تعطى لبعض الذوات.

ملحوظة:

جاءت فى جداول المؤلف كلمة (يوك) فى الأرقام وتساوى نصف مليون.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٤٨٥٠١,٥	من وقف الحرمين الشريفين	خصص لأهل المدينة المنورة قديما من الصرة السلطانية وآلت من الآباء إلى الأبناء والأحفاد وبعد انقطاع نسلهم صرفت إلى الفقراء.
٤٣١٠٨	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٤٢٠٧,٥	من وقف مجهول النظارة	
٨٨٦	من خزينة المالية	
١٧٦٤٨	من خزينة السلطان الخاصة	
١٠٦٨٥٢	من المالية تعويضا عن الحوالة الشاملة	
١٣٢١٢٠٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٦٨٠٠٠	من الأوقاف المضبوطة	من الزيادات القديمة والجديدة مخصصة لإدارة مديرية الحرم النبوى وشيخ الحرم النبوى وموظفى دفتر اليومية للخزينة النبوية وتؤخذ من أوقاف الحرمين فى بغداد والبصرة
٩٩٩٠٠	من خزينة المالية	
٩٢٨٨٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٦٨١٩٨٣	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٥٤٩٦٠٠	من خزينتى المالية والأوقاف	خصصت رواتب سنوية من الأوقاف المخصوصة لخدمة الحرم الشريف والخصيان والساده أبناء على وخدمه مسجد الفاروق الأعظم ومسجد قباء والرواتب السنوية لقراء القرآن الكريم و الشفاء الشريف والبخارى.
٥٥٣٨٦٠	كذلك	
٦٧٠٠٥	من وقف عبد المجيد خان	
٢٤٠٠	من خزينة الأوقاف السلطانية	
٢٤٠٠	من الأوقاف المضبوطة	
١٨٥٧٢٤٨	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
١٣٦٨٠	من الأوقاف المشروطة	رواتب ومخصصات من الأوقاف المضبوطة لمدرسى مدرسة الحميدية وبعض المستحقين من الفقراء والصالحين.
٤٣٨٠	من وقف السلطان عبد الحميد المخلوطة	
٢٩٩٤٠	من وقف السلطان محمود الثانى	
١٥٠٠	من الوقف المجهول النظارة	
٢٦٤٥٨٨	من خزينة السلطان الخاصة	
٤٠٩٧٨	كذلك	
٢٢١٢٣١٤	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٤٤٣٧,٥	من وقف السلطان محمود الثانى	رواتب مدرسى المدرسة المحمودية وأمين مكتبتها ومرضى المستشفى المجيدية وخدمها وسائر موظفيها.
١٤٣٧,٥	كذلك	
٨٥٣٠	كذلك	
٢٢٢٦٧١٩	المجمـــــوع	

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٣٠٠٠	من وقف عبد المجيد خان	المعاشات السنوية لأمناء مكتبة مدرسة السلطان عبد المجيد خان ووكيل الشريفة وخدام المدارس التى أنشئت حديثا وسقائى الصنابير وأطباء وصيادلة وجراحى المستشفيات ونظار المدارس سالفة الذكر
٤٨٠٠٠	كذلك	
٣٤٥٦٠	كذلك	
٣١٧٣٤	كذلك	
٤١٩٢	كذلك	
٢٣٤٩٠٠٥	المجمـــــوع	
١٩٧٢٠	من وقف والدة السلطان بزم عالم	رواتب السنوية لقراء سورتى تبارك والفجر لروح والدة السلطان بزم عالم ووظائف مشيخة المدينة المنورة
٤٧٩٧٦	من خزانتي المالية والأوقاف	
٢٤١٦٧٠١	المجمـــــوع	

الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة

إن المجموع الكلى لهذه المبالغ المقيدة بهذا الجدول (١٢٠١٦٧٠٠)، (٨,٠٦٧,٤٥٥) قرش زيادات جديدة كما أن مبلغ (٣,٥٤٩,٢٤٦) قرش من الصرة القديمة، ومبلغ (٧,٥٦٦,٢٠٣) قروش ونصف من هذه النقود تسلم إلى أمانة الصرة موضوعة فى أكياس مختومة مغلفة، كما أن مبلغ (٤,٣٩,٥١٧) قرشا ونصف قرش من أموال الشام ترسل بواسطة الحوالة ١٨٩٩٠ قرشا تعطى إلى الأشخاص المقيمين فى إستانبول.

إجراءات الصرة للموظفين القائمين على أحواض المياه فى القدس الشريف وطريق الحج.

قرش	نوع الوقف	محل الصرف
٧٧٨٠,٥	من الأوقاف المضبوطة المقررة	تعطى لموضفى القدس الشريف وموظفى النزل التى تكون على طريق الحج وتعطى عادة لمشايخ العربان.
١٠	من وقف عمر بك	
٦٧٥	من وقف الحرمين الشريفين	
٦٠٠	من وقف الحاج أدهم أفندى	
١٩٣٤	من الأوقاف المضبوطة المقررة	
٤٠٠	من وقف السلطان عبد الحميد	
١٤٧,٥	من الخزينة المالية الجلية	
١١٥٤٧	المجمـــــوع	

مجموع الصرة السلطانية من حيث المجموع الكلى

الصرة القديمة	الصرة الجديدة	مجموع الصـــرر
٢٧٠٠٦٩	٧٤٩٣٤٦	١١٥٤٧ التى كانت تمنح لمكة المكرمة.
٨٠٤٧٩٦	١٦٦٧٤٥٥	٢٤١٦٧٠ التى كانت تمنح للمدينة المنورة.
١١٥٤٧		١١٥٤٧ التى كانت تمنح للقدس الشريف..
١٠٣٠٨٦٢	٢٤٧٢٢٥١	٣٥٠٣١١٣

صورة العلم والخبر

إن الصرة القديمة التى أعتاد إرسالها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة والأماكن الأخرى أخذت من خزائن أوقاف الحرمين والأوقاف السلطانية والخزائن الأخرى لسنة كذا. . على أن تعطى لأصحابها الكرام فى أماكن إقامتهم شهرا بشهر، حسب النظام المتبع وإرسالها مقدما مخصوما من الرواتب الجديدة لسنة كذا. . موضوعة كوديعة فى أمانة الصرة السلطانية كما هو مقيد فى البند الأول من سجل الحساب والمصروفات؛ لذلك تم إرسالها إلى مكة المكرمة ـ شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة ـ مع الإضافات الجديدة وهى مبلغ (٥٠٠٧٤,٨٦٥) قرش وإلى المدينة المنورة (نورها الله تعالى إلى يوم الآخرة) مبلغ (١٢,٠١٦,٧٠١) قرش كما هو مقيد فى البند الثانى، وإلى القدس الشريف وما فى طرق الحج من أحواض الماء صرتها الخاصة محسوبا لسنة كذا. . والتى تساوى (١١١٥٤٧) قرش، والتى يبلغ مجموعها (١٢,٢٥٣,١١٣) قرش مبينا مقدار المبالغ الخاصة بالصرة القديمة وسنتها ومقدار المبالغ الخاصة بالصرة الجديدة وسنتها، ورواتب أى سنة هى.

أوضح كل هذا فوق بنوده كما عرف مجموعها فى خاناتها الخاصة وخصم منها المبالغ المذكورة لتسوية الإيرادات مع المصروفات مبلغ (١٤١٧٦) قرش ثم أعد ودبر مبلغ (١٧,٠٨٦,١٣٩) قرش ما بقى بعد الخصم فى ظل الرعاية السلطانية نقدا.

وحتى تصرف تلك المبالغ التى أشير إليها مقيدة فى خانات المجموع، نقدا من خزينة وزارة الأوقاف السلطانية يجب أن يبين أماكن صرفها وكيف تم تعويضها، ثم تقيد فى دائرة المحاسبة ولإتمام الإجراءات الأخرى حتى تمر بإدارة الإيرادات وقلم المحاسبات اليومية.

ولا يدخل فى هذا الحساب نقود المحروقات واللوازم الأخرى الضرورية، ويبعث ما اعتادت بلاد الحرمين استهلاكه سنويا من المحروقات والضروريات عينا وبطريقة مستقلة.

وإن لزم إضافة مجموع أثمان هذه الأشياء للحساب العام إلا أن هذا سبب فى زيادة مقدار الصرة مليونى قرش بالتخمين. وبناء على ذلك سيصل ما يرسل إلى الحرمين فى كل سنة إلى (٣,٩٠٣,١١٣) قرش، وإذا ما أضيف إليه الرواتب الأخرى التى تساوى (٤,١٣٦,٥٧٦) قرش، سيكون إجمالى المبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش أى ما يعادل (١٦٠٧٩) كيسا و (٣٨٩) قرش. إن مبلغ (٤,١٠٠,٠٠٠) قرش وكذا التى يطلق عليها الرواتب الأخرى هى المبالغ التى تصرف على أمناء لصرة المبشرين ورياسة الخلع ومرتبات إمارة مكة المكرمة ومخصصات بعض الموظفين وقيمة ما يرسل من البخور مستقلا، ومصروفات الطريق التى يتقاضاها أشراف المدينة عندما يخرجون لاستقبال المحمل الشريف، وأجر جمالهم وما بقى من الصرة ثمنا للخيام، ولتعمير الزكائب التى تحفظ فيها أكياس الرزق، وأكياس الفراشة ومصروفات صنع الخلع التى ترسل إلى أمير مكة، والخلع التى تقدم فى الطريق من الشام إلى مكة المكرمة وأشياء أخرى، والمبالغ التى تمنح إلى أهالى الحرمين باسم الجوالى وتموين الحج وحراس القوافل السلطانية من البدو.

وقد أوضحت كمية هذه المبالغ وكيفية توزيعها فى الجدول الذى يحتوى على رواتب الصرة السلطانية العامة كل شىء على حدة.

الرواتب العامة للصرة السلطانية

القروش	المـــــــــــواد
٥٢٣٢٥٠	مخصصات أمناء الصرة
٢٠١٤٨٣	مخصصات المبشرين
٤٧٨٥٦	مخصصات المبشر
٢٢٧٥٠	مخصصات رياسة الخلعة
٣٥٠٢٣	رواتب إمارة مكة المكرمة الجليلة
١٨٠٦١٢٠	مخصصات من بعض الموظفين
٢٤٨٧٥٢٠	ثمن ما يرسل من بخور
٢٦٧٤١	أجرة جمل ومصروفات الطريق للشريف الذى يرسل من مكة المكرمة لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة
١٩٥٧٠	مصروفات لتعمير المكان الذى يحفظ فيه ما أعطى لأمناء الصرة من الخيم وأكياس الفراشة والزورق
٣٤٩٥٨	المصروفات لصنع الخلعتين اللتين ترسلان من إستانبول إلى أمير مكة
٥٦٤٦٤٠	الخلع والأشياء الأخرى التى تقدم فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ولأهالى الشام فى طريق الحج وبدل العطية الريفية والتى تعرف بجوالى[1].
٣٦٠٠٠٠٠	مخصصات تموين الحج وحراس القافلة السلطانية
٩٨٤٩٠٨١٦	رواتب مكة المكرمة
١٩٢٢٣٧٣٣٠	رواتب المدينة المنورة
١١٣١٩٢٠	رواتب القدس الشريف
٨٠٣٩٨٨٩٢	المجمـــــــوع

تطلق المرتبات الحجازية على المؤنة التى يتصدق بها الملوك العثمانيين حسب الحاجة إلى أهالى الحجاز الكرام، وإلى الآن تشترى من قبل الخزانة المالية كل عام وترسل إلى البلاد الحجازية، ويعطى هذا المبلغ خارج مبلغ (٨,٠٣٩,٨٨٩) قرش (٢٦) بارة هو المجموع الكلى لجدول الصرة السلطانية ومقداره (١٨,٤٩٨,٨٠٣) قروش، وهذا يعنى أنه يصرف من خزينة وزارة المالية

(١) إن أهم مصارف هذه المبالغ هى ما يقدم لقبائل حسنة وولد على، وغزة، وبنى صخر وروله، والعطايا المعتادة والرواتب الأخرى التى ترسل سنويا.

(٢) هذه الرواتب خاصة من خزانة الأوقاف السلطانية وهى مبينة فى الجداول التى تشمل على الصرة القديمة والزيادات الجديدة كيفا وكما.

للرواتب الحجازية سنويا (٣٦,٩٩٦) كيسا و (١٠٣) قرش كما وضح ذلك فى بند الميزانية من عدد (١٤٢٢) من الصحيفة الملغاة. وعندما أدرج هذا المبلغ إلى مجموع الصرة السلطانية يوضح ويؤكد أن وزارة المالية العثمانية ترسل إلى أهالى الحجاز (٢٦,٥٣٨,٦٩٢) قرش و (٢٦) بارة، وإذا كان هناك تفاوت بين المبالغ المقيدة فى جداول الصرة السلطانية وجداول الأوقاف السلطانية من حيث المبالغ التى صرفت لأهالى الحرمين ولموظفى أحواض الماء التى فى طريق القدس الشريف قدره (٥٨٤,٤٣١) قرش ١٤ (بارة)؛ فهذا الفرق هو معاشات موظفى مديرى مكة المعظمة والمدينة المنورة وخصيان الحرمين وموظفى المكتبات الميقاتية ومستشفى الغرباء وأثمان أرزاق من يعنون بحدائق العمارات السلطانية ومشايخ الحرمين وكاتب الحسابات اليومية للخزينة النبوية وموظفى مستشفى المجيدية وأمناء مكتبات ومدرسى المدرستين الحميدية والمحمودية، فإذا ما أضيف هذا المبلغ إلى جدول الصرة السلطانية نرى أن الجدولين قد تقابلا وتوازنا.

ويمنح الأهالى الكرام المجاورون مبلغ (٢,٠١٣,٤١٠) فى كل عام باسم (بدل الشهادة) من خزينة الأوقاف السلطانية يحصل على هذا المبلغ من عشر راتب شهر مارس من الموظفين الذين يتقاضون راتبا قدره (٢٥٠٠) قرش فما فوقه، فخزينة الأوقاف السلطانية تضم لوارداتها عشر راتب شهر مارس الذى يرسل إليها من الدوائر الحكومية وتؤدى بهذا بدل الشهادة.

وتعطى هذه النقود إلى الذين يحملون الشهادة من أهالى الحرمين من إدارة الترجمة للحرمين وبما أنها كانت توزع بطريقة لا ترضى أصحاب الشهادة وتتسبب فى مشاكل كثيرة وقد انزعج كل أهالى الحجاز من هذه الحالة وقدموا الطلبات إلى المقامات العالية مشتكين من هذه الحالة حتى إنهم أوصلوا صيحات شكاياتهم إلى سمع السلطان.

ولم يرض السلطان الذى ذاعت رحمته فى الآفاق أن ينزعج أهالى الحرمين

إلى الحد الذى رفعوا معه أصواتهم بالشكوى، فأمر بتشكيل لجنة خاصة تتسلم ما يستقطع من رواتب موظفى الدولة وتوزع هذه النقود وحسنت إدارتها فى سنة ١٢١٧.

وازنت اللجنة المكونة ما تراكم من الديون بسبب الواردات والمصروفات، وتبين أنها (٥٨٧,٩٩٨) قرش ونصف قرش. أى أكثر من الإيرادات فى السنين السابقة، وأصبحت خزينة الأوقاف الجليلة مديونة لأهالى الحرمين فى بدل الشهادة والإكرامية بمبالغ كبيرة، وعرفت أنه باستمرار هذه الحالة لن يمكن تسديد الديون المتراكمة فضلا عن إعطاء البدلات المذكورة سنة بسنة لأصحابها لذلك قررت إعطاء أهالى الحرمين ما تعودوا أن يأخذوه سنويا فى وقته دون إجبارهم على الشكوى وكذلك تسديد الديون[1] المتراكمة آملة فى زيادة الإيرادات بتخصيص صندوق يوضع فيه مازاد من الإيرادات وذلك بتصفية (١,٠٤٦,٢٠٠) قرش سنويا من المجموع الكلى للبدلات والإكراميات ومقداره (٣,٥٣٤,٧٥) قرش، وذلك بعد التخابر مع مجلس الشورى للدولة وإعداد المضبطة اللازمة والتى تحتوى على مقدار المقررات القديمة بعد التصفية وعرضت اللجنة كل هذا على ملاذ الخلافة مع الجداول الخاصة.

وبعد دراسة ما جاء فى قرار المضبطة التى عرضت على اللجنة دراسة عميقة دقيقة وتوضيح موادها المترجمة وتحقيقها صدور الإرادة السلطانية بإجراء ما يلزم بلغ الأمر كله إلى وزارة الأوقاف السلطانية مع التأشيرة السلطانية لإجراء اللازم فى سنة (١٢١٨). وكانت وزارة الأوقاف اعتادت أن تودع تلك المبالغ بواسطة إدارة الحرمين لأجراء ولكنها أخذت توزعها الآن بواسطة اللجنة المذكورة.

إن مجموع العشر الذى يستقطع من راتب شهر مارس فى سنة ٩٧ كما جاء

(١) كان تراكم الديون بسبب سوء الاستعمال فكان هناك إهمال شديد وعدم مبالاة عند كتابة أسماء من يأخذون بدل الشهادة فى الدفاتر الخاصة وكانت تكتب فيها أسماء وهمية لاوجود لأصحابها.

فى المضبطة التى عرضتها دائرة الداخلية للدولة وصل إلى (٢,٥٤٦٠٧٥١) قرش ونصف قرش، وكان مبلغ (٢٥٠٠٠) قرش منه مقابل الديون التى تراكمت قبل صدور الأمر السلطانى بتشكيل لجنة خاصة ومبلغ (١٢٤١) قرشا ونصف قرش، وقد حجزت وخصصت مبالغ (١٥٠٠) قرش لرئيس كتاب اللجنة المذكورة، و (٥٧٠٠) قرش لمعاش الفراشين والخدمة والمتقاعدين، و (٣٠٠) قرش ثمن ما استهلكته اللجنة من الأوراق ومع هذا لم تكن تلك الإيرادات متساوية فى كل السنوات بل تزيد سنة وتنقص سنة.

وكان مجموع ما استقطع من المعاشات فى شهر مارس سنة ١٢٩٧ (٣,٠٠٦,٩٨٦) قرش، وبناء على هذا التقدير يزيد عما استقطع من عشر شهر مارس لسنة ٩٧ مقدار (٦٠٢٣٤) قرش و (٢٠) بارة.

جدول ترتيب بدلات الشهادات

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٨٢٥٠٠	٥٤٩٠٠	٢٧٦٠٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٥	صف أول الشرفاء
١٢٦٥٠٠	٨٤١٨٠	٤٢٣٢٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	٢٣	الطائفة الأولى مكة
٤٥٥٠٠	٣٠٢٩٠	١٥٢١٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٣	الطائفة الثانية مكة
١٠٠٠٠٠	٦٦٤٠٠	٣٣٦٠٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠٠	٤٠	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠٠	٢٦٦٠٠	١٣٤٠٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٢٠	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
١٢٠٠٠	٨٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٨	الطائفة الثالثة المجاورين
٤٠٦٥٠٠	٢٧٠٣٧٠	١٣٦١٢٠	--	--	--	١١٩	
١٤٥٠٠٠	٦٩٥٤٠	٧٥٤٦٠	٥٥٠٠	٣٦٦٠	١٨٤٠	١٩	الطائفة الأولى المدينة
٥٦٠٠٠	٣٧٢٨٠	١٨٧٢٠	٣٥٠٠	٢٣٣٠	١١٧٠	١٦	الطائفة الثانية المدينة
٣٢٥٠٠	٢١٥٨٠	١٠٩٢٠	٢٥٠٠	١٦٦٠	٨٤٠	١٣	الطايفة الثالثة المدينة
١٦٠٠٠	١٠٦٤٠	٥٣٦٠	٢٠٠٠	١٣٣٠	٦٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	الطائفة الثالثة المجاورين
٦٦٢٠٠٠	٤١٣٤١٠	٢٤٨٥٩٠	--	--	--	١٧٩	

إن مبلغ (٤١٣٤١٠) قرش الذى وضع فى هذا الجدول خاص بأصحاب الشهادة الذين رتبوا مقسمين على خمس طوائف وطبقات.

ويمنح لسبعة وخمسين شخصا من الطبقة الأولى مبلغ (٣٦٦٠) قرش كل سنة، وعلى تسعة وعشرين شخصا من الطبقة الثانية يمنح لكل واحد منهم سنويا (٣٣٣٠) قرش، وعلى ثلاثة وخمسين من الطبقة الثالثة يمنح لكل واحد منهم مبلغ (١٦٦٠) قرش، وعلى ثمانية وعشرين شخصا من الطبقة الرابعة يمنح لكل واحد منهم (١٣٣٠) قرش و (١٠٠٠) قرش لكل واحد من الطبقة الخامسة.

الطبقة الأولى هم الأشراف الكرام والسادات ذوى الاحترام والأئمة والخطباء، والطبقة الثانية هم الممتازون من الأهالى الذين يقال لهم أبناء الأسر، والطبقة الثالثة هم خدم الحرم الشريف، والطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين، وقد عد الطبقة الثالثة من الأهالى والمجاورين كل واحد منهما طبقة مستقلة إن ١٧٩ شخصا من الذين يكون الطبقات المذكورة ١١٩ منهم مكى وستون منهم من المدينة، وتطبع كل سنة بمعرفة وزارة الأوقاف شهادات بالعدد المذكور من قبل اللجنة المذكورة كل شهادة بالختم الخاص بطبقتها ثم تسلم إلى أمانة الصرة السلطانية، وترسل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة على أن توزع بالقرعة، ثم توضع عليها أرقامها وتختم أسفلها من إدارة الحرمين المحترمين وتسلم إلى أصحابها، تفوض إمارة مكة فى توزيع خمس عشرة شهادة من مجموع مائة وتسع شهادات هى الخاصة بمكة المشرفة، ومتولى رياسة الإمارة يعطى خمس عشرة شهادة إلى من يراه مناسبا من الأشراف، والباقى من الشهادات وعددها أربع ومائة شهادة توزع على الأهالى بالقرعة الشرعية، وبناء على العادة المرعية من قديم يدخل الفرد الواحد فى القرعة مرة كل أربعة أعوام، كما أن خمسا وعشرين من مجموع الشهادات الخاصة بالمدينة المنورة توزع على السادة العلويين والحسنيين والأئمة والخطباء وتعطى لهم بقاعدة التناوب، والباقى وعددها خمس

وأربعون شهادة تعطى للأشخاص الذين أصابتهم القرعة والتى تجرى مرة واحدة كل أربع سنوات.

ويأخذ الشخص الذى ينتسب إلى طبقة من الطبقات المذكورة كل اثنتى عشرة سنة شهادة حسب قاعدة التناوب.

وفى كل سنة يقيد أسماء الأشخاص الذين أعطوا شهادة فى سجل خاص، سواء كان عن رأى شريف مكة أو وفقا لقاعدة التناوب أو بإجراء القرعة الشرعية، ويرسل السجل إلى وزارة الأوقاف الجليلة وتتولى إدارة المصروفات فى تلك الوزارة تحويله إلى اللجنة الخاصة، وقد تكون لهؤلاء الأشخاص إيرادات أخرى أو معاشات.

بعد ما تعطى الشهادات إلى أصحابها فى الحرمين الشريفين وفق الأصول المرعية وتقيد فى السجل وترسل إلى إدارة المصروفات العمومية، يتوجه بعض أفراد الطبقات الخمس إلى إستانبول ليتسلموا بدل شهاداتهم بالذات من خزينة الأوقاف السلطانية، وبعضهم يبيعون شهاداتهم ليقضوا حاجاتهم، وبعضهم يرسلون الوكلاء عنهم وكل من يأتى إلى باب السعادة ويبرز شهادته فاللجنة المذكورة تطابق الشهادة بما عندها ثم تكتب مذكرة وتبعث إلى وزارة الأوقاف بعد أن تعطى صورة منها لإدارة المصروفات العامة.

عندما كانت توزع الشهادات والمنح من قبل إدارة الحرمين للترجمة كان يحدث سوء تصرف، وقد اتخذت لجنة التوزيع تحت الرعاية السلطانية قاعدة لا يمكن وقوع التلاعب فيها عند التوزيع، وقد قيدت وضبطت جميع الأشياء المرسلة من عشر المعاش كنوعها ومقدارها ولاسيما أثمان المسكوكات، وبهذا النظام لن يشتكى أهالى الحرمين من موظفى خزينة الأوقاف السلطانية إلا إذا ألغيت اللجنة المذكورة واستشاراتها، أو إذا أوقفت مبالغ شهر مارس أو نقصت.

يعطى لأهالى الحرمين سنويا مبلغ (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة وهذا المبلغ أيضا يؤخذ من عشر رواتب شهر مارس. والذين يأخذون بدل المنحة من سكان الحجاز ينقسمون إلى خمس طبقات، والذين يشكلون الطبقات الخمس المذكورة (٨٠) منهم من مكة المكرمة و (٤٥) منهم من المدينة، وعددهم الإجمالى (١٢٠) شخصا، الطبقة الأولى من هؤلاء ٦، والطبقة الثانية ٢٢، والطبقة الثالثة ٤٣، والطبقة الرابعة ٣٧، والطبقة الخامسة ١٢ نفرا.

وبما أنه يشترط أن يشمل هؤلاء المجاورين أيضا، فإن المجاورين يشكلون الطبقة الخامسة ويمنح لكل واحد من أصحاب الطبقة الأولى (١٠٠٠) قرش، وكل واحد من أصحاب الطبقة الثانية (٨٣٠) قرشا، والطبقة الثالثة (٦٦٠) والطبقة الرابعة (٥٠٠) والطبقة الخامسة (٣٣٠) قرشا عائدا سنويا.

وحتى فبراير من السنة المالية (٩٦) لم يكن صرف المنح محددا ولا مقننا وكانت تعطى بالنسبة للذين يذهبون إلى إستانبول، بالأحرى الذين يعرفون كيف يقيدون أسماءهم فى دفتر التوزيع.

وقد قرر إعطاء (٧٥١٠٠) قرش بدل المنحة اعتبارا من شهر مارس للسنة المالية (٩٧) كما هو مسطر فى الجدول الآتى الذكر وقد صدر الأمر السلطانى بتوزيع تلك المبالغ بموجب الأوراق التى طبعت من قبل اللجنة وإرسال تلك المبالغ إلى الحرمين المحترمين بمعرفة أمانة الصرة السلطانية، وإن كانت اللجنة قد طبعت الأوراق المذكورة وأرسلتها، إلا أن المبلغ المذكور آنفا وهو (٧٥١٠٠) قرش لم يرسل فى وقته لأجل ذلك قد صدر الأمر السلطانى بإعطاء بدلات المنح كعهدها القديم فى باب السعادة. والآن تعطى فيها.

وأصبح من أحكام القواعد الموضوعة إعطاء تذكرة مرور لمن يستحقون المنح من أهل مكة من الولاية الحجازية الجليلة، ولمن يستحقونها من أهل المدينة من محافظة المدينة المنورة، ومع هذا لا تعطى المنح لمن لا يحملون تذكرة المرور أو من يفتقدون الشروط اللازمة لنيل المنح.

الجدول الذى ينظم البدلات التى ينبغى صرفها اعتبارا من عام ٩٧

المقدار السنوى لكل طائفة			المقدار السنوى لكل فرد			عدد أفراد الطائفة	تقسيم الطوائف
الطائفة القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم	القروش العتيقة	القروش الجديدة	الخصم		
٦٠٠٠	٤٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٤	صف أول الشرفاء
١٧٥٠٠	١١١٠٠	٥٩٠٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	١٤	الطائفة الأولى مكة
٢٩٠٠	١٩١٤٠	٩٨٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	٢٩	الطائفة الثانية مكة
١٨٨٧٥٠	١٢٥٠٠	٦٢٥٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	٢٥	الطائفة الثالثة مكة
٤٠٠٠	٢٦٤٠	١٣٦٠	٥٠٠	٣٣٠	١٧٠	٨	الطائفة الثالثة ـ الأهالى
٧٥٢٥٠	٤٩٨٨٠	٢٥٣٧٠	--	--	--	٨٠	الطائفة الثالثة المجاورين
٣٠٠٠	٢٠٠٠	٤٠٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	٥٠٠	٢	طبقة الشرفاء
١٠٠٠٠	٦٦٤٠	٣٣٦٠	١٢٥٠	٨٣٠	٤٢٠	٨	الطائفة الأولى المدينة
١٤٠٠٠	٩٢٤٠	٤٧٦٠	١٠٠٠	٦٦٠	٣٤٠	١٤	الطائفة الثانية المدينة
٩٠٠٠	٦٠٠٠	٣٠٠٠	٧٥٠	٥٠٠	٢٥٠	١٢	الطايفة الثالثة المدينة
٢٠٠٠	١٣٢٠	٦٨٠	٥٠٠	٧٣٠	١٧٠	٤	الطائفة الرابعة المجاورين
١١٣٢٥٠	٧٥٠٨٠	٣٨١٧٠	--	--	--	١٢	الطائفة الخامسة

الصحيفة الخاصة بمنح الطبقة الثانية

قد ختم فى هذا المكان مبينا ما أخذته من منحة خاصة بى وهى. . . قرشا من خزينة مديرية الحرم الشريف وذلك بعلم اللجنة، وبما أن المدعو عبد الرحمن بن محمد الفقيه من أبناء العلماء والمقيد فى الجدول أعلاه ضمن الطبقة الثانية أراد هذه المرة ـ حسب المقتضى ـ السفر إلى العاصمة السلطانية، وبما أنه أعطى له الإذن من قبل الإمارة والولاية بذلك وقد أعطى له بمعرفتى مبلغ. . . قرش منحته الخاصة من خزينة مديرية الحرم الشريف وعليه عند وصوله إلى الباب العالى أن

يسلم الرخصة إلى لجنة إدارة الحرمين المحترمين، وإذا اقتضى الأمر أن يعطى له تذكرة المرور وكل ما يخص هذا الموضوع فالأمر فى يد من له الأمر.

فى جمادى الآخر .... سنة

العضو العضو العضو المفتى رئيس الإدارة

صورة الأمر والقانون

خاص بسكان الحرمين المحترمين الذين يريدون أن يأتوا إلى الباب العالى السلطانى بنية الاستعطاف، إذا كان المشار إليه من الأشراف والشرفاء يجب عليه أن يختم طلبه فى المكان الخالى بالختم من نقيب الأشراف، وإذا كان من السادات يختمه من نقيب السادات، وإذا كان من الأئمة والخطباء يختمه من شيخ الخطباء، وإذا كان من المطوفين يختمه من رئيس الأدلاء، وإذا كان سقاء يختمه من رئيس السقائين، وإذا كان من خدمة الحرم الشريف فليختمه من نائب الحرم، وإذا كان من الأهالى والمجاورين يختمه من المحتسب، ولن تعطى منح لمن ليس لهم حق فى طلب المنح عند وصولهم إلى الباب العالى، ولن تعطى المنح لموظفى ولاية الحجاز ومديرية الخزانة وكتبتها والآخرين وللأطفال صغار السن والعبيد والخدمة والأهالى والمجاورين الذين يشتغلون بالتجارة، ولن تعطى المنح للذين أعطى لهم بدل الشهادة فى السنة المذكورة. ولن تعطى هذه المنحة للذين اتخذوها تجارة ويذهبون كل سنة إلى الباب العالى للاستعطاف، وإنما ستعطى للذين يجيئون كل سنتين مرة.

وعندما توزع أوراق المنح هذه على أصحابها سيقدم إلى وزارة الأوقاف السلطانية من قبل اللجنة والمديرية سجلا يحتوى على أسمائهم وشهرتهم وأرقامهم مثل الشهادة، مع إذن الصرف.

(ملحوظة) أول من بعث الصرة إلى الحرمين هو المقتدر بالله العباسى وأصبح

ذلك عادة، وكان مقدار الصرة التى أرسلها المقتدر بالله (٣١٥٤٢٦) (٣١٥٤٢) ذهبا فيلوريا[1]، وقبل المقتدر بالله بواحد وثمانين عاما أو اثنين وثمانين عامًا كان الواثق بالله قد أرسل إلى فقراء الحرمين المنح والهبات، إلا أنها لم تكن تبعث سنة بعد سنة بل كانت توزع فى موسم الحج فقط، كان الواثق بالله مثل المأمون كان يكرم ويعز ويوقر السادات العلوية والحسينية. وفى العام الذى يحج فيه كان يبذل العطاء لفقراء الحرمين إلى حد الإثراء؛ وذلك البذل العظيم كان بسبب اعتبار فقراء الحرمين من سلالة أبناء الحسنين رحمة الله عليهما.

وكان الثانى فى إرسال الصرر بعد المقتدر بالله السلطان محمد خان جلبى. إذ أرسل صرة فيها الكفالة ونال شرف الترتيب الثالث فى إرسال الصرر نجله النجيل مراد خان الثانى أسكنه الله الفردوس.

أما الصرة المرسلة للمرة الثالثة فكان مقدارها (٣٥٥٠٠) فيلورى من الذهب جرى العرف بإرسالها فى كل عام.

وأرسل السلطان مراد خان الثانى فى سنة (٧١٧) الصرة الرابعة وتصادف إرسال الصرة للمرة الخامسة عام (٨٥٥) للهجرة.

وكان مقدار الصرة التى أرسلت سنة (٨٥٥) ٨٠٠ كيس وكان شاه إيران «شاهرخ» أيضا قد أرسل فى سنة (٨٤٣) مقدارا من الصرر.

قد اعتاد السلطان بايزيد خان الثانى ابن السلطان محمد خان من سنة (٨٨٦) إرسال صرر سنوية مقدارها (١٤٠٠٠) قطعة ذهبية على أن يكون نصفها لأهل مكة ونصفها الآخر لأهل المدينة المنورة وزاد بعد ذلك مقدار الصرة سنة بعد سنة إلى أن وصل للمقدار الحالى.

مطالعة

الذين يعرفون أهمية موقع الحرمين الشريفين وحرمتهما والذين يكنون الحب لهما بحكم دينهم يجب ألا يستكثروا المبالغ التى تقدم لها، ومع هذا فأى شخص

(١) كتب مؤلف «روضة الخلفاء» فى تاريخه أن هذا الشخص كان يحسن على فقراء عصره سنويا بمبلغ (٦٩١١٠).

من أهل مكة المكرمة أو المدينة المنورة فكر فى أوقات تخصيص هذه الرواتب، ويجب أن نعترف أن ما يمنح من الرواتب فى حاجة إلى التخصيص والتعديل.

وبما أن الصعوبات التى كانت تعترض حياة أهل الحرمين وطريق الحجاج فى العصور السابقة قد انخفضت وسهلت فى ظل الرعاية السلطانية إلى درجة كبيرة بحيث لم يبق هناك سبب للتبذير عند خروج موكب الحج وعودته، ومثال ذلك إعطاء أمناء الصرة الذين يتقاضون (٥٠٠٠٠٠) قرش رواتب مقننة وإعطاؤهم (١٠٠) قرش ثمن البغل، (٢٥٠) قرش مصروفات الطريق وإعداد المبيت، وإذا ما وجد الجمع بين أمانة الصرة وبين وظيفة القيام بالحفظ على المؤونة، وإذا ما دفعت وسويت أجور الجمال لحمل أحمال الصرة السلطانية وزكائب الفراشة والرواتب الأخرى من هذه المخصصات وسدد مبلغ (٦٠٠٠) قرش الخاص بالحفظ والمحافظة مع مصروفات الطريق ومعاشات الحراسة ومعوناتها من إدارة المؤونة للحج وأعطى لهذه الإدارة (١٥٠٠٠٠) فيمكن أن يدخر مبلغا يصل إلى (٣٧٣٢٥٠) قرش من مجموع ما يستقطع من مخصصات أمانة الصرة و(٢٠٠٠٠) من ثمن أجور البغال و(٣٢٥٠) قرش من مصروفات ونفقات معدى أماكن البيات فى الطريق.

ويرى فى جدول الصرة السلطانية مبلغ (٢٠١٤٨٣) قرش وإن هذا المبلغ مجموع النفقات الآتية: (١٠٩,٨٣٠) قرش منها لنفقات الطريق والباقى وهو (١٩٠٦٢) قرش منها نفقات السقاة و(٩٠٠٠) قرش أجرة نقل زكائب فراشة مكة المكرمة و(٥٠٠٠) قرش عطايا و(٥٤٠٠٠) قرش أجور الجمال و(٤٥٩١) قرش النفقات المعتادة.

وبما أن هذه النفقات المذكورة تدفع مستقلة لنقل زكائب الفراشة والزورق فإذا ما نقلت هذه الأشياء مع الصرة يمكن إدخار المبالغ المذكورة كلها. وإن كان مبلغ (٤٩٨٥٦) قرش يرى مستقلا فى الجدول السابق الذكر إلا أن مبلغ (٣٥٥٤٤) قرش منه يعطى كنفقات الطريق ومبلغ (١٠٠٠) قرش كمنح معتادة ومبلغ

(١٣٣١٢) قرش كعطايا. ومهمة هذا الموظف الذهاب إلى مكة المكرمة مع الصرة السلطانية وفى أثناء العودة يحيد عن الطريق ويذهب إلى الشام مع الرسول الخاص، ويعطى للولاية السورية الرسائل التى وجهت من الإمارة ثم العودة إلى دار السعادة، بما أن الرسول الخاص كان يمكنه أن يتم بالبرق كل ما يحدث الآن من تبليغ الرسائل من الولاية إلى باب السعادة فلا ضرورة لبقاء هذه الوظيفة.

وبإلغاء الوظيفة المذكورة ترسل الرسائل المذكورة إلى والى سوريا برسول خاص. وإلى باب السعادة بالبرق، بناء على هذا فمبلغ (٤٩,٨٥٦) قرش أجر الموظف المذكور يظل فى خزينة المالية.

ويشار فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ (٢٢,٧٥) قرش. إن (١٥٠٠٠) ألف من هذا المبلغ لنفقات الطريق، (٧٥٥٧) قرش منه يعطى كمنحة معتادة لأحد الموظفين. إن مهمة هذا الموظف كانت مصاحبة الخلع التى كانت تصنع من جانب الخلافة كل سنة وما ترسله وزارة الأوقاف، بإعطائه نفقات الطريق وقدرها (٣٠٠٠) قرش سالكا طريق البحر ويسلم ما معه إلى الجهات المختصة والآن تحت ظل التسهيلات التى حدثت فى العهد السلطانى لم تعد هناك حاجة لهذه الوظيفة.

والموظف سالف الذكر الذى كان يتقاضى مبلغًا قدره (٢٢٧٥٠) قرش يناله من إمارة مكة المعظمة عطية خاصة، كما كان يأخذ من خزينة مصر منحة قدرها (٢٥٠٠٠). وكانت من عادة وزارة الأوقاف السلطانية قديما أن ترسل زيوتا بواسطة موظف خاص تدفع أجره خزانة الأوقاف، وإذ أرسلت بعد الآن أيضا بواسطة موظف خاص وأرسلت الخلع بواسطة أمناء الصرة فيمكن إدخار المبالغ المذكورة وكل ما كان يدفع له من العطايا من قبل الإمارة وما يدفع له من خزانة مصر وهو مبلغ قدره (٢٥٠٠٠). إن مبلغ (٣٥,٠٢٣) قرشا الذى أشير إليه فى جدول الصرة السلطانية كرواتب إمارة مكة الجليلة لا لزوم له، ويجب أن يصرف النظر عنه حتى يدخر ذلك المبلغ.

وكان إرسال هذه الرواتب من موجبات عادة قديمة ولكننا الآن يلزمنا ألا نراعى تلك العادة: لأن مبلغ (٥٢٠٠) قرش منه كان بدل الخيل، ومبلغ (١٥٣٧١) قرشا كان خاصا بسرجين فضيين للخيل، ومبلغ (٤,٠٢٢) بدل اثنى عشر من الجوخ، ومبلغ (٢٤٧) قروش ثمنا للفواكه، ومبلغ (٢,٠٢٣) قرشا بدل الحلوى، ومبلغ (٥٠٠٠) منه هبات يجب ألا يرسل أى قرش منه وخاصة ما يرسل منه لبعض الموظفين كمخصصات وهى مبلغ (١٨,٠٦١) ونصف قرش لم يعد له أى مبرر.

إن مبلغ (٣,٦١٣) قرش من هذه النقود نفقات ترسل من باب السعادة إلى ولاية الحجاز كل سنة، ومبلغ (٨٥٧٧٠) قرش لموظفى أمانة الصرة وللمبشرين والآخرين ونفقات صنع الجبب والمعاطف من الفراء، ومبلغ (٢١٤,٥) قرش بدل الفواكه التى أرسلتها أمانة الصرة السلطانية للموظفين، ومبلغ (١٩١٩,٥) قرش بدل ضيافة الشريف وموظفى الإحرام الذين استقبلوا موكب الحج، (٨١٤) قرشا بدل طعام الشريف الذى كلف بتوديع موكب الحج، و(٢٩٢٦,٥) قرش ثمن ما أرسل من مكة المكرمة لأمناء الصرة السلطانية من الشيلان ولإجراءات ونفقات سفر الموظفين الذين أحضروا هذه الأشياء، إذا كان إرسال هذه المبالغ من العادات القديمة وإذا ما صرف النظر عن إرساله بعد الآن يمكن إدخار تلك المبالغ.

هناك فى دفتر الصرة السلطانية مبلغ (٢٤,٨٧٥,٥) قرش بدل ما أرسل من البخور وغيره ويمكن أن يدخر من هذا المبلغ ما قدره (٧٨٧٥,٥) قرش، لأن مبلغ (٢٤,٠٠٠) والكسور يشمل على (٢٠٠٠) منه ثمن البخور (٥٢٥٠) قرش منه ثمن ما اشترى من مخمل لصنع أكياس الخزينة، و(١٨٧٥,٥) قرش لتعمير الصناديق وثمن الأقفال ونفقات نثرية (١٢٠٠) قرش منه ثمن ما يرسل إلى مكة المكرمة من أربعمائة مثقال من دهن الورد، و(٣٧٥) قرشا منه ثمن العود والعنبر الذى يرسل إلى حامل مفتاح البيت المعظم شيبة أفندى.

وإن كان إرسال دهن الورد والعود والعنبر من الأشياء اللازمة لكن لا حاجة لنفقات تعمير الصناديق وشراء الأقفال وغيرها من النفقات، كل هذه المبالغ ومبلغ

(١٢٥٠) قرش ثمن المخمل الذى سيشترى لأكياس الخزينة وفيه كفاية؛ لذا يمكن أن يوفر منه مبلغ (٤٠٠٠) قرش ويقتضى ألا يرسل مبلغ (٢٠٠٠) قرش بدل البخور بالمرة.

وإذا ما خفض من مبلغ (٢٤٠٠٠) قرش والكسور السالفة الذكر والمقدار الذى سبق ذكره يمكن أن يوفر مبلغ (٧٨٧٥) قرش ونصف قرش.

وإن كان إرسال البخور إلى الحرمين فى درجة الوجوب إلا أن ما يرسل من مقادير كثيرة من البخور كل سنة من خزينة الأوقاف السلطانية إلى الحرمين وهو محقق يغنى عن إرسال بدل البخور.

كما أن نفقات الصناديق ضمن النفقات التى تدخل تحت نفقات الأشياء العينية، وبما أن تلك الأشياء قد تحولت إلى البدلات فلا حاجة إلى هذا النوع من النفقات، قد أشير فى جدول الصرة السلطانية إلى مبلغ قدره (٢٦٧٤١) قرش وهو ما تدفعه الخزانة المالية كنفقات الطريق وأجور الجمال للذين تعينهم لاستقبال المحمل الشريف من المدينة المنورة.

وقد خصص مبلغ (٦٣٩١) قرش أجورا للجمال والباقى وهو (١٠,١٧٥) قرش نفقات الذهاب و(١٠,١٧٥) قرش نفقات العودة، وبما أن إعطاء نفقات الذهاب والعودة لموظف وفوقها أجور الجمال ينافى أصول خزينة الصرف إذن يجب خفض أجور الجمال وتحويل الباقى من النفقات إلى خزينة الحجاز رعاية للتصرفات السابقة واتخاذ ذلك قاعدة، يمكن عندئذ توفير مبلغ (٢٦,٧٤١) قرش الذي سبق ذكره.

إذا ما ضمت أمانة الصرة إلى أمانة تموين الحج فسَيُسْتَغْنَى عن نفقات إقامة الخيم وبهذا سيوفر سنويا ما يعطى لأمناء الصرة كنفقات لتعمير الخيم وقدره (١٨,١٠٠) قرش، ويباع كذلك الخيم الموجودة ويخفض من مبلغ (١٤٧٠٠) قرش التى تعطى لإصلاح الزكائب الكبيرة الموجودة فى الخزينة لأجل حفظ أكياس الفراشة والزورق إلى (١٠٠٠) قرش فقط يمكن أن يوفر

من هذا مقدار (٤٧٠) قرش وبهذا يظل فى الخزينة الجليلة مبلغ (١٨٥٧٥) قرش ويمكن تخفيض مبلغ (١١٠٢١٥) قرش وهى مخصصات تموين الحج وجند الأعراب الخاص لحراسة موكب الحج.

وتبين لنا عند اطلاعنا على سجلات تموين الحج أنه يعطى لنفر من كتبة الخزينة مبلغ (٣٤,٠٣٠) قرش، ولكاتب التموين (٩٩٩) قرش راتبا ولكاتب نفقات الطريق وتموين الحج مبلغ (٣٠٣٢٤) قرش لرفيقه (٢٨٥) قرش معاشا و(١٩٠٠٠) قرش مصروفات طريق الحج و(١٢٨١) قرش ثمن الأوراق و(٦٧٥) قرش لرئيس جمالى المحمل الشريف وأفراد الجمالين كنفقات الطريق و(١٢٦٠٠٠) قرش أجر الجمال لنقل الشعير من مزريب إلى مداين صالح و(٩٠٠٠) قرش نفقات الطريق لكاتب الكتيبة البدوية السلطانية (٤٥٠٠) قرش نظير مكان لتموين الحج الشريف ويتولى كاتب الخزينة مسك دفاتر النفقات فى طريق الحج.

ومدة وظيفته أربعة أشهر أو خمسة، فمخصصاته لا تتناسب مع نفقاته لذا يجب خفض راتبه إلى (١٠٠٠) قرش، ونفقات سفره إلى (١٣٠٠٠) قرش، وإذا ما أجريت هذه التخفيضات فإنه يتوفر منها مبلغ (١٢,٣٠٠) قرش، ولعدم وجود حاجة ملحة لاستخدام كاتب المؤن فينخفض راتبه إلى (٢٥٠) قرشا ونفقات طريقه إلى (٣٥٠٠) يمكن توفير مبلغ (٣٩٩٠) قرش فى حالة استخدامه.

بما أن كاتب تموين الحج معين على ألا يذهب إلى الحجاز فتبدأ مهمته اعتبارا من تحرك الصرة من الشام بكتابة التقارير عند اللزوم ويقدم الحساب مرة واحدة فى السنة إلى إدارة محاسبة الولاية، ويضم بعض الأشياء لمخصصات هذه الوظيفة يمكن تحميلها إلى كاتب الخزينة، فيعطى لكاتب الخزينة (٦٣٢٤) قرش ويوفر الباقى وهو (٢٤٠٠٠) قرش وبما أن كاتب التموين يقوم بعمل رفيقه يجب أن يحمل كل هذه الأعمال كلها لكتاب الخزينة فيصرف النظر عن استخدامه ويجب توفير معاشه وهو مبلغ (٢٨٥٥) قرشا.

وما يمكن توفيره من نفقات طريق الحج وهو مبلغ (٩٠٥٠) قرش من ثمن القرطاسية (٧٧١) قرش ومن نفقات طريق رئيس الجمالين وأفراده (٦٧٥٥) قرشا ما يعطى لنقل الشعير من المزاريب إلى مداين صالح فى صورة قانونية وهو مبلغ (١٢٦٠٠٥) قرش ومن أجور الجمال (٦٣٠٠٠) قرش، والمبلغ الذى سيوفر بإلغاء وظيفة كاتب جنود البدو السنية وقدره (٩٠٠٠) وبقطع مبلغ (٤٥٠) قرش وذلك بتخصيص محل لحفظ مؤنة تموين الحج فى دائرة حكومية أو داخل القلعة.

وبهذه الصورة سيوفر مبلغ قدره (٨٨,٠٢٨) قرش ينفق كل عام مبلغ (٩٣٤٩٥) قرشا وذلك ثمن مصنعية قطعتين من الجبب اللتين ترسلان من باب السعادة إلى أمير الحجاز وإحدى هاتين الجبتين مزركشة وثقيلة نوعا ما ويكلف صنعها (٣٣٢٥) قرش والأخرى ليوم الجمعة (١٦١٢) قرش.

وإذا ما صرف النظر عن إرسالهما بعد الآن سيتوفر المبلغ المذكور فى خزينة المالية للدولة. ويرى فى جدول الصرة السلطانية التى سبق ذكرهر فى خانة مخصوصة مبلغ (٣,١١٤,٦٤) قرش خاصة بخلع أهالى الحرمين ومن فى طريق الحرمين وأهالى الشام وبدلات وعطايا ونقود ذهبية على أنها وظائف متنقلة وقتية، إن (١٠٠٣٥١) قرش من المبالغ المذكورة خصصت للوظائف المتنقلة الوقتية الخاصة بأهالى مكة المكرمة والمدينة المنورة (٧٣٥٥) قرش لسكان مكة المكرمة (٢٣٦٣٥) قرش لسكان المدينة المنورة من طرف رئاسة الوزارة بدل هبة الربعية وهى نقود ذهبية.

ينفق مبلغ (١٧٣٨٢٠) قرش ونصف قرش إلى المدينة المنورة و(٨٠٤٩٧) قرش إلى مكة المكرمة، و(٦٦٣٥٧) قرش ونصف قرش لأمور خاصة فى الشام.

تعطى نفقات الوظائف التى عرضناها مرتبة من خزينة المالية كما هو مبين فى سجلات وزارة الأوقاف وديوان التشريفات؛ إلا أن تلك الخزينة ليس لها أدنى علم عن الأشخاص الذين يعطى لهم، ومقدار ما يأخذون (٧٥٠) وقد تحقق

إعطاء (٧٥٠) قرشا من هذه النقود إلى المبشر الذى ألغيت وظيفته و(٢٥٠) قرش للأشخاص الذين يرسلهم شيخ الحرم النبوى لأمناء الصرة على أنه ثمن الفواكه و(٢٠٠) قرش لرؤساء جمالى الصرة السلطانية.

وبما أنه لا يجوز تكرار صرف النقود لأشياء لا لزوم لها، فيجب أن تخصم المبالغ التى ذكرت وقيدت فى ثلاثة أشهر فى الجدول من مبلغ (٥٦٤٦٤٠) قرش، وبعد الخصم يجب إجراء تحقيقات كاملة والعمل وفق ما أسفر عنه التحقيق والتدقيق.

وقد وصل إلى سمعنا من بعض الذين يؤمن على صحة أقوالهم أن بعض أهل باب السعادة يشاركون فى هذه النقود أصحابها، كما أن الهبات التى جرت العادة بإعطائها للعربات تصرف لهم ناقصة، والخصم الباقى يجد سبيله إلى جيوب المنتفعين وإذا ما استمر إجراء التحقيقات بخصوص هذه النقود ووضعت الخزينة ما التزمت به فى قضية تصرفات بعض الموظفين المهمة تحت المراقبة؛ يؤمل توفير مبلغ (٥٠٠٠٠٠) قرش.

وننقل الكلام إلى مبلغ (٦٠٠,٠٠٠) قرش المخصص لتموين الحج جند العربان يعطى مبلغ (١٣٣,٥٩٩) قرشا من هذه النقود لشيخ قبيلة حسنة و(٢٣٥,٠٩٠) قرشا لشيخ قبيلة ولد على وعنزة و(١٣٣٧) قرشا لشيوخ قبائل بنى صخر و(١٩٣٥٧٥) قرش لمشايخ العربان الذين يسكنون الخيم بعد قلعة مزاريب. ورواتب هؤلاء القديمة تبلغ (٢٧,٧٠٠) قرش الذى تعود أن يأخذه شيخ قبيلة رولة: طعلال الشعلان. وقد ثبت بما قاله سعيد باشا محافظ تموين الحجاج أن هذه الرواتب أكثر من نصابها، ويمكن أن يكتفى بإعطاء قبيلة حسنة (٨٠٠٠) ولقبيلة ولد على مع قبيلة عنزه (١٤٠٠٠)، ولقبيلة بنى صخر (٨٠٠٠٠) وللعربان سكان الخيم ولشيخ رولة (٢٠٠٠٠) قرش وإذا ما قرر إعطاء المبالغ السابقة يمكن توفير (٢٨٣٧١) قرش من هذه الأقسام الخمس. ويصل التوفير الكلى إلى (١٢٥٤,٥) قرش، وإذا ما فتح لهذا الموضوع أهمية عظمى فإن مقدار المتوفرات يزيد ويربو على هذا. «انتهى».

وكان من القواعد القديمة المقررة إرسال رسالة سلطانية مع قافلة الشام تخاطب أمير إمارة مكة المعظمة، وقد حصلنا على صورة من الرسالة التى دبجها والد السلطان كثير المحامد جعل الله مسواه الجنة السلطان عبد المجيد خان قبل خمسة وثلاثين عاما إلى سنى المناقب الشريف محمد بن عون[١]. لذا رأينا أن نسطر تلك الرسالة المفعمة باللفتة السلطانية الكريمة وندرجها فى هذا المكان.

صورة الرسالة السلطانية

إلى صاحب الإمارة مكتسب السعادة المنتسب للسيادة ذى النسب الطاهر والحسب الظاهر، مستجمع جميع المعالى والمفاخر كابرا عن كابر، جمال السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصابة العلوية، المصطفوية زبدة آل الرسول وقرة عين الزهراء البتول، المحفوف بصنوف عواطف خالق الكون الشريف (محمد بن على) دام سعده.

إذا ما وصلت رسالتنا السلطانية إليكم ليكن معلوما لديكم، بما لكم من نقاء جوهركم العدنانى، وصفاء طوية الفطرة القحطانية، منذ أن كان لكم فى مقام السيادة قعود، وإلى إمارة مكة صعود بذلتم الجهد فى خدمة الحرمين الشريفين وسعيتم فى رخاء أهلهما والمجاورين لهما، وحققتم لهم كلهم فراغ البال وجعلتم بها الأمر الأهم وأقمتم فى بلاد الحجاز دعائم النظام ووطدتم الأمن لقوافل الحجاج القادمين من كل فج عميق، وحققتم الطمأنينة للتجارة وأبناء السبيل، ومهدتم لهم مهاد الراحة وسعيتم فى رعايتهم فى ذهابهم وعودتهم، بإلهام من وفدنا السلطانى، والمأمول أن تستمروا فى بذل الهمة وفى إنجاز جميع المهام وحسب رغبتنا السلطانية ولكل هذا جعلتم شمس مقامنا تشرق من جديد، وبذلك زركشتم ثياب مناقبكم وزينتموها، فأهدينا إليكم قباء أخضر يشد على عروتيه زران محليان بالماس، وهذه الرسالة السلطانية تحيطكم علما بذلك، وقد أرسلت مع رئيس كتاب ديواننا السلطانى حافظ أحمد، فعليكم أن تلبسوا هذه

(١) إنه والد الشريف عون الرفيق باشا أمير مكة المعظمة الحالى.

الخلعة فى حفل رسمى بعد تلقيها معلنين ولاءكم وإخلاصكم لنا وداوموا على ما أنتم عليه بفضل نجابتكم وأصالتكم فيما يختص بإمارتكم.

والآن يخرج إلى الحج والى الشام وأمير الحج وأميرنا عثمان نورى باشا، فعليكم حماية الزوار والتجار من عدوان العرب، وتأمين طرق الحرمين الشريفين والعمل على راحة ورخاء سكان ومجاورى المقامين الشريفين، وأن ترغبوا جميع أهل التقوى والصلاح فى تلك الأماكن المقدسة فى الدعاء بالخير لنا، وأن ترعوا مصالح المسلمين قاطبة، أن تحموا قوافل الحجاج ابتداء من مدائن صالح بأن تكونوا فى استقبالهم عند القدوم وعند الرجوع، حتى تمنعوا عنهم أذى العربان والطوائف الأخرى المضرة بما عرف عنكم من الشجاعة والحماسة والفروسية، وذلك طبقا لرغبتنا ومساعينا السلطانية، ووفقا لشهامتكم الهاشمية وعليكم أن تتجهوا مع الواقفين عند زمزم والمقام، والمعتكفين فى بيت الله الحرام بالدعاء لنا بدوام دولتنا وعزتها وطول بقائها، وهذا ما سيطيب خاطرنا.

تحريرا فى أوائل شهر جمادى الآخرة لسنة ١٢٦٥هـ بمقام دار السلطنة العلية بالقسطنطينية المحروسة ١٢٦٥.

مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف

ما يرسل إلى الكعبة المعظمة كل سنة من باب السعادة والشام وقاهرة مصر من الزيوت والشموع لإنارتها مبين بمفرداته فيما يأتى:

صندوق	عدد	الأوقية	الدرهم
زيت زيتون من باب السعادة	-	١٣٤٣٢	-
زيت زيتون من مصر	-	٤٤٥٩	-
شمع كافورى	٤٤٦	١٤٥	-
شمع أبيض من دهن الحوت	-	٥٨٠	١٢٠
دهن الورد	-	-	٣٠٠
قرص معطر	١	٢٥٠٠	-
بخور[1]	٦	٢٥٠٠	-

(١) خاص بالمسجد الحرام والمساجد الأخرى المأثورة.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	١٠	٤٠	شمع أبيض
-	١٥٠	١١٠	قنديل ذو قدح على هيئة كروية مثل البطيخ[١]
١٢	-	٢٠٠	شمع أبيض[٢]
-	٣١٠	-	شمع أبيض صغير[٣]
-	١٦	-	زيت زيتون خاص بأيام عادية[٤]
-	٢٧١	-	خاص بليلتى الجمعة والاثنين والشهور الثلاثة

● مقادير وكميات ما يرسل من قبل باب السعادة والشام والخديوية المصرية من زيت الزيتون وغيره من الأشياء الأخرى التى ترسل إلى الحرم الشريف والمساجد الأخرى شهرا بشهر.

ما يرسل من باب السعادة

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
١٠٠	٤٤٣١	-	زيت زيتون
-	٤٦٨٠	٦٠	الشمع الأبيض

● الشموع الكافورية المطروحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن يكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

الدرهم	الأوقية	عدد	صندوق
-	-	٩	بخور
-	٥٧	-	ورق معطر
١٨٠	-	-	دهن الورد
-	٧١٤	-	شمع

(١) ما يخص مسجد سيدنا (عبد الله بن عباس) فى الطائف كل شمعة بوزن مائة درهم.
(٢) خاص بمقامات المذاهب الأربعة كل واحدة منهم بزنة ثلاثمائة درهم.
(٣) خاص بمقامات المذاهب الأربعة.
(٤) خاص بمسجد سيدنا (ابن عباس) فى الطائف.

صنـــــدوق	عــدد	الأوقيــة	الدرهــم
شمع المحاريب	-	٢	-
مكانس	-	٣٨٠	-
اسفنج	-	١٧٧	-
بخور	-	٢٥٠٠	-
دهن الورد	-	-	١١٢
ورق معطر	-	١٤٠٠	٣٠٠

ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية

صنـــــدوق	عــدد	الأوقيــة	الدرهــم
شمع(١)	٨	٣٤٤	-
شمع(٢)	-	٤١	-
شمع(٣)	-	-	٢٠
شمع(٤)	-	٢	-
حصير	-	٤٠٠	-
زيت زيتون	١٢	٤٧٢٢	-
قناديل بللورية	-	-	-
شمع العسل(٥)	-	٣٠	-

ما هو مقرر أن يرسل من الشام الشريف

صنـــــدوق	عــدد	الأوقيــة	الدرهــم
زيت الزيتون	-	٤٩٤١	-
الشمع الأبيض(٦)	٨	-	-

(١) مقدار كل مجموعه ثلاثة وأربعون شمعة.

(٢) زنة كل شمعة أوقية واحدة.

(٣) كل منها ٥ أوقيات مجهزة تجهيزا آخر وهى من وقف عباس باشا.

(٤) شمع محراب سليمان مجهز تجهيزاً آخر.

(٥) تزن سبع من هذه أوقيتين والباقى أوقية ونصف.

(٦) خاص بضريح سيدنا عباس وحمزة والمحراب السليمانى.

مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة

وداخل الحرم الشريف وسائر المساجد فى كل شهر

زيت زيتون أوقية[1]	زيت زيتون أوقية[2]
٦٩٨ للحرم الشريف والحجرة المعطرة	٩٨٩ للحرم السعيد
	١١١٦ لمآذن الحرم السعيدة
٢٢٣ للمساجد	٢٠٤ مآذن المساجد الأخرى
١٧ للفقراء المحتاجين	١٨ لساحة الحرم السعيدة
٩٥٦ المجموع	٢٥٦٧ المجموع

● الشموع الكافورية الممنوحة للمساجد التى كتبت أسماؤها فيما يأتى بناء على شرط الواقف على أن تكون كل شمعة أوقية ونصف أوقية وعلى أن يعطى كل ثلاثة أشهر.

عدد الشموع	
٢	للمسجد النبوى
٢	لمسجد سيدنا أبى بكر الصديق
٢	لمسجد سيدنا عمر الفاروق
٢	لمسجد سيدنا عثمان بن عفان
٢	لمسجد سيدنا على المرتضى
٢	لمسجد سيدنا عباس
٢	لمسجد قباء
٢	لمسجد بلال الحبشى
٢	لمسجد الشيخ السيواسى
٢	لمسجد الشيخ الباخورى
٢٠	المجموع

(١) خاص بالأيام العادية.

(٢) خاص بشهر رمضان الكريم.

٤ شمعات صغيرة تقدم ثلاث مرات فى كل شهر إلى كل واحد من المحراب النبوى والمحراب السليمانى.

شمعتان كبيرتان لمحراب النبى يقدم كل سنة مرة واحدة.

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف

عنبر	شجرة العود	ورق معطر	بخور	
٨ درهم	٣٠٠ درهم	عدد ٤	٢١ دستة	لشيخ الحرم[١]
..	٢٥٧ درهم	..	..	ومن يقومون بالتبخير
٨	٥٥٧	٤	٢١	المجموع

توقد القناديل المعلقة فى الحجرة السعيدة من المساء إلى الصباح ويصرف لكل قنديل خمسة وعشرين درهما من زيت الزيتون، وتوقد فى داخل الحرم الشريف القناديل المعلقة من المساء إلى الثلث الأخير من الليل ومن الثلث الأخير من الليل حتى وقت صلاة الصبح، ويصرف لكل قنديل عشرين درهما من زيت الزيتون، وقد خصص لكل واحد من هذه القناديل ثمانية عشر درهما من زيت الزيتون، كما قيد فى الخزانة النبوية؛ ولكن استخدام مقياس لا يعرف له المقدار يظن أن مقدار هذا الزيت عشرون درهما، وتصرف ثلاثمائة وثلاث عشرة شمعة لتوقد فى الثريات والشمعدانات المعلقة فى داخل الحرم السعيد كل يوم بعد يوم، كما يوزع على بعض الأشخاص فى رمضان كل سنة عدد (١٠٤١) شمعة.

● وقد قرر إعطاء الأشياء الآتية عند غسل الحجرة النبوية المعطرة:

دهن الورد	عنبر	الورق المعطر	بخور	شجرة العود
درهم	درهم	عدد	دستة	درهم
١٧٠	٢	٧	١	٩٠

● مقدار ما فى الحجرة المعطرة والروضة المطهرة للنبى عليه الصلاة والسلام

(١) كل دستة تتألف من تسعة عشر عودا.

وفى داخل الحرم الشريف من الشمعدانات والثريات البلورية والقناديل البلورية على شكل كروى، والقناديل الزجاجية المعلقة فى المآذن.

ما يوقد بشمع العسل

عدد	الشمعدان
٢	شمعدان مرصع بالجواهر ومضنع فى غاية الجمال فى الحجرة المعطرة.
٢	كذلك مصنع من الذهب الخالص وكبير نوعا ما (فى الحجرة المعطرة).
١	كذلك مصنوع من الذهب وكبير نوعا ما[1] (فى الحجرة المعطرة).
٥	المجموع

كل هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد صباحا ومساء فى داخل الحجرة المعطرة أمام سيد البشر فائض النور.

وإن كان فى الحجرة السعيدة عشرة أعداد من الشمعدانات الفضية إلا أنها توقد فى ليالى رمضان.

عدد	الشمعدان
٢	خاص بالشمعدانات الكبيرة لمحراب النبى.
٢	خاص بالشمعدانات الصغيرة لمحراب النبى[2].
٢	خاص بالشمعدانات الكبيرة للمحراب السليمانى.
٢	خاص بالشمعدانات الصغيرة للمحراب السليمانى.
٨	المجموع

هذه الشمعدانات الثمانية ذات شمعة واحدة وتوقد كل الليالى.

(١) فى مرقد السيدة فاطمة رضى الله عنها.

(٢) الشمعدانان الكبيران الخاصان بشموع محراب النبى ﷺ مصنوعان من الفضة الخالصة وهما من هبات والدة السلطان (بزم عالم).

الشمعدان المصبوب ذو الفانوس

عدد

٨ هذه الشمعدانات ذات شمعة واحدة وتوقد كل ليلة فى داخل الروضة المطهرة.

الشمعدان البلورى

عدد

١ فى الروضة المطهرة النبوية وهو ذو ثمان وعشرين شمعة.

٢ كذلك فى الروضة المقدسة النبوية ذو ثمانى وعشرين شمعة أيضا.

١ أمام المحراب السليمانى وهو ذو إحدى وثلاثين شمعة.

١ موضوع فوق كرسى ذى أرجل ثلاث وثمانى شمعات وأهداه الغازى الهندى متبركا.

٥ المجموع

توقد هذه الشمعدانات بالشمعات البيضاء.

الثريات البلورية

عدد

١ معلقة فى الحرم الشريف وذات حجم كبير يوقد فيها أربع وسبعون شمعة.

١ معلقة فى جهة القدم الشريفة وكبيرة ذات أربعة وعشرين شمعة[١].

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة.

٢ معلقة أمام المحراب السليمانى وذات ست عشرة شمعة كذلك[٢].

١ معلقة فى الروضة المطهرة ذات شمعة واحدة[٣].

١ معلقة أمام باب الوفود وذات شمعة واحدة[٤].

٨ المجموع

كل هذه الثريات توقد بالشمع الأبيض كل الليالى.

(١) من هبة والى مصر السابق عباس باشا للتبرك.

(٢) هذه الثريا على شكل الشجرة.

(٣) هذه الثريا حمراء.

(٤) هذه الثريا على هيئة الشجرة، هى الأخرى.

الثريات الفضية

عدد

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[١].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٢].

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وفى داخل الحرم الشريف[٣].

٤ المجموع

توقد هذه الثريات الأربعة كل الليالى.

الثريات البلورية

عدد

٣ هذه الثريات من هبات والي مصر الأسبق عباس باشا تبركا[٤].

١٥ قدمت من بعض أصحاب الخير[٥].

١٦ قدمت من بعض أصحاب الخير[٦].

٣٤ المجموع

كل هذه الثريات الأربعة وثلاثين توقد بالشمع الأبيض.

الثريات الفضية

عدد

١ معلقة أمام المحراب العثمانى ومهديها مجهول.

١ معلقة أمام القبة العثمانية وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات ست وثلاثين شمعة مهداة من السلطان محمود.

٢ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شموع مهداة من السلطان محمود.

١ معلقة أمام الحجرة المطهرة وذات شمعتين ومهداة من السلطان محمود.

٦ المجموع

توقد الثريات الستة كلها بالشمع الأبيض ليلا.

---

(١) هذه الثريا مهداة من والدة السلطان (بزم عالم) وتوقد بالشمع الأبيض.

(٢) هذه الثريا الفريدة مهداة من السلطان نائلة وتوقد بالشمع الأبيض.

(٣) مهداة من والى مصر الأسبق المرحوم عباس باشا وتوقد بالشمع الأبيض.

(٤) هذه الثريا على شكل نخلة وقطعة واحدة من البلور.

(٥) توقد كل الليالى.

(٦) توقد فى ليالى الجمع فقط.

الثريات البلورية

عدد	
١	ذات اثنين وثلاثين شمعة وهبها المرحوم رضا باشا للتبرك.
٢	ذات أربعين شمعة حمراء اللون واقفهما مجهول.
١	ثريا ذات طراز هندى ولا يعرف واقفها.
٤	المجمـــــوع

وإن كانت هذه الثريات معلقة فى داخل الحرم الشريف إلا أنها لا توقد لعدم إرسال الشموع.

- مقدار القناديل التى تسرج وهى على شكل كروى ومن الزجاج

عدد القناديل	
٧٠	البلور ذات السلسة الذهبية كروى الشكل.
٢	الزجاج ذات سلسلة ذهبية.
١٠	شمعدان من الزجاج فى الشجرة الفضية.
٨٤	المجمـــــوع

إن هذه القناديل فى داخل الحجرة المعطرة وتوقد كل ليلة وسلاسلها كلها من هبة الخاقان محمود عدلى رحمه الله تعالى.

- **القناديل الزجاجية لمآذن المسجد السعيد**

عدد	
٢٢٧	فى المئذنة الرئيسية
٣١٢	فى المئذنة العزيزية
٢٢٨	فى المئذنة المجيدية
١٨٦	فى مئذنة باب الرحمة
٢١٦	فى مئذنة باب السلام
١١٦٩	مجموع عدد القناديل

- القناديل المعلقة بالحرم وخارجه

٤٥٢	كروى الشكل له سلاسل فضية صفراء
١٦	كروى الشكل له سلاسل عادية ومعلق فى باب الحرم الشريف[١]
٨٤	زجاجى فى الثريات على شكل الشجرة ومعلقة فى داخل الحرم الشريف
٢١	زجاجى فى داخل الحرم السعيد وفى اللوحات المزينة
٢٤	زجاجى معلقة على الأطراف الأربعة الخارجية للحرم الشريف
١١	زجاجى معلق فى أماكن أخرى
٦٠٨	مجموع عدد القناديل.

عدد الشمعدانات والثريات والقناديل من حيث المجموع:

عدد	
٣٥	الشمعدان
٦٠	الثريات البلورية مع الشجرة الفضية
١٨٦١	قناديل زجاجية على شكل كروى.
٢٤٣١	مجموع القناديل والشموع كلها.

عين زبيدة

من مآثر السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان (عليهم الرحمة والغفران) ومن خيراته العظيمة تعمير مجرى عين زبيدة وإحيائها.

وإن كان فى مدينة مكة المكرمة بعض السبل للماء الذى جلبته عين السيدة «زبيدة» من جبل المُشَلَّل وكذلك بعض الآبار يمكن شرب مائها إلا أن أهل مكة كانوا يعانون من قلة تلك السبل والآبار ذات المياه العذبة، إلى أن أجرى السلطان سليمان مياه عين زبيدة فى داخل مكة المعظمة.

(١) إن هذه القناديل معلقة فى داخل الحرم الشريف كل الليالى وهى مهداة من ساكن الجنان السلطان محمود للتبرك.

عين زبيدة: هى الماء الزلال الذى أجرته ـ كما سيذكر فيما بعد ـ السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوج هارون الرشيد، بإنفاق مبالغ طائلة من واد يبعد ثلاثة أيام إلى مدينة مكة الله الشهيرة، إلا أنها أهملت بعد تطهيرها فى سنة (٩٢٦) بإهمال طرقها، ومجاريها آلت إلى الخراب وضاع ذلك الماء الذى تقوم عليه الحياة.

وكان ذلك الماء المذكور فى غاية الغزارة والعذوبة وكان يشبه ماء تقسيم[(١)] فى إستانبول، وإن كان اسمه عين عرفات؛ إلا أنه أطلق عليها عين زبيدة اعترافا لما بذلته السيدة زبيدة من همة عظيمة لجلبها.

كانت السيدة زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر الذى يقال له جعفر الأكبر وحفيدة أبى جعفر المنصور ثانى الخلفاء العباسية وبنت عم زوجها هارون الرشيد وكانت شهرتها القديمة «أمة العزيز»، وكانت اعتادت فى صغر سنها أن تؤنس جدها بالرقص أمامه، وسماها المنصور بهذا الاسم قال لها يا ابنتى إنك زبيدة فعرفت بهذا الاسم. إن السيدة زبيدة الممدوحة كانت امرأة ذات مناقب جليلة ومآثر ممدوحة وصاحبة بر وإحسان، وقد جلبت عين حنين وأوصلتها إلى مكة المفخمة بعد أن أنفقت أموالا طائلة وخزائن وفيرة وذلك فى سنة ٢١٣ الهجرية، إن مدينة مكة المكرمة المفخمة تقع بين سلسلة جبال سوداء جرداء خالية من المياه الجارية وفى واد غير ذى زرع غير صالح للزراعة، لذا كان سكان حرم الله يديرون أمورهم بمياه الأمطار، ويعانون غالبا من مشكلة قلة المياه وذلك قبل إحياء عين حنين. ويقول المؤرخون إن السيدة زبيدة قد أنفقت (١٧٠٠٠٠٠) مثقال ذهبًا[(٢)] وأمرت بنقب جبال حنين الراسيات وجمعت المياه فى سفح الجبل الواقع فى ساحة (منى) أرض الحل، وهكذا أروت حرم الله وأزالت منه العطش.

حكايـة

بعد أن أجريت المياه إلى مكة ومهدت طرقها وصارت رصينة منيعة، وتم عمل

(١) اسم حى من أحياء استانبول.

(٢) يساوى (٢٥٥٠٠٠٠) درهم ذهبا.

كل شيء على أحسن ما يرام، أراد أحد الموظفين الذين كانوا يعملون فى هذا العمل الخيرى أن يعرض كل ما أنفق فى هذا العمل مقيدا الحسابات فى دفتر، وقدمه للسيدة زبيدة راجيا أن تلقى نظرة لتسوية الحساب وهى فى قصرها المبنى على نهر دجلة، فأخذت الدفتر وألقته بين المياه، واستدعت الموظف المذكور وقالت له تركت تسوية حساب هذا العمل إلى يوم الحساب، إذا كان هناك فى ذمتك بعض المبالغ فإننى تنازلت عنها كهدية، أما إذا كان لك طلب فقله شفويا حتى أؤديه لك، ثم ألبست الموظف ومن معه حلة فاخرة وطيبت خاطره «انتهى».

قد اتفق جميع المؤرخين على أن تلك السيدة العظيمة صاحبة العصمة قد أجرت المياه إلى مدينة مكة المكرمة من مسافة تبعد ثلاثة أيام منها؛ إلا أنه من الثابت أن السيدة زبيدة قد غادرت أرض الفناء، واتجهت إلى حجرتها المفروشة بالإستبرق[1] وذلك فى سنة (٢١٢) وظل ذلك العمل ناقصا إلى عهد السلطان سليمان بن السلطان سليم.

ولما آل الأمر إلى السلطان المشار إليه بذلت كريمة السلطان السعيد الحظ مهرماه بعون والدها كل جهدها لإتمام ذلك العمل، وأوصلت المياه إلى مكة المكرمة. وبنت عدة عيون فى المسعى الشريف وبهذا أحيت أهالى مكة المكرمة بلد الله الأمين كما سيوضح فيما يأتى.

وبناء على هذا فإن قصة تقديم دفتر المحاسبة إلى السيدة زبيدة لا أصل لها فهى مختلقة.

إن منبع ماء حنين الذى أجرته السيدة زبيدة إلى مكة فى سفح جبل «ثنية» إلى جبل «طاد» العاليان أشد العلو والواقعان فى طريق الطائف. ويفيض هذا الماء من منبعه نحو حقول قرى حنين، وبعد ما يروى نخيل القرى الواقعة على طرفيه يستمر فى جريانه إلى أن يصل إلى حائط حنين[2]. إن السيدة زبيدة اشترت كل

(١) يعنى توفيت. وهى جملة المقصود بها الدعاء للمذكورة أن يسكنها الله الجنة.

(٢) يطلق على الوادى الذى يشمل قرى حنين وبساتينها «حائط حنين» وقد وقعت غزوة حنين الجليلة فى الصحراء المفزعة التى تنتهى عند البساتين المذكورة.

حقول تلك القرى ومنعت زراعة تلك البساتين، وأقامت على الأماكن المناسبة من الجبال التى حولها سدودا متينة وحفرت مجارى لانتقال مياه الأمطار من سد إلى سد، وتمتلئ تلك السدود بمياه الأمطار وتتحول إلى نهيرات صغيرة مثل عين حنين، وتجرى بواسطة المجارى والقنوات حتى تصب فى أنهار مشاش، ميمونة، غفران، برود، طارقى، ثقبه، وخزيان، وكلها تتجمع فى مجرى وادى حنين الواسع، ومن هنا إلى خزان «بئر زبيدة» التى حفرت فى صحراء منى. وبعد ما أجرت السيدة زبيدة عين حنين إلى منى أوصلت ماء وادى النعمان إلى عرفات، ثم جمعت مياه حنين ومياه وادى نعمان وأجرتها إلى البئر العميق الكبير عن طريق جبل ضاب[1] الكائن خلف المأزمين بطريق المزدلفة وعاد والمرسلات من خلف جبل من جبال صحراء منى، وهذا الماء يجرى من جبل كرا (يقال له جبل قرى أيضا) إلى ساحة عرفات بواسطة المجرى الكبير الواسع المصنوع، ويملأ أحواض جبل الرحمة ثم يملأ خزان بئر زبيدة الذى سبق ذكره.

قد اتخذت بئر زبيدة خزانا ومقسما لمياه عرفات وحنين: لأجل ذلك غطيت بصخور عظيمة ليس فى قدرة الإنسان نقلها أو تقليبها من جهة إلى أخرى، وذلك لتفادى أذى عربان البادية وتأمينها من أضرارهم.

إن الماء الذى جلب من وادى النعمان ينبع من سفوح الجبل الذى عرف بين الأهالى (بجبل قرا) أو (كدا) أو (كرا) إن هذا الجبل قائم فوق جبلين فى ارتفاع جبل الرحمة" لذا فهو بالغ الارتفاع والمساحة من قمة هذا الجبل إلى الطائف نصف يوم. إن الذين يصعدون على هذا الجبل أو يهبطون منه مرة يبلغ بهم التعب حتى لا يقدرون الصعود إليه أو الهبوط منه فى نفس اليوم. والماء المعروف بعين عرفات يجرى من صحراء النعمان ولذلك تجد الأماكن التى تجرى فيها تتأثر برطوبتها وتنبت أنواع الأشجار. وأقسام النباتات والأزهار فيما حولها وتتحول إلى رياض منتظمة.

(١) يطلق على هذا المكان الآن طريق المظلمة وهو يقع على يسار العائدين من عرفات إلى المزدلفة.

وبناء على ما ذكره المؤرخون الأعلام فإن طول المجرى الذى حفرته السيدة زبيدة يبلغ (١٤٣٠٣٨) قدما وأربع بوصات وقد صرف فى حفرها وتسويتها مليونا وسبعمائة مثقال ذهب كاملا كما سبق ذكره.

لطيفة

قد رأى أحد الصلحاء فى رؤياه السيدة[١] زبيدة فى رياض الجنة وقال لها «هل غفر لك لتوصيلك المياه إلى مكة المكرمة» فأجابت قائلة: «إن ما أنفقته من المبالغ لأجل الماء كانت من حقوق العباد وما حدث منها من الأجر والثواب وزع على أصحاب الحقوق، ولكننى كنت يوما فى مجلس الأنس والشراب فسمعت الأذان المحمدى، فتركت الشرب واستشهدت من خلف المؤذن، إن عملى هذا قد حاز رضا ربى الرحيم وقال مخاطبا الملائكة: «إذا لم يكن توحيد ألوهيتى راسخا فى قلب زبيدة لما أسرعت فى الاعتراف بوحدانيتى بترك مجلس الهناء والسرور فاشهدوا أننى رضيت عنها وغفرت لها «وبصدور هذا الخطاب الإلهى الجليل وصلت لما أنا عليه من مرتبة عالية وإننى الآن فى أحسن حال». هذا كان ردها للشيخ الصالح. انتهى «روح البيان».

وقد أنقذت السيدة زبيدة أهل مكة من ضائقة الماء، إذ أوصلت هذه المياه إليها وكذلك خدمت الحجاج الكرام خدمة عظيمة بهذا العمل الجليل.

إلا أن السيول التى تنهمر من الجبال قد خربت قنوات هذه المياه ومجاريها مع مرور الأيام، كما أن تقلبات الزمن وقلة الأمطار قد محت وخربت جميع الطرق وقضت عليها، وأجبرت سكان المدينة الشهيرة مكة المكرمة على أن يجلبوا الماء من أماكن بعيدة، كما أن مياه الآبار أخذت تنضب فى سنة ٢٤١ فأجهد الظمأ الناس أيما إجهاد، وفى أثناء ذلك أوصل الخليفة العباسى المتوكل المياه التى جلبتها السيدة زبيدة إلى عرفات إلى مكة المكرمة حافرا مجرى آخر، وبهذا نال الأجر والثواب وكأنه أحيا جيران كعبة الله من جديد[٢] إلا أن المجرى الذى حفره فسد

(١) إن المشار إليها توفيت عام (٢١٢) وعلى قول عام (٢١٦).

(٢) يروى أن المتوكل أنفق مائة ألف قطعة ذهب لجلب المياه إلى مدينة مكة المكرمة.

وخرب بعد مائتين وخمسين عاما، وهكذا ابتلى سكان بلدة الله مرة أخرى بالظمأ.

قد أصلح وعمر قنوات هذه المياه ومجاريها كل من الملك المظفر بن كوكبورى بن على فى عام (٥١٤) وصاحب أردبيل مظفر الدين فى سنة (٦٠٥) والمستنصر بالله العباسى عام (٦١٥) وفى سنة (٧٢٦) ملك العراق أبو سعيد خدابنده الأمير جوبان[١] وفى سنة (٨١١) الشريف حسن بن عجلان أمير مكة المعظمة وفى سنة (٨٢١) أبو النصر الشيخ محمود من ملوك الشراكسة وفى سنة (٧٧٥) السلطان قايتباى المصرى، وفى سنة (٩١٧) عمقها الغورى وطهرها كما أصلح مواضعها الخربة ونظفها وأنقذ أهالى مكة المعظمة الكرام من شح الماء إلى حد ما.

وبعد فترة تقلبت أحوال الزمان وتخربت مجارى المياه بأكملها وتوارى ماء حنين وعرفات الذى يشبه ماء الحياة فى ظلمات التراب؛ وكابد أهل مكة شح المياه إلى حد أنهم اضطروا فى أيام عرفات إلى جلب الماء من الوديان القاصية. وهذا واقع صحيح.

---

(١) بعد أن أصلح الأمير جوبان عين زبيدة، أصلح وسوى طرق ماء عين بازان كذلك وأدخل الماء إلى داخل مكة المكرمة فى عام (٧٢٦) ونعم أهل مكة بالرى حينما علم المؤرخ ابن الوردى إجراء عين بازان إلى مكة قال هذه الأبيات.

هل لى إلى مكة من عودة	فابلغ السؤال وأقضى الديون
غير عجيب جرى عين بها	فقد جرت شوقا إليها العيون

الأمير جوبان من أمراء الجنكيزية وأمير أمراء حاكم بغداد السلطان أبو سعيد بهادر بن السلطان محمد خان، وكان قد أحال إدارة البلاد التى تحت حكمه إلى أولاده ولكنه تنكر للأمير جوبان بتحريض من وزيره نصر الدين، وغضب عليه واطلع الأمير جوبان على غضب أبى سعيد من ابنه أو على خواجة دمشق الأثير لديه، ولكنه استطاع أن يعزل ذلك الوزير الغاشم من منصبه مدعيا عدم لياقته لوظيفته، وقتل ابنه بعد مدة لتسوية الخلافات بين أرباب السياسة، فذهب إلى معسكر الملك ومعه جنود كافية وطلب من أبى سعيد بواسطة الشيخ علاء الدولة القصاص من قاتلى خواجة دمشق؛ إلا أن طلبه لم يقبل ودخل الحرب إلا أن جنوده تركوه منفردا، فترك الحرب وهرب ناحية خراسان والتجأ إلى غياث الدين والى هرات: لما له عليه من حقوق سابقة إلا أن علاء الدين قتله بناء على أمر أبى سعيد الصريح وأرسل نعشه إلى المدينة المنورة بناء على طلبه وذلك فى سنة (٧٣٠).

وإن كان جلب الماء من الوديان البعيدة التى تحيط بها المهالك والمعاطب اقتصر على السَّرَاةِ من أصحاب الثروات الطائلة فقد انصرفت طائفة الفقراء والمستضعفين عن طلب كسرة الخبز ولم يعد لهم من مطلب سوى الماء.

فضلا على استحواذ المحتكرين من الأثرياء على الماء الذى يجلبه السقاءون، وكانوا يبيعونه بباهظ الأثمان فأفعموا جعبة حرصهم وبخلهم.

وفى أواخر عام ٩٣٠ جرى قضاء الله بأن تنقطع كذلك مياه الأودية البعيدة ولذا بيعت القربة الصغيرة من الماء التى يمكن حملها بإصبع بدينار من ذهب، ووقف الموحدون فى ساحة السعادة فى جبل الرحمة وقد نال منهم الظمأ حد أنهم كانوا على استعداد للتضحية بأرواحم فى سبيل الحصول على الماء.

ولما بلغ شح الماء ذلك الحد لزم الحجاج ـ الذين أحرقت أكبادهم من نار الظمأ ـ والسكون يغمرهم الاستغفار وما كان إلا أن انتظروا نزول رحمة الرحمن الرحيم، وبدءوا يبسطون أكف الضراعة بدعاء الاستسقاء، ووقع دعاء الحجاج موقع القبول والاستجابة لدى ربهم، فانهمر المطر مدرارًا كما لم ينهمر من قبل وبصورة لم يسمع عنها الشيوخ من قبل، وجرى السيل تحت أرجلهم، وأخمدوا نار ظمئهم، وبعد أن ملأوا قربهم وسقوا حيواناتهم ودوابهم انخرطوا فى شديد البكاء.

وعندما نما إلى علم السلطان سليمان خان سلطان الزمان معاناة المؤمنين شح المياه واضطرابهم فى ساحة عرفات وتخرب مجارى المياه على النحو الذى أسلفناه أصدر أوامره بتطهير طرق عين عرفات وعين حنين وتسويتهما. وأسند هذه المهمة لمن يسمى مصلح الدين أفندى وهو من مجاورى بلدة الله، ثم أخطرت إمارة مكة المكرمة من قبل الباب العالى وأحضرت علامات الإمارة إلى مصلح الدين أفندى، وعهد إليه بالمهمة المذكورة بتفويض من السلطان عالى المقام.

وفى عام ٩٣١ بدأ مصلح الدين أفندى يعد العدة لتلك المهمة فطهر مجارى مكة وعمرها على خير وجه، ثم أصلح البرك والأحواض فى عرفات مكة

المكرمة وروى بالأجر سكان الحرم من عين حنين واشترى مصلح الدين أفندى طائفة من العبيد السود[1]، وركب سفينة من ميناء السويس وكانت قد أعدت ليمضى بها إلى الآستانة ليعرض على الباب العالى كيفية توظيف هذه الطائفة فى مهمة تطهير مجرى القنوات، ومات ـ رحمة الله عليه ـ غرقا فى عباب بحر القلزم.

بينما كان مصلح الدين أفندى يقوم بإصلاح مجارى عينى حنين وعرفات عين مهندساً وكاتبا يرأسهما ناظر، وذلك من أجل سرعة إصلاح أى جزء يلحق به الخراب من المجارى والقنوات، وبعد ذلك بنى قبة حجرية فوق موضع تفرع المجرى، ووضع ميزاباً من خمسة وأربعين لوحاً حتى إذا ما فنيت مياه أى لوح أو نقصت يعرف أن ثمة خراب قد لحق بمجرى تلك الناحية فيتم إصلاحه في الحال.

وبفضل الترتيب المذكور لم يتعرض أهل مكة لشح الماء لفترة وعلى الرغم من ذلك فإنه بعد وفاة مصلح الدين أفندى بما يقرب من ثلاثين عاما طغى سيل من جرائه تخربت أغلبية مواضع المجارى المائية، ومن ثم بدأت مياه الينابيع فى مكة فى النقصان، وبدأ سكانها الكرام يلقون التعب والمشقة بسبب شح الماء، وعندما رفعت الإمارة الجليلة لمكة الأمر إلى الباب العالى وتلقت الإمارة المذكورة الرد وأخطرت بالمواضع الواجب إصلاحها وتعميرها، وبعد الكشف والمعاينة استدعى شريف مكة أشرافها وأعيانها للتشاور، وقرأ عليهم الأمر الوارد من الباب العالى.

وعلى أثر ذلك اجتمع قاضى مكة عبد الباقى بن على المغربى أفندى ومتصرف جدة خير الدين بك وطائفة مثلهم من أرباب الدراية والمعرفة. وعقدوا مجلساً للتشاور وتبادلوا الآراء والمشورة بشأن طرق المياه مكة المكرمة، ومن بعد اتفقوا رأيا على أن عيون عرفات أبرك من باقى العيون، ومجاريها معلومة. وإذا ما

(١) اشترى مصلح الدين أفندى لكل واحد من هؤلاء العبيد السود جارية زنجية وزوجه منها، وعهد إلى ذريتهم بمهمة تطهير قنوات المياه، وكل العبيد يعيشون على مرتبات خصصت لهم بالقانون ولم يبق منهم أحد الآن بعد أن انقطع نسلهم.

نظرنا إلى ما أفاد به الخبراء فإن هذا الماء على الرغم من أنه ينبع من موضع يسمى «أوجر» يمر من منى عن طريق وادى النعمان وعرفات، ويحضر إلى بئر زبيدة. وإذا ما طهرت مجاريها وطرقها على الوجه الأقوم فإنه سيتكلف (٣٠,٠٠٠) دينار من ذهب، وقالوا إنهم سوف يقومون بتسوية وإصلاح وتنظيم ما يقرب من (٤٥,٠٠٠) ذراع معمارى فى وادى مكة وقد وقع هذا الرأى موقع القبول لدى هيئة الشورى، وعرضوا ما توصلوا إليه من قرارات على الإمارة المشار إليها مرفقة بتقرير.

ومن ثم عرض شريف مكة المذكور الصورة الأخيرة لما سيكون عليه المجرى بعد الإصلاح والقرار المذكور على الباب العالى وذلك على الوجه المفصل.

ولقد ورد التزام من كريمة السلطان صاحبة الخيرات، إكليلة المخدرات، تاج المحصنات بتعمير المواضع الخربة، وإجراء الماء داخل مكة، وإنشاء العيون فى المواضع القريبة من حرم الكعبة؛ وذلك لإحياء أهالى بلدة الله، ولأن ذلك عادة من المبرات السلطانية فقد صرف (٥٠,٠٠٠) دينار لإبراهيم بك دفتر دار (وزير مالية) مصر القاهرة الأسبق، وأرسل إلى مكة المكرمة، وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ذى القعدة عام (٩٦٤) أو (٩٦٧) وقبل عام (٩٧٠) قدم إبراهيم بك إلى جدة، وفى اليوم التالى وصل إلى حضرة سيد حسن بن نمى شريف مكة فى وادى مر الظهران، ومضى فى معية المشار إليه إلى مكة وبعد الطواف نزل فى دار أعدت له خصيصاً.

وفى غضون خمسة و عشرة أيام وبفضل كثير من العمال بذل الجهد فى تطهير وتعميق الآبار التى غاض ماؤها ومجرى عين عرفات، وبعد الحج نصبت الخيام فى وادى عرفات من أجل تعمير طريق جبل الرحمة، واستخدم ما يقرب من أربعمائة عامل فى أعمال تنظيف المجرى، واستقدم إبراهيم بك مهندسين أكفاء وكثرة من البنائين وزاد من عدد العمال يومًا بعد يوم، وأصلح المجارى حتى بئر عين زبيدة، ولكنه لم يستطع أن يعثر على المجرى القديم الذى يمتد بعد بئر عين زبيدة.

وكان العمال الذين استخدمهم (إبراهيم بك) عددهم أربعمائة نفر من جنس العبيد وكانوا يصلحون لعمليات الحفر فعمقوا وطهروا مجارى العيون من (أوجر) إلى حدود (المزدلفة) ولما كانت عمليات الحفر بعد (المزدلفة) أشق طلبوا مزيدا من العمال وأبلغ إبراهيم بك عدد العمال إلى ألف وبذل جهودا جبارة وأظهر مروءة عظيمة، وأنفق أكثر من ألف قطعة ذهبية، إلا أن العمل أخذ يتأخر يوما بعد يوم ويتباطأ، ولما رأى أن حفر وتعميق المجرى الكائن بين المزدلفة ومكة المكرمة فى حكم المستحيل، عرض الأمر إلى الجهات العالية، واستقدم من صعيد مصر والشام وحلب واليمن وباب السعادة إستانبول عمالا متخصصين فى حفر الآبار ومجارى المياه والحدادة والبناء ووزع لكل واحد منهم عمله لإجراء التعميق، إلا أنه فهم أن مجرى الماء ينتهى عند بئر زبيدة وراح فى تفكير عميق فى الندامة والحيرة؛ لأن السيدة زبيدة لم تستطع أن تحفر مسافة ألف ذراع معمارى بعد البئر الذى ينسب لها فتركته وأجرت مياه عرفات إلى مجرى حنين ووحدت بين الجدولين، واستطاعت أن تدبر مقدارا من المياه يكفى لأهل مكة ولم توحد بين عين عرفات ومجرى عين حنين بتغيير مجراهما؛ كان عليها أن تنشغل بنقب وثقب قطعة واحدة من الصخرة التى يبلغ طولها ألف ذراع معمارى وعرضها مع عمقها خمسين ذراعا.

وكان فى هذا إنفاق للمال عبثا، وأكد فكرة أن إنجاز هذا العمل خارج طاقة الإنسان ولأجل ذلك تركت ذلك المكان، وقررت أن توجد بين مجرى عرفات ومجرى مياه حنين وتوصلت إلى هدفها عن طريق أوفق لغايتها.

وأراد إبراهيم بك من شدة حيرته واضطرابه أن يقوم بعمل لم تستطع أن تقوم به السيدة زبيدة، وتخيل أنه يستطيع أن يثقب ذلك الطريق الحجرى بطريقة أو بأخرى فحفر أولا وعمق مكانا ليبلغ طوله سبعة أذرع وعرضه خمسة أذرع وأمر برفع ما عليه من التراب، ثم جلب من جبل جزل حمل مائة بعير من الحطب وأراد أن يعمق بحرق الحطب فى داخل ما تم حفره ما مقداره خمسين ذراعا إلا أنه لم يستطع أن يحفر فى ليلة كاملة إلا مقدار إصبعين كسره بأدوات حديدية،

وأدرك أن تعميق مكان طوله ألف ذراع مقدار خمسين ذراعا يحتاج إلى عمر نوح ومال قارون، إلا أنه أنفق أموالا لا تحصى بفكرة إنقاذ الشرف السلطانى الساذجة، ولم يبخل من بذل أقصى الجهود لحفر المجرى إلا أنه لم يستطع أن يتجاوز أكثر من عشرين ذراعا، وفى النهاية أنهى جميع نقوده وأرسل إلى باب السعادة رسلا لعرض الأمر وليستأذنه فى كيفية التصرف بعد هذا الفشل، ولكن الرسل الذين بعثهم إلى إستانبول غرقت سفينتهم فى البحر الأحمر، وفى هذه الفترة مات ثلاثة من أبنائه واحدا تلو الآخر، كما مات وكيل أعماله وكثير من عبيده وعقب ذلك ارتحل أيضا إلى قصور الجنة سنة (٩٧٤) ليلة الاثنين الثانى من رجب ودفن فى قبره الذى كان قد هيّأهُ قبل وفاته[١].

وبعد وفاة (إبراهيم بك) عهد إلى قاسم بك حاكم جدة بمهمة تطهير المجرى ولحكمة ما توفى هو أيضا بعد مرور سنتين من تعيينه، فأحيلت تلك المهمة المقدسة لمفتى مكة المكرمة الشافعى القاضى حسين أبى بكر الحسينى.

وقد قام الشيخ حسين بمهمته أحسن قيام واستطاع أن ينهى عمله في ظرف خمسة أشهر على أحسن وجه وأنجز ما لم يستطع أن يقوم به من سبقوه فى اثنى عشر عاما.

واستطاع أن ينهى العمل الذى بذل فيه الجهود الحميدة منذ عهد السلطان سليمان خان الغيور على دينه، أى العمل الذى استغرق سبعة عشر عاما فى الحفر والتعميق وأوصل عين عرفات إلى مكة المكرمة وبإمرارها من نفس الطريق الذى أراده المرحوم إبراهيم بك وذلك فى سنة (٩٧٦) على قول أو سنة (٩٧٩) على قول آخر، أو فى الأيام العشرة الأخيرة من ذى القعدة سنة (٩٨١) وفقا للرواية الثالثة.

وأنشأ فى داخل المدينة أحواضا كبيرة وصهاريج عظيمة وملأها بالماء، وأحيا العالم الإسلامى، إن العمل الذى بدأ لإنشاء مجارى المياه وقنواتها فى عهد

(١) وبناء على هذا فالقول الأول وهو المعتبر أن إبراهيم بك شغل بحفر المجرى عشر سنوات، وعلى القول الثانى خمس سنوات وعلى القول الثالث أربع سنوات.

السلطان سليمان انتهى فى عهد السلطان سليم، وغبطت بلدة الله بكثرة مياهها، ودخل ماء عرفات فى داخل المدينة، وروى الحجاج العطاش وأخذ أهالى مكة المكرمة والمجاورون ذوى الاحترام يحتفلون، ويحث بعضهم البعض على الدعاء بالخير للسلطانين المشار إليهما ويقولون: إن الأعمال الخيرة الجميلة التي لم يقدر على القيام بها أى واحد من السلاطين السابقين والخلفاء المعتمدين، قد قدرت ويسرت لهذين السلطانين العظيمين.

وفى اليوم الذى وصل فيه الماء إلى المدينة المقدسة مكة الله أقام المفتى السابق الذكر حسين بن أبى بكر الحسينى فى رياض الأبطح لجميع الأهالى وليمة عظيمة، وذكر جهود السلطان وفتح صنابير جميع الينابيع وملأ مستودعات مياه الينابيع بحلو الشراب وسقى الأهالى، واستجلب الدعوات لطول بقاء الدولة العثمانية.

ومما يروى عن ثقة أن الأطعمة التى قدمت فى هذه الوليمة كانت عظيمة وافرة إذ نحر مائة جمل ومثلها من الأغنام، وأقيمت الخيام لجلوس القوم كل حسب مكانه وشرفه ودعا إليها أعيان القوم وأشرافهم وعلماءهم وصلحاءهم، وقدم لهم الطعام وبعد الطعام ألبس المهندسين ومهرة العمال الخلع، ووزع على الآخرين العطايا السنية وأبلغ بكل ما تم عمله لجلب قلوب الناس إلى السلطان الموصوف بمكارم الأخلاق، فما كان من السلطان إلا أن أرسل الخلع الفاخرة وعطايا كثيرة من إستانبول لتوزيعها على الذين خدموا فى توصيل العين المذكورة بجد وصدق من الأهالى. أما المفتى الشافعى القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى المشهود له عند الجميع بجهوده العظيمة وعظيم بلائه فقد كرم أعظم تكريم مما ملأ قلبه بالعظمة والسرور، وفى حقيقة الأمر إن أهل مكة كانت حاجتهم شديدة إلى ماء جار مثل عرفات؛ لو لم توصل كريمة السلطان مهرماه عين زبيدة إلى مكة المكرمة لما بقى لأهل مكة إلا واحدا من الحلين الاثنين: إما أن ينتقل أهل مكة إلى بلاد أخرى يهاجروا إليها، وإما أن يتحدوا جميعا ويصرفوا كل ما فى جهدهم ليطهروا مجرى عين زبيدة والعمل على جلبها من جبل الرحمة.

ولما كان الحل الثانى غير قابل للتنفيذ بل مستحيلا كان عليهم أن يبتلوا بالفراق عن الوطن وأن يتفرقوا فى بلاد شتى وأن يحترقوا بنار فراق كعبة الله ثم يفنوا.

وجلب ماء عرفات إلى الحرم الشريف رد الحياة لأهل مكة وذريتهم فبقوا فى موطنهم القديم، والآن ما من أحد فى مكة إلا وقلبه يمتلئ غبطة ومسرّة ولسانه يلهج داعيا بالبقاء للدولة العثمانية.

فيما يلى من كلامنا وصف لماء عرفات من حيث صفائه وعذوبته ومدى حاجة أهل مكة لهذا الماء، وهذا ما جعل هذا الأمر موضع بر الأميرة مهرماه وإحسانها بين المحسنين.

مقال

إن ماء عرفات ماء جار كأنه ماء الكوثر وعين الحياة وماء تسنيم، ويجرى بالقرب من موقف عرفات ويبحث عن حرم مكة العطشانة ليمسح وجهها ويطفى ظمأ أهل مكة المشتاقين بمائه الزلال.

أبيـــات

إن رغبة أهل هذا البلد إلـى المـاء الجـارى لأمـــر عجـب

ما أن يشاهـــده الظمـآن منهـــم إلا وجـــرى ريقـــه.

فأجـــــــــرت الأميـــــــرة (مهرمـــــــــاه).

بنت سلطان العالم السلطان سليمان خان.. صاحبة الخيرات

هذه العين إلى داخل المدينة.. منفقة الأموال الطائلـــة.

وهكـــــذا سقـــت المسلمـــــين العطشـــــى.

والحق أن ما قامـــت بـــه مـن همـــة عظيمـــة.

ليغار عليها خلفـاء سـكان المغــرب ودار الســـلام.

وحكـــام اليمــن وسلاطـــين مصـــــر والشـــام

وفـــى نـــار الحيـــــــــرة يحترقـــــــــون..
ولقـــد أســــــدت خدمـــــــة عظيمـــــــــة.
تجعـــل ملـــــوك الربـــــــع المسكـــــــون..
مـن العالـــم وملـــوك سوالــــف القـــــــــرون..
مـــن رغبتهـــم فـــى لجـــــــة يغرقـــــــــون
واستهــــل العمـــــــل فى سنـــــــــــة ٩٧٠[1].
ومـــع الاستعانــــــة بالمهندســــين المعامريـــــــن
الذيـــن يتمتعـــون بذهـــن ثاقـــب وذكـــــاء خـــــــارق
الذيـــن حطمـــوا الصخـــــــور الصمـــــــــاء
بهمـــــــة كأنهـــــــا فـــــأس فرهـــــــاد.
وأنهـــوا العمـــل فـــى تسعــــــة أعـــــــوام[2]
وأنفقـــــوا النقـــــود كالمـــــــاء السائـــــــل
حتى ظهر ذلك الجدول الجميـل وكأنــه فضــة مذابــة.
شكـــــــر الله سعـــــــــــى مجريهـــــــــا.

انتهى «ذيل الشقائق النعمانية».

وبما أن عين زبيدة احتاجت للتعمير والتطهير مرة أخرى فى عهد السلطان مصطفى بن السلطان أحمد سنة (١١٨١) بإشعار من إمارة مكة المكرمة فأرسل من قبل السلطنة السنية موظف يسمى فيض الله أفندى الذى طهر العين كما ينبغى، عمر وسوى الأماكن التى تحتاج للتعمير، وأنفق فى سبيل ذلك (٨٨٦,٠٠٠) قرش وأتم العمل فى ظرف ثلاث سنوات فى سنة (١١٨٤).

---

(١) بناء على القول الثالث.
(٢) بناء على القول الثانى.

إلا أنه فى تلك المدة لم يكلف بإصلاح مجرى عين زبيدة فقط بل شمل التعمير والإصلاح مجارى عين عرفات والعيون الأخرى، كما أصلحت مجارى جميع العيون الواقعة بين عين حنين وعرفات، وهكذا زادت المياه فى جميع المجارى.

ودام هذا التعمير أربعًا وخمسين سنة، وفى خلال هذه المدة لم يكابد أهل مكة من نقص المياه، ولكن فى عام (١٢٣٥) مست الحاجة إلى تعمير بعض العيون لما كان السلطان محمود خان أصدر الأمر إلى والى مصر محمد باشا بأن يبادر بإصلاح أى مكان فى الحرم الشريف دون استئذان منه، فأصلح الباشا المذكور مجارى المياه التى تحتاج إلى إصلاح وأحيا عين زبيدة من جديد، وأبلغ الأمر إلى باب السعادة سنة (١٢٣٥).

وبعد تعمير محمد على باشا قد انضمت إلى مجرى عين زبيدة مياه عين أخرى يقال لها زعفران، ولهذا زادت مياه عين زبيدة وكان ذلك بهمة زائر هندى كريم من أصحاب البر والإحسان يقال له «الماس أغا» وشرع هذا الرجل فى حفر بئر بالقرب من مجرى عين زبيدة، وعمق البئر حتى يزيد من مياهه بينما هو يعمق هذا البئر ظهر مجرى ماء تحت التراب، فسماه عين الزعفران وأجراها إلى مجرى عين زبيدة، فوحد بين الماء وبين ذلك البئر سنة (١٢٦٣).

وأهمل ما رممه وجدده محمد على باشا والى مصر تحت رعاية السلطان محمود خان، وفى غضون خمسة وثلاثين عاما وتهدمت عدة مواقع مما جدد ورمم، وظهرت مشكلة ندرة المياه فى مواسم الحج، ولم يبلغ[1] الأمر إلى السلطان ومقام الخلافة الإسلامية، فبدأ أهالى الحرمين يتوجسون خيفة من انقطاع ماء عين زبيدة كلية؛ إلا أن أحد الزوار الهنود من قبيلة ميمن وهو «الشيخ عبد الرحمن سراج» طهر وعمر ذلك المجرى مستخدما مائتى نفر يوميا فى ظرف شهرين، وهكذا نفث عن الناس كربتهم وذلك عام (١٢٩٥).

(١) لأن خزينة وزارة الأوقاف السلطانية كانت تصرف كل سنة مقداراً غير قليل من النقود.

وبما أن الشيخ عبد الرحمن سراج كان محبا للخير لم يقتنع بتعمير وتطهير مجرى عين زبيدة؛ بل امتد عمله إلى إجراء زمزم الشريف الذى كان يستعمل فى داخل الحرم الشريف إلى محل بعيد عن الحرم، لأن المجرى الكبير المديد الذى أنشئ فى صدر الإسلام أصابه التلف والخراب مع مرور العصور، فرممه على أحسن وجه وعمره، ثم عمر وسوى الأماكن التى فى حاجة لذلك فى خارج الحرم وداخله وبهذا خدم الجماعة الإسلامية أعظم خدمة.

وكان الشيخ عبد الرحمن سراج كما يروى يشرف بنفسه على العمال، وكان يرجوهم أن يقوموا بأعمالهم على أحسن وجه حتى يتم العمل فى متانة ورصانة ويوصيهم بذلك، واستطاع أن ينتهى سواء من مجرى زمزم أو المواقع الأخرى فى ظرف ثلاثة أشهر أو أربعة مستخدما يوميا ما بين مائتى عامل أو ثلاثمائة منهم. . ألا فليرض الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه وليوفقه فى القيام بأعمال خير أخرى.

وبعد سنتين من إصلاح الشيخ عبد الرحمن سراج الهندى للمجرى المذكور قدم غنى أفندى من حكام الولايات فى الهند مبلغاً قدره (٤٠٠٠) ليرة عثمانية وذلك من أجل إتمام تعمير وتعميق المجرى المذكور، وقد حفظ هذا المبلغ فى خزينة المديرية للإنفاق منه حينما تستدعى الحاجة وذلك فى عام ١٢٩٧.

آخر تعمير لعين زبيدة

وقد رمم مجرى عين زبيدة فى عهد والى مصر محمد باشا كما سبق ذكره آنفا، إلا أن هذا التعمير كان جزئيا يشبه إصلاح الطرق هنا وهناك.

قد تهدمت مجارى الماء بسبب السيول التى تتعاقب بكثرة فى البلاد الحجازية نتيجة لخصائص جو هذه البلاد، واحتاجت إلى تعمير شامل ولكن انشغال أولياء أمور الدولة بهمومها المتوالية حال دون الاهتمام بمصالح أمور الحجاز لذا لم يعمر مجرى عين زبيدة فترة طويلة، وبقاء المجارى دون تعمير بعد تهدمها تدريجيًا وترك العقود والدعائم دون ترميم أدى إلى نقص المياه يومًا بعد يوم، وهى قوام حياة الأهالى.

ودب الخراب فى المجرى وتصدع فضاع الماء الذى تسرب من بين الصدوع والشقوق، ولو بقيت القنوات على تلك الحال فترة أطول سوف يؤدى ذلك فى المستقبل إلى ابتلاء أهل مكة بضيق شديد من قلة المياه، ولما أدرك الكل ما ينتظرهم عرضوا الأمر على مقام الخلافة، فجاء الأمر السلطانى بتكوين لجنة من أعيان مكة وجدة تعنى بتعمير مجرى عين زبيدة وتسويتها وترميمها، وعين لرياسة تلك اللجنة الشيخ عبد الرحمن سراج أفندى الذى كان عمر وأحيا عين زعفران بإنفاق مئات من الليرات الفرنسية وذلك فى المحرم سنة (١٢٩٦).

وكان من أهم ما كلفت اللجنة به تعمير ذلك المجرى بطريقة متينة ورصينة، وأخذ نفقات التعمير من خزينة الدولة ودون إحداث خلل عند الإنفاق، وبما أن الخزينة المالية للدولة تمر بأزمة حادة رأت تلك اللجنة ألا تكون حملاً على خزينة الدولة وأن تدبر أمورها على هذا الأساس، وكان الممولون المسلمون يتمنون من فترة أن يشتركوا فى تعمير عين زبيدة، وعلى هذا جمعت كثير من المعونات المالية من أهالى جدة ومكة بِحَثٍّ اللجنة وسعيها الحثيث.

وأعطى الرئيس المذكور الشيخ عبد الرحمن سراج بمفرده خمسمائة روبية (٥٠٠٠ قرش) كما أن أصحاب الخيرات من الممالك الإسلامية أرسلوا معونات مناسبة لثرواتهم: فأرسل على خان[1] من ولاة الهند وحاكم (رانبور) (١٠٠٠٠٠) روبية وملكة (بهوبال) «السيدة جيهان بيكم» (٢٠٠٠٠) روبية والشيخ «عبد الغنى بهادر» من مشاهير أصحاب الخيرات وابنه «محمد أحسن الله» خان بهادر كل واحد منهما (٢٠٠٠٠) روبية وسيد عبد الواحد المقيم فى (كلكتا) ألفين وخمسمائة روبية[2] وأرسلوا كل هذه المبالغ مع «الحاج نور محمد زكريا» وكيل صحيفة الجوائب فى الهند.

وهذه الإعانات من قبل حكام الهند الكرام غمرت نفوس أهل مكة بالبهجة والسرور، ولما وصلت الإعانة الهندية إلى جدة وكان مقدارها (١٦٣٥٠٠٠)

(١) قد أدى حضرة على خان فريضة الحج فى سنة (١٢٨٩)، وأحسن إلى فقراء المدينة ومكة بمبالغ كثيرة، وأهدى كتابا من تأليفه للحجرة المعطرة يحتوى على المدائح النبوية.

(٢) الروبية الواحدة تساوى عشرة قروش.

قرش وقد ذكر أعضاء اللجنة وجمع غفير من الأهالى المحسنين بالحسنى ودعوا لهم بكل خير أن اللجنة الخاصة التى تشكلت فى مكة للإشراف على إصلاح وتعمير مجرى عين زبيدة كما سبق ذكره أعلنت بمهمتها الجهات الأربعة من أقطار الممالك الإسلامية، وفى ذلك الوقت تشكلت فى مصر المعروفة برجالها المحسنين لجنة من وزارة المعارف المصرية، دبروا لها فروعا فى مديريات البلاد المصرية كما فعل مسلمو الهند، واستطاعت أن تجمع فى فترة قصيرة (١٥١٦٧) قطعة ذهبية مصرية وكسورا وأرسلتها إلى مكة المكرمة.

وهذه المبالغ هى مبلغ (٤٢٠٠) ليرة من مديرية الغربية و (١٦٠٠) ليرة من المنوفية و (١٢٢٦) ليرة من القليوبية و (٦٠٠) ليرة من قنا و (٧٨) ليرة من الجيزة والباقى من موظفى الدوائر الخديوية وأرباب الحمية من رجال القاهرة.

وبناء على الأخبار التى أعلنتها الصحافة المصرية أنه يؤمل أن تصل إعانة مديرية الغربية إلى (٥٠٠٠) ليرة كما أن المديريات الأخرى التى لم ترسل المعونات بعد ينتظر أن تصل منها معونات كثيرة.

وبناء على أخبار التحقيقات التى نشرتها صحيفة وقت فى نسختها الصادرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٩٧ أن أهالى الهند المسلمين قد جمعوا إلى الآن مبلغ (٦٠٠٠٠٠) روبية ومازالوا يجمعون. وقد نشرت صحيفة حوادث مستقية أخبارها من صحيفة الوطن المصرية وبناء على الفقرات التى أدرجتها فى نسختى ٤٤٨٩ و ٤٥٠٣ أن المعونة الهندية وصلت إلى (٦١٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية وأن رئيس الجمعية الهندية للمعونات عبداللطيف خان بعث ابنه إلى السويس لعقد مقاولة مع الجمعية المصرية للمعونات، كما أوفدت جمعية الإعانة المصرية أحمد ناشد بك إلى مكة المعظمة لتقديم النفقات اللازمة لتعمير عين زبيدة، وبناء على الرسالة التى بعثها أحمد ناشد بك الذي أرسل من إمارة مصر للتحقيق فى تعميرات عين زبيدة ونشرتها صحيفة الجوائب، أن المسافة من جبل عرفات الذى

فيه عين زبيدة إلى مكة المكرمة تبلغ ستة آلاف ذراع تقريبا، وقد عهد بإصلاح مجارى عين زبيدة فى هذه المسافة للمهندس[1] الذى عينته الجمعية.

أما المواضع التى أصلحت علاوة على ذلك فهى المسافة الممتدة من عرفات حتى وادى النعمان وقدرها (٣٣٥٠) ذراعا كما تم الاتفاق مع المهندس المذكور على أن تكون تكاليف كل ذراع ١٦ ريالا وثلاثة أرباع الريال، وقد أنجز تلك المهمة على الوجه الأكمل وكان ذلك فى ٢٩ رجب سنة ١٣٠٠هـ.

قد بلغ ما جمع من حجاج الهند وأهالى مكة وغيرهم من المعونات إلى هذا التاريخ مبلغ (٨٢١٦٨) قطعة ذهبية وأرسل (٦٧٠٠) قطعة ذهبية منها من صندوق بومباى.

وقد أنفق مبلغ (٢٨٧,٥٥) قرشا لإصلاح وتعمير مجرى عين زعفران التى ضمت لعين زبيدة وذلك بشرط أن يحسب الريال بثمانية وعشرين قرشا ولليرة خمسة عشر قرشا والباقى من المبلغ صرف لطرق عين زبيدة وإصلاح مجاريها.

والسبب فى اضطرار اللجنة إلى إنفاق هذه المبالغ الطائلة من الدنانير الذهبية هو انسداد وانغلاق المنبع البالى لعين زبيدة، يعنى انسداد مجمع مياه وادى حنين ووادى النعمان وانغلاق ذلك المجرى الواسع وأيلولته للخراب.

إن ذلك المجرى يأتى إلى قهوة عرفات من تحت الأرض وعن طريق وادى النعمان، وبعد ذلك يجرى على وجه الأرض أحيانا ومن داخل الأرض حتى يصل إلى مجرى مغطى يسمى فقير الدبيلو «خومة وخاسرة» حتى يصل إلى قناة صناعية تسمى «بازان الجديد» وهنا يخرج على سطح الأرض ويمر بقناتين صناعيتين قنطرة العابدية والمزدلفة، ويصل إلى رقم الوبره ومنه إلى مفجرة وبعده بازان الجنة الواقعة فى منى وعقب ذلك إلى القناة الصناعية «بازان القاضى».

وبعد ذلك يهبط بحذاء دار الشريف عبد المطلب ويصل إلى مكة المعظمة، وإذا ما قيست هذه المسافة فهى تصل إلا ثلاثين كيلومتراً.

(١) هذا المهندس هو صادق بك ممن تولوا رتبة قائمقام الأركان الحربية.

وقد قسمت اللجنة أعمال إنشاء عين زبيدة وتعميرها إلى قسمين القسم الداخلى والقسم الخارجى.

القسم الأول: المواقع التى يعمر خارجها:

وقد بدئ فى تعمير هذا القسم من جهة وادى النعمان حتى المجرى. إن مقدار خمسة عشر مترا من المجرى المذكور قد هبط واندرس وانمحى، وبدأت اللجنة أعمالها من هناك وفتحت مجرى جديدًا يصل طوله لأربعمائة متر تقريبا، وأوسع من الأول ويسع داخله أن يمشى فيه إنسان ويتحرك، وبنى بشكل متين ورصين.

وبعد ما أنهت اللجنة أعمال المجرى على خير وجه أمر بفتح جميع أطراف المجرى ابتداء من وادى النعمان إلى قهوة عرفات. ومن هناك إلى جبل الرحمة ومن هنا إلى حومة وخاسرة وبازان الجديدة وقنطرة العابدية إلى المزدلفة، ومن المجرى أجزاء قد آلت إلى الخراب بحيث لا يمكن بقاء المياه فى داخلها فتركت هذه المجارى القديمة، وأمر بحفر مجارى جديدة كما أنها عاينت المواقع التى يمكن إصلاحها بعد أن أفرغتها من المياه وتفقدتها من الداخل ومن الخارج، «ثم أمرت بتعميرها واستخدمت الأسمنت فى تغطية جدران المجارى، وهكذا شيدته تشييدا رصينا.

ثم أمرت بتغطيتها بأغطية حجرية وفتحت فى بعض مواقع المجرى ما يشبه الأحواض حتى يستقى منها عربان البوادى، ويسقون دوابهم بعد أن أصلح المجرى حتى بئر زبيدة كما سبق شرحه.

فأخذت المياه تجرى فيه بغزارة حتى خربت بعض الأماكن الضيقة من المجرى، ورئى أن تفتح مثل هذه الأماكن وتوزع مياهها؛ ولأجل ذلك فتح بجانب مسجد المزدلفة وبين المزدلفة وعرفات حوضان عميقان للهبوط والصعود على جانبيهما، كما بنى منبع عظيم يهبط إليه ويصعد منه بالسلم وتركت الينابيع القديمة على حالها بعد تعميرها وتقويتها.

ونتيجة لإصلاح المجرى وتعميره بهذا الشكل أخذت تجرى إلى مكة فى كل دقيقة (٥٠٠٠) أوقية ماء وبما أن نصف هذه الكمية من المياه تكفى لإرواء كل أهالى مكة وسقيهم، فالمياه الباقية تجرى إلى بركة الأماجد حيث تكونت حولها بساتين شاسعة.

القسم الثانى: تعمير المواقع الداخلية:

أقيمت فى مكة تسعة صهاريج احتياطية وعدد من خزانات المياه ذات الصنابير، وشرع فى إنشاء الصهاريج الاحتياطية حيث أنشئ صهريج عظيم فى اتساع مائة وخمسون مترًا مربعًا، إن هذا الصهريج في حجم يكفى لاستيعاب (٤٤٧٠) أوقية من الماء بعد ما تم إنشاء هذا الصهريج، أنشئ صهريج آخر فى الحى المتصل بالموقع المسمى بالشيخ محمود يعنى فى حارة الباب، واتساعه أربعة وستون مترًا مربعًا، ويستوعب هذا الصهريج (٢٠٠٠) أوقية من ماء وبعد ذلك أنشىء الصهريج الذى فى حى جياد هذا الصهريج فى اتساع ٢٢٠ مترا مربعا ويستوعب (١٢٩٤٠٠٠) أوقية ماء وهو أكبر الصهاريج حجما، وبعد الانتهاء من صهريج جياد أنشئ عقب ذلك الصهريج الذى يسمى دكة الحارة المتصل بحى حارة الباب، وسطح هذا الصهريج فى اتساع ستة وثلاثين مترا مربعا ويستوعب (١٥٠٠٠٠) أوقية ماء ثم أنشئ الصهريج الذى فى حى الشامية باتساع (١٨٠) مترا مربعا ويستوعب صهريج الشامية (٢٦٠٠٠٠) أوقية ماء.

وبعد الانتهاء من بناء هذا الصهريج أقاموا صهريج شعب عامر، إن هذا الصهريج خلف مسكن السيد الشريف عون رفيق باشا وفى اتساع أربعة وثمانين مترا مربعا ويستوعب (٨٥٤) أوقية ماء.

وبعد إكمال صهريج شعب عامر أقيم خزان فى حى كشاشية على مساحة ثمانية وأربعين مترا وسعة هذا الخزان (٤٠٠٠٠٠) أوقية من الماء، وبعد ذلك أقيم خزان فى شعب بنى هاشم، وكان هذا فى حجم شعب عامر ويستوعب نفس الكمية من الماء، وبعد إقامة تلك الخزانات التسع المذكورة تهدمت خزانة

باب العمرة فأعيد تجديدها، وبعد ذلك أقيمت ثلاثة صهاريج كبيرة بجانب فرن أميرى الواقعة أسفل قلعة جياد، وسواء خزانة أميرى أو هذه الخزائن أنشئت علي طرفيها أحواض، وبنى تحت الأرض صهريج كبير ووضع في جهة المسعى خمسة عشر صنبورا متوسطا، ووضع فى جهة عمارة أربعة صنابير كبيرة ثم حفر وصنع حوضين ذوى فسقية واحدة بجانب مركز الشرطة الجديد وفى القسم السفلى منه والكائن فى باب الصفا.

وفى النهاية ركبوا فى جهة باب الصفا سبعة صنابير وفي جدران مكتبة شروانى محمد رشدى باشا الكائنة فى المدرسة التى تحت باب الصفا اثنين وعشرين صنبورا، وفى الجهة الخارجية من باب الوداع ستة وأربعين صنبورا، فى موقع قريب من باب العمرة عشرين صنبورا، وفى وسط المدرسة الداودية خمسة وعشرين صنبوراً، كما أنشئوا ستة أبنية ذات صنابير حجرية دائمة الجريان.

ولما كانت مبانى هذه الصنابير فى غاية الرصانة والمتانة فأهل الإيمان وهم يتوضئون منها فى الأوقات الخمسة، يرطبون ألسنتهم بالدعاء بازدياد قوة الإسلام وشوكته وعزته، وبعد ما انتهت عمليات تركيب الصنابير أُمِدَّ بالماء الخزان الكائن وسط العمارة المصرية التى وضعت أسسها فى مكان مواجه لباب الصفا، ومن هذا الخزان إلى الحوض ذو الفسقية بواسطة أنابيب رصاصية، أمدت مستشفى الغرباء بمقدار كاف من الماء بالأنابيب الحديدية من الخزان الذى أنشئ فوق سوق الليل، وركبت فى مطبخها وصيدليتها وحمامها ومغسل ملابسها صنابير كبيرة دائمة الجريان.

كما أنشئوا فى الحديقة التى يتنزه فيها المرضى حوضا، ومن هنا إلى عمارة السلطان الخاصة بالذين يعنون بالحدائق والبساتين، وحولوا تلك الأماكن إلى جنة وتحولت عين زبيدة الآن إلى نهر صغير فالمياه الجارية فى داخل مكة يضيع نصفها عبثا، وأوصلت اللجنة المجرى إلى حارة الباب المتصلة بالشيخ محمود، وأنشأت هناك صهريجا احتياطيا واستفاد أهل مكة من توصيل المياه إلى هذا المكان، وأخذوا

يبنون المنازل والدكاكين فى الأماكن الممتدة نحو ميدان الشيخ محمود، وقد تحولت تلك الضاحية من المدينة بعد وصول المياه إلى مدينة صغيرة مستقلة.

وبهذا قد أدركت اللجنة أن مكة الله ستتسع إلى تلك الأماكن ولذلك تقرر مد مجرى عين زبيدة إلى ميدان الشيخ محمود وشرع فورا فى تنفيذ ما هو لازم، وقد أنفقت (٧٥٠٠٠) قطعة ذهبية مصرية إلى أن وصلت عطيات الإنشاء إلى هذا المكان، إن تزيين تلك المدينة في جميع جهاتها على هذا النحو لم يكن بسعى من لجنة عين زبيدة فقط بل كذلك بفضل عثمان نورى باشا والى الحجاز والمهندس صادق بك.

المدارس الأربعة
التي أقامها السلطان سليمان
في مكة وكيفية إدارتها وتوجيهها

بعدما فرغ السلطان ـ طاب ثراه ـ من تعمير عين زبيدة بنى أربعة مدارس ضخمة خاصة بعلماء المذاهب الأربعة وأودع في كل واحدة من تلك المدارس خمسة عشر طالبا ومدرسا، وجعل أجر المدرس سنويا خمسين قطعة ذهبية عثمانية، وللمعيدين أربع قطع، وللطلاب والفراشين قطعتين ذهبيتين.

وجعل الإشراف على إدارة المدرسة الخاصة بالمالكية[١] والبوابين للقاضي حسين بن أبى بكر بن الحسين الذى نصب ناظرا للحرم الشريف بضم خمسين قطعة ذهبية لأجر وظيفته الأصلية، وتعد المدرسة المالكية أكبر المدارس الأربع وجعل لإدارة مدرسة المذهب الحنفي الشيخ القطب المكي المفتي[٢] الحنفي المذهب ومن مؤرخى مكة المعظمة، ووجهت إدارة المدرسة

(١) لقد سكن مولانا باقي شيخ شعراء الروم في هذه المدرسة حينما كان شيخا في مكة، وبما أن الشيوخ الذين كانوا يذهبون إلى مكة المكرمة أقاموا في هذه المدارس، مازال قضاة مكة يسكنون في هذه المدرسة ويقومون بوظائفهم، وهي مدرسة كبيرة في اتصال باب السلام بباب الزيادة.

(٢) ولم يكن للمذاهب الأربعة من يتولى الفتيا إلى عام ثمانمائة وسبعة ما عدا المذهب الشافعي، وفي خلال هذا العام عين من يتولى الإفتاء للمذهب المالكي والحنفي والحنبلي، كما ذكر سبب ذلك في مباحث المقامات الأربعة.

الشافعية إلى عبد العزيز الزمزمي من علماء المذهب الشافعي. واشترط أن يدرس في المدرسة الحنفية علم التفسير وعلم الطب وعلم أصول الفقه، وأن يدرس في المدرسة الشافعية الفقه الشافعي، وفي المدرسة الحنبلية(٢) كتب الحديث الستة وذلك في سنة (٩٧٢).

إن إحدي هذه المدارس التي بناها السلطان سليمان جعلت لإقامة قضاة مكة كما ذكر آنفا، ولكن المدارس الأخري قد استولي عليها متسلطو الزمن، ولم يبق أي حكم لشروط واقفها، وبينما كان أحمد باشا ابن أخت محمد علي باشا والي مصر محافظ مكة استطاع تخليص تلك المدارس من أيدي مغتصبيها، واشتراها بصورة نهائية، وبني هناك عمارة عظيمة وجعلها وقفا لمجاوري الحرم من المسلمين وجعلها سكنا خاصا لإقامة المجاورين ـ رحمه الله تعالى ـ جزاء ما قدم.

وللمدرسة السليمانية ست وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة، وللمدرسة الداودية سبع وأربعون حجرة ولكل حجرة جراية قدرها ثلاثة أرادب حنطة أيضا، ولمدرسة الشهيد محمد باشا ست عشرة حجرة ولها نفس المقدار من الجراية، ويقيم في بعض حجراتها طلبة العلم وفي الأخري، من لا مأوي لهم من الغرباء والفقراء يتعيشون من الرواتب الموقوفة للحجرات، وفي مكة المعظمة ثلاث تكايا إحداها للخالدية والأخرى للشاذلية والثالثة للنقشبندية، التكية الخالدية فوق جبل أبي قبيس، والنقشبندية كذلك فوق جبل أبي قبيس، والتكية الشاذلية في ناحية جياد.

* * *

(٢) لم يكن في مكة تلك الفترة عالم حنبلي يصلح لتدريس المذهب الحنبلي؛ لذلك اتخذت الدار مدرسة للحديث، ووكلت ادارتها إلى صهر القاضي حسين بن أبي بكر بن الحسين معين بن أصف خان. ويشرف الآن على هذه المدارس علماء المذهب الحنفي.

تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم

بما أن أروقة الحرم الشريف وسقفه كانت كلها من الخشب ولم تعمر منذ زمن طويل أشرف كثير من مواضعها على الانهيار، وتخلخلت مجموعة من أخشاب أسقفها ومالت للانهيار فى ساحة الحرم الشريف، كما أن الأروقة التى فى الجدران الشرقية مالت نحو كعبة الله ومداخل أسقفها انفصلت عن الجدران وأوشكت على الانهيار.

وقد غرزت بعد المساند تحت السقوف المذكورة وفقا للمسوغ الشرعى، وأمكن الاحتفاظ بها على حالتها القديمة، إلا أن السقف آل للسقوط يوما بعد يوم حتى أصبحت الصلاة تحت هذا السقف غير ممكنة، وبما أن دوام هذه الحالة لن يخلو من الخطر فعرض الأمر من قبل إمارة مدينة مكة ونظارة الحرم الشريف والكعبة المعظمة على العتبة السلطانية، فصدر الأمر السلطانى من قبل السلطان سليم خان الثانى بن سليمان خان ببناء الحرم الشريف متينا رصينا، بعد هدم السقوف والأروقة المصنوعة من الخشب كلها وإقامة أعمدة الرخام مكانها وتذهيب أعلاها، وأبلغ الأمر السلطانى من قبل مقام الصدارة العظمى إلى أمير أمراء مصر سنان باشا طالبا منه أن يعين شخصا مناسبا لأمانة الأبنية المقدسة، وتدبير الأشياء اللازمة لذلك، وعهد بأمانة الأبنية المقدسة لأحمد بك من أمراء مصر ودبر كل ما يلزم لمهمات البناء، وأبلغ كل ذلك إلى مقام الصدارة وأرسل إلى الأمير المذكور بتوجيه من محافظة جدة الأمر العالى بإحالة أمانة البناء العظيمة إليه، وأخذ الأمير معه الأمر السلطانى وما تم تدبيره من لوازم البناء وتوجه إلى بندر السويس، وركب السفينة المجهزة ووصل إلى جدة المعمورة فى أواخر سنة (٩٧٩) ثم إلى مكة المكرمة حيث تلاقى مع من عين فى الفرمان للإشراف على

أمور البناء، وهو ناظر الحرم الشريف القاضى حسين بن أبى بكر الحسينى، وشرع فى الاستعداد لهدم البناء القديم، وبناء الجديد، وبناءًا على رأى المهندس محمد أفندى من ضباط الباب العالى والذى أرسل للإشراف على العمارة وذلك فى أواسط شهر ربيع الأول سنة (٩٨٠)[1] هدم الجدار الشرقى للمسجد الحرام من باب على إلى باب السلام كاملا، ومهدت أرضه، وفى جمادى الأولى من نفس السنة وفى يوم الجمعة وضع حجر الأساس بعد أن دعا أمام جميع الأهالى بالتوفيق.

وبما أن الأزقة التى كانت تحيط بالجوانب الأربعة للحرم الشريف فى ذلك التاريخ كانت على نسق واحد، وهو السقوف الخشبية المرفوعة على الأعمدة الرخامية، وبناء على الأمر السلطانى كان المقرر أن تبنى فوق السقوف قبب لا تبدل ولكن الأساطين القديمة لم تكن تتحمل ثقل تلك القبب؛ حتى وإن كانت صغيرة فلن تصل رصانة البناء ومتانته إلى الحد المطلوب، فرأى محمد أفندى المذكور أن يهدم الأعمدة ويبنى قوائم من حجر شمليس أصفر اللون بعد كل ثلاثة أعمدة، وقرر أن يثبت سقف الحرم الشريف ويحكم بناءه فأنشأ قببًا مزخرفة جميلة.

ووفق هذا القرار واصل عمله من باب على إلى باب السلام، ومن هنا إلى باب عمر الواقع فى آخر الجدار الشمالى وهكذا أتم عمله بالكمال بعد أن بنى الجهتين الشرقية والشمالية للمسجد الحرام وذلك فى سنة (٩٨٢) وفى أثناء ذلك آل بناء عمر السلطان سليم إلى نهايته، وخلفه على العرش السلطان مراد الثالث طاب ثراه، وتوقفت عمليات البناء مدة من الزمن ولكن أحمد بك تلقى أمر السلطان باستئناف المهمة وشرع فى العمل من جديد، وفى غضون عامين بلغ بالبناء حد الكمال، وزين باب الحرم الشريف وجدرانه وأحجاره باسم جناب السلطان، وحلى باب المعلى وما حوله من السقوف والأروقة بالنقوش الذهبية المتنوعة وكان ذلك فى سنة (٩٨٤).

(١) فى السنة المذكورة حدث سيل خطير ودخل إلى الحرم الشريف وارتفع الماء بقدر قدمين فاستبدّ الاضطراب والحزن بأهل مكة.

وكانت التعليمات التى تلقاها أحمد بك من مقام الخلافة عندما جددت مهمته تشمل زخرفة الأماكن المناسبة من المسجد الحرام بالخطوط النفيسة المذهبة، وبناء على ذلك أمر بكتابة اسم الجلالة واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين على طلاء الجدار الشرقى من الداخل، بسمك أربعة أصابع بحروف جلية ونفيسة بعد إتمام عمليات المسجد الحرام، كما أمر بكتابة الآيات المناسبة على الجدران بين العلامتين الخضراوين، وهكذا زخرف داخل المسجد الحرام وخارجه كما أمر بكتابة الآيات الخاصة بأبواب المسجد فوق عقود الأبواب، واسم **الله** واسم نبى الله وأسماء الخلفاء الراشدين أعلى الأعمدة التى تقع فى الصف الأول من الساحة الرملية. وكتب تلك الكتابات بخط جميل نفيس وزخرفت بالذهب، وقد نظمت الكتابة بطريقة بديعة بحيث كتب أعلى كل عمود خامس اسم النبى ﷺ.

ولم يسع الذين شاهدوا تلك الزخارف إلا أن يعترفوا بأن المسجد الحرام لم يزين فى أية مرة عند تعميره وتجديده كما زين هذه المرة، وفى هذه المرة قد عُمِّرَتْ رُمِّمَتْ المآذن التى فى باب عمر وباب الوداع بشكل جميل، يَسُرُّ الناظرين، وقد حفر أحمد بك خارج جدران المسجد الحرام الجنوبية بإنفاق مبالغ طائلة، وذلك قبل هدم جدران الحرم الشريف الجنوبية والغربية، وذلك لتوسيع مجرى السيل لأن مجرى السيل قد امتلأ مع مرور الزمن وارتفعت أرض المجرى إلى الدرج الثانى عشر للأبواب الجنوبية؛ لذا كان الدخول فى الحرم الشريف يتم عن ثلاثة أدراج.

وإن كان من المستحيل ألا يملأ السيل المجرى ويخربه إلا أنه كان يتم حفر المجرى وتعميقه كل عشر سنوات، ونقل ترابه إلى خارج المدينة وكان ذلك من

قاعدة العمل فى الأزمنة القديمة، ولكن ترك تطهير المجرى ما يقرب من ثلاثين سنة وامتلاء المجرى، واقتراب السيل من الدخول فى الحرم الشريف ملأ قلوب الناس بالقلق والاضطراب حتى إن السيل المخيف الذى ظهر فى ليلة الأربعاء فى اليوم الخامس أو العاشر من جمادى الأولى لسنة (٩٨٣) دخل داخل الحرم الشريف وحجبت المياه المتجمعة الحجر الأسود وباب الكعبة حتى قفلته، وظلت فى داخل الحرم يوما وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى داخل الحرم يومًا وليلة واحدة، ومنعت الناس من أداء الصلاة فى سبعة أوقات. وعندما زالت هجمات السيل المخيف وأمكن السير فى داخل المسجد الحرام ظهر مجرى السيل والطريق القديم للسيل وأخرجت الأحجار والأوحال التى تراكمت هنا وهناك، وغسلت الأماكن الكثيرة الكائنة داخل الحرم وخارجه، وفرش داخل ساحة الحرمين بالرمال والحصى.

وقد ظهر السيل المذكور قبل تعميق المجرى فاستصوب رأى أحمد بك الذى سبق ذكره، وعمق حفرة المجرى بحيث لا تدخل مياه السيول فى داخل الحرم، وذلك بتدبير من شريف مكة وسادتها وأعيانها وأهاليها، واتخذوا تطهير المجرى وتنظيفه كل سنتين مرة قاعدة لا يحيدون عنها.

وما كان القيام بهذا العمل ميسرا لكائن من كان سواء من سلاطين العثمانيين أو خلفاء بغداد أو ملوك مصر، ولذلك عد إنجاز هذا العمل من أعظم آثار هذين السلطانين العثمانيين وثمرة هذا المسعى. وتم هذا العمل بعد أربعة أعوام، وينقل عن أحمد بك نقلا موثوقا أن ما أنفق من الخزينة الخاصة للسلطان (١١٠٠٠) قطعة ذهبية لإتمام هذا العمل ما عدا ما أرسل إلى أحمد بك من جانب الإدارة المصرية من الآلات والمسامير الحديدية وأشياء أخرى خشبية والعلامات الذهبية التى وضعت فوق القباب، وكلها خارج الحساب وبعد أن تم ترميم الحرم الشريف وتطهير المجرى، أرسل بيان بكل ما تم عمله إلى استانبول، وسرت منه جماعات المسلمين سرورا عظيما ونظمت أبيات شعرية تؤرخ تمام هذا العمل العظيم بلغات مختلفة وقدمت إلى أعتاب السلطان.

ولما كان تعليق هذه التواريخ المنظومة كلها فوق أبواب المسجد الحرام يخالف الأصول المرعية، اختير أجمل ما كتب فى هذا الشأن وأرسل إلى إمارة مكة المكرمة من قبل السلطان السنى المناقب ليعلق أو يحك فى مكان مناسب من المسجد الحرام.

وقد أعجب علماء مكة بالتاريخ المنظوم المرسل من مقام الخلافة الجليلة وحفر على لوحة رخامية، وبعد تزيينها وتذهيبها علقوها على الجدار الشرقى للمسجد الحرام فى مكان بين باب على وباب عباس امتثالاً للأمر السلطانى، وقد رأينا أنه من المناسب أن نكتب الثلاث أبيات الأخيرة من تاريخ سليس؛ لأنها أنشدت أمام السلطان وإن كانت مقدمته منثورا ولكنه يعتبر من الآثار الأدبية القيمة.

صورة تاريخ سليس

هذا التاريخ لا نظير له وعلق على الجدار الشرقى للمسجد الحرام نظم عندما تم تعمير المسجد الحرام فى عهد السلطان مراد خان الثالث.

الحمد لله الذى أسس بناء الدين المتين بنبى الرحمة والرشاد، وخصصه بمزيد الفضل والكرامة والإسعاد، وجعل حرم مكة مطافا لطواف الطائفين من أقاصى الممالك والبلاد، ﷺ وعلى أصحابه الأجلاء والأمجاد، ووفق عبده المعتدّ بأحكام الشريعة وتشييد أركانها على الوجه المراد، والمدخر ذخر المستزيد من زاد المعاد، ظله الممدود على مفارق العباد، السلطان ابن السلطان ابن السلطان مراد خان جعل الله الخلافة فيه وفى عقبه إلى يوم التناد، ولتجديد معالم المسجد الحرام الذى سواء العاكف فيه والباد، فى فاتحة سلطنته العظمى لازال للحرمين المحترمين خادما، ولأساس الجور والاعتساف هادمًا، وتجدد حرم بيت الله - عز وجل - بأمر العزيز المبجل، وعَمَّرَ عَامِرُ جُودِهِ، ما تضعضع من أركانه، بعدما انتقض على جدرانه، مجدد جدران حرم البيت العتيق وسوره بأكمل الزينة وأجمل صورة، بعدما أبلاها الجديدان وأكل عيدان سقفها الأرضة والديدان،

فرفع القباب موضع السطوح المبنية بالأخشاب، وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب، فأذعنوا له بالشرف الباهر، والمجد الفاخر تالين قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ (التوبة: ١٨) داعين له بالثواب الجزيل والذخر الزاخر، قائلين أدام الله فى سرير الخلافة محروسا بحفظك من كل آفة وظافر اعلا مشيد المجالس والمدارس، مجدد كل منهدم ودارس، واجعل بابه للراجين حرمًا آمنا وجنابه للمحتاجين كفيلا ضامنا، يأتون إليه من كل فج عميق بحرمة البيت العتيق، تقبل الله معطى السؤال بجاه الرسول، هذا الدعاء الحرى بالقبول، فلما أسس بنيانه على التقوى من الله والرضوان جاء مشيد الأركان، محاكيًا روضات الجنان، وصار هذا عنوان خلافته وبراعة استهلال النشور لسعادته وفى سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الهجرة، وكان الابتداء بذلك التجديد، بأمر والد الماجد الدارج إلى مدارج المجد السلطان السعيد.

﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٨: ٨٩).

السلطان سليم ابن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد بن السلطان جلبى سلطان محمد بن السلطان يلديرم بايزيد بن السلطان أورخان بن السلطان عثمان، مكنهم الله تعالى سرور الجنان إلى انقراض الزمان، وكان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الأول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة.

فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن التسليم، وارتحل من دار القصور إلى ما هيأ الله فى الجنة من القصور قبل تمام ما رام من تجديد المسجد الحرام، وأجلس على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن إجلاس، وجعل حرمه (مثابة للناس)، يسر له إتمامه بلطفه إقبال وجوه الليالى والأيام وأنام الأنام فى مهد، عدله إلى قيام الساعة وساعة القيام ونظم راقم هذا الأرقام تاريخا يليق أن يكتب فى هذا المقام وهو هذا:

نظم

جـــدد السلطـــان مـــراد بــن سلـــيم
مسجـــــد البيـــت العتيـــق المحتـــــرم
ســــــر منـــه المسلمـــــون كلهـــــم
دام منصـــــور اللـــــواء والعـــــلم
قـــال روح القـــدس فـــى تاريخـــــه
عمـر السلطـان مــراد (هــذا الحــرم)
سنة ٩٨٤

وهذه صورة التاريخ اللطيف الذى كتبه مولانا سيد حسين بن أبى بكر الحسينى مفتى مكة المكرمة الشافعى، وكتبه منثورا وقد أعجب به أهل مكة المعظمة لبلاغته السلسة، وعلق على جدران المسجد الحرام الشرقية أيضًا.

عربى

باسمه سبحانه: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ (التوبة: ١٨) فى عمارة هذا المسجد الشريف وتجديده من اختار الله سبحانه من خلقه وعبيده المقدس المرحوم المغفور له الشهيد سلطان الإسلام والمسلمين، خاقان خواقين العالمين، العازم بفضل الله ظلال دار النعيم حضرة الملك الأعظم السلطان سليم نور الله تعالى ضريحه، وروح بروائح الجنات روحه، وأتم بناءه وأكمله ولقنه ونقشه وجمله، وارث الأفخم الإمام الأعظم وشقيقه الأكبر المعظم، والملك القاهر العرمرم، من ملكه الله تعالى شرق البلاد وغربها، وجعل طلوع يديه عجم الرعايا وعربها، وأطلعه سراجا منيرا فى المشارق والمغارب، وملكا مرفوع المقام على هرم الكواكب، ومشيد الإسلام حصنا حصينا محيطا، وجعل ظله يخيم على كافة الأنام بسيطا، وعدله الفريد فى جميع الوجود مبسوطًا، وقمع سلطنته

الشريفة طوائف الكفر والغلاء، وجمع له بين اليائس والنداء، وصار ملكه الشريف بعون الله سبحانه مفردا خليفة الله على كافة العباد، ورحمته الشاملة بجميع البلاد، سلطان سلاطين الزمان، خلاصة خواقين آل عثمان السلطان ابن السلطان السلطان الخنكار الأعظم مراد خان لازال الوجود بدووام خلافته عامرا، وبدا برج الإيمان فى أيام سلطنته قويا ظاهرا، زاده الله قوة ونصرا، وشد بملائكته الكرام له إزرا، فتاريخ إتمامه قد جاء (أطال الله من أتمه عمرا) فى سنة ٩٨٤.

الذيل

وبعد مرور ستة وثلاثين عاما على عمارة السلطان مراد للمسجد الحرام أمر السلطان أحمد خان الأول بتعمير جهات المسجد الحرام لاقتضاء الحاجة إلى ترميمها وذلك فى سنة ١٠٢٠[١].

وبعد قيام السلطان أحمد الأول بهذا التعمير بمدة وجيزة، لزم تعمير بعض المواضع فى أبنية الكعبة المعظمة والحرم الشريف، وعرض الأمر على السلطان مصطفى الثانى، فأصدر أمره بترميم ما يلزم ترميمه، وكانت خمسة مداخل فى السقف الشريف قد بليت فبدلت كلها، وجدد السلم الذى يفضى إلى سطح الكعبة بأن جعل سبع درجات من درجاته من الرخام، كما محا آثار البلى عن جوانب الحجر الأسود الأربعة، فهدمت وجددت وقد قدمت والدة السلطان كل ما أنفق لهذه العمليات.

وفى عصر السلطان عبد الحميد الأول بليت بعض أعمدة المسجد الحرام وبعض قبابه، فأمر السلطان بتغيير هذه الأعمدة وتعمير القباب، كما رممت مئذنة باب العمرة والمآذن الأخرى بعض الشىء، إلا أن معالم المسجد الحرام احتاجت إلى الإصلاح والتعمير والتسوية بعد فترة.

(١) أراد المرحوم السلطان أحمد أن يسدى خدمة لم يقم بها أحد، وذلك بتجديد كعبة الله جاعلا إحدى أحجارها فضة والأخرى من ذهب، ولكن سعد الدين أفندى زاده ومحمد أفندى شيخ الإسلام فى ذلك الوقت رد على السلطان قائلا ولو أراد الله لجعل كل أحجار الكعبة من الياقوت فانثنى السلطان عن فكرته.

وفى السنة الميمونة التى وفق فيها السلطان مراد على تعمير بيت الله، وتم إصلاح وتعمير الأماكن التى احتاجت إلى التعمير والإصلاح وذلك فى سنة (١٠٤٥).

وبعد ما أجرى مراد الرابع من إصلاح - أى من عام (١٠٤٥) إلى عام (١٠٨٠) - عمرت الأماكن التى قد اقتضى الأمر تصليحها شرعا، ولم يترك فيها موضع للإصلاحات الكبيرة، وقد اهتم بكل شىء سواء أكانت مبانى المسجد الحرام، أو كانت المواقع الأخرى من مدينة مكة المعظمة وما فيها من المآثر اللطيفة.

أمر السلطان محمود والى مصر محمد على باشا بإجراء كل ما يلزم إصلاحه فى الأماكن المقدسة التى دعت إلى تعميرها الضرورة الشرعية توا بلا استئذان، وفى أواسط عام (١٢٣٥هـ) عرف محمد على باشا أن الخلل طرأ على سقف الكعبة إذ تخلخلت بعض الألواح الرخامية، وأخذت المياه المجتمعة فوق سطح الكعبة طريقها إلى داخل بيت الله، وتبين وجوب ترميم وإصلاح كثير من المواضع خارج الحرم الشريف، وفرش سقف كعبة الله بالرخام المجلى الذى أرسل من إستانبول بناء على الطلب الذى قدم هناك، ودفنت الحجارة القديمة التى كانت تغطى سطح البيت فى حفرة حفرت بالقرب من بئر زمزم، وذلك بناء على رأى الشيخ عمر عبد الرسول وهو من الصلحاء المشهورين.

وبعد تعمير المسجد الحرام عمرت قبة مسجد الخيف الكائن فى منى ومئذنة مسجد المشعر الحرام(١) ومسجد نمرة(٢) الذى يطلق عليه اسم مسجد إبراهيم، ومسجد غار المرسلات(٣) ومسجد الإجابة(٤) ومسجد الجن(٥) ومسجد التنعيم(٦)

(١) هذا المسجد اللطيف فى المزدلفة.

(٢) مسجد نمرة فى ساحة عرفات.

(٣) فى منى والناحية الجبلية من مسجد الخيف.

(٤) فى المعلى

(٥) فى جهة المعلى.

(٦) فى العمرة.

ومسجد الحديبية[1] ومسجد مولد النبى[2] ومقبرة خديجة الكبرى[3] ومقبرة آمنة[4] ودار السيدة خديجة الكبرى مع أضرحتها وقبابها[5] ودار خيزران[6] وضريح ميمونة[7] كل هذه المآثر قد جددت بإحكام، وفرشت من الداخل بطنافس غالية وزينت من الخارج بنقوش ملونة، وفى النهاية بدلت عدة أعمدة من أعمدة المسجد الحرام التى أوشكت على الخراب وذلك فى سنة (١٢٣٥).

وكان السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان العادل قد بدل الأحجار التى تخلخلت داخل كعبة الله وحول الحجر الأسود الأسعد. كما جدد بعض القباب والأعمدة التى تحمل هذه القباب وأنشأ الأرصفة[8] التى تؤدى إلى باب على والمدرسة السليمانية والتى تمتد عبر الساحة القبلية للحرم الشريف، وبعد ذلك بسنة أرسل أربعة شمعدانات عالية على شكل النخلة لتوضع على الجهات الأربعة من الساحة القبلية للمسجد الحرام، وهكذا أنار الحرم الشريف وقبل إرسال هذه الشمعدانات كان الناس يؤدون صلواتهم فى الظلام ليلا، وبعدما أنار السلطان عبد المجيد أطراف الكعبة المعظمة كما ذكر، شيد بإحكام بعض أعمدة القباب التى آلت إلى الخراب وجدد الجدران التى حول مقبرة المعلى دائرا ما دار، كما أصلح الجدار الخارجى للحطيم.

وبما أن جدار الحطيم كان جديدا رأى الأهالى أنه لا مساغ شرعا لتجديده، إلا أن والى جدة عثمان باشا (وكان أمين البناء) فى ذات الوقت لم يهتم بما يقوله الأهالى، فجدد ذلك الجدار كما يحلو له، وبعد ما أتم عثمان باشا إصلاح جدار

(١) فى وسط الطريق بين مكة وجدة.
(٢) فى داخل مكة.
(٣) فى مقبرة جنة المعلى.
(٤) هذا أيضًا فى المقبرة المذكورة.
(٥) فى نفس مكة.
(٦) هذا أيضا فى داخل مدينة مكة.
(٧) بين وادى فاطمة ومسجد عمر.
(٨) وكان موضع الأرصفة أرضا رملية.

الحطيم أتجه إلى مخزنين للمهمات[1] في ساحة المسجد الحرام وعمرهما، وجعل أحدهما دارا للميقاتى والآخر مكتبة[2] وجلب لها كتبا كثيرة من إستانبول، وهكذا زين تلك المبانى وفى النهاية جدد مبانى مسجد الخيف، ثم جدد المسجد الكائن فى الطائف، وضريح عبد الله بن عباس (رضى الله عنهما) كما جدد بإحكام مقبرتى (طاهر) بن الرسول ﷺ ومحمد حنفى[3] بن على (رضى الله عنهم) وذلك فى عام (١٢٦٢).

بعد العصر المذكور بمدة صدر الأمر السلطانى بتجديد الدار التى شهدت مولد النبى ﷺ، ومسقط رأس الصديق، وسقط رأس على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وكذلك الأضرحة ومقابر الشهداء التى فى طريق العمرة، وضريح السيدة ميمونة ﷺ ومسجد مذبح إسماعيل (عليه السلام)[4]، وعمر سبيل باب الصفا الذى كان قد اتخذ دار خلاء، فجعل دار أبى جهل وأبى اللهب فى باب النبى دارين للخلاء، وجدد غطاء مقبرة أم المؤمنين ميمونة (رضى الله عنها)، وبنى سبيلين أمام ضريحها، وألحق بعض الحجر بالدار التى ولد فيها أبو بكر رضى الله عنه، واختصها بالخدم، وجدد منازل الخدم التى تتصل بمسقط رأس حمزة (رضى الله عنه) وذلك فى سنة (١٢٦٢).

رؤيا عثمان باشا

بينما كان عثمان باشا ينهى عمليات ترميم دار مسقط رأس حمزة، رأى فى منامه أن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد شرف داره بالزيارة، وفسر الذين سئلوا عن تفسير الرؤيا ما رآه عثمان باشا فى منامه بأن حمزة ـ رضى الله عنه ـ قد سر وابتهج من تعمير مسقط رأسه، وعلى هذا قد ذبح الباشا المذكور كثيرا من القرابين على أنها من قبل السلطان، ووزع لحومها على الفقراء والمساكين، وبما

(١) كان اسم المخزنين قبة الفراشين.

(٢) وفى عام (١٢٩٨) كل من دار الميقاتى والمكتبة.

(٣) محمد بن على بن أبى طالب، أبو القاسم بن الحنفية ـ نسبة لأمه من بنى حنيفة ـ المدنى، ثقة عالم، مات بعد سنة ٨٠هـ. انظر: تقريب التهذيب ٢/ ١٩٢.

(٤) فى منى.

أن مذبح إسماعيل كان خاليا من الجدار فأحيا ذلك المكان ببناء الجدار، كما أنه هدم البيت الخاص ببنى شيبة، وأنشأه من جديد، وبهذا استجلب دعوات الأهالى والزوار بالخير للسلطان سنى المناقب وذلك فى سنة (١٢٦٢) وظلت مبانى المسجد الحرام بفضل هذه العمارة أربعة وثلاثين عاما بعيدة عن الخلل؛ إلا أن رخام المطاف وأماكن أخرى احتاجت إلى التعمير، وبناء على هذا جدد الرخام المذكور وكذلك الأحجار التى فرشت بها تحت القباب، وكذلك الأحجار التى فرشت بها أرضية بيت الله أو أصلحت إلا أن مبانى المسجد الحرام ظلت بعيدة عن المساس وذلك فى سنة (١٢٩٣) وفى تعمير أحجار داخل الكعبة وتجديدها نظم مفتى مكة الشافعى أحمد دحلان أفندى هذا التاريخ:

لسلطاننا عبد المجيد محاسن
ومن ذا الذى بالحَصْرِ يقوى عدد
وقد حاز تعمير الباطن كعبة
وتاريخه بيت مزيد يجدد
بناء بدا زهوا لداخل كعبة
وسلطاننا عبد الحميد المجدد

ورأى مهندس البلدية الذى عهد إليه بالتعمير أن بعض الأماكن المقدسة أشرفت على الخراب، وعرض ذلك على المسئولين مع الخريطة التى رسمها للأماكن التى يلزم تعميرها.

ولكن الزمن لم يكن مساعدا لكل هذا العمل والتزم ألا يفتح الباب لنفقات باهظة لتعمير سطحى وتسوية قليلة. وفى الخريطة التى وضحت الأماكن التى تحتاج إلى التصليح فى المسجد الحرام رئى تجديد وترميم عدة أعمدة قائمة أمام محفل الشافعية والمدرسة الداودية وباب إبراهيم (الزيادة)، ليعنى إصلاح أربعة أعداد من الأعمدة الرخامية التى تحمل القبب الحجرية التى فى الساحة الرملية

من باب العمرة، وكذلك ثلاث قبب ملاصقة للمدرسة اليمانية التى تلاصق باب إبراهيم (الزيادة)، يعنى أن الأعمدة الثلاثة التى تعد كأرجل تحمل عقود القبب التى قد برزت عن مستواها وأوشكت على الانهيار بغتة، وكما بدا أن ترميم تلك الدعائم سوف يكلف (٧٥٠٠٠) قرش ولذلك صرف النظر عن إصلاح المظلة الشافعية، ورئى أن يدعم الأعمدة الثلاثة التى أمام المدرسة الداودية والثلاثة أعمدة الواقعة بجانب قصر نقيب السادات بدعامات وقتية ومساند؛ لأن إبقاءها على حالها كان خطرا، وفعلا اتخذ الإجراءات اللازمة لذلك وبهذا أعيد للناس ما سلب منهم من الشعور بالأمن وذلك فى سنة (١٢٩٦).

وقد أدرك بعد تنفيذ القرار السابق بعامين أن الأعمدة الستة ستنهار بغتة، وأن إبقاءها على تلك الحالة فى المسجد الحرام غير لائق، وسيثير قلق المسلمين ولاسيما أولئك الذين يعيشون تحت إدارة الدول الأجنبية من إخوان الدين.

لذا رأى عثمان نورى باشا والى الحجاز وقائد جيش الدولة العثمانية فى الحجاز أن يكشف وأن يعاين بدقيق الفحص تلك الأعمدة من قبل ضباط أركان الحرب من جديد، ثم بعث بنتيجة الفحص مع الخريطة السابقة التى رسمت من قبله إلى الباب السلطانى، واستأذنه فى تعمير تلك الأعمدة، ولما وصل الإذن السلطانى أمرًا بهدم تلك الأماكن عين القائم مقام صادق بك كبير مهندسى عين زبيدة للقيام بالبناء.

وفى غرة رجب عام (١٢٩٩) شرع صادق بك فى إيفاء ما كلف به فهدم القباب المذكورة وبسهولة جر الأعمدة الرخامية التى ترفع العقود بواسطة آلات الجر وربطها فى أماكنها بأوتار حديدية ربطا محكما، ثم أقام عليها القباب طبق أصول الفن المعمارى، وبذلك رفع الخطر الذى كان يهدد الناس فى داخل الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣١١).

بينما كان صادق بك مشغولا بإقامة القباب المذكورة رأى أن الأعمدة التى تحمل القبتين اللتين أمام باب على ومتصلتين بالساحة الرملية تزحزحت

أعمدتهما، فأخبر بذلك عثمان باشا وتلقى منه الأمر بالإصلاح فهدمها وأقامها وفق الفن المعمارى والقاعدة الهندسية بصورة متينة رصينة وذلك فى سنة (١٣١٩).

وقبل الدخول إلى الحرم الشريف من باب إبراهيم كان هناك ثلاث درجات وفى وسط القبتين حجر فى طرفيه درجات الارتقاء والنزول، وقد جعلت بطريقة سيئة مما كان يسبب لجماعات المسلمين فى طلوعهم ودخولهم مشقة كبيرة، وعند إدخال الجنازات فى الحرم كان بعض المسنين الضعفاء يسقطون على الأرض تحت الأقدام و يضجون بالصراخ.

ولما أبلغ الأمر من الأهالى والمجاورين إلى عثمان باشا أمر بهدم ذلك المكان وتجديده وتوسيعه، فجدد كما ينبغى فسهل الصعود والنزول وذلك فى عام (١٢٩٩).

وكان فى الطرف الشرقى للكعبة وبالقرب من بئر زمزم فى جهة باب على قبتان يرجع عهدهما إلى زمن قدماء الملوك، وكانت مساحة كل قبة ستة أمتار مربعة فأمر السلطان عبد المجيد والد السلطان فى عام ١٢٦٢ بتحويل أحد القبتين إلى بيت للميقاتى والأخرى إلى مكتبة، ولكن وجود هاتين القبتين كان يضر بالحرم الشريف، ويحول دون رؤية المصلين الذين يصلون أمام باب على وباب عباس للكعبة الشريفة.

كما أن مياه السيول المتراكمة فى وادى إبراهيم عندما تهطل الأمطار كانت تدخل إلى داخل الحرم الشريف وتتلف كتب المكتبة القيمة، وبناء على ذلك وقبل سبعة عشر عاما أى فى عام (١٢٨٤) أفتى شيوخ المذاهب الأربعة بهدم هذه الأبنية ونقل ساعات الميقاتى وكتب المكتبة إلى أماكن مأمونة، وتخصيص ذلك المكان لأداء الصلاة فيه و رغم أن الفتوى كانت بإجماع الآراء وقد حازت موافقة السلطان؛ إلا أنها لم تنفذ إلى الآن لسبب مجهول، ولكن عثمان باشا أمر بنقل مكتبة المدرسة السليمانية ودار التوقيت إلى مكان مناسب فى ناحية باب النبى، وتسوية أرضيهما وفرشها بالرمال وذلك فى سنة (١٣١٩).

إن المكان الذى نقلت إليه المكتبة قبة كبيرة تقع فى الجهة اليمنى عند الدخول إلى المدرسة السليمانية، وكانت هذه القبة تعرف بدار الحديث، ولكنها تعرف الآن بدار أحمد باشا.

وبناءا على ذلك عمر ما يجب تعميره من دار الحديث، وجلب لها القدر الكافى من الدواليب والرفوف الزجاجية، ووسع بابها ووضعت اللوحة الرخامية التى عليها التاريخ والتى كانت موضوعة فوق باب المكتبة القديمة فوق باب المكتبة الجديدة، هكذا أصبحت المكتبة الجديدة مكتبة جميلة مزينة بالنسبة للمكتبة القديمة[1].

تاريخ المكتبة

إن الدعاء واجب ليل نهار على أهل الإسلام كافة
وهم يشهدون آثار خير السلطان عبد المجيد خان
إن ذلك الوزير المجتبى يسعى على الدوام مسعاه
فيجلب دعاء الخير لأسرة آل عثمان
إنه شريف باشا الأكرم الملقب بشيخ الحرم
ففى كل أيام ينال الخير والإحسان
ياحسن دار الكتب تلك التى أحسن
فيها توسيع المكان
أذاع شوقى لها التاريخ جوهرا
مخبرا بفتح المكتبة أهل العرفان

فى عام ١٢٦٢.

(١) قد اتخذت القبة الثانية التى تقع بجانب المكتبة خزينة الحجاز، وعندما أنشئت دار خزانة على مايرام فنقلت الخزينة إلى مكانها الجديد. وتقرر أن يتخذ هذا المكان دارًا للعلوم من قبل الحكومة. وإن كانت المدرسة السليمانية لها قبتان أيضا إلا أنهما اتخذتا محكمة شرعية منذ فترة طويلة.

فى تلك المكتبة (٣٥٥٣) كتابا أرسلت من قبل السلطان عبد المجيد، ويتولى أمانة هذه الدار الشيخ محمود أفندى من مدرسى الحرم الشريف يعاونه رفيقان من الموظفين.

وإن كان للصدر الأعظم الأسبق محمد رشدى باشا الشروانى (١٣٦٢) مجلدا من الكتب تحت حفظ أمين المكتبة محمد رشدى الداغستانى وسيد على، إلا أن هذه الكتب مودعة فى مدرسة خاصة فى مواجهة الحرم الشريف.

وتقع دار التوقيت فى اتصال السلم الذى فى داخل الحرم الشريف، ويدخل فيها من هذا السلم وقد بنيت مبانى دار التوقيت، فهى تحت الرواق وفوق دكة النساء وعلى بعد مترين من جدار الحرم الشريف، وقد أسس على شكل شبه منحرف وعلى هيئة غاية فى الجمال.

ولدار التوقيت ثلاث نوافذ ويبلغ عرض كل واحدة منها مترا وطولها مترين، وقد فتحت إحداها بثقب جدار الحرم الشريف، وترى منها مدرسة الخاصكية، وفتحت نافذتان منها، ينظر منها إلى كعبة الله من داخل الحرم الشريف، فالذين يمرون بالمسعى يضبطون ساعاتهم ناظرين من النافذة التى تواجه مدرسة الخاصكية، والذين فى داخل الحرم الشريف يضبطونها ناظرين من النافذتين اللتين فى ناحية كعبة الله.

إن حجر التاريخ القديم الخاص بدار التوقيت قد وضع فوق النافذة التى تطل على شارع المسعى، وقد جددت زخرفته وألوانه كما جددت زخرفة وألوان حجر التاريخ الذى وضع فوق باب المكتبة.

بما أن ألوان طلاء الرواق المطل على الساحة الرملية قد محيت وتعذرت قراءة خطوطه، وبذلك قبح منظره داخل الحرم، وذلك عند تعمير وإصلاح أعمدة القباب التى فى ناحية باب العمرة وباب إبراهيم زيادة وباب على، ولتغيير هذا المنظر جدد طلاء الرواق وأسماء الجلالة التى بين الرواقين مع الخطوط الكائنة فى

ناحية باب السلام وباب إبراهيم، وطليت أرضيتها بلون أخضر داكن وأسماء الجلالة مع الخطوط طليت بلون أصفر شبيه باللون الذهبى، ورمم وأصلح طلاء الجدران وذلك فى سنة (١٢٩٩).

وبعد ما وفق عثمان باشا فى ترميم هذه الأماكن جعل المقام الحنبلى الذى كان يواجه الحجر الأسود بين الحجر الأسود والركن اليمانى، أو مقابل المقام الحنفى، ورمم وأصلح الأماكن الأخرى من حرم المسجد الحرام على أحسن وجه، وطلا جميع جهات الحرم الشريف وذلك فى سنة (١٣٠٠).

إن الحرم الشريف الآن فى شكل مستطيل، وإن الكعبة المعظمة تقع فى وسط المسجد الحرام، وبئر زمزم فى الجهة الشرقية الجنوبية لباب كعبة الله، ومقام إبراهيم فى الجهة الشمالية من باب الكعبة، وحجر إسماعيل فى الجهة الشمالية للبقعة المفخمة، والمقام الحنفى مقابل ذلك، والمقام الشافعى خلف مقام إبراهيم، والمقام المالكى فى الجهة الغربية من البيت الشريف، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية من البيت المنير الشريف فى اتصال مقام إبراهيم من الجهة الغربية، وكان فى ناحية باب أجياد وفى اتصال العمارة المصرية المدرسة المجيدية غير تام الإنشاء، وقد حول عثمان باشا هذه المدرسة إلى دائرة حكومية لسكنى المواطنين، وحول القلعة الهندية إلى معسكر يسمى غيرتيه، وجدد المعسكر السلطانى للمدفعية وقسم الشرطة الكائن أمام باب على، وخصصهما كلهما لإقامة جنود السلطان الموعود بالنصر. إن معسكر غيريته فوق الهضبة التى تتصل بجبل الترك الواقع فى الجهة الغربية من مكة المكرمة، وقلعة جياد فوق هضبة واقعة فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة والعسكر السلطانى للمدفعية كأنه فى وادى المعسكر الواقع فى جياد مستشفى قلعة الفلفل فى الجهة الشرقية من جبل الترك، وقسم الشرطة الرئيسى فى الصفا، والمعسكر الحميدى السلطانى والدوائر الحكومية الضخمة الكائنة فى مكان قريب من باب أم هانئ.

* * *

تحتوى على أربع صور تعرف بالتفصيل بالهدايا والتزيينات وأصحاب المعلقات العتيقة والكساوى والقناديل والأشخاص الذين أهدوا لتلك البقعة المقدسة هدايا ثمينة والذين شرحوا مسائل جواز إهداء الكسوة

ومما يتكون المحمل الشريف وماذا يعنى فى لسان العامة؟

فى ذكر الذين قدموا الهدايا لكعبة الله وزينوها والذين رمموها وعمروها عند الضرورة

وكان باب كعبة الله قبل أن يهاجر النبى ﷺ، إلى المدينة المنورة بأربعمائة عام تقريبا من غير مصراع، وقد ركب أبو كرب بن أسعد الحميرى من ملوك اليمن قبل الهجرة النبوية بسبعمائة عام على باب كعبة الله مصراعا فوقه قفل.

وكان الباب الذى ركبه أبو كرب قطعة واحدة ويشق استعماله، وأراد قصى بن كلاب أن يزيل الصعوبة ويسهل الفتح والغلق، فقسم ذلك الباب إلى جناحين، لكن الذين أتوا بعد قصى حولوه لقطعة واحدة.

ولما جدد عبد الله بن الزبير كعبة الله جعل باب الكعبة بمصراعين، وطلا باب كعبة الله والأعمدة الداخلية للكعبة وسطح الكعبة وسقفها بالذهب، وصنع مفتاحا من ذهب لقفل باب الكعبة فى سنة ٦٤ هجرية.

وغير الحجاج الظالم مصراعى باب كعبة الله اللذين صنعهما عبد الله بن الزبير، ورفع عتبة باب الكعبة عن الأرض ستة أقدام وأربع بوصات.

وجعل طول الباب تسعة أقدام وبوصتين وزخرفه[1]، وزخرف «عبد الملك بن مروان» من ملوك بنى أمية باب الكعبة المعلى للمرة الثالثة، كما أرسل ابنه الوليد إلى خالد بن عبد الله والى مكة ستة وثلاثين ألف دينارا ليجدد زخارف الميزاب اللطيف وأعمدة باب الكعبة الداخلية فى سنة ٨٩، كما أن محمد الأمين بن هارون الرشيد من الخلفاء العباسيين أرسل إلى واليه فى مكة سالم بن الجراح

(١) وفى عهد ابن الزبير كانت عتبة باب المعلى للكعبة فى مستوى أرض المطاف، وكان ارتفاعه (١٥ قدما و٦ بوصات) وعرضه (٦ أقدام و٤ بوصات).

ثمانية عشر ألف دينارا ذهبيا، ليجعل مسامير باب الكعبة وحلقاته من الذهب الخالص وذلك فى سنة ١٩٥، ثم اقتلع ذهب الأعمدة التى أمر وليد بن عبد الملك بتذهيبها وأعاد تذهيبها على شكل أفضل.

وإن كان سالم بن الجراح قد عمر وزين الأماكن التى سبق ذكرها بثمانى عشرة ألف قطعة ذهبية أرسلت من بغداد، إلا أنه أذاب الألواح الذهبية التى تغطى مصراعى باب الكعبة، واستعملها وقد صرف على الألواح التى ركبت ثلاثا وثلاثين ألف قطعة ذهبية، وغطى مصراعى الباب وقت اقتلاع الألواح بستارة من قماش أصفر، وإلى عهد المتوكل بالله العباسى[1]، كانت زاويتا الكعبة فى الداخل الزوايتين الفضيتين من ذهب أيضا، فاستجاب المتوكل بالله وأرسل إسحاق بن سلمة وهو صانع بارع فرصع زوايا كعبة الله الأربع على نسق واحد كان ذلك عام ٢٤٤، وزين الستارة الداخلية بحزام من فضة عرضه ثلاثة أذرع ثم أدخل إلى الحزام مقطعا من ذهب خالص، كما أنه أصلح عتبة باب الكعبة المصنوعة من خشب الساج وغلفها بألواح فضية.

وبناء على ما يروى من الصانع المذكور أنه قد أنفق على الزوايا الأربع والمنطق الذهبى ثمانين مثقالاً ذهبًا، وللحزام وألواح الباب ستين أوقية ونصف يعنى (١٤٢٠) درهما من الفضة.

وما أرسل إلى بيت الله من الهدايا وأدوات التزيين الغالية تعظيما له بعد المتوكل بالله، ما فى الأبواب والزوايا من ألواح ذهبية وفضية اقتلعها ولاة مكة وحولوها إلى ذهب ونقود، وأرادوا أن يخمدوا الثورة التى اندلعت فى سنة ٢٨١، وبهذه الطريقة تركوا كعبة الله فى مثل البناء العادى وقد جدد المعتضد بالله أول ما اقتلع، وصرف من تزيينات كعبة الله وأعادها إلى حالتها السابقة وذلك فى سنة ٢٨٣.

كما أن لؤلؤ غلام والدة الخليفة المقتدر بالله قد جدد وعمر داخل بيت الله وخارجه وأعمدته اللطيفة بإيعاز من سيدته وذلك فى عام ٣١٠.

(١) وهو أول من اتخذ الشافعية مذهبا له من خلفاء بنى عباس.

كما أن جمال الدين جواد من وزراء الملوك المصريين أرسل خمسة آلاف قطعة ذهبية، فنظم وذهب الطلاء الداخلى لكعبة الله، وجدد أبواب المسجد الحرام كلها وذلك فى سنة ٥٤٩.

كما أن جمال الدين جواد قد جدد مصراعى باب الكعبة اللذين كانا ركبهما الحجاج بن يوسف الثقفى.

وبناء على الأمر الوارد التقى قاضى مكة مع ناظر الحرم الشريف وأرسل الباب القديم بناء على توصية أمير الحرمين قاسم ابن هاشم إلى حاكم مصر المقتفى بالله(١) ووهب الخليفة المشار إليه ما انتزع من فضة من فوق ذلك الباب إلى أمير مكة المعظم قاسم بن هاشم.

وقد وصى المقتفى بالله أن يصنع من ذلك الباب تابوتا ويدفن معه متبركا به وفعلا قد نفذت وصيته عند وفاته.

وفى عام ٩٥٦ ذهب وزخرف البقعة المباركة لكعبة الله حاكم اليمن الملك المظفر الغسانى، وبعده حفيد الملك المظفر الملك المجاهد.

وفى سنة ٧٣٥ أرسل ملك مصر ناصر بن محمد قلاوون الصالحى(٢) خمسة وثلاثين ألفا من ذهب مصرى، وفى سنة ٧٧٠ حفيد الملك ناصر أشرف صرف نقودا لا تحصى، وهكذا جدد كل واحد منهم عقب الآخر الطلاء الذهبى لكعبة الله وزخرفوها، وجدد ناصر بن محمد بن قلاوون الصالحى الباب الذى صنعه الملك المظفر، كما أن الملك المظفر الغسانى كان قد جدد الباب الذى صنعه جمال الدين ابن جواد.

(١) اسم المقتفى بالله محمد أبو عبد الله واسم أبيه المستظفر قد رأى هذا الشخص فى رؤياه قبل جلوسه على كرسى الخلافة بستة أيام سلطان الرسل ﷺ، وقد وجه له النبى ﷺ خطابا فقال له «يا محمد يظهر أنك ستنادى خليفة عما قريب وعندئذ يجب عليك أن تقتفى أثرى، وبناء على ذلك لقب بالمقتفى بالله.

(٢) كان مصراعا الباب القديم اللذين جددهما الملك الناصر من خشب الساج، وكان عرض كل لوح خشبى ذراعا واحدا.

وقد تحدث القطب المكى من مؤرخى مكة عن مصراعى باب الكعبة اللتين غلفهما الملك الأشرف بألواح فضية، وبعد أن وصف بالتفصيل متانة مصراعى الباب وجمال صناعتهما فى تاريخه القيم الذى ألفه، قال: «كان بعض اللصوص يتحينون فرصة ليسرقوا ألواح باب كعبة الله الفضية بعد قلعها، وقد سرقت عتبة بيت الله وأصبحت عارية، وقد قبض على اللصوص المتجاسرين مرات وأخذوا بالعقاب، إلا أن استمرار سرقة زينة بيت الله الخارجية وأيلولة سطح بيت الله إلى الخراب، وأصبحت قطرات المطر تنفذ من سقف البيت، جعل بعض أهل البصيرة الذين اطلعوا على حقيقة الأمور يرفعون أصواتهم جازعين هالعين.

ولذا أتى إلى مكة المكرمة شيخ القاهرة حمد الله أفندى بنية الحج ورأى ما حل بالسطح الشريف من خراب، وذلك فى عام ٩٥٨ أو ٩٦١ هجرية، لقى قاضى مكة محمود جلبى أخا زوجه وتشاور معه ورأيا أن الأمر يجب أن يعرض على باب السعادة، وأوصيا إمارة مكة المكرمة وولاية الحجاز بذلك، وسعى مسئولو الإمارة والولاية بإبلاغ أمر وجوب التعمير إلى الباب السلطانى وما كان من السلطان سليمان بن السلطان سليم خان إلا أن استصدر فتوى تنطق بضرورة تعمير بيت الله من سلطان العلماء أبو السعود أفندى، وأرسل هذه الفتوى إلى أمير أمراء مصر، وأمره بأن يعمل على تعمير بيت الله سريعًا بمجرد ورود الأمر السلطانى، وفتوى المشيخة السلطانية.

وبادر على باشا أمير الأمراء بإرسال الأمر السلطانى والفتوى الشرعية إلى قاضى مكة أحمد جلبى، وذلك فى سنة ٩٥٩، وتشاورا كثيرًا بخصوص الموضوع ثم استدعيا وجمعا أعيان مكة وأكابرها وعلماء المذهب الحنفى والشافعى الفضلاء، وتليا الأمر السلطانى الوارد عليهم ثم أخذوا يتذاكرون كيفية تنفيذ الأمر السلطانى، ثم قرروا معاينة وكشف السطح الشريف عقب صلاة الجمعة ١٤ من شهر ربيع الأول سنة ٩٥٩، وقال أحد الموظفين الذى عين للكشف

(١) كان هذا الشخص قد عين ناظرًا لعمارة البيت من قبل والى مصر، كما أن مصطفى جلبى الأشول كان قد عين موظفا فى ديوان كتابة تلك العمليات ويقال له أحمد جلبى المقاطع، ومن مؤلفاته ترجمة روضة الشهداء «سعادت نامه» ومخلصه جامى.

بموافقة الجميع بعد المعاينة، قطعة من العمود الخشبى هبطت اثنى عشر خطا عن سائر الأرضيات، كما أن خشبة من طرف الباب تخلخلت عن مكانها وهبطت تسعة خطوط عن مكانها ولم تعد صالحة للاستعمال، وإذا لم تصلح وتعمر من الآن فمن الممكن أن يسقط السقف كاملا فجأة وصدق زميله الآخر على ما قاله، وبناء على ذلك شرعوا فى تعمير السطح الشريف يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٩٥٩.

وخالف بعض علماء مكة موضوع التعمير قائلين يجب أن يترك البيت المعظم بدون تعمير وتصليح ما لم تسقط على الأقل جهة من جهاته توقيرا للبيت، وحثوا عامة الناس على النزاع وأرادوا أن يوفقوا بين مُدَّعاهم والأقوال الأخرى، وكادت أن تحدث فتنة عظيمة؛ إلا أن مولانا الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى الشافعى ألف كتابا أسماه «المناهل العذبة فى إصلاح ما وهى من الكعبة» رد فيه على آراء المخالفين، وخرج مسائلهم ونقل فى كتابه المسائل التى تجيز التعمير فى كتاب «استقصاء البيان فى مسألة الشادروان» للمحب الطبرى والكتب الأخرى للسلف الصالح.

كما أضاف إلى كتابه ما روى عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ من الحديث الشريف الذى يجيز تعمير كعبة الله المعظمة، إلا أنه لم يستطع إسكات الذين يؤيدون العلماء المخالفين وإقناعهم، وعندئذ أبلغوا الأمر إلى أمير الحجاز مولانا سيد شريف أحمد بن أبى نمى الذى كان فى البرية، فعاد من البرية واستدعى إليه مولانا الشيخ محمد ابن الشيخ أبى الحسن البكرى، وطلب منه أن يفسر الآية الجليلة ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ** ﴾ (البقرة: ١٢٧) أمام كعبة الله.

وحضر هذا المجلس الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الشافعى الذى سبق ذكره والشيخ نور الدين بن إبراهيم العسلى والقاضى الحسنى بن فايز بن ظهير ومفتى الحنفية قطب الدين بن علاء الدين.

وبناء على رجاء سيد شهاب الدين أحمد بن أبى نمى أخذ الشيخ أبو الحسن البكرى يفسر الآية التى سبق ذكرها بلسان فصيح، وبيان صحيح وختم التفسير

ببيان المسائل التى تجيز التعمير، ثم قام عقب ذلك ناظر الحرم الشريف وقدم إلى الأمير الأمر السلطانى والفتوى الشريفة للمشيخة السلطانية، وفتح الشيخ المشار إليه الأمر السلطانى والفتوى وقرأهما على ملأ من الناس، ثم تساءل قائلا من هم الذين يخالفون أحكام هذه الفتوى ويتجرءون على تشويش أذهان الجمهور وتخديشها، إن هذه الفتوى ما هى إلا تعزيز لصحة تعمير السقف الشريف واستصواب ذلك، إن حكم هذه الفتوى وما تحتوى عليه يوافق تماما أحكام الشرع الشريف ويجب أن يبادر بتنفيذ ما جاء فيها والبدء فى العمليات الإنشائية بدقة. وبناء على ذلك صعد العمال الذين اختيروا من قبل وعاينوا الأماكن التى أشير إليها فى ورقة الكشف، وعمروا[1] بعض مداخل الأعمدة الخشبية على السطح والأماكن التى هبطت عن مستواها، مما يؤدى إلى سقوط السقف كله، كما بين ذلك المهندسون الذين كشفوا ذلك، كما سووا قطع الرخام التى على أرض المطاف والتى كانت فى حاجة إلى التعمير والإصلاح، وغيروا الرمال ذات الحصى الموجودة حول المطاف وعرضوا الأمر على الباب العالى، وقد شرح مولانا قطبى أفندى لذلك فى مصراع بديع قائلا:

مجدد بيت الله مالك الدول سليمان[2]

وبعد ما أرسل الباب العالى قدرا كافيا من الفضة لتعمير المحراب الشريف وباب الكعبة المعلى بالأمر السلطانى، جددت ألواح باب الكعبة الفضية بتلك الفضة، وسوى سطح الباب بمسامير فضية ثمينة، كما ركبت عليه أربع قطع من حلقات فضية، وغلف ميزاب الرحمة بالفضة وزخرفوا سطحه، وهكذا نفذوا الإرادة السنية للخلافة وذلك فى سنة ٩٥١، وفى سنة ٩٦٠ أرسلت قطعة فضية للميزاب وعند وصولها رفع الميزاب القديم، ووضعوا مكانه الميزاب الفضى الجديد وأرسل الميزاب القديم إلى باب السعادة للاحتفاظ به تبركا فى خزينة السلطان، كما سيبين فى الأمر السلطانى الذى سيأتى ذكره فيما بعد، وعرضوا الانتهاء من تعمير تلك البقعة المفخمة.

---

(١) وكان سطح كعبة الله قد عمر قبل ذلك فى سنة ٨١٤ و٨٢٤ وسنة ٨٢٦ و ٨٤٣ أربع مرات كما عمر بعد ذلك فى سنوات ١٠٢١ و ١٠٤٣ و ١٠٤٤ و١١١٥ و١٢٣٥ خمس مرات.

(٢) قد يكون هذا تعمية ذلك التاريخ ولغزها.

التاريخ اللطيف

الذى نظمه غبارى أفندى الشهير عند تجديد الميزاب

قطعة

يا مـولاى أنـت فيـض العالـم
بـدا فـى هـذا الميـزاب غيـض
أرونـى مـن ميـزاب فيضـك
فقد أصبح تاريخ (ميزاب الفيض)

وعند وصول الميزاب الفضى بدأ تعمير رخام المطاف والحرم الشريف والمنزل الذى ولد فيه النبى ﷺ وأتموا ذلك فى ٩٦٢.

هذه هى صورة الخطاب السلطانى الذى أرسله السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان يتضمن إرساله قطعا من الفضة لتجديد ميزاب كعبة الله وقطعتين من الثياب الثمينة إلى أمير مكة المكرمة السيد الشريف شهاب الدين أحمد أبى نمى تكريمًا له، وأن تحققت للأمير رغبته فى إرسال الميزاب القديم للتبرك. « . . . . وإلى الآن من يخرجون إلى أداء فريضة الحج وزيارة الروضة المطهرة بعون الله المتعال من الحجاج المسلمين يرغبون فى نيل سعادة مسح وجوههم بتراب الحرم النبوى الطاهر، ويسعون لتحقيق الدعوة الكريمة» ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٩٦).

بكل نقاء روحى ويصلون إلى الحرمين الشريفين والمقامين المتينين مهبط الروح الأمين ومنزل الوحى، قاطعين المسافات وطاوين المراحل، يصلون إلى أعظم بقعة حيث يمسحون وجوههم على ساحة المطاف المعظم، وهم يتضرعون فى عبودية تامة وخضوع شديد، ويشعر عندئذ كل واحد منهم كأنه سلطان الدنيا وملك العالم، وأنه علا فوق كل شىء ومع كل هذا يقف أمام المقام الإلهى بكل خضوع وذلة، متجردا من ملابسه التى يفتخر بها، ملتفا بملابس الإحرام داعيا متضرعا مستغيثا، والمسلمون فى تلك الحالة الروحية السابقة عليكم أن تعظوهم بالاستمرار فى الأدعية المستجابة لدوام دولتنا وعزنا وقوتنا، وعليكم أن تبذلوا

سعيكم فى وضع الميزاب الجديد ومستلزماته فى أماكنها، وذلك فى احتفال عظيم يحضره العلماء الصالحون والأشراف والأتقياء وأطفال المسلمين، وحسب العادة يتلون القرآن الكريم ويختمونه، ثم يتوجهون إلى الله ضارعين داعين لانتصار جيوشنا فى البر والبحر، وخذل أعدائنا اللئام وعندما يصل إلى مينائى جدة يَنبُع من مصر القاهرة ما أنعمنا به من الغلال والخيرات وما تقرر إرساله من جانبنا من صدقات ونذور، تحت وصاية أمير أمراء الحبشة المالى، وأميرنا الموثوق به عليكم أن تبذلوا كل الهمة لاستلامها، ونقلها على ظهور الجمال إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وحسن توزيعها على فقراء الحرمين حتى تنتظم معيشتهم ويستقرون وأرجو أن تبذلوا سعيكم لترميم بيت الله، وإتمامه على النحو الذى سبق توضيحه.

ولما أنكم نلتم رضانا أكثر من أجدادكم الكرام، ونالت أعمالكم استحساننا على ما أوفى إلينا رجالنا الموثوق بهم، فاستوجب كل هذا الثناء عليكم، وأملنا أن تظلوا راعين جانبنا خاضعين لنا كأجدادكم العظام، وأن تعملوا دائمًا على بذل الجهد لخير دولتنا، وإذ فاض كرمنا نحوكم رأينا أن نرسل لكم خلعتين فخمتين إحداهما من السمور، وهى خلعة فخمة عظيمة يحملها مع رسالتنا السلطانية قدوة الأماجد والأكارم مصطفى أغا من المسئولين عن مطابخنا دام مجده.

وعندما تصل هذه الأشياء عليكم أن تلقوها بكل عناية، وأن تلبسوا الخلعتين بكل فخر مظهرين خضوعكم وصداقتكم لدولتنا، وفق ما جبلتم عليه أبا عن جد، وأن تضعوا لوح الميزاب المبارك فى مكانه فى ساعة مباركة ميمونة، وأن ترسلوا إلينا بالميزاب القديم لنحتفظ به تبركا، وبناء على عاداتكم المرضية أن تداوموا مع الأشراف والعلماء وعامة الصلحاء بالدعاء لاستمرار دولتنا عزيزة قوية، وأن تعتنوا برعاية الحرمين الشريفين وصيانتهما بكل دقة وعناية حتى تنالوا رضانا التام، واحترامنا الموفور». انتهى.

وبعد تحويل الميزاب الشريف إلى الفضة بإحدى وستين سنة، بدله المرحوم السلطان أحمد خان من فضة مزخرفة بذهب خالص، وبعد ذلك باثنين وعشرين عاما زخرفه وزينه من جديد، وبعد مرور مائتين واثنين وستين عاما جدده

بالذهب والد السلطان الكثير المحامد المرحوم عبد المجيد خان فى سنة ١٢٧٣ وأمر بكتابة التاريخ الآتى:

التاريخ

جدد هذا الميزاب المنير لوجه الله الكريم الخبير سلطان البرين والبحرين المفتخر بخدمة الحرمين الشريفين، السلطان الغازى عبد المجيد خان ابن السلطان الغازى محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان، بعد ما وهن الميزاب الذى جدده جده السلطان الأعلى أحمد خان ـ عليه رحمة الله المنان ـ فى سنة ١٠٢١. اللهم رب أدم هذا البيت الحرام ببقاء دولة الإسلام، ما طاف ببيتك الأنام واحفظه من جميع الآلام، بجاه نبينا (عليه الصلاة والسلام) وهذا التجديد سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (١٢٧٣).

وفى ختام هذا الإصلاح غُطِّى مصراعا باب البيت بألواح من الفضة ثم ركب عليه خشبة مزخرفة بنقوش ذهبية وأربع حلقات فضية وكتب على أحد مصراعى الباب عبارة:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

كما كتب على الآخر هذه العبارة البليغة البديعة:

«أمر بتجديد هذا الباب العالى الجناب الفقير إلى الله تعالى الملك الوهاب، عبده الذى من عليه بسلطنة العرب والعجم وجعله خادما بهذا للحرم السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان فى سنة تسع وخمسين وتسعمائة ٩٥٩».

نظم أحد شعراء الزمان عند تجديد باب الكعبة المعلى هذا التاريخ السلس.

النظم

فاز مولانا سليمان الذى جدد

باب بيت الله فض وصفحا

فـــى زمـــان قيـــل فـــى تاريخـــه

قـــف فـــى بـــاب الله عـــلك تفلحـــا

فى سنة ٩٦٠

وقد كتبت فوق عتبة باب البيت العلوية بعد أن وفق السلطان سليمان فى تجديده بخط مثنى جلى الجملة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وكان فى ذلك الوقت لباب بيت الله قفل حديدى ذو حجم كبير ومسدس الشكل طويل، وعمر السلطان سليمان هذا القفل بألواح فضية وأمر بكتابة الجملة الدعائية بخط مثنى (يا مفتح الأبواب أفتح لنا باب رحمتك ومغفرتك)، وعندما تم تعمير السقف الشريف والمطاف اللطيف كلف غبارى أفندى أحد شعراء العصر بنظم هذا التاريخ السلس باللغة العربية، وقيد فيما يأتى وحفر فوق لوحة رخامية وذهب ثم علق على مكان مناسب فى داخل الحرم الشريف.

صورة التاريخ

الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٧).

تقرب إلى الله تعالى بتعمر بيت الله الحرام، من اختاره الله تعالى لخدمة الحرمين الشريفين، سلطان البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين، ملك العرب والعجم والروم والعراقين، السلطان ابن السلطان ابن السلطان العاشر من سلاطين آل عثمان، الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد خان تقبل الله أعماله وبلغ فى الدارين آماله.

البيت

خان سليمان خـادم الحرمين

وفى سنة ٩٦١

وقد جدد باب كعبة الله فى سنة (١٥٤٥) السلطان مراد خان الرابع بن السلطان أحمد خان الغازى، كما كتب فى الصورة الثالثة عشرة من الوجهة الثانية، لأن مصراعى باب البيت لم يجددا تجديدا كاملا بل عمرا وزينا على أحسن وجه وفى سنة (١٠٤٥)، وكان رضوان أغا قد كلف بتجديد مبانى بيت الله، وأمر أيضا بتجديد مصراعى باب بيت الله تعالى، ونحى جانبا بعض أشجار الصفصاف التى كان قد اشتراها من أهل مكة لتعمير سقف البيت الحرام، وفصل من هذه الأشجار مصراعى باب الكعبة، وعندما انتزع المصراعين القديمين علق على فتحة باب الكعبة ستارة مصنوعة من القطن.

وقد اقتلع من فوق مصراعى الباب المنتزعين (٣١,٨٠٠) فضة، فأذاب رضوان أغا هذه الفضة وصنع منها لوحين، وسمر أحد اللوحين، على واحد من المصراعين والآخر على المصراع الثانى، ثم صرف ألف قطعة ذهب وزخرفهما. وأنفق (٣٧٠٩٥) درهم فضة فى صنع عتبة وحلقتين لذلك الباب، وهكذا زين باب كعبة الله المفخمة على أحسن وجـه.

وبنـاء على هذا الحسـاب يكون باب الكعبة قد جدد تسع مرات، وذهب بالذهب الخالص اثنتـى عشـرة مـرة، أى أنـه جدد ثمـانى مرات قبـل السلطـان مراد الرابـع، وذهـب بعده ثـلاث عشـرة مرة.

وطول الباب الشريف ستة أذرع وعشرة أصابع، وعرضه ثلاثة أذرع وثمانى عشرة أصبعا.

سبب تسمية ميزاب الرحمة بالميزاب الذهبى

إن الذى ساعد على تجديد بيت الله للمرة العاشرة هو الوليد بن عبد الملك،

فعندما تولى عرش الحكم بعث إلى خالد بن عبد الله القَسْرِى[1] ثلاثين ألف قطعة ذهبية، وأمره بأن يذيب هذه النقود الذهبية، ويصنع منها ألواحًا يغطى بها مصراعى باب كعبة الله وميزاب الرحمة، خضع خالد بن عبد الله وبادر بإذابة قطع الذهب، وصنع كثيرا من الألواح الذهبية وغلف بها ميزاب الرحمة، أولا ثم مصراعى باب كعبة الله، وزين الأعمدة التى فى داخل كعبة الله وطلا الأركان الأربعة الداخلية للكعبة بما زاد من ذهب.

وبتغليف ميزاب الرحمة بالألواح الذهبية قد اكتسب منظرا لامعا مشعا، فأعجب الناس بهذا التذهيب الظاهرى وأخذوا يطلقون على ميزاب الرحمة الميزاب الذهبى، وظل ميزاب الرحمة يعرف بالميزاب الذهبى على ألسن الناس لفترة طويلة.

جدد المقتفى بالله العباسى تلك الألواح فى سنة (٥٤٢)، وفيما بعد حول الملك المؤيد الميزاب الشريف إلى خشب، وفى سنة (٨٤٣) جدد الأمير زين الدين الميزاب الخشبى إثر الملك المؤيد بخشب أيضا، إلا أنه زخرفه بطلاء ذهبى وزينه، وأصبح من عادة الملوك بعد ذلك تجديد الميزاب من حين لآخر، ولما زينه السلطان سليمان ـ طاب ثراه ـ بألواح فضية فى سنة (٩٦٠) أطلق عليه اسم الميزاب الفضى، إلا أن المرحوم السلطان أحمد[2] انتزع الميزاب ذا الألواح الفضية فى سنة ١٠٢١، وصنع ميزابًا غلف فوق الفضة بالذهب وفسيفساء بنفسجية اللون، وكان تحفة فنية رائعة، وعندما وضع ذلك الميزاب فى مكانه أصبح اسمه مرة أخرى الميزاب الذهبى.

ولما كان السلطان أحمد هو الذى قدم للكعبة الميزاب الجديد كان من إرادته السنية أن يرسل الميزاب القديم إلى باب السعادة للتبرك به، ولأجل ذلك أرسل مع أمير حج قافلة الشام التى جهزها بكل عناية، ووضع عليها الميزاب القديم،

(١) عامل بنى أمية على مكة حينئذ، ولاه عليها الوليد بن عبد الملك سنة ٩١هـ. انظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٤٦٤.

(٢) هو احمد خان الأول، مات وعمره ثمانية وعشرين عامًا ومدة حكمه ١٤ سنة، وتوفى سنة ١٠٢٦هـ.

وسترها بكسوة المحمل المذهبة، ونهض من مدينة مكة المكرمة وأمامه الكثير من جنود المسلمين، وفى اليوم الذى تحركت فيه قافلة الشام خرج وجهاء القوم فى مكة وعلماءها وسادتها كلهم وأهلها ومجاوروها قاطبة ليكونوا فى توديع الميزاب القديم، وساروا مع القافلة المذكورة، فارتفعت الروح المعنوية فى داخل المدينة وسادتها حالة عجيبة، حتى قال مؤلف «لطائف الأخبار»(١) الشيخ محمد بن إسحاق الذى جاء فى تلك السنة مع المحمل المصرى لأداء فريضة الحج «لا قدرة لى على وصف وتصوير ما شاهدته فى ذلك اليوم».

وأخرج السلطان مراد خان ذلك الميزاب الذهبى من مكانه فى سنة (١٠٤٣). وزخرفه بالذهب وأعاده إلى مكانه ولما كان والد السلطان كثير المحامد السلطان عبد المجيد خان قد جدده بالذهب أيضا فى سنة (١٢٧٣)؛ ظل يطلق على ميزاب الرحمة إلى الآن «الميزاب الذهبى».

وبناء على بيان المؤرخين ورواياتهم فإن الذهب الذى أرسله وليد بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله لميزاب الرحمة قد أذيب من الأوانى الذهبية التى اغتنمت فى معركة «طليطلة» وهذه الأوانى هى المنضدة التى تنسب إلى سليمان عليه السلام يعنى المائدة السليمانية، ويقول المؤرخون إن هذه المنضدة كانت مصنوعة من أنواع اليواقيت والزبرجد وكانت مرصعة وفى غاية الجمال.

وعلى رواية أنها من صنع سليمان بن داود ـ عليهما السلام ـ، وقدحفظت فى خزينة المسجد الأقصى وعرضت هناك، ثم نقلت إلى خزائن ملوك بنى إسرائيل وعندما فتح بخت نصر القدس اغتنمت من قبل الملوك المتحالفين معه، لأن الأشرار من بنى إسرائيل تجرأوا على قتل زكريا ويحيى «عليهما السلام» فعاقبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بأن سلط عليهم بخت نصر الذى تحالف مع الملوك المجاورين، وساق كتائبه وجحافله إلى بلاد بنى إسرائيل فخرب القدس الشريف، ونهب وقتل سكانه، وبما أن الملوك المتحالفين كانوا معه فوزع ما اغتنم من الأموال على الكل.

---

(١) تاريخ جيد بالنسبة لأحوال مصر.

وفى هذا التقسيم كانت مائدة سليمان - عليه السلام - النادرة من نصيب حاكم أسبانيا، وحلة آدم مع عصا موسى من نصيب ملك الروم، وعرش بلقيس من نصيب ملك إنطاكية، وياقوتة ذى القرنين من حصة ملك أرمنية.

وحسب أقوال بعض المؤرخين أن بخت نصر عندما اغتنم تلك المائدة أخذها معه إلى بابل، ولما تغلب كسرى على بابل وأنهى أسر اليهود؛ رد تلك المائدة مرة أخرى إلى بنى إسرائيل مجاملة منه، وبعدما فتح تيتوس - من قياصرة الروم، القدس خربها وطرد بنى إسرائيل إلى بلاد أخرى، ونقل مائدة سليمان إلى خزينة الروم، ثم وقعت فى يد القوط.

ويدعى أغلب المؤرخين أن هذه المنضدة وقعت فى يد الغاصب ليبن بواسطة الوندال الذين نهبوا روما؛ إلا أن هذا الحكم لا يمكن قبوله لضعف روايته. ولهذا يلزم أن يكون كما قرر مراد بك مؤلف (التاريخ العام) إما أن يكون ملك القوط الغربيين الأربك اغتنم هذه المائدة عندما دخل روما ونهبها، وإما أن يكون «آنا لوف» الذى خلف الأربك وجدها ضمن جهاز أخت القيصر التى تزوجته، ووضعها فى خزينته، وعلى كل حال فموسى بن نصير[(١)] اغتنم مائدة سيدنا سليمان عندما فتح الأندلس، وبعثها إلى الشام، كما أن وليد بن عبد الملك بعثها إلى والى مكة المكرمة خالد بن عبد الله القسرى ليذهب بها ميزاب الرحمة.

وإذا صحت هذه الرواية فيكون وليد بن عبد الملك قد قام بخدمة حسنة جدا.

---

(١) موسى بن نصير فاتح الأندلس، وهو من التابعين الكرام وقد تلاقى مع تميم الدارى، وعاد من فتح الأندلس فى سنة أربع وتسعين الهجرية بعد أن غنم المائدة التى سبق ذكرها ومعها كثير من النقود، وبعض التيجان المرصعة بالمجوهرات الثمينة، وعدد لا بأس به من الأسرى، وبعد وصوله إلى الشام بثلاث سنوات اتجه إلى مكة المعظمة لأداء فريضة الحج، وارتحل إلى مملكة البقاء وهو محرم بين الحرمين رحمه الله. انظر: تاريخ الطبرى ٦/ ٤٨١.

إفادة خاصة

النقود الإسلامية

أردنا أن نبين وزن وقيمة العملات التى سبق ذكرها وعين عددها مثل الدينار والدرهم حسب المناسبة فى بعض وجهات المرآة، حتى يمكن تخمين قيمة النقود التى أنفقها السلاطين العظام من أجل تعمير أبنية الحرمين وتجديدها.

لأجل ذلك استصوبنا أن نعطى بعض المعلومات عن الأسباب القهرية التى أدت إلى قطع تلك العملات، وتواريخ ضربها.

يطلق اسم سكة(١) على النقش المخصوص الذى يضرب فوق النقود الرائجة من الذهب والفضة. وفى أوائل ظهور الإسلام أطلق على المسكوكات الذهبية اسم الدينار، وعلى المسكوكات الفضية اسم الدرهم، والمؤرخون متفقون على أن اليونانيين هم الذين صنعوا المسكوكات قبل هذا بـ (٢٦٠٠ عام) وكانت على المسكوكات التى ضربت سواء أكانت فى أيام اليونانيين أو فى أيام ملوك الأمم(٢) الأخرى بعض صور الحكام، وعلى بعضها صورة حيوان أو صورة قلعة أو شكل آخر.

وعندما ظهرت المسكوكات الإسلامية ذات العيار الصحيح وكسدت دنانير سوق الكفر، وفسدت دراهم المشركين المنتشرة، وكانت طوائف العرب فى بداوتهم الذين تركوا اهتمامهم بالدنيا يتعاملون قبل البعثة المحمدية بنقود غير مسكوكة، وأخذوا يتداولون النقود المسكوكة من الذهب والفضة بالوزن، فكل النقود العربية غير مسكوكة، وجرى حكم هذا التعامل فترة غير قليلة، حتى إن النقود التى اغتنمت فى عصر سيدنا عمر من بلاد الفرس لم ينظر إلى قيمتها الرائجة بل كانت ترد إلى الوزن ويتعاطونها بهذا الشكل. ولكن النقود التى ضربت فى مضارب الملوك الأوائل تختلف فى الوزن والنوع، وكانت النقود التى يتداولها

(١) هذا التعبير اسم خاص بالمطرقة الحديدية وهى آلة للصرف وعربى الأصل.

(٢) يستثنى من ذلك ملوك اليهود لأن مسكوكاتهم كانت خالية من الأشكال.

العرب الذين يعيشون حول الحرمين المحترمين يطلق عليها البغلى والطبرى واليمنى، وكان وزن المسكوكة البغلية يساوى ثمانية دوانق والطبرية ست دوانق والمسكوكة اليمنية تساوى درهمين ولأجل ذلك يتعبون كثيرا عند تحويل النقود المسكوكة إلى الذهب والفضة.

وأراد عمر الفاروق أن يسهل الأمر على الناس فرد المسكوكات الرائجة بين أهالى الحرمين وهى الطبرية والبغلية إلى نصف وزنها وثقلها، وهو ست دوانق وفقا للمثل القائل «خير الأمور أوسطها» واعتبرها درهما واحدا، وقسم الدرهم الواحد إلى أربعة عشر جزءًا، وضم ثلاثة أسباع حاصل التقسيم إلى ست الدوانق، ورفع الدرهم إلى مثقال، وأسقط ثلاثة أعشار المثقال، وأنزل المثقال إلى الدرهم، واستصوب أن يكون استخدام النقود الرائجة فى البلاد الإسلامية بهذا الوجه، والذى دفع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى اتخاذ القرار بجعل المسكوكات المتداولة على وزن معين معلوم هو عدم تطابق النقود المضروبة فى عهد الملوك السابقين للمعاملات الشرعية، لأن النقود التى كان يتعامل بها الناس فى عهود ملوك الفرس قد سُكَّ بعضها على وزن عشرين قيراطًا، وبعضها على اثنى عشر قيراطًا، وبعضها على وزن عشرة قراريط مع الاتحاد فى الثمن.

وبما أن إعطاء الزكاة فى النقود التى تتحد فى الثمن وتختلف فى الوزن وهى إما ذهبية أو فضية غير مشروع، لذا اعتبر عمر الفاروق كل قيراطين قيراطا، وأنزل الستة قراريط إلى ست دوانق، وحول وزن القيراط القديم المتعارف بين الناس لتقديم المثقال الواحد، وألحق ستة قراريط إلى أربعة عشر قيراطًا التى تكون درهما واحدا. وهكذا أبلغ مجموع القراريط إلى عشرين قيراطا، واعتبر مجموعها مثقالا واحدا، ودام القرار الذى أخذه الفاروق الأعظم بشأن المسكوكات إلى سنة ٢٨ من الهجرة، وزادت الصعوبة فى تحويل المسكوكات الفضية والذهبية إلى الذهب الخالص غير المسكوكين بزيادة عدد المسلمين، وسلب هذا الأمر راحة الذين يبيعون ويشترون من أصحاب الحوانيت وأفراد

القبائل، مما دعا عثمان بن عفان (رضى الله عنه) إلى ضرب مسكوكات كافية من النقود وأزال من أذهان الناس قلقها بخصوص الأخذ والعطاء وكان ذلك فى مدينة هرتك[١]. أن أول ما ضرب من مسكوكات فى العصر الإسلامى هى تلك النقود.

سكت فريق المؤرخين عن المسكوكات التى ضربت فى السنة المذكورة والسنوات الهجرية ٣٧، ٣٨، ٣٩ ، ٤٠هـ وقالوا إن أول من سك العملة فى العصر الإسلامى هو عبد الله بن الزبير، إذ عين أخاه مصعب بن الزبير واليا من قبله على البلاد العراقية فى عام (٦٩) هجرى، وسمح له بسك النقود، وسك مقدارا كافيًا من النقود وعرضها فى سوق التعامل، وكانت تلك العملة تحمل على أحد وجهيها كلمة «بركة» وعلى الآخر كلمة «الله»، وبعد سنة أبطل الحجاج بن يوسف الثقفى سك هذا النوع من العملة، وسك عملة على شكل آخر وجعل على أحد وجهها كلمة «بركة» وعلى الوجه الآخر «الحجاج بن يوسف الثقفى»، ويحتمل أن يكون عبد الله بن الزبير أول من سك العملة وذهبوا إلى أن أول مَنْ سك النقود من الملوك المسلمين هو عبد الملك بن مروان.

وتزعم الفرقة الثانية أن عبد الملك بن مروان عندما اعتلى عرش الممالك الإسلامية كثر تداول العملات الخاصة بحكومات الروم والفرس والهند، وكثر الغش والفساد بين أنواعها المختلفة، واختل التعامل فأمر عبد الملك بسك عملة خاصة بالمسلمين خالية من[٢] الصور والأشكال التى على مسكوكات الأمم السابقة، وبذلك ألغى التعامل بالنقود الرومية والكسروية والهندية، وضربت دنانير ودراهم تزدان بنقوش إسلامية وكتب على وجه العملة كلمة «الله أحد» وعلى الوجه الآخر «الله الصمد»، ويستند الفريق الثانى فى قولهم هذا على قول

(١) هرتك اسم مدينة مشهورة فى إقليم طبرستان.

(٢) إن مؤلف كتاب الحضارة العربية يدعى أنه كان هناك نوع من النقود الإسلامية كان يحتوى على صور ورسومات إلا أن هذا الادعاء مردود.

صاحب مؤلف «محاضرة الأوائل»، إلا أن صاحب كتاب «وفية الأسلاف وتحية الأخلاف» يخرج ويرد ادعاءات الفريق الأول والفريق الثانى، ويقول: «إن أول من سك العملة هو عثمان بن عفان ـ رضى عنه الله المنان ـ»، وأثبت مدعاه ببعض الأدلة المقنعة.

وبناء على تدقيق وتحقيق مؤلف «محاضرة الأوائل» أن العملة التى سكت فى عصر عبد الملك بن مروان كان مكتوبا على أحد وجهيها جملة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وعلى وجهها الآخر كتب ونقش اسمه، وفيما بعد أضاف الحجاج الظالم بعد كلمة «محمد رسول الله» كلمة «أرسله بالهدى».

وبناء على ما يزعمه صاحب كتاب «تحية الأخلاف» أن أحدا من ملوك الأمويين لم يكتب اسمه على النقود التى سكها غير الحجاج، بل اكتفى ببيان مكان سكها وتاريخ ضربها سواء فى عصر عبد الملك بن مروان أو عصر عثمان أو على أو عبد الله بن الزبير «رضى الله عنهم».

كانت العملة التى ضربت وتعامل بها الناس من دنانير ودراهم وفق ما قرره عمر بن الخطاب لها من وزن وقيمة بفرض ستة دوانق وكل ستة دوانق درهمًا، وعدد درهم مع إضافة ثلاثة أسباع درهم له من حيث الوزن، وقسمت العشرة دراهم إلى سبعة أجزاء، وأضيف إلى كل حاصل الأجزاء ثلاثة أسباع درهم، فاعتبر مجموع ذلك مثقالا واحدا.

وبناء على هذا الحساب يزيد المثقال الواحد على الدرهم بمقدار ثلاثة أسباع درهم، ويقتضى أن يعادل كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم. وإن الأصول والقواعد التى أخذ بها فى ضرب النقود قد أرضت الناس، وتلقوها بقبول حسن، كما أنه قد عدل وأصلح شكل العملة وصورتها فى عصر عبد الملك، فأصبح ضرب العملة على هذا الوجه عصرا بعد عصر قانونا خاصا فى الأماكن التى تضرب فيها النقود فى البلاد الإسلامية.

إن الدينار والدرهم اللذين أصلح شكلهما كانا مستديرين، وعلى وجه كل واحدمن النوعين دوائر صغيرة وكبيرة متداخلة ومتناسقة وعلى الدوائر جمل التهليل والتمجيد مع اسم عبد الملك وزمن ضربها وقطعها.

واستمر هذا القرار إلى أن اعتلى الموجودون عرش السلطنة، وعندما كان يضرب من جديد كان يغير اسم الخليفة وتاريخ سكها ومكانه.

وقد غير الملوك الموحدين شكل الدرهم فجعلوه مربعا وشكل الدينار جعلوه مستديرا، بتصويب مؤسس حكومتهم محمد بن تومرت، ورسموا فى وسط الدينار شكلا مربعا ثم كتبوا سواء كان فوق الدرهم أم الدينار جملا تتضمن التهليل والتمجيد، وعلى الوجه الآخر اسم ملك العصر وذيلوه باسم الخليفة وأبقوا وزن النقود ومقدارها كما كان من قبل.

ويدعى بعض المؤرخين أن العملة التى سكت فى عصر محمد المهدى كان مكتوباً على أحد وجهيها جملة «بلغت حجة الله» على الوجه الآخر جملة «تفرق أعداء الله» وإذا حسبت القطعة الذهبية العثمانية المجيدية مائة قرش يلزم أن تكون قيمة الدينار ثلاثة وثلاثين قرشا تقريبا، وكان ثقل الدينار ثمان وأربعين[١] شعيرة يعنى أنه كان يساوى حوالى اثنى عشر جزءا من ستة عشر جزءا من الدرهم. إلا أن العيار الحقيقى للدينار القديم غير معروف فتقدير ثمنه تقديراً صحيحاً ليس فى الإمكان.

ويدعى بعض العلماء أن كلمة الدينار حرفت من كلمة «ديناروس» وكان يتداول فى وقت ما بقيمة (عشرة) آس في روما ثم بقيمة ستة عشر آس فى أوربا وكان مضروبا عليه رقم (خمسة عشر).

وبعد عهد شارلمان خلط بقليل من النحاس فقلت قيمته، وفيما بعد قلب نحاسا كاملا. يقال إن الفيلورى اسم آخر للدينار، ولكن فيلورى ليس اسم الدينار القديم بل اسم الذهب البندقى، والذى يعادل الذهب المزخرف والذى راج التعامل به فى جميع الجهات، وبما أن العملات قد تغيرت فيما بعد ففشا اسم

(١) هذا القول من رواية الزمخشرى، إلا أن فريقا من العلماء ذهب إلى أن الدينار يساوى (٨٤) شعيرة وبينما قال فريق آخر أنه يعادل (٧٢) شعيرة وعند الجمهور قول الزمخشرى أرجح.

الفيلورى وكان الذهب البندقى الذى أطلق عليه فيلوريا كان يساوى عشرة قروش فى تلك الأوقات، ولعله يساوى الآن ما يقرب من خمسين قرشا. والدرهم معرب من دراخما اليونانية كما تنقله الكتب الفلسفية، وكان وزنه مرتب على أن يكون في ثمان وأربعين شعيرة، والفضة المجيدية كانت فى قيمة عشرين قرشا، ويلزم على هذا أن تكون قيمة الدرهم الواحد قرشين، وإن العملة الفضية التى أطلق عليها درهما كانت نقدا خالص العيار تداوله القدماء فى تعاملهم. وقال ابن فضل وهو يعرف التعامل المصرى إن المعاملات المصرية تتم بالدرهم والدرهم المتداول كان نصفه فضة ونصفه الآخر نحاسا، وكان وزن كل درهم يساوى ثمان عشرة حبة خروب وكانت كل خروبة تزن ثلاث قمحات وقيمته الشرائية تساوى خمسة وأربعين فلسا.

وعندما ضربت المسكوكات القديمة سواء أكانت دينارا أودرهما كانت الثمان وأربعين شعيرة تساوى درهما، والدرهم يساوى سبعة دوانق، والدانق يساوى قيراطين، والقيراط يساوى طسوجين، والطسوج يساوى حبتين، والحبة الواحدة كانت تعادل جزءا واحدا من ثمانية وأربعين جزءا من أجزاء الدرهم.

وعلى هذا الحساب يقتضى أن يكون الدينار نقدا مسكوكا فى وزن أربعة وعشرين حبة أو ستة دوانق، وتساوى أربعة وعشرين حبة، و ٢٨٨ خردلة، و ٢٨٨ خردلة تساوى ٣٤٥٦ فلسفا وهذه تساوى ٢٠٧٣٦ فتيلة و ٢٠٧٣٦ فتيلة تساوى ١٢٤٤١٦ نقيرة، و ١٢٤٤١٦ نقيرة تساوى ١٩٥٣٢٥ قطمير، و ١٩٥٣٢٥ قطمير يساوى ١٩٤٣٩٣٦ ذرة، والدينار الواحد يتساوى فى الوزن مع درهم واحد.

وخطوط وأشكال النقود القديمة كان يكتب فوق العملات التى سكت فى عام ٢٨ هجرى فى فترة خلافة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ بالخط الكوفى جملة «بسم الله ربى»، وفوق العملات التى ضربت فى العام الثلاثين عبارة «ولى الله». وعلى وجه العملات التى ضربت فى سنة ٣٨، ٣٩ جملة «بسم الله

ربى»، وعلى الوجه الآخر جملة «ولى الله»، وفى وسط أحد وجهى العملات التى سكت فى العام الأربعين الهجرى سورة الإخلاص. وعلى أطرافها الدائرية جملة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وفى وسط الوجه الآخر «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وحولها دائرا ما دار عبارة ضرب هذا الدرهم بالبصرة فى سنة ٤٥، وكل هذه العملات ضربت فى عهد خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وكتب على أحد وجهى العملات التى ضربت عام ٧٠هـ فى مدينة «جرد» وما ضربت فى عام ٧١هـ فى مدينة «يزد» بالخط الكوفى «بسم الله»، وعلى الوجه الآخر بالخط الفارسى «عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين» وما ضرب من عملة عام ٧٩هـ فى «هرمز» وما ضرب عام ٨٠هـ فى مدينة الرى، ما ضرب عام ٩١ و ٩٥ هـ فى مدينة جود، وما ضرب عام ٩٧ و ٩٨هـ فى مدينة أردشير وحرة، وما ضرب عام ٩٦هـ فى مدينة «نمرة»، وما ضرب عام ٩٧هـ فى مدينة «مرو»، وما ضرب عام ٩٨هـ فى مدينة «جرد» وما ضرب عام ١٠٣هـ فى مدينة «قرمان»، وكل هذه العملات المتنوعة نقش فى وسط وجه منها سورة الإخلاص، وعلى أطرافها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون»، وفى وسط الوجه الآخر «لا إله إلا الله لا شريك له» وحول هذه العبارة كتب تاريخ ضرب العملة ومكانه.

وفى عهد الخليفة العباسى «السفاح» عام ١٣٤ هـ ضرب نوع من الدراهم كتب حوله «بسم الله» ضرب هذا الدرهم بالبصرة سنة أربع وثلاثين ومائة، وفى وسطه «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى أطراف الوجه الآخر فى ثلاثة أسطر «محمد رسول الله»، وكتب وسط هذه الدائرة «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وفى سنة ١٣٦هـ ضرب فى الكوفة نوعين من الدراهم على نفس شكل الدراهم التى سبق ذكرها، وضرب منصور الدوانقى فى عام ١٤٤ هـ فى البصرة وعام ١٥١ هـ فى بغداد دراهم كتب فى وسطها «مما أمر به الأمير المهدى محمد بن أمير المؤمنين»،

وضرب الخليفة المهدى فى بغداد درهما فى وسطه عبارة «محمد رسول الله ﷺ» للخليفة المهدى سنة ستين ومائة.

وكتب فى وسط درهم «ضرب فى زمن الهادى بمدينة السلام[1] سنة سبعين ومائة محمد رسول الله ﷺ للخليفة الهادى»، وفى عهد هارون الرشيد نقش على بعض النقود. بالمحمدية سنة ست وسبعين ومائة «محمد رسول الله ﷺ»، للخليفة الرشيد بهلول، وعلى بعضها الآخر «بمدينه السلام سنة تسع وسبعين ومائة»، وفى الوسط على وجه هذه النقود «محمد رسول الله مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين جعفر»، وعلى الوجه الآخر بالوسط» بالمحمدية سنة ست وسبعين ومائة»، وفى بعضها الآخر «بالمحمدية سنة ثمانين ومائة مما أمر به الأمير الأمين محمد بن أمير المؤمنين فى ولاية محمد بن يحيى جفر»، وفى بعضها بالمحمدية سنة تسعين ومائة، وفى وسط هذه الدراهم «محمد رسول الله»، وكتب على بعض ما ضرب فى زمان المأمون من نقود «ضرب بمدينة بلخ سنة خمس وسبعين ومائة محمد رسول الله مما أمر به أمير المؤمنين المأمون ولى عهد المسلمين عبد الله ابن أمير المؤمنين الفضل» وعلى بعضها كذلك «بمدينة بلخ سنة ست وثمانين ومائة محمد رسول الله ولى عهد المسلمين»، وكتب وسط العملات التى ضربت فى أثناء خلافة الأمين العباسى: «ياسيدى محمد رسول الله الأمين الخليفة محمد أمير المؤمنين» وفى أواسط أطرافها» ضرب بمدينة سمر قند سنة تسع وتسعين ومائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له «وعلى هامشه الآخر «الله محمد رسول الله» وقد كتب فى وسط نوع من العملة التى ضربت فى أثناء خلافة المأمون «لا إله إلا الله وحده لا شريك له بن إبراهيم» وعلى أطرافها «بسم الله ضرب هذا الدرهم بهرات سنة ست ومائتين»، كما كتب فى وسط الوجه الآخر «محمد رسول الله»، وعلى أطرافها «رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». وعلى وسط وجه نوعين من العملة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى أطرافها «بسم الله ضرب هذا الدرهم

(١) مدينة السلام اسم آخر لبغداد.

بمرو سنة سبع عشرة ومائتين»، وخارج هذا الخط وفى داخل دائرة كتب «لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله»، وعلى وسط الوجه الآخر «محمد رسول الله»، وعلى أطرافها «محمد رسول الله أرسله بالهدى والدين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وعلى طرفها دائرا ما دار «ضرب سمرقند سنة تسع ومائتين»، وفى وسطها «لله محمد رسول، المأمون خليفة الله طلحة» لكنه لم يذكر اسم المأمون ولا طلحة على عملة ضربت فى دار السك فى سمرقند سنة ٢١٧ هـ.

وقد كتب فى دوائر نقود ضربت فى عهد الواثق بالله «بالمحمدية فى سنة عشرين ومائتين» فى وسطها «لله محمد رسول الله الواثق بالله» وكتب فى وسط الدنانير التى ضربت فى عهد القاهر بالله «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وعلى دوائرها الخارجية كتبت «لله الأمر من قبل ومن بعد يومئذ يفرح المؤمنون» وفى دوائرها الداخلية «بسم الله ضرب هذا الدينار بنيسابور سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة» وفى وسط الوجه الثانى «محمد رسول الله القاهر بالله نصر أحمد» وفى دائرتها «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».

وكتبت على نوع من فلس «ضرب فى عهد المطيع بالله «بسم الله ضرب هذا الفلس ببخارى سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة» وفى وسطها مكتوب «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وعلى الوجه الآخر» محمد رسول الله منصور بن نوح».

وقد أخبر مؤلف «تحية الأخلاف» أن كل هذه المسكوكات قد كشفت فى قرية من قرى إقليم قزان فى سنة (١٢٨٠هـ) والمسكوكات القديمة عبارة عن النقود التى سبق ذكرها.

وكلما تباعد عصر السعادة اختلفت النقود وتعددت نقوشها وشكلها حسب أمر وجه أهل العصر، ولا سيما فى عصر الدولة العلية ـ صانها الله تعالى من الآفاق والعاهات والبلية ـ قد كثرت أنواع النقود التى أخرجت لسوق التعامل شكلا ونوعا، مما يجذب الأنظار وظلت العملات التى راجت فى البلاد العثمانية إلى عهد السلطان «أورخان» الغازى مسكوكة بأسماء السلاطين السلجوقية، ولكن

وجوه الدراهم والدنانير زينت وأنيرت بأسماء سلاطين الدولة العثمانية فى خلال عام (٧٣٩) وعلى وجه من وجهى المسكوكات العثمانية نقشت طغراء السلطان الغراء، وتحتها رقم تاريخ سكها بالنسبة لتاريخ جلوس السلطان، وعلى الوجه الآخر كتبت عبارة «ضرب فى قسطنطينية أو فى بروسة أو فى أدرنة أو فى مصر عز نصره» وفى ذيل هذه العبارة تاريخ جلوس السلطان، والخطوط المذكورة كلها محاطة ومزينة برسم زهرة رقيقة دقيقة.

إن النقود العثمانية المتداولة التى عرفنا رسمها وشكلها من محاسن عصر والد السلطان الكثير المحامد، وضربت المسكوكات الذهبية على خمسة أنواع، والفضية على ستة أنواع ويطلق عليها كلها «المجيدية» وفى الجدول كتبت الأنواع الأحد عشر وأوزانها وقيمتها ومقاديرها.

المسكوكات العثمانية

الذهب		وزنها	
الذهب القرش	قيمتها العدد	قيراط العدد	درهم العدد
٥٠٠	١	٤	١١
٢٥٠	١	١٠	٥
١٠٠	١	٤	٢
٥٠	١	٢	١
٢٥	١	٩	٠
..	٥	..	..
الفضة			
٢٠	١	٨	٧
١٠	١	١٢	٣
٥	١	١٤	١
٢	١	١٢	٠
١	١	٦	٠
–	١	٣	٠
..	١١	..	..

إن هناك مسكوكات أخرى لم تدرج فى هذا الجدول مثل الذهب العتيق للسلطان محمود ذهب السلطان مصطفى ذهب مصر باريون والجنيه المصرى والخيرية العتيقة والجديدة.

وغيرها من النقود العثمانية المتعارف عليها بأسماء أخرى، وبما أنها تختلف فى الوزن والعيار بعضها عن بعض فلا قيمة كبيرة لها ولا رواج فى الشراء والبيع مثل المسكوكات الجديدة، إن النقود المذكورة تتداول حسب عيارها الذى ذكر فى مجال التعريف، ولما كانت العملات القديمة التى ضربت فى دور ضرب المسكوكات فى القاهرة وبغداد لا يوافق عيارها الجدول الذى عرفت فيه قيمة العملات ولا يطابقها فيتم تداولها كأنها نقود غير مسكوكة.

إن المسكوكات الأجنبية التى تتداول بين الناس مختلفة بعضها عن بعض فى العيار والوزن والقيمة، لأجل ذلك فهى تستخدم وفق قائمة التعريف، وبما أن النقود الرائجة الأجنبية قد حولت إلى أثمان المسكوكات العثمانية الجديدة، فالناس لا يجدون صعوبة فى تداولها مثل المسكوكات المغشوشة.

الدرهم الشرعى

إن تسوية المعاملات النقدية الشرعية أصبحت رهنا للتعامل بالمسكوكات، ولما كانت النقود القديمة المتداولة ليست على نسق واحد من حيث الوزن والعيار فى كل عصر ومصر، كما فصل فيما سبق، فاختلف تداولها باختلاف العصر والمكان، ولما لزم أن يوافى وزن الدينار والدرهم ومقدارهما وجودتهما وعيارهما لمعيار الدين القويم عشرة أمثال من النقود مساويا وموازنا إذا كان صحيح العيار إلى سبعة مثاقيل ذهب أو فضة، واعتبر ذلك درهما شرعيا واحدا وإن قيمة الذهب والفضة التى توزن بهذا الدرهم غير متساوية ولكنهم جعلوهما متساويين باعتبار الوزن والمقدار.

وأقروا ذلك بإجماع الأمة واتفاقها، ثم سموا ٤٠ درهما شرعيا أوقية وعلى

هذا التقدير يقتضى أن يكون الدرهم الشرعى سبعة أعشار المثقال الشرعي، والمثقال الواحد يساوى درهما وسبعة أرباع الدرهم، أى أن وزن المثقال يساوى ثقل سبع شعيرات متوسطة، واعتبر سبعة أعشار المثقال درهما واحدا، ويترتب على ذلك اعتبار الدرهم الواحد ثقل خمس حبات شعير وخمسين من حبة واحدة.

وقد قرر فى عصر السلطان أورخان الغازى وعهده اعتبار ربع الدرهم العُرْفى درهما شرعيا واحدا، واعتبار الدرهم ونصف العرفى واحدا ٢٦٦ مثقالا، واعتبار ٤٠٠ درهم عرفى أوقية واحدة.

ومن فروع ذلك القرار اعتبار الذرتين قطميرا، والقطميرين نقيرا، والنقيرين فتيلا، و ٤ فتائل حبة حنطة، و ٤ حبات حنطة تساوى قيراطا، و ٤ قراريط تساوى درهما، وبناء على هذا التقدير إن مائة الودرة تُساوى قنطارًا، و ٤ قناطير تساوى جكيًا واحدا وأن الجكى الواحد يساوى مائة وستًا وستين أوقية عتيقة.

* * *

تعرف من قدم إلى الكعبة المعظمة المعلقات والستائر القيمة

إن ملوك العجم كانوا يوقرون الكعبة المعظمة ويعظمونها بتقديم الهدايا وما يعلق عليها، وإن كان أول من قدم الهدايا إلى كعبة الله توقيرا لها وتعظيما لشأنها مجهولا فى نظر التاريخ، إلا أنه من المحقق أن من أرسل ما يطلق عليه العرب «غزالتى الكعبة» هو اسفنديار أو على قول ساسان بن بابك من ملوك الفرس، وكانتا من ذهب خالص.

حتى إن العرب يعتقدون اعتقادا جازما أن أول ما قدم من هدايا إلى الكعبة المعظمة هما هاتان الغزالتان، كما أن العرب يروون أن بابك أهدى إلى الكعبة المعظمة غير الغزالتين الذهبيتين أنواعا من الهدايا الذهبية والجواهر.

كما أنهم يروون بالأدلة أن أول من أهدى من العرب إلى الكعبة المعظمة من الهدايا هو كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة من قبيلة قريش إذ علق على الكعبة سيفين مذهبين.

وقد دعا كلاب بن مرة قبل جميع سكان الجزيرة العربية وأعيانها إلى إحراز شرف تقديم الهدية إلى الكعبة. إن أبا زوجه قدم له سيفا ذا قيمة مذهبا ومشهورا لدى العرب. وكان «أسد بن سيل بن حمالة بن عوف بن غنم بن عامر بن الحارث بن عمليق بن خشعمة بن يشكر بن بشير بن صعب بن دهمان بن نضر بن الأزد» الذى اشتهر بترصيع السيوف، واختراع هذا النوع من السيوف المذهبة، قد صنع هذين السيفين وأهدى أحدهما إلى ابنته فاطمة، والآخر لزوج ابنته كلاب بن مرة وهما أهديا هذين السيفين إلى الكعبة المفخمة ليحفظا فى خزينة بيت الله.

إن هذين السيفين المخترعين لم يكن للعرب عهد بصنعهما، لذا زادت فى عيون شجعان العرب الذين يفتخرون بعمل أجمل الأسلحة.

وعد إهداؤهما إلى الكعبة تضحية عظيمة من قبل كلاب بن مرة، ومن أجل ذلك علت مكانته فوق صناديد العرب والأشراف. وإن لم يقدم بعد كلاب بن مرة إلى عصر عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف هدية إلى الكعبة، إلا أن عبد المطلب بن هاشم حينما أخرج من بئر زمزم الغزالتين الذهبيتين وسيفا ثمينا مرصعا وكثيرا من الذهب أهداها كلها إلى الكعبة المعظمة محبة لها، وكانت الغزالتان هما اللتان أهداهما ساسان بن إسفنديار إلى الكعبة كما سبق ذكره.

وأول من زين بيت الله فى الدولة الإسلامية هو عمر الفاروق، وبعده عبد الله بن الزبير وقد علق عمر الفاروق ما اغتنمه فى أثناء فتح المدائن من هلالين ذهبيين في داخل كعبة الله، كما كسا عبد الله بن الزبير أساطين الكعبة بصفائح من ذهب، وجعل مفتاح الكعبة من الذهب الخالص.

وقد أهدت مارية بنت أرقم من بنات ملوك بنى حنيفة زوجا من القرط الغالى النفيس، وكان هذا القرط من در نادر من حجم بيضة الحمامة، ويساويان أربعين ألف دينار تقريبا، وبما أن أحدهما كان لا نظير له سميت صاحبته بذات القرطين. وقد انتقل هذان القرطان فيما بعد إلى أيدى الملوك، حتى انتهى الأمر إلى عبد الملك بن مروان الأموى وعندما زوج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز أعطاها هذين القرطين. وأخذ عمر بن عبد العزيز فى عهد خلافته هذين القرطين ووضعهما فى خزينة الدولة.

ولما توفى عمر بن عبد العزيز وتولى السلطة يزيد بن عبد الملك، أخذ القرط ورده إلى أخته فاطمة، إلا أنها لم تقبله، وعندئذ أهدى يزيد القرط إلى زوجته ولا يعرف بعد ذلك إلى أين انتقل ذلك القرط ومن الذى امتلكه.

وقد بين «الإمام تقى الدين» من مؤرخى الكعبة الأوائل كيف زين كلاب بن مرة الكعبة معلقا سيفا محلى. ثم ذكر ناقلا من تاريخ الإمام الأزرقى أسماء الذين قدموا أشياء ثمينة متنوعة لتلك البقعة المقدسة واحداً تلو الآخر.

ومن ضمن ما ذكره الهلالان الذهبيان من غنائم بلاد كسرى، وكأسا مزينة بالزبرجد[1] غالى الثمن أهداها «سفاح بن زائد» من خلفاء بنى العباس.

كما أن هارون الرشيد علق في سقف كعبة الله فى سنة ١٨٦هـ قطعة حجة منمقة كتب عليها تجديد عهد وميثاق لابنيه محمد الأمين، وعبد الله المأمون بعد توقيعها من رجال دولته وذلك فى أثناء حجه.

الاستطراد

حينما علقت تلك الحجة فى المكان الذى رآه هارون الرشيد مناسبا وسقطت على الأرض بطريقة ما وشاع الأمر بين الناس، قالوا «إن ما تحتويه الحجة المذكورة لا يوافق حكم القدر». وفعلا هذا ما حدث إذ محا محمد الأمين عقب وفاة ولده، وبرأى «فضل بن الربيب» وتدبيره مسح اسم المأمون من تلك الحجة، ووضع مكانه اسم ابنه الصغير «موسى»، أو على قول آخر مزق التعهد القديم ووضع مكانه التعهد الجديد.

وأرسل «محمد الأمين» بن هارون الرشيد بعد وفاة والده (١٨٠٠) قطعة من ذهب لتزيين الكعبة وذلك فى سنة ١١٥هـ وعند وصول هذا المال إلى مكة الله أخذ أهل مكة صفائح الفضة التى كانت على باب الكعبة، وزينوا مصراعى الباب وجعلوا حلقاته من الذهب الخالص. أما المأمون العباسى فعلق على باب الكعبة ياقوتة ثمينة فى سلاسل من ذهب، كما أن المتوكل علق على واجهة الكعبة حلية تشبه الشمس مرصعة بأنواع الياقوت والزبرجد، وكان[2] إرسال ذلك فى موسم الحج سنة ٢٤٤هـ.

وزين الخليفة المتوكل بالله بناء على طلب صاحب مفتاح البيت زوايا كعبة الله بالذهب، وعلق فوق الستارة الداخلية للكعبة حزاما من الفضة طوله ثلاثة أذرع، وكان لهذا الحزام كمر من الذهب.

(١) الزبرجد حجر ثمين أخضر اللون كالزمرد، ولكن خضرته فاتحة ويطلق على هذا اللون اللون الفستقى.
(٢) وكانت تعلق تلك الأشياء على الكعبة فى عصور الخلفاء العباسيين.

وغلفت بعد ذلك عتبة باب بيت الله بلوح فضى، وبلغ ثمن الشريط السابق الذكر واللوح الفضى ثمانية عشر مثقالا من الذهب.

وأمر المعتصم بالله العباسى بصنع قفل ثمين بألف مثقال من الذهب، وأرسله إلى واليه في مكة المكرمة «صالح بن عباس» طالبا منه أن يضع القفل فى مكانه القديم، وأن يرسل القفل العتيق إليه ليتبرك به وذلك عام ٢٦٧هـ إلا أن خدم البيت بعد التشاور بينهم لم يستصوبوا إرسال القفل العتيق إلى الخليفة، وأخبروا بذلك صالح بن عباس والى مكة المكرمة ليبلغه بدوره إلى الخليفة الذى رضى برأى الخدم، وسمح أن يبقى القفل العتيق فى مكانه وأهدى القفل الجديد إلى الخدم.

وأرسل حاكم إقليم «السند» منطقا جميلا ليعلق على كعبة الله، وكان ذلك المنطق مرصعا بالزمرد والياقوت وكان أثرا لامعا مشعا[1] فعلق على وجه بيت الله اللطيف سنة ٢٥٩هـ.

استطراد

يطلق السند على إقليم كبير فى الهند ويحده من الغرب إيران، ومن الجهة الشمالية «قندهار»، ومن الجهة الشرقية الشمالية الصحراء الكائنة فى الجهة الشرقية من إقليم سيق، وتحاط من الجهة الجنوبية بمواقع قج ويقع بين الدرجة العرضية ٢٥ و ٢٦ شمالا وإن طول هذا الإقليم (١٦٠) ميلا، ويمر من وسط أشهر بلاده نهر السند، وبما أنه يحاذى مجرى هذا النهر العظيم ويمتد إلى موقع «مولتان» البعيد عن منبعه مسافة (٣٠٠) ميل عرف باسم السند.

إن نهر السند الكبير الذى يمتاز بعذوبة مياهه ونفعه العميم يعرف أيضا باسم نهر «هندوس»، وينبع هذا النهر من مكان يسمى تبد[2] الذى يقع بين خطى عرض (٣٨، ٣١) شمالا.

(١) فى وسط هذا العقد ياقوتة خضراء عظيمة.

(٢) يطلق عليه العرب اسم «التبت».

وفى سلسله جبال «بولور»[1] التى تفصل تاتارستان عن البلاد الصينية، ثم يجرى نحو الغرب الجنوبى ويفيض عند وصوله إلى الأراضى الهندية في خط عرض (٣٥) شمالا، ويعد بمثابة الخط الدفاعى عندما تتعرض البلاد الهندية للاعتداء من الجهة الغربية. ويفيض فى مدينة «كابل» البعيدة عن منبعه بستين ميلا بدرجة لا تسمح بالمرور، وعندما يصل إلى الإقليم الذى يتفرع فيه إلى فرعين والذى يسمى باسمه والفرع الأكبر الذى يقع فى الناحية الغربية، ويتفرع إلى شعب وفروع، ويشكل عند مصبه شكل مثلث الشكل مثل نهرى «النيل والبنج»[2] إن علماء طبقات الأرض يطلقون على ذلك الشكل اسم الدلتا والعرب يسمونه دالية[3] .

إن مجارى فروعه التى سبق ذكرها غير عميقة، ولا تسمح بسير المراكب والسفن ويمكن للقوارب الصغيرة السير فيها.

إن المسافة بين منبع نهر السند ومصبه تصل إلى (١٣٥٠) ميلا، وأكثر أجزاء هذا النهر عميقة تسمح بسير سفن كبيرة حمولتها مائتى طن، ولما كان سكان شاطئيه جهلة فى فن تجارة الأنهار قلت تجارتهم عبر النهر «انتهى».

وعقب وصول الحزام الذى أرسله حاكم السند إلى مكة المعظمة، صنع المعتمد بالله العباسى صندوقا صغيرا فضيا جميل الشكل، ووضع فى داخل هذا الصندوق حجة ولاية عهد الخلافة بعده لابنه جعفر أولا ولأخيه «الموفق» بعده من وراء الخلافة وأرسله إلى كعبة الله مع «فضل بن عباس» وذلك فى سنة ٢٦١هـ وكان ذلك الصندوق على شكل مقلمة داخل وعاء فضى، علق داخل كعبة الله بثلاث سلاسل فضية مزخرفة بآلة لا مثيل لها.

وإن كان المؤرخون يخبروننا عن أشياء كثيرة نفيسة قيمة أهديت إلى كعبة الله، إلا أن ذكر هذه الأشياء على حدة سيجلب الملل والسأم للقراء لذا اكتفى بذكر أشهرها.

(١) يقال لها بين الناس «بلور».

(٢) مأخوذ من شكل حرف دلتا باللغة اليونانية.

(٣) مأخوذ من حرف الراء المهملة.

ولكن لشدة الأسف أن ما ذكر من الهدايا القيمة أو ما لم يذكر قد أنفقت واستهلكت من قِبَل ولاة الحرمين لإطفاء نار الفتن والشغب التى شبت فى الحرمين، وهكذا خلت خزينة بيت الله مدة طويلة من هدايا الملوك والسلاطين.

وكان السلطان مراد خان الثالث ابن السلطان سليم الثانى قد أرسل ثلاث قطع من القناديل[١] لا مثيل لها فى النفاسة وجمال الشكل. واستقبل أهالى مكة المكرمة «محمد جاوش» حامل القناديل المذكورة بكل حفاوة وأوصلوه إلى حرم المسجد الحرام، حيث قرئ الأمر السلطانى السنى فوق كرسى خاص لذلك، وكسى خلعا فاخرة لبعض الناس الذين اعتيد حضورهم قراءة الأمر السلطانى، وبهذا غمرهم الفرح والسرور وذلك فى سنة ٩٨٥هـ كان محمد جاوش[٢] كاتبا للأبنية المقدسة فى عمارة السلطان سليم، ثم أصبح بعد ذلك مربيًا للسلطان مراد خان الثالث، ولما أريد مكافأته لخدماته الكثيرة كلف بحمل القناديل المذكورة وتوصيلها إلى مكة المكرمة، ومعها الخلع الفاخرة التى أنعم بها السلطان على الشريف «أبو نمى بن بركات» والقاضى «حسين بن أبى بكر الحسينى» وشيخ مكة «لطفى بك زاده» وأمين المبانى «أحمد» بك ووصل إلى مكة فى خلال سنة ٩٨٤هـ[٣].

الذيل

وقد أصبح استقبال الهدايا السلطانية المرسلة إلى كعبة الله بكل توقير وحفاوة عظيمة في حكم العادة لدى أهالى مكة المكرمة، وكذلك قراءة الأمر السلطانى على كرسى فخم سلطانى، وكانت مراسم تبادل الولاة تتم على نفس الصورة.

وقد حضرت أنا جامع حروف هذا المؤلف فى سنة ١٢٨٩ مراسم قراءة الأمر السلطانى السنى الذى يتضمن تعيين محمد باشا واليا على الحجاز.

(١) كانت هذه القناديل مصنوعة من الذهب ومرصعة بحجارة كريمة ثمينة، وكانت صناعتها في غاية الجمال.

(٢) إن الشخص المعروف بـ محمد باشا هو محمد جاوش وبعد أن أصبح مربيًا للسلطان مراد خان الثالث رقى إلى رتبة أعلى وأسندت إليه الوزارة فيما بعد.

(٣) وفى قول آخر إن محمد جاوش وصل إلى مكة سنة ٩٨٥هـ.

وقد اجتمع أهل مكة كلهم أمام المقام الحنبلى الكائن بين ركن «الحجر الأسود» وبئر زمزم، وانتظروا قدوم شريفا مكة المكرمة. وعندما قدم المشار إليهما محاطين برجال الشرطة ومعهما كثيرون من ضباط الجيش، ومر الجميع بكل عظمة واحتشام ونظام من أمام باب السلام، وقفوا أمام الجماعات المجتمعة، واعتلى موظف مكلف بقراءة الأمر السلطانى كرسيا وضع من قبل بين البيت المعظم وبئر «زمزم»، قرأه أولا باللغة العربية ثم باللغة التركية، وبينما كان يقرأ الأمر السلطانى أُلْبِسَ مُفتيّو المذاهب الأربعة والعلماء الذين حضروا الحفل خلعا فاخرة.

وعقب الانتهاء من قراءة الأمر السلطانى اعتلى واحدٌ من أعلم العلماء وأصلح الصلحاء الكرسى، وبينما كان حامل مفتاح الكعبة فى داخل بيت الله أخذوا يدعون الله ـ سبحانه وتعالى ـ بطول عمر السلطان، وللوالى الجديد بالتوفيق فى عمله، وسواء أكان أثناء قراءة الأمر السلطانى أو الدعاء بطول عمر السلطان ودوام ملكه كان باب كعبة الله مفتوحا.

وكان القارئ والداعى يتجهان نحو مقام إبراهيم العالى، لذا كان بيت الله الأعظم فى يسارهما وكان بئر زمزم فى يمينهما، وفى ختام الدعاء طاف جميع المشاهدين ورجال الحكومة بالبيت المعظم، وكان الشريف عبد الله باشا والوالى المشار إليه من ضمن الطائفين انتهى.

وبعد انتهاء مراسم استقبال القناديل التى قدمها السلطان مراد خان الثالث إلى الكعبة طاف بالكعبة الشريفة الشريف «حسن بن أبى نمى»، وعليه الخلعة السلطانية كما طاف رئيس المؤذنين ودعوا الله سبحانه وتعالى ـ بطول دولة السلطان.

وبعد طواف الشريف بالكعبة دخل مع الأشراف والعلماء الكعبة، واعتلى السلم الذى كان قد جهز من قبل، وعلق القنديلين واقفا في المكان الذى صلى فيه الرسول ﷺ ـ يوم فتح مكة، أى المكان الأول الذى تقع عليه عين الداخل فى الكعبة، ودعا بالأدعية المناسبة بدوام بقاء الدولة العثمانية.

وبعد ذلك سلم الموظف المذكور قنديلا آخر ليعلق فى الحجرة النبوية المعطرة حسب التعليمات، وأرسل إلى المدينة المنورة وفى رفقته كثير من الموظفين لتبليغ محافظ المدينة المنورة، بالأمر والإسراع فى اتخاذ ما يلزم إجراؤه.

والسلطان مراد خان الثالث أول من نال من السلاطين العثمانيين شرف تعليق القناديل فى الحرمين الشريفين. وبعد ما أرسل ذلك السلطان المغفور له ثلاث قناديل أرسل مع دفتردار مصر إبراهيم بك قنديلا عجيب الشكل مصنوعا من الذهب الخالص.

وكان فى داخل هذا القنديل عرضحال مسطور بيد السلطان وملفوف بمنديل مزركش بالذهب، ووصل القنديل المذكور إلى مكة المعظمة فى سنة ٩٩٨ فى أوائل شهر المحرم وعلق فى داخل بيت الله.

وأرسل السلطان «أحمد خان» الأول فى سنة ١٠٣٤ قطعتين من الماس(١)، على أن تعلقا فى داخل الكعبة المعظمة.

وأرسلت والدة السلطان عبد العزيز خان بن السلطان محمود الغازى كثيرا من الشمعدانات على أن تعلق بعضها أمام المقامات الأربعة وبعضها فى الساحة الرملية للحرم الشريف، وأحال داخل المسجد الحرام إلى سماء ذات نجوم زاهرة وذلك فى سنة ١٢٨٩هـ.

وقد أرسلت إلى بيت الله أشياء أخرى نفيسة وغالية غير ما ذكر ولكن مع مرور الوقت نُسِيَ واقفوها ومهدوها وأسماؤها ولهذا لم يكن فى الإمكان التحقق من شخصياتهم.

قد أفتى علماء السلف بخصوص تزيين الكعبة بالمعلقات المصنوعة من الذهب أو الفضة على وجهين أحدهما بالتحريم والآخر بالجواز. وعلى هذا التقدير فإن تزيين بيت الله والحجرة النبوية المعطرة بناء على ذلك جائز.

(١) وكانت قيمة هذه الهدية تساوى (٨٠٠٠) قطعة ذهبية وكانت غاية فى جمال الشكل والصنع، وقد ارتئى إهداؤها إلى الحجرة النبوية المعطرة من قبل السلطان ولذلك أرسلت إلى المدينة المنورة، ووضعت فوق الكوكب الدرى الذى يلمع فوق الجهة الجنوبية.

تذكر وتفصل كيف علقت الكسوة على كعبة الله ومن الذين نالوا شرف كسوتها مؤخرا وما هو نوع القماش الذي كسيت به وكيف تم الحصول عليه وكيف تجرى الاحتفالات فيى مختلف المناسبات؟

إن أول من كسا البيت الملك اليمنى من ملوك التبابعة «كرب بن أسعد بن عمر» سؤال ذى الأزعار بن أبرهة ذى المنارين الرايش بن عدى بن حيفى بن سبأ الأصغر بن كعب بن زيد الجمهور بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطنى غريب بن زهير بن هميسع بن العرفج حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وكان حاكم اسمه «فيطون» سببا فى كساء كرب بن أسعد الكعبة المعظمة، وبناء على ما نقله أحد المؤرخين يروى أن أوسًا وأخاه «الخزرج» بن الحارث بن ثعلبة العتيق هاجرا إلى المدينة المنورة قبل هجرة النبى (عليه أفضل التحية) بسبعمائة سنة. وقد كثر أولاد وأحفاد الأوس والخزرج وهما من آباء أجداد الأنصار الكرام، وشكل كل واحد منهما قبيلة وكان حاكم المدينة فى ذلك الوقت رجل اسمه «فيطون».

وكان فيطون الدنئ هذا يهودياً من أشرار اليهود، ولم يكن يسمح لأية واحدة من فتيات اليهود بالزواج إلا إذا أزال بكارتها بنفسه، ثم حاول أن يطبق عادته المستكرهة هذه على فتيات الأوس والخزرج، إلا أن هذا الأمر قد اشتد على بواسل رجال قبائل الأوس والخزرج، وأخذوا يفكرون في طريقة للتخلص من فيطون هذا، وحدث فى ذلك الوقت أن حان وقت زواج أخت «مالك بن عجلان من حفيدات الخزرج، وبناء على هذا اقتضى الأمر أن ترسل الأخت إلى بيت فيطون المنكوب.

وفكر مالك في أن يجد طريقة للتخلص بها من فيطون فلبس زى النساء،

وذهب إلى دار فيطون وهناك استطاع أن يقضى عليه فى مكان ضيق من البيت، إلا أنه تأكد بعد ذلك أنه لا حياة له فى يثرب، فارتحل إلى اليمن وعرض الأمر على ملك اليمن فى ذلك الوقت وهو «تبع أسعد بن أسعد».

وكان تبع أسعد رجلا سديد الرأى عادلا فاستاء كثيرا مما أخبره به ابن عجلان من أخبار مثيرة منفرة، وعقد العزم على أن يزيل ريح يهود يثرب ويسوى دورهم بالأرض هدما، فأعد العدة للرحيل وساق جيشه إلى حدود يثرب والبطحاء، وعندما بلغ تلك المدينة أعمل السيف فى ثلاثمائة من وجهاء القوم.

وبذلك ألقى الرعب فى قلوب من تبقى من اليهود، واستأذن يهودى يسمى شامول بلغ من العمر مائتين وخمسين عاما فى الدخول إلى مجلس الملك، وعندما أذن له بالدخول قال أيها الملك: قد جاء فى الكتب المقدسة أن هذا البلد سيكون مهجرا لنبى آخر الزمان، وإن اسمه الشريف «أحمد»، وهو من مكة المكرمة ومن صلب إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وسيبطل جميع الأديان الأخرى وسيشتهر بلقب «خاتم الأنبياء».

وبناء على ذلك فَنِيَّتُكَ الملكية في تدمير البلد وتخريبه تخالف تقدير الله، لذا يجب عليك أن تتخلى عن فكرتك هذه، وأن تظهر الندامة وهذا أولى بك وأجدر.

وهكذا نطق اليهودى بما أوجب القدر النطق به، وبما أن نطق شامول الذى خاطب به الملك قد أثر فيه، وأضاء نور المحبة المصطفوية جنبات فؤاده، ترك حرب اليهود وأكرم أهل المدينة المنورة ببذل العطايا لهم، وأظهر المحبة التى فى قلبه نحو حبيب الله، ثم اصطحب ذلك اليهودى ـ أو على رواية أخرى ـ اصطحب ثلاثة من أحبار اليهود الزهاد، وسار نحو الكعبة المعظمة لابسا ملابس الإحرام، وبعد الزيارة توجه نحو بلاد اليمن عائدًا مصطحباً معه ابن يامين بن عميرى من أحبار قبيلة بنى نضير وعلى ما سبق ذكره، وأخذ معه «شامول» أو «سحيت وبامين».

ويلزم بناء على هذه الرواية أن يكون مقدم طائفة اليهود إلى المدينة المنورة منذ زمن بعيد وقال: «بينما كانت المدينة المنورة واديا خاليا من آثار العمارة قدم إليها (تبع) من ملوك اليمن.

وكان ملكًا ذا شأن، قدم إليها مع حاشيته وجنوده وطلب منه العلماء اليهود الذين كانوا معه أن يسمح لهم بالإقامة فى هذا المكان، واستغرب تبع من طلب اليهود الذين يتسمون بالفطنة فى رغبتهم فى الإقامة فى هذا المكان الموحش، واستوضح منهم غرضهم من هذه الإقامة، فقالوا له: قد استنبطنا من آيات التوراة أن هذا المكان سيكون مهجرا لنبى عالى المنزلة، هو نبى آخر الزمان، ومن الواضح والمؤكد أننا لن ندرك زمن ظهور هذا النبى، إلا أننا أردنا أن نوصى أحفادنا الذين سيدركون هذا النبى باعتناق ذلك الدين الحنيف، وأن يفدوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن هذا الدين».

وقد تأثر الملك من هذا الرد العجيب، وعرف صفات باعث إيجاد الماء والطين «عليه سلام الله المعين» بالسؤال والبحث، فسمح لأربعمائة من العلماء بالبقاء فى هذا المكان، وبما بزغ فى قلبه من حب النبى ﷺ أمر ببناء منزل فخم يعادل «الخورنق» لكل واحد منهم كما أمر بإعطاء جارية لا مثيل لها لكل واحد منهم.

وأنشد تبع الأبيات الآتية وسلمها لأفضل هؤلاء العلماء اليهود وأكثرهم تبحرا فى العلم، والذى كان مع الملك المشار إليه ورغب فى البقاء فى أرض يثرب من شدة إخلاصه لسلطان الأنبياء «عليه أذكى التحايا».

شهدت على أحمد أنــه رسول من الله بارى النسم

فلو مد عمرى إلى عمره لكنت له وزيرا وابــن عــم

وأودع هذه الأبيات بعد أن كتبها فى لوحة مزينة إلى ذلك الفاضل السالف الذكر، وألقى خطبة يبين فيها إيمانه بما جاء به ﷺ قبل بعثة بسبعمائة سنة.

صورة خطبة الملك تبع

«يا أيها الفاضل فريد عصره إن هذه الدار العظيمة التى هيأتها لمحمد ﷺ ذات

صفات عالية، فلتسكن أنت وأولادك وأحفادك فى هذه الدار، وأى واحد من نسلك يدرك البعثة النبوية ليقدم هذه اللوحة التى تركتها أمانة فى يدك إلى النبى اللامع النور، وليعرض عليه إخلاصى وصدق إيمانى به راجيا منه أن يقبلنى أنا ـ أضعف العباد ـ ضمن أمته».

وبناء على رواية ابن إسحاق فإن اللوحة المذكورة وصلت إلى يد خالد بن زيد «رضى الله عنه»، من نسل المشار إليه وقدمها إلى النبى ﷺ، وبهذا حصل على شرف ضيافة الرسول ﷺ فى داره، إلا أن مؤلف «خلاصة الوفا» الإمام السمهودى يرد هذا القول، ويقول كما ورد فى بعض فصول «مرآة المدينة»: لا يصدق كثيرا أن خالد بن زيد من نسل ذلك الفاضل؛ لأن أجداد الأنصار الكرام كلهم من أبناء العرب، وجملة فروعهم أنسابهم صحيحة، فإن ما ذهب إليه ابن إسحاق غير صحيح، وقوله أن أجداد الأنصار قد اختلطوا باليهود سهو صريح، لأن أبا خالد هو زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد عوف بن غنم بن مالك ابن النجار تيم الله بن ثعلبة بن عمرو بن خزرج، وأمه «هند بنت سيد وأباها عمرو بن امرئ القيس بن مالك بن كعب ابن الخزرج، وهذا يدل على أن خالد ليس من نسل علماء اليهود.

ومع كل هذا قد رد على القارى فى كتابه المسمى بـ «الدرر المضيئة» كل الأقوال السابقة، وروى أن سليمان «على نبينا وعليه سلام الله المستعان» بينما كان يمر من صحراء المدينة المنورة قال: «إن نبى آخر الزمان سيدفن هنا، وترك هناك أربعمائة من أحبار بنى إسرائيل العلماء؛ ليكونوا فى انتظار البعثة النبوية، ولكن للأسف عندما هاجر سلطان رسل الأمصار «عليه أعظم التحية» إلى المدينة أنكره أحفاد علماء بنى إسرائيل، وأظهروا له وجوه المخالفة.

إن أئمة الأسلاف اختلفوا كثيراً فى مسألة إيمان الملك تبع. إلا أن وهب[1] بن منبه[2] ادعى إيمان المشار إليه. وقال إنه آمن بإبراهيم عليه سلام الله الرحيم.

(١) المشار إليه من التابعين.

(٢) إنه من الأصحاب الكرام.

وروى الإمام السهيلى الحديث الشريف الذى يقول «لا تسبوا تبعا فإنه كان مؤمنا» (حديث شريف) وبهذا حكم على إيمانه بالنبى ﷺ!! وذهب بعض المؤرخين إلى أن الملك الذى آمن قبل البعثة هو «تبع أبو كرب بن أسعد الحميرى» الذى علق الكسوة على الكعبة ووالده هو أبو كرب بن أسعد الحميرى ووفق قسم من المؤرخين بين الأقوال المختلفة قائلين «إن المنزل الذى وضع أساسه تبع واللوحة المذكورة انتقلتا إلى خالد بن زيد الأنصارى بطريقة ما، وقدم خالد منزله واللوحة إلى النبى ﷺ ولهذا نال شرف ضيافة النبى عليه السلام. ومهما كان من الأمر فحقيقة الأمر يعرفها عالم السر والخفايا، وأن غرضنا من حكاية كل هذه الأقوال كان التحقق من تزيين تبع الحميرى للكعبة المعظمة بتعليق الكسوة عليها.

إن الملك تبع الذى اختلف المؤرخون فى اسمه وإيمانه وتجادلوا فيما بينهم كثيرا بخصوص هذين الموضوعين كما سبق ذكره فيما سلف ووصل إلى مكة المكرمة عند عودته من المدينة، وفى نفس اليوم طاف بالبيت وذبح أضحية وحلق شعره وأقام بمكة ستة أيام، وعلى قول آخر عشرة أيام، ودعا جميع أهل مكة إلى وليمة، وأسرع بعد الطعام بإلباس الخلع الغالية لبعضهم، وفى أثناء إقامته بمكة أمر فى رؤياه بكساء الكعبة المعظمة، وفى صباح تلك الليلة ألبس الكعبة كسوة مصنوعة من قماش يطلق عليه حصيف، ولكنه رأى فى رؤياه فى الليلة التالية أن يغير كسوة الكعبة بقماش أغلى من «الحصيف». وفى اليوم الثانى كسا الكعبة بقماش يقال له «مغافر» بعد أن أنزل الكسوة المصنوعة من الحصيف، ولكنه مع هذا رأى فى منامه فى الليلة التالية أن يغير كسوة الكعبة المصنوعة بقماش غالى الثمن ذى هدب وأغلق باب بيت الله بقفل وأنشأ يقول:

عربى

وكسوت البيت الذى حرم الله ... مــلاء مغافــرا وبـــرودا
أقمنا مــن الشهـــر عشـــرا ... وجعلنــا إليـــه إكليـــلا
وخرجنـــا منـــه توأمـــا سهيلاً ... قــد رفعنا لـواءنا منصورا

ثم سافر متوجها نحو بلاده . .

وإن كان الإمام الواقدى قد نقل عن أبى هريرة أن أول من علق الكسوة على الكعبة ذلك الملك السعيد إلا أن عبد الرزّاق قال ناقلا عن ابن جريج، أن الذى علق الكسوة على الكعبة قبل جميع الناس هو إسماعيل (عليه السلام).

وادعى «زبير بن بكار» بناء على أخبار بعض أئمة الرواة أن أول من كسا الكعبة المعظمة هو «عدنان» أو رجل آخر عاش فى عصره «انتهى»

وبعد عودة الملك تبع شرع فى إرسال الكساء إلى البيت المكرم من جميع أقطار العالم. وكانت بعض الكسا تعلق على الكعبة وبعضها تحفظ فى خزانة الكعبة وكانت، تجدد من حين لآخر. وكانت الكسا تعلق بعضها فوق بعض، ولم يكن تعليق الكسا خاصا بالرجال بل هناك نساء كسين الكعبة.

إن والدة عباس بن عبد المطلب «نتيلة» أو «نتلة» كانت أولى النساء اللاتى كسين الكعبة. ولم تنل هذا الشرف من نساء قدماء العرب غيرها، وكان سبب نيلها هذا الشرف نذرها لابنها وهى نتيلة بنت جناب بن كليب بن مالك بن عمرو بن عامر، وكان ابنها عباس ضاع منها فى صغره، فنذرت قائلة إن وجدت ابنى سأقدم كسوة إلى الكعبة ولما وجدت ابنها أوفت بنذرها بأن كست الكعبة بالديباج وأنواع أخرى من الأقمشة الغالية.

وقرر القرشيون كساء الكعبة عن طريق المناوبة، وذلك بفرض الضريبة على القبائل، والنقود التى تجمع منها تنفق فى كساء الكعبة، وقد راعوا هذا القرار ابتداء من عهد قصى «بن كلاب بن مرة إلى عصر أبى ربيعة بن المغيرة بن عبد الله ابن مخزوم، ولكن «أبا ربيعة» أقنع أفراد القبيلة بأن تكون كسوة الكعبة سنة بين جميع أفراد القبائل، وسنة تكون على حسابه، كما ذكرنا سابقا ولذا كان القرشيون كلهم يكسون الكعبة سنة ويكسوها «أبو ربيعة» بمفرده سنة، واستمرت هذه الحالة إلى أن توفى أبو ربيعة.

وكانت الكسا التى تعلق على الكعبة من أقمشة مختلفة وكانت تصنع فى زمن تبع الحميرى من أقمشة مثل الحصيف والمغافر والحصايل والعصب والمسوح

والسراء والتطابح. وفى عهد جاهلية العرب من المنسوجات مثل «الخطارف والخزن والخضر والصفر والكرار والنمارق العراقية والحبرات اليمانية وفيما بعد أطلق على الجزء السفلى من الكسوة والذي يلى أرضية المطاف «الإزار» كما سيرد فيما بعد.

والكسا التى تعلق فى أيامنا ليست قطعتين كما كانت من قبل بل قطعة واحدة، والكسوة البيضاء التى نرتديها وقت الإحرام تتكون من قطعتين لأن البيت الأعظم يكسى بالإحرام، بينما يخرج الحجاج إلى عرفات أى تعلق على الكعبة قبل حلول عيد الأضحى بأيام كسوة بيضاء، واسم هذه الكسوة البيضاء بناء على تعبير عرف البلد إحرام، وهى بدل الكسوة التى كان يطلق عليها قديما «الإزار» وغيرت الكسوة فى عهد نبينا السعيد، مجدد بنيان الشريعة (عليه أقوى التحية) بالأقمشة اليمانية، وفى أيام الخلفاء الراشدين غيرت بالديباج المزركش، وأخذت تغير مرتين فى السنة فى يوم «التروية» ويوم «عاشوراء» وهذا التجديد أصبح عادة متبعة.

روى أبو عروبة أن النبى ﷺ علق على الكعبة كسوة مصنوعة من قماش يسمى القباط كما يروى بعضهم أن عمر وعثمان ـ رضى الله عنهما ـ علقا كسوة على الكعبة.

وروى الإمام «الباقر» أن الذى حول ستارة الكعبة إلى الديباج هو يزيد بن معاوية.

وينقل أن الذى غير كسوة الكبعة إلى الديباج هو عبد الله ابن الزبير[1] ويقول الإمام الفاكهى «إن أول من علق الديباج الأبيض على الكعبة هو هارون الرشيد.

وكان صنع الكسوة من الديباج الأبيض من القواعد الجارية إلى عهد محمود سبكتكين». وبدل محمود سبكتكين الكسوة إلى الديباج ذا اللون الأصفر، كما بدلها ناصر العباسى بقماش أخضر، وفيما بعد بدلها بالقماش الأسود كما سنبين فيما يأتى.

يطلق يوم التروية على اليوم الذى قبل يوم عرفة، وكان قديما يعلق على سطح

(١) وقد جدد ابن الزبير الستارة الشريفة عام ٦٤هـ.

بيت الله أنواع من الديباج الغالى الثمن، ولم يكن يحاك كالكسوة حتى لا تخسر من ملامسة الأيادى، ولم يكن الأزرار يدرج فيها، وفى يوم عاشوراء كانت الأقمشة التى علقت يوم التروية تحاك بعضها ببعض، وتأخذ شكل الكسوة وتظل على هذا الشكل إلى اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان، وتعلق فوق هذه الكسوة كسوة أخرى من قماش القباطى السميك.

وقد قرر فى عهد المأمون العباسى تغيير الكسوة الشريفة ثلاث مرات فى السنة، فكانت تعلق فى يوم التروية كسوة مصنوعة من قماش أحمر، وفى غرة رجب كسوة مصنوعة من القباطي السميك، وفى أول أيام عيد الفطر المبارك تعلق كسوة من ديباج أبيض، وأخيرًا اتخذ تغيير الملاصق للديباج الأحمر فى يوم عاشوراء عادة متبعة، إلا أن هذا الإزار كان مصنوعا من قماش رقيق ولا يتحمل سنة واحدة؛ ولذا رئى تغييره فى يوم عيد الفطر المبارك مع تجديد الديباج الأبيض.

وفى عهد المتوكل بالله تمزق الإزار المذكور إربا من أيدى المتوسلين ولم يتحمل إلى شهر رجب.

فأرسل من بغداد عاصمة دار الخلافة إزارين، وتقرر أن يصل الديباج الأحمر الذى يطلقون عليه «القميص» إلى الأرض ويلامسها وأن يجدد الإزار مرة كل شهرين.

وسبب تجديد الإزار مرة كل شهرين كون القميص غاية فى القصر لأن قطعة الستارة التى يطلق عليها القميص كان قد صنع قصيرا جدا بحيث لا تصل إليه الأيادى، وذلك فى عصر المتوكل بالله وكان الناس مضطرين أن يتوسلوا بالإزار، لذا كان الإزار يتمزق سريعا ويصير قطعا صغيرة.

وكانت ستارة الكعبة فى العصور الإسلامية ولا سيما في عصر المتوكل بالله تصنع من قطعتين: «القميص» و «الإزار» وكان الجزء العلوى من هذه القطع يطلق عليه قميص والجزء الأسفل إزار تشبيها لهما بالقميص والإزار.

لازمة

إن ما يستر النصف الأسفل من الجسم يسمى بالإزار بكسر الهمزة، أما الثوب الذى يستر ما فوق الخصر فيسمى الرداء. ولما كان لبس الرداء والإزار من القواعد المرعية فى الجزيرة العربية، كان الرسول ﷺ يلبسهما أيضا، حتى إن الرسول ﷺ عندما ودعنا لعالم الغيب كان يلبس رداءاً مرقعا وإزارا منسوجا من خيوط غليظة، وكان الإزار الذى يكتسيه الرسول ﷺ يصل إلى نصف ساقه[1] ويرى أن استعمال إزار أطول من هذا مكروها.

وأشار النبى ﷺ وهو يشرح يوماً لحذيفة بن اليمان ما يجب أن يكون عليه طول الإزار لساق المشار إليه أو لساقه عليه السلام: «هاهنا موضع الإزار» حديث شريف. إذا أردت أن تعمل بالأفضل يمكن أن يكون طول الإزار ما بعد نصف الساق وفوق الكعب وإذا أردت أن تنزل الإزار إلى الكعبين فإن هذا غير جائز لأن الإزار لاحق له فى الكعبين.

واختلف العلماء فى تعيين مدى طول إزار النبى ﷺ بالأذرع، فقال ابن الجوزى: «إن طول الإزار الذى كان يرتديه الرسول ﷺ كان أربعة أذرع وذراعين ونصف فى العرض «أما ابن القيم فقال «إن طوله كان أربعة أذرع وشبرا وعرضه ذراعين»، وقال الواقدى «إن طوله كان ستة أذرع وثلاثة أذرع وشبرا فى العرض».

إن ما قيل فى طول الإزار وما يجب أن يكون عليه خاص بالرجال، وأما إزار النساء فيلزم أن يكون أطول من إزار الرجال شبرا أو ذراعا ويسرى هذا الحكم على القميص وسائر الملابس. وبما أن الإزار والرداء معروف لدى الحجاج فإن قطعة القماش التى يلفون بها خصورهم يطلق عليها الإزار، وما غطوا به ظهورهم يطلق عليه الرداء.

وكانت الكسا التى تعلق على الكعبة من عهد المأمون العباسى إلى عهد الناصر لدين الله أى فترة ٣٧٠ عاما تصنع من ديباج أبيض. وفى عصر الناصر لدين الله

(١) يطلق على العظام التى بين الركبة والعقب الساق.

قرر اتخاذ الكسا من نسيج مصنوع من قماش أسود، والآن تصنع من قماش أسود.

نكتة

حينما بدل لون الكسوة الشريفة إلى الأسود سر الكل من هذا التغيير وفق ما فهمه، وكان سببا فى كثير من القيل والقال وحمل الفاضل القسطلانى هذا التغيير إلى نكتة وقال «إن البيت المعظم حينما رأى قلة زواره لبس ملابس الحزن» انتهى.

وفعلا إن نكتة الفاضل القسطلانى تطابق الواقع. إلا أن غرض الناصر لدين الله العباسى لم يكن الإيماء إلى تلك النكتة، بل كان يريد أن يعلم الناس شعار العباسيين القديم. لأنه عندما أفل نجم الدولة الأموية وتلألأ بدر الدولة العباسية أعلن العباسيون شروق شمس دولتهم بالرايات السوداء، حتى أنهم اتخذوا استعمال جبة سوداء وعمامة سوداء أيضا عادة لهم.

وسبب هذا عندما مات إبراهيم بن محمد فى سجن مروان لبس المحزونون عليه ملابس المأتم السوداء، لأنه عندما ثار أبو مسلم الخراسانى بكل عنف طالبا من الناس البيعة لإبراهيم بن محمد، قبض مروان على «إبراهيم وسجنه، وعندما علم الخراسانى أنه لا خلاص لإبراهيم من بئر مروان، أخذ يدعو الناس ليبايعوا السفاح بن محمد، وفى ذاك الوقت خنق مروان الحمار محمد بن إبراهيم ورمى جثته، وعندئذ لبس المبايعون للسفاح ومحبو العباس بن عبد المطلب الملابس السوداء إظهارا لحزنهم، وأخذوا يدعون الناس لأخذ الثأر رافعين الرايات السوداء.

وبناء على ما سبق ذكره أصبح لبس الجبة السوداء والعمامة السوداء من شعار الخلفاء العباسيين إلى عهد المأمون بن هارون. لأن المأمون أراد أن يظهر حبه لآل الرسول فبايع الإمام على الرضا، وزوجه ابنته، واتخذه وليا للعهد، وخلع الملابس السوداء شعار العباسيين، ولبس جبة خضراء، وأعلن بذلك أنه يجب

على الأشراف والسادة وعظماء العباسيين والجعافرة وسائر فرق المسلمين لبس الملابس الخضراء؛ إذا أرادوا أن يمتازوا على الآخرين.

عندما اختص المأمون السادات الكرام بلبس جبة خضراء وعمامة خضراء أيضا كان المسلمون مختلفين فى حرمة لبس العباسيين الملابس السوداء وسائر المسلمين الملابس البيضاء، واليهود الملابس الصفراء كما يخبرنا به «ابن حجر» فى كتابه الصواعق. . ، ولذلك اختار المأمون من أجل السادة الكرام اللون الأخضر، ولما بقيت الخلافة فى بنى العباس استمر أشراف العلويين فى لبس ملابس خضراء. إن اعتمام الأشراف منهم بعمامة خضراء عادة بقيت من أيام المأمون، وللأسف الشديد توفى الإمام بعد فترة قصيرة فلبس المأمون جبة سوداء حزنا عليه.

ويتفق أكثر الرواة على أن المأمون حينما لبس الجبة الخضراء كان فى خراسان، عندما مات الإمام رجع إلى بغداد مرتديا الملابس الخضراء التى اختارها، ولكنه لبس الملابس السوداء بعد عودته إلى بغداد بثمانية أيام وذلك بعد إلحاح عليه من بعض وزرائه.

ويذهب ابن خلكان إلى أن المأمون قد أمر المسلمين بعدم ارتداء الملابس السوداء، وشاع فى هذه الفترة أنه ينفر من لبس الملابس السوداء شعار العباسيين. ولكنه فى النهاية لبس الملابس السوداء نتيجة وفاة أحد أقاربه وأصدقائه وذلك فى سنة ٢٠٤هـ.

وادعى فريق من المؤرخين أن اعتمام المأمون بالعمامة الخضراء لم يكن ناشئاً من حبه لآل وأبناء الرسول، بل نشأ من حرصه على ألا يقع زمام السلطنة فى أيدى العلويين، وأيدوا ادعاءهم قائلين: «قام العلويون فى عهد المأمون يطلبون الخلافة متفقين، فأراد المأمون أن يصلح ما بين العباسيين والعلويين، وأراد بذلك أن يتنازل العلويون عن مطالبهم، وبعث بأخى والدته رجاء بن الضحاك إلى المدينة المنورة لدعوة الإمام على الرضا بن موسى الكاظم إلى بغداد وعندما وصل إلى بغداد جمع جميع العباسيين والعلويين فى مجلسه، وخاطبهم قائلا: «يا أيها المسلمون: لأننى لم أجد بين آل عباس وآل الإمام على من هو أولى بولاية العهد من الإمام على ولذلك عينته وليا للعهد، ثم كتب حجة فى صحيفة وقدمها إلى

الإمام على، ثم زوج ابنته أم الفضل من محمد تقى ابن الإمام، وخلع الجبة السوداء الخاصة بالعباسيين ولبس جبة خضراء جاعلاً لبسها خاصاً بالسادة الكرام، ثم ألبس الإمام عليا جبة خضراء وأمر جميع السادات بلبس ملابس خضراء.

وهذا ما وقع موقع الرضا والقبول من أهل الإيمان فلهج بمدحه والثناء عليه كل لسان، ولكن فرقة «ذيلة» من رؤساء القبائل التابعة للعباسيين، أرادوا أن يسقطوا المأمون من عرش الخلافة، وأطمعوا عمه إبراهيم فى الخلافة؛ وهذا الخبر المفزع أقلق المأمون الذى كان فى ذلك الوقت فى خراسان، فعاد إلى بغداد بينما سافر الإمام علي إلى طوس.

حينما دخل المأمون بغداد كان يرتدى جبة خضراء، وإن كان الناس جددوا البيعة له إلا أنهم لم يعجبوا بعمامته وجبته، فخلع جبته وعمامته الخضراوين بإيعاز من أهله وأصدقائه، ولبس الملابس السوداء وأعلن أن يستمر العلويون فى ارتداء الملابس الخضراء.

ومما لم يغب عن أذهان أهل الدقة والفكر أن ما ذهب إليه ذلك الفريق من المؤرخين مخطئون فى ادعاءاتهم؛ لأن محبة المأمون لأهل البيت ثابتة بأقوال هؤلاء المؤرخين أنفسهم. وبما أن المأمون قد وضع نظام ارتداء العلويين العمامة الخضراء، فقد اعتاد العلويون أن يعتموا بالعمائم الخضراء. وقد تركت تلك العادة فيما بعد، وهكذا أصبح أبناء الرسول لا يتميزون عن الآخرين.

إلا أن الملك الأشرف «شعبان» بن حسن من الملوك الشراكسة فى مصر أظهر حبه وحرمته لآل البيت إذ جدد عادة الاعتمام بالعمامة الخضراء ولبس الجبة الخضراء القديمة(١) وذلك فى سنة ٧٧٢هـ.

عندما قرر اعتمام أولاد النبى بعمائم خضراء أنشد أبو عبد الله الأندلسى(٢) من شعراء الزمان العظماء القطعة الآتية:

---

(١) يصدق الإمام السيوطي على هذا القول.

(٢) إن هذا الشخص كان أعمى.

جعلــوا لأبنــاء الرسـول علامـة   إن العلامــة شــأن مـن لـم يشـهر
نـور النبوة فى كريم[1] وجوههم   يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وأيد شمس الدين محمد بن إبراهيم بن بركة الدمشقى من أدباء دمشق صواب رأى الملك بإنشاد القطعة الآتية.

القطعـة

أطراف تيجان أتت من سنـدس   خضر بأعــلام عـلى الأشراف
والأشرف السلطان خصهم بها   شرفـا ليفرقهـم مـن الأطـراف

استصواب رأى:

يجب على الناس جميعا استصواب ما ذهب إليه الملك الأشرف المصرى، لأنه لا شك فى أن السادات الكرام يجب احترامهم. حتى إن حضرة مولانا قتادة قدس الله سره كان يقول: إذا ما رأيت فى مجلس شخصا من آل الرسول تحيرت فى كيفية إكرامه وتوقيره. وقد أطنب ابن حجر فى رسالته التى تسمى «الصواعق» فى ذكر ما يجب على الإنسان من توقير آل الرسول واحترامهم، ولكنه أشار أيضا أنه يجب عليهم أن يبتعدوا عن ارتكاب المعاصى. والأبيات التالية من آثار صاحب كتاب «كمنجيه راز» أى خزانة الأسرار ونوردها فى هذا المقام لأنها تناسبه.

الأبيات:

لتكن لهذا الرب على الدوام الصلـوات
فمنها الظهـــــــور للحسنـــــــــات
ومـــن الآل رمــــز وتنبيـــــــــه
إلى أن الولد ســـــــر أبيـــــــه

(١) يروى بدل كريم وسيم أيضا.

ومن الحق بعيد من كذب علـــى الآل
ومن غصين لا يثمر حتى الثمر محال
إن الضال بخداعــــه لا يفلـــــــح
والحجر الأسود ياقوتـــا لا يصبـــح

«عن فرح الروح»

إن لبس الملابس والاعتمام بسود العمائم كان قبل عهد الخلافة بزمن طويل ويقول المؤرخون إن على بن أبى طالب والحسن ـ رضى الله عنهما ـ وكثير من وجهاء القوم كانوا يكتسون سود الثياب، كما أن عثمان بن عفان كان يكتسى ثياباً سوداً يوم استشهاده، كما يروى أن على بن أبى طالب قد ألقى خطبة بليغة وهو لابس ملابس سوداء ومعتم بعمامة سوداء.

وكان عبد الله بن الزبير يقيم العمامة سوداء حينما كان يخطب، كما أن أنس بن مالك وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر «رضى الله عنهم» كانوا يلبسون جببا وعمائم ومناديل الرأس السوداء.

كما أن ابن المسيب كان يرتدى فى أيام الأعياد ملابس سوداء، ويعتم بعمامة سوداء أيضا، كما أن عبد الله بن عباس كان يلبس ملابس سوداء ويعتم بعمامة سوداء أيضا حينما يجلس فى ملجس تلقى العلوم.

ورد فى الخبر أن جبريل ـ عليه السلام ـ أتى يوما أمام النبى ﷺ بملابس وعمة سوداء. وقد أظهر النبى ـ ﷺ ـ عجبه له قائلا: ما هذه الصورة؟ فإنى إلى الآن لم أكن قد رأيتك من قبل بهذه الملابس السوداء! فقال له إن هذه الهيئة هى زى أولاد ابن عمك عباس الذين سيعتلون كرسى الحكم فسأله ثانية هل هم على حق؟ فرد عليه قائلا: نعم. فدعا لهم قائلا «اللهم اغفر للعباس».

وكان هذا الأمر سبب آخر لارتداء العباسيين الملابس السوداء إذ قال النبى ـ ﷺ ـ لعمه العباس بن عبد المطلب وزوجته أم الفضل «يبدو أن أولادكم

وأحفادكم سيعتلون منبر الخلافة المنير» وبهذا أبلغهما ما أخبره به جبريل ـ عليه السلام ـ وقد دفعهما هذا الخبر إلى انتظار ذلك الوقت «انتهى».

كان تعليق الكساء إلى سنة ٥٣٣ خاصا وحصرا للملوك والسلاطين إلا أنهم فى تلك السنة شغلوا بدفع الأعداء وتهيئة ما يلزم من القوت للجيوش؛ ولذا لم يستطيعوا أداء خدمة تعليق الكسوة على الكعبة؛ لذا رتب كساء الكعبة من طرف التجار بطريقة اشتراك كل واحد منهم بدفع حصته اللازمة.

إن الرياح التى أخذت تهب فى أواخر سنة ٦٤٣هـ بشدة قد مزقت كسوة الكعبة وجعلتها قطعا فى يوم الثلاثاء الخامس عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٤٤هـ وبعد هذا ظلت الكعبة بدون كسوة ما يقرب من واحد وعشرين يوما.

هناك مقترحات وأسباب كثيرة لسقوط الدولة العباسية وانقراضها إلا أن الناس عدوا تمزيق الكسوة بهذا الشكل مقدمة لزوال اللون الأسود شعار العباسيين وانقراض دولتهم، وفعلا قد سقطت الدولة العباسية بعد ذلك بفترة يسيرة.

وبعد ذلك الحادث بثمانية أعوام ظهرت نار فى «عدن» من سلسلة جبال مكة، وكانت هذه النار تسرى نحو البحر وتخرج ليلا دخانا أسود، وقد خاف الناس من ظهور هذه النار وقلقوا واضطربوا وأخذوا يديمون الدخول إلى الحرم الشريف للتوبة وللاستغفار، وتركوا الظلم والفسق والفساد وأخذوا يؤدون زكاتهم وصدقاتهم متجهين لعمل الخير. «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة».

محاصيل القرى السبع الموقوفة للكسوة الشريفة

حينما أخذت شمس خلافة آل عباس تتوارى بين سحب الانقراض والزوال، انتقل تجديد كسوة الكعبة إلى السلاطين المجاورة من ملوك اليمن وغيرهم. فكانت كسوة الكعبة الشريفة لملوك اليمن حينًا ولغيرهم من السلاطين حينا آخر.

وفى خلال عام ٧٥٠ أوقف الملك الصالح إسماعيل، ابن الناصر محمد

المصرى، ربع أراضي القليوبية الخاصة بقرى سندس، وأبو الغيث، ويبنون على صنع الكسوة الشريفة، وعلى هذا أمر سلاطين مصر أهالى تلك القرى بصنع كسوة سوداء فى كل عام، ويرسلونها إلى مكة المعظمة، وعندما يتبدل السلاطين كانوا يضيفون إلى الستارة السوداء ستارة أخرى حمراء لتعلق على جدران الكعبة الداخلية.

وكان من العادة أن ينسج على الستارة الحمراء عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» الكلمة المنجية، ولكن أحيانا كانت تكتب آيات قرآنية جليلة وأسماء أصحاب المعالى، وفى عيد جلوس السلاطين المصريين ترسل إلى الروضة المطهرة للنبى ـ ﷺ ـ قطعا من أقمشة خضراء، وحينما خلص السلطان سليم بن بايزيد خان «عليهما الرحمة والغفران» مصر من أيدى ملوك الشراكسة وجبت خدمته للحرمين الشريفين.

فكسا الحجرة النبوية المعطرة بأشكال ذات ألوان، وكسا الكعبة بكسوة سوداء على نحو ما كان عليه الحال فى السابق.

لأن السلطان سليم أزال الخلافة العباسية التي فى مصر ونصب الملوك العثمانيين خلفاء العالم الإسلامى واستولى على البلاد الحجازية المقدسة فجعل البلاد العثمانية قبلة المسلمين واستصوب أن يسير على آثار الملوك الشراكسة ورأى أن يصنع كسوة الكعبة أهالى القرى التى وقفها الملك الصالح لذلك، ورجح السلطان سليمان ـ جعل الله مثواه الجنة ـ أن يظل صنع الكسوة الشريفة فى يد أهالى القرى التى سبق ذكرها ولكن القرى التى أمر الملك الصالح أهلها بصنع الكسوة أشرفت على الخراب وقلت مواردها فقرر أن تكمل نفقات الكسوة من خزينة الدولة المصرية ثم أمر أن توقف قرى أخرى حتى تصل الواردات إلى نصابها لصنع الكسوة وأملى أن ترسل الكسوة الشريفة مصنوعة من وقف الملك الصالح.

القرى التى ضمها السلطان سليمان إلى وقف الملك الصالح كانت سبع قرى

ونحن استطعنا أن نحصل على صورة لحجة الوقفية التى أرسلت فى ذلك الوقت إلى والى مصر والتى تبين موارد تلك القرى فى ذلك العصر وقيمتها وكيفية إنفاقها وإدارتها بعد أن قيدت في سجلات مصلحة الأوقاف وقد رأينا إدراجها هنا تبركا بها.

صورة وقف الكسوة الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذى رفع القبة الخضراء ووضع بساط الخير وسمك فى سمائه الأفلاك، ملك فى أرضه الأملاك، ففتح مناهج الملك والدولة الغراء بيمن وقاية السلاطين وحسن رعاية الأمراء، وجعل الكعبة البيت الحرام لشعائر الدين الزهراء ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ١٥٨) واستعد بحجة يوم الجمرات ثم الصلاة والسلام على سيد الأنبياء محمد أعلم الرسل الأعلام والأبناء وعلى آله الكرام الأتقياء وأصحابه العظام الأصفياء.

نمقه العبد المحتاج إلى عفو ربه محمد بن قطب الدين محمد القاضى بالعساكر المظفرة المنصورة فى ولاية الأناضول.

أما بعد فهذه وثيقة أنيقة بديعة المعانى والبيان، بليغة المبانى والتبيان، توارى عبارتها راحا رحيقا، بل هى أصفى، وتجارى استعاراتها مسكا سحيقا بل هى أزكى، يشعر عما هو الحق القاطع، ما حواه فحواها، ويجير عما هو الصدق الساطع، ما أداه مؤداها، وهو أنه قد بان لكل ذى عقل سديد أن الدّنيا الدنية قنطرة العابرين ورباط المسافرين، يحل هذا ويرحل ذاك، ولا يدرى أحد إلا ويمتطى صهوتى أدهم الليل وأشهب النهار، ويسير مع السائرين إلى منتهى الآجال والأعمار، وهى موعظة ما قال سيد الكائنات عليه أفضل الصلوات «اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت، فلا ريب أن العاقل من اعتبر من الرواحل واتخذ فيها لرحيله ذخيرة وزاد، وادخر لمقامه الباقى عدة وعتاد بالصدقات التى ينال بها النجاة، ويتوسل بها إلى الجنات على ما نطق به القرآن وحديث رسول الرحمن، حيث قال عز من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف ٨٨) وقال عليه الصلوات التامات: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية» (حديث

شريف) ألا وهى الوقف فلما تذكر فى جميع ذلك السلطان الأعظم، والخاقان الأكمل الأكرم، ظل الله فى أرضه وخليفة على خليفة فى رفعه وخفضه؛ علوى العلا من آل عثمان عثمانى المحيا، من سلاطين الزمان سلطان البحرين والبرين، والعرض القائم بالسنة والفرض، عاشر المجددين لدين الإسلام بأحسن المعاشر، وعاشر السلاطين كالعقد العاشر السلطان ابن السلطان ابن السلطان سليمان شاه بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان لازالت حديقة حقيقة العالمين منضرة بماء حياته، ونماء ذاته وحدقة العالمين منورة بضياء صفاته، وبضياء سناء حسناته، وبلغ أرواح آبائه وأجداده الرحمة، وسقاهم بالكوثر وأسبغ عليهم نعم غفرانه، وأنذر منها ورأى فى نفسه النفيسة نعم الله تعالى جزيلة لا يسع شكرها على ذاته الكريمة منه منة جميلة ليس من طوقه ذكرها أراد استقرارها بالأوقات القارة واستمرارها بالإرادة الدارة متفكرا فى قول الملك الخلاق، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦) ونظر فى قول (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (حديث شريف) دعا لما بان تعظيم الكعبة المستورة بالأستار العالية وتشريفها فى الحج يوجب الجنة، ويصل الهدف الساتر من العذاب والجنة، وسيما في قلبه من قول الرسول «من زارنى وجبت له شفاعتى» (حديث شريف) أن يستشفع منه بتكريم قبره بالأستار بل بتشريف مراقد الاتباع وستر مراصد الأشباع، أيضا بالإزار تنزيلا أية منزلة الزيارة الدائمة، والخدمة القائمة على مر الدهور فإن تلك المواضع وإن كانت جرت العادة بسترها لكنها كانت بالأموال المتطرقة المتفرقة، فأحب أن يكون ما يصرف إلى هذه الآثار الشرييفة، من الأموال المتميزة المنيفة، فعين لهذه أجمل أملاكه وأسبابه، وأجمل أكسابه، فلذلك قد قال لدى المولى الفاضل، النحرير الكامل، مصباح رموز الدقائق، مفتاح كنوز الحقائق، كشاف المشكلات، حلال المعضلات، الموقع أعلى هذا الكتاب، يسر الله له حسن المآب بقوله الشريف ولطفه اللطيف، العارى عن الاعتساف، الحاوى على الإقرار والإعتراف، الذى يجوزه الشرع لاحتوائه على ما يغير الأصل والفرع، وحكى بأنه قد أوقف سبلها، وحبس أملاكها، وكملها

على النمط الأكفأ الأشمل، وعلى الطريق الأكمل، لتكون لهذه المصلحة أوقافا قارة، وإدارات دارة، فى الدنيا العاجلة، ومفيدة له فى يوم الجزاء والآجلة، وتكون عدة معدة لغده عن أمسه، ومزية منورة لا تفارقه فى رمسه وتصيرها جسره من العذاب، وحجة ويكون جزاءها مثل جزاء الحج المبرور، وتكون باعثة للرفاعة، وموجبة للشفاعة، منها جميع القرى المسماة ببسوس وأبو الغيث وحوص بقمص الواقعة بالولاية المصرية التى كان يحصل منها فى السنة الواحدة مبلغ (٨٩٠٠٠) درهم ومنها جميع القرى الجديدة الواقعة فى الولاية الشرقية بالديار المصرية أولها قرية (سلكة) حصل منها فى تلك السنة مبلغ (٣٠٤٩٦) درهما، وثانيها: قرية (سيرونجنجة) حاصل ما فيها مبلغ (٧١٨٢٠) درهما، وثالثها قرية قريس الحجر حاصل ما فيها مبلغ (٥١٣٠٤) درهما، ورابعها قرية المنايل وكوم ريحان حاصل ما فيها مبلغ (٣٧٨٤٠)، وخامسها قرية (بيجام) حاصل ما فيها (١٤١٣٤) درهما، وسادسها قرية (منية النصارى) وحاصل ما فيها (٦٠٨٥٨) درهما، وسابعها قرية (بطاليه) وحاصل ما فيها (١٠٤٨٤) درهما، وجميع النقود المذكورة فى تلك السنة المسفورة مبلغ (٣٦٥١٥٢) درهما فضيا محاذيا بنصف القطعة رائجا فى الوقت أيد الله تعالى دولته من سكها باسمه السامى، ورفه رعاياه بعدله المتوفر النامى، وقف جميع القرى المزبورة المستغنية عن التحديد والتعريف والتبيين والتوصيف لشهرتها فى مكانها عند أهاليها وجيرانها، ولكونها مشروحة ومعلومة في الدفاتر السلطانية والمناشير الخاقانية بجملة مالها، الحدود والحقوق وما ينسب إليها بالأصالة والحقوق والمراسم والمرافق والمداخل والطرائق، خلا ما يستثنى منها شرعا من المساجد والمعابد والمراقد والمقابر والأملاك والأوقاف، وسائر ما يعرف مبينا بينه بالأسامى والأوصاف، وسلم جميعها إلى من ولاه عليها بموجب الشرع المنصوص للخدمة بالأمانة والاستقامة فى هذا الخصوص، وتسلمها هو منه للتصرف بالوجه السداد، على ما هو المراد، تَسْلِيمًا وتَسَلُّمًا صحيحين شرعيين.

ثم عين السلطان الفائق على حذافير السلاطين فى الآفاق، بالاستهلاك والاستحقاق والسابق فى مضامير التدابير بمكارم الأخلاق، ومراسم الإشفاق

لازالت شموس سعادته أبدية الإشراق، وما برحت نجوم سلطنته محمية عن الانمحاق، مما يحصل من تلك القرى الموقوفة المذكورة لى حسب التخمين التى مدرها حصل السنة المشروحة المزبورة فالتعيين على هذه النسبة فى جميع الأعوام، وقلت المحصولات وحلت بتفاوت الشهور والأيام مبلغ مائتى ألف درهم وستة وسبعين ألف ومائتى وستة عشر درهما لأستار ظاهر الكعبة الشريفة شرفها الله تعالى فى مرة على ما جرت به العادة القديمة فى السنين الماضية القديمة طبقا على هذا التخمين بعد الصرف المذكور فى السنة مبلغ ثمانية وثمانين ألف درهم وتسعمائة درهم وثلاثين درهما، وشرط أن يحفظ ذلك الباقى بحفظ المتولى تمام خمسة عشر عامًا، فيكون عدد الجمع فى هذا العام على التخمين التام مبلغ ثلاثة عشر مرة مائة ألف وأربعين درهم، فعين من هذا الباقى فى المحفوظ المجموع المسطور لأستار المواضيع التى تجدد فى كل خمسة عشر عاما مرة.

وبعد تجديدها المزبور لا تجدد كل سنة بل تروح إلى انقضاء خمسة عشر عاما آخر ثم تجدد مرة أخرى كذلك ثم فثم إلى أن ينقضى الدهر ويتم لكل مرة من تلك المرات وفى كل كرة من هذه الكرات بالتخمين المزبور، والتعيين المذكور مبلغ ألف درهم واحد وخمسين ألف درهم وثلاثمائة درهم وسبعين درهما فضيا رائجا، وتلك المواضع التى يصرف إليها هذا المقدار فى خمسة عشر عاما مرة داخل الكعبة الشريفة، ووالروضة المطهرة المنيفة أعنى بها التربة المنورة لسيد الكونين ورسول الثقلين نبينا محمد (عليه أفضل الصلاة والسلام) إلي يوم القيامة بالمدينة المنورة، والمقصورة المعمورة فى الحرم الشريف، والمنبر المنيف ومحرابه محراب التهجد، والأستار الأربعة لنفس الحرم الشريف، ومحراب ابن العباس وقبر عقيل بن أبى طالب، وحضرة الحسن، وحضر عثمان بن عفان، وفاطمة بنت أسد (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين)، وما زاد بعد هذا وهو مبلغ خمسمائة ألف درهم واثنين وثمانين ألف درهم وستمائة وسبعين درهما لاحتمال أن يقع بعض السنين النقصان، بسبب الشراقى وطوارق الحدثان، لأن هذا بالتخمين وإن لزم فى بعض السنين، جبر النقصان فليجبر من هذا الفضل ذاك

الزمان، وإن وجد فى انقضاء المدة وبعد الصرف شىء مما يزيد ويفضل سواء كان هذا المقدار أو أكثر منه أو أقل فليشتر بالموجود المذكور الملك المناسب للوقف من العقار الواقع فى موضع الرغبة والاشتهار ليكثر محصول الوقف وتوفير مواضع الصرف بإلحاق هذا المشترى والمتاع بسائر الأوقاف واستغلاله معها بل وصرف غلاته إلى المصاريف المبينة بالأوصاف، وتنمية الوقف وتقويته بهذا التكثير، وتمشيته وتوسعته بذلك التوفير، وهذا بعد رعاية شرط أنه إن وقعت المضايقة فى هذا الوقف أو فى الوقف الآخر الذى وقفه السلطان أيضا على مصالح الفقراء الذاهبين إلى الحجاز وعلى جمالهم وعلى سائر مهماتهم وكتب له وقفية مستقلة مشتملة على هذه الشروط والقيود تكون مرعية بالخلود والأبود، يلزم أن يعين كل واحد الآخر من الجانبين بزوائده، وبفاضل عوائده، بإتمام ما به ويلزم له وبتكميله لدفع مضايقته، وضرورته وإسعاده واجتهاده إقرارًا واعترافا صحيحين شرعيين مصدقين محققين مرعيين وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا مرعيا حاويا على الحكم بصحته أصلا وفرعا، على وجه يعتد به دينا وشرعا، وغب رعايته شرائط الحكم والتبجيل وفى حصول الوقف والتسبيل، لدى المولى الفاضل النحرير الكامل الموقع أعلاه الصك الدينى، والحفظ اليقينى، وفتح الله أبواب الحقوق بمفاتيح أقلامه، وأحكم الأمور بثبوت أحكامه، فصار وقفا لازما مسلسلا متفق عليه على مقتضى الشرع ومرتضى أحكامه بحيث لا يرتاب صحته وابترامه لوقوع حكم المولى الموصى إليه على رأى من رآه من الأئمة الماضين المجتهدين (رضوان الله تعالى عليهم أجمعين) عالما بالاختلاف الجارى فى مسألة الوقف فعلم خلوده بخلود السموات وأبوده بأبود الكائنات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. فلا يحل بعد ذلك لأحد يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن ينقصه أو يعطله أو يحوله أو يبدله فلا يملك بعد ذلك المؤمن أو الخائف من الله المهيمن بعد ينقصه أو يعطله أو يحوله ما سمع قول الرب **﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾** (هود: ١٨) وأجر الواقف بعد ذلك على أرحم الراحمين.

جرى ذلك، وحرر بالأمر العالى الخاقانى لازال عاليا في صفر المظفر المنخرط

في سلك شهور سنة سبع وأربعين وتسعمائة من هجرة من لا نبى بعده وصلى الله عليه وآله وصحبه والذين وفوا عهده.

الذيل

مما يدرك من تلك الحجة الوقفية المذكورة أعلاه أن واردات تلك القرى الثلاث التي وقفها الملك الصالح قد بلغ ربعها فى عهد السلطان سليمان (٨٩٠٠٠) وربع ما وقفه العاهل المشار إليه من أربع قرى معمورة كان كالآتى: فقرية «سلكه» ريعها (٣٠٤٩٦) أقجه، وقرية (وسير ونجنجة) ريعها (٧١٠٢٨) أقجة، أما قرية قريس الحجر فريعها (٥١٣٠٤) وكوم ريحان (٣٧٤٨) وبيجام (١٤٩٣٤) وقرية منية النصارى (٦٠٨٥٨) والبطالية (١٠٤٨٤) أقجة ومجموع ربع هذه القرى جميعها فى العام (٣٦٥,١٥٢) أقجة.

وصدر أمر السلطان سليمان بأن يخصص مبلغ (٢٧٦٢١٦) أقجة لتجديد كسوة بيت الله الخارجية سنوياً، وأمر بترك المبلغ الباقى وقيمته (٨٨٩٣٦) أقجة فى خزانة إدرارة الأوقاف لتنميته عن طريق المرابحة فى خلال السنة المحددة إلى (١٣٣٤٠٤٠) أقجة وإذا ضم إليها مبلغ (٦٦٤٠٠٠) أقجة نقود التنمية تقريبا يلزم أن يتجمع فى خزينة الكسوة الشريفة في نهاية خمسة عشر عاما مبلغ (٢,٠٠٠,٤٠) أقجة ويخصم منه مبلغ (٢٧٦٢١٦) لتجديد المواضع التى جرت العادة تجديدها مرة كل خمسة عشر عاما مرة ويخصم من مبلغ (١٢٤٨٦٧) أقجة لتجديد القصور، (٥٧٢٦٤٠) لتجديد ستائر الأضرحة الأخرى لاحتمال تناقص الواردات، واشترط أن تعمر القرى الموقوفة (٦٦٦٠٠٠) أقجة وأن تعان الأماكن الأخرى المنسوبة للسلطان المشار إليه، وإن أحكام هذا الوقف المكتوبة مازالت مرعية الجانب إلى يومنا هذا.

الأماكن التى تجدد كل خمسة عشر عاما

داخل كعبة الله الروضة المطهرة، مقصورة الحرم النبوى، المنبر النبوى، محراب التهجد، أبواب الروضة المطهرة، محراب ابن عباس، ضريح عقيل بن أبي طالب، ضريح الحسن بن على، ضريح عثمان بن عفان، ضريح فاطمة بنت أسد والأضرحة الأخرى المنيفة.

ومنذ أن تلقب السلاطين العثمانيون بلقب خادم الحرمين الشريفين إلى عهد السلطان أحمد خان ـ عليه الرحمة والغفران ـ كان كل واحد منهم ـ مادام معتلياً عرش الخلافة ـ يرسل الستائر الداخلية للكعبة المعظمة والحجرة النبوية المعطرة، بعد أن تصنع فى القرى التى سبق ذكرها، لأن هذا أصبح قانونا منذ أقدم العصور، إلا أنه كان يتساهل فى دقة صنعها؛ لذلك أمر السلطان أحمد خان بصنع تلك الأقمشة في مصانع دار السلطنة حتى تراعى الدقة فى صنعها؛ وفعلا نسجت أستار الكعبة المعظمة الداخلية فى غاية الإبداع، وأرسلت في أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٠١٨هـ وأرسلت إلى البلاد الحجازية عن طريق مصر ،كانت تلك الستارة الشريفة التى أمر بصنعها السلطان المشار إليه تزن (٤٨٠٠) درهم وقد نسجت من حرير حلبى لا نظير له في بداعة الصنع، وكان طول الحرير المستخدم (١٠٦٠) ذراعًا وكانت جميلة إلى درجة أنه قيل إن باب السعادة لم ير مثيلا لها من قبل.

وقد شرع فى السنة المذكورة فى صنع شرائط ضريح السيدة فاطمة (رضى الله عنها) وكسوته وكسا الأساطين[1] الداخلية للكعبة المعظمة وتم وضعها كلها فى خلال عام (١٠١٩) وجعلت كل كسوة داخل صندوق خاص بها.

وفى الخامس عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة أرسلت إلى الكعبة بواسطة مندوب خاص.

إن نطاق الكعبة المعظمة من أربع قطع طول القطعة منه واحد وخمسون ذراعا، وعرضها ذراعا وأربعة أخماس ذراع، وكسوة الروضة المطهرة التى تتألف من إحدى وخمسين قطعة طولها جميعا (٧٤٥) ذراعا، وعرضها ستة أذرع وربع ذراع أما كسوة ضريح السيدة فاطمة فتتألف من عشر قطع وطول قماشها (١٠٠) ذراع وشريط هذا الضريح عشرة أذرع وربع ذراع، وعرضه ثلاثة أذرع وربع ذراع

(١) هما الأسطوانتان الحنان والمنان.

وعقدة، فيكون العدد (١٧٦٩٢) وقد أنفق (٥٤٩) مثقالا خالصا من الصرة المزركشة الذهبية لزركشة الكسوة الغالية التى تتكون من ثلاث قطع قماش مذهب لكساء الاسطوانات التى فى داخل البيت المعظم والتى يبلغ طول كل واحد منها خمسة عشر ذراعا.

وعدد أساطين الكعبة المعظمة ثلاثة، وقد كتب فوق كسوة كل واحدة منها نسجاً «الحنان والمنان» الأسماء الجليلة، ولذا عرفت هذه الأساطين بين الناس بأعمدة الحنان والمنان.

وترسل الكسا الخاصة بداخل البيت المعظم والحجرة النبوية المعطرة وضريح فخر النساء السيدة فاطمة (رضى الله عنها) من باب السعادة وترسل الكسوة الخارجية السوداء للكعبة الشريفة ـ كما كان فى الماضى ـ من الخديوية المصرية لحساب خزينة الأوقاف الهمايونية السلطانية محمولة على جمال المحفة التى تسير في مقدمة قوافل الحجاج الشامية والتى تحمل أشياء نفيسة أخرى مع الكسا، والتى يطلق عليها خطأ المحمل بين عوام الناس، ويصنع كيس مفتاح باب الكعبة والكساء الخاصة بمقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ والستارة الخاصة به فى نفس المكان الذى تصنع فيه كسوة بيت الله الأكرم، ويلقى صنع هذه الأشياء المباركة عناية بالغة، وبعد إتمام صنعها ترسل إلى القاهرة حيث تحفظ فى مكان هيئ لها من قبل من ديوان محافظة القاهرة، وعند حلول الوقت المعين ترسل مع المحمل الشريف إلى مكة المكرمة.

نطاق كعبة الله حزام فى وسط الستارة الشريفة عرضه ذراع وأربعة أخماس ذراع، ويتكون هذا الحزام كما سبق ذكره من أربع قطع، قطعة لكل وجه من وجوه كعبة الله، وفى وسط كل قطعة دائريا كتب فى داخلها «يا حنان يا منان يا سبحان يا ديان» بعضها تحت بعض، وإن كانت خلفية الحرم سوداء اللون على لون الكسوة الشريفة؛ إلا أن الكلمات قد سطرت بخيوط ذهبية مسماة بصرمة وقد كتبت على الوجه المقابل لمقام الشافعى[1] الآية الآتية:

(١) هنا مكان الدائرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: ٢٦ ـ ٢٨)

وعلى القطعة التى تقابل المقام الحنبلى[١]:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٧)

وعلى الوجه المقابل للمقام المالكى[٢] كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ

(١) هنا أيضا مكان الدائرة.

(٢) هنا مكان الدائرة التى تحاذى الوجه الثالث.

إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٩٥ ـ ٩٦)

وكتبت على القطعة التى تواجه المقام الحنفى السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك العرب والعجم السلطان الغازى عبد الحميد خان بن الغازى السلطان عبد المجيد خان بن الغازى محمود خان بن عبد الحميد خان بن أحمد خان بن الغازى محمد خان بن إبراهيم خان بن مراد خان بن عثمان[١]. وقد كتب على أماكن أخرى غير الحزام المذكور بالحرير الأسود الجملة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله).

(١) هنا محل الدائرة التى تحاذى الميزاب الذهبى وقد كتبت فى داخل هذه الدائرة يا حنان يا منان يا ديان يا سبحان بل كتبت الآية الجليلة:
﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ (الإسراء: ٨٤).

موكب الكسوة الشريفة فى مصر

إن موكب كسوة الكعبة الشريفة والنفائس الأخرى إلى مكة المعظمة يحتفل به فى مصر بشكل ملفت للنظر ويستحق رؤيته.

عندما يتم صنع الكسوة المباركة التى تتكون من ثمانى قطع، وأحزمتها المزركشة، وستارتى باب بيت الله المذهبتين، وكسوة مقام إبراهيم (على نبينا وعليه التكريم)، وستارة باب المقام المذكور، وكيس مفتاح بيت الله يهيأ مكان فى ديوان المحافظة المصرية لحفظ الأشياء المذكورة، وفى اليوم المقرر لنقلها يستدعى مشايخ الطرق الصوفية، وعلماء مصر المفخمين، ويرسل عدد كاف من العساكر والشرطة إلى مكان صنع تلك الأشياء المباركة، ويأخذ الموظفون المكلفون والجند والحراس الأشياء المذكورة من مواقع نسجها بكل توقير وتعظيم، ويوصلونها إلى موضعها بين ذكر وتهليل وتوقير المارين العابرين إلى المكان الذى هيء من قبل من ديوان المحافظة، وعند اقتراب الموكب من ديوان المحافظة يستقبله الباشا المحافظ متبركا بالمقدسات المحمولة، ويضعونها فى مكانها المهيأ من قبل، وبعد ذلك يشترك الحاضرون من المشايخ والمشتركون فى الموكب فى الدعاء للخليفة بطول عمر دولته، غير ناسين الخديوى فى الدعاء، وتحيى ليلة اليوم الذى تنقل فيه الكسوة الشريفة إلى دائرة ديوان المحافظة.

ويُدْعَا فى يوم الاحتفال العلماء الأعلام والمشايخ العظام، والذوات الفضلاء، والموظفون المدنيون ووجهاء البلاد وأعيانها إلى دائرة ديوان المحافظة الفاخرة، وبعد تقديم الطعام يبدأ مشاهير القراء المدعوون فى تلاوة القرآن، وفى غد ذلك اليوم ترفع تلك الأشياء وهى كسوة الكعبة المعظمة وكيس مفتاح باب الكعبة والأشياء الأخرى من مكانها فى دائرة ديوان المحافظة فى موكب عظيم، وتوضع فى مقر الجمعية الكائنة فى ميدان محمد على، وتترك الكسوة الشريفة وستارة

المحمل النفيسة مكشوفتين ليجلو الناس عيونهم بمشاهدتها، ويبتهجون برؤيتها، وبعد إجراء العادة المرعية قديما من التسليم والتسلم، تطلق المدافع ثم تحمل إلى المسجد المسمى بمسجد الحسين فى موكب منظم غاية التنظيم. إن الجامع المذكور كائن فى الجهة الجنوبية من خان الخليلى المشهور.

وتجرى الاحتفالات على صورة كاملة جميلة بانتظام تام، ويتقدم الموكب العظيم الجنود النظاميون وتمر بعدهم الكسوة الشريفة للبيت المعظم بأجزائها الثمانية وثمانى قطع من الأحزمة المزركشة، وقطعتين من الستائر المذهبتين، وكساء مقام إبراهيم (على نبينا وعليه التسليم)، وستارة بابه وكل واحدة منها فوق ألواح خشبية، وهذه الألواح محمولة فوق الأعناق حرمة وتوقيرا لها، وتمضى مجموعة بعد مجموعة، وعقب ذلك يمضى صناع الكسوة الشريفة وموظفو تلك الهيئة حاملين كيس مفتاح باب الكعبة المعظمة المنسوج، ويمضى وكيل ديوان المحافظة والضباط الآخرون راكبين خيولهم وممتطين جيادهم، ويمر بعدهم مشايخ الطرق بأعلامهم متعددة الألوان مهللين مكبرين منشدين الأناشيد الدينية والأشعار. وإن كان منذ وقت طويل يجرى الاحتفال بهذا الموكب يعنى منذ أن اعتادت الدولة العلية تجديد كسوة الكعبة الشريفة كانت تنسج فى القاهرة مصر، وترسل مع قافلة حجاج مصر، وعندما استولى الفرنسيون على مصرفى سنة (١٢١٣) قد صنعت تلك الكسوة حول شادروان مسجد السلطان أحمد، ونقلت فى الحادى عشر من شهر رجب سنة (١٢١٣) فى موكب خاص عظيم إلى القصر السلطانى، ثم نقلت مع الصرة السلطانية إلى اسكودار غد ذلك اليوم، وهكذا أجرى الاحتفال بموكب المحمل فى تلك السنة فى باب السعادة، ولكنه الآن يجرى فى مصر القاهرة على ما كان عليه فى السابق.

صورة دخول المحمل الشريف إلى مكة المكرمة

يقوم المحمل الشريف المصرى[١] من القاهرة مصر برا، ويمضى إلى مكة المعظمة دون أن يمر بالمدينة المنورة، وعندما يصل الشخص الذى أنيط به سوق

(١) لما كان المحمل الشامى فى معية أمين الصرة الذى كان فى صحبة حماية أمين مؤونة الحج الشريف لذلك يصاحبه جنود نظامية سلطانية فى ذهابه وإيابه.

المحمل وتوصيله إلى وادى فاطمة يخبر أهالى مكة باليوم والساعة التى سيدخل فيها إلى مكة المكرمة.

ويخرج أمير مكة ومعه الجنود النظاميون وجنود الشرطة يوم وصول المحمل لاستقباله، كما يصاحبه أغلب الموظفين يستقبلونه عند مسجد عائشة، ويأتون به إلى ميدان ذى طوى[1]، وينصب مندوب المحمل خيمة فى ساحة ذى طوى الواسعة بعد أن يصل إليها من مسجد عائشة وهو يطلق البنادق والمدافع فى سيره، ويظل منتظراً حتى وصول المحمل الشامى.

وبما أن المحمل الشامى قد أخبر ساعة وصوله إلى أهل مكة مثل المحمل المصرى[2] يخرج الأهالى الكرام لاستقبال المحمل الشامى مثل المحمل المصرى عند مسجد عائشة. ويستقبلونهما من مسجد عائشة ويوصلونهما إلى مكان خاص أمام قبور الشهداء[3] ويشترك فى إقامة مراسم الحفاوة والترحيب الباشا الوالى والأشراف والأعيان.

وبعد أن يضرب هذين المحملين خيامهما فى الأماكن الخاصة التى ذكرت، وبعد الانتهاء من مراسم الاحتفال والترحيب يتجهان إلى صحراء منى الساكنة فى موكب عظيم فخم من خارج حرم المسجد الحرام بالذكر والتهليل أمامه الجنود السلطانية وخلفه الداعون للسلطان فى سكون ووقار، ومن هناك يمضى الموكب إلى عرفات وبعد وقفة عرفات يرجع إلى المزدلفة[4]، ومن هناك إلى منى حيث يقف ثلاثة أيام بلياليها، وتجرى الاحتفالات السارة، وإلى أن يصل الموكب من عرفات إلى المزدلفة توقد المشاعل المتعددة، وتطلق المدافع والبنادق طلقات لا حصر لها بينما يستمر الدعاء الواجب أداؤه للسلطان بدوام الرفعة والشوكة والعز.

---

(٢) طوى: الآبار المباركة وبما أنها فى مكان مكشوف يطلق عليها ميدان ذى طوى.

(٣) يحمل المحمل المصرى علم عمر الفاروق رضى الله عنه أيضا.

(١) قبور الشهداء اسم المقبرة التى دفن فيها عبد الله بن عمر رضى الله عنه.

(٢) من العادات المرعية أن تطلق البنادق والمدافع كل ثلاث دقائق أمام والى مكة والحجاز وأمير مكة وشريفها وأمين الصرة.

التوضيح:

ويمضى إلى مكة المعظمة محملان يسمى أهل مكة أحدهما (المحمل المصرى)، والآخر (المحمل الشامى)، وعلى ما سبق ذكره يصل المحمل المصري إلى مكة قبل المحمل الشامى، وينصب خيامه في مكان يُسَمًّى ذى طوى الذى يقع أمام موقع يسمى الشيخ محمود، ويطلقون عددا كثيرا من المدافع إعلانا بقدوم الموكب، ثم يصل المحمل الشامى فتنصب خيامه أمام قبور الشهداء - حيث يوجد مدفن عبد الله بن عمر - والذى يسمى زاهر، وهذا المحمل يعلن وصوله بإطلاق عدة طلقات من المدافع، ويتحرك المحمل المصرى من مكة فى صبيحة اليوم الثامن من شهر ذى الحجة ويصل إلى عرفات بعد الزوال، وكذلك يغادر المحمل الشامى مكة ظهر اليوم المذكور، ويواصل السير إلى ساحة جبل الرحمة حتى وقت العصر من يوم الوقفة، وفى جبل عرفات يتحركان معا متجهين نحو المزدلفة محتفلين بإطلاق المدافع والبنادق، وعندما يصل المحمل المصرى إلى مكة يدخل الحرم الشريف، وفى اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة يزين الجمل الذى يحمله، ويؤتى به أمام مبنى الحكومة ويسلم إلى الباشا الوالى وهو فى الحلة الرسمية فيمسك بزمام الجمل وهو من المخمل والصرمة، ويرفع صوته بالتكبير، وبعد أن يتجول به يسلمه إلى يد أمير الحج المصرى ويشيعه[1] بضع خطوات وبعد ذلك يقوم المحمل المصرى ويتجه نحو المدينة ويعود من هناك إلى القاهرة.

وفى العباسية يستقبله الأعيان وعلية القوم، ويجتمع كبار الموظفين والعلماء وينطلقون مع المحمل إلى ميدان محمد على حيث تطلق المدافع إعلانا للشكر.

وبعد أن يغادر المحمل المصرى مكة يغادر فى اليوم الثامن من شهر ذى الحجة مكة المحمل الشامى ويجرى له نفس الاحتفالات التى أجريت للمحمل المصرى ويمضى نحو المدينة. وسواء أكانت الاحتفالات التى تقام للمحمل المصرى أو الشامى يصطف الجنود السلطانية، ويقفون في موقف الانتباه والسلام فى أثناء

(١) وفى خلال ذلك تصدح الموسيقى وتقرع الطبول الخاصة بالمحمل الشريف.

الاحتفال، وعند إدخال المحمل فى الحرم الشريف كان الطواف بالكعبة من العادات القديمة واستمرت تلك العادة إلى سنة (١٢٩٢) وهى خاصة بالمحمل المصرى، وإلى تلك السنة لم يكن المحمل الشامى يدخل في الحرم الشريف ولم يكن يطوف بالبيت الحرام.

وفى سنة (١٢٩٢) أدخل المحمل الشامى إلى الحرم الشريف بهمة وسعى والى الحجاز «تقى الدين باشا» وبعد الطواف بالكعبة شيعه الوالى المذكور وأصبح هذا من الأمور التى يرعى جانبها. وأصبح من العادات التى ترعى لدى سكان الحجاز أن يسبق المحمل المصرى الذى يحمل كسوة البيت الشريف وسائر الأماكن الأخرى المباركة المحمل الشامى، سواء أكان فى الدخول إلى مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو عرفات.

ورسخت هذه العادة فى قلوب أهالى الحجاز؛ لذا كانوا يتمنون دائما أن يسبق المحمل المصرى الشامى؛ وإذا ما حدث أن دخل المحمل الشامى قبل المحمل المصرى؛ يطلق الناس على هذه السنة عام القحط.

لائحة

هذه اللائحة خاصة بشرح معنى المحمل الشريف، ووقت إيجاده. إن ما يتردد على ألسنة الناس من كلمة محفل تحريف لكلمة محمل، كما يطلق على القاعدة التى تصنع على شكل محفة خاصة لجلوس شخصين فوق الجمل اسم المحمل، بعد ما يركب هذا الشئ المكون من قطعتين على الجمل قد يركب على جهة منهما شخص واحد.

وكان يطلق اسم المحمل الشريف على الهودج الذى يحمل خرقته الشريفة ﷺ وسواكه اللطيف وإبريق وضوئه ونعليه المباركين والأشياء المباركة الخاصة به فى أسفاره.

وكانت أمهات المؤمنين اللائى يرافقن النبى - ﷺ - فى سفره يركبن فى ذلك الهودج.

وفيما بعد أعد جملا تبركا للمحمل ليحمل ستارة الكعبة الشريفة وبعض الهدايا. واستصوب أن يرسل أمام قوافل الحجاج الكرام. والآن يبعث بمحملين أحدهما من مصر، والآخر من باب السعادة، وينسب المحمل الذى يخرج من مصر لاسم «فاطمة»، والذى يخرج من باب السعادة لاسم عائشة الصديقة رضى الله عنهما.

ورتب فى سنة (٩٦٧) إرسال محمل من اليمن وابتداء إرساله فى عهد ولاية المرحوم مصطفى باشا. وكان لهذا المحمل أمير الحج وقائد وشيخ من قبيلة بنى مرزوق، وكان حجاج اليمن من قبل ذلك يذهبون ويرجعون بقوافل سريعة، وكان اسم المحمل الذى أخرج من اليمن «حيسى» وسمى كذلك لأنه كان يخرج من مدينة «حيس» الشهيرة كانت حيس مدينة معمورة واقعة على بعد مرحلة من جنوب مدينة زبيد، وقد اخترعت تلك المحامل من قبل (أبو الحسن أحمد بن محمد بن القاسم بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل المحاملى من المحدثين الكرام وولداه «محمد ويحيى» وأخوه «أبو القاسم»، وفى عهد الحجاج الظالم وكان أعلاه مخروطى الشكل وتحسن شكله بمرور الأيام، وزين فى عهد فاتح مصر والشام السلطان سليم بكسا مذهبة وستائر لطيفة.

وجهز السلطان سليم في سنة (٩٢٣) وفى الثامن من شهر شوال فى مدينة دمشق الشام محملاً لا مثيل له فى العظمة والأبهة، وسلمه لقافلة الحجاج التى ذهبت فى ذلك العام، وأرسله إلى مكة المكرمة، والقلم يعجز عن وصف ما كان عليه ذلك المحمل من نظام وأبهة وعظمة.

إن أول محمل أرسل إلى الحجاز فى الدولة العثمانية العلية لهو ذلك المحمل المذكور الذى جهزه السلطان المشار إليه، ومازال إلى الآن يرسل على نفس الهيئة والشكل.

والمحمل الذى أمر السلطان سليم بصنعه كان محفة ذات أربعة أركان عليها قبة وأركانها الأربعة مزينة وقبتها كرة من الفضة، وعلى الكرة التى فوق القبة علم ذهبى، وقد كتب على قماش ستارة القبة منسوجا العبارة المنجية (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وفى زماننا عندما ترسل هذه المحفة إلى الحجاز تبعث معها

الصرة السلطانية جريًا على العادة المعهودة المرعية، وفى ذلك اليوم تخرج المحفة فى احتفالات عظيمة من قصر السلطان الساحلى، وتحمل على سفينة خاصة إلى شاطئ اسكدار فى نفس اليوم لوداع العطايا السنية لبعض الذوات الذين جرت العادة على نفحهم العطايا السلطانية.

وصول الصرة إلى أرض الشام وخروجها منها

يستريح أمين الصرة فترة قصيرة بعد ما يضع الصرة السلطانية التى وضعت فى عهدته فى المكان الخاص الذى عين له في دمشق، ثم يسرع بالخروج إلى الطريق مستصحبا موكب الحج، ويبتدر بالتوجه إلى الجهة المقصودة.

وبما أن تشييع موكب الحج من العادات المستحسنة للبلد، ففى اليوم الذى يخرج فيه المحمل الشريف من الشام تذهب هيئة مكونة من مؤذنى الجامع الأموى، وموظفى الدولة وخدمها والجنود النظاميين ورجال الشرطة السلطانية - بناء على عادة قديمة متبعة - إلى المكان المبارك الذى تحفظ فيه الراية المحمدية المقدسة، والذى يقع فى داخل قلعة الشام، ويمرون بها من أمام الدائرة الحكومية، ويوصلونها إلى المكان الذى أعد لها من قبل فى دائرة المشيرية العالية، وفى غير ذلك اليوم يسير جميع الموظفين المدنيين والأمراء والضباط والعلماء ذوى المكانة والوجهاء مرتدين ملابسهم الرسمية ذاكرين الله قارئين الأدعية المنجية مكبرين مهللين أمام موكب المحمل، بينما تعزف فرقة الموسيقى السلطانية الألحان الموسيقية المناسبة، ويوصلون المحمل إلى الخيمة التى أقيمت بالقرب من قرية قدم شريف، وهى على بعد ساعة من دمشق حيث يستقبلهم الوالى والأعيان وكبار موظفى الدولة الذين كانوا فى انتظار المحمل الشريف، وهناك تجرى مراسم للتسليم والتسلم، ثم يبعث بالمحمل إلى أراضى الحجاز المقدسة. وكانت من العادات المتبعة عندما تخرج الصرة السلطانية من باب السعادة أن يوزع السلطان (١٤٤٤٦) قرشا ونصف قرش، وكان ذلك المبلغ يوزع على النحو التالى: (١٥٢٥) قرشا لموظفى أمانة الصرة، (٦٠٠) قرشا لبعض الجمالين، (٧٢٠٠) قرشا للعاملين فى إدارة السندات النقدية، (٥١٢١) قرشا للذين اجتمعوا في داخل القصر السلطانى وقت خروج المحمل.

إن مبلغ (٧٢٠٠) قرش الخاصة بإدارة المصارف والسندات المالية يعطى (٥٠٠) من (١٠٠٠) لموظفى قيد الحجاز من قبل أمانة الصرة ويعطى (٣٧٠) قرشا من (١٢٠٠) قرش الخاص بموظفى إدارة المصارف والأقلام الأخرى إلى كتبة إدارة السندات وحراسها، كما يعطى (٨٠) قرشا لرفيقة قيد الحجاز، و(٧٥٠) قرشا عطايا قديمة لموظفى الصرافة للخزينة ورفقائهم. إن مبلغ (٥١٢٠) قرشا السلطانى ونصف قرش السابق الذكر اعتبر صرفه فى داخل القصر السلطانى خاص بمؤذنى العصر والحراس وخدم القصر.

ويتصدق بمبلغ (٤٩٠٠) قرش عند إخراج الصرة السلطانية إلى الأراضى الحجازية على الفقراء الذين يجتمعون أمام الباب الأوسط للقصر السلطانى على غير تعيين ويصل مجموع المبالغ التى توزع عقب إخراج الصرة السلطانية إلى (١٩٣٤٦) قرشًا إلا أن النقود التى اعتيد صرفها لمشايخ التكايا والأئمة والخطباء خارج هذا الحساب.

ويمكن أن تصل المبالغ التى اعتيد صرفها من قبل أمانة الصرة منذ خروج الصرة السلطانية من القصر السلطانى إلى اسكدار ومنها إلى أراضى الشام إلى (١٧٨٦٠) قرش، إن المبلغ المذكور (١٧٠٠٠) وكسور قرش خاص من قديم بالذين ينزهون جمال المحمل أمام السلطان وبرؤساء المصفقين وخدم الطريق وخدم الإسطبل السلطانى الخاص وللرقباء المصفقين وبأنفار الطريق وبوابى الحرم السلطانى وبالذين يحضرون الدواب، وبالأنفار الذين يصاحبون موكب الصرة السلطانية، وخدمة دائرة الباشا، ورؤساء الجمالين وموظفى صناديق البخور ومترجمى الحرمين وخدمة البوابة والحراس، والأوقاف السلطانية، والذين يعينون على وضع المحفة على الحيوانات، وبعض حراس الأضرحة الآخرين ممن يجب تقديم المعونة لهم.

صورة إجراء حفل موكب المحمل فى مصر

من السنن القديمة التى يؤخذ بها فى مصر إعداد موكب عظيم للمحمل الذى يبعث به من مصر إلى الحجاز فى أواخر شهر شوال، وعندما يحل الموسم

الخاص بذلك يحضر فى المكان الخاص لاستقبال موكب المحمل فى ميدان محمد على وزراء الداخلية والجهادية والأشغال ومحافظ مصر والباشوات والوجوه والأعيان بينما يصطف فى أركان ذلك الميدان جنود نظاميون واقفين في حالة الانتباه والسلام، ويسلم المحمل الشريف بكل وقار وأدب إلى يدى الشخص الذى نصب أمير الحج.

وتطلق المدافع إيذانا لذلك الأمر ثم يشيعون موكب المحمل الشريف إلى مكان يطلق عليه «العباسية».

ويسير خلفهم كتيبتان من الجنود وعلى ظهورهم آلاتهم الموسيقية وبعدهم الضباط الحربيون، وبعدهم المحمل الشريف، وبعدهم الفرسان وتزدحم الطرق بالمشاهدين ازدحاما شديدا، ويقوم رجال الشرطة بالمراقبة والحراسة تحسبا لما قد يقع مما يخل بالآداب العامة.

وإن كان الاحتفال بموكب المحمل الشريف من العادات القديمة إلا أنه لم يكن منظمًا، وقد اعتُنِى فيما بعد بهذا الاحتفال أعظم عناية ولا سيما فى هذا الزمن الذى ترقى فيه الناس، وقد وصل المحمل المصرى فى نظامه وعظمته وجلاله إلى درجة تحير العقول.

وقد صنعت ستارة المحمل الشريف في سنة (١٢٩٣) فى ظل المبرة السلطانية في غاية الجمال ونقشت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى على الستارة نسجا فى غاية الجمال، وكانت الخطوط التى كتب بها الآيات والأحاديث تقليدًا لخط عبد الله زهدى بك وهو من كبار الخطاطين ولا شك أن منظرها الجميل كان يفوق سابقتها بمراحل.

ولاسيما وضع الطغراء السلطانية التى تتوسط الكسوة والتى تحمل صفات السلطان الحميدة كان مستحيلا ألا يوجب تعجب الناس.

وإن كان المحمل الشريف مثل القفص ومصنوعا من الخشب إلا أن غطاؤه كان نوعا من الحرير الأسود، وعليه بعض الآيات الجميلة منسوجة «بالصرمة»

(الخيوط الذهبية) وفى الجهة الأمامية صورة مكة المعظمة وفى أعلاها الطغراء وقد نقشت على سطح جهاته الأربعة أزهار بالخيوط الذهبية، وبعض أماكنه نسج بخيوط حريرية خضراء وحمراء كالحواشى.

أما أطرافه فقد زينت بأهداب من خيوط ذهبية خالصة، ووضعت في أركانه الأربعة وفوق وسطه كرات من الفضة وفوق كل واحدة منها راية ذهبية، ووضع فوق المركز الرأسى محفظة مذهبة جميلة ووضع داخلها مصحفان.

الذيل:

إن المحمل الشريف الذى حاز إعجاب الناس قد جددت كسوته بما بذله السلطان من نقوده الخاصة، ولا يسعنا إلا أن نحكم - إذا ما رجعنا إلى ضمائرنا - أن كل هذا قد تم بِالْهِمَّةِ السلطانية التى وهبها الله - سبحانه وتعالى - لذاته السلطانية.

إن ما بذله هذا السلطان بايزيد من نقود للآثار الخيرية نتيجة لمروءته وهى من أشرف الخلال والصفات وهى التى تدفعه إلى نيل شرف الاهتداء إلى صنع المحاسن فى كل زمان ومكان. والسلطان الذى له صفات عمر الفاروق لا حاجة له فى وصف مزاياه ولا الإطناب فى سجاياه، ونحن فى هذا الصدد نغض النظر عن وصف بره وإحسانه مكتفين بذكر ما اختص بالمحمل الشريف حتى وصل إلى هذه الدرجة من الإتقان والجمال.

وإننا نسأل صاحب اللطف والعطايا أن يقر السلطان الغازى خادم الحرمين الشريفين وحامى حمى الدين المبين: السلطان عبدالحميد خان الثانى بمزيد من العظمة والقوة والشوكة على عرشه، ويديم ملكه حتى يملأ قلوب سكنة الحرمين الشريفين بالفرحة والسرور، ويجلى عيون الموحدين بالفرح والحبور، وهو ينشر أنوار عدله على الأراضى الحجازية.

* * *

فى مسألة تفسيم كسوة كعبة الله وبيانها

كان يوجد فيى جاهلية العرب فوق الكعبة أشياء غالية متراكمة، وفى أوائل الدولة الإسلامية قد هيئت كسوة من قبل بيت مال المسلمين، فأنزلت الأشياء الغالية من فوق كعبة الله وقسمت بين المسلمين، وكان عمر بن الخطاب فى عهد خلافته يقوم بتجهيز كسوة جديدة لبيت الله، ويعلقها عليه، ويقسم الكسوة القديمة علي الحجاج المسلمين للتبرك بها وأظهر عثمان بن عفان تعظيما لكعبة الله بأن كساها بقطعتين من الكسا، وأرسل معاوية بن أبى سفيان بعض الأقمشة الغالية من الشام، وأمر شيبة بن عثمان (رضى الله عنه) بأن ينزل كسوة الكعبة العتيقة ويعلق الكسوة الجديدة على الكعبة، بعد تنظيف جدران كعبة الله الأربعة، وبعد تعليق الأقمشة الجديدة الواردة إلى الكعبة قطع الستارة القديمة قطعا صغيرة أمام ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ ووزعها على سكان حرم الله وقسمها.

ولم يستكره عبد الله بن عباس ولم يستهجن ما صنع شيبة ابن عثمان من تقسيم الكسوة الشريفة وتوزيعها، إيماء إلى جواز ذلك ورأى بعضهم أنه لا كراهية فى ذلك.

ذهب شيبة بن عثمان لما كثرت كسا كعبة الله إلى أم المؤمنين زوج النبى ـ ﷺ ـ السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال لها: يا عائشة كثرت كسا بيت الله عليه، ما رأيك لو خلعنا الكسا القديمة ودفناها حتى لا يكتسيها الجنب من الرجال، والحائض من النساء» فقالت المشار إليها: إن كنتم لم تفعلوا ذلك إلى الآن فلا تفعلوه بعد ذلك، فلا بأس فى أن يأخذ قطع هذه الكسا من يأخذ وليفعل بها ما يشاء، ولكن إذا ما بعتم هذه الكسا القديمة وأنفقتم ثمنها فى وجوه الخير أفضل».

وقال أئمة المذهب الحنفى: الرأى فى التصرف فى كسوة بيت الله متروك للسلطان.

قال القاضى الخانى: عندما تقدم كسوة كعبة الله فليأخذها سلطان الزمن، ولينفق ثمنها فى أمور بيت الله.

وقال الإمام محمد إذا ما قدم لإنسان ماقطعة ثمينة من كسوة الكعبة الشريفة فليأخذها ولا بأس فى أخذ الفضة إذا كان ثمنها قليلا» كما قيد فى تتمة الفتاوى.

وقال الإمام الزركشى وهو من أئمة المذهب الشافعى بعد أن منع بيع ستارة بيت الله: أوصى بأن يردها من أخذها. وقال ابن الصلاح هذا الموضوع متروك لرأى ملك ذلك العصر وإرادته، لأن الملوك السابقين كانوا يهدون الكسا القديمة لبنى شيبة، وهؤلاء كانوا يبيعونها وينفقون ثمنها فى أمورهم الخاصة، وأشار بهذا إلى أنه لا كراهة في بيع الكسوة.

وبناء على رأى القطب المكى وحكمه؛ إذا كانت الكسوة قد صنعت بالإنفاق من بيت مال المسلمين فالأمر فى الكسوة القديمة متروك لرأى الملك، وإذا كانت الكسوة قد صنعت بأموال وزارة الأوقاف فالحكم فى الكسوة متروك لشرط الواقف، وينفذ شرطه وإذا كان شرط الواقف غير مشروع تنفذ أحكام الوقف السابقة، ويجرى عليها حكم الكسوة السابقة، ولما كانت الكسوة الشريفة في عصرنا هذا تبعث من خزانة وزارة الأوقاف السلطانية، وكان شرط الواقف مجهولا يبقى الحكم كما كان قديما فتعلق الكسوة الجديدة، وتخلع الكسوة القديمة وتقطع قطعا وتباع.

وقد جرت العادة أن تكون ستارة كعبة الله المزركشة وحزامها القديم من نصيب الشخص الذى يشغل منصب شريف مكة، وكسوة بيت الله الشريفة من حق حامل مفتاح بيت الله السيد شيبة.

إن ستارة باب كعبة الله ترسل إلى باب السعادة فى سنين الحج الأكبر، وتباع للصياغ فى الأعوام التالية، والخواتم التى تجلب من مكة تصنع من الخيوط

الذهبية لهذا الحزام، ويمكن رؤية ستارة باب كعبة الله عليه ولكننا رأينا أن نصفها بالإجمال.

وصف الستارة الشريفة

إنها مصنوعة من أطلس أخضر وفى أطرافها خط من أوراق بلوط منسوج بالخيوط الذهبية، وفى الداخل كتبت سورة الفاتحة وآيات أخرى وزين ما بين آيات سورة الفاتحة بأسماء الجلالة المتعددة، وقد كتبت في الجزء الأعلى من الستارة في جهة باب كعبة الله الآية:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ (البقرة: ١٤٤)

وفى ذيلها

﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (النمل: ٣٠).

﴿قُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٠).

وتحتها

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ (الفتح: ٢٧)

وفى طرفى هذه الآيات كتب (بسم الله) مزدوجا في أربعة أماكن فى شكل قطع ناقص، وبعده كتبت آية الكرسى علي أربعة أسطر وفى سطر هذه الخطوط كتبت سورة الإخلاص بشكل قطع ناقص، وفى نهاية آية الكرسى كتبت سورة الإخلاص على سطرين، وكتب تحتها اسم السلطان عبد الحميد وشهرته، وعلى طرفيه كتبت الجمل ·لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

* * *

الوجهة الخامسة

تجمع أربع صور توضح وتعرف أوضاع مبانى المسجد الحرام القديمة وأبوابها وعددها وأعداد أعمدتها وشرفاتها وصورها.

* * *

فى تعريف وضع المسجد الحرام القديم

حينما أسس إبراهيم ـ عليه السلام ـ كعبة الله لم يكن حولها منازل ولا بيوت ولا حوانيت، كما أن طوائف العمالقة والجراهمة وأقوام خزاعة لم يرغبوا فى بناء المساكن حول الكعبة، ولكن (قصى) بن كلاب حينما استولى على تدبير أمور بيت الله، وأصبح واليا على المدينة الشهيرة، وأخذ مفتاح كعبة الله فى يده القوية. وتولى على عاتقه تدبير شئون القبائل، جمع أفراد قبيلة قريش ونصحهم بأن يسكنوا فى أطراف كعبة الله المفخمة، وأسس بنفسه مبنى دار الندوة كما جاء فى الصورة الثامنة من الوجهة الثانية.

وكان المكان الذى بنى فيه قصى بن كلاب دار الندوة جهة الزاوية التى يطلق عليها الركن الشامى، وفى الساحة التى يوجد فيها المقام الحنفى المتصل بأرض المطاف، حيث يصلى إمام المذهب الحنفى الصلوات الخمس داخل هذا المقام، وأخذ القرشيون فى بناء منازلهم حول الجوانب الأربعة لكعبة الله حتى زاد عددها عن العدد والحصر، وأصبحت مكة المكرمة مدينة عظيمة كثرت شعابها ومحالها كما نراها اليوم.

ولد النبى ﷺ فى منزل يقال له مولد النبى، وهو فى الحى المشهور بشعب على «ثم شرف دار خديجة الكبرى رضى الله عنها الواقعة فى شعب بنى هاشم بالسكن فيها.

* * *

في عدد أعمدة المسجد الحرام القديمة وذكرها

كان بالمسجد الحرام قبل التجديد (٤٩٦) عمود، بإخراج أعمدة باب دار الندوة الزائد وأعمدة دار إبراهيم الزائد، وكانت سبعة وعشرين منها فى أبواب المسجد و(٤٦٩) منها تحت سقوفها وكانت ثمانية و ثمانون عمودا من تلك الأعمدة فى الجهة الشرقية (١٤٥) منها فى الجهة الشمالية (٨٧) منها فى الجهة الغربية و(٨٧) من أعمدة الجهة الشرقية كانت من قطعة واحدة من الرخام وعمود كان من الطوب اللبن المحروق، و(١٤) عمودا فى الجهة الشمالية كانت من الحجر المنحوت، (٢٥) عمودا فى الجهة الجنوبية كانت من الحجر المنحوت، وكذلك جميع أعمدة الجهة الغربية وأما الباقى فكان من الرخام.

وكان حول الجوانب الأربعة لدار الندوة الزائدة (٦٦) عمودا وكانت كلها مصنوعة من الحجر العادى، إلا أنها أشبهت الرخام بطلائها بمؤنة جيدة. وكان السلطان الغورى المصرى قد أرسل خيرى بك من كبار موظفى الدولة المصرية فى عام (٩١٧) لتصليح وتعمير بعض أجزاء المسجد الحرام المحتاجة إلى الترميم، وعمر خيرى بك باب إبراهيم الزائد وأسس فوقه قصر يعادل الخورنق، ومسجدا وعدة منازل أضاف إليها ما تحتاجه المنازل من المغاسل وخزانات المياه، ووقفها باسم السلطان، وبنى على طرفى الباب المذكور الزائد غرفا من طابقين لإيواء الفقراء والصلحاء من الناس، وأنشأ صهريجًا يملأ عند نزول المطر فى الجهة الجنوبية من الباب وكذلك أنشأ سبيلا لا مثيل له.

وأنشأ خوش كلدى بك بأمر تلقاه من السلطان سليمان فى سنة (٩٤٧) مخزنا من غرفتين[١] لحفظ قناديل بيت الله والأشياء الخاصة بالمقام الحنفى.

(١) إن هذه المخازن قد هدمت بعد موت السلطان سليمان، وضمت أرضها إلى ساحة الحرم الشريف.

الذى كان بنى فى خلال عام (٨١٥) وعقب ذلك بنى أعمدة باب إبراهيم الزائد مصنوعة من الرخام

إن الأعمدة التى أمر بصنعها خوش كلدى بك، فى باب إبراهيم الزائد كانت أحد عشر من أعمدتها فى الجهة التى يقع فيها الرواق الجنوبى، وستة فيها فى الجهة التى يقع فيها الرواق الشمالى، وكانت كلها من الحجر المنحوت فى المقام الحنفى بعد سنة من تعمير المقامات المذكورة، لأن مبانى المقام الحنفى كانت أكبر نسبيا بالنسبة للمقامات الأخر، وقد شرع فى تجديده سنة (٩٤٧) وأتمه فى سنة (٩٤٩)، بينما أتم تعمير المقامات الأخرى فى سنة (٩٤٨)، وأمكن استخدام مبانى مقام إبراهيم التى هى أثر من آثار (خوش كلدى) بك (٦٨) عاما، إلا أن رواد المقام الحنفى وجماعاته زادت سنة بعد سنة وضاق بهم، ولما أبلغ الأمر إلى باب السعادة هدم محمد باشا والى مصر ذلك المقام وأنشأه من جديد بناء على الفرمان السلطانى الذى تلقاه.

كما أنه قد رمم قطع رخام المطاف ونظف مجرى عرفات وجدد كسا الأعمدة الداخلية للبيت المعظم ونظف كعبة الله بأن رفع أكوام الكناسة التى حول الكعبة.

وبما أن محراب المقام الحنفى الذى وسعه محمد باشا كان قد أسس فوق ساحة المطاف الشريف، فكانت صفوف المسلمين المصلين فى داخل الحرم ترى غير منتظمة من خارج الحرم وفى سنة (١٣٠١) أى بعد توسيع المقام الحنفى بمائتين وأربع وثمانين سنة، أخرج والى الحجاز عثمان باشا الجهة التى تقع بالمحراب فى ساحة المطاف وحركها نحو جهة باب إبراهيم الزائد، وانتظم الصف الذى يقع فى هذه النقطة، وهكذا نال ثواب هذا العمل الذى أتمه، بناء على الأمر السلطانى، ومازال عثمان باشا واليا على الحجاز.

لازمة

إن المقامات الأربعة الخاصة بأئمة المذاهب الأربعة من جملة المستحدثات التى

لا محل لها فى الشريعة الإسلامية، وقد أنشئت فى سنة (٨١٥هـ) حينما كان يحكم مصر فرج بن برقوق بن أنس من ملوك الشراكسة. وأراد شاه إيران نادر شاه أن يزيد المقامات إلى خمسة بإنشاء مقام خاص للمذهب الجعفرى، إلا أنه لم ينل مطلبه وخاب فى مسعاه.

* * *

تعرف عدد شرفات المسجد الحرام القديمة وهيئتها

الشرفات جمع كلمة شرفة وهى نوع من أنواع الزينة فى المبنى يطلق على الأماكن البارزة العالية فوق جدران القلاع، وقد يجمع على شرف أيضا ويتوارى الجنود خلفها فى أثناء الحروب، وكان للمسجد الحرام قبل التجديد أربعمائة من الشرفات الكاملة، وسبعة من الشرفات النصفية الداخلية، واثنين وخمسين من الشرفات الخارجية الكاملة، وشرفة واحدة خارجية غير تامة، وسواء أكانت الشرفات الخارجية أو الشرفات الداخلية ما كانت تتجمع فى مكان واحد أو اثنين، بل كانت متفرقة فوق أبواب المسجد الحرام.

وكان فى كل باب عدة شرفات، وقد بنيت بين الشرفات مساكن ومنازل وأربطة ومدارس، وهذه الأماكن تخلو من الشرفات، وكان لدار الندوة الزائدة (٢٧) شرفة ولباب إبراهيم الزائد (٤٤) شرفة وكانت كلها ترى من داخل الحرم الشريف.

ليس هناك مؤرخ إلى عصر وليد بن عبد الملك يعرف شيئا عن وجود الشرفات فى المسجد الحرام لذا حكم أن تزيين الحرم الشريف بالشرفات أثر من آثار وليد بن عبد الملك.

* * *

تعرف أبواب المسجد الحرام القديمة وتبين عددها

كان للمسجد الحرام مقدما تسعة عشر بابا عاليا مبنيا على عقدين وكان باب أقيم على كمرين مثل جسر، ذو فتحتين ومازالت بعض هذه الأبواب، محتفظة بأشكالها القديمة وهى معروفة لدى الناس. وكل باب كان له فتحتان إلا أن الاثنين يطلق عليهما اسم واحد. ويطلق مثلا على البابين المجاورين اسم باب السلام، وعلى هذا الحساب يجب أن يصل عدد طاقات الأبواب وكمرها إلى ثمانية وثلاثين كمرا، إلا أن معمار المدرسة السليمانية قد أضاف فوق أحد هذه الأبواب كمرا عاليا، وهكذا أوصل كمر الأبواب إلى تسعة وثلاثين كمرا.

* * *

وقد رتبت على ست صور وتجمع قباب المسجد الحرام وأبوابه على هيئتها الجديدة وتبين عددها وشكلها وخريطة مسطحة مع بعض الجداول.

* * *

تعرف ما حدث للمسجد الحرام بعد تجديده من تغيير فى الشكل

وإن كان رسم المسجد الحرام القديم على شكله الذى ذكرته فى الوجهة القديمة، إلا أن طوله فى زماننا من باب السلام إلى باب العزة (٥٣٧) قدما، وعرضه من باب الصفا إلى باب دار الندوة الزائدة (٥٠٠) قدما، و٦٧ منه فى الشرق، ٨١ منه فى الشمال، ٣٦ منه فى الغرب، ٣٣ منه فى الجنوب، وخمسة منه فى جهة دار الندوة، ٦٠ منه فى باب إبراهيم الزائد، وله ٢١٨ عمودا رخاميا والأعمدة التى فى الجهة الغربية عددها ٦، و١١ عمودا فى الجهة الجنوبية، وأحد أعمدة باب دار الندوة مصنوع من حجر الصوان، والباقى كله من الرخام.

ويبلغ عدد الأعمدة المصنوعة من حجر يطلق عليه الشمليس بعد أن يقطع وينحت قطعا ٢٤٤ عمودا، وشكل هذه الأعمدة حسب ما يقتضى موقعها مسدس الشكل أو مثمن، وكل عمود حجرى ابتداء من الأرض يصنع من قطع حجرية صغيرة يطلق عليها حجر الصوان، وأعلاها يصنع من قطع حجارة صفراء كبيرة منحوتة. إن الأعمدة الحجرية الموجودة ابتداء من الجهة المقابلة لبيت الله أى فى الجهة الشرقية عددها ٣٠ عمودا، وتحت القبة التى فى الجهة الشمالية المقابلة للميزاب الذهبى ٤٤ عمودا، وفى الجهة الغربية باب مقابل الباب المسدود ومقابل المستجار ٣٦ عمودا، وفى الجهة الجنوبية تحت القبب التى تقابل الحجر الأسود ٧٦ عمودا، وفى دار الندوة الزائدة ٣٦ عمودا، وفى باب إبراهيم الزائد ١٨ عمودا، وفى كل ركن من أركان المسجد أربعة أعمدة، وعند الحساب لاشك أن عددها سيبلغ ٢٤٤ عمودا.

تبين عدد قبب المسجد الحرام وشكلها

إن للمسجد الحرام خمسمائة قبة لطيفة ويطلق أهل مكة على (١٥٠) منها قبة، وعلى ٢٨٠ منها طواجن، وعلى ٦٢ منها مصليات،، إن ٢٤ منها فى الشرق، و٣٦ منها فى الشمال، و٣٦ منها فى الجنوب، و٢٢ منها فى الغرب، وواحدة منها فى ناحية مئذنة الحزورة، وقبة فى ناحية مئذنة دار الندوة، و١٦ منها فى ناحية باب إبراهيم الزائد وكلها تبلغ ١٥٠ قبة.

الطواجن جمع كلمة طاجن وهو اسم نوع من القبب. الطاجن على وزن دامن تطلق على صحن يطلق عليه تابه أو طاوه والمراد منه القبب التى صنعت على شكل (تابه)، وعددها الكلى (٢٨٨) طاجنا . (٣٨) منها فى الشرق، (٥٩) منها فى الشمال، و (٣٤) منها فى الغرب، و(٦٤) منها فى الجنوب، وعددان منهما تحت مئذنة باب السلام، وعدد منها فى ركن المسجد فى جهة باب السلام، وعدد منها فى باب العمرة، و(٢٤) منها فى باب دار الندوة الزائد، و(٤٧) منها فى باب إبراهيم الزائد.

والقبب المسماة المصليات تقع ثلاث منها فى الشرق، (٢٤) منها فى الشمال، و (١٨) منها فى الغرب، و(١٧) منها فى الجنوب ويبلغ مجموعها (٦٢) مصلية، لايمكن وصف هيئاتها وشكلها بالكتابة فلابد من رؤيتها.

* * *

تبين شرفات المسجد الحرام وعددها

للمسجد الحرام (٦١٢) شرفة فى الجهة الشرقية، و(٣٤١) شرفة فى الجهة الشمالية، و (١٥٤) منها فى الغرب، و(١٤٠) منها فى باب إبراهيم الزائد، و(١٩١) فى دار الندوة الزائدة، والبقية فى الجهة الجنوبية، ومجموع عددها (١٣٨٠) شرفة، إن الشرفات الموجودة فى الشرق صنع ٢٧ منها من الرخام، و(١٣٥) منها من حجر الشمليس وإحدى الشرفات الرخامية أعلى من الشرفات الأخرى، والشرفات التى فى الشمال (٧٨) منها من الرخام والقبة من حجر الشمليس، والثلاث الشرفات الرخامية أعلى من الأخريات ٢٢ من الشرفات التى فى الجهة الغربية من الرخام والبقية من الزيادتين والتى فى الجهة الجنوبية كلها مصنوع من حجر الشمليس.

* * *

فى بيان عدد أبواب المسجد الحرام وهيئاتها والجهات الكائنة فيها وعدد شرفات أبوابه وما هى الأسماء التى عرفت بها فى العهد الجاهلى

للمسجد الحرام ١٩ بابا عظيما ويفتح أربعة من هذه الأبواب إلى الجهة الشرقية وسبعة منها فى الجنوب وثلاثة منها فى الغرب وخمسة منها فى الجهة الشمالية.

الأبواب الشرقية:

١ـ باب السلام ٢ـ باب النبى ٣ـ باب العباس ٤ـ باب على.

ولكل باب من هذه الأبواب تسع درجات داخلية وخمس درجات خارجية سواء أكان مراقى هذه الأبواب أو مراقى الأبواب الأخرى أظهرها سليمان، وكانت عتبات الأبواب الخارجية على مستوى الأرض، فإذا نزل قليل من المطر كان داخل الحرم الشريف يمتلئ بالماء.

١ـ باب السلام:

كان فى الجاهلية يشتهر باسم باب بنى عبد شمس بن عبد مناف، وإن كان يعرف الآن بباب بنى شيبة، إلا أن اسمه الشهير هو باب السلام، وله ثلاثة عقود ولما كان بناؤه القديم فى منتهى الرصانة والمتانة فبقى على حاله القديم عند التجديد.

وكان الخلفاء الذين يذهبون إلى مكة المكرمة لأداء الحج وأمراء مكة والأشراف يدخلون إلى المسجد الحرام من باب السلام، كما هو مسطور فى تاريخ الإمام الأزرقى.

٢ـ باب النبى:

ويطلق على باب النبى باب النساء وباب الجنائز أيضا. وإن لهذا الباب عقدين و٢٤ شرفة، وخربت هذه الشرفات القديمة، وعند تجديد الباب اكتفى بتجديد الشرفات فقط، والشرفات الحالية من آثار التعمير الجديد، وبما أن النبى ﷺ كان يشرف دار السيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ خارجا من هذا الباب سمى بباب النبى.

٣ـ باب العباس:

أسس باب العباس على ثلاثة عقود ويعرف بباب الجنائز أيضا، وبما أنه كان يقابل دار العباس بن عبدالمطلب لذا سمى فى وقتنا هذا باب العباس، وما يطلق عليهما الميلان الأخضران قد وضعا خارج هذا الباب.

٤ـ باب على:

لباب على ثلاثة عقود و١٥ شرفة. ويشتهر بين المؤرخين بباب بنى هاشم، وجدد على أكمل وجه، إلا أن كتب التاريخ تخبرنا بأن حالته القديمة كانت فى شكل أكثر نظاما ومتانة.

الأبواب الجنوبية

١ ـ باب بازان ٢ ـ باب البغلة ٣ ـ باب الصفا ٤ ـ باب الجياد ٥ ـ باب مجاهد ٦ ـ باب مدرسة الشريف عجلان ٧ ـ باب أم هانئ.

لكل واحد منها تسع درجات داخلية وخمس درجات خارجية.

١ـ باب بازان:

وقد اشتهر هذا الباب بباب بازان لقربه من البئر الذى يطلق عليها عين بازان، وكان يطلق عليه فى الجاهلية باب بنى عائذ كما هو مذكور فى كتب التاريخ القديمة. ولباب بازان عقدان و(١٦) شرفة وقد جدد على شكل جميل.

٢ـ باب البغلة:

وكان يطلق على هذا الباب فى صدر الإسلام باب بنى سفيان بن أسد وباب الخياطين. ولباب البغلة عقدان وبدون شرفة.

٣ـ باب الصفا:

وكان أصل اسمه باب بنى مخزوم، وهو مواجه لباب الصفا لذا أطلق عليه باب الصفا، ولهذا الباب ٥ أكمار و٣٩ شرفة. ومن ينظر إلى شكله يتأكد أن هذا الباب أعظم أبواب الحرم الشريف من حيث الشكل ومتانة البناء والحسن والكبر.

٤ـ باب الجياد:

لباب الجياد كمران و ١٩ شرفة، وقد جدد على شكل جديد، يطلق على هذا الباب بين الأهالى باب الجياد الصغير.

٥ـ باب مجاهد:

لباب مجاهد كمران و ٢٠ شرفة، وباب الرحمة، اسم آخر لهذا الباب، وهذا الباب قد جدد تماما مثل باب الجياد. بما أن هذا الباب أو باب الجياد كانا ينسبان لقبيلة بنى مخزوم فكان أفراد هذه القبيلة يدخلون ويخرجون من هذين البابين.

٦ـ باب مدرسة الشريف عجلان:

ولهذا الباب كمران وعشرون شرفة، وكان فى القديم يسمى بباب بنى تميم وباب العلاقين، وبما أنه كان متصلا بالمدرسة التى بناها الشريف عجلان اشتهر بباب مدرسة الشريف عجلان، وجدد على شكل فى غاية الجمال.

٧ـ باب أم هانىء:

كان اسم هذا الباب قديما باب ملاعين وباب الولوج وباب العروج وباب

الجياد الكبير[1] وباب أبى جهل. وبما أنه كان متصلا بدار أم هانئ بنت أبى طالب ـ رضى الله عنها ـ أطلق عليه فيما بعد اسم باب أم هانئ، وعندما جدد عُمِّرَ بطريقة متينة وله كمران وثلاث عشرة شرفة.

كانت دار أم هانئ متصلة بالجهة الجنوبية، ويسار هذا الباب وفى النهاية بنى على أرضها مدسة[2]، وبما أن معجزة المعراج قد وقعت فى الليلة التى كان النبى ﷺ نائما فى هذه الدار لذا فزيارة هذه الدار واجبة لعشاق محمد ﷺ، أم هانئ المشار إليها أخت سيدنا على وكريمة عم النبى ﷺ، أبى طالب، اسمها الحقيقى هند أو جميلة أو عاتكة أو حمامة أو رملة أو فاطمة أو فاختة ولكنها اشتهرت بكنيتها لابنها هانئ من زوجها هبيرة بن عمرو المخزومى، وقد هرب هبيرة بن عمرو فى يوم فتح مكة رافضا الإسلام إلا أنه دخل فى الإسلام فى نفس اليوم. وروى عن النبى ﷺ، ٤٦ حديثا.

ولما كان زوج أم هانئ مشركا عزم على البقاء فى مكة فأراد النبى ﷺ أن يطيب خاطرها بعرض شرف الزواج به إلا أنها اعتذرت عن الزواج خوفا من عدم قيامها بواجبات الزوجة لكثرة أولادها.

الأبواب الغربية:

الأبواب الغربية هى ١ ـ باب خزورة ٢ ـ باب إبراهيم ٣ ـ باب العمرة.

ولكل هذه الأبواب ٤ درجات خارجية ١١ درجة داخلية.

١ ـ باب حزورة:

وله كمران وليست له شرفات، وبما أنه لم يكن فى حاجة للتعمير ترك على

(١) الأجياد الصغيرة والكبيرة اسم حيين فى مكة ويقال فى سبب تسميتهما روايتان:
الأولى: تربية الجياد الأصيلة فى هذا الحى وعلى هذا التقدير يلزم أن يكون لفظ اجياد جمع كلمة «جَيِّد».
الثانية: فى يوم ما قطعت فى هذين الحيين أعناق مائة رجل وعلى هذا يلزم أن يكون جمع كلمة «جيِد».

(٢) وإن كان هذا المكان قد تحول إلى المدرسة إلا أن أكثر مدارس مكة قد تحولت إلى وكالات، كذلك هذه المدرسة وأجرت. وبينما كنت فى مكة كان يسكن فى مدرسة أم هانئ مفتى الشافعية أحمد دحلان وكان منزلا طويلا جميلا وقد بنى أمامه والى مصر الأسبق محمد على باشا مبنى كبيرا.

حاله القديم، وحزورة اسم والدة وكيع بن سلمة من أمراء مكة المكرمة، عندما توفيت أم وكيع دفنها بالقرب من ذلك الباب؛ ولذلك اشتهر هذا الباب بباب حزورة. وكان اسمه القديم باب بنى حكيم بن حزام، باب بنى الزبير بن العوام وباب الخزاميه وأطلق عليه مؤخرا اسم باب حزورة، وفيما بعد باب الوداع وعند البعض كانت حزورة اسم سوق فى الجاهلية وعندما وسعت ساحة المسجد الحرام ضمت أرض هذه السوق إلى المسجد الحرام، ولما بنيت مئذنة باب الوداع على ساحة هذه السوق فقيل للباب الذى كان متصلا بالمئذنة باب حزورة.

ويقال فى رواية أخرى إن (وكيع) بن سلمة كان والى مكة واقتضى الأمر أثناء ولايته تعمير بعض أماكن الحرم الشريف، ولما كلف بأعمال البناء بنى لنفسه بجانب باب حزورة قصرا خاصا به، وقد اعتاد أن يقيم فى هذا القصر من حين لآخر لأداء مهمته، وكان قد عين غلاما يسمى حزورة لحراسة هذا القصر لذا اشتهر ذلك الباب باسم هذا الغلام، وبما أن الحجاج يخرجون من هذا الباب بعد أداء طواف الوداع كان ذلك سببا بتسميته بباب الوداع، ومن الأصول المرعية الآن أن يغادر الحجاج مكة المكرمة بعد إتمام طواف الوداع بشرط ألا يدخلوا الحرم الشريف بعد ذلك.

من معتقدات الأدلاء والمطوفين أن الشخص الذى يتم طواف الوداع عند باب الوداع، ثم يعود من داخل الحرم إلى باب إبراهيم ويخرج منه ثم يسافر إلى بلاده فهذا يجعل هذا الحاج يعود مرة أخرى لأداء الحج، هذا العمل من الأمور المجربة والذين يراعون هذا النظام لابد أن يعودوا مرة أخرى لأداء الحج، ومن الأمور التى لا تحتاج إلى الدليل أو البرهان أن الأشخاص الذين يرون تلك الأماكن المقدسة رؤية العين يتمنون أن يروا تلك الأماكن مرات عديدة.

ولذا يخرج الأدلاء الحجاج من باب إبراهيم.

وأنا مؤلف هذا الكتاب وإن كنت وَدَّعْتُ البيت خارجًا من ذلك الباب،

ولكننى إلى الآن لم أنل أملى فى زيارة بيت الله مرة أخرى. وأسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يقدر لى ذلك.

٢ـ باب إبراهيم:

كان يقال لهذا الباب باب إبراهيم أبو عبيدة البكرى، ويشتهر باسم شخص كان يمارس الحياكة بجانبه اسمه إبراهيم، وكان الشيخ سعد الدين الإسفرائينى صاحب كتاب نسبة الأعمال ومؤلفه مقتنعا أن الحائك إبراهيم كان من أصفهان، ولكن بعض الأفاضل قالوا إن المقصود بإبراهيم هنا هو حضرة الخليل (عليه السلام)، ولكن الإمام الأزرقى سمع هذا القول قائلا إن الباب المذكور كان معروفا بباب الخياطين عند الأوائل، وبناء على ادعاء الإمام الأزرقى أن اسم ذلك الباب كان باب الخياطين قديما وكان له مدخلان وبنى أخيرا فى عهد السلطان الغورى فوق كمرتين قصر مشيد، وعند عمارته قد جدد طبقا لشكله القديم وله الآن مدخل ذو كمر واحد والقصر الذى فوقه خصص لإقامة رؤساء السادات.

٣ـ باب العمرة:

إن لهذا الباب كمر وثمانى شرفات وكان اسمه القديم باب بنى سهم، وبما أنه أصبح من عادة البلد أن يخرج ويدخل الحجاج الذين يذهبون إلى التنعيم من هذا الباب يسمى ذلك الباب بباب العمرة، وقد جدد على أجمل شكل وأحسن هيئة.

الأبواب الشمالية

الأبواب الشمالية وهى: ١ ـ باب السدة ٢ ـ العجلة ٣ ـ باب القطبى ٤ ـ باب دار الندوة الزائد ٥ ـ باب الدريبة.

ولكل واحد من هذه الأبواب ثلاث عشرة درجة داخلية وأربع درجات خارجية.

١ـ باب السدة:

كان يطلق على هذا الباب قديما باب عمرو بن العاص، الباب العتيق، والآن يعرف باسم (باب السدة)، وله ثمانى شرفات وكمر واحد وعند تعمير الحرم الشريف قد هدم تماما وبني من جديد.

٢ـ باب العجلة:

يعرف هذا الباب بباب البسيطة أيضا لوجـوده متصلا بمدرسة عبد الباسط. وله كمر واحد وتسع شرفات وقـد بنى من جديد فى عصر السلطان سليمان خان.

٣ـ باب القطبى:

إن هذا الباب مبنى تحت كمر واحد وفى الجهة الغربية من باب الندوة الزائد، وبما أنه لم يكن فى حاجة إلى الترميم ترك على حاله القديم.

٤ـ باب الندوة الزائد:

لهذا الباب كمران و٢٢ شرفة، ويقع بالجانب الشمالى لباب القطبى، وقد أضاف قاسم بك الذى كان أمين البناء عند بناء المدارس الأربع السليمانية كمراً آخر فتغير شكله القديم. وعندما كان يجدد الحرم الشريف انهارت تلك الأكمار الثلاثة فبنى على كمرين وفق الرسم القديم، وصنع له اثنين وعشرين شرفة بغية التزيين.

وبما أن شيبة بن عثمان قد اعتاد أن يدخل ويخرج من ذلك الباب قد عرف فى الأول «بباب دار بنى شيبة بن عثمان».

٥ـ باب الدريبة:

إنه باب تحت مبانى المدرسة السليمانية ذو كمر واحد وقريب من باب السلام وفى اتصال المدرسة السليمانية. وقد جدده أمين بناء المدرسة السليمانية على كمر واحد.

تعريف مفصل لمآذن المسجد الحرام وعددها ومقدميها وعدد مآذن مكة المعظمة وأماكن وجودها

للمسجد الحرام سبع مآذن فى زماننا وتسمى مئذنة، باب العمرة، ومئذنة باب السلام، ومئذنة باب على، ومئذنة باب الوداع، ومئذنة باب الندوة الزائدة، ومئذنة قايتباى، ومئذنة السليمانية، وجميع هذه المآذن موجودة الآن ويؤذن فوقها الأذان المحمدى.

١ـ مئذنة باب العمرة:

وإن لم ليكن معروفا الذى بنى مئذنة باب العمرة إلا أن أول من جددها (١) هو أبو جعفر المنصور الدانقى من خلفاء بنى العباس. وقد أصلحها ودعمها محمد الجواد بن على بن منصور الأصفهانى وزير صاحب الموصل فى سنة مائة خمس وخمسين، وهدمها السلطان سليمان خان فى سنة (٩٣١) وجددها السلطان مراد الثالث، وكان شكلها قبل هدمها مثل مآذن مصر القاهرة إلا أنها كانت قديمة فهدمت حتى أسسها الأرضية، وبنيت على طرز مآذن الممالك الرومية، وللمئذنة الجديدة شرفتان وعلى شكل مسدس وفى غاية الجمال من حيث البناء.

وفى عهد الإمام الفاكهى كان رئيس مؤذنى الحرم الشريف يبدأ الأذان من مئذنة باب العمرة، وكان مؤذنو سائر المآذن يقتدون به واستمرت هذه الحالة إلى عهد تقى الفاسى المكى من المؤرخين الكرام، وأخذ المؤذن الإمام من ذلك العهد يؤذن من فوق مئذنة باب السلام والآخرون يقتدون به، وفى عصرنا هذا يؤذن

رئيس المؤذنين الشافعى المذهب من المحفل الشافعى الكائن فوق بئر زمزم وبعده مؤذن باب الوداع ويقتدى بقية المؤذنين بهما.

والمنظومات الجميلة الحسنة الشاملة مثل التسبيح والتمجيد والتذكير والتوديع تجرى مثل ما هو مكتوب.

الأوراد التى تقرأ على المآذن فى الليالى

قد حصلت على نسخة تحتوى على الأوراد والأذكار التى تقرأ فوق مآذن الحرم الشريف قرب الصبح. ولما توقعت أن تكون مفيـدة رأيت إدراجها وكتابتها.

* * *

الصورة الصحيحة للذكر والتهليل

اللتين يقرؤهما المؤذنون فى آخر الليالى على مآذن الحرم الشريف

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نؤمن إلا بالله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نتوكل إلا على الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله ولا نستعين إلا بالله (٣ مرات)، لا إله إلا الله أمانا وخوفا من عذاب الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله يا قومنا أجيبوا داعى الله (٣ مرات)، لا إله إلا الله الكريم الذى إذا سئل أعطى إذا استعين أعان لا إله إلا الله الحكيم الكريم الذى إذا قطر قطرة من بحر جوده وكرمه ملأ بها الأكوان.

لا إله إلا الله الحكيم الكريم الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، لا إله إلا الله يا سعادة من قام من منامه ولذيذ أحلامه وذكر الله العظيم بقلبه ولسانه، وقال لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله النبى الصادق الفاتح الخاتم، وسيلتنا العظمى إلى الله يوم العرض على الله، هذه الشهادة عليها نحيا وعليها نموت وبها نبعث إن شاء الله من الآمنين الفائزين المستبشرين برحمة الله وكرمه، ما شاء كان وما لم يشأ ربنا الكريم لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

إخطار:

فى ختام التكبير سالف الذكر يقرأ الاستغفار الذى سيكتب فيما بعد، وبعد الاستغفار يدور بالمئذنة عشرين مرة وفى كل دورة يقرأ التسابيح الشريفة وعقب الدورة العشرين يؤذن أذان الصباح. انتهى.

الصورة الشريفة للاستغفار

أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، وأسأله التوبة والمغفرة لى ولوالدى ولمن أحسن لى ولمن أساء إلى ولأصحاب الحقوق على، ولجميع المؤمنين والمؤمنات المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات إنك يا مولانا يارب سميع قريب مجيب الدعوات، القائل تعالى فى محكم الآيات البينات على لسان محمد سيد السادات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(التوبة: ٢١ ـ ٢٢).

١ تسبيح الدورة الأولى:

سبحانه وتعالى إله عزيز جبار وملك عفو غفور قوى قادر مقتدر قهار.

للذنـــــوب غـــــافـــــر
وللعيــــــوب ســـــاتـــــر
وللقلوب المنكسرة جابر وناصر
سبحــانـه وعلى الجبابـرة ملـك جبـار

٢ ـ تسبيح الدورة الثانية:

.سبحان من أوهب الليل وأوجد النهار
وأظهــر العلامــة وشعشــع الأنــوار
الرعـــد يسبحـــه بصـــوتـــه الهـــدار
والبرق يلمع من خيفته كلما أومض واستنار
يتجـــلى ربنـــا فــــى الأسحـــــار
وينـــادى المنـــادى جَـــلَّ المـــنادى
أيـــا عبـــادى! أنـــا الغـــفار
يـــا عــــبادى! أنـــا الستـــار

يـــا عــــبادى! أنــــا القهــــار

يـا عبـــادى! أنـا خالــق الليل والنهار

العارفـون واقفـون عـلى قـدم الخـوف والافتقـار

لا يستقـــر لهـــم قـــــــرار

كلما جـدوا وجـــدوا وكلمــا جاهــدوا

شاهـدوا جمـال وكمـال مـن لاتـدركـه الأبصـار

٣- تسبيح الدورة الثالثة:

سبحــان مـن لا تدركـــه الأبصــــار

ولا تحيـــط بعظمتــــه الأفكـــــار

ولا يغيــره الليــل ولا يبدلــه النهـــار

وهو يدرك الأبصار وهو اللطيــف الخبير

الحليم المنعــم الستــار وهـــو مولانــا

ومولاكم، فنعم المولى ونعـم النصير

٤- تسبيح الدورة الرابعة:

أحاط ربنا الكريم بكل شيء علما

ووسعت رحمته كل شيء عددا وكرما

ومغفــــرة منــــه وحلمــــا

سبحانـــه رفـع السمـــــاء قدرتـــه

وبســـط الأرضــــين بحكمتــــه

وأجـــــــرى السمــــــــاء

وعــــلم آدم الأســمــــــاء

سبحانـه أحصـى كـل شـىء عـددا

٥- تسبيح الدورة الخامسة:

يقـول إلـه العـــرش جـــل جلالـه

لعبـد نشـــأه فـــى العبـــادة انتشـــاء

تذكـر جميـلى مـذ خلقتـك مضغــة

ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشـاء

وســـلم إلـى الأمـر وأعـلم بأننـــى

أنفـــذ أحكامـــى، وأفعـل مـا أشـاء

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ آل عمران (٥ ـ ٦).

٦ ـ تسبيح الدورة السادسة:

فعال لما يريد قادر ربنا الكريم على ما يشاء

لـــــه الملــــك والقضـــــاء

ولـــــه الحمــــد والثنـــــاء

ولـــــه العـــــزة والبقـــــاء

وبيـده الخـير والجـود والتوفيـق والعطـاء

ونسألــه العفــو عمــا سـلـف ومضـى

وهـــــو سريـــــع الرضــــا

سبحانـــه لا دافـــعًا لله فيـــما قـضى.

٧ ـ تسبيح الدورة السابعة:

كـــن عـــن همومـــك معرضــــا

أسلــــم سلــــم أمــورك للقضـــاء

وابشـــــر بخـــــير عاجــــــل

تنســـى بــــه مـــا قـــد مضـــى

فلربمـــــا اتســــــع المضـــــــيق

وربمـــــا ضـــــاق الفضـــــــا

ولـرب أمـر متعب لك فـى عواقبه رضا

الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

الله يفــــــعل مـــــــا يشـــــاء

فــــــلا تكــــــن معترضـــــــا

٨ ـ تسبيح الدورة الثامنة:

يــا مــن إذا أبصــرنــى معرضـــــــا

وليــــس فعلــــى عنـــــده مرتضـــــى

بحرمة التوحيد ويا سيدى! يا رب: أنت

الـــــذى تسمــــع لـــــى بالرضــــا

دبر أمورى أنا وجميع المسلمين، يارب!

يــا مــن إذا دبـــر أمـــراً قَضَـــــى.

٩ ـ تسبيح الدورة التاسعة:

يأيهــــا الراضــــــى بأحكامنـــــــا

لابــــد أن تحمــــد عقبـــى الرضــا

فوضــــى إلينــــا الأمـــــر مُسَلِّمًــــا

فالراحـــة العظمـــى لمــن قــد فوضــا

إن تعلقــــــــــت بأسبابنــــــــــا

فـــلا تكـــن عـــن بابنـــا معرضـــا

مــن كــل مــن يأتــى ومـا قـد مضـى

لاينعــــــــــم المـــــــــــــرء

حتــــى يــــرى الخيـــرة فيمــا مضى.

١٠ ـ تسبيح الدورة العاشرة:

العمـــر ولـــى والزمـــان قـــد انقضـــى
أتـــرى يســـامحنا الكريـــم بمـــا مـــضى
وعلـــى دين قـــد عجـــزت عن الوفاء.
ومتـــى ديـــونـــى يا إلهـــى تقتضى؟
وأفـــوز مـــن ذاك الجنـــاب بنظـــرة
وأرى ســـواد الصـــحف أصبـــح أبيـــضا
يـــا قـــلب مالـــك راحـــم إلا الـــذى
لمـــا أســـأت وثبـــت عـــامل بالـــرضا
يـــا قلـــب لا تغـــفل إذن عـــن بـــابـــه
إيـــاك عـــن أبوابـــه أن تعـــرض
لـــو كنـــت لازمـــت الوقـــوف بـــبابه
لكســـاك مـــن إحـــسانه حـــلل الرضا
لكـــن غفـــلت وبـــات طرفـــك نائـــمًا
ياليـــته عـــن ربـــــه لا يغمـــــضا

١١ ـ تسبيح الدورة الحادية عشرة:

إليك بسطت الكـــف، أســـألك الرضـــا
أنت الـــذى تعفـــو وتغفـــر مـــا مضـــى
أنـــت الـــذى ترجـــى لكـــل مهمـــة
إذا ضـــاقت الأفـــلاك متســـع الفضـــا.

١٢ ـ تسبيح الدورة الثانية عشرة:

أتيـــت إلـــى مـــولاى أسألـــه الرضـــا
ووقفـــت عـــلى أبوابـــــه متعرضـــا
وقدمـــت تقصيـــرى وذلـــى وفضاحتـــى
ومـــا كـــان منـــى فـــى الزمـــان الذى مضى

فعاملنـــــى مـــــولاى بلطــــــف

وقـــال لك البشـــرى غفـــرت الـــذى مضى

فمن مثلـــه فـــى الكـــون يخشى ويرتجى

إذا ضـــاق بالملهـــوف متسـع الفضـــا

يعــــذب تعذيـــبا ويعفـــو تكـــرما

وليـــــس للمخـــلوق أنْ يتعرضـــــا

ويـا سـيدى قـد ضـــاع عمــرى باطـــلا

وولى زمانى فى المعاصـــــى وانقضى

فإن كان ذنبى عن جنابك معرضا

فعفـــوك يأتـــى بالأمـــــان وبالرضـــا

ومالـــى شـــفيع غيـــر جـــاه محمد

نبى الهدى أزكـــى رســـول ومرتضـــى

عليـــه ســـلام الله مـــا هبـت الصـــبا

وما لاح نجم فـى السمـــاء وقـــد أضـــا

١٣ ـ تسبيح الدورة الثالثة عشرة

لا دافعـــا لله فيـــما قضـــاه وحكـــم

ولا مانعـــا له فيمـــا أعطـــــاه وقسم

ربنـا يفعـل فـى ملكـــه مـــا يريـــد

ويحكـم فـى خلقـه بمـا يشاء ويرضى

جـــل سبحانـــــه فســــبحان الله

١٤ ـ تسبيح الدورة الرابعة عشرة:

ليـــس لله شـــــريك فى الملــــك

ولا مدبــــر لـــــه فى الأمـــــور

لا يـــــرجـــــــو ثـــوابـــــــا

ولا يهـــــــاب عقـــــابـــــا

ولا على باب جوده وكرمه حاجبا ولابوابا

كل نعمـــــة مـــــن الله الكريم فضـــل

وكـــــل نعمـــــة مـــــنه عـــدل

ولا يســـــأل عمـــا يفعـــل وهم يسألون

١٥ ـ تسبيح الدورة الخامسة عشرة:

لا إلــــــــه إلا الله تبـــــارك

وتعالـــــى واحـــد مفـــرد فـــى ملـكه

لاشريك له ولا صنو له ولا ند له

هو الحنـــــان المنـــان الرحيـــم الرحمن

الـــذى لا إلــــه إلا هـــو الحـــى

جل الباقى سبحـــانه ومـــــا ســـواه

١٦ ـ تسبيح الدورة السادسة عشرة:

يارب عفوك أســـأل حلمـــك أســـال

جـــودك أســــال رضـــــاك أســـال

وبسيدنـــــا محـــــمد أتوســـــل

يـارب عبـد ضعيف واقـف ببابك يسأل

وبالذنوب مثقـــل اغفـــر ذنوبـــى

وسامـــح يـــا خالقـــى وتفضـــل.

١٧ ـ تسبيح الدورة السابعة عشرة:

قُمْ فى الدَّياجى وناجى مولاك ما شئت فاسأل

وادْعُ بقلب سليم لعلك تنجو وتُقْبَلْ

واصْفَ وصَافِى وَوَحِّد مولى علينا أنعم وتفضّلْ

معطى العطايا كريمٌ بالخير أَنْعَمَ فَأَجْزَلْ

١٨ ـ تسبيح الدورة الثامنة عشرة:

سـبحان مـن أنعـم فأجـزل
حكـم فعـدل ولـم يبخـل
وجاد ربنا الكريم على عباده وتفضل
يقول القائل فى حق عظمته ولا يتأول
سـبحان ربنـا الحليم الكريـم
العظيـم هـو الأول

١٩ ـ تسبيح الدورة التاسعة عشرة:

يـا أول قبـل كـل أول
وآخـر، مـا لـه محـول
سبحـان الكـريم فلا يبخـل
سبحـان القـديـم فـلا يتحول
يارب عبد ضعيف واقف بالباب يسأل
أنعم علينا بجودك وإحسانك ياخالقى وتفضل
يـا مـن هـو قبـل كـل أول.

٢٠ ـ تسبيح الدورة العشرين:

أول بـلا بـدايـة
وآخـر مـا لـه نهايـة
سـبحان رب البرايـا
سبحـان معطـى العطايـا
سبحـان كاشـف الضـر والبلايـا
سبحـان مـن لـه اللطـف والعنايـة
وبيده الخير والجـودوالتوفيـق والهداية
سبحان مَنْ لـه فـى كـل شىء آيـة

تدل على أنه هو ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديد: ٣)، ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الزمر ٧٥)، ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٥٦).

لازمة

قد اتخذ الجهر بالتسبيح عادة متبعة فى عهد موسى (عليه السلام) واستمرت هذه العادة الطيبة إلى عهد داود (عليه السلام).

وكان داود (عليه السلام) يعين من يقومون بالتسبيح من ثلث الليل الأخير إلى طلوع الفجر، واستمرت هذه السنة إلى أن خرب بيت المقدس، وقد أبطل اليهود العمل بالشريعة اليهودية، إذ قاموا ضد السيد المسيح رافضين دعوته، وأوقفت هذه السنة الطيبة إلى أن اعتكف مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار الصحابى الجليل فى مسجد عمرو بن العاص فى مصر.

عين مسلمة فى سنة ٤٤٨ الهجرية واليا على مصر من[١] قبل معاوية فذهب فى حينه إلى مصر، ورأى أن جامع عمرو بن العاص فى حاجة إلى تعمير وتصليح فعمره جيدا، وألحق به مئذنة[٢] وعقب ذلك اعتكف فى المسجد إلا أنه انزعج من صوت الناقوس، وقص ذلك لشرحبيل بن عامر الذى فكر فى حل فريد إذ أخذ يؤذن من منتصف الليل إلى الصباح، إذ هو كان مؤذن المسجد، وهكذا أبهج مسلمة بن مخلد، ودامت هذه العادة إلى عهد أحمد بن طولون الذى عين أشخاصا كثيرين بأجر من الأوقاف، ووضع سنة قراءة الذكر والتسبيح إلى الصباح، ولما ترك صلاح الدين الأيوبى الحرية لمؤذنى المساجد؛ أخذوا يسبحون ويذكرون وفق المذهب الأشعرى.

(١) ابن مخلد هو الحاكم الرابع المرسل إلى مصر من طرف بنى أمية.
(٢) هى أول مئذنة أنشئت فى الإسلام.

وإن كان المؤذنون إلى الآن يذكرون ويسبحون من فوق المآذن فى مصر والشام إلا أنهم لا يؤذنون من المساء إلى الصباح كما كان يحدث فى عهد صلاح الدين، بل يسبحون قبيل الفجر بقليل، وفى مكة المكرمة يبدءون الذكر فى آخر الليل، ولا توجد فى البلاد الإسلامية الأخرى عادة الذكر والتسبيح، إلا أنهم يمجدون الله فى ليالى رمضان. «محاضرة الأوائل».

٢- مئذنة باب السلام:

باني هذه المئذنة غير معروف وكان المهدى بن منصور من الخلفاء العباسيين حينما وسع المسجد الحرام فى سنة (١٦٢) قد جدد هذه المئذنة أيضا جاعلا لها شرفتين، إلا أن بعض المؤرخين ادعوا أن المهدى لم يجدد هذه المئذنة بل بناها إذ لم تكن هناك مئذنة من قبل.

ولما كانت هذه المئذنة قد خربت مع مرور الزمن هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق وبناها من جديد فى سنة (٨١٠هـ)، وجددها وعمرها السلطان مراد خان الثالث (٩٣٨هـ)، ومازالت تلك المئذنة محتفظة بطرز بنائها الذى بناها عليه المشار إليه.

وهى مستديرة إلا أن قلنسوتها على طرز مآذن البلاد العربية، وعلمها مثل أعلام مساجد إستانبول، لذا كان شكلها غريبا.

خبر مهم

إن وجود هلال على قلنسوات المآذن ليس من الأمور الشرعية بل هو عادة اتخذت من قبل ظهور الإسلام، وقد صادف هجوم الملك فليبوس أبى الاسكندر الأكبر على مدينة إستانبول الليلة التى طلع فيها الهلال، وسر سكنتها من هذا وعدوا طلوع الهلال فألا حسنا، فأصبح من عاداتهم اتخاذ رسم هلال على أعلامهم، وانتقلت هذه العادة إلى القياصرة، وبعدهم إلى سلاطين المسلمين فاتخذوا هلالاً على راياتهم وعلى قمة قلنسوات المآذن، وقد انتشرت هذه العادة بالتدريج فى جميع الممالك الإسلامية. انتهى.

٣ـ مئذنة على[١]:

وإن كان باب على مجهولا، إلا أنها كانت قديمًا ذات شرفة واحدة، وقد عمر المهدى العباسى مئذنة باب على حينما عمر مئذنة باب العباس فى سنة (١٦٢هـ). وإن أشار بعض المؤرخين أن بانى هذه المئذنة هو المهدى العباسى إلا أنهم لم يستطيعوا أن يؤيدوا أقوالهم بأدلة قوية. وانهارت تلك المئذنة بفعل الزمان، وبناها السلطان سليمان بحجر الشمليس الأصفر على طرز مآذن بلاد الروم بعد أن هدمها تماما، وهى الآن على ذلك الشكل.

٤ـ مئذنة باب الوداع:

بناها المهدى العباسى من خلفاء بنى العباس. وهى ذات شرفتين وقد عمرت المئذنة فى عهد شعبان بن حسين صاحب الموصل جزءًا فجزءا، وفى سنة (٧٧١هـ) انهارت هذه المئذنة من نفسها دون أن تسبب أضرارًا لأحد. وقد بدأ حاكم الموصل أشرف بن شعبان فى تجديدها فى نفس السنة، وأتمها فى شهر المحرم الحرام سنة (٧٧٢هـ) وعمرت فى سنة (٩٨٣هـ) فى عهد السلطان مراد خان الثالث، ومازالت محتفظة بشكلها الذى صنعت عليه، وهى مثمنة الشكل غاية فى الجمال.

٥ـ مئذنة باب الزيارة:

بانى مئذنة باب الندوة الزائد هو المعتضد بالله العباسى وهى ذات شرفتين.

وقد هدمها الملك الأشرف برسباى المصرى فى سنة (٨٣٨هـ) وبناها من جديد وعمرها وأصلحها السلطان مراد خان الثالث فى سنة (٩٨٣هـ) تصليحا جيدا، ومازالت قائمة على حالها بعد أن عمرت وأصلحت.

(١) نسبة إلى سيدنا على بن أبى طالب (رضى الله عنه).

٦ـ مئذنة قايتباى:

مئذنة السلطان قايتباى فوق عقد باب مدرسة قايتباى الذى يواجه المسعى، وإنها فى غاية من الجمال ولها شرفتان.

٧ـ مئذنة السليمانية:

مئذنة السليمانية ذات ثلاث شرف، وهى بالنسبة للمآذن الأخرى أطولها، وهى بين باب السلام وباب الزيادة ومتصلة بالمدرسة السليمانية، وقد بنيت من الحجر الشمسى(١)، وزخرفت بالذهب الأحمر. إن هذه المئذنة هى آخر المآذن التى أنشئت فى الحرم، وقد بنيت تحت إشراف محافظ جدة وأمين بناء المدرسة السليمانية وتم بناؤها فى سنة (٩٧٣هـ). والمآذن السبعة حول المسجد الحرام يؤذن عليها فى الأوقات الخمس.

ويقول الإمام الفاكهى كان فوق باب إبراهيم الزائد مئذنة على شكل صومعة، وبما أنها كانت فى مواجهة منازل بعض أشراف مكة هدموها.

كما يخبرنا ابن جبير عن وجود مئذنة فوق باب الصفا، وبما أنها كانت ضيقة يشق الصعود والنزول منها فهدمت.

وقد بين الإمام الفاكهى وجود مئذنة بين الميلين الأخضرين، إلا أنه لم يخبر شيئا عن بانيها ولا عن هادمها.

إن المؤلفين الذين سبق ذكرهم أخبرونا عن وجود كثير من المآذن فى مدينة مكة الله إلا أنه لم يبق لهذه المآذن فى وقتنا هذا اسم ولا رسم.

إننا لم نقدر أن نحصل على تاريخ يحدثنا عن المآذن التى ادعى وجودها المؤرخون القدماء، إلا أننا لا نستبعد احتمال وجود بعض المآذن القصيرة فى الأحياء البعيدة عن المسجد الحرام، لأنه يروى أنه عندما فتح النبى ﷺ مكة المكرمة ركز راية نصره فوق مسجد الراية، وكان له مئذنة ذات شرفتين وكانت

(١) وبما أن هذه الأحجار تستخرج من مكان اسمه (الشمسية) سميت «الشميسى».

القناديل توقد عليها فى ليالى شهر رمضان إعلانا للموحدين بحلول وقت الإفطار، ويؤذن عليها أذان المغرب، وتطفأ القناديل بعد السحور.

وبناء على قول تقى الفاسى كانت فى مكة مآذن غير مآذن المسجد الحرام فى مواقع محددة، وكان لها موظفون مكلفون بأداء مهمة الآذان، وكان بانى هذه المآذن هارون الرشيد العباسى بناء على أصح الأقوال. وسواء أكانت تلك المآذن المذكورة أو المآذن القائمة فوق جبل أبى قبيس وعلى قمة الجبل الذى يقابل جبل الأجياد أو على جانبه وفى المكان الذى يواجه المجزر وفى شعب بنى عامر وجبل التناجة وعلى الجبل الأحمر يبلغ عددها ٥٣ مئذنة، وبما أن تقلبات الزمن التى لا تبقى على أى شىء قد أفنت هذه المآذن لم يبق لها اسم ولا أثر.

وفى أوائل ظهور الإسلام كان يؤذن فوق كل هذه المآذن وكانت القناديل توقد عليها إحياءًا لليالى رمضان، ولا أثر لهذه المآذن فى زماننا هذا، إلا أنه فى الليالى التى يثبت فيها قدوم شهر رمضان كان يعلن ذلك بإطلاق المدافع من فوق القلاع السلطانية، ويتبع نظام قنة لتبليغ ذلك لعربان البادية، أى بإيقاد الشموع والنيران فوق الجبال من هنا وهناك، ولا يبعد أن يكون هذا النظام قد اتخذ بدلا من إيقاد القناديل فوق المآذن وفى سنة (١٢٧٥هـ) بنى أحد الهنود فوق جبل أبى قبيس مسجدا ذا مئذنتين، كما أن أحد محاسبى ولاية الحجاز بنى على موضع شق صدر النبى الذى فوق جبل النور مسجدا جميلا، ولكن قراءة الأذان من فوق هذه المآذن ليست معتادة.

شعر

يا مـــن بمالك من عميـــم النعم
وجدت لك القــــرب فى الحـــرم
افتح عينيك وإنها صنع الإله تتمـــلى
يالــــــه حســـــنا أزليـــا يتجلـــى

وبعين قلبك انقل فى طريقـة القدم
وبإجـــلال وتعظـــيم ادخل الحرم
فى كـــل أطـراف عُمُـــدٌ مـن رخام
وكأنهـا الملائـــك فـــى قيـــام
يـا لـه بيتا وعيون الحسـان السـود
كـــل هـــدب لهـــا عمـــود
فى كل طرف مشاهد بديعة نور يسطع
كـــل مشهد مـن غيره أبدع وأروع
صعد هذا البيت إلى طاقات الآفاق
ومن كل طـاق جعل لـه الـرواق
بيـــت ملـــئ بالنـــور والصـــفا
كـــل حجـــر فيـه جبـل الوفا
كل ما فيه باللجين والنضار تحلى
كل شئ فيه من غيره أروع وأحلى
ظـله المقامـــات الأربـــعة فيـــه
على رأس هـــذا الورى مظلة تحميه
اصطـــف علــــيه منـار ومـنار
يزرى بنــــضار الفـلك الدوار
ظله إلـــى أوج الفلـــك يرتفـــع
وهـو بظـــل الأشجـــار مجتمـــع
وظـــــله مـــن الســـماء العاليـة
ألقـــى علـــى الفلـــك الغاشية

وعنـــــد تصـــــعيد الأذان

جـــاءه روح القـــدس بالألحـــان

وعـــــند تصـــــعيد الأذان

جـــاءه روخ القـــدس بالألحـــان

وعلى بابه وسقفه الكـــمال والسماح

طاف حولهـــما كأنهـــما الأرياح

وردة نضرة مـــن بستـــان الخليـــل

أنارت منـــه عـــين قنديـــل الخليل

بمجـــــلة الحبيـــــب يعـــرف

وتضـــوع بمـــا للحبيـــب من عرف

نور الإلـــه فيـــك لـــم يـــزل

فيـــه الخـــلود لفـــيض الأزل

لزمـــزم كـــــل بـــقاء وصفـاء

للمنبـــــر كـــــل رفـــعة وسـناء

ذؤابتـــه جيـــد الـــروح تزييـــن

وينيـــر عيـــن الدنـــيا بالجبـــين

يهـــب الظـــلال كطـــوبى أرم

وخـــلوته ســـتار قصـــر القـدم

يمضى الخـلق فى ظـــلال مـن كرمه

ويحمـــل النيران المشعل فى حرمه

وله أنـه متشحـــا بالســـواد جـــاء

إلا أنــه جـــاء عـــلى اليد بالآلاء

قـــدم بطلـــعه عنــــبرا انفحت

برعمــه مســك فى الجــنة نبتـت

كســـــوته مسكيّـــة منـــذ الأزل

ولهــا فى ظلـــمة ماء الخـضر المحل

أى بيــت أقول إنـــه جبـــل نـــور

ســـاتره ستـــــر الله الغفــــور

خاله الأســـــود مســــك أزفـــر

وبه إنســـــان العــــين تنــــور

إنه ليـــس نقطة بل دائرة فى السماء

ولـــذا كان له صـــفة النقطة السوداء

الشمـــس والقمـــر بالرفعة يشتهران

إلا أنهمــــا لهمــــا عبـــدان

* * *

تشتمل على مساحات المسجد الحرام فى الداخل والخارج وعلى خريطة مسطحة لها(1)

الجدول يحتوى على أبعاد الأبواب المتجاورة بعضها من بعض وقد قيست المسافات من فوق جدران الحرم الشريف

البيـــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
المحيط الداخلى لجدران الحرم الشريف	٦	٢١١٩	
من باب السلام إلى باب النبى	–	٥٩	
من باب النبى إلى باب العباس	–	٤٥	من أبواب الجهة الشرقية
من باب العباسى إلى باب على	–	٦٧	
من باب على إلى باب بازان	–	٩٧	
من باب بازان إلى باب بغله	٦	٥١	
من باب بغلة إلى باب الصفا	–	٤٥	
من باب الصفا إلى باب جياد	–	٤٣	من أبواب الجهة الجنوبية
من باب جياد إلى باب مجاهد	–	٥٨	
من باب مجاهد إلى باب مدرسة عجلان	–	٤٧	
من باب مدرسة عجلان إلى باب أم هانئ	–	٣٥	
من باب أم هانئ إلى باب الوداع	–	٧٢	
من باب الوداع إلى باب إبراهيم	–	١٤٩	من أبواب الجهة الغربية
من باب إبراهيم إلى باب العمرة	–	٢٦٨	
من باب العمرة إلى باب السدة	–	١٢٠	
من باب السدة إلى باب العجلة	–	١٢٠	
من باب العجلة إلى باب القطبى	–	١٤٥	من أبواب الجهة الشمالية
من باب القطبى إلى باب الزيادة	–	٤٩	
من باب الزيادة إلى باب الدريبة		٢٦٨	
من باب الدريبة إلى باب السلامة		٥٦	

(1) قد وضعت هذه الخريطة فى الجزء الأخير.

جدول مساحة الحرم الشريف الداخلية

البيـــــان	قدم	ملاحظـــات
من باب السلام إلى باب العمرة	٥٣٧	بالطول
من باب على إلى باب الوداع	٥٢٥	
من باب العباس إلى باب إبراهيم	٦١١	
من باب السدة إلى باب أم هانئ	٣٨٠	بالعرض
من باب الزيادة إلى باب الصفا	٥٠٠	
من باب عجلة إلى باب مجاهد	٤٢٠	
من باب قطبى إلى باب جياد	٤٨١	
من باب الدريبة إلى باب بازان	٣٩٨	

جدول مساحة الحرم الشريف سطحا ومتفرقا

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
تحت القباب الشرقية	١٤٨٥٥	المساحة السطحية لقباب الحرم الشريف
تحت القباب الغربية	١٣٨٥٥	
تحت القباب الشمالية	٢١٦١٨	
تحت القباب الجنوبية	١٩٤٩٦	
تحت قباب باب الزيادة	٥٤٧٢	
تحت قباب باب إبراهيم	٢١٩٤	
المساحة السطحية لجميع القباب	٢٧٤٨٩	مساحة الزيادة الداخلية
باب الندوة الزائد	٥٠٥٨	
باب إبراهيم الزائد	٤٨٤٠	
مساحة الحرم الداخلية بدون قبب	١٤٠٤٧٢	
مساحة الحرم الشريف الكلية	١٧٧٨٦٩	الأرصفة وسائر المبانى فى داخل هذا الحساب

الجدول الذى يشمل مساحة قواعد المآذن السطحية للحرم الشريف

البيـــان	قدم مربع	ملاحظـــات
مئذنة باب السلام	٤٧٠	الجهة الشرقية
مئذنة السلطان قايتباى	٥١٧	
مئذنة باب على	٣٨٠	
مئذنة باب الوداع	٤٠٠	الجهة الغربية
مئذنة باب العمرة	٤٣٧	
مئذنة باب الندوة الزائد	٤٢٠	الجهة الشمالية
المئذنة السليمانية	٤٢	

جدول الساحة الرملية للحرم الشريف

البيـــان	قدم مربع	ملاحظـــات
الساحة الرملية الأولى	٤٢٠٧	
الساحة الرملية الثانية	٤٣١٢	
الساحة الرملية الثالثة	٣٤٣٣	
الساحة الرملية الرابعة	١١٢٤١	
الساحة الرملية الخامسة	٢٦٩٩٤	إن هذه الساحات الرملية خارج مساحات قباب الحرم الشريف وأنها حول أرصفة وقد أشير فى الخريطة برقم خاص لكل الساحات الرملية
الساحة الرملية السادسة	١٥٠١٥	
الساحة الرملية السابعة	١٢٣٥٥	
الساحة الرملية الثامنة	٧٦٠٤	
الساحة الرملية التاسعة	١٣٣٤٤	
الساحة الرملية العاشرة	٩٠	
الساحة الرملية الحادية عشرة	١٠٦٢٤	
الساحة الرملية لباب إبراهيم	٢٦٦٦	
	٩٩٣٥٧	المساحة الكلية لساحات الحرم الشريف الرملية

المساحة الخارجية لبيت الله

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
مساحة كعبة الله الدائرية من غير حجر إسماعيل	١٤٣	
مساحة كعبة الله الدائرية بحجر إسماعيل	١٥٨	
مساحة كعبة الله الدائرية من خارج الحطيم	١٤٧,٣	(١)

جدول مساحة أرصفة الحرم الشريف

البيـــــان	قدم مربع	ملاحظـــات
الرصيف الأول	٨١٠	
الرصيف الثانى	٨٩٠	
الرصيف الثالث	٣٨	
الرصيف الرابع	٧٣٨	
الرصيف الخامس	٨٥٥	
الرصيف السادس	١٢٣٠	
الرصيف السابع	٨١١	
الرصيف الثامن	١٠٣٨	
الرصيف التاسع	٣٣٠	إن مبانى بيت الله المقدسة والحطيم خارج هذا الحساب
الرصيف العاشر	٤٧٦	
رصيف المطاف	٧٦٧	
الرصيف الواسع حول المقامات الأربعة	١٩٤٤٤	يطلق على هذا الرصيف الواسع بين أهل مكة «بلاط» والمقامات الأربعة وبئر زمزم ومبانى التوقيت فى داخل هذا الرصيف
الرصيف القائم حول المطاف	١٥١٠	
رصيف باب الزيادة الأربعة	١٦٧٢	
رصيف باب إبراهيم	١٣٢	
	٣٧٥٢٧	مساحة مجموع أرصفة الحرم الشريف

(١) يعنى بخارج الحطيم الأماكن التى يجوز الطواف بها أى خارج الجدار المستدير.

مساحة بيت الله المحترم فى الداخل

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظــــات
سطح كعبة الله فى الداخل	-	٦٥٦	(١)
سطح سلم السطح الشريف	-	٤٨	
من جدار كعبة الله الجنوبى إلى العمود الأول	١٧	٢	
من العمود الأول إلى الثانى	١٧	٢	
من العمود الثانى إلى الثالث	٣	١	
من العمود الثالث إلى الجدار الشمالى	٤	٣	(٢)
من الجدار الشرقى إلى الأعمدة	١١	٤	
من الجدار الغربى إلى الأعمدة	٨	٦	

مساحة شادروان الكعبة

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظــــات
عرض شادروان الكعبة من الجهة الجنوبية	٢	٤	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الغربية	٠	٤	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الشمالية	٠	٣	
عرض شادروان الكعبة من الجهة الشرقية	٠	٣	(٣)
ارتفاع شادروان الكعبة من الأرض	٩	١	

(١) للجدار الداخلى الغربى جزعة ترتفع عن أرض بيت الله ستة أذرع، جزعة خططت ونقشت عليها خطوط سوداء وبيضاء، وطول الجزعة اثنا عشر ذراعًا، وقد أدرج فى الجهة اليمنى منها ذهب قدر ثلاثة أصابع، يروى أن النبى ﷺ قد مسح هذا المكان بحاجبيه.

(٢) يقال بين العامة على هذه الأعمدة أعمدة «الحنان والمنان» لأنه قد كتب فوق ستارتها كلمات (الحنان والمنان).

(٣) يطلق فى الشرع اسم شادروان على الجدران البارزة من أرض بيت الله.

الأبعاد الخارجية لبيت الله

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
ارتفاع جدران كعبة الله	-	٥٦	الطول (١)
من الحجر الأسود إلى الركن العراقى	-	٣٩	
من الركن الشامى إلى الركن اليمانى	-	٤٢	
من الركن العراقى إلى الركن الشامى	-	٢٩	
من الركن اليمانى إلى ركن الحجر الأسود	-	٢٣	
ارتفاع باب الكعبة	-	٩	العرض (٢)
عرض باب الكعبة	٨	٥	يطلق على ما بين الباب المسدود والركن اليمانى المسجار
ارتفاع كعبة الله من أرض المطاف إلى عتبة الباب	٦	٥	
ارتفاع الباب المسدود	٩	٣	

مساحة الحطيم فى الداخل والخارج

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
ارتفاع جدار الحطيم الكبير	١	٤	
عرض جدار الحطيم	١١	١	
بعد الجدار الشمالى للكعبة إلى جدار الحطيم	١	٢٥	يطلق الحطيم على جدار شكله نصف دائرى فى طرف المقام الحنفى
البعد بين بابى الحطيم	-	١٩	
عرض بابى الحطيم	-	١٠	
الطول الدائرى لجدران الحطيم من الداخل	-	٣٩	
الطول الدائرى لجدران الحطيم من الخارج	١	٤٧	
المساحة السطحية للحطيم من غير الحجر	-	٦٤٣	قدم مربع
المساحة السطحية لقاعدة جدران الحطيم		١٠٧	قدم مربع

(١) يطلق على الركن العراقى الركن الشامى وعلى الركن الشامى اسم الركن العراقى.

(٢) يقع الحجر الأسود فى الركن الشرقى لكعبة الله. ويبدو كرأس إنسان وارتفاع الحجر الأسود عن المطاف ما يقرب من خمسة أقدام.

مساحة مقام إبراهيم

البيـــــان	بوصة	قدم	لنية	ملاحظـــات
ارتفاع صندوق المقام الشريف	٤	١	–	–
عمق موضع القدم الشريف	–	–	٨	(١)
عرض مصلى أئمة الشافعية	٨	٧	–	–
طول مصلى أئمة الشافعية	–	٧	–	–
البعد من صندوق المقام إلى شادروان الكعبة	–	٢٨	–	–
من صندوق المقام إلى باب الصفا	–	٤٦٢	–	–
من صندوق المقام إلى بئر زمزم	–	٣٥	–	–
من بئر زمزم إلى شادروان الكعبة	–	٢٧	–	–

المساحة السطحية للمقامات الأربعة ودار التوقيت والمكتبة

البيـــــان	بوصة	قدم	ملاحظـــات
مساحة المقام الحنفى المربعة	-	٣٧٥	
مساحة المقام المالكى المربعة	-	٢٥٥	
مساحة المقام الحنبلى المربعة	-	٢٨٥	
مساحة المقام الشافعى المربعة	-	٥٨	
مساحة مبانى زمزم المربعة	-	١٦٢	
مساحة دار التوقيت المربعة	-	١٢٠	(٢)
مساحة مبانى المكتبة مع دواليبها	-	١٣٨	(٣)
مساحة داخل شبكة المقام الإبراهيمى المربعة		٤٨	

(١) وغلفت أثر القدم الشريف بالفضة، وهى خلف شبكة مقام مصلى الشافعية، وقد بنيت على عمودين من الحجر.

(٢) نقلت دار التوقيت فى سنة ١٢٩٩ إلى مكان متصل بسلالم خاصة بالمئذنة السليمانية فى داخل الحرم.

(٣) ونقلت المكتبة فى سنة ١٢٩٩ إلى القبة التى عرفت بدار أحمد باشا.

بعد البقعة المقدسة لكعبة الله من المواقع المختلفة فى داخل الحرم

البيان	بوصة	قدم	ملاحظات
من تحت ميزاب الرحمة إلى المقام الحنفى	-	٥٦	(١)
من المقام المالكى إلى شادروان الكعبة	-	٤٤	
من المقام الحنبلى إلى شادروان الكعبة	-	٢٠٦	
من الحجر الأسود إلى باب الصفا	-	٣٧٨	
من حجر إسماعيل إلى باب الزيادة	-	٣١٦	
من باب الكعبة إلى باب السلام	-	٥٣	
من باب الكعبة إلى باب بنى شيبة	-	٢٨٥	
من باب الكعبة إلى باب على	-	٢٨٢	
من الحجر الأسود إلى باب على	-	٢٧٥	
من الركن الشامى إلى باب العمرة	-	٣٠٦	
من الركن العراقى إلى باب السلام	-	٦	
من الركن اليمانى إلى باب أم هانئ	-	٢٥٥	
من الركن العراقى إلى المنبر	-	٢٤	(٢)
من باب الكعبة إلى سلم الكعبة	-	٨٥	

مساحة طول الأضلاع الخارجية لجدران الحرم الشريف

البيان	بوصة	قدم	ملاحظات
من باب السلام إلى مئذنة السلطان قايتباى	-	١١٦	
من مئذنة السلطان قايتباى إلى مئذنة باب على	-	٢٣٧	
من مئذنة باب على إلى مئذنة باب الوداع	-	٤٧٨	
من مئذنة باب الوداع إلى مئذنة باب العمرة	-	٤١٣	
من مئذنة باب العمرة إلى مئذنة باب الزيادة	-	٤٢٨	
من مئذنة باب الزيادة إلى المئذنة السليمانية		١٤٤	
من المئذنة السليمانية إلى مئذنة باب السلام	-	١٠٠	
المحيط الخارجى لجدران الحرم الشريف	-	٢٢٢٩	

(١) يقع ميزاب الرحمة فى وسط جدار كعبة الله، ويبرز للخارج مقدار أربعة أو خمسة أقدام عرضه وارتفاع أطرافه ثمانية أصابع.

(٢) هذا السلم ما بين مبانى مقام إبراهيم وبئر زمزم.

المساحة العرضية لمداخل أبواب المسجد الحرام

البيـــــان	الطاق الأول قدم	الثانى قدم	الثالث قدم	الرابع قدم	الخامس قدم
باب السلام	٧	٥	٩-	-	-
باب النبى	٦	٥	-	-	-
باب العباس	٥	٥	٥	-	-
باب على	٧	٦	٧	-	-
باب بازان	٦	٧	-	-	-
باب بغلة	٦	٦	-	-	-
باب الصفا	٥	٤	٥	٤	٤-
باب الجياد	٥	٦	-	-	
باب المجاهد	٥	٥	-	-	
باب أم هانئ	٦	٨	-	-	
باب مدرسة الشريف عجلان	٨	٧	-	-	
باب الوداع	٥	٥	-	-	
باب إبراهيم	١٠	-	-	-	
باب العمرة	٨	-	-	-	
باب السدف	٩	-	-	-	
باب الحجلة	٩	-	-	-	
باب الزيادة	٧	٥	-	-	
باب الدريبة[1]	٥	-	-	-	
باب القطبى	٦	-	-	-	
				-	

(١) باب الدريبة باب لا يدخل منه أحد، وفوقه كمر طويل بنى عليه مبانى المدرسة السليمانية.

تشتمل على ثلاث صور

تعرف الأماكن المقدسة والمساجد القديمة والجبال التى فى مكة المكرمة كما تبين أوقات الدعاء وساعاته

تذكر وتعرف الأماكن المقدسة والمواقع الميمونة

كتب العلماء المتقدمون رسائل فى تعريف الأماكن المباركة كل واحد على حدة، مبينين الساعات التى يلزم الدعاء فيها والأيام أيضا، وقد رأينا أن الحسن البصرى قد أبلغ عدد الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء إلى خمسة عشر مكانًا مع ضم منى والجمرة[1] إلى هذه الأماكن وقد عدد صاحب كتاب «النهر» أسماء تلك الأماكن فى هذ النظم.

دعاء البرايا يستجاب بكعبة

وملتزم والموقفين[2] كذا الحجر

طوافٌ وسعىٌ مروتين[3] وزمزم

مقام[4] وميزاب[5] جمرات[6] تعتبر

وبين لنا الشيخ عبد الملك بن جمال الدين الأدعية التى تستجاب فى هذه الأماكن وأيام استجابتها وساعاتها كما وصل إليها النقاش بعد المناقشة والبحث فى هذه المنظومة.

(١) إن لم تكن منى والجمرة فى داخل مكة إلا أنهما بناء على حكم ما قارب الشىء كالشىء عدتا من داخل مكة.

(٢) الموقفان كناية عن جبلى الرحمة والقزح وقد يوقف هنا فى وقفة عرفات.

(٣) المروتان المقصود بهما الصفا والمروة وقد غلب التأنيث على التذكير للضرورة.

(٤) مقام المقصود به المكان الذى صلى فيه أئمة المذهب الشافعى ويقع فى الجهة الشرقية من شبكة مقام إبراهيم.

(٥) يقصد به أسفل الميزاب الذهبى.

(٦) جمرات المقصود بها مواقع الجمرات الثلاث فى منى.

وقد ذكر النقاش[1] فى المناسك وهو لعمرى عدة للسالك أن الدعاء فى مكة يقبل ممن ذكره فى خمسة عشر موضعًا وهى، كما جاء بهذه المنظومة:

إن الدعاء فى خمسة وعشره
بمكة يقبل ممن ذكره
وهى: المطاف مطلقا والملتزم
بنصف ليل فهو شرط ملتزم
وداخل البيت بوقت العصر
بين يدى جذعيه ذا فاستعر
وتحت ميزاب له وقت سحر
وهكذا خلف المقام المفتخر
وعند شرب زمزم شرب الفحول
إذا دنت شمس النهار من الأفول
ثم الصفا والمروة والمسعى
بوقت عصر فهو قيد يرعى
كذا منى فى ليلة البدر إذا
انتصف الليل فخذ ما يحتذى
ثم لذى الجمار والمزدلفة
عند طلوع الشمس ثم عرفه
لموقف مغيب الشمس قل
ثم لذى السدرة ظهرا وكمل
وقد روى هذا الوقوف طرا
من غير تقييد بما قد مرا
بحر العلوم حسن البصرى عن
خير الورى ذاتا ووصفا وسن

(١) المقصود به المفسّر النقاش وهو ابو بكر محمد المتوفى ٣٥١.

صـــلى الله عليـــه وســـــلما
وآله والصحـــب ما غيـــث همـــا

وقد أضاف مؤلف «لباب المناسك» إلى الأماكن التى عينها الحسن البصرى ثلاثة أو أربعة أماكن أخرى، وقد وصل العلماء عدد الأماكن المقدسة إلى مائة، وذلك بإضافة كل واحد منهم موقعا مؤيدا قوله بحديث صحيح متواتر.

وقال مؤلف لباب المناسك: إن الأدعية التى يدعى بها فى تلك الأماكن تستجاب بفضل الله وتقبل، ولكن مع مرور الزمن نسى مواقع تلك الأماكن وجهاتها، ولقى بعضها فى داخل مقبرة المعلى والمعروف منها الآن بين الأهالى قد يصل إلى خمسة وسبعين موقعا فقط كما سيذكر فيما بعد.

المواقع التى اتفق العلماء على أن الدعاء يستجاب فيها

[١] المطاف السعيد [٢] الملتزم [٣] تحت الميزاب الذهبى [٤] مقام إبراهيم [٥] حفرة المعجن [٦] داخل كعبة الله [٧] بئر زمزم [٨] الصفا [٩] المروة [١٠] المسعى [١١] منى [١٢] الجمرات الثلاث [١٣] خلف المقام [١٤] ضريح ابن الزبير [١٥] ضريح ذات النطاقين [١٦] ضريح عبد الرحمن [١٧] مسجد أبى بكر [١٨] مسجد الصخرة [١٩] مسجد المشعر [٢٠] الحجر الأسود [٢١] الموقع الذى يرى منه بيت الله [٢٢] حجر إسماعيل [٢٣] المستجار [٢٤] ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم [٢٥] جبل الرحمة [٢٦] باب بنى شيبه [٢٧] باب إبراهيم [٢٨] باب النبى [٢٩] باب الصفا [٣٠] مسجد خيف [٣١] مسجد المنحر [٣٢] مسجد البيعة [٣٣] غار المرسلات [٣٤] مغارة الفتح [٣٥] دار السيدة خديجة [٣٦] مسجد الشجرة [٣٧] مسجد النمل [٣٨] الركن اليمانى [٣٩] قبر خديجة [٤٠] قبر سفيان بن عيينة [٤١] قبر آمنة [٤٢] قبر فضيل ابن عياض [٤٣] باب الجرير [٤٤] دار أرقم [٤٥] الحجر المتكلم [٤٦] الحجر المتكى [٤٧] رباط موفق [٤٨] مسجد ذى طوى [٤٩] مسجد التنعيم [٥٠] مسجد عائشة [٥١] مسجد الجن

[٥٢] مسجد الراية [٥٣] مسجد مدعا [٥٤] قبة اللبن [٥٥] مسجد النمرة [٥٦] مسجد الجعرانة [٥٧] مسجد الفتح [٥٨] مسجد جنيد [٥٩] مسجد الإجابة [٦٠] جبل أبى قبيس [٦١] جبل النور [٦٢] غار ثور [٦٣] جبل خندمة [٦٤] جبل ثبير.

الأثر الأول: المطاف الشريف:

هو الرصيف العريض الذى يحيط بالكعبة المعظمة من جوانبها الأربعة. إن مساحة هذا الرصيف السطحية المربعة (٢٧٦٢) قدما والمحل الذى يطلق عليه المطاف داخل القناديل التى علقت على الأعمدة حول الرصيف، والحجاج الكرام يطوفون عادة فى هذا المكان. إن المسافة كما وضح فى الوجهة الخامسة من شبكة مقام إبراهيم إلى شادروان الكعبة ٢٨ قدمًا، ومن المقام الحنفى إلى جدار الحطيم ٣٣، ومن المقام المالكى إلى شادروان الكعبة ٤٤، ومن المقام الحنبلى إلى شادروان التى تحت الحجر الأسود ٣٥ قدما، وبناء على هذا الحساب فإن طرفا المقام المالكى أوسع جهة مطاف الكعبة المشرفة.

الشادروان:

يطلق اسم شادروان بين أهالى مكة على الجدران التى تلاصق أرض المطاف: إن هذه الحجارة البارزة جدار صغير لترصين البناء كالسد، وإنه مثل خلخال العروس الذى يحيط دائرًا ما دار بالبيت الشريف، ومثل سوار معاصم البكارى، وعليه حلقات متعددة لربط كسوة الكعبة، وإن هذه الحجارة البارزة التى يطلق عليها شادروان تحيط الكعبة من جهاتها الثلاث من الشرق والغرب والجنوب، لكن الجهة الشمالية تخلو من الشادروان. وإن كانت بعض الحجارة تبرز من ناحية حجر إسماعيل. إن هذه الحجارة تعد من داخل الكعبة المعظمة، فلا يقال لها شادروان. وارتفاع الشادروان وجدرانه فى بعض الجهات يصل إلى قدم و١١

بوصة، وفى بعض جهاتها إلى ذراع واحد وقدم ٨ بوصات، وعرض بعض جهاتها يصل إلى ١١ بوصة، وجهاتها الأخرى تسعة بوصات.

مسائل مهمة:

وبناء على رأى أئمة الحنفية فإن الشادروان لا يعد من الكعبة المعظمة، لأنه حجارة قد ألصقت ببناء الكعبة لتقويته وتدعيمه، وبناء على رأى علماء المذهب الشافعى فإن شادروان يعد من الكعبة المعظمة لأنه امتداد لأساس بيت الله المعظم العريض. حينما جددت طائفة قريش قد رفعت أساس بيت الله عن الأرض ثلاث أصابع، ثم رفعوا جدار كعبة الله من الخارج.

إن الطواف ببيت الله يتوقف على وجود الطائف فى داخل الحرم الشريف، لأن الطواف من خارج المسجد الحرام يعد طوافا بالمسجد وليس بالكعبة ولذلك لا يجوز. ولا يطرأ ما يفسد الطواف للذى يتركه لأداء الصلوات المفروضة أو لأداء صلاة الجنازة أو للوضوء، فعندما يختم هذا العمل يبدأ الطواف من حيث تركه، وفى غير هذه الحالات يبطل الطواف ويجب البدء من جديد.

إن القناديل حول المطاف توضع على خمسة وثلاثين عمودا اثنان منها من الرخام والباقى من النحاس الأصفر.

والأعمدة الرخامية بالقرب من أبنية مقام إبراهيم، والباقى يحيط بجوانب الكعبة الأربعة وتعلق عليه القناديل، وبما أن الأعلام التى وضعت فوق الأعمدة قد ساء منظرها، وأوقعت على الأرض بمرور الزمن فوضعت عليها أعلام من الصفيح، ونزع أحمد أفندى مدير الحرم الشريف سنة (١٢٩٦هـ) تلك الأعلام وصب أعلاما جديدة جيدة وضعها فوق الأعمدة كل ذلك فى ظل المبرة السلطانية.

ولم يكن فى أى جهة من جهات الكعبة قنديل إلى عهد معاوية، وفى سنة

(٤٤) أوقد معاوية العدد الكافى من القناديل، ومد تلك القناديل بالكمية الكافية من زيت الزيتون وأصبح هذا عادة.

بعد إحدى وثلاثين سنة من ذلك ركز عبد الملك بن مروان بالقرب من بئر زمزم عمودا، وعلق عليه قنديلا كبيرا لينير المطاف للذين يطوفون بالبيت ليلا.

بعد ما وضع معاوية بن أبى سفيان نظام إيقاد القناديل، أعطى أرطال من الطيب لتعطر كعبة الله عقب كل صلاة، وأبقى ابن الزبير على هذا النظام، إلا أنه استصوب أن تعطر الكعبة فى الأيام العادية برطل من الطيب، وفى أيام الجمع برطلين.

لم يوقد قنديل ولم ينصب عمود واحد حول المطاف الشريف إلى عصر الواثق بالله العباسى، وفى سنة (٢٣١هـ) نصبت عشرة أعمدة خشبية وعلقت ما بين الأعمدة ثمانية مصابيح كبيرة، ومنذ ذلك التاريخ أضيئت الجهة الداخلية للمطاف. وفى (٧٢٠هـ) قد زيدت تلك الأعمدة إلى (٣٢) عمودا وبلغت القناديل التى تعلق بينها إلى (١١٦) قنديلا، وبعد تسع وعشرين سنة قد بدلت جميع هذه الأعمدة بالأعمدة الحجرية، وإن كانت ريح شديدة هبت فى سنة (٧٥٠هـ) وأسقطت جميع الأعمدة التى حول المطاف وحطمتها قطعا إلا أنها جددت وبعد مرور وقت قصير قد بدلت بأعمدة من نحاس أصفر، وحتى تحفظ تلك الأعمدة من مياه الأمطار التى قد تظهر فيما بعد مد بين الأعمدة أربطة حديدية سميكة لتعلق عليها القناديل أيضا. وفى سنة (١٢٧٠هـ) أوصلها السلطان الغازى عبد المجيد خان بن السلطان الغازى محمود خان إلى (٣٥)[1] عمودا وعدد القناديل (٢١٠) وعلق فوق حدائد القباب من أولها لآخرها قناديل[2] مثل الأنجم على أن توقد فى خلال موسم الحج وليالى رمضان وإحياء الليالى المباركة.

(١) واليوم عمود من تلك الأعمدة من النحاس الأصفر وثلاثة منها من الرخام الأبيض.
(٢) قد جدد سلاسل هذه القناديل برقوق المصرى من ملوك الشراكسة فى سنة ٨٠٧.

وهكذا أضيء داخل حرم المسجد الحرام مثل الجنة، وبعد مرور تسعة عشر عاما أرسلت من قبل والدة السلطان عبد العزيز خان الطاهرة النقية شمعدانات متعددة حتى توقد أمام المقامات الأربعة، وفى الأماكن المناسبة لمساحة الحرم الرملية وذلك فى سنة (١٢٨٩).

بين عمودين من أعمدة المطاف سبعة قناديل وإذا أحصى عدد القناديل كلها تصل قناديل أعمدة المطاف إلى (٢١٠) عمودا وإذا أضيف إليها القناديل التى سنذكرها فى الجدول الآتى يصل عدد القناديل إلى (١٨٢٢) قنديلا:

مواقع وعدد القناديل التى اعتيد إيقادها فى مواسم الحج

عدد القناديل	مكان وجودها	ملاحظـــــات
٣٢٤	فى المطاف السعيد	القناديل الـ ٨٦ الموقدة فى المقامات الأربعة داخل هذا العدد
٣٧٠	تحت القباب	
٦٠٠	بين الأعمدة	
٥٤	فى الأبواب	
٣٦	فى النجف الشبيهة بالأشجار	يقال لهذه القناديل «المصطفة» وهى معلقة تحت الصف الأول من كمر قباب الحرم الشريف الواقعة فى الساحة الرملية
١٠	أمام المحكمة	
١٦	بين الصفا والمروة	
١٤١٠	المجموع	
١٤١٠	المجموع المنقول	
٤١٢	فى المآذن	
١٨٢٢	المجموع الكلى	

فى كل مئذنة	عدد المآذن
٦٤	٥
٤٦	٢
	٧

هناك جدار نصف دائرى حول حجر إسماعيل ويطلق على هذا الجدار «حطيم».

سبب بناء الحطيم وتاريخ تأسيسه

كانت أطراف المطاف الشريف إلى سنة (٦٤) هجرية ساحة رملية وفى نفس السنة فرش عبد الله بن الزبير. الجهات الأربعة للمطاف بالأحجار الباقية بعد تجديد البيت الحرام بتوسيعه عشرة أذرع. وبعد ثمانى سنوات من هذا العمل هدم الحجاج الظالم الجدار الشامى الذى بناه عبد الله بن الزبير كما ذكر فى مكانه من قبل وأدخله إلى داخل الكعبة قدر ستة أو سبعة أذرع، وحتى يحفظ هذا المكان الذى خلا بالهدم من الطائفين[1] بنى ذلك الجدار الذى سبق ذكره أعلاه، وذلك فى سنة (٨٢هـ).

وقد أدى الجدار الذى بناه الحجاج الظالم مهمته إلى سنة (٩٤١هـ) بترميمه من حين لآخر، إلا أنه ضعف وارتج بشدة عقب السيل الفظيع الذى حدث فى سنة (١٠٣١) وحينئذ هدمه السلطان مراد الرابع إلى أساسه وبناه من جديد. وجدده السلطان عبد المجيد فى خلال سنة (١٢٦٢هـ) على أكمل صورة.

كان سطح داخل الحطيم الكريم مفروشا بحجارة سوداء صغيرة إلى عهد أبى جعفر المنصور. وفى سنة ١٣٩هـ حينما حج أبو جعفر تأثر حينما شاهد حجارة جدران الحطيم، وكذلك أرضيته فى الداخل والخارج غير منظمة وفى حالة سيئة، استدعى زياد بن عبد الحارث والى مكة وقال له: إن هذا الجدار قد بُنِيَ بحجارة عادية وإننى أريد أن يفرش هذا الموقع المبارك فى هذه الليلة بحجارة رخامية لامعة منتظمة وابدءوا ما أريد لأننى سأتى غدا صباحا لمعاينته.

وأحضر زياد بن عبد الله عددا كبيرا من العمال والحَجَّارين، وتحت ضوء المشاعل والقناديل قد جدد الجدار ثم الأرضية حاملا العمال على بذل الجهود المضنية حتى الصباح، وانتزع الحجارة السوداء التى أراد أبو جعفر المنصور تغييرها، وفرش الأرضية بقطع الرخام المجلوة، وفى سنة (١٤١هـ) وبعد عشرين سنة من تجديد أبى جعفر أمر المهدى العباسى فانتزعت الحجارة التى فى داخل

(١) لما كان هذا المكان من داخل كعبة الله فالمرور عند الطواف من خلال هذا المكان يفسد الطواف.

الحطيم وخارجه واحدة واحدة وفرشت الأرضية بقطع الرخام اللامعة[1] وذلك فى سنة (١٦٢هـ).

دامت الإصلاحات التى أجراها المهدى العباسى فى المطاف الشريف (٤٧٢) سنة، وفى عام (٥٥١هـ) بعد أن غير الحجر الأخضر الذى يقال حجر إسماعيل من قبل المستنجد بالله بن المقتفى بالله احتاج المطاف الشريف إلى ترميم عظيم، غير المستنصر بالله الحجارة التى جددت فى عهد المهدى تغييرا كاملا، ثم كتب ما تم إصلاحه فى عهده فى الحرم الشريف على لوحة رخامية زرقاء، ثم ألصقها على جدران بيت الله الحرام، وكان ذلك عام (٦٣٤هـ).

وإن كان الملك جاقمق غير ما فرشه المستنصر بالله بعد مائة وتسعين سنة، وفى سنة (٨٤٣هـ) إلا أن أكثر رخام المطاف الشريف احتاجت إلى التسوية والإصلاح بعد سبع وثلاثين سنة، وعلى ذلك جددها السلطان قايتباى المصرى فى سنة (٨٨١هـ) وبعده بست وثمانين سنة غير السلطان الغورى المصرى ما فرش فى عهد قايتباى فى سنة (٩١٧هـ). وقد أمر السلطان سليمان بانتزاع ما تم إصلاحه فى عهد السلطان الغورى أو ما تم فرشه قبل ذلك. وفرش المطاف الشريف على أحسن وجه فتبدلت أرضية المطاف السعيد الرخامية وانتظمت حالتها فى سنة (٩٥٩هـ). وبعده بأربع وثمانين سنة غير السلطان مراد خان الرابع قطع رخام المطاف الشريف ورخام الأماكن الأخرى من الحرم الشريف سنة (١٠٤٣هـ) وقطع الرخام التى مازالت مفروشة إلى الآن هى الحجارة التى فرشت فى عصر مراد الرابع.

وقد أصبحت هذه الحجارة بمرور الزمن فى حالة غير منتظمة، وتحركت من أماكنها حتى اتسعت الشقوق بين قطع الحجارة قدر إصبع، فلم تَنْجُ أقدام الحجاج من الأذى حين الطواف وفى سنة (١٢٩٦هـ) أصلح مدير الحرم الشريف السابق أحمد أفندى بأن صب قصديرا بين الشقوق التى فى قطع رخام المطاف والرخام الذى فى داخل الحطيم.

---

(١) لا يعرف الوقت الذى عين فيه حجر إسماعيل بالحجر الأخضر، لابد أن زياد بن الحارث عين ذلك فى هذا التعمير.

واختلف العلماء فى تحديد مكان الحطيم بالنسبة للمسجد الحرام، وبناء على بعض الأقوال أن الحطيم فى داخل الجدار الذى سبق تعريفه، وباتصال جدار البيت الأعظم الشمالى أى لحجر إسماعيل، ويطلق على المكان الذى يقع بين ركن الحجر الأسود وبئر زمزم ومقام إبراهيم، وعند البعض يطلق على الفراغ الذى بين باب بيت الله ومقام إبراهيم، وفى قول يطلق على الميدان الذى يمتد فى ركن الحجر الأسود إلى حدود مقام إبراهيم، وبما أن القول الأخير يبدو أقوى من الأقوال الأخرى فالناس يجتمعون فى هذا الميدان للتضرع والدعاء والمناجاة، وكان أهل الجاهلية يجتمعون فى هذا الميدان حيث يتعاهدون أو يتحالفون.

والحطيم فى زماننا ذلك الجدار الميمون المبارك، وارتفاع جدار الحطيم (٣ قدم و ٤ بوصة) وله مدخلان وعرض كل مدخل (١٠) قدم، والفاصل بين الاثنين (٢٩) قدما، والفاصل بين جدار الكعبة التى تحت الكسوة وجدار الحطيم (٢٢ قدم ٦ بوصة)، والمحيط الداخلى لجدار الحطيم المذكور (٣٥ قدم، ٥بوصة)، والمحيط الخارجى (٤٤ قدم، ٤ بوصة) وتبلغ مساحة الأطراف الأربعة لأبنية الكعبة مع إضافة مساحة حجر إسماعيل (١٤٧ قدم ٣ بوصة) كاملة.

والمقامات الأربعة التى يؤدى فيها أئمة المذاهب الأربعة صلواتهم تقع فى الأطراف الأربعة للمطاف الشريف الذى ذكرناه، فالمقام الحنفى فى الجهة الشمالية لكعبة الله، ومقابل ميزاب الرحمة المقام الشافعى فى الجهة الشرقية وخلف المقام الإبراهيمى الذى يواجه الكعبة، والمقام المالكى فى ظهر كعبة الله، والمقام الحنبلى فى الجهة الجنوبية فى مكان يواجه الحجر الأسود، وكل المقامات متصلة بالحدود الخارجية للمطاف الشريف، وقد أدى إمام كل مذهب الصلاة مع المصلين دون ترتيب منذ سنة (٦٣٣هـ) إلى سنة (٧٩٠هـ)، ولكن بعد سنة (٧٩٠هـ) أخذ إمام المذهب الشافعى يصلى بصلاة الفجر أولا، وفى الآخر يصلى إمام المذهب الحنفى، وفى صلوات الأوقات الأخرى يصلى إمام المذهب الحنفى وبعده إمام المذهب الشافعى وبعده إمام المذهب الحنبلى، وفى الآخر يصلى إمام المذهب المالكى.

قد استصوب أداء أئمة المسجد الحرام على الوجه المذكور فى خلال سنة (٧٩٠هـ) ومع هذا عند اتخاذ هذا النظام للصلاة أخذ أئمة المذاهب الأربعة أداء صلاة المغرب معًا، وكان الناس يقتدون بالأئمة الأربعة فى جهات الحرم الشريف الأربع، فأخذت الأصوات تختلط مع بعضها مما قد يؤدى إلى فساد الصلاة.

وقال بعض من خيار العلماء إذا ما ترك نظام أداء صلاة المغرب مؤقتا بالأئمة الأربعة فى وقت واحد أحسن، وحاول بهذا أن يقضى على النظام الغير المعقول، لذا وضع الملك الناصر فرج نظام أداء صلوات المغرب بإمام واحد فقط، وبعدما استمر هذا النظام ما يقرب من إحدى عشرة سنة اختل، ولاسيما فى سنة (٨١٦هـ) أخذ أئمة المذاهب الأربعة يؤدون الصلوات فى وقت واحد وفى النهاية وضعوا النظام الحالى، والآن تؤدى صلاة التراويح فى أماكن مختلفة قد تصل إلى أربعين أو خمسين موقعا مع أئمة مختلفة يؤمون جماعات مختلفة، وكان هذا النظام مما يؤذى شعور الناس، إلا أنه قد اتخذ حكم العادة ومن الصعب حمل الناس على تركها.

والجماعات التى تصلى التراويح يسلم بعضهم بعد ركعتين، وبعضهم بعد أربع ركعات، ويطوفون بالبيت بعد السلام، ثم يبادرون لأداء صلاتهم وبعضهم يصلون التراويح بدون طواف وتكاد الصلاة أن تفسد أحيانا باختلاط الأصوات بعضها مع بعض، إلا أن وجود فوانيس مختلفة الألوان أمام الأئمة يضيف للحرم الشريف رونقا وجمالا .

وبناء على الفهرس الذى أخذ من خزينة مديرية الحرم الشريف أردنا أن ندرج صورة منه فيما يأتى فللمقام الحنفى (٧٥) وللمقام الشافعى (٢٥) وللمقام المالكى (١٥) وللمقام الحنبلى خمسة أنفار من الخطباء والأئمة، وخدمة المسجد الحرام يبلغ عددهم ١٧٢ نفرا غير الأئمة والخطباء.

الفهرس الذى يبين الأئمة والخطباء والخدم الآخرين، عددهم وأنواعهم، بالحرم المكى.

عدد الأنفار	المقام الحنفى	عدد الأنفار	المقام الشافعى
٢٦	أئمة وخطباء موظف(١)	٦	خطيب وأئمة موظف(٢)
٧	ملازمو أئمة	١٢	ملازمو أئمة
٤٣	المجموع	١٨	المجموع
٣٢	ملازمو أئمة غير موظف	٧	ملازمو أئمة غير موظف
٧٥	المجموع الكلى	٢٥	المجموع الكلى

عدد الأنفار	المقام المالكى	عدد الأنفار	المقام الحنبلى
٧	خطيب وأئمة موظف(٣)	٢	خطيب وأئمة موظف(٤)
٨	ملازمو أئمة غير موظف	٣	ملازمو أئمة غير موظف
١٥	المجموع	٥	المجموع

(١) الأئمة الموظفون والخطباء وملازمو الأئمة أربع طوائف لأفراد الطائفة الأولى لكل واحد ٢٠٠ قرش، ولأفراد الطائفة الثانية لكل واحد منهم ١٠٠ قرش، والصنف الثالث لكل واحد منهم ٤٠ قرشا أجر وظيفة، بينما الصنف الملازمون يخدمون دون أن يوظفوا.

(٢) هؤلاء أربعة أصناف أجر الصنف الأول ٢٠٠ قرش، والثانى ١٠٠ قرش، والثالث ٤٠ قرشا، والملازمون ليسوا موظفين.

(٣) أئمة وخطباء المالكية ثلاثة أصناف الصنف الأول أجره ٢٠٠ قرش، والثالث ٤٠ قرشا، ويخدم الصنف الثانى دون أجر بالملازمة.

(٤) لأئمة وخطباء الحنابلة نفس الراتب الشهرى.

خدمة المسجد الحرام ومدرسوه

عدد الأنفار	نوع الوظيفة	عدد المدرسين	نوع الوظيفة
١٥	١٥ المؤذنون[١]	٦٠	أن هؤلاء موظفون بالبراءة العالية
٧	٧ المكبرون	٦٠	وهؤلاء موظفون بعلم وخبر المدرسين
٧	٧ المرحمون		
٨	٨ الوقادون		
٣٧	٣٧ المجموع		هؤلاء خاصون بالحرم الشريف
١٢	١٢ الفراشون		
١٠	١٠ المشيدان[٢]		
٢٠	٢٠ الكناسون		
٢٦	٢٦ البوابون		
١٢	١٢ الجيادون		
١١٧	١١٧ المجموع		

ويبلغ عدد الأئمة الكرام والخطباء العظام (١٢٠) نفرا ووظف (٧٠) منهم بالأمر السلطانى، منهم موظفون بعلم مديرية الحرم الشريف.

وقد خص المقام الحنفى بثلاثة وأربعين إماما وخطيبا المعينين بالأمر السلطانى ويعمل بالمقام الشافعى ثمانية عشر منهم، والمقام المالكى بسبعة والمقام الحنبلى

(١) يدخل ضمن هؤلاء إمام مسجد على ومؤذنو جبل الكعبة ومبلغو المقامات الحنفى والشافعى، وحارس سبيل الغورى.

(٢) لم يستخدم إلى عهد معاوية المخصيون لخدمة كعبة الله، ولكن معاوية عين عدداً من المخصيين لخدمة الكعبة حتى يتميزوا ويستمروا فى خدمة الكعبة وزاد الذين أتوا بعده عدد المخصيين إلى خمسة وخمسين.

(٣) المدرسون الموظفون ببراءات عالية خمسة أصناف الصنف الأول خمسة عشر شخصا مفتيو المذاهب الأربعة ضمن هؤلاء وأجر كل واحد منهم ٥٠٠ قرش، وعدد الصنف الثانى ستة وأجور وظائفهم السنوية لكل واحد منهم ٤٠٠ قرش، وعدد أشخاص الصنف الثالث ٥٠ نفراً وأجور وظائف كل واحد منهم ٣٠٠ قرش، وعدد الصنف الرابع أربعة وأجر كل واحد منهم ٢٠٠ قرش والذين يدخلون فى الصنف الخامس ثمانية أنفار ولكل واحد منهم أجر سنوى قدره ١٠٠ قرش.

باثنين من السبعين المكلفين بالأمر السلطانى وإن كان الذين يتمتعون بالأمر العالى ينقسمون إلى قسمين الأصالة والملازمة إلا أنهم كلهم موظفون. إن الأشخاص الذين يتمتعون بالأمر العالى ثمانية عشر منهم من خطباء الحنفية، وأربعة منهم من خطباء الشافعية، وأربعة منهم من خطباء المالكية، وواحد منهم خطيب حنبلى، ويتقاضى كل واحد منهم شهريا ٢٠٠ قرش. ولكن الأئمة الذين عينوا بعلم المديرية يعطى شهريا ١٠٠ قرش، والملازمون المعينون بعلم المديرية يتقاضى فى الشهر ٤٠ قرشا.

الاستطراد

يوجد مقام خاص لكل جماعة من جماعات المذاهب الأربعة فى أركان بيت الله الأربعة ليؤدى كل إمام مع جماعته الصلاة فيه، ولا يعرف الوقت الذى أقيمت فيه المبانى فوق هذه المقامات الأربعة، ولكن أغلب الاحتمال أنها أنشئت فى عصر الملك الظاهر بيبرس البندقدارى، لأنه قد عين فى سنة (٦٦٣هـ) فى مكة المكرمة إمامًا لكل مذهب، وأقر بين العلماء على أن يكون لكل إمام مذهب مكان خاص ليصلى به مع جماعاته، فاختيرت أماكن المقامات لأئمة المذاهب الأربعة، ونبهوا بأداء الصلاة كل فى مقامه، وكما أنه يوجد فى المسجد الحرام مقام خاص بإمام كل مذهب يوجد مفتى لكل مذهب، وطبقا لما أفاد به المؤرخون عن تعيين أول هؤلاء المفتين وفى أى تاريخ لزمت الحاجة إليه، يمكننا القول: إن القبائل العربية عندما ذاقت حلاوة الإيمان أرسلت السفراء إلى سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ، ترجوه أن يرسل معلما إلى القبيلة التى ينتمون إليها لتعليم الأحكام الشرعية، ولإيضاح غوامض المسائل الدينية لهم، وأسرع علماء الصحابة الذين استقوا العلم من أشرف الخلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحفظوا عن الرسول ﷺ الأحاديث والآيات القرآنية لتبليغها إلى القبائل، ولما كانت الحجج قاطعة والنصوص واضحة فى أيام الرسول ﷺ، وحياته وحياة صحابته الأجلاء لم تكن هناك حاجة للاجتهاد.

وكان أهل الإيمان فى عصر الرسالة إذا شكوا فى مسألة ما يسألون النبى ﷺ، وكانوا بعد وفاته ـ عليه السلام ـ كانوا يلجأون إلى صحابة النبى ﷺ، طالبين الفتوى منهم مثل عبد الرحمن بن عوف أو عبد الله بن مسعود أو أبى بن كعب الأنصارى أو معاذ بن جبل أو عمار بن ياسر، أو حذيفة بن اليمان أو زيد بن ثابت الأنصارى أو أبى الدرداء أو أبى ذر الغفارى أو أبى موسى الأشعرى أو سلمان الفارسى «رضى الله عنهم» وإذا لم يستطع هؤلاء حل مشاكلهم يلجأون إلى الخليفة فى ذلك الزمان مستفتين.

إخطار:

اشتهر بالإفتاء بعد الخلفاء الراشدين سيد العبادلة عبد الله بن عباس(٢) كما أن عبد الله بن عمر أفتى بعد وفاة النبى ﷺ، ستين عاما. انتهى.

واستمرت هذه الحالة إلى يوم استشهاد عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ وبدأت الآراء تختلف بعد ذلك وكلما ابتعد عصر السعادة وتناقص عدد الأصحاب والتابعين أخذت الآراء تختلف وتتشتت، ولاسيما فى وجود كثرة ممن يميلون إلى اتباع آراء الطغاة أدت إلى تغير أطوار الأمة وأوضاعها، فكثرت فى المسائل الشرعية الفرعية الآراء، واستخرج أئمة الدين الأحكام الشرعية التى تخص الطاعات والعبادات والعقوبات والمعاملات من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، حتى تفهم النصوص الظاهرية وسنة رسول الله بيسر وبشكل واضح لا ينسى، واتخذ كل واحد منهم مسلكًا ومذهبا مختلفا عن الآخر. وفصلوا بين المعنى العرفى والمعنى اللغوى للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حتى يتقى الخطأ فى المسائل الشرعية، ووضعوا أصولا وقواعد للوصول إلى مرتبة الاجتهاد الصعبة، ودونوا علما خاصا يطلق عليه علم أصول الفقه، وسموا ما جمعوا ورتبوه من المسائل التى استنبطوها وفقا للقواعد السابقة علم الفقه.

---

(١) إن الأشخاص الذين ذكرت أسماؤهم كانوا مفوضين بالفتوى حتى فى عصر النبوة، إلا أنهم كانوا يرسلون من يلجأ إليهم للفتوى إلى النبى ﷺ، تأدبا.

(٢) العبادلة طائفة من الصحابة الذين كانو يفتون ويقومون بمهمة القضاء وهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عن الجميع.

علم أصول الفقه:

هو استخراج فروع المسائل الفقهية من الكتاب والسنة والإجماع وفقا لقواعد مخصوصة واستنباطها.

وعلم الفقه:

هو أن يعرف كل مسلم ما له وما عليه من الأمور.

والذين لهم دراية بالمسائل المستخرجة والمستنبطة يطلق عليهم الفقهاء. والفقهاء الأجلاء فرقتان: عراقية وحجازية، وقدوة الفرقة العراقية هو الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى، ورئيسا الفرقة الحجازية هما الإمام مالك بن أنس المدنى والإمام محمد بن إدريس المطلبى الشافعى.

واتخذ الإمام أحمد بن حنبل مسلكا جديدا بعد الإمام الشافعى وأصبح رابع أئمة المذاهب الأربعة، واجتهد الإمام الأعظم متخذا العقل قبل النقل قاعدة، واتخذ الإمام مالك النقل قبل العقل قاعدة وأساسا، واتخذ الإمام الشافعى العقل مساويا للنقل، واتخذ الإمام أحمد بن حنبل النصوص أساسا لكل شىء، وهكذا ارتقى إلى المرتبة الرابعة بين الأئمة إلا أن من يقلد مذهبه قليلون.

وقد ظهر بعد الإمام مالك المذهب الظاهرى، وقد اعترض من يقلدون هذا المذهب على التباس المسائل بطريق القياس، وتركوا العمل بالقياس وأبطلوه، وأحدث بعدهم مذهب أهل البيت وبما أنه كان متصفا بالغلو والإفراط ولمخالفته الجمهور اندثر بموت إمامه وإنكار مقلدى المذاهب الصحيحة له، وأراد بعض الناس فيما بعد إحياء مذهب أهل البيت ولم يكن له شأن إلا مخالفته للمذاهب الأربعة، وهكذا ساد المذهب الحنفى فى العراق والمالكى والشافعى فى البلاد الحجازية.

انتشر المذهب الحنفى فى إقليم العراق وممالك الهند والصين وما وراء النهر وبلاد الفرس، والمذهب المالكى فى الأندلس والممالك المغربية، وساد الشافعى

فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر فى أول ظهوره، وانتشر المذهب الحنبلى أولا فى الشام والعراق وبغداد والبلاد المجاورة لها.

ويعدد حضرة عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه الميزان الكبرى مذاهب أخرى غير المذاهب الأربعة مثل: مذهب عائشة، مذهب عبد الله بن مسعود، مذهب عبد الله بن عمر، ومذهب عطاء بن أبى رباح، ومذهب الإمام الليث، ومذهب مجاهد بن جبِّر، ومذهب داود الأصفهانى، ومذهب عمر بن عبد العزيز، ومذهب سفيان الثورى، ومذهب سفيان بن عيينة، ومذهب محمد بن جرير، ومذهب الشعبى، ومذهب إسحاق بن راهويه، ومذهب الأعمش: أربعة عشر مذهبا وبهذا يبلغ المذاهب الصحيحة والحقة إلى ثمانية عشر مذهبا، وقد اندثرت هذه المذاهب لقلة أتباعها، أو لا نحصارها فى أصحابها ولم يبق إلا المذاهب الأربعة.

وكان أهالى الحرمين إلى سنة (٣٥٨هـ) يحلون شبهاتهم فى المسائل الفقهية باللجوء إلى إلى أى واحد من أئمة المذاهب الأربعة الذى اكتسب ثقتهم.

ووقعت البلاد المصرية تحت إدارة الملوك الفاطميين وفى خلال العهد الفاطمى الذى دام مائتين وبضع سنين أسقط العمل باجتهاد الأئمة الأربعة، وصنفت كتب وفقا لأحكام فقه أهل البيت.

ومنع فى هذه الفترة حب أصحاب المذاهب الأربعة، وكان كل من يتبع المذاهب الأربعة مبغوضا منفورا منه لدى الحكومة.

من الحوادث التى تلوث تلك الفترة وصحائف تاريخها هذه الحادثة الشنيعة، وقد علم أن أحدا من أهل السنة يحتفظ فى مكتبة بكتاب الموطأ، فأحضر الكتاب وصاحبه ومزق الكتاب المذكور ثم قيل لصاحبه «لماذا تحتفظ بهذا الكتاب وتحترمه؟» ثم شتم وعذب وضرب ضربا مبرحا.

كان القاضى عبد الوهاب من فقهاء أهل السنة ساكنا ببغداد وفى أواخر المائة الرابعة أتى إلى مصر وسعى لنشر المذهب المالكى، واستطاع أن يدخل كثيرا من

أهل السنة إلى الدائرة المنجية، إلا أنه كان يحكم فى مصر والبلاد الحجازية بأحكام مذهب أهل البيت إلى سنة (٥٦٨هـ) وقد انقرضت الدولة الفاطمية فى تلك السنة، فعاد علماء الشافعية إلى مصر، وهكذا سقط العمل بكتب فقه أهل البيت وانتشر المذهب الشافعى فيها، وأخذ الأهالى والملوك وكبار الموظفين العمل متبعين المذهب الشافعى.

وصلاح الدين الأيوبى واحد من الملوك المصريين الذين قلدوا المذهب الشافعى: وقد أسس هذا الشخص قلعة جبل المقطم، وفى نفس السنة أنشأ المدرسة التى تنسب إلى قبر الإمام الشافعى، وهكذا أنقذ الناس من البحث عن عالم يعين بالقاهرة مفتيا شافعيا، واستصوب بعد ذلك بين العلماء وجود مفتيين على المذهب الشافعى فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ونفذ الأمر.

وقد جعل المفتى الشافعى الذى عينه صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة نوابا له عن باقى مذاهب أهل السنة حتى يفتوا حسب مذاهبهم، وهكذا أخذ يزيد أفراد كل مذهب تدريجيا، وظهرت المذاهب الأربعة كاملة اضطر أهالى الحرمين ومصر القاهرة وسكنة بلاد الشام فى عهد صلاح الدين الأيوبى إلى سنة (٦٦٣هـ) أن يلجأوا لمفتى الشافعية، وبما أنه لا يمكن للإمام الشافعى أن يفتى وفقًا لأحكام المذاهب الأخرى عين الملك الظاهر بيبرس قاضيا[١] خاصا بكل مذهب فى خلال تلك السنة، وبعد ذلك أصبح أتباع المذاهب الأربعة يذهب للإمام الخاص به لحل ما يريدونه من المسائل الدينية، ولكن فى الممالك الأخرى ظل المفتى الشافعى كما كان فى السابق.

إضافة

وإن كان ثابتا بالتحقيق أن عمر بن الخطاب هو الذى كان يقوم بأمور القضاء فى عهد خلافة أبى بكر الصديق، وكان هناك يزيد ابن أخت نمر وشريح فى عهد عمر بن الخطاب، وكعب بن سوار وفى عهد خلافة سيدنا على شريح بن الحارث

(١) وكان القضاة فى ذلك العهد يعينون على أن يؤدوا مهمة القضاء والإفتاء.

يقومون بأمور القضاء، إلا أن أول القضاة المعينين فى المدينة المنورة من خارجها هو عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وقد أرسل إليها فى سنة (٤٢هـ) من قبل معاوية.

وفى عهد السلاطين العثمانيين أول من تولى منصب القضاء شخص يسمى طورسون أفندى وعين من قبل عثمان الغازى، أما أول القضاة المعينين لاستانبول فكان القاضى مجد الدين أفندى «محاضرة الأوائل».

عين الملك الظاهر مفتيا لكل مذهب من المذاهب الأربعة، وبعد مضى خمسة وأربعين عاما على هذا التاريخ أرسل الناصر فرج من ملوك مصر إلى مكة المعظمة مفتيا للحنفية وآخر للمالكية وذلك عام ٧٥٨هـ، وبعد فترة وجيزة أرسل مفتيا للحنابلة. ومنذ ذلك الوقت (أى منذ ٨٠٧هـ) وبعد فترة وجيزة عين مفتيا خاصًا لكل مذهب فى مكة المكرمة والمدينة المنورة على حد سواء.

كان يتم تعيين واحد للإفتاء لكل مذهب حتى العام المبارك الذى انتقلت فيه أزمة إدارة البقاع الحجازية المقدسة فى بعض الأحايين، وفى الأحايين الأخرى كان يعين واحدا أو اثنين فقط لتسيير الإدارة فى الحرمين، ولكن بعد عام (٩٢٣هـ)لم ينقص عدد المفتين الأربعة فى أى وقت.

وفى وقتنا الحاضر ثمة مفتى حنبلى على الرغم من قلة الحنابلة فى مكة المكرمة بحيث نستطيع القول بأنه لا وجود لحنبلى واحد فيها.

مطالعة

قبل عهد سلاطين آل عثمان وفى بعض الأحايين كان يوجد مفتى أو اثنين فى الحرمين، وسبب ذلك هو إظهار سلاطين السلف من المسلمين استعدادهم لنجدة كل مسئول من أهل الحرمين، لأن ملوك المسلمين كانوا يعتنون كل العناية ببسط نفوذهم على الحرمين، وكانوا يعتقدون أن أعظم الأسباب التى تخدم هذا الغرض

هو نجدة مسئول الأهالى. والرابطة الإسلامية أينما وجدت فإن أساسها الارتباط بالحرمين وكان الحكام يدركون الفوائد السياسية الكبيرة للاحتفاظ بهاتين البلدتين المسعودتين.

وإن كان هذا الاعتقاد موضع احترام وتقدير فإنه من الممكن حدوث تجاوز للحدود الشرعية لنجدة كل مسئول للأهالى، ولا توجد شبهة فى خطأ الاعتقاد المذكور، ألم يكن باطلاً استيلاء جيوش الجهالة على الحرمين فى العهد السابق، وحصول أصحاب المذاهب الباطلة على الحماية فى البلاد الحجازية، وانقياد البدو لصناديد القبائل فى الباطن، وللدولة فى الظاهر، والعمل بالأحكام والقوانين التى سنها البدو[1] وليس التى يسنها الولاة والقضاة المعينون من قبل الدولة، وإذا ما نظر بإمعان إلى المعاملات الكلية والجزئية التى جرى العمل بها من بداية ظهور الملوك الإسلاميين وحتى اندثارهم يتبين أن انقراضهم وسقوطهم كان أولا بالانحراف عن جادة الشرع، والعمل بالبدع أو لترك الأعمال والتصرفات المشروعة.

أو ليس بقاء سلاطين آل عثمان المنصوص على أنهم أعدل الملوك فى الكتب الإسلامية المعتبرة كان بسبب اتخاذهم الأحكام الشرعية أساسا فى الأعمال والحركات، وعلى الرغم من أنه لم تلتزم الدقة فى تطبيق أحكام الشريعة بتمامها والتى هى أساس ملكهم الذى قام عليه مما أدى إلى وقوع بعض الخلل والاضطراب، وبمرور مدة قصيرة جدا على ذلك جددوا تمسكهم بالصورة الموافقة لأحكام الشريعة وأساس ملكهم ووصلوا إلى مطالبهم بعد وقت قصير كما هو مسطور فى الكتب المذكورة وسرى حكمهم إلى أكثر أرجاء الأرض وشملها.

وعندما سيطر السلاطين العثمانيون على البلاد الحجازية المباركة قضوا على

(١) نظم عرفت قبل عدة مئات من السنين من قبل شيوخ القبائل، وقد أدرجت النطاقات العربانية والقوانين التى تراعى الآن بين العربان فى جزء مرآة جزيرة العرب.

جميع العقائد والأراء الباطلة والأفكار الخاطئة بحسن تدبيرهم، وهكذا استطاعوا أن يدخلوا سكنة الحجاز كلهم فى دائرة المذهب الحق مذهب أهل السنة، والجماعة الفرقة الناجية وأذنوا لمفتىّ المذاهب الثلاثة الحكم فى مسائل الطلاق والنكاح وغيرهما من المسائل، ولمفتى المذهب الحنفى الحكم فى المسائل الأخرى المهمة وبناء على أصح أقوال الفقهاء، وحكموا وفقا للأحكام الشرعية فى البلاد العربية وخاصة فى الحرمين الشريفين، سواء أكان فى العقيدة والآراء أو فى جميع المعاملات والعقوبات الفقهية متبعين فى ذلك رأى السلطان ورؤيته، وبهذا فعلاً أحيوا الشريعة الأحمدية وحكموا بالأحكام الإلهية.

وكان المفتى الشافعى تاج الدين بن بنت الأعز سببا فى تعيين الملك الظاهر مفتيا لجميع المذاهب فى مصر، وكان الملك الظاهر يلجأ إلى تاج الدين ابن بنت الأعز فى جميع المسائل لكونه مفتى الأنام(١)، وبما أن الشيخ تاج الدين كان يريد أن يجيب على كل مسألة إجابة صحيحة اتخذ من كل المذاهب نائبا له، وكان يفتى بعد ما يتفق معهم على الإجابة.

ولسبب ما امتنع مرة عن الإجابة للمسألة التى عرضها عليه الملك الظاهر وقال له «إن هذه المسألة يقتضى سؤالها من النائب الحنفى، وكأنه بهذا القول أراد أن يشير إلى أن الوقت قد حان لتعيين مفتى لكل مذهب من المذاهب، وبادر الملك الظاهر بتعيين مفتى لكل مذهب حتى لا يحدث خلل فى رابطة الموحدين، وأطلق عليه لقب قاضى القضاة، وأمرهم بأن يرسلوا من قبلهم نُوَّابًا لهم إلى البلاد التى فى حاجة إلى ذلك وحينما عين المفتيين الأربعة سر صاحب القصيدة المشهورة البردة ـ وكان حيا يرزق ـ من هذا العمل وأنشد الأبيات الآتية:

غدا جامع بن العاص كهـــف أئمـــة

فللـــه كهـــف الأئمـــة جامـــع

(١) معنى مفتى الأنام هو «قاضى القضاة» وأول القضاة فى مصر هو أبو الحسن على ، بن نعمان وأول من عين قاضى القضاة فى الدولة الإسلامية هو الإمام «أبو يوسف». صاحب أبى حنيفة.

لقــد سـرنا أن القضـــاة ثلاثـــة
وأنـك تـاج الديـــن للقـــوم رابـــع
بهم بنـية إسـلام صحـت وكيـف
ولا وهـــم أركانهــــا والطبائــــع
فهـم رخـص أبــدوا لنــا وعزائـم
هدينـا بهــا فهـى النجـوم الطوالـع
فلا تلتبس إن وسـع الله فـى الهــدى
مذاهبنـــــا بالعـلم والله واســـع
تفرقــت الآراء والديـــن واحــــد
وكـل إلـى رأى مـن الحـــق راجـع
فهذا اختـلاف جـد للخـلق راجـع
كما اختلفـت فى الراحتـين الأصابـع

وتتضمن قصيدة الإمام البوصيرى معنى الحديث الشريف «اتفاق أمتى حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة».

فضائل الحطيم

يروون تأييدًا بالأحاديث الشريفة أن فى الحطيم بين بئر زمزم والمقام المحترم الذى يمتد إلى الحجر الأسود قد دفن تسعة وتسعون نبيا بعد أن حجوا توفوا وصعدت أرواحهم إلى الجنات العالية.

إن الأنبياء الذين هلك أتباعهم قد أقاموا إلى آخر عمرهم فى مكة المكرمة، وقضوا حياتهم فى التعبد لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم توفوا فى تلك المدينة، وقد نقل ذلك محمد بن السائب نقلا عن النبى ﷺ.

ولما كان نوح وهود وصالح وشعيب مـن الأنبيـاء الذيـن توفوا فى هذه

المدينة، فقد دفنوا فى الجهات التى تقابل فيها الكعبة المعظمة مقام إبراهيم وباب الصفا.

الأثر الثانى: المستجار:

يقع الموقع المبارك الذى يطلق عليه المستجار بين الباب المسدود الكائن فى جدار كعبة الله الغربى وبين الركن اليمانى[1] وفى مواجهة الملتزم، وعرضه ستة أقدام. الباب المسدود هو الباب الذى فتحه عبد الله بن الزبير فى عرض (٤ قدم و١١ بوصة). وبعد أن قتل الحجاج السفاك عبد الله بن الزبير سد ذلك الباب.

الأثر الثالث: الملتزم:

يطلق على ما بين باب كعبة الله والحجر الأسود الملتزم، إن هذا المقام موقع طاهر مبارك فى عرض ستة أقدام وأربعة خطوط، فالذين يكملون الأشواط السبعة للطواف يأتون فى هذا المكان للتضرع، وهو فى الجهة التى يقع فيها باب كعبة الله، ويروى أن النبى ﷺ تفضل قائلا: «إن كل من يصلى أربع ركعات مقابل كعبة الله كأنه قد أدى صلوات جميع العباد ويستغفر له سبعون ألفا من الملائكة». (حديث شريف).

كان من اعتقاد العرب فى الجاهلية أن كل من يتجادل فى هذا المكان أو يقسم يمينا باطلا أو من يدعى عليه لابد وأن ينالوا عقابهم، وهذا هو وجه تسميته بالملتزم.

مقطوعة

انطلــق إلــى بــاب الحجــر
والتــزم بلثــم هــذا المقــام
واحتضنه بشوق غامر وإذا صعدت
روحــك فلتكــن حياتـك بالحبيب

(١) كان الركن اليمانى قد تشقق إثر زلزال عام ٥١٥هـ، ولكنه رمم على أحسن وجه بلا تأخير وأحكم صنعه.

أضــرم مــن قلبك نار الفراشـــــة
وألــق نفســـك فـــى تلك النــــار
أليســـت لك عــــادة الفراشـــة
تحــوم أولا حـــول النـــار ثم تحترق
ضـــع يـدك بخشوع على هذا الستار
واتكـــئ عـــلى كرم ذى المــن
امسح بوجهك وصـدرك هذا الباب
وزد مـــن نـــور عينيـــك وقلـــبك
علـــق يـــدك فـــى أستـــــاره
وازرف الدمـــــــع لرؤيتـــــــه
ولتأت بـــذرة الشـــوق من الطريق
أصبحـــت الوصـــل بروج الفـــراق

الأثر الرابع: تحت الميزاب:

الاسم الشهير لتحت الميزاب هو «حجر إسماعيل» وإنه حجر أخضر يقع فى الجهة التى بها المقام الحنفى مواجها لكعبة الله. وتحت الميزاب الذهبى وهو نصف دائرة، يقال إن أكثر مواضعه ـ أو على قول ـ بعض مواضعه كان داخل الكعبة وحينما جدد القرشيون بناء الكعبة تركوه خارجها.

رواية

يقال إن كل من يجلس تحت الميزاب ويدعو الله بقلب طاهر ونية خالصة يستجاب دعاؤه، ويتخلص من ذنوبه كأنه قد ولد من جديد، وكل من يصلى ركعتين فى هذا المكان المبارك ويدعو عند سجوده لنيل مطلب ما يتحقق أمله.

يجب ألا يشك فى هذه الرواية، لأن الجهة الشمالية من جدران الكعبة ومن

ركنيها نحو الحطيم قدر ستة أذرع قد ثبت بحديث صحيح أنها من داخل الكعبة، إنه المكان الذى أخبر عنه بالحديث الشريف ـ يعنى المكان الذى يلزم الدعاء فيه بعد الصلاة ـ وهو المحل الذى سبق تعريفه وقد أشير إليه بحجر مستدير أخضر اللون إن هذا المكان هو «حجر إسماعيل» المبارك.

وبناء على حكم حديث شريف آخر أن كل من يصلى ركعتين فى جهة الركن الشامى لحجر إسماعيل فكأنه قام سبعين ألف ليلة بالصلاة، وطاف بالبيت الأعظم طوافا مبرورًا مقبولا أربعين مرة، وهذا هو قدر أجره وثوابه.

الأثر الخامس: حفرة المعجن:

من الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء المعجن الشريف، إن الموقع الذى يطلق عليه المعجن حفرة متصلة بجدار كعبة الله الشرقى، وطولها سبعة أقدام وعرضها خمسة أقدام وست بوصات، وعمقها أكثر من قدم قد خلط إبراهيم عليه السلام طين بيت الله فى هذه الحفرة، إن هذه الحفرة اللطيفة هى المكان الذى صلى فيه جبريل ـ عليه السلام ـ الصلوات المفروضة يومين متتالين مع النبى ﷺ، عندما فرضت الصلوات الخمس.

يروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ عندما فرضت الصلوات أم النبى ﷺ فى أوائل أوقاتها وفى اليوم الثانى فى أواخر أوقات الصلوات الخمس.

إن فى الجهة التى تلاصق هذه الحفرة من كعبة الله حجر أحمر، إن هذا الحجر المبارك دواء مؤثر لمرض ضعف البصر والمبتلون بهذا المرض إذا مسوا هذا الحجر ثم مسحوا بأيديهم عيونهم يشفون من هذا المرض.

وقد سرق هذا الحجر سنة (١٢١٣هـ) وقد تعرض سكان بلدة الله لمرض مفرط، ومات منهم كثيرون، وفيما بعد وجدوا الحجر فى متروكات رجل توفى، فوضعوه فى محله مرة أخرى.

وهكذا نحو مما تعرضوا له من المصائب والقحط وهذا الحجر موجود إلى هذا اليوم، وبناء على قول ابن حجر كلما سرق من بيت الله حجر أو أشياء أخرى يتعرض أهل مكة لمرض مهلك ينتشر إلى جميع البلاد الأخرى، وكان قد سرق فى وقت ما حجر من أحجار بيت الله فظهرت أمراض مهلكة فى مكة الله وانتشرت إلى أكثر البلاد، وفى نهاية الأمر خرس لسان السارق ومات ووجد الحجر المسروق فى ميراث ذلك الرجل وأعيد إلى مكانه، ورفعت تلك الداهية الدهياء من فوق العباد.

الأثر السادس: مقام إبراهيم:

يطلق مقام إبراهيم على ذلك الحجر المبارك الذى استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كسقالة عند بناء كعبة الله المعظمة.

وبناء على هذا التعريف فإن هذا الحجر الذى يطلق عليه مقام إبراهيم هو الحجر الذى استخدمه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كسقالة عندما كان يبنى جدران كعبة الله وحينما صعد إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوق هذا الحجر لبناء جدران الكعبة جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذلك الحجر كالعجين فغاصت أقدام سيدنا إبراهيم الشريفة فى صدر الحجر حتى كعبها، وعندما نزل إبراهيم ـ عليه السلام ـ من فوق الحجر رجع إلى هيئته الأولى جامدا كما كان.

وقد رأى أنس بن مالك هذا الحجر الشريف فى الآثار المباركة التى تركها إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما يروى صاحب بدائع الزهور بعد التدقيق.

وكان يقول للذين يسألون: إننى رأيت آثار أقدام خليل الله فوق المقام الشريف، وكانت آثار أصابع قدميه ظاهرة. إلا أن هذه الآثار تكاد تمحى من كثرة ملامسة الناس. إن حجر المقام الشريف الذى يساوى الجواهر لا يشبه الرخام الأبيض ولا الحجارة العادية البيضاء أو السوداء. وفوقه عروق تميل إلى السواد أو الصفار وإن كان لونه قارب لون السكر الخام إلا أنه لم ير فى الدنيا حجر لطيف

فى اللون أو الخلقة أو جدير أن يقال لم يخلق حجر مثله. حجمه الأصلى فى ارتفاع واحد وعشرين إصبعا، والجهات التى تحمل آثار قدميه فى عرض ثمانية عشر إصبعا.

إن وسطه أرفع بالنسبة لطرفيه وأسفله يشبه اللبن، ومسافة محيطه أكثر من أربعة أقدام قليلا، إن أثر قدمى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فوق المقام قد غطى بغلاف فضى إلا أنه لا يعرف متى حدث ذلك ومن قام بتغليفه.

إن الحجر المذكور محفوظ الآن فى داخل أبنية أنشئت فى الجهة الشرقية لكعبة الله وأمام باب بيت الله.

وكان فى مكان[1] ملاصق لأبنية كعبة الله يوم فتح مكة، وقد أمر قائد المجاهدين (عليه سلام الله المعين) بنقله إلى مكانه الحالى، وهو يبتعد عن شادروان الكعبة المشرفة ابتداء من الشبكة الحديدية ثمانية وعشرين قدما.

ويبعد عن ركن الحجر الأسود خمسة وثلاثون قدما، ومن حدود جبل الصفا مائتين وخمسة وعشرين قدما.

ويوجد تحت الحجر المبارك صفة مبنية بالحجارة، وفوق الصفة صندوق وطول الشبكة الحديدية التى تحيط بهذا الصندوق من يمين مصلى الشافعية ويساره نحو وجه الكعبة خمسة أذرع وعشرة أصابع، وعرضها ذراع وسبعة أصابع ونصف إصبع، ومازالت الجهة الشرقية لتلك الشبكة المكان الذى يصلى فيه أئمة الشافعية مع جماعتهم وهو فوق عمودين رخاميين وفى طول سبعة أقدام وأربع بوصات.

مسألة

قال جماعة: المقصود بالمقام فى الآية الكريم **﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾** (البقرة: ١٢٥) هو المكان الذى ما بين العمودين الرخاميين.

(١) إن هذا الموقع الجهة اللطيفة لباب كعبة الله، حينما أتم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مبانى كعبة الله السعيدة تركه فى هذا المكان.

وقال جماعة: إن المقام الشريف حرم المسجد الحرام كله، حتى إن الإمام مالك كاد أن يذهب إلى فرضية أداء صلاة الطواف فى ذلك المكان[1].

بشرى:

ينقل أئمة الدين الكرام فى روايات صحيحة عن النبى ﷺ، أن الذين يصلون خلف مقام إبراهيم ركعتين يغفر الله لهم جميع آثامهم السابقة وينعم عليهم بحسنات قدر مخلوقاته والذين يصلون بعدهم ينقذهم من الفزع الأكبر يوم القيامة، ويأمر جبريل وميكائيل (عليهم السلام) بأن يستمروا فى الاستغفار لهم إلى يوم القيامة.

كان المبنى القديم للمقام الإبراهيمى يتكون من مظلة قائمة على شبكة خشبية وكانت مياه السيل الذى ظهر فى عهد عمر الفاروق ـ رضى الله عنه ـ جرفت هذا المبنى والمقام الشريف إلى الوادى اليمانى، وأسس الفاروق مظلة جديدة متينة حسب الحاجة فى زمنه.

وقد زينه فى سنة (١٦٠هـ) الخليفة المهدى البغدادى العباسى وفى سنة (٢٣٥هـ) المتوكل على الله بن المعتصم وفى سنة (٢٥٦هـ) زين المهتدى بالله بن الواثق المظلة التى أنشأها عمر الفاروق وأنفق عليها كثيرًا من النقود الذهبية.

لم يكتف الخليفة المهدى بتزيين المقام الشريف بل أنفق كثيرا من النقود الذهبية لإلصاق الجزء المنكسر من الحجر الذى يطلق عليه مقام إبراهيم، وقال الإمام الأزرقى نقلا عن عبد الله بن الشعبى وهو يشير إلى همة المهدى: «بما أن المقام الشريف كان لينا جدا قد انقطع جزء منه فى أثناء التعمير، ولما أبلغ الأمر إلى المهدى بن المنصور الصقه بإذابة ألف قطعة ذهبية».

(١) وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ سببا فى نزول هذه الآية الكريمة واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى لأنه قال لرسول الله الكريم ﷺ «يا رسول الله آلا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟! «فنزلت هذه الآية الكريمة الجليلة» ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة: ١٢٥) فاتخذ ذلك المقام مصلى ونزل القرآن بهذا موافقا رغبة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

وقد أنفق فى عهد المتوكل بالله ثمانية آلاف، وفى عهد المهتدى ألف تسعمائة وتسعين مثقالاً من ذهب.

مع أن جعفر بن فضيل ومحمد بن حاتم، قد اقتلعا هذه الألواح الذهبية وصنعوا بها عملة ذهبية، أنفقاها للمستلزمات الحربية فى فتنة إسماعيل العلوى.

إن الباب الذى يواجه الكعبة الشريفة لشبكة المظلة المذكورة قد ترك مفتوحا للزوار، ولم يغير أى جهة منها، كان من يرغب فى زيارته يستطيع زيارته ومسح وجهه وعينه بالحجر (المقام الشريف).

وقد ذكر أن الدعاء يستجاب بالقرب من المقام الشريف ولذلك كان أصحاب الحاجات يدعون الله ويناجون عارضين حاجاتهم وينالون أقصى مطالبهم عندما يدعون وباب الشبكة الذى يواجه الكعبة مفتوحا.

وكما أن الداعين بقلوب نقية لا يردون يائسين؛ لذا أخذ بعض المفسدين وذوى النيات السيئة يدعون ضد الأشراف والصناديد ووجهاء القبائل، كما ظهرت مساوئ أخرى، وحينما رأى ذلك شخصٌ اسمه يوسف الذى حكم البلاد الحجازية واليمانية فترة من الزمان هدم تلك المظلة، وأدخل حجر المقام المبارك فى داخل قبة حديدية، ووضع مكان الشبكة الخشبية شبكة حديدية، وفى زماننا قد صنع فوق المقام الشريف صندوق من خشب شجرة الطرفاء، ويحيط بهذا الصندوق قفص حديدى، وذلك القفص تحت قبة حجرية، وتحيط بهذه القبة من جهاتها الأربعة شبكة حديدية، ولذلك الصندوق باب فى الجهة الشرقية، وهناك قطعة قماش مزخرفة بالذهب تحيط بهذا الصندوق، وكلما غيرت كسا الكعبة المفخمة الداخلية غيرت هذه الستارة أيضا.

وقد غير الملك الناصر محمد بن قلاوون المصرى الشبكة التى تحيط بالصندوق فى سنة (٧٢٨هـ) وكتب على إحدى جهاتها اسمه.

وبعد اثنتين وثمانين سنة وفى سنة (٨١٠هـ) قد صنع سقف لطيف لداخل القبة، وكتب فى أحد أماكنه اسم صانعه وتاريخ صنعه.

وقد غطى السلطان جاقمق المصرى القبة المذكورة بالرصاص فى سنة (٨٤٣هـ) ولما احتاجت بعض أماكنها للتعمير بفعل مرور الزمن عمرها السلطان الأشرف الغورى، وزينها بالذهب فى سنة (٩١٥هـ) وبعد مرور ثلاث سنوات وفى سنة (٩١٨هـ) غطى القبة بالرصاص.

وإن كان صندوق المقام الشريف والشبكة الحديدية التى فوقه قد صنعت فى شكل رصين كما ذكر من قبل وعمرت عدة مرات، إلى أن أخذ بعض أجزائها فى البلى وزال طلاؤها وسقطت بعض أخشابها، وصعب حفظ ذلك المقام فأقيمت المبانى بناء على الطلب والاستئذان من السلطان سليمان بن السلطان سليم فى سنة (٩٤٧هـ).

وصنعت فى شكل محكم وهيئة متينة. وشبكة القفص المصنوعة من الحديد غيرت بشبكة نحاسية، وأخذت الأبنية التى صنعها السلطان المذكور يصيبها البلى بالتدريج، وأشرفت على السقوط والخراب، وعرض الأمر على السلطان مراد الرابع طاب ثراه فبادر إلى تجديدها وتزيينها فى سنة (١٠٤٥هـ) وبعد سبعين سنة من ذلك ساءت حالة الصفة التى تحمل الحجر الذى عليه آثار قدم إبراهيم ـ عليه السلام ـ فكتب حامل مفتاح الكعبة المعظمة الشيخ محمد الشيبى تقريرا إلى ولاية مكة، وأبلغت الولاية الأمر متضمنا التقرير السابق إلى الباب العالى. فبادر الباب العالى بتجديد تلك الصفة وجدرانها والصندوق الخشبى للمقام المذكور، والأماكن الأخرى التى تحتاج إلى التجديد وذلك فى سنة (١١٦٥هـ).

وأكد الشيخ محمد الشيبى فى تقريره لزوم تجديد الغطاء الفضى الذى يزين الصندوق الفضى وكسوة الصندوق الذى يحتوى على حجر المقام. وبناء على ما يقتضى عمله فى مكة فلقد أرسل السلطان مصطفى خان الثانى بن المرحوم محمد خان الرابع بالأمر السلطانى الذى تفتقت به قريحته، والذى تجب طاعته إلى إبراهيم أفندى مدير التعمير فى مكة المكرمة، وبناء على هذا الأمر السلطانى عَايَنَ إبراهيم أفندى مع شريف مكة وقاضيها والآخرين ومن يجب وجودهم المقام

المذكور، وبناء على القرار الذى اتخذوه رمم صندوق المقام، وبعث بالغطاء الفضى القديم للمقام، وبعض العينات من التراب الذى وجد حول الحجر المبارك إلى باب السعادة للتبرك، وقد قدمت هذه الأشياء بكل توقير إلى العتبة السلطانية مما أثار فرحة وسرور السلطان، وبعد أن رآها أمر بأن تحفظ هذه الأشياء المباركة فى صورة تليق بها، وهكذا وضعت فى الخزانة السلطانية لحفظها.

إن التراب المبارك الذى أخذ من المقام وأرسل إلى باب السعادة كان من الطين الذى تحجر حول آثار قدم سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه كان قد صنع جدير من الجص حول آثار قدمى إبراهيم عليه السلام فى ارتفاع شبر، وغلف الجدير بغلاف من الفضة، وذلك لملئه بماء زمزم الذى يعد شربه تبركا بآثار قدمى ذلك النبى الكريم، كما كان يحدث فى أوائل العصور الإسلامية، ومازال يحدث فى ذلك الوقت، وكلما فتح باب الشبكة الحديدية للمقام يصب الزوار والحجاج فى داخل ذلك الجدير ماء زمزم ويشربونه متبركين.

ثم يضعون فيه بعض القروش ثم يأخذونها ويضعونها فى أكياس نقودهم للتبرك بها، وحينما يكون فى داخل ذلك الجدار ماء زمزم وتوضع فيه النقود، ثم تؤخذ بعد فترة وتوضع فى كيس النقود؛ يجلب ذلك البركة واليمن لهذا الشخص.

ولما شاع هذا الخبر بين الناس أخذ الحجاج يضعون فى داخل هذا الجدير عملة مجيدية صغيرة أو مسكوكات ذهبية أخرى، ثم يأخذونها ويضعونها فى أكياس نقودهم معتقدين أن مثل هذا الكيس الذى يحتوى على مثل هذه النقود لا يخلو فى يوم من الأيام من النقود، لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد استجاب لدعاء إبراهيم ـ عليه السلام.

إن مقام إبراهيم ومبانيه دامت متماسكة مائة وإحدى وثمانين سنة بعد أن عمرها السلطان مراد خان الرابع فى سنة (١٠٤٣هـ) وبعد أن رممها وأصلحها السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد خان الرابع بعده باثنتين وسبعين سنة فى سنة (١١١٥هـ) وظلت مبانى المقام الشريف متماسكة إلى يومنا هذا بعد

إجراء الترميمات والإصلاحات من حين لآخر إلا أن مبانيه بليت بغتة وكادت تنهار، وحينئذ استأذن مدير الحرم الشريف فى تعمير الصندوق والستارة التى عليه والشبكة التى تحيط به وناحية المقام الشافعى على قدر الإمكان، حتى أمكن أن تستمر المبانى متماسكة لفترة ما.

وفى سنة (١٠١٦هـ) جدد السلطان مراد الرابع مبانى المقام الشريف وفى سنة (١٠٤٣) جدد بابها وأماكن الشبكة التى صبغها بلون أخضر وطلى الأماكن التى احتاجت للطلاء بالذهب، إلا أنه غير وجدد المبانى المذكورة كليا بعد سنة وذلك لشدة الحاجة إلى هذا التجديد.

الأثر السابع: داخل البيت المعظم

ساحة تبلغ (١٨٦٠) قدم مربع فى داخل كعبة الله المشحونة بالفيوضات الإلهية وقد نقش وزين داخل جدران البيت الأعظم بقطع رخام ملونة. وللسقف الشريف الذى يحاذى الركن العراقى سلم مثل سلم المآذن الحلزونى ذى سبع وعشرين درجة، ومصنوع من الخشب، ولقد أرسل هذا السلم من قبل الملك المؤيد من مصر عام (٨١٧هـ).

وبعد مرور إحدى وخمسين سنة احتاج السلم الذى أرسله الملك المؤيد إلى التجديد، فصنع الملك خوشقدم سلما غاية فى الجمال، وأرسله إلى مكة فى خلال سنة (٨٦٨هـ)، وجدد السلطان مصطفى خان سلم الملك الظاهر فى سنة (١١١٥هـ) جاعلا سبعا من درجاته من الرخام والباقى من الخشب.

وفى داخل بيت الله كرسى خاص بحامل مفتاح الكعبة السيد الشيبى، وهذا الكرسى فى غاية الجمال وقد أهداه السلطان الغورى فى سنة (١٠٤٣هـ) وجدد من قبل السلطان مراد خان الرابع.

وفى يمين الواجين داخل البيت الحرام توجد حفرة للخزانة، إن هذه الحفرة التى نسيت من قبل التاريخ هى الحفرة التى حفرت لوضع الهدايا التى ترد من قبل الناس لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وعلى الستائر المعلقة على الجدران كلمات طيبة وأدعية مأثورة منسوجة بالحرير، ولباب الكعبة فى الداخل ستارة فى طول قامتين ونصف للإنسان وقد شغل عليها بعض الرسوم بالخيوط الذهبية، وسواء أكانت هذه الستارة أو الستارة الخارجية تغيران كل سنة ويقسم قديمهما بين خدمة بيت الله وكمر الستارة وستارة الباب من نصيب السيد الشيبى فى هذا التقسيم.

إن لبيت الله خدم زنوج عددهم واحد وخمسون، ويطلق عليهم بين الناس اسم الأغوات المخصيون.

ولا يجوز أن يزيد عددهم على الأربعين أو ينقص، وإذا ما حدث وزاد فهناك كثيرون يلازمون البيت ليقبلوا ضمن الأغوات[1] حتى بلغ عددهم الآن إلى واحد وخمسين نفرا.

الأوقات التى يفتح فيها باب بيت الله

يفتح باب بيت الله تسع مرات فى السنة على أن يكون الفتح لمدة ثلاث ساعات فى كل مرة، وذلك فى:

يوم عاشوراء العاشر من شهر المحرم.

والثانى عشر من ربيع الأول.

والثالثة: الخامس عشر من رجب.

والرابعة: السابع والعشرين منه.

والخامسة: الخامس عشر من ذى القعدة.

والسادسة: السابع والعشرين منه.

والثامنة[2]: العاشر من ذى الحجة. وقد جرت العادة أن يفتح فى المرة التاسعة

(١) ذكر تاريخ استخدام الأغوات فى الكعبة المعظمة والحجرة النبوية المعطرة وسبب استخدامها فى مجلد مرآة المدينة.

(٢) لم يذكر المترجم المرة السابعة التى تفتح فيها الكعبة المشرفة.

بعد أداء صلاة العيد، وفى المرات السابق ذكرها بعد شروق الشمس، والجميع يحترمون هذا النظام وهذه المواعيد.

ويدخل الحجاج داخل بيت الله لزيارته عندما يفتح باب كعبة الله ولما كانت هذه الزيارة للخير المحض للجميع قد خص يوم من هذه الأيام لدخول الحجاج، ويوم آخر لزيارة نساء الحجاج، ومن العادات القديمة المستحسنة أن تلبس الكعبة كسوتها فى السابع من ذى الحجة وفى ليلة الخامس عشر من رجب وليلة اليوم السابع والعشرين يدعو حامل مفتاح بيت الله السيد (الشيبى) فى داخل بيت الله لأجل السلطان، وفى ختام الدعاء يلبس الخلعة المهداة من السلطان، وفى الأيام التى يفتح فيها باب بيت الله يؤتى بالسلم المتحرك الخاص بباب كعبة الله وبعده يتوجه كل دليل مع الحجاج التابعين له إلى الكعبة ليدخلوا فى بيت الله، وهنا يزدحمون ويحاول الحجاج أن يدخلوا كلهم مرة واحدة فيجرح كثيرون.

* * *

سلم بيت الله

لا يعرف من الذى وضع سلم باب بيت الله لأول مرة. إلا أن الملك المؤيد المصرى قد أرسل فى سنة (٨١٧هـ) سلما مزينا ومنذ ذلك العهد أخذ يجدد من قبل النواب الهنود، والآن لباب بيت الله سُلَّمان، أهدى أحدهما فى سنة (١٢٤٠هـ) من حاكم مدراس منور خان وأهدى الآخر فى سنة (١٢٩٧هـ) من حاكم (رامپور) كلب على[١] خان وقد وضع الجديد منهما فوق عجلتين متحركتين، وقد صنعت بعض أجزاءه من الحديد، وقد غطيت كل جهاته من مراقيه وارتفاعها والدرابزين وكل ما يرى فى خارجه وكل أماكنه بفضة، وطليت بماء الذهب ستة من الأصص التى وضعت فى مواضع ستة من السلم، والخشبة الموضوعة فوق الدرابزينين الجانبيين، والفراغات الموجودة تحت كل درجة، والفراغ الموجود تحت الدرجة الأخيرة للسلم، وأطراف فراغات السلم كافة، وعامة كل السلم كما يرى فى الصورة الخاصة به، وبما أن ذلك السلم المزين زادت زخرفته عن كل حد قرر العلماء بالاتفاق أن يستعمل ذلك السلم فى طلوع النساء ونزولهن، وكلما أريد أن يفتح باب الكعبة لزيارة النساء يجلب ذلك السلم أمام باب كعبة الله، إن سمك الألواح الفضية لذلك السلم قدر مليمتر[٢] واحد وعيار فضته من نفس عيار الروبية الهندية.

قد حك فوق السلم القديم جملة (عبده منور) وإن بدا بزينة مصنوعة فى غاية الجمال وقد صبت من النحاس الأصفر وزخرفت بالذهب وقد صنعت أطرافها من خشب الأبنوس وبمهارة فوق تخمين البشر.

(١) قد حج هذا الشخص فى سنة ١٢٨٩.

(٢) المليمتر هو جزء من الف جزء من المتر.

والأقسام التى صبت من خليط النحاس لما زيد فيها النحاس فالزخرفة التى عليها تلمع كأنها قد زخرفت اليوم ، ولما كانت مراقى السلم مصنوعة من خشب شجرة الطرفاء فهى متينة جدًا، الأخشاب التى فى خارج السلم صنعت كالأطراف من خشب الأبنوس فى شكل مزخرف، ووضع فوق ثلاث عجلات.

وكان الرسول الذى أوصل السلم الذى أهداه كلب على خان طلب أن يهدى إليهم السلم الذى أهداه (منور خان) للتبرك به ولما عرض الأمر على سلطات الخلافة للاستئذان صدر الأمر السلطانى بأن يحفظ السلمان لاستخدامهما بالتناوب وخصص السلم الذى أهداه (منور خان) لاستخدام الرجال والسلم الذى أهداه (كلب على خان) لاستخدام النساء كما سبق ذكره أعلاه وعلى هذا عندما يفتح باب الكعبة للرجال يستخدم السلم الذى أهداه منور خان وعندما يفتح باب الكعبة للنساء يستخدم السلم الذى أهداه كلب على خان.

نصيحة

لا يمكن لإنسان ألا يتمنى الدخول فى داخل البيت الحرام، ولكن يجب أن يراعى الأمور الآتية، وكل من لا يراعى هذه الحقيقة ويدخل فى الكعبة على عماه يكون قد ارتكب حراما ورضى أن يصاب بالإعاقة ونقل صاحب (شفاء الغرام) وأن النبى ﷺ قد دخل بعد الهجرة أربع مرات فى البيت الحرام، وصلى فيه فى أحد تلك الأيام الأربعة، وهذا اليوم هو الفتح واليوم الثانى للفتح، والثالث فى حجة الوداع والرابع فى عمرة القضاء، وكان فى ذلك الوقت لبيت الله ستة أعمدة، وكان مع الرسول ﷺ حينما دخل فى الكعبة حضرة بلال وأسامة بن زيد وعثمان بن طلحة، وبناءًا على ما يروى هؤلاء أن النبى ﷺ صلى داخل الكعبة جاعلا عمودان فى جهته اليمنى، وعمودان فى جهته اليسرى، وثلاثة من الأعمدة خلفه، وكان الناس فى القديم يدخلون داخل الكعبة بالأحذية، ولما خلع وليد بن المغيرة حذاءه عند دخوله الكعبة أخذ الناس يخلعون أحذيتهم وبعد ذلك لم يدخل الكعبة أحد بحذائه «محاضرة الأوائل».

ولِ وجهك شطر الحرم العظيم هذا

وأقم فيه في سود الثياب

إن صحن الحرم هو روضة الخلد المقيم

فاقعد في صحنه المربع

إن وجهه هو قبلة أهل الحسن من العرب

وسجدة ملاح العجم نحوه

وبما أن الريح تعلقت بحضنه

نثرت الغالية في جيب الدنيا

ولما رفعت الريح طرف كسوته السوداء

اكتحلت عين الروح من حجره

«فتوح الحرمين»

مسألة:(١)

إذا ما أمكن الدخول فى بيت الله حين يخلو المكان من الازدحام بدون مشقة ويمكن الصلاة فيه بسكينة وهدوء فالصلاة فيه حلال، ولكن الدخول فيه عندما يزدحم المكان ويضيق فحرام، وبما أن ستة أذرع من ناحية حجر إسماعيل يعد من داخل البيت الحرام فأولى بالإنسان أن يدعو فى هذا المكان.

قال الزاهدى وجلبى فى شرح القدورى والإمام مالك والإمام الشافعى فى بعض أقوالهم: لا يجوز أداء الفرائض فى داخل كعبة الله، وأعلن بعض الأئمة عدم جواز التنفل أيضا. مع أن النبى ﷺ قد أدى فيه الصلاة أربع مرات.

(١) أنظر فى المسألة: إعلام الساجد للزركشى ص ٩١ وما بعدها.

والواجب فى هذه المسألة أن يستقبل الإنسان بعض جهات البيت الأعظم لذا أجاز أئمة المذهب الحنفى أداء الفرائض أو النوافل، وبناءًا على هذا يجوز أن يصلى فوق كعبة الله أيضا، إلا أنه مكروه لأنه إخلال بتعظيم البيت، حتى إن فوق الكعبة المكان السادس من الأماكن التى كره فيها النبى ﷺ، الصلاة كما جاء فى هذه الأبيات.

نهى الرسول أحمد خير البشر

عن الصلاة فى بقاع تعتبر

معاطن الجمال[١] ثم المقبرة[٢]

مزبلة[٣] طريقهم[٤] ومجزره[٥]

وفوق بيت الله[٦] والحمام[٧]

والحمد لله على التمام

الأثر الثامن: قرب بئر زمزم

هذا المكان بين مبانى بئر زمزم وشبكة مقام إبراهيم، ويمكن للإنسان أن يجد فيه مكانا يدعو فيه متى شاء.

إن عمق بئر زمزم ١٣٤ قدم و ٣ بوصات، وقطر فتحتها العليا ثمانية أقدام وبوصتان ويبعد من الجدار الذى على فتحته ناحية جدار الكعبة المعظمة ٤٧ قدم و٩ بوصات، ومقام إبراهيم ٢١ قدم و٩ بوصات.

وقد أعطى النبى ﷺ شرف سقاية زمزم إلى عمه عباس بن عبد المطلب، وكانت السقاية تنتقل إلى أبناء وأحفاد بنى عباس، ولما فضل بنو عباس عدم الإقامة فى مكة كانوا يقومون بهذه الخدمة بتوكيل أحد مشايخ بنى الزبير، وحينما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس أديت خدمة السقاية فترة طويلة بالوكالة،

وذهب فيما بعد أحد مشايخ بنى الزبير ورجا أن تجعل خدمة السقاية فيهم بالأصالة، ولما حصل على الإذن بذلك أصبحت السلالة التى تنتهى إلى عبد الله بن الزبير تقوم بخدمة السقاية الكريمة.

وقد أديرت خدمة السقاية عدة عصور كما شرحنا من قبل إلا أنه مع كثرة الحجاج وزيادة السكان أصبح حصر هذه الخدمة كما كان فى عهد بنى عباس، أو فى عهد شيخ زمزم من أبناء وأولاد الزبير بن العوام، فى شخص واحد غير ممكن لإرواء الحجاج والأهالى، ولذلك اتخذ من قبل شيخ السقاية فى كل ركن من أركان الحرم الشريف سقاء لإرواء الموجودين، ولكن بعد عصر من الزمن رئى أن هذا النظام أيضا لا يكفى لإرواء آلاف الحجاج والأهالى، فزيد من عدد السقائين. حتى لا يتعرض الحجاج المسلمون لبلوى العطش، وحتى يجد بعض الفقراء وسيلة لكسب مصادر الرزق، فقد عين لحجاج كل ولاية من الولايات الإسلامية سقاء، وجعل هؤلاء السقاءون تحت رياسة الشخص الذى تعهد بالقيام بمهمة السقاية من المشايخ الزبيرية، والآن كل بلد إسلامى له سقاء معروف، وكل واحد من هؤلاء مكلف بحسن معاملة الحجاج الذين يتبعون له. كما أن حجاج ذلك البلد يلجأون إلى السقاء الذى عُيِّنَ لهم فى أمور السقاية، وهكذا استراح الحجاج من مشكلة السقاية، كما أن كثيرا من أهل مكة وجدوا مصادر رزق فعاشوا فى رفاهية.

ولكل سقاء الآن فى كل سنة خمسة أو عشرة وأحيانا عشرون وثلاثون أو أكثر من الحجاجُ، يأتون إلى مكة ويذهبون. ولما كان كل سقاء يقوم بإقامة وليمة حسب حاله مرة لحجاجه الجدد لأجل ذلك يطيب الحجاج خواطر السقائين بإعطائهم بعض النقود عند وصولهم إلى مكة، وعند حلول عيد الأضحى، كما أن كل حاج يحاول أن يرضى سقاءه عند عودته إلى بلاده، كما أنهم يساهمون فى تسهيل معيشة أسرة السقاء بإعطائه بعض النقود كل أسبوع.

ويؤوى السقاءون حجاجهم فى وكالات جيدة ويحرصون على خدمة مرضاهم، ويأخذون سجاجيد صلواتهم ويفرشونها فى الأماكن التى يود الحجاج أداء صلواتهم الخمس فيها، قبل حلول وقتها.

ويجد كل حاج قبل صلاته سجادته التى فرشت له، وبهذا يؤدى صلواته الخمس فى هدوء وراحة، ولذا يجب على الحاج أن يقابل خدمات سقائه بإعطائه بعض النقود، كما سبق أن ذكرناه، كما أن على السقائين أن يراعوا حجاجهم ويحسنوا معاملتهم ويعدون العدد الكافى من الناس حتى يقوموا بمهمتهم على أحسن حال.

فهم علاوة على فرش سجاجيد الصلاة فى الأماكن التى تعود الحاج أداء صلاته فيها حين حلول وقت الصلاة، يقدمون لحجاجهم عقب أداء فرائض الصلاة طاسا من ماء زمزم البارد، كما أنهم يحضرون الماء لحجرات الحجاج كل صباح من ماء زمزم.

إن شرب زمزم فى داخل الحرم الشريف ليس حكرا على المواقع التى يوجد بها السقاءون، لأن هناك فى شرق المسجد الحرام وغربه سبل يستطيع الحجاج العطشى أن يزيلوا ظمأهم بالشرب من هذه السبل، وإذا أرادوا أن يشربوا يستطيعوا أيضا بالشرب من الدلاء التى فى داخل مبانى بئر زمزم.

وبما أن ما يعطيه الحجاج لسقائيهم من النقود لا تقابل ما يدفعه السقاءون سواء أكان لضيافة الحجاج أو للخدمة الذين يستخدمونهم إلا أن الحجاج الذين أسقطوا عن كواهلهم فريضة الحجاج يرسلون فى كل سنة من بلادهم رسالة ومعها جرة معينة يستطيع السقاءون أن يتعيشوا بها فى غير مواسم الحج.

ويخجل السقاءون حجاجهم بأن يقدموا لهم فى الأيام الحارة مياه زمزم مبردة والسبب فى تبريد المياه هم الحجاج الذين تعودوا أن يرسلوا الرسائل للسقائين.

لأن الحجاج يكتبون أسماءهم أو أسماء أصدقائهم وهم فى مكة على أوانى

الماء التى يطلق عليها الزورق بحبر لا يمحى ويتركونها لسقائيهم. وعندما تصل الرسائل التى اعتاد إرسالها أصحاب الزوارق يملئون هذه الزوارق بماء زمزم ويصفونها على الساحة الرملية فى الحرم الشريف، ويغطونها بالحصر فيبرد الماء فى داخلها غاية البرودة وعندما تحل أوقات الصلاة يوزعون الزوارق على الحجاج الكرام.

إن خدمة السقاية المباركة تدار الآن بالطريقة التى ذكرت، يعنى يملئون زوارقهم بماء زمزم، ويأخذون بعضها إلى غرف الحجاج كما يبردون كثيرا من الزوارق فى الحرم لسقى الحجاج، ولما كانت سقاية الحجاج إلى الآن فى أيدى المشايخ الزبيريين فأبنية بئر زمزم وأبوابها تفتح من قبل واحد منهم كما أن أحدهم يطلق عليه اسم شيخ زمزم ورئيسه. ولما كان الإشراف على المؤذنين ورئاستهم فى يد المؤذن الشافعى فشيخ زمزم هو الذى يتولى هذا الأمر، ولما كان أول من يبدأ بأداء صلوات الفجر أئمة المذهب الشافعى فشيخ بئر زمزم يغلق باب بئر زمزم كل ليلة، ويفتحه كل صباح فى الوقت الذى اعتاد فتحه، وبهذا يعلن لسقاة الحرم الشريف أن الوقت قد حان للحصول على ماء زمزم، والشيخ الذى يتولى مهمة السقاية يأخذ من بئر زمزم عدة أوان من الماء قبل أن يفتحه للآخرين لشربه، أو لتقديمه لأصحابه، ولما كان هذا الماء زبدة ماء زمزم فطعمه لذيذ جدا ولونه لامع وصاف ولا يشبه ماء زمزم الذى يأخذه السقاة، وليكن فى علم الشاربين أن ماء زمزم كفاية عن خلاصة قطرة واحدة لماء عين تسنيم، وماء الكوثر، ماء الحياة الذى هو زبدة خالصة ومن هنا يستحق أن يطلق عليه الزبدة.

ولما كان الشراب من زبدة ماء زمزم يفيد فى تصفية الدم ولإدامة صحة الإنسان عامة فمن يريد أن يشرب من هذا الماء يجب عليه أن يحل عند شيخ زمزم.

شيخ زمزم فى عصرنا هذا هو الشيخ عبد الله[1] بن على بن محمد بن عبد

(١) ساق المؤلف نسبًا طويلاً للشيخ عبد الله هذا ينتهى به إلى سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنه) إلا أن البادى عليه شدة الاضطراب فاختصرنا العبارة كما هنا.

السلام من نسل سيدنا عبد الله بن الزبير (رضى الله عنهم) وقد تعهدوا بأداء هذه الخدمة المشكورة سنة ١٢٨٢هـ.

إننى ـ المؤلف ـ قد تلاقيت مع عبد الله أفندى وحضرت مجالسه ونلت شرف شرب زبدة ماء زمزم كل صباح فى صحبته ودلالته. كان المرحوم السيد عبد الله من الأشخاص الذين يتمعتون بخصال حميدة وفضائل جليلة وكان من أذكياء علماء مكة، شخص خزانة علم، فريد فى الحلم والحكمة، ملكى الصفات، والسعداء الذين يتشرفون بصحبته يتمنون ألا يفارقون صحبته دقيقة واحدة.

تطهير بئر زمزم الشريف

نضبت مياه بئر زمزم فى عهد العباسيين وكادت أن تنقطع وبعد ما عمقها بناء يقال له محمد بن ضحاك قدر ستة أذرع لم ينقص ماؤها أبدا.

وكان أهل مكة يعتقدون أن مياه بئر زمزم يفور فى الليالى المباركة ويفيض، وأن مياه الكوثر تختلط بمياه زمزم فى تلك الليالى، وبناء على ذلك كانوا يهجمون على بئر زمزم ويقتحمونها بقوة حتى يخاف أن يصاب بعضهم بعاهات فى تلك الليالى، وهم يبذلون الجهد لأخذ مياه زمزم ولكن تحقيقاتنا لم تثبت ما يدعونه.

وقد حصلنا على روايتين بخصوص فيضان بئر زمزم.

الرواية الأولى:

اختلاط بعض المياه الجارية بماء زمزم ولما كان باب بئر زمزم يغلق فى الليالى المباركة من العصر إلى المساء؛ لذا كان يزيد الماء الموجود فى البئر قدر شبر.

والرواية الثانية:

عندما انسدت البئر المذكورة توارد إلى مكة كثير من الروحانيين، وفى تلك الليلة تغير طعم ماء زمزم وردوا ذلك إلى سبب سؤر الروحانين فى البئر. والحكاية الآتية كافية لتصديق هذه الرواية وتأكيدها.

القصة:

استيقظ أحد الفضلاء من المشايخ الزبيريين وقام من نومه ظنا أن وقت الترحيم قد حان، واتجه إلى الحرم الشريف، وبعد الطواف بالبيت صعد إلى المكان الخاص برؤساء مؤذنى الشافعية، وفوجئ بأن أبواب بئر زمزم قد فتحت، وأشعلت القناديل ودخل كثير من الناس فى أبنية بئر زمزم، وتعجب من الأمر، لأن من الأصول المتبعة أن يكون مفتاح بئر زمزم معه، ولكنه قال لنفسه: لابد وأننى استيقظت متأخرًا وهؤلاء بعثوا إلى بيتى وأخذوا المفتاح. وبناء على هذه الملاحظة لم يقم من مكانه يتحقق من الأمر، ومن شدة حيرته وتعجبه لم يخطر على باله أن ينظر إلى الساعة، وبعد فترة أدرك أن المؤذنين لم يصلوا بعد، فظل جالسا فى هذا المقام قائلا: ما هذه الحال؟! وبينما هو يفكر فى هذا الأمر غلبه النوم وراح فى سبات، واستيقظ بعد فترة فإذا بالقناديل مطفئة وأبواب مبنى بئر زمزم مغلقة، فبادر بالقيام وأخرج ساعته من جيبه فرأى أن وقت الترحيم لم يحل بعد؛ فتوهم من هذا الأمر وخاف، وأخذ يتلو القرآن، وبعد ما وصل والده بفترة قص عليه الحكاية بكل تفصيلها، فقال له والده - يا بنى إن ما تشربونه صباحا من بئر زمزم من ماء حلو قائلين إنه زبدة ما هو إلا سؤر أولياء الله الروحانيين، ولا يشبه ماء زمزم الذى يأخذه السقاة: إذ يأتى أولياء الله الصالحون بعدما ينسحب الزوار فى الليل، وبعدما يطوفون بالبيت الحرام يدخلون فى مبنى بئر زمزم، ويشربون ماء زمزم حتى الصباح، ولا يمنعهم لا الباب ولا المدخنة، وبهذا الرد اطلع على هذا السر شديد الخفاء. انتهى.

وفى الواقع أن الماء الذى قلنا عنه الزبدة من ماء زمزم لا يشبه ماء زمزم الذى يؤخذ منها سواء فى الطعم أو اللون، إن طعم الزبدة فى غاية اللذة ولونها فى غاية الشفافية يفوق عن التصوير والتعريف. وقال بعض المدققين إن لماء زمزم الصافى خاصية زيت الزيتون، وبما أن ماء زمزم غير قابل للامتزاج بالمياه الجارية الأخرى فعندما يغلق باب أبنية بئر زمزم فماء زمزم يطفح فوق الماء، كما يطفح

زيت الزيتون؛ لذلك يختلف طعم ماء زمزم الذى يؤخذ صباحا. إن هذا التوجيه الوجيه غير قابل للاعتراض؛ لأنها خاصية ينفرد بها ماء زمزم عن المياه الأخرى مهما كانت لطيفة خفيفة لا يمكن منعها من الامتزاج.

فإذا ما أضيف قدح ماء مر إلى قدحين أو ثلاثة أقداح ماء حلو فيفسد طعم الماء الحلو، ومهما ترك من الوقت فالماء الحلو لا يطفح فوق الماء ويسترد لذته الأولى.

إن بئر زمزم الشريف يقع فى مواجهة باب كعبة الله المعظمة، وفى داخل مبانى حجرته(١) ولمبانيها ثلاث نوافذ مقابل باب كعبة الله. وينظر باب إلى الجهة الشرقية وفوقها خاص بمؤذنى الشافعية. ولاسيما شيخ زمزم أى الخاص برؤساء مؤذنى الشافعية. ومن هنا ينبه لأداء أذان صلوات الأوقات الخمسة.

لم يكن فى الأزمنة الأولى سور لفتحة بئر زمزم، وكان يحيط بها سور منخفض. وحدث فى عهد أبى جعفر المنصور من خلفاء بغداد أن سقط أحد الناس قضاء فى داخله، وحتى يمنع وقوع مثل هذه الحوادث قرر أن يُبْنِىَ على فتحتها سورًا بناء على الأمر الوارد من الخليفة. وبعد البحث والتحرى وجدوا حجرا فى ارتفاع ٦ أقدام و ٣ بوصات واستدارة قطره ٢٥ قدم فثقبوا وسطه ووضعوه فى فتحة البئر.

ثم أحاطوه دائرًا ما دار بشبكة حديدية، ومع ذلك بعض العشاق وأصحاب الشوق كانوا يرمون أنفسهم فى البئر ويغرقون، ولما أطلع السلطان أحمد خان الأول على هذا الأمر أراد أن يحول دون أن يقتل الناس أنفسهم، فأمر بصنع شبكة حديدية فى إستانبول وأرسلها إلى مكة المكرمة فى سنة (١٠٢٤هـ) فأنزلت تلك الشبكة إلى البئر وربطت بسلاسل حديدية تحت الماء بعدة أذرع. ولله الحمد لم تقع بعد ذلك حوادث محزنة مثل ما حدث.

---

(١) وقد جدد السلطان مراد خان الثالث هذه الأبنية فى سنة ٩٨٥هـ. كما أن السلطان مراد خان الرابع قد غير بابها وجدد طلاءها الداخلى فى سنة ١٠٤٣هـ.

إن مبانى البئر الشريف الموجودة فى يومنا هذا من آثار السلطان عبد الحميد خان الأول كما هو موضح فى التاريخ الذى فوق الباب.

وعمق بئر زمزم المكرم ٩٩ قدما و٣ بوصات كما ذكر آنفا، وماؤه فى كل آن وزمان (٤٥ قدما)، إذا ما نظرنا إلى أقوال المسنين من السقاة الذين يوثق بهم أنه إذا ما سحب الماء من بئر زمزم ليلا ونهارًا ولفترة طويلة من الصعب أن ينزح ماؤه.

مساحة بيت الله الأكرم

قال المرحوم السيد غبارى لأحد أحبائه وهو مؤلف كتاب مساحة بيت الله الأكرم: « سقط شخص فى بئر زمزم فى عهد السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم، وأرادوا أن يطهروا البئر وفقًا للشريعة بأن ينزحوا كل مياه البئر، وسحبوا المياه وبثمانية دلاء فى خمسة أو عشرة أيام على الدوام، ومع ذلك لم يستطيعوا أن ينقصوا المياه ولو بقدر إصبعين، وكان فى البئر ذلك الوقت ما يقرب من تسعة أذرع فلم يزد هذا الماء ولم ينقص، وقد تعجبت من هذه الحالة وقلت لنفسى ما الحكمة فى عدم نقص المياه فى البئر مع سحبها ليلا ونهارًا؟ وأخذت أسأل عن سبب ذلك ممن أتوسم فيهم الصدق وأثق فيهم دون كلل، وفى أحد الأيام قابلت البناء محمود الذى تجاوز المائة من عمره والذى يتوسم فيه قول الصدق.

فسألته وبجانبه بضعة أشخاص متقدمين فى السن موضحا له زيادة فضولى بهذا الخصوص، وقد تلقيت منه هذا الجواب:

جواب غبارى أفندى كما تلقاه من البناء محمود:

قال غبارى أفندى: «لم ينزل المطر الذى يسبب سيولا فترة تقرب من إحدى عشرة سنة فى عهد السلطان قايتباى المصرى، وجفت مياه جميع آبار مكة المكرمة، وأخذ الناس يأتون من بعيد وقريب مضطرين للحصول على المياه من بئر زمزم، وإننى كنت فى ذلك الوقت شابا، ولما كنت متضخم الجسم كنت صبى البناء، وحدث أن سقط أحد فى البئر كما حدث الآن. ونقصت المياه بمقدار أربعة

أمتار، وقرر الأشراف أن يخرجوا الشخص الذى سقط وأن ينظفوا البئر فى نفس الوقت، وبناء على رأى معلمى أحمد البناء قد ركبنا فى بكرات البئر ثمانية دلاء كبيرة، وأخذنا ننزح البئر وكنت أعمل بجانب معلمى أحمد، وبعد فترة استطعنا أن ننقص قليلا من مياه البئر، فنزلت مع أستاذى فى قاع البئر لتنظيفه وتطهيره، وإذا بعيون ماء ثلاث فوق خزانة ماء البئر، اثنتان تحاذيان البيت الأعظم، والأخرى تحاذى جبل أبى قبيس، وكانت المياه التى يقال إنها تمتزج بماء زمزم تأتى من هذه العيون.

ويؤيد قول محمود البناء ما قاله عبد الله بن المبارك: إن عين الماء التى تجرى من ناحية ركن الحجر الأسود عين ماء، كما يؤيد قول ابن شعبان: إن الماء الذى ينصب فى بئر زمزم من ناحية الحجر الأسود عين من عيون الجنة.

قد انخفض ماء البئر عن العيون التى سبق ذكرها ولذلك كان مزيتا قليلا، فسددنا تلك العيون سدا محكما، ونزحنا الباقى من المياه ثم ملأنا الدلاء بالطين المتراكم، وطهرنا خزانة الماء وظهر فى الطين الذى أخرج كأسان من البلور، وواحدة من الزنك وثلاثة من النحاس، وأربعة أعداد من الصحون الصينية، وعددان من عقد مرصع، وكان غير ذلك كثيرا من قطع خشب الأبنوس والخردوات المتنوعة. وبعد أن نظفنا البئر من الطين حتى أصبح البئر خاليا من قطرة ماء بعد أن طهرناها ونظفناها أدى كل واحد منا فى سطح قاع البئر ركعتين، وفتحنا العيون التى سددناها وخرجنا إلى ظاهر البئر، وبعدما خرجنا من البئر أخذت المياه تتدفق من العيون التى ذكرناها فى غاية القوة حتى ملأت البئر فى نفس اليوم، وتعدت المياه ما كانت عليه من قبل قدر شبر واحد». «انتهى».

وقد صدق الشيوخ الذين كانوا مع محمود على قوله قائلين: «نعم كل هذه الأقوال صحيحة، ونحن أيضا كنا حاضرين فى ذلك الوقت». إن هذه الحكاية تؤيد تماما القول الذى يقول إن مياه أخرى تمتزج بماء زمزم.

وقد عرف البناء محمود شكل داخل البئر وقال إن مقدار ٦٦ قدم و٨ بوصات من البئر، قد طلى بما يقال له لوكون[١] ومقدار ١٠ أقدام و ٨ بوصات قد بنى بحجارة منحوتة، وقال عن خزانة الماء: إنها حفرة ذات تراب ممتزج بالزيت، إن التراب الممزوج بالزيت يشبه كِلْسَهُ (نوع من الصلصال الذى تستخدمه النساء فى الحمامات).

والعيون الثلاث تنبع من هذا الطين وأن هذه العيون فى خارج خزانة الماء قليلا. انتهى.

وفى خلف أبنية بئر زمزم الجسيمة قبة الفراشين، وخلفها قبة العباس وهما قبتان فى غاية الجمال، ويحفظ فى قبة الفراشين قناديل البيت وفى عصر النبى ﷺ، كان الماء يوزع على الحجاج الكرام.

وقبة الفراشين مخزن متصل بأبنية دار التوقيت والمكتبة من ناحية باب الصفة، وكان أغوات البيت الأعظم يحفظون فيها الشمعدانات والمباخر الخاصة بالكعبة المعظمة والشموع وأشياء أخرى مباركة. وحينما هدموا مبانى المكتبة ودار التوقيت؛ هدموا هذا المخزن وسووا مكانه وضموه إلى البيت الحرام، وهذا المكان ساحة خالية تؤدى فيها الحاجات المسلمات صلواتهن. والأشياء التى كانت تحفظ فى ذلك المخزن توضع الآن فى قبة العباس المتصلة بأبنية بئر زمزم.

ولما كان سقف قبة العباس عاليا، فحينما هدمت قبة الفراشين فى سنة ١٢٩٩هـ رأى القائم مقام صادق بك من مهندسى أركان الحرب أن يضيف لقبة العباس ما يشبه طابقا، ووضع تحت الأشياء المبروكة الخاصة بالبيت الأعظم فى هذا المكان.

فوق بئر زمزم:

مكان مقبب يطلق عليه مظلة مؤذنى الشافعية، هذا المكان محفل مؤذنى

(١) عجين كلس مع الزيت.

الشافعية، وفى الأول كان له سقف بدون قبة، ولما سقطت أبنية ذلك المكان مع سقفها؛ جدده الملك المؤيد المصرى بشكل جميل.

وبينما كان السلطان مراد الثالث يجدد المسجد الحرام فى سنة (٩٨٥هـ)، جدد تلك المظلة أيضا وبنى عليها قبة جميلة. وبما أنها لم تعمر ولم يُعتَنَ بها فترة طويلة مالت فجأة إلى الانهيار بعد أن أصابها الوهن، ولأجل ذلك قد عمر وشيد تلك القبة مدير الحرم الشريف سنة ١٢٩٦، كما أنه أصلح وعمر خارج المبنى وداخله وزينه.

وكان المؤذنون إلى قرب عهد هارون الرشيد، كانوا يؤذنون تحت الشمس صيفا وشتاء. وقد عين المشار إليه عبد الله بن محمد بن عمر واليا على مكة فبنى أيضا مظلة صغيرة وهكذا حفظ المؤذنين من حرارة الشمس.

الأثر التاسع: ما خلف مقام إبراهيم

إن هذا المكان خلف مبانى مقام إبراهيم المقدس وبين بئر زمزم والمقام الشريف المذكور، والمكان الذى يجب أن يدعو فيه الإنسان فوق الحجر الرخامى الذى يقابل مفتاح الباب الذى يدخل منه إلى ذلك المقام. إن ذلك المكان هو الذى صلى فيه الرسول ﷺ، ودعا ربه.

يجاور هذا المحل اللطيف للجهة اليسرى لمنبر الحرم الشريف، وإن كان أداء الصلاة فيه والدعاء صعبا ولكن بقليل من الانتظار يمكن للإنسان أن يصل إلى أمله. واستجابة الدعاء فيه سريعا مشهورة لدى العلماء إذا ما دعا الداعى فى أوقات الفجر فى ذلك المكان اللطيف.

* * *

المنبر الشريف

يقع المنبر فى الجانب الشمالى لأبنية مقام إبراهيم، وعلى بعد ثلاثة أذرع تقريبا، وهو مرتفع مصنوع من الرخام وفى غاية الزخرفة والجمال.

ولم يكن هناك مِنْبَرٌ فى ساحة المسجد الحرام إلى أن زاره حضرة معاوية آتيا من الشام، وقد صنع المشار إليه منبرًا ذا ثلاث قوائم، وقرأ فوقه الخطبة. وفى سنة (٤٤هـ) وقبله سواء أكان الخلفاء الكرام أو الولاة العظام يلقون خطبهم وهم واقفون سواء أكانوا عند حجر إسماعيل أو عندما يتجهون إلى كعبة الله المفخمة. (محاضرة الأوائل).

وقد أخرج المنبر الذى صنعه ابن أبى سفيان من الحرم عندما ورد المنبر الذى بعثه والى مصر فى عهد هارون الرشيد.

وبدل المنبر الخشبى فى سنة (٧٦٦هـ) حينما أرسل ملك مصر الملك الأشرف منبرًا وفى سنة (٧٩٧هـ) أرسل الملك برقوق المصرى منبرا، وسنة (٨١٨هـ) أرسل الملك المؤيد منبرا آخر. وفى سنة (٨٨١هـ) أرسل السلطان قايتباى(١) منبرًا خشبيًا أيضا، وهكذا كان يتغير موقع المنبر وشكله كلما جددت أبنية المسجد الحرام إلى أن جاء عصر السلطان سليمان ـ طاب ثراه ـ فأرسل من باب السعادة منبرا فى سنة (٩٥٦هـ) ووضع حيث هو الآن. إن المنبر المذكور قد صنع من الرخام، وقد أظهر فى صنعه المهارة اليدوية إلى حد أنه إذا ما رآه من أظهر المعجزات فى نحت الرخام يظل حائرا مبهوتا أمام هذا المنبر.

الأثر العاشر: الصفا

اسم تل ملتصق بجبل أبى قبيس وسبب تسميته بهذا الاسم نزول (آدم صفى

(١) كان المنبر الذى أرسله السلطان قايتباى مصنوعًا فى غاية الجمال وكان مزخرفا بأنواع الذهب الملونة.

الله فوق هذا التل عندما جاء إلى مكة أول مرة). ولم يبق الآن أثر للتل وقد أشير إلى محل الأثر بمبنى ذى طاق وكمر.

لما كانت الصفا تثير حسد الفلك ووجهك نحو الحجر الأسود اصطفت عليها حشود من الملائكة وظهرك إلى الجبل ذى الكرم ومن يريد السعى يذهب أولا إلى هذا المكان ويصعد إلى مراقى المبنى المعروف بطاق الصفا ومن هناك يبدأ السعى.

والمسافة بين طاق الصفا والكعبة المعظمة مائة وستون ذراعا، كما أن المسافة بين المروة والصفا سبعمائة وستون ذراعا، والشخص الذى يريد أن يدعو فى هذا المكان يصعد إلى درجة من طاق الصفا ثم يتوجه إلى الكعبة، ويستدبر الطاق ثم يشرع فى الدعاء، ويمكن للإنسان أن يدعو فى هذا المكان متى شاء إلا أن الوقت المفضل للدعاء فيه أوقات العصر.

* * *

الأثر الحادى عشر: المروة

إن المروة فى جهة مستشفى الغرباء، وهى جبل فى اتصال السوق الطويلة التى يطلق عليها السويقة أو الشامية، وسبب تسميتها بهذا الاسم نزول حواء (عليها السلام) فوق هذا الجبل عندما جاءت إلى مكة المكرمة. والكلمة محرفة من كلمة مرأة. وسبب تسميتها بهذا الاسم عند مؤلف القاموس تكون هذا الجبل من حجارة قاسية متينة، صارمة ويطلق اسم مروة على مثل هذه الحجارة.

بين المروتين:

عندما يسعى الحجاج متحركين من الصفا يأتون إلى هذا المكان وهنا أيضا طاق عال عند أسفله بضع درجات، والداعى يصعد إلى أعلى درجة ويدعو متوجها إلى الصفا.

نظم

المروة التى بلغت الفلك الأزرق
على حافة قمتها قدح منقلب
إذا كان القمر يطلع مثلك من
الجبل فإنه يحطم عظمة الفلك
(فتوح الحرمين)

ويمكن للإنسان أن يدعو فى هذا المكان وقتما شاء إلا أن الوقت المفضل هو وقت العصر، ومن هنا عرفنا أن الصفا والمروة جبلان صغيران من جبال مكة.

رواية

يروى أن المشركين فى زمن الجاهلية قد وضعوا فوق جبل الصفا صنما يسمى إساف وعلى المروة صنما آخر يسمى نائلة، وكانوا يطوفون حول هذين الجبلين،

وعد المسلمون هذه الفعلة فى يوم فتح مكة من عادات الجاهلية، ورفضوا القيام به معتبرين هذا العمل عارا عليهم، أى أنهم رفضوا أن يسعوا بين المروتين، وبناء على هذا نزل الأمر القرآنى ﴿ فَلَا جُنَاحَ ﴾ (البقرة: ١٥٨) وأصبح السعى من مناسك الحج الواجبة.

وكان العرب فى الجاهلية يصعدون فوق سفوح هذين الجبلين بعد انتهاء مناسك الحج، وكان الذين يجدون فى أنفسهم ما يفتخرون به يفتخرون بحسبهم ونسبهم، كما أن بعضهم كانوا يطلبون أمورا دنيوية.

ولم تكن هناك مبان فوق هذين الجبلين إلى عهد أبى جعفر المنصور، وكان الحجاج الذين يريدون أن يسعوا يصعدون فوق قمتى الجبل وينزلون عند سعيهم، فبنى أبو جعفر فوق الصفا طاقا ذا اثنتى عشرة درجة، وفوق المروة طاقا آخر ذا خمس عشرة درجة حجرية، وبهذا أنقذ الحجاج من مشقة الطلوع والنزول فوق الجبلين. سقط طاق المروة فى سنة (٨٠٢هـ) وانهار فجدد السلطان فرج بن برقوق المصرى طاق[١] المروة المذكور، وكذلك طاق الصفا وجعلهما فى شكل متناسق.

إن الطاقات التى صنعت فى عهد أبى جعفر المنصور قد جددت، فى عهد فرج بن برقوق المصرى عدة مرات ورممت وعمرت، ولكنها احتاجت للتعمير والتجديد بفعل الزمان، لذلك عمر وزخرف مدير الحرم الشريف السيد أحمد هذين الطاقين، بعد الاستئذان بشكل جميل وذلك فى سنة (١٢٩٦هـ).

الميلان الأخضران:

يوجد ما بين الجبلين ما يطلق عليه ما بين الميلين الأخضرين وهذا مكان مبارك طوله ٢٢ ذراعًا معماريًا. إن هذا المكان هو الذى رجعت فيه السيدة هاجر بسرعة لرؤية ابنها إسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان ذلك المكان إلى سنة

(١) يروى عن أحد العلماء الذى يسمى سنجارى، قوله إنه لم تكن هناك حاجة لبناء هذين الطاقين إلا أنه لا بأس بهما لدلالتهما على حدود السعى.

(٣٤٧) مخيفا جدا لتركه مظلما، ولم تكن هناك علامات تدل على المكان الذى يجب الجرى فيه.

وفى السنة المذكورة أرسل الملك جاقمق من ملوك الشراكسة فى مصر إلى مكة رسولا يطلق عليه سودون المحمدى لتعمير بعض نواحى الحرم الشريف. ورأى سودون المحمدى أن ذلك المكان الذى يلزم الجرى به وهذا يُعَدّ من مناسك الحج مجهول من الناس، فوضع ميلين أخضرين علامة فى مسافة تمتد بينهما قدر مائة وعشرين ذراعا، ثم علق فوقهما قنديلين وعين شخصًا لإيقادهما ليلا، وبهذا أضاء المسعى الشريف وأناره، كما أنه عين المكان الذى هرولت فيه هاجر:

ويطلق الآن على ما بين هاتين العلامتين أى ما بين الميلين الأخضرين.

صورته فى الصفات قامة الخضر وضفة ماء الحياة
أحد أطرافه المروة والطرف الآخر الصفا ليس ساعيه سوى أهل الوفاء
أن الناس قاطبة فى هذا المقام
وهم يحثون خطاهم فى المسعى
لكثرة تلاحم أجنحة الملائكة فيه ليس فيه موضع لقدم

الأثر الثانى عشر: المسعى

إن هذا الطريق ما بين طرفى الصفا والمروة فهو طريق وسوق ذو مدخلين. ويقع فى الجهة اليمنى بالحرم الشريف بالنسبة للشخص الذى يتوجه من المروة إلى الصفا، وفى الجهة اليسرى بالنسبة للشخص الذى يتجه من الصفا إلى المروة، ولما كان المكان مزدحما جدا ولا يخلو من الناس فيستحسن أن يدعو الإنسان فى أثناء السير والحركة.

ويجب أن نقدر هذا المكان وأن نعظمه غاية التعظيم. وأن نتذكر أن جميع

(١) وقد جدد السلطان مراد خان الثالث هذه الأبنية فى سنة ٩٨٥هـ. كما أن السلطان مراد خان الرابع قد غير بابها وجدد طلاءها الداخلى فى سنة ١٠٤٣هـ.

الأنبياء العظام والأولياء الكرام قد سعوا فى هذا المكان، يجب علينا أن ندعو قائلين: «إلهى بحرمة أقدام جميع الأنبياء العظام والأولياء الكرام الذين سعوا بهذا المكان».

إنه وادى المسعى وترابه لرفعة منزلته فأصبح درا وكحلا لأهل السلف
إن نقش قدمك على هذه الأرض هو روضة الفردوس يوم الدين
بما أن قدمك فى طريق الصدق والصفاء على أثر قدم المصطفى
ما كان من نبى ولا ولى إلا وطأت قدمه هذا المسعى

رواية

يروى أنه قد دفن فى المسعى سبعون نبيا ذوو شأن ولأجل هذا فالذى يسعى بين المروتين له أجر كمن أعتق سبعين عبدًا، ولما كان ما بين الصفا والمروة باب من أبواب الجنة فهذا المكان أيضًا من الأماكن المباركة التى يستجاب فيها الدعاء، ويجب ألا يشك فى هذا لأنه مؤيد بالأحاديث النبوية.

استطراد:

ذهبت أنا الفقير إلى منزل الرجل الورع الحليم الفاضل أحمد خانى أفندى لزيارته، وذلك بينما كانت أتعارف مع كرام الناس لجمع المعلومات عن مكة والكعبة، وقال فى أثناء حديثنا: «وإن كان أهل مكة الآن يبدون بالنسبة إلى سكان أهل مكة فى العصور السابقة، أناسا لا يستحقون رعايتهم واحترامهم، مع أنهم جيران بيت الله، يجب علينا أن نعد أقلهم شأنا أعظم الناس قدرا، وإننى لا أرى ضرورة لأن أذكر لكم أن من يحملون فى قلوبهم هذه النية الصادقة سينالون مطالبهم».

يقال:

بناء على رواية إنسان يوثق فى كلامه: «كان قديما فى مكة بين أهالى مكة شخص تافه حشاش فاضح للأسرار، لم يعرف رأسه للسجود طريقا، ذهب هذا الرجل فى يوم من الأيام إلى مقهى الحشاشين، وأعطى ما بيده من المخدرات إلى

صاحب القهوة، وطلب منه أن يعد له نارجيلة بما أعطاه، وبينما صاحب المقهى يعد له نارجيلة قال: إلهى إننى لم أسجد لك فى طول حياتى إذا ما قلت بأننى أبكى سيكذبنى أهل بلدتى لما يعرفون عنى»، وأخذ يندم ويأسف على أنه أمضى حياته عبثا، ثم صاح قائلا: «الله»، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة.

وقبل أن يشيع مَوْتُ هذا الرجل ألهم أحد الصالحين بالآتى: «قد مات فى مكان فلان أحد الناس، فإذا ما جهزت جنازته بشكل حسن وحملت تابوته فإن الله يرضى عنك ويتقبل أعمالك».

وبعد التحقيق عرف أن الذى مات هو ذلك الحشاش الذى يذمه الجميع ويتحاشاه، وقد مات فى مقهى الحشاشين كما بيناه آنفا، فظن الرجل أن ما ورد لقلبه من الإلهام قد يكون خطأ فتحير لذلك كثيرا.

وعندما كشف أمره لبعض الذين يتوسم فيهم حسن الظن عرف أنهم ألهموا نفس ما ألهم به، وبناء على هذا لم يبق إلا أن يجهز جنازة الرجل ويغسلها ويكفنها على أحسن وجه وفق السنة بمساعدة أصحابه، ثم وصلوا على جنازته ودفنوها فى قبر هيئ فى مقبرة «المعلا».

ولم ير كثرة المشيعين واختلاف أنواعهم فى أية جنازة من أعيان مكة كما حدث فى تشييع جنازة هذا الرجل.

وبشر الذين حملوا التابوت فى طريقهم إلى المعلا بهاتف يقول: «قد غفر لكم».

وبناء على هذه الرواية فمن الأفضل للإنسان أن يظن خيرا بأهل مكة من أن يظن شرا ناظرًا لأحوالهم وتصرفاتهم الظاهرة. ولم يقع هذ الحادث فى عهدى إلا أننى لا أتردد فى تصديقه، وقبل هذا تعرضت مكة المكرمة لمرض وبائى مفزع، وسواء أكان الحجاج أو أهالى مكة كانوا يموتون فجأة وهم سائرون فى الطريق. ومن كثرة الجثث أصبح الذهاب إلى المسجد الحرام غير ممكن، وفى الأيام التى اشتد فيها المرض قد استولى على أنا الفقير خوف وخشية شديدين؛ لذا قررت أن أؤدى الصلوات الخمسة فى بيتى؛ ولكننى لم أستطع أن أضحى

بصلاة الجماعة، فذهب إلى الحرم الشريف لصلاة العصر، وبعد أداء الصلاة خرجت من باب الصفا كالعادة واستطعت بصعوبة أن أصل إلى مراقى طاق الصفا، وقد رقد الناس على طرفى الطريق ولم يبق فى طريق المسعى مكانا لقدم من كثرة جثث الموتى المسلمين.

ولما رأيت كثرة الجثث وقد رقد زيد على عمرو فزعت بشدة، ولم أستطع أن أتقدم خطوة بعد طاق الصفا وظللت مستنداً على مراقى الصفا وكأننى جماد بلا روح.

وبعد فترة صفع آذانى هاتف يقول: ألا تستحيى؟! ألا تؤمن بما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣) وإنك عالم بقدرما، قد قرأت عدة كتب تفسير، وطالعت كتب الأحاديث إن شجرة الإيمان قد مدت جذورها فى روضة قلبك، وإذا ما تخلصت من وهم الخوف الذى استولى عليك وداومت على قراءة سورة ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ (قريش: ١) فلا تحترز من شىء، وإذا ما قلت هذ السر لأى واحد تنقذه مما تلقيه الأوهام عليه.

واه! إن هذا لعيب وإثم كبير أيضا! وكأننى كنت ميتا قبل أن أسمع هذا الصوت، وكأن الصوت قد نفخ فى روحا ووهب لجسمى المنتفض الحياة.

فلم يبق أى أثر لهذه الأفكار التى أصبت بها فنظرت حولى، فوجدت أن ليس هناك نفر يتنفس، فوقعت مرة أخرى فى براثن الأوهام فسبحت فى أمواج بحر الاضطراب.

وفى النهاية فهمت أن الصوت من التلقينات الإلهامية، وأخذت فى قراءة السورة المباركة التى سبق ذكرها، وأخذت الصور العجيبة والأشكال المخيفة التى القتها الأوهام فى نفسى تزول تدريجيا، ولما وجدت فى جسمى قوة كافية للتحرك، قمت واتجهت إلى بيتى وأنا أقرأ سورة ﴿ لإِيلافِ ﴾ ولما وصلت إلى بيتى نبهت الجميع بلزوم قراءة السورة المذكورة والاستمرار فيها. ولما رأيت أن أوهام الخوف قد زالت عن أهلى أيضا أصبحت أوصى كل من أصادفه بقراءة سورة ﴿ لإِيلافِ ﴾. ولم يبق فى جميع الذين استمروا فى قراءة هذه السورة آثار

لأوهام الخوف، ومنذ ذلك الوقت أصبحت أذهب عقب كل صلاة إلى جبل الصفا وأمكث فى هذا المكان المبارك الميمون فترة.

نعم:

إن المسعى مكان غاية فى اللطف والسعد، وقد دفن فى هذا الطريق أنبياء كثيرون وليس هناك نبى لم يسع بين المروتين، ويجب على الذى يسعى فى هذا المكان أو يمر به أن يتذكر الأنبياء الكرام ويدعو.

ويجب الاستمرار فى قراءة سورة ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾ ليس فقط فى مكة المكرمة، ولكن فى جميع البلاد وكل الأماكن.

فالذين يعتقدون بأن هذه السورة تدفع عن الإنسان الفزع والوهم والخوف لا تعتريهم أوهام الخوف». انتهى.

وتصيب الإنسان حيرة وهو يرى على جانبى طريق المسعى المحال والدكاكين، ووسط هذه المحال مكان للعبادة، ويدور فى خاطره استحسان رفع هذه السوق من هناك، وإذا ما لاحظنا أن هذه السوق كانت موجودة فى أيام النبى ﷺ، ولم يأمر بنقلها فلا ينبغى علينا إلا أن نسكت تأدبا قائلين: لابد أن هناك حكمة من بقاء هذه السوق وهذا من الضرورات الدينية التى يجب أن يسلم بها كل مؤمن.

الأثر الثالث عشر: الحجر الأسود

هو ذلك الحجر السعيد الذى يشبه رأس إنسان والذى وضع فى الركن الشرقى من الكعبة المعظمة على ارتفاع (٣ أقدام و ١٠ بوصات).

وكانت قطعة من هذا الحجر سقطت فى عصر القريشيين وحفظت فى بيت واحد من آل شيبة، وعندما حدد عبد الله بن الزبير بيت الله فى سنة (٦٤هـ) أحضرها وألصقها بفضة.

وحينما حج هارون الرشيد أدخله داخل غلاف فضى وفى خلال سنة (٤١٣هـ) كسر أحد الملاحدة المصريين فى أثناء طوافه ذلك الحجر بضربة دبوس قائلا: إلى متى سيعبد الحجر ويحترم إن حضرة محمد ـ عليه السلام ـ وعلى ـ رضى الله عنه ـ يمنعاننى من كسر هذا الحجر، وها أنا ذا كسرت الحجر الأسود بضربة واحدة، وهدمت بيت الله الواحد. وهجم الموحدون الطائفون على ذلك

الرجل وقتلوه. إن أربعة عشر من الفرسان كانوا ينتظرون إنقاذ هذا الرجل، ولما رأوا هجوم الموحدين على القاتل وهلاكه نزلوا من ظهور خيولهم، وشهروا سيوفهم، وزحفوا داخل الحرم الشريف وتكاثروا فيه حتى كونوا جماعة، وخَرّبُوا بعض الأماكن وأتلفوا كثيرا من النفوس. وسقط الحجر الأسود من صندوق على الأرض فى أثناء هذه الفتنة، وظل فوق الأرضية الرخامية للمطاف، وفى اليوم الثالث جمع شجعان بنى شيبة قطع الحجر الأسود وألصقوها مستخدمين المسك والعجين المسمى لوكون(١)، ووضعوه فى داخل ظرفه وأعادوه إلى مكانه، وتعقب أهالى مكة كلهم القافلة المصرية ونهبوا كل ما يملكونه وقتلوا كثيرين منهم بسيف الشريعة المسلول.

وكان الشخص الذى أسقط الحجر الأسود على الأرض بضربة شقيا ذا وجه أحمر، طويلا سمينا كان خبيثا لا دين له ولا إيمان. وبناء على الرواية التى حققها محمد على بن عبد الرحمن العلوى إن هذا الحادث الأليم وقع فى سنة ٤١٣هـ وبناء على قول ابن كثير أنه وقع فى سنة ٤١٤هـ.

وفى سنة ٤٢١ حدث أن أحد ملاحدة الفرس (من البابيين) دنيئا جهنميا كسر جانبا من الحجر الأسود بضربة سيف، ولكنه ألصق بفضة خام وأحاطوا جوانبه الأربعة بحلقة فضية، وبعد مرور مائة وإحدى وخمسين سنة نزعه الشريف داود بن عيسى بن فليتة عند فتنته المفزعة وشيده وسواه السلطان مراد الرابع فى سنة ١٠٤٣هـ من جميع جوانبه بطريقة جيدة كما هو الآن، كما أن السلطان مصطفى خان هدم جدران جهاته الأربعة وبناها من جديد.

وبعد مرور مائة وإحدى وستين سنة يعنى فى سنة ١٢٠٤هـ عندما حدث ذلك الحادث المؤلم قد تكسر أحد جوانبه قدر إصبعين، إلا أنهم ألصقوه بلوكون الأسود دون أن يظهر الكسر.

(١) عجين من الكلس مع الزيت.

والسبب فى ذلك الحادث القتال الذى شب بين الشريف غالب وأخيه الشريف عبد الله، إذ قام قتال عنيف بين الشريف غالب وابن أخيه الشريف عبد الله فى التاسع والعشرين من شهر صفر الخير. وفى السنة المذكورة أطلقت من القلعة المدافع والبنادق مدة ثلاثة أيام فلم يؤذن فى داخل الحرم لثمانية عشر وقتا من أوقات الصلاة، ولم تصل صلاة جماعة فى تلك الأوقات المذكورة.

وقد أصابت رصاصة الحجر الأسود فى أثناء ذلك الحادث وكسرت منه قطعة قدرها ثلاثة أصابع وأسقطتها، فألصقت القطعة المكسورة بمادة لوكون، وفى سنة ١٢٥٩هـ أمر السلطان عبد المجيد بإدخال الحجر فى ظرف فضى وأعاد تصليح مادة اللوكون بشكل جيد، وإلى الآن فالحجر الأسود على هذه الحالة، ولما كان قد ألصق بمهارة ودقة لا يفرق الإنسان إذا كان ملصقًا أم غير ملصقٍ، وهيئة الحجر مربع قريب إلى الاستدارة وحجمه أكبر من شبر وأوسع.

* * *

معلومات دينية عن الحجر الأسود

إن الحجر الأسود الشهير حجر خرج من خزانة الجنة، وهو ياقوت مشع ويقال إنه عندما أنزل على وجه الأرض كان مضيئا وعدوا حدود الحرم الميمونة هى المناطق التى كان يضيئها.

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيبعث الحجر الأسود يوم القيامة بلسان وعينين، وسوف يشهد الحجر الشريف بالخير للذين استلموه بإخلاص ونية صافية، وبالشر للذين استلموه مستهزئين.

إن لمس الحجر الأسود والركن اليمانى يمحو الخطايا، وإن هناك بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود باب من أبواب الجنة، بناء على قول الحسن البصرى (رحمة الله عليه)، وكل من يدعو بين الركنين يستجاب دعاؤه، كما أن تحت ميزاب الرحمة مكان يستجاب فيه الدعاء.

وبناء على بعض الأقوال أن بجانب الركن اليمان ملكين، وبجانب الحجر الأسود عدد لا يحصى من الملائكة، وإنهم مأمورون بقول آمين لاستجابة دعاء الداعين، وثابت بالحديث أن بين هذين الركنين قد دفن ٩٩ نبيا، وأن ذلك الموقع روضة من رياض الجنة.

كان الحجر الأسود فى الأصل ملكا. وعين ليمنع آدم ـ عليه السلام ـ من أكل ثمرة الشجرة المنهية وأن يصونه. وقيل له «إذا أراد أن يتناول من هذه الشجرة فَنَبِّهْهُ بأنه منع من أكل ثمرة هذه الشجرة» وبينما شغل ذلك الملك بمشاهدة عجائب الفراديس وجمالها، أكل آدم ـ لحكمة ما ـ من ثمرة تلك الشجرة وأخرج من الجنة.

وعقب ذلك وجه إليه العقاب الربانى مثل الصاعقة: «يا أيها الملك كنت سببا

فى خروج آدم من الجنة» فتجمد الملك من شدة خوفه حجرا ثم أرسل إلى وجه الأرض.

قد كتبت هذه الرواية مترجمة فى تاريخ خميس، ويؤيد هذه الرواية الحديث الشريف الذى يقول بأن الحجر الأسود سيبعث ملكا ذا عينين، عندما خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلاق العالم ـ الأرواح، خاطبها قائلا: ألست بربكم، وأسرعت الأرواح المخاطبة للإجابة قائلة: بلى، وهذا ثابت عند عموم الناس ومصدق.

وحينئذ خلق نهرًا باردًا أحلى من العسل، وأمر بأن تكتب حجةٌ تتضمن إقرار واعتراف الأرواح التى قالت بلى، واتخذ قلم القدرة الإلهية النهر السالف الذكر مدادا، وكتب نتيجة إقرار الأرواح، ووضعت تلك الاعترافات فى داخل الحجر الأسود وعبئ بها. واستلام الحجر الأسود الآن تصديق بذلك الإقرار الأزلى ويذكر به. لأجل ذلك قال الإمام الباقر فى أثناء استلام الحجر: «اللهم أمانتى أديتها وميثاقى وفيت به ليشهد لى عندك بالوفاء» وهكذا أيد إقراره الأزلى.

كان لون الحجر الأسود حينما نزل على الغبراء ناصع البياض نقيا لامعا، ولكن أخطاء البشر المستمرة، ولمس واستلام النساء الحوائض للحجر؛ أدى إلى تغير لونه فأصبح حالك السواد.

قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه: «إن جبريل عليه السلام حمل جوهرة الحجر الأسود من خزانة الجنات، كلما كان ذلك الجوهر الحجرى فى نفوسكم يزيد الخير والبركة... فلتحذروا أن تستهزئوا به وتحقروه وإلا فجبريل ـ عليه السلام ـ يرفعه من هنا ويوصله إلى مكانه القديم». وهكذا كان ينصح أهل مكة ويبين لهم مزيته وعظمته.

وفى الواقع أن ذلك الحجر غاب فترة ما فى عهد الجراهمة والعماليق والخزاعيين، وعندما ترك مضاض بن عمرو بن الحارث الجرهمى حكومة مكة الله المعظمة لأحفاد بنى إسماعيل، وتفرق مع قومه فى البلاد المجاورة، أخرج حلية جمال كعبة الله، الخال الأسود، الحجر الأسود من مكانه ورماه فى بئر زمزم.

إن الروايات التى ذكرت ابتداء من اللاحقة كلها صحيحة؛ لأنها نقلت بالأحاديث الصحيحة والأسانيد الموثوقة ولا شك فى ذلك.

استطراد:

إن مضاض بن عمرو بن الحارث الذى رمى الحجر الأسود فى بئر زمزم هو الثانى عشر من الملوك الذين حكموا القطر الحجازى، وأول من تربع على العرش من ملوك الجراهمة هو جرهم بن قحطان بن عابر. بينما كان يعرب أخوه يحكم فى اليمن مكان أبيه استولى جرهم على أرض الحجاز.

وانتقل حكم البلاد الحجازية للجرهم السابق الذكر وبعد وفاته لابنه (عبد يا ليل) وبعد ارتحاله إلى (جرشم) بن ياليل وبعد وفاته إلى (عبد المدان) بن جرشم بعده إلى (ثقيلة) ابن عبد المدان وبعد وفاته إلى (عبد المسيح) بن ثقيلة، وبعده إلى (مضاض) بن عبد المسيح، وبعده إلى (عمرو) بن مضاض، وبعده إلى أخيه (حارث) بن مضاض، وبعده إلى (عمرو) بن حارث، وبعد وفاته إلى أخيه (بشر) بن الحارث، وبعد وفاة بشر إلى (مضاض) بن عمرو بن الحارث، وانتقل حكم الحجاز فى عهده إلى أيادى الخزاعيين الغالبة.

عجيبة

يحكى أن المستعصم بالله البغدادى كان يملك حجرًا أسود، وأنه كان يجعل الناس يزورونه وكان بجانب ذلك الحجر كمرا، وكان ذلك الحجر فى حجم الحجر الأسود وشكله، وكان الكمر الذى بجانبه مستورا بستارة سوداء مصنوعة من قماش الأطلس.

وكان من آيات نخوة المستعصم أن من كان يريد أن يقابله من السلاطين والملوك لا يلقاه أحدهم قبل أن يزور ذلك الحجر، ويقبله كما يزورون الكمر المستور. وقد أرسل فى عهد آتابك سعيد مظفر الدين أبو بكر قاضى القضاة مجد الدين واسمه إسماعيل إلى المستعصم حاملا رسالة له، وفى اليوم الذى حدد للقاء الخليفة طلب منه أن يزور الكمر والحجر ويقبله مستلما، ولما كان مجد الدين رجلا تقيا فى غاية التقى وزاهدا أراد أن يعود دون لمس الحجر ورؤية

المستعصم، إلا أن رجال الدولة رجوه ألا يفعل، فدخل عند المستعصم حاملا فى يده مصحفا ووضع المصحف فوق الحجر وقبله وهكذا أدى رسالته.

نقل الحجر الأسود إلى ديار هَجَر

انتزع ملاحدة القرامطة الحجر الأسود من مكانه فى ركن الكعبة المعظمة سنة (٣١٧هـ)، وحملوه إلى ديارهم وأعادوه فى سنة (٣٣٩هـ) إلى مكانه.

كان القرامطة قد أخذوا الحجر الأسود ظانين أنه مغناطيس البشر، وأرادوا أن يجذبوا إليهم الناس، ولما سئلوا عن سبب ذلك قالوا: أخذنا الحجر الأسود مأمورين وأعدناه مأمورين إلى مكانه بشرط أن يكون فى المكان الذى وضعه فيه خليل الرحمن.

وقد رأيت أنا المؤلف الفقير أن الحجر الأسود يجذب البشر - رؤية عين - رأيت أن العربان الذين يقطنون فى أطراف مكة ونواحيها يفرون إلى مكة فجأة، وكلهم يقبلون على طواف كعبة الله والسعى قبل مضى الحجاج إلى عرفات ببضعة أيام ولسان حالهم يقول:

كـأن الحجـر الأسود فى وجه الكعبة خالا

أنـا حـاج لتقبيلـه أسعـى إليهـا حـالا

ويقتحمون المكان بقوة لتقبيل الحجـر الأسود ولمسه، فى حال يظن الرائى من بعيد أن كثيرا من رءوس الناس تسير فوق العربـان، ثم إن العربان يرضون أن يموتوا دون العودة من غير تقبيل الحجر الأسـود، أى لا يرضـون بالاستلام فقط، أليس هذا كافيا للدلالة على أن للحجر الأسود خاصية جذب النـاس، ومن يريد أن يرى قوة جاذبية الحجر الأسـود للناس رؤية العين يقتضى أن يكون فوق المحفل الخاص بمؤذنى الشافعية، والكائن فوق مبنى بئر زمزم حينما يفد البدو.

تقول كتب التاريخ وهى تحكى كيفية نقل الحجر الأسود إلى بلاد هجر: قد ظهرت حركة القرامطة فى عهد هارون الرشيد أو المأمون، وعلى قول المقتدر بالله كما سيوضح فيما بعد، ظهرت فى هجر وتجرءوا بعد ذلك تدريجيا على الإضرار

بممالك الشام والعراق والحجاز، إن رئيس هذه الطائفة الباغية الضالة الشقية أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد جنابى، بنى بيتا للضلال فى ناحية هجر[1] فى سنة ٣١٣هـ أو على رأى آخر فى سنة ٣٠١هـ.

وسمى هذا البيت «دار الهجرة» وأراد أن يصيب سوق كعبة الله بالكساد بتحويل طريق الحجاج إلى ناحية هجر، وابتدر للاستيلاء على مكة المكرمة بمن تجمع حوله من الأشقياء الخبثاء، ودخلوا حرم الله دار الأمن على حين غفلة فى يوم الأحد الذى يوافق يوم التروية فى سنة ٣١٧هـ وقتل ثلاثين ألفا[2] من أهل مكة، ومسلمى البلاد الأخرى الذين كانوا فى أرض المطاف والمسجد الحرام داخله وخارجه، وخاصة فى داخل كعبة الله المعظمة، وبعد ما ألقى بأجسامهم فى داخل بئر زمزم وآبار مكة المكرمة الأخرى، ثم خاطب الناس بصوت عال: يا أيها الذين يعتقدون أن من كان فى داخل الحرم آمنا، انظروا لهذا الأمن والأمان، وماذا فعلت بكم؟ وأخذ ينهق مثل الحمار ويهذى بلسان الاستهزاء الملعون.

وفى أثناء ذلك أمسك أحد الموجودين الشجعان بزمام دابة أبى طاهر غير الطاهر وقال له: يا ظالم الله ليس معنى الآية الجليلة اللطيف ﴿ **وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**﴾ (آل عمران: ٩٧) كما تفهمه، وسكت أبو طاهر غير الطاهر عن الكلمة القذرة، ووجه مطيته نحو باب المعلى لكعبة الله ولم يستطع أن ينال ذلك البطل بضرر. ومع ذلك ازدادت جرأته درجة فدرجة فانتزع بيده - شلت يده - ألواح كعبة الله المزينة، ونهب ستارة بيت الله وما فى خزانة البيت من الهدايا الثمينة، ووزعها على جنوده الضالين وأمر أحد القرامطة أن يصعد فوق سطح الكعبة لينزل الميزاب الذهبى، ولما رأى أنه قد أسقط على الأرض بسهم أطلق من جبل أبى قبيس أمر بصعود قرمطى آخر.

واللعين الذى صعد فوق سطح الكعبة فى المرة الثانية وقع رأسا على عقب وهلك، وحينئذ عرف اللعين أنه لَنْ يستطيع أن يقتلع الميزاب الذهبى، وأخذ

(١) الاسم الآخر للهجر البحرين.

(٢) قتل الف وسبعمائة منهم محرمين يطوفون بالكعبة.

يبحث عن حجر مقام إبراهيم ولما لم يجده غضب أشد الغضب، وخرب مبانى بئر زمزم والمبانى الأخرى من الحرم الشريف، وبعد العصر اقتلع الحجر الأسود الأمانة الكبرى وفى يوم الثامن من دخوله فى مكة المكرمة، وعلى قول فى اليوم الحادى عشر منه ثم مضى متجها نحو هجر.

وفى هذا العام لم يستطع أحد أن يكمل حجه ذاهبا إلى عرفات غير بضعة من الذين آثروا الموت غير مهتمين بالحياة.

ولما وصل ذلك الملعون إلى هجر زاعما أنه قد حقق أمله كتب إلى عبد الله المهتدى من الملوك الفاطميين يخبره بما فعل، ويعرض تبعيته له ويذكره فى خطب الجمعة متقربًا منه، ولكنه تلقى منه الرد الذى يستحقه والذى قال فيه: واعجبا، إنك ارتكبت فى بلد الله أنواع الفضائح، ثم اقتلعت الحجر الأسود من مكانه وأخذته معك إلى ناحية هجر فى جرأة بالغة، إنك قد هتكت وأزلت ستارة الكعبة الشريفة التى ظلت معززة ومكرمة منذ العصر الجاهلى، ومع هذا تريد أن تذكرنى فى خطبك ألا فليلعنك الله.

وحينما تلقى منه هذا الرد أعلن عصيانه عليه أيضا، واحتفظ بالحجر الأسود فى هجر اثنين وعشرين عاما إلا أربعة أيام؛ رغبة فى أن يتوجه الحجاج إلى هناك لأجل الزيارة، ولكنه تعرض لحكم القضاء الذى يقول «الجزاء من جنس العمل» إذ أصابه مرض الأكلة(١)، وهلك وألقى فى حفرة البوار.

لاحقة

يروى أن من جملة أوامر أبى طاهر غير الطاهر بقر بطون الجثث وإخراج الأمعاء وملئها بالخمر بعد غسلها.

وقطع ألسنة الذين يطفئون القناديل قائلين «بوف» وإقرار اللواط بعدم الإيلاج بـ (فرطا)، وسحب الذين يولجون بالإفراط على وجوههم وسحلهم ما يقرب من أربعين ذراعًا، وقتل الشبان الذين يمتنعون عن اللواط وتعظيم الزنا.

---

(١) أكلة: مرض يطلقه الأطباء على السرطان وهذا المرض نوع من المرض مثل جرح ينتشر حوله حتى يهلك المريض.

إعادة الحجر الأسود

إلى مكة المكرمة

ولما رأت طائفة القرامطة بعد هلاك أبى طاهر أن أفكاره غير قابلة للتنفيذ، ولا تروج قرروا إرسال الحجر الأسود مع شخص يسمى ثبير، أو سنبر بن الحسين إلى مكة المكرمة، وعرضوا الأمر على ثبير ونال ذلك القرمطى شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه، إذ وصل إلى مكة فى يوم النحر بعد أن كان قد بدأ رحلته فى أواخر سنة ٣٣٩هـ.

قد سر المكيون أعظم سرور بوصول الحجر الأسود، ووضعوه فى داخل كعبة الله خوفًا من حدوث فجيعة أخرى، وبعده أعدوا طوقًا فى ثقل (٣٠٣٧) درهما ووضعوا الحجر فى مكانه القديم.

وكان السلطان عبد الحميد خان قد جدد ذلك الطوق ومازال عليه طغراء السلطان المشار إليه.

قصة غريبة

قال: ثبير بن الحسين الذى أحضر الحجر الأسود إلى مكة عندنا حجارة سوداء كثيرة فاختاروا من هذه الحجارة حجرًا أسود لكعبة الله. ووضع على الأرض بضعة من الحجارة السوداء، وكانت هذه الحجارة تشبه بعضها بعضا بحيث لا يمكن لإنسان أن يفرق بينها قيد أنملة. لم يستطع أهالى مكة أن يفرقوا بين تلك الحجارة وعرضوا الأمر على أحد الكرام.

وطلب ذلك العالم أن ترمى جميع الحجارة فى داخل حوض الماء، فرسبت جميع الحجارة فى القاع إلا حجر، أخذ يطوف فوق الماء وقال عندئذ هذا هو الحجر الأسود صنوا الجواهر الذى نريده، فأشار بإصبعه إليه، وإذا بالقرمطى ثبير كان قد وضع علامة على الحجارة الأخرى، وقد عاين الحجر الذى اختاره العالم الجليل ثم قال نعم هذا هو الحجر الأسود الذى نقله أبو طاهر إلى بلاد هجر، لأننى كنت وضعت علامة فوق الحجارة الأخرى.

حكمة

بينما كان القرامطة ينقلون الحجر الأسود إلى بلادهم التى يسمونها هجر، قد نفق تحت نقل الحجر الأسود (٣٠٠) جملا قويا فى مقتبل العمر أو (٥٠٠) جمل بناء على رواية أخرى. وعندما أعاد ثبير بن الحسين الحجر كان قد حمله فوق جمل نحيل ضعيف، لم يمت من شدة التعب، بل إنه لم يتعب وسمن وتضخم.

وكان العباسيون لم يستطعيوا أن يردوا الحجر بالحرب مع القرامطة، وأرادوا أن يعيدوه بدون حرب واعدين أبا طاهر بخمسين ألف دينار، إلا أن هذا الملعون الملحد لم يقبل ذلك، ولكن أعوانه حملوه بدون أن يأخذوا شَرْوَى نقير (والله على كل شىء قدير).

مظالم القرامطة الخبثاء وجرائمهم

أول من خرج من طائفة القرامطة هو الملعون «أبو سعيد بن بهرام جنابى. ويقول الذين يعرفوننا كيف ظهر هذا الرجل وأين أوقد نار الشر أولا. إن صاحب مذهب القرامطة ومخترعه هو الخنزير يحيى بن زكرويه، إذ جاء هذا الرجل فى سنة ٢٧٨ أو ٢٨٩ إلى بلدة القطيف[١]. ونزل ضيفا عند على بن يعلى من أعيان البلدة، وأسر له أنه مبعوث من قبل الإمام محمد المهدى، وأن وقت ظهور هذا الإمام قد اقترب وأخذ يدعو أهالى القطيف وسكان الناحية، واستطاع أن يَضُمّ إليه بعض الجهلة والحمقى من سكان القطيف وسكان ناحية البحرين ويخدعهم، وكما استطاع أن يضم إلى مذهبه أبو سعيد الجنابى من كبار شيوخ القبائل واختفى بعيدا عن العيون.

ثم ظهر مرة ثانية وهو يحمل خطابا مزيفا من قبل الإمام المهدى يتضمن أنه قد أمر بدعوة الناس إلى مذهبه، وأن يأخذ من كل واحد ممن اتبعوه مبلغ ستة

(١) القطيف بلدة فى الجهة الشمالية من مدينة الإحساء وعلى بعد ست مراحل من البصرة، وعلى ساحل الخليج العربى.

دراهم وأربع دوانق[1]، وبعد أن استطاع أن يدخر بهذه الخدعة مبالغ كبيرة من النقود اختفى فترة أخرى، ثم ظهر مرة أخرى وفى هذه المرة أظهر لأتباعه رسالة مزيفة أخرى من قبل الإمام، حيث أمره بأن يأخذ من أتباعه خمس أموالهم ويسلمها له، واستطاع أن يحصل على أموال كثيرة من جميع الأنواع.

واستضيف فى هذه الفترة من قبل أبى سعيد الجنابى حيث حل فى داره المنكوبة، وأراد أبو سعيد أن يكرمه غاية الكرم فأنامه على فراش واحد مع زوجته وقبل أن يكون ديوثا.

وعندما شاع خبر احتفاء أبى سعيد بيحيى بن زكرويه غاية الحفاوة حتى قدم له زوجته لتنام معه فى فراش واحد وغيره من مراسم الإلحاد والإباحة وأخذ الناس يتناقلون سيرته، استدعى يحيى بن زكرويه من طرف رجال الحكومة وأذل وحقر، وبعد فترة طرد من حدود البحرين بعد أن نكل به.

إن هذ الملحد ذو المزاج الكلبى حط عصا ترحاله من بلاده بنى كلاب وحرص على نشر مذهبه الباطل بينهم وزادت قوته بعون بعض الناس والأقوام، فاستولى على أطراف الشام وسفك دماء المسلمين وهتك أعراض نساء الموحدين.

ووصل إلى ذروة البغى والشقوة بارتكاب المظالم والفساد، وعندما وصلت قوة ابن زكرويه وشوكته إلى درجة ترهيب خلفاء بغداد أخذ يكر على دمشق بالشام بدون توقف، وهزم الفرقة العسكرية التى واجهته بقيادة طغج بن جف[2] شر هزيمة، وحاصر دمشق الشام فى سنة ٢٩٠هـ، وإن كان الجيش الذى سيق من الشام قتل ابن زكرويه؛ إلا أن أخا زكرويه حسين حمد تولى القيادة، واستنجد بكثير من القرامطة وشدد الحصار على دمشق، وفى النهاية انسحب بناء على رجاء الأهالى وطلبهم بعد أن أخذ مبالغ كبيرة من النقود، ولكن عندما انسحب من دمشق هجم أتباعه قوائم الحشرات على حلب واستولوا عليها فى

(١) الدانق جزء من ستة أجزاء من الدرهم.

(٢) كان طغج بن جف أمير بلدة دمشق بالشام.

الحملة الأولى. وأعلنوا أن اسم صاحب الشام أمير المؤمنين للعهد، وبناء على التعليمات التى تلقوها أمروا بأن يذكروا اسمه فى خطبة الجمعة.

وبعد هذا النصر اتخذ صاحب الشام ابن عمر عبد الله وليا للعهد، وسماه المدثر وادعى أن المدثر الذى ذكر فى القرآن هو عبد الله الذى سبق ذكره، وأراد بهذه الطريقة أن يخدع الناس ويبسط سطوته ويوسعها إلا أنه لم يوفق.

وهجم صاحب الشام بعد ذلك على حماة بعد حلب والمدن والقرى التى حولها، وأخذ يقتل كل من يصادفه من الأهالى مع أولادهم وعيالهم، وأخيراً وصل إلى بلدة سَلَمْيَة التى استسلم سكانها دون أن يدافعوا عن أنفسهم فقتلهم جميعا حتى تلاميذ المدارس الصغار(١).

لما أزعج ما يرتكبه صاحب الشام من المظالم والغدر مسامع المكتفى بالله البغدادى فتحرك بما جهزه من العساكر الكثيرة من بغداد وتوجه إلى بلد الرقة.

ومن هنا وجه جنوده جف وفرق القرامطة، وتقابل البغداديون مع القرامطة فى مكان يبعد عن حماة اثنى عشر ميلا وبدأت حرب ضروس.

وإن كان القرامطة هربوا من شدة صولة البغداديين غير قادرين على صد هجومهم إلا أن جنود بغداد لم يتعقبوا فلولهم المنهزمة وقبضوا على صاحب الشام وكذلك ولى عهده المدثر(٢) وسلموهما للخليفة الذى كان ينتظر النتيجة.

بعد ما قضى جنود الخليفة تماما على القرامطة عاد منصورا إلى بغداد حيث صلب صاحب الشام مع رفقاء له وشهر بهم فى سنة ٢٩١هـ. إن فرقا من القرامطة الذين نجوا من سيوف البغداديين تربصوا فى طريق العراق، وكانوا يسيرون ليلا منها ونهارا، ويهاجمون المارين وعابرى السبيل ويسببون لهم خسائر كبيرة، وكانوا يختفون من الجيوش التى أرسلتها حكومة بغداد فى أماكن خفية.

إن هذه الفرقة الخبيثة قد هاجمت قافلة حجاج العراق فى سنة ٢٩٤هـ،

(١) انظر: تاريخ الطبرى ١٠/ ١٠٠.

(٢) المدثر هذا كان عبد صاحب الشام وهو رومى الأصل.

وقتلت ما يقرب من عشرين ألفا من الأبرياء ونهبت أموالهم. ولما علم المكتفى بالله بهذا الحادث المفجع جهز فرقة عسكرية وساقها ضد الفرقة الحقيرة فتعقبت الفرقة البغدادية القرامطة، وأسرت كثيرين منهم مع قوادهم بعد ما قهرت ودمرت الباقى، ولما كان القائد[1] المأسور للفرقة الباغية جريحا مات متأثرا بجرحه بعد ستة أيام.

بعد ما مات صاحب الشام انتقلت قيادة جماعات القرامطة عامة إلى أبى سعيد بن بهرام الجنابى الذى بدوره جهز أفراد الجماعة الخبيثة، وجمعهم وأخذ ينشرهم كالجراد حول بادية الشام وفى الحروب التى كانت تقوم بينهم وبين الجنود الذين ترسلهم حكومة بغداد ينهزمون أحيانا وينتصرون أحيانا.

وتفرقوا إلى فرق صغيرة وتكاثروا، وأخذوا يقتلون الناس كلهم حيث تطأ أقدامهم. حتى إنهم فاجأوا قافلة من القوافل الحجازية بالهجوم وأعملوا سيوفهم فى أفرادها حتى قتلوا عشرين ألفا من المسلمين، ولم يبق نفر يتنفس.

وقد زاد بعد هذه الفاجعة صاحب الشام من غدره وظلمه حتى استطاع أن ينتزع بلدة القطيف من يد العباسيين بنباح كلاب الإلحاد والإباحة، ثم نهب البحرين ونواحيها وأخذ يتجرأ فى إهانة أهل الإيمان فى صورة مستهجنة.

واستولى على البصرة وملحقاتها وأصبح واليا على حشرات الشقوة التى دخلت فى دائرة الرفض والإلحاد، ووسع دائرة الإباحية و الخيانة[2].

الاستطراد

البحرين مدينة غاية فى المتانة والاستحكام وتقع فى غرب جزيرة البحرين التى تقع فى خليج البصرة فيما بين خطوط الطول ٤١ درجه و ٥ دقائق شرقا، وخط العرض ٢٦ درجة و٢٠ دقيقة شمالا، بطول ٢٥٤ ميلا و٧٠ ميلا من الجهة

(٢) المقصود به صاحب الشام.

(١) راجع فى أخبار القرامطة: تاريخ الطبرى ١٠/ ٢٣ ـ ٢٧، ٦٤، ٧١، ٧٥، ٧٦ ـ ٧٩، ٨٢، ٨٦، ٩٤، ٩٥ ـ ٩٧، ٩٩ ـ ١٥٥، ١٢١ ـ ١٣٣.

الشرقية الشمالية لمكان يسمى لا شر، ويحدها شرقا بحر الفرس، وشمالا إقليم البصرة، وغربا نجد العارض، وجنوبا عمان وسكنتها من سلالة عبد قيس.

وبما أن الأنهار والعيون تكثر فى هذا الموقع تَتَزَيَّنُ أطراف أنهارها بأشجار الحنة والقطن والسوسن، وكل مكان يحفر فيه قدر ذراعين يخرج منه الماء، ومن يشرب ماءها تصفر ملابسه، وفى هذه البلاد فاكهة مختلفة ولاسيما البلح والأرز متوفران، والسكان يذهبون للتنزه فى الأيام الحارة للحدائق التى تبعد ما يقرب من ميل واحد. فى هذه البلاد رمال متحركة، والتى يطلق عليها بحار الرمال، وما يرى هناك اليوم جبال تراه فى يوم آخر أرضا منبسطة، وما كان اليوم معمورا تراه فى الغد خرابا.

والطريق الواسع الذى يبدأ من البحرين تطمسه الرمال فيستحيل السير فيه، لذا يذهب الناس ويأتون عن طريق البحر.

كان البرتغاليون قد استولوا على ممالك البحرين قديما والآن فى يد الشيخ «أبو شهر» ومع هذا فلا يطلق البحرين على الجزيرة فقط بل يطلق على الجزر الأخرى التى تحيطها، والتى يستخرج سكانها اللآلىء من البحر، وهناك إقليم يمتد إلى الغرب ويطلق عليه البحرين أيضا، وذلك لاتصال البحيرة التى بالقرب من الإحساء ببحر الفرس. انتهى.

بينما كان أبو سعيد يخرب القرى والبلاد لنشر مذهب الإلحاد ساق المقتدر بالله العباسى الذى كان خليفة فى تلك العهود عددا من الجنود بقيادة «عباس بن عمرو الغَنَوِىّ» ليفرق جمع أبى سعيد. وانتصر أبو سعيد عليهم وأسرهم جميعا ثم قتلهم جميعا، وأبقى عباس حيًا، وقال: يا عباس إننا القرامطة أناس نعيش فى الصحارى والفيافى ونقنع بالقليل لأنا لسنا طامعين فى الاستيلاء على البلاد، فإذا جمعت جميع جنودك وسقتهم على، أقسم بالله بأننى أنا المنتصر، إن جنودنا يتحملون المشاق ويعتقدون أن حياة الرفاهية حرام، قد تعود جنودكم على قضاء أوقاتهم فى راحة ورغد عيش والتَّنَعُّمَ بما طاب من الطعام ولذ فى ظل الخليفة،

فإنهم لا يستطيعون القتال، فإذا ما خرج جنودكم فى الصحارى تاركين راحتهم يموتون مثل السمك الذى خرج من الماء.

والعساكر الكثيرة الذين سقتهم علينا مثل النمل قد أصابهم التعب والضعف منذ خروجهم من بغداد، وانهزامهم فى أول حرب أكبر دليل يؤيد رأيى، إذا ما أرسلتم جنودا أشجع ممن أرسلتم وأكثر مما سأجهزه أنا من العساكر فإننى أهرب من أمامهم بعد أن أتعبهم، كما أننى أتصدى لهم فى مضيق ضيق فأقطع خط رجوعهم، وأهزمهم وأولى بكم ألا تشغلوا أنفسكم بى، ولا تهلكوا جنودكم عبثا، وقد حقنت دمك حتى توصل هذه الأقوال بالتفصيل إلى الخليفة، دون أن تنقص منها كلمة ثم أطلق سراحه وخَلَّى سبيله.

وقد عاد عباس بن عمرو الغنوى إلى بغداد وهو فى شدة الحيرة من نجاته من يد أبى سعيد. ولما أبلغ عباس ما قاله أبو سعيد إلى المقتدر بالله بالتفصيل خاف الخليفة، واضطرب ولم يستطع أن يذكر اسم القرامطة بلسانه مدة طويلة.

ومع هذا استطاع أن ينقذ أهالى الكوفة من اعتناق مذهب القرامطة، إذ ظهرت جماعة من القرامطة وأخذوا فى إضلال الناس فى الكوفة، وبعث الخليفة بجنود من مركز الخلافة وقوة عسكرية قضت على هذه الجماعة.

وانتقل أبو سعيد فى سنة ٣٠١هـ إلى دار البوار[(١)] بعد أن ارتكب كثيراً من الجرائم إلى تلك السنة تاركا ميدان الخباثة والشقاء إلى ابنه الكبير سعيد.

وتولى ابنه سعيد مكانه بعد وفاته، إلا أنه ما كان يشبه أباه فى إلحاق الأذى بالناس، فتولى تدبير الأمور ابنه الأصغر سليمان أبو طاهر، وكان ظلوما غشوما سفاحا، فاستولى على الإحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين ونواحى هجر، وبعد أعوام عشرة أغار ليلا على مدينة البصرة، وأثناء مقامه فيها سبعة عشر يوما قتل كل من صادفه، وأعمل السلب والنهب فى الناس جميعا، وكان ذلك عام ٣١١هـ، وبعد عام من تلك الواقعة المؤلمة أغار على قافلة الحجاج ونهبها.

(١) يقول الذين يروون كيفية هلاك هذا الرجل: كان أبو سعيد قد دخل الحمام فى خلال السنة المذكورة فضربه أحد خدمه الذى عانى من سوء معاملته على رأسه بفأس وقتله.
إن هذا الخادم بعد أن قتل هذا الخبيث قتل أربعة من رؤساء القرامطة ولما شاع هذ الخبر قتل هذا الخادم.

وكان يسلك الذكور والإناث فى السلاسل على نحو بشع مهين، وألحق الهزائم بمن تصدى له من الجند وكان ذلك عام ٣١٢هـ، وبعد إغارة أبى طاهر على قافلة الحجاج هجم على معظم سواد الكوفة، وأعمل السيف فى الخلق فى ظرف ستة أيام، أقام فيها ونهب واغتصب كل ما وصلت إليه يداه فى سنة ٣١٣هـ.

وعندما عرض الأمر على المقتدر بالله استصوب أن يوجه ضد أبى طاهر فرقة عظيمة من الجيش بقيادة يوسف بن أبى الساج. كان يوسف فى ذلك الوقت فى أذربيجان، وبمجرد ما أخذ أمر الخليفة توجه إلى الكوفة بجنوده الذين كانوا مهيئين. وكان قوام جيش ابن أبى الساج أربعين ألفا، أما جيش أبى طاهر فكان ألف وخمسمائة جندى منهم سبعمائة فارس.

ودخل يوسف بن أبى الساج المغرور بكثرة عساكره، وحاصر القرامطة فى موضع حصين ووجه سفيرا برسالة إلى أبى طاهر ليحدثه عن كثرة جيشه، ويوصيه فيها بالدخول فى طاعة الخليفة. فقال أبو طاهر لأحد أتباعه اقتل نفسك بسلاحك من أجلى، وبعد أن افتدى هذا الكلب «أبا طاهر» بالروح، قال للرسول لقد رأيت بعينيك كيف يطيعون أوامرى!! قل ليوسف أن يستعد، وبإذن الله سأقبض عليه غدا وأربطه مع الكلب فى حبل واحد، وأشار إلى الكلب الذى كان مربوطًا بوتد خيمة.

وصرف الرسول وفى غد ذلك اليوم استطاع أنْ يقبض على يوسف بن أبى الساج مع أتباعه، وربطهم فى سلسلة ضخمة، وربط يوسف بجانب الكلب الذى أراه للرسول.

بعد أن كسب أبو طاهر هذه المعركة بهذا الشكل عبر نهر الفرات بثلاثمائة قرمطى، واستولى على بلدة الأنبار[1] التى تقع فى الجهة الغربية من بغداد دار

(١) الأنبار مدينة صغيرة فى الجهة الغربية من نهر الفرات، وكانت قديما مدينة عظيمة وبانيها بختنصر، ويقال إن أهل الحيرة نقلوا إليها، فى العام الثانى عشر للهجرة، وفتحها خالد بن الوليد - رضى الله عنه - فى خلافة الصديق - عليه رضوان الله - وفى عام مائة واثنين وثلاثين نقل أبو العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس إدارة الدولة من الحيرة إليها، إلا أن المنصور اتخذ الهاشمية ثم بغداد عاصمة للدولة.

الخلافة وفوقها بستين كيلو متر. استولى عليها بالقوة وهزم الجيوش التى أرسلت ضده مرتين، وقتل يوسف بن أبى الساج الذى أسره مع رفقائه، وهكذا ألقى الرعب فى قلوب الناس الفزعين، وبعد أن فرض على كل فرض من أهالى الأنبار خراجا دينارا توجه نحو الأراضى الحجازية المباركة بنية الاعتداء على مكة المكرمة، وهجم على المسجد الحرام وداس بقدميه المشئومتين حرم المسجد الحرام توأم الجنة كما سبق ذكره، وقتل ثلاثين ألفا من الأبرياء، وأكثرهم ملتفون بملابس الإحرام وبعضهم فى داخل كعبة الله، وبعد أن هدم مبانى ذلك البلد الغالية وخربها اقتلع الحجر الأسود وعاد إلى بلدة هجر فى سنة ٣١٧هـ.

وقد دامت نار شرور القرامطة مندلعة تتأجج من سنة٣٠١هـ إلى سنة ٣٧٣ هـ وفى رأى إلى عام ٣٨٤. استطاع فيها القرامطة إغواء كثير من الناس، وأدخلوهم فى زمرتهم ومذهبهم، وأغار هؤلاء على البلاد وقتلوا ونهبوا وهدموا، إذ خربوا الكوفة سنة ٢٧٨، والبحرين سنة ٢٨٦، والشام سنة ٢٨٩، ودمشق ٢٩٠، والشام مرة ثانية سنة ٢٩٣، والبصرة سنة ٣٠٧ هـ، والكوفة سنة ٣١٣، الأنبار سنة ٣١٥، وبعد ذلك بعام الرحبة والرقة والهيط، ومكة المعظمة سنة ٣١٧، ودمشق مرة ثانية سنة ٣٦٠ هـ، وهجموا على هذه البلاد وقتلوا سكانها وخربوا منازلها وأخلوا بنظام الأمن فى تلك البلاد.

واستأصلوا حجاج قوافل العراق فى السنين ٢٩٤ و٣١٢ و٣٥٥[١] و٣٦١[٢]، كما أنهم أغلقوا طريق بيت الله العتيق طريق الفيض والنور فى السنين ٣١٤ و٣٥٦ و٣٦٣ و٣٨٤، ووصلوا إلى الذروة فى فن الإجرام إذ منعوا أداء فريضة الحج مدة تسع سنوات لعنهم الله.

كيفية ظهور طائفة القرامطة

يروى المؤرخون على اختلاف آرائهم أن ظهور القرامطة كان فى عهد الرشيد أو المأمون، ولم يظهروا إلا بعد أن تشكل كيانهم، وكانوا قبل ذلك يفسدون

(١) وفى سنة ٣٦١ اتفق عربان بنى هلال مع القرامطة.

(٢) اتفق فى هذه السنة عربان بنى سليم مع القرامطة وأغاروا على قوافل مصر وقوافل الشام.

عقول البلهاء والحمقى وأهل الغفلة بضلالهم فى الخفاء، ثم وسعوا نطاق دعوتهم شيئا فشيئا.

وقد تضاربت الأقوال بعض الشىء فى أسباب ظهور القرامطة ومكان ظهورهم، وكيفية ظهورهم، كما وقع الخلاف فى تعيين وتحديد مبادئهم، وفى هذا أدلى كل واحد برأيه وقال قولته، وها هى ذى طائفة من المؤرخين الذين كدوا أذهانهم وأتعبوا أنفسهم يقولون: «إن أول من لوث الساحة من القرامطة كان رجلاً ادعى النبوة، واتخذ لنفسه كتابا زعم أنه من الكتب السماوية محاولا أن يصدقه الناس».

وقال بعض المؤرخين: «إن أول من أعلن وجوده من ملاعين القرامطة شخص ادعى هذا الشخص أنه من الأئمة الإسماعيلية، وأنه مرسل من قبل الإمام المهدى، وأراد أن يقنع الناس بما يدعيه».

ويهذه الرواية أو تلك يستبين لنا أن المذهب الذى نشره القرامطة وأشاعوه مذهب باطل، وأنه عبارة عن توصية للعمل بمبادئ الكفر والضلالة والإلحاد والإباحية، ولكننا لما رأينا أن الرواية الثانية أقوى دليلا وأمتن رواية رأينا أن نكتفى ببيانها.

سبب تسمية القرامطة بهذا الاسم

على نحو ما اختلف المؤرخون فى نشأة القرامطة وكان اختلافهم فى أصل تسميتهم، ففى بعض الروايات أن سبب تسميتهم بالقرامطة يرجع إلى من يسمى بأبى سعيد الجنابى القرمط، ذلك الملحد الذى سلك بهم سبل الضلال، وكان قصير القامة لا يدين بدين وكان يقارب بين قدميه فى السير، فسمى الذين اقتفوا أثره من الرفض والإلحاد والإباحة بقرامطة.

وفى رواية أخرى: كان رئيس هذه الطائفة قميئا كريه الخلقة، وكان يتجول من قرية إلى قرية لنشر دعوته، ولما بلغ قرية من قرى الكوفة اشتد به المرض فنزل بدار من يسمى «كرميتة» ومعناه ذو عيون حمراء، وراح فى سبات، ولما استيقظ وقام على رجله من مرضه سمى باسم صاحب الدار، ونودى بشيخ الكرامته وبعد ذلك خففت لفظة «كرميته» وعربت فصارت قرامطة.

وفى رواية ثالثة: أن عظيما من هذه الطائفة كان يكتب خطا دقيقا متقارب السطور، واشتهر بذلك أى كان مقرمط الخط، فسميت الطائفة المذكورة بالنسبة له قرمطى.

مذهب القرامطة وطقوسهم

وإن كانت طائفة القرامطة الملاحدة الخبيثة يعترفون بإمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ـ رضى الله عنه ـ وأعلنوا فى الظاهر انتماءهم لمذهب الإسماعيلية، ولكنهم فى الباطن كانوا يحلون المحرمات، ويسفكون دماء المسلمين، كما أنهم كفروا من ليس على مذهبهم، ومن كلمات الكفر التى تنسب إليهم قولهم: لما كان المنى أطهر من البول فلماذا يجب الغسل بعده ولا يجب بعد التبول؟

إن أداء الفرائض الخمس عندهم طاعة أئمتهم المعصومين، وإطاعة أوامر الذين يمنعون وينهون عن طريق الإلحاد والكفر والإباحة من غيرهم بعد البحث عنهم، والزكاة عندهم إعطاء الإمام خمس المال وفى رواية أخرى تزكية النفس بالتفوه بكلمات الإلحاد، «والصوم» عندهم حفظ أسرار المذهب وكتمها، والزنا عندهم إفشاء أسرار المذهب بدون مقابل، ومع هذا يدعون أنهم يقتدون بالملائكة ويخالفون الشياطين.

ويكنون بالوضوء عن محبة الإمام ومصاحبته، والاحتلام هو كشف الأسرار لمن ليس لها أهل، والكعبة والصفا كناية عن النبى، والمروة كناية عن باب على، والتلبية كناية عن إجادة المخاطب، والطواف كناية عن حب الأئمة كذلك، والجنة كناية عن الاستراحة من التكاليف الشرعية، والجهل كناية عن اختيار مشقة التكاليف الشرعية، يطلقون على حدة الذين ينسلخون عن الدين كليا «الخلع»، والخروج عن الدين «السلخ» والذين يصلون لهذه المرتبة يباح لهم جميع المحرمات، ولا شك فى أنهم يعترفون بالكفر والإلحاد.

ومن جملة معتقداتهم الباطلة استحلال شرب الخمر، وعدم الاغتسال بعد الجنابة، وحصر الصوم فى اليومين (فى يوم المهرجان والنوروز)، واعتبار الحج

إلى القدس فرضا، وإضافة قولهم (أشهد أن محمد بن الحنفية رسول الله). كل هذه من جملة اعتقاداتهم الباطلة.

وبناء على ما جاء فى تاريخ نظام الملك بالتفصيل: إن طائفة القرامطة الحقيرة أينما ظهروا وأينما امتدت نار شقاوتهم وأينما حلوا فى الآفاق ظهروا بأسماء مختلفة، فمثلا عرفوا فى حلب ومصر بـ« السبعية» وظهروا فى بغداد وما وراء النهر باسم «قرمطى»، وظهروا حول الكوفة باسم «مباركى» واستولوا على البصرة باسم «رونـدى، برقعى» وعلى الشام باسم «المبيضة» وذكروا باسم «سعيدى» عندما هجموا على أرض المغرب، والجنابى فى الإحساء والبحرين.

وفى أصفهان «الباطنية»، وأسماء «حرمية، بابكية ومحمرية» من الأسماء الخاصة بتلك الطائفة، وسبب تسميتهم بالحرمية لأنهم أحلوا المحرمات، و«بابكية» لأنهم اتبعوا أحد الخارجين الذى يسمى «بابك»، و«المحمرية» لأنهم ارتدوا ملابس حمراء فترة حينما اتبعوا «بابك».

والسبب فى عد القرامطة أنفسهم من الطائفة الإسماعيلية هو لعين اسمه «عبد الله بن ميمون» الذى كان من قرناء عبد الإمام محمد بن إسماعيل، والدنئ كان يسمى مبارك، وكان الإمام المذكور قد زار بغداد فى أيام هارون الرشيد.

وبعد ما مات الإمام محمد بن إسماعيل، أخذ عبده مبارك يتجول هنا وهناك حزينًا مغمومًا، ويسكب الدموع حيثما حل، وكان مبارك هذا حريصًا على أن يكتب بخط باربك فعرف بين أقرانه بقرمطى. وعرض عبد الله بن ميمون ـ سالف الذكر والذى كان من أفراد قبيلة أهواز ـ صداقته على مبارك، واستطاع أن يكسب ثقته بإظهار الصلاح والزهد ولازمه، بالتدريج استطاع أن يقنعه بأقواله.

وقال له يوما: «يا مبارك إن ولى نعمتك وسبب جاهك هو الإمام محمد بن إسماعيل كان صديقى الذى يطلعنى على جميع أسراره، ويطلع على جميع أحوالى، وكم أطلعنى فى حياته على كثير من الأسرار، وكم من علوم لقننى، هذا ما لا تعرفه أنت، ولا من كان متصلا به» وانخذع مبارك بأقوال عبد الله وصدقه، وطلب منه أن يعلمه تلك الأسرار والعلوم فعلمه حروفا معجمة،

وكلمات غير مسموعة وكلمات من أقوال الفلاسفة والأئمة، فمضى مبارك إلى الكوفة وعبدالله إلى كوهستان وأطراف العراق حيث أخذا ينشران طقوس الإباحة[1].

صورة ترتيب الفقهاء

يختار مجلس الشورى الذى ينعقد تحت رياسة شريف مكة عبد الله باشا الفقهاء الذين سيتم تعيينهم وإرسالهم إلى القرى، وفى هذا المجلس يوجد أشخاص يعلمون أحوال الولاة ووجهاء البلدة و السادات الأشراف وقبائل العربان.

هيئة الشورى:

بعد تحديد عدد القرى التى تحتاج إلى تعيين الفقهاء يتم انتخاب الفقهاء ويحول أمرهم إلى رأى رئيس العلماء ويقوم المشار إليه هو والهيئة التى معه بكتابة أسماء الفقهاء و انتخابهم ويقدمهم إلى الهيئة المحترمة.

ولو توفى أو استقال أحد الفقهاء الذين تم تعيينهم يتم تعيين فقيه آخر محله بواسطة رئيس العلماء أى أن تعيين فقيه آخر يتم بعد صدور الأمر من أمراء الولاية الجليلة وهيئة الشورى ولقد ذكر فى الجداول التالية أسماء الفقهاء الذين تم تعيينهم عام ١٢٨٥.

وهذا الجدول يوضح اسم القرى التى عين فيها الفقهاء والقبائل التى تسكن فى هذه القرى.

جدول الفقهاء

أسماء الفقهاء	أسماء القرى	أسماء القبائل	ملحوظـــــة
الشيخ عبد الرحيم باقيس	دار الغربة		من هذه الثلاث عشرة فى الجهة التى تقع فى ناحية مكة المكرمة من الطائف وعلى ثلاث ساعات منها وعلى سفح الجبل الذى يقال له جبل الفرا والذى يبعد عن مكة المكرمة خمس عشرة ساعة وعلى ظهر هذا الجبل موقع يسمى هدا والقرى المذكورة فى أطراف هذا الموقع وفى القرية التى تعرف بـ«دار البيضاء» مسجد أثرى.

(١) لمزيد من المعرفة انظر: العصر العباسى الثاني، للدكتور شوقى ضيف ص ٣٣ - ٤٢ (سلسلة تاريخ الأدبى العربى ٤).

الشيخ أحمد بن قاسم	مصر وحوله		
الشيخ مهدى اليمانى	الكمل النبى		
الشيخ عبد القادر المغربى	الخضرة		
الشيخ محمد مكى	دار البيضاء		
الشيخ محمد بن طالب	ملتوى		
الشيخ حمد المغربى	مبيريز		
الشيخ أحمد باوزير	مملكة		
الشيخ فخرى الصخرى	بنى صخرة	قريش	
الشيخ صالح باقيس	أعمق		
الشيخ محمد باعماد	غديرين		
الشيخ صالح السيفانى	شرقة	بنى خديله	
الشيخ عبد القادر باقيس	خليصة	خديلة	
الشيخ على المغربى	شريف		
الشيخ إبراهيم المغربى	قده		تقع هذه القرى فى جهات الشرق والشمال وعلى بعد ساعة أو ساعتين من الطائف.
الشيخ حامد المغربى	صفاه صد عين		
الشيخ محمد بن المهدى	غنامين نحاتين		
الشيخ عبد الرحمن الفقية	بلاد بن شريان		
الشيخ إبراهيم البكرى	عرج	عتيبة	
الشيخ أحمد العبادى	شرب		
الشيخ عبد الحفيظ الريبدى	عيلا		
الشيخ سفر بن سفر	جليل		
الشيخ محمود بن سالم المشولى	نخب		
الشيخ سعيد بن ناصر	مليسة	ثقيف قرآن	
الشيخ على بن قنا	سويد		
الشيخ قامد اليمانى			
الشيخ محمود المنصورى	مسجد الهادى		المسجد الهادى(١) ومثناه ووهط على بعد نصف ساعة من الطائف وفى مكان كثير المياه والبساتين وأهل الطائف يخرجون إليهما متنزهين. وهذه القرى تقع فى جهة الجنوب من الطائف وعلى بعد ساعتين أو ساعة منها. وبين قرية ال مقبل وقرية عبلة تمتد عشر قرى وتقع جهة الغرب بعد أربع أو خمس ساعات من الطائف ولها شهرة واسعة بالعقارب والحيات وقريتا زيما وسولة اللتين مسكنهما قبائل قريش.

(١) لما كان بانى هذا المسجد شخص يقال له هادى فالقرية معروفة باسمه.
وسيدنا عكرمة الصحابى ـ رضوان الله عليه ـ مدفون فيها.

لشيخ عبد العاطى أبو حربة	مثناة	بنى ثقيف	أول مرحلة بيات للمسافرين من مكة إلى الطائف والقرى الأخرى واقعة بجانب وادى فاطمة.
الشيخ سعيد بن على المخاوى	وهط		
الشيخ محمد بخروس	قلمة		
الشيخ عبد الواحد الحديدى	زوران	عتيبة	
الشيخ صالح بن سعيد	بسل		
الشيخ عبد اللطيف الحديدى	كلاخ		
الشيخ على بن محسن اليمان	دار الغنم	بنى ثقيف	
الشيخ نخيل الشمالى	صخيرة		
الشيخ سيف الدين اليمانى	بنى سالم	بنى سفيان	
الشيخ صالح بن عبيل	آل مقبل ، آل زايد	آل زايد	
الشيخ عيسى بن موسى	آل طول	شمالة	
الشيخ سالم بن عوض	آل ساعد	آل خديعة	
الشيخ غالب بن قارع	آل حجة		
الشيخ محمد رحيم	آل مساعد		
الشيخ على بن عمر المعامدى	آل عايشة		
الشيخ صالح بن سميح	بجيدى بنى عمر طلحات آل خالد		
الشيخ خالد اليمانى	زيما	عتيبة	إن معظم قرى قريش هذه جار ماؤها كثيرة منابت نخيلها بها أشجار الليمون والنارنج ومن ثم يخرج إليها أهل مكة للتنزه ولاسيما إلى تنسم طيب نسيمها وتتفاوت هذه القرى والقرى الأخرى فى حجمها ومدى استبحار عمرانها. فمنها ما يشمل ثلاثة أو خمسة أو عشرة منازل ومنها ما يضم أربعين أو خمسين منزلا وإن كان عدد سكانها وعمرانها فى تزايد وأكبر هذه القرى قرى: الدار البيضاء، ووادى فاطمة والحسينية وهق وأجواؤها أطيب من جوزيما وسولة ومضيق حسين، وشنابره فى السعدية والقرى التى تسمى شنابرة تلك تعد مقرا للأشراف والسادات.

الشيخ صالح بن جمال	سولة	فى وادى هرامز	
الشيخ عباد بن صالح	كفضيق		
الشيخ محمد بن أحمد موسى	حدا		
الشيخ أحمد العباس	هدا		
الشيخ عبد الرحمن الزبيدى	بلاد بنى	عند بنى ربيع	
الشيخ بشرى الحيرتى	عمر		
الشيخ زين العابدين جمال	عمر		
الشيخ صالح بن شعيب	برابر محمية		
الشيخ وهق بن رشيدان	حراجل	فى السعدية	
الشيخ أحمد الكليبى	الفرع		
الشيخ صديق بن عبد القادر	أبو شعيب		
الشيخ عبد الله باسميح	حميد		
الشيخ إبراهيم حسينية	الخادم		
	هنابرة		

الأثر الرابع عشر: باب الجرير

ويسمى كذلك (باب القفص) وهو الباب العالى المسمى باب النبى، وهو مكان يستجاب فيه الدعاء على حد قول أبى سهيل النيسابورى.

ولا يعرف الوقت الذى ينبغى فيه الدعاء فى هذا الموضع، ويقول الصالحون من الأسلاف: كلما سنحت الفرصة اذهب وادع بجواره.

الأثر الخامس عشر: بيت خديجة الكبرى السعيد

وهو فى سوق الصاغة الذى كان يطلق عليه زقاق الحجر، وكان يسمى زقاق العطار قديمًا، وكان دار خلوة رسول الله ﷺ.

وحين الهجرة النبوية وهب لعقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، وبعد ذلك أخذه معاوية ووسعه وحوله إلى مسجد، وفتح له بابا يؤدى إلى منزل أبيه أبى سفيان.

بيت أبى سفيان ذاك صار مستشفى للغرباء فى عصر السلطان عبد الحميد.
وقد حول بيت زوج الرسول خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ إلى مسجد

باسمها، وقد رممه الملك المظفر اليمانى والناصر العباسى وملوك الشراكسة المصرية، وملوك اليمن على هيئته القديمة.

وفى عام ٩٣٥ هـ عصر سليمان بن سليم عصر البر والإحسان رمم على هيئته القديمة، وأقيم عليه قبة عظيمة، وبنى فى داخله محرابان وفى سنة ١٠٤٣ جدد ما يستحق تجديده.

وكان داخل القبة التى أقامها السلطان سليمان فى سنة ٩٥٣هـ (١٤٤) قدما مربعا، وكانت كل جهة من جهاتها الأربع اثنى عشر قدما.

وولدت سيدة النساء فاطمة الزهراء (رضى الله عنها) فى الحجرة المنيرة التى تقع فى الجهة اليمنى من الدار السعيدة. ولأن مولد السيدة فاطمة ـ رضى الله عنها ـ كان فى تلك الحجرة المنيرة المتصلة بالجهة اليمنى من هذا البيت المسعود، فقد عين موضع مولدها فى وسط هذه الحجرة بحجر أبيض مستدير ناقص الشكل، ووضع فى كوخ مكتس بالخضرة.

إنه موضع مبارك تحت قبتين جميلتين فى تلك الحجرة العريقة، وطول هذا الموضع من الشمال إلى الجنوب ثمانية أقدام، ومن الشرق إلى الغرب خمسة عشر قدما. وقد حمى الكوخ الذى بنى لمشاهدة الموضع المنير الذى ولدت فيه السيدة فاطمة بما يقرب من ٣٥٧ عام، وذلك بفضل الإصلاحات والترميمات الجزئية التى كانت تجرى من آن لآخر، وبالرغم من ذلك تخربت تلك الترميمات، وبات من اللازم هدمها كلها، حتى أن جدران بيت خديجة ـ رضى الله عنها ـ أصبحت محتاجة إلى الترميم والإصلاح، وفى عام ١٢٩٦ حول أحمد أفندى مدير المسجد الحرام الكوخ المذكور إلى شبكة مصنوع من خشب الساج، وأصلح ما مست الحاجة فيه إلى الإصلاح من جدرانه المسقوفة، ووضع صندوقا فوق الحجر الأبيض الذى يشير إلى موضع مولدها، وغطاء يستر المكان من الحرير المزركش.

وأمام الكوخ المذكور جدار باهر الأنوار يرتفع بمقدار ذراع، ويتصل بهذا الجدار من جهة الجنوب بصفة، يعلو هذه الصفة حجر مدور يميل لونه إلى السواد، يقول بعض أهالى مكة المكرمة أن هذا الحجر هو الرحى التى كانت السيدة خديجة تطحن بها القمح.

ويتصل بالجدار الشمالى للمسجد الشريف حجرة مقدسة كذلك، ولما بات من المعلوم ـ من خلال آثار موثوقة الدلالة ـ أن هذه الحجرة كانت خاصة بعبادات النبى ﷺ وطاعاته، أشير إلى موضع سجوده ﷺ بحجر من الماس مسدس الشكل قطره كقطر إصبع اليد، ووضع هذا الحجر وسط المحراب.

الأثر السادس عشر: مولد النبى

بيت يقع فى الجهة الشرقية لمكة المكرمة وفى شارع شعب أبى طالب الذى يسمى الآن: شعب بنى هاشم وزقاق المولد.

وهى دار ميمونة تقع فى سوق الليل وكانت تُعْرَفُ فى عصر النبوة بـ «دار التابعة». ومن العادات القديمة أن يخرج العلماء والأعيان الكرام من المسجد ويذهبون إلى الدار المذكورة موقدين المشاعل والقناديل، وبعد إقامة مراسم الطاعة والعبادة يعودون إلى حرم كعبة الله.

ومن العادات المتفرعة من الحفاوة بمولد النبى أن يقوم الناس بعد عودتهم من دار مولد النبى بالوقوف خلف المقام الشافعى وأمامهم الشخص الذى يتولى رياسة الروم بالدعاء للسلطان، وبعد أن يلبس بعض كبار الحاضرين الخلع حسب قواعد المراسم يصلون صلاة العشاء ثم يعودون إلى منازلهم.

ولم تكن هذه العادة قائمة إلى عهد السلطان مصطفى خان الثانى ابن السلطان محمد الرابع ولم تكن تلك الاجتماعات تنعقد فيه، فلما أراد السلطان المذكور أن يستزيد من الغفران وأن ينال الشفاعة النبوية قام باستحداث هذه الاجتماعات

واتخذها عادة ميمونة، لأجل ذلك ينعقد فى مكة المكرمة فى الليلة السابعة عشرة فى رمضان اجتماعات عظيمة بغية تعظيم بعثة نبى آخر الزمان ﷺ، كما تجتمع جماعات كثيرة فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول للاحتفال بمولد رسول الله ﷺ، فى المدينة المنورة وفقا لرغبة السلطان.

ولعقد هذين المجلسين أمر السلطان بمنح ٣٣٠٠ قرش سنويا من ريع مقاطعة مصر للإنفاق على إقامة ذلك الاحتفال. وقد صدر ذلك الأمر السلطانى فى سنة ١١١٣هـ، واستمر إجراء ذلك الحفل الميمون والاحتفالات السنية فترة ما، والآن تجرى الاجتماعات فى ليالى الثانية عشرة من ربيع الأول لسبب ما.

ومازالت نفقات هذين الاجتماعين ترسل من الخزانة المصرية إلى يومنا هذا ومازالت الاحتفالات تجرى وفق ما ذكرنا آنفا.

وقد ذكرنا فى المقال الثالث من الفصل الحادى عشر من مرآة المدينة كيفية الاحتفالات بالمولد النبوى السعيد.

وكانت العادة المرعية بين أهالى مكة المكرمة فى ليالى رمضان أن يقرأوا القرآن الكريم فى صلاة التراويح. وكان الإمام الحنبلى يختم القرآن فى الليلة الحادية والعشرين من رمضان، وفى الليلة الخامسة والعشرين الإمام الشافعى، وفى الليلة السابعة والعشرين الإمام الحنفى، وفى الليلة التاسعة والعشرين الإمام المالكى فيختمون القرآن بعد تمام قراءته.

وكان أتباع الإمام الذى سيختم القرآن يزينون المسجد الحرام بمصابيح وقناديل وفوانيس مختلفة، ومازالت هذه العادة قائمة ولكنها لا تنحصر فى أئمة المذاهب الأربعة لأن الذين يريدون أن يختموا القرآن يتفقون فيما بينهم ويصلون فى جماعة منفصلة، ومع هذا تعقد مجالس عظيمة فى ليلة ختم القرآن الكريم.

وفيما مضى كانت تعقد المجالس فى ليلة ٢٧ من رمضان فى الجهة الشرقية

للحرم الشريف وأمام المحكمة الشرعية، ويقرأ دعاء ختم القرآن وعقبه يوزع على الحاضرين الكرماء الشراب الحلو ثم يتجهون إلى البيت المعظم حيث يدعون الله، ويحضر هذا المجلس الأشراف العظام والسادات الكرام والعلماء الأعلام، ويوزع نائب الحرم الشريف حلو الشراب، وفى أثناء الدعاء يظل باب الكعبة مفتوحا، ومازال هذا المجلس المشكور يجتمعون إلى الآن، كما سبق ذكره ومازالت تلك الإجراءات مرعية الجانب.

الأثر السابع عشر: سوق الليل

إنه مكان فى غاية اليمن والبركة لأن مولد النبى، والدار التى ولد فيها على كرم الله وجهه، ودار الصديق الأكبر فى هذه السوق وفى كل جهاتها آثار مباركة ظاهرة.

إن عينيك تنبت جنة من سوق المال ورافع الشوك من طريقه يعجب بالورد
تطلع الشمس التى تنير الدنيا منه كما امتلأت منه روضة الرضوان
ومن عجب أن هذا أصبح مقاما ومنزل قرص الشمس والبدر
إن منزل الزهرة فى هذا الشعب وهو على بعد قدم أو قدمين من الصديق
إن المشترى والشمس والقمر اقترن بعضها ببعضها الآخر
فهذه المحلة كلها مرتفعات ومنخفضات وفيها يهادى سرو الدلال

«فتوح الحرمين».

الأثر الثامن عشر: دار الخيزران

كان يعرف هذا المكان عند الأوائل من المسلمين بدار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى.

إن هذه الدار النيرة تقع فى الجهة الشرقية من جبل الصفا فى اتصال دار بنى شيبة وفى زقاق ضيق. إن هذا الموقع أفضل من كل الأماكن وأقدسها فى مكة المكرمة ما عدا دار أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها.

دار الأرقم:

هذا المكان المقدس هو المكان الذى كان يجتمع فيه النبى ﷺ مع تسع وثلاثين من صحابته خفية، قد تشرف عمر بن الخطاب باعتناق الإسلام فى داخل هذه الدار، واكتمل به عدد الصحابة أربعين صحابيا.

وانتقلت تلك الدار إلى ملكية والدة هارون الرشيد الخيزران[١] وقد اشترتها ولشدة تعلقها وحبها لهذه الدار اشترت الدور المجاورة لها وألحقتها بهذه الدار.

وانتقلت الدار بعد ذلك من يد إلى أخرى حتى وصلت إلى أشراف بنى حسن، وفى نهاية الأمر انتقلت إلى ملكية دفتردار مصر القاهرة إبراهيم بك، فأهداها إلى السلطان سليم خان الثانى عليه رحمة الله فجددها نجل ذلك السلطان وهو السلطان مراد خان الثالث على شكل مسجد فى سنة ٩٩٩هـ.

وحينما أراد أن يجدد ذلك المسجد مصطفى جاويش الذى كان يشغل منصب أمانة البناء وكان أمين بناء جدة، قد استدعى إلى باب السعادة، وبهذا لم يستطع أن يأخذ دور الكبراء التى تحيط بالمسجد، ولو لم يعزل لفترة ما من منصبه كان سيجدد مسجد دار الخيزران فى هيئة أجمل وشكل أحسن. إن عرصة مسجد دار الأرقم فى جهاتها الثلاث أربعة عشر قدما إلا الجدار الشرقى أربعة وعشرون قدما. وله أربع قباب جميلة وله ساحة مكشوفة وله مئذنة.

صخرة المحتبى:

مكان فى داخل المسجد وعلى يمين من يتوجهون إلى المحراب، وإلى الآن مرئى وظاهر.

(١)خزيران أو خيزران بانية مسجد دار الأرقم كانت جارية المهدى المفضلة وقد أعتقها سنة ١٥٩هـ.

ومُنْتَهَى هذه الصخرة كان مكانا خاصا للنبى ﷺ، عند جلوسه وحوله تسعة وثلاثون من أصحابه الكرام عندما كان يدعو إلى الإسلام خفية، من الروايات الموثوقة أنه كان يمضى أوقاتًا تحت هذه الصخرة.

الأثر التاسع عشر: الحجر المتكلم

يقع فى جدار دكان أبى بكر وفى الجهة التى تواجه الحرم الشريف وقد وضع فى مكان يعلو عن الأرض مترا. وطول الحجر المتكلم ذراع معمارى، وقطره ثمانية أصابع، وهو نصف إسطوانى الشكل وبارز عن الجدار بمقدار ستة أصابع.

وروى عن النبى ﷺ قوله: «إننى أعرف حجرا كان يلقى على السلام قبل البعثة فى المجئ والذهاب». ويظن أن ذلك الحجر هو المقصود به وكتب عليه البيتين الآتيين:

أنا الحجر المسلم كل حين
على خير الورى فلى البشارة
ونلت فضيلة من ذى المعانى
خصصت بها وأنى من الحجارة

قد ترك ذلك الحجر مكشوفا إلى ولاية الحاج عزت باشا الأرزنجانى الأخيرة وقد حفظه الباشا المذكور فى ولايته الأخيرة بأن غطاه بقفص حديدى وكتب كيفية عمله على حجر آخر ووضعه فوقه.

الأثر العشرون: حجر المتكأ

يقع أمام الحجر المتكلم وفى صف دار خديجة الكبرى وعلى صفحة هذا الحجر أثر لطيف، ويقال أنه أثر مرفق النبى ﷺ إذ شرف النبى ﷺ دكان أبى بكر فى يوم من الأيام واستند على ذلك الحجر وعندما التفت لأبى بكر قائلا: يا

أبا بكر انطبع أثر مرفقى على ذلك الحجر. كان حجر المتكأ قديما على جدار بيت أبى بكر ثم انتزعوه منه ووضعوه فى المكان الحالى.

كان المكان الذى وضع فيه من جدران بيت مصطفى أفندى الحريرى، واحترق هذا المنزل فى أوائل سنة ١٣٠٠هـ والحجاج فى عرفات؛ إلا أن الحجر المذكور لم يصب بسوء، وقد حفظ بأن وضع فى إطار له غطاء خشبى وعمر تلك الدار.

الأثر الحادى والعشرون: دار العباس

تقع دار العباس فى شارع المسعى وبالقرب من الميلين الأخضرين وأمام باب العباس، والآن أصبحت رباط الفقراء والمساكين والغرباء.

الأثر الثانى والعشرون: رباط الموفق(١)

يقع فى زقاق المقرارية وشارعه، وقد اشتراه فى سنة ٦٠٤هـ القاضى الموفق جمال الدين على بن عبد الوهاب السكندرى وعمره ووَقَفَه. إذا ما دعى فى داخله أو أمام بابه يستجاب.

قال الشيخ عبد الله بن مطرف من مشاهير أولياء الله: كلما وضعت يدى على حلقات باب رباط الموفق أحس كأن كثيرا من أيادى أهل الله توضع فيه، ويسكن الفقراء ومساكين الممالك المغربية فى ذلك الرباط ويقيمون فيه. وبما أن كثيرا من أهل الله مازالوا يذهبون إليه لغرض الزيارة فلا يخلو ذلك المكان من ملازمة الأولياء ومرورهم.

الأثر الثالث والعشرون: مِنى

تقع «منى» فى الجانب الشرقى من مكة المكرمة بين غار المرسلات وهذا المكان المقدس مكان جميل المنظر وصحراء تثير الشوق، وطوله ٣٠٥ ذراعا، يبدأ من جمرة العقبة وينتهى فى الجمرة الثالثة، ويبعد عن مكة المعظمة أربعة أميال. ومنى

(١) والآن يسمى رباط عثمان.

مدينة تميل إلى الكبر وتتزين جوانبها بدكاكين كبيرة ومنازل عالية ويحد نهايتها مسجد الخيف، إلا أن عمرانها يتوقف على موسم الحج، ففى غير موسم الحج تخلو المدينة من الناس، ويستأجر الحجاج فى منى منازل بعد عودتهم من عرفات، ويتاجرون مع التجار الذين وفدوا من الشام وحلب.

وإن كتب أن وقت الدعاء فى منى محدد فى منتصف الشهور القمرية وليلة ما يستدير الهلال بدرًا، ولكن بما أن المكان غير معمور فى كل الأوقات فليدع الداعى متى يمكنه الدعاء فيه.

ومنى هى المكان الذى يرسل بواسطته أمانة الصرة إلى الشريف الهاشمى النسب علنًا.

وإننا أدرجنا صورة من الأمر السلطانى الذى أرسل إلى ذات السيادة الشريف عون الرفيق باشا فى سنة ١٣٠١هـ متيمنا.

صورة الخط السلطانى

الحمد لله الذى جعل سرة البطحاء صدف درة البيضاء، وحلى بها أجياد عرائس المصنوعات، من الثرى إلى سدرة المنتهى، وصير أم القرى محتد نبيه المجتبى وصفيه المرتضى، وأوحى إلى خليه إبراهيم أن يرفع القواعد من البيت، وأمرنا أن نتخذ من مقامه مصلى، وتوجهت الوفود المتوشحة بوشاح الهدى، ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتلبية، وقصدوا نحو منى، فطوبى لمن سعى بين الصفا والمروة، وصلى بمقام إبراهيم بخضوع القلب، وانتهج نهج القربى والزلفى، وبيض وجهه باستلام الحجر الأسود متلألئًا كسناء ذكاء(١).

والصلاة والسلام على من بعث رحمة للورى، وصارت زيارة قبره من أرقى مدارج السعادة فى الدنيا والعقبى، وعلى آله وصحبه الطيبين الذين طهروا الكعبة العليا من أدناس الأوثان، وأحكموا بنيان الشريعة المصطفوية بإقامة أحكام القرآن ما ناحت الحمائم بتسبيح الله تعالى وتقديسه جل وعلا. . . .

(١) ذُكَاء: الشمس.

أما بعد فهذا خطابنا الشريف الخاقانى وكتابنا المنيف السلطانى النافذ حكمه بعناية الله المعين فى أقطار الأرضين، مطاعا لأساطين الملوك والسلاطين، لازال ناشرا فوايح العدل والأمان وما برح زاهرا بين حدائق البر والإحسان وما سجعت الطيور ورتعت الغزلان، أصدرناه منطويًا على فرائد التحيات الرائقة، ومحتويًا على قلائد التسليمات الفائقة، مظهرا عَرْفَ رياحين المحبة والاستئناس، وممهدا لمبانى المودة المحفوظة عن الإندراس، إلى جانب الأمير الأمجد الأوحد المقتفى آثار أسلاف الأشراف من آبائه الغر صناديد آل عبد مناف وأجداده الحميدى السير الجميلى الأوصاف، فرع الشجرة الزكية النبوية، طراز العصبة العلوية المصطفوية، المنتمى إلى أشرف جرثومة علا عنصرها، والمنتسب إلى أنفس أرومة غلا جوهرها، زبدة سلالة الزهراء البتول، عمدة آل بيت الرسول، المحفوف بصنوف عواطف الملك الصمد، من أفاخم وكلاء دولتنا وأعاظم وزراء سلطنتنا السنية، الحامل النيشان المرصع بالعثمانية والمجيدية، أمير مكة المكرمة الشريف (عون الرفيق باشا)، لازالت العناية الربانية له ملاحظة، والكلاءة الصمدانية عليه حافظة، ننهى إلى نادى الشريف أن الله جل شأنه وعز برهانه، اصطفانا من بين عباده خلفاء للأنام، وأعطانا سيف الجهاد، وأمرنا بتأسيس ركن الإسلام، وشرفنا على الملوك بسدانة بيت الله الحرام والركن والمقام، وزين منشور سلطنتنا بخدمة روضة نبينا وشفيعنا عليه أسنى التحية وأزكى السلام.

نحمد الله على ذلك بأتم الشكر وأكمل المحامد. ونُحَلِّى ترائب عرائس هذه النعم من جواهر الأثنية بأغلى القلائد وأنفس الفرائد، فلا جرم وجهنا وجهة النهمة الواسعة ونخبة الهمة الشائعة، لرفع رايات الشكر فوق القمة التاسعة، وصرفنا أزمة صريمتنا الجليلة إلى طريق إيفاء ما وهبنا الله من المواهب الجزيلة، وامتطينا صهوة مطايا الإقدام، فى تنفيذ مصالح الشريعة، جاريا مجارى الجد والاهتمام، لاسيما مهام الأوقاف المشروطة لفقراء الحرمين المحترمين، والأرزاق المعينة المضبوطة للشرفاء شرفهم الله - تعالى - فى الدارين، وللعباد العاكفين فى المقامين المكرمين، وأرسلنا من شامل عنايتنا على

الرسم القديم فى العام السابق ـ وهو عام ثلاثمائة وألف من هجرة من أسس قواعد الإسلام ـ صبت على ضريحه سجال التحية والسلام ـ كافة الأموال المحصلة من ريع الأوقاف الموقوفة المربوطة، والنقود المعروفة والوظائف المضبوطة التى خصصت بلائذى الحرم ويثرب ممن سكن فيهما، واخترنا الجواد من حيثما المشارق والمغارب، وجملتها مثبته وأعدادها مفصلة ومقررة كما هو مسطور ومرقوم فى الدفتر المعلوم والمختوم، جميعها الدنانير التضاد والخدمة الصافية من النقود الرائجة فى عام البلاد الدانية والقاصية، وسلمنا تلك الصرر إثر ما وضع فى الأكياس الموسومة بختمنا الشريف دفعا للالتباس إلى يد حامل ذلك المنشور السلطانى، وناقل هذا المثال الخاقانى، المنتسب لسدتنا السنية، من خدام عتبتنا العلية السلطانية، المأمور لخدمة الحميدية الخاقانية، الحامل نيشان المجيدية من الرتبة الرابعة، أمير الكرام السيد «بسيم باشا» دامت معاليه وعمدة أصحاب التحرير والتقرير، كاتب الدفتر قدوة الأماثل والأقران ـ زيد قدره ـ بعد ما قلدناهما تلك الخدمة الجليلة، وأعطيناهما دفترًا مختوما بختمنا المبارك السلطانى لازال عنوانه زينة على صحيفة مناشير الأمانى، مخبرًا عن المصاريف المعينة، متضمنا بالمواهب المقننة، فأمرناهما بإيصال تلك الصرر إلى خزانة المديرية المأمورة بالسعى مع الاهتمام على جرى الأصول المؤسسة فى سوالف الأيام فى الصرر المقررة، فى مصاريفها المحررة المقدرة، على ما صرح ونص عليه فى الجريدة التى هى فى جيد الأمانة ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ (النساء: ٥٨).

واغتراف من مشارب الأجواد الجزيلة قراح عذبها، ونهلها وتوزيعها إلى مستحقيها من السادات والعلماء والضعفاء ساكنى مكة المكرمة، وقاطنى المدينة المعظمة، المستمسكين بأذيال سرادقات بيت الله الحرام، والمتشرفين بجوار نبينا شفيع الأنام (عليه أفضل الصلاة والسلام).

ورسمنا ألا يفض خاتم أكياس هذه المبرة، ولا توزع على أصحابها إلا بمعرفة المأمورين الذين وجب حضورهم، ولا يستنسخ دفتر مستقل غير هذا الدفتر، بل يعلم على اسم كل من وصل إليه نصيبه بالمداد الأحمر، فإن غاب واحد منهم أو قضى نحبه ولم يوجد مسميات بعض الأسماء يعلم على اسمه بالدفتر حسبما يظهر، وتحفظ حصصهم ونصيبهم مفرزة محرره، كيلا يحتال أحد لأخذ الصرة المقررة، ويؤتى نصيب من توفى أو غاب لأشخاص توافقت أسماءهم وألقابهم ونسبهم، وتشابهت الأسماء والألقاب والنسب والأنساب، هذا وقد أهدينا إلى جنبكم العالى، مغرس شجرة المفاخر والمعانى فى صحبة حامل كتابنا اللطيف وخطابنا المنيف خلعة من تشريفاتنا البهية، وأكسيتنا السنية تجديدا لمراسم الموالاة، وتأكيدا بمعاقدة المصافاة، فلابد من استقبالها بتقديم مراسم الإكرام والتعظيم والتزيين، والاكتساء بها علامة الاحترام والتكريم، وبذل القدرة الكاملة فى رعاية الرعية وصيانة الحجاج والمجاورين والمسافرين والمقيمين من العنت والشقاوة، لإفاضة الأمن والراحة وحراسة تلك الطرق والممالك، واستجلاب الأدعية الصالحة من العلماء العالمين والسادات المهديين، والفقراء الصالحين، والمواظبة على الدعوات بمزيد التضرع والابتهال، لإعلاء أعلام دولتنا العلية، وثبات أركان سلطنتنا السنية، إنه سبحانه لجدير بالسؤال، وقدير على تبليغ الأمال، تعالت ذاته عن المضاهى، وجَلّ جودهُ عن التناهى، وفضله حَسْبُ من بجنابه لاذ، وطَوْلُهُ كفاية من به استعاذ.

وصلى الله على سيدنا محمد الذى تأسست قواعد شريعته البيضاء بأركان المواهب الربانية، ناشرا ظلال سدتها فوق الثرى، واستهل بأرجاز نعوته الملائكة المقربون على العرش سربا فسربا، وعلى آله وعترته الذين فتحوا بسيوفهم البلاد شرقا وغربا، ولمن تبعهم من أمته إلى يوم الدين عجما وعربا، رضوان الله ـ تعالى ـ عليهم أجمعين.

الجمرات الثلاث التى سبق ذكرها قد عينت بعلامات خاصة فى ثلاثة أماكن من منى.

مسألة:

قال علماء المذهب الحنفى: «عندما تلقى الجمرات عند الجمرة الأولى[1] والجمرة الثانية يعنى عندما يرجم الشيطان الأول والشيطان الثانى ينبغى أن يتوقف قليلا، لأنه لا ينبغى الوقوف عند الجمرة الثالثة، بناء على هذا القرار الذى اتخذه العلماء يُسْتَحَبُّ ألا يوقف عندها للدعاء، بل ويدعى فى أثناء السير لأن الحسن البصرى أوصى أن يدعى فى هذا المكان أيضا؛ لأنه مكان من ضمن الأماكن التى يستجاب فيها الدعاء.

جمرة العقبة:

أنها الجمرة الثالثة وهى بالقرب من قبة الكبش وهى جدى أبيض فى طول خمسة أذرع وذراعين عرضا. وبما أن الشيطان ظهر لحضرة الخليل لأول مرة فى هذا المكان ورجم فلزم رجمه إلى يوم القيامة.

الجمرة الثانية:

يطلق على الجمرة الثانية الجمره الوسطى أيضًا وهى تخمينا على بعد خمسين خطوة من جمرة العقبة، وفى ناحية مسجد الخيف وقد ظهر الشيطان لخليل الرحمن مرة ثانية فرجم، وقد أشير إليها مثل جمرة العقبة بجدار صغير.

(١) ومعنى الجمرة نار ملتهبة، ولها معنى آخر بمعنى حصاة صغيرة، وبهذه المناسبة أطلقت الجمرات على الحصوات الصغيرة التى تلقى فى منى وهو من جملة مناسك الحج.

الجمرة الأولى:

الجمرة الأولى على بعد مائة خطوة من الجمرة الثانية، وفى ناحية مسجد الخيف أيضا.

وهو المحل الذى ظهر فيه الشيطان لإبراهيم ـ عليه السلام ـ للمرة الثالثة فرجم، وعين مكانها بجدار صغير مثل الأخريين.

يرمى جميع الحجاج فى هذه الجمرات الثلاث سبع حصوات ويستحسن أن يكون الرامى مترجلا ويجوز إلقاء الجمرات راكبا وكان حضرة معاوية أول من ألقى الجمرات وهو راكب.

رواية ـ يروون حديثا بمعنى «أن من يُقبَل حجُّه تُرفَع جمرته» (حديث شريف) وقد سأل أحد أئمة الحديث ـ ولم يكن قد سمع هذه الرواية ـ سأل سعيد بن جبير «لماذا لم يتكون جبل من كل هذه الحصوات التى ألقيت إلى الآن؟» فرد عليه قائلا: إن كل من يقبل حجه ترفع جمراته بأمر إلهى من قبل الملائكة».

قال الإمام مجاهد «قد علَّمت الجمرات التى ألقيتها فى السنة التى سمعت فيها رد سعيد بن جبير بعلامات معينة، وبعد الحج بحثت عنها فلم أجدها، فصدقت ما قاله سعيد بن جبير وأنه يوافق معنى الحديث.

الاستطراد

يروى لإلقاء هذه الجمرات فضائل كثيرة. يروى مؤلف «نزهة المجالس» نقلا عن كتاب الحقائق الحكاية الآتية: «قال أحد المؤمنين صادق النية مخاطبا السبع جمرات التى فى يده عند إلقائها» أشهد أيتها الجمرات أننى أؤمن بعدم وجود إله آخر غير الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله» وقد حلم هذا الشخص تلك الليلة أن القيامة قد قامت، وعند المحاسبة قد زادت سيئاته عن حسناته فيصدر الأمر الإلهى بأن يساق إلى جهنم، فيؤتى به فى جهنم. ولكن زبانية جهنم يرون أن باب جهنم قد سد بالجمرات التى ألقاها فى منى، فيتحيرون كثيرا ويحاولون أن

يفتحوا الباب فلا يوفقون، ويذهبون، تحت عرش الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليعرضوا الحالة، إلا أن الحجارة كانت قد سبقت الزبانية، وحصلت على الأمر الإلهى بإدخال هذا الرجل فى الجنة بعدما غفرت ذنوب الرجل، ويقف كل حجر فى باب من أبواب الجنة ويقول راجيًا: يا فلان أدخل الجنة من الباب الذى أقف فيه» انتهى.

لاحقة

إلى أواسط سنة ١٣٠٣هـ الهجرية عانى الحجاج مشقة كبيرة من قلة المياه فى منى، وكان من جملة فضائل السلطان أن أمر والى الحجاز الحالى عثمان باشا بإقامة صهريج عظيم له ستة عشر صنبورا. ولقد تم ذلك بفضل همة لجنة عين زبيدة وحسن خدماتهم، وهكذا نجى الحجاج من مشقة العطش.

وكنا قد كتبنا معلومات أولية فى الصورة السادسة من الوجهة الثالثة من المرآة أن عثمان باشا قد أنشأ فى أرض المدرسة المجيدية بناءًا فخما مقرا للحكومة للجيش، وحول القلعة الهندية إلى ثكنة عسكرية باسم «غيرتية».

وهدم قسم الشرطة الرئيسى وثكنة المدينة السلطانية وبناهما من جديد.

ومن هذه المرة أخبرت فى رسالة واردة من مكة المكرمة والمؤرخة بتاريخ ١ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٣ أن ذلك المقر الحكومى الفخم قد تم بناؤه، وفرش فرشا جميلا، كما هدمت بعض جهات قلعة جياد، وبنى فى بعض جوانبها مخزن للأسلحة، ووضع فوق المبنى صادة للصواعق، وبدأ فى إنشاء ثكنة عظيمة فى الجانب الآخر.

وقد قسمت أرض عرصة المدرسة السالفة الذكر من قبل والد السلطان الكثير المحامد السلطان عبد المجيد خان ـ طيب الله ثراه ـ وبنى على طرف منها مدرسة، وبجانبها سبيلا ومكتبة وعدة منازل خاصة بأمناء الكتب، وفعلا شرع فى الإنشاءات، ووضعت الأسس وفى هذا الموقف رحل ذلك السلطان عن دنيانا، فأوقفت عمليات البناء وأهملت لتتحول تلك الساحة إلى مقلب قمامة. ولما كان

الجنود السلطانية الذين يتولون حراسة مكة المكرمة يسكنون تحت الخيم، وكان هذا مخالفا لآمال السلطان، لذا انزعج عثمان باشا انزعاجا شديدًا وأخذا ضميره يؤنبه، فقرر أن ينشئ فوق أرض تلك المدرسة ثكنة عسكرية تستوعب فرقة من الجند السلطانى.

وبعد الاستئذان شرع فى أواخر سنة ٩٩ المالية فى عمليات الحفر ذاكرا اسم الله، وقد استصوب فيما بعد أن تكون الدائرة الحكومية متصلة بالثكنة المذكورة، وعدلت خريطة الثكنة السلطانية على أن يكون جانب من المبنى مقرا حكوميا، والجانب الآخر من المبنى ثكنة عسكرية، وهكذا بنيت ثكنة عسكرية متقنة الصنع والبناء وسميت بالحميدية.

ويلغت نفقات إنشاء الثكنة الحميدية بناء على التقديرات الأولية ألف وأربعمائة ليرة، وإذا ضمت إليها نفقات إنشاء الدائرة الحكومية ألف وثمانمائة ليرة، عرف أن مجموع النفقات يصل إلى ثلاثة آلاف ومائتى ليرة.

ولكن إذا ما ضم لهذه النقود ما أنفق لتزيين المبانى من الداخل والخارج تزيينا جميلا ومحكما تصل النفقات إلى ما يقرب من مليون قرش.

طرحت فكرة إنشاء ثكنة (الغيرتية) ونفذت فى عهد الشريف غالب، ووسعت فى عهد تاتار عثمان باشا لتسع مائة عسكرى من عساكر الشرطة وبنيت فوق خرابة قلعة صغيرة.

وكان لهذه القلعة أربعة أبراج، وهدمت الأبراج التى فى الجهة الغربية وحولت إلى ثكنة عسكرية يمكن الدفاع عنها، وتتسع لألف من الجنود السلطانية.

وبما أنه تم بناء تلك الثكنة لما سيقوم به هؤلاء الجنود من خدمات جليلة، وبما قدمه أصحاب الحمية والكرام من نقود، وسميت «غيرتية» لذلك، وقد صرف على بنائها مائة وعشرين ألف قرش ماعدا المنح الأخرى.

ثكنة المدفعية السلطانية:

كانت هذه الثكنة مكانا محاطا بأربعة جدران، قد بنى فيه «عنبران» يستوعبان

ما يقرب من مائة جندى من المدفعية، وحجرة للقيادة تسع ثلاثة ضباط ومطبخ، وتم ذلك بهمة عثمان نورى باشا وسعيه واشتراك الجنود فى العمل. قد اشترك الأصحاب الكرام فى بناء هذه الثكنة بما دفعوه من مبالغ قريبًا من ثمانين ألف قرش.

المخفر الرئيسى:

مبنى متين يتسع لإيواء أربعين جنديا، وهناك مخفر غير هذا المخفر فى حارة الباب يتسع لعشرين جنديا أيضا، وهما مبنيان رصينان وقد أنفق لبنائهما مائة ألف قرش كاملة.

وفى سنة سنة ١٣٠٢ الهجرية أمر عثمان باشا نورى الأميرالاى صادق بك الذى حضر مع أمانة الصرة المصرية بأخذ صور فوتوغرافية للأماكن المذكورة، وقد حصلنا على نسخ هذه الصور وأثبتناها فى الأجزاء المناسبة من المرآة.

وقد كتب فى صفحة من المرآة إن مجرى عين زبيدة قد حفر على (حارة الباب) لتجديدها إلى ضريح الشيخ محمود، وبناء صهريج احتياطى فى ذلك المكان، وقد سطر فى هذه الرسالة التى وصلت والتى مر ذكرها أن ذلك المجرى قد أوصلت مياهه إلى ضريح الشيخ محمود، وقد أنشئ أمام الضريح حوض مياه كبير، وركبت فيه الصنابير، وأن وصول مياه عين زبيدة إلى هذا المكان قد أحيا سكان هذه الأماكن، ووسع مدينة مكة المكرمة.

قيل فى صفحة من المرآة «يأتى ويذهب كل سنة ما يقرب من ثلاثمائة ألف أو أربعمائة ألف من الحجاج»

وفى الرسالة الواردة من مكة المكرمة يقول صاحبها: إن عدد الحجاج لم يزد على مائتى ألف حاج حتى فى سنين الحج الأكبر. إلا أنه لم يدخل فى هذا الحساب عربان البادية والمقيمون من أهل مكة، ويقول صاحب الرسالة « إن نظام إقامة وليمة فى مقر الإمارة قد ألغى بعد وفاة الشريف عبد الله باشا بثلاث أو أربع سنين وهذا شىء يؤسف له.

فى ذكر المساجد المأثورة فى مكة المكرمة

الأثر الخامس والعشرون: مسجد أبى بكر:

المسجد المشهور بمسجد أبى بكر يقع فى الجهة اليمانية وفى مكان يسمى «مسفلة» عليه قبة وفى داخله كوخ.

يزور الحجاج هذا المكان كما أن أهل مكة يزورونه ويقيمون فيه حلقات الذكر ويدعون الله، بما أن أبا بكر الصديق قد ولد فى هذا المكان السعيد فإنه يشتهر أيضًا باسم «دار أبى بكر»، وطول سطح هذا المكان من كل جهة عشرون قدمًا وعرضه خمسة عشر قدمًا، إلا أن له فى الجهة الجنوبية حديقة محاطة بالسور مساحتها أربعمائة ذراع، إن النبى ﷺ، قد شرف جبل الثور قادمًا من هذا البيت، إن هذا الحادث الجلل قد فصل فى المقام الرابع والعشرين من «محمود السير». وقد أشرفت مبانى ذلك المسجد مع مرور الأيام على الخراب، لذا عمره وأصلحه مدير الحرم الشريف أحمد أفندى على أحسن وجه وبشكل رصين فى سنة (١٢٩٦).

الأثر السادس والعشرون: مسجد ذى طوى:

يقع هذا المسجد فى الجهة الشمالية من مكة المعظمة وفى الوادى الذى أطلق عليه أهل مكة «ما بين الحجرتين» وفى المحل الذى خصص لإقامة المحمل المصرى، وعلى الجهة اليمنى فى طريق العمرة، وقد بات قائد الأصفياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى هذا المكان فى حجة الوداع، وبعد أن صلى فيه صلاة الفجر اتجه إلى مكة المكرمة.

وقد ذكر صاحب «العقد الثمين» أن بانيته سيدة تسمى زبيدة، ولكنه لم يبين لنا من هى زبيدة هذه ومتى بنته.

الأثر السابع والعشرون: مسجد التنعيم:

إن مسجد التنعيم فى مكان قريب من مسجد عائشة ويبعد عن المسجد الحرام ما يقرب من ثلاثة أميال[1] أو أربعة، وكل جهة من جهاته عرضها خمسين قدما.

وفى يمينه جبل نعيم وعلى يساره جبل ناعم، لذا أطلق على الوادى الذى أسس فيه وادى النعمان، وإن كان المؤرخون يخبروننا أن هذا المسجد كان يطلق عليه اسم هليلجة وكانت بجانبه شجرة قديمًا إلا أن ابتعاد هذا المسجد عن ميلى الحرم (يعنى ابتعاد مسجد عائشة الذى يوجد فى ناحية جبل نعيم عن الميلين) فالمسجد الذى قال عنه المؤرخون أنه مسجد هليلجة غير المسجد الذى يكتسى فيه الحجاج ملابس الإحرام بنية العمرة، وهو مسجد التنعيم.

ويظهر أنه المكان الذى يقع فوق قمة الجبال التى خلف صهاريج «سنان باشا» وعلى الجهة الشمالية من مسجد عائشة والذى أحيط بجدار هو أرض مسجد التنعيم.

وهذا الجدار كثيرًا ما ينهار بصدمات الرياح ويخرب إلا أن الزوار الكرام يبتدرون لتعميره وترميمه.

الأثر الثامن والعشرون: صهاريج سنان باشا

كان فى الزمن القديم فى هذا المكان صهريج واحد وكانوا يملئونه عند نزول المطر يتوضئون منه، وعندما زار سنان باشا مكة المعظمة فى أثناء سنة (٩٨٧هـ) حين عودته من اليمن رأى أن مياه ذلك الصهريج قد نفذت، كما أن مياه البئر الذى بجانبه قد انقطعت، فاحتاج المعتمرون والحجاج حتى إلى قطرة ماء للوضوء

(١) يذهب الحجاج إليه فى ظرف ساعة.

وإزالة عطشهم، فتأثر من ذلك أشد التأثر، ثم أمر بحفر البئر المذكورة، وأوصل الماء إلى الصهريج المذكور بحفر مجرى، وعين من يهتم بهما ويسقى الناس، ولكن لشدة الأسف لم يبق إلى الآن، لا السقاءون ولا المجرى، وعندما تهطل الأمطار يمتلئ ذلك الصهريج ثم يخلو من المياه مرة أخرى فيظل فارغًا.

وبعد ما أمد سنان باشا ذلك الصهريج بالماء فرش أرض المطاف بالرخام(١)، وغير رمل الساحة الرملية للمسجد الحرام، وأمر بصنع سبيل وحوض فى طريق العمرة، وحفر فى أماكن بعيدة آبارا عميقة واسعة لملء السبيل والحوض بالماء بواسطة مجارى حفرها، وقد اندرس كل هذا ولم يبق له أثر، إلا أن الأصحاب الكرام حفروا كثيرا من الآبار فأصبح المعتمرون لا يعانون من قلة الماء كما كان من قبل.

لاحقة

وقد ثبت أن كل من يذهب إلى مسجد عائشة بنية العمرة ويلبس هناك ملابس الإحرام وفقًا للسنة النبوية، ثم يعود مهللاً ملبيًا إلى الحرم الشريف ويطوف مرملاً مُضْطَبِعًا(٢) يسعى، فإنه ينال ثواب أداء الحج فى مدينة الرسول ﷺ الذى غفر له، وذلك ثلاث مرات فى شهر رجب ومرتان فى شعبان المعظم، ومرة فى رمضان المبارك، لذلك يقبل الحجاج الكرام على العمرة بكثرة فى تلك الشهور.

تنبيه

ويجب أن يزار المكان الذى صلب فيه حاتم بن عدى ـ رضى الله عنه ـ الذى يقع فى الجهة الغربية من مسجد عائشة، وفى ناحية جدة إذ كان ـ رضى الله عنه

(١) لأن المطاف الشريف فى ذلك الوقت كان مفروشًا بالرمل فكان الحجاج يعانون فى أثناء السير.

(٢) إن الصورة الإجرائية لهذه الأصول مسطورة فى الصفحة الثالثة عشرة من تكملة المناسك والاضطباع أن يجعل المحرم وسط الرداء تحت كتفه اليمنى ويرد طرفيه على كتفه اليسرى ويبقى كتفه اليمنى مكشوفة، وهو سنة عند جمهور الفقهاء: الشافعية والحنفية والحنابلة فى كل طواف يرمل فيه. ولا ترمل المرأة ولا تضطبع.

ـ ورفقاؤه مع عاصم بن ثابت ـ رضى الله عنهم ـ يحاربون سفيان بن خالد الهزلى وشرذمته فى مكان يسمى «رجيع»، فأسر حاتم بن عدى وسيق إلى جبل التنعيم حيث صلب، وقد أشير إلى المكان الذى صلب فيه حاتم بعلامة على شكل مئذنة ويطلق عليه أهل الحجاز اسم «ميل».

وإن كان مكان صلب حاتم بن عدى مجهولاً لدى أهل مكة، إلا أن الأشخاص الذين يذهبون إلى مسجد عائشة ويزورون الميل الذى بين الجبلين يكونون قد زاروا مصلب حاتم، لأن هذا الميل علامة خاصة لمكان الصلب وقد كتب عليه بخط عربى قديم عبارة «هذا مصلب حاتم بن عدى»، وبما أنه يطلى كل سنة كانت فالصباغة تمحو الكتابة التى عليه.

ولكن عندما ينزل المطر ويبتل ذلك الميل تظهر آثار هذا الخط، وإذا ما أمعن فيها النظر يمكن قراءته تماما.

وقد استفسرت من علماء مكة عن مصلب حاتم بن عدى، ولكننى لم أحظ منهم بإجابة شافية.

فاعتمدت على نفسى فى الكشف عن هذا المكان، بينما كنت فى يوم من الأيام فى مسجد عائشة وكان رفيقى يتوضأ أخذت أجيل النظر فى الجهات الأربعة، وأنا أفكر فى هذا الموضوع وأقول محدثًا نفسى: يا ترى أين يقع مصلب حاتم بن عدى؟ وعندئذ رأيت ميلا قصيرا على شكل مئذنة فى جهة جدة، فسألت رفيقى الذى كان رئيس الخدم والذى يطلقون عليه هنا «شيخ العمرة» ما هذه العلامة؟! إذا ما قلت أنها ميل الحرم، يجب أن تكون فى جهة الوادى بالنسبة للمسجد، فأما المكان الذى أقف فيه فهو فى ناحية جدة وفى سفح جبلين.

ألا نكون قد أصبنا عين الصواب إذا ما قلنا أنه علامة مصلب حاتم؟! ولكن شيخ العمرة قال أنا أزاول هنا مهنة الشياخة منذ ثلاثين عامًا؛ فلم أر أن فى هذا المكان علامة مثل هذه، كما أننى لم أسمع من أحد أجدادى، وانقضى الأمر

بالتوقف قليلا فى مسجد عائشة احتماء من المطر، وبَتَّ شيخ العمرة فى الموضوع مقرراً عدم وجود مصلب حاتم بن عدى فى وادى التنعيم، وأن العلامة التى أشرت إليها علامة لإشعار المحرمين بمكان الإحرام، ولكننى كنت أعلم أن مصلب حاتم كان فى وادى التنعيم نتيجة الاطلاع فى كتب سير العلماء، وإن ما يطلق عليه «معلماته» حيث يبدأ الحجاج والمعتمرين لبس ملابس الإحرام يجب أن يكون عجائب المسجد وفى وسط الطريق، كما أن هذه العلامة كانت فى اتصال المسجد من الجهة الشرقية وقائمة فعلاً، إلا أن العلامة التى قال الشيخ عنها علامة الشروع فى لبس ملابس الإحرام كانت فى جهة حجرة للمسجد المذكور، وكانت تختلف عن العلامتين فى الشكل والهيئة، وكل هذا مما أثار فى نفسى شكوكًا كثيرة، وانقطع المطر وذهبت إلى تلك العلامة، وكانت قد ابتلت من المطر وظهرت ظلال جلية لكتابة، لكن قد غيرت ألوان تلك العلامة حتى تخالها ألوان الحرباء، وحال ظلام الجو دون قراءة الحروف، فاستصوبت أن انتظر إلى وقت الزوال، وقد أصاب سهم اجتهادى مرماه، وهدانى الله إلى الطريق الصحيح، إذ انقشع الظلام وزادت حرارة الشمس، وجف صدأ العلامة فقرأت عبارة «هذا مصلب حاتم بن عدى»، وأريتها لشيخ العمرة الذى شكرنى بدوره كثيراً وسر سروراً عظيمًا، وأخذ المعتمرون والحجاج فى الذهاب إلى مصلب حاتم بن عدى.

الأثر التاسع والعشرون: مسجد الجن

مسجد يقع فى الجهة الثابتة من مكة المكرمة وفى مقابل جداره مقبرة المعلا الملحقة ببطن الوادى، أى فى مواجهة جبل الحجون، وهو مسجد شريف تحت الأرض.

فالذين ينتهون من زيارة مقبرة المعلا يعودون إلى ذلك المسجد لأداء ركعتين لتحية المسجد، وفى طرفيه شارعان واسعان.

إن كل واحد من طرفى أرضه فى الشمال والجنوب ثمانية أقدام، والجهة الشرقية أحد عشر قدمًا، وطرفه الغربى ستة عشر قدمًا، وبما أنه مؤسس تحت مكان اسمه «فرهادية» لا قبة له ولا مئذنة، وقد عرضت طائفة من الجن تبعيتها للنبى ﷺ، فوق أرض هذا المسجد فى ليلة عودته من الطائف.

ودخلوا فى دائرة الإسلام المنجية، وبما أن حراس مكة المكرمة يجتمعون فى هذا المكان ليلاً أطلق عليه مسجد الحرس أو موضع الخط.

وسبب إطلاق مسجد الخط عليه هو أن النبى ﷺ، خط عدة خطوط فى تلك الليلة على الرمل وهو يشير إلى عبد الله بن مسعود المحمود العاقبة، ومن أسماء هذا المسجد اللطيفة «مسجد البيعة» إشارة إلى مكان بيعة طائفة الجن، وهؤلاء سبعة أنفار من الجنة، ينتسبون إلى الطائفة من جن بلدة نصيبين وأسماؤهم: حسأ، مسأ، سأصبرا، ناصبرا، ابنا الأرب، ابنين، أخصم، وبعض الرواة يضعون بدل «ابنا الأرب»: «ازريان» ومكان «ابنين»: «أحقب»، إن هذا المكان هو الذى بايع فيه الجن النبى ﷺ، قبل البعثة، وقد أماط محيى الدين بن عربى، اللثام عن هذه الحقيقة.

حتى إن معاذ بن عبد الله بن معمر، وهو ممن أيدوا هذه الحقيقة، روى أن واحدا قد لف جنيا يسمى عمرو - نال الشهادة فى عهد خلافة الفاروق - فى خرقته ودفنه والحكاية تالية الذكر تعود إلى سيدنا معاذ.

حكاية:

قال معاذ رضى الله عنه: كنت جالسًا مع عثمان بن عفان، فمر علينا رجل وقال: بينما كنا نمضى من ذاك المكان هبت على طرقنا عاصفة كأنها زوبعة فى مكان قريب منا، أذرت ما على الأرض من قش فى الهواء، ثم أعقبتها زوبعة أخرى غاية فى شدتها، والتصقت بالزوبعة التى هبت أول الأمر وتشاجرتا مدة مديدة وكأنهما حيوانان يقتتلان ثم سكنتا، وهاتان الزوبعتان كانت كل منهما قد

هبت من سفح جبل، ولأن إحداهما حملت على الأخرى قلنا: لابد من وجود سر فى هذا، وما كان فى وسعنا التقدم خطوة أو التأخر خطوة، لذا توقفنا هنيهة فى مكاننا.

وبعد أن اختفت إحدى هاتين الزوبعتين التى تخلع القلوب ببشاعتها والأخرى بالجبل لفترة انفصلت كل منهما عن الأخرى، وتوجهت كل منهما إلى جبل ولم يعد لهما من أثر.

وعند انفصالهما بدت إحداهما ضعيفة خائرة القوة، لذا تملكنا شديد الفضول فمضينا إلى مكان لقائهما فرأينا كثرة من الحيات وقد نفقت، وكانت تنبعث منها رائحة ذكية، ولكى نعرف أى حية تنفح هذه الرائحة الذكية شرعنا نقلب الحيات النافقة، وفى النهاية أدركنا أن رائحة المسك تلك تنفح من بطن حية صفراء الظهر بيضاء البطن.

ويالها من حية عجيبة تنفح مسكا لم أر مثلها فى حياتى، فلففتها حول عصاى وفى قول آخر حول خرقتى ودفنتها فى طرف الطريق، ثم قفلت راجعًا إلى رفاقى، وما أن هممنا بالذهاب حتى تراءت لنا من الجهة الغربية للمكان الذى كنا نجلس فيه أربع نساء قلن لنا: ليعلم من دفن عمرو - أى الحية المقتولة - أنه دفن شخصًا صوام النهار قوام الليل، يرعى أحكام القرآن، وهذا الرجل قد آمن برسول الثقلين قبل أن تأتيه الرسالة بأربعمائة عام، وبعد البعثة لمبايعته وكان يستمع إلى الوحى، قلن هذا من كلامهن واختفين عن الأنظار.

كان هذا ما رواه معاذ رضى الله عنه.

وروى ابن حبّان هذه الواقعة كذلك فقال: إن الرجل المذكور قص على سيدنا عمر ما حدث فقال له الفاروق رضى الله عنه: نعم، فقد قال لى رسول الله ﷺ، «إن ثمة من بايعونى قبل بعثتى بأربعمائة عام» صدق رسول الله ﷺ، وجاء فى كتاب المرجان فى أحكام الجان الذى ألفه أبو البقاء الحنفى إن رسول الثقلين

ﷺ، دعا طائفة الجن إلى الإسلام ست مرات: فى جبل حراء، وشعب الحجون، وأعلى جبال مكة، وبقيع الغرقد، وعلى مشارف طيبة الطيبة، وإحدى رحلاته الشريفة.

ولوجود عبد الله مسعود فى المرة الرابعة، وعبد الله بن الزبير فى الخامسة فى خدمة الرسول ﷺ، فقد شاهد كلاهما جنا ممن أسلموا، حتى إن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ سمع أصواتهم وشبههم بقوم «الزط»[1].

الأثر الثلاثون: مسجد الراية:

يقع هذا المسجد فى الطرف الشمالى من البلدة الطاهرة مكة المكرمة يقع بجانب بئر جبير بن مطعم بن عدى المشهورة، وفى الجهة الجنوبية لمسجد البيعة، وفى جوانبه الأربعة منازل كثيرة ودكاكين وافرة وسوق عظيم.

والزوار بعدما يزورون مسجد الجن، يزورون مسجد الراية حيث يصلون ركعتى تحية المسجد ثم يعودون، ومساحته السطحية طولها أربعة وعشرون ذراعًا وعرضها عشرة أذرع.

مسجد الراية الشريف، إنه المكان الذى ركز فيه النبى ﷺ، رايته فى يوم الفتح المنير وصلى ركعتين تحيةً له. وبناء على قول الإمام الأزرقى بأن بانى هذا المسجد هو عبد الله بن عبد الله بن عباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى الله عنهم، وقد رممه وعمره المعتصم بالله البغدادى.

الأثر الحادى والثلاثون: مسجد المدعا:

إن أرضه طبقا لما نقله عبد القادر الجيلانى بالقرب من دار أبى سفيان بن حرب، وهو مكان طوله عشرون قدمًا، وعرضه خمسة أقدام، وكان بيت الله يرى من هذا المكان، وبما أنه لا شك فى استجابة الدعاء الذى يرفع إلى الله من مكان، أول ما يرى الإنسان فيه بيت الله، فالدعاء مقبول فيه، وهو فى هذا المكان من سنة رسول الله السنية.

---

(١) «الزط» قوم غاية فى طول القامة، سحنتهم مخيفة.

نظم

اسمـــع منـــى صفـــة المدعــــا
فقـــد استجيــــب الدعـــاء هنـــا
على رأس هذا الطريق عند الوصول
توقـف الرسـول مـن أجـل الدعاء
إن تراب طريقه أفضل من دواء العين
لعـــين الـــروح منـــه الجـــلاء
إن ذلك الرمل الذى وقع فى هذا العمر
كـــل حبـــة منـــه درة ثمـــينة
إن شوكــــــه ورود ورياحيـــــن
إنــــــه إنســــــان العيـــــن
هــــــداه يحيــــــى الموتــــى
وهـــو راحـــة للخاطـــر المحزون
أزرف الدمـع مـــن أهـداب عينك
وافتـــح فـــاك وســـل الله حاجتـك

(فتوح الحرمين)

الأثر الثانى والثلاثون: مسجد البيعة:

يقع مسجد البيعة فى الجهة الشامية من مكة المكرمة وعلى بعد رمية سهم من العقبة التى تشير إلى حدود منى، وفى جهة مكة ويظل على شمال الشخص الذى يذهب إلى منى، وأمام جبل صراصر ومقبرة أحمد المهدلى، وإن مساحته من الجهة الشمالية ثمانية وخمسون قدمًا والجهة الجنوبية منه ستة وأربعون والجهة الشرقية مائة والجهة الغربية مائة وثمانية أقدام ومكشوف السقف.

قد بايع النبى ﷺ، فى موقع هذا المسجد سبعون من أعاظم الأنصار الكرام أو ثلاثة وسبعون، كما يذكر أصحاب السير، وكان مع النبى عمه عباس فى السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية، وعقب ذلك نادى شيطان اسمه «أزب العقبة»

قائلاً يا قوم قريش!! إن حجاج قبيلتى الأوس والخزرج بايعوا محمدا، وعزموا على تقديم العون له فى كل الأمور وشوش أفكار قريش تشويشًا، وإن كانت قريش أرادت أن تمد إلى الأنصار يد الأذية والتسلط.

إلا أن الأصحاب الكرام دافعوا عن أنفسهم بإلقاء، خطب تشتمل على التهديد، وأظهروا الحسام عند خصامهم لشرذمة المشركين الحقيرة، وظهروا بأنهم متفقون ومتعاهدون مع كثير من أقوام العرب والعجم للدفاع عن النبى ﷺ، وهكذا نجوا من شرارة الثأر التى أوقدها «أزب العقبة» بعون الله خير الحافظين، وعادوا إلى ديارهم.

وإن كان أهل مكة يطلقون على هذا المسجد «مسجد العشرة» ويذهبون إلى أن هذا المسجد مسجد «العشرة المبشرين» إلا أن هذا الرأى ظاهر الخطأ؛ لأن المسجد المذكور شهد بيعة نقباء الأنصار الذين أتوا قبل الهجرة من المدينة المنورة وأسلموا وهم: أسعد بن زرارة(١) وعوف ومعاذ(٢) ابنا عفراء(٣)، رافع بن مالك(٤)، العباس بن عبادة(٥)، منذر بن عمر(٦)، عبادة بن الصامت(٧)، يزيد بن ثعلبة(٨)، عقبة بن عامر(٩) قطبة بن عامر بن حديدة(١٠) أبو الهيثم بن التيهان(١١) عويم بن ساعدة ذكوان بن عبد قيس الزرقى.

إذا ما نظر إلى حكم الصورة الثانية من الوجهة الخامسة لمرآة المدينة نجد أن حكم هذه الرواية ضعيف أيضًا.

لأن اليوم الذى بايع فيه النقباء كان معهم ثلاثة وسبعون من رفقائهم، وإذا كان المراد من مسجد العشرة نقباء الأنصار العشرة الذين وجدوا فى يوم البيعة، فإن المكان لم يحظ بهؤلاء النقباء فقط وفى الواقع إن كلمة العشرة، تورد على خاطرنا أن أرض هذا المسجد هى مكان بيعة العشرة أشخاص الذين بايعوا النبى، وإذا حكمنا بصحة هذه الخواطر، فيقتضى الأمر أن يكون هؤلاء من أصحاب البيعة الثانية(١) التى وقعت بعد الولادة النبوية باثنين وخمسين سنة، لأن البيعة المذكورة قد تمت فى موقع مسجد العشرة، وكان عدد المبايعين عشرة أشخاص

---

(١) أنظر فى بيعة العقبة ابن هشام ٢/ ٨١، وابن سعد ١/ ١/ ١٤٨، والطبرى ٢/ ٣٦٠، وجوامع السيرة لابن حزم ص ٧٤، وابن كثير ٣/ ١٥٨، والدرر لابن عبد البر ص ٦٧ ـ ٧٤. وغيرها.

مدنيين، ولكننا إذا نظرنا إلى العبارة التى كتبت على حجر ذلك المسجد والتى تقول: إن المنصور العباسى أمر ببناء هذا المسجد مسجد البيعة الذى شهد أول بيعة بايع بها رسول الله ﷺ، نرى أنها تؤيد صحة القول الأول والله أعلم بالصواب.

قد بنى هذا المسجد أبو جعفر المنصور البغدادى فى سنة ١٤١هـ مكشوف السقف، وعنى المعتصم بالله بترميمه وتعميره، وجدده فى سنة ٩٦٣هـ دفتر دار مصر إبراهيم بك بضم بعض القباب فى ناحية القبلة من حرارة الشمس، ومازال إلى الآن مكشوفا إلا أماكن القباب وقد حددت جهاته الأربعة بحائط متين ولا مئذنة له.

الأثر الثالث والثلاثون: مسجد النحر:[1]

هو هذا المعبد الذى يسمى بمسجد المنحر فى وسط الجهة الشرقية من صحراء منى، وبين الجمرة الأولى والجمرة الثانية وفى اتصال دار المنحر، وطول أرضه ثلاثة وستون قدمًا، وعرضها تسعة وأربعون قدمًا، وبما أنه بين الحجرة الأولى والحجرة الثانية يظل فى الجهة اليمنى للمتوجه إلى عرفات.

وإن كان بانيه مجهولاً فقد عمره فى سنة ٦٤٥هـ صاحب اليمن الملك منصور، وأقام بالناحية القبلية صفا من القباب وترك الباقى مكشوفًا، وإذا نظرنا إلى ماحك على الحجر الذى فى داخله نعرف أن رئيس قافلة الأنبياء (عليه وعليهم التحايا) قد ضحى فى مكان هذا المسجد فى حجة الوداع بعد أداء صلاة الضحى ونحر بنفسه (٦٣) جملاً وضحى بالواسطة[2] (٣٧) جملا.

الأثر الرابع والثلاثون: مسجد الخيف:

مسجد الخيف بين جبل ثبير والجبال التى تقابله وتواجهه. أى أنه معبد كبير وموجود فى الجهة الشمالية من ميدان منى وفى وسطه كل من جهتيه الشمالية والغربية أربعمائة وخمسون قدما، وكل من جهتيه الشرقية والجنوبية ثلاثمائة وتسعون قدمًا، وقد غطيت جهته الجنوبية بقباب عالية وجهاته الباقية مكشوفة.

وفى وسط ساحته تمامًا قبة كبيرة على شكل الخيمة، ويروون أن تحت القبة

(١) يقال لهذا المسجد «مسجد المنحر» أيضًا.

(٢) الواسطة هو على بن أبى طالب.

التى على شكل الخيمة كان المكان الذى نزل فيه الرسولﷺ، وأنه مدفن أنبياء، ولأجل ذلك يطلق على تلك القبة «قبة الأنبياء» وقد رفعت تلك القبة على أعمدة مكشوفة وداخلها يزار، وللمسجد مئذنة تقع على شمال الداخل فى المسجد من بابه الكبير ويزعمون أن آدم ـ عليه السلام ـ مدفون تحت أساس هذه المئذنة.

خبر:

كان قد صلى على جنازة آدم ـ عليه السلام ـ ابنه «شعيب» عليه السلام، وأنه قد دفن فى جبل أبى قبيس أولا، إلا أن نوح ـ عليه السلام ـ أخذه فى سفينته أثناء الطوفان، وبعد الطوفان دفنه فى المكان الذى فيه مسجد الخيف، ويدعى المؤرخون أن قاعدة تلك المئذنة فوق سرة آدم عليه السلام.

وكان للمسجد أولا عشرون بابا، والآن قد سد ثمانية عشر من أبوابه وبقية نواحى المسجد مجهولة إلا أنه أصلح وعمر مرة من قبل كل من: أبى جعفر المنصور البغدادى فى سنة ١٥٩هـ، والمستنجد بالله ابن المقتفى بالله العباسى فى سنة (٥٥٩هـ)، وأخيرًا من وزير الملك العادل نور الدين زنكى الذى أحاط المدينة المنورة بسور، وأنقذ سكانها من هجمات الأشقياء وهو جمال الدين محمد أبى منصور الأصفهانى، وجدده السلطان قايتباى المصرى أيضًا فى سنة (٨٨١هـ) فصار رصينًا متينا، وبنى تلك القبة الجميلة التى على شكل الخيمة، وأشار إلى أن الأرض التى تحت القبة كانت مصلى للنبى ﷺ، كما أن المرحوم قايتباى هدم الجدران القديمة التى على أطراف المسجد الأربعة، وبناها من جديد، وصنع أربعة أبواب متينة ومحرابًا، كما بنى قبة ذات ثلاثة طوابق للمئذنة، كما بنى بجوارها دارا لإقامة أمير الحجاج، وجعل على بابه سبيلاً وصنع فى داخل المسجد صهريجًا يملأ بماء المطر ويمد السبيل بالماء ثم صنع له بابا كبيرا يفتح إلى جبل عرفات وبابا صغيرًا يفتح إلى ناحية غار المرسلات، وقد طرأ تغيير على الترميمات التى حدثت من قبل وقد تغيرت أطرافه جميعًا فى التعميرات التى حدثت فيما بعد، ولم يبق فى زماننا هذا إلا باباه وقبابه والقبة التى على شكل الخيمة.

مسجد الخيف معبد فى غاية اللطف ومكان مبارك مقدس إذ قال النبى ﷺ، حسب ما سطر فى معجم البلدان: «حج إلى بيت الله سبعون نبيًا وكلهم طافوا بالكعبة ثم صلوا فى مسجد الخيف، إذا استطعتم أن تصلوا فيه كلما أتيحت لكم الفرصة فلا تفوتوا ذلك» كما اشتهر بين العلماء ما قاله أبو هريرة «ولو كنت من أهل مكة لكنت ذهبت إلى منى كل ليلة سبت لأداء الصلاة فى مسجد الخيف».

يقول مؤلف بهجة التقوى: «أربعمائة نبى دفنوا فى مسجد الخيف» كما يروى الإمام الأزرقى أن وسط هذا المسجد مئذنة ذات إحدى وأربعين درجة وأن لها ثمانى شرفات، كانت ساحة مسجد الخيف من الأماكن المقدسة فى جاهلية العرب أيضًا؛ لذا كانوا يجتمعون فيها وفى مكان قريب منها كانوا يقسمون للقيام بعضهم ضد بعض، ومن هذا القبيل قد اجتمع فى هذا المكان «بنوكنانة» وقبائل قريش وتحركوا ضد أبناء بنى هاشم وعبد المطلب وتعهدوا باليمين ألا يتعاملوا معهم ببيع وشراء وألا يتزاوجوا منهم، وهكذا أقسموا على الكفر.

الأثر الخامس والثلاثون: مسجد الكبش

يقع مسجد الكبش على يسار الذاهب من منى إلى عرفات وفى سفوح جبل ثبير وهو مكشوف السقف وجهتاه الشمالية والجنوبية فى طول ثمانية عشر قدمًا، وجهتاه الغربية والشرقية اثنين وعشرين واثنا عشر قدمًا، لما كان الموقع المذكور هو المكان الذى ألقى فيه إسماعيل على وجهه للذبح، لذا يعرف بين الأهالى بمذبح إسماعيل ومسجد إسماعيل، والحجر الأسود الذى ضربه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بسكينة وفلقه قطعتين ظاهر أمام المسجد، ويتصل هذا المصلى من جهته الشمالية بغار يسمى غار الفتح، وخلف مصلى هذا الغار صخرة كبيرة مجوفة تسمى «صخرة عائشة» والجهات الشمالية والشرقية لداخل هذه الصخرة واحد وعشرون

قدمًا، وجهاته الغربية والجنوبية عشرون قدمًا، ويروى أن النبى ﷺ، كان يتعبد فى داخل الغار المذكور كما أن زوجة الرسول ﷺ، كانت تعتكف فى داخل الصخرة المذكورة.

قبة الكبش:

هى فى الجهة المكية للمغارة التى سبق ذكرها وفى سفوح جبل ثبير التى تمتد نحو جمرة العقبة، وهذه القبة على أربعة أعمدة ومكشوفة الجوانب وبما أن هذه القبة اشتهرت بأنها مكان نزول كبش إسماعيل فتعرف بين الأهالى بقبة الكبش، ومساحة المسطح الداخلى لقبة الكبش أربعة عشر قدمًا عرضًا، وطولاً خمسة عشر قدمًا، وأنزل كبش إسماعيل بعد الطوفان بـ ١١٩٢ سنة كما بينه المؤرخون.

الأثر السادس والثلاثون: مسجد المرسلات:

يقع مسجد المرسلات فى الجهة الجنوبية من مسجد الخيف أى فى الجهة اليمانية لمنى وفى سفح جبل، وهو مصلى من غير أبنية، إنه الساحة التى نزلت فيها سورة المرسلات الجليلة، جهتاه الشمالية والجنوبية كل واحدة منهما ستة وعشرون قدما، والجهة الشرقية ستة عشر قدما، والجهة الغربية اثنا عشر قدما.

هذا المسجد مغارة عادية وفى سقفها حجر، وفى صدر هذ الحجر أثر رأس النبى، وما زال ظاهرًا إلى الآن، إن الأرض المذكورة جوف صخرة هائلة فى سفح الجبل الذى يقابل جبل ثبير.

حينما شرف الرسول الكريم، شمس السماوات، هذا الغار يوما لمست رأسه الشريفة ذلك الحجر فما كان من الحجر إلا أن لان مثل العجين حتى لا يؤذى رسول الله ﷺ، ومنذ ذلك ظل أثر رأسه الشريفة فيه، ويتبرك الزوار بمس ذلك الأثر برءوسهم حتى ينجوها من نار جهنم، وكل شىء مأمول من الله سبحانه تعالى.

يروى المحب الطبرى عن خادم الرسول ﷺ «عبد الله بن مسعود» أن الرسول ﷺ، حينما كان يشرف «منى»، كان يقيم فى هذا الغار، وفى يوم من الأيام

أنزلت على الرسول ﷺ، سورة المرسلات، وأخذ ابن مسعود يتلقى تلك السورة من فم الرسول مباشرة، وفجأة ظهرت أفعى عظيمة الجسم وهجمت على الذين كانوا معه، وبذل الجهد لقتل هذه الأفعى إلا أنها نجت بالهروب، وقال الرسول ﷺ، عندئذ «إن الله قد كف شرها عنكم كما كف شركم عنها».

يقول الإمام الفاسى، بينما كان مجد الدين فيروز آبادى جالسا مع جماعته فى الغار وكانوا يتلون سورة المرسلات ظهرت حية، وهجمت عليهم ولكنها لم تتحمل مقاومة الناس فهربت، وفى رواية أخرى أن تلك الأفعى كانت من طائفة الجن فلم يسمح النبى ﷺ بقتلها، فعاشت تلك الحية حتى زمن الشيخ مجد الدين فيروز آبادى.

الأثر السابع والثلاثون: مسجد إبراهيم:

يعرف مسجد إبراهيم باسم «مسجد نمرة» إن هذا المسجد يقع فى الساحة الواسعة لعرفات وهو المكان المبارك الذى يصلى فيه الحجاج صلاتى الظهر والعصر جمعا، وعلى يمين جبل الرحمة.

عمره السلطان قايتباى المصرى سنة ٨٧٣هـ، وبنى مظلتين ليستظل تحتهما الحجاج، كما أنه أمر بإقامة العلامتين اللتين يطلق عليهما «العلمان» بالقرب من ذلك المسجد لتحديد حدود عرفات، والجزء الأمامى الذى يسع لستة صفوف من المصلين مغطى، والباقى مكشوف، وفى الجهة الشرقية ستة أبواب كبيرة وعلى جهاته الأربعة جدار يعلو أربعة أمتار وفوق محرابه قبة.

ومحيط جهاته الأربعة مائتان وثمانون قدمًا. وله صهريج محكم الصنع يسقى الحجاج ويملأ من مجرى عين زبيدة.

نصيحة

لما كان ذلك المشهد بعيدا عن محل الوقوف مسافة نصف ساعة ولما كان من الأولى أن يمضى إلى المسجد فى وقت الزوال حينما تشتد حرارة الشمس فيوصى الذين يذهبون هناك أن يحافظوا على أجسامهم؛ لأن الحرارة فى عرفات تصل إلى (٣٩) درجة تحت الخيمة؛ لذا يصاب الحجاج بضربة شمس قد تؤدى إلى شرور كثيرة.

حتى يروى أن أحد الحجاج حينما كان يغسل غياره عاريا انتفخ جلد ظهره كأنه صب عليه ماء مغلى.

الأثر الثامن والثلاثون: مسجد المشعر:

يقال لمسجد المشعر مسجد آدم أيضا وهو فى مكان مقابل جبل قزحة فى ساحة المزدلفة والتى تبعد عن مسجد إبراهيم بثلاثة أميال، أى فى الجهة اليمانية للموقع الذى يطلق عليه المزدلفة، وعرض أرضه المباركة عشرة أقدام، وطوله مائة قدم، وله محراب ومئذنة وسبعة أبواب، وهو مستطيل الشكل ويصعد إليه من جهاته الثلاثة بسلالم وعند البعض أن جبل القزحة كله يعد من المزدلفة.

المزدلفة:

مأخوذة من الإزدلاف بمعنى الاجتماع، وسبب تسميته بذلك أن الحجاج يجتمعون مع بعضهم فى هذا المكان، أو أن آدم ـ عليه السلام ـ قد اجتمع بحواء ـ.رضى الله عنها ـ فى هذا المكان، أو أن الحجاج يصلون إليه فى زلفة من الليل، فى قمة جبل قزح مكان لإيقاد النار وكان العرب قديما يوقدون فيه النار ظانين أنه موقد (آدم) عليه السلام.

المأزمين:

مأزم على وزن منزل وتثنية هذه الكلمة مأزمين، يطلق المأزم على كل شىء يضيق ويتداخل، وبما أن ما بين عرفات والمزدلفة مكان ضيق لذلك سمى بهذا الاسم.

ويطلق على هذا الموقع اللطيف «المأزمان» بتثنية الكلمة، ويقال كذلك للموقع الذى بين منى ومكة، «المأزمان» لأن طرفيه جبال والحجاج الذين يعودون من عرفات يؤدون صلاة المغرب والعشاء فى المزدلفة جمعا.

المشاعر:

يطلق المشاعر على المكان الذى يوجد فى داخل العلامات والأعلام التى وضعت لتحديد حدود عرفات، وكان العرب جميعا يقضون وقفة عرفات فى المشاعر بينما قريش كانت تقف فى داخل الحرم الشريف، وقد رفض النبى ﷺ، أصول أهل الجاهلية وفعلهم، فأمر بأن يقف جميع الناس فى داخل المشاعر.

نصيحة:

بما أن هذا المكان بارد ليلا نوعا ما فيجب أن يحافظ الحاج على نفسه حتى لا يصاب بمرض.

* * *

الأثر التاسع والثلاثون: مسجد الصخرة

مسجد الصخرة فى عرفات وهو متصل بجبل الرحمة وفى داخل الصخور والمسجد المذكور مصلى فى طول ثلاثين قدما وعرضه ثمانية أقدام، ويروى أنه المكان الذى وقف فيه الرسول ﷺ.

الأثر الأربعون: مسجد جبل عرفات:

هو المكان الذى يلقى فيه شيخ مكة المكرمة خطبة عرفات.

لازمة:

يوم الوقفة هو اليوم التاسع من ذى الحجة من كل سنة، ولما كانت الأيام العشرة الأولى من أفضل الأيام؛ لذا كانت الطاعات والعبادات فيها أفضل من الطاعات والعبادات فى الأيام الأخرى.

وبناء على القول الصحيح المنقول عن الإمام النيسابورى أن الأيام العشر من ذى الحجة أفضل الأيام وأحبها إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أيام رمضان، وقد نجا موسى ـ عليه السلام ـ من فرعون فى هذه الأيام، وقيل فى هذه الأيام توبة أبى البشر آدم ـ عليه السلام ـ وفداء إسماعيل ـ عليه السلام ـ وهود ونوح ـ عليهما السلام ـ وقد صادف الأيام العشر الأولى لذى الحجة رسالة نبينا، وبيعة الرضوان وفتح خيبر ووقفة الحديبية، ونزول الآية الجليلة ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾ (الفتح: ٢) واكتساء جميع الحجاج ملابس الإحرام، إن كل هذا لدليل قاطع على أفضلية هذه الأيام، إن صيام يوم واحد فى هذه الأيام العشر الأولى يساوى صيام ألف يوم من الأيام الأخر، والذى يحيى ليلة واحدة من لياليها تساوى طاعات وعبادات الحجاج والمعتمرين لسنين طويلة، وإن

كان صوم هذه الأيام مستحبًا وغاية فى القبول لدى الله، فيجب ألا يصوم الحجاج فى اليوم التاسع منها؛ لأن الصوم سيورث الفتور والضعف للحجاج الكرام، ويحول دون أداء شعائرهم كما يجب.

إن خير الأدعية المأثورة فى هذا اليوم «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير» وكان نبينا ﷺ، والأنبياء جميعا يواظبون على هذا الدعاء فى يوم عرفه. انتهى.

مساحة مسجد عرفات ثلاثون قدما فى الطول، وثمانية وعشرون قدما فى العرض، ويبدأ من حدود عرفات ويبعد عن الموقف الشريف ميلا واحدا. إن المكان الذى يطلق عليه موقف الإمام أعلى من سطح الأرض، ولم يكن له طريق يصعد إليه وينزل منه بسهولة؛ لذا جعل جمال الدين الأصفهانى له سلما ذا خمس درجات أو عشر؛ وأنقذ الناس من مشقة الصعود إلى الجبل ثم حفر عدة أحواض، وأنقذ الناس من مشقة العطش.

وبما أنه لم يكن فى الأول سلما ولا حوض ماء كان النساء يعانون من العطش ومن الصعود والنزول إلى مسجد الجبل عند الزيارة.

عرفات:

وعرفة اسم المكان الذى يقف فيه الحجاج يوم عرفة، أو هو اسم الجبل الذى بنى عليه مسجد عرفات ويبعد عن مكة المكرمة اثنى عشر ميلا.

فى قمة هذا الجبل وفى الجهة الشمالية من مسجد عرفات وهو بناء قديم، ويعرف هذ المكان على أنه مطبخ سيدنا آدم، ويفهم من هذا أن آدم ـ عليه السلام ـ تلاقى مع زوجته حواء ـ رضى الله عنها ـ فى هذا المكان، وعندما أتم بناء بيت الله وكان حينئذ قد أتم مائة سنة منذ أن هبط على وجه الأرض.

إن حجم جبل عرفات أصغر من جميع جبال الحرمين، ولكن قدره ومنزلته أعلى من جميع الجبال فى العالم، كما يفهم من مضمون هذه القصيدة.

إن هذا الجبل الذى يسمى «عرفات»
أكثر انخفاضا من جميع الجبال
وإن كان فى صورته من الجبال أصغر
إلا أنه فى المعنى أكبرها جميعا

امتلأ برحمــات الله حجــرها
يجتمـع الإنــس والجــن حولهـــا
إنهـــا قمـة كقمـة الجبـل سَمَتْ
أقامـت خيمـة نـور القمر أشعت
حولهـا من الجمال أفـواج وأفـواج
وكأنمـا هـى فـى البحـر أمـــواج
أكثر اتساعا من صدور من يحجون
وكل من فيها كلهم بعملهم مغولون
ولكـن خـارج الأرض الحرام
لتلك القوافل مقام كسوة مصر بالتمام
وفـى الوسـط محـمل مسكى آخـر
علــى رأســـه ظلـــه تظهــــر
لا تحسبن أنـك تشاهد فيـه الرمال
إنمـا فيـه الجواهـر والماء الزلال
لقد انبجس من سفح الجبل ينبوعها
إن مـــن مـــاء الصـفا ماؤهــــا
مـبرة آدم فـى شمـــال الجبـــل
وفيـــه لسكنـــى الفقــير محـــل

«فتوح الحرمين»

تصدى الإمام الكرمانى شارح البخارى لتعريف كلمة عرفات وقال: إن عرفات أماكن متعددة وهو اسم المكان الذى يقف فيه الحجاج، وعرفه اسم اليوم الذى يسبق عيد الأضحى، ولهذا أراد أن يخصص هذا الاسم لمكان واحد، لهذا الجبل إلا أنه قد جانب الصواب، لأن هناك من نقل روايات كثيرة فى وجه تسمية عرفات منها أن آدم ـ عليه السلام ـ وحواء نزل كل واحد منهما فى مكان بعيد عن الآخر، وبعد مدة تلاقيا فى هذا المكان، ولذا سمى المكان بعرفات، وقول

آخر أن جبريل ـ عليه السلام ـ علم فى هذا المكان آدم ـ عليه السلام ـ مناسك الحج، و ووضح له أن عرفات آخر مشاعر الحج، فأراد أن يتأكد من فهمه فسأله قائلا: «أعرفت؟ أعرفت؟»، فأخذ الجواب «عرفت، عرفت» وهذا هو سبب تسميته بعرفات. وقول أخر بما أن عرفات من الأراضى المقدسة وكأنه قد عُرف أى طُيِّبَ برائحة طيبة فأطلق عليها هذ الاسم، وهناك أقوال أخرى كثيرة فى هذا الموضوع.

وبما أن ذكر غير هذه الأقوال وتفصيلها سيدعو إلى الملل، آثرنا أن نكتفى بما ذكرناه.

نصيحة

فى عرفات غير عين «زبيدة الجارية» عدة أحواض ولكن هناك طائفة تسمى «تكرورى» وغيرها من الجهلة يغسلون فى هذه الأحواض ملابسهم وقلة منهم أيضا يستحمون فيها مما يكدر مياه الأحواض حتى لا يستطيع الإنسان أن يمنع نفسه من الاشمئزاز عند رؤيتها. لذا فعلى الحجاج الكرام أن يمتنعوا قدر الإمكان من الشرب من مثل هذه المياه.

رواية:

إن جبل عرفات جبل مقدس مبارك إلى أبعد درجة، ومهما رويت عنه من روايات تصدق مع شدة غرابتها ومع ذلك فالحجاج يروون عنه بعض الروايات التى لا تستقيم مع ذوى الألباب.

ومن قبيل هذا ما ذكروا من أنه فى عام ١٣٠٠ وفى يوم عرفة أن حادثا غريبا قد وقع، وهو أن صاعقة سقطت على سطح جبل الرحمة فأحرقت بضعة أشخاص وشوتهم، وعند التدقيق والمعاينة قد تبين أن المحروقين كانوا من المجوس، وأضاف حجاج إستانبول أن حكمة سقوط الصاعقة كانت للقضاء على هؤلاء الأشخاص، وبما أننى لم أصدق هذا الحادث بأى شكل من الأشكال، فبعثت إلى أحد الأشخاص الذين أثق فيهم فى مكة المكرمة أستوضحه الأمر فجاء الرد كالتالى:

الجواب

استلمت رسالتكم التى تستوضح عن الصاعقة التى سقطت عند سفح جبل عرفات فى يوم الوقفة، وعدد من أهلكتهم وهذه هى حقيقة الأمر:

لم يكن الحجاج قد وقفوا فى عرفات بعد فقامت السماء ودون أن يكون هناك برق ولا رعد ثم جاءت صاعقة من ناحية البحر إلى القرب من جبل الرحمة

والأحواض، حيث سقطت برعد ودوى شديد وقتلت مسلما هنديا وجملين، هذه هى حقيقة الحادث أما ما قيل عن المجوس أو النصرانى فمختلق، وفى الواقع أننى لم أكن هناك حينما وقع الحادث، ولكننى بمجرد أن استلمت رسالتك اهتممت بالأمر، وتحريت عنه فسألت عن الموضوع من السيد الوالى والآخرين ممن أثق فيهم. وكان الباشا الوالى يتناول طعامه حينما سقطت الصاعقة بجانب خيمته ففزع فزعا شديدًا».

وقد تحقق لى أن القصة لا أصل لها من هذه الرسالة التى وصلتنى من مكة.

الأثر الحادى والأربعون: مسجد جعرانة:

يقع مسجد جعرانة بين مكة المكرمة وبلد الطائف؛ إلا أنه أقرب إلى مكة من الطائف وعلى بعد ثمانية عشر ميلا وعلى جانب وادى «جعرانة». وبما أنه لقب ريطة بنت سعد بن زيد بن عبد مناف والتى أشير إليها بالآية الكريمة ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا** ﴾ (النحل: ٩٢) وأنها قد اختارت الاستيطان فى هذا المكان، فالمكان مشهور بلقبها.

وكان يقال لها الخرقاء كما تصرح بذلك الآية الكريمة لأنها كانت تأمر جواريها من الصبح إلى الظهر بغزل خيوط الصوف والوبر، وتنقضها بعد الظهر. وهكذا تقضى أيامها فى الغزل والنقض؛ لذا اتخذت مثلا للحماقة بين العرب. وزع بطل قوافل الأنبياء (عليه أعظم التحايا) غنائم غزوة حنين فى العام الثامن الهجرى فى هذا المكان، وفى يوم الأربعاء الثانى عشر من ذى القعدة من نفس السنة لبس ملابس الإحرام، ومضى نحو مكة المكرمة حيث أدى مناسك العمرة. إنه مكان مبارك سعيد.

وقد ثبت بأقوال النبى ﷺ، أن سبعين نبيا قد أحرموا من هذا المكان للعمرة، وفى جعرانة بئر مأثورة مباركة ذات مياه خفيفة عند الشرب وقد حفر النبى ﷺ، هذا النهر بيديه الكريمتين والصحابة الكرام، وأحاطوها بالحجارة لأنه حينما حفر فى هذا المكان انبجس الماء، وكان النبى ﷺ قد حفر فى هذا المكان قدر شبر فانفجر الماء فروى عطشه، وأحاط الأصحاب البئر بالحجارة وقد زاد عمقها يوما بعد يوم حتى أصبحت من الآبار المباركة، ومازال الناس يتبركون بها إلى يومنا هذا وليس بالجانب اليمانى من الطائف بئر ماؤها أعزب وأخف من هذه البئر.

الأثر الثانى والأربعون: مسجد الفتح:

يقع فى وادى المر بالقرب من الحجون. وقد عمر هذا المسجد الشريف صاحب مكة الشريف أبو نمى، وبعده السيد حناش بن راجح وقد صلى النبى ﷺ، فى هذا المكان المبارك.

الأثر الثالث والأربعون: مسجد المتكأ:

قد خربت أبنية مسجد المتكأ ولم يتبق أحد يعرف مكانه، ولكن المحب الطبرى يدعى أنه فى أطراف جهة تسمى «الجياد» يروى أن النبى ﷺ صلى فى هذا المحل ثم اتكأ إلى مكان ما واستراح.

الأثر الرابع والأربعون مسجد الجنيد:

يقع مسجد الجنيد فوق الجبل الأحمر الملاصق لمنازل مكة خلف جبل قعيقعان، وبناء على قول سعد الدين الإسفراييني أن هذا المكان كان مصلى جنيد البغدادى وإبراهيم بن الأدهم (قدس الله أسرارهما) لذا يستجاب الدعاء الذى يرفع إلى الله فى هذا المكان، هذا المكان ليس مسجدا بمعنى الكلمة ولكنه حفيرة على الأرض، وكان مكان التجلى للجنيد وقد سبق ذكره فى موضوع جبل أبى قبيس.

الأثر الخامس والأربعون: مسجد الإجابة:

يقع هذا المكان بالقرب من مكان يسمى (ثنية الأذاخر) الواقع على يسار الذاهب إلى منى أى فى مكان يقال له «معابدة» فى الناحية الشامية لمكة المكرمة، وعلى يسار من يستقبلون «ثنية الأذاخر» وإن كان لم يبق أثر لخرائبه؛ إلا أن فوق أرضه حجر قد حك عليه عبارة (إنه مسجد الإجابة)، ويحتمل أن يكون المحل

الذى يوجد فيه ذلك الحجر مكان مسجد الإجابة.

وقد بنى فوق أرضه فى سنة (٧٢٠هـ) مسجد لطيف مازال قائما. وأخذ العُرْبان يبنون حول هذا المكان المنازل والبيوت حتى تحول إلى حى مما يؤيد رأى الأهالى فى كون هذا المكان ساحة مسجد الإجابة.

يروى:

أن النبى ﷺ قد صلى صلاة العصر على أرض خالية لمسجد كائن فى مكان يطلق عليه كندرة فى زقاقه القطب.

وقد بنيت فوق هذه الأرض محال ومنازل ولما لم يسترح سكانها حين إقامتهم فيها وترك المكان خاليا، ثم حولت إلى مسجد. وفى (محاطة) و (قرن مقلة) أرض مسجدين، ويروى أن هذه الأماكن كانت بيعته لأهل مكة يوم الفتح كما يروون أن المسجد الذى فى داخل مستشفى الغرباء من المساجد المأثورة.

الزوايا الشريفة

إفادة خاصة:

فى مكة المعظمة زوايا شريفة وإنها مجمع أولياء الله الصالحين والروحانيين، لذلك بينا أسماءها وأماكنها حتى نسهل لمحبى زيارتها طريق زيارتها فى الجدول الآتى:

الزوايا	الأسماء	الجهات
١-	على القارى	بابها متصل بمقبرة المعلا والحجون.
٢-	الشيخ عبد الوهاب الكبير	فى مكان يطلق عليه حجون.
٣-	الشيخ عبد الوهاب الصغير	فى شعبة النور من مقبرة المعلا.
٤-	ابن عليوان	فى المقبرة السلمانية فى المعلا.
٥-	العباسين	فى الجهة الغربية لمكان يسمى تقا.
٦-	العبادى	فى المحل المسمى فلق.
٧-	الرفاعى	فى الجهة الغربية لسوق المعلى.

الزوايا	الأسماء	الجهات
٨-	الامام النسفى	فى الجهة الغربية لسوق المعلى.
٩-	على البدرى	فى الجهة الغربية لشعب عامر.
١٠-	عبد القادر الكيلانى	فى الجهة الغربية للمدعى.
١١-	الإمام الطبرى	فى موضع سوق الطبرى فى مدعى.
١٢-	الشيخ السمان	فى الجهة الغربية لباب الزيادة.
١٣-	العادلى	فى حى الشامية.
١٤-	أحمد البدرى	فى جودرية.
١٥-	صاحب الجوهرة السلطانى	فى اتصال معسكر «غيرتيه»
١٦-	تاج الدين	فى الجهة الغربية من جب الهندية.
١٧-	الشيخ المسافر	فى حى الشبيكة.
١٨-	عيد روسى	فى حى الشبيكة.
١٩-	المحجوب	فى حى الشبيكة.
٢٠-	خالد بن الوليد	فى الجهة الغربية لحارة الباب.
٢١-	الشاه محمود	فى الجهة الغربية لجرول.
٢٢-	شهداء الفتح	فى مقبرة الشهداء.
٢٣-	سيدنا عمر الفاروق	فى الجهة اليمانية لجبل عمر.
٢٤-	سيد الحداد	فى الجهة اليمانية من جياد.
٢٥-	محمد بن عيسى	كائن فى الصفا.
٢٦-	الشيخ الجزولى	مؤلف دلائل الخيرات فى القشاشية.
٢٧-	بهاء الدين	واقع فى سوق الليل.
٢٨-	الشيخ هارون	فى لصق دائرة الإمارة فى سوق الليل.
٢٩-	الشيخ الشاذلى	فى وادى شطا فى حى القلعة.

* * *

يقول المؤرخ الأزرقى فى تاريخه أن عدد جبال مكة المكرمة يبلغ اثنى عشر ألفا وكتب مؤلف «البحر العميق» أن قمم الجبال التى ذكرها الأزرقى تميل ناحية مكة المكرمة وكعبة الله كأنها تسجد، وهذه الحقيقة تتضح لمن يلقى نظرة على الكعبة من فوق قمة ثبير، ويذكر أنه قد تحقق من ذلك بنفسه.

يقول ابن النقاش من المفسرين الكرام أن صدور هذه الجبال تكنز الذهب والفضة وكثيرا من المجوهرات الأخرى وستنكشف لمن وعد من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكتب أغلب المؤرخين مقالات طويلة فى أوصاف هذه الجبال ومدحها والثناء عليها ولشدة الأسف قد نسيت أسماء هذه الجبال مع مرور الزمن، وغفل الناس عن فضائلها لذا فنحن اكتفينا بذكر أشهرها.

الأثر السادس والأربعون: جبل أبى قبيس:

جبل أبى قبيس أحد الأخشبين وقد سمى بهذا الاسم نسبة لأحد الحدادين من قبيلة «مذحج» الذى صعد فوق هذا الجبل ونصب خيمة وأقام فيها. وهذا الجبل يقع فى الجهة الجنوبية التى تميل إلى الشرق من البيت الحرام، أى فوق جبل الصفا المقدس الذى يقع فى الجهة الشرقية من مكة المكرمة، ويروى أنه أقدم الجبال خلقا.

نظم

لعدم ثبات الأرض جعل ذو الجلال

جعـــل فـــى كـل ناحيـة الجبــال

أول جبل على وجه الأرض استقر

كأنـه الفـــص فـى الخاتـــم قـــر

وقد زين أكثر من نصف هذ الجبل بالمنازل، واستقر فوق ذروته مسجد يسمو

نحو السماء، وبما أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حفظ الحجر الأسود على قمة هذا الجبل قد عرف قديما بجبل الأمن، ويروى المؤرخون فى سبب التسمية ثلاثة أقوال:

الأول: ما ذكر من أن الحداد قد أقام فوق قمته.

السبب الثانى: أن الجبل المذكور أخبر إبراهيم ـ عليه السلام ـ بوجود الحجر الأسود فيه.

والسبب الثالث: أن قبيس قد فرق بين عمرو بن مضاض وعشيقته «منية» وقطعت «منية» صلتها بعمرو الذى كان يحبها حبا جنونيا فنذر أن يقتل قبيسا، ويقضى عليه وكان قبيس قد اطلع على نذر عمرو بقتله، فهرب من خوفه إلى جبل أبى قبيس، ولم يعد مرة أخرى فسمى الجبل بجبل أبى قبيس.

والقول المصدق لدى الجمهور هو القول الأول أما القولان الآخران فلا يعتد بهما لدى أهل مكة، وخلق هذا الجبل قبل الجبال الأخرى، ووقعت معجزة شق القمر فوق هذا الجبل. وبناء على أشهر الأقوال، أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد دعا الناس للحج من فوق قمة هذا الجبل. ومن الأقوال الموثوقة أن الكعبة الشريفة ستزين مثل العروس فوق هذا الجبل مسجد بدون مئذنة من قبل «إبراهيم القيس» وكل واحد من طولى أرضه ثلاثون قدما، وكل واحد من عرض أرضه عشرون قدما، وقد عمره فى سنة ٩٧٧ أحد الخيرين من الهنود، وأضاف له مئذنتين وقبة.

وقد صلى النبى ﷺ على ساحة هذا المسجد فى يوم فتح مكة، كما أن بلالا ـ رضى الله عنه ـ قد أذن فوقه فى ذلك اليوم البهيج، وموقع محراب هذا المسجد هو المكان الذى وقف فيه بلال للأذان كما أن المكان الذى أمامه حيث توجد حجرة هو المكان الذى حفظ فيه الحجر الأسود فى طوفان نوح ـ عليه السلام ـ وعلى قيد (٢٠٠٠) خطوة من الجهة الشرقية لذلك المسجد مرتفع مُحَاطٌ بشىء قديم، ولكن أحد أصحاب البر والإحسان بنى حوله فى سنة ١٢٩١هـ جدارًا فى ارتفاع ذراع، ونصف وهكذا حفظه من كل سوء.

ويروى أن هذا المكان المقدس جلس فيه الرسول ﷺ وقت وقوع معجزة شق القمر، وكل جهة من طولى ذلك المرتفع ثلاثون قدما، وكل جهة عرضية واحد وعشرون قدما، ويعرف هذا المصلى بمسجد شق القمر. **«فتوح الحرمين»**

وبين هذا المسجد سالف الذكر والمصلى حفرة كبيرة، ومما يشتهر بين العوام أنَّ أكل راس شاة مشوى فى هذه الحفرة يمنع الصداع طوال العمر، وهذه القصة قد ترددت على ألسنة أهل مكة، إلا أنها لا أصل لها إن هذه الحفرة موقع مناجاة لأولياء الله، فالجنيد البغدادى، وإبراهيم ابن أدهم، وفريد الدين العطار وأمثالهم كانوا يعتكفون فيها، ويتعبدون أربعين يوما، وعلى قول أن أبا البشر وابنه شيث - عليهما السلام - مدفونان فى هذه الحفرة وهذا ما نقله بعض المؤرخين، طبقًا لرواية أخرى أن قبر آدم - عليه السلام - كان بالقرب من مكان يعرف بـ (غار كنز) بهذا الجبل، فأخذه نوح - عليه السلام - وحمله فى السفينة ثم أعاده إلى موضعه، وبناء على قول ابن كثير والثقاة من المؤرخين أن آدم مدفون فى الهند، ويقول الإمام الأزرقى أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) مدفونون إما فى جبل أبى قبيس أو فى بيت المقدس إلا أن كل هذه الروايات اليست مبنية على سند يصدق.

هناك رواية تنقل أن آدم - عليه السلام - وابنه شيث مدفونان تحت مسجد الخيف، ويدعوان أن هذه الرواية أقوى الروايات المنقولة فى هذا الموضوع، ولكن مع هذا لا يمكن الحكم بصحتها.

اختلف فى المكان الذى أخذ منه التراب الذى خمر لتكوين قالب جسد - آدم عليه السلام - كما اختلف فى مكان قبره، وبناء على الأقوال التى يعتمد على صدقها ويوثق بها: أن التراب الذى شكل منه وجه آدم أخذ من تراب الكعبة العطر، وتراب صدره وظهره من بيت المقدس، وتراب فخذيه من أرض الحجاز، وتراب يديه الحكيمتين من أرض المشرق، وتراب ذراعيه من أرض المغرب، وتراب رأسه من بيت المقدس، وتراب بشرة رأسه وشعره من الجنة، وتراب

رموشه وحاجبيه من تراب حوض الكوثر الطاهر، وعلى رواية أخرى أن تراب رئتيه من الموصل، وتراب طحاله من الحجاز، وتراب بشرة جسمه من الطائف، وتراب جبهته من أرض كنعان، وتراب محل عورته من بابل، وتراب أمعائه وأحشائه من الجزائر، كما أن عظامه مأخوذة من الجبال المختلفة.

إن الاختلاف بين البشر فى الخلق والشكل والهيئة والطباع يرجع لهذا. وانعدام تشابه أولاد آدم وأحفاد بعضهم البعض يرجع لاختلاف مصادر التراب.

وجبل أبى قبيس ليس عظيم الارتفاع، إلا أن ارتفاعه عمودى، فمن صعد تبين، ومع ذلك فإن مشاهدة البيت الأنور من قمته تزيل التعب. وما ذاك إلا أن سطح الكعبة يغمر القلب بغبطة لاسبيل إلى وصفه، وسرعان ما يزيل عنه كل ما يشعر به من تعب ونصب.

* * *

الأثر السابع والأربعون: جبل ثور

جبل مبارك يقع على بعد تسعة أميال وعلى أشهر الأقوال على بعد ثلاثة أميال أو ميلين فى الجهة الجنوبية من مكة المكرمة. وهذا الجبل أضخم قليلا من جبل النور ويرتفع عن الأرض بمقدار (٢٥٠) ذراع معمارى، وسمى باسم من سكنه وهو (ثور بن عبد مناف)، ويقال إن كل ما فى أرض الحجاز من أشجار ونباتات وأزهار تنبت فى هذا الجبل وقيل إن فيه شجرة لو يحمل الإنسان جزءًا صغيرًا مبريا منها لا تمسه أية حشرة مؤذية.

وبالقرب من ذروة هذ الجبل كهف ضيق يصعب الدخول فيه، وقد أقام فيه النبى ﷺ، ثلاثة أيام عندما هاجر إلى المدينة المنورة. وبابه ضيق لدرجة أن طفلا نحيلاً لا يمكنه الدخول فيه، ولكن من حكمة الله أن أضخم الناس جسما يستطيع دخوله والخروج منه، إلا أنه يقتضى الداخل أو الخارج أن يصلى على النبى ويسلم عليه، وباب الكهف ـ مع كونه ضيقا ـ مثقوب على شكل المئذنة من اليمين إلى اليسار فالداخل إذا ما انحرف قليلا إلى اليمين وبعده إلى اليسار يدخله دون أن يلمس شيئا متسربا كمياه جارية، فالذين يدخلون فى الغار يخرجون من مخرجه الواسع فى الجهة الشرقية بعد أداء ركعتين من الصلاة فيه. يتسع لدخول مجموعة من ثلاثة أشخاص معا، إن هذا المدخل قد فتحه جبريل عليه السلام بأجنحته عند خروجه من الغار، لأن النبى ﷺ، دخل فيه من باب الكهف الضيق، ثم خرج من الباب الذى فتحه جبريل ـ عليه السلام ـ لذا ترى الزوار يدخلون فى الغار من الباب الذى فى الجهة الغربية منه، ويخرجون من المخرج الذى فى الجهة الشرقية منه وذلك للتبرك. «**فتوح الحرمين**».

ولما كان ارتفاع جبل ثور عموديا فإنه يصعد من سفحه إلى حيث الكهف فى خمس وأربعين دقيقة، ولكن من يجدّون في الصعود يستطيعون الوصول إليه فى نصف ساعة وفى الجهة الجنوبية من ذلك الغار محل مكشوف آخر.

يقال إن عبد الله بن عباس كتب فيه تفسيره الكبير. وزيارة غار ثور قاصرة بين الأهالى على يوم السبت، ولكن الحجاج يمكنهم أن يزوروه فى كل الأيام، والذين يلجون فى هذا الغار لا يحزنون ولا يغتمون أبد الدهر. إن للغار بابان كما وضحنا أحدهما ضيق، والآخر واسع جدا لأنه فتح بضربة من جناح جبريل ـ عليه السلام ـ ويقال لمن لا يوفق فى دخوله الغار «إنه ليس ابن أبيه».

قصة:

كان فى الزمن القديم رجل غنى جدا وفى فترة ما هلك أولاده وعياله وتلف ماله ولم يبق شىء فى كنفه، ومع هذا لم يكن يحزن أو يغتم، وقد أثارت هذه الحالة عجب أفراد قبيلته وقالوا له يا هذا قد فنى جميع أموالك وعيالك وإنك لا تظهر قدرا ولو قليلا من الحزن والهم كأنك لم تتأثر بما حدث لك؟! ما أعجب حالك؟ وما هذه اللامبالاة؟ وما أصبرك على الكوارث؟!.

فقال لهم: كنت قد سمعت من أحد الأشخاص أن الذى يدخل فى غار ثور لا يحزن لما يصيبه من مصائب الدهر الفانى؛ لذا دخلت فى هذا الغار بكل صدق وإيمان؛ ومنذ ذلك اليوم لم أتأثر لأية مصيبة ولم أتأسف لضياع شئ حتى إننى لا أعرف ما هو الحزن أو الألم بل نسيتهما فاستعجب قومه.

الأثر الثامن والأربعون: جبل حراء:

هو اسم آخر لجبل النور الذى بدأ فيه نزول الوحى. ويقع هذا الجبل فيما بين مكة المكرمة ومنى فى الجهة الشامية من بلدة الله، وعلى بعد ثلاثة أميال (أوساعة واحدة) من المسجد الحرام بين الجبل المذكور وجبل ثبير الذى أمامه واد سعيد، يعنى أن (جبل النور وجبل ثبير) كلاهما يظلان على يسار الذاهبين إلى

منى، وقد حدثت واقعة شق الصدر فوق جبل النور، وقد بنى فوق أرض المكان الذى حدث فيه شق الصدر مسجد لطيف، وداخل مسطح هذا المسجد ستون قدما مربعا، والقبة التى فوق مبانيه تظهر من بعد ساعتين. وفى داخل هذا المسجد صخرة طويلة مجوفة، ويقال إن هذا المكان كان متكأ الرسول ﷺ فى أثناء شق صدره الشريف.

والغار اللطيف الذى نزلت فيه سورة ﴿اقرأ﴾ يقع على بعد خمسمائة خطوة فى الجهة الجنوبية من مسجد شق الصدر، فالزوار ينالون آمالهم بالزيارة سواء أكان الغار المذكور أو المسجد سالف الذكر، ولهذا الغار منفذ فى الجهة الجنوبية حيث تظهرمنه مكة المكرمة تماما وقد ثبت بالروايات الموثوقة أن النبى ﷺ كان يتعبد فى هذا الغار قبل البعثة.

من الأشياء المهمة التى اختلف عليها علماء الأسلاف طريقة عبادة النبى ﷺ قبل البعثة. إذ قال بعض العلماء إنه كان يفكر فى آيات الله، وفى الكون ومصنوعاته. وقال البعض كان يتذكر خلق الكائنات. وقال البعض إنه كان يتنسك ببعض الأعمال غير المنسوخة من دين موسى. وقال البعض وكان متمسكا بشريعة إبراهيم - عليه السلام - وقال البعض كان يتعبد بالأحكام الصحيحة للشرائع السابقة. وإن كان القول الأخير يبدو مرجحا على الأقوال الأخرى، ولكن بناء على أصح الأقوال وأوثق الروايات أنه كان يعمل وفق الأحكام الباقية من شريعة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لأن طائفة العرب كانوا يعملون بأحكام من بقايا دين إسماعيل مثل الحج، والختان، وإرجاع زوجاتهم بعد الطلقة الأولى والثانية، واعتبار فدية الرجل مائة جمل، والاغتسال من الجنابة، والمضمضة والاستنشاق واستخدام السواك، وتحريم ذات المحارم، والاستنجاء، وتقليم الأظافر، واستخدام الشفرة، وقطع اليد اليمنى للص.

وقد عمل نبى آخر الزمان وفقا لهذا أعمال العرب وعاداتهم، وكان يجتهد فى الأعمال الأخرى حتى إذا ما اقتنع بأن ما يفعله من الأعمال حسنًا فيعمل به، ولم

يلتفت النبى ﷺ إلى الأصنام والأوثان فى صباه ولم يبال بأقوال الذين كانوا يرجون ألا يحقر الأصنام.

ويمكن الوصول إلى مسجد شق الصدر بسير بطئ من سفح الجبل فى نصف ساعة، ويمكن الصعود إليه فى عشرين دقيقة بسير معتدل.

كان الاسم الأصلى لجبل النور (جبل حراء)، وبما أن نور شمس النبوة أشرقت من هذا المكان وبما أن النبي ﷺ قد تعبد فيه مدة طويلة قبل البعثة؛ أطلق عليه (جبل النور). وكان العرب يراعون جانب هذا الجبل، وفوقه صهريج قديم خرب يمتلىء بالمياه كلما هطلت الأمطار.

ويجدد الزوار وضوءهم عند ذلك الصهريج ويستريحون جالسين فى المقهى الذى بجانبه، وليس المقهى مثل المقاهى المبنية من اللبن والحجارة ولكنه مجرد خيمة عادية.

رواية:

كان النبى ﷺ قد اختفى فى جبل ثبير، فناداه جبل ثبير قائلا: يا رسول الله ابتعد عنى بما أنه لا مكان للاختفاء على ظهرى وأخاف أن يراك القرشيون فيؤذونك، ورجاه أن ينتقل إلى جبل آخر وعقب ذلك سمع صوتا هاتفا من جبل حراء يقول: يا رسول الله! تفضل عندى إننى أستطيع أن أحافظ عليك. وهذا ما ينقله الإمام السهيلى فى كتابه «الروض الأنف».

وخرج صاحب «البحر العميق» قائلا: إن النبى ﷺ لم يختف فى مكان آخر غير غار ثور؛ إلا أن الإمام الأزرقى قال «عندما كانت قريش تبحث عنه كان فوق جبل ثبير، حتى قال الجبل (يا رسول الله لا تبق فوقى لأننى أخاف أن يهجم عليك الكفار، ويقتلونك فأتعرض لعقاب ربى) وقال جبل حراء: «يار سول الله أقبل إلى» فترك النبى ﷺ جبل ثبير وذهب إلى جبل حراء حيث اختفى من قريش، وقال أن هذه الواقعة غير واقعة جبل ثور، وبهذا أيد الإمام السهيلى وخرج قول صاحب البحر العميق.

ولا نهاية لفضائل وعجائب جبل النور، يقول المرحوم مؤلف (بهجة النفوس) إننى كنت أذهب فى بعض الأيام لزيارة جبل النور وفى يوم الجمعة بعد الظهر من جمادى الأولى سنة ٧٥٣ صعدت فوق قمة ذلك الجبل لزيارته كالعادة، ولما وصل إلى سمعى أصوات عجيبة من الأحجار رفعت من على الأرض بعض الحجارة، وأخذت الحجارة تصيح فى كفى وكانت الأصوات تسمع من مسافة قدر طول إنسان. ولما فهمت أن تلك الأحجار تسبح الله وتقدسه، أخذت أدعو الله قدر استطاعتى وفى أثناء ذلك غابت الشمس خلف السحب، ولما ظهرت الشمس بعد فترة انقطعت صيحات الحجارة، وعندما غابت الشمس مرة أخرى خلف الغيم أخذت الحجارة كلها تصيح، وقد أصبحت تحت ظل السحب. وبما أن الساعة قد وصلت إلى العاشرة لم أستطع أن أبقى أكثر من ذلك، فعدت وأصبحت أسمع صيحات الحجارة وأنا بعيد عن سفح الجبل بمائة خطوة، فرويت لأبى ما سمعت، فقال لى قد حدث لى أيضا هذا الحال عدة مرات، إذ كنت أذهب إلى زيارته مع بعض الرجال، ورأيت أحد كبراء البلد يلتقط بعض الحجارة من الأرض. فسألته فأجاب قائلا (كل هذه ذهب خالص ونفقتى السنوية).

يروى أن المرحوم المرجانى قد زار الجبل مع بعض أصدقائه، وسمع أن الحجارة تصيح وتسبح كما سمع بعض أصحابه.

نظم

إنه على بعد ميلين من «المعلا» إنه جبل نور تناطح قمته الجوزاء

إن ياقوت «بدخشان» لا يلتمع أمام جوهره وقرص الشمس والقمر فى سفحه

إن رمله وهج نور يمحو قصة موسى وتجلى الطور

ولو أن الياقوت فى «بدخشان» فان فى هذا الجبل يكن الدر اليتيم

فى حبة واحدة أعوام وشهور والرسول الذى لم يكن قد رأى طلعة جبريل

نزل عليه فى هذه الدار فجأة ولما شق القمر صدره الطاهر

غسلـــــه فـــــى هـــــــذا البيـــــت بأنـــــوار الحـــــق...

«تحفة الحرمين»

الأثر التاسع والأربعون: جبل خندمة:

جبل كبير يقابل جبال أجياد وشعب عامر خلف جبل أبى قبيس. وقد نقل الإمام الفاكهى عن ابن عباس قال: قد دفن فى هذا الجبل سبعون نبيا وبسببهم تهطل الأمطار على مكة ببركاتهم.

الأثر الخمسون: جبل ثبير:

هو أعظم الجبال التى تواجه غار المرسلات الموجود فى منى. ويطلق على الجبل الذى يقع يمين المتجه من منى إلى مكة المكرمة. كما يطلق على الجبال التى تقع على يسراه «جبل ثقبة» وترتفع جبال الجهتين عن الأرض ستة أمتار، وسبب تسميته بذلك الاسم أن واحدا من قبيلة بنى هذيل المسمى ثبير قد مات فوق ذلك الجبل المبجل.

قال القاضى مجد الدين الفيروزابادى نقلا عن المفسر النقاش أن هذ الجبل أيضا من المواقع التى يستجاب فيها الدعاء، ولكنه لم يبين وقت التوجه بالدعاء، ولكن الأسلاف الكرام قالوا يجوز الدعاء فى أى وقت كان.

قال المفسر النقاش أن جبال: النور والثور وجبل ثبير قطع من جبل الطور فحينما تجلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على جبل الطور سقطت عدة قطع من ذلك الجبل، وثلاثة منها سقطت على مكة المعظمة، وقد ذكرنا آنفا أن النبى ﷺ قد شرف غار حراء واختفى من كفار مكة المخذولين.

إضافة

قد حققت ما قاله الإمام الأزرقى عن وجود اثنى عشر ألف جبل حول مكة المعظمة، فتأكدت من صدق قوله لأن حول بلد الله الأمين ما لا يحصى ولا يعد من الجبال، وكل هذه الجبال متصلة متسلسلة، وقد نسيت أسماء أكثرها كما ذكر فى مبدأ المقال.

والجبال مضبوطة الأسماء غير التى ذكر من الجبال المأثورة هى: زرود[١] رقمتين، سلع[٢]، قعيقعانا[٣]، حاجر، أذاخر، منحنى، شامة، طفيل، حجون مصافى، صفا، مروة، معترضة، عرفات، مأزمين[٤]، قزح[٥]، صراصر، مفجر، مضايق[٦]، سبع البنات[٧]، جبل عمر[٨]، جبل الكعبة[٩]، نعيم، نعيمان[١٠]، كدا[١١]، أخشبان[١٢]، جبل الكحل، ثبير الخضراء، ثبير النضع، ثبير الزنج، ثبير الأعرج، ثبير أعنيا، قرا[١٣]، جبل أيوب، جبل سبوع[١٤].

لا يوجد فى زماننا رجل يخبرنا بأسماء الاثنى عشر ألفا من الجبال التى قال عنها الإمام الأزرقى، كما أنه لا يوجد كتاب تاريخ مفصل موثوق يدلنا على هذه الجبال، ولكننا مع ذلك لا نملك إلا أن نصدق ما قاله صاحب كتاب البحر العميق: بأن من يلقى نظرة من فوق جبل ثبير على مكة المكرمة يرى أن جميع الجبال منحنية نحو الكعبة المعظمة كأنها تسجد لها.

أوقات الدعاء وساعاته

بين العلماء الأعلام أوقات الدعاء فى الأماكن المقدسة وساعاته على اختلاف فيما بينهم، وقالوا يستجاب الدعاء عند الدخول إلى الحرم الشريف من باب بنى

(١) الجبل الذى يشرف على ابطح.
(٢) يطل عليه جبل فلق أيضا.
(٣) على ظهر أبى قبيس جرهم تقع أسلحته عندما وصلها هناك لذلك سمى بهذا الاسم.
(٤) يقال لهذه الجبال الأخشبان أيضا.
(٥) اسم المسجد الحرام ويوجد فى المزدلفة.
(٦) هذا الجبل يقع أمام الحوض الكبير لبركة السلام الواقعة فى وادى محسر.
(٧) من جبال أجياد.
(٨) هذا الجبل أيضا من جبال اجياد وقد ولد هناك عمر بن الخطاب (رضى الله عنه).
(٩) أخذت أحجار أجياد من هذا الجبل لتعمير بيت الله الحرام.
(١٠) يسمى وادى التنعيم السهل الواقع بين الجبلين ومسجد عائشة فيما بين الواديين.
(١١) هذا الجبل يتصل بوادى سليم.
(١٢) هما جبلان أحدهما جبل أبى قبيس والآخر الجبل الأحمر الذى يشرف على جبل قعيقعان ويقال للجبلين فى منى أيضا الأخشبان.
(١٣) يبدأ هذ الجبل من عدن ويشكل شعبا كثيرة حتى يتصل بجبل الطور وهى أعلى جبال الحجاز.
(١٤) هذان الجبلان من الجبال المرتفعة أيضا وتقع فى الجهة الشمالية من مكة المكرمة.

شيبة فى أى وقت كان، وفى ليالى الجمعة فى بيت السيدة خديجة الكبرى ـ رضى الله عنها ـ وفى أيام الاثنين عند المولد النبوى وعند الزوال، وفى أيام الأربعاء عند مسجد الشجرة، وفى أيام الأحد فى مسجد المتكأ صباحا، وعند الظهر يوم السبت عند جبل ثبير ومسجد نمرة ومسجد نمل[١]، وفى أوقات السحور عند الميزاب الذهبى ومقام إبراهيم وخلفه، وأوقات الفجر[٢] عند «الركن اليمانى»، وفى منتصف النهار عند الحجر الأسود. وفى منتصف الليالى عند الملتزم، وفى أوقات العصر عند الصفا والمروة، وفى أوقات غروب الشمس فى داخل أبنية بئر زمزم، وفى دار الأرقم وفى ليالى البدور فى منى، وعند طلوع الشمس فى المزدلفة، وعند غروب الشمس فى مسجد صخرة عرفات، وعند الطواف فى المطاف وفى الأماكن الأخرى.

مبرك الناقة:

مكان محدب مثل القبر قرب باب العمرة. ويزوره الناس على أنه قبر مشهور مع أنه مبرك ناقة السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لأنها عندما اعتمرت أبركوا ناقتها فى هذا المكان، فنزلت فيها ودخلت فى الحرم الشريف، وطافت بالبيت، وإن زيارة هذا المكان لا تخلو من فائدة، إلا أنه يلزم زيارته على أنه مبرك ناقة السيدة عائشة وليس قبر بثبوت لزوم الإرشاد.

ولما كان هذا الكتاب يحتوى على مآثر مكة المعظمة التى أنبأتنا بها كتب التاريخ، فلا يظن أن هذا سيغنى الحجاج الكرام من اتخاذ الأدلاء؛ لذا يجب على الذين يلبسون ملابس الإحرام لأداء فريضة الحج أن يتخذوا دليلا من أهل مكة، وصحيح أن هؤلاء الأدلاء ليس عندهم فكرة عن التاريخ، وعما يخبره المؤرخون، ولكنهم بحكم وجودهم فى مكة المكرمة وحياتهم فيها فهم يعرفون آداب السعى والطواف وأركان الحج أكثر من المؤرخين.

(١) لا يوجد فى زماننا من يعرف مكان مسجد النمل.

(٢) الفجر هو الوقت الذى يجوز فيه أداء صلاة الصبح، أما السحر فهو وقت الظلمة قبل الفجر، وفى وقت السحر يجوز للصائم أن يتناول الطعام لذا يسمى هذ الطعام السحور. هذا هو الفرق بين الفجر والسحر.

ومهما كان الإنسان مطلعا على التاريخ وتعلم ما يخص المناسك وكان متبحراً في العلوم فهو في حاجة إلى دليل عند زيارته للمآثر المبروكة، وأن طفلا من أهل مكة في الخامسة أو السادسة من عمره يمكنه أن يخجل في آداب الزيارة، وتعيين مواقعها ومعرفة آثار مكة المتبحر فريد عصره ووحيد دهره، إن في عصرنا هذا من المستحيل أن نجد عالما متبحرا في تحليل المسائل الفقهية والشرعية ودقائقها مثل الإمام الأعظم أبي حنيفة رحمة الله.

قد أوجب الإمام الأعظم ـ الذي يُسَلَّمُ بفضله وكماله ـ اتخاذ دليل للحاج. ولا يقال ما دامت كتب المناسك في اليد والمعلومات التاريخية في الحافظة فما لزوم الدليل؟

وفي الواقع أن كتب المناسك والمعلومات التاريخية يمكنهما أن تكونا رفيقين شقيقين للحاج، وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار، إلا أن الشخص المتبحر الذي تعلم مسائل الحج من كتب المناسك، وتعرف على الآثار الشريفة بواسطة كتب التاريخ، ثم حج معتمدا على هذه الأشياء يشبه ربان الباخرة، فمثل هذا الربان لا يستطيع أن يقترب من الشطآن المجهولة معتمدا على المعلومات الغنية للشخص المكلف بحسابات السفينة، وما معه من الخرائط ومتانة آلات الباخرة وسائر أدواتها، صحيح أنه قد يصل إلى المكان الذي يقصده بدلالة البوصلة ومتانة الآلات والأدوات الأخرى، ويمكنه أن يتجافى مخاطر العواصف والأعاصير المتوقعة، وأنه قد يصل إلى شاطئ السلامة، لكن مع كل هذا لا يمكنه أن يستغني عن الدليل المرشد الذي يعرف أماكن الجزر والمضايق والرمال التي لا تستقر فيها المرساة والجرف، وكل ربان يخرج إلى البحر بدون أن يأخذ معه دليلا بدافع تعنته وغروره الأناني، يكون قد ألقى بأرواح المسافرين معه في بحر الهلاك.

وكذلك تعطي كتب المناسك والتاريخ معلومات صحيحة ومكملة، إلا أنه يحتاج إلى دليل عند زيارة الآثار، دليل يوضح له الآثار، وآداب زيارتها وكيفية تصرفه عند وجوده عندها، لأن الكتب لا تستطيع أن تؤدي الخدمة التي يؤديها

الدليل. وبناء على ذلك يقتصر اختيار الدليل على كونه من أهل مكة. وبما أن قبلة الموحدين الكعبة المعظمة المفخمة تقع فى واد غير ذى زرع؛ فأغلب سكانها يتعايشون بالدلالة وسقاية الحجاج. والقليلون منهم يشتغلون بالخياطة والعطارة وغيرها من أعمال البيع والشراء وتمر الحياة عندهم. وكانت مهنة الدلالة المهمة فى صدر الإسلام وقصرا على خمسة أو عشرة أشخاص، وفيما بعد تعددت البلاد الإسلامية وأصبح من الواجب تعيين دليل خاص لكل بلد من البلاد الإسلامية. وفى زماننا أدلة خاصة سواء أكان للمسالك العثمانية أو الممالك الموجودة فى البلاد الأجنبية، فالحاج عندما يصل إلى مكة فمن الأمور الواجب إتباعها الاتصال بدليل بلاده ومراجعته، فإذا ما لجأ إلى دليل آخر غير الدليل الذى عين من أجل بلاده يكون قد ألقى نار الخصومة بين الدليلين، وقد صدرت مثل هذه الخصومات فيما مضى كثيرا حتى قام الأهالى بعضهم ضد بعض، لأجل ذلك قرر أن يكون لكل دليل وكيل فى مرفأ جده المعمورة، يستقبل الحجاج التابعين له وكان قرارا سديدا.

وبما أن للعساكر السلطانية دليلا بريا ودليلا بحريا معينان بالأمر العالى فهم مستثنون من مراجعة أدلاء البلاد، إذا كان الجندى الحاج من الجنود النظاميين يراجع دليل الجنود النظاميين، وإذا كان بحريا يراجع دليل البحرية، ودليل الجنود النظاميين الشيخ محمد أفندى، ودليل العساكر البحرية الشيخ أحمد حوائى أفندى، وخدم أحمد حوائى أفندى فى داخل البيت الأكرم ما يقرب من خمس عشرة عاما، وقد اضطر أن يختار دلالة البحرية حتى لا يقصر فى خدمة الحرم الشريف بسبب شيخوخته، وكان يؤوى جميع ضباط البحرية وأنفارها الذين يحجون فى منزله دون أجر، إذ كان رجلا سخيا كريما رغم فقره، وقد ارتحل عن دنيانا سنة (١٢٩٩هـ) تاركا مهنته لابنيه عبد الكريم ويوسف وكلاء السادة الأدلاء فى مدينة جده، إن وكلاء جده يترقبون وصول البواخر، وعندما تأتى البواخر يستقبلون الحجاج الذين ينتسبون إليهم، ويأخذونهم إلى البيوت أو المنازل حيث يؤونهم، ثم يوصلونهم إلى مكة المكرمة بعد وصولهم بثلاثة أيام أو أربعة

أيام، بعد أن يعدوا لهم الجمال التى ستنقلهم إليها، وبعدما يكونون قد أروهم الأماكن التى تزار فى جده، وبعد العصر يذهب إلى مكة المكرمة من جده، إما بحمار أو جمل، والذين يذهبون بالجمال يصلون إلى مكة المكرمة فى ليلتين والذين يركبون الحمير فى ليلة واحدة، ويعلم الوكلاء الأدلاء قبل وصول الحجاج المنتسبين إليهم بالبريد، ويبينون فى رسالتهم عدد الحجاج وأسماء الجمالين الذين حملوا الحجاج وأسماءهم وينتظرونهم ليلة وصولهم فى خارج المدينة ويستقبلونهم.

إن استقبال أدلاء مكة الحجاج قد اتخذ توصيل الحجاج إلى مكة ليلا نظاما لدى الجمالين لذا ترى الدليل الذى استلم رسالة من جده يخرج إلى ضريح الشيخ محمود قبل وصول قافلة جده بعدة ساعات، وينتظرون وعندما تصل القافلة يقفون أمام الجمال ويبادرون فى البحث عن حجاجهم قائلين:

هل السيد الفلانى من المكان الفلانى موجود هنا؟ والحجاج الذين يجدونهم يبعثونهم إلى منازلهم فى رفقة أبنائهم أو خدمهم، ويجد الأدلاء حجاج الممالك التى يتولون دلالتهم، ويرحبوا بهم أعظم ترحيب ويرسلونهم إلى منازلهم، ويضع الأدلاء الأشياء التى على الجمال فى أماكنها المطلوبة، ثم يأخذونهم إلى المسجد الحرام حيث يقومون بمناسك الحج من الطواف والسعى، وبعد مرور عدة أيام يهيئ لهم الدليل وكالة حيث يأويهم.

ويعتبر حفل الضيافة الذى يقيمه الأدلاء من العادات الطيبة القديمة لدى الأدلاء. وإقامة وليمة عظيمة للحجاج بعدما يتم تسكينهم فى الوكالات حتى لو كان حاجا واحدا. ويطوف به الكعبة طوال وجود الحاج فى مكة المكرمة.

الخدمات التى يؤديها الأدلاء للحجاج:

لما كان الحجاج محتاجين لعون أدلائهم سواء كان فى الطواف والزيارة والبيع والشراء فى النهوض والحركة، فالأدلاء يفتخرون بأداء هذه الخدمات للحجاج بكل صدق وإخلاص.

ومن هنا ترى أن الدليل يقابل الحاج منفردًا عدة مرات، ويستفسر عن حاله ويهيئ له ما يحتاج إليه.

كيف يقابل الحجاج خدمات الأدلاء:

ذكرنا الخدمات التى يؤديها الأدلاء للحجاج فهم يقابلون هذه الخدمات والترحيب بالنقود، وكل حاج يرى دينا عليه أن يدفع عقب الوليمة التى تقام له قدرا من النقود حسب حاله.

وفى عيد الفطر يوم عودته مقدارا من النقود، وكذلك ينفحه من أسبوع لآخر عدة قروش، وبما أنه يلزم إعطاء وكيل الدليل الذى فى جده بعض النقود يعطى، الحاج فى اليوم الذى يتحرك من جده إلى مكة المكرمة مقدارا مناسبا من النقود كهدية، وكل هذه الهدايا تعد من نوع الصدقة الشرعية.

وكل هذه الأشياء يمكن تحقيقها باللجوء إلى ظل السلطان الظليل، السلطان عبد الحميد الثانى، إمام المسلمين، وخليفة الأرض وبالدعاء إلى الله بمد عمره وزيادة قوة دولته كما هو مبين فى الخاتمة الآتية الذكر؛ لأن تأمين الحرمين المحترمين من تسلط المتسلطين وإخلائهما من اللصوص الناهبين وجعلهما ساحة آمنة مصونة، يؤدى الحجاج فيهما مناسكهما فرحين مبتهجين آمنين؛ متوقف على وجود خليفة ذو صفات قدسية وأولاده وأحفاده إلى يوم القيامة على وجود خليفة عادل كل همه: خير الأمة الإسلامية.

* * *

ضرورة وجود السلطان ووجوب الطاعة والانقياد له

إن السلامة والفلاح سواء أكانت فى هذه الدنيا ساحة تجلى القدرات، أو فى حياة الآخرة الباقية يتوقف على وجوب الطاعة والخضوع لأوامر خليفة العصر ونواهى السلطان الذى يصدق عليه معنى الأثر القائل والسلطان ظل الله فى الأرض، ويأوى إليه كل مظلوم.

كان علماء السلف الصالح يرجعون إلى السلاطين أصحاب الإمامة والخلافة فى عصورهم لحل الخلافات، وإزالة الشبهات؛ وهذا يدل دلالة قطعية على وجوب عرض الأمور الهامة على إمام المسلمين للعصر فى كل آن وزمان، ولكن حتى تكون الإجابة الصادرة من جانب الخليفة حائزة لرضا الله - سبحانه وتعالى - يجب على العلماء أن يوضحوا كل فقرة من فقرات القضية المفروضة وفقا للقواعد الشريفة القومية، حتى تصان الأجوبة التى ستصدر مؤيدة بإلهام إلهى من شائبة الإبهام والشك، وحتى لا تظهر الإجابة منافية للمقصود، لعدم وضوح المسائل المعروضة، ومع هذا فنظرة الخلفاء الثاقبة وأحكامهم تشمل على خلاصة الأمور الهامة المعروضة عليه ومضمونها العام لأن الخلافة وأعبائها الثقيلة التى يحملونها فوق أكتافهم تحول دون الاطلاع على مفردات الأمور وجزئياتها.

ولما كان الخلفاء مطمئنين واثقين من أن تدقيق الأمور وتحقيقها تقع على أكتاف العلماء والوزراء، كما أنهم مسئولون عن موافقة المسائل المعروضة للأحكام الشرعية والقوانين العرفية، وهذه قاعدة مشروعة متفق عليها بالإجماع، فتدقيق المسائل وتحقيقها يخرجان عن إطار مهماتهم المقدسة، ومن هنا فالمسئولية المادية والمعنوية تقع على كاهل عارضى المسائل.

فإذا ما اطلع على أى صحيفة من صفحات كتب التاريخ القديمة فى العالم،

وإذا ما دقق وحقق فى المعاملات الجارية للأقوام الذين أتوا إلى الدنيا، مكمن العبر ثم غادروها وعمّق النظر فيها لسَلَّمَ أن الدنيا ليست دار ثواب وعقاب، ولكنها نموذج للحياة الآخرة بكل ما فيها من المجازاة الشرعية وقوانينها العرفية، هذه هى خلاصة الخلاصة التى تستنبط من فحوى الكتب الشرعية.

وإن كان لا ينكر أن الدنيا دار كسب وعمل وتقدم، إلا أن الحصول على السعادة المطلوبة فى الدنيا والآخرة والتمتع بالنعم الجليلة والأخذ بالحظ الوافر منهما يتوقف على الانصياع لأوامر الخليفة المقتدى به وتدابيره. ولما كان منصب الخلافة أصلا قويما يجمع بين المناصب الدينية والدنيوية فقد فوض تنظيم أمور العباد وفقا للقوانين الشرعية، والحكم والتصرف ليد الخليفة القديرة، فالخدمات الدينية والوظائف التى توجه إلى رجال الدولة والمصالح العامة برمتها متشعبة من ذلك الأصل ومتفرعة منه.

وإذا لم يخف بنو البشر من سياسة الخوف والجزاء لأخلوا بالنظام وراحة الناس بحكم طبيعتهم البشرية، ولقاموا بارتكاب أعمال غير مرضية. إن ضرورة وجود خليفة مقتدر به فى كل عصر قد ثبت بالنص الجليل:

﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ﴾ (ص: ٢٦)

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق ورتب وسائل صيانة صلاح بنى البشر ونظام معاده ومعاشه خاليا وجوده وبقائه من الفساد والخلل وفق الحكمة الربانية، وجعل الخليفة وسيلة فى تدبير أموره لأن ترك بنى البشر لأنفسهم يؤدى إلى الظلم والبغى والتعدى وإفنائهم وانقطاع نسلهم وانفصامهم.

وهذه الحال تنافى أحكام المشيئة الإلهية، لهذا لزم وجود خليفة حكيم قادر على دفع الظلم والعدوان، مدبر للشئون محافظة على حياة الإنسانية، وعلى هذا يجب أن تقوم صلاحية الخليفة الشرعية وأن نعلم مَنْ ذلك الشخص الذى يستحق أن يطلق عليه اسم الخليفة.

وقسم حكماء علماء الإسلام حكومة الملوك وسياستهم التى تكفل انتظام حياتهم الدنيوية وأحوالها إلى ثلاثة أقسام هى الخلافة، السياسة والطبيعية.

الخلافة:

إحدى أقسام الحكومات الثلاثة ويطلق عليها الإمامة أيضا حكومة الخلافة، وهى دولة عادلة وسلطنة فاضلة. ويقوم صاحب هذه الدولة بجعل أحكام الشريعة نصب عينيه فى جميع الأمور العامة والخاصة. وبما أنه يحكم ويتصرف فى عامة المصالح الدينية والدنيوية وفقا لقوانين الشرع والعدل فمدار الخلافة الأصلى هو حفظ قواعد الشريعة، وضبط سياسة الأمة قائمًا مقام صاحب الشريعة (عليه أفضل التحية)، وكائنا سلطانا ذو شوكة وقوة، وبناء على هذا سمى هذا النوع من الملك والحكومة: «الخلافة».

٢ ـ يطلق على القسم الثانى من الحكومات الثلاث حكومة سياسية. لما كان هذا النوع من الحكومة سلطنة فالهيئة التى تشكل هذه الحكومة تتخذ إعمال الفكر والنظر دستورًا لها، وتدبر دولتها بما ينظم عقلاؤها وحكماؤها من القوانين والنظم.

إن النظم والقوانين التى رتبت بناء على العقل البشرى القاصر والفكر الفاتر لا تستطيع أن تؤمن ما يحتاج إليه الأفراد من سبل المعاش، وتنظيم أمور المعاد كما يبين ذلك قول الله ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (الروم: ٧)

فمثل هذه السلطنة التى تنشغل بالمنافع الدنيوية فقط ليست مقبولة لدى الشرعيين.

٣ ـ يسمى النوع الثالث من الحكومات حكومة طبيعية لا يأخذ المفسرون الساعون إلى تشكيل الحكومة التى يطلق عليها حكومة طبيعية فى الاعتبار

مقتضيات العقل والشرع، وإنما يقصرون حكمهم ـ مثال قطاع الطرق والبغاة الظلمة ـ على العنف وغصب الأموال وقتل النفوس والحركات غير المشروعة والتعديات الظالمة.

وبما أن هؤلاء قد سلموا زمام أمرهم وتدبيرهم للنفس الأمارة بالسوء، ولما كان بصرهم وبصيرتهم فى غاية الظلام من ناحية الخير، فهم لا يستهدون إلى الخير أبدا، ولا يسلمون أبدا من الخطأ والقتل وفقا لمدلول قول الله تعالى:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠)

وقد أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على البشر بالعقل والقدرة والرشد والبصيرة، وبين لهم فى الكتب المنزلة ما ينفعهم ويصلح من شأنهم، وما يخص معاشهم ومعادهم، وحذرهم من الانهماك فى الشرور والمفاسد، لأن جزاء الخير والشر يعود لفاعله، وانقراض دول ملوك الطوائف وبغاة المسلمين الذين لوثت أفعالهم المذمومة صفحات كتب التاريخ لدليل واضح على إثبات ذلك.

قد انقرضت تلك الدول بظهور سلاطين الدول الإسلامية الذين حكموا بالعدل، وكانت القوة والمتانة من أحلافهم، وبناء على هذا من واجب الأمة البحث عن إمام عادل تعيش تحت حكومته العادلة وسلطنته الفاضلة، وقد ثبت ذلك باتفاق آراء الصحابة العظام والتابعين الكرام واتفق على هذا علماء المسلمين الأعلام بإجماع الأمة، وحينما ارتحل النبى ﷺ، عن دنيانا إلى مقر الراحة الأبدية أسرع الصحابة بمبايعة الصديق الأكبر.

ومازالت البيعة تجرى على هذا النهج إلى عصرنا هذا، ولم يترك أحد هذه السنة السليمة الغاية فى أى عصر من العصور مدعيا الانفراد والاستقلال برأيه، والإجماع القطعى سند قوى فى الدلالة على الأحكام الشرعية وصحتها، وبناءا

على هذا يكون قد ثبت وجوب انخراط المسلمين فى كل العصور فى سلك إدارة خليفة ثابت بأدلة قطعية لدى المسلمين.

وطاعة خليفة العصر والزمان واجبة شرعا، وكذا الخضوع لكل أوامره ونواهيه التى توافق القوانين العادلة التى اقتبست من مشكاة أنوار الشريعة الغراء. ومن المصلحة العامة إخراجها إلى حيز الوجود، كما يجب شرعا تنفيذ أوامر إمام المسلمين إذا كان ما طلب من الإنسان مباحا، وكان الخليفة يؤدى مهمة الخلافة وأفعالها وفقا للأحكام الشرعية ويطبقها فقد صرح له أن يستقل برأيه فى اتخاذ القرارات بناء على قول الله تعالى ﴿ **فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١٥٩) وإن كان مأمورا باستشارة عقلاء قومه، فإن الذى يتولى مقام الخلافة الجليل ملهم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومؤيد بأوامره ونواهيه، وبما أن السلاطين العثمانيين أعدل من ملوك الأسلاف فى إجراءاتهم الدينية وحركاتهم بأدلة شرعية متعددة، وإنهم أتم وأكمل منهم فى خدمة الدين ورعاية جانبه، وبما أن أساس سلطنتهم مبنى على قواعد الشرع الكريم؛ فكل أمر يصدر من مقام الخلافة الجليل وفى أى وقت فالخضوع له وتنفيذه قد وصل إلى درجة الوجوب، ويكفى لإيضاح هذه الحقيقة أن سكان الأراضى الحجازية السعيدة التى كانت مطلع أنوار الإيمان والدين، وهدف المسلمين وغايتهم يراجعون دار الخلافة السنية لإزالة شبهاتهم الدينية، وحل خلافاتهم، ويستدل على مراعاة السلاطين العثمانيين فى أعمالهم وأفعالهم الموافقة لتعاليم الدين العديد من الكتب التى تزين دور الكتب مصنفات الأسلاف القيمة، حتى أن رمزا من رموز العلوم الباقية وهو عثمان باشا الغازى كان قد كتب عدة كتب قبل أن يرفع علمه مغادرا الحياة، يظهر فيها عدالة سلاطين الدولة العثمانية، وكيفية استهلال حكمهم وكيف يستطيع رعاياهم أن يعيشوا قريرى العين، مرفهين آمنين تحت حمايتهم.

وندرج هنا ما كتبه سيد الآراء والقدسية المعنوية وصدرها السيد «صدر الدين» القنوى فى مقال له فى شرح الشجرة كما هى حتى نقيم دليلا على مدعانا.

صورة المقالة

واعلم أن لهذه الدولة تأصيل نسب وعلو مرتبة بأصل صحيح، يعلم منه شرف مقاماتهم العلية، وذلك التأصيل فى الآية الشريفة قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ (فاطر: ٣٢)

فقد دخلوا ضمن الآية الشريفة لكونهم من أمة محمد ﷺ، مع من أشارت إليه الآية فلاشك أنهم فى سلكها مُنْدَرِجُونَ ومن التأصيل المشار إليه أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ أى الصلاحية لهم، فهم بالنسبة لغيرهم من أصلح الدول بعد الصحابة والتابعين؛ لوجود النعت فيهم وانقيادهم للشرع الشريف، وتمكينهم من رتبة العبادة والخدمة كالصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وملازمة الجماعة واتباع السنة وحسن العقيدة، وقل أن يوجد ذلك بكماله فى دولة من الدول الذين تقدموا وأما لفظة (لبلاغًا) فهى إشارة تفيد العلم بالوقت المنتظر، وكفى بذلك توفيقًا لمن أيقظه الله تعالى وفتح عين بصيرته فرأى الصلاح فيهم ظاهرا، وسيظهر ذلك إن شاء الله تعالى ونشاهده عند ظهور دولتهم، فافهم.

فائدة عظيمة، لا يستغنى عنها:

اعلم أن ظهور هذه الدولة قد حكاه ونبه عليه صاحب الأصل فى خطبة البيان بإشارة واضحة. وذكر أن ظهورها الإحاطى فى (بكلظ) وانتهاء ظهورها فى «دسغ» وإنها ستظهر على غالب المعمور من وجه البسيطة ويقهرون من ناوأهم، وينتهى سير جنودهم إلى الجزيرة الكبرى يفتحها الله على يد (م و ح) من المدن

المنسوبة إلى معنى الإشارة، وتفتح (م) بالتسليم وأخرى (و) بهول عظيم وأخرى (ح) بحسب رحيم وأخرى برعب عميم».

(عن شرح شجرة لصدر الدين القنوى)

هذه المقالة العظيمة التى كتبها أرباب الإيمان بمحض الإلهام من الله ـ سبحانه وتعالى ـ والتى تتضمن إشارات معنوية مقتبسة من الحقائق الكونية، والتى تشير إلى الفتوحات.

وفى عام ٩٢٢هـ دخلت مصر فى حوزة التسخير، وتلقب سلطان العثمانيين بـ«خادم الحرمين» إلى غير ذلك أيضا مما يشير إلى نبوءات أهل الإيمان، بظهور أمير المؤمنين سلطان الموحدين الغازى عبد الحميد خان الثانى الذى تجلى العدل وعم فى عهد سلطنته. وبقطع النظر عن التبشيرات المعنوية للمقالة المذكورة؛ فإنه فى الوقت ذاته، لما كان تجديد قوة أساس بنيان هذه الدولة المهون بين الدول المتحفزة كان منوطا بالإرادة الجليلة للمولى عز وجل، ندعو الله أن يؤيد سلطاننا العادل، ويديم للخلافة سلطانا عادلا عاملا، فهو منذ يوم جلوسه المبارك على عرش الدولة وهو يعمل ليل نهار على إحياء مجد الدولة، وراحة رعاياها وذلك بجدية وإيثار، وغير هذا فآثار خليفة سيد المرسلين الذى يحمل لقب «خادم الحرمين» ظاهرة فى كل آن وزمان لعيون المسلمين، كما أن المجاورين والأهالى يسعدون بما ينعم عليهم من خيرات لا تعد ولا تحصى، كما أنه بذل الجهد وأنفق الأموال لتكون مكة المكرمة (شرفها الله تعالى إلى يوم القيامة) أجمل البلاد، بل تمتاز عليها جميعها وذلك تقديرا لمكانتها وقداستها، وكل هذه الأعمال ظاهرة لأعين الحجاج مما يعجز القلم عن تفصيلها وذكر مفرداتها، وخلاصة القول فهؤلاء الذين أدركوا عصر هذا السلطان الذى يصرف كل أفكاره العادلة ويوجهها

لتأييد أحكام الشريعة الغراء وتطبيقها وتأمين رفاهية الأهالى وسعادتهم وسعادة الخلق جميعا.

وها هو ذا محرر هذه الحروف أدرك عصر ذلك الخليفة الذى انتشر فيه عدله الملوكى، وأتم الجزء الأول من «مرآة الحرمين» وهو «مرآة مكة» وطبعه.

وإننى لأعتبر نفسى أسعد الناس من الناحية المادية والمعنوية إذا وفقت فى أن أعرض هذا الكتاب، وأن أضعه تحت الأنظار السلطانية وهذا شرف أقدمه على جميع أنواع المزايا الجليلة وقدمتها.

والسلام على من اتبع الهدى، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وآلهم أجمعين وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

* * *

تقديم ٧
هل كانت كلمة المرآة مقصودة من المؤلف؟ وماذا أراد بها ٩
أسباب تصنيف الموسوعة ٩
الكتاب المصنّف ١٠
سبب إطلاق أسماء «مكة» عليها ١٤
مرآة المدينة ٢٤
أسماء المدينة ٢٩
مرآة جزيرة العرب ٣٧
أحوال العرب قبل الإسلام ٣٩
عناصر مجلد مرآة جزيرة العرب ٥٢
مقدمة المصنِّف ٥٥

الوجهة الأولى

إفادة مخصوصة ٦٠
الخلاصة ٦٣
بيت الله (الكعبة) ٦٣
الملتزم ٦٤
المستجار ٦٤
الحجر الأسود ٦٤
داخل الكعبة ٦٥
حجر إسماعيل ٦٦
حفرة المعجن ٦٧
الشادروان ٦٧
الستارة الشريفة ٦٧

المطاف الشريف ٦٧
المنبر اللطيف ٦٩
المقامات الأربعة ٦٩
المقام الحنفى ٦٩
المقام الشافعى ٦٩
المقام الحنبلى ٦٩
قبة الفراشين ٧٠
قبة السقامية ٧٠
الصورة الأولى: التعريف بالأحوال الجغرافية للبلدة المعظمة مكة المكرمة.. إلخ ٧١
البلدة المعظمة مكة المكرمة ٧٢
إديان العرب فى الجاهلية ٧٧
أسماء مكة الله السامية ٨١
سبب إطلاق هذه الأسماء على الكعبة ٨٢
البلدة المرزوقة ٨٩
أسباب تلقيب بيت الله بالألقاب الجميلة ٩٣
أعلام قلاع الحرمين الشريفين ٩٧
استيلاء طائفة القرامطة على مكة ١٠٠
الصورة الثانية: فى ذكر وصف شكل وطراز بيوت مكة ومنازلها ودرجات الحرارة.. إلخ ١٠٢
الحسينية ١٠٤
وادى فاطمة ١٠٤
درجات الحرارة ١٠٦
فواكه وخضراوات مكة ١٠٩
أسباب ظهور الأمراض فى مكة ١١٤

نصائح لمن يذهبون إلى الحجاز ١١٧
الصورة الثالثة: لماذا أطلق على البيت المعظم الكعبة ١٢٢
طواف طائر بالبيت المعظم ١٢٧
طواف الجن بالبيت المعظم ١٢٨
الصورة الرابعة: التعريف بحدود كعبة الله ١٣٠
مقام إبراهيم ١٣٤
حدود حرم الله ومواقيت كعبة الله المكانية ١٤٤
أسماء الذين جددوا أميال المواقيت ١٤٨
الصورة الخامسة: إيجار واستئجار بيوت مكة ١٥٠
خلاصة مسألة إيجار بيوت مكة ١٥٥

الوجهة الثانية

فى تفاصيل بناء مكة وعمارتها ومن بناها وأسباب تجديدها
وتعميرها وإنقاص مساحتها وتوسيعها ١٥٧
الصورة الأولى: الأقوال التى ذكرت فى أوليات بناء مكة ١٥٧
الصورة الثانية: تفصيل وبيان كيفية بناء الكعبة ١٥٩
الصورة الثالثة: بناء الكعبة للمرة الثانية ١٦٣
أقوال الجمهور فى تعريف البيت المعمور ١٦٦
بشرى لمن طاف بكعبة الله ١٧٢
الصورة الرابعة: تجديد الكعبة للمرة الثالثة ١٧٤
الصورة الخامسة: بناء سيدنا إبراهيم للبيت وإقامة أولاد إسماعيل فى بلدة الله المقدسة ١٧٦
ترجمة حال سيدنا الخليل عليه السلام ١٧٧
هجرة سيدنا إبراهيم إلى مصر ٢٠١
سبب سفر الخليل عليه السلام إلى مكة وكيفيته ٢٠٦
كيف ظهر بئر زمزم ٢١٣

الغراب الأعصم ٢١٧
أسماء زمزم ٢٢٣
هجرة قبائل الجراهمة ٢٣٠
زواج إسماعيل وذهاب إبراهيم عليهما السلام إلى مكة ٢٣١
اختلاف العلماء فى مسألة الذبيح ٢٣٤
كيفية حدوث قصة الذبح ٢٣٦
فداء إسماعيل ٢٤٤
تكليف الخليل ببناء الكعبة ٢٤٨
مساحة كعبة الله وساحة البيت المعظم ٢٥١
انتقال حكومة مكة لبنى خزاعة ٢٦٧
الصورة السادسة: تجديد البيت العتيق للمرة الخامسة ونجاح العمالقة فى ذلك ٢٧٥
الصورة السابعة: طريق تجديد البيت فى المرة السادسة ٢٧٧
الصورة الثامنة: طريقة تجديد البيت فى المرة السابعة ٢٧٨
انتقال حكومة مكة إلى قصى بن كلاب ٢٧٩
الإجازة ٢٨٥
جاهلية العرب ٢٨٩
تأسيس مدينة مكة المعظمة ٢٩٣
قصى يجمع مناصب الجاهلية كلها ٢٩٥
الحجابة ٢٩٩
السقاية ٣٠١
الآبار الموجودة فى مكة المعظمة ٣٠٣
هل يجوز سحب السقابة من بنى العباس؟ ٣٠٥
اللواء ٢٠٦
الندوة (الاجتماع) ٣٠٧

السفارة ٣٠٧
النظارة ٣٠٨
صاحب القبة (ناصب الخيمة) ٣٠٨
التفاؤل وإجراء القرعة بالأزلام ٣٠٩
لعب القمار فى الجاهلية ٣١٢
خازن الآلات والأموال ٣١٣
القيادة ٣١٨
اختلاف قريش ٣١٨
الكهانة ٣٢٥
العرافة ٣٢٦
الزجر والطيرة ٣٢٦
الصورة التاسعة: كيفية بناء الكعبة للمرة الثامنة ٣٣٠
ظهور حية فوق الكعبة ٣٣٣
صورة الأنبياء وقصص مثيرة للعجب والحيرة ٣٣٨
دخول عبادة الأصنام إلى أرض الحجاز ٣٤٨
بدء ظهور عبادة الأصنام على وجه الأرض ٣٥٣
الكلمات المسموعة من أصنام أهل مكة ٣٥٨
ظهور طقوس الوثنية بين أحقاد إسماعيل ٣٧٣
أول من اعتنق عبادة الأصنام من بنى إسماعيل ٣٧٣
معلومات خاصة بالجن والشياطين ٣٨١
قصة الفيل ٣٩٩
معلومات خاصة فى صورة خلقة الفيل وكيفية العناية به ٤١٥
تعريف القليس الذى بناه أبرهة فى صنعاء ٤١٦
بيت أصنام بنى بغيض ٤١٨
هجوم ملك الروم بقصد تخريب الكعبة ٤١٩

الصورة العاشرة: فى تجديد مبانى الكعبة للمرة التاسعة ٤٢٣
خطبة عبد الله بن الزبير ٤٢٣
مشاورة ابن الزبير للأعيان والعظماء من أهل مكة ٤٢٨
الصورة الحادية عشرة: فى تجديد مبانى الكعبة للمرة العاشرة ٤٣٣
تعريف مراتب وألقاب الخلافة والسلطنة والمملكة إجمالاً ٤٤١
الصورة الثانية عشرة: تعمير أركان بيت الله وتشييده للمرة العاشرة ٤٤٥
الصورة الثالثة عشرة: تجديد بيت الله للمرة الحادية عشرة ٤٤٩
عين زبيدة ٤٥٤
إحدى كرامات بيت الله الحرام ٤٥٤
مكافأة رضوان أغا الذى أوكل إليه أمر تجديد البيت الحرام على جهده وإخلاصه ٤٨٣

(الجزء الثانى)

صورة التاريخ الذى تم فيه تجديد الحرم فى عهد السلطان مراد وذلك سنة ١٠٤٠هـ، وكيفية إتمام هذه الأعمال

صورة الخط السلطانى المقرونة بالسعادة تقديما المقابل ٤٩١
الخدمة المؤداة لمكة المكرمة ٥٠٠
فتاوى خاصة بإصلاح ما انهدم من بيت الله ٥٠٣
(الوجهة الثالثة) فى عدد مرات توسيع البيت ومن قام بذلك، وإرسال الصرر، والوقود، والقناديل والشموع إليهما ٥٢٦
الصورة الأولى: فى توسيع وتعديل الحرم الشريف لأول مرة ٥٢٧
الصورة الثانية: فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثانية ٥٤٥
الصورة الثالثة: فى توسيع حرم المسجد الحرام للمرة الثالثة ٥٤٧
الصورة الرابعة: فى توسيع المسجد الحرام وتزيينه للمرة الرابعة ٥٥١
الصورة الخامسة: فى شتى ضروب تعمير المسجد الحرام وتزيينه ٥٥٦
باب المعلَّى ٥٥٦

وقوع حريق فى الحرم الشريف للبيت العتيق ٥٦٢
تجديد المسجد الحرام ٥٦٣
إنهيار كمر المروة ٥٦٦
ألبسة ملوك الجراكسة المصريين ٥٦٧
إرسال الصرة إلى الحرمين ٥٧٧
المقدسات المباركة التى تحتوى عليها غرفة الأمانات الشريفة ٥٨٠
الميزاب الذهبى ٥٨١
كيفية توزيع وتقسيم الصرة المرسلة من السلطان سليم بن يا يزيد ٥٨٣
الغلال الواردة إلى الحرمين ٥٨٤
ترميم المقام الحنفى ٥٨٥
مقدار وقيمة الصرة المرسلة إلى الحرمين ٥٨٨
الصرة الخاصة بأهل مكة المكرمة ٥٨٨
الصرة الخاصة بأهل المدينة المنورة ٥٩٢
صورة العلم والخبر ٥٩٣
الرواتب العامة للصرة السلطانية ٥٩٥
ترتيب بدلات الشهادات ٥٩٨
الصحيفة الخاصة بمخ الطبقة الثانية ٦٠٢
صورة الأمر والقانون ٦٠٣
الرسالة السلطانية للشريف محمد بن عون أمير مكة ٦١٢
مقدار الوقود واللوازم الأخرى للحرم الشريف ٦١٣
ما يرسل من باب السعادة ٦١٤
ما يرسل من جانب الإدارة الخديوية ٦١٥
ما هو مقرر أن يرسل من الشام ٦١٥
مقدار الزيت المقرر للحجرة المعطرة وداخل الحرم الشريف وسائر
المساجد فى كل شهر ٦١٦

ما يبخر فى الحجرة السعيدة والحرم الشريف ٦١٧
ما يوقد بشمع العسل ٦١٨
الشمعدانات والثريات والقناديل ٦١٩
عين زبيدة ٦٢٢
آخر تعمير لها ٦٣٧
المدارس الأربعة التى أقامها السلطان سليم فى مكة وكيفية إدارتها ٦٤٤
الصورة السادسة: تجديد حرم المسجد الحرام فى عصر السلطان سليم ٦٤٦
صورة تاريخ سليس ٦٥٠
رؤيا عثمان باشا ٦٥٦
تاريخ المكتبة ٦٦٠
(الوجهة الرابعة) الهدايا والتزيينات وأصحاب المعلقات العتيقة والكساوى والقناديل، والأشخاص الذين أهدوا للحرمين، ومما يتكون المحمل الشريف ٦٦٣
الصورة الأولى: فى ذكر الذين قدموا الهدايا للكعبة الله وزينوها، والذين رمموها وعمروها عند الضرورة ٦٦٤
تاريخ تجديد الميزاب ٦٧٠
سبب تسميته بالميزاب الذهبى ٦٧٤
النقود الإسلامية ٦٧٨
المسكوكات العثمانية ٦٨٧
الدرهم الشرعى ٦٨٨
الصورة الثانية: من قدم إلى الكعبة المعلقات والستائر ٦٩٠
الصورة الثالثة: كيف عُلِّقت الكسوة على كعبة الله ومن الذين نالوا شرف كسوتها وكيفية الاحتفالات فى مختلف المناسبات ٦٩٨
محاصيل القرى السبع الموقوفة للكسوة الشريفة ٧١٢
صورة وقف الكسوة الشريفة ٧١٤
الأماكن التى تجدد كل خمسة عشر عامًا ٧١٩

موكب الكسوة الشريفة فى مصر ٧٢٤
صورة دخول المحمل الشريف مكة ٧٢٥
وصول الصرة إلى أرض الشام وخروجها منها ٧٣٠
صورة إجراء حفل موكب المحمل فى مصر ٧٣١
الصورة الرابعة: تقسيم كسوة الكعبة وبيانها ٧٣٤
وصف الستارة الشريفة ٧٣٦
(الوجهة الخامسة) فى أوضاع مبانى المسجد الحرام القديمة وأبوابها وأعمدتها وشرفها ٧٣٧
الصورة الأولى: فى تعريف وضع المسجد الحرام القديم ٧٣٨
الصورة الثانية: عدد أعمدة المسجد الحرام القديمة ٧٣٩
الصورة الثالثة: عدد شرفات المسجد الحرام القديمة ٧٤٢
الصورة الرابعة: عدد أبواب المسجد الحرام القديمة ٧٤٣
(الوجهة السادسة) قباب المسجد الحرام الجديدة وهيئتها وعددها وشكلها، وبيان ذلك
الصورة الأولى: ما حدث للمسجد الحرام بعد تجديده ٧٤٥
الصورة الثانية: عدد قبب المسجد الحرام ٧٤٦
الصورة الثالثة: عدد شرفات المسجد الحرام ٧٤٧
الصورة الرابعة: فى بيان ما مضى ذكر من أبواب المسجد وجهاتها وعدد شرفات المسجد وأبوابه ٧٤٨
الأبواب الشرقية: (السلام - باب النبى - باب العباس - باب على) ٧٤٨
الأبواب الجنوبية: (باب بازان، باب البغلة، باب الصفا، باب جياد باب مجاهد، باب مدرسة الشريف عجلان، باب أم هانئ) ٧٤٩
الأبواب الغربية: (باب حزورة، باب إبراهيم، باب العمرة) ٧٥١
الأبواب الشمالية: (باب السدة، العجلة، القطبى، دار الندوة، باب الدريبة) ٧٥٣

الصورة الخامسة: مآذن المسجد الحرام وعددها ومآذن مكه وأماكن
وجودها ٧٥٥
الأوراد التى تُقرأ فى المآذن ٧٥٧
الصورة السادسة: مساحات المسجد الحرام فى الداخل والخارج وخريطة
مسطحة لها ٧٧٤
**(الوجهة السابعة) فى تعريف الأماكن المقدسة والمساجد القديمة والمواضع
الأخرى، وأوقات استجابة الدعاء** ٧٨٣
الصورة الأولى: الأماكن المقدسة والمواقع الميمونة ٧٨٤
الأثر الأول: المطاف الشريف ٧٨٧
مسائل مهمة ٧٨٨
مواقع وعدد القناديل التى كانت توقد فى مواسم الحج ٧٩٠
سبب بناء الحطيم وتاريخ تأسيسه ٧٩١
أئمة وخطباء الحرم الشريف ٧٩٥
خدمة المسجد الحرام ٧٩٦
علم أصول الفقه وعلم الفقه ٧٩٩
فضائل الحطيم ٨٠٥
الأثر الثانى: المستجار ٨٠٦
الأثر الثالث: الملتزم ٨٠٦
الأثر الرابع: تحت الميزاب ٨٠٧
الأثر الخامس: حفرة المعجن ٨٠٨
الأثر السادس: مقام إبراهيم ٨٠٩
الأثر السابع: داخل البيت المعظم ٨١٥
سلم بيت الله ٨١٨
مسألة الصلاة داخل الكعبة ٨٢٠
الأثر الثامن: قرب بئر زمزم ٨٢١

تطهير بئر زمزم ٨٢٥
مساحة بيت الله ٨٢٨
فوق بئر زمزم ٨٣٠
الأثر التاسع: ما خلف مقام إبراهيم ٨٣١
المنبر الشريف ٨٣٢
الأثر العاشر: الصفا ٨٣٢
الأثر الحادى عشر: المروة ٨٣٤
الميلان الأخضران ٨٣٥
الأثر الثانى عشر: المسعى ٨٣٦
الأثر الثالث عشر: الحجر الأسود ٨٤٠
معلومات عن الحجر الأسود ٨٤٣
عجيبة ٨٤٥
نقل الحجر الأسود إلى بلاد هجر ٨٤٦
إعادة الحجر الأسود إلى مكة المكرمة ٨٤٩
مظالم القرامطة الخبثاء ٨٥٠
كيفية ظهور طائفة القرامطة ٨٥٧
سبب تسميتهم بالقرامطة ٨٥٨
مذهب القرامطة وطقوسهم ٨٥٩
هيئة شورى العلماء ٨٦١
الأثر الرابع عشر: باب الجرير (باب القفص) ٨٦٤
الأثر الخامس عشر: بيت خديجة الكبرى ٨٦٤
الأثر السادس عشر: مولد النبى ٨٦٦
الأثر السابع عشر: سوق الليل ٨٦٨
الأثر الثامن عشر: دار الخيزران ٨٦٨
دار الأرقم ٨٦٩

صخرة المحتبى ٨٦٩

الأثر التاسع عشر: الحجر المتكلم ٨٧٠

الأثر العشرون: حجر المتكأ ٨٧٠

الأثر الحادى والعشرون: دار العباس ٨٧١

الأثر الثانى والعشرون: رباط الموفق ٨٧١

الأثر الثالث والعشرون: منى ٨٧١

صورة الخط السلطانى (الكتاب) المتضمن أمورًا خاصة باستحقاقات أهالى الحرمين ٨٧٢

الأثر الرابع والعشرون: الجمرات الثلاث ٨٧٦

الصورة الثانية فى ذكر المساجد المأثورة فى مكة المكرمة ٨٨١

الأثر السادس والعشرون: مسجد ذى طوى ٨٨١

الأثر السابع والعشرون: مسجد التنعيم ٨٨٢

الأثر الثامن والعشرون: صهاريج سنان باشا ٨٨٢

الأثر التاسع والعشرون: مسجد الجن ٨٨٥

الأثر الثلاثون: مسجد الراية ٨٨٨

الأثر الحادى والثلاثون: مسجد المدعا ٨٨٨

الأثر الثانى والثلاثون: مسجد البيعة ٨٨٩

الأثر الثالث والثلاثون: مسجد النحر ٨٩١

الأثر الرابع والثلاثون: مسجد الخيف ٨٩١

الأثر الخامس والثلاثون: مسجد الكبش ٨٩٣

الأثر السادس والثلاثون: مسجد المرسلات ٨٩٤

الأثر السابع والثلاثون: مسجد إبراهيم ٨٩٥

الأثر الثامن والثلاثون: مسجد المشعر ٨٩٦

المزدلفة ٨٩٦

المأزمين ٨٩٦